ABU ABDO ALBAGL

مذكرات أكرم الحوراني

مدونة أبو عبدو

الناشر: مكتبة مدبولي

مقدمة

ترددت كثيرا بين أن أبدأ بتدوين مذكراتي منذ عهد الطفولة أم أبدأ منذ عام 1936 حيث شرعت أخطو مع الأحداث محاولا - ولو ضمن حدود - أن أوثر فيها وأن أشارك في ما يحيطني به وسطي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والوطني من آثار وأفكار وعواطف.

كنت أسأل نفسي :

ماذا يعني الناس من معرفة أصلي وفصلي ونشأتي وسيرتي ؟

أليس من الغرور أن تشغل طفولتي ومراهقتي وشبابي صفحات عديدة من هذه المذكرات؟ وإذا كان في ذلك بعض الفائدة أفليس صعبا على النفس أن يطرح أحدنا خصوصياته أمام الناس؟ هل من السهل أن يتعرى أحدنا أمام القراء؟ وإذا كان هدف الكتابة إغناء القاريء بتجارب الكاتب فهل كانت لدي تجارب تستحق العرض والتدوين قبل عام 1936؟

أخيرا قررت أن أبدأ بكتابة سيرتي الذاتية منذ نشأتي، فليس ذلك غرورا ما دمت سأتحدث عما كنت أشعر به في فترة الطفولة والمراهقة والشباب من انفعالات وما أتلقاه من أفكار ومؤثرات، وما كونته لدي الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقومية على نحو خاص، فهذه الأفعال والمؤثرات التي كنت أواجهها في وسطي الاجتماعي وردود فعلها في نفسي وفكري، تخرج -بلا شك- عن صفتها الذاتية في كثير من الأحيان لأنها الأفعال والمؤثرات وردود الفعل والأحاسيس والأفكار التي كونت جيلنا الذي عاشها ورافقها ثم أثر بها ووجهها فيما بعد، وإن لكل رؤية أو تقييم أو فكر أو عقيدة أو فعل ورد فعل خلفيات عميقة اجتماعية واقتصادية وتاريخية موروثة.

بهذا الاعتبار أقدم الصفحات التالية التي تبدأ منذ نشأتي.

إنها صفحات ليس فيها ذلك التسلسل المتصل المستمر الذي يعنى بالتفاصيل والدقائق، ولكنها وقفات عند الأحداث التي أثرت في مجرى حياتي والتي ما تزال مطبوعة حتى الآن في ذاكرتي.

1

من ذكريات الطفولة

ولدت في سنة الثلجة الصغرى

كنت أسمع من والدتي، وأنا طفل، بأنني ولدت في سنة "الثلجة الصغرى" ، ويظهر أن سوريا تعرضت لشتائين مثلجين بشكل غير مألوف، تفصل بينهما سنوات قليلة، فدعتهما الأوساط الشعبية باسم الثلجة الصغرى والثلجة الكبرى، واتخذت منهما تأريخا لمواليد هذين العامين، وكانوا يتحدثون عن الثلجة الكبرى بأن تهطال الثلج فيها استمر أربعين يوما حتى وصل إلى مستوى أسطحة المنازل، فكانوا في صبيحة كل يوم يضطرون لجرف الثلوج عن أبواب البيوت، ويقال أن تلك السنة كانت سنة فيضانات قضي فيها على المواشي والحيوانات قضاء مبرما، وراح ضحيتها عدد كبير من البدو والفلاحين.

على أن تحديد تاريخ ولادتي ظل مشكلة بالنسبة إلي، وإن كان أهلي قد قرروا أنني من مواليد سنة 1912، فإن تحديد اليوم والشهر ظل أمرا غامضا إلى أن أتيح لي، عند تدوين هذه المذكرات في سنة 1972، أن أعرف على وجه التحديد تاريخ ولادتي باليوم والشهر والسنة، وقد أدى جهلي تاريخ ولادتي إلى بعض المشاكل والمفارقات التي تعرضت لها في كثير من المناسبات مما سيرد ذكره في حينه.

حاربوا مرتين وانتصروا مرتين :

كان أبي معجبا بأبي الفداء ملك حماه الأيوبي الشهير "عماد الدين إسماعيل ابو الفداء بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر من الأسرة الأيوبية الذي كان عالما بالفقه والطب والحكمة والتاريخ والهيئة والجغرافيا وله مؤلفات عديدة أهمها تقويم البلدان وتاريخ أبي الفداء".

وكانت مصر وبلاد الشام قد تفتتت بعد وفاة البطل صلاح الدين الأيوبي إلى ممالك صغيرة يحكم كلا منها ملك أيوبي، وكان بعض هؤلاء الملوك يعمل لإعادة بناء الوحدة المصرية الشامية، وبعضهم يحارب للمحافظة على مملكته الاقليمية الضيقة، والملاحظ أن ملوك حماه من الأيوبيين، ومنهم ابو الفداء، كانوا جميعا من العاملين لإعادة بناء الوحدة التي كانت قائمة أيام جدهم صلاح الدين، كما أن حملات الصليبيين التي كانت توجه في أيامهم إلى حماة لم تكن لتدخل المدينة قط[1] ... وربما كان تعلق أبناء حماه بالملك أبي الفداء واعتزازهم به يرجع عفويا الى هذه الناحية المشرفة، كما أنه عندما قامت ضجة عالمية يوم وصول أول رائد بشري الى سطح القمر عادت الأضواء في الأوساط

(1) "وفي سنة 599 قصد الفرنج حماه من حصن الأكراد وطرابلس وغيرهما فتلقاهم الملك المنصور في بعرين، وهي قرية تقع الى الجنوب الغربي من حماه ولا تزال قائمة، وأنجده ملك بعلبك وملك حمص، وهناك اشتعلت نيران الحرب وامتدت إلى أراضي بعرين في زمن شهر الصوم فوقعت الهزيمة على الفرنج بعدما تركوا قتلى وأسرى لا تعد، فعاد ملك الديار الحموية ظافرا... ثم إن الفرنج لموا شعثهم وعادوا بقوة هائلة للحرب، وكان الملك المنصور لم يرحل من بعرين، وكان عودهم بعد ثمانية أيام من هزيمتهم، فجدد المنصور الحرب وحمي وطيسها، فانكشف الفرنج منهزمين شر هزيمة بعد ترك قتلى وأسرى ... ثم إن الفرنج لما لم يقدروا على بعرين تركوها - وملك حماه فيها - وساروا قاصدين حماة، فبلغ الحمويين الخبر فاستعدوا للقاهم. فلم يشعروا الا والفرنج قد وصلوا لقرية الرقيطاء - إحدى ضواحي حماه الغربية حاليا - ونهبوا المواشي والقافلة والقرى وقبضوا على شهاب الدين البلاعي محافظ بر حماه فأخذوه أسيرا، ولما وجدوا أن أبواب سور حماه أغلقت في وجوههم تركوها وعادوا بالأسير والغنائم" (تاريخ حماه، مطبعة حماة ، سنة 1334، تأليف الشيخ أحمد الصابوني، ص 27).

إن الصليبيين عندما وصلوا إلى الرقيطاء ذاقوا الأمرين في معركة ضارية قامت بينهم وبين أبناء المدينة عند مدخل سورها الجنوبي، وإن من يزور حماه اليوم، قادما من حمص، فإنه يرى عند مدخل المدينة تلا شهيرا باسم تل الشهداء، فيه دارت رحى المعركة مع الصليبيين، وفيه دفن الحمويون شهداءهم ... ومن أغرب مصادفات التاريخ أن هذه المعركة تكررت بعد مئات السنين في الموقع نفسه وبين الطرفين نفسيهما في عام 1945، فعلى تل الشهداء دارت المعركة الضارية التي كسر فيها الحمويون حملة فرنسية جاءت لاخماد ثورة 1945، مما سترد تفاصيله في حينه. إن موتى تل الشهداء حاربوا مرتين وانتصروا مرتين .

العلمية لتسلط على اسم أبي الفداء، فقد كان فلكيا مبرزا في "علم الهيئة"، وعلى خريطة سطح القمر منطقة معروفة باسمه.

كان أبي يحتفظ باعتزاز بكتب أبي الفداء، ومنها كتاب "تاريخ أبي الفداء" المشهور، وكان لشدة إعجابه به قد سمى أخا لي باسمه، وقد توفي قبل ولادتي، وبعدما كبرت رجعت الى الجزء الأول من تاريخ أبي الفداء فوجدت على صفحته الأولى، بخط والدي ما يلي :

وهذا التاريخ يقابل يوم السبت الرابع من تشرين الثاني عام 1911، وقد كان تركيب اسمي من حسن اكرم يسبب لي كثيرا من المشاكل ولا سيما في الانتخابات عندما كان المقترعون يحذفون اسم حسن ويتركون اسم أكرم في القوائم الانتخابية المطبوعة.

أما كلمة رفاعي فسببها انتساب اسرتنا إلى أحمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية والمنسوب إلى الحسين بن علي.

يا حوراني يا أكحل

كان أول جد لعائلتي في حماه هو عثمان الحوراني من عائلة الحلقي من بلدة جاسم في حوران، وقد بنى زاوية في حي الحوارنة في حماه لممارسة الطريقة الرفاعية، ثم دفن فيها ولا

تزال هذه الزاوية[2] والمسجد والغرف والأقبية الملحقة بها موجودة في هذا الحي الذي سمي باسم جدي، ولا يزال تاريخ وفاته منقوشا على شاهدة قبره المغطى بتابوت مهيب حيث كان الأهلون يتبركون به وهم يقولون بخشوع: "يا حوراني يا أكحل". وكان بعض النسوة يأخذن مزقا صغيرة من القماش الأخضر الذي يغطي التابوت للتبرك به واتخاذه تعويذة ضد الشرور والأمراض.

وقد جاء في كتاب تاريخ حماه للشيخ أحمد الصابوني أن "الشيخ عثمان بن الشيخ صالح بن الشيخ حسن الحوراني الرفاعي جاء من حوران سائحا، فسكن في حماه وصار له تلامذة يأخذون عليه الطريقة الرفاعية، ثم توفي ودفن في زاويته المعروفة، وخلفه ابنه أبو الوفا السيد علي، وكان السيد علي مفتيا في حماه، فاضلا عالما مهابا كريما، يسكن في محلة سوق الشجرة. انتفع بعلمه كثيرون، وتوفي سنة 1085 هجرية ". ولا يزال موجودا لدينا في حماه تسلسل النسب الذي كان يحتفظ به والدي ولا نزال نحتفظ به. توفي والدي في عام 1915، في السنة الأولى بعد قيام الحرب العالمية، ودفن في "زاوية الحوراني"، وكان جدي قد توفي قبله بعام واحد، ورغم صغر سني في تلك الأيام فإنني لا أزال أذكر يوم وفاة جدي الذي كنت أحبه كثيرا لأنه كان يحملني على يده إلى دكان قريب ليشتري لي الحلوى، فطبعت هيئته ويوم وفاته في ذاكرتي انطباعا لا يمحى، كما أنني أتذكر يوم مرض والدي ووفاته. وقد قيل لي فيما بعد أنه مات مصابا بالكوليرا إثر انتشارها بعد قيام الحرب وهجرة الأرمن مشيا على الأقدام من أرمينيا إلى سوريا، ولا أزال أتذكر كيف كان الأرمن يتساقطون موتى على الطرقات، فتحمل جثثهم بالطنابر من (خان أبو بكري) القريب من منزلنا إلى (كرم الحوراني) الواقع في حينا حيث يدفنون في أبار قديمة مهجورة، وقد أخبرتني أمي بأن والدي كان شديد التأثر من بؤسهم، فكان يزورهم ويوزع عليهم الخبز في خان أبو بكري فأصيب منهم بعدوى الكوليرا.

(2) جرى نسف تلك الزاوية خلال قصف دور حماه ومساجدها أثناء مذبحة حماه في شهر شباط من عام 1982.

إنني لا أزال أذكر الغرفة في منزلنا التي كان يجري فيها تمريضه، وزيارات الدكتور عبد الرحمن الكيالي لعيادته في تلك الغرفة. كان الدكتور الكيالي - الذي أصبح من رؤساء الحزب الوطني فيما بعد- طبيبا شابا في الجيش العثماني، يحمل كرباجا صغيرا يلفت نظري، وكان شديد الاهتمام بوالدي نظرا لصلة النسب التي كانت أقوى رابطة اجتماعية في ذلك الزمان.

ولم يطل المرض بوالدي، وقد نقلني أهلي يوم وفاته إلى بيت جارنا أبي أحمد الصيرفي المقابل لبيتنا، وكنت أشاهد أمينة، إحدى فتيات المنزل، وهي تطل من الشباك باكية، فسألتها عن سبب بكائها فقالت لي: إن رجلا فاضلا فقدته المدينة... فتقدمت من النافذة ورأيت عددا كبيرا من النساء وهن يندبن، وعددا كبيرا من الرجال يحملون النعش من بيتنا.

وحين رجعت إلى البيت بعد أيام لاحظت جوا من الحزن والأسى يخيم على والدتي وإخوتي وشقيقاتي وأعمامي فعرفت أن والدي قد توفي، ولكنني لم أدرك معنى الوفاة. غير أنني حزنت كثيرا حين لاحظت أن "الدرة الخضراء" قد صمتت وكان أحد أصدقاء والدي قد أهداه هذه الدرة الجميلة، فكنا نكلمها ونعجب بها وبفطنتها عندما تقلد كلامنا، والظاهر أن العويل والبكاء وجو الحزن قد صدم ذلك الطائر الجميل فلم يعد يتكلم أبدا، وامتنع عن تناول الحبوب، ثم اعتل رغم العناية الشديدة به ومات.

صرنا بعد ذلك نزور قبر الوالد في المناسبات المعروفة، وكان مدفونا في زاوية الحوراني قرب أحد التوابيت الكبيرة الخضراء التي تجلل قبور الأجداد، وفي جانب من فناء الزاوية، خارج ذلك القبر الكبير، كانت توجد قبور عدد من آل العظم وآل طيفور وغيرهم من الأسر الحموية التي كانت تدفن موتاها في زاوية الحوراني تبركا، وإلى جانب هذا القبو حرم كبير يصلي فيه أبناء الحي، وفي الجانب الآخر من الفناء عدة غرف غير مكتملة البناء.

شيدت "الزاوية" في موقع جميل بحي الحوارنة يطل على المدينة ويشرف على عاصيها المتعرج وبساتينها الجميلة

الخضراء، وقد حدثني عمي بأن الناس كانوا يعتقدون بأن ربط المجانين بتوابيت زاوية الحوراني يشفيهم من أمراضهم العقلية، وذات مرة ربطوا بأحد التوابيت مجنونا قويا بدينا، وقبل طلوع الفجر عندما بدأ أبناء الحي يتوافدون إلى مسجد الزاوية لصلاة الصبح، رأوا التابوت الأخضر يسير ثم يخرج من باب الزاوية، فذعروا وهربوا وهم يصرخون بأن الحوراني قد خرج من القبر، ثم ظهر لهم أن ذلك المجنون قد حمل التابوت على رأسه وخرج به بعد أن ضايقه أسره الطويل.

لماذا لم ينجح أبي في الانتخابات ؟

ورث جدي المباشر محيي الدين الحوراني أرباعا في منطقة العشر، في ضواحي حماه الغربية، وكانت المنطقة ملكا للأسر القديمة العريقة في المدينة، فكان جدي يعيش من نتاج "الريع" الزراعي، ومن بيع الأراضي لبناء المساكن، وكان هو وآباؤه مستوري الحال.

توفيت جدتي عندما كان والدي في سن المراهقة، فتزوج جدي مرة أخرى وأنجب أعمامي من زوجته الثانية، وكانت صناعة الحياكة والنسيج وطباعة المنسوجات صناعة مزدهرة في حماه، ولها شهرة عالية خصوصا صناعة الشراشف والمناشف والمنسوجات الحريرية الراقية، فكانت حماه تصدر منسوجاتها إلى الأناضول، وبعد وفاة جدتي اشتغل والدي بصناعة النسيج، وقد روت لي والدتي بأنه عندما كبر وأصبح وجيها مرموقا وملاكا كبيرا راح خصومه يعيرونه بأنه كان حائكا فقام في إحدى زياراته لهم ولمس بيده ستارة من صنعه وقال لأصحاب المنزل: "إن صنعتي كانت متقنة وعملي كان مستقيما".

كان والدي عصاميا مجدا أتقن اللغة العربية والتركية وخلف مكتبة كبيرة تحوي مختلف علوم اللغة والأدب والتاريخ والمنطق والطب، وقد قرأت فيما بعد بعض الشروح والتعليقات على هوامش تلك الكتب بخطه الجميل.

عمل أبي أيضا بالتجارة فتملك عن طريق الشراء من عائلة طيفور حصصا في بعض قرى حماه الغربية، كما اشترى ثلاثة أرباع قرية البياضية وبنى في حماه منزلا كان يعتبر في ذلك الوقت من البيوت الجميلة والكبيرة في المدينة.

عين في شبابه مأمورا للنفوس، ثم أصبح عضوا في مجلس الإدارة - وهو بمثابة مجلس المحافظة الآن - ثم رشح نفسه لمجلس "المبعوثان" وكانت حماه وحمص منطقة انتخابية واحدة وكان خصمه في تلك المعركة الشيخ عبد القادر الكيلاني، فأخفق في الانتخابات لأن أسرة الأتاسي النافذة في حمص ساعدت الشيخ عبد القادر الكيلاني ووجهت إليه نفوذها الانتخابي، ولم تجد والدي مساعدة أنسبائه في حمص من العائلات الشعبية كعائلة الرفاعي والجندلي.

خلفية الأوضاع الاجتماعية بحماه في أواخر العهد التركي:

كان آل العظم وآل الكيلاني اسرتين معتبرتين من "الذوات" أي الأعيان والوجهاء، فآل العظم كانوا لفترة كبيرة خلال العهد التركي ولاة لمدينة حماه وغيرها من المدن السورية، وقد بنوا في حماة قصر العظم الأثري المعروف، كما تملكوا الملكيات الواسعة في حماه وريفها، وكان نفوذهم السياسي في حماه ودمشق، أما أسرة الكيلاني فبالإضافة إلى نفوذها السياسي في مدينة حماه وإلى كثرة عدد أفرادها واتساع ملكياتها فقد كانت تعتز بانتسابها إلى عبد القادر الكيلاني، ولم يقتصر نفوذ العائلة الكيلانية على مدينة حماه بل كان امتداد نفوذها على مستوى العالم العربي (عائلة الكيلاني في بغداد) وعلى مستوى العالم الاسلامي حيث كانت تمثل الطريقة الصوفية الكيلانية لعبد القادر الكيلاني المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان آل العظم وآل الكيلاني يعتبرون عائلة البرازي من "أهل برا" أي أنهم من الطارئين على مدينة حماه لذلك كان خالد البرازي والد محسن البرازي على علاقة وثيقة مع طبقة التجار وبعض رجال الدين وكان يحظى بتأييدهم السياسي هذا في

الوقت الذي كانت فيه قيادة الحركة الشعبية التقدمية بيد فريق من العلماء "رجال الدين" أمثال الشيخ عبد القادر عدي، والد رفيقنا الاستاذ علي عدي، والشيخ حسن رزق، والشيخ أحمد الصابوني والشيخ سعيد الجابي الذي حارب الافكار الدينية الخرافية، بالاضافة إلى الشباب المثقف الذي بدأ يتخرج من الجامعات أمثال الشهيد علي الأرمنازي والشهيد الدكتور صالح قنباز والدكتور توفيق الشيشكلي والدكتور خالد الخطيب.

وكان نشوء الحركة الشعبية نتيجة طبيعية لنشاط الحركة التجارية أوائل القرن العشرين بين حماه والاناضول، كما نشطت فيها الحركة الصناعية ولا سيما صناعة الغزل والنسيج، وقد أفرز هذا التطور الصناعي والتجاري طبقة بورجوازية من الصناعيين والتجار، كما أفرز طبقة عمالية بدأت تنتظم شيئا فشيئا ضمن نقابات مهنية ولا سيما في العهد الفيصلي وبعد الاحتلال الفرنسي.

كان يقود تلك الحركة الشعبية التجار ورجال الدين المتنورون والمثقفون الذين تخرجوا من جامعات الآستانة والذين لهم تطلعاتهم القومية العربية التحررية وتطلعاتهم الشعبية ضد نفوذ العائلات الاقطاعية في مدينة حماه، وقد انضم والدي إلى هذه الحركة بالرغم من أنه كان من كبار الملاكين في حماه، فكان من أبرز قياداتها، وهذه هي المرحلة الأولى من نشوء الحركة الشعبية التي نمت وتعاظمت بعد الاحتلال الفرنسي حيث أصبحت حركة شعبية وطنية واستقلالية ضد الاحتلال وضد الطبقة الاقطاعية المتحالفة معه.

كان الشيخ حسن رزق صديقا لوالدي، ولا زلنا نحتفظ باللوحة التي كتبها بخط يده الجميل وشعره البديع يهنئه فيها بولادة أخي الأكبر محيي الدين، على الطريقة القديمة في حساب تاريخ الولادة بالأحرف الأبجدية، وقد اطلعت على اعداد جريدة "الانسانية" التي كان يصدرها في حماه قبل الحرب العالمية الأولى. ولا زلت مندهشا لمستوى تلك المقالات التي كان يكتبها بفكر ديمقراطي تقدمي إنساني.

بدأت مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ولا سيما بعد إعلان الدستور العثماني عام 1909، تفعل فعلها في جميع أرجاء الوطن العربي، على أيدي تلاميذها، ولا شك أن شيوخ النهضة في سوريا كانوا من تلاميذ هذه المدرسة التي تاثر بها الشيخ حسن رزق، وتجاوزها بتفكيره العقلاني نتيجة دراساته لأبي العلاء المعري[3] وابن خلدون وغيرهما من المفكرين العرب، وبالرغم مما كان يخيم على حماه من تأخر وجهل آنذاك فقد كان لأبي العلاء وجود ثقافي قوي حتى في الأوساط الشعبية التي كانت تسمع أشعاره وترويها معجبة بذكائه مشفقة من كفره وإلحاده. وكان عمي ياسين، وهو شبه أمي، يحفظ مع رفاقه نتفا من شعر أبي العلاء ويرويها معجبا بها مستغفرا لقائلها.

كان والدي على صلات وثيقة مع العلماء والمثقفين والتجار، ولا سيما الشيخ عبدالقادر عدي. فلقد كان وإياه أخوين لا يفترقان، وقد حدثتني والدتي بأن الشهيد علي الأرمنازي[4] كان يجتمع إلى والدي باستمرار اجتماعات سرية. وأن والدي كان على اتصال

(3) رجعت أثناء تدوين هذه المذكرات إلى عدد مجلة الانسانية الصادر بتاريخ 15 نيسان 1911 في مجلد السنة الثانية، وقد خرج متوجا بقصيدة للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي يعارض فيها قصيدة أبي العلاء" غير مجد في ملتي واعتقداي"... والمقالة الثانية بعنوان "كيف تنتشر المباديء" يرد فيها الشيخ حسن رزق على كاتب فاضل" يقترح نشر المباديء بتضحية بعض المباديء لاحياء بعضها الآخر، والحرص على نشر المباديء بين أرباب النفوذ والثراء وليس بين العامة" فيقول في رده: "إن الصبر على تضحية شيء من المباديء بالطوع والاختيار ليس بالأمر السهل ولا يستطيعه كل انسان، لأن الأمور التي نسميها مباديء هي في الحقيقة ملكات راسخة ... وإنني أرى أن نشر المباديء بين الطبقتين الدنيا والوسطى أغزر نفعا وأكثر فائدة من نشرها بين المتنفذين إذا كانوا جهلاء لأن العامة هم أسلس قيادا وأنقى قلوبا وأسهل قبولا والين عريكة. ولم تزل بهم بقايا الفطرة السليمة وهم السواد الأعظم. فمتى انتشرت تلك المباديء بينهم كانوا لها حرزا حريزا وحصنا حصينا يستقبلون الموت بنفوس باسمة في سبيل الدفاع عنها والذود عن حياضها لأنهم أقل تمسكا بالحياة من أولئك الذين يتمتعون بلذة الثراء والسيطرة، ولا يزال السواد الأعظم هو القوة الغالبة في جميع الأمور".

وفي المجلة مقالات جيدة عن "تعليم البنات" والدعوة له، والتبشير بالتطور والنشوء والارتقاء وعرض للنظريات الحديثة بصدد تكون الأرض ومن المؤسف أن مجلد السنة الثانية من هذه المجلة قد نهبته خلال الحرب الأهلية اللبنانية جماعة كمال شاتيلا من بيتي في بيروت مع غيره من مجموعات الصحف النادرة، مع مجموعتين من محاضر مجلس النواب السوري تخص احداها المرحوم خليل كلاس وتخص الاخرى النائب فؤاد قدري، وقد ذهبت زوجتي خصيصا من العراق الى لبنان وحاولت عبثا استرجاع المكتبة بالاتصال مع شاتيلا وعاصم قانصوه مسؤول حزب البعث في لبنان ورئيس الوزراء سليم الحص، وعندما اتصلت بالمخابرات السورية في لبنان تبين لها أن هذه المخابرات على علم بتفاصيل المنهوبات وقد أعاد شاتيلا بعد مساع عديدة قليلا جدا من المنهوبات مما ليس له أي قيمة.

(4) علي الأرمنازي: ولد في حماه من أسرة شعبية عرفت بالورع في الدين، تعلم في الاستانة وانتسب للجمعيات العربية السرية، وقد أعدمه جمال باشا مع رفاقه الشهداء في 6 أيار 1916.

بالجمعيات العربية السرية (العربية الفتاة) وأنه كان يكره الاتحاديين ويرتاب بحسن نواياهم نحو العرب، وكانت تقدر أنه لو لم تعاجله الوفاة لأمر جمال باشا باعتقاله ولكان في عداد من سجنوا أو نفوا أو حكم عليهم بالاعدام.

في مدرسة ترقي الوطن :

كنت صغيرا جدا عندما ذهبت إلى المدرسة لأول مرة، ولكنني لا أزال أذكر بوضوح أنها كانت تقع بجوار بيت جدي لأمي الحاج خالد السهيان، كانت مدرسة ممتازة لا تقل في مستواها عن مدارس هذه الأيام وكان اسمها مدرسة ترقي الوطن[5] . وقد أحببتها كثيرا، ولكن لم يطل دوامي فيها لتعذر عناية المدرسة بي نظرا لصغر سني، فتركتها وبقي فيها أخواي الكبيران واصل وعبد الحليم.

أيام كئيبة عند الشيخة :

لم يكن في حماه في أواخر العهد العثماني سوى مدرسة إعدادية واحدة لا تتجاوز صفوفها الصف السابع إلى جانب مدرسة أو مدرستين ابتدائيتين لم تكونا تقبلان من الأطفال من هم في مثل سني، ولم يكن ثمة رياض للأطفال فأرسلني أهلي إلى كتاب "الشيخة أم نايف" القريب من منزلنا لأتعلم القرآن، ولا تزال صورة ذلك الكتاب الكئيب المقيت ماثلة في ذهني، فقد كنت أحشر مع عشرات الأطفال الصغار في غرفة ضيقة جالسين على الحصير ومع كل منا كيسه القماشي الصغير الذي يضم طعام الغداء وجزء عم.

كان أهلنا يتصورون أن الشيخة أم نايف تعلمنا القرآن بعصاها وقسوتها وإرهابها، على أنها رحمها الله كانت فوق كل

(5) زودني الاستاذ أحمد الوتار بالمعلومات التالية عن مدرسة ترقي الوطن:
قام جماعة من أهل الخير في حماه بتأسيس مدرسة أهلية فيها وتبرعوا لها وذلك بعد اعلان الحرية والدستور العثماني عام 1909 وسميت (ترقي الوطن)، وقد قام بادارتها أول الأمر أحد شباب بيروت السيد (نجيب بليق) نحوا من سنتين ثم عين الشيخ طاهر النعسان مديرا لها حتى اعلان الحرب العالمية الأولى عام 1914 حيث دعي هو وأكثر اساتذتها الى خدمة العلم حينذاك فضعفت المدرسة تدريجيا وقد تولى ادارتها بعض شباب حماه تطوعا حتى اغلقت نهائيا عام 1917م تقريبا.

ذلك تشغلنا بتنقية حبوب الحمص لأن زوجها كان حمصانيا .. لذلك كنت أكره الشيخة وأكره الذهاب إليها لكن أهلي كانوا يرغموننني على المواظبة، وكثيرا ما كان الناس الجياع يخطفون كيسي وما فيه من طعام وأنا في طريقي إلى الشيخة، فقد كانت المجاعة تجتاح المدينة خلال الحرب العالمية الأولى، ولا أزال أذكر أنني شاهدت في الطريق امرأة تقطع اللحم من جيفة متفسخة وحولها أطفالها الصغار يتضورون جوعا ويبكون.

كانت هذه المناظر مألوفة، كما كان موت الناس على الطرقات من الجوع والمرض أمرا عاديا، حيث كانت الجثث تجمع "بالطنابر" وتنقل إلى ظاهر المدينة ليدفن العشرات في قبر واحد، وكان طرق أبواب المنازل وصراخ الشحاذين: "جوعانين ... من مال الله" لا ينقطع لا ليلا ولا نهارا.

كان الجوع والتيفوئيد والكوليرا والجدري منجلا يحصد الناس، وكانت أعشاب البرية في الربيع مرعى للناس والبهائم معا، وكانت الدولة توزع الخبز في خان تسميه (المطعم) ويسميه الفقراء الجائعون (المطعن) لأنه كان مباءة لانتشار الأمراض، بالإضافة إلى أن التوزيع كان نذرا يسيرا، وبالرجاء والالتماس (أي الواسطة)، ولا أتصور بأن تعداد سكان حماه، عند نهاية الحرب العالمية الأولى، كان يتجاوز العشرين ألفا، فقد فرغت البيوت الكثيرة من أهلها.

كان اللاجئون الأرمن، برغم ما يفتك بهم من أمراض، يزاولون الصناعات، كما كانت بناتهن يعملن خادمات في بيوت الأغنياء، وقد تعايشوا مع السكان وصاهروا بعض الحمويين، وكان ملحوظا عطف الشعب عليهم وتقديره لكفاءتهم واستقامتهم ومهارتهم بالرغم من كل الدعايات والشائعات التي كانت تنشرها تركيا عن الفظائع التي ارتكبوها ضد المسلمين في شرقي الأناضول.

ونتيجة لتمردي وامتناعي عن المواظبة على الشيخة فقد رجا أهلي مدير مدرسة "النموذج" السيد محمد البارد فقبلني فيها مع إخوتي واصل وعبد الحليم، رغم صغر سني.

طفل مشاغب في مدرسة بهيجة :

سررت سرورا كبيرا لقبولي في مدرسة النموذج، فقد كان يحيط بها بستان واسع للعب والنشاط، وقد واظبت على الدروس برغبة وشغف، وكنت أصغي بشوق وانتباه للدروس التي كان يلقيها الأساتذة على من هم أكبر مني سنا فأستمتع بها، ولا تزال مطبوعة بذاكرتي صورة ذلك المعلم الذي كان يلقي درسا عن الدورة الدموية، وصورة اللوحة ومخطط القلب والشرايين. إن الأطفال يمكنهم أن يفهموا أشياء كثيرة تتجاوز أعمارهم، ولكن عدم قدرتهم على التعبير تجعل الكبار يجهلون أفكارهم وأحاسيسهم.

لم يطل مقامي في مدرسة النموذج، فبعد شهر انذر المدير أخوي بعدم اصطحابي إلى المدرسة، والسبب أنني كنت دائم الحركة والعراك مع الآخرين، وهذا يمثل خطرا على النظام بنظر المدير الذي لم يكن بمقدوره أن يحد من نشاطي بالضرب أو العقوبة، لصغر سني. كنت أتصارع في باحة المدرسة مع التلاميذ الأكبر مني سنا فأصرعهم مما اضطر المدير لصرفي من المدرسة، فبقيت في البيت حزينا ولكنني تخلصت على كل حال من الشيخة وعصاها الطويلة التي كانت تطالنا في أقصى الغرفة الضيقة، فتنزل بها على رؤوسنا كلما اخطأنا في التلاوة، وبرغم شدتها وقسوتها فإنني لم أحفظ بفضلها ولا آية واحدة.

صفعة ظالمة من جندي الماني

شاهدت في أواخر الحرب العالمية الأولى انسحاب الجيش الألماني بآلياته التي كنت أراها لأول مرة، فحاولت ذات يوم أن أقف على جانب الطريق في حينا لمشاهدة تلك الآليات عن قرب، وكان بعض الأطفال قد وضعوا قبل مجيئي حاجزا من حجارة صغيرة في الطريق، فتوقفت إحدى السيارات أمامي ونزل منها جندي ألماني وصفعني على وجهي ورفسني برجله وكاد يقضي علي ...

طفولة سعيدة مع أبناء القرية

كان أهلي، في أثناء الحرب وبعدها، يقضون فصل الصيف من كل عام في قرية البياضية، فكنت أتحرق شوقا لقدوم الصيف لألتقي بأطفال القرية نصطاد الزرازير بالفخ، ونجمع العلك من بعض النباتات، ونسبح في "غبابيط" النهر عندما يقل جريانه، وكانت روحاتي وغدواتي للكروم مع الكبار أمتع ما بقي في نفسي من ذكريات الطفولة، لقد صادقت مبكرا جدا الفلاحين، وعرفت مبكرا جدا أوضاعهم وعلاقاتهم بالملاكين مما كان سببا في تفتح وعيي الوطني والاجتماعي جنبا إلى جنب.

حاكم سورية العسكري في ضيافتنا

في أحد الأيام الماطرة من شتاء 1918 - 1919 أتى عمي ياسين يخبر والدتي بأن برقية وردت إلى محافظ حماه بدر الدين الكيلاني من رضا باشا الركابي حاكم سورية العسكري يطلب إليه فيها أن يخبر والدي بأنه سيحل ضيفا في منزله، فأجابه الكيلاني على برقيته بأن والدي قد توفي أثناء الحرب، فاحتج عمي على برقية المحافظ وطلب منه أن يرسل برقية ثانية يرحب فيها بالضيف، ولعل الصداقة التي عقدت بين والدي ورضا باشا الركابي كانت بسبب انتسابهما إلى العربية الفتاة.

خرج فرسان حماه على صهوات جيادهم الأصيلة لاستقبال رضا باشا حتى الرستن، منتصف طريق حمص، ثم رافقوا الموكب حتى وصلت السيارة إلى بيتنا، وقد نزل رضا باشا[6] في بيتنا إكراما لذكرى والدي، فقد كانا صديقين حميمين، وكان بصحبته الشاعر خليل مردم الذي ظل اسمه يتردد على لسان عمي بعد

(6) في ليلة 30 أيلول 1918 وصلت القوات العربية والانكليزية إلى ضواحي دمشق، بينما تسربت إلى العاصمة قوات نظامية من جيش الثورة العربية، إلا أن الدخول الرسمي للقوات العربية النظامية وقوات الجنرال اللنبي كان في أول تشرين الأول 1918 ... وفي 3 تشرين أول وصل اللنبي إلى دمشق وثبت الإجراءات التي اتخذت حول الإدارة المؤقتة للمنطقة الداخلية تحت حكم رضا الركابي وبإمرة الأمير فيصل القائد العام للمنطقة الداخلية ... وكان رضا الركابي من عائلة سورية معروفة وضابطا في الجيش التركي وقد بلغ زمن العثمانيين مناصب عسكرية وإدارية عالية، وكان عضوا في الحركة العربية برغم أنه ظل في منصبه في الجيش العثماني، وقد كلفه فيصل قبل وصوله إلى دمشق بتشكيل الحكومة العربية التي تتسلم الأمور من السلطات العثمانية، فقد كان الركابي يتولى قيادة القوات التركية التي تدافع عن دمشق. (خيرية قاسمية - الحكومة العربية في دمشق بين 1918 - 1920 - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - الطبعة الثانية 1982، ص 47، 51، 49.

انتهاء تلك الزيارة التي شغلت المدينة والناس، أما بالنسبة إلي فإن أهم مكتسباتي من الزيارة أنها أتاحت لي أن أرى السيارة عن كثب، وقد تأملتها طويلا بتفحص وإمعان وإعجاب.

الملك فيصل يتبرع لانشاء مدرسة في حماه ويرفض أن تسمى باسمه .

في سنة 1919 كنت مع إخوتي واصل وعبدالحليم في جملة أول فوج من التلاميذ الذين انتسبوا لمدرسة دارالعلم والتربية لدى افتتاحها، وقد زودني الاستاذ أحمد الوتار أحد أساتذتي في المدرسة، بصفحات مكتوبة بخطه تبين تاريخ وكيفية انشاء هذه المدرسة ورد فيها ما يلي :

"ولما تم انسحاب الجيوش التركية من سورية، زار حماه سمو الأمير فيصل بن الحسين رحمه الله، قائد الجيوش العربية التي حاربت الأتراك، يوم 30 محرم 1337هـ و 9 تشرين الثاني 1918م، ونزل ضيفا في قاعة آل العظم الأثرية، وفي أثناء حفل الاستقبال الذي أقيم لسموه ألقى السيد نورس الكيلاني كلمة ترحيبية وطالب بمعاونة حماه على تأسيس مدرسة أهلية، فبادر سموه وتبرع بألف جنيه مصري حينذاك، وافتتح باب الاكتتاب بحضوره فاكتتب اكثر الحاضرين بمبالغ دفع بعضها وبعضها لم يدفع وقد اقترح البعض تسميتها باسم سموه فرفض وسماها: دار العلم والتربية، وقد طلب سموه بكتابه المرسل إلى متصرف حماه السيد بدر الدين الكيلاني المؤرخ 10 صفر 1337 و 15 تشرين ثاني 1918 لزوم المباشرة بالعمل حالا ووضع لها منهاج العمل حيث قال :

"مدرسة تبث في نفوس الناشئة الجديدة مباديء الخير والوطنية والاخلاق الحسنة، وتحثهم على السعي والعمل ليكونوا أعضاء خير وفلاح لأمتهم ووطنهم".

ويثبت الاستاذ الوتار في رسالته نص كتاب متصرف حماه إلى هيئة تأسيس المدرسة.

لحضرة نورس أفندي الكيلاني رئيس هيئة تأسيس المدرسة: انقل إليكم صورة الأمر العالي الذي تلقيته من ملاذنا المعظم قائد الجيوش العربية الشمالية سمو الأمير فيصل أعز الله أنصاره، فسيروا على منواله، وفقكم الله تعالى لما فيه الخير والفلاح والسلام عليكم.

13 صفر 337 - 17 تشرين الثاني 1918

متصرف حماه : بدر الدين الكيلاني

كما يقول الاستاذ الوتار في رسالته :

" وقد الفت فيما بعد هيئة تأسيسية سميت هيئة الأمناء مؤلفة من السيد نورس الكيلاني رئيسا والدكتور صالح قنباز رئيسا للعمدة أي مشرفا على المدرسة، والحاج أحمد المشنوق خازنا والدكتور توفيق الشيشكلي والسيد توفيق الأحدب أعضاء".

ويقول :

"ومنذ تأسيس المدرسة بدأ أساتذتها وطلابها يشاركون في الحياة العامة التي كانت النفوس تغلي فيها وتفور"

أما بالنسبة لرأسمال المدرسة فيقول الاستاذ الوتار :

"وقد أضيف إلى رِأسمال المدرسة قيمة سمن كان قد تركه الجيش التركي في حماه ووضعت المدرسة يدها عليه بإذن من الحاكم العسكري بسورية السيد رضا الركابي حين زيارته حماه فبيع بمبلغ 2749.4 ليرة مصرية، ثم أضيف له مبلغ 192.52 ليره عثمانية كان الفرنسيون وضعوها غرامة على سوق الطويل ثم استردها متصرف حماه منهم وهكذا أصبح مجموع رأسمال المدرسة 5368/6 ليرة عثمانية".

مرحبا يا ابن الحسين

افتتح معهد دار العلم والتربية بأربعة صفوف ابتدائية في كانون الثاني عام 1919، واستأجرت الهيئة التأسيسية للمعهد بناية حقي العظم التي كانت معروفة باسم "اوتيل حقي" قرب جامع المدفن على ساحة العاصي.

كان يحيط بالمدرسة بستان كبير يتصل بتل الدباغة الذي يعرف تاريخيا بتل صفرون، وكانت هذه المدرسة تضم أبناء الاغنياء والميسورين وكان فيها قسم ليلي، وقد أدخلني أهلي في هذا القسم مع أخي واصل بعد أن أرسلوا أخي محيي الدين إلى الكلية الأميريكية في بيروت وكانت تعرف باسم الكلية السورية الانجيلية.

أذكر أنه في أحد أيام عام 1919 خرجنا نحن التلاميذ الصغار إلى محطة القطار في ظاهر المدينة لنستقبل مليكنا فيصل ونحن نردد بحماسة وابتهاج :

مـرحـبا يـا ابـن الحسين فيـصـل الـعـرب الكـــرام

يـــا حـمـــاة الـحـــرمـيـــن والـــعـــــراق والشـــــــآم

وكان كل منا على صغر سنه، يرتدي حطة بيضاء وعقالا فيصليا مذهبا بالقصب، وكان الفرح يملأ نفوسنا.

زار ساطع الحصري مدير المعارف آنذاك مدرستنا كما زارها الخوري اسطفان وهو لبناني من كبار الخطباء المفوهين ومن أبرز الدعاة لفيصل وللاستقلال، وقد وقع اختيار الخوري اسطفان علي من بين الأطفال فاستدعاني وسألني عن عاصمة سوريا، ولم أكن أفهم معنى كلمة عاصمة، فقدرت بشكل عفوي أنه يسألني عن أكبر مدينة فأجبته: الشام ... قال: ولماذا نحن نحارب الفرنسيين ؟ فأجبته :

لأنهم نصارى كفار. (7)

(7) حارب فيصل التعصب الديني منذ وطئت أقدامه سورية وهو صاحب شعار : الدين لله والوطن للجميع الذي ظل شعار الحركة الوطنية في سورية فيما بعد، ومن أقواله في خطاب ألقاه بحلب 1918/11/11:

إنني ما أزال حتى الآن أشعر بالخجل لهذا الجواب الذي أربك الخوري اسطفان، بينما أراد أن يعلمني بلغة الكبار معاني الوطنية والعروبة والاستقلال.

ودعت المدينة الملك فيصل بمثل ما استقبلته به من حفاوة، بينما كنا نردد منشدين :

نحن لا نرضى الحماية

لا ولا نرضى الوصاية

نحــن أولــى بالرعايـة

لبنـي العـرب الكـــرام

طائرة ترمي منشورات

كنت في صباح كل يوم أقف مع رفاقي فؤاد الأسود وأكرم العاشق وغيرهما منتظرين خروج جنود الجيش الوطني من خان الشعبة القريب من مدرستنا، للتدريب والتمرين، وكان يحزننا أن نرى بعض هؤلاء الجنود غير مسلحين، فنشعر بألم وانكسار.

لم نكن نعي ما كان يمر على البلاد من أحداث، ولكنني شاهدت ذات يوم طائرة تحلق في سماء المدينة وتنشر أوراقا من الجو، وكنت قد شاهدت قبل ذلك طائرات الألمان وطائرات الحلفاء التي قصفت محطة القطار بحماه. وكانت الأوراق تتناثر في الجو كاسراب الحمام. وقد تمكنت من التقاط واحدة منها فحملتها وأسرعت إلى البيت حيث وجدت أخي الأكبر محيي الدين وعمي مصطفى وصديقهما محسن البرازي، فاعطيتهم المنشور فقرأوه باهتمام مع سب فرنسا وشتمها وكان منشورا يعد السوريين بنوايا الفرنسيين الطيبة.

في ذلك الجو الذي كانت تعيشه البلاد، صدمت حين وجدت أعمامي وأخي الكبير وأصدقاءهم يهاجمون الملك فيصل لأن برقية

إن العرب هم عرب قبل عيسى وموسى ومحمد، وعليه فمن يسعى لإلقاء الشقاق بين المسلم والمسيحي والموسوي فما هو عربي، ساطع الحصري، يوم ميسلون - طبعة دار الاتحاد - بيروت - ص 214

وردت إلى حماة تأمر بحل الجيش[8] ... وصعب علي أن أقتنع بأن فيصل يمكن أن يكون مخطئا وكنت أقول في نفسي منزعجا من اتهامه: لا بد أن يكون تقدير هؤلاء الكبار خاطئا، وقد ضحكوا عندما اعترضت على اتهاماتهم، ولم تمض أيام حتى عم الهياج والغليان المدينة بأسرها، وخرج الناس بالبنادق والسيوف والرماح متجهين نحو طريق حمص لملاقاة الفرنسيين، وكانت المدينة بأطفالها ونسائها وشبابها وشيبها كالبركان الثائر وراء هؤلاء المتطوعين لمحاربة الكفار أعداء الدين، وكان الجميع يرددون "الله يرحم أحمد الجزار". فظننت أن رجلا من جيراننا آل الجزار قد توفي. ثم أدركت فيما بعد أنهم كانوا يطلبون الرحمة لأحمد باشا الجزار والي عكا الذي انكسرت وراء حصونه حملة نابوليون الفرنسي.

كان ثمة حمار لأحد الفلاحين من قريتنا البياضية مربوط في اصطبل بيتنا، فتسلل أخواي واصل وعبد الحليم وأخرجاه وركباه، فعرفت أنهما لاحقان بالمجاهدين، فبكيت وطلبت أن يأخذاني معهما، ولما أعياهما إقناعي ضرباني ضربا مبرحا وسلكا طريق حمص.

وفي عشية ذلك اليوم قدم إلى بيتنا أحمد آغا البرازي ممتطيا صهوة جواده العربي، وخلفه الحمار الذي يمتطيه واصل وعبد الحليم، وسلمهما إلى عمي ياسين، فقد رآهما عندما كان عائدا من قريته معرين القريبة من طريق حمص، فسألهما عن اسميهما فاعترفا له، فقال لهما إن الضباع ستأكلكما في الطريق، وأقنعهما بالعودة.

الانكليز في حماه :

(8) قبل الملك فيصل بإنذار الجنرال غورو القاضي بوضع سكة حديد رياق حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي، واحتلال حلب، وإلغاء التجنيد الاجباري، وتسريح المجندين، وقبول الانتداب الفرنسي، وقبول العملة الورقية التي أصدرها البنك السوري، والقضاء على الثوار غير النظاميين ... وقد انتهى هذا الانذار بمعركة ميسلون في 24 تموز 1920 وكانت فرنسا قد عينت جورج بيكو مفوضا ساميا في سوريا ولبنان اعتبارا من 9 نيسان 1917، لعدم اعترافها بملكية فيصل في سوريا. ثم اصبح الجنرال غورو مفوضا ساميا اعتبارا من 8 تشرين الأول 1919، وفي 1923/6/9 أصبح الجنرال ويغان مفوضا ساميا في سورية بدلا من غورو، وفي 1925/1/2 خلفه في هذا المنصب الجنرال سراي إلى 1925/11/2 وقيام الثورة السورية الكبرى.

في جو حزين كئيب أسود دخل الفرنسيون الى حماه، فكانت المرة الثانية التي أشاهد فيها جيوشا أجنبية تحتل مدينتنا.

كانت المرة الأولى عندما دخل الانكليز مع فيصل إلى سوريا، فصادروا منزلنا وجعلوه مستشفى وعسكروا في ثكنة الشرفة وفي الخيام التي نصبوها حول المدينة، ولم يكره الناس الانكليز الذين ساعدوا الجيوش العربية على طرد الأتراك، ورافق قدومهم الغنى والثروة والشبع، وقد تعمد الانكليز أثناء وجودهم وعند انسحابهم أن يتركوا في الثكنات والمخيمات كثيرا من المؤن والأرزاق والذخيرة والسلاح بكميات كبيرة ومتنوعة، وظل الناس شهورا ينقبون عن مخلفاتهم في أرض المخيمات، كما كانت سنة دخولهم إلى سوريا سنة خصبة، فاستقر في الأذهان أن قدومهم قدوم خير اذ زالت الأمراض والأوبئة، وشبع الجائعون واكتسى العراة وتجمع الناس بعد فرقة وتشتت واغتراب، وعاد إلى أهله من بقي حيا من الشباب الذين كانت تركيا قد نقلتهم إلى ساحات القتال البعيدة، ففي أيام الحرب لم يبق في الأسواق غير المسنين وكانت معظم الحوانيت مقفلة، وكان الفارون من الجندية يشكلون عصابات حول حماه للسلب والنهب، ويصطدمون بشكل دائم مع دوريات الجيش التركي التي تتعقبهم، فكانت الطلقات النارية تسمع في كل ليلة من جميع أنحاء المدينة ... وهكذا مع قدوم الانكليز خرج الأتراك وفر "الكولوغاصي" حاكم المدينة العسكري الذي كان يحيى ويميت ويعدم في كل يوم العشرات من الشباب الفارين، وكان الكولوغاصي يسكن في بيت قريب من بيتنا، استأجره من حسن آغا الشيشكلي والد أديب الشيشكلي.

الفرنسيون في حماه :

دخل الفرنسيون حماه، فاحتلوا بيتنا ليجعلوا منه مستشفى وأخرجونا منه عنوة، وكان جلاؤنا عنه ذا تأثير بالغ في نفوسنا يشبه شعور المهاجرين عندما يجلون قسرا عن وطنهم، وكنت قد بلغت سن التاسعة. فاستأجرنا بيتا صغيرا قريبا من بيتنا، لأننا لا نستطيع العيش خارج حينا.

وقد رفض أهلي تناول أجور البيت من الفرنسيين وطالبوا بإخلائه وظلوا يعملون حتى عدنا إليه بعد أربع سنوات.

كان أول مستشار فرنسي في حماه هو الكابتن "ميك"[9] ، وقد زج بمعظم وجهاء المدينة وعلمائها وقادتها في السجون، وأذاقهم أنواع الهوان والعذاب، حتى أن حسن آغا الشيشكلي، الذي كان متهما بتهريب السلاح، كان ينقل الأقذار ويغسل الصحون، وكان بين المساجين الشاعر بدوي الجبل. وقد أعدم المستشار ميك بعض الحمويين بتهمة تهريبهم السلاح لثورة الشيخ صالح العلي في وادي العيون. وكنا نتتبع بإصغاء واهتمام شديدين القصص الرائعة لثورة الشيخ صالح وكيف أنه أباد حملة فرنسية عن بكرة أبيها في وادي جهنم، كما كنا نتتبع بالاهتمام ذاته ثورة ابراهيم هنانو واخبار ثورة عرب الموالي واستبسالهم في قتال الفرنسيين.

الأمل ...

كنت قد بلغت الثامنة أو التاسعة من العمر عندما دخل المحتلون الفرنسيون بلادنا. وكنت أكرههم واحتقرهم وأزدريهم من أعماقي، فهم الأعداء، والكفار، والظالمون، وكنت رغم طفولتي أشعر بأنني يجب أن لا أنحني أمامهم، فقد كان مفروضا على الناس إذا كانوا جالسين في مقهى، ومر ضابط فرنسي، أن يقفوا إجلالا، وذات يوم ماطر، والوحول تملأ وسط الشارع غير المبلط، كنت أمشي على الرصيف الحجري في طريقي الى المدرسة، وكيس الكتب القماشي معلق في كتفي، فجاء ضابط فرنسي بالاتجاه المقابل، فقررت أن لا أزيح له وأن أثابر في مسيري على الرصيف، وعندما وصل إلي ركلني بقدمه ركلة عنيفة رمتني في وسط الوحل، فتلوثت ثيابي وتناثرت كتبي. إنني لن أنسى ذلك ما حييت.

(9) " ومن مشاهد ظلم "ميك" أن رجال الشرطة ساقوا جميع رجال محلة (الحاضر) كبارا وصغارا في الأسواق تحت السياط إلى دار الحكومة لأن أحد الأولاد فلتت من يده سلسلة مفتاح فأصابت عين كلب مدام "ميك" أثناء مرورها في الطريق" مذكرات عبد الرحمن الشهبندر، منشورات دار الجزيرة للصحافة والنشر، عمان (ص 46).

كانت حماه، في أشد الأسى والحزن لما يصلها من أنباء عن وقائع معركة ميسلون، ودخول المحتلين الفرنسيين إلى دمشق وكان أشد ما يثير غضب الكبار في أحاديثهم التي كنت أصغي إليها باهتمام شديد، قصة الجنرال غورو عندما سار بموكب الى قبر البطل صلاح الدين الأيوبي في جوار المسجد الأموي، وطرق بسيفه على صفائح القبر وقال : "ها قد عدنا يا صلاح الدين" ... إشارة إلى الحروب الصليبية وهزيمتهم فيها قبل عدة قرون ، وكان الكبار يتحدثون عن الجنرال غورو بأن ذراعه وساقه قد بترتا في الحرب (قرب الدردنيل) كما أن إحدى عينيه، كساقه وذراعه، صناعيه.

على أن أحاديثهم المضطرمة بالغضب والحقد، لم تكن كلها بائسة، فقد كان بصيص من الأمل والرجاء يلمع أحيانا أثناء تناقلهم أنباء الثورتين المستمرتين، ثورة الشيخ صالح العلي في وادي العيون بجبل العلويين، وثورة ابراهيم هنانو[10] في جبل الزاوية

(10) يتحدث الاستاذ منير الريس عن هذه الحقبة من تاريخ سورية في كتابه المسمى: الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي فيقول :
لقد نشبت ثورة في شمال سورية يوم كانت فرنسا تحتل منطقة الساحل وحدها شملت مناطق انطاكية والأقضية التي تحاذي المنطقة المحتلة في الشمال كجبل الزاوية، والجبل الوسطاني في قضائي حارم وأدلب، وبعض الأقضية التي احتلتها فرنسا والحقتها بمنطقة الساحل كقضاء الحفة وجسر الشغور (ثورة ابراهيم هنانو) تحاذيها ثورة أخرى نشبت بزعامة الشيخ صالح العلي، تحاذيها ثورة صغيرة ثالثة في جبال بعلبك ثم تليها ثورة رابعة في جنوب لبنان مسرحها وادي التيم وتمتد حتى حدود فلسطين بزعامة الأمير محمد الفاعور شيخ عشيرة الفضل في الجولان. وثورة لواء دير الزور التي لعب فيها رمضان شلاش من شيوخ عشائر الفرات دورا، وأرغمت الأنكليز على الجلاء عن دير الزور وضمه الى سوريه بدلا من العراق، ثم كان هذا اللواء منطلقا لثورة العراق عام 1920 على الاحتلال البريطاني التي عمت وادي الفرات كله حتى أقصى جنوب العراق، واستمرت أكثر من ستة أشهر كبدت الانكليز خسائر فادحة في النفوس والأموال، وأرغمتهم على أن يدعوا الملك فيصل الذي طرد من سوريه للجلوس على عرش العراق" (الكتاب الذهبي، دار الطليعة، بيروت 1967 ص 108). كما ورد في المصدر نفسه وصف طريف ممتع عن لسان ابراهيم هنانو - كما يقول المؤلف- لما جرى له بمدينة حمص في طريقه للجوء الى الأردن، بعد فشل ثورته في جبل الزاوية.
يقول هنانو الذي وصل الى حمص على صهوة جواده، لا بسا ثوبا بدويا عتيقا، وحيدا جائعا عطشا حافي القدمين: دخلت مدينة حمص من جهة الشرق، وتغلغلت في حي الخالدية (نسبة الى خالد بن الوليد) وهو في أكثر أهله فقراء، فخطر لي أن أطرق بابا من أبوابه لأودع حصاني لقاء أجر، ثم اتسلل الى المسجد أقضي فيه نهاري مصليا نائما، حتى إذا لفني الليل تسللت منه إلى دار صديقي عمر الأتاسي وزميلي في المؤتمر السوري كي يهيء لي سرا سبيل الوصول الى شرق الأردن".
وبعد اكرام أهل الدار لابراهيم هنانو، والعناية به دون معرفة، سأله صاحب الدار عن اسمه، فأجاب: "من جهات المعرة، أيها الأخ، سرقت لي أغنام فركبت في أثرها الى البادية لعلني اهتدي إليها وأستردها، ولكن خاب أملي وسلبني قطاع الطرق ملابسي".

ومناطق أدلب وحارم وضواحي حلب ... كما كانت تصل إلى حماه، بين الفينة والفينة أخبار ثورة رمضان شلاش في ديرالزور.

كان طير الأمل يرفرف بجناحيه لحظات ثم يغيب.

الأشباح في قصر العظم :

كان قصر العظم في حماه، ولا يزال، من أجمل الصروح العمرانية[11] ، سواء بهندسته البديعة ونقوشه العربية، أو بموقعه الجميل على العاصي وسط البساتين والنواعير، وعندما أراد الفرنسيون شراءه سارعت هيئة أمناء مدرسة دار العلم والتربية لشرائه من آل العظم وجعله مقرا للمدرسة بمساعدة محافظ حماه السيد نورس الكيلاني فانتقلت المدرسة إليها، وبذلك حافظت مدينة حماه على هذا القصر الأثري الجميل.

كنت أحب مدرسة دار العلم والتربية كثيرا، ولكنني كنت في مساء يوم الجمعة من كل أسبوع أشعر بالحزن والكآبة إذ اضطر لترك الأهل ورفاق الحي لأعود إلى قضاء ستة أيام متواصلة في القسم الداخلي الذي كنت اشعر في لياليه بوحشة وغربة وكأنني على بعد ألوف الأميال عن البيت ورفاق الحي.

ولكن صاحب الدار الذي كان خبيرا بالخيول يتعرف على جواد هنانو الذي تنطبق عليه كل الأوصاف التي رواها البدو والجنود الذين طاردوه في البادية، فيضطر هنانو للكشف عن حقيقته ويطلب منه أن يسهل اتصاله بعمر الأتاسي، فيأبى صاحب الدار ويقول غاضبا :

"مالنا ولهؤلاء الأفندية الذين ليس في أخلاقهم ضمان ولا ثقة، ونحن نرى نعال اكثرهم تخفق على أبواب المستعمرين سعيا وراء مصالحهم، نحن الفقراء من عامة الشعب لا نطمئن إليهم، وأنا الفقير جنباز الخيل مستعد أن أبذل روحي في سبيل وصولك الى المكان الأمين الذي يكفل سلامتك".

"وقد تطوع ذلك المواطن الفقير، فرافق الزعيم هنانو من حمص الى دمشق، بعد أن استخدم خبرته في تغيير معالم الحصان، وبعد أن اشترى "رهوانة" لنفسه، وتحمل كل نفقات الرحلة" (ص 130-133) المصدر السابق.

(11) كتبت هذه الصفحات من مذكراتي قبل مذبحة حماه وقصفها، خلال شهر شباط 1982 من قبل سرايا الدفاع بقيادة رفعت الأسد شقيق رئيس الجمهورية حافظ الأسد، تلك الأحداث التي أدت إلى ذبح اكثر من ثلاثين ألفا من سكان المدينة والى تهديم قسم كبير منها، ولم ينج قصر العظم من همجية القصف العشوائي.

كان الليل في قصر العظم الكبير، المليئ بالأقبية والأدراج والممرات المظلمة، ليلا موحشا رهيبا، وكان أنين النواعير يرافق في مخيلتنا ما كنا نسمعه من الأساطير الشعبية عن الأرواح والأشباح التي تحوم ليلا في أرجاء القصر.

كانت الأساطير تقول إن تحت كل عمود من الأعمدة الرخامية عبد من عبيد آل العظم الذين تخرج أرواحهم ليلا مستغيثة من وطأة الأعمدة التي بنيت فوق رؤوسهم، كما كانت الأرواح الهائمة تخرج من الأقبية الكبيرة المعتمة التي بنيت فوقها قاعة القصر الاثرية، فتطوف في الغرف لتنتقم مما عانته من عذاب بعد أن دفنت في أرض تلك الأقبية التي عذبت فيها، وكانت مخيلتي الجامحة في تلك السن تمتص هذه الأساطير وتزيد عليها، وتجعل من أنين النواعير نواحا وبكاء.

كان يجتمع في القسم الداخلي من دار العلم والتربية أبناء "الذاوات" والأسر الميسورة كآل الكيلاني والعظم والبرازي وأبناء التجار، فقد كانت الاقساط المدرسية معتبرة غالية في ذلك الوقت.

وعندما سافر مديرها عمر الترمانيني لفرنسة لإتمام دراسته الزراعية، حل محله الموسيقار الحلبي أحمد الأوبري، فسكن مع عائلته في أحد أجنحة المدرسة، وكنت أحاط مع أخي واصل من قبل مدير المدرسة وأساتذتها برعاية خاصة بفضل الصداقات والسمعة الطيبة التي خلفها والدي بعد وفاته، بينما أرسل أهلي أخي الكبير محيي الدين الى باريس للتخصص بالعلوم السياسية فكان فيها رفيقا لمحسن البرازي حيث اجتمع هناك مع عدد من شباب حماه من آل الأحدب والكيلاني والبارودي والأرمنازي، وقد عاد أخي عام 1925 حاملا إجازة في العلوم السياسية، وكلفت دراسته تلك مبالغ باهظة تحملها أهلي بسرور لأنه كان الأخ الكبير.

تولى الاستاذ عثمان الحوراني تدريسنا التاريخ من الصف الأول، وقد روى لنا في الدرس الأول معركة ميسلون بتفاصيلها ووقائعها مما جعلنا نبكي جميعا[12]

كان الاستاذ عثمان متشيعا للامام علي بن أبي طالب، وكان يروي لنا التاريخ العربي بشكل مؤثر وجذاب، وكأنه حلقات من القصص البديعة الأخاذة، بالطريقة التي سلكها جرجي زيدان في رواياته لأحداث التاريخ العربي، وكان عثمان معلما ووطنيا مجاهدا يستهدف من تدريس التاريخ تربية الناشئة الصغار تربية وطنية نضالية، وكذلك كان أخوانه الأساتذة الآخرون.

كان جو المدرسة جوا وطنيا حماسيا ملتهبا، ولم يحمها من شر إغلاقها من قبل الفرنسيين إلا المحافظ نورس الكيلاني الذي كان رئيس عمدتها، وحكمة الدكتور صالح قنباز، ولا أزال أذكر تلك الأناشيد الوطنية التي كان يؤلفها الدكتور صالح، ويلحنها ويعلمنا إنشادها المدير أحمد الأوبري وهو يعزف على القيثار :

وطني روحي فداك وطن العرب هناك

حيث نور الصدق والاخلاص يسطع في العيون

حيث حب الوطن في القلب كالنار يكون

---

(12) بدأ هجوم الفرنسين على دمشق من ميسلون فجر الرابع والعشرين من تموز 1920، ولم يكن ما جمعه يوسف العظمة من جنود، وما ارتجل من تحصينات بقادر أن يصمد أكثر من بضع ساعات أمام القوات الفرنسية المزودة بكل وسائل القتال، وقد سمعت من شكري القوتلي أن يوسف العظمة قال للمسؤولين ولأصدقائه قبل توجهه الى ميسلون أن الفرنسيين لن يدخلوا دمشق إلا على جثته.
كما يذكر ساطع الحصري أن يوسف العظمة قال له :
"انني اترك ابنتي الوحيدة ليلى أمانة لديكم أرجو ألا تنسوها" ويقول الحصري :
"لقد أدركت حالا ما كان يقصد من كلامه هذا، إنه يتوجه نحو الجبهة موطدا العزم ألا يعود منها".
(يوم ميسلون ، ص 158) . وقد اتخذت الحركة الوطنية من ضريحه في ميسلون مكان استشهاده، محجا لزيارته في كل عام، بينما تبارى الشعراء بتمجيد موقفه وأثره البعيد على الأجيال السورية وقد جاء في قصيدة شوقي عن معركة ميسلون:

مقيم ما أقامت ميسلون يذكر مصرع الأسد الشبال

وجاء فيها :

وظل نهاره يلقي ويلقى فلما زال قرص الشمس زالا

كان يوسف العظمة قبل الثورة العربية من ضباط الأركان في الجيش العثماني، وقد عين بعد عودته من الأسر في صيف 1919 مرافقا للملك فيصل ثم عين وزيرا للدفاع قبيل معركة ميسلون.

أيها البطل العربي هذا وطنك فاحم وطنك.

وغيره كثير من الاناشيد الحماسية التي كانت تلهب مشاعرنا وتشعل جذوة الحماسة في نفوسنا.

كان برنامج المدرسة مضطربا، ففي الصفوف الأولى مثلا كنا نقرأ دفترا مكتوبا أملاه الدكتور صالح عن تعليل الناسخ والمنسوخ في القرآن، وكان في بحثه واستنتاجاته العقلية ما يفسح مجال التطور الدائم للأحكام التشريعية، وبالنسبة لصغر سننا ما كنا نستوعب من تلك الأفكار إلا ما تطيقه مداركنا.

وكان الأساتذة يشجعون على تفتيح مواهب التلاميذ، وأذكر أنني اندفعت ذات مرة لتأليف الشعر فألفت قصيدة وعرضتها على أستاذ اللغة الشيخ أمين الكيلاني، فأبدى إعجابه الشديد بها، ثم نقحها وأصلح هفواتها وطلب إلي أن أقرأها في مجلس الأساتذة، كان يعتقد بأنني سأكون شاعرا.

تولى إدارة المدرسة قبل الثورة السورية الاستاذ عبدالله[13] المشنوق، فطبق فيها منهاج الجامعة الأميركية التربوي وشكل الفرق الكشفية وشجع الألعاب الرياضية ... كنا نحب الاستاذ المشنوق كثيرا لأنه كان متحررا يسخر بجرأة من الخرافات والأساطير وقد نهض بالمدرسة وبرامجها واسلوب تدريسها، وكان ممتلئا نشاطا وحماسة وذكاء.

كبرنا قليلا وأصبحنا نشارك في التمثيليات المدرسية التي تدور مواضيعها حول البطولات الوطنية، إذ كانت المدرسة تقيم في كل عام أربع حفلات تمثيلية في قاعتها الأثرية، وكان الأوبري يلحن ما يؤلفه الاستاذ أمين الكيلاني من القطع التمثيلية القصيرة المعبرة عن أهداف الأمة العربية، وكان التمثيل والموسيقى يلهب عواطف المشاهدين. وقد لحن الأوبرى أكثر من ثلاثين نشيدا. والف فرقة موسيقية من شباب المدينة الهواة. كانت تستحي في البداية من الظهور أمام الجمهور، فشجعهم واشترك معهم

(13) عبدالله المشنوق، من أسرة حموية وأحد خريجي الجامعة الأميركية، استقر في بيروت بعد تركه إدارة مدرسة دار العلم والتربية، حيث عمل بالصحافة تولى الوزارة مرتين في لبنان.

بالحفلات الموسيقية، وهكذا جعل الموسيقى من أعظم مقومات النهضة الثقافية.

كانت حماه تشهد في تلك الأعوام زيارات لبعض الفرق المسرحية المصرية التي كانت تطوف في المدن السورية، وقد انتشرت أناشيد ثورة عام 1919 المصرية انتشارا واسعا، كما أصبحت أغاني السيد درويش تتردد على كل لسان.

وكنا نحضر باستمرار الندوات الفكرية والحفلات التي كان يقيمها النادي الأدبي الذي أنشأه الدكتور صالح قنباز والدكتور توفيق الشيشكلي. وقد أغلق الفرنسيون هذا النادي أثر ثورة عام 1925، وسلمت مدرسة دار العلم والتربية من الاغلاق.

الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية معا :

كانت الثورة الوطنية ضد الاستعمار مقترنة بالثورة الاجتماعية ضد التخلف والاقطاع. وهذا ما تشير إليه قصة ذلك المواطن الحمصي الفقير مع الزعيم هنانو، ويكفيني هنا أن أذكر الحادثتين التاليتين :

الحادثة الأولى :

استمرت حملات الفرنسيين، بعد عام 1920، وتدابيرهم القاسية لإخماد تمرد عرب الموالي، وفي الوقت ذاته كانت ثورة الشمال تمتد من جبل الزاوية الى قضاء المعرة، وعندما اغتال فلاحو قرية الهبيط، الواقعة بين مدينة حماه ومعرة النعمان، مصطفى العظم صاحب القرية، بمساعدة قائد الثورة مصطفى الحاج حسين، شاهدت خروج قوات الدرك من حماه بقيادة عبدالله الشركس - الذي انتقمت منه حماه فيما بعد - يتبعهم فرسان آل العظم والكيلاني والبرازي فانتقموا من أهالي قرية الهبيط شر انتقام واستباحوا القرية ونهبوها.

كانت تلك ثورة الهبيط الأولى، وفي عام 1936 ثار أهل هذه القرية البواسل على آل العظم مرة ثانية فقمعتهم حكومة الكتلة الوطنية قمعا ذريعا، ثم اشتركت هذه القرية الصامدة بدور فعال

في حركة الفلاحين، وكانت في عام 1958 إحدى القرى النموذجية التي طبق فيها قانون الاصلاح الزراعي وأنشيء فيها مركز اجتماعي، إن الثورة الوطنية في سورية لم تفترق في مختلف مراحلها عن الثورة الاجتماعية.

الحادثة الثانية :

أنشأ البطلان الباسلان الشهيدان سعيد العاص ومصطفى عاشور ورفاقهما من أبناء حي السخانة مدرسة "ملجأ الأيتام" لإيواء أبناء المجاهدين ولنشر التعليم في حي الحاضر ولا تزال هذه المدرسة قائمة حتى الآن، وقد قدمت لمدينة حماه خدمات جليلة، وفيها تعلم رفيقنا المرحوم أبو رميح القراءة والكتابة ونال الشهادة الابتدائية.

الحسين بن علي :

بدأت الدعاية التركية تنتشر في البلاد بعد الاحتلال الفرنسي وكانت معارك التحرير المظفرة بقيادة مصطفى كمال تغذي هذه الدعاية ... وهكذا كانت المفارقة عظيمة بين البلاد العربية المستكينة للاحتلال الأجنبي وبين تركيا المنتصرة المظفرة، فانقسم الأهالي بالمدينة الى فريقين: عربي وتركي، وشمل الحوار بل النزاع معظم البيوت، وكان الأساتذة في دار العلم، ورواد النهضة الذين أسسوا النادي الأدبي والمثقفون والطلاب، صغارا وكبارا، يدعون للعروبة ويناهضون الدعاية التركية، وكنا، نحن التلاميذ الصغار نحشر انفسنا في تلك المناقشات الحامية، فكان الكبار، على مختلف ميولهم، ينظرون إلى حماسنا بالرضى والعطف.

استمر هذا الانقسام إلى ما بعد عقد معاهدة الصلح مع تركيا في 24 تموز 1923 التي تركت لأهالي البلاد الواقعة تحت الانتداب الحق باختيار إحدى الجنسيتين، ولا زلت أذكر بأسى أن عددا قليلا جدا من جيراننا في الحي اختاروا الجنسية التركية وغادروا البلاد، وعندما تولى الملك حسين خلافة المسلمين، كانت حماستي له وتأييدي، مع زملائي في دار العلم والتربية،

منطلقة من مشاعرنا العربية والاسلامية ومن دعاية الطليعة العربية في سورية ومن آمالنا بالاستقلال.

كان الأمير عبدالله، أمير شرق الأردن[14] أول من بايع أباه بتاريخ 1923/3/11 بالخلافة باسم شعب الأردن، ثم تلاه الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي باسم فلسطين، وقضاة المحاكم الشرعية الفلسطينية، وبعض علماء سورية ولبنان، ولا أزال أحفظ بعض الأبيات من قصيدة نظمها بدوي الجبل بهذه المناسبة ويقول فيها :

ألف أهـــلا بأمير المؤمنين سيد البطحاء والبيت الأمين

وارث البردة عن صاحبها أحمد المختار خير المرسلين

كما يقول:

وافرشوا الأكباد يمشي فوقها ودعوا الورد لحور ولعين

كنا في المدرسة نتفق أن نتوزع في كل يوم جمعة على مساجد المدينة لنحث الخطباء على الدعوة للحسين بن علي خليفة للمسلمين، لأنهم كانوا عندما يصلون في الخطبة الثانية إلى قولهم : "اللهم انصر من نصر الدين، اللهم انصر خليفة المسلمين" لا يذكرون اسم الحسين لأن الفرنسيين أصدروا أمرا بمنعهم عن ذلك، فكنا ننبري من بين صفوف المصلين بجرأة وننادي بالحسين خليفة للمسلمين. فكان بعض الخطباء يلبوننا -

(14) اعلنت خلافة الشريف حسين بالنص التالي :

" لما كانت الإمامة الكبرى والخلافة العظمى نظام عقد الأمة وسند قوام الأمة، وكان أمر صيرورتها وكيفيتها وما جرى فيها مدونا ومنقولا .. فإقدام حكومة أنقرة على ذلك المقام المكرم كيفما كان شكله جعل أولى الرأي والحل والعقد من علماء الدين المبين في الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وما جاورهما من البلدان .. يفاجئوننا ويلزموننا بيعتهم بالإمامة الكبرى والخلافة العظمى حرصا على إقامة شعائر الدين وصيانة الشرع المبين لعدم جواز بقاء المسلمين أكثر من ثلاثة أيام بلا إمام. وعليه لما كانت المملكة الهاشمية والقطعة المباركة الحجازية مهد الإسلام ومحل ظهوره ومطلع نوره والعمل فيها باحكام كتاب الله وسنة رسوله .. وانطباق حكم البيعة المشروعة من المبايع والمبايع له انطباقا لا يتصور حصوله في أي مملكة أخرى .. كان حقا علينا إجابة ذلك الطلب الديني المشروع".

نحن الصغار- وبعضهم كان يبتسم ويستمر في تلاوة الدعاء دون أن يذكر اسم الخليفة.

لقد تمت بيعة الحسين إثر إصدار المجلس الوطني التركي قرارا بإعلان الجمهورية. وقد اختير عبدالمجيد بن السلطان عبد العزيز خليفة صوريا بعد أن جرد من جميع السلطات، فأثار ذلك استياء المسلمين في جميع أنحاء العالم. ثم ألغى المجلس الوطني التركي منصب الخلافة نهائيا في 3 آذار 1924.

كنت اجتمع بعمي مصطفى لقراءة الصحف والمجلات، ولا زلت أذكر ما تركه خطاب الحسين بالوفود العربية بعد مبايعته بالخلافة من أثر بعيد في نفسي. وعند تدوين هذه المذكرات رجعت إلى نص الخطاب فقرأت فيه: "لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد، لا أقبل إلا أن تكون فلسطين لأهلها العرب، أقول: لأهلها العرب لا أقبل التجزئة ولا أقبل الانتداب ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب، وإذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه فإني أرفض المعاهدة كلها. أقول: المعاهدة كلها، ولا أوقع المعاهدة قبل أخذ رأي الأمة".

كنت أجمع طوابع البريد، وكان أثمن طابع أعتز به في مجموعتي هو الذي صدر في الحجاز بذكرى بيعة الحسين بالخلافة، كما تمكن عمي مصطفى من شراء ليرة ذهبية صكت باسمه. ويمكن للقاري أن يتصور أي ألم وحزن وخيبة أمل صدمت الجيل العربي عندما اضطر الحسين للانتقال الى العقبة في 1924/10/1، بعد أن استولى عبدالعزيز آل سعود على الحجاز، فطلب إليه الانكليز مغادرتها خلال ثلاثة أسابيع، ولما رفض نقلته بارجة بريطانية الى منفاه في جزيرة قبرص، ثم نقل مريضا الى الأردن حيث توفي فيه عام 1931 فدفن في المسجد الأقصى.

2

من ثورة سوريا عام 1925 إلى اغتيال المحامي فوزي الغزي عام 1929

ثورة عام 1925 في حماه

استمرت حالات التوتر وأجواء الثورة وحملات الفرنسيين التأديبية حتى سنة 1925. وكان فوزي القاوقجي ضابطا برتبة كابتن في القوات الفرنسية بحماه. وكان الناس يتعجبون كيف أن ضابطا مسلما يتطوع في الجيش الفرنسي ويشترك في حملات إخماد الثورات. وكانوا يعتبرون ذهابه إلى جامع المسعود أيام الجمع وفي رمضان رياء وكذبا ووسيلة من وسائل التغرير بالناس وخداعهم والتجسس عليهم.

وبعد عشاء يوم الأحد، الرابع من تشرين الأول 1925 سمعنا ونحن في البيت أصوات الرصاص والقنابل وعندما خرجنا نستطلع الخبر قيل لنا: لقد اشتعلت الثورة، والمجاهدون يهاجمون سرايا الحكومة والثكنات العسكرية في قلب المدينة. فصعدنا على السطح المطل على المدينة نشاهد ما يحدث فيها وقلبي يطير فرحا... وبعد ساعات شاهدنا قوة من الجيش المختلط[1] تدخل المدينة من الناحية الجنوبية، من حي المحالبة، فلم يعترضها أحد، بينما كان أزيز الرصاص يسمع حول السرايا. واستمر إطلاق النار طيلة تلك الليلة ونحن ساهرون قلقون، فتمكن الثوار من احتلال السرايا، فنهبت وأحرقت وضاعت من جراء إحراقها وثائق وسجلات وحقوق كثيرة للمواطنين.

تحرقت كثيرا وأنا واقف على سطح المنزل في تلك الليلة، وتمنيت لو كنت كبيرا لأتصدى لهؤلاء الجنود، وكنت أقدر أن كمينا

(1) غزت فرنسا سورية بجيش مؤلف في معظمه من الفرقة الاجنبية ومن أبناء مستعمراتها (سنغال، مراكشيون، جزائريون) بقيادة فرنسية، وبعد احتلالها سورية انشأت ما سمي بالجيش المختلط الذي تكون من أبناء سورية مع من تبقى من العناصر السابقة، وقد حاولت فرنسا أن يكون الجيش من الاقليات الطائفية والمذهبية والعنصرية والقبلية، ثم اطلق على هذا الجيش اسم جيش الشرق.

من بضع ثوار في تلك الأزقة الضيقة كان يستطيع أن يقضي عليهم ويمنع وصولهم لثكنة خان الشعبة التي تحصنوا فيها.

استمرت المعركة حتى اليوم الثاني، وأرسل الفرنسيون بعض الطائرات فقصفت المدينة قصفا ذريعا، فتهدمت بعض البيوت والمنازل، وذهب من جراء ذلك أكثر من خمسمائة قتيل وجريح من الأهلين. وقد اشترك شباب عائلة الحريري بالثورة مع بعض الفلاحين والبدو، وكانوا يطلقون النار على الطائرات المغيرة من الزاوية الحريرية المشرفة على المدينة، فقصفتهم الطائرات وهدمت بعض جوانب الزاوية وقتلت وجرحت عددا منهم فاضطرت عائلة عز الدين الحريري أن تلجأ إلى بيتنا وكانت فرحتي شديدة باستضافة نعسان الحريري رفيقي في مدرسة دار العلم.

القاوقجي يتحدث عن ثورة حماه[2]

قرأت فيما بعد في مذكرات الشهيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ما يلي عن ثورة حماه 1925 :

"غني عن البيان أن حركة حماه كانت فريدة في بابها بين جميع الحركات التي حدثت في هذه الثورة (السورية) من حيث تعيين الوقت واتفاق كلمة الزعماء وتطوع موظف كبير مثل الكابتن فوزي بك (القاوقجي) للعمل، وقد كتب إلي الكابتن فوزي بك عن ثورة حماه ما خلاصته :

تقرر نهائيا أن تكون الثورة مساء الأحد الواقع في 4 تشرين الأول سنة 1925 وقت العشاء، فطلبت الى القومندان كوستليه، المستشار الاداري لحماه، أن أخرج لتفتيش البدو بحجة منع اضرارهم عن القرى فلبى طلبي، وخرجت مع مفرزة خيالة "الاسكادرون" الذي كان تحت قيادتي وطفقت أطوف بين هذه العشائر وأبث فيهم روح الكفاح بصورة علنية، فاتفقت مع

(2) فوزي القاوقجي من أبناء طرابلس في لبنان، انتسب إلى الجيش المختلط، بعد دخول الجيش الفرنسي الى سورية برتبة كابتن أي رئيس كان القاوقجي ذا كفاءة عسكرية نادرة في حرب العصابات التي اشترك فيها بسورية والعراق وفلسطين ولمزيد من المعلومات عن فوزي القاوقجي يمكن الرجوع إلى مذكراته التي كتبتها له الدكتورة خيرية قاسمية وقد نشرت هذه المذكرات في الثمانينات.

المشايخ، وقد تخصص لكل منهم راتب ووظيفة يقوم بها ثاني يوم الثورة في حماه. وفي مدة خمسة أيام كانت جميع الاستعدادات تامة. فلما أزفت ساعة العمل أعطيت التعليمات المفصلة لجميع الزعماء.

وفي نحو الساعة الثامنة مساء دخلنا حماه وهاجمنا جميع المخافر وتسلمنا أسلحتها وقبضنا على الدرك والشرطة ، ثم سرنا إلى دار الحكومة حيث فيها كل قوة الدرك وفرقة من الجيش المختلط فهاجمناها أيضا. وبعد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد نصف الليل استولينا عليها عنوة وأحرقناها وقتلنا من فيها من الجنود ثم أخذنا نستعد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة. وفي الصباح خرج فرسان البدو من الثكنات لملاقاتنا فرددناهم بخسارة عظيمة بعد معركة دامت نصف ساعة على جسر السرايا. ثم إننا طوقنا الثكنات فبدأت المعركة تشتد والنجاح حليفنا حتى تكبد العدو خسائر فادحة، وفقد اكثر من ثلثي جنده، واستسلم بعض المحافظين خارج الثكنات مع رشاشاتهم ولم يعد في طاقة المحصورين الدفاع ... ثم وصلت طيارات العدو فأخذت تلقي قنابلها على المدينة فأسقطنا منها طائرتين، وقبيل الظهر وصلت نجدات قوية تمكنت من إنقاذ المحصورين بعد معارك داميه. وقد ازداد في آخر الأمر عدد الأعداء زيادة عظيمة أدت إلى امتناع الكثيرين من وجوه حماه الذين جبنوا وحافظوا على الحياد، عن القيام بوعودهم وعهودهم. ولما أصبح الاستيلاء على الأماكن العسكرية المملوءة جنودا متعذرا قررنا الانسحاب الى خارج المدينة لنقوم بالحركات الثورية مشتركين مع البدو. وكانت خسائر العدو لا تقل عن أربعمائة بين قتيل وجريح، في حين كانت خسارتنا خمسة وثلاثين[3] .

وفي ليل السابع من الشهر انسحبنا إلى جهة الشمال وحملنا عربان الموالي على مهاجمة الفرسان الفرنسويين المتحصنين في مركز قضاء المعرة، وبعد معركة دامت أربع ساعات

(3) يلاحظ أن القاوقجي يشير إلى عدد الخسائر في صفوف المجاهدين فقط. بينما سقط عن السكان الآمنين أكثر من خمسمائة ضحية في مختلف أحياء حماه.

قهرنا العدو وغنمنا منه 35 رأسا من الخيل و 42 بندقية وغير ذلك. وقد خسر العدو في هذه المعركة ثلاثة ضباط فرنسويين وسبعين جنديا وخسارتنا بدوي واحد".

ثم يعلق الدكتور الشهبندر على ذلك بقوله :

" إن السبب الجوهري في فشل ثورة حماه فشلا ذريعا هو إحجام الزعماء الأعيان الذين تآمروا على تنفيذها فلما ظهرت إلى حيز الوجود اختبأوا في بيوتهم ليروا ما يكون من أمرها. فإن نجحت فهم المؤسسون لها وأصحاب الشأن فيها، وأن فشلت فهم عنها معرضون.

على أن ذلك لا يعني أبدا أن ثورة حماه لم تأت بثمرة، بل على العكس كانت ثمرتها من أطيب الثمار لأنها ما أن هبت ريحها حتى صدمت أشرعة غاملان المنشورة في جبل الدروز فأقلعت بها عنه. وتفصيل ذلك أن الجنرال سراي على أثر هبوب ثورة حماه طلب نصف القوى الموجودة مع غاملان على جناح السرعة. فأبى هذا، وطلب إما الانسحاب كاملا أو البقاء كاملا. لكن الجنرال سراي أصر فاضطر غاملان إلى الرجوع عن الجبل بقضه وقضيضه. ثم إن هذه الثورة سببت تجزئة الجيش الفرنسوي وأرغمته على اتخاذ خطة الدفاع بعد ما كان مهاجما، ومكنت الثوار فيما بعد من العمل في المرج والغوطة، والدخول إلى دمشق بذلك الظفر الذي كاد يقضي على فرنسا في سورية[4] "

الفجيعة الكبرى باستشهاد الدكتور صالح قنباز :

كان اشد ما آلمنا في ذلك اليوم الأسود نبأ استشهاد الدكتورصالح قنباز بينما كان خارجا من منزله ليحمل من الطريق أحد الجرحى لإسعافه فعاجله الجنود السنغال بإطلاق النار عليه، واحتلوا منزله ونهبوا محتوياته ومكتبته القيمة، فكانت خسارة المدينة به من أكبر ما منيت به، فبكيناه في البيت جميعا، صغارا وكبارا.

(4) مذكرات الشهبندر ، ص 81 - 84.

أما "ذاوات" حماه فإن تخليهم عن الثورة بعد اشتعالها، وتهديدهم للقاوقجي بتسليمه للفرنسيين بعد اخفاقها، لم ينجهم من انتقام الفرنسيين، فقد اعتقل معظمهم ووضعوا في معسكر الشرفة، وشكل الفرنسيون مجلسا عسكريا كان يعقد جلساته في مقهى الصالون، وهو صالة تحيط بها حديقة واسعة مطلة على العاصي.

عثمان الحوراني يتحدث عن ثورة حماه :

في عام 1946 عندما حقق الشعب جلاء القوات الأجنبية عن البلاد نشر الأستاذ عثمان الحوراني أحد قادة الثورة مقالا ضمنه ذكرياته عن ثورة حماه عام 1925 ورد فيه ما يلي[5] :

"نحن الآن ليلة الخامس من تشرين الأول ما بين الأذانين، المغرب والعشاء والناس منتشرون على ضفاف العاصي وفي مقاهي الصيف، غافلون عما ستفاجئهم به الأقدار بعد حين مع الأذان.

كان نذير الثورة أذان العشاء، وشعار الثورة: الله أكبر.

علا صوت المؤذنين على المنارات، الله أكبر، وعلا صوت المظلومين من كل جانب : الله اكبر، وعلا أزير الرصاص وهاجم المجاهدون في وقت واحد جميع المخافر والثكنات، أما المخافر فاستسلمت راضية، وأما الثكنات فصبت على المدينة نارا حامية.

وتدفق المجاهدون من كل صوب الى دار الحكومة، ففيها مستودع للسلاح وجنود ونفر من الدرك، فاستقبلوا المجاهدين بالرصاص، وكانت معركة حامية انتهت باقتحام الباب ودخولها عنوة ثم بإحراقها على الجنود الذين تحصنوا بالطابق العلوي منها، وظلت النيران تلتهب فيها إلى الصباح حتى أتت عليها برمتها مع مدرسة التجهيز القديمة الملاصقة لها.

سكن أزيز الرصاص حينا، ومرت فترة قصيرة من الهدوء وظن جنود الاستعمار أن الثورة قد انتهت فخرجوا من ثكناتهم قبيل شروق الشمس، وأخذوا يقبضون على كل من يلقونه في الشارع. فهاجمهم فوزي ورجاله مع

(5) احتفظت طويلا بهذا المقال مقصوصا، ومن المؤسف أنني لم أسجل اسم ولا تاريخ الجريدة التي نشرته، وهي على الأغلب جريدة محلية حموية.

الشمس، وعلى جسر العاصي، فولوا الأدبار بعد معركة قصيرة، واعتصموا بالثكنات، وشدد عليهم فوزي الحصار فكانت المعركة الكبرى. وقد اشتركت فيها مدفعية الشرفة والطائرات، وارتفعت أعمدة الدخان وأكلت النيران عددا كبيرا من المخازن والبيوت، وأتت في منطقة واحدة (هي منطقة الموقف المجاورة للثكنة) على نحو 120 دكانا ومخزنا بما فيها من بضائع وأموال.

اشتدت المعركة وصمت الأذان من قصف المدافع وقذف الطائرات والقنابل اليدوية، ورصاص الرشاشات والبنادق، وعظم الهول، وكثر الضحايا من الفريقين.

أما فوزي فقد كان بطل المعركة، يقاتل وينظم خطط الهجوم. أرأيته واقفا مقابل الثكنة! ووراء الرشاش غير وجل ولا هياب، والفرنسيون يصبون عليه النار صبا أرأيت المجاهدين يلقون بالحطب والعشب والبترول على باب الثكنة ليحرقوه ويلجوه، غير مبالين بالقنابل والرصاص المنهمر كالمطر! أرأيت مدينة الثورة يتهافت رجالها إلى ميدان الشرف والاستشهاد! .

أرأيت الشباب والشيوخ والنساء والأطفال يتساقطون كورق الخريف صرعى! أرأيت الاطباء يتعرضون للهلكة في سبيل انقاذ الجرحى! بل أرأيت الى وحدة القلوب وقد اصبح الناس كلهم اخوانا! .

إنك لو حضرت تلك المعركة، وشهدت تلك الساعة؛ لرأيت عجبا، ولملئت اعجابا.

ودامت المعركة على عنفها وهولها الى الظهيرة؛ فخف اطلاق النار من الثكنات، وأوشك ان تستسلم حاميتها، وغدا اكثر رجالها ما بين قتيل أو جريح.

فما راع الأهلين الا نجدات المستعمرين تتدفق على المدينة، وتدخلها بمدافعها ورشاشاتها لتنقذ المحصورين، وهي تطلق نارها الحامية ذات اليمين وذات الشمال، على غيرهدى؛ من الهلع والفزع. وبعد قتال دام استبسل فيه الحمويون حتى نفد عتادهم، انسحبوا من المدينة في المساء. فأسرعت القوات الفرنسية - واكثرها من همج السنغال - الى احتلال المرتفعات، وأخذت ترمي برصاصها على الشوارع والطرقات والمنازل والنوافذ، وعلى الذين يدفنون القتلى في المقابر، فاستشهد عدد من المسالمين اكثرهم من النساء والعجزة والاطفال.

ثم تغيب شمس ذلك النهار على كارثة جلى هزت المدينة هزا عنيفا، وأدمت قلوب اهليها. فقد سقط علامة حماة وزعيم نهضتها الدكتور صالح قنباز صريعا في ميدان الشرف والشهادة وهو يؤدي واجبه الانساني والوطني. فكان الخطب جسيما والمصاب عظيما.

وكانت خسائر حماة يومئذ تفوق خسائرها في ثورة أيار 1945 في الانفس والأموال والمباني، لأن الفرنسيين كانوا يطلقون نيرانهم عليها من داخل المدينة ومن خارجها، ولأن الحكومة بدركها وشرطتها وموظفيها كانت تأتمر بأوامرهم، ولم تكن في سورية قوات بريطانية تتدخل حين يروق لها التدخل فتوقف طغيان الفرنسيين.

وعلى كل حال فلن يضير حماة ان تكون سريعة الغضب جسيمة التضحية، اذا كانت بثورتها قد اسدت للوطن يدا بيضاء؛ واطالت سنتين في أجل الثورة السورية، وصيرتها في مصاف اعظم ثورات الدنيا، وجعلت ريح الثورة تهب على جميع البلاد فتشعلها نارا على المستعمر الغاشم.

ولما سيطر الفرنسيون على المدينة اعتقلوا عددا كبيرا من أهلها؛ ولا تسل عن تفننهم في تعذيب هؤلاء المعتقلين، ولا عما اقترفوه في المدينة من الجرائم والفظائع، فاللسان والقلم يعجزان عن وصفها.

اما الثائرون فقد تمزقوا ايدي سبأ تحت ظلام الليل، لانهم لم يقرروا من قبل مكانا يجتمعون فيه بعد المعركة.

فالقائد فوزي نجا من مخالب الفرنسيين؛ وكانوا جد حريصين على الانتقام منه والفتك به، فاجتاز الصحراء الى العراق مع بعض اخوانه، وكنت من مرافقيه في رحلته. وخاطر فريق فسلكوا طريق الجنوب، ونجحوا بالوصول الى الجبل العربي ومنهم السادة سعيد الترمانيني ومصطفى عاشور وعبد القادر مليشو وعبد الرحمن المط والدكتور خالد الخطيب وسواهم، وأوى كثيرون إلى مضارب الاعراب في الصحراء، وتوارى آخرون ينتظرون ما تأتي به الأقدار".

ويتحدث عثمان الحوراني عن دواعي الثورة والأيام القليلة السابقة لانفجارها:

"يزداد الاستعداد، وتكثر المؤتمرات والمؤآمرات، والخلوات والمفاوضات. هنا وهناك؛ في الجبل والغوطة ودمشق، وفي حماة وحمص ... ويتعاهد قادة

الدروز وزعماء دمشق ويتواثقون. ويبعث فوزي برسله الى شتى الجهات: فسعيد الترمانيني - وقد كان ساعده الأيمن - إلى دمشق وحمص وقرى الجراكسة، والدكتور الخطيب ومنير الريس ومظهر الدروبي (وكاتب هذه السطور) الى دمشق والجبل، للاتصال بالقادة والزعماء ومتقاعدي الضباط. ويعود اليه رسله بكتاب من القائد العام سلطان باشا الاطرش، والزعيم الدكتور الشهبندر، وقد تم الاتفاق على الا يعقد صلح منفرد، وعلى أن تثور دمشق وحماة وحمص وبعلبك في ليلة واحدة وهي ليلة المولد النبوي 12 ربيع الأول 344 - 2 تشرين الأول 925.

يعرض الأمر على الوطنيين في حماة، فيتحمس للثورة المتطرفون قائلين : نلبي نداء عبد الكريم[6] ، وننصر اخواننا بني معروف، ونرغم الفرنج على توزيع جيوشهم.

وينظر جماعة بمنظار العقل والحكمة فيقولون: ان شعبنا لما يبلغ من الوعي القومي والتنظيم والقوة المبلغ الذي يجعله اهلا للثورة. فلنهيء الشعب ولنكمل العدة، حتى اذا ضربنا نكون واثقين من حسن العاقبة.

ويشك فريق باخلاص فوزي قائلين : كيف نطمئن ونسير تحت قيادة رجل نجهل حقيقته وغايته؟ الا يخشى أن تكون هناك خدعة؟ ولكن حماسة المتطرفين غلبت حكمة العقلاء وتردد المتشككين. وثارت حماة".

فظائع الفرنسيين في حماه :

أعلن الفرنسيون، بعد انسحاب القاوقجي، السماح للناس برفع جثث القتلى من الشوارع والأزقة، وفرضوا على المدينة خمسة آلاف ليرة ذهبية وعددا كبيرا من البنادق، وحددوا يوم 8

(6) عبد الكريم الخطابي قائد ثورة الريف في المغرب العربي وكانت ثورته على الاستعمارين الاسباني والفرنسي متزامنه مع الثورة السورية على الاستعمار الفرنسي (1882-1963)، زعيم قبائل الريف بالمغرب. اسمه الكامل محمد بن عبد الكريم الخطابي. كان أثيرا لدى قومه العرب المقيمين بمنطقة المغرب الاسبانية. التحق في بدء حياته بخدمة الاسبان ولكنه ناصبهم العداء 1920 للجهاد في سبيل استقلال وطنه وشن ضدهم حربا حامية، فأباد 1921 جيشا اسبانيا من عشرين الفا على مقربة من مليله، مما أدى الى اقامة دكتاتورية بريمودي ريفيرا باسبانيا . طارد 1924 الجنود الاسبان حتى تطوان، وتقدم الى المنطقة الفرنسية، ولكن الانقسام أخذ يدب في صفوف القبائل المغربية الموالية له. اضطر الى التسليم الى الفرنسيين 1926، فنفوه الى احدى جزر المحيط الهندي، ولكنه تمكن من الفرار من سجانيه الفرنسيين عام 1947 بينما كان يمر بقناة السويس في طريقه الى منفى جديد بفرنسا. لجأ الى مصر حيث اقام بها عزيزا مكرما مجاهدا في سبيل استقلال الأقطار العربية بشمال افريقيا، الى ان توفي بالقاهرة (الموسوعة العربية الميسرة).

تشرين الأول 1925 موعدا لتسليم هذه الغرامة. ولما تأخرت المدينة عن تسليم الغرامة في الموعد المحدد أرسل الفرنسيون طائراتهم لقصف المدينة وخاصة حي الحاضر، فدمرت بعض المنازل، وسارع وفد من الأهالي يستمهل لجمع المال والسلاح، فأمهلته السلطة ثلاثة أيام سلمت في نهايتها الغرامة وجميع الأسلحة المفروضة.

الفرنسيون ينكلون بأساتذة مدرستنا.

كنت حريصا أنا ورفاقي التلاميذ على تتبع أخبار المحاكمات في المجلس العدلي، لا سيما وأن أستاذنا أحمد الوتار كان من المسجونين الذين تجري محاكمتهم.

وكان بعض أساتذتنا الأخرين قد فروا إلى خارج البلاد، كالاستاذ عثمان الحوارني الذي تولى أخي محيي الدين، بمساعدة قريبنا حسين الشقفة (الذي استشهد في ثورة عام 1945) أمر تهريبه الى العراق عن طريق البادية حيث التقى بالقاوقجي بعد أن اختبأ في بيتنا عدة أيام، وكنت لا أنام الليل قلقا وخوفا على أستاذنا عثمان. ولما وصل الخبر باجتيازه الحدود تنفست الصعداء.

كان معظم أساتذتنا من خريجي المدرسة الصلاحية التي أنشأها الأتراك في القدس أثناء الحرب، وكان أحبهم إلى قلوبنا عمر يحيى وعثمان الحوراني وعبد الرحمن القات.

وقد سمعنا فيما بعد أن عثمان الحوراني عين في البحرين مديرا للمعارف، فاشتعلت أولى المظاهرات الوطنية في تلك الجزيرة العربية، فنفاه الانكليز على أثرها إلى الهند.. ثم عفي عنه فعاد الى سوريا في الثلاثينات.

كان تأثرنا كبيرا على فراق أساتذتنا، وعلى الذين يحاكمون أمام المجلس العدلي، وكنت أتسقط أخبار الثورة يوميا، في جبل العرب والغوطة والقلمون وجبل الزاوية و شمال لبنان وجنوبه، كما كنت أجمع من الصحف المصرية المهربة سرا إلى سوريا كل ما يكتب من أنباء وتعليقات عن الثورة السورية، حتى تكونت لدي

مجموعة فريدة ظلت في مكتبتي إلى ما بعد عام 1959 حيث ذهبت مع كثير من أوراقي الأخرى ضحية هجمات التفتيش المتتالية التي كانت تشنها على منزلي المباحث والمخابرات.

□

ودمع لا يكفكف يا دمشق.

بعد أن انطلقت الثورة من جبل العرب بقيادة سلطان الأطرش في حزيران 1925 وسجلت أروع صفحات البطولة، وتبعتها ثورة حماه بقيادة فوزي القاوقجي، امتد لهيب الثورة إلى غوطة دمشق بزعامة البطل الشعبي الاسطوري حسن الخراط.

ويذكر الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مذكراته التي قرأتها فيما بعد أن مجموع عدد المجاهدين الذين دخلوا دمشق في 1925/10/18 بعد أن بدأت المناوشات في الغوطة لا يزيد عن 400 ثائر من قرى المرج والغوطة وجبل الدروز الذين انضمت اليهم أحياء المدينة لا سيما أهل حي الشاغور وبوابة السلام، وقد بقي المجاهدون أربعة أيام في دمشق سحقوا فيها جميع الجنود المعتصمين بالمتاريس في حي الشاغور وحي الميدان، بينما لجأ عدد منهم مع أسرهم ونسائهم إلى قلعة دمشق واحتموا بأبراجها، ففقد الجنرال سراي توازنه واختلط عليه الأمر فقرر ضرب الشام بالمدافع من القلاع، وقد انطلقت المدافع نقصف بيوت دمشق على أهلها فالتهمت النيران والتدمير ما يربو على ستمائة دار من أجمل الدور الدمشقية، وخرج الفرنسيون ينهبون ويسلبون المدينة بصورة لم يعهد لها مثيل، ولا سيما الحوانيت والمخازن المملوءة بالبضائع. وقد استمر اطلاق المدافع من منتصف يوم الأحد إلى مساء الثلاثاء. فانسحب الثوار على أثر ذلك إلى الغوطة خوفا من تدمير دمشق بكاملها.

ومنذ ذلك اليوم انطلقت البطولات الاسطورية لحسن الخراط الذي يصفه الدكتور شهبندر بأنه رآه للمرة الأولى في قرية أم ضبيت من قرى جبل الدروز في أوائل شهر ايلول سنة 1925 فإذا هو رجل ربعة في نحو الخمسين من العمر، بوجه عربي

مستطيل، وجبهة بارزة وعينين شهلاوين تشعان ذكاء. وقد خط الشيب شاربيه ورأسه، وكانت الخفة ظاهرة كل الظهور في حركاته، ولعل ذلك ناشيء عن تمرنه على لعبة العصي، وهو دمشقي يعتمر بالعمامة الأغباني ويلبس القنباز وفوقه العباءة.

وكان حسن الخراط أميا، وقد صرف شطرا من حياته حارسا في الأسواق وناطورا في البساتين، واشتهر عنه في وقائعه مع الفرنسيين أنه لم يحتم بمتراس ولا شجرة بل كان يقف منهم على أبعاد قد لا تتجاوز المائة متر، وقد ظهرت عليه ميزات التنظيم والقيادة بحيث كانت عصابته مترابطة تأتمر بأمره وتنتهي بنواهيه، اشتراكي المبدأ، لو تناول تفاحة لعض منها عضة واحدة وفرق ما بقي منها على رفاقه. على أنه كان بطاشا بالخونة لا يرحمهم، وقد علق بعضهم على أبواب دمشق .. وقد استشهد اغتيالا من قبل الشركس في قرية يلده في 1925/12/21.

كانت حماه تعيش يوما بيوم، وبقلق وتأثر وحزن بالغ، أنباء نكبة دمشق. وقد أصبحت قصيدة أحمد شوقي فيما بعد "سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق" قصيدة شعبية تجري على ألسنة الناس جميعا، ولا سيما البيت المشهور :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

كما كنا نردد كثيرا قصيدة خير الدين الزركلي التي مطلعها :

الأهل أهلي والديار ديار وشعار وادي النيربين شعاري

والتي جاء فيها عن الفرنسيين :

ستروا بضرب الآمنين فرارهم فاعجب لعار ستروه بعار

كما جاء فيها :

النار محدقة بجلق بعدما تركت حماة على شفير هار

البطل رزوق النصر ينتقم :

كنا نجتمع نحن الصغار في الصباح الباكر قبل موعد الدرس، وكل منا يحمل خبرا سارا عن أخبار الثوار: عدية ومصطفى البشري ورزوق النصر الذين تمترسوا في حي الحاضر، وكنا نطرب أي طرب عندما نسمع أزير الرصاص أحيانا ونحن داخل الصفوف نتلقى الدروس، وأبلغ فرحة كانت عندما اغتال رزوق النصر الخائن عبدالله الشركس في وضح النهار.

كان عبدالله شركسيا من قرى حمص ارتكب جريمة قتل فحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكن القومندان كوتسلييير وهو يبحث عن قائد للدرك طاغية شرير ليسلطه على أهل حماه، ذكر له عبدالله الشركس، فذهب بنفسه إلى حمص، وأخرجه من السجن بعفو من المفوض السامي وعينه ضابطا برتبة نقيب في الدرك، وولاه قيادة حماه، فكان هذا الضابط أشد العملاء إيذاء للناس، وخاصة من كان من عامة الشعب منهم، فقد كان دأبه أن يمر كل يوم بالسجن، ويضرب بسوطه عددا من المعتقلين ضربا مبرحا، كوجبة يومية يقدمها تزلفا لأسياده المستعمرين، وكان رزوق النصر بين المعتقلين يتحمل التعذيب اليومي برجولة، حتى إذا انتهى قائد الدرك من تعذيبه في كل مرة كان يقول له:

- عذب يا عبدالله عذب .. يوما ما سيكون لي موقف معك.

فيعود عبدالله الشركس لضربه وتعذيبه حتى تهن يداه.

وكانت مدة السجن التي حكم بها رزوق من قبل المجلس العدلي قد انقضت، فخرج من السجن وأخذ يترقب غريمه حتى علم بأنه مدعو لإفطار رمضان عند آل السقاف بحي الحاضر، فتقلد بندقيته تحت عباءته وجلس على كرسي بجانب دكان في سوق الحاضر ينتظره، وحين قدم عبدالله نهض رزوق وتمشى حتى أصبح أمامه فمد بندقيته من مسافة لا تزيد عن المتر، مصوبا فوهتها الى رأسه وصاح به:

خذها يا عبدالله من يد رزوق نصر ولا تقول غدرتك غدر.

كانت الطلقة محكمة فأصابت عبدالله الشركس في دماغه فشالته عن الأرض ثم انطرح لا حراك به، وخطا روزق مبتعدا عن المكان، ولكنه خشي أن تكون طلقته غير مميته، فرجع، ونظر إلى وجه المجرم فوجد العين لا أثر لها، والجمجمة محطمة عندئذ أسرِع متغلغلا في الأزقة.

وفي الحوادث البطولية التالية، من العام ذاته سقط رزوق نصر شهيدا.

أولئك الشرفاء الذين أغنوا طفولتنا :

كنت أتتبع كل ما يكتب في الصحف والمجلات العربية عن أخبار الثورة وتطوراتها، وكانت تصل الى حماه وتباع بثمن باهظ لأنها مهربة. وكان الشعب في المدينة يغلي كالبركان متتبعا أخبار المعارك في جبل الدروز والغوطة وحي الميدان بدمشق، خطوة خطوة، وكانت أحب الأغاني التي كنا نرددها دوما :

يـا أمـي ليـه تـبكـي علــي انا المسافر عالجهاديه

صوت المدافع في الميدانزي الكمنجه والعيدان

وهي أغنية مصرية ولا أدري إن كانت من تأليف وتلحين الشيخ سيد درويش.

وقد تكونت في أذهاننا صور البطولات متجسدة بحسن الخراط وسعيد العاص وفوزي القاوقجي وسلطان الأطرش ومصطفى عاشور وأمثالهم.

كانت ذكريات ثورة عام 1925 من أنصع وأجمل ما مر بحياتي من ذكريات. ولا أزال أذكر كيف أنني كنت أشتري كل ما تقع عليه يدي من دواوين الثورة وأستظهر القصائد عن أبطالها ومعاركها ورثاء شهدائها كشهيد قرية حجيرة في الغوطة، وهو مختار القرية الذي ظل يدافع عنها وحيدا بعد أن انسحب منها الثوار، ومصرع الشهيد أحمد مريود في جباتا الزيت، والنكدي والعسلي وشهداء جبل العرب، وكنا نود لو كنا كبارا لنلحق بهؤلاء الثوار ونساهم بالمعارك، ونتعرف الى القادة الابطال، ولم يكتب في ذلك الوقت

شيء عن الثورة إلا طالعناه، ولم ينظم فيها شعر الا حفظناه وتدارسناه مع الرفاق في المدرسة وتبارينا في تلاوته واستظهاره، وقد جمعت قصائد الثورة في كتاب صدر آنذاك تحت عنوان : ديوان الثورة.

خيل إلى أنني سأكون شاعرا :

قضي على الثورة بعد عام، وكنا قد دخلنا مرحلة الدراسة الاعدادية، وربما كان لحفظ أشعار الثورة أثر كبير في نفوسنا، فانصرفنا مع مطالعاتنا المدرسية، إلى الأدب، وخيل إلي أنني سأصبح شاعرا أو أديبا كبيرا فبدأت أقرأ لجبران وميخائيل نعيمه والمازني وعباس العقاد وطه حسين وأمين الريحاني. كما أصبحت استظهر شعر شوقي وحافظ ابراهيم وخليل مردم وشفيق جبري ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وخيرالدين الزركلي.

وعندما بدأت مداركي تتسع صرت أجد متعة بمطالعة الكتب الأدبية الكبرى، كشرح المعلقات العشر للشيخ مصطفى الغلاييني، والكتب الكلاسيكية العربية كالأغاني والأمالي ولزوميات المعري، ودواوين ابن الرومي والمتنبي وأبي نواس وأبي تمام ... الخ.

من هم مواطنونا الدروز؟

منذ بداية الثورة عام 1925 بدأ تساؤلنا! من هم هؤلاء الدروز الذي أشعلوا الثورة؟ وما صلتهم بنا؟ وما هو مذهبهم؟ .. وكانت تلك التساؤلات طبيعية في البيئة العربية التي كانت فئاتها تعيش منعزلة عن بعضها البعض.

إن الثورة التي توقظ الوجدان القومي وتجعل الأفراد والمجتمعات تبحث عن هويتها القومية، تخرج هذه الفئات عن عزلتها وتدفعها في طريق التعاطف والتلاحم والتراحم والتعايش متجاوزة جميع ما خلفه عصر الانحطاط من أوهام وتمزق.

كان الدروز قبل الثورة عالما مجهولا بالنسبة إلينا. وكنت أسمع من الكبار وأنا صغير أن رشيد طليع الذي عينه الملك فيصل

متصرفا لحماه هو من الدروز. وأنه رجل إداري حكيم. ولم أكن أعي آنذاك ما تعنيه هذه الكلمة. ولكن بعد أن تفجرت الثورة صرت أفتش عما كتب عن جبل الدروز فلم أعثر الا على كتاب واحد ألفه عبدالله النجار مدير معارف الجبل في ذلك الوقت بعنوان "تاريخ بني معروف" فقرأته بنهم وشغف وتغيبت قسما هاما عن أشعار شبلي الأطرش الذي أعدمه الأتراك.

كانت الثورة بداية الاهتمام بمعرفة منشأ هذه الطائفة العربية اهتماما لم ينقض بانقضاء الثورة.

بدء تفتح الوعي السياسي للقضية الوطنية:

انفجرت الثورة في عهد حكومة صبحي بركات، فاضطر في 21 كانون الأول 1925 لتقديم استقالته للمفوض السامي دوجوفينل، بكتاب يحدد فيه لأول مرة، رغم أنه كان متعاونا مع الفرنسيين، المطالب الوطنية بالنقاط التالية:

"أولا تأليف مجلس تأسيسي يضع قانون البلاد الأساسي على أساس السيادة القومية.

ثانيا: انشاء حكومة دستورية تعتبر وحدها مسؤولة عن سياسة البلاد وإدارتها.

ثالثا: اعلان عفو عام بدون استثناء.

رابعا: قبول سوريا عضوا في عصبة الأمم.

خامسا: تحقيق الوحدة السورية بضم جبل الدروز والعلويين والأقضية الأربعة.. لأن الوطنيين السوريين يعتبرون أن بلادهم تجمعها وحدة حقيقية في العادات والتقاليد والآمال والآلام والعنصر واللغة وعوامل اقتصادية وجغرافية".

فأمرالمفوض السامي بتشكيل حكومة برئاسة فرنسي هو (بيير أليب) في 21 شباط 1926 لكن هذه الحكومة استقالت في 26 نيسان 1926. فعين المفوض السامي الداماد[7] أحمد نامي

(7) الداماد هو لقب كان يحوزه من يصاهر سلاطين آل عثمان.

رئيسا للدولة ورئيسا للوزراء فألف ثلاثة وزارات متتالية من 26 نيسان 1926 الى 8 شباط 1928، إلى أن تشكلت وزارة جديدة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني بتاريخ 15/شباط/ 1928.

أما وزارة الداماد الأولى فقد تألفت على النحو التالي :

الداماد أحمد نامي رئيسا للدولة والحكومة.

حسني البرازي وزيرا للداخلية.

شاكر نعمت الشعباني وزيرا للمالية.

فارس الخوري وزيرا للمعارف.

لطفي الحفار وزيرا للأشغال العامة والتجارة.

واثق المؤيد العظم وزيرا للزراعة والاقتصاد.

□

ألف المفوض السامي دوجوفنيل، هذه الحكومة والثورة السورية لم تزل مشتعلة. واعتبر فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي ممثلين فيها للجانب الوطني.

وقد روى عارف النكدي فيما بعد: "استدعتنا المندوبية بعد تكليف الداماد أحمد نامي برئاسة الحكومة إلى دارها في محلة الشهداء- للمباحثة في تأليف الوزارة. وكان المدعوون: فارس الخوري وحسني البرازي ولطفي الحفار من الكتلة الوطنية، وفوزي الغزي استاذ معهد الحقوق، ورشيد الحسامي المدعي العام في التمييز وعارف النكدي مدير العدلية من الموظفين وشاكر الشعباني من جماعة السلطة، وكان مجلس المندوبين مؤلفا من المندوب بيير أليب والجنرال كاترو ومن القائم بضبط وقائع الجلسة، وبعد أن طلب بعضنا معرفة الأسس التي تتألف الوزارة عليها ورآها عقيمة غير متفقة مع مطالب البلاد المشروعة، وكاد الاجتماع ينتهي، عاد أحدنا لطفي الحفار يقول للمندوب إني قابل بهذه الشروط. ووجد المندوب الفرصة مواتية لاستئناف البحث. وكان الوضع من الحراجة بحيث لا بد من تأليف وزارة يموه بها على

الشعب. فعاد يسأل المجتمعين فردا فردا عما يقول كل منهم. فرفض فوزي الغزي ورشيد الحسامي وعارف النكدي أن يدخلوا الوزارة. فتألفت من ستة وزراء منهم الخوري والحفار والبرازي. وقبول هؤلاء الثلاثة بالوزارة في تلك الأيام العصيبة كان معناه المجازفة وإن رأى غيرهم فيه إضعافا معنويا للثورة القائمة.

□

قرأت باهتمام البيان الوزاري المطبوع الذي وزع على الأهلين في جميع المدن بعنوان "بيان الحكومة السورية المؤقتة الى الشعب السوري الكريم" ومن الرجوع الى صحف تلك الفترة نجد أن الحكومة حددت المطالب الوطنية بعد مقدمة طويلة، بالنقاط التالية :

"إن حكومتنا قد اتخذت لأعمالها البرنامج الآتي الذي تسعى لتحقيقه:

1- دعوة الجمعية التاسيسية لتتولى سن دستور البلاد على قاعدة السيادة القومية.

2- تحويل الانتداب الى معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا لمدة ثلاثين سنة تعين فيها الحقوق والواجبات والعلائق المتقابلة بين الاثنين، مماثلة للمعاهدة المعقودة بين بريطانيا والعراق، ولا تكون هذه المعاهدة نافذة إلا بعد تصديقها من البرلمان السوري، ويحتفظ فيها لفرنسا بالنفوذ السياسي والرجحان الاقتصادي فقط على شرط عدم الاخلال بالسيادة القومية.

3- تحقيق الوحدة السورية بالوسائل التي باشرنا بإجرائها منذ الآن، وستظهر للأمة نتائجها المثمرة في القريب العاجل إن شاء الله.

4- توحيد النظام القضائي على قاعدة السيادة القومية بصورة تصون حقوق الوطنيين والأجانب معا.

5- تأليف جيش وطني بحيث تتمكن القوات الفرنسية من الجلاء التدريجي عن البلاد.

6- طلب ادخال سوريا في عصبة الأمم واعطائها حق التمثيل الخارجي أسوة بالعراق.

7- درس اصلاح النظام النقدي الحالي واعادة الأساس الذهبي في عملة البلاد الرسمية بصورة تدريجية.

8- استحصال العفو العام عن جميع أصحاب الجرائم السياسية مع الاحتفاظ بالحقوق الشخصية.

9- استحصال قرار بإلغاء الغرامات الحربية عن دمشق وغيرها.

10- ايجاد طريقة للتعويض على منكوبي الثورة".

وبعد ستة أسابيع أقال المفوض السامي الوزراء الوطنيين الثلاثة من الحكومة، وأودعهم قيد الاقامة الاجبارية، فألف الداماد أحمد نامي وزارته الثانية فالثالثة ...

فرنسا تصطنع الشيخ تاج

لم تستقر الأوضاع خلال عهد الحكومات الثلاث التي كانت برئاسة الداماد أحمد نامي بك، منذ عام 1926 حتى عام 1928. فأرادت فرنسا اصطناع زعيم سياسي تؤمن بواسطته الخنوع للانتداب، فلجأت لاستغلال الدين كما فعلت في المغرب العربي والجزائر وكما فعل نابليون في مصر سابقا.

كان الشيخ بدر الدين الحسني رجل دين يبدو عليه أنه كان منقطعا للعبادة والتصوف فأغراه الفرنسيون بأن يقوم بجولة في المدن السورية مصطحبا معه ابنه الشيخ تاج الدين الحسني الذي سيكون صنيعتهم.

ولا أزال أذكر كيف خرجت حماه عن بكرة أبيها لاستقبال الشيخ بدر الدين استقبالا يفوق الوصف، فقد كانت الانتماءات الصوفية من أقوى المحركات الاجتماعية في الأوساط الشعبية التي ورثت تخلف خمسة قرون من الحكم العثماني وفي تلك

الفترة ازداد عدد اللفات البيضاء على رؤوس الناس بشكل ظاهر، وجعل المشايخ أبناءهم الأطفال يتعممون بلفات بيضاء كبيرة، مما كان موضوع تندر المثقفين، حتى أن شاعرا حمصيا، وقد شهد مثل هذا الاستقبال في بلدته، أبدع قصيدة لاذعه لا مجال لذكرها هنا ... وهكذا أرادت فرنسا أن تستغل العاطفة الدينية البريئة لدى أبناء الشعب البسطاء تمهيدا لتعيين الشيخ تاج الدين الحسني رئيسا للوزراء في 15 شباط 1928.

في عهد هذه الوزارة أجرى المسيو بونسو، المفوض السامي، انتخابات لجمعية تاسيسية وطنية نجح فيها الوطنيون وسيطروا على الجمعية التي عقدت أول اجتماع لها في 9 حزيران 1928، وقد عهدت هذه الجمعية إلى لجنة خاصة بوضع مشروع الدستور، فوضعته وقدمته للجمعية في 7 آب 1928 لمناقشته وإقراره، وقد اعترضت السلطة الفرنسية على المواد: 2 - 73 - 74 - 75 110 - 112 وطلبت طيها من الدستور، فرفضت الجمعية طيها رفضا باتا، فأجل المفوض السامي اجتماعات الجمعية لمدة ثلاثة أشهر ثم مددها ثلاثة أِشهر أخرى ثم أجل اجتماعها الى أجل غير مسمى.

في تجهيز مكتب عنبر بدمشق

كانت إدارة العلم والتربية تضيف صفا جديدا سنة بعد سنة، ثم توقفت عن الاضافة عند الصف الثامن فأصبحت مضطرا للانتساب الى مدرسة التجهيز في حماه أو دمشق، وكان أهلي بحالة مادية قلقة وضعيفة بعد أن تصرفوا بثمن قرية البياضية تسديدا للديون وتغطية لخسارتهم في أعمال فاشلة، ومع ذلك فقد أرسلوني إلى دمشق بصحبة عمي مصطفى الذي كان يتابع دراسته في معهد الحقوق، فانتسبت لتجهيز "مكتب عنبر"[8] وهو المدرسة الثانوية الأولى في سورية منذ العهد العثماني.

(8) اشتهرت هذه المدرسة القديمة بهذا الاسم نسبة لصاحب البناء الذي شغلته، وهو تاجر يهودي دمشقي يدعى عنبر، صادرت السلطة في أواخر العهد التركي بيته "وفاء" لديون استحقاقات، وتقع مدرسة عنبر في الحي اليهودي بدمشق.

سافرنا إلى دمشق بالقطار، إذ كانت واسطة السفر الوحيدة تقريبا آنذاك. كان الطريق طويلا وكانت مشاعري مضطربة جدا: إنه الاغتراب.

وكانت السنة الأولى من اغترابي عن حماه صعبة للغاية كنت مصابا بما يسمونه مرض الوطن، فكنت أشعر دائما بالغربة والكآبة والحنين المتواصل إلى أهلي وبيتي ومدينتي، ولم يحن موعد العطلة نصف السنوية حتى سهرت الليل بطوله انتظر مطلع الفجر لأعود إلى حماه، حالة من المشاعر والعواطف لا يمكن وصفها ... ثم ألفت دمشق بعد ذلك شيئا فشيئا، وأحببتها حبا أزال غيوم الكآبة والغربة، بل أصبح مرأى دمشق فيما بعد العزاء والرجاء فيما نلاقيه من نفي وتشريد.

عشت في دمشق مع عمي مصطفى في بيت واحد عيشة ضنك وتقتير. فقد ذاب ما بقي من ثروة، ولم يبق للعائلة إلا قرى حرمل ومتنى وقرطمان، وكانت الأحوال الاقتصادية في سوريا سيئة بصورة عامة، ولولا الإدارة الصالحة للوالدة لما أمكن لنا أن نخرج من تلك السنوات، ولما تمكنت من متابعة الدراسة.

التعرف على الشعراء والزعماء الوطنيين في دمشق :

كان عمي مصطفى شابا وطنيا صادقا، ومرشدا لي أثناء اقامتي معه في دمشق، وكنت على صغرسني صديقا له، فتعرفت بواسطته على رفيقه في مدرسة الحقوق الشاعر أمين نخلة، والشاعر محمد البزم، وغيرهما من أصدقائه ومعارفه. وكنت أستمع إلى أحاديثهم، وأتقصد الذهاب الى الحفلات السياسية والمناسبات الوطنية لأرى فوزي الغزي وهاشم الأتاسي وابراهيم هنانو والزعماء الآخرين ... وكنا نتابع باهتمام نضالهم السياسي ضد فرنسا. وكانت تلك الحفلات الوطنية بمثابة المعهد الذي تعرفنا فيه، من أفواه الزعماء، على تاريخ القضية الوطنية وتطوراتها.

انني ما أزال أذكر ذلك الاحتفال الذي أقيم في بيت الوجيه الدمشقي توفيق القباني[9] ، واستمعت فيه لأول مرة الى المرحوم فوزي الغزي.. ومن الرجوع الى مجموعة عام 1928 لصحيفة القبس نجد في العدد الصادر بتاريخ الحادي والعشرين من حزيران الوصف التالي لذلك الاحتفال :

"أخذت جموع الوطنيين من أعيان وعلماء ومحامين وصحفيين وتجار وطلاب وعمال يحتلون المقاعد المصفوفة في ساحة الدار الكبرى، يستقبلهم الشباب الناهض. وكان النواب يستقبلون بالتصفيق عند وصولهم، وخصوصا هاشم الأتاسي رئيس المجلس ... ثم افتتح الشبان الحفلة بالنشيد الوطني المعروف "سورية يا ذات المجد" ثم وقف ثابت أفندي القباني فحيا المجلس وأعضاءه ورئيسه الكريم هاشم بك الأتاسي وزعيمه الجليل ابراهيم بك هنانو، ثم ألقى الاستاذ أديب أفندي الصفدي صاحب جريدة الشعب خطابا بليغا استعرض فيه القضية الوطنية. ثم وقف سعادة النائب المحترم الاستاذ فوزي بك الغزي فالقى خطابا خطيرا هو عبارة عن أطروحة سياسية حوت جميع أدوار القضية السورية والحركة الوطنية، وتحدث بعده سعادة النائب المحترم الأستاذ فائز بك الخوري فقال : إن مصيبتنا من التفاهم نفسه لأننا عالمون ما يراد بنا وهم عالمون ما نريد، ثم ألقى الشاعر اللبناني الرقيق السيد ادوار صعب الطالب في معهد الحقوق، قصيدة وطنية مؤثرة. وفي الختام كانت كلمة حضرة النائب السيد فخري بك البارودي المرحة واختتمت الحفلة بالنشيد الوطني المعروف : أنت سورية بلادي".

انني لا أزال أتذكر بوضوح ودقة كل لحظة من لحظات ذلك الاحتفال الكبير، كما لا أزال أحمل بين جوانحي ذلك الاعجاب بخطاب المرحوم فوزي الغزي وبلاغته ووعيه للقضية الوطنية.

□

كانت الكتلة الوطنية مؤلفة من اندماج عدة أحزاب، أبرزها حزب الاستقلال[10] وحزب الشعب الذي أسسه الدكتور عبد

---

(9) والد الشاعر نزار القباني.

(10) تشكل حزب الاستقلال أواخر العهد العثماني وكان من نتاج جمعية العربية الفتاة، ويعمل بكل ما تود الجمعية عمله في مختلف الميادين لنشر المبادىء الوطنية وتقوية الشعور العربي ولم يكن له برنامج متميز عنها بل كان الارتباط وثيقا بين التشكيلين، وقد تمتع الحزب في سورية بشهرة

الرحمن شهبندر. وكان رجال الكتلة الوطنية في تنافس يجري في الخفاء بين الدكتور شهبندر والفريق الآخر. على أن ذلك الخلاف أو الانقسام لم يظهر علنيا. وكان عمي مصطفى من أنصار الكتلة بينما كنت من أنصارالدكتور شهبندر، فكنت أقرأ ما يكتبه في مجلات المصور والمقتطف والصحف المصرية وأتتبع نشاطه العربي والوطني.

وبعد أن حضرت ذلك الاحتفال واستمعت إلى خطاب فوزي الغزي، أصبحت أرى فيه رجلا لا يقل عن الدكتور شهبندر ثقافة واطلاعا. ويبدو أن تقييمي هذا، رغم صغر سني آنذاك، كان تقييما صائبا، ولقد ازداد اعجابي بفوزي الغزي عندما أصبحت نائبا في مجلس عام 1943، واضطررت ان أعود الى محاضر الجمعية التأسيسية التي وضعت دستور عام 1928، وكان فوزي الغزي مقررها، لذلك لقب بأبي الدستور، وانني إذ اثبت فيما يلي القسم الأخير من خطابه الطويل الذي أصغيت إليه باهتمام فلأنه يستعرض فترة هامة من تاريخ سورية كما يستعرض مقالب السياسة الاستعمارية للحركة الوطنية وقيادتها، مما جعلهم يتخبطون في أحابيلها بعد إخفاق الثورة، بدلا من أن يعدوا العدة لثورة أخرى فيهيئوا جميع الوسائل لانجاحها، وقد تمكن الاستعمار الفرنسي، مع الزمن أن يرسخ روح المساومة على السيادة لدى تلك القيادات.

قال المرحوم فوزي الغزي في ذلك الاجتماع :[11]

"حل المسيو بونسو محل المسيو دوجوفنيل سنة 1926، وعكف على درس القضية السورية طويلا، ثم زار باريس وعاد منها فنشر على أثر عودته

كبيرة وانتشار واسع اختفت وراءهما شهرة العربية الفتاة، أسس له فروعا في المدن السورية، وانضم له الى جانب أعضاء الفتاة الكثيرون من الزعماء والاعضاء ممن لا يمكن أن يكونوا في التشكيل السري للعربية الفتاة .. بلغ المنتمون إليه الألوف من السوريين، كما انتمى إليه بعض العرب من الاقطار العربية الأخرى، الدكتورة خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص 68.

(11) كان خطاب فوزي الغزي عن العملية الدستورية وأنها موضوع أمر داخلي بحت لا علاقة للسلطة المنتدبة به إحدى القضايا التي تمحور حولها نضال الشعب السوري سنوات طويلة، كما كان موضوع أول خطاب ألقيته في أول جلسة حضرتها عام 1943 عندما انتخبت نائبا لأول مرة وذلك عندما طالبت بإلغاء المادة 116 التي اضافها المندوب السامي الفرنسي على دستور 1928، وسيأتي تفصيل ذلك ضمن التسلسل الزمني الذي اعتمدته.

في تموز 1927 بيانا صرح في البند الثالث منه أنه سيبقى متمسكا بالسياسة التي حددها المسيو دوجوفنيل، فلم يتأخر الوطنيون عن مد أيديهم الى المسيو بونسو هذه المرة ايضا برغم ما حل في بلادهم من نكبات وما أصاب مدنهم من خراب ودمار، وبرغم وجود كثير من الزعماء النافذين خارج البلاد وفي المنافي والسجون، وبرغم وجود كثرة القائلين بعدم إمكان التفاهم على أساس يضمن صالح البلاد.

لقد عقدوا مؤتمرا في بيروت في 25 تشرين الأول 1927، ووضعوا بيانا أذاعوه في الصحف وأبلغوه إلى المفوضية فحبذته الصحف الفرنسوية والسورية على السواء، ومن جملة ما جاء في هذا البيان قول واضعيه طلبتم منا الصبر فصبرنا، وحسن الثقة فوثقنا، فهل يا ترى يرضيكم بقاؤنا منفيين وشاكين مقيدي الحرية مفككي الأجزاء؟ إننا لا نصدق ذلك ولا نريد أن نصدقه، إننا عندما نطلب منكم النظر في قضيتنا بإنصاف، وعندما نسألكم تعديل ما هو ضروري تعديله، وإصلاح ما هو واجب إصلاحه من الأحوال والتدابير غير المرضية تتهموننا بأننا أعداؤكم، هذا هو لسان حال الأمة نعيده على مسامع فخامتكم ونزيد عليه بأننا لسنا أعداء فرنسا التي عرفناها بعلمها وحريتها ومدنيتها وتفانيها في خدمة المباديء الانسانية، ولذلك قصدنا بهذا الاجتماع أن نذكركم بأن الأمة السورية مستعدة لمد يد الصداقة والمصافحة ونسيان الماضي المؤلم كلما وجدت لتحقيق أمانيها وسيادتها القومية سبيلا".

أصدر المؤتمر هذا البيان فلم يمض عليه قليل حتى دعت المفوضية العليا اثنين من زعماء الوطنيين وفاوضتهما بأمور ذات بال تتعلق بمصير البلاد، فأعربا عن رغبتهما الحسنة واستعداد الوطنيين للتعاون النزيه مع الحكومة الفرنسوية على أسس تضمن استقلال سوريا ومصالح فرنسا الحقيقية، وبينما كان الوطنيون ينتظرون تحقيق أماني الأمة ببرنامج واضح صريح وعفو تام شامل عن جميع المحكومين والمبعدين، اكتفت المفوضية حينئذ بإذاعة بيان دعت فيه الأمة السورية إلى الاشتراك في الانتخابات لتأليف جمعية تأسيسية تضع دستور البلاد على اساس قانون الانتخاب القديم المملوء بالنقائص والعيوب، واقتصرت في العفو على اعادة حرية بعض المعتقلين والسماح لبعض المحكومين بالعودة لبلادهم، ولم تعالج قضية الوحدة ولم تبحث بقية مطالب الأمة السورية.

على أن الوطنيين الذين يتهمهم البعض بالغلو والاغراق قرروا هذه المرة الثالثة أيضا في مؤتمر عقدوه في دمشق في آذار 1928 دخول معركة الانتخابات .. وخاضوا المعركة فعلا دون أن يجابوا على مطلب واحد من مطالبهم أو يعدل حرف واحد من قانون الانتخاب في مصلحتهم، كل ذلك ليبرهنوا للعالم أجمع على أنهم حريصون على تثمير سياسة التعاون النزيه، صادقون في تصريحاتهم، مقدرون موقف بلادهم السياسي حق قدره.

اجتمعت الجمعية التأسيسية في مثل هذا اليوم من السنة الفائتة بحضور المفوض السامي المسيو بونسو الذي ألقى خطابا قابله عليه الأعضاء بالتصفيق. وقد قال في خطابه ما نصه بالحرف الواحد: "وعندما تنتهون من مهمتكم هذه ويكون قد حان الأجل لتشييد العلاقات بين فرنسا وسوريا على دعائم متينة تتفق مع ما تصبو اليه نفوسكم ونتوق إليه نحن أيضا، من إجراء المفاوضات اللازمة لإبرام معاهدة تفسح لنا مجالا لاستنباط طرق الحل لكافة المسائل التي تشغلنا سوية".

ثم تولت لجنة انتخبتها الجمعية التأسيسية وضع مشروع الدستور، وبعد بحث استغرق أربعين يوما عرض المشروع على الجمعية التاسيسية فأقرته بمجموعة، ثم وقع خلاف بين السلطة والجمعية بسبب ست مواد وردت في صلب الدستور، فتأجلت الجمعية ثلاثة أشهر ثم تكرر التأجيل ثلاثة أشهرأخرى... لم تخرج الجمعية التأسيسية في كل اجتماعاتها ومذكراتها عن التقاليد البرلمانية، ولم تشذ في موقف من مواقفها عن القواعد النيابية المألوفة في العالم المتمدن، **وقد صرح غير واحد من رجال فرنسا الأحرار الذين تتبعوا خطوات الجمعية التأسيسية خطوة خطوة وقرأوا محاضر جلساتها وتصفحوا أقوال خطبائها، أخص بالذكر منهم المستشرق المعروف المسيو ماسنيون: ان هذه الجمعية لم تكن أقل ثقافة وخبرة من مثيلاتها في البلاد المتمدنة الحديثة العهد في حياتها النيابية.**

إن الوطنيين المقدرين وضع البلاد السياسي حق قدره لم يتجاهلوا موقف فرنسا الحاضر في سوريا ولم يقدموا على سياسة التعاون النزيه إلا للتوفيق بين استقلال سوريا المنشود ومصالح فرنسا الحقيقة من جهة، ولانقاذ البلاد من هذا الموقف المتبلبل الذي أضر بمصالحها الاقتصادية والعمرانية من جهة ثانية، حتى يسود السكون وتطمئن النفوس وتستقر

المسؤوليات على أصحابها فتسير البلاد وبخطوات واسعة نحو الرقي المطلوب والاستقلال الكامل المرغوب فيه، **ويرى الوطنيون أن الدستور عمل داخلي بحت وقانون ذو طرف واحد يقر سيادة الأمة ويحدد السلطات الوطنية ويبين شكل الحكومة وما يترتب على رجالها من واجبات ويضمن للأفراد والجماعات حريتها وحقوقها.** وإن المعاهدة التي ستعقد بين فرنسا وسوريا هي التي يجب أن تتولى تحديد العلاقات بين الفريقين، وليس هذا الرأي ابن يومه، فالوطنيون في الوزارة المؤلفة سنة 1926 ذكروا في بيانهم الذي أقره المسيو دوجوفنيل أن الحقوق والواجبات والعلاقات المتقابلة بين الأمتين يجب أن تحدد في معاهدة، وليس في هذا الرأي اي شطط ولا شذوذ، فالدساتير تثبت الحقوق عادة وتدونها، والمعاهدات تقيدها وتحددها، فهذا دستور العراق، وهو مؤلف من 123 مادة وموضوع في آذار سنة 1925 بعد عقد المعاهدة الانكليزية العراقية وليس فيه كلمة واحدة تشير الى حقوق وواجبات الفريقين، وهذا دستور مصر وهو مؤلف من 170 مادة وموضوع في 19 نيسان 1933 بعد تصريح 28 فبراير 1922 ولم يحتو شيئا من تحفظات هذا التصريح، فكما أن دستوري العراق ومصر لم يبطلا المعاهدات والتحفظات التي سبقتاه، كذلك الدستور السوري لا يعقل ان يغير شيئا في أوضاع البلاد الخارجية، ولا عبرة لتقدم المعاهدة على الدستور أو تأخرها، فالمعاهدات أشد تاثرا وأقوى مفعولا من الدساتير.

(ثم تحدث الغزي بالتفصيل عن المواد الست من الدستور التي وقع عليها الخلاف بين الجمعية التأسيسية والسلطة الفرنسية فقال:

طلبت المفوضية العليا في جلسة 9 آب 1928 حذف المواد الخمس من صلب الدستور وتعديل المادة الثانية منه فلم تشاطرها الجميعة التأسيسية الرأي، فأبلغتها في 11 آب قرار تأجيل جلساتها إلى ثلاثة أشهر.

ثم سافر المسيو بونسو المفوض السامي في 25 ايلول 1928 قاصدا باريز، وكان الأمل أن لا يطول غيابه عن سوريا، لا سيما وأن التوفيق بين النظريتين كان ميسورا بطرق مختلفة تضمن لفرنسا مصلحتها ولسوريا عزها وكرامتها، فتقدم المعاهدة على الدستور كما حصل في العراق أو تسبق الدستور تحفظات فرنسوية كما وقع في مصر، ولكن انقضت مدة التأجيل ثلاثة أشهر كاملة والمسيو بونسو لم يرجع بعد. فتقرر تأجيل الجمعية ثلاثة أشهر أخرى تنتهي في 11 شباط 1929، وقد وصل المسيو بونسو الى بيروت عائدا

من فرنسا ولم يحضر الى دمشق، وسلم الى رئيس الجمعية التأسيسية اقتراحا في 11 كانون الثاني أقل ما يقال فيه أنه مبطل العمل بأحكام الدستور بكامله. وقد تقدم مكتب الجمعية التاسيسية باقتراح مقابل فكان رد المفوض السامي كتابا يقضي بتعطيل أعمال الجمعية الى أجل غير مسمى. (وقد قرأ فوزي الغزي في خطابه نصوص هذه الكتب والاقتراحات المتبادلة).

على هذه الصورة جرت التجربة الثانية في عهد المسيو بونسو، فبدأت أيها السادة بخطاب نزيه بريء وانتخابات حرة ثم ما كادت تتقدم الى الأمام قليلا حتى اصطدمت بالعقبة التي اصطدم بها برنامج المسيو دوجوفنيل.

يقولون أيها السادة أن جمعية الأمم لا تريد لكم هذه الحرية ولا تاذن بمثل هذا الدستور، ولا أعلم إذا كان من المعقول في كثير أو قليل أن الجمعية التي كانت تدعو بالأمس الوطنيين السوريين للتعاون مع المسيو دوجوفنيل على أسس سياسية جديدة تقوم مقام سياسة قديمة اعترف بأسوائها وشرورها، تأتي اليوم فتطالب الوطنيين أنفسم بأن يكونوا من أنصار تلك الأسواء والشرور، ولا أدري أنه إذا صح أن جميعة الأمم لا تريد لنا الاستقلال والحرية، وهل انتهى أمر كل ذلك وأصبح من واجبنا أن ننسى كل أمل في الحرية والاستقلال؟ ...

قد تكون جمعية الأمم في جانب غيرنا، وقد تجري الرياح في جنيف بما لا نشتهيه في سوريا، ولكن كل ذلك لا يضعف من عزائمنا ولا يفت في عضدنا، فالحق حق مهما ضعف أنصاره وقل مؤازروه، والمطالبة بالحق بالطرق المشروعة القانونية فرض على كل شعب يريد الحياة وينشد الحرية، فسيروا أيها السادة سيرتكم الأولى وطالبوا بحقكم كاملا غير منقوص فلا يضيع حق وراءه مطالب".

فجيعة سوريا باغتيال الغزي :

في 6 تموز 1929 توفي فوزي الغزي مسموما، وذهب ضحية خيانة زوجته وأقربائه، فهز نبأ وفاته البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وانتشر حزن عميق في سوريا والبلاد العربية جمعاء.

وظلت الصحف السورية واللبنانية والمصرية أكثر من اسبوعين تنشر أصداء الفجيعة في مختلف البلدان العربية، والقصائد وكلمات الرثاء، ومنها قصيدة الشاعر أحمد شوقي التي مطلعها :

جرح على جرح حنانك جلق حملت ما يوهي الجبال ويرهق

وبعد أن يذكر ثورة عام 1925 يخاطب الغزي قائلا :

يا واضع الدستور، أمس كخلقه ما فيه من عوج ولا هو ضيق

نظم من الشورى وحكم راشد أدب الحضارة فيهما والمنطق

لا تخش مما ألحقوا بكتابه يبقى الكتاب وليس يبقى الملحق

ويقصد شوقي المادة 116 التي ألحقت بالدستور تحت اسم "تحفظات الانتداب" .. ثم يصف الجريمة فيقول :

طلبوك والأجل الوشيك يحثهم ولكل نفس مدة لا تسبق

لما أعان الموت كيد حبالهم علقت، وأسباب المنية تعلق

طرقت مهادك حية بشرية كفرت بما تنتاب منه وتطرق

عشقت تهاويل الجمال ولم تجد في العبقرية ما يحب ويعشق

فمشت كأن بنانها يد مدمن وكأن ظل السم فيها الزئبق

كان الناس يرددون بحزن وحرقه وألم العديد من تلك القصائد وكلمات الرثاء، كما كانوا يرددون بعض كلمات الفقيد الكبير التي

كان يوجهها للشباب في بعض المناسبات، مثل قوله في خطاب كان قد ألقاه في مدرسة بعاليه في لبنان:

"سعداء أنتم معشر الشباب لأن الحياة أمامكم، إن جدل الحياة انتقل أيها الشباب من ميادين الحروب إلى مقاعد المدارس، فالأمم الضعيفة في ثقافتها وعلومها ضعيفة في استقلالها، أن للشرق دائين: الجهل وضعف الوطنية، فكافحوا إذن أيها الشباب الجهل بالعلم، وضعف الوطنية بتربية صحيحة".

3

1928 - 1933 : من مكتب عنبر في دمشق إلى دراسة الطب في الجامعة اليسوعية في لبنان - انتخابات عام 1932 ومحاولة اغتيال صبحي بركات.

في الكلية الوطنية بعاليه في لبنان :

أنشأ الفرنسيون نظام البكالوريا عندما كنت في الصف التاسع. وهذا يتطلب تقوية اللغة الفرنسية، لذلك اضطررت بعد نجاحي من الصف العاشر أن أقضي العطلة الصيفية في الكلية الوطنية بعاليه في لبنان فقد كنت ضعيفا باللغة الفرنسية بسبب ضعف الأساتذة، وحقدا على فرنسا، ورغم الدروس الخصوصية اثناء العطل، وجهود "مكتب عنبر" لتقويتنا باللغة الفرنسية فإن جهودنا كانت منصبة على دراسة اللغة العربية والفكر الأدبي والتاريخ والشعر العربي. وها قد داهمتنا البكالوريا التي خصت اللغة الفرنسية فيها بعلامات تعادل علامات اللغة العربية تماما.

وفي الكلية الوطنية بعاليه، وهي الكلية العائدة لمارون عبود، أبي محمد، الأديب والناقد العربي المعروف انهكمت بمطالعة الأدب الفرنسي ودراسة عصر الرومانتيك وأشعار لامارتين وألفريد موسيه وقصصهما في غرازييلا ورافاييل، وكنت أجد صعوبة في ترجمتها وفهمها.

وفي هذه المدرسة التقيت بعدد من الطلاب السوريين كمحمد السراج وشكيب الجابري، ومارست أول احتكاك فكري مع الشباب اللبناني، فقد كنت أقيم في غرفة واحدة مع سمير معوض، وهو شاب لبناني تخرج فيما بعد طبيبا، كنت معه دوما في جدل مستمر حول القومية العربية والقومية اللبنانية.

وذهبت مع الطلاب ذات يوم في رحلة إلى شاغور حمانا، فالتقينا هناك صدفة بالنائب والسياسي والمحامي يوسف السودا، فدعانا إلى الغداء، وكنا خليطا من مختلف البلاد العربية، فدار نقاش طويل بيننا نحن الطلاب المؤمنين بالقومية العربية والوحدة العربية وبين يوسف السودا الداعية للقومية اللبنانية، كان

يوسف السودا محدثا بارعا لطيفا وذكيا، وكان يبدي استغرابه وتعجبه من أجماع الطلاب العرب واقتناعهم بالقومية العربية. وكان يعتبر الوحدة العربية ضربا من الأوهام.

كانت دراستي الصيفية في عاليه مناسبة لمتابعة السياسة اللبنانية في الصحف والمجلات لا سيما "المعرض" لمشيل زكور وإدراك ما يجري في هذا القطر العربي من تيارات فكرية وسياسية، كما كنت أجد متعة كبرى بقراءة ما تنشره الصحف البيروتية بين الحين والحين عن أخبار مجاهدي الثورات السورية الذين اجتازوا منطقة صحراوية قاسية، بين شرقي الأردن ونجد، وصمدوا فيها عدة سنوات، رغم قساوة ظروف المعيشة، ورغم مسؤوليتهم عمن معهم من أسر وأطفال، دون أن تهن لهم عزيمة أو يقبلوا بالاستسلام.

وإنني لا أزال أذكر كيف قرأت بشغف واهتمام ريبورتاجا طويلا ترجمته جريدة الأحرار التي كان يصدرها جبران التويني، وقد كتبته صحافيه فرنسية زارت اولئك المجاهدين الصامدين، بمساعدة رياض الصلح الذي غامر باصطحابها الى تلك المجاهل الصحراوية اللاهبة بعد أن جعلها تتنكر بزي امرأة بدوية وقد رجعت عند كتابة هذه المذكرات إلى مجموعة جريدة الأحرار التي نشرت المقال بتاريخ 29/8/19 وورد فيه :

"مضت ساعات والسيارة تنهب الأرض نهبا في الصحراء الحمراء الرمال، الحرارة درجتها 45 في الظل و 60 عندما نجتاز نقطة تكتنفها الأحجار البركانية السوداء فتنعكس عليها الشمس وترسل منها جوا يخال لك معه أنك أمام فوهة لاهبة تتمازج فيها المعادن.

رمال، ثم رمال، لا شيء يتحرك ولا شيء يهتز في تلك الصحراء المملة والجميلة معا، أمن الممكن أن يعيش الانسان والحيوان في مثل هذه البقعة من الأرض، وأن تقام فيها البيوت؟

سرنا مئات الكيلومترات، دون أن يعترضنا مخلوق، واعتراني اليأس وكدت أقول علام السير؟

وإذا بمضارب الثوار تبرز فجأة وسط بقعة تتخللها حجارة سوداء، ويركض الأولاد عند رؤيتنا، وتزغرد النساء، ويحدق بنا رجال كأنهم من محاربي العصور القديمة عليهم مظاهر الهيبة والكبرياء.

وتقابل الصحافية الأمير عادل أرسلان[1] وسلطان باشا الأطرش، وتصف الأمير عادل بأن مظهره هو أقل عنجهية مما يبدو في صوره، كما أنه يتكلم لغة فرنسية لا شائبة فيها، ويعرف كيف يستقبل ببشاشة، وتسأله :

- هل تقيمون هنا منذ زمن طويل ؟

- لقد ثرنا منذ ثلاث سنوات، ونحن هنا منذ عام، وقد كنا سابقا في الأزرق ولكن المستنقعات فيها كثيرة، ولذلك جئنا الى هنا

(1) الأمير عادل ارسلان (شقيق الأمير شكيب أرسلان الكاتب والمترجم والمؤرخ الواسع الاطلاع والداعية للعروبة والاسلام والمدافع عنهما في النصف الأول من هذا القرن، أمضى معظم حياته في جنيف عضوا بالمكتب السوري الفلسطيني بسويسرا مقر عصبة الأمم). اشترك الأمير عادل فعليا في قيادة ثورة عام 1925 اطلق عليه لقب رب السيف والقلم وكان الى علمه وثقافته أديبا شاعرا، ومن أشهر قصائده قصيدة "يا ساهرا في النبك" التي يصف فيها أحوال المجاهدين بعد أن انتقلوا في لجوئهم من صحراء الأزرق بالاردن الى صحراء "النبك" في نجد، حيث زارتهم تلك الصحفية الفرنسية، وقد ظلوا في صحراء النبك الى ما بعد عام 1933.. وهذه هي القصيدة :

طال انتظاري للنهار الصبيح ماذا عن الاجفان لو تستريح
شرار فحم الليل لا ينطفي كأنما هبت على الليل ريح
يا ساهر في النبك أين الألى أنت من الشوق إليهم قريح
أبق على القلب المعنى ولا تجهز عليه فهو منهم جريح
يهمس في الليل مستنجزا بذكرهم وعد المنة من شحيح
في مهمه قفر كان السما لم تروه بالقطر من عهد نوح
انسانه ضب وأشجاره شيح، وأصوات التغني فحيح
ينوح فيه الذئب مستوحشا وارحمتا للذئب فيما ينوح
وعصبة عرباء فوق الثرى لكنها من مجدها في صروح
أخرسها الصبر ومن حقها عن طول ما عذبها أن تصيح
كل رغيف أهله تسعة كأنما صلى عليه المسيح
وصافنات سائحات لنا تغدو كما يغدوا القطا أو يروح
تكاذ لا تمشي وعهدي بها فيها لنا كل سبوق سبوح
قد زعموا الوادي لنا مرقدا فكل بيت يحتويه ضريح
وما دروا أن نفوسا لنا تنفحنا في كل يوم بروح
ويل لقوم جهلوا أنها قد خلقت من دونهم للفتوح

وفي عام 1947 انتخب الأمير عادل أرسلان نائبا في المجلس النيابي السوري عن منطقة الجولان، ثم تقلد عدة مناصب وزارية، وكان له المركز الثاني في عهد حسني الزعيم عام 1949، كما سيرد ذلك فيما بعد.

حيث الحياة أصلح من الآزرق، ثم أنه يوجد مقالع ملح هي مورد رزق لأولئك الذين تبعوني.

وتقول الصحافية لعادل أرسلان :

أود أن أطرح عليك سؤالا يا أمير، انك أوربي اكثر من كثير من الأوربيين، وتلقيت علومك في الآستانة وباريس وفي مدرسة الحكمة في بيروت، وكانت حياتك في الأوساط الاجتماعية والفكرية اكثر منها في وسط الحرب فكيف يمكنك العيش في وسط هذه الصحراء؟ ولماذا لا تستسلم؟ ويجيب الأمير :

كيف تريدين أن اترك هؤلاء الذين تركوا كل شيء وأبوا الاستسلام عن عقيدة؟ ثم ان الاستسلام فكرة لم تخطر ببالي حتى الآن ..

وتنتهي الصحافية إلى التعليق :

لقد قال الأمير ذلك بلهجة صريحة حازمة .. أن هذا الرجل المثقف ثقافة أوربية، المرتدي لباسا بدويا، العائش في قلب الصحراء، أليس هذا الرجل رمزا حيا لسورية المتمردة على كل اتفاق، والتي لا تقوى القوة على قهرها، المتوحشة المتمدنة الى حد الافراط، الاقطاعية والثائرة، والتي هي مثال دائم من المتناقضات ؟

ثم تتحدث الصحافية في ريبورتاجها الذي نشرته صحيفة باري سوار وترجمته الأحرار عن خيمة سلطان باشا الاطرش التي زالت ألوانها، حيث يلتف الثوار حول هذا المحارب الذي تصفه بأنه طويل القامة، قوي البنية، صحيح النظرات صافيها، نحاسي اللون، له شاربان اسودان طويلان، ليس له مظهر فلاح وانما مظهر محارب عنيف جريء من "الغاليين"، وقد ربض بين ركبتيه غلام عمره ثلاثة أعوام كان سلطان يداعبه وقدمه إليها قائلا : ولدي.

وتقول الصحافية :

اقتربت من الطفل وتلفظت بضع كلمات فرنسية، فما كان من الطفل إلا أن شرع يصيح، فقلت مبتسمة وقد ارتبكت :

- إنه طفل جميل حقا، ولكن يخال لي أنه لا يحب اللغة الافرنسية.

فأجابني سلطان وقد بدت على وجهه أمارات الجد القاسية :

- وكيف يمكنه أن يحبها؟ إنه لم يسمعها إلا حين غادر أبوه ورجاله أوطانهم، فجاءت الطيارات الافرنسية تلقي قنابلها على المضارب حيث لم يكن فيها الا النساء والأولاد.

وتحدث سلطان عن القضية السورية، والمسيو بونسو، ولكنه لم يحدثني عن الغفران والعفو والاستسلام.

من هذه الزيارة لمعاقل الثوار يمكنني الاستنتاج أن اولئك الرجال البعيدين عن كل حياة فكرية في قلب صحراء نجد، واقفون على مجرى سياسة بلادهم كأنهم في وسط دمشق، فما هي تلك الأعجوبة التي تجعل أناسا أميين يتتبعون ذبذبة سياستنا التي لا تريد أن تعترف لهم بأن القضية السورية هي قضية عربية قبل كل شيء؟".

ذكريات من مكتب عنبر :

انصرفت في العام الدراسي الجديد لدراسة مواد القسم الأول من البكالوريا - الفرع الأدبي - باهتمام كبير، وكنت، إلى جانب البرنامج المدرسي، ألتهم كتب الأدب والتاريخ والعلوم السياسية والاجتماعية، فاقرأ كتب بعض المفكرين العرب وما يترجم للمفكرين الأجانب.

كانت البكالوريا الأولى عائقا أمام الطلاب يصعب اجتيازه لمتابعة تحصيلهم العالي. فقد تقدمنا للامتحان وعددنا 250 طالبا من جميع أنحاء سوريا، فكنت أحد الناجحين من بين 25 طالبا فقط.

تعرفت في تلك السنة على خالد بكداش، وكان يسبقني في القسم الثاني (بكالوريا رياضيات) مع رفاقه نظيم الموصلي وجمال الفرا وأنور النعمان ... الخ.

ولم تخل دراستي في مكتب عنبر من بعض المشاكل الصبيانية، فقد اصطدمنا نحن الطلاب الحمويين مع طلاب دير الزور، واشتبكنا ليلا في عراك معهم نتضارب بأحطاب الموقد المشتعلة، مما اضطر مدير المدرسة عبد الحميد الحراكي لمعاقبتنا بالطرد من القسم الليلي لمدة شهر، بعد أن قال لنا بلهجته الحمصية اللطيفة : "لا تظنوا أنكم أنتم الحموية أقوياء، فأنا والله لو ضربت رأسي بهذا الحيط لنفذت منه".

كان مدير مكتب عنبر عبد الحميد الحراكي طويلا مهيبا طيب القلب خفيف الظل حتى في احرج الحالات، فقد قمت ذات مرة مع برهان الأتاسي بتحريض الطلاب على الاضراب والتظاهر ضد الانتداب في احدى المناسبات.. واتجهنا، والطلاب وراءنا، نحو باب المدرسة نريد فتحه لتنطلق مظاهرتنا الى الشارع، فاعترضنا المدير عند الباب وسألنا : ماذا تريدون؟ فقال له الأتاسي بعصبية وحدة رافعا يده إلى وجهه: نريد استقلالنا .. فقال له الحراكي ببرود :

خذ استقلالك .

ومد يده إلى جيبه ليناوله الاستقلال.

□

تولى تدريسنا في "مكتب عنبر" كبار الأساتذة كالاستاذ سليم الجندي الذي كان عضوا في المجمع العلمي العربي ومختصا بدراسة ابي العلاء المعري، والشيخ عبد القادر المبارك عضو المجمع العلمي العربي أيضا وأستاذ الفقه واللغة، وبتأثيرهما توثقت الصلات الثقافية والفكرية بيني وبين أبي العلاء المعري وأبي الطيب المتنبي.

كما لفتت محاضرات الاستاذ عبد القادر المبارك أنظارنا للاهتمام بدراسة المتصوفة العرب وأشعارهم، كالحلاج وابن عربي، وقد كان المبارك أكثر من عرفت فهما لهؤلاء الفلاسفة العظام، ولا شك أن ماسينيون المستشرق الفرنسي الذي كان لا ينقطع اتصاله بالمجمع العلمي العربي استفاد فائدة كبرى من

اتصاله بعبد القادر المبارك في فهم التصوف العربي الاسلامي واستيعابه ... فلم يكن هؤلاء المتصوفة أصحاب طرق بل كانوا فلاسفة كبارا. ولم يكونوا سلبيين بل كانوا مناضلين وشهداء، وكان لمحاضرات المبارك عنهم تأثير كبير في نفوسنا.

كان للأستاذين الجندي والمبارك ذاكرة خارقة، فكثيرا ما كنا نخرج الألفاظ المهجورة من "لسان العرب" والفيروزبادي ونسألهم عن معناها، ولا أتذكر أن أيا منهما أخطأ في الاجابة أو عجز عنها مرة واحدة، بل كانا يزيدان على القواميس في تفسير وايضاح معاني تلك المفردات، متتبعين أصولها واشتقاقاتها، مستشهدين بالقرآن الكريم والحديث والشعر القديم.

وكانت هذه الاسئلة إحدى الهوايات التي نماها لدينا الاستاذ عمر يحيى في دار العلم والتربية بحماه، وقد كان الاستاذ عمر يحيى من طراز هؤلاء العلماء في اللغة والأدب.

في صف البكالوريا الثانية :

اجتمع في صف البكالوريا الثانية كل الطلاب الذين نجحوا في البكالوريا الأولى، من مختلف المدن السورية، فتوطدت أواصر المعرفة والصداقة بيني وبينهم، وكانت السنة الدراسية غنية جدا ببرنامجها الكثيف، وكنت أصغي بشغف واندهاش لمحاضرات الاستاذ جميل صليبا القيمة الجذابة في علم النفس والاجتماع وما وراء الطبيعة والمنطق والفلسفة وعلم الجمال والأخلاق، وهي المواد التي كان يدرسنا إياها ... وكان اساتذة المواد الأخرى من خيرة أساتذة سوريا ومعظمهم من المختصين في معاهد باريس العليا، سواء بالفلسفة أو العلوم.

أما اللغة الفرنسية فكان يتولى تدريسها المسيوغولميه والمسيوتريس. كان المسيوغولمييه شابا واسع الاطلاع والثقافة، مختصا بالفلسفة، لطيفا مهذبا، أما المسيوتريس فقد كان محدود

التفكير لئيم الطباع، وكانت أكثر دروسه تمضي للهزء والسخرية بنا وبإضراباتنا ووطنيتنا التي يعتبرها شغبا وكسلا وتزجية للوقت، وكنا نتصور فيه كل مساويء الانتداب الفرنسي وغطرسته وعجرفته وحقده على العروبة وعلى البلاد.

وقد استفدنا من منهجية المسيوغولمييه العلمية في الكتابة والتفكير. كان يشبه الكتابة بالبناء الذي يجب أن يوضع له التصميم قبل انشائه، وكان يدرك الطريقة العربية السائدة في الإنشاء آنذاك، إذ يبدأ الكاتب بالإنشاء قبل التفكير بالموضوع وقبل أن يضع مخططا له، فيؤخذ بالعبارة واللفظة ويصبح الفكر تابعا للعبارة مقودا بها سائرا وراءها.

ولا شك أن دراسة الأدب الفرنسي واللغة الفرنسية والنصوص الفلسفية أفادتنا كثيرا في فهم المنهجية العلمية في التفكير والكتابة.

لم أر المسيو غولمييه بعد تخرجي إلا مرة واحدة عام 1935، في إبان الأزمة بيننا وبين الفرنسيين، شاهدته مارا في الطريق بدمشق فتجاهلته نظرا للحقد الذي كان يغلي في عروقنا على الفرنسيين عامة في ذلك الوقت.

وفي عام 1965، أي بعد عامين من انقلاب الثامن من آذار، ذهبت الى فرنسا للتداوي، بعدما أفرج عني من السجن بسبب المرض، فدعاني الطلاب العرب إلى ستراسبورغ وأخبروني بأن المسيو غولمييه أصبح أستاذا في الجامعة، وأنه ما زال وفيا لسوريا ومحبا لها، وأن ذلك يتجلى في محاضراته التي يتحدث فيها عن ذكرياته ويحمل فيها حملة كبيرة على السياسة الاستعمارية الفرنسية وحماقاتها وارتكاباتها، وقد حمل فرنسا عار تأخر سوريا ربع قرن، وضرب مثلا ما شاهده من تقدم في سوريا حين زارها بعد الاستقلال بسنوات قليلة، فأشاد إشادة كبيرة بنهضتها وتقدمها مما يبلغ حدود الإعجاز بالنسبة لضعف إمكانياتها.

ومن سوء الحظ أنني لم أجتمع بالمسيو غولمييه في ستراسبورغ لأنه كان مسافرا.

□

حزت على أرفع العلامات في الفحص التحريري بالبكالوريا دون أن ارجع إلى أكداس "النوط" التي دوناها عن محاضرات الأستاذ جميل صليبا.

وفي الفحص الشفهي تولى امتحاننا الاستاذ صليبا ومستشرق فرنسي كان أستاذا في معهد اللاييك، دخل معي في نقاش، تاركا الأسئلة الروتينية جانبا، فكنت جريئا في مناقشتي له، فسألني من أي معهد أنت؟ فقال له الأستاذ صليبا: إنه من تلاميذي، فهنأه أمامي.

بعد نجاحي في البكالوريا الثانية عدت إلى حماه لقضاء صيف عام 1930، وفي تلك الفترة تعرفت لأول مرة على الاستاذ زكي الأرسوزي، عندما دعانا عثمان العلواني مع رفاقه الحمويين الذين يدرسون في تجهيز حلب إلى غداء أقامه على شرف استاذه الأرسوزي، وكان العلواني ورفاقه يتحدثون عنه بإعجاب شديد. كان الأرسوزي شابا لطيفا مثقفا ومحدثا مؤثرا الى درجة بعيدة نظرا لما كان يتخلل حديثه من النكات والصور الفنية المعبرة ...

تأسيس أول ناد رياضي في حماه :

انصرفت في صيف ذلك العام لتأسيس أول ناد رياضي، أسميته نادي أبي الفداء، وقد حصلت مع بعض رفاقي على الرخصة بسهولة، ولكن من أين لنا المال لإنشاء الملعب؟ كان لا بد من اقناع الناس بالتبرع، وهم لن يتبرعوا ما داموا يعتبرون الرياضة ملهاة عن الدراسة والعلم، لذلك وزعنا بيانا افتتحته بالقول المشهور: "العقل السليم في الجسم السليم" مبينا فيه أهمية الرياضية بالنسبة لنهضة الشعوب، وكيف أننا أزمعنا على تأسيس ناد رياضي وإنشاء ملعب لكرة القدم، وطلبنا من المواطنين الاهتمام والتشجيع والتبرع.

ذهبت مع وفد من رفاقي لمقابلة رئيس البلدية عارف الكيلاني، نقدم رجلا ونؤخر أخرى تهيبا من مقابلة المسؤولين،

وكان أخشى ما أخشاه أن يقابلنا بجفاف واستخفاف، لكنه قابلنا باحترام كبير، وأبدى كل استعداد لدعمنا ومساعدتنا، وأصدر أمره فورا لموظفي البلدية بأن يمدونا بكل مساعدة، وسبب ذلك أنه عرف أثناء دراسته في فرنسا أهمية الرياضية في العالم المتحضر.

وبمساعدة مداحل البلدية وعمالها قمنا بإنشاء الملعب في بستان المغيلة، وقام بتدريب الفريق شاب من آل البارودي كان قد أتقن رياضة كرة القدم في الجامعة الأميركية، على أنني لم أشارك الفريق في اللعب لأنني لم أكن ميالا لممارسة هذه الرياضة.

وقد أنشئت في حماه بعد ذلك أندية رياضية كثيرة، واستفادت من هذا الملعب الذي ظل الملعب الوحيد في حماه أكثر من ثلاثين عاما، والذي انطلقت منه ثورة عام 1945 في حماه.

ظل نادي أبي الفداء باتجاه الحركة الشعبية حتى تأسيس حزب الشباب، ثم أنشأنا نادي الفتوة، وقد انقسمت أندية حماه الرياضية والثقافية فيما بعد حسب الاتجاهات السياسية في المدينة.

إلى أي اختصاص أتجه ؟

كنت أطمح في طفولتي أن أصبح قائدا عسكريا كبيرا، كانت تغريني نماذج الأبطال العسكريين في التاريخ، وبعد المراهقة خيل إلي أنني سأكون شاعرا وأديبا كبيرا، وهذا سبب اهتمامي الكبير بقراءة كل ما يتصل بالشعر والأدب، وعندما اجتزت البكالوريا الثانية خيل إلي أنني سأصبح مفكرا وفيلسوفا كبيرا، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كنت ألقى تشجيعا من أساتذتنا، فقد كانت كل مرحلة تفتح أمامي عالما جديدا مغريا بالإيغال فيه، وعندما سمعت الثناء علي في امتحان الفلسفة صممت على أن أتابع دراستي فيها، ولم يكن ذلك متوفرا في معاهد سوريا ولبنان فقررت السفر إلى فرنسا، لكن رأي أهلي كان خلافا لذلك، نظرا لما يعانونه من ضيق مادي، وكانوا يطمحون أن أصبح طبيبا، فنزلت

عند رغبتهم على شرط أن أدرس الطب في فرنسا، وقلت لنفسي: عندما أصل إلى باريس أضع أهلي أمام الأمر الواقع وأتخصص بالفلسفة والأدب.

حاول أخي الأكبر أن يرهن بيتنا في البنك العقاري التونسي، ليهيء المال اللازم لدراستي، لكن البنك رفض الرهن لقاء المبلغ المطلوب، فلم ير أخي بدا من الاستدانة وإرسالي إلى كلية الطب في الجامعة اليسوعية، فارتضيت مرغما، وأقنعت نفسي بأن الدراسة في كلية الطب ستقوي لغتي الفرنسية مما يتيح لي الاطلاع على ثمرات الفكر والأدب الغربي، كما أن دراسة العلوم هي القاعدة التي تنطلق منها الفلسفة ... هكذا كنت أقنع نفسي وأنا في طريقي إلى بيروت للانتساب إلى كلية الطب في الجامعة اليسوعية.

الصدمة الأولى في الجامعة اليسوعية:

قدمت أوراقي الثبوتية للأب (شانتور)، وكان ذا لحية طويلة وهيئة مخيفة، وبعد أن تفحص الأوراق، ومنها صورة البكالوريا، سألني عن تاريخ ولادتي فأجبته أنني من مواليد 1909[2] ، فطلب مني أن أحدد اليوم والشهر فلم أتمكن لأنني لم أكن أعرف ذلك. فقلت له :

- ليس من العادة عندنا تسجيل يوم الولادة والشهر.

فقال بهزء :

- إذن أنتم شاطرون فقط بالاضرابات والمظاهرات والواحد منكم لا يعرف يوم ولادته؟

فصدمت منذ اليوم الأول صدمة نفسية كبيرة، وكنت أخشى الرد عليه خوفا من أن أغلط باللغة الفرنسية، وأكون موضع هزء أمر وأقسى.

بين الجرأة والخجل :

(2) تاريخ ولادتي الحقيقي كما عرفته فيما بعد هو أواخر عام 1911 كما ذكرت سابقا ولكن جرى تقديم تاريخ ولادتي لئلا أعتبر قاصرا، عندما أراد أهلي التصرف ببعض العقارات.

كنت في ذلك السن حييا خجولا أكثر من المألوف، بينما كنت قبل ذلك حتى سن المراهقة جريئا، وقد توليت في دار العلم رئاسة جمعية الخطابة، ولا أزال أذكر كيف ألقيت خطابا في الحفل المدرسي لتمجيد شهداء أيار، بحضور الدكتور صالح والأساتذة، فتكلمت بشكل مؤثر بالحاضرين .. وبشكل مفاجيء بكيت وأرتج علي فقام الدكتور صالح وقال لي : لا بأس عليك .. أنت في بكائك أكثر بيانا وبلاغة.

وكان المدير أحمد الأوبري يطلب إلي في غرفة الأساتذة أن أقلدهم في طريقة تدريسهم فكنت أقلدهم فردا فردا دون وجل أو اضطراب، وهم يضحكون ويعجبون لجرأتي .. وكان لي الدور الرئيسي في التمثيليات المدرسية، ثم انقلب الوضع في سن المراهقة فأصبحت خجولا حييا بشكل مزعج، وقد أساء إلي هذا الخجل كثيرا فيما بعد.

في لبنان

لم اكن غريبا عن لبنان عندما وصلت إلى بيروت لأقضي فيها سنة دراسية بعيدا عن أهلي، فقد كانت حماه، منذ زمن العثمانيين على اتصال تجاري بحلب وبيروت أكثر من اتصالها بدمشق، فعن طريق حلب كانت تصدر محاصيلها الزراعية ومنتوجاتها الصناعية من الغزل والنسيج الى بلاد الأناضول، كما كانت بيروت مرفأها وطريق تجارتها وتعاملها مع الغرب... وكان الحمويون في حفلات الأعراس يرددون أهزوجة: "من بيروت يا يمه جبنا جهازنا وحنه" فقد كانوا يشترون ثياب العروسين وبعض الأثاث من أسواق بيروت، وكانت الأسر الحموية الميسورة ترسل أبناءها إلى معاهد بيروت ومدارسها، كما كان المرضى يقصدون مشافي بيروت للمعالجة الطبية وكان للصحف والمجلات البيروتية سوق في حماه، بالبيع والاشتراك، أوسع من سوق الصحف الدمشقية. كما كانت الكتب التي تطبع في بيروت تتلقفها أيدي الطلاب والمثقفين في حماه.

وعندما كنا تلاميذا في دار العلم والتربية، وأنشأ المدير عبد الله المشنوق فرقة كشفية كنت فيها رئيسا لفرقة الغزال، اشتركنا بمجلة الكشاف المسلم البيروتية، ومن قراءتها وقراءة الصحف والمجلات اللبنانية الأخرى كنا على اطلاع مستمر على أخبار لبنان والحركة الفكرية وما يصدر من كتب جديدة، ولا أزال أذكر أنني قرأت في ذلك الوقت "ملوك العرب" للريحاني بشغف واهتمام. وكان يلفت نظرنا أولئك الكتاب والشعراء اللبنانيون الذين يعتزون بانتمائهم للعروبة ويضعون الرابطة القومية فوق الرابطة الدينية كالشاعر القروي وخليل مطران وابراهيم يزبك وأمين نخلة ومارون عبود وإيليا أبي ماضي والياس فرحات وأديب اسحق ونعمة الحاج ونجيب الحداد وسليم سركيس وشكري غانم والشيخ ابراهيم اليازجي والأخطل الصغير والريحاني وجبران وجرجي زيدان واحمد فارس الشدياق وغيرهم.

كنا ننظر لهؤلاء الرواد باعجاب كبير، فقد كانوا سواء في لبنان أو مصر أو المهجر، طليعة التحرر العربي الفكري والأدبي والسياسي والاجتماعي، ولا أظن أن طالبا سوريا في ذلك الوقت لم يكن زاده اليومي مطالعة ما كان ينشره هؤلاء الطليعة الكبار.

هكذا كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي بين بيروت وحماه، إلى ما بعد الثلاثينات. ولم تستطع التجزئة السياسية التي فرضها الانتداب بين البلدين الشقيقين سوريا ولبنان أن تقضي على تلك العلائق الوشيجة، لأنها نتيجة تفاعل طبيعي وتاريخي. كما أن الفرنسيين لم يجدوا من مصلحتهم فك هذا الارتباط بين البلدين فأنشأوا "المفوضية العليا" في بيروت سلطة عليا للبلدين، وأبقوا على الوحدة التشريعية والتعليمية والاقتصادية فأصبحت بيروت بالواقع عاصمة لاتحاد فيدرالي تديره السلطة المنتدبة بواسطة المفوض السامي.

لم تكن الأحداث التي رافقت ثورات راشيا وحاصبيا ومرجعيون، ومحاولة الفرنسيين استثارة المسيحيين اللبنانيين على تلك الثورات بدوافع دينية، لتثير في نفوسنا ردود فعل طائفية، بل كانت بالعكس تزيد اهتمامنا بلبنان وحل مشاكلنا

الطائفية كإحدى أهم وسائل التحرر من الاستعمار الفرنسي البغيض، وكنا على قناعة بأنه لولا الانقسام الطائفي في لبنان لما أمكن لفرنسا أن تجعل منه معبرا لاحتلال سوريا، والشعب اللبناني شعب عربي، هو منا ونحن منه. فإذن **عندما نتمكن من أن نجعل الولاء الوطني والقومي يحل محل الولاء الطائفي في لبنان وسوريا يصبح استقلال البلدين أمرا محتوما بنضالهما المشترك، هذا هو طريق الحرية والاستقلال ولا طريق سواه.**

هذا هو اعتقادي عندما وصلت الى بيروت لأنتسب الى الكلية اليسوعية عام 1931.

في كلية الطب:

كان الطلاب السوريون في الكليات اللبنانية رفاقا يلتقون دوما، أذكر منهم أنور النعمان ومحمد العالم وعبد الباسط البني الطلاب بكلية الهندسة، ومصطفى عبد الباقي ورياض الأتاسي وعلي الأبرش، رفاقي في الصف التحضيري بكلية الطب، وكنا نستعين بأمالي الأبرش لأنه كان قويا باللغة الفرنسية، وقد حاولنا باهتمام وجد أن ننقطع للدراسة.

انبعثت صداقة قوية بيني وبين علي الأبرش، وكان شاعرا وأديبا حقا، ثم ذهب فيما بعد ليتابع دراسة الطب في فرنسا فقتل هناك في ظروف غامضة.

كان معلم الفيزياء المسيو كوزموبولس يفتتح تجاربه الفيزيائية بالسخرية من رياض الأتاسي والتعرض لوالده هاشم الأتاسي، فأصبح بقاؤنا في الكلية صعبا جدا على نفوسنا.

انتخابات دفع الشعب ثمنها غاليا - الشعب السوري يثور ضد تزييف الانتخابات:

في 14 أيار 1930 أصدر المفوض السامي أي بعد تجميد الجمعية التأسيسية بسنتين، قرارات أعلن فيها دستور سوريا مع دساتير ونظم أخرى تتعلق بلواء الاسكندرون الذي كان يتمتع

بوضع خاص، وقانونين أساسيين لحكومتي اللاذقية وجبل الدروز، ونظاما خاصا للمصالح المشتركة بين سورية ولبنان كما أصدر قرار بحل الجمعية التأسيسية.

كان دستور سوريا في مجمله نسخة عن النص الذي وضعته لجنة الدستور وأقرته الجمعية التأسيسية عام 1928، مضافا إليه المادة (116) التي كرست الانتداب. **ومعنى ذلك أن هذه المجموعة من الدساتير والنظم أقرت تجزئة البلاد التي سارت عليها فرنسا فثبتتها في نصوص دستورية،** رغم أن النضال الوطني لشعب سورية قد أخذ طريقة ضد الطائفية التي اعتمد عليها الفرنسيون لتمزيق وحدة البلاد الى عدة دويلات ففيما كانت دولة جبل الدروز تعلن عن رفض عزل الجبل في دويلة خاصة خارج نطاق الشام والعروبة، كانت سلطات دولة العلويين تجابه الوفود من سكان منطقة اللاذقية الذين أعلنوا أنهم يريدون تغيير هوياتهم التي تنسبهم الى دولة العلويين، وكان مكتب الكتلة الوطنية في حماه يستقبل العديد من وفود ابناء مصياف المطالبين بالوحدة، والرافضين لأن تكون المذاهب الدينية سببا في تمزيق وحدة سورية.

□

بعد اعلان الدستور أصدر المفوض السامي المسيو بونسو بتاريخ 1931/11/19 قرارا انهى به حكومة الشيخ تاج الدين الحسني تمهيدا لاجراء انتخابات نيابية، وتولى بنفسه سلطات وصلاحيات رئيس الدولة، وأناب عنه المسيو سولومياك في دمشق وعين السيد توفيق الحياني محافظ حوران بمنصب أمين السر العام للحكومة مكلفا بتسيير الأعمال المنوطة برئاسة مجلس الوزراء، وبقي أعضاء الوزارة محتفظين بمناصبهم، فكانت وزارة الانتخابات مؤلفة من المسيو سولومياك للرئاسة بالنيابة وبديع المؤيد للزراعة والداخلية وتوفيق شامية للمالية وشاكر الحنبلي للعدلية ومحمد كرد علي للمعارف.

□

جرت الانتخابات النيابية للدرجة الأولى في 1931/12/20 والختامية للدرجة الثانية في 1932/1/5. وقد اشترك الوطنيون بهذه الانتخابات بالرغم من الأساس غير الوطني الذي بنيت الانتخابات عليه، ومع ذلك فقد حاول الفرنسيون في دمشق وحماه تزوير الانتخابات، فقابل الشعب هذا التزوير، ولا سيما في حماه، بثورة عارمة، وكسر صناديق الانتخاب، فكانت المرة الأولى التي يثور فيها الشعب بحماه على الأسر الأقطاعية التي ساندت قائمة الحكومة المدعومة من الاستعمار الفرنسي حيث جرى ضرب وكلاء المرشحين من الأسر الاقطاعية، وتجاه هذه الثورة الشعبية العارمة اضطرت فرنسا للتراجع فنجحت قائمة الكتلة[3] الوطنية في حماه ودمشق ولم تنجح قائمة ابراهيم هنانو في حلب.

كنا ونحن في بيروت نتابع دراسة الطب في اليسوعية نتتبع أنباء المعركة الانتخابية باهتمام وشغف كبيرين، من خلال ما تنشره الصحف اللبنانية عنها، وخصوصا صحف الأحرار، والسيار،

(3) خلال عام 1932 بدأت المحاولات لتحويل الكتلة الوطنية الى تنظيم حزبي، ففي تاريخ 1932/11/4 عقد رجال الكتلة الوطنية في حمص مؤتمرا حددوا فيه المباديء العامة للكتلة وتشكيلاتها التي هي المكتب الدائم ومجلس الكتلة الوطنية، والمؤتمر العام، كما حددوا أسماء اعضاء المكتب الدائم ومجلس الكتلة وكيفية دعوة وأعمال المؤتمر العام، وفيما يلي مباديء الكتلة العامة كما حددها المؤتمر :

مادة 1 - الكتلة الوطنية هيئة سياسية غايتها :

أ- تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبية وايصالها إلى الاستقلال التام والسيادة الكاملة وجمع أراضيها المجزأة في دولة ذات حكومة واحدة. على أن يبقى للبنان الحق في تقرير مصيره ضمن حدوده القديمة.

ب- تأليف المساعي مع العمل القائم في الأقطار العربية الأخرى لتأمين الاتحاد بين هذه الاقطار، على أن لا يحول هذا المسعى دون الأهداف الواجب بلوغها في كل قطر.

ج- تأمين الحرية والمساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الشعب كافة على اختلاف طوائفه ورفع مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ونشر الثقافة، وبث الأخلاق القومية بين جميع الطبقات مع انمائها وتغذيتها.

المادة 2- تعتبر الكتلة الوطنية ان الأمة جمعاء بكل ما لديها من قوة معنوية ومادية وقف على هذا الجهاد الوطني حتى تبلغ أهدافها.

المادة 3- من الواجب جمع قوى الأمة وتوجيه جهودها لتحقيق الآمال الوطنية، ولذلك تعتبر الكتلة الوطنية تأليف الأحزاب السياسية مخالفا لوحدة الجهود.

المادة 4- لا يجوز مس ولا تعديل هذه المبادئ باعتبارها جوهرية في حياة الأمة وكيان الكتلة الوطنية، وكل مخالفة لها تسقط صاحبها من حق الانتساب إليها. ويلاحظ أن هذه المباديء تعتبر قيام أحزاب أخرى مخالفا لوحدة الجهود، كما أن أعضاء المكتب الدائم وهم هاشم الأتاسي رئيسا، ابراهيم هنانو زعيما، سعد الله الجابري نائبا للرئيس، جميل مردم، شكري القوتلي، عبد الرحمن الكيالي، فارس الخوري أعضاء، قد انتخبوا لمدى الحياة. كتاب صحافة وسياسة- نصوح بابيل- دار الريس للنشر-لندن - ص 80).

والنداء، فعرفنا أن مرشحي الكتلة الوطنية في حلب هم إبراهيم هنانو وعبدالرحمن الكيالي وسعدالله الجابري وعبدالقادر السرميني وفتح الله قسطون وجميل ابراهيم باشا، وادمون رباط، والمدرس .. ومرشحي الكتلة الوطنية في حمص هم: هاشم الأتاسي ومظهر رسلان ورفيق الحسيني والشيخ ابراهيم ضحية عن ناحية جب الجراح.

أما مرشحو الحكومة في حماه فهم حسني البرازي وفريد مرهج ونورس الكيلاني، يقابلهم مرشحوا الكتلة الوطنية وهم: نجيب البرازي وشمسي نصرالله والدكتور توفيق الشيشكلي وقد أذاع هؤلاء البيان الانتخابي التالي :

" لقد برهنت مدينة حماه في جميع أدوارها السياسية الماضية على تمسكها بمباديء الكتلة الوطنية التي وقفت موقفا مشرفا من قضية البلاد، وعليه أجمعت كلمة الحمويين جميعا بعد اجتماعات كثيرة بين الأحياء على تأليف جبهة من المندوبين الثانويين عمت المدينة كلها، فوقع اختيارهم على تأييد المرشحين على مباديء الكتلة الوطنية المؤلفة قائمتهم من حضرات السادة: الدكتور توفيق الشيشكلي ونجيب البرازي وشمسي نصرالله، الذين قدموا ترشيحهم للحكومة واقترن بالقبول، فوزعوا بيانهم اليوم وهذا نصه:

قد لبثنا طويلا بعد صدور البيان التاريخي الذي أصدره الرئيس الأتاسي لنقف على اتجاه الرأي العام في حماه ونواحيها، ولما تحققت آمالنا به، ووجدناه يميل كل الميل إلى تأييد الأحرار السوريين الذين قرروا مواصلة العمل في ساحات الجهاد الوطني تأييدا عظيما، وجدنا أنفسنا مضطرين على حمل عبء النيابة عن الشعب الحموي في هذه الدورة الخطيرة الشأن، فرشحنا أنفسنا عن حماه متكلين على الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ونفوسنا مفعمة ثقة بمواطنينا الذين أدركوا حرج المواقف السياسية المقبلة، فعولوا أن يكونوا في صف الوطنيين البررة من رجال سوريا الأحرار ليجعلوهم نوابا في المجلس المقبل يمثلون فيه الوطنية السورية ويؤلفون قوة سلمية تتعادل مع القوة المقابلة لها. وإن موقف التفاهم النزيه الشريف الذي وقفه أحرارنا سابقا تجاه ممثل السلطة الفرنسية لفي حاجة إلى الاستمرار

بروحه السلمية المعروفة ورغبته ليتحقق الجانب الإفرنسي أن جميع السوريين متمسكين بحقوقهم الشرعية كاملة غير منقوصة، لا كما يريد أن يفهمهم ضعاف النفوس والوطنية من السوريين والدخلاء عليهم من أن القناة تلين إذا وجدت صلابة ... على هذا المبدأ الوطني الصرف الخالص من كل زيف نعاهد الله ورسله وشرائعه وشرفنا الذي نعتز به بين الناس أيضا وعليه نعاهدكم أيها الباحثون المنتبهون إلى مصلحة بلادكم الحريصون على كرامتها وحيثيتها، إننا سنكون في المجلس المقبل عند حسن ظنكم بنا لا نحيد عن صف الوطنية .. بهذا الجبين الناصع وعلى هذا المبدأ الوطني القويم نتقدم الى الناخبين الحمويين ببياننا هذا الذي سيكون علينا عهدا محفوظا يقابلنا به كل ناخب إذا تحقق منا خروجا متعمدا عنه. والله الهادي إلى سواء السبيل. حماه في 27 كانون الأول 1931: نجيب برازي، شمسي نصر الله، دكتور توفيق الشيشكلي".

□

ازداد انشغالنا وقلقنا، ونحن في بيروت، لما كنا نقرأه في الصحف عن المظاهرات الشعبية التي قامت في معظم المدن السورية احتجاجا على تزوير الانتخابات والقتلى والجرحى من المواطنين.

ومن الرجوع إلى الصحف اللبنانية الصادرة في تلك الفترة نجد أن صحيفة الأحرار مثلا قد غطت وقائع الانتخابات، وما جرى فيها من تزوير تغطية كاملة وذلك في عددها الصادر بتاريخ 1931/12/20:

في الساعة السادسة والنصف تقدم الناخبون في أكثر الأحياء إلى الصناديق للانتخاب. فحدث في حي القيمرية بدمشق أن اللجنة القائمة على الصندوق أجابت الناخبين بأن الانتخاب انتهى. فاستغرب الناخبون أن يمتلئ الصندوق منذ الصباح الباكر، وطلبوا إلى اللجنة مراقبة الصندوق من قبل اثنين من أهل المحلة، فرفضت اللجنة طلبهم بشدة، ولما ألح الأهلون بالطلب أطلق الشرطيون عليهم رصاص مسدساتهم فأصابوا منهم الشابين فوزي النشواتي وسعيد البيروتي، واشتد إطلاق النار من الشرطيين واشتبكوا مع أهالي الحي بعراك شديد.

وقد تكرر مثل هذا الحادث في أكثر أحياء دمشق وسقط عددا آخر من القتلى والجرحي، ولم يسمح للمرشحين زكي الخطيب بدخول مخفر للشرطة، وفي الساعة الثامنة (صباحا) قرر أهالي أحياء المهاجرين والقيمرية وسوق ساروجة والقنوات والشاغور وباب السريحة ومز القصب والقصاع مقاطعة الانتخاب، وقامت معارك واصطدامات دامية كثيرة ثم خرجت مظاهرة نسائية كبرى تهتف "ليسقط الانتخاب... قاطعوا الانتخابات"... ثم خرجت بعد ذلك مظاهرة شعبية كبرى اطلق عليها رجال الأمن النار فسقط خمسة قتلى وخمسة وثلاثون جريحا. ومع ذلك فإن المتظاهرين لم يتراجعوا وإنما كانوا يهتفون: اطلقوا ناركم فنحن نحمي أصواتنا بدمائنا.

وفي ظهر ذلك اليوم وزع على الأحياء القرار التالي : "لقد توقف الانتخاب الى أجل آخر، ولكي يحاط سكان هذا الحي علما صار ابلاغهم بهذه الكيفية".. ثم صدر قرارا آخر: "ليحط سكان هذا الحي علما بأن ادارة الأمن العام في هذا البلد تولاها مباشرة الجيش الفرنسي".

وقالت الأحرار :

"وتلقينا من حماه بالتليفون قبل الظهر أن العبث بحرية الانتخابات وسرقة الصناديق قائمة على قدم وساق، فهاجم الأهلون الصناديق لينقذوها فقتل محمود بن عبدالرحيم الزعيم وطرد الأهلون من حي الحوارنة وسوق الشجرة مرشحي الحكومة.

وفي اليوم التالي قامت في دمشق مظاهرة تضم أكثر من ثلاثين ألف مواطن لتشييع جثمان القتلى، وهم يرددون: إن الشهيد لحي عند خالقه وإنما الميت حقا خائن الوطن. ووزعوا بيانات تنديد بأعوان الأجنبي: الشيخ تاج وجميل الالشي وواثق المؤيد وتوفيق شامية وبهيج الخطيب وعبد القادر الخطيب".

نظمت قصيدة للإشادة بما قام به الحمويون ضد تزوير الانتخابات :

كان ثأئري شديدا بالمعركة الانتخابية التي جرت في حماه بين الاقطاعيين وبين الشعب الذي حال بدمائه ونضاله بين الحكومة وبين تزوير الانتخابات، فقام بتكسير صناديق الاقتراع مما اضطرها لإعادة الانتخاب الذي انتهى بنجاح قائمة الكتلة الوطنية،

وقد ايد الاقطاعيون في تلك الانتخابات قائمة الحكومة، وكانت اسرة البرازي بمعظمها الى جانب حسني البرازي مرشح الحكومة رغم أن عميدها نجيب آغا البرازي كان في قائمة الكتلة الوطنية.

دفعني تأثري الشديد بهذه المعركة مضافا إليه حنيني الجارف لمدينتي حماه إلى نظم قصيدة عبرت فيها عن تلك المشاعر وعرضتها على رفيقي علي الأبرش، فأشار بنشرها في جريدة القبس فلم تنشرها الجريدة بالطبع لضعفها وكان ذلك خيبة أمل بالنسبة لي. كانت قصيدة ضعيفة ولا أزال أحفظ بعض أبياتها التي تعبر عن مشاعري وحنيني آنذاك أكثر مما تعبر عن قدرة فنية أو موهبة شعرية فقد قلت مخاطبا حماه :

يا جـيرة الواد أن القلـب مختبـل يذيـبه فـي مجـــال الـفكـر تحـــنان

لا بد من عودة والشـــمل يجمعـنا فيـرتـوي فــي حنــايا الصدر ولهان

وتسمـــع النـغم العلـوي منسـجما لـــحن الـــنواعيـر لا تسـموه ألحان

وقلت في وصف تلك المعركة :

يا هولها وقعة قد خلدت وســـمت عـما تســطر فـــي التاريخ أزمــان

لو كنت شاهدها ما ارتبت في زمن أضـحى قـريبا ليمحى فيه عدوان

تمشي الصفوف على الأجداث مقدمة وكلهـم فـــي لقـــاء الموت جذلان

وكلـما لـــج فــي التنكـيل مســـعرها نفـروا إليه وحادي الركب رضوان

هــذي النفـوس فــلا الـتنكيل يرهبها ولا تلــين قــناهـا قـــــط نــيران

□

دعي البرلمان الجديد للانعقاد في 7 حزيران 1932 بدورة استثنائية وضع فيها دستور 14 أيار 1930 موضع التنفيذ، وفي هذه الجلسة انتخب المجلس صبحي بركات رئيسا له، وفي جلسة 11 حزيران 1932 انتخب محمد علي العابد رئيسا للجمهورية، وتقرر أن يتقلد حقي العظم رئاسة مجلس الوزراء، فتشكلت الوزارة على الشكل التالي :

حقي العظم للرئاسة والداخلية، مظهر باشا رسلان للعدلية والمعارف، جميل مردم بك للمالية والزراعة، سليم جنبرت للأشغال العامة.

محاولة اغتيال صبحي بركات :

صرفتنا الأحداث التي كانت تجري في سوريا عن متابعة الدراسة اليائسة في كلية الطب، وكانت السنة الدراسية قد شارفت على الانتهاء، فاتفقت مع رفيقي عبد الباسط البني وهو شاب حمصي يلتهب وطنية، وكان يدرس الهندسة، أنه لا سبيل لاحباط مساعي فرنسا في تكريس الانتداب وعقد المعاهدة إلا باغتيال المتعاونين البارزين معها، وكان صبحي بركات رئيس المجلس النيابي يكثر من ترداده إلى بيروت حيث مقر المفوض السامي، فاتفقنا على اغتياله، واشترينا مسدسا صغيرا بواسطة أحد معارفنا.

وصل صبحي بركات إلى بيروت، فقام تنافس شديد بيني وبين عبد الباسط على اغتياله. فأجرينا قرعة بيننا، فوقعت القرعة على المرحوم عبد البسط، وعندما طلبت تكرارها وقعت عليه مرة ثانية، فنقدته كل ما لدي من مال وودعته وجلست انتظر.

نزل عبد الباسط في نفس الفندق الفخم الذي ينزل فيه صبحي بركات وهو فندق رويال ليترصده ويطلق النار عليه، وبينما

كان بركات في مجلسه ببهو الفندق، وحوله الوافدون ورجاله المسلحون، قام البني من مقعده القريب في البهو وأشهر مسدسه وصوبه على بركات، فاستعصى المسدس، فسحب البني مديته وهجم على بركات لكن أحد المطارنة عاجله، وكان قويا جسيما، فضربه بالمقعد وأوقعه على الأرض، وجرى عراك بينه وبين رجال صبحي بركات المسلحين، ولا أعلم بالضبط إذا كان المرحوم عبد الباسط قد انتحر بمديته أم انه أنه قتل بمدى رجال صبحي بركات، لأنني كنت أسمعه يقول :

إذا أخفقت في اغتياله فإنني سأنتحر، وقد ادعى بركات ان الطالب انتحر بمديته.

كنا نعقد معظم الاجتماعات عند عبد الباسط البني في غرفة استأجرها في بنسيون قرب الجامعة الأميركية، وكانت صاحبة البنسيون ترطن باللغة فكنا نظن أنها لا تفهم ما نقول، فلم نأخذ حذرنا منها، فروت تلك المرأة للمحققين كل ما كان يدور بيننا حول مؤامرة الاغتيال، كما نشرت بعض الصحف اسمي بصفتي شريكا فيها، فكنت منتظرا اعتقالي بين يوم وآخر، ولكن صبحي بركات طوى القضية ولم ير من مصلحته متابعة التحقيق[4] .

كان الفندق العربي بساحة البرج مفلسا، فاستأجرت غرفة فيه بسعر زهيد، كما كان حكمت وعبد العزيز البرازي أبناء شريف البرازي، جيراننا في حماه، مستأجرين غرفة قريبة مني، فبقيت في الغرفة حيث أنا، وحين لم تتعرض لي السلطة حاولت

---

(4) في تقديري أن تلك المحاولة التي كانت نتيجة للجو الشعبي اللاهب قد أثرت على موقف صبحي بركات من المعاهدة، ويشير نصوح بابيل في كتابه صحافة وسياسة الى هذا التغيير بما يلي:

وبقي صبحي بركات متعاطفا مع الفرنسيين حتى سنة 1932 عندما اجتمع مجلس النواب ليناقش المعاهدة، وكان بركات يسيطر على اكثر اعضائه، بينما كان عدد النواب الوطنيين -نواب المعارضة- ستة عشر من أصل نيف وتسعين نائبا، وعرضت المعاهدة على المناقشة، فعارضها النواب الوطنيون بعنف وقوة الى أن دعي النواب للتصويت عليها، وكانت مفاجأة الجميع في داخل المجلس وخارجه عندما وقف بركات معلنا رفضه للمعاهدة، لأنها لا تتفق مع مصلحة البلاد، وقد شاركه في رفضها عدد غير قليل من أصدقائه النواب بالاضافة الى النواب الوطنيين، وهكذا رفضت المعاهدة التي أعدها الفرنسيون بالاتفاق مع شاكر نعمت الشعباني وزير المالية الذي كان يمثل حكومته في مفاوضات المعاهدة التي سميت (معاهدة فرنسا - الشعباني).
نصوح بابيل -صحافة وسياسة- الطبعة الأولى، لندن، دار الريس (ص 23).

الاستعداد للامتحان الذي اقترب موعده، وبذلت جهدا كبيرا، ولكنني لم أتمكن من إنجاز دراسة المواد فلم أتقدم للامتحان، ورجعت إلى حماه بخفي حنين، مكتشفا في نفسي ميلا جديدا لدراسة العلوم ولا سيما الفيزياء والكيمياء.

رواية الصحف للحادث :

أقمت في غرفتي بالفندق أتابع ما تنشره الصحف عن الحادثة، وقد ذكرت صحف بيروت في 12 نيسان 1932 أنه بينما "كان السيد صبحي بركات رئيس الدولة السورية الأسبق في فندق رويال وحوله بعض الزائرين، وإذا بشاب يدخل الصالون وبيده مسدس يصوبه الى وجه صبحي بركات، ولكن الرصاص لم ينطلق، فاستل سكينا وهجم عليه، فوقف بعض الزائرين حائلا بين الطالب وبين بركات، وكان بينهم السيد أنطون اده أمين الحاكمية الادارية بدمشق فجرح في يده، ولكن الشاب الحمصي لما أخذت السكينة منه استل سكينا أخرى وحاول الهجوم فحال الزائرون بينه وبين صبحي بركات أيضا وانهالوا عليه بالضرب حتى أغمي عليه وجرح جراحات كثيرة، ويظهر أن بعضهم طعنه بإحدى السكينتين. والشاب الحمصي اسمه السيد عبد الباسط البني طالب في مدرسة الهندسة ببيروت".

وفي 13 نيسان 1932 ذكرت الصحف أن "الطالب الحمصي عبدالباسط البني الذي حاول اغتيال صبحي بركات قد انتحر في الحال بحيث أغمد السكين في أحشائه".

وفي 14 نيسان ذكرت الصحف التفاصيل التالية: "في الساعة الثامنة والنصف صباحا نزل صبحي بك بركات الى القاعة الكبرى في الفندق ليستقبل زواره، وكان عنده فيها السيد أنطون أده والسيد صالح طرابيشي من حلب والاستاذ زانجيان من المحامين الأرمن، وفي الساعة التاسعة إلا ربع أقبل سيادة المطران روفائيل نمر متروبوليت حلب للروم الارثوذكسي ومعه كاتم أسراره، فخف السيد بركات الى وسط القاعة واستقبلهما وعاد بهما إلى صدرها ومعه الشاب الأديب السيد باسيل مكرديج، وما استقربهم المقام وصبحي بك لاه بالحفاوة بزواره حتى رآهم يقفزون جميعا ويصيحون، ذلك أنهم رأوا الشاب عبد الباسط البني قد توسط القاعة شاهرا مسدسه وهو مصوبه

على السيد بركات، وقد أدرك الجميع بداهة، رغم هول المفاجأة، ما يريد هذا المهاجم، فدفعوا صبحي بك الى القاعة الصغيرة، وهاجموا المعتدي وهم يصيحون ويستنجدون، وكان أربط الجميع جأشأ سيادة المطران روفائيل الذي رمى المعتدي بكرسي فأسقط المسدس من يده قبل أن يتمكن من إطلاق الرصاص، ويظهر أن الشاب هاله ما هو مقدم عليه فارتعدت يده ولم يحسن تحريك المسدس، وكان عبد الباسط مصمما أن يقضي على حياة السيد بركات، فلما فشل هذا الفشل استل من جيبه خنجرا حادا وهجم به، ولكن محمد المصري المرافق كان أسرع وقبض على يدي عبد الباسط من الوراء، وأخذ الشاب وهو على جانب وفير من القوة يجالد ويفلت من ماسكيه ويضرب يمينا وشمالا فأصابت مديته محمد المصري في رأسه وفي خاصرته، وهكذا أفلت ثانية وهجم ملاحقا السيد بركات الذي كان سيادة المطران روفائيل يحول بينه وبين الخروج من القاعة الصغرى، وأمسك السيد إده بالمعتدي فناله جراح في يديه وفي صدره، وفشل عبدالباسط في الهجومين التاليين فيئس وغلب عليه القنوط ورأى أنه لا يستطيع الوصول إلى صبحي بك فرد الخنجر إلى بطنه وراح يعمله فيه مرارا، وحينئذا أسرع إليه السيد صالح طرابيشي يجرب أن يأخذ السكين منه فعضه في زنده من فوق الثياب عضة جرحته جرحا كبيرا وأسالت دمه، وأصاب حينئذ الاستاذ زانجتان في كتفه، وقد نقل الشاب إلى أوتيل ديو وتوفي هناك متأثرا بجراحه في الساعة الخامسة والنصف مساء".

وقد ذكرت الصحف أن اسم صاحبة البنسيون هو مدام خاروني .. كما تساءلت" من هو شريك الشاب"؟ .. ولاحظت أن الصحف كانت متعاطفة مع الشهيد البني، وتريد أن تشكك بقصة انتحاره، كما أن صحف دمشق كانت تنشر مقالات التمجيد بهذا الفدائي بأقلام رفاقه الطلاب، بأسماء مستعارة. كما أقام طلاب دمشق صلاة الغائب على روحه.

جذور الحركة الشعبية في حماه :

كان استشهاد الدكتور صالح قنباز، وإغلاق النادي الأدبي، وسجن بعض أفراده وفرار بعضهم الآخر إلى خارج البلاد، ضربة شديدة نزلت بالحركة الوطنية الشعبية، وأفقدتها قائدها المفكر العالم وقياداتها الشعبية الأخرى فبعثرتها ونشرت جوا من الضياع، فرحنا نتابع ما كان يكتبه المبعدون السياسيون كالدكتور عبد

الرحمن الشهبندر، ونتسقط أخبار سلطان الأطرش وغيره من الثوار الأشاوس المرابطين في صحراء الأزرق بشرقي الأردن.

وبعد استشهاد الدكتور صالح قنباز حل محله الدكتور توفيق الشيشكلي الذي خاض معركة انتخابات الجمعية التأسيسية في عام 1928 خصما لحسني البرازي، وكنت أشعر بالعطف عليه وأتمنى نجاحه، ولكنه لم ينجح في تلك الانتخابات رغم مناصرة آل الشيشكلي ودعمهم له، وقد قرأت إبان المعركة الانتخابية منشورا وزع على الناس بتوقيع حسني البرازي، وفيه كثير من العنجهية والتبجح والطعن بالدكتور توفيق. كان المنشور من الناحية البيانية، على مستوى عال. وقال الكبار إن منير البرازي هو الذي دبجه .

أردت أن أسجل هذه التفاصيل لأبين أن منشأ الحركة الوطنية في حماه ابتدأ منذ العهد العثماني، واستمر على يد الطليعة من الشباب، على نحو فريد بالنسبة للمدن السورية الأخرى. لأنه كان مستقلا عن تيار "الكتلة الوطنية" التي كان حسني البرازي واجهتها في تلك الانتخابات، وكنت قد ذكرت سابقا أن حسني البرازي وزير الداخلية وفارس الخوري وزير المعارف ولطفي الحفار وزير الاشغال قد استقالوا -أو اقيلوا- من الوزارة التي شكلها الداماد أحمد نامي بك بتاريخ 26نيسان 1926، فنفاهم الفرنسيون إلى أميون في لبنان، وحين عاد حسني البرازي الى حماه خرجت المدينة عن بكرة أبيها، وعلى رأسها فرسان آل البرازي لاستقباله في محطة القطار، فالتفت حوله القوة الشعبية الوطنية، وقوى الاقطاع والجاه والنفوذ.

كنت ممتعضا من هذا الاستقبال بالرغم مما تعرض له حسني البرازي من نفي بعد استقالته من الوزارة، وربما كان سبب امتعاضي ما تجلى فيه من مظاهر الأبهة والعصبية والعنجهية العائلية، وكان بعض أفراد الشعب يقولون بإن زعامة حسني الرازي سوف تزيد من سطوة آل البرازي وهيمنتهم وتقوي عصبيتهم وغطرستهم ونفوذهم واعتداءاتهم، وكانت هذه المشاعر تخامرني بالرغم من صلات الصداقة والجوار التي تجمعنا مع آل

البرازي من عهد والدي، والتي استمرت بين أخي الأكبر محيي الدين وبين محسن البرازي بن خالد البرازي والتي تحولت فيما بعد إلى مصاهرة إذ تزوج أخواي محيي الدين وواصل فتاتين من عائلة البرازي.

بعد حل الجمعية التأسيسية تعاون حسني البرازي مع الانتداب وأنهى علاقته بالكتلة الوطنية، وقد تقدم لانتخابات عام 1931 في قائمة السلطة، بينما كان خصمه الدكتور توفيق -بعد إخفاقه الذريع في انتخابات 1928- يشق طريقه الوطني الشعبي، ولا أزال أذكر تلك الحفلات الشعبية التي كنت أحضرها وأنا طالب، في عام 1929، 1930، 1931 والتي كان يقيمها في الأحياء الشعبية الدكتور توفيق وتلاميذ هذه الحركة: رئيف الملقي ومصطفى الحوراني وعبد الحميد قنباز، شقيق الدكتور صالح، وشباب حي السخانة وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن خليل وأبو رميح عبد الرحمن الشارع، وكانت أولى هذه الحفلات التي حضرتها في حي السخانة بمناسبة ذكرى الثورة السورية واستشهاد المرحوم صالح قنباز.

كانت حركة توفيق الشيشكلي امتدادا لحركة صالح قنباز، وقد اعتمدت على العمال والحرفيين والجماهير الشعبية الفقيرة الكادحة، وكان طابعها الوطني الاستقلالي غالبا على طابعها الاجتماعي اليساري.

كان الذوات، ولا سيما حسني البرازي، يستخفون كثيرا بالدكتور توفيق وحركته ويستهزئون بها، وهذا ما جعلهم يفاجأون بثورة الشعب العارمة في انتخابات 1932 التي أتيت على ذكرها سابقا، فقد سقط حسني البرازي ونجح الدكتور توفيق.

أهل الصفة:

تمتنت صلاتي وصداقاتي مع أبناء حي السخانة حي المجاهد[5] سعيد العاص، بعد حضوري برفقة عمي مصطفى وأستاذي في دار العلم رئيف الملقي الحفلات الوطنية الشعبية التي كانت تقام في ذلك الحي، وكنت متقاربا في السن مع أبو رميح، عبد الرحمن الشارع، والشيخ عبد الرحمن خليل، فقد أصبحنا رفاقا تجمعنا أوثق روابط الصداقة الفكرية والسياسية والاجتماعية.

كان ابو رميح نموذجا لأبناء ذلك الحي الشعبي: شابا يعمل في تسويق الأغنام، متطلعا إلى المعرفة والثقافة، متفتح الذهن، وطنيا باسلا، ومن أوعى القيادات السياسية الشعبية، وقد قام بأدوار مشرفة في الحركة الوطنية الشعبية.

أما الشيخ عبد الرحمن[6] فكان شابا كفيفا عصاميا عنيدا شديد النهم للقراءة والمطالعة والعلم، وكان على ذكاء عميق وإحاطة واسعة، تقدميا وطنيا يساريا جريئا سليم الحس، حتى ليعجب المرء أن يكون مثل هذا الشاب الكفيف الفقير على ذلك المستوى العالي الثقافي والتحرر الفكري والسياسي والاجتماعي.

كانت روحاتنا وغدواتنا وسهرنا وسمرنا مع بعضنا بشكل دائم، ثم أصبح ينضم إلينا شيئا فشيئا، رفاقنا الطلاب الجامعيون

---

(5) تخرج سعيد العاص، أحد أبناء حي السخانة في حماه، خلال العهد العثماني من كلية عسكرية انشئت في اسطنبول لأبناء العشائر وتخريجهم ضباطا في الجيش، وعندما أعلنت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين التحق سعيد العاص بها، وبعد احتلال الفرنسيين سورية انصرف العاص مع بعض إخوانه لانشاء مدرسة ابتدائية في حي الحاضر سميت ملجأ الأيتام لتركيزها على تعليم الأيتام، ومن هذه المدرسة تخرج رفيقنا أبو رميح عبد الرحمن الشارع، وقد كانت هذه المدرسة أحد مراكز الاشعاع الوطني والعربي في مدينة حماه مثلما كانت مدرسة دار العلم والتربية التي انشأها الملك فيصل. في عام 1925، عندما نشبت الثورة السورية التحق بها سعيد العاص، وقد ذكر أحد رفاقه في هذه الثورة، منيرالريس، في الكتاب الذهبي لتاريخ الثورات العربية والسورية، وقائع متعددة عن شجاعة سعيد العاص وعفة نفسه، وعندما قضي على الثورة السورية لجأ العاص الى الأردن وبقي فيها حتى قيام ثورة 1936 في فلسطين فالتحق بها واستشهد في الموقعة التي أطلق عليها موقعة جبل النار.
عاش سعيد العاص من الريع الضئيل جدا لكتيب صغير، طبع في الأردن، فيه بعض ذكرياته، وقد وزع هذا الكتاب سرا في مدينة حماه.

(6) استشهد الشيخ عبد الرحمن خليل محترقا تحت انقاض منزله الذي لم يستطع مغادرته، أثناء مذبحة حماه وقصفها عام 1982.

والثانويون والقيادات الشعبية، وكنا نجتمع في مقهى السعدية، فأطلق علينا الشيخ عبدالرحمن اسم: "أهل الصفة".

كنا في اجتماعاتنا بالمقهى نتطارح ما كنا نقرأه من كتب، ونتناقش بالشؤون السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية، وشيئا فشيئا أصبح عددنا يزداد حتى ناف على الأربعين، وأصبحنا نشعر بأن رابطتنا تشتد وتزداد متانة ورسوخا، حتى ليصح القول إنها لم تهن ولم تضعف أبدا خلال كل ما تلا ذلك من سنين، فقد كان "أهل الصفة" النواة الصلبة للحركة الشعبية التي انطلقت من حماه فيما بعد.

كان الشيخ عبد الرحمن خليل رئيس "أهل الصفة" نظرا لسعة اطلاعه وثقافته ونزاهته، وكان الدكتور توفيق الشيشكلي يحترمه كثيرا نظرا لمكانته في أوساط الناشئة .. وكانت أولى ثمرات "أهل الصفة" أن قدمنا على مسرح مدرسة دار العلم تمثيلية "آخر ملوك بني سراج". وقد توليت إخراجها بتدريب بعض الطلاب والشباب على تمثيلها، أما النص فقد قام الشيخ عبد الرحمن بمشاركتي بتحويره عن القصة الأصلية التي كانت من ترجمة الأمير شكيب أرسلان .. وكان عملنا ناجحا.

ولم يلبث أهل الصفة أن تكون لديهم اتجاه سياسي وطني يساري تقدمي ضد الاقطاعية والعشائرية والعائلية والرجعية الدينية، ووقفت "الصفة" ضد سياسة المهادنة والمساومة والتسوية مع الزعامات العائلية والاقطاعية في الكتلة الوطنية، فكنا ضد زعامة جميل مردم في الكتلة الوطنية بدمشق، وزعامة نجيب البرازي حليف صديقنا الدكتور توفيق الشيشكلي في حماه، وكنا نؤيد زعامة ابراهيم هنانو باعتباره قائدا ثوريا شعبيا.

ذكرت أن تسوية جرت بين الكتلة الوطنية وسلطة الانتداب، بعد الأحداث الدامية في انتخابات 1932، فنجحت قوائم الكتلة في دمشق وحماه وسقطت قائمة هنانو الانتخابية في حلب، فبدأ التصدع في بنيان الكتلة الوطنية، بين هنانو وجماعته بحلب

وجميل مردم وجماعته بدمشق، وهو تصدع واضح ولكنه لم يصل إلى الانشقاق العلني.

ولما اجتمع المجلس في عام 1932، وتألفت حكومة حقي العظم واشترك فيها وزيران عن الكتلة الوطنية -من أصل أربعة- بدأ هنانو بحملة مركزة فأعلن عن عزمه على الذهاب إلى دمشق على رأس وفد حلبي لإحراج جميل مردم وجماعته.. وهذا يعني أن الزعيم هنانو سيمر من حماه بشكل طبيعي"، فبادرنا نحن الشباب من تلقاء أنفسنا، ودون استشارة الكتلة الوطنية بحماه، لإعداد استقبال شعبي يليق بهنانو.

وفي يوم 11 تموز 1932 خرجنا بالسيارات لاستقباله عند جبل زين العابدين، فتبعتنا المدينة كلها، وكان يوما مشهودا، وحين وصل رتل سيارات الوفد الحلبي الكبير، أوقفنا أول سيارة فيه وتفحصنا ركابها بحثا عن هنانو، فظننا أن جميل ابراهيم باشا هو ابراهيم هنانو، لكنه أخبرنا أن الزعيم بقي في حلب واكتفى بإرسال هذا الوفد.

وبعد أن احتفلت حماه بالوفد الحلبي حفاوة بالغة ، تابع الوفد طريقه إلى دمشق وقد انضم إليه من حماه : الصيدلي عبد الحميد قنباز، والمحامي مصطفى الحوراني، والاستاذ عثمان الحوراني، والحاج عبد الكريم الصباغ، وعمر يحيى، وسعيد الترمانيني، وعرابي دهيمش، وهلال البارودي.

وجرى للوفد الحلبي في حمص عين ما جرى له في حماه من استقبالات رائعة، مع فارق واحد، هو أن الحماصنة - حسب رواية بعض الحمويين، رفضوا تصديق جميل ابراهيم باشا عندما اخبرهم أنه ليس الزعيم هنانو، فأنزلوه من السيارة وحملوه على الأكتاف تحيط به عشرات الألوف من الجماهير، وهي تهتف له وهو يقول لهم:

أنا لست هنانو .. أنا جميل ابراهيم باشا، فكانوا يصرون :

بلى أنت هنانو، فكان ذلك من الطرف والنكات التي يتداولها كل عن الآخر من أهل البلدين.

غموض الصراع الطبقي :

ذكرت تلك الحوادث لأنها ذات مدلول في انطلاق عملنا السياسي فيما بعد:

لم يكن توفيق الشيشكلي ثوريا باتجاهه، وقد ظل حتى وفاته في عام 1940 يعمل ضمن خط الكتلة الوطنية على الصعيدين المحلي والعام، كما لم يستطع أن يستقل باتجاه التيار الشعبي، وظل التحالف قائما بينه وبين نجيب البرازي ممثل "الذاوات" في الكتلة الوطنية، بالرغم من العداء المستمر بين تحالف توفيق ونجيب وبين الأسر الأقطاعية الأخرى.

كان الاقطاع والفقر بذور التمرد على الواقع الظالم لدى الجماهير، ولكن ذلك ظل بدوافعه وأبعاده غامضا في أذهان الرعيل الأول من رجال المدينة الذين قادوا هذا الاتجاه، فكان فهمهم قاصرا عن إدراك حقيقة الصراع الطبقي وانعكاساته الاجتماعية والاقتصادية، وكان إحساسهم وفهمهم له مقتصرا على الناحيتين الأخلاقية والوطنية فلم يكن لديهم أي تصور لمعالم المجتمع الجديد الذي سينبثق عنه هذا الصراع.

لقاء مع ابراهيم هنانو :

زار هنانو حماه وهو في طريقه إلى دمشق، فتنادينا نحن الشباب للترحيب به والتعرف عليه، وذهبنا بوفد كبير لزيارته حيث كان ينزل في بيت توفيق الشيشكلي الذي كان يطلق عليه آنذاك اسم "بيت الأمة". فكانت المرة الأولى التي أرى فيها ابراهيم هنانو وأجتمع به. كان رجلا نحيلا طويل القامة، بوجه عربي وعينين كعيني الصقر، يلمع فيهما بريق من الذكاء والعزم، وأنف كمخلب الجوارح، ونفس كريمة متواضعة شعبية.

لم يكن هنانو رجلا عبقريا ولكنه كان رجلا ثائرا يحمل في نفسه الكبيرة كل هموم التحرير، وكان القائد الثوري الوحيد بين رجال الرعيل الأول من الكتلة الوطنية، توفي ولم يبق شيئا من ثروته وأملاكه وقراه، ويقال بأن آخر قرية كان يملكها رهنها لدى الدكتور عبدالرحمن الكيالي، وبعد وفاته قامت حملة وطنية لجمع

التبرعات لإيفاء ديون الزعيم الكبير وتخصيص راتب لابنه الوحيد طارق، الذي كان مريضا.

كان حديث هنانو، في ذلك الاجتماع، يدور حول فضح دعايات عملاء الاستعمار الفرنسي وشعاراتهم، كشعار "خذ وطالب" الذي أطلقوه تبريرا لتعاونهم مع الفرنسيين وسترا لخيانتهم للبلاد ... قال: إن قضيتنا واحدة لا تتجزأ. فإما أن ننال استقلال البلاد وحريتها أو نظل مستعبدين، وليس هناك حل وسط، وإن دعوى الاعتدال خيانة مستترة كما قال سعد زغلول .. فليست القضية قضية دين تسدده فرنسا لسوريا على أقساط حتى يكون لشعار "خذ وطالب" معنى . إن فرنسا لا تدفع أي قسط من هذا الدين قبل أن تبريء ذمتها من الأقساط الأخرى إن هذه الدعوى احبولة من أحابيل الاستعمار.

مهما كان هذا التعليل بسيطا وساذجا فقد كان تعليلا مقنعا. وقد خبر هنانو بنضاله وتجاربه الثورية نفسية هذا الشعب والأساليب التي يمكن أن توجهه وأن تقنعه وتمده بالعزيمة والعبر، وقد خرجنا جميعا من هذه المقابلة ونحن نقول: هذا هو الثائر والزعيم الحقيقي للبلاد.

وفاة الملك فيصل بن الحسين :

في 18 آب 1933 انتشر نبأ وفاة الملك فيصل بسويسرا بسرعة البرق ، وكان له وقع بليغ الأثر في نفوس السوريين الذين كانوا يتطلعون من خلال فيصل والعراق الى تحقيق آمالهم في التحرر من الاستعمار الفرنسي وتحقيق الوحدة بين القطرين الشقيقين، وإنني لم أشاهد طيلة حياتي حزنا عميقا صادقا يلف جميع الناس لوفاة أي قائد عربي كما رأيت يوم وفاة الملك فيصل، وقد أطفأت المدن السورية أنوارها بشكل عفوي حزنا على الراحل العظيم، وارتسمت على وجوه الناس عامة علائم الحزن والذهول، فتحسبهم سكارى وما هم بسكارى، من شدة الألم الصادق العميق والحيرة والقنوط، وإن الأدباء والشعراء الذين شاركوا في

حفلات الأربعين لتأبين الفقيد، في جميع مدن المشرق العربي، لم يتجاوزوا الحقيقة الواقعة في تصوير اللوعة والأسى وخيبة الآمال بوفاة الملك فيصل، رغم ما هو معروف عن مبالغات العرب في مآتمهم. وقد انتشرت شائعات وروايات وقصص عن تآمر الانكليز بواسطة الأطباء في سويسرا على اغتيال الملك فيصل، وقد أخذت هذه الروايات في مخيلة الجماهير شكل الحقيقة التي لا ريب فيها ولا شك. أما أسباب اغتيال الانكليز للملك فيصل فلأنه عزم فعلا وأصبح قادرا على تحرير سورية وتوحيد القطرين في ظل العرش الهاشمي، وكان الجمهور يتصور أن الجيش العراقي قوة لا تقهر، وأنه أصبح في مستوى الاضطلاع بهذه المسؤولية التاريخية، كما كانت القومية العربية والوحدة والاستقلال مفاهيم مقترنة باسم فيصل العظيم .. لا سيما وأن الملك فيصل بدأ بعد الثلاثينات يعمل جادا بجميع الوسائل، سواء مع الفرنسيين أو مع القادة السوريين، لضم سوريا والعراق تحت عرش واحد، يؤازره الانكليز ويدعمونه في مسعاه دبلوماسيا وإعلاميا، وكان اسم فيصل في سوريا يعني الوحدة العربية والتحرر من قبضة الاستعمار الفرنسي البغيض والإفلات من هذه القبضة الحديدية الخانقة.

وكان اجتماع فيصل بعبد العزيز آل سعود موضع الرضى والابتهاج لهذه المصالحة بين السعوديين والهاشميين من قبل السوريين لأنها ستخدم قضية الوحدة العربية.

وحدة القضية السورية الفلسطينية :

في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأول 1933 قام عرب يافا بمظاهرات صاخبة احتجاجا على تغاضي سلطات الانتداب البريطاني عن مجيء دفعات جديدة من المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وقد قمعت السلطات البريطانية هذه المظاهرات بشدة وقسوة فسقط عشرات القتلى والجرحى من المواطنين العرب، فاشتعلت المظاهرات في دمشق وكافة المدن السورية الأخرى واستمرت عدة أيام، كما أضرب طلاب الجامع الأزهر في القاهرة تضامنا مع رفاقهم مشايخ "رواق الشوام" ، وقام الطلاب السوريون

في العواصم الاوروبية بمظاهرات واضرابات بهذه المناسبة، وكان كل ذلك يصدر عن إيمان طبيعي بوحدة القضية السورية الفلسطينية، فقد أرسلت الجمعية الاسلامية المسيحية بدمشق -مثلا- ببرقية إلى اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب في يافا، الذي كان يقود حركة المقاومة ضد استقبال المستوطنين اليهود. هذا نصها: "سوريا الشمالية تشارك سوريا الجنوبية بجهادها العام. الاضراب العام في سوريا شامل، على المستعمر ان يستبد وعلينا أن نستعد". وفي اليوم الأول من اضرابات دمشق التي استمرت اسبوعين اجتمع الأهلون في المسجد الأموي لأداء صلاة الغائب على أرواح ضحايا يافا، فخطب فيهم فخري البارودي نائب دمشق قائلا: "لقد أقبل الصهيونيون إلى فلسطين لاستعمارها، وها هم مقبلون إلى سوريا. ولدينا من النفوس الدنيئة السافلة من يبيع عرضه فوق أرضه. فإذا لم نتخذ للأمر عدته باتت هذه البلاد لقمة سائغة للصهيونيين، فلعنة الله على من عامل الصهيونيين". ثم طلب الأهلين أن يقسموا معه على مقاطعة البضائع والمزروعات الصهيونية فأقسم الأهلون.

وبدأ الشعب يردد -مع كثير من النقمة- أسماء بعض كبار الملاكين الذين باعوا أراضيهم للوكالة اليهودية، وبدأ موضوع التخلص من الاقطاع يأخذ بعده الوطني.

4

عام 1935: المظاهرات تعم سورية بسبب معاهدة التحالف والصداقة التي حاولت فرنسا فرضها - تعليق الحياة النيابية - الوكالة اليهودية تحاول شراء أراض في حوران والبطيحة والجولان - بوادر الصراع الهاشمي السعودي على سورية - تشكيل عصبة العمل القومي - الحزب السوري القومي.

في معهد الحقوق بدمشق

قضيت في الدراسة بجامعة دمشق، ولم تكن تضم الا معهدا للطب ومعهدا للحقوق، ثلاث سنوات صعبة، من عام 1934 الى عام 1936، اضطررت خلالها لأن أستأجر في كل سنة بيتا مع ثلاثة طلاب حمويين : أنا وبدر الدين علوش في غرفة، وحسن قاسم ومصطفى عبد الباقي الطالبان بالطب في غرفة ثانية، وكنا نفضل أن نستأجر بيتا صغيرا في حي الحبوبي القريب من كلية الحقوق، وكانت تشغل المبنى القديم الذي أصبح مقرا لوزارة المعارف فيما بعد على ضفة بردى.

كان رفاقي أفضل حالا مما كنت أعانيه، لأنهم رغم كونهم من أسر شعبية مستورة كانوا يتلقون مخصصاتهم من أهلهم بشكل منتظم، ولم نكن نستطيع شراء مدفأة في شتاء دمشق القارس، فكنت مضطرا أن أطالع كتبي وأنا ملتحف في السرير، ولكن يدي كانتا تمضاني من شدة البرد وأنا لا أعرف ماذا أفعل، أأضعهما تحت اللحاف أم فوقه، وكنت أتذكر وأنا في هذه الحال من الحيرة النكتة التي كانت تروى عن الشيخ الذي أحتار بلحيته عند النوم أيضعها تحت اللحاف أم فوقه.

مسابقة لدراسة الأداب في فرنسا:

في السنة الاولى لانتسابي لمعهد الحقوق أعلن عن مسابقة لدراسة الآداب في فرنسا، فوجدتها فرصة سانحة وحلا للمشاكل التي أعاني منها، وكان استاذي في معهد الحقوق محسن البرازي يعرف ميلي لتلك الدراسة العالية في الغرب،

فشجعني على دخول المسابقة، فتركت كتب الحقوق وعدت الى كتب اللغة والأدب ولكنني لم أنجح ولما سألت الدكتور محسن عن سبب عدم نجاحي قال لي:

إن المسابقة كانت نزيهة ولهذا شجعتك على الاشتراك فيها، ولكن كان لمستشار المعارف حرية الانتقاء بين الناجحين، وبالرغم من انني لم أطلع على نتائج المسابقة فيجوز أن يكون اسمك قد استبعد من بين الناجحين لهذه البعثة ... ثم أردف:

انك ستتعذب في حياتك مثلما تعذب الخوارج في الاسلام، ربما كنت محقا ولكنك تنهج طريقا شاقا كطريق الخوارج.

لقد فهمت يومذاك من كلام محسن أن من شروط البعثات الى فرنسا أن يكون المبعوث مرضيا عليه من قبل سلطات الانتداب، ولا غرابة في ذلك فقد كان بيد المستشار كوليه كل ما يتعلق بوزارة المعارف، ففي يده السلطة المطلقة، كما كان الأمر بالنسبة للمستشارين الفرنسيين الآخرين في كل الوزارات السورية، وإلى هذه السلطة المطلقة يشير الشاعر الحوماني (من جنوب لبنان) في قصيدة ألقاها في احدى الحفلات الوطنية منددا بوزراء حكومات الانتداب:

أيما عقدة أحيلت إليهم سألوا المستشار كيف تحل

وإذا الرأس وهو أكرم عضو دان للضيم فهو عضو أشل

لقد كان الشعر خلال الاحتلال الاجنبي للبلاد العربية المعبر عن تطلعات الناس وآمالهم الوطنية والقومية، وكان له دوره الكبير في جميع المعارك النضالية التي خاضتها الأمة العربية، ومن المؤسف أن ينفصل الشعر العربي، باسم الحداثة، عن مشاعر الجماهير وتطلعاتها الوطنية والجمالية، وأن يصبح بمجمله شعرا شخصيا لا يعبر إلا عن وساوس الشعراء وأوهامهم، وقد عبر الشاعر أحمد شوقي عن هذه الحقيقة عندما قال:

وما الفن إلا الصريح الجميل إذا خـــالط الـــنفس أوحى لها.

عن بعض الاساتذة والطلاب في كلية الحقوق

بعد ان انقطع كل أمل لدي من متابعة دراسـتي فـي الغـرب انصرفت كليا الى دراسة الحقوق.

كـان المسـيو اسـتيف يتـولى تدريسـنا الحقـوق الدسـتورية والأسـاليب الحقوقيـة، باللغـة الفرنسـية، وكـان عـدنان الأتاسـي يتولى ترجمة محاضرات المسـيو اسـتيف وإلقاءهـا بالعربيـة، وكـان مخفقا في الترجمة والالقاء معا... أما محسن البرازي فكان يـدرس الحقوق الرومانيـة وكـان مجـدا ومتملكـا مـن موضـوعه ومـن عنـان اللغتين العربية والفرنسـية معـا، وكـان فـايز الخـوري، رغـم ذكائـه، كسولا شأن معظم الأساتذة الذين كانوا يتلون دروسهم من الكتب القديمـة المطبوعـة بـدلا عـن المحاضـرات، وهـم بمعظمهـم مـن خريجي الآستانة، وكان علم الاقتصاد يدرسـه الاسـتاذ عبـد القـادر العظم من كتاب مترجم عن التركية بمساعدة الشـيخ عبـد القـادر المغربي، أما الـدكتور أبـو اليسـر عابـدين فقـد كـان يـدرس أحكـام الزواج والفـرائض باسـلوب يستعصـي علـى الفهـم، فكـان الطـلاب يعانون منه الأمرين.

تعرفت في معهد الحقوق، علاوة على الشـباب السـوريين، علـى شـباب مـن الأقطـار العربيـة الأخـرى، وكـان البـارزان فـي اجتهادهمـا: بهجـت التلهـوني مـن الأردن وممتـاز الركـابي مـن العراق، وقد لاحظت فيما بعد أن كل اللبنـانيين الـذين تخرجـوا مـن الجامعة السورية كانوا يحبون دمشق ويدعون للاسـتقلال والحريـة والقومية العربية، وبصورة عامة فإن خريجي الجامعة السـورية مـن أبناء الأقطار العربية الأخرى، ارتبطوا بحبهم لدمشق بما لا يقل عن حبهم لأوطانهم.

كان رفيقي في الغرفة بدر الدين علوش أديبا خطيبـا تقـدميا حافظـا للشـعر، وكنـت أسـبقه بسـنة دراسـية، ولهـذا كـان نصـوح الأخرس، من حمص، رفيق الدراسة بشكل مستمر...

تخلف معهد الحقوق

منذ السنة الأولى لدراستي في معهد الحقوق صدمت صدمة غير منتظرة من تخلف أساتذتنا وقوانيننا وتعليمنا الجامعي عن العصر، وكنت أتصور، عندما أرى الأساتذة وأستمع الى محاضراتهم وأرجع الى كتبهم أننا نعيش في العهد العثماني، إن "مجلة الاحكام العدلية التي كانت لا تزال نافذة في كثير من أحكامها، بدلا عن القانون المدني، كانت تشكل، بافتراضاتها وأحكامها وتخريجها، تاريخا مضى وانقضى، أما أن تكون أحكاما نافذة في القرن العشرين فهذا أمر يدعو للدهشة والاستغراب، فقد كان واقع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وبالتالي الحقوقية في واد وأحكام "المجلة" في واد آخر.

ان تغير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية كان يقتضي حتما تغيرا في العلاقات الحقوقية والقوانين والأصول التي يجب أن تتبع للوصول الى الحق، باستثناء "القواعد الكلية" التي تعتبر مقدمة لمجلة الاحكام العدلية، وحتى التشاريع التركية المستقاة من القوانين الفرنسية في عهد السلاطين، وكانت لا تزال مرعية الاجراء، أصبحت متخلفة عن العصر، ولن ينفعها ما تصدره المفوضية الفرنسية العليا بين الحين والآخر من تعديلات كانت تأتي بصورة متقطعة جزئية مبعثرة.

وهكذا كان الجيل الأول من الأساتذة، بعقله واسلوب تدريسه وفهمه للحقوق، من مخلفات الماضي، فالأستاذ الحنبلي الذي يدرس الأوقاف، والأستاذ سلطان الذي يدرس الحقوق التجارية، والأستاذ المحاسني الذي يدرس مجلة الأحكام العدلية، كانوا من مخلفات الماضي. كان أستاذ الاقتصاد عبد القادر العظم يستشهد بآراء "جاويد بك...، وكان أبو اليسر عابدين، الذي يدرس الفقه الاسلامي وأحكام الزواج، يستمد ثقافته الحقوقية من جده ابن عابدين، وهو فقيه من فقهاء أواخر عصر الانحطاط، وكنت في السابق أرى مؤلفات ابن عابدين تشغل بأجزائها العديدة حيزا في مكتبة والدي، فلم أكلف نفسي عناء تقليب أوراقها الصفراء، وظلت في مكانها يعلوها الغبار.

لم يكن الأساتذة الشباب، المجازون من فرنسا، أقل إخفاقا في محاضراتهم من الأساتذة الكبار. كان كتاب الأستاذ فارس الخوري في علم المالية، وهو أوسع الأساتذة ثقافة واطلاعا، كتابا ذا اسلوب أنشائي جميل، غير علمي بالمعنى الصحيح.

على أن دراستي في معهد الحقوق أفادتني في حياتي السياسية فيما بعد، لأن من لم يتثقف في الحقوق لا يكون مستكمل العدة للنضال البرلماني التشريعي والسياسي معا.

ولا أعتقد أن معهد الطب كان أحسن حالا من معهد الحقوق، بالرغم من بعض الأطباء الفرنسيين الذين كانوا يدرسون فيه.

منذ العهد الفيصلي، وفي عهد الانتداب فيما بعد، قفز التعليم الثانوي في سوريا قفزة كبرى الى الأمام بالنسبة للعهد العثماني، بينما بقي التعليم الجامعي، بموادة وأساتذته، من مخلفات ذلك العهد، ولذلك كان يلاحظ الفرق الكبير بين مستوى حملة البكالوريا المنتسبين للجامعة وبين مستوى الكليات التي يدرسون فيها، وقد ولد وضع الجامعة في نفسي ثورة، لاعلى القوانين والتشريع فقط. بل على جامعتنا نفسها، إذ أن رقي الشعوب يقاس برقي جامعاتها ومعاهدها العلمية، فالجامعات هي التي تخرج القيادات العليا للمجتمع، لذلك أصبح النهوض بمستوى التعليم الثانوي والجامعي من أهم القضايا التي انشغلت بها فيما بعد.

التراث عامل تطوير لا تجميد

في 19 أيار 1935 نشرت صحف دمشق النبأ التالي:

"تألفت لجنة برئاسة معالي وزير الدولة للنظر في مشروع الموجبات الذي نفذ في لبنان ويراد الان وضع قانون على مثاله لينفذ في سوريا، وقد اهتم طلاب الحقوق بهذا المشروع لأنه سيؤدي إلى إلغاء التقاضي بمجلة الأحكام العدلية، فعقد فريق

منهم اجتماعا درسوا فيه هذه القضية ثم رفعوا تقريرا مطولا الى رئيس الوزراء وأعضاء اللجنة العدلية لفتوا فيه أنظارهم الى المحاذير التي تترتب على إلغاء "المجلة"، والى ضرورة مراعاة أحكام الشرع الاسلامي التي امتزجت مع طبائع الأمة وتقاليدها.

□

هنيئا لأمة لها تاريخ ... إذا عرفت كيف تستفيد من هذا التاريخ بأن تجعل من الماضي المنير حيا في الحاضر.

ان تراث الشعوب يمكن ان يكون قيدا يعيقها عن النهوض والسير الى الأمام، ويمكن - بالمقابل - أن يكون ذخيرة وعونا ومددا وقوة في بنائها الحضاري الجديد المتصل بالماضي العريق دون انفصام، وأكثر ما تعانيه امتنا العربية منذ بدء نهضتها في أواخر العهد العثماني قصور مفكريها وقادتها وجبنهم عن تقييم تراثنا العربي، فبقي هذا التراث، سواء بالنسبة للمتشبثين به أو المنسلخين عنه سببا من أسباب تخلف العرب وعدم انطلاقهم السريع ووهن اتصالهم بحضارة العصر.

ليس هذا الاختيار سهلا وليست دقة التمييز متيسرة بين ما يصلح أن يوضع من التراث في المتاحف وبين ما لا يزال من التراث جاريا في عروقنا وأهلا بطاقاته الايجابية لإغناء حاضرنا.

إن حل مشاكلنا التاريخية وإرثنا الحضاري يتوقف على مستوى عبقرية وشجاعة وإخلاص القيادات الطليعية الفكرية والفنية والسياسية لأن إرث الماضي ليس مادة جامدة يمكن التصرف بها كيفما كان، بل هو عادات وتقاليد وأخلاق وحقوق وفنون ودين وفكر، متوارثة، تجري في عروق المجتمع وشرايينه.

ان فهم حضارة العصر واستشراف صورة المستقبل وتقييم التحديات المطروحة على الشعوب المتخلفة هو السبيل لتحديد مواقفنا من هذا التراث وشق طريقنا للمستقبل.

ان الموقف من التراث ما زال يشكل أزمة فكرية ووجدانية في المجتمعات العربية، وما زال المفكرون يتجنبون الخوض

والمعالجة مما أدى الى انفصام الشخصية لدى الانسان العربي الجديد، ففي ميدان التشريع الحقوقي لدينا تراث غني بالفقه الاسلامي ولكنه انقطع عن العصر وأصبح جزءا من التاريخ الحقوقي المنصرم.

كان لبنان سباقا في استغنائه عن "المجلة" بقانون الموجبات والعقود وبدلا من أن يكون هذا التجديد في التشريع اللبناني حافزا لشباب كلية الحقوق - ظافر القاسمي ورفاقه لأن يطالبوا بالغاء مجلة الأحكام العدلية قاموا يطالبون، بتشجيع من أساتذة معهد الحقوق، ببقاء المجلة سارية المفعول.. وسوف يرى في الصفحات القادمة كيف انتظرت سورية خمسة عشر عاما نتيجة هذه المعركة بين أنصار القديم وأنصار التجديد في التشريع.

عن الثقافة الوطنية:

على أن كل تلك السلبيات في الجامعة السورية تقابلها فضيلة كبرى، وهي أنها كانت أول جامعة في البلاد العربية، وضعت منذ تأسيسها المصطلحات العلمية وعربت منهاجها وتدريسها حتى في الفروع العلمية المحضة ... أي أنها انفردت بالمحاولة الفذة لإيجاد ثقافة وطنية عربية.

إن الشعوب التي لا تختص بثقافة وطنية تفقد هويتها الحضارية، وتتفكك وتضيع وتتقاذفها أمواج الثقافات الأخرى، وينعدم فيها وضوح الفكر وتضطرب فيها حتى اللغة ومعاني المفردات، ولقد انتبه العرب في العصر العباسي الى هذه الناحية الخطيرة عندما أرادوا إغناء الثقافة العربية بنتاج ثقافات الشعوب الأخرى فعربوها، وكان غنى اللغة العربية وثراؤها وطواعيتها وقدرتها على التعبير والتحديد والتدقيق، خير معوان لهم في النجاح بما تطلعوا إليه وقاموا به. وقد اتضحت أهمية الثقافة الوطنية في العصور الحديثة بشكل بارز جدا. واذا كانت ثقافتنا الوطنية هي التي تصل ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا، فإنها هي المحور الفكري الرئيسي لوحدتنا القومية، وهي المرتكز الذي بدونه لا يمكن للعرب أن يقدموا عطاءات جديدة للحضارة الانسانية .... وأن الموضوع كله

يعود إلى "اللغة" وينحصر فيها... وهذا ما تنبه إليه الاستعمار والصهيونية ولم نتنبه له نحن العرب مع الأسف، حتى الآن، ولذلك فإن الاستعمار والصهيونية، اللذين لا يريدان للعرب أن يكونوا ثقافة وطنية، يشنان حملاتهما التخريبية المباشرة على اللغة العربية بالذات، تلك الحملات القديمة المعروفة، والتي اتضحت بشكل ضار وشرس بعد هزيمة الخامس من حزيران 1967 بحيث أصبحنا نسمع الدعوات الوقحة للتخلي عن لغتنا العربية بحجة انها لغة قاصرة لا تتيح لنا التواصل مع منجزات العصر.

ولكي أبين مدى التخريب الذي نزل بهذه القضية يكفيني أن أشير الى أننا وصلنا الى مرحلة لا يعرف فيها الكاتب كيف يسمي حتى الاشياء المادية، ففي كل قطر تأخذ الأشياء أسماء تختلف عما تسمى به في الاقطار الأخرى، فما بالك بالمصطلحات الفكرية الرمزية الدقيقة؟ وليس سبب ذلك عدم وجود مؤسسة لغوية عالية تضع قاموسا للكلمات وتحدد معاني الفكر ومصطلحاته فحسب، بل سبب ذلك ايضا أن الجامعات العلمية في البلاد العربية لا تزال تدرس الكثير من العلوم بلغات أجنبية، بحجة قصور اللغة العربية عن استيعاب تلك العلوم والتعبير عن مصطلحاتها الجديدة بدقة.

إذن فنقطة الانطلاق، لتكوين ثقافة وطنية عربية سليمة وصلبة، هي جعل اللغة العربية لغة التعليم في كافة مراحل التدريس واختصاصاته.

إن اليهود عندما أرادوا أن ينشئوا ثقافة وطنية صهيونية جعلوا التعليم في كافة مراحله واختصاصاته باللغة العبرية المتخلفة جدا عن اللغة العربية والتي كانت تعتبر لغة ميتة، وقل الأمر ذاته بالنسبة للصينيين واليابانيين، الذين حققوا انجازات علمية فذة، كما حقق شعراؤهم وأدباؤهم فتوحات في عالم الأدب والثقافة النظرية خولتهم لنيل جائزة نوبل - على المقياس العالمي - .

مقال لم ينشر

فـي 3 ايـار 1933 أعـاد حقـي العظـم تشـكيل وزارتـه إثـر استقالة جميل مردم ومظهر رسلان ممثلي الكتلة الوطنية فيها.

وفي 14 تشرين الأول 1933 عين المسيو دومارتيـل مفوضا ساميا في سوريا ولبنان خلفا للمسيو بونسو، فعقد مـع الحكومـة السورية معاهـدة صـداقة وتحـالف أذيعـت فـي 19 تشـرين الثـاني 1933، فقـادت الاقليـة البرلمانيـة للكتلـة الوطنيـة معارضـة هـذه المعاهدة، وقامت مظاهرات وطنية صاخبة في جميع أنحـاء الـبلاد، والتفت المظاهرات النسائية حول البرلمـان تصـرخ "الويـل للخونـة" فاضطرت الأكثرية البرلمانية التي عمـل الفرنسـيون علـى نجاحهـا من الانتخابات لرفض المعاهدة، واستقال سليم جنبرت من عضوية الوزارة قبل يوم واحد من توقيعها على الاتفاقية، رغـم انـه معـروف بصداقته القديمة لفرنسا، ثم استقالت حكومة حقي العظم.

ألف المفوض السامي دومارتيل وزارة جديدة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني، بتاريخ 17 آذار 1934، وعـين حسـني البـرازي وزيرا للمعارف، فاندفع البرازي للانتقام من سـقوطه فـي انتخابـات عام 1932 وقام بنقل وتسريح واضـطهاد المـوظفين الحمـويين، ولا سيما فـي جهـاز المعـارف، وعـم الـبلاد جـو مـن الـبطش والخـوف والإرهاب أعقب تلك المظاهرات الوطنية العارمة التي انتهت برفض المعاهدة وإسقاطها، وقد نال في هذه المظـاهرات رفيقنـا الـدكتور نجيب عبد الـرزاق مـن مؤسسـي حـزب الشـباب والحـزب العربـي الاشـتراكي فيما بعد وساما من رصاصة فرنسـية أصـابته فـي فكـه ونفذت من رقبته.

نزل حسـني البرازي الى حماة ليثبت زعامته إبان ذلك الجـو الطاغي من الخوف والارهاب، فاضطر الموظفـون أن يشـكلوا وفـودا منهم لزيارته والسلام عليه، وكان لذلك تأثير سـيء على معنويـات المدينة، لذلك بـادرت مـع رفـاقي مـن الطـلاب الحمـويين بدمشـق لإقامة احتفال خاص لتكريم الدكتور توفيق الشيشكلي ألقيت فيـه كلمة وطنية حماسـية كمـا ألقـى الـدكتور توفيـق خطابـا حماسـيا ألهـب فيـه مشـاعرنا ونفوسـنا، ولكـي يغطـي دومارتـل فشـله بخصوص المعاهـدة أصـدر بيانـا علـل فيـه أسـباب رفـض المعاهـدة

والمظاهرات الشعبية العارمة بأنها ترجع لسوء الحالة الاقتصادية في البلاد فكتبت مقالا طويلا للرد عليه، مبينا فيه أن الانتداب هو المسؤول عن سوء الحالة الاقتصادية، وأن الحرية والاستقلال هما العلاج الوحيد، وأن نضال الشعب لنيل استقلاله امر لا يتعلق بسوء الحالة الاقتصادية أو تحسنها، لأن الحرية نزعة انسانية أصيلة عند جميع الشعوب.

ونظرا لعنف المقال وطوله فان جريدة "الايام" لم تجرؤ على نشره,

□

كان دومارتل المفوض السامي الوحيد الذي قام بتنفيذ بعض المشاريع الانشائية منها خط حديد تل كوجك، وفي عهده بدىء بتنفيذ مشروع ري حمص وحماة.

□

"الرجل" الذي ينتقم من النساء

تحت هذا العنوان كتب نجيب الريس ابن حماه مقالا طويلا تحدث فيه عن انتقام حسني البرازي من أبناء مدينة حماه، ذلك الانتقام الذي تحدثنا عن بدايته وأسبابه، والذي استمر وتطور الى حد جعل الصحافة الوطنية لا تطيق السكوت عنه، رغم تعرضها لعقوبات الاغلاق والسجن والاضطهاد من حكومة الشيخ تاج المتعاونة مع الفرنسيين.

فقد استغرب الاستاذ نجيب الريس أن يبلغ الحقد والتشفي بحسني البرازي حدود الانتقام من مدينة بأسرها رجالا ونساء وأطفالا، فكتب في جريدته "القبس":

"لقد بدأ حسني بك البرازي انتقامه من حماه ومن رجالها المخلصين، فحل رغما عن القانون لجنة الأمناء في دار العلم والتربية، لينتقم من عدوه وعدو الاقطاعية القديم الشهيد الدكتور صالح قنباز" وبلغ به الحقد تشريد فريق من معلمي حماة ومعلماتها الذين لم يقو على الانتقام من آبائهم وأخوتهم وأقاربهم بعد أن طرد بعض أطفالهم من المدارس وأحال على التقاعد مدير

التجهيز عارف الرفاعي الرجل الذي أبى أن يكون مطية للانتقام، أحاله وهو في أنضج سني علمه وتربيته ولما يبلغ الخامسة والعشرين من خدمته"... وأسهب الكاتب في تعداد أوجه انتقام حسني البرازي من حماة الوطنية الصامدة (القبس: 15 تشرين الأول 1934).

معركة الحشيش:

على أنه سرعان ما أتيح لحماة أن تنتقم من حسني البرازي.

فقد كان فلاحو قرية تقسيس - التي يملكها حسني البرازي - ينقلون الى معارفهم في حماة أنباء المساحات الواسعة من الأراضي التي زرعها حشيشا في تلك السنة، وتربص البعض الى أن تم نقل الحشيش من البساتين الى بيت حسني البرازي في القرية، فدسوا خبرا بذلك الى ضابط الدرك الفرنسي في حمص، فداهم مع رجاله قرية تقسيس، ودخلوا "قصر الأغوات وكبسوا الغرف فوجدوا غرفتين ملآنتين بحشيش لا يزال في ورقه لم يدق ولم ينخل، ووجدوا في القبو الكبير حشيشا مدقوقا وآخر معجونا بعد الدق، وعلم قائد الدرك من الفلاحين أن الحشيش للأغوات"..(القبس 23 تشرين الأول 1934).

وقع المستشار الفرنسي - حاكم حماة الاداري - في حرج كبير ومع ذلك فقد حاولت السلطة ستر فضيحة وزير المعارف الذي قال فيه الشاعر الكبير شفيق جبري:

أيبيت الحشيش هم وزير يرتع النشء في حمى آدابه؟

وحاولت سلطة الانتداب محاصرة أخبار الفضيحة، فضغطت على الصحف لعدم نشر الأسماء والتفاصيل، ولكن الفضيحة هزت البلاد هزا. فقد "كان الخبر قد سرى في مدينة حماة خلال ساعة واحدة، اذ وزعت 50 الف نشرة على 50 الف شخص قرأوها وفهموها في ساعة واحدة". وعقد الوطنيون في حماة الاجتماعات والندوات، وزارت وفود منهم "المتصرف" و " المستشار" للاحتجاج على هذه الوصمة الشنيعة، بل إنهم فضحوا الوزير على مستوى

عالمي ببرقيات الاستنكار التي أرسلوها الى الحكومة الفرنسية بباريس وإلى عصبة الأمم المتحدة في جنيف.

وما لبثت قصة "حشيش معالي الوزير" ان أصبحت الشغل الشاغل لتعليقات الصحف وغمزاتها، فنشرت القبس دراسة عن الحشيش في أدب ادغار ألان بو وبودلير، كما نشرت موضوعا عن ابن تيمية الذي كانت له اهتمامات خاصة بموضوع الفرق الباطنية ومنها الحشاشون، ومن الطريف ان القبس نشرت بعض تلك الدراسات مرتين.

وبذلك انتقمت مدينة حماة من حسني البرازي، وانتقم الوطنيون في سورية عموما من المتعاونين مع الانتداب، الذين كان الشيخ تاج الدين الحسني على رأسهم وفيه قال ايضا الشاعر شفيق جبري يصف عمامته البيضاء:

لف بالدس والنفاق قفاها ما أرى الله مستح مع عقابه

أولئك المحجبات الباسلات:

في 17 تشرين الثاني 1934 اشتركت في أكبر مظاهرة جامعية. كانت دمشق وكافة المدن السورية تريد أن تعلن عن غضبها على ايقاف الحياة النيابية بعد رفض المعاهدة فاشترك طلاب الجامعة مع تلاميذ المدارس وجموع حاشدة من الأهالي في مظاهرة ضخمة اخترقت شوارع دمشق، وفي شارع بغداد انضمت الينا مظاهرة نسائية هزتني تأثرا وانفعالا، كن حوالي مئة سيدة محجبة يصرخن نادبات كما لو كن يبكين ميتا عزيزا، وقد سرن مع المظاهرة حتى سوق ساروجه والعمارة ومسجد الأقصاب، وهناك جاءت قوة كبيرة من الشرطة فاعتقلت أكثر من خمسين سيدة، مما زاد النفوس اشتعالا، فقامت الوفود تحتج على اعتقال النساء، وأمطرت المدن السورية مكتب المفوض السامي ببرقيات الاحتجاج على هذا العمل المنافي للعادات والتقاليد، فازداد غضب الفرنسيين على "الذين حرضوا هؤلاء النسوة على الاشتراك بالاضراب" حسب تعبير المفوض السامي.

أما المسيو موغان المدعي العام فقد قال: "من المؤسف أن نرى هؤلاء الدمشقيين يرسلون بناتهم ونساءهم للتظاهر في الطرقات والاخلال بالأمن. إن هذا ضرب من النذالة والجبن" ... فرد عليه الوطنيون بأن "اشتراك السيدات السوريات في اعلان الاحتجاج على وقف الحياة النيابية في سوريا ما كان في أحد الأيام نذالة وجبنا، بل هو أقصى ما تبلغ المرأة الراقية إليه في الحياة، فإن كان تظاهر السيدات الدمشقيات للدفاع عن حقوق وطنهن يعد نذالة وجبنا في نظر المدعي العام، فإننا نلفت نظره الى مواكب النساء في فرنسا وانكلترا وألمانيا وايطاليا وجميع الأمم الراقية، واشتراك المرأة الغربية في جميع ما يتعلق بوطنها".

على أن هذه الحادثة كانت ذات دلالة هامة جدا. فقد كانت المتظاهرات من الأوساط الشعبية المحجبات فعلا لا تمثيلا، وهذا ما كشفت عنه وقائع محاكمتهن في المحكمة الأجنبية بعد يومين، وهي الوقائع التي نشرتها صحف تلك الفترة.

فقد وقف في قفص الاتهام كل من السيدات: ميمونة بنت أحمد الصرماياتي، وفوزية الفاكياني، وفطمة ارضروملي، وحياة فوال، وجويدة أسماء، وزينب بنت عبده الكردي ... الخ ....

الرئيس: هل تعلمين التهمة الموجهة اليك؟

المتهمة: لا

الرئيس: يسند اليك بأنك اشتركت في مظاهرة غير مسموح بها، وقد أقلقت بعملك هذا الراحة العامة، وشتمت الشرطي رقم 381 وقلت له: "أنت بلا شرف، وأنت لا تعرف الا أن تبرم شواربك".

المتهمة: والله العظيم ما قلت له شي من هادا ... أنا كنت عم أصرخ: يحيا الوطن يحيا الدين.

الرئيس: وماذا قلت للشرطي؟

المتهمة: قلت له: ولي عليكم، ما عندكم شرف ولا دين.

حدث ذلك قبل حوالي ستين سنة، ولا زالت المرأة العربية حتى الآن، محجبة أو سافرة، لم تمنح فرصتها الكاملة للمشاركة بدور فعال في المجال الوطني والسياسي والاجتماعي.

العيد الألفي لأبي الطيب المتنبي:

كنت ولا أزال شديد الاعجاب بشاعر العرب العظيم أبي الطيب المتنبي. وكان رفيقي في غرفة الدراسة بدمشق بدر الدين علوش لا ينقطع عن رواية أشعاره باستمرار، فقد كان حافظا لأجمل قصائد الشعر العربي القديم عموما، ومبدعا في تلاوتها وإلقائها القاء جميلا، وحين قرأنا في الصحف ان "العروة الوثقى" قررت اقامة مهرجان في الجامعة الأميركية ببيروت للاحتفال بذكرى مرور ألف عام على وفاة المتنبي، اتفقنا على إقامة مهرجان مماثل في حماة، وانضم الينا رفيقنا في المنزل حسن قاسم.

وعندما انتهت السنة الدراسية وعدنا الى حماة لقضاء العطلة الصيفية، انضم إلينا أيضا إحسان العظم، فكونا نحن الاربعة "لجنة المهرجان الألفي لأبي الطيب" وأخذنا نهيء لذلك المهرجان بشكل يليق بشاعر الأمة العربية الكبير، ولا سيما وانها ستكون مناسبة لإذكاء الروح الوطنية العربية ومظاهرة ضد الاستعمار الفرنسي.

قدمنا بيانا للسلطة، طالبين السماح لنا بإقامة ذلك "المهرجان الأدبي" في 10 آب 1935 في مقهى السماق، ووجهنا كتبا الى عدد من كبار الأدباء والشعراء في دمشق وحلب وحمص ومصر وفلسطين ولبنان، نرجوهم فيها الحضور للاشتراك بالمهرجان، أو ارسال خطاباتهم لتلقى بالنيابة عنهم.

وقد عكفت خلال تلك المدة المتبقية على موعد المهرجان، وهي حوالي شهر على كتابة دراسة عن فكر المتنبي وفلسفته.

وكـان الاهتمـام بدراســة الفلســفة الألمانيــة، وفلســفة نيتشــه، بشكل خاص ظاهرة العصر في سوريا آنذاك، فقارنت في الدراسـة الأكاديمية الطويلة التي أعددتها بين المتنبي ونيتشه.

وبعد عصر يوم 10 آب 1935 يقـول مراسـل "القـبس" فـي حمـاة: كـان ميعـاد الحفلـة فـي مقهـى السـماق بسـوق الدباغـة، فمـا أزفـت السـاعة الخامسة زوالية حتى كان عدد المدعوين قد اكتمل، وقد أربى على ثمانمائة شخص من علماء المدينة وأدبائها وشبانها وموظفيها وتجارها وعمالهـا، كانـت جدران الحديقة مغطاة بالسجاد، والمنبر قد نصب في صدرها.

وفـي السـاعة الخامسـة اعتلـى المنبـر الشـاب مصـطفى الصـابوني، وافتتح الحفلة باسم الله ثم باسم العـرب، ثـم قـدم الفـرع الموسـيقي بملجـأ الأيتام النشيد الخاص الذي نظمه لهذه الحفلة السيد زهـدي الشـواف ولحنـه الأستاذ الموسيقار توفيق أفندي حمدون، الذي قبض علـى العـود الـى جانـب المنشدين ليجاروه في الترتيل، فكان للنشيد وتلحينـه وترنيمـه وقعـه الجميـل في نفوس السامعين.

ثم تقدم من المنبر الشاب الأديـب إحسـان بـك العظـم فـألقى خطبـة مطولة شـملت تاريخ حيـاة المتنبـي باسـتقصـاء علمـي، وتـلاه الأديـب السـيد سـليم البرازي الـذي ألقـى كلمـة الأديـب الكبيـر الأسـتاذ شـفيق بـك جبـري، فأجاد القاء كلمة أديب الفيحاء الكبير، ونهض بعـده الشـاعر الحمصـي الملهـم الأستاذ رضـا صـافي وألقـى قصـيدة موشـحة مـن بنـات فكـره الجـواد، وعقبـه السيد أكرم الحوراني فألقى دراسة مطولة في "من هو أبو الطيب؟" نحا فيها غير المنحى الـذي انتحـاه احسـان بـك العظـم، لأنـه تنـاول أبـا الطيـب بـدرس تحليلي لأكثر نواحيه الشعرية النفسية والفلسـفية، وتـلاه السـيد سـليم بـك حيدر الـذي جـاء مـن بعلبـك ليلقـي قصـيدة رائعـة فـي المتنبـي استحسـنها الجمهور أيما استحسان، ثم ألقى السيد عبد الـرحمن عيـاش قصـيدة باسـم طلاب التجهيز، ثم اعتلى المنبر أستاذ الأدب العربي في حمـاة قـدري أفنـدي العمر فارتجل خطبة قيمة في صدق المتنبي وبطولته، وقام السبد بـدر الـدين علوش وألقى خطبة قيمة جدا في "عبقرية المتنبي" أجـاد فيهـا كـل الاجـادة تأليفـا واسـتنتاجا وإلقـاء، فقـد سـحر سـامعيه بأسـلوب إلقائـه... ثـم ألقيـت - بالنيابة - كلمة العلامة السيد عبد القادر الجندي التي جاءت ردا علـى سـؤال لجنة المهرجان " هل يعد المتنبي حجة في اللغة؟" كما تلـي بالنيابـة خطـاب

وطني للأستاذ عمر يحيى أستاذ الأدب العربي في تجهيز انطاكية، وفي الختام ألقى شاعر العاصي بدر الدين أفندي الحامد قصيدته الرائعة .. وقد خرج الناس طروبين بما ألقي من الكلمات الطيبة في هذه الحفلة، مثنين على لجنة المهرجان وعلى الخطباء لما بذلوا من جهود ثمينة جعلت للحفلة روعتها التي أخذت من نفوس السامعين أحسن مأخذ.

وعلى الرغم من أن مثل هذه الحفلات الجماهيرية لا تتقبل الدراسات الأكاديمية الرصينة، فقد استمع الناس لدراستي - التي كانت بمثابة أطروحة علمية- بكل اهتمام وصبر وجلد، وكانت موضع تشجيع وتقدير من الأساتذة والأدباء في حماة، واعتبرها الاستاذ قدري العمر استاذ الأدب العربي في تجهيز حماة من خير الدراسات التي قرأها عن المتنبي حسب تعبيره.

لم يقتصر أثر هذا الاحتفال على الناحية الأدبية، بل أخذ - كما أردنا له - شكل مظاهرة وطنية ضد الاستعمار الفرنسي، وكان على رأس الحضور الدكتور توفيق الشيشكلي وأركان الكتلة الوطنية بحماة، فكان للاحتفال وقع إيجابي طيب في الأوساط الوطنية ضد جو الخنوع والهمود والخوف الذي نشره حسني البرازي في المدينة منذ توليه وزارة المعارف.

وكان من فوائد هذا المهرجان أنه عرفنا بالأديب اللبناني محمد علي الحوماني، الذي زار حماة فيما بعد فاحتفينا به. كان الحوماني يصدر مجلة أدبية في بيروت آنذاك، وكان شاعرا يشارك في المهرجانات الوطنية والأدبية في سوريا، ويلقي اشعاره بلهجة غنائية ايقاعية جميلة تساعد الجماهير على حفظها وترديدها.

نشرت الصحف أنباء هذا المهرجان وبعض القصائد التي ألقيت فيه، فشجع ذلك أدباء حمص وحلب على إقامة مهرجانات مماثلة احتفاء بالذكرى الألفية لأبي الطيب المتنبي.

ولا شك أن نجاح هذا المهرجان كان نجاحا **لأهل الصفة**، تلك الندوة الأدبية والسياسية والفكرية، التي تربط بين أعضائها أقوى روابط الرفاقة رغم عدم وجود تنظيم رسمي يضمهم، وكان

نشاط أهل الصفة يـزداد عنـدما نعـود مـن الجامعـة لقضـاء العطلـة الصيفية.

الوباء ....

كان ادراكنا ووعينـا للقضـية الفلسـطينية فـي ذلـك الوقـت - عام 1935 - ان فلسطين هي جزء طبيعي من سوريا اقتطـع منهـا وفـرض عليهـا الانتـداب البريطـاني، تتعـرض لخطـري الاسـتعمار البريطاني والاستيطان اليهودي، وإن اسـتقلال فلسـطين وتحررهـا مـن الاسـتعمار والاسـتيطان يعنـي تحـرر جـزء مـن أجـزاء سـوريا الجنوبية.

بهـذا التصـور العربـي السـوري للقضـية الفلسـطينية كانـت تشكل "الجمعيات السورية الفلسطينية" في البلاد العربيـة وفـي الخارج، وبهذه الروح كـان يسـتقبل زعمـاء فلسـطين أبـان زيـاراتهم لسوريا، كما حدث في الاحتفالات الكبرى التي أقيمت للحاج أمـين الحسيني عندما زار في بدايـة شـهر أيلـول 1935، حمـص وحمـاة وحلب. وإنني لا أزال أذكر الحفاوة البالغة التـي أحاطتـه بهـا حمـاة أثناء اقامته القصيرة فيها، وكيـف أن زيارتـه كانـت مناسـبة لتحريـك المشـاعر القوميـة والتفـاف العناصـر الوطنيـة فـي "بيـت الأمـة" لتدارس القضية الوطنية التي كانت فلسطين جزءا منها.

كـان الشـعور بـالخطر المحيـق بفلسـطين مـاثلا فـي وعـي جماهير الشعب، ولم تكن الدعايات الواسعة للنعيم الذي يتمتع به الفلسطينيون من جراء تدفق الاموال الصهيونية لتؤثر فـي سـورية، لأن الجمـاهير الشـعبية بحسـها السـليم العفـوي كانـت تشـعر بالخطر الماثل الذي يتهدد هذا الجزء من بلادها.

ومما كان موضع الحذر والانتباه مـا انكشـفا عنـه عـام 1935 من محاولة الحركة الصهيونية شـراء الأراضـي فـي سـوريا ولبنـان، فبـدأ الـوعي العـام يـدرك أن الاسـتيطان الاسـتعماري اليهـودي لا يستهدف فلسطين فحسب، بل يستهدف سـوريا أيضـا، هـذا فـي الوقت الذي اشتدت فيه المخاوف من الخطـر المحيـق بـالبلاد مـن الشـمال أيضـا، بقيـام الفرنسـيين بتهيئـة الأسـباب لفصـل لـواء

الاسـكندرونة عـن سـورية وبمنحـه الاسـتقلال المـالي والاداري والحاقه بتركيا التي تطالب بضمه إليها.

ففـي سـنة 1935 قامـت الوكالـة اليهوديـة بمحاولـة لشـراء أراض في حوران والبطيحة والجولان، فكان لما كتبته الصحف نتيجة ردود الفعل الشعبية، اثر كبير لدى الطليعة الواعية، فشكل الدكتور عبـد الـرزاق الدندشـي، مؤسـس عصـبة العمـل القـومي، شـركة زراعية عربية مساهمة لاستثمار البطيحة والجـولان، لإنقاذهـا مـن مطامع الوكالة اليهودية التوسعية، وخصص للفلسطينيين عشـرين ألف سـهم، فغطاها الموسـرون الفلسـطينيون منذ أول دعوة وجهت إليهم للاكتتاب، "وكان بوسع الفلسـطينيين تغطيـة كافـة الاسـهم الباقيـة لـولا أن المرسـوم الاشـتراعي الـذي صـدر عـن المفـوض السامي يقضي بأن تكون أكثرية الأسـهم سـورية" (القبس: 21 ايار 1935).

كما قامت ضجة حول تسـرب أراضـي قريـة (الجوخـدار) فـي الجولان الى الشيخ نوري الشعلان، بتواطؤ الحكومة معـه لتمليكـه هذه الأراضي التي كان ينوي بيعها لليهود، مما أثـار القبائـل التـي كانت تضرب بها وتقطنها، فاضطرت الحكومة للتراجع وتكذيب الخبر.

وقد كشـفت الوكالة اليهودية عن مطامع توسعية فـي لبنـان أيضا. سواء بمحاولاتها لشراء أراض في جنـوب لبنـان، أو محاولاتهـا للمسـاهمة فـي المشـاريع الصـناعية اللبنانيـة الكبـرى، كمعمـل الاسمنت فـي شـكا مـثلا. ومـن حسـن الحظ ان موقـف الانتـداب الفرنسـي، ولا سـيما المفوض السـامي دومارتيـل، كـان حـائلا دون التوسـع الصـهيوني فـي سـورية ولبنـان، "راجـع مـذكرات اسـكندر الرياشـي".

ولا شـك ان الرقابة الوطنية الشعبية قد أحبطـت المسـاعي المبذولة لتسرب الأراضي السورية الى الوكالة اليهودية، وقـد كـان للصحف السورية دورها المرموق في فضـح المطـامع الاسـتعمارية الصـهيونية، ففـي تـاريخ 1935/12/15 ورد فـي جريـدة القـبس مـا يلي:

ملك يهودي على عرش سوريا

"ألقى السير هربرت صموئيل [1] محاضرة في جامعة لندن بعنوان (انكلترا وفلسطين) وقد أحدثت ضجة عنيفة في مختلف الأوساط السياسية، ولعل أهم ما جاء في هذه المحاضرة الخطيرة تصريح السير هربرت صموئيل بأن الحكومة الانكليزية كانت وضعت مشروعا بتأسيس مملكة يهودية مستقلة من قبل تصريح بلفور بتأسيس الوطن الصهيوني، ولم يقف السير هربرت عند هذا الحد بل اعترف أن فكرة تأسيس هذه المملكة كانت موضع بحث بينه وبين الدكتور حاييم وايزمن الزعيم الصهيوني الكبير أبان الحرب العظمى، وأنه اجتمع في 9 تشرين الثاني 1914 الى السير ادوار غراي وزير الخارجية البريطانية، إذ ذاك وفاتحه بتأسيس هذه المملكة وكاد وزير الخارجية يقتنع بفائدة هذا المشروع الضخم لان السير هربرت كان يريق عليه الوانا جذابة حتى أن وزير الخارجية السير غراي راح يساعد هربرت بشتى الوسائل السياسية والدبلوماسية على تحقيق فكرته.

وقد كان مشروع السير هربرت صموئيل يقتصر على فلسطين فقط بحدودها الحالية، ولكن السير ادوار غراي كان يحلم بملك أوسع، لأن مملكة مساحتها كفلسطين ليست بذات أهمية كبرى، فاقترح السير غراي ضم سوريا ولبنان الى هذه المملكة المستقلة، على أن يعلن عليها ملك من بني اسرائيل، ولم يعارض السير هربرت صموئيل السير ادوار غراي في هذا الاقتراح، ولكنه طلب منه أن يمهله ليدرسه درسا دقيقا، وبعد أسابيع عاد وبين لوزير الخارجية الأضرار الكبرى التي تنتظر هذه الملكية في فلسطين اذا ما دخلتها العناصر العربية في دمشق وبيروت، وقال له: ان العرب في دمشق لن يمكنوا اليهود من صف حجر واحد في دمشق. فاقتنع السير ادوار غراي وأخذ يوجه اهتمامه وتفكيره الى تأسيس أمبراطورية يهودية خالصة في فلسطين".

سلطة الانتداب تجمد نادي أبي الفداء

[1] المفوض السامي البريطاني في فلسطين، وهو يهودي صهيوني.

كان نمو الحركة الوطنية وتعاظمها مترافقا مع نمو الحركة الثقافية والفكرية والعلمية والرياضية، بل كانت هذه الحركة النامية الموجه الحقيقي للحركة الوطنية، تمدها بقوة الوعي والفهم والعزم. وهذا ما شعر به الفرنسيون، لذلك أصدر المفوض السامي قرارا بالتضييق على الحركة الرياضية والكشفية والثقافية في البلاد، **وحقق هذا القرار أغراضه** "بما وضعه أمام الحركة الكشفية والرياضية من العراقيل والعثرات. فلقد اصطبر نادي أبي الفداء الرياضي، وهو أعظم ناد للرياضة والكشفية في حماة، بانتظار نجاح المفاوضات لتعديل ذلك القرار بشكل يزيل العراقيل والمتاعب والصعوبات أمام نمو الحركة الكشفية والرياضية، وإلا فان أعضاءه سيضطرون لاتخاذ قرار بحل هذا النادي الذي يعني اعدام النهضة الرياضية والكشفية المباركة، الى أن يقيض الله زمانا يستطيع فيه الرياضيون تجديد نشاطهم ... وفي حال حله سيتم تسليم أثاث النادي والأدوات الرياضية ومعدات الفرقة الكشفية الى ادارة الأيتام كما ينص على ذلك نظامه الداخلي". (القبس: 12 تموز 1925)

كان لقرار المفوض السامي رد فعل سيء وبعيد الاثر. لأن الفرق الكشفية والرياضية كانت أندية لتنمية الروح الوطنية ونشر الوعي القومي وتنظيم الشباب.

الهدوء الذي يسبق العاصفة

على الرغم من أن عام 1935 كان عام هدوء نسبي في سجل سنوات الانتداب الفرنسي على سورية، فقد كان التململ الشعبي ينبىء عن ثورة، وكان الجو منذرا بالعاصفة، وقد وجد الوطنيون في ذكرى المولد النبوي مناسبة لتحريك القوى الثورية في الجماهير وتوضيح تطورات القضية الوطنية وبث الدعوة للاستقلال والتحرر من الانتداب الفرنسي، ومن الجدير بالذكر أن حماه لم تحتفل بعيد المولد النبوي يوما واحدا، وانما استمرت الاحتفالات بهذه المناسبة العزيزة وتكررت خلال أكثر من عشرة أيام، فكانت "من أروع ما عرفه الناس في تاريخ الحفلات والمظاهرات منذ وجدت هذه السنة الحسنة في احياء ذكرى سيد العرب ورسولهم وقائدهم ومحررهم، وكان حماس الشعب قويا الى حد بعيد، وكانت النفوس هائجة هياجا لم يكن دينيا فحسب، بل كان قوميا ووطنيا أيضا، وكانت الخطب التي

ألقيت في تلك الحفلات كلها سياسية وطنية حماسية تملأ النفوس وتهز المشاعر وتحرك القلوب، وكانت الهتافات لهذا الخطب ولأولئك الخطباء في المساجد والاندفاع في إظهار شعور الناس نحو القضية الوطنية، كانت هذه كلها تسود البلاد في بضع عشرة ليلة وتسيطر على النفوس في الصباح وفي المساء". (القبس: 11 تموز 1935)

وهكذا كانت المناسبات الدينية مجالا لطرح القضية الوطنية واثارة المشاعر القومية وتوحيد الصف الوطني ضد الانتداب وأعوانه.

بوادر صراع النفوذ السعودي والهاشمي في سوريا:

ذكرت فيما مضى كيف أنني كنت أسمع في الاجتماعات الخاصة وألاحظ انقساما غير علني في صفوف الكتلة الوطنية، بين مؤيد لزعامة الدكتور شهبندر مؤسس حزب الشعب وبين مناهض له من جناح حزب الاستقلال سابقا. وقد أخذ هذا الانقسام يلازم الانقسام العربي بين الهاشميين والسعوديين، فقد سار معظم جناح حزب الشعب ومن انضم اليهم من الكتلة الوطنية في رحاب الملك فيصل الأول والبيت الهاشمي، كما سار معظم جناح حزب الاستقلال ومن التف حولهم في رحاب الملك عبد العزيز آل سعود، وكان الرأي العام يرى في هذين البيتين المالكين دعامة للقضية العربية وسندا لها.

وفي عام 1935 اتضح هذا الانقسام بالرحلات والاتصالات والزيارات التي كان يقوم بها الفريقان للبلاد العربية الأخرى، فقد قام الدكتور توفيق الشيشكي بزيارة الأمير سعودي عندما مر بفلسطين للترحيب به، كما توثقت اتصالات شكري القوتلي وجماعته من حزب الاستقلال بالملك عبد العزيز آل سعود الذي أخذ يبذل نشاطا واسعا في سوريا مناقضا لنشاط الملك فيصل وأنصاره.

عصبة العمل القومي:

كان الدكتور عبد الرزاق الدندشي شابا مثقفا وخطيبا مفوها، تخرج من المعاهد الحقوقية بفرنسا، وكان متقدما بثقافته ووعيه على رجال الرعيل الأول، ويتجلى ذلك من منهاج "عصبة العمل القومي" التي أسسها بتشجيع من الملك فيصل ملك العراق

ومباركة هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية، واشتراك العديد من شباب آل الأتاسي بحمص حيث تشكلت أقوى قاعدة شعبية لهذا الحزب وبعد انتساب صبري العسلي وبعض شباب الكتلة الوطنية بدمشق للعصبة ازدادت قوة وانتشارا.

كانت عصبة العمل القومي أول حزب يؤلفه الشباب والمثقفون من الجيل الثاني، فاستقطبت بسرعة معظم شباب البلاد وطلائعها المثقفة، وأسس الأستاذ زكي الأرسوزي فرعا لها في لواء الاسكندرون، وكان الجميع يرتدون "السيدارة" لباسا للرأس تشبها بالملك فيصل الأول.

كان الاستقلال والوحدة السورية بحدود سورية الطبيعية هما الهدف المرحلي للكتلة الوطنية، بينما رجعت عصبة العمل القومي الى منابع الجمعيات العربية الاولى، وجعلت من العمل للوحدة العربية هدفها الأول ومحور سياستها الداخلية والعربية والدولية، وكانت الخطوة المرحلية في مفاهيم العصبة هي الوحدة بين القطرين الشقيقين سوريا والعراق:

ليس بين العراق والشام حد هدم الله ما بنوا من حدود

هذا هو الشعار الحقيقي الذي عملت على أساسه عصبة العمل القومي.

نشأت عصبة العمل القومي في سوريا على ذات النهج في التفكير القومي الذي أنشىء عليه قبلا نادي المثنى بن حارثة في العراق، وكانت لهذا النادي سمعة طيبة وعلاقة وطيدة بالشباب السوري، بدعم وتشجيع من الملك فيصل. "ان نادي المثنى بن حارثة الشيباني المؤسس في بغداد هو صوت للقومية العربية ورمز لفتوتها، قام بتأسيسه فتيان عرب مؤمنون، رسموا له خططا واضحة في الرياضة البدنية والثقافة والاقتصاد والخدمة الاجتماعية... وقد اتصل النادي برجال العرب في العراق وغيره من الوطن العربي، واتصل كثير منهم به وعضدوا مشروعاته..." من نداء نشرته "القبس" بتوقيع أمين رويحه، بتاريخ 8 ايلول 1935.

كان معظم زملائي الجامعيين من العصبة وأنصارها، وكانوا يرتدون السيدارات وينشطون بالتبشير لمبادىء العصبة، أذكر منهم برهان الأتاسي ووصفي البني، وقد قرأت منهاج العصبة [2] ، وكنت مؤمنا منذ البداية بضرورة العمل السياسي على أساس حزبي، وكان رفاقي العصبويون في كلية الحقوق يشددون الحصار علي للانتساب لحزبهم، ولا أزال أذكر كيف ان برهان الاتاسي استسنح فرصة وجود مصور في حديقة الجامعة فاستعار سيدارة من أحد رفاقة ووضعها على رأسي وطلب من ذلك المصور ان يلتقط لنا صورة تذكارية، ومع الأسف فان تلك الصورة فقدت فيما فقدت من أوراق وصور.

كانت نظرتنا لعبد الرزاق الدندشي، نحن الطلاب والشباب، نظرة اعجاب وتقدير، وكنا نعقد آمالا كبارا على حركته، وقد رأيته ذات مرة في حافلة الترام بدمشق، كما استمعت اليه خطيبا في دمشق، فكان وقع نبأ وفاته شديدا علي.

قضى الدندشي عندما أراد أن يقذف بسيكارته من نافذة الترام، فاصطدم رأسه بعمود الكهرباء، فكانت وفاته المفاجئة ضربة مسددة لنمو عصبة العمل القومي واتساعها واستمرارها، وكانت نهاية العصبة عندما انسحب منها أمين سرها صبري العسلي وانضم الى قائمة شكري القوتلي في انتخابات عام 1943.

---

(2) عصبة العمل القومي
تأسست عام 1933 بعد اجتماعات متعددة لشبيبة وطلبة عرب معظمهم من سورية ولبنان توجت بالتأسيس في اجتماع قرنايل بلبنان أهم كادرها كان من المنشقين عن الكتلة الوطنية لمواقفها "المهادنة". وابرز قادتها: عبد الرزاق الدندشي، فهمي المحايري، صبري العسلي، فريد زين الدين، زكي الارسوزي، سعيد أبو الحسن.
أهدافها العامة: سيادة واستقلال الشعب العربي، الدعوة الى الوحدة العربية الشاملة، عدم التعامل مع دول الانتداب والحكومات التي تقيمها، عدم الاعتراف بأي حكومة تقبل بالانتداب، مقاومة كل عصبة تناؤيء القومية العربية،
اقتصاديا: البلاد العربية وحدة اقتصادية متكاملة، محاربة الاستعمار الاقتصادي ومحاربة الاقطاعيين، تحديد مقدار تملك العقار وإعمار الريف،
اجتماعيا: النهوض بمستوى المرأة الاجتماعي والثقافي،
ثقافيا: القيام بنهضة ايجابية عامة واعداد الأمة لأهداف حضارية سامية،
والقضاء على النعرات الاقليمية ومراعاة الظروف لكل قطر، جعل اللغة العربية وحدها لغة التعليم في شتى فروعه
صحافتها: جريدة العمل القومي في حلب 1938 ومديرها ابو الهدى اليافي باشراف زكي الارسوزي، جريدة الجبل، وجريدة العروبة،

كـان الـدكتور عبـد الـرزاق الدندشــي ينتمـي الـى عشـيرة الدنادشة في تلكلخ التي تشبه عشيرة آل البرازي من حيث العـدد واتساع الملكية والنفوذ.

الكتلة الوطنية تتجه نحو التنظيم الحزبي:

منذ مطلع الثلاثينـات بـدأ الشـباب المثقـف يطالـب بـأن تأخـذ الكتلة الوطنية شكل تنظيم سياسـي حزبي، لا سيما وأن أحد أهم مبررات إنشاء عصبة العمل القومي هو أنهـا تنظـيم حزبـي لا تجمـع للزعامات الوطنية والعائلية.

وتحـت ضـغط تـأليف عصـبة العمـل القـومي، وظهـور تكـتلات لبعض الشباب هنا وهناك بتشكيلات حزبية، اضطرت الكتلة الوطنية لان تتجه نحو التنظيم، وبدأ الاعلان عن هذا التنظيم في حلب حيث افتتح اول مكتب للكتلـة الوطنيـة فـي بيـت الـزعيم ابـراهيم هنـانو، بمناسبة عيد المولد النبوي، فالقى سعد الله الجابري خطابا مطـولا عرف فيه هذا التنظيم بقوله: "ان التنظيم الوطني في داخـل الـبلاد هو هـذا البيـت، بيـت الـزعيم الـذي سـمعنا فيـه قصـة مولـد النبـي العظيم، فهو نواة التنظيم المتواضعة، وهو الذي سيكون بيتكم، بيت الأمة، وهو الذي يلم شـملكم ويكون واسطة عقـدكم، فـأقبلوا عليـه واسترشـدوا بأرائـه" ... ثـم قـال: "إن التنظـيم الـوطني يرمـي فيمـا يرمي اليه من غايات سـامية، الـى رفـع حالـة التطـوع مـن الخدمـة الوطنية إلى القرعة العسكرية ومن ثم الى الخدمة الإلزامية، حتـى تصبح البلاد جميعها شيبا وشـبانا صـفا وطنيـا متراصـا يعـرف واجبـه وحقه ويستميت فـي الـدفاع عـن الفكـرة المقدسـة والنظـام صـفة القوي والفوضى ميزة الضعيف".

بهذه الأفكار الساذجة شرعت الكتلـة الوطنيـة بفـتح مراكزهـا الحزبية في المدن السورية، فأصبح بيت أبرز زعيم في كل بلدة هـو "بيت الامة"... وهكذا... لم تأخذ الكتلة الوطنية فعليـا شـكل تنظـيم حزبـي واضـح المعـالم، علـى أن فكـرة التنظـيم الحزبـي التـي كـان يطالب بها الشباب المثقف لم تكن واضـحة أيضـا، والـذي كـان مـاثلا في الأذهان ان التنظيم النـازي هـو النمـوذج الأمثـل لفكـرة التنظـيم

الحزبي، ولذلك نشأت في اوساط الأحزاب العربية، القديمة والجديدة تنظيمات تشبه التنظيمات النازية، فأنشأت الكتلة الوطنية في سورية فرق القمصان الحديدية وأنشأ بيير الجميل في لبنان فرق الكتائب، ونظم حزب الوفد في مصر فرق القمصان الخضراء، وهكذا كان للحزب النازي تأثيره على الاحزاب العربية مثلما اصبح للماركسية تأثيرها بعد الحرب العالمية الثانية.

ايطاليا تهاجم الحبشة:

كان من أهم الأحداث المؤثرة في أواخر عام 1935 غزو موسوليني للحبشة، ولا أزال أذكر أن الجمهور كان يتتبع أخبار ذلك الغزو يوما فيوما باهتمام كبير وحماسة شديدة للاحباش لا تقل عن حماستهم لقضاياهم، فكنا نرى الخرائط في الأيدي والناس يتتبعون أنباء مقاومة الأحباش للغزو الايطالي، حتى أصبح الجمهور على معرفة تامة بجغرافية الحبشة وأسماء زعماء قبائلها وظروفها، وكانت الصحف تؤيد هذا الاتجاه وتذكر العرب بأن للأحباش عليهم دينا عندما ناصروا النبي العربي ضد أعدائه "وقد أن الأوان لرد هذا الجميل".

كان وراء هذه الظاهرة المميزة والصحيحة، عاملان:

أولا: فظائع الطلاينة في طرابلس الغرب وليبيا واعدامهم الشهيد عمر المختار على الشكل المعروف.

ثانيا: وحدة مشاعر شعوب آسيا وأفريقيا ضد الاستعمار الغربي.

كما كان للدعاية الانكليزية الماهرة دور هام في اذكاء هذه المشاعر ضد الايطاليين، وكان من نتائج هذا الغزو ما أساء الى سمعة الأمير شكيب أرسلان في ضمائر الناس، لأنه أيد الغزو الايطالي وناصره، ولم يجده شيئا دفاع الكتلة الوطنية عن موقفه ولا التبريرات التي نشرها والحجج التي تذرع بها معتبرا انتصار الحبشة انتصارا للانكليز أعداء العرب، وبذلك فقدت اللجنة السورية الفلسطينية في جنيف رصيدها من الاعتبار والاحترام لدى الرأي العام، ولا سيما بعد أن أتهم عضواها الامير شكيب أرسلان

واحسـان الجـابري بقبضـهم الأمـوال مـن موسـوليني عـدو العـرب والاسـلام.

وبالمقابل فقد كان الزعماء الوطنيون يعملون على تغذية هذه الظـاهرة الصـحية - ظـاهرة وقـوف الجمـاهير الشـعبية ضـد الغـزو الايطالي للحبشة - باسباب الوعي والمعرفة وتوضيح الخط الفاصل بين الباطل والحق، أو بين الاستعمار من جهة وحق الشعوب في تقرير مصيرها من جهة أخرى، من ذلك مثلا ان الزعيم الوطني الدكتور عبد الرحمن الشهبندر سئل في منفاه: هل تعطف على الحبشة؟

فأجاب:

"انني أعطف على الحبشة لنفس الأعذار التي انتحلها موسوليني لمهاجمتها، واتخذها ذريعة للبطش بها والقضاء على حوزتها، فهو يقول إن الحبشة همجية وحشية تبيح في بلادها الرق واستغلال النفوس البشرية للمصالح المادية الحقيرة وتسخيرها لمآرب لا تليق بالقرن العشرين وأنا وكل من درس الاستعمار درسا نزيها نقول ان الدوتشي انما أطلق للجيش الايطالي يده في اثيوبيا لسبب جوهري واحد هو وضع الأغلال في أعناق الأحباش والسلاسل في أيديهم وأرجلهم لاستغلال نفوسهم لمصالح ايطاليا المادية الحقيرة، وتسخيرهم لمآرب لا تليق بالقرن العشرين.

وان الفرق بين الرق الحبشي والرق الايطالي هو في المقدار لا في النوع، فالرق الحبشي هو بالفرد اما الرق الايطالي كما يشهد عمر المختار في لحده فهو رق بالجملة، وأحق الناس بإصدار الحكم في الشؤون الاستعمارية هم أمثالنا ممن تعاني بلادهم الأمرين من ويلات السيطرة الأجنبية، ان التضحية التي لا أتردد في تقديمها للحبشة، لو سمحت لي الظروف في سنة 1935 كما سمحت لي في سنة 1925، هي أن أشارك الأحباش في دفاعهم عن حوزتهم السياسية في لب بلادهم، وأن اتعرض لجميع ما يتعرضون له من أنواع المهالك والأخطار، ذلك لأن الحق العزيز المقدس الضائع يحتم علينا إذا كنا احرارا أن ندافع عنه، وإذا لم تسنح لنا فرصة عملية

للدفاع عنه في نفس بلادنا، فالمروءة تقضي بأن لا نتقاعس عنه في بلاد غيرنا، ومن ادعى دواعي افتخارنا واعتدادنا بأننا عشاق حرية واستقلال ان يقف أبناء بلادنا في جميع أقطارهم العربية هذا الموقف المشرف مع الحبشة على رغم جميع وسائل الاغراء التي توسلت بها ايطاليا لفتنتهم وتوجيه انظارهم الى غير وجهتها النبيلة السامية، فالحق حق في بلاد العرب وفي بلاد العجم، والباطل باطل ولو أيدته القوة الغاشمة بالمال وبالرجال".

ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم:

كان أهم حدث حدث وقع في أواخر عام 1935، وكان له في نفسي تأثير شديد، قيام الشيخ عز الدين القسام، إمام مسجد الاستقلال في حيفا، بثورة مسلحة مع اتباعه المجاهدين في شمالي فلسطين، وكان لاستشهاده اثر عميق في سورية وفلسطين حيث أصبح رمزا للتضحية والفداء.

كان القسام مثلا رائعا للمقارنة والتمييز بين رجال الدين الاتقياء الطاهرين المؤمنين حقا، وبين من كان يسير في ركاب الفرنسيين والبريطانيين، فلأول مرة نسمع أن شيخا مسلما يبادر لقيادة ثورة مسلحة ضد الاستعمار والصهيونية، ولقد أوضحت لي ثورة القسام الخط الواضح بين الرجعية الدينية الانتهازية الخنوعة، وبين الدين الذي هو في جوهره ثورة على الظلم والشر والضغيان.

وهوى الصقر:

فجأة توفي الزعيم ابراهيم هنانو، كان ذلك يوم 1935/11/21، ذهلت للنبأ وبكيت، وكانت الضربة شديدة وقاسية، وكان خير عزاء لي في ذلك اليوم الأسود أن أرجع الى بعض اقواله التي كان يتوجه بها الى الشباب:

"ان على الشباب العربي ان يفخر بعروبته مبعث عزته، وبقومه مبعث فخره.

ان على الشباب العربي أن ينصر الحق ويكون عونا له وأي جور أعظم من جور الوطن على بنيه؟

ان على الشباب العربي أن يكون وطنيا، وهل تكون الوطنية صادقة مخلصة اذا لم تقترن بالتضحية؟ فاجعلوا التضحية شعاركم في خدمة الوطن لتكونوا وطنيين صادقين.

لا تهابوا التضحية، فانه لا يخشاها غير الجبان الرعديد، فالتضحية هي الدليل على انكم أحياء وأنكم تعدون الحياة بكل عزيز، التضحية برهان الشجاعة وقوة النفس وسحرها، التضحية هي الحجة على قوة الحق الذي تدافعون عنه، ونبل القضية التي تحملون أعباءها، التضحية هي مقياس ما في نفوسكم من حب للحرية وتفان في سبيلها، التضحية هي الدليل على أنكم سادة تأنفون الرق، وأباة تحرصون على كرامة الحياة ... فضحوا وتنافسوا في ميدان التضحية فليست التضحية الموت ولكنها الحياة.

هذه رسالتي اليكم فاحفظوها وحافظوا عليها واجعلوها نصب أعينكم ورددوها في كل مساء.

لقد قيلت في رثاء هنانو يوم وفاته ويوم أربعينه كلمات وقصائد هي من عيون الأدب، ولكن كلمات هنانو تلك كانت أروع وأبلغ وأسمى لأن كل الناس كانوا واثقين من صدقه وإخلاصه، كانت كلماته من مستوى بطولاته، لذلك عندما مات شعر كل شاب أن أبا مات، وكل مجاهدا أن قائدا قتل، وكل سياسي أن معقلا تهدم، فعمت سوريا موجة من الحزن الصادق العميق، واتجهت الوفود الشعبية الضخمة من كافة المدن الى حلب، لتشارك في تشييع جثمانه، بعد أن نقل اليها من قريته "ستي عاتكة" قرب حارم حيث توفي هناك.

وفي دمشق اغلقت الأسواق حدادا، فكان الأسى البليغ المخيم على العاصمة رائعا يبعث الرهبة في النفوس، وقرعت أجراس الكنائس، ونعى المؤذنون الفقيد على المآذن بعبارات مؤثرة وتردد النعي في سماء دمشق الحزينة، وأضرب الطلاب حزنا وأسى وتفجعا ... وفيما سافر بعض رفاقنا طلاب الجامعة الى حلب للمشاركة بتشييع جثمان هنانو، توجه فريق آخر الى دار البريد، ووجهوا البرقية التالية الى مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر:

"نستنكر اطلاق النار على الطلاب وإهراق دمائهم الزكية واغلاق المعاهد العلمية بوجه الهاتفين للاستقلال، الدم المسفوح بجنبات النيل خير كفيل لنجاح قضيتكم، للباطل جولة ثم يضمحل. تحيى أرواح الشهداء الأبرار. التوقيع: طلاب الجامعة السورية"...

لقد كانت مصر تتمخض عن ثورة 1935 ضد الاحتلال البريطاني.

الوحدة الطبيعية للثورة العربية:

ان برقية طلاب الجامعة السورية إلى مصطفى النحاس باشا زعيم المعارضة الوطنية في مصر تدل على مدى اهتمام السوريين بما كانت تتمخض عنه ثورة مصر التحررية ففي 13 تشرين الثاني 1935، وبمناسبة عيد الجهاد، انطلقت في القاهرة مظاهرات شعبية كبرى مطالبة باقالة حكومة محمد توفيق نسيم باشا، واعادة دستور 1923، وتسليح الجيش المصري، كما كان حزب الوفد والأحزاب الوطنية الأخرى تصدر البيانات التي تطالب انكلترا ايجاد صيغة تضمن لمصر حقها بالاستقلال والانتساب لعضوية عصبة الامم المتحدة.

قامت حكومة نسيم باشا، الراضخة لأوامر المستعمرين البريطانيين، بقمع تلك المظاهرات بوحشية وعنف، فسقط عدد كبير من القتلى والجرحى، ولا سيما في صفوف الطلاب لكن ذلك لم يخمد نار الثورة بل زادها اشتعالا، اذ استمرت المظاهرات والاضرابات عدة أسابيع، وكانت الجماهير الشعبية المصرية، والطلاب، والأزهريون، والنساء، وأبناء المدن الصغيرة في الأقاليم يعبرون بمواقفهم الباسلة عن صمود ووعي وطني رائع، وكانت سوريا متصلة بهذه الثورة الوطنية متعاطفة معها.. ولم تنته فصول تلك الثورة الا بمعاهدة عام 1936 الشهيرة.

وسوف نرى أن الأمر ذاته سيحدث في سوريا وينتهي بمعاهدة عام 1936 مع فرنسا. **وان من يدرس وقائع تلك الفترة، ستدهشه وحدة التوقيت والأهداف والمواقف في هذين القطرين العربيين، رغم عدم وجود اي تنظيم أو تنسيق مسبق.**

الحزب السوري القومي:

في تشرين الثاني 1935 بدأنا نسمع، في الأوساط الطلابية بجامعة دمشق، عن حزب جديد يدعى الحزب القومي السوري، فقد كانت الصحف الدمشقية تنشر أنباء من بيروت عن أن السلطات الفرنسية شنت حملة اعتقال واسعة ضد أفراد هذا الحزب بتهمة تشكيلهم منظمة سياسية سرية، وكانت صحف دمشق تعطف على هذا الحزب الذي "يحمل الى كل من يريد أن يفهم وينصف دليلا جديدا قويا على أن تجزئة البلاد السورية قد أخفقت اخفاقا مريعا" (القبس 29 تشرين الثاني 1935). كما كانت الصحف تنشر بيانات للقوميين السوريين يتحدثون بها عن نزوعهم الى الاصلاح والنهضة و "جوابا على ما اتهمنا به البعض نقول انه لا ينتمي الينا الا كل من هو سوري من دم عربي". (القبس 1935/11/21).

اثارت أنباء الكشف عن هذا الحزب السري اهتماما شديدا في سوريا، لأنه يدعو الى وحدة أجزاء سوريا رغم كونه حزبا لبنانيا.

5

1936: ثورة الشعب العربي على الاستعمار في سورية وفلسطين ومصر.

إهانة الشيخ تاج في حماة

شدد الانتداب الفرنسي وحكومة الشيخ تاج الدين الحسني القبضة على البلاد فمر عام 1934 و1935 والحركة الوطنية هامدة الا من بعض الاختلاجات الطلابية والشعبية بين الحين والحين ولا اذكر مما يستحق التنويه الا الحوادث التالية:

قام الشيخ تاج رئيس الوزراء بزيارة لمدن سوريا الشمالية، وأثناء مروره بحماة ظفر باستقبال الذوات وأنصار السلطة من جماعة وزير المعارف حسني البرازي، كما تجمهر بعض الناس في "الشارع الجديد" حيث دار البلدية التي سينزل بها الشيخ تاج، وفجأة صرخ رئيف الملقى من بين الجمهور بلفظه نابية لا أحب أن أعيدها في هذا المجال فردد الناس هذه الكلمة بوجه الشيخ تاج والوفد المرافق له، وانقلب الاستقبال فورا الى سخرية وهزء، فغضب الشيخ تاج غضبا شديدا لهذه الاهانة، وتوجه الى حي الحاضر فنزل في بيت فريد العظم حيث جمع له بعض الوجوه من أبناء الحي، فألقى فيهم كلمة ادعى فيها أن الرسول قال: "الحاضر خير من الغائب" وهو يعني بالحديث المختلق أن أهل حي الحاضر خير من أهل السوق، وقد لاقى الشيخ تاج في حلب أيضا نظير ما لاقاه في حماة.

وكان من ذيول قضية اللفظ النابي أن حركت الدعوى العامة بحق رئيف الملقي وعدد من الشباب وحكم من جرائها على رفيقنا أبي رميح بالحبس عدة أشهر، وقد استمرت الصحف لفترة طويلة تشير الى هذه القضية باسم قضية "الهتافات غير المستحبة" عند ذكرها أنباء محاكمات المتهمين والمعتقلين التي شملت عددا من الحمويين، كان بينهم المحامي رئيف الملقي شريك عمي مصطفى في مكتب المحاماة بحماة، وقد زرته في سجن حمص آنذاك.

منير الريس ينتقم من حسني البرازي

عندما اشتدت وطأة هجوم الاستاذ نجيب الريس في مقالاته بجريدة القبس على سياسة حسني البرازي الانتقامية والتنكيلية في وزارة المعارف، أرسل حسني البرازي بعض أقربائه وزلمهم الى دمشق فاعتدوا على نجيب الريس في قارعة الطريق وضربوه ضربا مبرحا، فانتقم منير الريس لأخيه إذ تصدى لحسني البرازي في شارع الصالحية أمام مستشفى الطليان وانهال عليه ضربا بقضيب من الخيزران.

ومنير الريس من ثوار عام 1925، وقد أرسل حسني البرازي الى دمشق عددا كبيرا من أبناء عمه آل البرازي وأزلامهم لمناصرته، فلم يسفر مجيئهم عن شيء، فقد اختفى منير الريس عن الانظار، وكان لانتقامه من حسني البرازي صدى مستحب بعيد الأثر.

أربعون الزعيم هنانو عام 1935

بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاة الزعيم ابراهيم هنانو أقيم احتفال وطني كبير في مدرج الجامعة السورية، اشترك فيه الشعراء والخطباء من سوريا ولبنان وفلسطين والأقطار العربية الأخرى، وكان لقصائد الأخطل الصغير وشفيق جبري وعمر ابي ريشة اثر كبير في الهاب المشاعر الوطنية وتعبئة الجو في البلاد للانفجار ولا سيما قصيدة شفيق جبري التي تعرض فيها للشيخ تاج ولحسني البرازي باسميهما.

ولا أزال أحفظ من قصيدة الأخطل الصغير هذه الأبيات:

يا دماء الشباب ما انت إلا	ذائب الطيب يا دماء الشباب
ادفقي رحمة وانسا وكوني	جدول السفح او هزار الغاب
لا تضني على الحراب وان اذتك	بل عطري رؤوس الحراب
حبذا الورد حينما يغمر الكف	التي يتمتـــه بالاطياب
لا لضعف ولكن لتبرئة الحق	اذا ريم بين ظفر وناب

قطرة منك يا دماء على الحلم احتقـــار لغضـــبة القرضـــاب

ومن قصيدة عمر أبي ريشة قوله:

وغفـت هـذه المرابـع حتـى ايقظتهـا صـيحات ليـث هصـور

فاشـرابت حيـرى فـلاح هنـانو فـوق مهـر ممـرد التضـمير

عرفـت فيـه طارقـا فـي جبـال الالـب يمشـي بالجحفـل المنصـور

وفتـى المجـد خالـدا يلقـم اليرمـوك اشـلاء خصـمه المـدحور

فرنـت ترقـب الهمـام وللامـال خفـق مسـعر فـي الصـدور

والاعادي تلوح كـالازرق الرجـاج فـي موجـه العتـي المطيـر

تشتم الارض من قنابلها الحمـر ويشـكو العجـاج جفـن الاثيـر

وهنانو بـين النثيـر مـن الاشـلاء فـي فوهـة اللظـى والثبـور

وحواليـه حفنـة مـن رجـال ثـروة المـوطن السـليب الفقيـر

تتهـاوى كالشـهب فـي كبـد الجـوزاء فـي لجـة الظـلام الضـرير

كـل حـر كانمـا دم ابـراهيم يجـري فـي شـلوه المنثـور

هكـذا تمهـر العلـى ببسـاط مـن دمـاء وقبـة مـن قبـور

□

يـا زعيمـي يـا قبلـة فـي فـم الفخـر ومجلـى اكليله المضفـور

قبس انـت فـي الحيـاة وفـي المـوت على ساحل العلى المهجور

قل لمـن يعشـق الحيـاة مـع الـذل ويخشـى مـروق عمـر قصـير

النواعير تنفث الضـجر القاتـل مـا بـين دمعهـا والزفيـر

سئمت عمرها الطويل فما تندب الا خلودها في الدهور

الانفجار الكبير

اضراب الستين يوما في سوريا

في تلك الفترة كان الجو في البلاد العربية الأخرى معبأ للانفجار أيضا، ففي مصر كانت تضطرم حركة الطلاب ومظاهرات حزب الوفد، وفي فلسطين كانت أحداث الثورة المسلحة المتفرقة مستمرة، والوضع العربي العام بشبه سلسلة متصلة الحلقات ما أن تهتز حلقة منها حتى تستجيب لها بقية الحلقات... وقد تنطلق الشرارة الأولى من حادث بسيط جدا كما حدث في دمشق.

فقد بدأت ثورة عام 1936 بحملة احتجاج قادها فخري البارودي ضد شركة كهرباء دمشق لرفعها تعرفة الترامواي نصف قرش .. من هنا انطلقت شرارة أعظم اضراب وأطول موجة احتجاج جرت في العالم حتى ذلك الحين، فما أن أعلن الاضراب العام وقامت التظاهرات في دمشق حتى عمت المدن السورية جميعا، وفورا انقلب الاحتجاج على شركة الكهرباء الى المطالبة بالاستقلال.

إن الطلاب هم من أهم العناصر الثورية وهكذا قادوا في سورية تلك الثورة السلمية الكبرى التي استمرت ستين يوما.

كنت من منظمي إضراب معهد الحقوق:

وكنت أقف مع رفاقي في سكنى المنزل: حسن قاسم وبدر علوش ومصطفى عبد الباقي على جسر فيكتوريا لمنع وصول بعض الطلاب الى الجامعة، وقد أثار غيظنا محاولة ظافر القاسمي ورفيقه داود التكريتي وعصام الانكليزي الدوام على المعهد، والثلاثة يشكلون رفقة شخصية وثقافية، وهم محسوبون على المحامي صبري العسلي الذي أصبح أمينا لسر عصبة العمل القومي بعد وفاة عبد الرزاق الدندشي، فشكوت أمرهم الى ابي الهدى اليافي، وكان من زعماء العصبة، والتقيت - لاول مرة - بصبري العسلي وطلبت

منه أن يتدخل لمنع هؤلاء الثلاثة من الدوام على المعهد ولكن هؤلاء لم يرعووا. واعتدى عصام الانكليزي على طالب لبناني مؤيد للاضراب، وضربه على راسه (بالبونة) [1] التي أحدثت له ارتجاجا في الدماغ.

وقطعا لدابر القلة من الطلاب الذين كانوا يداومون على الجامعة او مدرسة التجهيز، صار الطلاب ينشرون يوميا قوائم سوداء بأسمائهم، فتصاعدت حركة الاضراب الطلابي واضطر وزير المعارف حسني البرازي لإصدار قوائم متلاحقة بأسماء الطلاب المطرودين من المعاهد والمدارس، ثم اضطر لإصدار قرار بتعليق الدراسة في الجامعة.

كانت القياديات السياسية في الكتلة الوطنية غائبة عن هذه الحركة التي لم تكن تتوقع لها كل هذا التصاعد والاستمرار والصمود وقد صرح جميل مردم للصحف، بعد اسبوع من بداية الاضرابات: **"ان الكتلة الوطنية لم تقرر الاضراب حتى تذيع بيانا بانهائه. ولقد أظهرت دمشق خلال هذا الاسبوع شعورها الوطني واحتجاجها... وأرى انها كافية".**

وفي حماة "دعت الكتلة الوطنية الى الهدوء وعدم القيام بالاضراب والمظاهرات. نظرا لعدم الحاجة إليها في بلدة صغيرة كحماة... وأصبحنا فإذا المدينة مضربة عن كافة الأعمال التجارية والصناعية اضرابا عاما شاملا". كما جاء في وصف مراسل "القبس" لليوم الأول من الاضرابات في حماة، استجابة لاضرابات دمشق .. وقد كان صمود حماة خارقا. فقد سقط في مظاهرات يوم واحد من ايام تلك الثورة الشعبية ثمانية قتلى وعدد كبير من الجرحى. حيث هاجم المتظاهرون العزل من السلاح الثكنات العسكرية فقابلهم الجنود الفرنسيون بالقنابل والرشاشات.

والواقع أن زمام الحركة كان بيد الطلاب، وبمبادرة منهم، وبتأييد والتفاف أبناء الأحياء الشعبية.

---

(1) أداة حديدية تلبس بأصابع اليد الأربع، لها رؤوس مدببة.

وكانت صحف دمشق تفرد كل يوم معظم صفحاتها لنشر ما تسمح به الرقابة من أنباء تلك المظاهرات والاضرابات والقتلى والجرحى، يوما بيوم.

كنا بعد انتهاء مهمتنا في تأمين سير الاضراب في الاوساط الطلابية، نذهب الى الجامع الأموي حيث ملتقى المتظاهرين من كافة أبناء الشعب، وهناك تتكرر المناوشات الدامية اليومية، أما ساحة المناوشات فكانت تتراوح ما بين شارع جمال باشا والباب الغربي للجامع الأموي - باب سوق المسكية - وكان سلاحنا الحجارة وقذائف الشتائم، وكان خصمنا قوى الأمن والجنود الفرنسيين، وكثيرا ما كانت تتدخل مصفحات الجيش عندما نتغلب على قوات السلطة، وقد سجل رفاقنا الطلاب والشباب من البطولات في هذه المعارك غير المتكافئة ما لم يجر له نظير. كانوا يهاجمون بالحجارة المصفحات التي تمطرهم بوابل من الرصاص. وعندما تشتد وطأة المعركة ويسقط العديد من القتلى والجرحى كنا نرتد الى الجامع الأموي، فهو قلعتنا التي لا تقتحمها قوات الفرنسيين حرمة واجلالا... وآنذاك تبدأ عمليات نقل الجرحى من باب المسكية الى الباب المقابل له من الجهة الشرقية حيث يتم تهريبهم الى الأطباء للمعالجة... وكانت الدماء ترسم على بلاط فناء المسجد بين البابين طريقا أحمر وأذكر أنني في حالة من تلك الحالات ساهمت بنقل أكثر من عشرة شهداء من الطلاب وأبناء الشعب.

كنا لا نلبث ان ننظم صفوفنا ونعيد الكرة ونندفع من المسجد غاضبين ثائرين، وهكذا تستمر المعارك، وكان مما يزيد في شجاعة الطلاب والشباب انتشار المظاهرات في كافة أحياء المدينة وتصاعدها كلما ازدادت شراسة قوى الامن والجيش في عمليات القمع والتصدي.

استمرت هذه المعارك ستين يوما، ودمشق والمدن السورية الأخرى مغلقة جميعها من أقصى البلاد الى أقصاها، وتشكلت في جميع أنحاء البلاد المضربة لجان شعبية تولت عمليات التموين وجمع التبرعات وتوزيعها، وكان التجار والأغنياء أسخياء في

تبرعـاتهم، وأعلـن كثيـر مـن أصـحاب بيـوت السـكن أنهـم أعفـوا المستأجرين من دفع الأجور طول مدة الأضـراب، ومـر عيـد الأضـحى والمدينة مغلقة فتبرع الأطفال بعيـدياتهم لأبنـاء الشـهداء وللعـائلات الفقيرة، وقرأنا فـي الصـحف أن أطفـال ملجـأ الأيتـام جمعـوا كـل مـا لـديهم مـن أمـوال، فبلـغ المجمـوع ليـرتين سـوريتين، فتبرعـوا بهـا للحركة الوطنية.

ومن أطرف ما حدث أن رئيس عصابة للنشـل والسـرقة وقـف في الجامع الأموي معلنـا التوقـف عـن العمـل طالمـا الاضـراب قـائم والمظاهرات مستمرة.

لم تقع أية جريمة، لا صغيرة ولا كبيرة في جميع أنحـاء الـبلاد خلال شـهري الاضـراب، فقـد طهـر المنـاخ الثـوري حتـى المنحـرفين والمجرمين، وخلق مـنهم ثـوارا مناضـلين، وهـذا هـو اعجـاز الثـورات الوطنية التي ترفع الشعب الى مستويات البطولـة والاستشـهاد ... الأمـر الـذي اعتـرف بـه الأوروبيـون أنفسـهم، فقـد نشـرت جريـدة "لوجورنال دوناسيون" في جنيف رسالة لسـيدة سويسـرية مقيمـة في دمشق جاء فيها: "ومع أن الاضراب اسـتمر اكثـر مـن خمسـين يوما فانه لم يحدث حادث من حوادث الجنايات العاديـة وكـان الغنـي يساعد الفقير في هذا النضال العنيف، ولقد كانت مظـاهراتهم رمـزا للتضحية العالية التي نقرأها في الأساطير، وكانت الطبقـة المثقفـة قائدة هذه الحملات الجبارة التي قاسـى الشـعب فيهـا مـا قاسـى وتحمل من الآلام ما تنوء عن حمله أعرق الأمم قوة وحضارة"

كـان ممـا يزيـد فـي تصـاعد هـذه الثـورة الشـعبية العفويـة وتماسـكها واسـتمرارها اشـتراك جميـع فئـات الشـعب فيهـا حتـى الأطفال والنساء، **وكان للنساء دور خطير في اسـتثارة النخـوة والحميـة عنـد اشـتراكهن بتشـييع جنـازات الشـهداء الـذين يسقطون في ساحات الصدام مـع الانتـداب، وكانـت النسـاء المحجبات تطل من شرفات البيـوت فيزغـردن وينثـرن علـى مواكب المتظاهرين ماء الورد، كما كان بعضهن يشترك فـي المظاهرات ويتعرض للاعتقال والمحاكمة والسجن، وعنـدما انتهى الاضراب كان من بـين اسـماء مئـات المعتقلـين نسـاء**

من أعماق هذا الشعب كما تدل على ذلك اسماؤهن مثل حفيظة بنت مصطفى اللحام، أديبة بنت محمود العواد، ليلى بنت الشيخ سعيد الحلبي، وحيدة بنت عبد الحميد الحموي، حميدة بنت الشركس، هدية بنت صالح العاطي الخ .... (الصحف الصادرة في تلك الفترة).

كما كان مما يشد العزائم ويزيد من صلابة الصمود ذلك التجاوب الرائع الذي لقيته هذه الحركة الثورية في الأقطار العربية الأخرى فقد انهالت برقيات التأييد على دمشق من بغداد والقاهرة والقدس وحيفا ويافا وطرابلس "الشام" وصيدا وصور الخ. كما تألفت لجان في أغلب المدن العربية لمساندة الاضراب السوري وجمع التبرعات ومد السوريين بأسباب الدعم المادي والمعنوي. هذا بالاضافة الى الاضرابات والمظاهرات التي قامت في طرابلس [2] وصور وصيدا وبيروت والوفود الطلابية والشعبية التي كانت تصل الى دمشق للمشاركة واعلان التأييد. **بل إن تلك الحركة الثورية الشعبية في سوريا كانت باعثا على تحريك موضوع الوحدة العربية ووحدة النضال العربي في العواصم العربية.** من ذلك مثلا الخطاب الذي ألقاه مكرم عبيد، من زعماء حزب الوفد بمصر، في عدد من أبناء العراق بمناسبة زيارتهم المعرض الصناعي في القاهرة، اذ قال فيه.

"خذوا مثلا أخوتنا المجاهدين في سوريا الشقيقة. فأي قلب منكم أو منا لم يخفق أسى وحبا ورحمة واعجابا لأولئك المجاهدين الذين ماتوا ويموتون لأجل الفكرة التي مات لها شهداؤكم وشهداؤنا؟ لعلكم تتساءلون عن مبعث هذه الأخوة الرائعة بين البلاد العربية. فقد يقال إن هناك روابط جغرافية ودينية ولغوية تجمع بيننا ولكن هذه الروابط قائمة من قديم، ولم تؤد الى النتائج التي نشاهدها الان، فإلى م ترجعون إذن تفسير هذا التضامن العجيب الذي يتجلى في كل مناسبة بين الأقطار العربية؟ في رأيي أن هناك

(2) ظلت طرابلس مدينة سورية رغم ضمها الى لبنان طيلة فترة الانتداب الفرنسي، من حيث همومها السياسية والوطنية وعلاقاتها التجارية والاجتماعية، فكانت تشارك سورية مظاهراتها واضراباتها ومطالبها في الوحدة والاستقلال حتى عام 1944 عندما تنازلت سورية الى لبنان عن الاقضية الأربعة بعد ثورة بشامون على الانتداب الفرنسي.

صلة أقوى من الصلات القديمة، هي الصلة المقدسة التي جمعت بين أمانيكم وأمانينا وآلامكم وآلامنا ومجاهديكم ومجاهدينا وموتاكم وموتانا، صلة ليس أقدس منها، لأنها صلة الرحمة فوق صلة الرحم، وصلة القلب والشعور فوق صلة اللغة والتفكير، إنها صلة المجاهد للمجاهد".

وهذا ما ترددت أصداؤه بسرعة في الصحف المصرية، وكانت موجة الدعوة للقومية الفرعونية موجة طاغية قبل ذلك، فراح الكتاب المصريون ينشرون المقالات عن "الأمة العربية الواحدة" من ذلك مثلا مقالة لابراهيم عبد القادر المازني، في أواسط آذار 1936، يقول فيها:

"والعرب أمة واحدة وان كانت الأيام قد فرقت شملها، لا فرق في ذلك بين عراقي ومصري أو سوري ونجدي، وقد كان شملها جميعا فيما مضى وكانت لها دولة استولت على الدهر، حسب تعبير مهيار [3] ، وما كان مرة لا يعسر أن يكون مرة أخرى".

بل إن حوادث سورية لفتت الأنظار، حتى في الأوساط الغربية والفرنسية ذاتها الى "وحدة المصير العربي" فكتبت جريدة "لا تريبون دوناسيون" في 6 شباط 1936 تقول:

"ما زالت الاضطرابات تسود مصر من أقصاها الى أقصاها، ويظهر أن الروح الوطني في الشرق لم تقتصر على مصر وحدها بل تعدتها الى سوريا أيضا، ومهما يكن الأمر فان الصلة وثيقة بين البلدين حيث يعمل الوطنيون لغاية قومية واحدة، وهي الوحدة العربية"

والخلاصة أن ذلك المناخ الثوري العظيم جعل الشعب كله بحكم الشخص الواحد، ولم تلبث وزارة الشيخ تاج الحسني أن سقطت بشكل مخز، وخلع الشيخ تاج العمامة البيضاء وارتدى

---

(3) مهيار بن مرزوية الديلمي، شاعر ينعته مترجموه بالكاتب، استخدم للترجمة من الفارسية في بغداد، من أصل مجوسي يقال أنه اسلم على يد الشريف الرضي، لحن عبد الوهاب بمناسبة زواج الاميرة فوزية من شاه ايران قصيدته التي ورد فيها:

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب
قد لممت المجد من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

برنيطة وهرب الى بيروت ومنها الى فرنسا.. أما حسني البرازي فقد توارى تلاحقه غضبة الشعب، وكانت الحراسة الفرنسية مشددة على بيوت أولئك الوزراء خوفا من انتقام الشعب.

وفي 24 شباط 1936 تألفت وزارة السيد عطا الأيوبي الانتقالية للاشراف على الحكم مدة المفاوضات بين الكتلة الوطنية وفرنسا، وقد تشكلت على النحو التالي:

عطا الأيوبي للرئاسة والداخلية

سعيد الغزي للعدلية

ادمون حمصي للمالية

مصطفى القصيري للاقتصاد الوطني

مصطفى الشهابي للمعارف

الاضراب ... والكتلة الوطنية: زعماء الكتلة الوطنية يتوارون عن ساحة النضال:

بعد أن اشتدت وطأة الاضراب جمع "المفوض السامي" الفرنسي دومارتيل أعضاء الكتلة الوطنية وطلب منهم أن يتدخلوا لإنهاء الاضراب والمظاهرات، وهددهم بالسجن والاعتقال، فأجابه فائز الخوري: ان بقدرة فرنسا أن تعدمنا أيضا.

فقال دومارتيل:

- لا أريد أن أجعل منكم شهداء ... لأنكم لا تستحقون الشهادة.

والواقع أن تواري قادة الكتلة الوطنية عن الساحة، بعد اشتداد الثورة، ترك أثرا سيئا في نفوس الناس، ولا سيما الطلاب، فقررنا أن نضطرهم لأن يسيروا على رأس المظاهرات، وقد نمي إلينا أنهم يعقدون اجتماعا في بيت نسيب البكري قرب المستشفى الوطني، فاقتحمنا البيت وأخرجناهم منه بالقوة ولم يثننا عن قرارنا تهربهم من الخروج على رأس المظاهرة.

سار جميل مردم ولطفي الحفار معنا وبقي هاشم الأتاسي والآخرون في المنزل، فاتجهنا نحو ساحة الحجاز التي كان الجند

يضـربون نطاقـا حولهـا لحمايـة فنـدق الأوريـان بـالاس مشـهرين أسـلحتهم، تـؤازرهم الشـرطة بـالهراوات الغليظـة، فلمـا بلغـت مظاهرتنا ساحة الحجاز تصدى لنا رجال الشـرطة والجـيش، وقامـت معركة شديدة سقط خلالها عدد من الجرحى، وكسـرت يـد لطفـي الحفار، ولم نـتمكن مـن فـك طـوق الحصـار والوصـول الـى الفنـدق، ولكن تحقق ما كنا نرمي اليه من جعل بعض زعمـاء الكتلـة الوطنيـة يقـودون المظـاهرات ليبعثـوا فـي نفـوس النـاس العزيمـة والصـبر والاستمرار.

وقد خشـي الزعماء الكتلويـون مغبـة الاسـتمرار فـأوعزوا إلـى هاني الجلاد أن يلقي باسمهم خطابا في الجامع الأموي يدعو الى إنهـاء الاضـراب، فكنـا لـه بالمرصـاد، نمـلأ المسـجد علـى رحبـه، فواجهناه بعاصفة مـن الاسـتنكار ولـم يخـرج مـن الجـامع سـالما الا بشق الأنفس، وقد كان لموقف قادة الكتلة الوطنية الجبان اثـر كبيـر في النفـوس. لـذلك سـارعت الكتلـة بعـد ذلـك للتنصـل مـن خطـاب هاني الجلاد.

على أن سلطات الانتداب كانت خلال فتـرة الاضـراب الطويلـة تبعد بعض الزعماء الى القامشلي والحسـكة واعـزاز وبيـروت، وكـان من أولئك المبعدين: فخري البـارودي وتوفيـق الشيشـكلي ومحمـد السراج وغيرهم، كما اعتقـل عـدد كبيـر جـدا مـن المناضـلين وابنـاء الشعب والطلاب.

كيف انتهى الاضراب الستيني؟

اتفق رئيس الكتلة الوطنيـة هاشـم الأتاسـي فـي 28 شـباط 1936 مع الكونت دومارتيل المفوض السـامي علـى المفاوضـة فـي بيروت حول القضية السورية، فسافر الأتاسي وبصحبته فايز الخوري وعبد الرحمن الكيالي وعفيـف الصـلح، وفـي نهايـة المفاوضـات أذاع الأتاسي في 2 آذار 1936 بيانا هذا نصه:

"بعـد المحادثـات التـي دارت بـين المفـوض السـامي ورئـيس الكتلة الوطنية والنتائج التي وصلت اليهـا أصـبحنا نعتقـد أن القضـية

السورية دخلت في طور جديد بفضل جهود الشعب النبيل ومثابرته في سبيل حقوقه الطبيعية التي كانت منكرة عليه. وقد وافق الجانب الفرنسي بوثيقة موقعة منه على تنفيذ خمسة أمور جوهرية لم يكن يقرها قبل هذه المحادثات، هي:

1- الموافقة على أن لا تقل حقوق السوريين في المعاهدة العتيدة عن حقوق إخوانهم العراقيين في معاهدتهم الأخيرة مع بريطانيا، وهذا عين ما كنا وما زلنا نطالب به بإلحاح منذ سنة 1931، وكررناه في بياننا الأخير المنشور في 21 شباط الماضي.

2- تصريح الجانب الفرنسي بأنه ليس له مصلحة ما في تجزئة البلاد السورية وانما كل الذي يريده هو إفراغ الوحدة المنشودة في قالب يأتلف مع المبادىء المسلم بها في الدستور السوري ولدى جميعة الأمم، ولأجل ايجاد هذا القالب لا بد من بحثه في باريس.

3- الموافقة على نقل ساحة العمل للعاصمة الفرنسية بواسطة وفد من المواطنين يتولى البحث مع المراجع العليا في باريس من النواحي التي لا يمكن البت بها في سوريا، وهذه الأمنية هي ما كانت الكتلة الوطنية تستعد لها والأمة السورية تنتظر تنفيذها بفارغ الصبر.

4- اعادة الحياة النيابية الحرة بأسرع ما يمكن على أساس الانتخاب الشعبي.

5- الإلغاء في الحال لجميع الأحداث التي ولدتها الحالة الحاضرة في البلاد السورية كافة منذ 18 كانون الأول الماضي أي سنة 1935 إلى الان، من عفو عن المحكوم عليهم وإعادة حرية المعتقلين وإطلاق سراح الموقوفين وإلغاء التدابير الادارية المتخذة في معاهد العلم.

ثم يقول:

ولكي يتمكن الوفد من القيام بالمهمة الشاقة التي تودع اليه نرجو من الأمة النبيلة أن تيسر له جوا هادئا فتعود إلى أعمالها بعد عيد الأضحى 1936 الذي نرجو أن يكون فاتحة خير على هذه البلاد ... الخ".

وهكذا تم انتخاب أعضاء الوفد المفاوض الى باريس من الرئيس هاشم الأتاسي والأعضاء: سعد الله الجابري، فارس الخوري، جميل مردم، ادمون حمصي، مصطفى الشهابي، أحمد اللحام (مستشار عسكري)، نعيم الانطاكي (سكرتير)، وسافر الوفد الى باريس في 22 آذار 1936 فودعه الشعب بمظاهرات تأييد لم يجر لها مثيل.

□

مثلما جرى في سورية جرى أيضا في مصر فقد اكتفى حزب الوفد من ثمرات الثورة الشعبية الدامية التي استمرت عدة شهور، بإقالة "القصر" لوزارة نسيم باشا في 1936/1/24، وتشكيل وزارة علي ماهر باشا في 1936/2/1، وتأليف وفد لمفاوضة الانكليز برئاسة مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد ... وقد أثمرت مفاوضات الوفد المصري في لندن عن معاهدة 1936 التي أقل ما يقال فيها ان إلغاءها سيكون محور نضال الشعب المصري بقيادة الوفد ذاته في مطلع الخمسينات.

المظاهر الخادعة

كان لتراجع فرنسا أمام اصرار الشعب أثر بعيد المدى في جميع أنحاء سوريا لم يقتصر على المدن بل تعداه إلى الريف، وأصبح الشعب كالبحر الهائج، وأصبحت دمشق محجة لوفود التهنئة من الأقطار العربية الأخرى ومن أبناء الاسكندرون واللاذقية وجبل الدروز الذين كانوا يطالبون بإلغاء دويلاتهم والاندماج بالوطن السوري الأم، حسب تعبير ابناء الأقضية اللبنانية الأربعة الذين كانوا يجاهدون بالمطلب ذاته.

إن السكون الذي خيم على البلاد في عهد المفوض السامي بونسو كان السكون الذي يسبق العاصفة، وكانت

كل مظاهر اليأس والاستخذاء التي استمرت في عهده مظاهر خادعة، وكان الاحتجاج على شركة كهرباء دمشق عود الثقاب الذي أشعل نار هذه الثورة العارمة والمقاومة البطولية.

ولا شك أن المد الثوري الشعبي في عام 1936 فاق كثيرا المد الثوري الشعبي في عام 1925 بشموله وعمقه واتساعه، ومن المؤكد أنه لو توفرت القيادات الثورية في عام 1936 لكان الأمل كبيرا في قطع سورية مرحلة هامة من مراحل نضالها لنيل استقلالها وحريتها.

لقد مات أو شرد أو استشهد معظم قادة ثورة 1925، ولم يبق في ساحة النضال إلا القيادات السياسية، **وهو الأمر الذي انتبه إليه في ذلك الحين الزعيم عبد الرحمن الشهبندر الذي كان من منفاه في القاهرة يلح في خطاباته وبياناته على ضرورة جعل متطلبات وفد المفاوضات السوري - الذي شكل في نهاية عام 1936 - من مستوى تطلعات الشعب ومن مستوى ثورته وما حدث فيها من بطولات.**

تنظيم الشباب الوطني.

لم تتوقف الاندفاعية الشعبية التي قادها الطلاب والمثقفون، عند قرار الكتلة الوطنية بانهاء الاضراب الكبير والتوجه للمفاوضات، بل أخذ الشباب والطلاب والمثقفون يطالبون بتنظيمهم في قوة وطنية فعالة، من مستوى ما يقرأون عنه في الصحف من تنظيمات الأحزاب القومية في اوروبا، وبما أن تنظيم "عصبة العمل القومي" كان يسير نحو الانحلال بعد وفاة الدكتور عبد الرزاق الدندشي، ونظرا لخلو الساحة من أي تنظيم سياسي عدا الكتلة الوطنية التي أطلقت شعار "**الجهاد للوطن والطاعة للكتلة الوطنية**" فان الشباب الثائرين لم يجدوا أمامهم الا الضغط على الكتلة لتنظيمهم فوجهوا للكتلة الوفود والبرقيات والرسائل مطالبين بتنظيم القوى الشابة، فأنشأ قادة الكتلة "تنظيم الشباب الوطني" ونشروا نظامه الخاص وقد جاء فيه:

"المادة الرابعة: الشباب الوطني هيئة كفاحية تقوم على أساس الطاعة والتضحية والنظام وتدريب الشبيبة على أساليب مستمدة من التعاليم الرياضية والعسكرية.

المادة السابعة: يؤلف الشباب الوطني فرقا باسم القمصان الحديدية.

المادة الثامنة: شعار الشباب الوطني: ساعد مفتول يقبض بشدة على مشعل ملتهب إشارة الى أن رسالة الشباب هي الحرية والحق والقوة.

المادة التاسعة: تحية الشباب الوطني رفع الذراع اليمنى الى الأعلى مع بسط الكف.

المادة العاشرة: لباس الشباب الوطني الرسمي قميص وبنطلون حديديان".

انهال شباب البلاد بحماس منقطع النظير أفواجا الى مكاتب الكتلة الوطنية في جميع أنحاء سوريا وأقضيتها لينتظموا في هذا الجيش الشعبي، ولم يمض شهر آذار 1936 الا وأربى عدد المنتظمين في "الشباب الوطني" بمحافظة حلب وحدها على ثمانية آلاف شاب. وبلغ عدد المتطوعين في سوريا عشرات الألوف.

كانت اللجنة العليا "للحرس الوطني" في حلب مؤلفة من: جميل ابراهيم باشا ورشدي الكيخيا وناظم القدسي، وفي دمشق من: فخري البارودي وسيف الدين المأمون ومنير العجلاني وفي حماة كان سعيد الترمانيني مسؤولا عن فرق القمصان الحديدية، وهكذا كانت قيادة الحرس الوطني بعقليتها ومنشئها أبعد ما تكون عن جعل هذا الجيش الشعبي المتقد حماسا واندفاعا هيئة كفاحية حقيقية، بالاضافة الى التناقض بين ما سمي بمبادىء الحرس الوطني الديموقراطية الليبرالية، وبين مظاهر تنظيماته الفاشية وهو التناقض المألوف في كل المنظمات الزائفة التي يناقض بها الإطار المضمون ويناقض الظاهر فيها الباطن، وهكذا كانت الكتلة الوطنية عاجزة عن تنظيم الشباب الوطني كقوة ضاغطة في مفاوضات باريس أو إعدادها لتكون قوة تحرير عند

نكوص فرنسا وتراجعها، بل اهتمت اهتماما كبيرا بمظاهر التنظيم الخارجية كاللباس والشارات على الطريقة النازية والفاشية الدارجة والجذابة في تلك الايام، وهذا ما برر لصحيفة ليزيكو "الأصداء" الدمشقية الناطقة بالفرنسية أن تسخر بهذه المظاهر الجوفاء قائلة:

"إن قمصان الحديد السورية ولدت وهي حديدية بلون قمصانها الرمادية المزرقة التي اختارها قادة الحركة، وبالطابع الحديدي القوي الذي يريد هؤلاء أن يطبعوا به جماعة الشباب ... فقمصاننا الحديدية تكمل أذن سلسلة الألوان الدولية: القمصان الفاشستية السود، القمصان الهتلرية السمر، قمصان ستالين الحمر، قمصان الفرنسيين الزرق، قمصان نحاس باشا الخضر" (ليزيكو: 10 نيسان 1936).

لقد كانت أخبار الحرس الوطني في الصحف تنحصر بأنباء الولائم التي يقيمها بعض قادة الكتلة الوطنية لهم، والخطابات التي تلقى في تلك الولائم والحفلات في تمجيد "الوفد الأمين" المفاوض في باريس، وتهديد كل من تسول له نفسه الخروج عن الخط السياسي الذي تنتهجه الكتلة الوطنية، والإلحاح على شعار: "الجهاد للوطن والطاعة للكتلة الوطنية" ... وهكذا تحول تنظيم الشباب الوطني الى سلاح ارهابي ضد معارضي المعاهدة بدلا من أن يكون قوة ثورية في وجه الانتداب الفرنسي ... فقد اكتفت الكتلة من ثمرات تلك الثورة الشعبية بمجرد وعد من المستعمر بالمفاوضة، وأهملت تنظيم قوى البلاد الثورية.

مفاوضات باريس

خشيت فرنسا وبريطانيا مغبة المقاومة الصلبة والاصرار العنيد لدى السوريين، لا سيما وقد أصبحت المنطقة على فوهة بركان قابل للانفجار في كل آن: المظاهرات في مصر وسقوط وزارة نسيم باشا وتأليف وفد مصري لمفاوضة الانكليز برئاسة مصطفى النحاس... الثورة الشعبية العارمة التي بدأت في أواخر آذار 1936

في كافة أنحاء فلسطين ... الأوضاع المتأزمة في العراق التي انتهت بانفجار انقلاب بكر صدقي .... الخ. فلا عجب أن تقبل وزارة ألبير سارو، وهي وزارة يمينية رجعية أعقبت وزارة لافال، الدخول بمفاوضات مع الجانب السوري للمحافظة على المصالح الفرنسية بواسطة المعاهدة المزمع عقدها.

□

سافر الوفد السوري الى باريس في 22 آذار 1936، وأصبح يشار اليه في الصحف السورية باسم "الوفد الأمين" وقد راحت الصحف تصف أنباء الترحيب الذي لاقاه الوفد في الدول التي مر بها القطار من حلب الى باريس، والحفاوة التي يلقاها في فرنسا حيث بقي هناك خمسة أشهر ينتظر الفرج، فقد كانت فرنسا تعاني من أزمة سياسية داخلية حادة ومعركة انتخابية شديدة، ولولا سقوط وزارة ألبير سارو اليمينية وقيام وزارة ليون بلوم الاشتراكية لانتهت المفاوضات الى الفشل ولعاد الوفد المفاوض بخفي حنين.

وكانت الصحف السورية خلال تلك المدة الطويلة توالي نشر البيانات والبرقيات عن نجاح المفاوضات ونشاط الوفد ومنذ بداية اقامة الوفد في باريس بعث مراسل "القبس" المرافق للوفد برسالة يقول فيها (في 7 نيسان 1936):

"والذي يحملنا على التفاؤل أن في فرنسا انصارا والحمد لله للقضية السورية وهؤلاء يغتنمون الان صفاء الجو ليضاعفوا جهودهم ومساعيهم الودية في اقناع الرجال المسؤولين بضرورة ترك إدارة البلاد لأهل البلاد **والاحتفاظ ببعض ما يهم سلامة فرنسا اذا كان لسلامتها علاقة بهذه القضية الشرقية مما يدرسه الخبراء العسكريين ... فقد تكون فرنسا تفكر في جعل سورية طريقا للهند الصينية كما جعلت بريطانيا مصر طريقا للهند. وقد تحتاج فرنسا الى قاعدة بحرية في البحر الأبيض فتتخذ الشواطىء السورية اللبنانية لهذا الغرض كما اتخذت انكلترا الاسكندرية وحيفا قاعدتين بحريتين وقد تفرض فرنسا على سورية أن لا تحالف غير فرنسا محالفة**

عسكرية كي لا يقوي هذا التحالف دولة منافسة لفرنسا وقد توجب فرنسا على سورية أن تستعين بالخبراء الفرنسيين عند الحاجة إليهم ولكن كل هذه الواجبات التي تفرضها فرنسا على سورية طرقت اسماع السوريين (الوفد المفاوض) فهم يعرفونها ويتوقعونها ولا يرون بدا من قبولها لأنها لا تمس صميم الأستقلال ولأنها الحد الأدنى للتساهل مع الأجنبي لذلك نعتقد بأن كفة نجاح المفاوضات ترجح كفة الحبوط وهذا ما يتمناه المخلصون... وتعجب الأوساط الفرنسية أيضا من إلحاح اللبنانين في طلب المعاهدة التي قد لا تضمن ما يضمنه صك الانتداب لهم من سلامة الحدود والاستقلال الداخلي وقد ردد المسيو دومارتيل صدى تعجب فرنسا من رغبة لبنان الشديدة وتسرعه بطلب نقض ضمان ثابت (اي الانتداب) ومع هذا فأن المسيو دومارتيل مزمع على درس المسألة اللبنانية عند عودته لبيروت مع رئيس الجمهورية وهو يدرسها الآن أيضا مع رجال وزارة الخارجية"

سورية بين الوحدة والتمزق:

منذ اللحظة الأولى التي سافر فيها الوفد المفاوض الى فرنسا بدأ ضباط المخابرات الفرنسيون بدس الدسائس والمؤامرات في جبل العرب واللاذقية والجزيرة ولواء الاسكندرونة لتشجيع العناصر الانفصالية من عملاء فرنسا وأعوانها. وحاول الفرنسيون الاستفادة من عامل الزمن - باطالة أمد المفاوضات بالختل والمراوغة - ليتيحوا لضباط المخابرات الفرصة لاجهاض الثورة الوحدوية في تلك المناطق التي اقام الانتداب فيها دويلات مصطنعة.

إن مساعي فرنسا وعملائها لتكريس التجزئة لم تتوقف يوما منذ بدء الاحتلال، كما أن ردود الشعب على تلك المحاولات برفضها وفضحها لم تتوقف كذلك، على أن المحاولات الانفصالية والرفض الشعبي لها تصاعد كثيرا خلال الأشهر الخمسة التي قضاها الوفد السوري في باريس، حتى أن ذلك كان الموضوع الرئيسي اليومي في الصحف السورية التي كانت تنشر الرسائل من جبل العرب

واللاذقية والجزيرة ولواء الاسكندرون عن نضال الشعب ضد التجزئة واصراره على الوحدة السورية، وكانت الوفود الوطنية تصل الى دمشق تباعا من تلك المناطق ومن الاقضية الأربعة التي ضمها الانتداب الى "لبنان الكبير" فتكون إقامتها في دمشق مناسبة وطنية تقام فيها الاحتفالات وتلقى الخطابات التي تعلن تعلق الشعب بوحدته الوطنية والقطرية (القبس 6 نيسان 1936).

لقد كان الحكم الفرنسي في دولة العلويين ودولة جبل الدروز شديد الوطأة، فقد كان حاكما هاتين الدولتين يتمتعان بسلطات مطلقة ويفعلان ما يشاءان دون حسيب أو رقيب وكان حكم الفرنسيين في هاتين المحافظتين شبيها بالاستعمار الفرنسي في الجزائر واستغل الانتداب التخلف الاجتماعي والوضع الاقطاعي والعشائري فشكل فيهما مجلسا تمثيليا لزعماء العشائر والاقطاع بينما كان الأمر مختلفا في الدولة السورية فلم يكن للفرنسيين فيها هذا النفوذ نظرا لاختلاف الوضع الاجتماعي والثقافي.

لقد حاول ضباط الاستخبارات الفرنسيون في جبل العلويين وجبل الدروز فصل هاتين المنطقتين نهائيا عن سورية فالتقى مخطط الانتداب الفرنسي مع المخطط الصهيوني بتمزيق وحدة سورية الى دويلات طائفية وعنصرية، وقد اسفرت تلك المحاولات، خلال وجود الوفد المفاوض في باريس عام 1936 عن عريضة رفعها بعض أعضاء المجلس التمثيلي العلوي الى رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك ليون بلوم، يؤيدون فيها انفصال جبل العلويين عن الوطن السوري وبقاءه تحت الحكم الفرنسي، بينما امتنع بعضهم الآخر عن التوقيع.

ومن الجدير بالذكر ان الكتلة الوطنية قد عينت بعد عودة الوفد السوري وعقد المعاهدة السيد عزيز الهواش محافظا على مدينة دمشق، وهو ابن اسماعيل الهواش زعيم عشيرة المتاورة إحدى كبريات عشائر العلويين وأحد قواد ثورة الشيخ صالح العلي، وقد ظل اسماعيل الهواش طيلة حياته مناهضا للانفصال وداعية للاستقلال فتعرض لغضب الفرنسيين واضطهادهم.

كما ساهم الشباب الوطني من أبناء منطقة الجبل من علويين ومسيحيين بالنضال مع اخوانهم ابناء مدينة اللاذقية والمدن الساحلية الأخرى لتحقيق الاستقلال والوحدة السورية، وكان من بينهم شباب مرموقون أمثال منير العباس والمحامي عبد الله العبد الله، والمحامي بولص ديبة، والشاعر الكبير نديم محمد وغيرهم من الشباب الذين كانو يؤلفون مع عبد الواحد هارون زعيم مدينة اللاذقية الكتلة الوطنية في هذه المحافظة.

ثورة 1936 في فلسطين

انتقل مشعل الثورة بسرعة من سوريا الشمالية الى سوريا الجنوبية، ففي أواخر شهر نيسان 1936 قامت ثورة شعبية في فلسطين قال عنها معلق السياسة الخارجية في جريدة "الجورنال" الفرنسية:

"إن الكلمة في فلسطين أصبحت للمدافع الرشاشة، ولا ندري إذا كان الأنكليز ينتبهون الى **الخطأ الذي اقترفوه في تحطيم تضامن الشعوب البيض في الوقت الذي تنمو فيه الروح الوطنية في وادي النيل والعالم العربي.**

لا يجهل أحد ما كان للمساعدة التي ابدتها انكلترا للحبشة من صدى بعيد في العالم، وقد تحملنا نحن نتائجها في سورية واضطررنا الى تأليف وفد سوري جاء إلى باريس ليشهد نزاعاتنا الأنتخابية! كما اضطر الأنكليز من ناحيتهم الى مفاوضة المصريين. وهذه حوادث فلسطين الأخيرة تدلنا على صعوبة موقف انكلترا في هذه البلاد التي تعد بالنسبة إليها مركزا عظيما جدا بالنظر إلى الموقع الممتاز الذي تحتله في طريق الهند والذي يجعل الأنكليز ينظرون الى الحوادث الدائرة نظرة قلق واضطراب، وليست فلسطين موقعا ممتازا للمواصلات فحسب بل انها تؤلف النقطة الاولى لسيل أنابيب البترول، وليست هي المرة الأولى التي تقع مثل هذه الحوادث في فلسطين فقد اعتدنا أن نسمع بمثل هذه الأضطرابات منذ نفذ وعد بلفور الذي دل على تضامن الأنكليز مع أبناء اسرائيل. لقد أثارت حوادث الحبشة عواطف العرب على اختلاف نزاعاتهم فاتحدوا وراحوا يطلبون بشدة إنشاء حكومة مستقلة ديموقراطية يسود فيها العرب على الأقلية اليهودية ومنع بيع الأراضي، وهم

في هذا الطلب يستندون الى المبادىء الأنسانية التي بشرت بها انكلترا وهكذا جنت اوروبا على نفسها وقدمت للشرقيين خدها ليصفعوها.

□

كانت ثورة 1936 في فلسطين نبتة البذرة الطيبة التي غرسها استشهاد الشيخ عز الدين القسام بذلك الشكل البطولي، وكان زعماء الاحزاب الفلسطينية قد اجتمعوا قبل اسبوع من استشهاد القسام بالمندوب السامي البريطاني وحددوا له مطالب البلاد وأمهلوه شهرين للإجابة عليها.

وفي 1936/1/28 أبلغ المندوب السامي رؤساء الأحزاب بأن وزارة المستعمرات وقد درست مطالبهم، رفضت منع الهجرة اليهودية الى فلسطين، وأبدت استعدادها لوضع تشريع يمنع انتقال الأراضي العربية لليهود باستثناء قضاء بئر السبع ومناطق المدن والأراضي المغروسة بالأشجار الحمضية، وأنها قبلت موضوع المجلس التشريعي.

وبعد مناقشات ومداولات ومناورات قبلت جميع الأحزاب الفلسطينية [4] ارسال وفد الى لندن، وظلت مختلفة حول مشروع المجلس التشريعي ومهمة هذا الوفد، وفي 19 نيسان 1936 انفجر الوضع، فأصدرت لجان يافا والقدس ونابلس بيانات بإعلان الإضراب العام الى أن تتحقق المطالب التالية:

1- وقف الهجرة حالا.

2- سن تشريع يمنع تسرب الاراضي.

3- تشكيل حكومة وطنية.

كان التوتر بين العرب واليهود يزداد حدة باطراد، وفي شباط 1936 تعاقدت الحكومة مع أحد المقاولين اليهود على بناء ثلاث مدارس في يافا، ورفض ذلك اليهودي تشغيل عامل عربي واحد،

(4) الحزب العربي برئاسة جمال الحسيني، وحزب الدفاع برئاسة راغب النشاشيبي، وحزب مؤتمر الشباب.

فتألفت حامية من العمال العرب لتطويق موقع أحد المدارس المراد بناؤها ومنع العمال اليهود من الوصول إليه، فكان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير وكشفت تقدم الجماهير على قياداتها السياسية المساومة.

وفي يوم 1936/4/19 عمت الاضرابات والمظاهرات جميع أنحاء فلسطين، واستمرت الثورة الشعبية الدامية ستة أشهر... حتى أصبحت وقائع هذه الثورة العربية بحاجة الى سجل يومي خاص، لذلك كانت الصحف تنشر أخبارها على النحو التالي: "وقائع اليوم السابع والثمانيين للأحداث الدامية بفلسطين". وهي وقائع مثيرة لما فيها من بطولات وتضحيات.

وفي هذا الجو تشكلت "اللجنة العربية العليا" برئاسة الحاج أمين الحسيني وعضوية رؤساء الأحزاب التقليدية: عوني عبد الهادي، احمد حلمي عبد الباقي، راغب النشاشيبي، جمال الحسيني، حسين الخالدي، عبد اللطيف صلاح، يعقوب الغصين، الفرد روك، وجيه فراج، وقد زاد من اندفاع الجماهير وحماستها ظهور قيادة موحدة وأكثر فعالية من القيادات السابقة.

وعلى الرغم من ضعف وسائل الاعلام في تلك الفترة فإن هذه الثورة أحدثت منذ يومها الأول دويا هائلا في الأوساط الشعبية في كافة الأقطار العربية، وقد يكفيني هنا أن أنقل صدى وصول أنباء شرارة هذه الثورة الى حماة كما ذكره مراسل " القبس" فيها:

"فوجىء الناس أمس بالحوادث الدامية في فلسطين الشهيدة، فكأنك ألقيت عليهم قطعا من الحزن، وأخذوا يتساقطون أخبار سوريا الجنوبية وما آلت اليه الفواجع الدامية فيها، وأخذ الناس يتحدثون بضرورة المعاونة المالية والأدبية لعائلاتّ الشهداء في القسم الجنوبي من الوطن السوري، وراح الطلاب يقفون قبل الدرس حدادا على الشهداء العرب في تلك البقعة المقدسة، وتوجه علماء الدين الى الله تعالى بالدعاء في جموع المصلين أن

يصون ثالث الحرمين من المظالم برفع كابوس السياسة الجائر عمن حوله من العرب".

"على أن ذهول اليوم الأول أعقبه تحرك نشيط في الأوساط الشعبية بالتطوع للقتال، فأقبل المجاهدون من الأقطار العربية الى فلسطين ليشتركوا بالثورة، وقد أربى عدد الثائرين وتعاظم الى اكثر من عشرة آلاف ثائر".

وفي 30 آب أعلن فوزي القاوتجي، باسم "قيادة الثورة العربية في سوريا الجنوبية" البيان الأول لقوات المجاهدين التي انتظمت في صفوفه، قال فيه - بعد المقدمات وعبارات الحث على الجهاد:

"انه ليغبطني، وقد شرفني إخواني المجاهدون بقيادة الثورة العربية في سوريا الجنوبية أن أدعو القادرين من أشبال العرب الى السلاح، أجل الى السلاح يا أشبال العرب تحقيقا للأماني القومية وأنقاذ فلسطين العزيزة من براثن العبودية والغزوة الصهيونية والمطامع البريطانية... الى السلاح ايذانا بسقوط الحكم الأجنبي الحاضر في فلسطين لمنافاته حقوق الشعب المشروعة، وقيام حكومة ثورية عربية مؤقته تستمد وجودها من ارادة الأمة الى أن:

1- تسحب الجيوش البريطانية.

2- تمنع الهجرة اليهودية منعا باتا.

3- تجلى الجماعات الصهيونية التي هبطت فلسطين على أساس وعد بلفور الباطل.

4- يقوم مجلس تأسيسي منبثق من ارداة الشعب يضع دستورا للبلاد يعين شكل الدولة وتقوم بمقتضاه حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي تنتخبه الأمة انتخابا حرا.

الى السلاح غير مترددين ولا متقاعدين، بل مؤمنين بحقكم مستبسلين في الدفاع عن الحوزة والكرامة، مستهزئين بجبروت المستعمر الغاصب مطمئنين لما وعدكم به الله: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ...الخ".

□

وفيما كانت هذه الثورة الشعبية تتصاعد وتتسع خلال ستة شهور، ويتمثل فيها الوجه القومي لا القطري أعلنت الهيئة العربية العليا إنهاء "الاضطرابات" دون قيد أو شرط ابتداء من 36/10/12 بناء على نداء رؤساء العرب الموقع من الملك عبد العزيز آل سعود، والملك غازي ملك العراق والامام يحيى حميد الدين ملك اليمن والأمير عبد الله أمير شرق الاردن، هذا النداء الذي يطلب من الشعب الإخلاد للسكينة اعتمادا على حسن نوايا بريطانيا ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل.

وفيما يلي النداء ذي النص الموحد الذي وجهه كل على حدة وفي وقت واحد ملوك العرب والامير عبد الله الى الشعب في فلسطين والى اللجنة العربية العليا:

عن عنيزة - نجد في 8-10-36

الى ابنائنا عرب فلسطين - القدس

لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين فنحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والامير عبد الله ندعوكم للاخلاد الى السكينة حقنا للدماء **معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل** وثقوا باننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم

عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية

عن بغداد -8-10-36

القدس بواسطة رئيس اللجنة العربية العليا

الى ابنائنا عرب فلسطين

لقد تألمنا كثيرا من الحالة السائدة الآن في فلسطين فنحن بالاتفاق مع اخواننا الملوك والامير ندعوكم للاخلاد الى السكينة حقنا للدماء **معتمدين على حسن نوايا حليفتنا الحكومة البريطانية المعلنة في تطبيق العدل** وثقوا باننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم.

غازي

عن المقر - عمان في 9-10-36
بواسطة رئاسة اللجنة العليا
الى ابنائنا عرب فلسطين - القدس

لقد تألمنا كثيرا من الحالة السائدة الان في فلسطين فنحن بالاتفاق مع اخواننا الملوك ندعوكم للاخلاد الى السكينة **معتمدين على حسن نيات الحكومة البريطانية المعلنة في تطبيق العدل** وثقوا باننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم.

عبد الله

وقد ردت اللجنة العربية العليا على نداء ملوك العرب والامير عبد الله ببيان وجهته الى شعب فلسطين كما أصدرت قرارا بوقف الاضراب، وفيما يلي نص البيان والقرار:

بيان اللجنة العربية العليا الى الأمة الكريمة في فلسطين:

تلقت اللجنة العربية العليا البرقيات المنشورة (5) اعلاه من اصحاب الجلالة وصاحب السمو يدعون فيها الامة العربية في فلسطين الى انهاء الاضراب وايقاف الاضطراب.

لقد اعلنت الامة العربية في فلسطين الاضراب والاستمرار عليه للاخطار الجسيمة التي احدقت بها من جراء السياسة الحاضرة المتبعة في فلسطين وحرمانها من حقوقها السياسية في البلاد، وقد برهنت الامة العربية الكريمة على قوة ارادتها في ضرورة تغيير السياسة الحاضرة بصورة اثارت فيها اعجاب العالم اجمع.

ولما كان الامتثال لارادة اصحاب الجلالة والسمو ملوك العرب وامرائهم والنزول على ارادتهم من تقاليدنا العربية الموروثة، وكانت اللجنة العربية العليا تعتقد اعتقادا جازما بان اصحاب الجلالة والسمو لم يأمروا ابناءهم الا بما فيه مصلحتهم وحفظ حقوقهم. لذلك فاللجنة العربية العليا امتثالا لارادة اصحاب الجلالة والسمو الملوك والامراء واعتقادا منها بعظم الفائدة التي تنجم من توسطهم وموآزرتهم تدعو الشعب العربي الكريم الى انهاء الاضراب والاضطراب انفاذا لهذه الاوامر السامية التي ليس لها من هدف الا مصلحة العرب.

(5) نص البرقيات والبيان والقرار كما ورد في المنشور الذي وجهته اللجنة العربية العليا الى شعب فلسطين، والذي ورد فيه أيضا أن برقية إمام اليمن لما تصل وأنها ستنشر بعد وصولها.

ولا يسع اللجنة العليا الا ان تسدي جزيل الشكر الى هذه الامة الكريمة في موقفها التاريخي المجيد على ما بذلته من تضحيات غالية وما تكبدته من خسائر فادحة في الانفس والاموال وما اظهرته من جلد ليس فوقه جلد وما تذرعت به من صبر ليس فوقه صبر، وانا لواثقون بان جميع افراد هذا الشعب يقابلون عطف اصحاب الجلالة والسمو واهتمامهم بالشكر الجزيل والثناء الجميل.

قرار اللجنة العليا بموعد حل الاضراب ووقف "الاضطراب"

قررت اللجنة العربية العليا بالاجماع، وبعد استشارة مندوبي اللجان القومية والحصول على موافقتهم باتفاق الاراء، ان تلبي نداء اصحاب الجلالة ملوك العرب وسمو الامير بالبيان المنشور اعلاه وان تدعو الامة العربية الكريمة في فلسطين للاخلاد الى السكينة وانهاء الاضراب والاضطرابات ابتداء من صباح يوم الاثنين المبارك الواقع في 26 رجب 1355 وفي 12 تشرين الأول 1936 وان يبكر افراد الامة الكريمة في صباح ذلك اليوم الى معابدهم لاقامة الصلاة على ارواح الشهداء ورفع الشكر لله تعالى على ما الهمهم به من صبر وجلد، ثم يخرجون من المعابد لفتح مخازنهم وحوانيتهم ومزاولة اعمالهم المعتادة، والله ولي التوفيق.

بعد أن صدر بيان اللجنة بحل الاضراب في فلسطين غادرها المجاهدون العرب برئاسة فوزي القاوقجي والشيخ محمد الأشمر الى شرق الأردن فضغط الانكليز لإخراجهم منها، فعاد القاوقجي الى بغداد والأشمر الى دمشق.

ثورة عام 1936 في فلسطين تأخذ مداها القومي العربي

لأول مرة أخذت ثورة عام 1936 الفلسطينية مداها العربي بأبعاده القومية بعد أن كانت الثورات العربية لا تخرج عن مداها القطري بفعل التجزئة الاستعمارية، فقد ساهم فيها العراقيون والسوريون والفلسطينيون.

إن من طبيعة التيار الثوري الحركة والامتداد، لأن دماء الشهداء نور في ضمير الأمة لا ينطفىء، ولذلك سنرى فيما بعد أن أشتراك العراقيين مع القاوقجي في ثورة 1936 سيلعب دورا رئيسيا في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941، كما سنرى ان

ثورة عام 1936 الفلسطينية ستأخذ مداها الشعبي العربي بشكل أعم وأسع فينضم مجاهدون من الأخوان المسلمين في مصر لثورة 1948، وفي كلا هاتين الثورتين العربيتين الشعبيتين دفع الاستعمار الأنظمة العربية لتدجينهما ولجمهما واجهاضهما.

ان استشهاد سعيد العاص واشتراك بعض شباب حماة في ثورة فلسطين عام 1936 - وقد أصبح معظمهم فيما بعد من أركان حركة الشباب - كان عاملا مهما في دفع أول فوج من شباب حماة الى فلسطين في ثورة 1948 وقد ساهم من بقي حيا منهم في هاتين الثورتين، كرفيقنا علاء الدين الحريري الذي طلبنا منه بعض التفاصيل عن اشتراكه في ثورة فلسطين عام 1936 فقال:

"طلب الينا أستاذنا عثمان الحوراني الالتحاق بقوات فوزي القاوقجي، فذهبنا الى دمشق أنا وخليف العريب ويوسف السفراني وأحمد القمش وعبد الرحمن الشارع وغيرهم من شباب حماة، فاجتمعنا في بيت الشيخ محمد الأشمر مع عدد من المجاهدين الدمشقيين وجملة من شباب حمص على رأسهم الحاج وصفي المعصراني، ولفيف من مجاهدي جبل الدروز اللبنانيين، ثم انتقلنا الى مسجد بحي الميدان وانتظمنا على أن يكون الشيخ محمد الأشمر على رأس الدمشقيين ومنير الريس على رأس الحمويين والحمصيين وحمد صعب ومحمود ابو يحيى على رأس الدروز، وانطلقنا (120 مجاهدا) من المسجد باتجاه فلسطين فمنعنا الفرنسيون من اجتياز الجولان، فعدنا من القنيطرة وتوجهنا الى فلسطين عن طريق حوران تل شهاب وغور بيسان واجتزنا نهر الاردن ونزلنا في خربة طوباس الفلسطينية حيث احتضننا أبناء طوباس بحفاوة بالغة، وفي اليوم التالي وصلت قوات العراق بقيادة فوزي القاوقجي فالتقينا بهم وكان الابتهاج عظيما". ثم تحدث علاء الدين عن المعارك العديدة التي خاضها المجاهدون الى أن يقول: "وأتذكر أن منير الريس أراد أن يحول دون التحاق سعيد العاص بالثورة خوفا من نشوب الخلاف بينه وبين القاوقجي. ولكن سعيد العاص استطاع الالتحاق بالثورة بمساعدة مطيع اللبابيدي والحاج عبد الرحمن المط. وهما من مجاهدي حماة الذين

التجأوا الى الاردن بعد ثورة عام 1925، وقد استشهد سعيد العاص في أول معركة خاضها في فلسطين".

الأبعاد القومية لثورة 1936 الفلسطينية:

كيف كانت أبعاد الرؤية لدى الشعب العربي في سنة 1936؟ وما هو مدى وضوح قومية المعركة فيها؟ أثبت هنا المقالة التالية التي نشرها فوزي القاوقجي في صحيفة القبس الدمشقية، بتاريخ 1936/11/13، أي بعد عدة أشهر من اضطراره للخروج من ميدان المعركة و لجوئه للعراق مرة ثانية، قال:

منذ نشبت في عام 1925 ثورة حماة التي بدلت شكل ثورة جبل الدروز من ثورة درزية ضيقة الى ثورة سورية وطنية عامة، ثم ظهور المعجزات خلال الملاحم والمعارك الدامية التي دارت رحاها مدة سنتين بين السوريين والجيوش الفرنسية الكبيرة، أيقنت ان في دم الشعب العربي كنزا كامنا من القوى لا يفنى، ولمست سر المجد الباذخ في تاريخ الأمة العربية، ذلك المجد الذي كانت ترتجل آياته ارتجالا في الحوادث التي أملت سطورها على التاريخ.

أجل ... منذ تلك الأيام وأنا أشعر أن تحت تصرفي قوة عظيمة أستطيع اذا أحسنت التصرف بها أن أحطم بها القيود التي كبلتنا بها الدول المستعمرة المتغطرسة المغترة في ضعفنا الظاهر وفي حسن نياتنا وطيب عنصرنا.

وكنت أرى من جهة ثانية أن غرور المستعمرين لم يقف عند حد هضم الحقوق وسلب الحريات، بل تعداهما الى الاستهتار بوجود الأمة العربية حكومتها وشعوبها وتاريخها ... وكنت أشعر في نفسي بالخجل المؤلم من الاهانة التي لحقت بي ولحقت بكل عربي من أعمال بريطانيا في فلسطين العربية، وأساليب معاملة الشعب العربي فيها، مع أن العرب كانوا حلفاءها بالأمس وما يزالون حلفاءها اليوم، وجزيرتهم تحوي أكبر مصلحة حيوية لبريطانيا، فضلا عن أنهم أمة تحتاج بريطانيا إليها في مشاكلها الدولية المقبلة أمام تيار الأمبراطوريات المنبثقة من جديد والتي تستهدف في سياستها السيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، تلك الأساليب التي أدت الى أن تضع بريطانيا العظمى جندها وجيوشها تحت تصرف فكرة صهيونية ترتجي بريطانيا منها المال لتبيد الشعب العربي في فلسطين، وتقيم مكانه بقوة الحراب دولة صهيونية.

كنت من أول الأمر مقتنعا أن لا فائدة من احتجاج الضعيف المظلوم على عسف القوى الطامع، ولا نفع من الوطنية الفارغة التي أخذ الكثيرون يتظاهرون بها في كل حين ومكان، حتى أصبحت أغنية مبتذلة وطريقة كلامية تتشدق بها الألسن في الأندية والمطاعم والمقاهي.

إذن لا بد من مقابلة القوي بالقوة، وها هو الدم العربي كنز القوة، لذلك مددت يدي اليه وأخذت منه ما أحتاجه لنجدة عرب فلسطين، وهيأت وأنا في بغداد العدد اللازم من الشباب لهذه النجدة، وهيأتهم من مدن سوريا وجبالها ومن مدن العراق وسهوله، فألفت مجموعة عربية تقاتل حيث قاتل الأجداد، وتدافع عن تراث خلفه لنا أولئك العظام بسحر الدم الذي مكنهم في الغابر أن يتغلبوا على دول تعد في عظمتها بريطانيا زمانها.

وكان علي أن أنظر الى ما حولي قبل الاقدام على العمل، وأن أتخطى الحواجز التي أقيمت بين الأقطار العربية المجزأة والقوى التي وضعت بينها لسد السبل ومنع الاتصال بين أبنائها.

كان من المحتم علي اجتياز نحو ألف كيلومتر في البوادي القاحلة والصحارى المحرومة من أسباب الحياة، وأن أتخطى حدود دول أنشئت لخدمة فكرة المستعمرين واقيمت على حراستها قوى ومعدات آلية حديثة يقودها الأعداء.

هذه التجمعات اذا بحثت بعين الحساب والمنطق ظهرت للعيان كأنها المستحيل واقتحام مجاهل الصحراء يحتاج الى دليل، اذا ما العمل وفلسطين تستنجد وتستغيث؟

لم يبق أمامي الا أن أجازف كالمجنون وأعمل كالعاقل.

وأما الدليل فهو أثر خالد بين الوليد والطريق التي سلكها من العراق بجيوشه لنجدة أخوانه في واقعة اليرموك.

سرت وأدلجت سرايا المجاهدين من سواد العراق وغياض الشام بتدبير محكم، فبلغت نجداتهم هدفها وتلاقت جنود العرب في ساحات القتال في فلسطين في وقت واحد كما يتلاقى أفراد العائلة الواحدة الخارجون من غرفهم إلى قاعة الطعام.

نحن في ساحة الوغى والعدو يعد من وسـائل التـدمير الحديثـة الفـولاذ والنار والسرعة، ويحشد عشرات الـوف الجنـد، ويسـخر الأرض والسـماء للظلـم والاعتداء، أما نحن فعندنا الدم العربي والعزم علـى الـدفاع، والايمـان بـالحق ... وكان الصراع ... الصراع المخيف ... فانتصر الحق وزال الوهم وعم الحمـاس وفـار الدم العربي في العروق، ولولا توسط ملـوك العـرب وأمـرائهم لعمـت النـار كافـة الأقطار المجاورة.

أما أنت أيهـا العربـي، فاسـتعد للـدفاع ولا عـذر لـك عـن تلبيـة النـداء إلا الموت...لا تنتظر عدلا وأنت ضعيف ولا تطلب حقا وأنت أعزل من السلاح.

6

عـام 1936: الحكومـة السـورية تعقـد معاهـدة مـع حكومـة الجبهـة الشـعبية فـي فرنسـا - الشـهبندر، وعصـبة العمـل القـومي وحركـة الشـباب يعارضـون ارتباط سورية بأي تعاقد أو التزام تجاه فرنسا.

المعاهدة السورية الفرنسية عام 1936

بعد معركة ميسلون وإبعاد الملك فيصل من سورية، وتنصيبه ملكا على العراق إثر ثورته الباسلة عام 1920، بدأ الخلاف يدب في الأوسـاط الوطنيـة فـي العـراق وسـورية حـول مسـؤولية هزيمـة ميسلون واحتلال فرنسا سورية وحكمها حكما مباشرا..

لقد كان لنجاح الملك فيصل بسياسته في العراق، عن طريق عقد معاهدة مع بريطانيا التي منحت ذلك القطر بعض الحقوق فـي الاستقلال، أثر كبير في سـورية، ولا سـيما بعـد اخمـاد ثـورة 1925، فأصبح المطلب الشعبي للحركة الوطنية عقـد معاهـدة مـع فرنسـا على غرار المعاهدة العراقيـة البريطانيـة "نصـا وروحـا" كمـا ورد فـي بيان هاشم الأتاسي، وبعد مفاوضات استمرت ستة شـهور، توصـل الوفد السوري المفاوض مـع الحكومـة الفرنسـية فـي بـاريس (وزارة الجبهـة الشـعبية التـي تضـم الاشـتراكيين والشـيوعيين برئاسـة اليهودي ليون بلوم) في 9/9 الى عقد المعاهدة المعروفة بمعاهـدة عام 1936، وقد استقبل الوفـد المفـاوض لـدى عودتـه الـى سـورية في 9/27 استقبال الفاتحين، وجرت لـه فـي كـل بلـدة سـورية يمـر فيها القطار احتفالات مشـهودة فـي تـاريخ سـورية، وبعـد فتـرة مـن عودة الوفد ألقى فـارس الخـوري بتـاريخ 1936/11/10 خطابـا علـى مدرج الجامعـة السـورية شـرح فيـه مـواد المعاهـدة، وبنـود الاتفـاق العسكري والبروتوكولات والكتب اللاحقة، وأوضح مراميها، مما جعـل الكثيرين من الوطنيين ينظرون الى هـذه المعاهـدة باعتبارهـا تثبيتـا للانتـداب الفرنسـي علـى سـورية، واعطـاء لـه الصـفة الشـرعية التعاقدية، الأمر الذي أضعف الكتلة الوطنية وأدى الى الانقسام في صفوف قياداتها، وبدء انصراف جماهيرها عنها، وفقدانها قيادة حركـة

التحرر من الانتداب الفرنسي، والى نشوء معارضة تطالب باستقلال سورية التام وبعدم الارتباط بأي تعاقد أو التزام تجاه الحكومة الفرنسية، وكان الزعيم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أهم المعارضين لاتجاه الكتلة الوطنية التعاقدي الذي يجعل من سورية منطقة نفوذ فرنسية، يؤيده في ذلك الحركة الشعبية للشباب التي بدأت تتكون في مدينة حماة،

وكذلك عصبة العمل القومي، بينما استمرت قيادات الكتلة الوطنية على اعتقادها بأفضلية النهج التعاقدي مع فرنسا الى ما بعد الحرب العالمية الثانية رغم نشوء ظروف دولية جديدة أهمها انحسار مكانة فرنسا الدولية بعد هزيمتها في الحرب.

ولأهمية خطاب فارس الخوري، ولا سيما استعراضه الوضع في سورية منذ الاحتلال الفرنسي، هذا الوضع الذي سيكون سببا، فيما بعد، بتفجير ثورة 1945، فانني اثبت نصه كاملا:

قال فارس الخوري بعد استمطار الرحمة على أرواح الشهداء والاعتزاز بنضال الشعب في سورية:

بدأت مفاوضاتنا مع الوفد الفرنسي منذ أول نيسان عام 1936 واستمرت خمسة شهور بلا انقطاع، عبرنا بها على أطوار متنوعة بين كر وفر، وجدال وسجال، مع حكومة الاتحاد الجمهوري، ثم مع حكومة الجبهة الشعبية، حتى انتهينا في أوائل ايلول الى اتفاق حاسم، وقعناه في التاسع منه، وعدنا به لنعرضه على الأمة السورية لتبدي رأيها فيه بواسطة الانتخابات.

وقد نشرنا نصوص المعاهدة وملاحقها يوم 22 تشرين الأول ليطلع الشعب عليها ويجري انتخاباته على أساسها، فقابلتها طبقات الأمة بالرضى عن مضامينها، والقناعة بصلاحها للاستقلال المنشود.

ولا بد من الإشارة الى **كون صلاح المعاهدات يستند الى النية الحسنة عند عاقديها والعزم الصادق على تنفيذها بأمانة واخلاص أكثر مما يستند على نصوصها وما في عباراتها والقوة المؤيدة لحقوق كل من الطرفين فيها هي كفاءته ومقدرته في الطلب والتنفيذ.**

فمع التصريح والتوثق من أن الروح التي سادت هذه المفاوضات كانت روح مودة وولاء تجلى فيها مظهر صميمي من الجانب الفرنسي وعزم جلي على التخلي عن سورية وترك مقدراتها لأبنائها والاكتفاء باقامة تحالف مخلص بين الحكومتين وصداقة متينة بين الشعبين فان المستقبل المحفوف بمجاهل الغيب والأحداث الطارئة يقضي على الشعب السوري أن يكون كامل الأهبة مستوفي الاستعداد لمواجهة هذا المستقبل بنشاط لا يمل وعزيمة لا تفل. فاذا كانت النصوص تعلن قوة الحق فان عزيمة العشب تعلن حق القوة. وأخلق بمن توفرت له هاتان القوتان أن يبقي جانبه مرهوبا وحقه مصونا موفورا.

مشروع المعاهدة: ان مشروع المعاهدة مؤلف من قسمين أحدهما اصلي وهو المواد التسع المكونة منها متون المعاهدة، والآخر فرعي وهو الاتفاق العسكري والبروتوكولات الخمسة والمراسلات الأحد عشر... ان مواد المعاهدة الأصلية مع مقدمتها تتضمن أمورا مبتوتا بها تنفذ عاجلا، وأمورا تستمر متمادية طول المدة المعقود عليها، فالأمور النافذة عند وضع المعاهدة موضع العمل هي زوال الانتداب واستقلال سورية الفعلي وتمتعها بالسيادة التامة داخلا وخارجا، وانتقال الحقوق والواجبات السابقة الى الحكومة السورية وحدها، وسقوط جميع المسؤوليات المتعلقة بسوريا عن الحكومة الفرنسية سقوطا تاما ليس له معاد.

موعد تعديل المعاهدة: فهذا القسم من المعاهدة لا يخضع للتعديل ولا يطرأ عليه خلل ولا تبديل، والقسم الثاني ينص على اقرار عهد سلم وصداقة دائم بين الدولتين، وعلى انشاء تحالف لمدة خمس وعشرين سنة بينهما، وضعت شروطه وواجبات كل منهما تجاه الاخر كما سيأتي تفصيلها عند البحث في كل مادة على حدة، وهذا القسم أيضا لا يعرض للتعديل او التجديد ألا بعد مرور عشرين سنة على وضع المعاهدة موضع العمل اذا طلب ذلك أحد الطرفين، واذا لم يطلب أحد الطرفين ذلك فينتهي حكم التحالف بانتهاء المدة التي عقد لأجلها.

أما القسم الفرعي وهو مجموع الملاحق، وان كان جزءا من المعاهدة كما نص عليه في المقدمة، وله المدة ذاتها المحددة للمعاهدة، فهو يخضع لاعادة النظر والتعديل في أي وقت كان عند ظهور حالات جديدة، وهذا الخضوع يظهر من المادة السادسة التي جاء فيها "المدة ذاتها المحددة للمعاهدة تكون للاتفاقات والعقود التطبيقية الملحقة ما لم تنص في متنها على مدة أقصر أو

يتفق الطرفان على اعادة النظر فيها مجاراة لأوضاع جديدة". فإذا لم يوافق الطرف الآخر على اعادة النظر يصار الى الاستفادة من احكام المادة التاسعة من المعاهدة القائلة بالالتجاء الى أصول التحكيم والمصالحة المنصوص عنهما في ميثاق عصبة الأمم... من ذلك يتبين أن هذه الملاحق يمكن طلب تعديلها في كل حالة يظهر بها أسباب جديدة تبرر هذا الطلب.

مقدمة المعاهدة: تضمنت هذه المقدمة اعتراف فرنسا بأن سورية بلغت من الرقي المنزلة التي تؤهلها لتكون أمة مستقلة صالحة للدخول في عصبة الأمم عضوا دوليا مستقلا ونصت على عزم الطرفين على عقد معاهدة صداقة وتحالف بينهما تحدد شروطها على أسس الحرية التامة والسيادة والاستقلال المعترف به لكل منهما، وتعين موعد دخول سورية في عصبة الأمم في مهلة ثلاث سنوات اعتبارا من مراسم ابرام المعاهدة أي بعد تصديقها من البرلمانين السوري والفرنسي والذي نرجوه هو أن تنتهي هذه المراسم في شهر كانون الأول المقبل وبذلك تكون نهاية السنوات الثلاث في أواخر سنة 1939 حين تقبل سورية في جمعية الأمم وتوضع المعاهدة بصورة نهائية موضع العمل.

عصبة الأمم والمعاهدة: وبعد خروجنا من باريس حضر وزير الخارجية الفرنسية الى جنيف في النصف الثاني من شهر ايلول وأبلغ مجلس جمعية الأمم خلاصة ما تم عليه الاتفاق من هذه الجهة وكان موفقا في بياناته التي صادفت عند المجلس قبولا واستحسانا.

عهد الانتقال: هذه السنوات الثلاث المنصوص عنها في المقدمة هي فترة الانتقال المعينة لنقل المسؤوليات من السلطة الفرنسية الى الحكومة السورية، وفي البروتوكول ذي الرقم "5" قد اتفقنا على أن ينتهي هذا النقل في غضون السنتين الأوليين منها بحيث لا يأتي آخر السنة الثانية الا وتكون الحكومة السورية قد استلمت من الفرنسيين جميع الادارات والمسؤوليات التي تقوم بها فرنسا اليوم باسم سوريا ولحسابها، وفي السنة الثالثة تمارس الحكومة وحدها هذه الاعمال حتى اذا كان الموعد لدخولها في عصبة الأمم يكون قد مر عليها سنة وهي تمارس استقلالها وتضطلع بأعباء التبعات الناشئة عنه، واذا اعتبرنا أنه لم يقم الى الان منذ سنة 1920 في سورية حكومة وطنية مسؤولية تدير شؤونها بالاستقلال وتحمل التبعات في تسيير أمور الدولة، وأن مسؤولية الحكم في البلاد من جميع نواحيها ما زالت في أيدي الفرنسيين ، نجد ان الحكومة النيابية المقبلة عليها أن تستلم في غضون هاتين السنتين

كل ما في وظائف الحكومة من فروع، فلا تكون السنتان والحالة هذه مهلة طويلة للقيام بهذا الواجب الهام.

معاهدة الند للند: ان المادة الأولى تنص على دوام السلم واقامة تحالف بين هاتين الدولتين المتمتعين بالسيادة، وهذا ما يجري في العقود بين الند والند وعلى أساس المساواة التامة، والمادة الثانية حصرت التشاور في كل أمر يتعلق بالسياسة الخارجية من شأنه أن يمس مصالحهما، وبذلك استثناء للأمور غير السياسية، فتبقى لسورية الحرية التامة بعقد معاهدات واتفاقات تجارية وقضائية وصحية وغيرها مع أية حكومة كانت بدون أن تكون مضطرة للتشاور مع فرنسا بها، فتستطيع أن تؤسس علائقها التجارية مع الدول الأخرى على قاعدة المبادلة في البيع والشراء، وتجد أسواقا حسنة لتصريف حاصلاتها الزراعية والصناعية، كما أنها تستطيع أن تعقد بالأمور السياسية التي لا تخل بمصالح فرنسا ولا تسيء الى علاقاتها مع الدول الأخرى.

والمادة الثالثة تشير الى نقل الحقوق والواجبات الناشئة عن العقود الدولية الى الحكومة السورية وحدها، وذلك نتيجة لازمة لاستقلال سورية واضطلاعها بالتبعات الدولية، وقد استلمنا نسخة من هذه العقود التي عقدتها فرنسا باسم سوريا مع دول العراق وفلسطين وشرق الاردن ومصر وتركيا لتعيين الحدود ووضع التخوم وتحديد الجمارك واعادة المجرمين وتبادل الصكوك القضائية والادخال والاخراج للقروض التجارية وسائر الامور التي اقتضتها المناسبات والصلات الراهنة بين سورية والبلاد الأخرى كالشؤون الصحية وحسن الجوار ومعاملات البرق والبريد وأشباهها، ومعاهدة لوزان تدخل بين هذه العقود، وهذا النص موجود في المعاهدة العراقية وهو واجب حقوقي لا يمكن العمل بدونه، وتبقى لسورية الحرية التامة بفتح مفاوضات مع الدول العاقدة لاعادة النظر بهذه العقود والسعي لتعديلها بما يأتلف مع الوضع الجديد.

من جملة هذه المعاهدات معاهدة أنقرة المعروفة التي عقدتها فرنسا مع الحكومة التركية في 20 تشرين الأول 1921 وفيها نصوص تتعلق بمحافظة الاسكندرونة ستبقى محترمة ومنفذة بعناية واهتمام.

التحالف الدفاعي: المادة الرابعة والخامسة: هاتان المادتان تنصان عن التحالف الدفاعي الذي أوجب على فرنسا الاسراع لمعاونة سورية عسكريا عند وقوع الاعتداء على أراضيها وأما معونة سورية لفرنسا عند وقوع الاعتداء

على فرنسا فتقتصر على منحها التسهيلات ضمن الأراضي السورية فقط... ان مسالك العبور الجوية للحكومة الفرنسية في الجو السوري معترف به بأنه من مصلحة التحالف، ويبقى هذا الاعتراف نافذا ما دام التحالف قائما، فإذا زال التحالف بانقضاء مدة المعاهدة أو بفسخة لسبب آخر قبل انقضائها يزول هذا الاعتراف ويبطل حق العبور الناشيء عنه، ومن الطبيعي ان يسمح للطائرات الفرنسية أن تعبر في الجو السوري عند الاقتضاء في مدة المحالفة ما دامت فرنسا أخذة على نفسها واجب الاشتراك مع الجيش السوري بالدفاع عن الاراض السورية، وقد اعترف بمثل هذا الحق في المعاهدة العراقية ليس لمدة التحالف فقط بل بصورة أبدية وهذه مزية لا يستهان بها لمعاهدة السورية.

المادة السادسة: فرقت هذه المادة بين نصوص المعاهدة نفسها وبين الملاحق المربوطة بها بأن جعلت فتح المفاوضات لتجديد المعاهدة او تعديلها جائزا بعد مرور عشرين سنة، ولأجل تعديل الملاحق جائزا في كل وقت مجاراة لأوضاع جديدة.

المادة السابعة: حددت هذه المادة موعد وضع المعاهدة موضع العمل يوم دخول سورية في عصبة الأمم، أي في غضون ثلاث سنوات كما صرح به في المقدمة بصورة جازمة. ولا يخفى أنه اذا ألغيت جمعية الأمم يزول الانتداب حتما.

المادة الثامنة والتاسعة: تشير الى سقوط جميع المسؤوليات عن الحكومة الفرنسية والى اسلوب حل الخلاف عند وقوعه بشأن تفسير المعاهدة أو تطبيقها ونهايته الرجوع الى المصالحة والتحكيم المنصوص عنها في ميثاق العصبة، وهذا يمنع فرنسا من كل تدخل مباشر في شؤون سورية الداخلية والخارجية، بل تتصرف الحكومة السورية بأمورها بالحرية المطلقة، واذا وجدت الحكومة الفرنسية في هذا التصرف ما يخل بالمعاهدة لها أن تفاوضنا بشأنه. وعند عدم الاتفاق على حسم الخلاف لها أن ترجع الى اصول المصالحة والتحكيم حيث تقف مع سورية أمام القضاء الدولي أسوة بما يجري بين الدول المستقلة عند الخلاف، وهذا الحق نفسه ممنوح لسوريا عندما تخل فرنسا بواجبها الناشيء عن المعاهدة، وفي هذه الحالة لا يخشى التدخل الكيفي المباشر وتبقى هذه المادة ضامنا لسلامة التطبيق وصيانة الصلات الحليفة بين الطرفين وحائلا دون اللجوء لاستعمال الوسائل العنيفة بجميع أشكالها.

قال بعض الناقدين أن فرنسا تستطيع بقواتها الجوية والبرية التي تبقى في لبنان وسورية أن تعيد سيطرتها على البلاد وتفرض ارادتها متى شاءت، فنقول ان المعاهدة لا تخولها أن تفعل شيئا من ذلك بل منعتها من أي تدخل كان في شؤون سورية، أما اذا عمدت الى خرق المعاهدة والخروج على قواعد الشرف الدولي لا سمح الله فلا فرق بين ان يكون لها قوة قريبة أو أن تسوق هذه القوة من موضع آخر، وهذه المستعمرات التي امتلكتها بريطانيا وفرنسا وايطاليا وسائر الدول المستعمرة لم يحل بعدها الشاسع دون اجتياحها. وفي هذه الحالة لا يبقى مضاء لسلاح المعاهدات ولا لنصوصها بل تبقى الكلمة للشعب بين أن يذعن للظلم أو أن يثور في وجه.

ان فرنسا لم تستطع في عهد انتدابها أن تخمد شعلة الحرية في نفوس الشعب السوري وهو أعزل من غير سلاح الحق، وهي تحمل أقوى الأسلحة وأفتكها وتحمل صك انتداب من خمسين دولة يطلق يدها بالعمل كما تشاء، فكيف تستطيع ذلك بعد أن ينكر عليها الاجماع الدولي حق التدخل ويصبح أمامها في سورية أمة مستعدة للموت في سبيل الدفاع عن استقلالها، زد على ذلك روح الديمقراطية الحرة المستولية في نفوس الشعب الفرنسي والكارهة لمبادىء الاستعمار والاعتساف.

المعاهدة ونقادها: ان الملاحظات التي أبداها الناقدون على نفس المعاهدة تتخلص بما يأتي:

1- انتقال جميع الحقوق والواجبات الناشئة عن العقود الدولية الى الحكومة السورية بدون تعيين ماهية هذه العقود، والحقيقة ان هذه العقود مطبوعة جميعها في كتاب ومنشورة على الملأ، وقد اطلعنا عليها كلها، وأما بعد الان فلن تعقد فرنسا باسم سوريا عقودا جديدة الا بالاتفاق مع الحكومة السورية، ولا يخفى أنه لا يمكن في العرف الدولي أن لا يصرح بمثل هذا القيد في المعاهدة ما دامت الدول الأخرى لم تعترف بعد باستقلال سوريا ليكون لها الحق منذ الان في أن تتولى عقد المعاهدات، على ان المادة الثالثة تحصر البحث بالمعاهدات التي عقدتها فرنسا باسم سوريا وليس التي ستعقدها.

أما المعاهدة المنوي عقدها بين فرنسا ولبنان فلا تدخل ضمن هذا النطاق ولا تكون ملزمة لسوريا، لأنها لن تعقد باسم سوريا أو لحسابها،

ثم ان هذا الوضع اللبناني لا يستند الى المعاهدة العتيدة بل الى تعيين حدود لبنان سنة 1920 وتصديق جمعية الأمم على هذا التعيين في صك الانتداب باعتبار لبنان دولة ذات كيان خاص منفصل عن سورية، وقد احتج السوريون على هذا التعيين عند كل مناسبة، كما سجل الوفد تحفظاته بهذا الخصوص بصورة جلية ولم يتنازل لا صراحة ولا دلالة عن مطالبه بالأراضي المنسلخة عن سوريا، وعسى ان تتوفق الحكومة السورية فيما بعد الى حل موافق بحسب ما يقتضيه التطور الجديد في سوريا ولبنان.

2- عدم وعد فرنسا في المعاهدة بمساعدتنا في تعديل العهود الدولية مستند الى كون هذا الوعد كان مربوطا بفقرة أخرى في المادة الثالثة من مشروع المعاهدة سنة 1933 يشير الى تعهد سوريا لفرنسا بما يبقى من الامتيازات الأجنبية لدولة أخرى. فوجدنا أن العبء الناشىء مع هذا الوعد العقيم اضخم جدا من النفع المنتظر من الوعد، ولذلك رجحنا صرف النظر عن نعمة الوعد ونقمة التعهد، مع العلم بأن الوعد بالمساعدة للتعديل من فرنسا لا يجدي نفعا وانما سيؤخذ هذا النص من جمعية الأمم باتفاق الدول كلها كما أخذ العراق في المادة "13" من تعهده وهو الاحتفاظ بحق نقد هذه العقود عندما يكون ذلك ملحوظا.

الاتفاق العسكري: بموجب هذا الاتفاق تقيم الحكومة السورية وزارة دفاع تتولى بالحال تأليف الجيش السوري بالحرية التامة، على أن يكون الحد الأدنى للقوة العسكرية السورية فرقة مشاة ولواء فرسان مع المصالح التابعة لها. وهذا التحديد يطلبه كل حليف ليكون على بينة من القوة الصغرى عند حليفه، ويبقى باب الزيادة مفتوحا للحكومة السورية بقدر ما تسمح لها ميزانيتها وتقتضيها حاجة الدفاع، وبما أن الحكومة السورية ستنظم الوحدات التي أنشأها الجيش الفرنسي من السوريين فسيكون لديها في القريب العاجل شطر كبير من هذه الفرقة يمكن القوى الفرنسية من مباشرة الجلاء ويمكن وزارة الدفاع من اكمال النقص وابلاغ هذه القوة عاجلا الحد الأدنى الواجب عليها بلوغه.

تصفية الكتائب السورية: ينتقد بعضهم هذه الوحدات بأنها غير متجانسة فلا تكون نواة صالحة للجيش، وان تكاليفها ثقيلة بسبب ضخامة رواتب أفرادها فلا يسهل على الخزينة السورية تحمل أعبائها، مع أن الخبراء العسكريين لا يشاطرون المنتقدين هذه الملاحظة، إذ اننا لن نستلم الا الأشخاص السوريين من هذه الكتائب وبوسع القيادة السورية أن تستعمل صلاحيتها بابقاء الذين

تتوفر فيهم جميع الشرائط اللازمة للخدمة في الجيش السوري، وبما أن هؤلاء الأفراد مرتبطون بعقود لاجال محدودة وقصيرة مثل أفراد الدرك فالقيادة السورية مختارة بتجديد الخدمة أو بالغائها عند انتهاء أجل كل عقد أو بإقامتها على أساس آخر، وقد علمنا ان القيادة الفرنسية بدأت بتصفية هذه الكتائب منذ بضعة أشهر كما أنها أخذت بتعديل أجورهم بحيث تسلم للحكومة السورية أصغر عدد ممكن بأقل نفقة مستطاعة، خلوا من كل عنصر أجنبي. وأما أجورهم فليست من الضخامة بالدرجة التي يتوهمها الناقدون، فما يتناوله الجندي في الشهر لا يتجاوز ثماني ليرات سورية.

وبما أن هذه الكتائب مجهزة بالأسلحة والأعتاد الفنية الحديثة ومشهود لها من القيادة الفرنسية بالكفاءة فاستلامها يسهل لوزارة الدفاع المباشرة بتشكيل الجيش السوري ويمهد سبيل الجلاء، ومن الجهة الأخرى يحسن لفت النظر الى الضرر الفادح من ابقاء هذه الكتائب السورية ضمن البلاد في خدمة الجيش الفرنسي الذي يكون مضطرا في هذه الحال إما الى تسريح افرادها وضباطها حالا بتعويض ثقيل وهذا مخالف لمبدأ الاستقلال، واما الى تجهيزها الى مستعمراته وهو أشد وأنكى.

البعثة العسكرية: بناء على طلب الحكومة السورية تضع فرنسا تحت تصرف هذه الحكومة بعثة عسكرية تحدد مهمتها وتأليفها ونظامها باتفاق خاص، والحكومة السورية تستخدم أفراد هذه البعثة بالأسلوب الذي تراه نافعا لها، ولن يكون لرجالها الا الصفة الاستشارية وابداء الرأي دون الصفة التنفيذية الامرة أسوة بسائر البعثات العسكرية التي تأخذها دولة مبتدئة من دولة قديمة عريقة في التنظيم العسكري، وعبارة المادة الثالثة بوضع هذه البعثة تحت تصرف الحكومة السورية يفيد صراحة أنها تكون مأمورة لا آمرة، فالحذر من هذه الجهة ليس له مبرر، وأما الاتفاق المشار اليه في المادة فيوضع لبيان عدد أعضاء البعثة ورواتبهم واجازاتهم والأعمال التي يكلفون بها، وأما استخدام المعلمين والاختصاصين الفنيين فيكون أيضا اختياريا وعند الحاجة اليه بموجب مقاولات خاصة، وجميع ذلك لا يضير استقلال سوريا ولا يخل بسيادتها ما دام استخدامهم اختياريا وصلاحيتهم استشارية وما دام الخبراء العسكريون يقولون بضرورة هذه الاستعانة.

القوى الجوية: لن يكون لفرنسا في سوريا للقوى الجوية سوى قاعدتين تختار موقعهما بعيدا عن المدن لا أقل من أربعين كيلومترا وطالما يتم انشاء

هاتين القاعدتين تنتقل اليهما القوة الفرنسية الموجودة حاليا في قاعدتي المزة والنيرب، وتستلم الحكومة السورية هاتين القاعدتين للقوى الجوية السورية التي ستنشئها كما تستلم المحطات أي منازل الطيارات الموجودة في تدمر والاسكندرونة والقامشلي ودير الزور والحسكة وغيرها، وتبقى جميع هذه المنازل ملكا للحكومة السورية كما أنها تستولي على المنازل الأخرى التي يرى الطرفان باتفاقهما ضرورة لإنشائها قياما بحاجات الدفاع عند الاقتضاء والقصد من ذلك ان الحكومة السورية تتعهد بابقاء هذه المنازل صالحة لنزول الطيارات فيها ولا يجوز لها الغاؤها وإبطالها، وهي من وسائل الدفاع الواجب اعدادها استعدادا للطوارىء المفاجئة، والحكومة السورية تفرز قطعا من جيشها لحراسة قاعدتي الطيران، على ان تدفع الحكومة الفرنسية نفقات هؤلاء الحراس، ومن ذلك يتبين ان فرنسا لن يكون لها حق الحماية والمحافظة في الأراضي السورية حتى في قاعدتي الطيران الخاصتين بها بل تعود هذه المهمة للجيش السوري، وتعهدت الحكومة السورية بالإنفاق على منازل الطيران الحالية مؤقتا الى أن تتمكن الحكومة السورية من استلامها واستخدامها لطياراتها العتيدة.

في أثناء دورة الانتقال تجلو الجنود الفرنسية البرية من البلاد وتحتل محلها قوى الجيش السوري، وعند دخول المعاهدة في دور العمل لا يبقى لفرنسا معها الا الوحدات الموجودة حاليا في جبل الدروز وبلاد العلويين، وسيتفق الطرفان المتعاقدان في هذه الدورة على تحديد نقاط اقامة هذه الجنود التي يتأخر جلاؤها خمس سنوات، ولن يكون لهذه القوى الفرنسية المتأخرة في البلاد أي تدخل في شؤوننا لأي سبب كان اذ ان مسؤولية الأمن في سوريا هي على الحكومة السورية وحدها بحكم الفقرة الأولى من المادة الخامسة من المعاهدة واستبقاء هذه القوى في مختلف النقاط لا يفيد احتلالا ولا يمس بحقوق السيادة السورية بحكم الفقرة الأخيرة من المادة (5) من الملحق العسكري.

أما عدد الجنود المتأخرين في هاتين النقطتين فلن يكون أكثر من الموجود الحالي فيهما.. وهو بكل حال أقل من العدد الذي استبقته بريطانيا في الهنيدي والموصل لمدة خمس سنوات أيضا.

ولا ننسى أن لبريطانيا الحق بنقل هؤلاء الجنود بعد السنوات الخمس الى قواعد الطيران وليس في المعاهدة السورية شيء من ذلك.

ولا يغرب عن الذهن ان المادة السادسة من هذه المعاهدة أجازت اعادة النظر والتعديل في أمثال هذه المنح عند ظهور أوضاع وأحداث جديدة مثل تكامل الجيش السوري والتوثق من عدم الحاجة لبقاء القوى الفرنسية لاخر السنوات الخمس المذكورة.

ولست أدري كيف استنتج زعيم كبير (ويقصد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي عارض المعاهدة) في نقده للمعاهدة تدخل الجيش الفرنسي في حفظ نظامنا الداخلي بالاضافة الى حقه في حفظ الأمن الخارجي، بينما الفقرة الأولى من المادة الخامسة تصرح بأن مسؤولية حفظ النظام في سوريا ومسؤولية الدفاع عن أراضيها هما للحكومة السورية، فأي دخل للحكومة الفرنسية؟ والفقرة الثانية من هذه المادة هي:"الحكومة الفرنسية تقبل بتقديم المساعدة العسكرية لسورية مدة المعاهدة وفقا لنصوص الاتفاق الملحق".

حدود المعاهدة العسكرية: نعود الى هذا الاتفاق فنجد أن المساعدة العسكرية المنصوص عنها فيه والمقصودة بهذه الفقرة محدودة في المادتين الثالثة والرابعة منه ومحصورة بوضع بعثة عسكرية تحت تصرف الحكومة السورية عند طلبها، وبقبول الأشخاص الذين ترسلهم سوريا ليتعلموا الفنون العسكرية في فرنسا، وبتقديم الأسلحة والتجهيزات من أحسن طراز، وليس في هذا كله ما يبيح للحكومة الفرنسية أن تتدخل في شؤون سورية.

والفقرة الثالثة والأخيرة من المادة الخامسة تنص هكذا: "تسهيلا لقيام الحكومة الفرنسية بالواجبات المترتبة عليها بموجب المادة السابقة من هذه المعاهدة تعترف الحكومة السورية بأن استمرار بقاء مسالك العبور الجوية (الترانزيت) للحكومة الفرنسية هو من مصلحة التحالف".

ولما كانت المادة الرابعة السابقة من المعاهدة المشار اليها في هذا النص تنحصر بحلف الدفاع الخارجي فمسالك العبور المذكورة هي لأجل هذا الدفاع فقط ولا علاقة لها بالأمن الداخلي، واذا رجعنا الى المادة الخامسة من الاتفاق العسكري الخاصة بالقوى الفرنسية الجوية والبرية نجدها مفتتحة بالعبارة التالية: "عملا باحكام الفقرة الثالثة من المادة الخامسة من المعاهدة تتعهد الحكومة بأن تضع تحت تصرف الحكومة الفرنسية لمدة التحالف مواقع لقاعدتين جويتين ... الخ". فكل ما جاء في هذه المادة هو اذن معطوف على

الفقرة الثالثة من المادة الخامسة من المعاهدة أي لأجل تسهيل مهمة فرنسا في تنفيذ تعهدها بمساعدة سورية في الدفاع الخارجي، سواء أكان ذلك بواسطة طياراتها أو بواسطة قواها البرية التي يتأخر جلاؤها الى أن يتم تأليف الجيش السوري.

التسهيلات للقوى الفرنسية: هذه التسهيلات المسرودة في المادة السادسة من الملحق العسكري تتضمن ترتب الاجور على الفرنسيين عندما يستعملون المرافق المحلية، وانما اشترط فيها أن لا يكلفوا بتعرفة متفاوتة توضع ضدهم زيادة عن التعرفة لسائر الأفراد وأن لا تزيد أعباء الأجور على ما يتحملونه في الوقت الحاضر، فقول بعض الناقدين أن الحكومة السورية مجبرة على تقديم المواضع والأمكنة مجانا هو غير مؤتلف مع النص الوارد في هذه المادة وسيوضع اتفاقات خاصة بين الطرفين لتحديد الانتفاع وتعيين الأعباء المترتبة عليه.

الميزات والمناعات: ظن البعض خطأ أن الميزات والمناعات التي سيتمتع بها الفرنسيون في ظل المعاهدة هي عين ما يتمتعون به حاليا، مع أن المادة السابقة من الاتفاق العسكري تنص على أنها تبقى كما تكون عند وضع الاتفاق موضع التنفيذ أي في نهاية دورة الانتقال، وجاء البروتوكول رقم (1) موضحا أن الطرفين يحددان قبل دخول المعاهدة في دور العمل الميزات والمناعات المذكورة في المادة السابقة من الاتفاق العسكري وفاقا للأساليب المتبعة في الحالات المشابهة.

فيتبن من ذلك ان هذه الميزات ليست ما هو جار حاليا بل سيوضع لها تحديد واضح وفاقا لما يجري بهذا الخصوص عند وجود قوى حليفة في أرض حليفتها، وهذا الاتفاق سيبدأ بوضعه بعد تصديق المعاهدة وينفذ قبل وضعها موضع العمل ولكن يكون فيه ما يجعل هذه الميزات والمناعات أقوى من أمثالها في العراق وهي تتعلق بالقضاء العائد للجنود أو عليهم وبالاعفاء الجمركي لأعتدة الجيش والاعفاء من الضرائب أما الموظفون المدنيون الذين تقتضي المعاهدة وجودهم في سورية فميزاتهم تحدد في مقاولات استخدامهم ولا تتناول اعفاءات جمركية، وفضلا عن ذلك فان المادة السابعة المذكورة تنص على امكان التعديل في كل ما يتفق عليه من هذه الميزات.

استلام العقارات والتأسيسات:

الأبنية التي انشأتها القوى الفرنسية بأموالها مع التأسيسات التي أقامتها ولا تزال باقية وصالحة للانتفاع كشبكة الهاتف مثلا تسلمها للحكومة السورية مقابل القيمة التي تقدرها لها لجنة خبراء تحكيمية من الطرفين (الفقرة الأخيرة من المراسلة رقم 11)، وأما التي انشئت بأموال من ميزانية المصالح المشتركة فتسلم بلا مقابل وأكثر المؤسسات هي من هذا القبيل، لذلك لن يكون العبء المالي ثقيلا من هذه الجهة، وفي الاتفاق العراقي أمثال هذه المؤسسات تعهد العراق ان يدفع بدلها لبريطانيا ثلث النفقة المصروفة على انشائها بموجب قيود وزارة الحربية والطيران، وذلك انهم حسبوا هذه الإنشاءات لن تكون قيمتها الباقية عند الاستلام أكثر من ثلث الكلفة الأصلية بعد أن يمر على استعمالها أكثر من عشر سنوات وبعد هبوط الاسعار الذي أصبح فاحشا بالنسبة الى ما كان عليه يوم الانشاء في جميع أنواع العقار، وقد ذهب بعض المنتقدين خطأ الى كون العراق كلف بدفع ثلث القيمة الحالية فقط، مع ان ذلك مخالف للواقع، ولا ريب ان العقارات التي ستستلمها الحكومة السورية لن تساوي عند الاستلام ثلث المبالغ المقيدة من وزارة الحربية الافرنسية نفقة انشائها، فصفقتنا من هذه الجهة ليس فيها ما يوجب انتقادا، أما منازل الطيران فتستلمها سورية بدون أن تكلف بدفع شيء مقابلها، ومنها الطرق التي أنشأها الجيش الفرنسي وجميع ما أنشىء من قبل الجنود السوريين ومن ميزانية المصالح المشتركة.

الموظفون الأجانب:

استخدام الموظفين الاجانب ليس اجباريا على سورية بل هي مختاره في ذلك، فاذا تجلت لها حاجة لجلب أحد منهم تأتي به من فرنسا بدون أن يكون للحكومة الفرنسية علاقة بانتقائهم والاتفاق معهم، بل تختارهم الحكومة السورية من بين الاشخاص الفرنسيين الذين يتقدمون لطلب الخدمة وتعقد معهم مباشرة، فيكونون مسؤولين أمامها وحدها في جميع ما يعهد اليهم من أعمال وهذا الاطلاق يتناول المستشارين الفنيين والقضاة وسائر الموظفين الذين ترى الحكومة السورية لزوما لوجودهم في سورية واستعدادهم للعمل الحازم في جميع نواحي الادارة، مما يؤول الى الاقلال من هؤلاء الفنيين الى الحد الأدنى اذا لم يؤد الى الاستغناء عنهم بتاتا. في المعاهدة العراقية ينتقى الموظفون البريطانيون بالاتفاق بين الحكومتين، وتجاه هذا التقيد تظهر مزية معاهدتنا بجلاء لا يخفى عن البصر، أما كون الحكومة العراقية تستطيع أن تأتي

بغير البريطانين للوظائف التي لا يتيسر لها طالب بريطاني فذلك حق طبيعي لا يمارى في جواز استعماله ولا حاجة لذكره بالنص الصريح، فعند وجود فرنسي لا يلبي الدعوة يحق للحكومة السورية استخدام رجل غير فرنسي سواء ذكر ذلك أم لم يذكر، من ذلك نرى أن المقايسة بهذا البند بين معاهدتنا والمعاهدات الأخرى تسجل لمعاهدتنا رجحانا عظيما، والمجربون يقدرون الفرق في الاختيار بين موظف أجنبي أرسلته حكومته وبين موظف أجنبي جئنا به بدون تدخل الحكومة.

التمثيل الخارجي: المعاهدة السورية أطلقت الحق لسورية باقامة ممثلين سياسيين في أي بلد كان ترى لها فيه مصلحة سياسية او تجارية، ولما كان السوريون منتشرين في اكثر أقطار الدنيا، فلن يكون عسيرا عليها ان تجعل لها من أبنائها المهاجرين البارزين ممثلين وقناصل وقائمين بالأعمال في جميع المراكز التي لها علاقات تستدعي هذا التمثيل، وتقوم وارداتها بسد نفقاتها وأما المراكز الأخرى التي ليس لها فيها مصالح ولا لها علاقات ذات أهمية فيمكنها أن تعهد بما قد يقع لها أو لرعاياها من الأعمال الى ممثلي حليفتها فرنسا، وفاقا للتعامل الدولي المتبع في مثل هذه الحالات واذا ظهر من ممثلي فرنسا تقصير او اهمال في القيام بهذا الواجب يبقى مجال اعادة النظر بمضمون هذه المراسلة مفتوحا بالاستناد الى الحق المنصوص عنه في المادة السادسة من المعاهدة والاتفاق الخاص الذي يتم بين الحكومتين لتنفيذ هذا البند سيضمن سلامة المعاملة.

ضمان الحقوق الدستورية: وضعت جمعية الأمم شروطا جمة على كل دولة فيها أقليات عنصرية أو لغوية أو دينية لأجل تأييد المساواة في الحقوق العامة بين جميع أفراد الرعية وأوجبت التعهد بها بصكوك مسهبة على رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها من الدول الداخلة في جمعية الأمم، وقد جاء في تعهد الحكومة العراقية المؤرخ في 7 أيار سنة 1932 أنها تتعهد بأن تمنح جميع سكان العراق حماية تامة بدون تفريق في الجنس واللغة والدين، فيتمتعون بممارسة طقوسهم الدينية وحرية الاعتقاد وبالحقوق المدنية والسياسية، ويؤمن قانون الانتخاب تمثيلا عادلا للأقليات في الوظائف والامتيازات التشريعية واستعمال لغاتهم حتى في المعاملات الرسمية وأمام المحاكم. ويحتفظون بالمؤسسات الخيرية والمدارس وقواعد الأحوال الشخصية وادارة أوقافهم، وفيه كل ما يخطر على البال من القيود والتفاصيل المسهبة

في عشر مواد وضعوها لأجل حماية الأقليات، وقد نصت المادة الأولى منها على اعتبار الأحكام المنصوص عنها في هذا الفصل قوانين أساسية في العراق، ولا يمكن لأي قانون أو نظام أو أي عمل رسمي كان أن يعارض هذه الأحكام أو يناقضها أو يتغلب عليها في الحاضر والمستقبل وفي المادة العاشرة من هذا التعهد أن أحكام هذه المواد تعتبر عهودا ذات صبغة دولية تضمنها جمعية الأمم ويحق لكل عضو في مجلس جمعية الأمم أن يطالب بتنفيذها أمام الجمعية وأن يراجع محكمة العدل الدولي الدائمة لأجلها والعراق يذعن لما تصدره من الأحكام.

وفي المراسلة الخامسة الملحقة بالمعاهدة السورية بيان من الحكومة السورية أنها تؤمن بقاء ضمانات الحقوق العامة المنصوص عنها في دستورها للأفراد والجماعات، وهو أمر طبيعي وبيان يعطى للاعراب عن نيات الحكومة السورية وتطمين جمعية الأمم من هذه الناحية، ولا يفسح للحكومة الفرنسية مجال التدخل المباشر بشؤون سوريا من هذه الجهة الا بطريق الشكوى لجمعية الأمم وفقا للمادة التاسعة من هذه المعاهدة. كما يحق لكل دولة من أعضاء مجلس العصبة أن تتقدم بمثل هذه الشكوى على سوريا أو على غيرها من الدول الداخلة في العصبة عندما تتحقق منها اخلالا بهذه التعهدات.

ولما كانت المادة الثامنة من المعاهدة تصرح بسقوط جميع المسؤوليات المتعلقة بسورية عن فرنسا فلا تكون فرنسا مسؤولة أمام العصبة أكثر من غيرها من دول المجلس، ولما كانت الأمة السورية متحدة صفا واحدا للعمل المخلص في سبيل صيانة مصالحها العامة وترصين كيانها السياسي والاجتماعي، ولا تؤمن بوجود أقليات مفتقرة لحماية حقوقها، بل هي عازمة عزما اكيدا على تقديس قاعدة المساواة في الحقوق العامة بين جميع أبنائها بدون تفريق في العنصر أو المذهب، وكان الدستور الذي وضعته الجمعية التأسيسية سنة 1928والذي وضعه المؤتمر السوري سنة 1919 ينصان على احترام هذه الحقوق واعطائها كامل مفعولها، فلسنا نعتقد أن يكون هنالك وسيلة لأي دولة كانت أن تتقدم بالشكوى منا الى جمعية الأمم بهذا الخصوص.

نحن نريد أن يقوم الكيان السوري على أساس المدنية البحتة والديمقراطية الصحيحة المرتكزة على قاعدة المساواة أمام القانون بين جميع أبناء الوطن في الحقوق والواجبات بدون تفريق، مع اطلاق حرية الاعتقاد في

الاديان السماوية والتصريح لكل طائفة بممارسة طقوسها، وتنظيم الأحوال الشخصية لأبنائها بموجب قواعد دينها المؤتلفة مع الاداب العامة والنظام العام. والفرنسيون أنفسهم يعرفون أننا بالغون في بلادنا من هذه الحرية ما لم تبلغه شرائعهم، والقيود الموضوعة في قانونهم المدني لأجل توحيد القضاء في الأحوال الشخصية لجميع الطوائف الدينية لا وجود لها في قوانينا، فهذا التسامح القائم عندنا منذ القديم على قاعدة أن "لا اكراه في الدين" فسح المجال لكل طائفة بانشاء مدارسها وتأسيس أوقافها للخيرات والمبرات، والاحتفاظ بشرائعها في تنظيم العائلة والاحوال الشخصية هو كاف لتطمين الأقليات على حقوقهم وضامن لتأييد الوحدة القومية التي عليها وحدها يرتكز البنيان المدني الذي نصبو اليه، وبها وحدها تتخلص الأقلية من وصمة الضعف اللاصقة بها.

الشركات والحقوق المكتسبة: الحق المكتسب لا يجوز انكاره على صاحبه واذا انكره المتغلب يوصم عمله بالتعسف والاجحاف وتشجبه مبادىء العدل والانصاف، وانما ينظر في أول الأمر الى تمحيص الحق المدعى به وكيفية اكتسابه، فاذا كان اكتسب بطريق مشروع وجب أن يبقى محترما.

والوضع الدولي لسوريا هو الوضع الذي أوجدتها به جميعة الأمم وأقرته الدول الداخلة فيها رغما عن انكاره من قبل اكثرية السوريين، ولأجل التخلص من هذا الوضع لم يكن أمامنا الا طريق واحد هو الطريق الذي سلكناه بعد أن جربنا طرقا اخرى لم تجدنا نفعا.

القطر العراقي الشقيق لم يتخلص من الانتداب الا بهذه الطريقة التي نواجهها اليوم بموجب مشروع المعاهدة المعروض أمامنا. وفي ما يتعلق بالحقوق المكتسبة صرحت حكومته في المادة الرابعة عشرة من تعهدها المؤرخ في 7 أيار 1932 بأن حكومة العراق تعلن احترامها لجميع الحقوق على اختلاف انواعها المكتسبة قبل زوال نظام الانتداب من قبل الأفراد أو الشركات أو الأشخاص المعنويين، وتتعهد باحترام وتنفيذ الموجبات المالية من أي نوع كانت التي أقرتها عنه السلطة المنتدبة أثناء الانتداب.

أما نحن فقد وضعنا تحفظا لهذا الاعتراف باجراء التعديلات الممكنة على الامتيازات والاتفاقات التي تمس مالية الدولة والادارات العامة مجاراة للأحوال المالية والاقتصادية في سوريا، وهذا التحفظ سيكون له شأنه في ازالة الأضرار

الناشئة أو تخفيفها عند اعادة النظر في بعض الامتيازات الممنوحة من قبل سلطة الانتداب وحكومات سوريا السابقة، كمقاولات الخطوط الحديدية التي عقدتها رئاسة حكومة الاتحاد سنة 1925 لمدة ثمانين سنة، وعقود الماء والجر والتنوير في دمشق وحلب وحمص وحماة المعقودة من قبل رئاسة الوزراء بعد هذا التاريخ، وامتياز المصرف السوري الذي منحته رئاسة الاتحاد سنة 1924 لمدة 15 سنة، ولا ريب ان الحكومة السورية العتيدة ستعالج هذه الأمور وأشباهها لأجل افراغها في صيغة جديدة تأتلف مع العدل والانصاف ومع الحالة الاقتصادية في البلاد.

مؤسسات الخير والاسعاف: ضمنت المراسلة السابقة الانتفاع من النظام الحالي لمؤسسات الخير والاسعاف وبعثات التنقيب الاثرية، والنظام الحالي يفيد السماح لها بالاستمرار في أعمالها تحت حماية القانون على أن لا تخل بالآداب العامة والنظام العام وتخضع للتفتيش والمراقبة من قبل السلطة ذات السيادة، وهذا التفتيش على برامجها وسائر أعمالها يقوم به اليوم مستشاروا المعارف التابعون بهذه المهمة لسلطة الانتداب، أما في ظل المعاهدة فتنتقل هذه الصلاحيات الى وزارة المعارف السورية التي يبقى عليها الواجب المحتوم بالمحافظة على وحدة برامج التعليم وصيانة الآثار من التسرب الى الخارج.

والنص المقابل في تعهد الحكومة العراقية وارد في المادة الخامسة عشرة منه هكذا: "يتعهد العراق بأن يؤمن ويضمن في جميع اصقاعه حرية الضمير وممارسة الشعائر الدينية ومساعي البعثات التبشيرية على اختلاف عقائدها بما يتعلق بالدين والمدارس والاسعاف الطبي مهما كانت جنسية تلك البعثات أو جنسية أعضائها، على أنه يحتفظ بحقه في اتخاذ التدابير التي لا بد منها للمحافظة على الآداب العامة والنظام العام.

ومن البديهي أنه اذا ظهر وضع شاذ من البعثات العلمية والأثرية يكون واجب الحكومة حرمان هذه البعثات من التسهيلات والمساعدات الممنوحة.

تعادل العملة: ان العملة السورية قائمة اليوم على اساس الامتياز الممنوح لمصرف سوريا ولبنان الكبير من قبل رئاسة حكومة الاتحاد السوري لمدة 15 سنة اعتبارا من تاريخ العقد في 1924/1/23. لقد منح المصرف بموجب هذا الاتفاق حق اصدار أوراق نقدية لحد 25 مليون ليرة سورية تؤدى قيمتها لحاملها حوالات على باريس أو مرسيليا بمعدل عشرين فرنكا فرنسيا مقابل كل ليرة

سورية، ولم تكلفه الاتفاقية المذكورة ايداع تأمين احتياطي ذهبي أو أسناد أجنبية مشروط دفعها ذهبا الا بكسر تافه من الأوراق المتداولة لم يتجاوز في وقت ما الثلاثة في المئة، وهذا الكسر الصغير لا يستفيد منه حاملوا العملة الورقية عند هبوط الفرنك بل تبقى فائدته لأصحاب المصرف. وعلى هذا الوجه أصدر البنك أوراقا يوم كانت قيمتها تعادل نحو 40 قرشا ذهبا عثمانيا من كل ليرة سورية، ثم أخذت بالهبوط الى أن بلغت 18 قرشا حين ثبتت الحكومة الفرنسية قيمة الفرنك سنة 1926 بمقدار 65.5 ميلمترا من الذهب ذي العيار تسعة أعشار، وفي يوم 1936/10/2 عادت الحكومة الفرنسية فخفضت قيمة الفرنك الى حد يتراوح بين 43 و 49 ميلمترا من الذهب، فكان من نتيجة هذا الخفض ان خسر حاملوا الورق النقدي السوري خسارة جسيمة، أما الحكومة الفرنسية فانها عمدت الى هذا الخفض الاختياري طمعا بنيل الربح الجسيم الذي تم لها منه. وذلك أنها في امتيازها الممنوح لبنك فرنسا أعطته حق اصدار الورق مقابل ضمانات احتياطية ذهبية وأسناد أجنبية مشروط فيها ذهبا يشتريها البنك بالورق الذي يصدره فعند خفض قيمة الفرنك ترتفع أسعار هذه الضمانات ويكون الربح الحاصل من هذا الارتفاع عائدا للحكومة الفرنسية، وبهذه الوسيلة ربحت الخزينة الفرنسية سبعة عشر مليارا من الفرنكات، أي 850 مليون ليرة سورية استوفتها بتمامها من بنك الاصدار.

وأما مقاولة الحكومة السورية مع بنك سوريا ولبنان فليس فيها شيء من هذه الشروط الضامنة لحقوق البلاد التي نكبت في اقتصادياتها نكبة حاطمة بسبب هذا العقد الذي جعلها شريكة بالغرم دون الغنم.

ولا ريب ان الحكومة السورية العتيدة تحرص على ايجاد وسيلة لاصدار عملتها على أساس صالح لضمان حقوق البلاد، ولن توافق على ايجاد تعادل الا على أساس ثابت يمكنها من الاشتراك بالغنم عند حصوله فليس التعادل في العملة بين دولتين ضارا في مصالحهما وانما الضار هو القواعد الجائرة التي يبنى عليها هذا التعادل، وقد يصعب على الحكومة السورية النجاح بوضع قاعدة جديدة قبل انتهاء مدة امتياز البنك السوري بصفته حقا مكتسبا وبسبب قصر المدة الباقية له. ولكن لا بد من معالجة هذه القضية لتلافي الضرر الواقع في الحالة الحاضرة، ومقاطعة ما هو محتمل الوقوع في الأتي، وليس من العدل في شيء عند وجود التعادل في العملة بين دولتين أن تبقى مقدرات هذه

العملة رهن ارادة دولة واحدة منهما ولذلك فالتعادل المذكور في المراسلة التاسعة يقوم على أساس معيار ثابت لا يتغير.

ومن المفيد بهذه المناسبة الاشارة الى قيام التعادل مع العملة الانكليزية في مصر والعراق وفلسطين والهند، والى أن الدول العظمى انكلترا وفرنسا وأمريكا تسعى في الوقت الحاضر لتأسيس تعادل ثابت بينها في العملة، فالعبرة اذن هي في شروط هذا التعادل والقواعد التي يبنى عليها لصيانة الحقوق وتسهيل المعاملات.

المصالح المشتركة: عند مواجهة الأمر بانفصال لبنان عن سوريا سياسيا لا يبقى للمفاوض السوري في معالجة هذه العقدة الا الاحتفاظ بحقوقه لوقت آخر وانفراده بادارة مصالحة الاقتصادية، مع ابقاء الباب مفتوحا لايجاد حل آخر جدير بالقبول فلا يمكننا الآن ان نستبق الحوادث ونتكهن عما تصير اليه الأمور حيال التطورات الحاضرة والاتية، وما يستقر عليه رأي الاكثرية في لبنان بعد أن ينال استقلاله وتصبح مقدراته في أيدي أبنائه الذين لا نشك في أن المقيمين منهم والمهاجرين يقدرون مثلنا الأضرار الجسيمة الناجمة عن هذا الانفصال ويحسبون لها حساب البصير الحكيم، واننا نراقب المستقبل القريب بالأمل المحبوب أن نؤلف مع أخواننا اللبنانيين كيانا سياسيا واحدا توحده القومية واللغة والتاريخ والوضع الجغرافي والعادات وهم يعرفون جيدا أنهم غير بالغين حالة الاستقرار التي هم بأشد الحاجة اليها ما دام الشطر الكبير منهم غير راض عن الوضع الحاضر وما دامت شقيقتهم سوريا تعاني الام الحجب عن منافذها الطبيعية، وبما أننا دنونا من عتبة المفاوضة مع الحكومة الفرنسية لأجل هذه العقدة الباقية فاننا نعقد امالا طيبة على أنهم يسهلون قطع هذه المرحلة ويشتركون معنا في الرغبة بالاتحاد.

محافظة الاسكندرونة: (المراسلة السادسة) ان محافظة الاسكندرونة تدار منذ سنة 1920 بنظام خاص حفظ لسكانها ادارة ممتازة في المالية والتوظيف وبالنظر للوضع الخاص القائم في مقاطعتي العلويين وجبل الدروز اتفق الوفد مع الحكومة الفرنسية على ضم هاتين القطعتين الى سوريةن على أن يطبق فيهما النظام الحكومي الجاري في محافظة الاسكندرونة، وبما ان هذا الضم هو نتيجة المعاهدة فانه يتم بالفعل حال تصديقها في مجلس النواب السوري، وقد تخوف أحد الناقدين من الرجوع عن قرار الالحاق مع أن هذا القرار أصبح جزءا من المعاهدة واجب التنفيذ على الحكومة الفرنسية.

نفقات الانتداب: في الواقع لم تستوف بريطانيا في العراق نفقاتها في مدة انتدابها ونحن لنا الحق بحكم اتفاق أول أذار ان نستفيد بمثل ذلك، ورغما عن كون نفقات انتداب بريطانيا بالعراق كانت أقل من نفقات فرنسا في سوريا بالنظر لقصر مدة الانتداب العراقي ولقيام حكومة عراقية منذ سنة 1921 تمارس صلاحياتها الواسعة، فقد توفق الوفد الى حمل فرنسا على التنازل عن المطالبة بنفقاتها التي يخولها صك الانتداب الحق بالمطالبة بها، وهي تبلغ بحسب قيد الميزانية في فرنسا 216 مليون ليرة سورية.

النظام القضائي: (البروتوكول الرابع) ان وظائف الحكومة السورية جميعها بمعزل عن التدخل الأجنبي، فهي تدير الاشتراع وسائر فروع الادارة في الحرية التامة، ولولا قضية الامتيازات الأجنبية الموروثة عن الأمبراطورية العثمانية لما كان مبحث القضاء مدخلا بمشروع المعاهدة. ولكن عند تأسيس الانتداب اتفقت الدول ذات الامتيازات أن تؤجل العمل بامتيازاتها ما دام الانتداب قائما، واشترطت العودة اليها بحال زوال الانتداب، ولما كانت معاهدتنا الحالية تنص على زوال الانتداب، ولكي يكون المشروع مقبولا عند هذه الدول يجب أن يتضمن نصا عن أسلوب القضاء الضامن لحماية مصالح الأجانب، وبما أنه سبق للعراق ان وضع بالاتفاق مع بريطانيا اسلوبا لهذه الغاية قبلته جمعية الأمم والدول صاحبة الامتيازات فقد رأى الوفد والحكومة الفرنسية أن يحذوا هذا الحذو ويباشرا بعد تصديق المعاهدة وضع نظام مستمد من القاعدة المؤسسة بين الطرفين في اتفاق اول آذار، وهي ان لا تقل حقوق سورية في المعاهدة عن حقوق العراقيين وهكذا سيكون النظام القضائي هذا شبيها بالنظام العراقي، وفيه أن اللغة العربية وحدها اللغة الرسمية فيه، وان العراق يستخدم في محاكمة تسعة قضاة انكليز لمدة عشرة سنوات، الى آخر ما هنالك من التفصيلات.

شكر ملوك العرب: وقبل أن اختم هذه المحاضرة أرى من الواجب المحتوم أن أذكر بالتقدير ما صادفناه من العطف والعناية من أصحاب الجلالة ملوك العرب الأعاظم ورجال حكوماتهم الأماثل الذين رافقوا أعمال الجهاد السوري وأحاطوها بالمدد والتنشيط ورمقوا برضاهم الغالي ما وصلنا اليه من طلائع النجاح.

كما تسجل لهم الأمة العربية بالاعجاب ومعرفة الجميل هذا العطف النبيل المقرون بالسعي المثمر لانقاذ الشطر السوري الجنوبي من كارثة الاجتياح الصهيوني المنيخة عليه بكلكلها الثقيل. ونرجو أن يكون الاتفاق الذي لقيناه

نحن عند الشعب الفرنسي النبيل ورجال حكومته العادلين مثالا حسنا يحذوه العدل البريطاني تجاه إخواننا في فلسطين.

7

1936- 1937: انتخابات نيابية وانتخاب هاشم الاتاسي رئيسا للجمهورية - جميل مردم يوافق على ملاحق جديدة للمعاهدة - فرنسا تتراجع عن المعاهدة - حل مجلس النواب وتعليق العمل بالدستور- قضية لواء الاسكندرون.

مجلس عام 1936 وانتخاب الأتاسي رئيسا للجمهورية

بعد عقد معاهدة 1936 جرت في 1936/11/14 الانتخابات النيابية وانتهت في 30 منه، وفازت فيها قوائم الكتلة الوطنية في جميع المدن وأغلب الأقضية، ولما اجتمع المجلس النيابي قدم محمد علي العابد رئيس الجمهورية السابق استقالته، فانتخب المجلس هاشم الأتاسي رئيسا للجمهورية وفارس الخوري رئيسا للمجلس النيابي، كما قدم رئيس الوزراء عطا الأيوبي استقالة حكومته، فتألفت حكومة جميل مردم الوطنية في 1936/12/21 على النحو التالي:

جميل مردم للرئاسة والاقتصاد الوطني

شكري القوتلي للمالية والدفاع الوطني

سعد الله الجابري للداخلية والخارجية

عبد الرحمن الكيالي للعدلية والمعارف

□

ان الكتلة الوطنية ما ان تسلمت الحكم حتى استعجلت استجلاب المنافع والغنائم لها ولأنصارها، غير عابئة برجال الانتداب في سورية الذين كانوا ما يزالون يقبضون على زمام الأمور، وكانوا لها بالمرصاد لاستغلال جميع الأخطاء والانحرافات، وبسبب هذا السلوك من قبل الكتلة الوطنية فقد أطلق الشعب على حكمها اسم: حكم المزرعة، وقد استغلت الكتلة الوطنية ما كان يحيطها الشعب به من تأييد عارم أسوأ استغلال في فرض سيطرتها وخنق

أنفاس كل معارضة لأخطائها وتصرفاتها، بداعي الحرص على المعاهدة.

وتنفيذا لهذه السياسة فان الكتلة ماطلت في ملاحقة موضوع العفو عن السياسين الذين أبعدتهم فرنسا الى ما بعد قيام الحياة البرلمانية بزمن طويل مع انهم خلاصة العناصر الثورية التي قارعت الاستعمار وهذا ما ولد الشكوك في صدق نواياها.

كما قاومت بعنف وجود أي تنظيم سياسي أو حزبي آخر بحجة المحافظة على الاجماع، وقد تبدى ذلك في اجماع المجلس النيابي بالمصادقة على المعاهدة السورية الفرنسية بتاريخ 1936/12/26 دون أن يجرؤ أي نائب على انتقادها أو معارضتها.

وفي 1936/11/13 وقعت فرنسا مع لبنان معاهدة تشبه المعاهدة السورية، فثارت المظاهرات الشعبية والمعارك الدامية والاضراب الشامل الذي عم مدينة طرابلس مطالبة بالوحدة السورية، فزار جميل مردم المدينة وانهى اضرابها الطويل ومظاهراتها الدامية **وكان ذلك بمثابة بداية لاعتراف الكتلة الوطنية بلبنان الكبير وتنازل سوريا عن المطالبة بالأقضية الأربعة.**

وفي 1937/1/5 اعلنت فرنسا انضمام جبل الدروز والعلويين الى سوريا، على أن يحتفظا باستقلالهما المالي والاداري.

وفي هذا الشهر نفسه طرحت تركيا على مجلس عصبة الأمم موضوع مطالبتها بلواء الاسكندرون.

تهاون الكتلة الوطنية بقضية لواء الاسكندرون:

من الأمور المسلم بها بالنسبة لمعظم قادة الكتلة آنذاك أن التصديق على المعاهدة أثمن من اللواء، وهذا كان شعارا مطروحا: "قرية مستقلة خير من بلاد واسعة مستعبدة" (فارس الخوري). وهكذا صرح، في 17 شباط 1937، سعد الله الجابري وزير الخارجية والداخلية قائلا بكل بساطة:

"خسرنا لواء الاسكندرون ولم نخسر حق المطالبة به"

في 1937/1/3 قررت عصبة الأمم ايفاد لجنة دولية لدرس الوضع الراهن في اللواء، وفي 1937/1/11 وضعت هذه اللجنة تقريرها فعمت المظاهرات اللواء بقيادة الاستاذ زكي الأرسوزي [1] احتجاجا على المؤامرة الفرنسية التركية لسلخ اللواء عن سورية ثم عمت المظاهرات والاضرابات جميع أرجاء البلاد، كما ارتفعت اصوات الاستنكار العربية في العراق ومصر والأقطار العربية الأخرى، وكانت الكتلة الوطنية ممتعضة من مظاهرات المدن السورية التي كان يقودها الطلاب ومتخوفة من استفحالها.

وقد كشف البرلمان التركي فيما بعد ان حسني البرازي، الذي عينته الكتلة محافظا للواء أثناء تسليمه لتركيا، كان عميلا يقبض راتبا معلوما من المخابرات التركية، **وعلى كل حال فان موقف قاعدة الكتلة الوطنية الشعبية كان يختلف كل الاختلاف عن موقف الزعماء، وهذا كان أهم اسباب تداعيها وانهيارها فيما بعد.**

®

الشهبندر يعارض من منفاه ويدافع عن عروبة لواء الاسكندرون:

كانت قضية التسليم بسلخ لواء الاسكندرون أقوى نقاط ارتكاز معارضة الدكتور الشهبندر للكتلة الوطنية وللمعاهدة الفرنسية السورية، وقد بدأ الدكتور شهبندر نضاله في منفاه بمصر قبل صدور العفو السياسي عنه وبتاريخ 1937/2/10 أدلى بحديث لجريدة ليزيكو الفرنسية التي كانت تصدر في دمشق نشرت "القبس" تعريبا لأهم فقراته، وجاء فيها:

---

(1) ساهم الاستاذ زكي الأرسوزي في لواء الاسكندرون مساهمة جدية بالدفاع عن عروبة اللواء في وجه مؤامرة التتريك الكبرى التي قامت بها تركيا وفرنسا حيث افتتح مكتبا لعصبة العمل القومي التي كان منتسبا لها، وكانت نتائج الاستفتاء الذي قررته عصبة الأمم بجانب العرب، فقررت تركيا اجتياح اللواء عسكريا بالتفاهم مع فرنسا، وقد خرجت حماة بأجمعها لاستقبال الطلاب المهاجرين من اللواء وكان منظرا مؤلما ومثيرا مشهد هؤلاء الطلاب الذين انتسب قسم منهم لتجهيز حماة بعد تشردهم من اللواء، وقد ساهم طلاب وشباب زكي الأرسوزي: وهيب الغانم، سليمان العيسى، صدقي اسماعيل ورفاقهم في انشاء حزب البعث العربي فيما بعد عام 1947.

زرت السنجق في سنة 1911 مع الجيش العثماني الذي ذهب الى البلقان، وقد مررت بقرقخان وبيلان وأقمت في الاسكندرونة أياما وهي مدينة جميلة يحيطها جبل أمانوس الذي كان يسميه أجدادنا جبل اللقان، وأنا أسمي الاسكندرونة بيروت الشمال.

س: ما السبب في اثارة أطماع تركيا حول لواء الاسكندرون؟

ج: ان للواء أهمية عسكرية واقتصادية من الدرجة الأولى، وخليج الاسكندرونة هو الخليج الحربي الوحيد، ليس فقط في الأراضي السورية، بل في الاراضي المصرية، واني اذكر أنه في بدء الحرب العامة زار مصر اللورد كتشنر وزير حربية بريطانيا في ذلك الوقت، وأخذ يدرس امكانية القناه لعبور الغواصات، وفرق كبير بين أي قنال في مصر وبين خليج اسكندرون الذي يصلح للغواصات والأساطيل الحربية والتجارية التي يمكن أن تكون في مناعة من كل خطر يهددها في جميع الحوض الشرقي للبحر المتوسط حتى ابو قير.

ويستطرد الشهبندر قائلا: ان الاسكندرونة هي المرفأ الطبيعي لمدينة حلب، وأنه أحسن مرفأ في الشاطىء السوري بأجمعه، والميناء الهام لطريق جديدة على الفرات، هذا عدا عن أن اسكندرون تحوي في جوفها بعض المعادن كالكروم والذهب والنحاس وأوكسيد المنغنيز في جبل الأمانوس وخصب التربة هناك معروف بالحاصلات الزراعية والصناعية التي تنبت بكثرة.

س: هل لواء الاسكندرون عربي وهل يشكل قسما من سوريا؟

ج: لقد قلت في أحد المؤتمرات الأخيرة في القاهرة اني أعتقد بوطني لأني أعتقد بالحق، ولو لم أكن أعتقد وأومن كل الايمان بأن لواء الاسكندرونة عربي لا يمكن فصمه عن الكيان السوري لما جاهدت من أجله بالكتابة والدعوة، ان اسكندرون عربية، والأحصاء الذي نشرته السلطات في سنة 1932 يوضح بصورة جلية أن اللواء مأهول بعشرين الف نسمة من العرب السنة، و55 الفا من العرب النصيريين، و25 ألفا من العرب المسيحيين وألفين من الأكراد وألف من الشركس. عدا عن الأرمن الذين يكرهون الأتراك ويقاومون انضمام اللواء الى تركيا ويعدون نحو 14 ألفا، وقد قرأت في دليل السياحة أن الأتراك يعدون نحو 35 بالمائة.

ثم أتى الدكتور الشهبندر بأقوال لبعض الجغرافيين تشير الى أن الجبال الصخرية للأمانوس وطوروس هي الحدود الشمالية

لسورية الطبيعية، وبوقائع تاريخية تشير الى أن أبا عبيدة بن الجراح افتتحها وعين عليها واليا حبيبا الفهري، كما ان مدينة انطاكية هي المركز الديني للنصرانية منذ السنة الثالثة والعشرين لموت المسيح، وان بطاركتها ليسوا بطاركة المدينة فحسب وانما بطاركة سائر المشرق "وكل هذا يثبت ان لواء الاسكندرون عربي من الجهة الجغرافية والتاريخية ومن جهة العرق والأصل".

□

عاد الشهبندر الى سورية من منفاه في مصر بتاريخ 1938/2/21 واستقبلته دمشق كما لم تستقبل زعيما من قبل، ولكن حكومة الكتلة أصدرت أمرا تعسفيا مخالفا للدستور بفرض الاقامة الجبرية عليه ومنعته من الاختلاط بالناس، ثم اضطرت بسبب الاستنكار الشعبي الى الغاء تدابير الاقامة الجبرية في أوائل تشرين الأول عام 1938.

كنا نحب الشهبندر لأنه خطيب مفوه وقائد متقدم على جيله بثقافته وعقله واسلوبه، ولكن طاقة الشهبندر وشعبيته أخذت بالتبدد بسبب من التف حوله من الانتهازيين، كما انه لم يعد تنظيم حزب الشعب الذي شكله سابقا، ولم يضع مخططا ولم يطرح رؤية واضحة، ثم كانت نهايته الاستشهاد بتحريض من الجمعية الغراء وتشجيع من الفرنسيين كما سيرد فيما بعد.

تنازلات جميل مردم على حساب القضية: وتراجع فرنسا عن تصديق معاهدة 1936

على الرغم من مماطلة فرنسا اقرار المعاهدة والمصادقة عليها، وبرغم كل الدسائس الانفصالية التي كان يحيكها رجال المخابرات الفرنسية في أرجاء البلاد، فان الحكومة المردمية استمرت في سياسة التراجع أمام فرنسا حرصا على البقاء أطول مدة ممكنة في الحكم، فقد أقدم جميل مردم، خلال سفراته الثلاث الى باريس، على تعديل المعاهدة لصالح فرنسا بكتب تبادلها بتاريخ 1937/12/11 مع ممثلي الحكومة الفرنسية، وبتصريح صدر منه في 1938/11/14 دون تفويضه على توقيع هذه الملاحق

التـي ولـدت هياجـا واسـتنكارا شـعبيا عارمـا، وأغضـبت رئـيس الجمهورية هاشم الأتاسي أشد الغضب، ورفض المجلس النيابي أن يطلع عليها أو يعترف بوجودها.

وبعد كارثة سلخ لواء الاسكندرون والفتنة الانفصالية الدامية في الجزيرة، التي أثارها بحتي قريو والياس مرشو [2] ، نشر الشاعر خليل مردم بك انذاك قصيدته الرائية الشهيرة التي جرت على كل لسان ويقول فيها:

اجارك الله هذا الحلف والجار — عليك لا لك اعوان وانصار[3]

قضية عجب تبكي وتضحك، سل — عن خطبها الوفد واستشهد لها غارو[4]

لا يستقيم قياس في تناقضها — ولا يصح على ما تم معيار

ثم يخاطب فرنسا بعد اجتياح الجيش التركي لكليكيا واللواء:

قل للحليف وخير القول اصدقه — ما بال جيشي توارى وهو جرار

من بعد عشرين عاما بين أظهرنا — لم يحم ثغرا ولم تمنع به دار

عهدي به يستثير الطفل غضبته — ما باله اليوم رحب الصدر صبار؟

ثم يقرع قريبه جميل مردم بتمسكه بالحكم والسلطة:

يا لابس الثوب مزهوا بجدته — انظر فقد علقت في ذيله النار

عساك تزعم ان الامر[5] بت به — من دون علمك، هل في ذاك اعذار؟

يقضى على حقنا بغيا وليس — علم .. لعمري هذا الهون والعار

---

(2) في 1935 حاول الأشوريون في العراق القيام بفتنة انفصالية فقمع الملك غازي حركتهم، فقررت عصبة الأمم نقلهم للاستيطان في سوريا، وخصصت لهم فرنسا الأراضي الزراعية في حوض الخابور ثم ما لبثت أن استغلتهم في تقويض الوحدة السورية والاستقلال تحت حجة حماية "الأقليات" وحركتهم ليلعبوا دورا رئيسيا في محاولة فصل الجزيرة عن البلاد.

(3) الجار هو تركيا، والحليف هو فرنسا اذ أن معاهدة 1936 صيغت باسم معاهدة تحالف و صداقة بين فرنسا وسوريا.

(4) الوفد هو وفد الكتلة الوطنية الذي عقد المعاهدة، وغارو تذكير بأعمال الجنرال غورو الذي احتل دمشق عام 1920.

(5) يقصد سلخ لواء الاسكندرون

لنـــــــــــــــــــــــــــــــا

ثم يخاطب الكتلة الوطنية:

قالوا: الجزيرة لا ترضى بحكمكم ما في الجزيـرة الا الـنفط والقـار
ديار عمـر بـن كلثـوم يعيـث بهـا بهــزل دهــرك اســكاف وخمــار
من لاجىء ودخيل وابـن سـابلة في ظهره من سياط التـرك اثـار
طي وتغلب هل نامت فوارســها فصال يرهج في الميدان حمـار؟

.... الخ

ومــع ذلــك اســتمر جميــل مــردم بــالتفريط بحقــوق الــبلاد ومصــالحها، فأقــدم علــى توقيــع امتيــاز اتفــاقيتي البتــرول والبنــك السوري مرضاة وممالأة للاســتعمار الفرنســي، ليبقــى فــي دســت الحكم والسلطة وجر المغانم وايفاء الـديون وجمـع الثـروة، وقـد وقـع اتفاقية البنك السوري حين كان وزيـرا للماليـة بالوكالـة نظـرا لغيـاب شكري القوتلي وزير المالية فـي الحـج فاسـتقال شـكري القـوتلي في 1938/3/21 بعد عودته من الحج، ومن الطريف أن نقرأ مـا كتبـه في مذكراته عن سـبب هـذه الاسـتقالة زميلهمـا فـي الـوزارة عبـد الـرحمن كيـالي [6] اذ قـال: "ان السـيد شـكري حـرد علـى تصـرف جميل مردم بك أثناء وكالته لوزارة المالية واتفاقه مع البنك السـوري قبل عودته من الحج، اذ كان يود هو بذاته أن يتم الاتفاق ويوقعه".

ومن المفيد أن نذكر هنا باختصار - ولنا عودة مفصلة الى هذا الموضوع - ان انشاء بنك فرنسي في سورية لاصدار النقد السـوري واســتغلال مـدخرات سـورية كـان أحـد شــروط الانـذار الـذي وجهـه الجنـرال غـورو الـى الملـك فيصـل، ثـم نفـذت فرنســا ذلـك بحكـم الاحتلال فأنشأت البنك الذي سمته مصرف سـورية ولبنـان، وكـذلك كانت سلطات الاحتلال الفرنسية قد رتبت مرور الـنفط العراقـي مـن سورية وحددت نصيب الحكومة السورية من عائـدات المـرور باعتبـار انه كان لفرنسا حصـتها فـي شـركة بتـرول العـراق (اي بـي سـي)

(6) (المراحل - الجزء الرابع - ص 439)

وكان توقيع جميل مردم على ما سمي آنذاك اتفاقيتي البترول والنقد تثبيتا للأوضاع الاقتصادية التي فرضها الاحتلال واعطاء لها صفة الشرعية ولكن مجلس النواب السوري لم يوافق على الاتفاقيتين.

□

اضطر جميل مردم للاستقالة من رئاسة الوزارة في حزيران 1939 اثر المظاهرات التي عمت البلاد احتجاجا على ملاحق المعاهدة التي وافق عليها والتي قضت على البقية الباقية مما يمكن تسميته بالحكم الذاتي في سورية، وبعد أن بلغت دسائس ضباط المخابرات الفرنسيين الحد الذي انزلت فيه الاعلام السورية عن دار الحكومة في جبل الدروز، وبعد أن خطف الآشوريون في الجزيرة محافظها توفيق شامية، وبعد أن هدد محافظ اللاذقية احسان الجابري بالقتل.

□

بعد استقالة مردم عهد رئيس الجمهورية الى لطفي الحفار بتشكيل الوزارة فألفها من مظهر رسلان وفائز الخوري وسليم جنبرت ونسيب البكري، ولكن هذه الوزارة قدمت استقالتها تحت ضغط الفرنسيين، فكلف الأتاسي نصوح البخاري بتأليف الوزارة من محمد خليل المدرس وحسن الحكيم وسليم جنبرت، وكان البخاري قد اتفق مع المفوض السامي (بيو) على اصدار بيان يؤكد حرص فرنسا على تصديق المعاهدة، غير ان بيو سافر في اليوم الثاني لتشكيل الوزارة، فاضطر البخاري الى تقديم استقالته بسبب تحديات الفرنسيين المستمرة، واصدارهم القرارات التشريعية متجاوزين الحكومة ومجلس النواب، فأسرع المفوض السامي الى اصدار قرار عهد به بالسلطة التنفيذية وتحت اشرافه الى مجلس مديرين تشكل من مدراء مختلف الوزارات برئاسة مدير الداخلية العام بهيج الخطيب، كما أصدر قرارا يوم 1939/7/9 بحل مجلس النواب وتعليق الدستور، وبذلك انطوت صفحة معاهدة عام 1936.

□

وكما استغل الفرنسيون أخطاء الكتلة الوطنية وانحرافاتها ليبرروا نكولهم عن ابرام المعاهدة والعودة الى حكم البلاد المباشر، كذلك فعل الانكليز في مصر، رغم ابرامهم معاهدة 1936 مع حكومة حزب الوفد، اذ استغلو أخطاء الوفد لتشديد قبضتهم الاستعمارية على مصر بواسطة الملك فاروق.

كان بنيان حزب الوفد بمصر متشابها مع بنيان الاحزاب الأخرى في البلاد العربية، وكانت تلك الأحزاب الوطنية تمثل مرحلة من مراحل التطور في المجتمع العربي، وبالمقابل كان للاستعمار أساليب واحدة في التلاعب بتلك الأحزاب للهيمنة على مقدرات العالم العربي، لذلك كان حكم الوفد في مصر شبيها بحكم الكتلة الوطنية في سوريا، وبتاريخ 1937/12/31 وجه الملك فاروق الى مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة الوفدية الكتاب التالي:

"عزيزي مصطفى النحاس باشا

نظرا لما اجتمع لدينا من الأدلة على أن شعبنا لم يعد يؤيد طريقة الوزارة في الحكم، وأنه يأخذ عليها مجافاتها لروح الدستور، وبعدها عن احترام الحريات العامة، وتعذر ايجاد سبيل لاصلاح الأمور على يد الوزارة التي ترأسونها، لم يكن بد من إقالتها تمهيدا لاقامة حكم صالح يقوم على تعرف رأي الأمة، تستقر فيه السكينة والصفاء في البلاد، ويوجه سياستها خير وجهة في الظروف الدقيقة التي تجتازها".

وبأمر ملكي آخر تألفت وزارة محمد محمود باشا.

8

1936 - 1937 : التجربة والخطأ

في الحزب السوري القومي:

إن التأييد الشعبي العارم للكتلة الوطنية، والطوفان البشري الذي صاحب توديع الوفد السوري المفاوض الذاهب إلى باريس ثم استقباله، لم يمح من نفسي انعكاسات موقف قيادات الكتلة خلال الاضراب الستيني عندما حاولت هذه القيادات أن تنهي الاضراب، ولكن الشعب أجبرها على الذهاب به إلى نهايته، مما أدى إلى قبول فرنسا بالتفاوض لعقد معاهدة عام 1936، ولكن كان هنالك تشاؤم كبير من جدوى المفاوضة مع فرنسا ومن نتائجها المرتقبة، وشك عظيم بإمكان خطوات جدية على درب الاستقلال والوحدة السورية، وكان هذا التشاؤم والشك يزداد كلما مرت الأيام على تجميد الوفد المفاوض في زوايا الاهمال بدوائر باريس السياسية.

لقد أصبحت أعتقد بعد تجربتي وانغماسي في أحداث الاضراب الستيني في دمشق بأن القضية الوطنية والحياة السياسية في سوريا بحاجة إلى تنظيم حزبي على مستوى العصر والأحداث، وكنت أجاهر بهذه الأفكار رفاقي الثلاثة الذين كانوا يشاركونني السكن في بيتنا الطلابي الصغير.

□

قبل وفاة الدكتور عبد الرزاق الدندشي كان بعض الأمل معقودا على عصبة العمل القومي، ومرد ذلك أنها حزب عربي جديد بقيادة شابة تلتقي مع طموح الشباب العربي المتمثل آنذاك بنادي المثنى بن حارثه في العراق، لكن وفاة الدندشي، وانتقال قيادة العصبة إلى صبري العسلي وحلمي الأتاسي أزال من نفسي كل أمل بهذه المنظمة، وأصبحت الكتلة الوطنية بنظري خيرا منها.

في تلك الفترة زارنا في بيتنا الطلابي بدمشق سروري البارودي. وهو من أصدقاء الطفولة في دار العلم والتربية، ثم فرقت بيننا الأيام حيث انتسب هو للجامعة الأميركية ببيروت، وغاب عني تلك السنين الطويلة التي لم أكن ألقاه خلالها إلا صدفة، وعندما انفرد بي البارودي في إحدى غرف المنزل، أخرج من حقيبته عددا من مجلة "المعرض" التي كانت تصدر في بيروت وقدمه إلي.

كنت في الماضي أقرأ مجلة "المعرض" باستمرار، وكنت أحترم صاحبها ميشيل زكور لنزعته الاستقلالية الحرة، وكان هذا العدد من المجلة عددا مخصصا للحزب السوري القومي الجديد في لبنان، والتعريف بمبادئه ومقالات أركانه وخطابات زعيمه وأنباء محاكماته، وقد كانت الصحف تتحدث باستمرار، منذ عام 1935 عن اكتشاف السلطة الفرنسية في لبنان هذا الحزب السري وملاحقة أعضائه ومحاكمتهم، وكنا نقرأ تلك الأخبار ونحن نشعر بالدهشة والاستغراب والتفاؤل لظهور حزب في لبنان، يقف بهذه الصلابة والجرأة، مع ثقافة عالية ودقة في التنظيم، ليناضل في سبيل الاستقلال ووحدة سورية التي كانت هدف المرحلة لجميع القوى الوطنية في سورية.

□

في تلك الأيام لم يكن خطر لبنان بنظر السوريين أنه طريق للاستعمار فحسب بل كان ثمة ما هو أخطر من ذلك وأشد مرارة. إن لبنان بقطاعه المسيحي الماروني بصورة خاصة يؤيد فرنسا ويحبها بمشاعر صادقة ويعتبرها الأم الحنون، وقد كان أقصى أماني هذا القطاع من الرأي العام اللبناني أن تعتبر فرنسا لبنان جزءا منها، مثلما فعلت بالجزائر.. وكان العلم اللبناني وهو العلم الفرنسي تتوسطه أرزة لبنان رمزا لتطلعات قسم كبير من اللبنانيين نحو فرنسا، وكثيرا ما جاهر بعض السياسيين اللبنانيين بتمنياتهم أن تعتبر فرنسا بلدهم جزءا منها... وهذه العواطف كانت ثمرة طبيعية لما اصطنعته مدارس فرنسا التبشيرية خلال ثمانين عاما، وما هيأته تدخلاتها السياسية المستمرة باسم حماية المسيحيين في عهد الخلافة العثمانية ولحسن الحظ فإن

الفرنسيين لم يحترموا هذه العواطف بل تصرفوا تجاهها تصرف المستعمر، وكان جل همهم أن يستغلوا هذه العواطف الطائفية لتشديد قبضتهم الاستعمارية وترسيخ أركان استعمارهم في سوريا التي كانوا يعتبرون أن وجودهم فيها حلقة متصلة بوجودهم في مناطق أمبراطوريتهم الاستعمارية الأخرى في مراكش والجزائر وتونس والهند الصينية. (راجع مذكرات كاترو).

لقد كان لبنان ولا يزال، بحكم موقعه وذكاء أبنائه ورقيهم وانفتاحهم على حضارة الغرب، من أهم المواقع العربية في المشرق يؤثر فيه سياسيا وقوميا وفكريا واقتصاديا، وفي تلك الفترة لم يكن لبنان ممرا للاستعمار فحسب منه عبرت قوات الجنرال غورو لاحتلال سوريا عام 1920، بل كان في نظر الرأي العام في سوريا مستقرا لهذا الاستعمار، لذلك اعتبر ظهور هذا الحزب المفاجيء في لبنان آنذاك ضربة مسددة لصميم الاستعمار الفرنسي.

ما هي مبادئ الحزب التي قرأتها في تلك الليلة من عام 1936 في مجلة المعرض بنهم ودهشة؟

مجمل مبادئ الحزب الأساسية هي أن سوريا للسوريين. والسوريون أمة تامة، وأن القضية السورية قضية مستقلة بذاتها، والوطن السوري بحدوده المعرفة في المؤتمر السوري الأول الذي عقده الملك فيصل، وفي دستور الجمعية التأسيسية عام 1928- يمتد من جبال طوروس شمالا إلى العقبة وشبه جزيرة سيناء جنوبا، ومن المتوسط غربا إلى العراق شرقا.

أما المبادئ الاصلاحية للحزب فتنص في مجلمها على فصل الدين عن الدولة والسياسة والقضاء، ورفع الحواجز بين مختلف الطوائف، وإلغاء الاقطاع...الخ. وأما تنظيم الحزب فهو سري وشبه عسكري.

كانت خطابات الزعيم أنطون سعادة والمقالات المنشورة في المجلة على مستوى فكري وثقافي يتجاوز كثيرا ما كان يكتب

أو يصدر عن الأحزاب والهيئات السياسية آنذاك، ولم تكن المبادئ الاصلاحية موضع اعتراض، هكذا كان وعي المرحلة في نظرنا آنذاك، كما لم يكن التنظيم شبه العسكري والسري بشاراته النازية والماسونية ليثير أي اعتراض أو انتباه، لأن تلك الشارات كانت تعتبر من علائم السرية ودقة التنظيم وحسن الانضباط، وبلغ تاثر الحزب السوري القومي بالحزب النازي الألماني لدرجة أن الشاعر سعيد عقل الذي كان يقال آنذاك انه منتسب إلى الحزب السوري القومي قد وضع نشيدا للحزب جاء فيه أن سورية فوق الجميع على غرار النشيد النازي: "المانيا فوق الجميع"، كما لم تكن ديكتاتورية الزعيم الذي يجمع كل السلطات التشريعية والتنفيذية في يده وحده مدعاة للاستنكار بل كانت من الأمور التي تجذب اليها الرأي العام المعجب بتنظيمات الحزب النازي والمتعاطف مع ألمانيا الهتلرية لأنها ضد فرنسا وبريطانيا والحركة الصهيونية، ولكن الفاشية الايطالية كانت وحدها المكروهة والمحتقرة لأنها تتمثل بإيطاليا موسوليني عدو العرب ومستعمر ليبيا والحبشة بأفظع أنواع الاستعمار وأشرسه.

والذي أثار انتباهي واعتراضي بشكل غير محدد، ليس الشق الأول من مادة "سوريا للسوريين" بل الشق الثاني الذي ينص على أنه "الأمة السورية أمة تامة"، لا سيما وقد جرت في الصحافة السورية بعض المناقشة لمبادئ الحزب الجديد ... وفي اليوم التالي ناقشت البارودي بهذا الأمر فقال: إنها مرحلية وإن قيام الوحدة السورية اللبنانية والإنطلاق منها هو الأساس في الاستقلال وبناء الوحدة العربية.

وهكذا ببساطة انتهى الاعتراض وتوقفت المناقشة، أما فكرة القومية العربية التي كانت مزيجا من المشاعر الوطنية والدينية والتراثية فلم تكن فكرة قابلة للاعتراض أو المناقشة.

انتسبت أنا وبعض رفاقي لهذا الحزب. ولم نكن ندري أو لم نخبر عن أي تنظيم آخر له في سوريا. وبعد شهور عرفنا بأن الدكتور وجيه البارودي هو منفذ الحزب في حماه، وأن خالد الموره لي منفذه في دمشق.

حملة في حماه ضد الحزب السوري القومي.

أصبح شباب "الصفة" في حماه منقسمين إلى ثلاثة اتجاهات، في معركة انتخابات 1936 النيابية:

1- المؤيدون لترشيح الدكتور محمد السراج للنيابة، وقد أخذوا اتجاها معارضا للدكتور توفيق الشيشكلي الذي كان يدعو لترشيح محمد البارودي من قادة الكتلة الوطنية.

2- شباب الكتلة الوطنية الذين يؤيدون توفيق الشيشكلي في دعوته لترشيح محمد البارودي.

3- أعضاء الحزب القومي السوري الذي لم يعد تنظيما سريا في حماه بعد أن انتسب إليه عدة مئات.

وكانت مناقشات ودية وحضارية تدور بين هؤلاء الشباب رغم تعدد اتجاهاتهم غير أنها خلال عام 1937 انقلبت إلى مقاومة ضارية ضد انتشار الحزب السوري القومي بالاعتداء على أعضائه[1] ومداهمة منازلهم وإجبارهم على الانسحاب من الحزب علنا والقسم على القرآن توثقا من انسحابهم. فاضطرت الأكثرية الساحقة أن تعلن انسحابها مع انه لو ترك الحزب في حدود المناقشة والحوار والإقناع لا نحل في حماه من تلقاء نفسه، لسببين رئيسيين:

أولا: الشائعات التي كانت تنشرها الصحف متهمة الحزب بالاتصال بإيطاليا، وبالرغم من عدم قيام دليل على ذلك فإن هذه الاتهامات فعلت مفعولها ولوثت سمعة الحزب.

ثانيا: عدم الاقتناع بالقومية السورية، والشعور بالغربة والوحشة نفسيا داخل الحزب، ولذلك أصدرت بيانا، بعد أن أصبحت

(1) من ذلك الهجوم على منزل الشاعر الكبير الدكتور وجيه البارودي الذي كان عضوا في فرع الحزب السوري القومي في حماه، وكان هذا الهجوم بتشجيع من حكومة الكتلة الوطنية، والدكتور البارودي طبيب لامع وشاعر جيد وهو من أسرة إقطاعية ولكنه عايش فقراء مدينة حماه، شكل مع رفاقه الشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان والشاعر العراقي حافظ جميل والناقد اللبناني عمر فروخ في الجامعة الأمريكية جمعية أدبية أسموها دار "الندوة". نشر الدكتور البارودي ثلاثة دواوين شعرية هي: "بيني وبين الغواني" و "هكذا أنا" و "سيد العشاق" ويعتبر الدكتور البارودي من الشعراء المحدثين السوريين المجيدين: نزار قباني، عمر أبو ريشه، بدوي الجبل نديم محمد، سليمان العيسى.

منفذا للحزب في حماه، أعلنت فيه أن الحـزب عربـي وأن القوميـة السورية مرحلية لتحقيق الوحدة السورية، ولكن قيـادة الحـزب لـم تكن راضية عن إصدار هذا البيـان فـي غيبـة أنطـون سـعادة خـلال سجنه للمرة الثانية، ومع ذلك فقد اضطر صلاح لبكـي نائـب زعـيم الحزب، أمام ضغوطنا، أن يعمم نشرة داخلية يتبنـى فيهـا القوميـة العربيـة، ولكـن سـرعان مـا اختلـف الأمـر بعـد خـروج سـعادة مـن السجن.

إن هذا الضغط لـم يـذهب عبثـا. فقـد أصـدر أنطـون سـعادة للمرة الأولى بيانا يعلن فيه بأن الأمة السـورية هـي إحـدى الأمـم العربية، وأنه يدعو لإقامة جبهـة عربيـة تصـد الفـاتحين وتقـف أمـام الغزوات الأجنبيـة، وجمـد الحـزب عنـد هـذا الحـد فـي موقفـه مـن العروبة، محتفظـا بمبادئـه الأساسـية. بالوقـت الـذي اصـبحت فيـه دعوته تتعرض للنقـد الشـديد شـيئا فشـيئا بعـد اسـتشـراء الخطـر الصهيوني في فلسطين وطمع تركيا بلواء الاسـكندرون، ولا يمكـن لغير القومية العربية أن تقف أمـام هـذه المخـاطر التركيـة والغربيـة والصهيونية على سوريا خاصة وعلى العرب عامة.

وقد أصدر جماعـة "القـومي العربـي" فـي 27 نيسـان 1939 كراسا عنوانه "التربية السياسية في سوريا". وهـؤلاء مـن جماعـة الأستاذ زكي الأرسوزي، وأعتقد أن هـذا الكـراس صـدر معبـرا عـن آرائه وجاء فيه:

"والذي نعتقده إن في المستقبل القريب أو البعيـد سيضـطر القائمون على إدارة الحزب -القومي السوري- إلى تعديل مـوقفهم من القضية العربية تعديلا جوهريا. وسيرون أن مصلحة سوريا التي يعملـون لهـا، والتـي يعتبرونهـا فـوق كـل مصـلحة. تقضـي بـأن لا تستقل عن القضية العربية التي فيها خلاصنا".

□

كان مفهوم القوميـة السـورية يرتكـز علـى جغرافيـة سـورية وعلـى تاريخهـا الـذي هـو سلسـلة مـن الحضـارات القديمـة التـي تعاقبت عليها والتي لم تعد تتصل بلغة المواطن وثقافته ومشاعره

وواقعه اتصالا حيا، إنها سلسلة طويلة من الحضارات التي ترجع إلى العهد الحثي أو الفنيقي أو الروماني، فكان العربي يشعر بغربة داخل هذا الحزب، وكأنه من ناحية شعوره القومي يجتاز أروقة متحف وهو يردد مع أبي الطيب المتنبي:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

ومع أن حملة الكتلة الوطنية ضد الحزب في حماه قد توقفت بعد أن أعلن الكثيرون من منتسبيه انسحابهم، وبعد أن أظهر الرأي العام وبعض شباب الكتلة الاكثر نزاهة وتقدمية اشمئزازهم من تلك الحملة، فإنني أعلنت حل الحزب في حماه أواخر عام 1937 وانتهى الأمر -بالنسبة لي- على الصعيدين الحزبي والسياسي.

ما يبنى على الفراغ

شرح أنطون سعادة مواد دستور الحزب السوري القومي بالطبعة الأولى لمبادئه في كراس صغير، فكشف فيه عن منشأ تصوره للقومية السورية، وهو تصور يستند إلى جدلية هيغل التي يعبر عنها عادة بالثلاثية الشهيرة: القضية These، نقيضها antithese ، التركيب synthese. يقول سعادة:

"إذا كانت النعرة الفنيقية these والنعرة العربية antithese أو بالعكس، أي إذا كانت النعرتان الدينيتان تضعان نظريتين متعارضتين، فمما لا شك فيه أن مبدا وحدة الأمة السورية المؤلفة من عدة عناصر أو سلالات من جميع العناصر التي كونت في مجرى التاريخ المزاج السوري والطابع السوري والعقلي هو المبدأ الذي يقدم synthese أو دمج النظريتين المتعارضتين وجعلهما نظرية واحدة ومذهبا واحدا هو القومية".

لا أريد أن أقف طويلا عند هذه المعادلة الواهية لتصور القومية السورية لأن القومية ليست مجرد إدعاءات وافتراضات ونظريات بل هي هوية واقعية مادية وروحية، فهي هوية جنس ولغة ومصلحة وثقافة تمثل حضورا حيا ماثلا.

إن المعادلة الواقعية المنطقية والحقيقية ليست معادلة سعادة بل هي المعادلة التالية

1- these : يوجد عرب مسلمون

2- anatithese : يوجد عرب مسيحيون

3- إذن فإن synthese : ليس بمحاولة خلق قومية جديدة - وهذا مستحيل- وإنما يكون بالقومية العربية ذات المضمون التحرري الاجتماعي والسياسي والانساني.

لبنان والحزب القومي السوري.

لقد تبلورت النزعة الاستقلالية بين شباب لبنان المسيحي، في الثلاثينات، بحزبين اثنين: الكتائب والسوري القومي، ولا يزال هذان الحزبان قائمين منذ أربعين عاما. لأن حزب الكتائب يتصل بالعصبية الطائفية من جهة المحافظة على كيان لبنان بمعنى المحافظة على طابعه الماروني الطبقي المنفتح على الغرب المسيحي. أما الحزب السوري القومي- الذي جذب إليه آنذاك من شباب لبنان على مختلف طوائفهم أكثر مما جذب إليه أي حزب آخر- فإنه اتصل بضمير فئات الشباب التي بدأت تتطلع إلى الاستقلال والحرية والكرامة وتطمح لمعالجة العلل الاجتماعية والطائفية والعشائرية والاقطاعية التي لا يزال المجتمع اللبناني يعيش ضمن جدرانها[2] الفولاذية، كما استجاب الحزب السوري القومي لنزعة عميقة لدى قطاع هام من الرأي العام المسيحي في لبنان، الذي يشعر بقرابته وارتباطه بسوريا ويرى فيها مدى نشاطه الطبيعي والحيوي في المستقبل.

كان ذلك في أواسط الثلاثينات: فما هي المعادلة القومية التي ستستقطب الجيل الجديد في لبنان بعد أربعين عاما من التطور؟ لا شك إنه اليسار العربي في لبنان الذي أخذ يستقطب الآن من العناصر الشابة ما استقطبه الحزب السوري القومي فيما مضى عندما انتسب إليه نعمة تابت وصلاح لبكي وأمثالها من

(2) كتبت هذه الفصول من المذكرات في أوائل السبعينات.

مئات الشباب المنحدرين من أعرق أسر لبنان المسحيية. إنه خط سير التاريخ المندفع إلى الأمام أبدا مهما تعرج أو التوى.

اجتمعنا في أوائل عام 1953، عندما كنا لاجئين في لبنان خلال ديكتاتورية أديب الشيشكلي، بالشيخ بيار جميل رئيس حزب الكتائب، في صيدليته بساحة البرج، وكان معي الأستاذان ميشال عفلق وصلاح البيطار. فجرى بيننا حوار حول القومية العربية والقومية الفنيقية واللبنانية. وقد كان بيار جميل في حواره معنا صادقا وصريحا.

سألته: هل أنت تؤمن حقا بالقومية الفنيقية أو اللبنانية؟ أليس اللبنانيون عربا؟ فأجاب: ليس هناك قومية لبنانية ولا فنيقية ولكني أقول لكم بصراحة.. نحن اللبنانيين نخشى منكم أنتم العرب (يعني المسلمين) أن تعتدوا على حرياتنا الدينية التي نقدسها ونقاتل من أجلها.. إن حفاظنا على كيان لبنان يساوي بنظرنا محافظتنا على مقدساتنا الدينية، كما فهم من كلامه ان لديه تصورا مبالغا كثيرا عن تخلف العرب عامة.

قلت له: هل يمكنك في المستقبل أن تمنع هذه الأجيال الصاعدة أن تستفيق على قوميتها فتدرك مصالحها الحقيقية وترجع مختارة وعن اقتناع إلى القومية العربية؟ قال: إن الأجيال القادمة حرة بانتهاج الطريق الذي تراه منسجما مع قناعتها، قلت له: نحن غير مختلفين أصلا على المحافظة على استقلال لبنان وكيانه.

التجربة والخطأ:

لم يجد الخصوم في سيرة حياتي غير التركيز على استغلال انتسابي للحزب السوري القومي في عام 1936. ولكن هذا التركيز لم يترك أي أثر على المستوى الشعبي والجماهيري[3] . بل إن نجاحي في انتخابات عام 1943 أظهر أن الشعب يكن لي حبا وتأييدا ودعما يفوق ما كنت أنتظره.

(3) ولم يتوقف ذلك حتى ما بعد هزيمة حزيران، فقد ألف باتريك سيل وهو صحافي من عناصر المخابرات البريطانية كتابا أسماه (الصراع على سوريا) غمز فيه من قيادتي لحركة الفلاحين في

ولم تترك هذه التجربة في نفسي أي عقدة، بل كان لها نتائج ايجابية هامة على المستوى الشخصي والشعبي، ومنها:

أولا: أوصلني انتسابي للحزب السوري القومي على الشكل الذي ذكرت، لفهم مشاكل لبنان وتطلعاته ما لم يتيسر لغيري من الساسة السوريين فهمه وسبره، وتفهمت تكوين المجتمع اللبناني وخلفياته الاجتماعية والاقتصادية، وعرفت تطلعاته وعلله وآفاقه وأمراضه. ومع ذلك فإن هذا الفهم لم ينجنا من ارتكاب بعض الأخطاء بالنسبة للبنان مما سيرد في حينه.

ثانيا: اتسعت آفاق إدراكي السياسي والوطني والقومي من قراءاتي لكل ما أصدره الحزب في تلك الفترة من نشرات وبيانات وكتب[4] باهتمام وتدقيق، مع الحوار والنقاش المستمرين طيلة فترة انتسابي للحزب، ولم تعد القومية عندي مجموعة مشاعر وجدانية غامضة وشعارات غائمة بل أصبحت أتطلع إلى أسس واضحة محددة للقومية العربية التي أؤمن بها.

ثالثا: أوضحت تلك التجربة العاهة الرئيسية التي تعاني منها أغلب الأحزاب العربية، وهي عاهة **نشوء الأحزاب من فوق، منطلقة من الأوساط الثقافية والجامعية والطلابية بمعزل عن النضال الحي لجماهير الشعب. الأمر الذي يجعل هذه الأحزاب تنسلخ عن ضمير الأمة لتدور في الفراغ وتناضل داخل عالم الكلمات لا عالم الواقع، وهذا ما يولد لدى قياداتها مركبات النقص المعروفة، كالعصمة والغرور والتعالي. فيصبح الحزب جماعة من المريدين يكرهون الجماهير الشعبية ويخشونها بأعماقهم.**

إن الحب العظيم هو المنطلق العميق لكل الثورات التي أثرت في مجرى التاريخ. وإن الاستعلاء على الشعب والخوف منه

صراعهم ضد الاقطاع وروى فيه إدعاءات على لسان حسني البرازي كما روى أقوالا غير صحيحة على لسان غسان التويني صاحب جريدة النهار الذي قال انني بقيت منتميا للحزب السوري القومي سرا حتى الأربعينات.

(4) ككتاب نشوء الأمم لأنطون سعادة، وقد تكون مكتبة الحزب السوري القومي أغنى مكتبة بالنسبة للأحزاب الأخرى آنذاك.

والإدعاء بالعصمة هو مقتل الحركات السياسية وهو السر وراء انحرافاتها.

إن المعلم الأكبر هو الشعب لا سواه.. والقائد الحقيقي هو الذي يصبح رفيقا للشعب يستلهم من ضمير الجماهير صبواتها وتطلعاتها وأمانيها وآمالها. إن الشعوب هي الملهمة، والقيادة هي المفكرة والمنفذة.

وتبقى كل النظريات والايديولوجيات التي لا تنبثق عن التجربة والنضال مع الجماهير تأملات شخصية مهما بدا براقا بناؤها الفلسفي والفكري ولا أدل على ذلك من أن الأحزاب الشيوعية العربية رغم أنها تستند إلى النظرية الماركسية فقد ظلت خمسين عاما في البلاد العربية معزولة على هامش الأحداث، بل كانت معظم مواقفها الفاعلة في الجانب الآخر من حركة التاريخ.

رابعا: ليس التنظيم الحزبي انضباطا عسكريا أو رياضيا أو إرهابيا مفروضا، بل إن التنظيم الحزبي هو انضباط واع منبثق عن اقتناع ذاتي بقيم الحزب العقلانية والوجدانية.

في أواخر شهر آب 1937 جاء انطون سعادة إلى حماه، ونزل ضيفا على صلاح، شقيق أديب شيشكلي، في بيته، فاجتمعت به هنالك حيث حاول أن يبحث معي إعادة تنظيم الحزب في المدينة، ولكنني أصررت على الانسحاب نهائيا.

لا شك أن عبادة الفرد والنزعة الرومانسية والنرجسية والانطلاق من "العصمة الفردية" ما تزال من أبرز أمراض القيادات العربية السياسية، فهي الآفات التي ما تزال آثارها تنخر حتى الآن في بنيان الاحزاب اليمينية والتقدمية على السواء.

9

1938: تشـكيل حـزب الشـباب - الأمـة العربيـة الخالدة ورسالتها الإنسانية السامية

قضية الدكتور محمد السراج تولد جرحا عميقا في القاعـدة الشعبية الكتلوية في حماه.

كانت الانتخابات التي جرت عام 1936 أحد أسباب الانقسام الذي أشرت له سابقا فـي صـفوف شـباب مدينـة حمـاه وطليعتهـا المثقفة، ففي تلك الانتخابات تطلعت الأنظـار إلـى محمـد السـراج بعد أن عاد من فرنسا وهـو يحمـل شـهادة دكتـوراة فـي الحقـوق. فكانت الظروف مؤاتية لأمل بعـض العناصـر الشـعبية داخـل صـفوف الكتلة لترشيحه للانتخابات النيابية، فقد كان شابا خلوقا متواضعا، مـن بيـت شـعبي متعلمـا، لـه نشـاط فـي حقـل العمـل الـوطني. وخلال سنواته الدراسية في فرنسا كانت الصحف السـورية تنشـر بعض الأخبار عن نشـاطاته السياسـية هنـاك بصـفته رئـيس لجنـة الطلاب العرب في مدينة تولوز. فحاول الدكتور توفيـق الشيشـكلي احتضانه وتبنيه. وإنني لا أزال أذكر تلك الحفلة التي أقامها الـدكتور توفيق في بيته للسراج، عند مجيئه لقضاء العطلة الصيفية بحمـاه سنة 1934. فقد امتدحه الـدكتور توفيـق وأثنـى عليـه. كمـا ألقـى السراج خطابا وطنيا كان موضع إعجاب المحتفلين به.

استمر احتضان الدكتور توفيق للسـراج إلـى مـا بعـد عودتـه نهائيـا مـن فرنسـا. وكـان الالتفـاف الشـعبي حـول هـذا الشـاب المتعلم القريب إلى الأوساط الشعبية يزداد يوما بعد يوم، خصوصـا بعـد أن أصـبح عضـوا فـي اللجنـة العليـا للشـباب الـوطني، وهـو التنظيم الذي تحدثت عنه فبـذل نشـاطا كبيـرا فيـه، ولكنـه نشـاط انحصر بإقامة الاحتفالات للمجموعات الكبيرة من الشباب الوطني، واسـتضافة أفواج منهم من دمشق وحمص وحلب، والبذل بسـخاء، وإنني لا أزال أذكر ذلك الاحتفال الكبير الـذي أقامـه فـي فنـاء خـان جده "أبي بكري" في حينا - وهو أكبر خان في حماه -. حيث غص المكان على رحبه بالضيوف المدعويين إلى الغداء، وقد زاد عددهم

على الأربعة آلاف، فكانت تلك الوليمة حديث المدينة، وقيل إن الدكتور محمد السراج أنفق عليها مبلغا من ماله، كان يعتبر كبيرا في ذلك الزمن، وكان الدكتور يملك قرية بيصين[1] ، إرثا عن جده.

انشقاق في صفوف الكتله بحماه:

وفي الانتخابات التي جرت أواخر عام 1936، عقب عودة الوفد السوري وعقد المعاهدة، دعت الكتلة الوطنية بحماه لتأييد قائمتها الموحدة المؤلفة من الدكتور توفيق الشيشكلي ونجيب البرازي ومحمد البارودي -وهو رجل وطني طيب ومتواضع- غير أن لفيفا من الشباب الشعبي والمتنور الملتف حول محمد السراج طالب بترشيحه بدلا من محمد البارودي، لكن قيادة الكتلة بحماه رفضت هذه الرغبة الشعبية التي كان يقودها الشباب بحماسة وإصرار، وكان قسم كبير من القاعدة الشعبية يعطف على السراج ويشعر بأنه أقرب إليه من الزعماء الآخرين، ويأمل منه خيرا.

كانت قيادة الكتلة مؤلفة من بضعة عشر شخصا، منهم الدكتور توفيق، ونجيب البرازي، ورئيف الملقي، ومحمد البارودي، ومصطفى الحوراني، وعبد الحسيب الشيخ سعيد وعثمان الحوراني، وعدد من وجهاء الزعامات الشعبية في الأحياء، وكان نفوذ الدكتور توفيق فيها أقوى من نفوذ البرازي لأنه أقرب إلى الشعب بينما يعتبر البرازي من الذوات. وهذا هو وضع الكتلة المتناقض كما تبلور بعد انتخابات 1932.

كان الدكتور توفيق يهدف من تشجيعه للسراج أن يجعله من أنصاره، لا أن يكون مزاحما له في قيادة المدينة وزعامتها، ولذلك أصرت الكتلة على ترشيح محمد البارودي، وأصر الشباب الشعبيون والمتنورون على ترشيح محمد السراج، وكانت التسوية التنازل عن الاثنين معا وترشيح الدكتور عمر الدلال.

---

(1) قرية تبعد عن مدينة حماه إلى الغرب ما يقرب من خمسين كيلومترا، تكثر فيها المزارات، وقد سمعت من عمي ياسين أن رجل دين من أهالي تلك القرية قد دعى إلى ترك المذهب النصيري والعودة إلى المذهب الجعفري، ولكنه قتل على يد بعض المتطرفين.

لم يخف نجيب البرازي تأييده لهذه التسوية، ظنا منه أن الدكتور الدلال الذي لم يكن له سابق نضال سياسي، سيكون في معيته تجاه نفوذ الدكتور توفيق ولكن الدكتور الدلال - وهو ابن الشعب الذكي - لم يحقق رغبة نجيب آغا، فكان موقفه في مجلس النواب على عكس ما أمل البرازي وانتظر.

ولدت قضية السراج جرحا عميقا في القاعدة الشعبية الكتلوية بحماه، وشرخا في بناء وحدتها زاد في تطلع العناصر الشعبية والمتنورة الشابة إلى تنظيم جدي بعد أن انسحب الدكتور محمد السراج من المعركة إثر التسوية وغادر حماه إلى دمشق فلبنان، وأرسل إلى أنصاره عشية الانتخاب البرقية التاليه:

"انسحبت باختياري احتراما لقرار مكتب الكتلة الوطنية العام، أرجوكم التصويت غدا لقائمة الكتلة بكاملها، المصلحة الوطنية فوق الجميع".

غادر السراج حماه، وبقيت العناصر الشابة التي التفت حوله تتطلع إلى تنظيم وقيادة جديدة وكان انشقاقها داخل صفوف الكتلة لا يزال في حالة التململ والتأزم.

الشباب في حماه يطالبون بأن يكون للكتلة الوطنية موقف محدد ومباديء واضحة حزب الشباب في حماه:

كان إجهاض ثورة 1936 في سورية وما تلاها من أخطاء بعض رجال الكتلة الوطنية وتهافتهم على الحكم، ثم نكول فرنسة عن تصديق معاهدة 1936 وحكمها البلاد حكما مباشرا، سببا في التفاف الشباب الشعبي والمتنور حول عثمان الحوراني والطلب منه أن يبحث مع الدكتور توفيق الشيشكلي - رئيس الكتلة الوطنية بحماه - بتحديد موقف حاسم: فإما أن تنظم الكتلة تنظيما حزبيا على أسس ومباديء واضحة محددة، وإما الانسحاب منها ... وهذا يعني المجابهة بين عقلية عثمان الحوراني وعقلية الدكتور توفيق المختلفة عنها تماما، فعثمان، وإن كان عضوا في قيادة الكتلة بحماه، كان يعتمد التنظيم الثوري السري، فهو قد بدأ حياته ثائرا، وقد استعرضت فصولا من حياته في الثورة السورية،

ولكنه كان ضعيفا في أوساط القيادات الكتلوية لأنهم كانوا أقوى منه وأكثر قدرة، وهذا ما مكن نجيب البرازي أن يستغل الوضع المادي لعثمان ومسؤولياته العائلية عندما رهن لديه بيته لقاء مبلغ من المال، مما جعلهما يشكلان طرفا داخل الكتلة الوطنية وهذا ما أضعف عثمان الحوراني في الأوساط الشعبية.

كان عثمان مقتنعا بوجهة نظر الشباب، لكنه تردد بمفاتحة الدكتور توفيق بالأمر، ثم ما لبث -تحت ضغط الشباب- أن تجرأ على مكاشفته، فاعتبر الدكتور توفيق هذا الطلب طعنة موجهة لزعامته، فصده وأسمعه كلاما قارصا.

أخبر عثمان هؤلاء الشباب بما جرى معه فلم يتراجعوا، واستمرت هذه الاتصالات بضعة شهور إلى أن وصلت إلى طريق مسدود يئس فيه عثمان الحوراني والشباب الملتفون حوله من إمكانية تنظيم الكتلة على أسس صحيحة بحيث تصبح منظمة نضالية شعبية قادرة على مجابهة الاستعمار الفرنسي.

اتصل بي عثمان بصفته أستاذا لي، فاستعرضنا أوضاع البلاد والتنظيمات الموجودة التي ثبت عجزها وقصورها وتباحثنا في إيجاد تنظيم جديد على أن يكون مؤلفا من :

أولا: تشكيل ثوري سري يتولى قيادته عثمان الحوراني الذي كان يلتف حوله مجاهدو ثورة 1925 بحماه وثورة 1936 بفلسطين ويحبونه ويثقون به، على أن ينضم إليه الشباب والمثقفون.

ثانيا: تشكيل سياسي علني.

ورأينا أن يكون هذا التنظيم محليا في المرحلة الأولى، ويرصد التنظيمات والحركات الثورية في البلاد، فإذا وجد في إحداها ما يلتقي مع أهدافه ومبادئه وأسلوبه يبادر إلى الالتحام معها في تنظيم واحد.

تم اتفاقنا على هذا الأساس . وقد كلفني عثمان الحوراني مع الاستاذ بدر الدين علوش الذي أصبح في أواخر حياته قاضيا

في محكمة التمييز بوضع منهاج الحزب ونظامه، وعندما أنجزنا هذه المهمة عرضنا المنهاج على الاستاذ عثمان ورفاقنا الآخرين فوافقوا عليه ...

منهاج حزب الشباب .

المادة الأولى: الجزيرة العربية: وطن العرب الأم منذ أقدم العصور، عمرت الشرق العربي بفيض من الهجرات الواسعة المتعاقبة على مختلف مراحله التاريخية. وقد أزال الفتح العربي الهجانة الاقليمية وآثار العجمة الشعوبية من الأقطار العربية. واستجلى باللسان العربي ظالمبين أسمى معاني القومية وأدق الخصائص العربية الأصيلة.

المادة الثانية: مؤسسات الشرق الروحية والأخلاقية والفكرية والحقوقية والفنية متحدة في أصولها العميقة على مختلف أدواره السياسية.

المادة الثالثة: القومية العربية إيمان وشعور عميق بعبقرية العرب الخاصة الممتازة، وعقيدة راسخة **بخلود الأمة العربية** التي ستسلك طريقها التاريخي العظيم وستؤدي رسالتها **الانسانية السامية للعالمين.**

المادة الرابعة: الشباب هيئة قومية سياسية غايته تحرير سوريا الطبيعية والاقطار العربية ونظمها في دولة واحدة.

1- سوريا وحدة لا تتجزأ، سوريا جزء من الأقطار العربية.

المادة الخامسة: تستمد الأمة، مصدر جميع السلطات، شكل الحكم الشعبي الجمهوري من تاريخها وعلى ضوء تجاربها واختباراتها وتقرره باختيارها وإرادتها.

المادة السادسة: الشباب هيئة كفاحية تقوم على أساس الايمان والطاعة والنظام.

1- تذوب مصلحة الفرد في مصلحة المجموع.

2- مصلحة الأمة فوق كل مصلحة.

المادة السابعة: الشباب هيئة اصلاحية تعمل على إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف الدينية والمذهبية والعنصرية.

1- لا طائفية ولا مذهبية ولا عنصرية.

2- من لا يستعرب عد دخيلا على الأمة.

المادة الثامنة: الشباب هيئة شعبية تعمل على انسجام المجتمع والقضاء على عقابيل القبلية والاقطاعية والفوراق الطبقية.

1- الأمة هيئة اجتماعية واحدة.

المادة التاسعة: البداوة خطر على مدنية الأمة العربية، فتحضير القبائل منبع من منابع قوتها وفتوتها وحافظ لأمنها واستقرارها.

المادة العاشرة: رفع مستوى المرأة وتحريرها من قيود الأسر والجهل والعبودية حتى تصبح عضوا صالحا في الهيئة الاجتماعية في نطاق مواهبها ووظائفها الطبيعية، وتمتين أواصر الأسرة وتشجيع الزواج وتكاثر النسل.

المادة الحادية عشرة: الأحكام الحقوقية الدينية والتاريخية مصدر رئيسي من مصادر تشريع الأمة بالنسبة لماضيها وواقعها الحي.

المادة الثانية عشرة : معاش الفرد وصحته وتعليمه بضمان الدولة.

المادة الثالثة عشرة : إنصاف العمل وحفظ حقوق المنتجين من الفلاحين والعاملين.

المادة الرابعة عشرة: تحديد حق ملكية الأراضي وتوزيعها توزيعا عادلا بين المواطنين.

1- ملكية اراضي الدولة حق للمستثمرين بأنفسهم مباشرة.

2- الأوقاف الطائفية ملك الدولة.

المادة الخامسة عشرة: تشجيع الهجرة من المدن للقرى والمزارع وتوزيع كثافة السكان توزيعا صحيحا.

المادة السادسة عشرة: تجفيف المستنقعات وتعميم الري والسقاية والغرس والتحريج وبناء القرى النموذجية وفتح المدارس الزراعية والصناعية وتعميم الآلة الحديثة بالزراعة والصناعة.

المادة السابعة عشرة: للدولة حق الاشراف والرقابة على جميع المؤسسات الصناعية الكبرى ويمكنها أن تتملك بعضها باسم الصالح العام عند الضرورة.

المادة الثانية عشرة: التعليم قومي والزامي تحت إشراف الدولة ورقابتها.

وقد وضعنا في آخر المنهاج مادة -حذفت فيما بعد- تقول إن تنظيمنا هو تنظيم محلي مؤقت مستقل يعمل جاهدا للاتفاق مع الحركات السورية والعربية الأخرى التي تماثله في أهدافها ومبادئها وتلتزم بخط سيره. ولا شك أن هذا الانطلاق كان منذ البداية من جملة ما أدى إلى اندماج حزبي البعث والعربي الاشتراكي فيما بعد.

تكوين حزب الشباب

ضم هذا التنظيم الجديد مئات من أبناء المدينة من كافة القطاعات الشعبية: مجاهدين وطلاب وأساتذة وخريجين وعناصر شعبية، وكان الطابع الغالب عنصر الشباب، فقد انضم إلى هذا التنظيم معظم شباب "أهل الصفة" ما عدا الشيخ عبد الرحمن خليل وبعض رفاقه، لأنه لم يكن قانعا بأن هذه المنظمة يمكنها أن تأخذ مكان الكتلة في قيادة الحركة الوطنية، وكان يخشى وقوع انقسام في الصف الشعبي، يضاف إلى ذلك صداقته الحميمة مع الدكتور توفيق، وحذره الشديد من علاقة الاستاذ عثمان مع نجيب البرازي.

انصرف الأستاذ عثمان للاهتمام بشؤون التنظيم الثوري. أما التنظيم السياسي فقد تولته هيئة مؤلفة من: عبدالستار البارودي أمينا للسر، والدكتور فايز الأسود أمينا للصندوق، وأكرم الحوراني وسعد الدين الخاني وعلي عدي وبدر الدين علوش وعبد الرحمن الشارع (ابو رميح) وعثمان الحوراني والدكتور نجيب عبدالرزاق والصيدلي عبد الحميد عدي.

كان أول اشعار عملي بتشكيل هذا التنظيم هو الخروج بحشد من جامع السلطان لزيارة **قبور الشهداء، وكان ذلك رمزا للأسلوب الثوري الذي نراه طريقا وحيدا لتحرير البلاد.**

وقد امتعضت الكتلة من هذه البادرة واعتبرتها تحديا، لا سيما وأن مكتب المحامي رئيف الملقي كان مقابلا لباب الجامع،

وعند خروج الموكب صادفنا الدكتور عمر الدلال فانضم إلينا رغم أنه نائب وعضو في قيادة الكتلة، وكان رجلا سمحا طيبا رحب الصدر.

كان موكبا جميلا رائعا سار فيه الطلاب والشباب مع قدامى الثوار، وكانت القيادات الشعبية الثورية متميزة بلباسها وسيمائها عن الجيل الجديد، ولا زلت أذكر حماسة الحاج مصطفى الغبش، ذلك الشخص الطويل العريض الذي كان يحمل عصا ضخمة لا يفارقها أبدا.

زرنا قبور جميع شهداء المدينة الذين ضحوا بأرواحهم في ثورات سوريا المتعاقبة. **وكانت تلك الجولة خير فاتحة لميلاد حزب شعبي تحرري، سمي فيما بعد في بداية الخمسينات الحزب العربي الاشتراكي.**

محاولة فاشلة:

أخبرنا الاستاذ عثمان بأن عددا من شباب الكتلة الوطنية بدمشق، وعلى رأسهم منير المالكي أنشأوا تنظيما جديدا مستقلا عن الكتلة الوطنية، واقترح سفري مع بدر الدين علوش إلى دمشق للاتصال بهم.

عقدنا عدة اجتماعات في بيت القضماني بحي الميدان مع منير المالكي وعبد الرحمن عيد ورفاقهما، وبعد تلك الاجتماعات شعرنا بأن هذا التنظيم ما يزال تابعا للكلتة بعد انهيارها وانكشاف أمرها.

وقبل عودتنا إلى حماه اقترح علي الاستاذ بدر أن نزور الدكتور توفيق في مكتبه بالمجلس النيابي حيث كان أمينا لسر المجلس ونتباحث معه لنتفادى الصدام مع الكتلة الوطنية في ذلك الظرف العصيب، فاستقبلنا بترحيب ومحبة تجلت في كلامه وإمارات وجهه، وقال أنه يوافق على تنظيم الشباب شريطة أن يسير هذا التنظيم بخط متواز مع خطه، حرصا على الوحدة الوطنية و "الوضع الاجتماعي". وقد استعمل هذا التعبير بالذات قائلا إن حماه ضحت كثيرا في سبيل الوصول إلى هذا الوضع وإنه يخشى أن يستغل "الذاوات" هذا الانشقاق في القاعدة الشعبية.

وقدرت أنه أراد أن يغمز من الاستاذ عثمان الحوراني، فأكدنا له أن من أهم مآخذنا على الكتلة الوطنية بحماه احتضانها للاقطاعية بشخصية النائب نجيب البرازي.

لم أرجع إلى حماه خالي الوفاض فقد أتاحت لي تلك السفرة معرفة المزيد عن الجو السياسي والحزبي في دمشق.

صدام مع الكتلة الوطنية: أول مرة أدخل فيها السجن:

في 3 نيسان 1939 أعلن نبأ وفاة الملك غازي في بغداد، فأحدث النبأ صدمة أليمة للشعب في سوريا عامة وللقوى الثورية فيها بصورة خاصة، ذلك لأن الملك غازي كان أمل السوريين في تحرير بلدهم من الاستعمار الفرنسي، ولذلك أقمنا حفلة الأربعين في الجناح الشرقي من مقهى فندق أبي الفداء، ألقى فيها عثمان الحوراني وعبد الستار البارودي خطابين وطنيين، كما ألقيت عدة كلمات أرسلت من الخارج، منها كلمة لمنير الريس.

كانت الحفلة هادئة ومنظمة وكان جمهورها يضم طلابا ومثقفين وعناصر حزبية. وقد حضر الحفلة أيضا القضاة في حماه تلبية لدعوتنا لهم، إذ كنت أنا وبدر علوش متمرنين في المحاماة .. ولكن رئيف حشد في "مقهى المدفن" القريب حشدا شعبيا ربما كان القصد منه التهديد والعدوان. ولكن الأمر مضى بسلام رغم أن الجو كان متوترا متأزما بالشر.

وبعد أيام قليلة أقامت الكتلة حفلة تأبينية للملك غازي في جامع المسعود، حشدت لها من كافة أحياء المدينة، وكان لكل حي عراضته ورايته، بينما كنا نحن، على عادتنا، جالسين في مقهى الفندق: عثمان الحوراني وعلي عدي وعلاء الدين الحريري وسعد الدين الخاني وعبدالستار البارودي وبدر الدين علوش وعلي مخلوطة وسراج السمان وممدوح علوش وأدهم عكاش وعبدالرحمن الشارع وعدنان الحوراني وفايز الأسود وعبد الحميد عدي ونجيب عبد الرزاق ونصر علواني وحسن قاسم آغا ووجيه البرازي وزكريا زينو ويوسف السفراني وفؤاد علوش ومحمد سويد ومظهر دريعي ومحمد عبده علوش وخليل حمود وعلي المصطفى

وواصل حوراني وعبد اللطيف سالمه وعبد الحليم حوراني وهاني وعبد الكريم وأبو هشام مراد آغا وعبد الكريم حميدان وفوزي الطيار وآخرون. فجاء من أخبرنا بأن الدكتور توفيق ألقى خطابا ناريا قال فيه :

"يا سماء أمطري ويا أرض انبعي قذائف وقنابل على هؤلاء الخونة عبدة الدنانير الذين هدموا عرش فيصل[2] ". فخشي بعض رفاقنا من أن يكون الدكتور يحرض المجتمعين علينا، فقلت إنني لا أرى ذلك. وذكرتهم باجتماعنا معه في دمشق وكيف خرجنا على ود وتفاهم، لا سيما وأن هذا القول لا ينطبق على الشباب لأنهم كانوا طلابا صغارا، وأغلبهم لم تكن أمه قد ولدته عندما خرج فيصل من سوريا .. وقلت: ربما كان الدكتور توفيق يعني الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجماعته.

انتهى الاحتفال وبدأت مواكب الأحياء الشعبية تجتاز ساحة العاصي بأهازيجها ورياتها مارة أمام مقهى الفندق، فلبثنا في أماكننا، ولما مر موكب حي الشمالية صرخ بعضهم بعبارات التحدي والسباب لحزب الشباب، وهكذا ثارت معركة شديدة، خصوصا بعد أن هجم موكب الشمالية على المقهى، وقد ألقي عدد من قنابل الصوت، كما استعملت المسدسات، ولكن لم تقع أية إصابة، وانفض الحادث بعد تدخل قوى الأمن وإلقاء القبض على عدد من عناصر الطرفين، وفي اليوم التالي اعتقلت أنا وبدر علوش وعدد من إخواننا كما اعتقل رئيف الملقي وعدد من جماعته.

فكانت المرة الأولى التي أدخل بها السجن أما المعتقلون من رفاقنا فهم بدر علوش وعبد الستار بارودي وعبد الحميد عدي وأدهم عكاش وعلاء الدين الحريري ومحمد عبده علوش وفايز الحريري ومظهر دريعي وعبد الكريم حميدان ومحمد سويد. وبقينا في السجن خمسة عشر يوما كانت من أجمل تجارب العمر،

(2) كان الدكتور توفيق الشيشكلي يقصد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي رفض اتفاق كليمنصو فيصل الذي تسبب بمعركة ميسلون واحتلال الجيش الفرنسي لسورية لهذا السبب ظن الشباب أن الدكتور شيشكلي يحرض الجماهير ضدهم لاننا كنا نؤيد موقف الدكتور عبد الرحمن ا لشهبندر الذي كان يقود المعارضة السورية ضد معاهدة 1936.

أمضيناها بنظام دقيق في المطالعة والمناقشة والتبشير مع المسجونين. فانعقدت لنا صداقات مع بعضهم. كما أهديناهم عددا من الكتب بعد أن لاحظنا ظمأهم للمطالعة. إذ لم تكن تتوفر في سجن حماه حتى المصاحف التي كان المساجين يلحون على طلبها.

كان أثر الحادث بليغا جدا في المدينة. لأن عددا ضئيلا من الطلاب والشباب والمجاهدين يتصدون لتلك الجموع بمثل هذه الشجاعة والاستبسال، وقد أفرج عن عناصر الطرفين بكفالة نقدية ريثما تجري المحاكمة.

المحاكمة:

كان يوم المحاكمة يوما مشهودا في حماه. فقد كان فضول الناس للاطلاع على ما يجري فيها شديدا. كما أن الطرفين حشدا لها الأنصار.. كان المشهد في قاعة المحكمة متباينا، فمن جهة شباب وطلاب ومجاهدون، ومن جانب آخر رئيف الملقي وأنصاره من زعماء الأحياء "والقبضايات" وقد دافع الشباب بمرافعات قوية مؤثرة، ودافع الملقي عن نفسه وجماعته، فكان موقفه ضعيفا لأن بعض اعضاء المحكمة ورئيسها كانوا قد شاهدوا بأنفسهم موقف الكتلة الاستفزازي، عندما كانوا يسهرون في الفندق أثناء الهجوم علينا.

كانت مرافعة بدر الدين علوش، وهو الخطيب المفوه، عاطفية مؤثرة إلى حد كبير، وقد اختتمها قائلا: "وأنتم أيها الشباب، وأنتم أيها الطلاب، فلئن أوذيتم فلقد أوذي المؤمنون من قبلكم. فاصبروا وصابروا إن الله معكم".

قضت المحكمة بتغريمنا غرامات نقدية. وحكمت على الملقي وجماعته بأحكام تتراوح بين الغرامات النقدية والسجن شهرين.

رسـخت هـذه المعركـة أقـدام حـزب الشـباب فـي الأوسـاط الشعبية، وكانت سببا في تعاطف الجيل القديم الطيب من الكتلـة مع حركة الشباب الجديدة. ومما زاد في هذا التعاطف تلك الرعونة التي ارتكبها المدعو أدهم الشامي بالاعتداء على الاستاذ عثمـان الحوراني في ساحة العاصي، مما كـان موضـع اسـتهجان شـعبي بعيد الأثر.

10

عـــام 1939-1943: حـــل المجلـــس النيـــابي وتعطيل الدستور - حكومـة المـديرين - محاولـة اغتيـال بهـيج الخطيـب - اغتيـال عبـد الـرحمن الشهبندر- الشباب يشتركون بثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق- دخول القـوات البريطانيـة وقــوات فرنســا الحــرة إلــى ســورية- إعــلان استقلال سورية

حكومة المديرين:

بعد أن تمكنت فرنسا من إثارة النعـرات الطائفيـة والعنصـرية في جميع أنحاء البلاد، ودفعت وغذت الفتن الانفصالية في الجزيرة وجبل الدروز واللاذقية، وفتتت الوحدة الوطنية فـي ظـل الحكومـات الكتلوية المتعاقبـة[1] ، وأسـدلت السـتار علـى مـؤامرة سـلخ لـواء الاسكندرون عن سوريا- فأصبح يسـمى(هاتـاي) بالتركيـة-، وبعـد الأحداث الدولية التي تلاحقت باتجاه بـوادر حـرب عالميـة إثـر بـروز نوايا هتلر التوسـعية، أذاع المسـيو بيـو[2] المفـوض السـامي بيانـا فـي بيـروت. فـي 12 أيـار 1939، أعلـن فيـه نكـوث فرنســا عــن تعهداتها. ثم قدم إلى دمشق في 15 أيار فعقد اجتماعا مع أعضاء الـوزارة الكتلويـة الرابعـة وهـم: نصـوحي البخـاري وخالـد العظـم وحسـن الحكـيم ومحمـد خليـل المـدرس وسـليم جنبـرت، وطلـب إلـيهم الـدخول فـي مفاوضـات علـى أسـاس إعـادة نظـام الحكـم الذاتي إلى منطقتي اللاذقية وجبل الدروز وإعادة النظر في شـروط الاتفـاق العسـكري الـذي يشـتمل علـى محـذور الجـلاء بحجـة أن الحالة الدولية تنذر بوقوع حرب، وأن فرنسا مضطرة لأخذ ذلك بنظـر الاعتبار، وأن هذا يقضي بعدم تقيدها بكثيـر مـن شـروط المعاهـدة

(1) ما بين توقيع معاهدة 1936 ونكول فرنسا عن إبرامها في أواسط 1939 تعاقبت علـى الـبلاد أربـع وزارات كتلوية:
1- وزارة جميل مردم الأولى، وتشكلت في 1936/12/21
2- وزارة جميل مردم الثانية، وتشكلت في 1938/7/26.
3- وزارة لطفي الحفار: وتشكلت في 1939/2/23.
4- وزارة نصوحي البخاري: وتشكلت في 1939/4/5.

(2) في 1938/10/27 عين المسيو بيو مفوضا ساميا بدلا من الكويت دومارتيل.

ما دامت الحالة الدولية تستلزم تثبيت مركز فرنسا في الشرق كما يطلب القادة العسكريون.

استقالت وزارة البخاري، كما استقال رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي في 7 تموز 1939 وغادر دمشق توا إلى بلده حمص. فحل المفوض السامي مجلس النواب في 8 تموز 1939 وتولى بنفسه السلطة التنفيذية وأقام حكومة مديرين على النحو التالي:

بهيج الخطيب - رئيسا لحكومة المديرين ومديرا عاما للداخلية.

خليل رفعت - مديرا عاما للعدلية.

عبد اللطيف الشطي- مديرا عاما للمعارف.

حسني البيطار - مديرا عاما للمالية.

يوسف عطاالله- مديرا عاما للاقتصاد والوطني.

نوري المدرس- مديرا عاما للأشغال.

وألغيت وزارة الخارجية والدفاع الوطني بعد أن حل مجلس النواب وأوقف تطبيق الدستور.

محاولة اغتيال بهيج الخطيب:

كنت والاستاذين سعيد الخاني وعلي عدي الوحيدين من أعضاء اللجنة العليا في قيادة حزب الشباب المطلعين على التنظيم السري الثوري الذي كان يتولاه الأستاذ عثمان الحوراني الذي اقترح علينا في اجتماع خاص العمل لاشعال نار الثورة ضد الاستعمار الفرنسي، لأنها السبيل الوحيد للتوحيد والتحرير. وأخبرنا أن العراق على استعداد لمؤازرة سوريا في ثورتها المسلحة المنتظرة، وأن فوزي القاوقجي سيقود هذه الثورة، وأن السلاح العراقي المعد لها مخبأ في اللجاة والصفا. وينبغي البدء باغتيال الخونة والضباط الفرنسيين، فتندلع الشرارة ثم تعم الثورة

سوريا الشمالية والجنوبية معا فيهب الشعب العربي لمكافحة الاستعمارين الفرنسي والبريطاني.

سألت الأستاذ عثمان: هل الوقت مناسب يا ترى لإشعال هذه الثورة، لا سيما وأن فرنسا تعتبر سوريا جبهة رئيسية في الحرب المقبلة، وهي تعد لها في سوريا منذ الآن؟! فأجاب:

عند اللزوم فإن الجيش العراقي مستعد للتدخل ومؤازرة الثورة، قلت:

ومن هم الأشخاص الذين سيبدأ باغتيالهم كمقدمة للثورة؟ قال:

بهيج الخطيب وكبار الضباط والمدنيين الفرنسيين، وانتهى الاجتماع بالاتفاق على الفكرة، وتولى الاستاذ عثمان مسؤولية التنفيذ.

بعد مضي أقل من شهر تقريبا، كنت جالسا في مقهى فندق أبي الفداء مع عثمان الحوراني وسعيد الخاني، فأتى من أخبر الأستاذ عثمان سرا نبأ فشل محاولة اغتيال بهيج الخطيب، فغادرنا الفندق في الحال وأمنت للاستاذ عثمان مفتاح منزل قريب لبيتنا، خال وأمين، ليختبيء فيه ريثما نهيء هربه للعراق. وذكرته بأن رفيقنا وقريبنا حسين الشقفة يمكن أن يتولى تهريبه ثانية للعراق عبر البادية الشمالية.

ولما خيم الليل سهرت مع الأستاذ عثمان في ذلك البيت الأمين إلى ساعة متأخرة، وعندما غادرته إلى بيتنا لم يغمض لي جفن، لأنني كنت مقدرا أن نهايته هي الموت المحقق إذا تمكن الفرنسيون من القبض عليه، كما كنت أخشى أن يعترف أحد المعتقلين تحت التعذيب فيذكر علاقتي بالتنظيم.

وفي الليلة التالية تولى حسين الشقفة أمر تهريب عثمان إلى العراق، بسيارة علي جمران الذي كانت تجمعنا به صداقة ومودة قديمة... وفيما كان الأستاذ عثمان يصل إلى العراق بأمان

عن طريق الصحراء كانت قوى الأمن "تكبس" بيته وبعض البيوت الأخرى في حماه.

لم نعرف عن وقائع فشل المحاولة سوى اعتقال رفاقنا الذي قاموا بها وهم علاء الدين الحريري والشيخ يوسف السفراني وأحمد نايف العلواني وحافظ الباشا، أما الحاج عبد الكريم الفنير فقد هرب قبل وقوع المحاولة، ثم نشرت "القبس" في 27 تموز 1939 نبأ فشل المحاولة واعتقال رفاقنا، بالاضافة إلى اعتقال نجيب الريس صاحب "القبس" ونجيب الفرا ... وبعد أقل من شهر اعتقل رفاقنا علي عدي وسعيد الخاني وزكريا زينو ورامي الصابوني، وبقينا نجهل أسباب اعتقالهم سوى تقديرنا بأن رفاقنا المعتقلين قد اعترفوا بالتنظيم تحت التعذيب الشديد... ثم أجرت المخابرات العسكرية الفرنسية التحقيق مع رفيقنا أدهم عكاش وأطلقت سراحه لعدم علاقته بالقضية.

أما المعتقلون الآخرون فقد نقلوا إلى سجن المزة، واشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية في 3 أيلول 1939 دون أن نعرف من أخبارهم شيئا إلا ما كانت تنشره الصحف أحيانا من بيانات رسمية كالبيان الرسمي التالي الذي نشرته "القبس" في 1940/4/28:

"في مساء يوم 25 تموز 1939 أوقف الدرك الفرنسي في دمشق أمام منزل رئيس مجلس المديرين لسوريا عددا من الأشخاص المسلحين القادمين لاغتيال سعادة بهيج بك الخطيب، وأوضح التحقيق بسرعة أن هذا الاغتيال لم يكن سوى العمل الأول من مؤامرة إرهابية تنطوي على اغتيالات للضباط الفرنسيين والعائلات الفرنسية في دمشق، وقد قام الدرك الفرنسي بعمل سريع حازم أدى إلى احباط المؤامرة، وبما أن هذه الحوادث تتعلق في الدرجة الأولى بالنظام والسلامة العامة فقد تلقت المحكمة العسكرية بدمشق أمرا بفتح التحقيق وأدى هذا التحقيق إلى تأكيد النتائج التي أسفر عنها التحقيق الأول وأوضح أن هناك منظمة واسعة النطاق يديرها عادل العظمة الملتجيء إلى العراق غايتها السعي لإثارة حركة ثورية باستخدام عصابات مسلحة

يقودها محرضون أجانب. وكشف التحقيق أيضا عن أن زعماء هذه الحركة كانوا يتلقون الأوامر من دوائر الدعاية الألمانية، وأن الأوامر التي أعطيت من قبل هؤلاء الرؤساء شرعت تتخذ تدريجيا شكلا واضحا محتم التنفيذ تبعا لتحرج الحالة الدبلوماسية في أوروبا. وهكذا أحيل 27 شخصا، منهم 11 فارون، إلى المحكمة العسكرية بدمشق بتهمة التآمر ضد سلامة الدولة الداخلية، وبينهم 7 وجهت إليهم فضلا عن ذلك تهمة محاولة اغتيال سعادة بهيج بك الخطيب، وبعد المحاكمات لفظت المحكمة بتاريخ 11 نيسان وبالإجماع حكمها بالإعدام على سبعة أشخاص، منهم اثنان فاران حوكموا بجرم محاولة اغتيال، وحكمت على الآخرين أحكاما تتراوح بين 5 و 20 سنة بالسجن. وقد ميز المحكومون بالإعدام أحكامهم إلى محمكة التمييز العسكرية التي تدرس اضباراتهم في الوقت الحاضر".

أما الذين حكموا بالإعدام وجاهيا فهم رفاقنا: علاء الدين الحريري ويوسف السفراني وحافظ الباشا وأحمد نايف العلواني بالإضافة إلى أحمد البارافي من حي الأكراد بدمشق. وصدر حكم الإعدام غيابيا بحق عثمان الحوراني وجميل العلواني الذي قمنا بتهريبه أيضا إلى العراق، بمساعدة رفيقنا عثمان العلواني الذي كان من دعائم حزب الشباب ومن أعضاء لجنته العليا.

لم يعد بوسعنا إلا إعداد الوفود من حماه ومن كافة المدن السورية الأخرى لمراجعة المسؤولين والضغط لإصدار عفو عن جميع المعتقلين السياسيين، بهذه القضية وسواها، لا سيما وقد أصبح عددهم كبيرا جدا. وكان لمراجعات هذه الوفود أثرها في صدور العفو عن المعتقلين السياسيين، بعد أن أنزلت محكمة التمييز حكم الإعدام على رفاقنا إلى السجن المؤبد. وقد صدر قرار العفو في 25 أيلول 1940.

حدثنا رفيقنا علاء الدين الحريري بعد ذلك عما جرى لهم فقال:

"كلفنا الأستاذ عثمان الحوراني، باسم تنظيم الشباب، القيام باغتيالات تشمل العملاء والشخصيات الفرنسية، لتكون منطلقا لثورة مسلحة تعم البلاد، وسألنا: هل أنتم مستعدون للتنفيذ؟ فأظهرنا له استعدادنا. فقال: إن ثمة أخوانا لكم في دمشق سوف يشتركون معكم بتنفيذ هذه المهمة، فذهبنا إلى دمشق نحن الأربعة مزودين بكتاب منه إلى الأستاذ جميل العلواني، الموظف بديوان محكمة التمييز بدمشق، وهو من ثوار عام 1925، سلمناه الكتاب فأرسلنا إلى بائع دخان في سوق علي باشا لمقابلة شخص هناك يدعى أحمد البارافي، وهو من ثوار 1925 ومن أبناء حي الأكراد بدمشق، وبعد أن تعرفنا عليه اجتمعنا في اليوم الثاني بمنزل البارافي للمداولة والشروع بالتنفيذ، وقد اقترح بعض الموجودين في الاجتماع البدء باغتيال الدكتور الشهبندر ففوجئنا بهذا الاقتراح. فنحن قادمون لاغتيال بهيج الخطيب والضباط الفرنسيين ولم يدر بخلدنا اغتيال الدكتور الشهبندر ولما جوبهوا بالتحذير والرفض، أحرجوا وتراجعوا فورا فوافقوا على اغتيال بهيج الخطيب والضباط الفرنسيين. وزودونا بمسدسات أوتوماتيكية، وأرفقونا بشخصين (خالد القنواتي، ومرعي) من أقرباء البارافي بحي الأكراد لإرشادنا إلى بيت بهيج الخطيب ورصده.

وبعد أن تم وضع المخطط والاتفاق على كل شيء توجهت في الموعد المحدد ليلا مع خالد القنواتي إلى قرب بيت الخطيب، كما أتى الشيخ يوسف السفراني وبصحبته مرعي في الموعد المحدد للتنفيذ أيضا، وبعد قليل اعتذر مرافقي باضطراره للذهاب لمقابلة أحد أصدقائه، فذهب ولم يعد. فتوجهت إلى البستان الذي اتفقنا على أن يكمن فيه رفاقنا المسلحون فلم أجد منهم سوى حافظ الباشا واقفا قرب الأسلحة المعدة لنجدتنا. فسألته عن الآخرين فقال إنه لم ير أيا منهم، وقد لاحظنا أننا مرصودون فانسحبنا إلى بستان مجاور ففوجئنا بحوالي أربعين مسلحا من قوى الأمن فانسحبنا إلى حي الأكراد حيث تلاقينا في بيت البارافي. وهناك علمنا منه أن الشيخ يوسف السفراني قد

اعتقل أمام بيت الخطيب نتيجة لوشاية مرافقه مرعي. وأن جميل علواني أخبر بالأمر وهرب، وفي اليوم الثاني ألقي القبض على حافظ الباشا وعلي أثناء خروجي من منزل البارافي. وقد تعرضنا لألوان من التعذيب لا تخطر على بال، ثم أودعنا سجن المزة.

والذي ظهر فيما بعد أن بعض المشتركين الآخرين كانوا على اتصال بالمخابرات الفرنسية بواسطة عمر شمدين آغا زعيم حي الأكراد. وكان البارافي المعتقل معنا شاهدا علينا، وقد برأته المحكمة فيما بعد. وهو الذي تسبب باعتقال رفاقنا الآخرين: سعيد الخاني وعلي عدي ورامز الصابوني وزكريا زينو.

وقبل خروجنا من السجن سمعنا نبأ اغتيال الدكتور الشهبندر فقلت في نفسي: لقد نجحت المحاولة الثانية التي اشترك بها رجال الكتلة والفرنسيون بعد أن أخفقت محاولتهم الأولى معنا" (انتهى كلام علاء الدين الحريري).

من آثار هذه المحاولة:

لم يكن جميل العلواني آنذاك من رفاقنا، والظاهر أنه كان مخدوعا. ثم انضم إلى حزب الشباب بعد رجوعه إلى حماه إثر صدور العفو عنه.

كان لهذا الحادث أثر بالغ في سوريا عامة وفي حماه خاصة. ولم يطلع الناس على ملابساته إلا فيما بعد، ولكن ردود فعله كانت ذات أثر ايجابي بليغ دلت على جرأة الشباب والتزامهم واخلاصهم للقضية، وقد تعرف اخواننا في السجن على عدد من رجال السياسة من الرعيل الأول وخرجوا من السجن أكثر تجربة وخبرة.

وقد نفى الأستاذ عثمان الحوراني فيما بعد علمه بنوايا بعض المشتركين الذين حاولوا توجيه العملية لاغتيال الدكتور الشهبندر، وأكد أنه منعا لكل التباس أوصى الشباب قبل ذهابهم إلى دمشق بأن لا يكونوا أداة منفذة طيعة بيد الآخرين، ويجب أن يكون لهم رأيهم المستقل حيال ما يطلب منهم تنفيذه.

اغتيال الشهيد الشهبندر:

في يوم 1940/7/6، بعد انتهاء عملي في المحكمة، حيث كنت أمارس المحاماة، ذهبت إلى مقهى الفندق لتناول طعام الغداء، ولم يكد يستقر مقامي حتى سمعت من إذاعة راديو الشرق نبأ اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في عيادته بدمشق. فانفجرت باكيا. وكان يجلس قريبا مني الأستاذ هاني السباعي رئيس محكمة البداية بحماه آنذاك ونائب حمص فيما بعد، فأقبل نحوي يسألني مستفسرا، فأخبرته بالنبأ المفجع فاغرورقت عيناه بالدمع أيضا.

وقد تتبعت باهتمام، مع جميع المواطنين، أنباء محاكمة القتلة دون انقطاع وكانت الشبهة تحوم حول اشتراك الشيخ الكتاني، ومشايخ الجمعية الغراء، ورجال الكتلة الوطنية عاصم النائلي وجميل مردم وسعدالله الجابري ولطفي الحفار الذين فروا إلى العراق، ولكن المحكمة العسكرية الفرنسية التي كانت تعقد جلساتها في بناء مجلس النواب برأت ساحتهم جميعا وحكمت بالإعدام على القاتل أحمد عصاصة وعلى شريكيه صالح معتوق وأحمد طرابيشي. وقد نفذ حكم الإعدام فيهم شنقا بتاريخ 3 شباط 1941. وكان حكم المحكمة الفرنسية مخالفا لقناعة المواطنين.

التقيت بعد انتخابات 1943 في المجلس النيابي بالنائب عبد الحميد طباع من أعضاء الجمعية الغراء الذي نجح عن دمشق بقائمة شكري القوتلي، وكان يبدو عليه أنه لم يكن يعرف حقيقة آرائي واتجاهاتي، وإنه أنس بي واحبني، وقد حدثني ذات يوم بما يشبه الاعتراف بأن الجمعية الغراء وشكري القوتلي كانوا من المحرضين على اغتيال الشهبندر، فلم أشأ أن استوضحه، ولا أدري إذا كان في كلامه شيء من التحذير لأنه أردف ذلك بقوله:

إن الدكتور الشهبندر كان رجلا ملحدا وداعية للسفور وعندها آمنت بصدق حدس الجمهور وأن المحكمة الفرنسية أسدلت الستار على الدافعين لارتكاب هذه الجريمة باستغلال

الدين، وباسمه، لاغتيال شيخ الثائرين، الخطيب المفوه، ورجل العلم والثقافة والشجاعة، بواسطة ثلاثة مجرمين "أفينهم" المشايخ باسم الدين... الذين قال عنهم عمر أبو ريشه في حفلة تأبين الشهيد الشهبندر.

وإذا شيبة الجهاد خضيب تحت اقدامهم فيالله العار

ومن المبكيات أن تقتل الأحرار في غير ملعب الأحرار

□

الحرب العالمية الثانية:

في 15 آذار 1939 احتلت قوات هتلر تشيكو سلوفاكيا، وفي 7 نيسان احتلت قوات موسوليني ألبانيا ثم تصاعدت ظروف التأزم الدولي في أوروبا نحو انفجار حرب عالمية ثانية. فأعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا في 3 أيلول 1939، عند اجتياح قواتها بولونيا، وفي أواخر أيار 1940 وقعت معركة دنكرك الشهيرة، وبعد أسبوعين سقطت باريس تحت الاحتلال الألماني. وبتاريخ 16 حزيران وقعت فرنسا "المرشال بيتان" على اتفاقية الهدنة مع ألمانيا.

ويهمنا من كل هذه الأحداث وقع صداها على الأوضاع في بلادنا. فقد كان لسقوط باريس في 14 حزيران 1940 صداه العميق في الأوساط الشعبية السورية والقيادات الثورية التي كانت تؤمن بأن الاستعمار نمر من ورق، وأن الانتصار عليه بالثورة الشعبية المسلحة هو الطريق الصحيح بدلا من طريق المساومات السياسية غير المجدية.

لقد أدى سقوط باريس إلى سقوط غشاوة الوهم الكبير عن قوة الاستعمار الفرنسي، وبذلك نشأ وضع جديد يهزه تناقض كبير: إذ كيف تحتلنا دولة هي بحد ذاتها محتلة؟... إن الأولى بفرنسا، بدلا من أن تستعمر بلادنا أن تحرر بلادها بعد أن أصبحت محتلة.

وهذا الوضع الجديد في العالم أزال كل "شرعية" للانتداب الفرنسي على بلادنا، خصوصا وأن عصبة الأمم التي شرعت ذلك الانتداب قد انحلت وانفرط عقدها. إذن فالقناعة العامة لدى كافة جماهير الشعب هي أن الأوان قد آن للتخلص من هذا التناقض بالثورة الشعبية المسلحة، ولكن الشعب في سوريا - مع الأسف- لم يكن مهيئا لاستغلال ذلك التناقض بعد أن قضت السياسة المساومة للكتلة الوطنية على الوحدة؛ كما أن سلطات الانتداب الفرنسي شددت قبضتها الخانقة على البلاد، منذ أن تولى المفوض السامي بيو السلطة التنفيذية بنفسه وأقام حكومة المديرين.

بعد سقوط باريس وارتباط سلطات الانتداب الفرنسي بحكومة فيشي، المنفذة لأوامر الألمان، أصدر الجنرال دانتز المفوض السامي الفرنسي بتاريخ 1941/4/2 قرارا عين بموجبه خالد العظم[2] رئيسا لحكومة دولة سورية محل مجلس المديرين، بعد منحه حق اصدار مراسيم لها مفعول القانون، كما أصدر في التاريخ نفسه قرارا بإعادة السلطتين التشريعية والتنفيذية، وإنشاء مجلس استشاري يكون للعلويين والدروز ممثلون فيه مع احتفاظهم بنظامهم الخاص، وأناط سن القوانين بمجلس شورى يساعد الحكومة في أداء مهمتها. عدا القوانين التي لها علاقة بواجبات فرنسا الدولية، فهي لا تعد نافذة إلا بعد موافقته أي موافقة المفوض السامي عليها.

(2) تألفت وزارة خالد العظم على النحو التالي: خالد العظم للرئاسة والداخلية، نسيب البكري للاقتصاد الوطني والأشغال العامة، حنين صحناوي للمالية، صفوت قاطر آغاسي للعدلية. محسن البرازي للمعارف، وقد علمت من الدكتور محسن خلال إحدى زياراته لحماه، أن هذا التعيين كان بالاتفاق مع شكري القوتلي ومباركته.

وهكـذا نـرى أن الجنـرال دانتـز انفـرد بفـرض مشـيئة دولتـه الخاضعة بدورها للاحتلال الألماني، لكـن الشـعب لـم يقابـل هـذه التصرفات الاستعمارية بالإقرار والاستسلام، بل كان ثمة موجة من الأمل والاستبشار تملأ النفوس، لا سيما بعد ركوع فرنسا واحتلال ألمانيا لمعظم أوروبا، وتوالي الأنبـاء عـن انطـلاق القـوات الالمانيـة من نصر إلى نصر، حيث أصبحت بريطانيا محاصرة تتلقـى الضـربات القاسية، وأصبح الانتداب الفرنسـي كالأفعى التـي سـحق رأسـها في فرنسا وبقـي ذنبهـا متحركـا فـي المشـرق، فتأكـدت القناعـة لدى الناس جميعا بأنهـا الفرصـة المناسـبة لتحريـر سـوريا والـبلاد العربية من الاستعمار الفرنسـي البريطـاني الصـهيوني... واتجهـت النفوس متطلعة إلى الثورة ، لكن من أين تنطلق الشرارة الأولى؟.

ثورة رشيد عالي الكيلاني: 2 مايس 1941

انطلقت شرارة الثورة المنتظرة مـن بغـداد. ففـي ربيـع عـام 1941 اخـذت الصـحف تنشـر الأخبـار عـن تـوتر العلاقـات بـين وزارة رشيد عالي الكيلاني وبـين بريطانيـا التـي كانـت تطالـب بإقالتهـا. وانتهت المعركـة باسـتقالة وزارة الكيلانـي وتشـكيل وزارة برئاسـة العميد طه الهاشمي.

ومـن هنـا بـدأت الأخبـار تنتشـر عـن قـرب وقـوع صـدام بـين بريطانيا وشعب العراق، وفي مطلع نيسـان 1941 تـم لجـوء الأميـر عبدالإله، بمساعدة الانكليز، إلـى عمـان، وفـي 10نيسـان اجتمـع مجلس الأمة في بغداد وانتخب الشريف شرف وصيا على العرش. فكلف الوصي الجديد رشـيد عـالي الكيلانـي بتـأليف الـوزارة ثانيـة. وكانت حكومة فيشـي في سـوريا قد بدأت -بالتفـاهم مـع الألمـان- بإرسـال شـحنات كبيـرة مـن الأسـلحة الفرنسـية المكدسـة فـي المستودعات السورية واللبنانية إلى جيش العراق للاستفادة منها ضد بريطانيا، بينما صرح تشرشـل رئـيس وزراء بريطانيـا تجـاه هـذا الوضع بأن **"دملة" العراق يجـب تفجيرهـا،** كمـا صـرح الجنـرال أوكلانـد بأنـه يـرى مـن الضـروري احـتلال العـراق بـأي ثمـن، لـذلك فعندما هرب الوصي عبد الاله إلى عمـان، وأعيـد تشـكيل حكومـة

رشـيد عـالي الكيلانـي، بـدأت القـوات البريطانيـة بـالهجوم علـى القوات العراقية المتمركزة حول الحبانية، فكانت الثورة.

كان وزير الدفاع في حكومة الكيلاني هـو يـونس السـبعاوي الرجـل الـوطني الباسـل. وكـان الجـيش العراقـي بقيـادة عقـداء (الرباعي الـذهبي) صـلاح الـدين الصـباغ(سـوري) وفهمـي سـعيد ومحمود سلمان وكامـل شـبيب، يـؤازر حكومـة الكيلانـي ويؤيـدها. وكانـت كافـة القـوى الشـعبية مندفعـة لـدعم حكومـة الكيلانـي ومؤازرتها، فبعد أن كانـت النفـوس معبـأة، جـاء العـدوان البريطـاني علـى الجـيش العراقـي ليجعـل المنطقـة العربيـة تغلـي كالبركـان الهائج ضد الحلفاء.

شعب سورية يهب لنصرة العراق:

سرعان ما تألفت في كثير من المدن السورية لجان شعبية لجمع التبرعات لثورة رشـيد عالي الكيلاني. وقد بادر حزب الشباب لتشـكيل لجنة شعبية لجمع التبرعات ضمت ممثلـين عـن مختلـف الاتجاهات السياسية في حماه، وكان حـزب الشـباب عصـب هـذه الحملة وقادتها، وقد أقبـل الأهلـون علـى التبـرع بسـخاء كبيـر، ولا زلت أذكر أنني عندما كنت مارا مع اللجنة في سـوق الطويـل هـرع إلينا فقير معدم فأخرج مـن جيبـه كـل مـا جمعـه مـن قـروش (مـن التسـول) وقـذفها فـي الصـندوق ومضـى، فـأثر هـذا المنظـر فـي نفسـي تأثيرا كبيرا وقررت أن لا أجعل هذا الرجل الفقير أكرم مني، فاسـتدنت مبلغـا كبيـرا وتبرعـت بـه، وكـان مـن أكبـر المبـالغ التـي سجلتها أرقـام التبرعـات آنـذاك، فاسـتغرب النـاس واندهشـوا، لأن أهالي حمـاه هـم بحكـم العائلـة الواحـدة يعرفـون شـؤون بعضـهم البعض.

لم تعد حملة جمع التبرعات كافيـة لنصـرة ثـورة العـراق، بـل أصبحت المسـاهمة المسـلحة واجبـة علـى كـل مـواطن، بعـد أن صارت المدينة كتلـة واحـدة وراء حـزب الشـباب، فقررنـا أن نشـكل حملة مسلحة من الشباب للالتحاق بقوات فوزي القاوقجي التـي كانت تنتظم وتعبأ في العـراق اسـتعدادا للزحـف علـى فلسـطين.

وكانت أنباء وجود المفتي الحاج أمين الحسيني في بغداد وتجمع المجاهدين من البلاد العربية والتفافهم حول الثورة تلهب المشاعر وتشعل الحماس وتقوي الآمال بثورة التحرير القومية الشاملة، لا سيما بعد الضربات القوية التي أنزلتها القوات الألمانية بالوجود البريطاني في شمالي أفريقيا العربي، واجتياح رومل لليبيا وقرعه أبواب القاهرة، وفرار بعض الضباط المصريين من الجيش الملكي وعلى رأسهم عزيز باشا المصري.

مفاوضات مع الحزب القومي العربي:

بينما كنا منصرفين لتكوين فرقة متطوعين للالتحاق بثورة العراق، زارنا في حماه عبد السلام الترمانيني من حلب موفدا من حزب جديد اسمه "القومي العربي". وجرت مفاوضات بيننا حول توحيد الحركتين: حزب الشباب والقومي العربي، فلم تسفر هذه المفاوضات إلا عن التعارف مع أعضاء هذا الحزب.

فرقة من مجاهدي حماه تتوجه إلى العراق:

كنت منذ شهر مايس 1941 قد أغلقت مكتب المحاماة وانصرفت كليا للعمل في سبيل نصرة الثورة العربية في العراق باذلا نشاطي ضمن إطار القيادة السياسية لحزب الشباب، بينما كان الاستاذ عثمان الحوراني في العراق برفقة فوزي القاوقجي، فاتصلت بالسوريين من ضباط "جيش الشرق" الفرنسي في حماه، فانضم إلينا ثلاثة ضباط هم محمد صفا من جنوب لبنان، وتوفيق شاتيلا(من دمشق) وتوفيق الأوبري (من حلب). وكانت هذه أول اتصالاتنا بالجيش، وهكذا ألفنا فرقة من أربعة وعشرين متطوعا من مجاهدين قدامى واساتذة وطلاب وابناء شعب بالاضافة إلى الضباط الثلاثة- وهذه بعض اسمائهم: الشيخ يوسف السفراني وخليف العريب وعلاء الدين الحريري وأدهم عكاش ومحمد سويد ومظهر دريعي وبرهان الملكي ونخلة كلاس وحسين الشريقي وخالد طريطر وعدنان الحوراني ومحمد العمر البرازي ومحمد قبيسي ومصطفى زمر وخالد العجي وشفيق

شقيقي ومحمد جندي وعثمان الأمين وعدد من رفاقه أبناء حي الشمالية.

استأجرنا ثلاث سيارات فورد قديمة من كاراج السلمية، وتواعدنا على أن يكون موعد انطلاقنا في ليلة 15 مايس 1941 من "المصيطبة" شرقي حماه، وأن يكون تجمعنا في تلك الليلة سريا، ولكننا لم نكد نصل إلى المصيطبة إلا وكانت المدينة قد زحفت إلى هناك لتوديعنا، فكان احتفال ليلي مؤثر جدا لما تجلت فيه من المعاني الوطنية الشريفة.

إن لحظات الوداع صعبة قاسية، وقبل موعد الانطلاق بت ثلاث ليال خارج البيت تجنبا لأي ضغط عاطفي عند وداع والدتي. وقد ذهبت إلى العراق دون أن أودعها، ولم يكن تجمع المدينة في المصيطبة ووداعها لنا ليسوءنا، لولا الخوف من اكتشاف وجود الضباط الثلاثة بيننا، فقد كان يهمنا كثيرا المحافظة على سريتهم لحمايتهم من ملاحقة (جيش الشرق) بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية أولا، ولسبب آخر أهم من ذلك بكثير، فقد كانت الثورة في العراق بحاجة ماسة لضباط سوريين يدربون المقاتلين العراقيين على استعمال الأسلحة الفرنسية التي نقلت إلى العراق من سوريا ولبنان.. على أن الأمر تم بسلام ولم يكتشف وجود الضباط الثلاثة بيننا اثناء ذلك الاحتفال الوداعي الكبير الذي اختلط فيه الحابل بالنابل.

اتجهت بنا السيارات شرقا عن طريق وادي العزيب في جبل البلعاس. ومن "اسربة" اتجهنا إلى الشمال الشرقي. وكنا نهتم كثيرا بتجنب مراكز قوى الأمن وحرس البادية.

كانت الحرارة في بادية الحماد شديدة، فارتفعت حرارة محركات سياراتنا وتوقفت، وكنا قد توزعنا كل ثمانية أشخاص بسيارة، وكان الضباط يرافقونني في سيارتي، فخشيت محاذير هذا التوقف عند موقع (الكوام) فقلت للرفاق:

- البثوا هنا ريثما يبرد محركا سيارتيكم، ونحن سنتابع السير. وملتقانا طيبة السخنة، ولم نكد نبتعد عنهم كثيرا حتى توقف محرك سيارتنا وتبخر ماؤه.

لم تكن لنا أية خبرة بأسفار البادية، ولم ننتبه لأهمية المحافظة على الماء، فقد أسرفنا في استعماله حتى نفد، وكان ذلك اليوم قائظا حارا والعطش يأخذ منا مأخذه والسيارة متوقفة في هذه البيداء لأنها بحاجة إلى الماء. ولم يعد باليد حيلة.

وعندما كدنا نشارف على الهلاك نظر خلف العريب إلى الأفق وقال: أظن أن قرية طيبة السخنة تقع وراء تلك الأكمة. وهناك توجد قناة ماء.

- ولكن هذه الأكمة بعيدة يا أبا عريب.

- بل أؤكد أنها لا تبعد أكثر من عشرة كيلومترات.

اقترحت على رفاقي أن يلبثوا في مكانهم، ريثما أذهب مع خليف العريب ويوسف السفراني عدوا إلى "الطيبة" علنا نرجع إليهم بالماء فننقذهم من الموت المحقق. لا سيما وأن خليف عاد فأكد لنا قرب المسافة وأنه توجد في الطيبة منازل للبدو فيمكنهم أن يساعدونا بالدواب لنقل الماء بسرعة إلى رفاقنا العطاش.

وبدأنا المسيرة في ذلك الأتون اللاهب. لم نستطع أن نعدو عدوا فمشينا ثم تثاقلت خطواتنا وجفت حلوقنا. فكنا نقع في الطريق مغميا علينا نحلم بالماء من شدة العطش والاعياء، سقطنا مرتين ثم كنا ننتفض على إثرها وننهض لنتابع جر أقدامنا والتساند على بعضنا، وفي المرة الثالثة أغمي علينا -لحسن ا لحظ- قرب خيمة لرعاة الأغنام، فسارعوا بحملنا وأنجدونا بالماء، فطلبنا إليهم نجدة رفاقنا الذين كانوا ينتظرون عودتنا. ولكن لحسن الحظ كانت إحدى سيارتي رفاقنا الآخرين قد نقلت الجميع إلى الطيبة قبل وصولنا على عدة دفعات، وهكذا التم الشمل من جديد عند قناة ماء باردة، أرتمينا فيها بثيابنا نغتسل ونشرب ونتراشق بالرذاذ البارد ونضحك. وبعد مغيب الشمس توضأ الجميع وصلوا جماعة حمدا لله بعد انفراج تلك الأزمة المميتة. وكان بود الأستاذ

نخلة -وهو المسيحي الوحيد بيننا- أن يشترك معنا في هذه الصلاة.

□

كان ما قاله عمر أبو ريشه عن أولئك الاشداء، الظامئين في الصحراء، الذين يلهثون كخيل الطراد، ينطبق أيضا، كل الانطباق على ما عانيناه في ذلك اليوم المشهود:

أوقفي الركب يا رمال البيد إنه تاه في مداك البعيد

ظمئت نوقه وجف فم الحادي وغصت لهاته بالنشيد

والأشداء يلهثون كخيل الطراد عادت من يومها المشهود

والصبايا فوق الهوادج ينظرن إلى الأفق نظرة الموءود

ليس يبصرن منك غير هضاب في هضاب مبعثرات الحدود

وإذا كانت الصورة الرمزية لقصيدة "أوقفي الركب" هي الوصول إلى مكة، رمز الهداية، بعد اجتياز الصحراء المتلفة، فقد كانت بغداد، والوصول إليها، طريق الانقاذ والخلاص والهداية بالنسبة إلينا آنذاك.

□

في صبيحة اليوم الثاني ركبنا سيارتنا باكرا وتركنا سيارتي رفاقنا الآخرين لتلحقا بنا فيما بعد، تفاديا من لفت نظر قوى الأمن "الهجانة" التي تجول في الصحراء، بعد أن أصبحنا خائفين من أن يكون الفرنسيون فقد استنفروا قوى الأمن لإلقاء القبض على الضباط الثلاثة.

وما أن قطعنا بضع كيلومترات حتى توقفت بنا السيارة بعد أن غرزت دواليبها في مجرى رملي. فاضطررنا أن نلبث في مكاننا ريثما تصل سيارتا رفاقنا لمساعدتنا، وبينما نحن على هذه الحال مر بنا خمسة فرسان من قوى الأمن، فوقفوا على بعد خشية وحذرا، وتقدم واحد منهم فسألنا عن سر مجيئنا، فقلنا له إننا ذاهبون إلى مضارب شركائنا البدو الموجودين على حدود العراق، فلم يقتنع بهذا الجواب، لا سيما وأن هيآتنا كانت تنم عن كذب هذا الادعاء، ومع ذلك فقد أسرع هو ورفاقه لنجدتنا واشتركوا معنا في إخراج السيارة، وقد عرفوا أننا ملتحقون بالثورة فاصطحبونا مسافة بعيدة ثم لوحوا لنا بأيديهم مودعين، وكانت قافلة السيارات الثلاث قد التأمت من جديد.

وصلنا إلى جنوب شرق البوكمال، وقد شاهدناها بالعين المجردة.. وعند الحدود العراقية السورية نزلنا فاشتركنا جميعا بتحطيم لافتات الحدود، وأنشد الأستاذ نخلة بانفعال شديد:

ليس بين العراق والشام حد هدم الله ما بنوا من حدود.

في العراق

وصلنا إلى أول مخفر عراقي في الحصيبة فاستقبلنا رجال المخفر استقبالا فاترا. فخلع ضباطنا الثلاثة ثيابهم المدنية وارتدوا بزاتهم العسكرية التي كانوا يخبئونها. فتبدل الموقف وطلب إلينا رجال المخفر الانتظار، ريثما يتلقون الأمر بالسماح لنا بدخول العراق والتوجه إلى بغداد فكان جواب بغداد الترحيب بقدومنا.

في عانه

تابعنا طريقنا إلى عانه على سيارات الجيش العراقي وهي ناحية صغيرة تقع في واد عميق غمرته المياه في الثلاثينات بعد انشاء سد حديثة على الفرات. رحب مدير الناحية بقدومنا فشاهدنا عنده بضعة عشر كشافا من حلب اجتازوا الحدود للالتحاق بالثورة وهم فتيان صغار يتقدون كالشعلة حماسة وكان يحاول إقناعهم بالعودة إلى سورية ولكنهم لم يقتنعوا فاستنجد بنا فتحدثنا معهم طويلا وحاولنا إقناعهم بالعودة فلم يقتنعوا فاحتار

مدير الناحية ماذا يفعل؟ فأشرت عليه أن يرسل معهم بعض رجاله حتى البو كمال وأوصيته ألا يتركهم وشأنهم في طريق العودة خوفا من هلاكهم في الصحراء.

في حديثة

تابعنا سيرنا إلى الحديثة وهي مدينة جميلة تقع على هضبة تطل على نهر الفرات فرحب بنا ضباط معسكرها ترحيبا حارا وبتنا في ضيافتهم ليلتين إلى أن وصل رفاقنا الآخرون، وقد بلغونا أن بغداد ترحب بقدومنا لأنها بحاجة ماسة للضباط السوريين لتدريب القوات العراقية على الأسلحة الفرنسية التي أرسلها الألمان من سورية إلى العراق.

في "الحديثة" أنزلنا الموظفون العراقيون في أحد بيوت شركة نفط العراق، وهي بيوت أنيقة وجميلة. فصرت أفكر قبل النوم، وأنا مستلق في ذلك الفراش المريح مستمتع بنشوة النظافة والرفاهية بعد وعثاء السفر وعناء اجتياز الصحراء: في هذه البيوت يسكن السادة الانكليز، وفي الصحراء يسكن العرب المستضعفون، فهل يقدر للعرب يا ترى أن يتحرروا من الاستعمار البريطاني واستغلاله لثرواتهم، فيستثمروا بأنفسهم هذه الثروات وتعود هذه المحطات والمنازل سكنا لموظفيهم وخبرائهم؟.. هل يتحقق هذا الحلم يا ترى؟

كان ذلك في أواسط مايس 1941.. وفي 1 حزيران 1972، وأنا مزمع على متابعة تدوين ذكرياتي عن سفري إلى بغداد مع رفاقي المتطوعين الحمويين للإلتحاق بثورة رشيد عالي الكيلاني، قرأت في الصحف قرار مجلس قيادة الثورة في العراق القاضي بتأميم شركة الآي بي سي.

إن في تأميم شركة نفط العراق كشفا لأعمق سنن الحياة والتاريخ، وهو كشف يمد العاملين بالصبر والتفاؤل والايمان بالنتائج الأخيرة، حتى ولو لم تظهر لأعمالهم أية نتائج آنية مباشرة، ففي النواة تكمن طاقات الحياة، وفي البذرة الصغيرة تكمن الشجرة الباسقة، ومن القطرات الصغيرة يتألف البحر.

من كان يقدر آنذاك أن هذه الحفنة من الشباب ستؤلف تيارا شعبيا جارفا، وأنها بتلاحمها مع حزب البعث، سيتألف حزب البعث العربي الاشتراكي، وأن هذا الحزب سيطرح لأول مرة في تاريخ المنطقة شعار بترول العرب للعرب ويناضل لتحقيقه؟

من كان ينتظر لهذا الحزب بالرغم من تألب جميع القوى الخارجية والداخلية أن يجعل سورية قادرة على استثمار مواردها البترولية المتواضعة بنفسها في الخمسينات، بعد نضال شاق متعرج طويل؟

من كان يأمل أن يصبح العراق عام 1968 قادرا على تأميم شركات النفط؟

□

في نهاية مقامنا في حديثة اجتزنا نهر الفرات إلى الضفة الشرقية (بالتليفريك) إلى تكريت... وهي المرة الأولى التي أرى فيها (التليفريك) والظاهر أنه من معدات شركة نفط العراق.

في تكريت فوجئنا باستقبالات شعبية منقطعة النظير، فقد ملأ المواطنون الشارع الرئيس بمظاهراتهم (وهوساتهم) الشعبية الجميلة فشاركهم رفاقنا بأن صعدوا على الأكتاف على الطريقة الحموية في العراضات وشاركوهم أهازيجهم، وهناك التقينا بشاب لبناني يعمل معلما في مدرسة تكريت الابتدائية وكان له دور في إثارة ذلك الحماس، عرفنا على نفسه بأنه معروف سعد، وهو نائب صيدا فيما بعد.

وما شهدناه في تكريت من حفاوة شعبية بالغة، وهوسات ومظاهرات، صار يتكرر في كل مدينة نمر بها، لا سيما في سامراء حيث زرنا الأماكن المقدسة، وكان إلحاح الجمهور العراقي شديدا على سماع أهازيج عراضاتنا الحموية، فكان رفاقنا المنتصبون على الأكتاف يرددون:

صيح حموية نجلي همومك جيناك وجلينا همومك

والغاظك يا شعب نكيده واليطلع برا نقصقص ايده

وإن هلـهلـتي هلهلـنا لـــك بـأرض العـراق نوخنـا لـك... الخ

وكانت هوسات العراقيين جميلة، بقي منها بذاكرتي :

ســـن الذبـــان إلانـدوســـه وتشرشـــــل يـــــاقلة نامـوسه... الخ

ومـن سـامراء إلـى بغـداد كـان الشـعب مـع الجـيش، يخـرج أفواجا يردد الهوسات المصحوبة بإطلاق الرصاص والزغاريد.

في بغداد:

وصلنا إلى بغداد تغمرنا فرحة لا توصف، ومنذ اللحظة الأولى شعرت بأنني أدخل جو بغداد الذي تكون في مخيلتي من قراءاتي للتاريخ العربي، وشعرت بأنني -رغم إجهـاد السـفر الطويـل- يجـب أن لا أقعد لحظة، بل أندفع متغلغلا في شوارع بغداد أمـلأ نفسـي من مشاهدها، أصافح الناس، أتبادل معهم الحديث، أعبر لهم عـن مشاعري التـي تكونـت بعـد زيـارة تكريـت وسـامراء وغيرهمـا مـن المـدن العراقيـة مـن أننـا شـعب واحـد لا يفـرق بيننـا أي شـي، فالسوري في العراق لا يشعر بأية غربـة أبـدا. كنـت أريـد أن أقـول لهم: أحب العـراق. وقـد ترسـخ ذلـك الانطبـاع فـي أعمـاقي طـول حياتي.

منذ اليوم الأول استلطفت تلك الدور المبنيـة بالطـابوق، ومـا حولها من حدائق، هذا شـيء لم نعرف مثله في سوريا. علـى أنـه لفت نظري إغلاق الأسواق، فقد كانت أغلبية الحوانيـت والمخـازن التجارية مغلقة، فاسـتغربت. فقيـل لـي أن هـذه الـدكاكين لليهـود وقد اغلقوها بعد أن وقعت مصادمات بينهم وبين "الفتـوة" فأدركـت أن اليهـود قابضـون علـى زمـام الحيـاة التجاريـة والاقتصـادية فـي العراق.

نزلنا بضيافة الحكومة العراقية في فندق "مـود" ونـزل رفاقنـا في فندق آخر. وسـرعان مـا أقبـل للترحيـب بنـا عثمـان الحـوراني وجميـل العلـواني ومنيـر الـريس وعـادل العظمـة وعـدد كبيـر مـن

السوريين. فقد كان العراق آنذاك واحة الحرية والأمان بالنسبة للمناضلين السوريين الفارين من اضطهاد الاستعمار الفرنسي، كما كان في العراق عدد كبير من الطلاب والمعلمين والتجار السوريين، بالإضافة إلى بعض الطلاب المهاجرين من لواء الاسكندرونة[3] بعد الاحتلال التركي، وكان مركز هؤلاء المجاهدين السوريين واللوائيين والفلسطينيين وغيرهم من أبناء الأقطار لعربية الأخرى، يسمى "المقر"، وفي قربه يقع بيت الحاج أمين الحسيني.

في اليوم الثاني زرنا وزارة الدفاع وتعرفنا على العقداء الشهداء صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وفهمي سعيد وكامل شبيب وعدد آخر من الضباط، كما تعرفنا على وزير الدفاع يونس السبعاوي، وبعد ذلك التحق رفاقنا الضباط الثلاثة بالجيش العراقي والتحقنا نحن "بالمقر" فاستلمنا السلاح وارتدينا البزة العسكرية، وزرنا مفتي فلسطين .

فشل الثورة:

بعد بضعة أيام فوجئت بأحد السوريين يأتي إلى "المقر" ويقول لي همسا:

- إلى متى أنتم باقون هنا؟.. إن الجماعة قد هربوا كلهم ولم يبق سواكم. فأنصحكم بالمغادرة والهرب إلى سوريا.

فلم أصدق كلامه في البداية، ولكني لاحظت أن الجو مكفهر متأزم، ولم أعد أرى أحدا من زعماء المقر، فتألمت كثيرا من الزعماء الهاربين الذين لم يكلفوا أنفسهم إشعارنا بقرب احتلال الانكليز لبغداد. وكان هذا الحادث بالنسبة لي صدمة أليمة.

وبينما أنا مجتمع برفاقي لتدبر أمر خروجنا من العراق إذا برسول من وزارة الدفاع يأتي إلى المقر طالبا حرسا للسبعاوي، فأرسلت رفاقنا ليقوموا بهذه المهمة، وقد باتوا تلك الليلة في وزارة الدفاع يحمون السبعاوي إلى أن غادر بغداد.

(3) كان منهم الشاعر سليمان العيسى الطالب في دار المعلمين.

وفي اليوم الثاني ألقت الشرطة العسكرية القبض علينا جميعا، بينما كنا نلمح التعاطف والأسى على وجوه الضباط، وبعد أخذ ورد هيئت لنا سيارات شحن لنقلنا إلى الحدود السورية.

كان الانكليز قد قاموا بحملة دعائية واسعة لإساءة سمعة السوريين الموجودين في العراق، وقد حشرنا جميعا من مجاهدين، ومن سوريين كانوا موظفين أو مقيمين مع بعض الضباط العراقيين الذين فروا خوفا من فتك البريطانيين في عدد من سيارات الشحن، وكان الانكليز يعتبرون السوريين من عناصر التحريض على الثورة، فطردوا بعد ذلك البقية الباقية من الموظفين.

خرجنا من بغداد متوجهين إلى الموصل، ومعنا كتاب من الجيش لتزويد سياراتنا بالوقود أثناء الطريق، ولما وصلنا إلى بلدة كركوك الجميلة راجعنا المحافظ بشأن الوقود فقابلنا بالشتائم المقذعة- فقلت له: هل تعرف من تخاطب أنت؟ نحن لسنا "ثرثرية" كما تقول بل نحن مجاهدون أتينا لنشارككم في تحرير عراقنا العربي. إنني أغلقت مكتب المحاماه كما ترك رفيقي هذا وظيفته لهذا الهدف... وأشرت إلى الأستاذ نخلة كلاس الواقف بجانبي.

فقال المحافظ: ومن قال لكم إن العراق عربي؟.. إن العراق وطن القوميات. وعليكم أن تحرروا بلدكم من الافرنسيين أولا.

فقلنا له: كنا نأمل أننا عن طريق تحرير العراق يمكننا أن نحرر سورية.

فلم يقتنع بهذه الأقوال وأمر باعتقالنا جميعا، فساقنا رجاله إلى قبو عتيق في مبنى المحافظة، ولكن ضغطا شعبيا، أو أن أمرا وجه إليه، فأمر بإطلاق سراحنا. فلم يفوت الأستاذ نخله الفرصة فوقف في الباحة وألقى أمام ذلك المحافظ وجنوده خطابا مؤثرا ظهرت علائمه على وجوه الحاضرين.. ثم تابعنا طريقنا إلى الموصل.

في الموصل

دخلنا إلى الموصل قبيل الفجر، وكان الجوع والتعب والإنهاك في تلك السيارات اللعينة قد أخذ منا كل مأخذ، ففوجئنا إذ رأينا كل مطاعم الموصل وفنادقها مفتوحة لاستقبالنا وشعب الموصل كله ساهرا للترحيب بنا، كانت لحظة مؤثرة تهز أعمق أعماق الانسان، إن الحفاوة والحدب والمحبة والتشجيع التي لقيناها في الموصل تفوق الوصف، وإن أعظم ما يثير اعتزاز العربي بأمته أن امرأة عربية من الموصل تبرعت بدفع كل نفقات الفنادق والطعام لهذا العدد الكبير.

كان مناخ الموصل -أم الربيعين- وبيوتها وشوارعها يذكرنا بملامح مدينة حلب، وفيها شممنا روائح سورية، وحين غادرناها بعد ثلاثة أيام من الحفاوة البالغة، ودعنا أهلها وداعا لا أنساه.

عبرنا نهر دجلة في طريق عودتنا إلى سوريا، فالتقينا لأول مرة بكاظم الصلح ورفاقه وكنت في الثلاثينات أتابع مقالاته الوطنية، الناضحة بالأسلوب الجميل، في جريدته "النداء" وكان قد خرج ورفاقه هاربين من بغداد، ولم يرافقونا طويلا بل افترقوا عنا خوفا من أن يلقى عليهم القبض معنا.

وعلى نهر الخابور شاهدنا النواعير فتذكرنا حماه، وما أن اجتزناه حتى أصبحنا قيد الاعتقال بحراسة قوى الأمن السورية فأخذونا إلى دير الزور، وأوقفونا في ثكنتها العسكرية حيث حشرونا، ونحن خمسمائة في قاووش واحد يبث سقفه المعدني لهيبا في ذلك الصيف القائظ. وكان أكثر ما يؤلمني حال من معنا من الطيارين العراقيين الشباب. فقد كنت أخشى أن تسلمهم السلطات إلى الانكليز. وكان بينهم شاب يكاد يجن شوقا لكأس من الشاي الأسود الثقيل، وفي ذلك القاووش تعرفت على جمال الأتاسي لأول مرة. وعرفت منه أنه الوحيد من جمعية نصرة العراق الطلابية الذي أتى للمشاركة بالثورة.

□

بقينا في "قاووشنا" نتسقط أخبار القيادات السورية والعراقية التي هربت من العراق ولا سيما العقداء الأربعة،

وضباطنا الذين هربوا معهم، وقد علمنا فيما بعد أن فوزي القاوقجي عبر الحدود العراقية باتجاه حلب، فتعرض في الصحراء لغارات الطائرات الانكليزية، فجرح وأصيب بطلقات عديدة نقل على أثرها بطائرة عسكرية إلى برلين، وقتل رفيقه حمد صعب، فتبددت حملته اللاجئة إلى سوريا، وكان عثمان الحوراني من أفراد هذه الحملة.

كان في تلك الثكنة عدد من الضباط السوريين في الجيش المختلط، منهم: جمال فيصل، وفيصل الأتاسي، وضباط آخرون من آل الأتاسي.

بعد أيام ساقتنا السلطة العسكرية الفرنسية إلى حلب وسجنتنا في الثكنة العسكرية قرب محطة القطار، فبتنا فيها عدة ليال، وكان الوضع أفضل مما كان عليه في ثكنة دير الزور، كما أن الرقابة أخف، فهرب رفيقانا خليف العريب وأدهم عكاش لأنهما كانا محكومين بأحكام سياسية، وبعد أيام أطلق سراحنا فعدنا إلى حماه أحرارا.

حوار مع ضابط ألماني:

لم أكن أعرف عبدالله البيسار من طرابلس، لذلك فوجئت عندما وصلتني من قبله سيارة شحن جديدة لأحفظها عندي "أمانة". ويبدو أنه فعل ذلك بتوجيه منير الريس، وكانت سلطات فيشي الخاضعة للألمان تصادر السيارات الكبيرة لدعم الآليات العسكرية. فأودعت السيارة سرا في مكان أمين بحي الحاضر.. وذات يوم أتاني إلى البيت رجل ألماني وطلب مني تسليمه السيارة، فذهبت معه إلى حي الحاضر وسلمته إياها. فتفقدها وتفحص الدواليب الاحتياطية فيها، وركبها وقال انه يشكرني على أمانتي لأن هذه هي المرة الأولى التي يعثر فيها على رجل أمين، فقلت له: إنك تشكرني لتسيئ إلى بلادي، والظاهر أنك لم تتعرف على الشرفاء في هذه البلاد.. فاعتذر وقاد السيارة ومضى.

التجمع في حلب

بعد قضاء الانكليز على ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، التي امتدت من 2 إلى 31 مايس 1941، اجتاح الانكليز سوريا في 8 حزيران. وقبل هذا التاريخ بأيام أبلغنا في حماه ضرورة تجمع فلول الثورة في حلب للبحث والمذاكرة، وبالرغم من أنني لم أقتنع بضرورة هذا الاجتماع فقد ذهبت مع بعض رفاقنا إلى حلب. فالتقينا هناك بمنير الريس وعبد الهادي المعصراني وعدد كبير من جماعة القوتلي، وقد نزلت مع الريس والمعصراني في فندق الحمراء.

وفي اليوم الثاني دعينا إلى أوتيل بارون، واجتمعنا بشخص ألماني في إحدى غرف ذلك الفندق، فأخرج من جيبه خريطة وأشار إلى أن الألمان سيأتون للشرق الأوسط عن طريق القفقاس بعد احتلالهم روسيا. وكان يفهم من حديثه التشجيع على مقاومة الانكليز لبينما تصل القوات الالمانية الى المنطقة، فرجعنا إلى الفندق دون أن أعلق على حديثه. ولكنني قررت العودة إلى حماه وأخبرت رفاقي بذلك.

وفي الليلة الثانية أغارت الطائرات الانكليزية على حلب، فقصفت فندق بارون فأخطأته، وسقطت القنابل قرب فندق الحمراء حيث كنت أغط نائما في إحدى غرفه التي يشاركني فيها منير الريس، فأفقنا على دوي القنابل وقد دخل الغبار والدخان من نوافذ الغرفة، فخيل إلي أن القنابل استهدفت الفندق. وقد هرب جميع النزلاء، وبقيت مع منير الريس حيث تابعنا نومنا حتى الصباح، عندما أفقنا على ذلك المشهد الأليم مشهد أهالي حلب وهم يغادرون مدينتهم إلى الأرياف بالسيارات والعربات وسيرا على الأقدام هربا من غارات الطائرات البريطانية التي استمرت بقصف المدينة عدة ليال، ثم رجعنا إلى حماه على غيرطائل، منتظرين ما سوف يفعله الانكليز بنا.

الانكليز في حماه

دخل الانكليز إلى سوريا، وكانت سياراتهم العسكرية تعبر حماه في طريقها إلى الشمال، ومنذ دخول الجيش البريطاني دأب اثنان من رجال الشرطة العسكرية على مراقبتي وهما يركبان الموتوسيكلات، فكانا يرافقاني منذ خروجي من البيت صباحا إلى مكتب المحاماه فالمحكمة وحتى عودتي، وكثيرا ما كانا ينتظراني على باب المحكمة، فكنت الوحيد من بين أخواني الذي أتعرض لهذه الرقابة المكشوفة، لذلك اعتقدت أن اعتقالي لا بد واقع، وكنت أقول في نفسي، لا بد من قضاء فترة طويلة في المعتقل، فهيات نفسي على هذا الأساس.

اتصل هذان الشرطيان بجورج حريكة الذي لم يكن بعد منتسبا لحزب الشباب وإنما كانت تجمعنا به صلات مودة وصداقة، وقالا له إنهما يودان الاجتماع بي، وحددوا موعدا لذلك. فقررت أن أحضر الاجتماع وأجيب بمنتهى الصراحة والصدق على جميع أسئلتهما.

وفي الاجتماع سألاني، بأدب ومن غير عجرفة بريطانية، عن سبب ذهابي للعراق والتحاقي بالقاوقجي، فأجبتهما بأن هذا هو الطريق الوحيد لتحرير سوريا من الافرنسيين الذين يحتلون بلدنا ويحكمون رقابنا بالرغم من سقوط بلادهم تحت الاحتلال الألماني وتعاونهم معه.. إنه لا سبيل لتحرير سوريا إلا بمساعدة ثورة العراق وامتدادها إلى سوريا.

قال : أهذا هو الهدف الوحيد.

قلت: بل هناك هدف ثان هو تحرير فلسطين من الاستعمار الصهيوني.

قال: إذا تم التحرير والاستقلال فماذا تفعلون؟

قلت: نوحد البلاد العربية المحررة.

وكانا يتناوبان طرح الأسئلة. فقال أحدهما: بخصوص هذه الوحدة ما هو موقفكم من لبنان؟

قلت: ذلك يعود لرغبة الشعب اللبناني..

قال: ماذا فعلتم في العراق؟

قلت:لم نفعل شيئا لأننا اضطررنا لمغادرة بغداد والعودة إلى سوريا بعد أيام.

أدركت من هذه الأسئلة أنني لست موضع اتهام، لا سيما وأنهما لم يسألاني عن موضوع ذهابنا إلى حلب، فقلت لهما بعد أن اطمأنت نفسي:

- بعد أن أجبت على أسئلتكم أود أن أطرح عليكم هذا السؤال الذي لا يخلو من التدخل بأمور لا تعنيني: لقد لاحظت أن أسئلتكما لا تنم عن أنكما، كما تظهران، برتبة كابورال (رقيب) فأنتما تتمتعان بثقافة عالية، وإنني أرى تناقضا بين رتبكما العسكرية المتواضعة وبين مستوى حديثكما، فما هي الشهادات العلمية التي تحملانها؟

فعلمت منهما أنهما يحملان شهادات جامعية، وكان هذا أول وآخر اجتماع لي معهما، ولم أعد موضع رقابة أو مضايقة اطلاقا، وخرجت من الورطة بسلام.

تغلغل المخابرات البريطانية في سوريا ولبنان:

أنشأ الانكليز بعد اجتياح قواتهم للبنان وسوريا معتقلا في "المية ومية" بجنوب لبنان حشروا فيه الآلاف من أبناء البلدين ومن الأجانب وكل من يشتبه بعلاقته مع "المحور". أما فلول المجاهدين الذين غادروا العراق بعد فشل ثورة رشيد عالي فقد لجأ قسم منهم إلى ألمانيا وكان على رأسهم الحاج أمين الحسيني وفوزي القاوقجي.

أما المعتقلون في الميه وميه فقد ظلوا قيد الاعتقال فترة طويلة ثم أفرج عنهم. وأما الذين لجأوا إلى ألمانيا فإنهم، بعد أن انضم إليهم عدد كبير من الطلاب في البلدان الأوروبية التي تحتلها ألمانيا، انقسموا على أنفسهم، فريق منهم ارتبط بالحاج أمين الحسيني والفريق الآخر ارتبط بفوزي القاوقجي. وقد رجعوا إلى بلادهم بعد انتهاء الحرب.

□

عهد الشيخ تاج الدين الحسني

اجتاحت قوات الحلفاء البريطانية والفرنسية الدوغولية سورية أثناء الحرب العالمية الثانية بتاريخ 1941/6/8، فرحل الجنرال دانز الذي كان من جماعة المرشال بيتان والفيشيين مع حاشيته، وتسلم الأمور في سورية الجنرال كاترو باسم فرنسة الحرة حيث أذاع بيانا باسم الجنرال دوغول، أعلن فيه استقلال سورية على أساس عقد معاهدة تحدد العلاقات المتبادلة بين سورية وفرنسة، كما أذاعت الحكومة البريطانية بالوقت نفسه بيانا تعهدت فيه باستقلال سورية.

وبتاريخ 1941/9/12 أوعز الجنرال كاترو لخالد الظم بالاستقالة وعين الشيخ تاج الدين الحسني رئيسا للجمهورية بكتاب هذا نصه:

يا صاحب الفخامة:

في البيان الرسمي الذي أذعته في الثامن من حزيران الماضي على أهالي سورية ولبنان باسم الجنرال ديغول رئيس الافرنسيين الأحرار، وفي التصريحات السياسية التي أدلى بها الجنرال ديغول نفسه قطعت فرنسا الحرة فورا على نفسها بالاتفاق مع حليفتها بريطانية العظمى عهدا بأن تضع حدا للانتداب وأن تمنح سورية نظام دولة مستقلة ذات سيادة وأن تضمن هذا النظام الجديد بمعاهدة.

واليوم ترى فرنسا الحرة أن الوقت قد حان لانجاز هذا الوعد وتحقيق هذا البرنامج، وأول عمل تقوم به في هذا الظرف هو أن تضع بين يدي شخصية سورية كبيرة تتمتع بثقة البلاد مهام وتبعات تنظيم الدولة السورية الجديدة في استقلالها وسيادتها.

ونزولا على رغبة الرأي العام الذي قمت باستشارته بدقة، أرى - وأنا لا استهدف إلا صالح البلاد العام- أن فخامتكم هي في الظروف الحاضرة أكثر صفة من أي سواها للقيام بتحقيق هذه

المهمة الوطنية الكبرى. لذلك اقترح على فخامتكم ان تتسلموا مقدرات سورية، متخذين لقب رئيس الجمهورية مع المميزات والواجبات المترتبة على هذا اللقب، وأن تؤلفوا بهذه الصفة حكومة الدولة بأسرع ما يمكن من الوقت. وإذا قبلتم هذا الاقتراح، وهذا ما اتمناه، يمكنكم ان تتأكدوا من أن مساعدتي التامة ومؤازرتي لن تعوزكم. إني أضم إلى هذا الكتاب البيان الرسمي الذي سأذيعه عند تسلمكم مهام الحكم، وهو يتضمن المبادئ التي ستبني عليها فرنسة الحرة سياستها وعلائقها مع سورية المستقلة ذات السيادة.

وتقبلوا يا فخامة الرئيس فائق الاحترام

الجنرال كاترو

بعد اسبوعين من هذا التعيين أذاع الجنرال كاتروا بيانا وجهه إلى السوريين هذا نصه:

أيها السوريون:

في اليوم الثامن من حزيران الماضي عند دخول جيوش الحلفاء بلاد الشرق أذعت عليكم باسم فرنسة الحرة ورئيسها الجنرال ديغول بيانا اعترفت فيه لسورية بصفة الدولة المستقلة ذات السيادة تضمنها معاهدة تحدد فيها علائقنا المتبادلة.

وفي الوقت نفسه أذاعت الحكومة البريطانية حليفة فرنسة الحرة بالاتفاق معها بيانا اشتركت فيه بهذا العمل السياسي الخطير.

وفي الثامن عشر من الشهر الحالي (ايلول 1941) أكدت بيان 8 حزيران 1941 وحولته من مصاف المبادئ المكتسبة إلى حيز المؤسسات والحقائق الراهنة.

وهكذا فقد أتيح لسورية المستقلة ذات السيادة، العهد الذي تتولى فيه مقدراتها.

لقد قبل فخامة الشيخ تاج الدين أفندي الحسني أن ينظم عهد الاستقلال الجديد، وقد عينه لهذه المهمة السامية ما تحلى به من خبرة في الأعمال ومعرفة صحيحة للضرورات العامة.

وإني أؤكد له وللأمة السورية النبيلة مؤازرتي ومعاونتي المخلصة، وسأقوم بهذه المعاونة مستوحيا المبادئ التاليه :

تتمتع الدولة السورية بالحقوق والميزات التي تتمتع بها الدولة المستقلة ذات السيادة، ولا تخضع هذه الحقوق والميزات إلا للقيود التي تفرضها حالة الحرب الحاضرة وأمن البلاد وسلامة الجيوش المتحالفة.

ومن جهة أخرى فإن موقع سورية في الواقع كحليفة لفرنسة الحرة وبريطانيا العظمى، يستدعي انطباق سياستها انطباقا وثيقا على سياسة الحلفاء.

وحيث أن سورية قد دخلت في الحياة الدولية فانها تنتقل إليها طبعا الحقوق والواجبات المعقودة باسمها، ويحق لسورية ان تعين ممثلين سياسيين لها في البلد الذي ترى أن مصالحها تقضي بهذا التمثيل. أما في سائر البلدان الأخرى فان سلطات فرنسة الحرة تقدم المساعدة لتأمين الدفاع عن حقوق سورية ومصالحها العامة وحماية التبعية السورية فيها.

لقد تعهدت بريطانيا العظمى مرارا بأن تعترف باستقلال سورية. وستتدخل فرنسة الحرة بدون ابطاء لدى سائر الدول الحليفة أو الصديقة لتعترف أيضا باستقلال الدولة السورية، ويحق للدولة السورية أن تشكل قواتها العسكرية والوطنية وتقدم لها فرنسة الحرة مؤازرتها التامة.

كذلك ترى فرنسة الحرة أن دولة سورية تشكل من الوجهة السياسية والجغرافية وحدة لا تتجزأ، وإنه من الضروري أن تضمن سلامة كيانها من أي تجزئة كانت، ولذلك فهي ستساعد على توثيق الروابط السياسية والثقافية والاقتصادية التي تجمع بين أجزاء الوطن السوري، وبلوغا لهذه الغاية، سيعدل مندوب فرنسة الحرة المطلق الصلاحية النصوص التي تتضمن الأنظمة الخاصة الممنوحة

سابقا إلى بعض المناطق بطريقة تؤمن خضوع هذه المناطق سياسيا إلى السلطة المركزية مع استبقاء الاستقلال الإداري والمالي الذي تظهر تمسكها الوثيق به. وهكذا وفق بين مبدأ الوحدة السورية وأماني تلك المناطق الخاصة.

ومن المفهوم أيضا أن ضمانات الحقوق العامة المسجلة في النصوص الأساسية لصالح الأفراد والجماعات تبقى ويكون لها كامل مفعولها.

تتعهد فرنسة الحرة بالتوسط لدى سورية ولبنان لايجاد وضع أسس التعاون الاقتصادي بين البلدين، ولإزالة الصعوبات التي يجابهها هذا التعاون في الوقت الحاضر. وهذا الاتفاق الضروري بين بلدين أخوين وجارين يجب أن يضمن حقوق الطرفين المشروعة المبتادلة، وأن يثبت العلائق بينهما على أساس الثقة المتبادلة.

ومحافظة على استقلال سورية وسيادتها وقياما بمهمة الكفاح المشترك قياما موفقا يتحمل الحلفاء في فترة الحرب اعباء الدفاع عن البلاد. ومن أجل ذلك تضع الحكومة السورية تحت تصرف قيادة الحلفاء، لأجل المساهمة في الذود عن أراضي البلاد، القوى الوطنية السورية. كما أن قيادة الحلفاء تتصرف منذ الآن بتجهيزات سورية ومصالحها العمومية، لا سيما طرق المواصلات والمطارات وانشاءات الشواطيء، وذلك على قدر ما تقتضي به الضرورات العسكرية.

وتقضي مهمة الذود عن البلاد بان يقوم تعاون وثيق في أي وقت كان بين الجنرال القائد الأعلى المندوب العام ودوائر الدرك والشرطة والأمن في الدولة السورية، إذ أنه من الواجب الدفاع عن سورية في أيام الحرب ليس من أعدائها فحسب، بل من أعدائها في الداخل.

وبالنظر لاندماج سورية في منطقة الحرب وفي نظام الحلفاء الاقتصادي والمالي يقضي أيضا أن يقوم أوثق تعاون بين الحكومة السورية والحلفاء لكي تؤمن في فترة الحرب وفي سبيل المصلحة المشتركة موجبات واحترام جميع التدابير المتخذة لتسيير الحرب

الاقتصادية في طريق النجاح. وبلوغا لهذه الغاية يمنح في فترة الحرب أكثر ما يمكن من التسهيلات لتأمين حرية التبادل بأوسع ما يمكن بين سورية والبلاد الداخلة في كتلة الاسترليني، وسورية التي انضمت إلى الكتلة الاسترلينية تتخذ في الحقل الاقتصادي والمالي لا سيما فيما يتعلق بالقطع (الكمبيو) التدابير اللازمة لتبقى متمشية مع سياسة الكتلة الاسترلينية العامة.

إن الأحكام الواردة أعلاه توفق بين احترام استقلال سورية وسياستها من جهة ومقتضيات الحرب من جهة ثانية. وهي تستوحي فكرة واحدة، هي فكرة ربح الحرب، وتأمين مستقبل حر للشعب السوري عن هذا الطريق، وهي تحل المشكلة الفرنسية - السورية حلا منبثقا عن عزم فرنسة الحرة على عدم تأخير تحقيق الأماني القومية السورية وتنفيذ وعود الحلفاء بالرغم من الحرب. على أنه من الضروري أن يقوم مقام هذا الحل، حل نهائي بأسرع ما يمكن على شكل معاهدة فرنسية- سورية تكرس استقلال البلاد، وتثبته تثبيتا نهائيا.

لتحيى سورية مستقلة ... ولتحيى فرنسة.

دمشق 27 أيلول

1941

□

لقد ذكرت سابقا أن الشيخ تاج الدين هو ابن الشيخ بدر الدين الحسني الذي أوعز له الفرنسيون قبيل انتخابات المجلس التأسيسي لعام 1928 بالقيام بجولة في المدن السورية لاستخدام الاتجاهات الدينية في خدمة الاستعمار الفرنسي، على غرار ما كانت فرنسا تحاوله في شمال افريقيا العربي المحتل. وكان الشيخ بدر الدين من أصل مغربي، وما ان جرت انتخابات الجمعية التأسيسية عام 1928، حتى فاز بعضويتها ابنه الشيخ تاج الدين حيث انتصب بجرأة يعارض ابراهيم هنانو زعيم الحركة الوطنية، فأيد الكتاب الذي أرسله المفوض السامي بونسو

طالبا فيه حذف[4] ست مواد من الدستور لاعتبارها مناقضة لصك الانتداب، وعندما رفض المجلس التأسيسي ذلك، جرى تأجيله ثم حله، وأصدر المندوب السامي بونسو الدستور السوري مذيلا بالمادة 116[5] التي تتضمن تحفظات الانتداب، وقد عين الفرنسيون الشيخ تاج مرتين رئيسا للوزراء، وسقطت وزارته الثانية أثر انتفاضة عام 1936، وتحت ضغط الشعب هرب إلى فرنسا ولم يعد إلى سورية إلا بعد سقوط باريس في يد الألمان.

كان الجنرال كاتروا والجنرال كوله وغيرهما، من العسكريين الذين خدموا في شمال افريقيا، وبعد الانشقاق بين الفيشيين والدوغوليين انضموا إلى قيادة الجنرال دوغول، وكانت **الخطة التي يزمع دوغول وأركانه تنفيذها، بعد العهد الذي قطعوه، هي منح سورية استقلال شكليا على أساس من التعاقد، لتأخذ مصالح فرنسا الصفة الحقوقية، ولا سيما بعد انحلال عصبة الأمم وسقوط المؤيد الحقوقي للانتداب، فتصبح هذه المصالح الاستعمارية مضمونة بقوة التعاقد، وتصبح فرنسا قادرة على مواجهة نوايا بريطانيا التي بدأت تسعى**

(4) المواد الست التي اعترض عليها المندوب السامي الفرنسي والتي جرى تقييدها بالمادة 116 المادة الثانية- ان البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية ذات وحدة سياسية لا تتجزأ، ولا عبرة لكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب حتى اليوم.
المادة 73 - لرئيس الجمهورية حق العفو الخاص، أما العفو العام فلا يمنح إلا بقانون.
المادة 74 - يتولى رئيس الجمهورية عقد المعاهدات الدولية وابرامها، أما التي تنطوي على شروط تتعلق بسلامة البلاد أو مالية الدولة أو المعاهدات التجارية أو سائر المعاهدات التي لا يجوز فسخها سنة فسنة فلا تعد نافذة إلا بعد موافقة المجلس عليها.
المادة 75 - يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويقبل استقالتهم ويولي الممثلين السياسيين ويقبل الممثلين السياسيين الأجانب، ويعين الموظفين الأجانب، ويعين الموظفين والقضاة ويرأس الحفلات الرسمية ضمن حدود القانون.
المادة 110- تنظيم الجيش الذي سينشأ يكون بقانون خاص.
المادة 112- لرئيس الجمهورية أن يعلن بناء على اقتراح مجلس الوزراء الأحكام العرفية في الأماكن التي تحدث فيها اضطرابات أو قلاقل. ويجب أن يعرض إعلان الأحكام العرفية المذكورة على المجلس فورا، وإذا كان المجلس غير منعقد دعاه للاجتماع بوجه السرعة.

(5) " ما من حكم من أحكام هذا الدستور يعارض، ولا يجوز أن يعارض، التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسورية لا سيما ما كان منها متعلقا بجمعية الأمم، ويطبق هذا التحفظ بنوع خاص على الخارجية، ولا تطبق أحكام هذا الدستور التي من شأنها أن تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسورية اثناء مدة هذه التعهدات، إلا ضمن الشروط التي تحدد في اتفاق يعقد بين الحكومتين الفرنسية والسورية، وعليه أن القوانين المنصوص عليها في مواد هذا الدستور التي قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات لا تناقش فيها ولا تنشر وفقا لهذا الدستور إلا تنفيذا لهذا الاتفاق. أن القرارات ذات الصفة الشرعية والتنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الفرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الدولتين".

أن تدخل سورية ولبنان في منطقة نفوذها؛ ولعب الجنرال سبيرس ممثل بريطانيا في سورية ولبنان دورا كبيرا ضد الفرنسيين في سبيل هذا الهدف.

وقد ظهر جليا وعلنيا من تكليف الشيخ تاج، ومن تأليف الوزارات التي تعاقبت في عهده ان الفرنسيين كانوا يسعون لتحويل الانتداب الى معاهدة تضمن امتيازات هذا الانتداب، ومع ذلك فقد كان في تشكيل تلك الوزارات نوع من التسوية بين النفوذين الفرنسي والبريطاني، فقد تشكلت من شهبندريين معادين للكتلة الوطنية، ومن شخصيات سبق لبعضها أن تعاون مع الانتداب الفرنسي، كما تولى الدعاية للشيخ تاج الشهبندري نصوح بابيل نقيب الصحافيين في جريدته الأيام، وأصبح منير العجلاني، الذي أشارت الوثائق البريطانية في الثمانينيات إلى "تعاونه الوثيق" مع الفرنسيين، صهرا للشيخ تاج وركنا من أركانه، فقد تولى أمانة القصر الجمهوري، كما تولى وزارة الدعاية والشباب.

ألف حسن الحكيم أول حكومة خلال رئاسة الشيخ تاج وكانت على الشكل التالي:

حسن الحكيم للرئاسة والمالية (شهبندري ومن اصدقاء الانكليز).

زكي الخطيب للعدلية (شهبندري).

محمد العايش للاقتصاد (اقطاعي من دير الزور).

فائز الخوري (كتلوي سابق).

بهيج الخطيب للداخلية (متعاون مع فرنسا).

فيضي الأتاسي (عينته فرنسة قبيل ثورة 1925 محافظا لمدينة حماه).

عبد الغفار الأطرش للدفاع (من المتعاونين مع فرنسا).

منير العباس للأشغال العامة والبرق والهاتف (مثقف، درس الحقوق في فرنسا، مع الوحدة السورية).

حكمت الحراكي للاعاشة والتموين (اقطاعي في منطقة المعرة).

كان تعيين وزير من جبل الدروز (عبد الغفار الاطرش) وآخر من العلويين (منير العباس من عشيرة الخياطين) ايهاما بضم المنطقتين إلى سورية، مع انهما ظلا منفصلين ماليا وإداريا ومحكومين من قبل الضباط الفرنسيين، وكان تعيين وزير الدفاع ايهاما بالبدء بتشكيل الجيش، بينما لم تتحقق الوحدة ولم تستلم سورية الجيش إلا بعد ثورة عام 1945.

لم يدم حكم هذه الوزارة طويلا، فقد استقال رئيسها حسن الحكيم لخلافه مع الشيخ تاج لأن الحكيم كان يطالب بإعادة المحاكمة في مقتل الشهبندر، فأصدر الشيخ تاج مرسوما بتكليف حسني البرازي الذي كان محافظا لدمشق، فألف الوزارة على النحو التالي :

حسني البرازي للرئاسة والداخلية.

حسن الأطرش للدفاع الوطني.

حكمت الحراكي للإعاشة والتموين.

راغب الكيخيا للعدل.

فايز الخوري للخارجية والمالية.

محمد العايش للاقتصاد الوطني.

منير العباس للأشغال العامة.

لم يطل الأمر بحكومة البرازي بسب الخلاف بينه وبين حكمت الحراكي وزير الاعاشة والتموين، لأن الحراكي باع محصوله الزراعي الكبير من القمح والشعير والذرة في السوق السوداء بأسعار عالية جدا، ولم يقدم لمصلحة الميرة التي يشرف عليها

الحلفاء إلا قسما ضئيلا من المحصول، مما جعل البرازي يطالبه بتقاسم الأرباح، وعندما استفحل الخلاف استغل البرازي حفلة أقامها الصحافي نصوح بابيل تأييدا لعهد الشيخ تاج، فهاجم الحراكي والشيخ تاج هجوما مقذعا مما أدى لإقالته، وتكليف جميل الالشي بتأليف الوزارة فألفها من الوزراء السابقين، وقد استمرت هذه الحكومة شهرين بعد وفاة الشيخ تاج بتاريخ 1943/12/17 عندما تدخل القدر فأزاح من أمام الحركة الوطنية عقبة كأداء، مما أفسح المجال لإجراء انتخابات عام 1943 باتفاق الفرنسيين والبريطانيين الذين كانوا يأملون أن تكون الاكثرية المجلسية بجانب سياستهم ونفوذهم، فخاب تقديرهم، واستقلت سورية استقلال ناجزا كما سيرد فيما بعد.

أزمة اقتصادية خانقة:

ما بين أواخر عام 1939 ويوم اجتياح القوات البريطانية لسوريا في حزيران 1941 مرت البلاد بأزمة اقتصادية حادة بالرغم من خصب المواسم الزراعية في هذه الفترة. فقد ارتفعت الأسعار بشكل جنوني وفقدت أكثر السلع الضرورية من الأسواق ونشأت أزمة فقدان الخبز فقامت مظاهرات دامية في حماه وفي معظم المدن السورية، وكانت السلطات الفرنسية قد حصرت التجارة الخارجية ولكنها أبقت على حرية التجارة الداخلية، لا سيما تجارة الحبوب، مما ولد نقمة شعبية على هؤلاء التجار فتعرضت مخازنهم وبيوتهم لهجوم المتظاهرين الصاخبين، مما اضطر بعضهم للهجرة كآل الزعيم الذين هاجروا من حماه إلى حلب، وقد سقط في تلك المظاهرات عدد من القتلى والجرحى.

لكن الأمر تغير بعد دخول الانكليز في 8 حزيران 1941. فقد أنشأوا مصلحة الميرة التي تولت حصر الحبوب لتموين البلاد وجيوش الحلفاء، فتوفر الخبز للمستهلكين. كما تولت مصلحة الاعاشة شؤون التجارة الخارجية استيرادا وتصديرا. وكثر النقد المتداول بعد دخول الانكليز مباشرة، إذ أصدر البنك السوري كميات هائلة من أوراق العملة بلا رصيد ذهبي، فتدنت القوة الشرائية لليرة السورية. وأصبحت الليرة الذهبية تعادل أكثر من

35 ليرة سورية بعد أن كان سعرها خمس ليرات سورية ونصفا. وهذا ما دعى السلطة لإصدار قانون تأجيل الديون.

لكن، رغم التضخم النقدي، بدأت الحركة الاقتصادية بالازدهار على جميع المستويات سواء في الزراعة أو الصناعة أو التجارة. وقد ولد هذا الازدهار ارتياحا عاما فانصرف الناس جميعا إلى النشاط والجد في الميدان الاقتصادي، وبدأ تكون الرساميل السورية، وبدأت الطبقة الاقطاعية والرأسمالية تكتنز وتغتني على حساب مصلحة الإعاشة ومصلحة الميرة اللتين أصبحتا فخين اقتنص بهما الانكليز عددا من العملاء والأصدقاء عن طريق الوظائف ومنح رخص التصدير والاستيراد والتسهيلات الأخرى، وفيما يتعلق ببريطانيا من المهم أن نذكر أنه بتاريخ 9 شباط 1942 وافق الملك جورج السادس على تعيين الميجر جنرال لويس سبيرز وزيرا مفوضا لبريطانيا في سوريا ولبنان. لأن هذا التعيين كان بداية التناقض الجدي بين السلطتين البريطانية والفرنسية في سوريا ولبنان، والذي أخذت آثاره تظهر شيئا فشيئا، وقد استفادت الحركة الوطنية من ذلك التناقض فائدة كبرى أدت إلى جلاء الجيشين البريطاني والفرنسي عن سوريا ولبنان فيما بعد وقد تحدثت زوجة الجنرال سبيرز عن ذلك في كتاب اسمته "قصة الاستقلال في سوريا ولبنان".

11

1943: الشعب السوري يجبر الفرنسيين على إعادة الحياة البرلمانية الديمقراطية إلى سورية - انتخابات عام 1943- حزب الشباب يخوض الانتخابات بمرشحه المحامي أكرم الحوراني.

ذكرياتي في المحاماة:

استأجرت قبيل الحرب، مع زميلي بدر الدين علوش، مكتبين متجاورين للمحاماه، وكان هذا بداية استقلالنا في العمل قبل انتهاء مدة التدريب، وقد أصبح هذان المكتبان مركزا لنشاط حركة الشباب بحماه.

لم تكن ذكرياتي عن مهنة المحاماة مشرقة. إذ إنني لم أكن جريئا في المرافعات والمراجعات، بل كنت حييا خجولا أخشى كثيرا النقد الذي يتعرض له عادة المحامون المتمرنون... كما إنني لم آلف بسهولة تقاضي الأجر المادي عن أتعاب المحاماة، ولم أقتنع بصحة وأخلاقية ما كنت أتقاضاه من الموكلين كبدل أتعاب، ولولا الحاجة والضرورة لما أكملت مدة التدريب، والواقع إنني كنت خلال ذلك أتحين الفرصة في البحث عن عمل آخر أؤمن منه أسباب المعيشة ويخلصني من هذه المهنة.

كانت المحاماة بالنسبة إلي مهنة شاقة نفسيا، فرب قضية مرتفعة الأجور لا تكلف إلا جهدا يسيرا، ورب قضية تكلف تعبا كبيرا ولا يتقاضى عنها المحامي إلا أجرا زهيدا، إن في مهنة المحاماة نوعا من المقامرة التي كنت أكرهها، وإن عملا لا تمارسه برغبة ومحبة وانفتاح لا تكون به مجدا مبدعا، ولذا لم أكن مجدا مكبا على دراسة الدعاوى والقوانين كما ينبغي، ولم تؤثر بي كل الاغراءات المادية التي أتاحتها ظروف الحرب للمحامين ولأصحاب المهن الحرة بشكل عام، وبالرغم من أنني أصبحت بعد انتهاء فترة التدريب محاميا معروفا- وكان المحامون في حماه قلة- فإن ذلك لم يؤثر على نفوري من تلك المهنة التي كنت أمارسها.

كانت الثقة والقناعة والتواضع هي العوامل التي تدفع بأصحاب الدعاوى للاقبال على توكيلي بقضاياهم، وكانت هذه العوامل تنقلب إلى صداقة دائمة مع الموكلين، لا سيما الفلاحين، يضاف إلى ذلك أنني ما طالبت مرة بالأجور المؤجلة، ولم أقاض أي موكل لامتناعه عن دفعها، كما أنني كثيرا ما كنت ألجأ إلى المصالحة بين المتخاصمين وإنهاء مشاكلهم قبل وصولها إلى المحكمة، ضاربا عرض الحائط بالمكاسب المادية، فكم وكم من قضايا الزواج والطلاق حلت بهذا الاسلوب فلاقت أعظم الارتياح لدى أصحابها.

وفي بداية العمل كان يحز في نفسي احترام القضاة للأساتذة الكبار، ولكن سرعان ما أصبحت أتمتع مثلهم بالتقدير والاحترام، وقد جمعتني صداقة خالصة مع عدد من القضاة الذين كانوا يتحلون بالثقافة والنزاهة والتجرد، ولا زلت أشعر باعتزاز كبير لما كان يتمتع به القضاء السوري وجهاز الدولة عامة من نزاهة، لا سيما في ظروف الحرب... فقبل الحرب كان الموظف يغبط على وظيفته ويعد من الفئة الميسورة. ولكن الحرب قلبت الآية.

كان قضاتنا الشجعان يصدون تدخلات المستشارين الفرنسيين بقسوة وعنف، ولا زلت أذكر موقف أحد القضاة عندما أرسل إليه المستشار توصية بإحدى الدعاوى، فأبرزها وتلاها علنا ثم سجلها في ضبط الدعوى.

لكن، بالرغم من المكاره التي يواجهها المحامون أثناء ممارسة مهنتهم، فإنها من أكثر المهن التصاقا بالمجتمع الذي نعيش فيه فهي تتيح للمحامي أن يتصل بالوعي والاحتكاك المباشر إلى أعماق قضايا المجتمع ومشاكله وأوضاعه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

إن المحامي يرى بالمجهر جميع ما يتمتع به الشعب من فضائل وإمكانيات وما يقاسيه من علل وأمراض، ولقد كشفت لي تلك التجربة عن أن مجتمع الريف كان أكثر صحة وعافية من مجتمع المدينة، كما كان من إيجابيات مهنة المحاماة أنها زودتني

بنصيب من الثقافة الحقوقية والقانونية التي تجعل النائب أكثر قدرة على فهم مشاكل المجتمع ومعالجة شؤونه عند اقتراح القوانين أو صياغتها ومناقشتها، إن مهنة المحاماة كانت تمرينا فعليا استفدت منه عندما أصبحت نائبا في عام 1943.

كانت ظروف الحرب فرصة لثراء المحامين واغتنائهم، ولكنها كانت بالنسبة إلي فرصة لأعيش مشاكل المجتمع وأفهمها، أما من ناحية المردود المادي فقد أصبحت بعد مزاولة المهنة أعيش بمستوى الأقران والأصدقاء، ولم أكن مسؤولا آنذاك إلا عن والدتي التي كنت أعيش معها في المنزل الأبوي، وقد توفر معي ما يقارب السبعين ليرة ذهبية شجعتني على إصدار جريدة اليقظة فيما بعد. أي أن نعمة المهنة رافقتني آثارها حتى صدور "اليقظة" في عام 1946.

ولعل الفترة التي انصرفت فيها للمحاماة بشكل متواصل كانت إبان عهد الشيخ تاج الدين الحسني. فكيف كانت الأوضاع السياسية في البلاد في تلك الفترة؟

انهيار الكتلة الوطنية في عهد الشيخ تاج

كنت أسمع الصبية في أزقة حماه يقولون: "هاشم بك، ما بتليق لك الوزارة.. يا أمير يا شيخ تاج على زمانك شبعنا كماج(خبز)".

كنت أسمع هذا فترجع بي الذكرى إلى ثورة الشعب عام 1936 وكيف كان الشعب يهاجم بيت الشيخ تاج في حي الحلبوني بدمشق ويرميه بالحجارة، ولما عجزت السلطة عن حمايته غادر البلاد هاربا إلى فرنسا.

كان يخيل لكل من عاش تلك الفترة أن الشيخ تاج سوف يتعرض للاغتيال إذا أعادته فرنسا للحكم مرة ثانية... وها إن الشتائم توجه لهاشم الأتاسي رمز الكتلة الوطنية والثناء يوجه للشيخ تاج رمز التعاون، فكيف انقلبت الأمور هكذا خلال خمس سنوات فقط؟ أهو الدين؟

إن الشعب في ثورة 1936، لم يسقط الشيخ تاج وحده بل أسقط معه كل رجال الدين الذين تعاونوا مع الانتداب الفرنسي وظل هؤلاء مدانين بنظر الشعب إلى ما بعد الجلاء.

ربما كان توفر الخبز بعد دخول قوات الحلفاء أحد الأسباب ولكنه ليس السبب الوحيد.

إذن ما هي الأسباب الأخرى لانهيار شعبية الكتلة الوطنية التي قادت البلاد خلال حقبة طويلة من الزمن؟

كان من الأمور المسلم بها آنذاك أن تراجعات الكتلة الوطنية أمام فرنسا، ومساوماتها، ومسايرتها، وانهزامها، وخسارة اللواء، وحكم المزرعة والاستغلال الذي مارسته الكتلة خلال فترة حكمها ما بين عامي 1936 و 1940، هو السبب الرئيسي في انتكاس الحركة الوطنية وانهيار الكتلة التي كانت تقودها. فالفرنسيون لم يقيموا حكومة المديرين إلا على أشلاء الكتلة التي طعنت الحركة الوطنية في الصميم، ومن هنا تبرز أهمية محاولة اغتيال بهيج الخطيب التي كان يمكن أن تكون بداية الطريق في لم شعث القوى الوطنية وإيقاظها وإنقاذ الحركة من الانهيار، ولكن الكتلة فعلت عكس ذلك فحرضت مع المشايخ والفرنسيين لاغتيال الدكتور الشهبندر. فكانت هذه الجريمة المسمار الأخير في نعش الكتلة الوطنية.

ولو استعرضنا أسماء الوزراء بعد عهد حكومة المديرين نجد بينهم عددا وافرا من قادة الكتلة الوطنية، أما من تخلف منهم فلأن الفرصة لم تسنح له، ولهذا أصبح الشعب يرى أن قادة الحركة الوطنية، الذين كان يسير وراءهم فترة طويلة، هم كالشيخ تاج واضرابه من المتعاونين مع الانتداب.

ومن حسن الحظ أن شكري القوتلي، منذ بداية عهد حكم الكتلة الوطنية، استقال من وزارة المالية في الحكومة المردمية احتجاجا على توقيع جميل مردم في غيابه على اتفاقية البنك السوري. وبذلك ظل شكري القوتلي وهاشم الأتاسي الشخصين اللذين لم يفقدا اعتبارهما النهائي في نظر الشعب، وعلى هذا

الأساس زاول القوتلي نشاطه فيما بعد، لا سيما بعد أن رفض هاشم الأتاسي- الذي كان أكثر منه شعورا بالمسؤولية- أن يقوم بالدور الذي قام به القوتلي، فاعتذر عن أن يكون رئيسا للجمهورية وقائدا للمرحلة القادمة. كما صرح بذلك الجنرال كاترو نفسه.

لقد أوغل الشيخ تاج[1] في تمزيق الحركة الوطنية مستغلا الدين، وتمكن أن يتغلغل في الأحياء الشعبية ويلف حول ضلاله الجمهور.. ولو قدر له أن يبقى حيا لما تمكن شكري القوتلي من النجاح في انتخابات عام 1943 بدمشق. والدليل أن ابن الشيخ تاج، رشح نفسه، على ذكرى والده، لتلك الانتخابات فنال أصواتا تسود لها وجوه قادة الكتلة الوطنية.

□

جريمة إقطاعية تؤدي إلى توحيد الصف الوطني في حماه

في أواخر عام 1942 وقعت جريمة قتل أدت لقيام أول التقاء بين الكتلة الوطنية في حماه وبين حزب الشباب، وذلك بسبب توكيل محاميين بالدعوى القضائية التي اعقبت تلك الجريمة.

كانت القتيلة هي الابنة الوحيدة لتوفيق البرازي بعد مقتل اخيها محيي الدين في سوق الغرب في لبنان بظروف غامضة عام 1939، وقد قتلت بينما كانت تهم بالدخول إلى منزل شريف البرازي المقابل لباب بيتنا مباشرة، وذلك عندما فاجأها ابن عمها صالح بن خالد الدرويش البرازي فأطلق عليها النار وأرداها قتيلة، وعندما عدت إلى البيت وجدت والدتي تبكي، فتألمت كثيرا لأن سبب هذا الاغتيال - كما يعرف الجميع- طمع صالح البرازي واخوته

(1) ولد في دمشق سنة 1886 وتلقى العلوم الدينية والقرآن والتفسير والحديث عن والده الشيخ بدر الدين الحسني. كان عضوا في المؤتمر السوري العربي في العهد الفيصلي، ثم عضوا في مجلس الشورى وفي محكمة التمييز العليا، ثم قاضيا في دمشق، وتولى تدريس الوصايا والفرائض وأحكام الزواج وأصول الفقه في معهد الحقوق العربي بالجامعة السورية، وبعد انتهاء الثورة السورية عين عام 1928 رئيسا لمجلس الوزراء وانتخب عضوا في الجمعية التأسيسية، ثم أخذ صلاحيات رئيس الدولة وظل في الحكم حتى سنة 1931، وعاد إلى الحكم سنة 1934 وتولى رئاسة الحكومة في الجمهورية السورية الأولى التي كان يرأسها محمد علي العابد، وفي 17 ايلول 1941 تقلد منصب رئاسة الجمهورية السورية إلى حين وفاته.

بوراثة عمهم بعد أن أصبح بلا ذرية، وقد أصبحت هذه الجريمة موضع اشاعات واتهامات كثيرة اثبت التشريح بطلانها.

كان من عادة الطبقة الاقطاعية في حماه حصر إرث الأراضي بالأبناء الذكور بما يشبه من بعض الوجوه التقليد البريطاني بحصر إرث الأراضي بالإبن الأكبر، وهذا ما يتنافى مع الشرع الاسلامي الذي يقضي بتوريث النساء، كما يتنافى مع قانون الأراضي الذي يساوي في وراثة الأراضي الاميرية بين الذكور والإناث، وهكذا كان يقضى على بنات الأسر الاقطاعية بالحرمان من ارث الأراضي بالتنازل الإرغامي، وما جريمة صالح البرازي إلا حلقة من سلسلة جرائم مماثلة ظالمة وجائرة استهدفت النساء والبنات بحجة الدفاع عن العرض وما شابه ذلك.

كان والد الفتاة متوجسا خيفة من اغتيال ابنته بعد مصرع ولده في سوق الغرب، وها قد وقع ما كان يخافه ويخشاه، وكان إلى ذلك ضعيفا يحس بأنه أصبح بعد مقتل ابنه بلا عصبية تسانده حيال أخيه خالد الدرويش المشهور بالقسوة والعنف والذي يكون أولاده عصبة فتاكة، ولكن فظاعة الجريمة، وحنو الأبوة، وهول الظلم جعل هذا الأب المكلوم يجازف برفع دعوى قضائية على ابن أخيه والمشتركين معه بهذه الجريمة.

ولكي يضمن حمايته من طغيان آل البرازي اتجه إلى توكيلي وتوكيل بدر علوش ورئيف الملقي، الممثلين لحزب الشباب والكتلة الوطنية، في هذه القضية التي لم يكن لها أهمية قضائية بقدر ما أسفرت عنه من نتائج سياسية هامة في فضح جرائم الاقطاعية وتعبئة الاوساط الشعبية في حماه ضدها.

لقد أخذت هذه القضية وجهتها السياسية والاجتماعية والقضائية على نحو لم يكن محصورا في دوائر القضاء، وانما اتسعت فشملت اهتمام الجماهير في الأحياء الشعبية، وكانت مناسبة لفضح الاقطاع وجرائمه، وخروجه عن جميع الشرائع الاخلاقية والدينية.

كان رئيف الملقي الذي رئس الكتلة الوطنية بعد وفاة الدكتور توفيق الشيشكلي يشعر بضرورة الالتقاء مع حركة الشباب، بعد أن ظهرت في الأجواء السياسية بوادر اقتراب عودة الحياة الديمقراطية وإجراء الانتخابات النيابية، فكان توكيلنا بهذه القضية التي أصبحت شاغلا لاهتمامات الجماهير الشعبية في المدينة مناسبة للبدء بتحقيق هذا اللقاء، وكان الملقي يدرك بأن ثراء الاقطاعيين الفاحش الذي أتاحته لهم ظروف الحرب والميرة والاتجار بالحبوب يشكل أمضى سلاح بيدهم في المعركة الانتخابية التي سيخوضون غمارها، وسيجدونها فرصة - بعد وفاة الدكتور توفيق شيشكلي- للقضاء عليه نهائيا.

وهكذا كانت تلك الدعوى مناسبة لالتقاء سياسي واجتماعي بين حزب الشباب والكتلة الوطنية، هكذا فهمت القضية في الأوساط الشعبية، فكانت أساسا لوحدة الصف الوطني استعدادا للمعركة القادمة.

انتهت الدعوى ببراءة صالح البرازي ورفاقه، ونجا من عقوبة القضاء، ولكنه لم ينج من عقوبة السماء، فقد ذهب قتلا هو وأبناء عمومته الآخرين بأيدي بعضهم البعض.

كان المهم في هذه القضية أنها تعرضت بجرأة لوضع المرأة في المجتمع ولما كانت تعانيه، كما تعرضت لأهمية دورها الاجتماعي والوطني والحضاري، وهو ما سنفرد له فصلا خاصا فيما بعد.

عودة الحياة الدستورية للبلاد

بعد انهيار الكتلة الوطنية وانحلالها، تفرق رجالها، فأصبح كل زعيم منهم يعمل منفردا في نطاق مدينته وجماعته وعشيرته، ومنذ البداية كانت الحركة الوطنية بحماه منفرده عما سواها من المدن السورية الأخرى بأنها كانت في آن واحد نضالا سياسيا وتحرريا ضد الاستعمار، ونضالا اجتماعيا ضد الاقطاعية والعشائرية، وقد كان للطلائع الأولى في حماه، من الشيخ حسن رزق، إلى الدكتور صالح قنباز، إلى الدكتور توفيق الشيشكلي، دور في جعل

الحركة الوطنية في هذه المدينة حركة شعبية تختلف عن فروع الكتلة الوطنية في المدن السورية الأخرى.

ثم جاء حزب الشباب والعربي الاشتراكي ليطرح لأول مرة في سورية وفي المنطقة العربية. موضوع تحرير الفلاحين من الاقطاع المادي والسياسي وذلك بالالتحام مع الحركة الشعبية في المدينة ضد طبقة "الذاوات" الاقطاعية المسيطرة على الريف والمدينة معا.

كان الدكتور توفيق الشيشكلي صلة الوصل -بشخصه- بين الحركة الوطنية بحماه والكتلة الوطنية كتجمع سياسي في سورية، رافعا بذلك نطاق العزلة عنها، ولكن أواصر ارتباط الحركة الشعبية في حماه بمعظم رجالات الكتلة قد أصبحت واهية بعد وفاة الدكتور توفيق، مما سهل التحالف بين حزب الشباب وجماعة الملقي، لا سيما بعد أن حلت الكتلة نفسها بعد انهيارها رسميا وفعليا، فقد انطلق شكري القوتلي في معركة الانتخابات بدمشق من هذا القول خلال خطاب له في جامع دنكز:

"يجب أن تعلموا أنه لا حزبية ولا عصبية بعد اليوم، فليس عندنا سوى حزب واحد هو حزب الوطن".

لم يكن بمقدور القوتلي أن يقود البلاد لولا تنصله من الكتلة الوطنية التي أصبحت غير موثوق بها بنظر الجماهير الشعبية.

□

بعد وفاة الشيخ تاج الدين الحسني رئيس الجمهورية بتاريخ 1943/1/17، مارست الحكومة البريطانية ضغطا على "اللجنة الوطنية الفرنسية" في لندن لتعهد إلى مندوبها في سورية المفوض الجنرال كاترو بإعادة الحياة الدستورية التي أعلنت بتاريخ 1943/1/24.

ولما ظلت حكومة الإلشي مستمرة في الحكم بعد وفاة الشيخ تاج أضربت البلاد لأول مرة في فترة الحرب احتجاجا على استمرار العهد البائد، فاضطر الجنرال كاترو بتاريخ 1943/3/25

لاصدار قرارات تقضي بإعادة تطبيق الدستور السوري، وإقامة حكومة مؤقتة لتشرف على الانتخابات، فانتهى الاضراب، وتألفت الحكومة على الشكل التالي:

عطا الأيوبي لرئاسة الدولة، ورئاسة الحكومة. ووزيرا للداخلية والدفاع الوطني مصطفى الشهابي للمالية والاقتصاد والاعاشة نعيم الانطاكي للعدلية والمعارف والشؤون الاجتماعية.

وقد أوضح الجنرال كاترو الأسباب التي دعته لتشكيل حكومة مؤقتة حيادية لتشرف على الانتخابات النيابية بقوله:

"يجب ألا تكون للحكومة التي تشرف على الانتخابات صبغة سياسية، وأن تديرها شخصية معروفة بوطنيتها ونزاهتها عن كل تأثير، وباستقامتها وتجردها، وكل هذا ينطبق على معالي عطا بك الأيوبي، هذا ملخص التدابير التي اتخذتها، وهذه هي روحها، وكان من الممكن إيجاد حلول أخرى،منها التفكير في العودة إلى وضعية عام 1939 (أي عودة مجلس 1936 وعودة هاشم الأتاسي رئيسا) ومنها تكليف النظام الحاضر (حكومة الالشي) العودة إلى الحياة الدستورية.

أما الطريقة الأولى، فلو طبقت لكانت شرعية، فإنه بمقتضى الأوضاع الدستورية نفسها، كان من الممكن إرجاع السلطات التي كانت تتولى الحكم سابقا، غير أن فخامة الرئيس هاشم بك الأتاسي قد رأى عندما استشرته في الأمر، بوجدان يدل على شرف اخلاقه وتجرده، أن من الواجب تجنب هذا الحل، واعتبر أنه قد لا يعبر عن إرادة الشعب التي يجب أن يترك لها ملء الحرية للظهور بواسطة انتخابات مباشرة.

أما تكليف الحكومة الحاضرة (الالشي) مهمة الاشراف على الانتخابات فيمنع ذلك عدم انسجامه مع المبادئ الدستورية..

إنه من الصعب تصور حكومة مؤلفة لتطبيق نظام مطلق الصلاحية، وقد طبقته في الواقع، أن يكون لها الصفة اللازمة لإنجاز العودة إلى النظام الدستوري الديموقراطي. "

□

القوتلي ينطلق من سياسة التعاقد مع فرنسا

تساءل الناس : على أي أساس سوف تعود الحياة الدستورية للبلاد والانتداب الفرنسي لا يزال قائما ومسيطرا على جميع شؤونها الادارية والسياسية والمالية والاقتصادية وقوى الأمن والجيش؟.. هل تعود الحياة النيابية كامتداد لعهد الشيخ تاج مع تبدل الأشخاص؟

وكان جواب الناس: لا بد من نضال مرير لإحداث تغييرات جذرية أولها إلغاء الانتداب واعلان الاستقلال وممارسته وتنفيذه.

أما رجال الكتلة الوطنية وعلى رأسهم القوتلي فقد كان لهم جواب آخر عبر عنه مقال بعنوان "أنصار التعاقد مع فرنسا لا يزالون على رأيهم من عشرين سنه" نشره في "القبس"[2] بتاريخ 30 آذار 1943 نجيب الريس الناطق الرسمي للكتلة الوطنية، قال فيه: "لعل بعض الناس يتساءلون عن مصير السياسة الوطنية التي كانت قبل هذه الحرب والتي كان زعماؤها ينادون بالتعاون والتعاقد مع الدولة الفرنسية، لعلهم يتساءلون: ماذا طرأ عليها من تطور؟ وماذا أدخل عليها من تعديل؟... والقبس في أول عدد يصدر منها بعد غياب تسعة أشهر تجيب على هذا السؤال :

لقد كان الوطنيون أول من دعا إلى إبدال الانتداب الفرنسي بمعاهدة تعقد بين سوريا وفرنسا على أساس المعاهدة التي عقدت بين العراق وانكلترا، وكان أول صوت جريء لأشجع رجل في سوريا ارتفع عاليا يطلب التعاقد وإبدال الانتداب بمعاهدة قبل الثورة السورية وقبل تعيين المسيو دوجوفنيل مفوضا ساميا لسوريا ودعوته لابدال الانتداب بمعاهدة إنما كان

(2) كانت القبس الجريدة الناطقة باسم الكتلة الوطنية طيلة عهد الانتداب.

صوت الزعيم الشجاع إبراهيم هنانو في حلب، وكان أول قرار اتخذه الوطنيون بصورة رسمية إنما كان في أول مؤتمر وطني عقدوه في بيروت عام 1927 برئاسة الرئيس الجليل السيد هاشم الأتاسي، **حيث وضعوا أساس التعاون مع فرنسا، وقرروا الخروج من السياسة السلبية إلى السياسة الايجابية وطالبوا بعقد معاهدة مع فرنسا تستوحى من مبادئ التصريح الفرنسي الانكليزي المعروف بتصريح سايكس بيكو، والمادة 22 من ميثاق عصبة الأمم. وظل هذا هدفهم حتى عام 1930 حيث عقدت المعاهدة العراقية الانكليزية الأخيرة. فقرروا يومئذ أن الحد الأدنى لمطالبهم هو عقد معاهدة كمعاهدة العراق روحا ونصا وتطبيقا حتى تم التفاهم مع فرنسا وعقدت المعاهدة.... وها نحن اليوم، وبعد كل شيء ورغم كل شيء، لا ننكر رأينا ولا ننتقل من صداقة دولة إلى صداقة دولة أخرى. وليس فينا والحمدلله من يبدل مبادئه السياسية كما تبدل القمصان".**

وبغض النظر عن ماقشة اتهام هنانو بالتعاون مع فرنسا الذي يدحضه واقعيا إسقاط الفرنسيين له ولقائمته في حلب بانتخابات 1932، فإن المهم في هذا التوجيه الصريح هو أن عهد القوتلي سوف ينطلق مع الجنرال كاترو من معاهدة سايكس بيكو ومن نصوص ميثاق عصبة الأمم وبنودها التي فرضت الانتدابات الفرنسية والبريطانية على منطقة المشرق العربي، وهذا ما يفسر الأحداث السياسية التي تعاقبت على البلاد حتى الجلاء في عام 1945.

لقد تغير العالم بعد الحرب ولكن عقلية رجال الكتلة الوطنية لم تتغير.. فقد تبدلت الظروف الموضوعية داخليا وعربيا، وألغيت عصبة الأمم وألغي ميثاقها، وأصبحت فرنسا دولة محتلة تجاهد في سبيل حريتها واستقلالها واشتد التناقض الاستعماري في سوريا بين فرنسا ديغول وبريطانيا... ولكن عقلية الكتلة الوطنية لم تتغير.

كان لا بد من خوض المعركة ضد الانتداب والمتعاونين معه واستسناح الشعب هذه الفرصة لتحقيق استقلال البلاد وحريتها في هذه الظروف الدولية الملائمة.. لكن الشعب، بعد تلك الفترة

الطويلة من خمول الحركة الوطنية وانهزامية زعمائها، كان ضائعا يبحث عن رجل لقيادة البلاد، بينما السيد القوتلي لم يقبل حتى الآن- نيسان 1943- أن يجيب على أي سؤال يتعلق بالموقف الانتخابي، ولم يسمح حتى بطرق موضوع الانتخابات من أساسها. بل كانت نصائحه دائما بالحض على الهدوء والأناة والصبر. وقد شهدنا له مساء أول أمس - والكلام لجريدة القبس 2 نيسان 1943- حديثا وجهه إلى فريق من عيون تجار المدينة يرمي به إلى مقاومة كل حركة تزعج هدوء المدينة واستقرارها الطبيعي، وأنه من الواجب أن ينصرف الناس إلى مزاولة أعمالهم، وأن يتركوا حديث الانتخابات للذين يتولون أمورها، وأن يتركوا شؤون الخبز أيضا للحكومة لتعالجها بالطريقة الحكيمة".

هذا بالوقت الذي أرسل فيه الجنرال ديغول البرقية التالية إلى رئيس الدولة معربا فيها عن مضمون السياسة الفرنسية الجديدة: "نهنيء دولتكم على دعوتكم لتديروا بروح نزيهة رفيعة البلاد السورية وهي في طريق الحياة الدستورية التي أعيدت إليها. وإني واثق بنجاح هذه الجهود وببقاء روابط الصداقة القديمة التي توحد بين سوريا وفرنسا".

ولتحقيق هذه السياسة كان لا بد للقوتلي من أن يعيد شمل الكتلة الوطنية الممزقة بقيادته، فكتبت جريدة "القبس" تحت عنوان: "الوطنيون القدماء يتفقون بدمشق ويختلفون بحلب" قائلة: "لماذا هذا الخلاف؟... إن كان على الماضي وكان في ذلك الماضي خطأ فإن الجميع مسؤولون عن ذلك الخطأ لأن الوزراء ارتكبوه، ولأن النواب أيدوهم فيه فلم يرتفع لواحد منهم صوت في انتقاد عمل الوزراء. بل بالعكس كانوا مؤيدين لهم ولعملهم إلى أبعد حدود التأييد... قد يختلف رجال الحزب الواحد أو الهيئة الواحدة على مبادئ سياسية كبرى فيفترقون وينقسمون لأن كل واحد منهم يتجه اتجاها أساسيا في سياسته بالنسبة للقضية التي يخدمها مثلا. أما أن يفترق رجال هذا الحزب أو الهيئة وهم متفقون في العقيدة والغاية والوسيلة فهذا اختلاف شخصي لا يبرره شيء".

بدء النفوذ البريطاني في سوريا:

كان الفرنسيون يبذلون نشاطا كبيرا لتهيئة بناء العهد الجديد بما يخدم مصالحهم في سورية، وفي الوقت ذاته بدأت بريطانيا تبرز على المسرح السياسي السوري بشكل قوي شيئا فشيئا، ونشط ضباط المخابرات البريطانيون في جميع أنحاء سوريا وأصبحت منافستهم للنفوذ الفرنسي واضحة جلية، كما استأجر الجنرال سبيرز، وزير بريطانيا المفوض بدمشْق، منزلا في شارع أبو رمانة يستقبل به الناس. ونشرت الصحف وصفا لحفلة الاستقبال الكبرى التي أقامها فقالت إن أبهاء دار المفوضية غصت على رحبها بالرجال الرسميين والوطنيين، وكان الجنرال سبيرز والليدي سبيرز يستقبلان الوفود بالترحاب. كما كان الكولونيل غاردنر وكبار الضباط يستقبلون المهنئين. وعندما استقبل الجنرال سيبرز نقيب الصحافيين نصوح بابيل وأعضاء مجلس الصحافة قال إنه مسرور من دمشق وسروره أكثر أن يكون له بيت فيها. ومن حسن المصادفة أنه منذ 150 سنة عين أول قنصل بريطاني بدمشق وسكن فيها، والآن هو سعيد بأن يكون هو أول وزير بريطاني يتخذ دمشق مقرا له، وتكون لبريطانيا مفوضية سياسية ترمز رمزا عمليا للاعتراف باستقلال سوريا.. ثم أعرب عن أمله بأن يكون لسوريا وفد رسمي بمؤتمر الصلح بعد الحرب ينبثق عن حكومة شرعية ديمقراطية تكون وليدة انتخابات حرة إلى أقصى حدود الحرية.

دعوات للقومية العربية في مصر

ما إن رجحت كفة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، في عام 1943، وتهيأ للحركات الوطنية بعض الانفراج في الأقطار العربية إلا وأخذت تشق طريقها القومي، فكانت هذه اليقظة القومية العربية في مصر موضع استغراب ودهشة في الصحف السورية جعلت إحداها تقول:

"في مصر وفي برلمانها وحكومتها وأحزابها تسابق هائل على بحث الوحدة العربية أو الاتحاد العربي، حتى ليكاد المتتبع

للصحف المصرية يدهش لهذا التطور السريع بالنسبة للمصريين الذين كانوا قبل هذه الحرب لا يذكرون الوحدة العربية أو الاتحاد العربي الا مجاملة وبمناسبة من المناسبات السياسية الطارئة. بل كان المصريون إذا ذكروا سوريا ولبنان وفلسطين والعراق يطلقون على هذه البلاد عبارة واحدة هي: الدول الشرقية".

كانت بريطانيا تشجع هذا الاتجاه الذي بلورته في إطار جامعة الدول العربية، كما سنرى فيما بعد، للمحافظة على مصالحها ونفوذها في المنطقة العربية.

رمية من غير رام

بدأ شكري القوتلي نشاطه السياسي في دمشق، بعد الاعلان عن الانتخابات، بحذر وتردد، فاقتصر نشاطه على الزيارات والولائم والاجتماعات المحدودة مع بعض التجار وبعض رجال السياسة السابقين وسواهم ممن كان يدفعهم الحس الانتهازي لممالأته باعتباره خلفا للشيخ تاج في زعامة البلاد.

وفي 9 أيار توجه القوتلي إلى حمص لرد التحية لهاشم الأتاسي الذي اعتذر للجنرال كاترو عن قيادة العهد من جهة، وللتودد للأتاسي ليكون عونا له على جمع صفوف الكتلة الممزقة من جهة أخرى، فتمت زيارته لحمص بجو طبيعي لم تشارك فيه الجماهير الشعبية بأي استقبال أو احتفال.

ومن حمص توجه القوتلي إلى حلب للغرض ذاته، وهو لم شعث الكتلة الوطنية، فمر بحماه حيث استقبلته الكتلة الوطنية، واقتصر الاحتفال به على زيارة بيت توفيق الشيشكلي بيت الأمة وبيت نجيب البرازي، وكان استقباله طبيعيا وهدف الزيارة أيضا هو إعادة ما انصرم من علائق رجال الكتلة الوطنية بحماه.

ومنها ذهب إلى حلب. فانفجر الطوفان الشعبي المكبوت لاستقباله، فمكث بحلب بضعة أيام لم يتمكن خلالها من تحقيق

هدفه بتوحيد صفوف الكتلة الوطنية، ولكنه عاد منها زعيما للبلاد. وكان مروره بحماه في طريق العودة يوما مشهودا.

وقد وصفته الصحف بما يلي:

"وصل الموكب إلى حماه وكان في انتظاره وفود تمثل جميع طبقات المدينة برتل من السيارات، وقد اصطف على جانبي الطريق عدد غير قليل من الجماعات المسلحة بالبنادق لتستقبل الموكب وتسير معه، إلى أن وصل إلى مدخل المدينة في حي الحاضر، وقد أعدت سيارة خاصة زينت بالأعلام والزهور ركبها السيد القوتلي وبجانبه السيد سعدالله الجابري، واخترقت الجموع الحاشدة بصعوبة بالغة، بينما كانت هتافات جماهير الأهلين بحياة السيد القوتلي تشق عنان السماء. وقد استغرق سير الموكب من أول المدينة إلى ساحة العاصي مدة ثلاث ساعات، وهناك دخل السيد القوتلي وصحبه إلى فندق أبي الفداء وأطل من شرفة الفندق حيث استعرض الجموع الحاشدة التي كانت تسير بشكل عراضات وتحمل الرايات وتهزج بالأهازيج الشعبية الحماسية وتلعب بالسيف والترس وترقص الرقصة العربية المعروفة بالدبكة. وبالاختصار فإن استقبال حماه كان بالغا منتهى الروعة والحماس. وقد ألقى السيد القوتلي خطابا حماسيا شكر فيه الجموع وحيا التضامن الشعبي، ثم قصد دار المغفور له المرحوم الدكتور توفيق الشيشكلي، حيث تعاقب الخطباء يحيون الزعيم القوتلي ويعلنون مبايعته على الزعامة، نذكر منهم الأساتذة رئيف الملقي وعثمان حوراني. ثم ألقى المطران أغناطيوس حريكة خطابا جاء آية في الوطنية والاخلاص قال فيه: إنني أبايع هذه الزعيم - مشيرا إلى السيد القوتلي- بعد أن بايعته الزعامة هذه الجموع المحتشدة. إن سوريا، وهي في المرحلة الأولى من الاستقلال، تتلفت يمنة ويسرة لتفتش عن ابن بار حقيقي يقودها إلى الكرامة والعزة القومية، فلم يقع نظرها إلا على هذا الزعيم الذي بايعته سوريا الشمالية، والآن تبايعه حماه قلب العروبة النابض".

وأثناء مرور القوتلي بحمص استقبل باحتفالات شعبية مماثلة. وعندما عاد إلى دمشق خرجت العاصمة عن بكرة أبيها لاستقباله.. وبذلك أصبح القوتلي زعيما شعبيا للبلاد فاستعاد الثقة بنفسه، وأخذت الصحف تنشر بعناوين بارزة: "القوتلي يدعو رجال الأحياء بعد عودته من حلب"..

لم يحقق القوتلي من هذه الجولة الأهداف التي رسمها لها. إذ أنه لم ينجح في لم شعث فلول الكتلة الوطنية الممزقة. أما مجاملته لهاشم الأتاسي فقد ردها الأتاسي إليه بمجاملة عبر عنها بعد الزيارة، بقوله: "إني لفخور بزوال الغيمة التي كانت قد خيمت على علاقات الوطنيين في عاصمة الشمال العزيزة، على أثر الأحداث الؤلمة التي أصابت البلاد سنة 1939، وها هم أولاء لم يكادوا يروا ما للأحداث المقبلة في سوريا من أثر خطير على حياتها السياسية حتى تناسوا ما كان قد عرض، وتسارعوا لجمع الكلمة لمجابهة الأحداث القريبة بإرادة قوية موحدة. وقد كان الفضل في تحقيق النتيجة المنتظرة في وقتها إلى الزعيم الوطني السيد شكري القوتلي الذي شد الرجال مع رهط من الشباب الوطني إلى الشهباء لأجلها . ليس الاتحاد الحاصل قائما على أساس حزبي، بل اتحاد جميع العناصر الوطنية وتآزرها لتحقيق غايات البلاد في الاستقلال الصحيح".

إذن ما هو السبب يا ترى في هذه الاستقبالات الشعبية المفاجئة في حلب وحماه وحمص ثم في دمشق، وما هي الخلفيات الكامنة وراءها، بعد انهيار الكتلة الوطنية حتى الحضيض؟.

لا شك أنه كان لفرنسه وبريطانيا معا يد في تحريك هذا الاستقبال لتكريس القوتلي زعيما للبلاد، فقد كانت كل منهما تأمل بأن يكون القوتلي متعاونا معها منفذا لسياستها.

ولكن السبب الجوهري هو أن الحركة الوطنية ظلت طيلة سنوات الحرب خاملة ساكنة، إلا من انتفاضات كان يقضي عليها سريعا، فتعود البلاد- بلا قيادة وطنية- للضياع والاستسلام والانهزام أمام الاستعمار وعملائه، وكان عهد الشيخ تاج صورة كالحة لهذا التمزق واليأس، فأتت رحلة القوتلي مناسبة عفوية لانفجار هذا الكبت الذي عانى منه الشعب طويلا وكانت بداية الرجاء والمناسبة التي أثبت فيها الشعب وجوده واستعاد ثقته بنفسه واستعرض قوته.. فكانت نتائج هذه الرحلة بالنسبة

للقوتلي رمية من غير رام... ولكن كيف كان موقفنا من استقبال القوتلي؟

لم يكن موقفنا من تلك الاستقبالات الشعبية العارمة للقوتلي موقفا متحمسا مندفعا ولا موقفا معارضا، بالرغم من معارضتنا للكتلة الوطنية ولسياستها، كان يسرنا أن تنفجر الحركة الوطنية الشعبية بعد طول استسلام وانهزام وانحباس، فهي الضمانة الوحيدة لكل سياسة وطنية في المستقبل، وكانت زيارة القوتلي سببا في انفجارها. وكان بودنا أن تتهيأ لهذه الحركة قيادة بمستواها، ولكن البلاد كانت محرومة من مثل هذه القيادة. يضاف إلى ذلك أن رحلة القوتلي لم تحقق هدفها بلم شعث تلك الشركة الاقطاعية الرأسمالية، وظلت تناقضاتها تنخر بنيانها مما سيساعد المعارضة الشعبية التقدمية أن تشق طريقها في المستقبل.. هذه الأفكار كانت واضحة لدينا وضوحا تاما. وعلى أساسها انطلقنا في وضع خططنا السياسية بعد أن أخفقت زيارة القوتلي والجابري برتق الخلاف بين الحركة الشعبية بقيادة الملقي وبين الطبقة الاقطاعية العشائرية التي كانت ترى أن فرصتها قد حانت للانقضاض على هذه الحركة...

ترشيح عثمان الحوراني لانتخابات 1943.

إثر عودة القوتلي إلى دمشق عقدت اللجنة العليا لحزب الشباب اجتماعا في منزل الأستاذ عثمان الحوراني قررت فيه بالاجماع ترشيحه للانتخابات باسم الحزب، وكان تقييمنا للموقف الانتخابي أن الأستاذ عثمان لن يلقى معارضة كبيرة لأنه رجل معروف بجهاده ونضاله على المستويين السوري والعربي، وله شعبية واسعة في أوساط المعلمين والطلاب بعد المدة الطويلة التي قضاها في التدريس في حماه وفي دمشق بمدرسة العائدي... وعلى هذا الأساس بدأنا نعد للمعركة الانتخابية التي أصبحت على الأبواب. وكان موقف رئيف الملقي وجماعته حيال حزب الشباب موقفا وديا، ولكنهم كانوا لا يحبون الاستاذ عثمان ويرتابون بعلاقته بنجيب البرازي.

خلال شهر حزيران بدأ موضوع ترشيحي بدلا عن الأستاذ عثمان يتردد صداه في أوساط جماعة الملقي وحزب الشباب في آن واحد، وكانت هذه الدعاية تتسع يوما بعد يوم. ثم فاتحني الأستاذ سعيد الخاني وبعض رفاقه بهذا الأمر فعرضوا علي أن أكون مرشح الحزب فرفضت ذلك وأجبتهم بأن اللجنة بتت بالموضوع سابقا وكان قرارها صحيحا، فقال الأستاذ الخاني إنه من المشكوك فيه أن ينجح الأستاذ عثمان في هذه المعركة التي بدأت طلائعها قاسية عنيفة، وعلى فرض نجاحه فإنه غير قادر على تمثيل حركتنا تمثيلا حقيقيا، إذ من السهل على الكتلة الوطنية احتواءه نظرا لبساطته وخجله وعجزه عن مقارعتهم. وسيكون ضعيفا أمامهم نظرا للصلات المؤثرة التي تجمعه بهم، وهو على كل حال غير قادر على أن يكون ممثلا ناجحا لحركة الشباب.

كنا قد تركنا للاستاذ عثمان حرية المناورة، فظل على صلاته بنجيب البرازي الذي كانت الاخبارتنتشر عن نشاطاته الواسعة مع آل العظم والأسر الاقطاعية لتشكيل قائمة واحدة، ولم يدر في خلدي أي شك أو ارتياب في موقف الأستاذ عثمان.. ولذلك رفضت اقتراح الخاني ورفاقه وقلت لهم: إذا أردتم أن ترشحوا رفيقا آخر ففتشوا عن شخص غيري.

بدأت بوادر الانهيار تظهر سريعا في الصفوف الشعبية، لا سيما في حي الحاضر حيث راح آل العظم يبذلون المال بسخاء منذ بداية المعركة، كما راحوا يستغلون الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها رئيف الملقي في السابق والتي أدت إلى سفك الدماء البريئة[3] على غير طائل. لذلك أخذ الملقي وجماعته يلحون بضرورة تحديد موقف حزب الشباب بموضوع المرشح. وكانوا يرتأون ترشيحي بدلا من عثمان.

(3) بعد وفاة زعيم الكتلة الوطنية والحركة الشعبية في حماه الدكتور توفيق الشيشكلي تولى رئيف الملقي قيادة الكتلة الوطنية في المدينة، مما أدى في صراعه مع خصوم الكتلة ومع السلطة إلى مظاهرات اتصفت أحيانا بالعنف وأدت إلى سقوط بعض القتلى، منها المظاهرة التي وجهها ضد عائلة الزعيم متهما إياها باحتكار القمح، مما أدى إلى هجرة قسم من هذه العائلة إلى مدينة حلب.

وهكـذا أخـذت القضـية تتسـع فـي أوسـاط الشـباب وفـي أوسـاط جماعـة الملقـي. وأصـبحت الغالبيـة العظمـى مـن أعضـاء الحزب تضغط على الأستاذ عثمان ليستقيل ويتولى بنفسه اقتراح ترشيحي.

ترشيحي للانتخابات

كانت معركة حماه من أعنف المعارك الانتخابية في سورية، وكانت ظروفها تتطور متصاعدة بسرعة وعنـف، وقـد عقـد الشـباب اجتماعا حضره عثمان الحوراني، سـعيد الخـاني، أكـرم الحـوراني، علي عدي، الدكتور نجيب عبد الرزاق، علي مخلوطه، عبد السلام حمدون، عبد الستار بارودي، الـدكتور فـايز الأسـود، نصـر علـواني، ابـراهيم الحـاج حسـين، خليـل خليـل، علـي المصـطفى، نخلـة كـلاس، فهـد عـواد، عبـد الـرحمن الشـارع، محمـد عبـده علـوش، محمـد سـويد، عبـد الكـريم حميـدان، أدهـم عكـاش، عـلاء الـدين الحريري، بدر الدين علوش، أحمد نايف العلواني، عثمان العلواني، عبد الكريم الفرا، سراج السـمان، عثمـان عـدي، وهـم لفيـف مـن محامين وأطباء ومجاهدين ومعلمين وطلاب، وقـد قـرروا بالاجمـاع، فـي هـذا الاجتمـاع، ترشـيحي بـدلا عـن الأسـتاذ عثمـان، وأمـام إصرارهم نزلت عند إرادتهم، وقد اتصـل عـلاء الـدين الحريـري -دون علمي- بالأستاذ عثمـان، وأقنعـه بضـرورة حضـوره جميـع الحفـلات الانتخابية تدليلا على وحدة كلمتنا، فنزل الأستاذ عثمان عند رغبة الشباب.

الحفلات الانتخابية:

أقمنا عدة حفلات انتخابية في مختلف أحياء المدينـة. وكـان أكثرها يقام ليلا في باحات المساجد. وهي حفلات تمثـل تحالفنـا مـع جماعـة الملقـي لانجـاح قائمـة الجبهـة الشـعبية وقـد أقمنـا القسـم الأكبـر مـن تلـك الحفـلات الانتخابيـة دون أن نعلـن أسـماء قائمتنا وإن كانت معروفة وهكذا فعـل الاقطـاعيون، ومنـذ الاحتفـال الأول في مسجد الشراباتي بجورة حوا بدأ الجـو الشـعبي يلتهـب تأييدا للقائمة الشعبية، وكانـت الكلمـات والخطابـات حـادة صـريحة

ضـد الاقطاعيــة والعشــائرية فــي المدينــة، وضـد الانهزاميــة فــي السياسة... ومن حسن الحظ أنني لا أزال أحتفظ ببعض الخطابات التي ألقيتها فـي تلـك الاحتفـالات، والتـي تصـور اليـوم الجـو العـام والعقلية التي كانت مهيمنة آنذاك تصويرا واقعيا حيا... وهذه بعض المقاطع منها:

"ايها السادة ... إن افتتاحنا لمعركة حماه الانتخابية إنما هو فـي الحقيقـة إعـلان عـن بدايـة النضـال بـين فلـول الرجعـى وبـين طلائـع النهضـة، بـين شـيخوخة الاقطاعيـة المنهزمـة وبـين فتـوة الشـباب المقتحمة، بين الوصوليين والانهزاميين وبين المؤمنين الطاهرين من أبناء الشعب".

وأشـــاع الاقطـــاعيون منـــذ بدايـــة المعركـــة بـــأن الشـــعب سيخسرها، بعد وفاة الدكتور توفيق الشيشكلي. فقلت:

"لقـد بـدأ الاقطـاعيون ينفثـون سـمومهم ويقولـون بـأن الشـباب حفنة، وأن الوطنيين أشخاص قد قضـوا. وهـم يريـدون مـن وراء هـذه الشائعات تيئيس الناس وإرجاعهم لنير الاقطاعية الـذي أزاحـوه عـن أعناقهم. قولوا لهـم: بئسـت الفكـرة التـي تمـوت بمـوت الأشـخاص، وبئس التقدم الذي يزول بزوال الأفراد.. أجيبوهم بأن فكرتنا الشعبية التقدميــة وليــدة الآلام والتضــحيات. وذكــروهم بمعــارك عــام 1932 وبضــحايا 4 شــباط 1936. ذكــروهم بالماضــي لأن الماضــي يقــرر المستقبل. إن ما سجلته هذه المدينة مـن تقـدم كـان ممهـورا بـدماء أبنائها وسنحميه بدمائنا عند اللزوم، وسنكلؤه بأرواحنا".

وحـاول الاقطـاعيون تمزيـق الصـف الشـعبي بقـولهم: كيـف اجتمع الخصمان الشباب والكتلة؟! ... فقلت :

"أجيبوهم بأن لا يرهقوا أنفسهم بالتساؤلات الكثيـرة. فهـم إن جمعتهم المصالح الشخصية فـنحن إنمـا تجمعنـا المصـلحة الوطنيـة. وهم إن جمعتهم المصالح العائلية فـنحن الشـعب تجمعنـا المصـلحة القومية. فلا عجب أن نتحد جميعا وإن اختلفت طرقنا وأساليبنا. وإنما العجب كل العجب أن نختلف في هذه المعركة".

"أيها السادة ... إنه يتوقف على مصير هذه المعركة الانتخابية تقدمنا الاجتماعي الذي سجلته هذه المدينة، كما يؤثر على سير القضية الوطنية بصورة عامة. إن حماه قد سجلت خطوة عظمى في نضالها الاجتماعي، خطوة لم تخطها أية مدينة سورية أخرى. فلم يعد يفرض على هذه المدينة شخص محروم من جميع المزايا إلا من مزية انتمائه لعصبية عائلية واحتيازه على ثروة عقارية. إن حماه أصبحت حرة بإنتقاء الأشخاص المنبثقين من صميمها، والذين يشعرون بآلامها ويحلقون بآمالها ويهيمون بمثلها ... تعلمون أيها السادة أن هذه الحرب العالمية قد فتحت أمام شعبنا إمكانيات عظيمة لتحقيق أهدافنا القومية. فيجب علينا أن ننتقي الرجال الأكفاء الموثوقين لئلا نخسر هذه الفرصة السانحة. يجب علينا أن ننتقي الرجال الأكفاء لأنه بالانتقاء النزيه نحقق الظفر في معاركنا الوطنية القادمة".

وقلت، ردا على محاولة الاقطاعية إثارة النعرات المحلية بين حي الحاضر الذي هو حي آل العظم وبين حي السوق: "إياكم أن تخدعوا بأناس يثيرون النعرات ويفصلون وحدة المدينة سعيا وراء النيابة. إن هدفنا هو توحيد وطننا العربي الأكبر.. وهؤلاء لا يستحقون شرف الحياة حتى يستحقوا شرف النيابة".

نقطة الابتداء في نضالنا للبعث الجديد:

وفي واحدة من تلك الحفلات الجماهيرية قلت:

"إن نقطة الابتداء في نضالنا للبعث الجديد ما يجري في عروقنا من أمجاد الماضي وما يمتزج في نفوسنا من ذكرياته العظيمة. فمن ماضينا سنبعث حاضرنا وننشئ مستقبلنا. ومن عالمنا القديم سننشيء عالمنا الجديد... إن في أحضان هذا الشرق العربي العظيم ترعرعت ونمت وازدهرت جميع الحضارات الانسانية".

وقد رددت في أحد الخطابات هذه الأبيات من شعر عمر أبي ريشه :

قد تراءت إليه نار على البعد فكانت إيماءة للشريد

فسرى في سنائها فأطلت خلفها مكة الفخار التليد

يا عروس الرمال يا قبس التائه في مهمه الضلال البعيد

أمن الركب في حماك فرديه إلى ذكريات تلك العهود.

حفلة في سوق الشجرة:

كان التأييد الجماهيري يتعاظم بقدر ما كان موقفنا واتجاهنا يتحدد تحديدا قاطعا من الطبقة الاقطاعية، كان الشعب في غاية الحساسية لكل كلمة تقال أو شعاريطلق. كان منفتح الذهن والقلب. مستعدا للبذل والتضحية، لا سيما بعد أن شعر بالأموال التي بذلها الاقطاعيون لشراء الضمائر.

وفي أحد اجتماعاتنا الانتخابية في جامع سوق الشجرة كنت أول الخطباء. وليس لدي الآن نص الخطاب ولكنني أتذكر بأنني بدأته بما قاله الرسول عندما دخل مكة ظافرا وبدا يحطم الأصنام حول الكعبة قائلا: "شاهت الوجوه" فقلت شاهت الاقطاعية.. وشاهت وجوه الاقطاعيين.

واعتبرت هذه الحفلة يوما مظفرا للقائمة الشعبية على الاقطاع والرجعى، ونددت بما يفعله الاقطاعيون من شراء ضمائر المواطنين بالأموال التي جمعوها في ظروف الحرب من قوت الشعب وكد يمينه وعرق جبينه. وكان لهذه الكلمة أثر بليغ.

وعند انتهائي قدم رئيف الملقي صهره الجديد الدكتور فايز الأسود الذي ما لبث أن خرج في خطابه عن الموضوع نهائيا، ويعود ذلك لحادثة عائلية وقعت قبل يوم الحفلة بين أخيه وبين بعض شباب آل العلواني أودت بحياته. فنفث الدكتور فايز في خطابه جميع همومه وأحزانه وصب جام غضبه بعبارات نابية وشتائم جارحه وتهديدات يمجها الذوق العام. فكادت تحدث بلبلة في صفوف المجتمعين. وكان هذا الخطاب، في اليوم الثاني، سلاحا بيد الاقطاعية منتهزين ما ورد فيه للتدليل على أخلاقية

القيادات الشعبية وانحدار مستواها الفكري والأخلاقي. وخسرنا هذا الخطاب أنصارنا من آل العلواني ولم يقبلوا لنا عذرا، حيث أملوا أن نمنع الدكتور الأسود بالقوة من متابعة خطابه، الأمر الذي كان لا يوافق عليه حموه رئيف الملقي.

فجأة ... انفجر الشعار الحاسم:

كان آخر هذه الاحتفالات الانتخابية وأضخمها اجتماع ليلي حول خيمة نصبها أبناء حينا[4] في منطقة البياض غربي المدينة. وقد هرع الناس إلى مكان الاحتفال من كل حدب وصوب وكان أبناء كل حي يصلون متجمعين في عراضة خاصة حول راية حيهم. وكانت طبول العراضات وأهازيج القوالين المنتصبين على الأكتاف تهز ليل المدينة بصخب احتفالي عظيم... ولكن كلمات الخطباء لم تكن بمستوى ضخامة هذا الاحتفال ولا بمستوى الحرارة التي كانت تغلي في الصدور. بل كان جو الكلمات باردا باهتا. وقد روى الملقى في خطابه إحدى قصص كليلة ودمنة. ولا أزال محتفظا بخطابي في ذلك الاحتفال، وقد قلت فيه :

" كم يكون سروركم عظيما لو شاهدتم أبناء حينا يؤمون عشية كل يوم هذا البيت نافضين عن نفوسهم عناء كد النهار، لأنهم من العمال الذين يعيشون بكد اليمين وعرق الجبين. يجتمعون في الليل للسمر البريء والارشاد والدرس والتوعية السياسية والاجتماعية.

أيها الرفاق ... إنكم قد تألمتم في الماضي وضحيتم كثيرا، ولم تجنوا ثمرة تضحياتكم ونضالكم. **لأن للظروف الدولية تأثيرا عظيما على معارك الشعوب الوطنية. كانت الظروف غير مواتية. أما الآن فقد فتحت الحرب أمامنا طريق الخلاص. فلنمض قدما إلى أهدافنا، ولنأخذ من الشعوب الأخرى مثلا في التضحية والفداء. إن الظروف الدولية أصبحت مواتية. فلنجعل منها نقطة الابتداء في نضالنا التحرري كما جعلنا من تراثنا نقطة الابتداء في بعثنا القومي. إن نضالنا السياسي**

(4) قبيل انتخابات 1943 أنشأ أبناء حينا جمعية شعبية أسموها "الجمعية الخيرية" ضمت نخبة من العناصر الشعبية المناضلة. وهم الذين نصبوا "بيت الشعر" وقد ظلت هذه الجمعية في مختلف العهود صامدة باسلة. وكانت النواة الصلبة لتجمع العناصر الشعبية المناضلة التي لم تبخل بالدم، في كثير من المناسبات، على طريق مسيرة الحزب النضالية الطويلة.

والقومي يجب أن لا يقتصر على انتخاب النواب الصالحين المؤتمنين، إنه يجب أن يكون بدءا لجهادنا في سبيل حريتنا واستقلالنا وتحقيق أمانينا القومية. وعلينا أن نحشد في معاركنا المقبلة جميع مواهب الأمة العربية وكفاءاتها. وعلى الواثقين بأنفسهم والمؤمنين بأمتهم أن يتقدموا. إن جنة الوطن مفتوحة أبوابها للجميع... إنني أقول لرفاقي الفقراء والجائعين إنهم يشعرون في جهادهم بأجمل ما في الحياة، ويسعون في نضالهم لأشرف ما يسعى إليه الانسان وهو الحرية والاستقلال.. قولوا يا رفاقي لهؤلاء الاقطاعيين بأن مقصدنا يختلف عن مقاصدهم. فلسنا نطمع بالسيارات الفخمة والثروات الضخمة، وإنما نحتقر الفخفخة ونسمو على العجحرفة، ولا نعمل للمصلحة العرضية الزائلة. قولوا لهم: ليتكم تشعرون بما نشعر، إذن لاحتقرتم ما أنتم به تتنعمون". ...

وعندما انفض الاحتفال الكبير، في الهزيع الأخير من الليل، وبدأ أبناء كل حي يتجمعون في عراضتهم ويرددون أهازيج قوالهم الذي صعد إلى الأكتاف، واشتد الصخب والهرج والمرج، انطلق فجأة شعار كان حاسما في تلك المعركة، وكان أبلغ من جميع خطاباتنا. **"هات القفة والكريك ... لنقش الآغا والبيك"**. كان هذا هو خطاب الشعب. وهو تلخيص جامع مانع لكل ما تعبنا في شرحه وإيضاحه. وكانتشار النار في الهشيم أصبح هذا الشعار أهزوجة كل العراضات التي عادت كل منها إلى حيها وهي ترددده طوال الطريق.

كان وقع هذه الأهزوجة الشعبية على الطبقة الاقطاعية كالصاعقة، كما قضى هذا الشعار على المساومات السرية التي كان يجريها رئيف الملقي معهم في اجتماعاته بهم في دار العلم والتربية، وهي اجتماعات كنت أسمع عنها من رفاقي ولكنني لم أكن متأكدا منها، وفي الوقت ذاته كانت الشبهات تحوم حول موقف الملقي بعد أن شجع عمر الترمانيني على ترشيح نفسه للنيابة وحول إخلاصه لقائمتنا الانتخابية.

وقد عاتب الملقي رفيقنا علاء الدين الحريري الذي أطلق هذا الشعار. فالتفت إليه قائلا: إن علاء الدين لم يطلق هذا الشعار إلا بالاتفاق معنا. والحقيقة إن علاء الدين بادر من تلقاء

نفسه بإطلاق هذا الشعار ليحبط المساومات الجارية مع الاقطاعيين على حسابنا، وهكذا يظهر بأن الشعب عندما يمتلك قضيته يصبح أكثر ذكاء وقدرة وامكانية للحفاظ عليها والاستماتة في سبيلها.

طبول فتنة دامية

كان آل العظم مهيمنين على حي الحاضر بإرهاب القوة المسلحة. ولم يكن بمقدور العناصر الشعبية المؤيدة للشباب وللكتلة أن تقف، وهي عزلاء من السلاح، تجاه طغيان الاقطاعيين وإمكانياتهم المادية الكبيرة وشراستهم في العدوان ونشر الرعب.. وبعد أن جن جنونهم من شعار "هات القفة والكريك لنقش الآغا والبيك" بدأوا بالاعتداءات على العناصر الشعبية، وكان للشيخ عبد الرحمن خليل وعبد الرحمن الشارع ورفاقهما والدكتور نجيب عبد الرزاق والشباب المتعلم من أبناء حي الحاضر عموما موقف باسل شجاع. غير أن تلك الموجة من الارهاب الاقطاعي في حي الحاضر أثارت غضب العناصر الشعبية. وانتشرت أنباء عن أن الاقطاعيين يبيتون هجوما على حي السوق.. فثارت الخواطر واستنفر الشعب بدق الطبول في حي العليليات فهرع الناس الغاضبون وتجمهروا من كل حدب وصوب للهجوم على بيوت آل العظم.

ولا بد لي، بهذه المناسبة، أن أذكر ما كان يرويه الشيوخ المسنون عن أجدادهم من أن أسرة (آل قرناص) التي تحكمت بالمدينة في العهود الأقطاعية الغابرة قد بغت وطغت فصبر الأهلون على مظالمها طويلا، وفي ذات يوم تألب الأهلون وهاجموا آل قرناص في حيهم وقضوا عليهم عن بكرة أبيهم. وقيل بأن الأهلين الناقمين دخلوا قصور آل قرناص بحثا وتفتيشا عنهم حتى لا يبقوا لهم أثرا.

اشتد قرع الطبول وتعبأت النفوس المشحونة بالغضب للهجوم. وكان على رأس المتجمهرين علاء الدين الحريري وسعيد طرابلسية وأبناء حي الفراية والعليليات. فاجتمعت برئيف الملقي

الذي كان منفعلا أكثر من بقية الناس وحاولت جهدي إقناعه بالعدول عن هذا الهجوم الذي ستراق فيه دماء بريئة وتثار من جرائه النعرات المؤذية للمعركة الانتخابية القائمة وللقضية الوطنية فيما بعد.

وقد أمكن بصعوبة بالغة صرف الجماهير الغاضبة وفرط ذلك التجمع الذي هز المدينة هزا عنيفا، فتألفت على أثره في اليوم الثاني لجنة سميت لجنة الأصلاح قوامها مفتي حماه الشيخ سعيد النعسان، والمطران اغناطيوس حريكة، والشيخ محمود الشقفة، والحاج محمد الأشقر عدي، والحاج محمد نور عدي، والحاج محمد نور حميدان.

موقف الكتلة الوطنية من انتخابات حماة

منذ بداية المعركة الانتخابية زار سعدالله الجابري حماه وحاول أن يتوسط بين "الذوات" وبين رئيف الملقي لتشكيل قائمة واحدة. فلم يوفق في مسعاه لأن الملقي كان يطمح لأن يحل محل توفيق الشيشكلي بقيادة الحركة الشعبية في مدينة حماه.

وبعد اشتداد المعركة أوفد القوتلي صبري العسلي إلى حماه ليقنع الملقي بالتخلي عن تحالفه مع حزب الشباب، والاتفاق مع آل العظم. ولكن الملقي، بعد تورطه، وقع في مأزق حرج لأن أي اتفاق مع آل العظم سوف يفقده القاعدة الشعبية في المدينة نهائيا[5] وهو بالوقت نفسه غير واثق من صدق الاقطاعيين معه وعدم نكثهم بعهودهم، فيخرج الخاسر الوحيد. وهذا ما جعل مفاوضاته السرية مع آل العظم تنتهي إلى غير نتيجة.

ومن المهم أن نذكر أن زعامة الملقي الشعبية لم يكن سببها، بالاضافة إلى صفاته الشخصية كنظافة اليد والشجاعة والتمرس بالمحاماة، إلا كونه ابن اسرة شعبية ناضل بشجاعة في

(5) وهذا ما جرى له في انتخابات 1947 كما سيرد فيما بعد.

صفوف الحركة الوطنية، فهو عندما يتخلى عن مبادئه يفقد قواعدة الشعبية التي تحملت بعض أخطائه.

تلك كانت مساعي الكتلة الوطنية في معركة انتخابات عام 1943، وكان لها سابقة مماثلة في انتخابات عام 1932 التي تقدم إليها المرشحون بقائمتين: قائمة الكتلة الوطنية التي ترأسها المرحوم الدكتور توفيق الشيشكلي، وقائمة الاقطاعيين التي ترأسها حسني البرازي، ولكن تجاوزات الاقطاعين، وصرفهم الأموال، وسيطرتهم على صناديق الانتخابات وتزويرها بدعم من السلطات آنذاك أدى إلى واقعة مشهورة في التاريخ السياسي لمدينة حماه عندما ثار شعبها على التزوير وحطم صناديق الانتخاب.

وعند إعادة انتخابات عام 1932 هرع زعماء الكتلة الوطنية لاحتواء الحركة الشعبية في محاولة توفيقية بينها وبين الاقطاعيين، وكانت قائمة الكتلة تضم الكتلوي نجيب آغا البرازي، ومع أن نجيب آغا كان من كبار الاقطاعيين فإن الطبقة الاقطاعية كانت تعتبر أن ممثلها الحقيقي هو حسني البرازي المتعاون مع السلطة لذلك حاول زعماء الكتلة، في سعيهم للتوسط، وكان على رأسهم هاشم الأتاسي وجميل مردم اثناء اجتماعهم في مدرسة دار العلم والتربية أن يستبدلوا نورس الكيلاني، الرجل القوي، المتحالف مع حسني البرازي بقائمة واحدة، عوضا عن نجيب البرازي، فتدخل الشعب بقياداته الشابة (الشيخ عبد الرحمن خليل، عبد الرحمن الشارع، مصطفى الحوراني، رئيف الملقي) لاحباط هذه المحاولة، فغادر زعماء الكتلة الوطنية حماه وهم فاشلون، ولما زار فارس الخوري مدينة حماه بعد تلك المعركة الباسلة التي فازت فيها القائمة الشعبية الكتلوية برئاسة الدكتور توفيق الشيشكلي استقبلته المدينة استقبالا رائعا، فردد بيتين من الشعر تعرض فيهما لحسني البرازي تورية :

حماة بها عز العروبة والندى لها في مضامير الجهاد مفاخر

بها من أطاع الشعب نال كرامة وفيها على العاصي تـدور الدوائـر

وقد فهم الناس أن العاصي هو حسـني البـرازي الـذي دارت عليه الدوائر بعـد أن عصـا الشـعب فخـرج مـن الانتخابـات مـدحورا، وكان لهذين البيتين صدى بعيد في نفوس الجماهير، فصـار النـاس يرددونهمـا بمناسـبة وبـدون مناسـبة، وكانـا سـببا فيمـا حملتـه المدينة بعد ذلك من مشاعر الود الخاصة لفارس الخوري.

لجنة الاصلاح

ولنا أن نتساءل الآن: من هم هؤلاء أعضاء لجنة الاصلاح؟

كان الشيخ سعيد النعسان - الذي ظل مفتيا للمدينة حتـى وفاته عن عمر نيـف علـى المائـة- رجـلا مصـلحا ينتمـي لمدرسـة الشيخ طاهر الجزائري، عالما، واسع الاطلاع، منفتح الـذهن علـى قضايا العصر وكان صديقا لوالـدي ثـم توطـدت بيننـا أواصـر المعرفـة والمحبة وكنت أعجب بأحاديثـه وهـو الشـيخ المسـن إذ تعبـر عـن أفق عقلي يتجاوز أفق كثير من الشـباب الـذين يعتبـرون أنفسـهم تقدميين. كان مسـتوعبا التـراث واعيـا ثقافـة العصـر.. وكـان يشـبه الدكتورصالح قنباز، مع اختلاف السـن والثقافـة. وقـد قضـى حياتـه منصرفا للعلم والتدريس. فانشأ مدرسـة "عنوان النجـاح" فـي زمـن كانـت فيـه المدينـة بـأحوج مـا تكـون إلـى مدرسـة. وكـان ذا بنيـة جسدية قوية جبارة. وقـد أصـيب بكسـر فـي الحـوض بعـد أن نيـف على المئـة. ولشـد مـا كانـت دهشـتي عظيمـة عنـدما زرتـه بعـد خروجه من المستشفى فوجدته ينتصب معـافى بقامتـه الفارعـة. أمـا المطـران أغنـاطيوس حريكـة فقـد كـان دومـا بجانـب القضـايا الوطنية والقوميـة وأمـا الأشـخاص الآخـرون فقـد كـانوا موضـع ثقـة المدينة واحترامها. وكان أبناؤهم من حركة الشباب.

كان تشـكيل هذه اللجنة تعبيرا عن وجهة نظر الكبـار بعـد أن بلغت المعركة حـدود الاقتتـال. لكنهـا أوقعتنـا -نحـن الشـباب- فـي موقف محرج، فنحن نثق بأعضائها ونحبهم ونحتـرمهم، ونحـن فـي الوقت ذاته نرفض أسلوب المسـاومة ونعتبـر أن أسـوأ الاحتمـالات،

وهو اخفاقنا في الانتخابات، هو نجاح عظيم للفكرة الشعبية لأنه يقرب أجل الاقطاعية ويقضي عليها.

بينما جاء تشكيل لجنة الاصلاح مخرجا لرئيف الملقي الذي كانت علائم التعب تبدو عليه وعلى بعض رفاقه، كانت النيابة في نظره هي الغاية، وهذا ما كلفه وكلف الحركة الشعبية في المستقبل ثمنا غاليا وجعل منه عنصرا سلبيا بدلا من أن يكون من قادة الحركة الجديدة.

قرار لجنة الاصلاح

صدر قرار اللجنة بأن يكون للمدينة قائمة انتخابية موحدة من: رئيف الملقي، نجيب البرازي، أكرم الحوراني، غالب العظم، فريد مرهج.

وروي آنذاك أن نجيب البرازي اجتمع بأعضاء اللجنة ورجاهم أن ينتخبوا الأشخاص الصالحين. فقال له أحدهم: لو كنا طلقاء من الاعتبارات لما كان اسمك في عداد المرشحين.

قام الشباب من أبناء أعضاء اللجنة وأقربائهم بنشاط كبير لاقناعهم، بعد أن أصبحوا محكمين، بأن تكون القائمة شعبية خالية من أي ممثل "للذاوات"... ولكن هذا الطلب كان في نظر أعضاء اللجنة طلبا صبيانيا.

وقبل أن تذاع الأسماء على الناس بمنشور اجتمعنا نحن الشباب اجتماعا موسعا جدا وتداولنا في الأمور، وكان معظم المجتمعين يميلون إلى التسليم بالأمر الواقع. أما أنا فقد أصررت على الانسحاب، وبعد نقاش وجدل طويلين اقترح واحد منهم تأجيل الانسحاب إلى ما بعد إعلان قرار اللجنة، لأن دلالته تكون أقوى وأثره أعظم. أما الرفاق الآخرون فقد أصروا على عدم الانسحاب .. وهكذا انزويت في البيت. فزارني أعضاء اللجنة تباعا محاولين إقناعي ولا سيما المطران حريكة. فلم أعط جوابا ملزما.

هنا لا بد لي من التوقف قليلا .. إذ إنني لأول مرة أتعرض لأزمة الضمير التي أكثر ما يعانيها القادة الشباب عندما يتعرضون بمواقفهم للتناقض بين الممكن وغير الممكن، بين المبدأ والتطبيق، بين التصور والواقع.

لا شك أن أعضاء اللجنة، والقيادات الشعبية الأخرى بالمدينة، كانوا أكثر تجربة وتمرسا وواقعية. لأن نجاحي بالنيابة كان بداية فتح صفحة جديدة. ولو إنني بقيت مصرا على الانسحاب من معركة انتخابات 1943 لارتكبت أفدح الأخطاء - ليس بحق نفسي- بل بحق القضية.

القوتلي يوافق ويبارك

أن شكري القوتلي كان عاجزا عن التدخل في المعارك الانتخابية خارج دمشق، وكان نصيب محاولاته الفشل في تأليف قوائم موحدة في جميع المدن السورية الأخرى، ومع ذلك فقد أصدر بيانا بتاريخ 10 تموز 1943 أيد فيه قرار لجنة الاصلاح قائلا: "يسرني أن تكون مدينة حماه العريقة في الوطنية قد أجمع رأي الملأ فيها على اتفاق صفها وتوحيد كلمتها وترشيح السادة: نجيب البرازي، رئيف الملقي، غالب العظم، أكرم الحوراني، فريد مرهج، ليمثلوها في المجلس النيابي المقبل. وإني لأرضى بما ارتضته مدينتكم وأقر هذا الترشيح متوقعا أن يكون النواب الذين اختارتهم محققين آمالها عاملين على خدمة القضية الوطنية والذود عن حياضها"... ولم يكن القوتلي قد رآني أو تعرف علي بعد حتى عند زيارته حماه...

التعرف إلى فريد العظم

بعد قرار لجنة الاصلاح، وخلال عمليات انتخاب الدرجة الأولى والثانية (من 10 إلى 26 تموز) قام أصدقاء الطرفين من جماعة الملقي بمحاولة المصالحة مع فريد العظم. فدعينا إلى حفلة عشاء في بيت أحد أقرباء الملقي بحي الحميدية بالحاضر. وهذه هي المرة الأولى التي أجتمع فيها بفريد العظم وأتعرف عليه.

كان الرجل يعطي في المقابلة الأولى انطباعات طيبة. فقد كان صادقا، يحترم نفسه، صريحا جريئا كريما- كما كان يروي عنه- وهو نموذج من وجاهات مدينة حماه في السابق، وبعد هذا العشاء عرفت السر الكامن وراء انهيار الصف الشعبي في حي الحاضر... إنني أعرف شعب حماه جيدا وأعلم أن بذل الأموال لا يكفي وحده لتعليل تلك الظاهرة. ولكن أخلاق هذا الرجل لعبت دورا كبيرا في المعركة. لا سيما وأن الفكرة الشعبية لم تكن واضحة تماما في أذهان ابناء الشعب في المدينة بالنسبة لتحرير الفلاحين والإلغاء المادي والسياسي للاقطاع في الريف السوري. وكان فريد العظم في ذلك الوقت فريدا بين "الذاوات" بأخلاقه، ولولا ذلك لما أمكنهم أن يصمدوا يوما واحد.

كانت هذه المصالحة تكتيكا عابرا لتهدئة المدينة، وقد استمرت المعركة مع الاقطاع بعد ذلك بأعنف من السابق كما سيرد في حينه.

على هامش المعركة

مر علينا أكثر من شهر كنا فيه محرومين من النوم أو الراحة. ويشاركنا في هذه الحال جميع القيادات الشعبية وكثير من أبناء الشعب البسطاء الذين كانوا يشعرون معنا بعظم المسؤولية، كنا ملزمين بحضور الاجتماعات والحفلات الانتخابية الصغيرة والكبيرة، ليلا ونهارا، وكنا معرضين للمفاجآت دوما بخبر سيء أو سار لا بد فيه من اتخاذ موقف وإعطاء توجيه... وأما فترة راحتنا، في الهزيع الأخير من الليل في مقهى الفندق، فلم تكن فترة راحة. لأننا كنا نستعرض فيها الوضع بشكل عام، ونتصفح الجرائد ونتداول أخبار المعارك الانتخابية في المدن الأخرى.

كان جماعة الملقي يستعرضون تلك المعارك ويبدون عطفا على قائمة الدكتور عبد الرحمن الكيالي في حلب ضد قائمة سعد الله الجابري، الارستقراطي الذي استعان بالمليونير المغامر الحاج وهبي الحريري لتمويل معركته. كما كانوا يظهرون عطفا على نجاح سليمان المعصراني في حمص، لأنه من عائلة

شعبية، ويخشون نكث آل الأتاسي به وهو ما جرى فعلا... ولم أكن ضمنا أشاركهم عواطفهم. فالكل كانوا في نظري سواء. أليس سليمان المعصراني شقيق الحاج عبد الهادي المعصراني، المجاهد الذي شاهدت غرفة نومه بفندق الحمراء بحلب مليئة بإطارات السيارات المنهوبة باسم الجهاد من جماعة فوزي القاوقجي إثر فشل ثورة العراق؟

أما دمشق فلم يكن فيها معركة انتخابية.. هكذا تمت تهيئة الأمور فيها. وكانت قائمة شكري القوتلي وحيدة في الساحة تقريبا. وكان جامع تنكز والجمعية الغراء التي تضم عددا من رجال الدين، برئاسة الشيخ الدقر وأمانة سر عبدالحميد الطباع. يشكلون قوته الانتخابية في الأوساط الشعبية.

كنت أتصفح الجرائد بسرعة، والقي نظرة عجلى على معركة دمشق وخطابات القوتلي، وكان يؤلمني أن لا أقع في تلك الخطابات على أي توجيه سياسي أو طرح جدي للقضايا الأساسية. فقد كان القوتلي يتجنب ذلك، كما كان يتعمد تأجيل اعلان أسماء المرشحين الذين سيختارهم لقائمته إلى ما بعد انتخابات الثانويين، مما دفع عددا كبيرا من الطامحين للنيابة للالتفاف حوله أملا بأخذهم في قائمته.

وفي 13 حزيران 1943 قالت القبس :

" إزاء جميع التصريحات المتتالية التي أدلى بها السيد شكري القوتلي عن شعور الوطن السوري بأجمعه نهد فريق كبير من الشباب المثقف من مختلف الهيئات والفئات إلى عقد اجتماعات متتالية تدارسوا فيها الموقف على جميع وجوهه، ثم عقدوا أمس اجتماعا كبيرا في دار السيد أحمد الشراباتي وضعوا فيها الأسس والقواعد التي سيرتكز عليها نشاط الشباب في الحاضر والمستقبل وقرروا بالإجماع نبذ الحزبيات ووضعوا تصريحا خطيا هذا نصه :

بحث الشباب فيما يجب عليهم عمله في هذا الظرف الحاضر فرأوا أن يصرحوا بأن حركة توحيد الجهود القومية يجب أن تسلم قيادتها إلى يد رجل

واحد يكفل ماضيه وكفاءته إيصالها إلى أهدافها، وهم يعتقدون أن هذا الرجل هو الزعيم السيد شكري القوتلي لذلك فهم يعلنون تأييده ودعم زعامته.

التواقيع: أحمد الشراباتي، عبد القادر الميداني، منير المالكي، ميشيل عفلق، صلاح البيطار.

وقد لفت نظري اسما الاستاذين صلاح البيطار وميشيل عفلق اللذين حدثني عنهما الدكتور جمال الأتاسي عندما كنا معتقلين في ثكنة دير الزور العسكرية بعد عودتنا من العراق.

أعلن القوتلي قائمته بعد أن استخار الله -حسب تعبيره- فتألفت قائمته التي اعلنها في 24 تموز كما يلي: لطفي الحفار وجميل مردم وصبري العسلي ونسيب البكري ونصوح البخاري وخالد العظم الشيخ عبد الحميد الطباع وعفيف الصلح وسعيد الغزي ونجيب الريس وأحمد الشراباتي وفارس الخوري ونعيم الانطاكي (عن الروم الأرثوذكس) وجورج صحناوي ونازريت يعقوبيان.

وهكذا أعاد القوتلي شخصيات الكتلة الوطنية في دمشق إلى المسرح السياسي من جديد، مع أنه كان منذ بداية المعركة الانتخابية يتبرأ من الكتلة ويعتبر كل حزبية عصبية ذميمة. وكان عمله هذا مدعوما من قبل الجمعية الغراء الدينية التي كانت مصدر الوحي والإلهام.

ولكن دمشق السياسية المجربة أنذرت شكري القوتلي - بأسلوبها - وأعطته درسا في التواضع لم يستفد منه، حيث نال سعيد الغزي الذي أخذه القوتلي على قائمته، وكان رجلا وطنيا حياديا، عددا من الأصوات أكثر مما نال القوتلي ذاته. ولكن الحكومة -برضى الغزي- أعلنت أن القوتلي نال (628) صوتا ونال سعيد الغزي (623) صوتا.

وعندما ذهبت إلى دمشق بعد الانتخابات سمعت من الشباب المقربين لزكي الارسوزي وميشيل عفلق، الذين تعرفت عليهم آنذاك، انتقادا شديدا لاذعا لتأييد عفلق والبيطار للقوتلي وتوقيعهما على بيان "اجتماع المثقفين".. وكانوا يتندرون بأحاديث

الاعجاب بالقوتلي التي حدثهم بها الأستاذ ميشيل في اليوم الثاني من زيارته له ليرشحه في قائمته الانتخابية...

منعطف حاسم في مسيرة حياتي:

وهكذا فوجئت بدخول التجربة الكبرى ...

فجأة أخذت من عالمي الشخصي الخاص إلى عالم المسؤولية والشعور بالعبء الثقيل.. لم أعد مسؤولا أمام نفسي ورفاقي في الحزب، بل أصبحت ملزما -على حين غرة- بأن يكون سلوكي وأقوالي وأفعالي في مستوى معركة الوطن الكبرى وأن تكون اهتماماتي وأفكاري ومشاغلي من وحي متطلبات الجماهير.

ومنذ أن فوجئت بالترشيح للانتخابات، وخلال المعركة الانتخابية المضنية والمضطربة، وعندما قررت لجنة الاصلاح أن أكون نائبا عن المدينة، وعندما فزت بالنيابة، كنت في حالة من اضطرام المشاعر والغليان الذهني والنفسي يصعب وصفها. إن الإنسان ليعجز في كثير من الأحيان عن التعبير عن مشاعره. لا لعمقها أو غموضها فحسب بل لتضاربها وتشابكها وعنفها. وهذه هي التجربة الصعبة التي يعاني منها كبار الشعراء والمتصوفة، ولا أظن سوى العباقرة من الموسيقيين استطاعوا جيدا التعبير عنها.

وكان مما يزيد من عنف اضطرام مشاعري وأفكاري أن الوقت كان قصيرا جدا في تلك المعركة الانتخابية العاصفة التي لم أكن قد هيأت نفسي لها. **كما أن الاكتشاف الذي أتاحته لي ظروف الحفلات الانتخابية كان اكتشافا مذهلا إلى حد صاعق سيؤثر على سلوكي في العمل الوطني مدى الحياة، ذلك هو اكتشاف مبلغ بؤس هذه الجماهير الطيبة الوطنية. كنت أرى في الحفلات الانتخابية الاعرج، والكسيح، والاصفر الوجه من فقر الدم، ومن يرتدي**

الأسمال البالية، ومن تخيفك شدة هزاله، ومن لا يتمكن من شراء كيلو أرز لعياله إلا مرة واحدة في السنة بمناسبة عيد الفطر.. وكنت أهتز في أعماقي لما أرى. وحين تتاح لي ساعة فراغ كنت أحدث رفاقي عن ذلك فأسمع من علي عدي، وهو المعلم في مدرسة إبتدائية، قصصا مؤثرة عن شدة فقر التلاميذ الأطفال، وصفرة وجوههم من فقر الدم، وجوعهم، وارتجافهم من البرد... وسوف يرد في صفحات تالية من هذه المذكرات أن بعض الصحف السورية ذكرت، في سنة 1948، أنباء عن عدد من تلاميذ مدرسة دار العلوم الشرعية نقلوا إلى المستوصف بعد أن سقطوا فوق مقاعد الدراسة مغميا عليهم بسبب الجوع.

إن المعركة الانتخابية مناسبة فريدة لاكتشاف أعماق بنية المجتمع وحقيقة أوضاعه، لأنها ترمي بأحشاء المجتمع تحت نور الشمس.. إنها مثل مجهر كبير يوضح للعينين الدقائق والخفايا. ولقد ذكرت فيما مضى ما تتيحه مهنة المحاماة من ظروف للتعرف على أوضاع المجتمع، وقد تشابهها مهنة الطب. ولكن احتكاكات المحامي بموكليه، وزيارات الطبيب لمرضاه في بيوتهم، لا تقدم إلا لمحات جزئية مبعثرة بالنسبة للصورة الكلية الواضحة الصارخة الجارحة التي تقدمها ظروف المعركة الانتخابية.. وهذا مما يزيد الشعور بعظم المسؤولية حيال تلك الجماهير البائسة التي تضع قضية إنقاذها من البؤس وتحررها أمانة في عنقك.

تلك كانت بعض المشاعر والأفكار التي كانت تضطرم كالبركان بين جوانحي. وكان يحز في نفسي أن أرى حلفائي بالمعركة أكثر مني خبرة وتجربة وممارسة في فهم نفسية الجماهير. كان حلفاء المعركة مجموعة غريبة لا تجمعني ببعضهم أية روابط فكرية ولا عاطفية نظرا للاختلاف في السن والعقلية والتجربة والأهداف... ولم تكن لي تجربتهم الاجتماعية ومعرفتهم بنفسية أبناء الطبقة الوسطى التي كانت تتمثل بأرباب الأسر الصغيرة في الأحياء والتي كانت تشكل دعامتنا الانتخابية في هذه المعركة. لذلك تولى رئيف الملقي وحده - عجزا مني لا

اختيارا- أمر الاجتماعات بهم في الكواليس لأنه يفهم لغة هذه الطبقة ومشاعرها ويدرك تقلباتها، وكان هذا الأمر يحز في نفسي نظرا لأننا كنا نستنكر على الكتلة الوطنية السابقة مثل هذه العلاقات، وكنا نؤمن بضرورة قلبها واستبدالها شيئا فشيئا بعلاقات مباشرة مع الجماهير. لكننا - بسبب الشعور بالقصور عن قيادة المعركة على النحو والأسلوب الذي نرغب ونريد- كنا مضطرين للإغضاء عن كثير من أساليب حلفائنا التي كنا نستنكرها في السابق... وفي معظم الأحيان لم يكن التعامل مع بعض حلفائنا سهلا، إذ كانوا مصابين بعقم التفكير وانغلاق الذهن وعقد نفسية مرضية. وهم بشكل عام لا يختلفون في العقلية والسلوك عن خصومهم "الذاوات" إلا بالمنشأ أما علاقتي بالناس فقد أصيبت بتبدل جذري مفاجيء. فلم أعد "أكرم الحوراني" بل أصبحت "المرشح للنيابة". وكانت النيابة، في تلك الأيام أمرا عظيما وكبيرا جدا. وكنت صغير السن[6] فضاعف من شعوري بالمسؤولية أن جمهور المدينة، رغم ذلك، تقبلني بشكل أكبر بكثير مما كنت أتوقعه وأنتظره. وقد كان حماس الجماهير لي موضع رضى رئيف الملقي وارتياح صادق من قبله ومن قبل جماعة الشباب لم يخالطه أي شعور بالخوف أو الحذر أو الأنانية. بل كان داعية لثقة رفاقي الشباب بأنفسهم وترسيخ أقدامهم في صفوف الجماهير.

وكلما كان الجمهور يندفع بحماسه وتأييده كنت أشعر بأنني أنوء بعظم المسؤولية. وهنا لا بد لي أن أذكر أولئك الصحفيين الذي صاروا فيما بعد يكتبون المقالات عني بأنني "الزعيم الذي دخل البرلمان ببنطلون قصير" رمزا لصغر سني عندما مررت بتلك التجربة المصيرية في حياتي. فهم لم يأخذوا من الأمور إلا مظاهرها. ولو أنهم كانوا في حماه أثناء معركة 1943 الانتخابية لأحسوا -ربما- ببعض ما كان يضطرم في نفسي من مشاعر: إذ كيف يمكنني أن أكافيء هذا الجمهور الطيب الطاهر الذي يسحقه البؤس سحقا طاحنا؟ .. إن إخلاصي له وحرصي على مصلحته وجه من المسؤولية واثق به من نفسي.. ولكن المسألة ليست

(6) كنت أصغر الأعضاء سنا في مجلس 1943

مسألة إخلاص وتفان وتجرد. بل المطلوب: عمل... إنني سأذهب إلى برلمان يضم أساطين الساسة المجربين الذين تدعمهم قوى وعوامل نفوذ لا حدود لها. إنني غريب عن أجواء هؤلاء، وأخشى أن أكون ضعيفا أمامهم فلا أتمكن من أن أحقق ما قطعت على نفسي أمام الشعب العهود بتحقيقه... فأجيب نفسي : إن شعبنا طيب وواع، وقد يغتفر لي ضعفي ويقدر موقفي، ولكنه لا يغتفر انحرافي ... هكذا كنت أسترد بعض الثقة بنفسي.

وعلى كل حال كنت في حالة نفسية لا أحسد عليها:

شعوربالخجل والحياء العميق.

شعور بالامتنان والحب لهذه الجماهير الرائعة.

شعور بالخوف من المستقبل.

شعور بالفرح لهذه القفزة غير المنتظرة.

شعور بعبء المسؤولية الثقيل.

شعور بالارتباك بتخطي بداية الدرب الجديد المجهول.

شعور بالاشمئزاز والكراهية لأخلاقية الطبقة الاقطاعية والعائلية.

الوف من المشاعر والانفعالات الأخرى التي كانت تنتابني والتي لا يمكن تحديدها. لقد دخلت في عالم جديد. وكان هذا ملحوظا من رفاقي ومن الناس..

وبالإضافة إلى هذه المشاعر والانفعالات على مستوى العاطفة- ما هي الأفكار والوقائع- على مستوى العقل والتفكير النظري- التي كشفت عنها تلك المعركة الانتخابية وكانت مرتكزا يفسر سلوكنا السياسي في المستقبل؟.. كيف كانت بنية المجتمع وشكل الاقتصاد في حماه في عام 1943؟

أولا: قبل الحرب العالمية الأولى، وفي أواخر العهد العثماني، كان في حماه أكثر من خمسمائة محترف للنسيج. وكان للنسيج الحموي شهرة واسعة لا سيما في صناعة

الشراشف والمناشف وصايات الحرير، ولا يزال البعض يقصدون حماه إلى يومنا هذا للحصول على مناشف من المصنوعات اليدوية.. وكان لحماه، بالاضافة إلى الحركة الصناعية، تجارة مزدهرة مع الأناضول. كما ذكرت ذلك في الفصول السابقة، وبعد الانتداب توقفت تلك الحركة الصناعية والتجارية وأصبحت حماه تعيش على الزراعة وتربية الأغنام، أي ما يسمى بالاقتصاد البدوي الريفي القلق المضطرب المستند على زراعة بعلية مهددة بالقحط لأي عامل طبيعي، وعلى تربية الأغنام المهددة بالهلاك في سني الجدب لفقدان الكلأ والماء وفي سني الخصب عند تراكم الثلوج في الشتاء.. ولقد عرضت لمحة عن مدى بؤس المدينة لاعتمادها على هذا النمط من الاقتصاد. فقد كانت حماه، شأنها شأن دير الزور وبعض المدن السورية الأخرى التي تعيش على حافة الرمق الأخير.. وما بين عامي 1920 و 1940 هاجر من حماه إلى حمص أكثر من عشرين ألفا. أما المدن السورية الأخرى فكانت أحسن حالا إلى حد ما. فدمشق هي العاصمة، واقتصادها الزراعي مستقر ثابت بفضل الزراعة المسقوية في الغوطة. وحلب لم تتأثر اقتصاديا إلا بعد ضياع لواء الاسكندرون وانغلاق طريق تجارتها على البحر، فتوجهت إلى العراق، وحمص عقدة مواصلات، وفيها مركز لشركة نفط العراق، وأبناؤها المغتربون في المهجر يرسلون إلى ذويهم بعض الأموال... وإنما كان يتمثل البؤس والتناقض الاقتصادي بأجلى مظاهره في مدينة حماه.

ثانيا: كان ثمة تناقض حاد بين المدينة والريف، على الرغم من اعتماد اقتصاد المدينة على الريف وعلى الرغم من أن الكادحين في المدينة كانوا يمتازون بالجرأة والطهارة والاستبسال. وهذا التناقض يتجلى في استعلاء أبناء المدينة، بمن فيهم الكادحين، على أبناء الريف الفلاحين.

كان الفلاحون جميعا -بلا استثناء- كالأغنام وراء إرادة الاقطاعية، لا يجرؤ أحد منهم على رفع صوته، بل لا يجرؤ أي إنسان في المدينة أن يذهب إليهم ويبشر في صفوفهم. وحتى المخاتير ووجهاء الفلاحين في القرى التي يملكها الفلاحون كانوا

تبعا وأزلاما للاقطاعيين، وكان بعضهم أشد شراسة في مقاومة الحركة الشعبية من أسيادهم إقطاعيي المدينة، لذا كانت أصوات الفلاحين "تصب" في صناديق الاقتراع لصالح الارادة الاقطاعية، وهي أصوات لا تقل كثيرا عن أصوات المدينة. هذا مع العلم بأن الأسر الاقطاعية في حماه (آل البرازي، الكيلاني، العظم، طيفور، العاشق، وعدد آخر من الأسر والعصبيات المالكة الأخرى) تملك أكثر من ثلاثة أرباع الريف في قرى مدينة حماه.

كان تيار الفكرة الشعبية، منذ جهود الدكتور صالح قنباز الذي استشهد في ثورة 1925 ورفيقه الدكتور توفيق شيشكلي يضم كل الفقراء الكادحين والضعفاء والطلاب وقسما من البورجوازية الصغيرة الضعيفة النفوذ والجرأة، والمتدينين غير المحترفين من أبناء الشعب، لا سيما الذين تأثروا بدروس الشيخ سعيد الجابي في الثلاثينات الذي كان حربا على الخرافات الدينية وأصحاب الطرق. وقد توفي بعد ذلك وهو على أشد الخلاف مع معظم المشايخ الذين تألبوا عليه وناهضوا دعوته، وكان تيار الفكرة الشعبية يضم أيضا صغار التجار الطيبين المحترمين، والحرفيين والباعة الصغار، وأبناء الأسر العريقة التي يرجع تاريخ بعضها لأكثر من أربعمائة عام. كانت هذه الأسر المحترمة والمتحضرة والمعروفة بأخلاقيتها تشكل ركائز الحركة الشعبية في الأحياء، وبالمقابل كان يدعم الحركة الاقطاعية ويؤازرها الأسر ذات الملكيات الكبيرة، ممن كان معظمهم تجارا في الأساس، وأبناء الأسر التي تملك عقارات أو بساتين في المدينة وضواحيها، ومعظم رجال الدين والمشايخ بسائق المنفعة والمصلحة. كما كان يؤيدهم أرباب العصبيات العائلية الكبيرة وهؤلاء رغم فقرهم كانوا يتقربون من الاقطاعيين لتحقيق بعض المنافع وليستمدوا من نفوذهم ما يجعلهم متسلطين على الشعب، وكانت هذه العصبيات تمارس طغيانا وعدوانا واستعلاء على الفقراء بشكل أقبح مما كانت تمارسه الطبقة الاقطاعية.

تلك كانت صورة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في حماه سنة 1943.. فما هي "الفكرة الشعبية" في أذهان الجمهور ووعيه، وماذا كانت تعني الاقطاعية في نظره.؟؟

كانت الفكرة الشعبية تعني، بنظر الجماهير الفقيرة البائسة، قيما وطنية وسياسية وأخلاقية ودينية أكثر مما تعني قيما مادية.

كان القضاء على الاقطاعية يعني، بنظر ابن المدينة، أن يصبح حرا محافظا على كرامته مساويا للآخرين في الاعتبار، كان إلغاء الاقطاعية في نظره يعني إلغاء الاعتداءات والجرائم والنهب والسرقات والارتكابات، وكان يبني موقفه هذا على قيم دينية راسخة.

كان إلغاء الاقطاع في نظره يعني إلغاء النفوذ غير المشروع والسيطرة غير المبررة، لإيجاد مجتمع نظيف يكون فيه المواطن حرا بانتقاء قياداته وممثليه السياسيين. لأن الاقطاعية تستند في نفوذها إلى ممالأة الأجنبي والسير بركابه، إن وجود الاقطاعية يتنافى مع القيم الدينية التي تدعو للجهاد في سبيل التحرر من الأجنبي. كما أن سيرة الرسول والخلفاء وأبطال الاسلام تمد المواطن بنموذج حي للقيم السياسية والأخلاقية والدينية التي تتنافى كليا مع الوضع الذي كان يعيشه هذا المواطن الفقير أو الطالب أو المثقف الذي اتصل إلى حد ما بحضارة العصر وبقيمه. لكن لم يكن واضحا في أذهان الشعبيين آنذاك دور الاقطاع المادي بالريف في خلق الاقطاع السياسي بالمدينة. ولم يكن يخطر في بال أحد من الشعبيين أن زوال الاقطاع السياسي في البلاد، لتحقيق ما تطمح إليه الجماهير من استقلال وديمقراطية وما تصبوا إليه من قيم أخلاقية وسياسية وكرامة انسانية، لا يمكن أن يتحقق طالما أن هذا الاقطاع السياسي يستند إلى الاقطاع المادي في الريف وما لم يتحرر الفلاحون من نيره، وطالما أن الجماهير البائسة في المدينة - والتي كانت تمارس استعلاء على الفلاحين- لا تنظر إلى هؤلاء الفلاحين على أنهم حلفاؤها في معركة تحطيم كابوس الاقطاع الجاثم على رقاب الفريقين

معا... لم تكن هذه المعادلة واضحة في أذهان الناس. من هذا المنطلق بدأ نضال حزب الشباب. وفي هذا العمل الثوري تتجلى المعجزة التي حققها خلال ست سنوات بتفجير بركان ثورة الفلاحين في سورية مما سترد تفاصيله في وقائع سنة 1949 وما تلاها.

لقد كان نضال حزب الشباب مستندا على هذه القاعدة الواضحة والمعادلة الصحيحة: لا يمكن للمجتمع العربي الزراعي المتخلف أن يتحرر من الاستعمار الخارجي إلا بالقضاء على الاستغلال الداخلي. ولا يمكنه أن يقضي على الاقطاعية السياسية إلا بتحالف الفقراء الكادحين في المدينة مع الفلاحين في الريف في حركة نضالية واحدة باسلة لبناء المجتمع الجديد.

12

1943: في مجلس النواب

متاعب .. إلى حدود الإغماء:

طيلة فترة المعركة الانتخابية لم أذق طعما للنوم والراحة إلا عندما أنزويت في البيت ثلاثة أيام إثر تشكيل لجنة الإصلاح.. وبعد أن تم انتخاب النواب عدنا لاستئناف العمل من جديد ليلا ونهارا، نستقبل وفود الأحياء ونقوم برد الزيارات، ونلقي المزيد من الخطابات في كلا الحالتين، غير أنها اختلفت عن ذي قبل بتخفيف حدتها.. وكان رد الزيارات عملا شاقا، إذ ننتقل من بيت إلى بيت فيقدم لنا شراب التوت في ذلك الصيف القائظ ونضطر لشربه إكراما لمضيفينا ولكن للمعدة طاقة على الاستيعاب لا يمكن تجاوزها. واذكر أنني أثناء خروجي من أحد المنازل شعرت بدوار وكاد يغمى علي، فأمسك بي رفاقي وأنقذوني من السقوط على الأرض.

وفد تهنئة من حمص:

كانت الحركة الشعبية في حماه تعطف على الحاج سليمان المعصراني وتتمنى فوزه في انتخابات حمص لأنه الوجه الشعبي البارز في قائمة آل الأتاسي. وقد نكث به هؤلاء فخسر المعركة وعندما جاءت إلى حماه وفود من شباب الحركة الشعبية بحمص لتهنئنا كان على رأس أحد هذه الوفود شاب القى كلمة شعرت بأنها تردد أصداء خطاباتنا التي ألقيناها في حفلاتنا الانتخابية. وقد اعتبر هذا الشاب الحركة الشعبية حركة العمال والكادحين والفقراء ضد الأوضاع الاقطاعية. فأحببت هذا الشاب وانفتح له قلبي. وعرفت أن اسمه عبد البر عيون السود. وسألت عن منشئه فعلمت أنه من أسرة شعبية طيبة وأن أباه شيخ من مشايخ حمص الاتقياء الورعين.

كانت تلك المناسبة بداية معرفتي بعبد البرعيون السود الذي أصبح بعد سنوات من قادة حزب البعث.

وقد لفتت نظري فيما بعد ظاهرة تستحق الدرس والاهتمام وهي أن عددا كبيرا من القادة الحزبيين الذين امتازوا بالوعي ورسوخ العقيدة الحزبية والصلابة النضالية هم منحدرون من آباء متدينين من أوساط هذا الشعب الطيب.

أن القيم السامية تظل هي نفسها مهما تعددت صور العقائد، فمن القيم الاخلاقية والانسانية تنبثق العقيدة الراسخة الواعية، ولا شك أن للتربية العائلية والثقافية علاقة وثقى بمثل هذه الشؤون.

حفلة غريبة في بابها :

في 6 أب 1943 ذهبت ورئيف الملقي إلى حمص لنحضر حفلة أقامها الأتاسيون لتعزية الحاج سليمان المعصراني بسقوطه في الانتخابات. فكانت أغرب حفلة في بابها.

كان المعصراني موضع عطف الحركة الشعبية وتأييدها لأنه الوحيد في قائمة الكتلة الوطنية بحمص من منشأ شعبي. وكان فوزه في الانتخابات منتظرا وأكيدا. ولكن الأتاسيين نكثوا به في آخر لحظه ليحوزوا لأسرتهم على مقعدين نيابيين: الأول لعدنان بن هاشم الأتاسي، في قائمة الكتلة، والثاني لحلمي الأتاسي أحد قادة عصبة العمل القومي المنحلة، فأراد هاشم الأتاسي أن يبريء نفسه من شبهة النكوث بالحاج سليمان المعصراني فلجأ إلى هذا الأسلوب العجيب. ولا شك عندي أن هاشم الأتاسي كان بريئا، ولكن من يستطيع القول أن موقف أسرته في الانتخابات كان بريئا؟

حضرنا الحفلة واستمعنا إلى كلمات هاشم الأتاسي ومظهر باشا رسلان والخطباء الآخرين في امتداح وطنية المعصراني. ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما تكلم رئيف الملقي كلاما مختلفا تماما وضع فيه إصبعه على الجرح، وكشف الغطاء عن تآمر آل الأتاسي والكتلة الوطنية على المعصراني لأنه من أبناء الشعب ولا ينتسب لأسر الذاوات. فأتت كلمته صفعة أليمة

على وجوه المحتفلين بسقوط المعصراني، ولكن الشعب صفق لها طويلا.

ولم يسع الحاج سليمان إلا أن يقول في كلمته، بعد أن شكر القوتلي والأتاسي ورسلان والآخرين: "إن شعوري الخاص في هذه الحفلة هو شعور الرجل الذي يكافأ على فشله، فيتقبل العزاء منكمشا على نفسه خجلا".

السفر إلى دمشق :

تحدد يوم 17 آب 1943 موعدا لانعقاد الجلسة الأولى للبرلمان الجديد. فخرجنا إلى المحطة لنسافر إلى دمشق بالقطار ليلا. وقد خرجت جموع شعبية غفيرة إلى المحطة لتوديعنا. كان منظرا مؤثرا جدا. ومضى القطار بنا وأنا ساهر لم يغمض لي جفن في تلك الليلة. كنت أفكر بما سنفعله في رحلتنا إلى عالم الكتلة الوطنية المحطمة، والطبقة الاقطاعية التي قفزت إلى مجلس الاستقلال.

وصلنا إلى دمشق في اليوم الثاني صباحا، فنزلنا في فندق متواضع لأحد الحمويين، وكان على مقربة منا فندق أمية الفخم الذي ينزل فيه أكثر النواب الآخرين.

خطوات خجولة نحو أول جلسة:

في 17 آب 1943 حضرت جلسة افتتاح البرلمان. وهي أول مرة في حياتي أشاهد فيها جلسة نيابية.

توجهت من فندقنا المتواضع إلى دار البرلمان أنا ورئيف الملقي. وكانت تنتابني مشاعر من الخجل والحياء والارتباك. وتلك كانت من حالاتي النفسية التي حدثت القاريء عنها في مناسبات سابقة. بينما كان رئيف جريئا واثق الخطى، لأنه كان يعرف أكثر الشخصيات التي سنلقاها داخل البرلمان. وعندما وصلنا كان يمسك بيدي ويقدمني للنواب ويعرفهم علي. ثم جلست إلى جانبه في مقاعد متأخرة قليلا. كانت موجة الخجل والتهيب لا تزال تلفني.

طلب رئيس الحكومة المؤقتة عطا الأيوبي أن يرأس الجلسة أكبر الأعضاء سنا كما يقضي النظام الداخلي. وكان أكبر الأعضاء سنا هو الشيخ محمود الشيخ إبراهيم، وهو رئيس عشيرة طاعن في السن، يقال إنه من أصدقاء لورانس القدامى، فاعتذر الشيخ محمود عن رئاسة الجلسة لعجزه عن إدارتها وترك الأمر لفارس الخوري.

تولى الخوري الرئاسة وطلب عدنان الأتاسي ونجدة النجاري ليكونا أميني السر المؤقتين باعتبارهما أصغر الأعضاء سنا. فدهشت لهذا الأختيار، إذ أن عدنان الأتاسي كان أستاذا لي في كلية الحقوق. كما كانت دهشة النواب كبيرة إذ أنني كنت أبدو في نظرهم صغيرا في السن إلى حد أثار دهشة وتعجب بعضهم.. ولا زلت أذكر أن الأستاذ سعيد الغزي أتى إلي مرحبا - دون سابق معرفة - وقال لي : إنه أمر مدهش أن تنتخب نائبا في هذا المجلس وأنت في هذه السن.

كان عدد النواب مائة في مجلس عام 1936، وأصبح عددهم في مجلس 1943 مائة واربعة وعشرين. وهذه الزيادة ناجمة عن ازدياد عدد السكان في البلاد بمعدل 24% في غضون سبع سنوات.

كانت وقائع الجلسة مرتبة سلفا. فانتخب فارس الخوري للرئاسة، وانتخب صبري العسلي ومحمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) أمينين للسر، وانتخب نواب الرئيس والمراقبون. وبعد ذلك وجه الرئيس فارس الخوري كلمة شكر لحكومة عطا الأيوبي المؤقتة ثم قال: "إنني أرى في مقاعد المستمعين ممثلي الدول الحليفة المعظمة يتوسطهم سعادة المسيو هللو سفير فرنسا، وسعادة الجنرال سبيرس الوزير المفوض للدولة البريطانية، والمستر ودسورث الممثل لجمهورية أمريكا المعظمة، وممثلي الدول العربية مصر والعراق والحجاز".. فضجت قاعة المجلس بالتصفيق، ولكنني وزميلي لم نحرك ساكنا.

ثم شرع بانتخاب رئيس الجمهورية، فنال شكري القوتلي 118 صوتا. ولم يكن هناك مرشح غيره.

ألقى القوتلي خطابا مكتوبا يشبه خطاباته المعهودة، مع إشارته إلى ميثاق الاطلنطي "الذي اعترف بحقوق الشعوب"، كما أشار إلى ما أعلنه ممثلو فرنسا الحرة وعلى رأسهم الجنرال ديغول وأكده رجال الدولة البريطانيون "من استقلال بلادنا وسيادتها الكاملة". وقال: "إن الشعب السوري المقيم على الوفاء لأصدقائه وعلى عرفان الجميل لن يبرح ذاكرا هذه الأقوال والأعمال التي سيبقى أثرها في نفوس أبنائه وفي مستقبل خططهم ومواداتهم".

وفي المساء أعد القوتلي مأدبة عشاء في فندق الأوريان بالاس على شرف النواب، وكانت قاعات الفندق غاصة بالمدعويين من النواب الذين تعرفنا أنا وزميلي الملقي على عدد كبير منهم.

الشرارة الأولى

لو أنني منذ بداية حياتي البرلمانية عكفت على تدوين مذكراتي اليومية، لما خرجت في النهاية بأفضل من ضبوط محاضر المجلس النيابي، ذلك لأنني، منذ البداية، كنت لا أقول إلا ما أؤمن به وأعتقده وما يجول في نفسي. وكنت أعرض ذلك بثقة وإخلاص وصدق. لذلك فإن كلماتي في مجالس النواب السورية، بمختلف العهود، هي مذكراتي الحقيقية... وإن كان أصحاب المذكرات اليومية الذين ينزوي الواحد منهم أمام أوراقه يسجل فيها ما يجول في نفسه ولا يتحسب من كل شيء، لأن أوراقه الخاصة المخبأة لن تحرجه أمام أحد، فإنني كنت في كلماتي بالبرلمان أجاهر بكل ما أجد أن المصلحة الوطنية تقتضي المجاهرة به.

وضعت هذه المقدمة لأنني سوف أعتمد فيما سيلي من فصول على شواهد من كلماتي في مجلس النواب لعرض وقائع المسيرة النضالية الشاقة والباسلة التي سارها شعبنا منذ عام 1943. فما هي أول كلمة قلتها في مجلس ذلك العام؟

قلت في الجلسة الثانية التي عقدت يوم 19 آب 1943:

"إن الدستور السوري ينص على وجوب تحليف رئيس الجمهورية والنواب يمين الاخلاص للدستور. وأعتقد أن هذه القضية قد أثيرت سابقا في مجلس 1932 و 1936. وقرر المجلسان آنذاك عدم القسم لوجود المادة 116 في صلب الدستور. ولذلك فإنني أقترح أن يؤدي رئيس الجمهورية والنواب يمين الاخلاص على دستور 1928، أي دستور الجمعية التأسيسية، لا على الدستور الذي طرأت عليه بعض التعديلات بقرار من المفوض السامي وذلك بإضافة المادة 116، فتمسكنا بالدستور الأول وحلفنا اليمين على أساسه هو في اعتقادي منطلقنا في توجهنا السياسي ونضالنا القومي".

بهت المجلس وذعر لهذا الطلب الذي يتعارض تماما مع الاتجاه العام للعهد. وكان الرئيس القوتلي وفارس الخوري وسعد الله الجابري الذي كلف بتشكيل وزارة العهد الجديد يعملون على تحاشي مسألة حلف اليمين على الدستور لأن ذلك يثير من جديد كل الخلافات الحادة التي نشأت بين الحركة الوطنية وبين الانتداب الفرنسي منذ عام 1928[1] ، إذ كيف يحلف قادة عهد الاستقلال على دستور فيه المادة 116 التي تربط كل الأمور بمشيئة المفوض السامي الفرنسي؟

لذلك تولى فارس الخوري الرد فورا فقال: "إن ما تكلم عنه السيد أكرم الحوراني نائب حماه قد بحث فيه سابقا. وارى أن طرحه الآن للبحث سابق لأوانه. ولا بد من تقرير أمور أخرى لها صلة بهذا الأمر، وجلاء بعض الأمور التي تكتنفه وتحيط بالموقف الحاضر. لذلك أرى أن يوافقني السيد الحوراني على إرجاء هذا البحث إلى وقت آخر".. فضج المجلس بصوت عال: موافق موافق ..

وهكذا تمكن الخوري والنواب من إرجاء البحث في هذا الموضوع، ولكنهم لن يتمكنوا من إغلاق الباب الذي فتحته بإثارة

(1) لهذا السبب تحدثت بإسهاب، في فصل سابق، عن دستور 1928 وعن المرحوم فوزي الغزي.

قضية الاستقلال بدءا من النقطة التي وقفت عندها نضالات المجلس التأسيسي عام 1928.

تجاهلت الصحف الناطقة باسم القوتلي هذا الموضوع الخطير تجاهلا تاما. بينما أبرزته صحف المعارضة - كالنضال - والصحف الحيادية كجريدة ألف باء.

وهكذا افتتح رجال الكتلة الوطنية، بزعامة القوتلي، هذا العهد الجديد بروح انهزامية. بالرغم مما ذكرنا من تغير الظروف الدولية لصالح القضية الوطنية بعد قيام الحرب العالمية ووجود التناقض الدولي بين فرنسا وبريطانيا التي تحتل جيوشها بلادنا.

لم تكن هذه النفسية الانهزامية نفسية الحاكمين فقط بل كانت النفسية المهيمنة على الجهاز السياسي بمجموعة، وهو من أبناء الطبقة ذاتها... بينما كان من الطبيعي أن تقود سوريا حركة الصراع لنيل الاستقلال نظرا لنضج الحركة الاستقلالية فيها وتماسك المجتمع حول القضية الوطنية، ولاعتبارات عديدة أخرى.

وعلى كل حال فقد أنطلقت مع زميلي الملقي بمعارضة جدية لرجال الكتلة الوطنية، حكومة ومجلسا، وللأكثرية النيابية الملتفة حولهم. وكان الملقي مخلصا في معارضته... وقد بدأت هذه المعارضة على مختلف المستويات. فعدا عن طرحنا الجدي لقضية إلغاء الانتداب بتحرير الدستور من المادة 116، فإننا ساعدنا في لجان الطعون أثناء النظر بانتخابات الزوية وقطنا والقلمون وكل المناطق التي كان فيها لعهد القوتلي مرشحون، والتي تولى فيها صبري العسلي - كما قيل آنذاك - بصفته محاميا ومن رجال العهد توكيلا سياسيا وتوكيلا مصلحيا أيضا في قضايا الطعون. وذلك منذ الجلسات الأولى للمجلس النيابي الجديد.

وزارة سعد الله الجابري:

إثر انتخاب القوتلي رئيسا للجمهورية افتتح عهده بأمرين هامين يشيران إلى خطه السياسي بالنسبة للمستقبل. الأمر الأول تشكيل أول حكومة في العهد الجديد برئاسة سعد الله

الجابري كل أعضائها من الذين تقلدوا الوزارات في عهد الانتداب وتعاونوا معه.

فكانت فاتحة العهد الاستقلالي هذه الحكومة :

سعدالله الجابري للرئاسة.

جميل مردم للخارجية.

لطفي الحفار للداخلية.

نصوح البخاري للدفاع الوطني والمعارف.

خالد العظم للمالية.

مظهر رسلان للأشغال العامة والإعاشة والتموين.

الدكتور عبد الرحمن الكيالي للعدلية.

توفيق شامية للزراعة والتجارة.

وكان تشكيل هذه الحكومة على هذا النحو مؤشرا سيئا لسياسة العهد. ولم يكن هذا رأيي الخاص بل كان أيضا شعور الرأي العام. وقد استمرت هذه الوزارة في الحكم حتى 14 تشرين الثاني 1944.

حفلة تجار دمشق بخان أسعد باشا :

ابتدأ القوتلي عهده جاعلا الجمعية الغراء وجامع تنكز دعامة نشاطه الانتخابي في الأوساط الشعبية، ولم تكن الجمعية الغراء بعيدة عن الوسط التجاري، فقد كان أمين سرها عبد الحميد الطباع من تجار دمشق. وكان الرأسماليون الذين أثروا في ظروف الحرب على حساب الميرة ومصلحة الاعاشة دعامة القوتلي الحقيقية وراء الجمعية الغراء. ولذلك أطلوا برأسهم بعد انتخابه رئيسا للجمهورية، فتشكلت بإيعاز منه لجنة من كبار التجار الرأسماليين ضمت كلا من: مسلم السيوفي، عبد الهادي الرباط، عبد الحميد دياب، أمين دياب، بدر الدين دياب، بديع قصص، حمدي الخطيب، محمد القصص، عبد الوهاب الصمادي، بشير رمضان، توفيق الحلاق، صلاح الدين الشوربجي، رشدي البعلبكي، عبد

الهادي المارديني، عبد المغيث السمان، أنور القطب، موفق الحفار، ياسين الطباع، عارف اللحام، مكي الحفار، رفعت الإيتوني، موسى غناجه، إبراهيم طوطح[2] ، صادق الغراوي، شفيق الخانجي... الذين ستمر في المستقبل أسماء بعضهم، من الذين استغلوا عهد القوتلي ولعبوا أدوارا سياسية بغاية الخطورة، واتهم بعضهم بصفقات مشبوهة على حساب الدولة.

احتفاء بانتخاب القوتلي رئيسا للجمهورية أقام هؤلاء التجار، بتاريخ 23 آب 1943 حفلة كبرى في خان أسعد باشا[3] الشهير بذكرياته التاريخية، في سوق البزورية القريب من المسجد الأموي وقصر العظم. وقد حضر الحفلة هاشم الأتاسي وأعضاء المجلس النيابي وعدد غفير من المدعوين، وكان اختيار تجار دمشق هذا الخان مكانا للاحتفال بداعي أنهم استقبلوا فيه الملك فيصل بعد تتويجه ملكا على سوريا، وهم "اليوم يستقبلون رئيسهم السيد شكري القوتلي".

بذل تجار دمشق على حفلتهم بسخاء بالغ فكانت حفلة في منتهى الأناقة والفخامة فقد زينت الأسواق التجارية المؤدية إلى سوق البزورية بزينات رائعة، وفرشت الطرق بالسجاد إلى خان أسعد باشا. ولم يسبق لي أن دخلت هذا المبنى الأثري رغم أنني كنت أمر من قربه كثيرا عندما كنت طالبا في مدرسة (عنبر) التجهيزية القريبة منه.

وقف هاني الجلاد خطيبا باسم تجار دمشق، وهو الرجل الذي أخرجناه من جامع أمية مهزوما لا يلوي على شيء، في اضرابات ومظاهرات عام 1936، عندما أعلن باسم الكتلة الوطنية إنهاء الاضراب.. وقال في خطابه: "قد يظن الظان أن دعوة يدعو إليها تجار العاصمة سوف تتكلم فيها المادة. دع الظن، وما أهداك

(2) كان إبراهيم طوطح من كبار تجار دمشق اليهود وكان شريكا لوالد أحمد الشراباتي.
(3) بنى هذا الخان أسعد باشا العظم والي دمشق سنة 1166هـ، "ففي تلك السنة شرع حضرة أسعد باشا في عمارة القيسارية التي في البزورية التي عز نظيرها في الدنيا" حوادث دمشق اليومية تأليف الشيخ أحمد البديري الحلاق- مطبعة لجنة البيان العربي- القاهرة- 1959، الطبعة الأولى، ص 174.

إلى الحقيقة الناصعة، فأصحاب المتاجر قد أقاموا الدليل أكثر من مرة على أنهم أصحاب عقيدة، وذمتهم عراء من كل غاية"..

قد يصح هذا القول على التجار في الماضي عندما كانوا يعانون أزمة اقتصادية خانقة، ولكنه لا يصح بعد إثرائهم في ظروف الحرب..

على إنني غبت عن متابعة كلام الجلاد بتأملات أثارت في نفسي خواطر أخرى حول خان أسعد باشا:

إنه أحد رموز دمشق التجارية عندما كانت مصنوعاتها الشهيرة تذهب بعيدا في العالم، إنه صورة حية للعقلية التجارية الدمشقية التاريخية التي تنشط دون صخب في الظلال الوارفة، متحضرة مرنة ذكية نشيطة ناعمة، تعبد إلهين: الله والدينار.

أحببت المكان ولكن شعرت أنني أمقت تلك الحفلة لما ترمز إليه من استغلال سيفسد الحياة السياسية.

العائلة القوتلية.

قلت في نفسي، عندما أعلن التجار اختيار خان أسعد باشا مكانا للاحتفال، إن القوتلي إراد أن يضع نفسه بمستوى الملك فيصل. مع أن الفارق كبير لأن فيصل دخل دمشق ثائرا عربيا محررا أما القوتلي فإنه يقيم عهده الجديد على أنقاض الحركة الوطنية الشعبية.

ولكن ظهر بعد أيام قليلة أن القوتلي أراد أن يذهب إلى أبعد من ذلك فيضع أسرته بمصاف البيوتات العربية المالكة. فقد نشرت "القبس" بمناسبة زيارة بعثة التهنئة التي أرسلها الملك فاروق برئاسة الفريق عمر فتحي باشا، مقالا بعنوان: "الصلات التاريخية بين بيت محمد علي وآل القوتلي" جاء فيه:

"فهو من ناحية جلالته إعراب عن عاطفة ملكية سامية. كما هو في أعمق أسبابه الخاصة برهان على مقدار حرص جلالة الفاروق على المحافظة على تراث البيت العلوي الكبير وإحياء ما بينه وبين البيوتات العربية والاسلامية الكبرى من روابط تاريخية ربطتها به ووثقت فيما بينها وبينه عرى الود ووشائج

الصداقة المتينة. لقد ربطت بين البيت العلوي وبين آل القوتلي روابط تاريخية قديمة، وإن كنا لا نستطيع تحديد تاريخها فهي على كل حال ترجع إلى رحلات رجال هذه العائلة العريقة إلى القطر المصري في سبيل الأعمال الاقتصادية، فأدت هذه الحالة إلى عقد أواصر الصلات الطيبة بين ساكن الجنان مؤسس البيت العلوي الكبير وبين رجالات هذه العائلة القوتلية العريقة... الخ".

وقد استهجن هذا المقال كثيرا في جميع الأوساط الشعبية.

المعركة التي لم تخضها سوريا يخوضها لبنان :

امتدت العطلة المجلسية من 26 آب إلى 19 تشرين الأول. وقد أمضيت أياما منها بزيارة شقيقتي في مصيف بحمدون، وكانت المعركة الانتخابية في لبنان في أوج حدتها. ولشد ما أدهشني ذلك التغير الجذري فلبنان الذي أشاهده الآن هو غير لبنان الذي عرفته في الماضي، ولم يكن هذا التغير بانطلاق لبنان في الاتجاه العربي التحرري ملموسا في الصحافة والأوساط السياسية فحسب، بل كان مشاهدا في الجو السياسي العام الذي يعيشه لبنان، وزاد في استغرابي وإعجابي أن تكون المعركة الانتخابية في لبنان أشد وضوحا وتحديدا من معركة سوريا الانتخابية التي اختلط فيها الحابل بالنابل. ففي لبنان تدور المعركة الانتخابية حول القضية الوطنية بين أعوان الانتداب وبين طلاب الاستقلال والتحرر والعروبة. بينما لم يجر شيء من ذلك في الانتخابات السورية، بل إنه لم يجر فيها معركة حزبية أصلا حيث انحلت الأحزاب وعلى رأسها الكتلة الوطنية وعصبة العمل القومي، كما حال القوتلي ورجال الكتلة دون وقوع الانقسام المنتظر بين الوطنيين وأعوان الانتداب . لذلك يتبدى من استعراض نواب عام 1943 أن كثيرا منهم من الذين تعاونوا مع الانتداب. بل أن بعضهم كان من عملائه.

أما في لبنان فقد جرى عكس ذلك إذ كانت المعركة الانتخابية محتدمة بدقة ووضوح بين أعوان الانتداب وبين طلاب

الاستقلال. وإذا كان التناقض الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا قد لعب دورا هاما في دعم الاتجاه العربي التحرري، فما أحراه آنذاك أن يلعب دورا أكثر أهمية في سوريا.

كنا نتابع بفرح واستبشار وتفاؤل تصاعد الحركة التي يقودها بشارة الخوري ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي وإخوانهم، والتي انتهت بانتصارهم على أميل اده وأنصار فرنسه وقد اتضحت هذه الحركة أكثر فأكثر عندما انتخب المجلس النيابي الجديد بأكثرية ساحقة الشيخ بشارة الخوري رئيسا للجمهورية، فأكد ذلك في خطابه الأول قائلا: "أسأل الله أن يعيننا على خدمة هذا الوطن اللبناني المستقل المتمتع بسيادته كاملة غير منقوصة، مهما تكن التضحية في سبيل هذه الخدمة كبيرة. هذا الوطن اللبناني الذي نضع حبه فوق كل شيء، والذي يجب أن يظل للبلدان العربية الشقيقة المحيطة به جارا أمينا وأخا صادقا تربطه بها روابط تعاون يسوده الود والاخلاص".

واستمر خط الثورة الصاعد عندما ألف رياض الصلح وزارته التي نالت الثقة على أساس بيانها **التاريخي من أن "أخواننا في الأقطار العربية لا يريدون للبنان إلا ما يريده أبناؤه الأباة الوطنيون، فنحن لا نريده للاستعمار مستقرا، وهم لا يريدونه للاستعمار اليهم ممرا، فنحن وهم إذن نريده وطنا عزيزا مستقلا سيدا حرا"...** قد كانت جلسة منح الثقة لهذه الوزارة الأولى في العهد الاستقلالي، 9-10-1943 مظاهرة وطنية كبرى تطرح فيها لأول مرة قضية استقلال لبنان وعروبته وثورته الدستورية على الانتداب فقد ورد في البيان: **"سنبادر نحن وأنتم متعاونين إلى إصلاح الدستور اللبناني بحيث يصبح ملائما كل الملاءمة لمعنى الاستقلال الصحيح. فإن حضراتكم تعلمون أن في الدستور اللبناني موادا لا يتفق وجودها وقيام الاستقلال. وفيها ما يجعل لغير الشعب اللبناني وممثليه الشرعيين مشاركة في تسيير شؤونه"**.. وطرح البيان الوزاري قضية العودة إلى اللغة العربية إذ قال: **"وسنسلك منذ الآن تلك الخطة المفترض تحديدها**

بالقانون بحيث تكون اللغة العربية لغة الدواوين الرسمية، وذلك إلى أن يتم تعديل المادة الدستورية المشار إليها بما يتفق مع شروط الاستقلال والسيادة الوطنية"... كما تعرض لقوانين الانتداب وأنظمته: **"وهناك عدا الدستور اتفاقات وأنظمة متعددة من شأنها أن تعطل بعض نواحي السيادة الوطنية، فستعمد الحكومة إلى معالجتها بما يكفل حق البلاد وسيادتها كفالة تامة"...**

ولهذا ارتفع شأن قادة حركة الاستقلال في لبنان، الخوري والصلح وكرامي ورفاقهم، إلى مرتبة عالية في نظر السوريين، بالقياس إلى قادة الحكم بدمشق، مما جعل الصحافة اللبنانية يتسع انتشارها في سورية أكثر من الصحف السورية نفسها.

كان للعهد الدستوري الجديد في لبنان أثر بعيد المدى في تآلف البلدين وتوثيق الروابط بين الشعبين وإزالة الخلافات القديمة التي أورثها الانتداب بينهما، كما كان ذلك حافزا قويا للحركة الوطنية في سورية أن تشق طريقها في ظروف دولية وعربية مواتية، ففي القاهرة كان مصطفى النحاس باشا يجري مشاورات الوحدة العربية تؤيده بريطانيا على لسان المستر ايدن الذي صرح :

"إن الحكومة البريطانية تنظر بعين القبول والارتياح إلى كل مشروع يرمي إلى إيجاد وحدة عربية تلقى موافقة تامة ... إن وحدة بين الشعوب العربية المعروفة بصداقتها لبريطانيا من العوامل التي تعزز روح السلام والتفاهم الدولي، كما أنها وسيلة للنهوض بسبعين مليون عربي من الوجهة الاقتصادية".

لقد كانت مفارقة مدهشة أن يفتتح لبنان العهد الدستوري بانتفاضة وطنية، بالوقت الذي تصدر فيه حكومة سعدالله الجابري قرارا بتعيين بهيج الخطيب (رئيس حكومة المديرين أثر تعطيل الحياة النيابية من قبل المفوض السامي الفرنسي) محافظا لمدينة دمشق، الأمر الذي اعتبرته البلاد صفعة أليمة وإهانة موجهة إلى نضال الشعب ضد الانتداب الفرنسي.

عملاء المخابرات البريطانية المحليون :

رجعت إلى حماه بعد زيارتي لبحمدون فمكثت فيها بضعة أيام. كان جو المدينة هادئا، والأهلون بغاية الرضى عن مواقفنا وسياستنا. وقد كلفني أحد الفلاحين أن أرفع عنه ظلامة أصابته من مصلحة الميرة، وكان يرأس هذه المصلحة ويدير شؤونها ضابطان أحدهما يسمى (داردن) والثاني (هارفي)، وقد بدأ نشاط هذين الضابطين ونفوذهما، السياسي يتعاظم منذ دخول القوات البريطانية واستلامهما مصلحة الميرة، فاتصلت بشخص قريب لأحد النواب حيث لم يسبق لي مراجعة هذه المصلحة من قبل، فأظهر استعداده لمساعدتي نظرا لعلاقته الطيبة مع الضابطين.

استقبلنا داردن استقبالا وديا. وقد لفت نظري في إحدى زوايا الغرفة المجردة من الأثاث حزمة من نبات أخضر زاه ، فقال داردن إنها حشيشة الكيف، وأنه أتى بها للتو من مزرعة لحشيشة الكيف في البادية تخص أحد زعماء العشائر النائب في المجلس النيابي فأمر بإتلافها.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها نبات حشيشة الكيف، فأثنيت على نشاطه الانساني، ثم عرضت له القضية فوعد بحلها فورا. فقلت له: إنني كنت في زيارة قصيرة لبحمدون وقد شعرت بجو ديمقراطي جديد يسود لبنان، وأردفت قائلا: إن لموقف بريطانيا المؤازر للعرب أثرا في هذا الجو الذي تشكرون عليه، وأتمنى أن تستمر العلاقات الطيبة بين بريطانيا والشعبين السوري واللبناني لتحقيق استقلالهما الناجز.

صمت داردن هنيهة ثم التفت إلى رفيقي وحدثه بالانكليزية حديثا لم أفهمه. ثم قال لي مرافقي: إن داردن يرجوك أن تزوده بالتقارير والأخبار عن الوضع في سوريا. فكانت إهانة مذهلة لي أربكتني كثيرا وبعد هنيهة من الصمت لم يسعني إلا أن أكرر ما قلته سابقا من أن الشعب السوري يشكر للحكومة البريطانية مساعدتها له في نضاله لنيل استقلاله وحريته. فتراجع داردن فورا

وتحدث عن أمور أخرى كأن شيئا لم يكن. ثم ودعته وانصرفت لا ألوي على شيء.

تجاهلت الموضوع ولم أعاتب مرافقي الذي تأكدت أنه يعمل في المخابرات البريطانية، وظلت أصداء هذه المفاجأة تتردد في خاطري طويلا. وقد استنتجت من جرأة هذا الضابط البريطاني أن شبكة المخابرات البريطانية في سورية لم تترك أحدا ذا شأن إلا وحاولت اصطياده سواء بواسطة مصلحة الميرة أو الإعاشة. وقدرت المخاطر التي ستنجم عن ذلك. وعرفت من تلك اللحظة أن النفوذ البريطاني سيصبح بلا شك أكبر وأعظم خطرا على البلاد بعد تصفية النفوذ الفرنسي.

انتخابي أمينا لسر المجلس:

عدت إلى دمشق أنا وزميلي رئيف الملقي قبل أيام من موعد افتتاح المجلس في 19 تشرين الأول، وقد بادر الملقي للاتصال بالنواب لانتخابي أمينا لسر المجلس، باعتبارها من حق مدينة حماه حيث كان الدكتور توفيق أمينا لسر المجلس في جميع العهود النيابية السابقة. فوجد اقتراحه ترحيبا في أوساط النواب.

لم أكن مسرورا بهذه المهمة، بالرغم من أنها كانت تعتبر في ذلك الوقت مركزا مرموقا، لأنني لاحظت في جلسات الدورة السابقة أنها عائق يحول بين النائب وبين حريته الدائمة في الكلام والمناقشة... ولكنها كانت عاطفة طيبة من زميلي الملقي فلم أر مجالا للاعتراض.

كانت جلسة 19 تشرين الأول بداية الدورة العادية الأولى، وهي تقتضي حسب النظام الداخلي انتخاب هيئة جديدة لمكتب المجلس. وقد ترأس الجلسة فارس الخوري باعتباره أكبر الأعضاء سنا، واستدعاني مع محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)[4]

(4) عاد بدوي الجبل للصف الوطني وقد استهل عودته لصفوف الكتلة بقصيدته الرائعة التي جرت على كل لسان إثر سقوط باريس في يد الألمان عام 1940.

آمنت بالحقد يذكي من عزائمنا وقاتل الله إشفاقا وتحنانا ومنها

لأمانة السر، باعتبارنا أصغر الأعضاء سنا. وما أن أذاعت الصحف نبأ انتخابي لأمانة سر المجلس حتى بدأت برقيات التهنئة تنهال علي من حماه حيث أعيد إليها حقها.

بدأنا بطريق المعارضة:

أخذت معارضتنا أنا وزميلي رئيف الملقي تشتد ضد حكم القوتلي بعد أن تجاوزت القضية في نظرنا قضية انهزام العهد أمام الأنتداب وأصبحت قضية انحرافات عميقة ينبغي مقاومتها مهما كلف الثمن. وقد تعدت هذه المعارضة العنيفة ساحة المجلس إلى أوساط الشعب بدءا من مدينة حماه إلى المدن السورية الأخرى.

كيف بدأ تشكل المعارضة ضد عهد القوتلي ؟

في عهد الانتداب الفرنسي كانت المدن الأربع: دمشق وحمص وحماه وحلب تتولى قيادة الحركة الوطنية، إذ تمركزت فيها المقاومة الشعبية الضارية طيلة عهد الانتداب. ولهذا السبب، ولأسباب أخرى، ظل الفرنسيون متشبثين بانفصال دويلات اللاذقية والسويداء والحكم المحلي فى لواء الاسكندرون ليحولوا دون امتداد لهيب النضال الوطني إليها... وفي جو انحلال الكتلة الوطنية وتمزقها جرت انتخابات عام 1943 تحت الشعار الذي أطلقه القوتلي بنبذ الحزبية باعتبارها عصبية ضارة واعتبار الوطن كله حزبا واحدا، لكن خلفيات هذه الدعوة كانت على النقيض من ذلك، فقد انطلق القوتلي من بعث الكتلة الوطنية من جديد، بالاشتراك مع سعدالله الجابري.

أما هاشم الأتاسي فقد كان معارضا للقوتلي رغم تظاهره بمبايعته وتأييده، وقد ظهرت تلك المعارضة بمواقف ابنه عدنان وابن عمه حلمي الأتاسي في البرلمان وفي مدينة حمص.

وقد تولى رشدي الكيخيا وناظم القدسي قيادة المعارضة في حلب منذ ترشيحهما للنيابة في قائمة مستقلة عن قائمتي

الكتلة الوطنية المتعارضتين اللتين كان يرأس أولاهما سعدالله الجابري ويرأس الثانية عبد الرحمن الكيالي.

أما في دمشق فقد تمكن القوتلي من جمع أطراف الكتلة الوطنية في قائمته الانتخابية، ولم يصمد أمامه إلا الدكتور سامي كبارة الذي كان يصدر جريدة النضال والذي كان معارضا للكتلة الوطنية من قبل ولذلك تألب عليه العهد عندما رشح نفسه للكرسي النيابي الذي شغر بعد انتخاب القوتلي رئيسا للجمهورية. فأخفق الدكتور سامي كبارة في المعركة ونجح فخري البارودي عوضا عنه.

لقد ابتدأت القوى السياسية بعد انتخابات 1943 نشاطها بصورة عامة على النحو التالي:

أولا: تيار العهد الذي يضم ، مجلسيا وشعبيا رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء سعدالله الجابري وحولهما جميع أعضاء الكتلة السابقين في المدن والأقضية، يضاف إليهم الصناعيون والتجار الذين أثروا في ظروف الحرب، وشيوخ العشائر، والطبقة الاقطاعية التي كانت منشقة عن الكتلة الوطنية في عهد الانتداب وبذلك فقد تكونت الأكثرية المجلسية الساحقة في جانب حكم القوتلي.

ثانيا: المعارضة، وقد تجلت بنائبي حماه اللذين فازا بمعركة طاحنة ضد الاقطاعية كما تتجلى بنائبي حلب المستقلين رشدي الكيخيا وناظم القدسي، بالتفاهم مع نائبي حمص عدنان الأتاسي وحلمي الأتاسي.

ولم يكن ثمة أحزاب في تلك الفترة، وإنما كان ثمة تكتلات وأحزاب صغيرة هنا وهناك كحزب الشباب، أما حزب البعث فلم يكن قد تشكل بعد.

وقد تكونت المعارضة المجلسية من تكتلات بلغ عدد أعضائها أحيانا عشرة أو خمسة عشر نائبا، وكان هذا العدد يتقلص حسب ضغط الظروف والسلطة إلى حد يقتصر أحيانا على بضعة نواب، على أن بعض تلك التكتلات تحولت فيما بعد إلى

أحزاب، شأن حزب الشعب الذي كانت نواته كتلة المعارضة التي ضمت رشدي الكيخيا وناظم القدسي وعدنان الأتاسي، وهاني السباعي وغيره فيما بعد.

على ضفاف بردى.

بعد انتخابي أمينا لسر المجلس اتخذت مع زميلي رئيف الملقي مقهى صغيرا على ضفة بردى مركزا لاستقبال الزائرين والمراجعين والتعرف على رجال السياسة. ذلك المقهى تعرفنا على الأستاذين ميشيل عفلق وصلاح البيطار، ومنذ اللقاء الأول كان انطباعي عنهما جيدا، وكانا قد أصبحا يعارضان عهد القوتلي، وقد تركا مهنة التعليم ليتفرغا للعمل القومي. وكنت قد قرأت للأستاذ ميشيل قبل ذلك محاضرته "في ذكرى الرسول العربي". وقد قدم لي الأستاذ صلاح كراسا عنوانه: "القومية العربية وموقفها من الشيوعية: خلاصة الأحاديث التي ألقاها على جماعة من الشباب والطلاب الأستاذان صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق".. ومما جاء في هذا الكراس: "كانت الشيوعية في سوريا بين سنة 33 وسنة 36 ضعيفة، منبوذة، مضطهدة من كل الجهات. وكانت حركتها مقتصرة على شابين أو ثلاثة في السجون، واثنين أو ثلاثة آخرين متشردين مطاردين. ومع ذلك أو من أجل ذلك كانت تلقى منا بعض العطف. ومنذ سنة 1936 إلى الآن أصبحت الشيوعية قوة سياسية لا يستهان بها، يناصرها الاستعمار الفرنسي والهيئات الوطنية على السواء، ويتباهى المثقفون وموظفو الدولة بالانتساب إليها، كما تتحلقها بعض الأوساط الرجعية، وهي تدر على أصحابها وأنصارهم المنافع والشهرة. ومع ذلك أو من أجل ذلك لا نألو جهدا في مكافحتها وتحذير النشء العربي من خطرها". (طبعة حزيران 1944 ص15).

كنت في ذلك الوقت موافقا على ما ورد في الكراس من أفكار والسبب أن الحزب الشيوعي أصبح جهازا دعائيا لفرنسا ببياناته ومظاهراته الهزيلة التي كانت ترفع صور "ديغول وستالين والقوتلي" مما ولد لدي اشتباها بمواقفه.

وقد استمر الحزب الشيوعي في تأييده لسياسة الفرنسيين الديغوليين، وكثيرا ما كنت أجد في صندوق بريدي بيانات للحزب، بهذا المعنى، تحاول تهيئة البلاد للرجوع إلى سياسة التعاقد مع فرنسا وتغفل مطالب البلاد بالحرية والاستقلال التام دون أي قيود تحد استقلالها باسم التعاقد أو التحالف الذي يرجع ببلادنا إلى أوضاع عام 1936.

ومن جملة هذه المنشورات التي كنت أجدها في صندوق بريدي بالمجلس بيان مشترك عن اجتماع عقد في 23 تشرين الثاني 1944 حضره فرج الله الحلو ونقولا الشاوي ومصطفى العريس من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي للبناني، وخالد بكداش ورشاد عيسى ووصفي البني وعبد القادر اسماعيل[5] من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، وكان موضوع هذا البيان المشترك "موقف سوريا ولبنان من قضية التعاقد مع فرنسا بصورة عامة".

كان موقف الحزب الشيوعي انحرافا خطيرا أساء به لنفسه بتأثير تبعيته للحزب الشيوعي الفرنسي آنذاك وقد غير الحزب الشيوعي موقفه هذا بعد الجلاء، فاتخذ موقفا معاديا لمحاولات انكلترا الحلول محل فرنسا وبسط نفوذها على سوريا.. وستمر في حينه مراحل هذه المحاولات بالتفصيل.

توطدت العلاقات والأواصر بيننا وبين الأستاذين ميشيل وصلاح شيئا فشيئا، وكنت في الوقت نفسه أرثي لحال زكي الأرسوزي لما اصيب به من انهيار نفسي، ولكن العطف عليه ومساعدته كانت واجبا بالرغم مما كان يساوره من الوساوس وسوء الظن وعقدة الاضطهاد ... والحادثة التالية الطريفة المؤلمة - بآن واحد- تبين وضعه النفسي، فقد زارني ذات مساء بصحبة عبد الحليم قدور، فهيأت لهما عشاء في البيت وسهرنا سهرة ممتعة حلق فيها الأستاذ بأحاديثه الشيقة المليئة بالصور الشعرية الناقدة الكاريكاتورية الجميلة. ومن سوء الحظ أنه عندما هم

(5) من قادة الحزب الشيوعي العراقي.

بمغادرة المنزل مع رفيقه بعد أن ودعتهما انزلقت قدمه بقشرة فواكه وأصيبت برضوض. فأخبرني عبد الحليم فيما بعد أن الأستاذ زكي يتهمني بأنني مكلف من الاستعمار بوضع تلك القشرة للكيد به. فضحكت كثيرا وتألمت بالوقت ذاته.

قضية فلسطين محور الوحدة العربية:

في أول جلسة برلمانية حضرها سعدالله الجابري رئيس الوزراء وجميل مردم وزير الخارجية بعد عودتهما من مباحثات الوحدة التي جرت في القاهرة في شهر تشرين الأول 1943، أرسلت ورقة صغيرة إلى صديقي النائب قاسم الهنيدي كتبت فيها. بالنظر لعدم تمكني من مغادرة منصة رئاسة المجلس أرجو أن تتولى نيابة عني سؤال سعدالله الجابري عن نتائج مباحثات الوحدة.

فأجاب الجابري :

"لقد ذهبنا إلى مصر بمهمتين الأولى: حمل كتاب فخامة رئيس الجمهورية لصاحب الجلالة مليك مصر. (تصفيق حاد)، والثانية: تلبية لدعوة رفعة النحاس باشا للبحث والمشاورة بالقضية العربية والوحدة العربية (تصفيق).

إن المهمة السياسية مما لا يباح الجهر بتفاصيلها، فلا يمكنني إلا أن أقول كما قال البلاغ المشترك انها موفقة كل التوفيق"... وطلب من المجلس "أن يشكر الملك فاروق والحكومة المصرية الرشيدة والشعب المصري النبيل" فوافق المجلس على ذلك.

وخوفا من ضياع الفرصة طلبت من رئيس المجلس أن يأذن لي بالنزول إلى مقاعد النواب، فحاول أن يصرفني عن ذلك فأصررت، فأذن لي، فقلت :

ألم يكن لفلسطين محط أنظار العرب والمسلمين نصيب في البحث الذي دار؟

ألا يجب أن يكون النضال من أجل فلسطين مضمون الوحدة العربية؟.. أنا لا أريد أن أحرج الرئيس بذكر تفاصيل المشاورات، وأكتفي بسؤاله عن هذه الجهة".

فأجاب سعدالله الجابري:

"سيدي الرئيس : إن الحالة لا تسمح بالجواب عنها، ولكني أقول إن فلسطين لم تغب عن بالنا أبدا".. فقوبل جوابه أيضا بالتصفيق من قبل النواب، وطوي البحث، لقد كان النضال من أجل القضية الفلسطينية منطلقنا - منذ البداية - لتحقيق الوحدة العربية.

موازنة الدولة

كانت المرة الأولى التي أطلع فيها عمليا على موازنة الدولة ، وكنت في معهد الحقوق قد عرفت شيئا عنها في علم المالية، ولكنها كانت معرفة نظرية فعكفت على مشروع الموازنة أقرأه قراءة الطالب المجد وأتفحص أرقام الموازنة والأسس التي قامت عليها، فاكتشفت أهمية الموازنة في إعطاء صورة دقيقة بالأرقام عن أوضاع البلاد عامة، فهي المرآة التي تعكس فيها الصورة الحقيقة للدولة وللمجتمع. ولذلك فإن توجيه الموازنة يرسم مستقبل البلاد في جميع المجالات.

وبذلك خطوت خطواتي الأولى في هذا الميدان الذي صرفت له الكثير من عنايتي واهتمامي فيما بعد، فأخذت أطالع كتب المالية والاقتصاد والتنمية، وأتباحث مع الاختصاصيين وأناقشهم، حتى أصبحت لدي بعض الخبرة في الشؤون المالية والاقتصادية وقضايا التنمية، وتوليت فيما بعد عضوية لجنة الموازنة ورئاستها عدة سنوات.

غير أنني لم أجد الثقة في نفسي، عند مناقشة موازنة عام 1944، أن أطرح على المجلس كثيرا من الأفكار التي كانت تجول في خاطري، واكتفيت بالتوكيد على أسئلة كنت قد تقدمت بها قبل عرض الموازنة تتعلق بتوحيد أسعار الحبوب ومواد الاعاشة التي كانت أسعارها مختلفة في المحافظات السورية، مما كان

يولد انعكاسات سياسية ضارة. كما طالبت بضرورة طرح موازنة الاعاشة على المجلس مع موازنة الدولة العامة، لأنه لا يجوز دستوريا أن تظل موازنة الاعاشة - وهي من الموازنات الملحقة - محجوبة عن الرقابة المجلسية ... وسوف يتبين فيما بعد أية أهمية كبرى كانت لهذا الطلب الذي تكشف عن فساد وارتكابات هاتين المصلحيتن (الميرة والاعاشة) واستغلال الحكم القائم لهما، والانعكاسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السيئة التي نجمت عنها في البلاد.

كانت واردات موازنة عام 1944 لا تتجاوز 44 مليون ليرة. على أساس أن الليرة الذهبية تعادل 40 ليرة سورية بالسعر الرسمي. وكانت النفقات العامة 48.5 مليون ليرة سورية... إنني أذكر هذه الأرقام لأبين النمو الحالي والاقتصادي المعجز الذي حققته سوريا بعد الاستقلال.

ومن أهم الملاحظات على موازنة 1944، أنها المرة الأولى في تاريخ الموازنات السورية، - وكان الفرنسيون يضعونها سابقا- التي يرد فيها ذكر لمشروع الخمس سنوات، وقد خصص له ستون مليون ليرة سورية من الاحتياطي المجمد، ومع أن هذه المبالغ لم تصرف جميعها على مشاريع انتاجية منهجية مدروسة فيما بعد فإن أهميتها أنها وجهت أنظار البلاد إلى ضرورة التخطيط في مشاريع التنمية.

درس اقتصادي .. من الاستعمار:

كانت الليرة الذهبية قبل الحرب تعادل 5.5 ليرة سورية، وكانت الضائقة الاقتصادية طيلة عهد الانتداب الفرنسي تأخذ بخناق البلاد رغم الرخص الشديد الذي لا يمكن تصوره لأسعار جميع الحاجيات، وأذكر أنني ذات مرة تغديت غداء كاملا ممتازا مع أجرة المقهى بفرنك واحد (خمسة قروش). وكان النقد المتداول قليلا جدا.

ثم حدثت الحرب، واحتلت الجيوش البريطانية البلاد، وكثرت أوراق العملة، وحدث الانفراج الاقتصادي الذي تحدثنا عنه في فصل سابق، وخاطب وزير المالية خالد العظم أثناء مناقشة موازنة عام 1944 البرلمان قائلا:

"إن كثرة النقد المتداول أوجدت رخاء في البلاد رغم الغلاء المشاهد. وإن هذا الرخاء لن يستمر، فلا بد أن ينجم عن انقطاع انفاق الجيوش وتدني الأسعار وعودة الحياة إلى مجراها الطبيعي أزمة تشبه أزمة ما بعد الحرب الماضية... ورغبة في التغلب على ذلك وضعت الحكومة برنامجا لخمس سنوات حرصت أن يكون شاملا جميع النواحي العمرانية كالمدارس ودور الحكومة والعناية بتجميل المدن وتشييد الدوائر والبنايات... الخ".

والحقيقة أن الجيوش المحتلة لم تنفق في البلاد قطعا نادرا. ومن أين لها القطع النادر في ظروف الحرب؟ إنها فعلت عكس ذلك إذ وضعت يدها على منتجات البلاد الرئيسية كالحبوب وغيرها لتموين قواتها. وسددت قيمة هذه المنتجات بالعملة الورقية مما سبب هبوط القوة الشرائية لليرة السورية. فأصبحت الليرة الذهبية تعادل أكثر من أربعين ليرة سورية.

وبرغم هذا التضخم انتعشت البلاد انتعاشا اقتصاديا هائلا، وسبب ذلك وفرة أوراق العملة بعد قلتها في البلاد طيلة العهد الفرنسي، وكان الفرنسيون، رغم وضع يدهم على مصادر ثروة البلاد الرئيسية ونهبها والتصرف بها، شديدي الحرص على الاقتصاد بإصدار العملة الورقية، لا خوفا من التضخم النقدي، بل لارتباط النقد السوري بالفرنك الفرنسي، لأنه كلما كثر النقد الورقي المتداول وجب على البنك السوري، صاحب امتياز الاصدار وممثل الرساميل الفرنسية، أن يوجد تغطية ذهبية أو من العملات الصعبة، وهذا مما ليس في مصلحة الرساميل الفرنسية صاحبة الامتياز.

وقد ظل النمو الاقتصادي في البلاد صاعدا مستمرا على جميع المستويات الزراعية والصناعية والتجارية رغم تعثر مشاريع

التنمية، ولم يحدث ما توقعه وزير الماليـة مـن أزمـات تصـيب الـبلاد بعد الحرب.

13

1943: فرنسا تلغي حقوق لبنان الاستقلالية- قضية لبنان في مجلس النواب السوري- انتصار الحركة الاستقلالية في لبنان - دكاترة الحكمة في سورية - دور مجلس النواب السوري في قيادة الحركة الوطنية- استلام الصلاحيات في سوريا من سلطة الانتداب.

دمشق تحتفي بتحرريي لبنان

بتاريخ 21 تشرين الأول 1943 زار دمشق رياض الصلح رئيس الحكومة اللبنانية وسليم تقلا وزير الخارجية. فاستقبلتهما حكومة سعدالله الجابري استقبالا رسميا. وما أن سمع الشعب بالنبأ حتى انطلق في مظاهرات عارمة يستقبل رياض الصلح القائد الجريء مؤيدا ومباركا الحركة الوطنية التحررية التي يقودها مع الشيخ بشارة الخوري وبيير الجميل ورفاقهما.

ولم يفاجأ رياض، الرجل الذكي، بهذا الاستقبال الشعبي بل أدرك دوافعه ودواعيه، فقال للصحفيين: "إنني جد مسرور بأنني تمكنت مع زميلي سليم تقلا من رد الفضل الذي سبقتنا إليه سوريا حكومة وشعبا. وإننا لأكثر سعادة أن هذه الحفاوة موجهة إلى استقلال لبنان استقلالا صحيحا أكثر مما هي موجهة إلينا شخصيا".

كانت حفاوة الشعب العفوية بالصلح مهمازا للقوتلي وحكومته، فقد كانت مواقف حكومة لبنان تنعكس أصداؤها التي تستحقها في سوريا - على جميع المستويات- وتربك بالوقت ذاته سياسة الحكومة السورية، وقد اقتصرت زيارة رياض الصلح على رئيس الجمهورية والحكومة فلم يتيسر لي الاجتماع به.

ولا بد لنا هنا أن نتساءل عن السر الذي عكس الآية فجعل من قادة الحركة الوطنية في لبنان أسرع في مجابهة الانتداب منذ

قيام العهد الدستوري في البلدين عام 1943 من رجال الكتلة الوطنية في سورية؟

لا شك أن هذا الوضع الغريب يعود لسببين :

أولا: اختلاف موقف فرنسا من قادة الحركة الوطنية في البلدين في انتنخابات عام 1943، إذ أيدت فرنسة قوائم أميل أده الانتخابية واعتمدته داعما لوجودها في لبنان، بينما وقفت بريطانيا بجانب الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي ورفاقهم.

أما في سورية فقد ساندت فرنسة بالفعل زعامة القوتلي وسعدالله الجابري وأيدت قائمة القوتلي الانتخابية وألفت حوله الجمعية الغراء ورجال الأعمال والتجار في دمشق.

ثانيا: إن قادة الحركة التحررية في لبنان كانوا أكثر وعيا وفهما للوضع ذالدولي بعد قيام الحرب العالمية الثانية، وأن نجم فرنسة ونفوذها الاستعماري قد أفل إلى غير رجعة عن المشرق.

أما القوتلي وسعدالله الجابري ورهطهما فلم يكونوا أقل وطنية من قادة الحركة الوطنية في لبنان ولكنهم كانوا أكثر خشية وحذرا من الصدام مع فرنسة التي ظل خوفهم منها مستقرا في روعهم، ولذلك كانوا قانعين بإنهاء الانتداب الفرنسي - من دون صدام- باتفاقيات تعقد بين سورية وفرنسة، وهذا ما يفسر سياستهم التي ساروا عليها منذ بداية العهد الدستوري عام 1943 والتي قضت على ما تبقى لهم من شعبية، بالاضافة إلى اخطائهم وانحرافاتهم بعد عقد معاهدة عام 1936 التي نكلت عنها فرنسة، ولكن الشعب السوري الذي كان منذ العهد العثماني مركز الاشعاع الثوري العربي في المنطقة العربية جرف بتياره الذي لا يقاوم رجال الكتلة الوطنية وقام بثورة عام 1945 التي حققت للبلدين سورية ولبنان استلام الجيش وجلاء الجيوش الاجنبية الفرنسية والانكليزية، فنال البلدان استقلالهما الناجز عام 1946 قبل أن ينال أي بلد آخر في العالم الثالث استقلاله إثر الحرب العالمية الثانية.

فرنسا تلغي حقوق لبنان الاستقلالية:

بتاريخ 11 تشرين الثاني 1943 أذاع المسيو هيللو، مندوب فرنسا العام في الشرق، بيانا طويلا اختتمه بالقرارات التالية:

"إن النص الذي قبله مجلس النواب اللبناني في جلسته المنعقدة في 8 تشرين الثاني 1943، والمشتمل على تعديل المواد: 1، 11، 52، 95، 102 من الدستور، وإلغاء المواد: 90، 91، 92، 93، 94 من الدستور، هو خال من كل صبغة دستورية، وهو لاغ ولا مفعول له.

المادة الثانية: حل مجلس النواب اللبناني.

المادة الثالثة: إيقاف تطبيق الدستور اللبناني على أن يعاد على أثر انتخابات تجري فيما بعد". كما قرر تعيين أميل ادة رئيسا للدولة والحكومة.

وقد جاء في بيان المسيو هيللو الطويل قوله:

"وإذا كان رجال الحكم يجهلون الطرق والوسائل الدبلوماسية فكان بإمكانهم الاستعاضة عن عجزهم بالكياسة واللباقة اللتين تظهران عند غيرهم" -يقصد الحكم السوري-.

وقال: "إن فرنسا **لم تكن المقصودة وحدها بذلك - يقصد تعديل الدستور-. فلبنان لم يكن أقل استهدافا منها، لذلك من بإمكانه أن ينظر بصورة جدية إلى التصريحات العلنية التي يدلي بها رجل (يقصد رياض الصلح) لم يمر على وطنيته اللبنانية أكثر من ستة أسابيع، وكان من عشرين سنة يتآمر على استقلال بلاده (يقصد الاتجاه العربي الوحدوي لرياض الصلح) وأي دليل على وطنيته وحبه للاستقلال من أن يحرم المرء بلاده من ضمانة دولة تضمن حدوده.**

وقال: "**وبما أنه ليس من الممكن تحوير نصوص ناجمة عن موجبات دولية- يعني صك الانتداب- تعهدت بها فرنسا، وهي لا تزال نافذة إلا بموافقة ممثل فرنسا، فإن**

السلطات الفرنسية لا يمكنها الاعتراف بصحة أي تعديل يجري بدون هذه الموافقة".

قامت سلطات الانتداب باعتقال الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي وكميل شمعون والشيخ بيير الجميل وعدد آخر من زعماء لبنان، فقامت مظاهر الاحتجاج الشعبية العارمة في لبنان وفي كافة المدن السورية، وأعلنت دمشق وحماه وحمص الاضراب العام الشامل، وجرت مظاهرات واضرابات مماثلة في مصر والعراق تأييدا للبنان في معركته مع الاستعمار الفرنسي، وقد تصدى حكم القوتلي للاضرابات والمظاهرات الشعبية والطلابية. فهدد الطلاب بالطرد من مدارسهم وكتبت جريدة القبس في عددها الصادر بتاريخ 16 تشرين ثاني 1943 ما يلي: "اتصل بنا أن الحكومة استدعت عددا كبيرا من التجار ووجهاء الأحياء، وأبلغتهم تقديرها لشعور المدينة النبيل تجاه أزمة لبنان، وأن الحالة تقتضي بعودة الحياة إلى مجراها العادي الطبيعي، وأن الحكومة عازمة على اتخاذ التدابير الصارمة ضد الذين تسول لهم نفوسهم العمل للحيلولة دون الحياة الطبيعية إلى المدينة".

وقد تغاضت الصحف السورية عن نشر أنباء الحوادث اللبنانية الدامية واعتقال الزعماء اللبنانيين تحت سيف الرقابة الحكومية المشهرة فوق رأسها حتى بالنسبة لنشر أنباء جلسات المجلس النيابي السوري بحجة الظروف الاستثنائية.

قضية لبنان في مجلس النواب السوري

في تلك الأجواء الثورية التي عمت البلاد، عقد المجلس النيابي السوري في 15 تشرين الثاني 1943 جلسة كان إقبال الزائرين عليها عظيما، كما كانت المظاهرات الشعبية تحيط بالبرلمان المحروس بقوى الأمن.

وقد هيأ انعقاد الجلسة صيغة سؤال وقعه ثمانية عشر نائبا جاء فيه:

" لا ريب أن حكومتنا قد وقفت على تفاصيل الحوادث الأليمة التي جرت في لبنان منذ التاسع من الشهر الحالي على أثر تعديل بعض مواد الدستور اللبناني وتعطيل الدستور وحل مجلس النواب وخلع الحكومة الشرعية واعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وثلاثة وزراء وأحد النواب البارزين وتنصيب رئيس دولة رئيس حكومة وما تبع ذلك من أعمال العنف والشدة. ولما كانت سوريا مرتبطة مع لبنان الشقيق بروابط الجنس والجوار والمصلحة المشتركة والمشاعر القومية، نود أن نسأل حكومتنا عن الموقف الحازم الذي اتخذته أو ستتخذه حيال هذه الكارثة، كما نطلب منها أن تطلع المجلس النيابي على اجراءاتها السابقة والخطة التي تنوي انتهاجها تجاه هذه القضية الخطيرة".

قبيل انعقاد الجلسة كانت علائم الاضطراب بادية على رئيس الوزراء - وهو أسد الشمال-. وقد رجا النواب أن تكون كلماتهم موزونة، وخصني برجائه معللا ذلك بحراجة الموقف وما يترتب على أقوال النواب من نتائج، فقلت له إن كلمتي مكتوبة ولكن لا يمكن أن تكون أمام هذا العدوان على لبنان إلا عنيفة قاسية، وإنني مقتنع كل القناعة أنه من الضروري أن يكون لسوريا موقف حاسم تجاه هذه الحوادث الخطيرة، بل أعتقد أنه كان على سوريا أن تبدأ بالخطوات التحررية التي بدأها لبنان، ويؤسفني أن يكون الأمر معكوسا ... والآن ما على الحكومة السورية، وعلى رأسها رجل وطني شجاع يقف وراءه الشعب إلا أن تؤازر لبنان بكل قوة ممكنة.

لم يطل النقاش، وانعقدت الجلسة، وكان عدد طالبي الكلام من النواب كبيرا جدا، وكان من الوقاحة أن ترتفع في ذلك الجو الملتهب أصوات بعض أعوان الانتداب مشككة -بشكل غير مباشر- بموقف حكومة لبنان. ولا شك أن مسؤولية ذلك تقع على عاتق القوتلي الذي ميع المعركة الانتخابية وأهدافها منذ البداية.

كانت كلمتي ردا على بيان المسيو هيللو والمبررات التي طرحها، كما كانت وخزا أليما لموقف حكومتنا المائع المنافق، وقد قلت فيها:

"خير لأمتنا أن تكون صريحة صادقة من أن تكون لبقة منافقة. ما خاطبت أمتنا الفرنسيين منذ دخولهم إلى هذه البلاد إلا بلغة الشجاعة والصدق والصراحة التي هي من طباعنا في مختلف الظروف. فلنتكلم إذن بهذه اللغة. فنحن بصفتنا نواب الأمة نشعر بشعورها العميق ونتألم لآلامها نعتبر كارثة لبنان الشقيق كارثتنا ومحنته محنتنا. وإن ما أريق من الدماء في لبنان هي دماؤنا. هذا هو شعورنا وشعور أمتنا في كل ومكان وبقلب كل إنسان. بل هذا هو شعور العرب أجمعين. إن شعبنا قد أظهر عواطفه. ولكنها عواطف المكبوت، وأظهر آلامه، وعظيم من آلامنا ما ظل منها حبيسا. فليس من اللباقة ولا الكياسة كتمان هذا الشعور.

ما اعتدى أحد على حدود لبنان، وما استحدثت وطنية جديدة في لبنان ولا يحد الجبل اللبناني إلا الداخل. وقد تكررت هذه النغمة على لسان المستعمرين، فأنا أعلن لأخواننا اللبنانيين أن يضموا إليهم ما اختاروا من الداخل. فأي أرض أرادوا ضمها هي أرضهم وبلادهم، وأي سكان في هذه البلاد هم أهلهم وأخوانهم. فلا نعد نحن الواهبين ولا هم الموهوبون. ما كان لبنان في يوم من الأيام أجنبيا. بل كان دوما بلدا مجاهدا عربيا، بل هو البؤرة التي تشع منها أنوار النهضة واليقظة والوعي في الشرق العربي منذ أجيال. فلا قوميات جديدة في لبنان ولا وطنيات مستحدثة. إن وطننا وطنهم وآلامنا آلامهم وقضيتنا قضيتهم ولغتنا لغتهم ودماؤنا دماؤهم ومصلحتنا مصلحتهم".

كما قلت في هذه الكلمة نافيا وجود الانتداب من الناحية القانونية :

"إن الإنتداب من أسوأ النظم الجائرة التي خلفتها الحرب العالمية الماضية. فصح عزم الأمم المتحدة على أن تقضي على مخلفات الحرب الماضية السياسية الخاطئة الجائرة بإعلان ميثاق الأطلنطي. فهل يحق لأي دولة من الدول المتحدة أن تعد الانتداب موجودا ولو من الناحية الفنية؟.. نعم إن عصبة الأمم قد فرضت علينا الانتداب الظالم فرضا فيما مضى أما نحن فلم نكتف بإعلاننا عدم الاعتراف به بل محونا صكه بجهادنا ودمائنا.. هل يجتمع الاستقلال والانتداب على صعيد واحد؟

إن عصبة الأمم قد زالت ولم يبق لها وجود. وربما تشكلت هيئة دولية أخرى أثر الحرب الحالية. ولكن هذه الهيئة، على فرض تشكيلها، ستكون من الأمم المتحالفة التي تعهدت باستقلالنا وسيادتنا".

وخلصت، بعد الاستطراد، إلى النتيجة التالية:

"أرجو أن نسمع من الحكومة قولها الصريح الجريء في هذا الموضوع.

ثارت ثائرة سعدالله الجابري، ولم يملك نفسه من مقاطعة النواب مرارا عند المقاطع الحساسة من خطاباتهم... ثم أتى رد الحكومة على ثورة الشعب والنواب ردا ضعيفا على لسان وزير الخارجية جميل مردم إذ قال: "إن اعتقال الرؤساء والوزراء والنواب اللبنانيين هو أمر يأباه الشعور الانساني **وتأباه المجاملة وغيرها** من القواعد التي يعتمد عليها في تقرير العلائق الدولية ... الخ".

وأوعزت الحكومة إلى النائب فخري البارودي أن يتقدم باقتراح ينهي به الجلسة هذا نصه: "إن المجلس النيابي، بعد ما سمع خطب نوابه الذين أعربوا عن شعور الأمة تجاه الأحداث التي أصيب بها لبنان الشقيق، وبعد ما سمع بيانات حضرة وزير الخارجية، يعلن مشاركته للشعب اللبناني بآلامه وآماله، متمنيا أن تعود حياته النيابية وحكومته الشرعية، وهو يحتج على كل

الاجراءات التي اتخذت لتهديم دعائم الدستور وامتهان استقلال لبنان وسيادته". وقد ضمنت الحكومة الموافقة على هذا الاقتراح بمالها من أكثرية مجلسية.

ولا شك أن تصرفات الحكومة كانت تضعف الثقة بها شيئا فشيئا حتى في نفوس الموالين لها لأن أسد الشمال- لقب الجابري- لم يعد أسدا.

انتصار حركة استقلال لبنان

استنكر الشعب موقف الحكومة الذي تجلى في خطاب وزير الخارجية في مجلس النواب بشأن الأزمة اللبنانية، فاستمرت المظاهرات والاضرابات وشملت جميع أنحاء سوريا حتى الأقضية منها، فقام القوتلي وأركان حكومته بمجهودات كبرى مع التجار ورجال الأحياء لوقف سيل التظاهرات والعودة عن الاضرابات دون جدوى، إلى جانب الرقابة الشديدة التي كانت تمارسها الحكومة على الصحف التي كانت أكثر أعمدتها تخرج بيضاء.

وبسبب استمرار المظاهرات في لبنان وسورية "أرسلت لجنة التحرير الفرنسية" الجنرال كاترو إلى لبنان لتهدئة الحال، مع تأكيد رئيسها الجنرال ديغول على مسؤولية فرنسا الحرة عن انتدابها في سوريا ولبنان، فقد قال كاترو: **"إن فرنسا ما زالت مسؤولة أمام جامعة الأمم، فعليها أن تجيب أمام جامعة الأمم** عن انتدابها، وذلك إلى اليوم الذي تزول فيه مسؤولية الانتداب عنها تماما، فقضية استقلال لبنان قضية فرنسية لبنانية، ولا أريد من قولي هذا أنها ليست أيضا قضية فرنسية انكليزية".

وقد كان واضحا الضغط الشديد الذي كانت تمارسه بريطانيا على حكومة فرنسا الحرة ولذلك لم يسع الجنرال كاترو إلا أن يقول: "لا أستطيع القول أنه ليس من اختلاف في وجهات النظر بين فرنسا وانكلترا بشأن القضية اللبنانية. غير أن هذه الاختلافات تزول عندما نكون أصدقاء لبريطانيا العظمى في جميع الظروف".

وقد اضطرت فرنسا الحرة أخيرا للاستسلام، فأصدرت لجنة التحرير الفرنسية بتاريخ 22 تشرين الثاني 1943 البلاغ التالي:

"لقد قررت اللجنة العمل باقتراح الجنرال كاترو الرامي إلى إعادة الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية إلى منصبه، وكلفت مفوض الدولة (اي الجنرال كاترو) بمهمة أن يفاوض بالتدابير اللازمة لاعادة الحياة الدستورية إلى لبنان عاجلا ورغبت في أن يتوجه السيد هيللو المندوب العام المطلق الصلاحية إلى الجزائر (أي اضطرت لسحبه من سوريا ولبنان). وقررت اللجنة إطلاق سراح الوزراء اللبنانيين المعتقلين الذين كانوا في الحكم في 8 تشرين الثاني، وقد أكدت اللجنة عزمها على **فتح مفاوضات مع الحكومة السورية** من أجل انسجام انتداب فرنسا مع العهد الاستقلالي الموعود به لدول الشرق وفقا لتصريحات 1941. وفي حال عودة الحياة الدستورية إلى لبنان **ستجري مفاوضات مماثلة مع حكومة بيروت"**.

وهكذا ظلت فرنسا مصرة على **التشبث بالانتداب** رغم اطلاق سراح المعتقلين وعودة الحياة الدستورية الشرعية.

موقف حكومة عهد القوتلي:

قدر لبنان موقف الشقيقة سوريا من محنته، بالرغم من تخاذل حكومتها "فقد خرج أهالي القرى اللبنانية بالمواكب والأهازيج يستقبلون الشيخ بشارة الخوري عندما أطلق سراحه. **وكانت الجماهير تحمل رايات لبنانية مصنوعة على شكل الراية السورية، وقد وضع محل النجوم السورية أرزة لبنانية وقد رفعت هذه الراية على كثير من العمارات والدور أيضا"**

أسرعت الحكومة السورية بعد انتهاء الأزمة فأصدرت بتاريخ 22 تشرين الثاني بلاغا قالت فيه: "إن الحكومة السورية أوفدت في ذلك اليوم وزير الخارجية جميل مردم الذي اتصل بفخامة الجنرال كاترو مفوض الدولة، وفخامة الجنرال سيبرز الوزير البريطاني المفوض، وسعادة المستر ويدسورث ممثل حكومة الولايات المتحدة. فأبلغ فخامة الجنرال كاترو ما كان أبلغه مرات عديدة من أن الحكومة السورية لا ترى من حل لهذه الأزمة إلا

بإلغاء التدابير الاستثنائية التي اتخذت في لبنان وإعادة الأوضاع الشرعية فيه إلى ما كانت عليه. وإن كل إبطاء في تنفيذ ذلك يجر إلى نتائج غير محمودة قد تتسع حتى يتعذر تلافي أضرارها".

ولكن رياض الصلح لم يفته أن يغمز في إحدى خطبه، من موقف **"دكاترة الحكمة"** في سوريا حيال أزمة لبنان.

حث نظام القوتلي على ممارسة الاستقلال:

كان فارس الخوري خلال الأزمة اللبنانية وبالاتفاق مع الحكومة، يؤجل مواعيد جلسات البرلمان تحاشيا من إحراج الحكومة من أسئلة النواب، أما بعد انتهاء الأزمة اللبنانية والافراج عن الزعماء الوطنيين فقد صرح سعدالله الجابري في الحفلة التي أقيمت بمناسبة ذكرى هنانو بحلب فقال: "إن ممثل فرنسا نفسه اعترف أمام عصبة الأمم أن صك الانتداب يفترض أن يكون الشعب المنتدب عليه معترفا بالدولة المنتدبة. وبذلك فقط يكون الانتداب صحيحا. أما سوريا فلم تعترف بالانتداب رغم مرور عشرين سنة، لذلك اضطررنا لقبول رأيها وترك الانتداب واللجوء إلى سياسة جديدة أخرى".

وقد كان هذا المقطع من الخطاب متناقضا كل التناقض مع موقف حكومته المتخاذل تجاه إلغاء المادة 116 من الدستور السوري التي تنص على تحفظات الانتداب.

وقد أثار فخري البارودي في الجلسة التي عقدها المجلس في 25 تشرين الثاني، أي بعد انتهاء الأزمة موضوع المطالبة بحذف المادة 116 من الدستور. فأظهر بعض النواب نواياهم السيئة فقلت مستهزئا:

"أريد أن ألفت نظر الزملاء الذين يتمكسون بالحجة والمنطق للتمسك بأذيال الانتداب أنني أرى من المفيد جدا لدحض مزاعمهم تعيين جلسة خاصة لتسفر عن خطةنريد من الحكومة أن تلتزمها كما فعل لبنان. إنني أرى أن حياتنا السياسية في سوريا أصبحت غريبة جدا لا أرى لها معنى. حياة دستورية وانتداب بوقت واحد يقولون: إننا نتمتع باستقلالنا، وجميع صلاحيات الاستقلال منتزعة منا...الخ".

وقد عين المجلس جلسة خاصة، في 27 تشرين الثاني لبحث هذا الموضوع. وبعد افتتاح الجلسة طلب رئيس المجلس من وزير الخارجية أن يقول شيئا بهذا الخصوص، فقال إنه يرجيء القاء بيانه إلى ما بعد انتهاء النواب من القاء كلماتهم.

كنت أول المتكلمين، ولا بأس أن أثبت هنا نص ذلك الخطاب بكامله نظرا لأهميته في ذلك الوقت. وقد أبرزته الصحف الحيادية والمعارضة بشكل خاص:

"لا أكون أثرت البحث في موضوع مستحدث بالنسبة إلي إذا طلبت تطبيق أحكام المادتين 46 و 70 من الدستور السوري اللتين تنصان على وجوب تحليف النواب ورئيس الجمهورية يمين الاخلاص للدستور والوطن. لإنني طلبت ذلك فور انتخاب رئيس جمهوريتنا وذلك في الاجتماع الثاني للدورة الاستثنائية بتاريخ 19 آب 1943 أي قبل اجتماع مجلس النواب اللبناني وتأليف الوزارة الصلحية.

وقد قلت آنذاك بالحرف الواحد "إن الدستور السوري ينص على وجوب تحليف رئيس الجمهورية والنواب يمين الاخلاص للدستور والوطن. وإنني اقترح أن يحلف رئيس الجمهورية والنواب يمين الاخلاص على دستور عام 1928 لا على أساس دستور عام 1930 الذي طرأت عليه بعض التعديلات بقرار من المفوض السامي وذلك بتذييله بالمادة 116. فتمسكنا بدستورنا وحلفنا اليمين على أساسه هو نقطة ابتداء في اتجاهنا السياسي وعملنا القومي"

وقد رد علي (آنذاك) رئيس المجلس بقوله "أرى أن طرح الاقتراح الذي تكلم عنه أكرم الحوراني نائب حماه سابق لأوانه، ولا بد من تقرير أمور أخرى لها صلة بهذا الأمر وجلاء بعض الغوامض التي تكتنفه وتحيط بالموقف الحاضر. ولذلك أرى أن يوافق الحوراني على أرجاء هذا البحث لوقت آخر".

"إن السبب الذي حدا بي لاثارة هذا الموضوع آنذاك ليس ناشئا عن تمسكي بتحليف رئيس الجمهورية والنواب يمين الاخلاص وتطبيق أحكام الدستور فحسب، بل لاعتقادي أن تمسكنا بدستورنا وحلفنا اليمين على أساسه دون أن نعترف بوجود المادة 116 يفتح أمامنا طريقا واضحا للسير عليه منذ ابتداء حياتنا الدستورية التي لم

تقم على أساس واقعي واضح. وهذا ما عنيته آنذاك بقولي "إن ذلك يعد نقطة ابتداء في اتجاهنا السياسي وعملنا القومي". وهذه الخطة هي التي سار عليها لبنان الشقيق بكل جرأة وقدم راسخة.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن تحفظات الانتداب إذا كانت قد وزعت بعدة مواد في صلب الدستور اللبناني، فان مساوىء الانتداب جميعها تجتمع عندنا بمادة واحدة هي المادة 116 التي ذيل بها دستورنا عام 1930.

إن بعض الزملاء من النواب قد اقترحوا في الجلسة السابقة إلغاء المادة 116 من الدستور. مع أنني لا أعتقد بصواب هذا الطلب، لأن طلب إلغاء هذه المادة يعد اعترافا منا بوجودها سابقا، مع أن الأمة لم تعترف بوجودها في يوم من الأيام، عدا أنه لتعديل الدستور أسلوب نصت عليه المادة 108 يوجب اقتراح ثلث النواب، على أن يبت بطلب التعديل بالدورة العادية التالية. ولذا كان طلب إلغاء المادة 116 طلبا غير صحيح ولا جائز، وإنما الجائز أن نحلف اليمين على دستورنا الحقيقي المكون من 115 مادة فقط دون أن نعترف بوجود هذه المادة فتعد ساقطة لاغية.

أما نتائج التحليف فهي :

أولا: نكون قد قررنا من قبلنا عملا ايجابيا بعدم اعترافنا بوجود المادة 116 التي تجمع جميع تحفظات الانتداب، أما إلقاء الخطب والمناقشات بوجود الانتداب أو عدمه من الناحية الحقوقية والرد على الفرنسيين فلا يجدي نفعا.

ثانيا: إن اكتفاءنا بعدم الاعتراف بهذه المادة دون أن نقوم بهذا العمل يعد منا تهربا من مجابهة الحقائق مجابهة صريحة.

ثالثا: نكون قد طبقنا أحكام المادتين 46 و 70 من الدستور ولم نقع بمخالفة دستورية لا مبرر لها.

ولكن هل يجب علينا الوقوف عند هذا الحد بعملنا ؟

إنكم تذكرون بلا ريب أن حكومتنا لم تتقدم للمجلس ببيان وزاري أوجبته المادة 90 من الدستور السوري، ولكنها تبنت خطاب فخامة رئيس الجمهورية الذي لا يمكن أن يكون بيانا وزاريا بحكم مركزه وعدم مسؤوليته، لأن البيان الوزاري هو الخطة الواضحة التي تحدد مسؤولية الوزراء أمام

المجلس الذي يمكنه أن يحاسبها على تنفيذه والتقيد به عند اللزوم، ومع ذلك فقد منح مجلسنا الثقة للوزارة فكانت ثقته بأشخاص الوزارة ثقة شخصية لا دستورية، وهي ثقة عظيمة من المجلس لا تحظى بها وزارة، ولذلك فإنني أعترف بأنه ليس لدى الحكومة خطة تسير عليها وليس أمام المجلس خطة يطمئن إليها.

مع ذلك فإن هذا لا يمنعنا من سؤال الوزارة عما قامت به طيلة المدة المنصرمة هل فاوضت الجانب الفرنسي لاستلام الصلاحيات لممارسة حقنا بالسيادة؟ وما هي النتائج التي توصلت إليها؟ وإذا كانت قد قامت بهذه المفاوضة ولم تصل إلى نتيجة حاسمة فانني اقترح على كل حال أن تمارس حكومتنا جميع صلاحيات الاستقلال عمليا منذ الآن وقبل انتهاء المفاوضة، وأهم هذه الصلاحيات التي يجب أن تمارسها من تلقاء نفسها وقبل انتهاء المفاوضة تشكيل نواة للجيش الوطني، أما كيفية التشكيل فيرجع تقديره للخبراء، أما المال فنحن مستعدون لرصد جميع الاعتمادات الكافية، حتى ولفرض الضرائب الجديدة عند اللزوم. وما أظن الشعب إلا ويتحمل ذلك بفرح وسرور. لأننا لم نعد نؤمن باستقلال لا تحمي ذماره قوة عند اللزوم.

إننا ذقنا فيما مضى عواقب سياسة المطل والتسويف والنكص والخلف بالعهود والوعود من قبل الجانب الفرنسي مدة ربع قرن، فيجب علينا أن نعتبر بذكرى الماضي. وأن الأمة قد بلت عواقب إضاعة الفرص السانحة. على أنه ليس من العار أن نخطيء وإنما العار أن نرتكب الخطيئة الواحدة مرتين".

انزعج رئيس المجلس كثيرا من كلمتي، وكان انزعاج الحكومة أشد ولا سيما عندما طلبت لأول مرة تشكيل جيش وطني ورصد الاعتمادات اللازمة لإنشائه لممارسة الاستقلال والسيادة، وهو ما تعتبره الحكومة ثورة مسلحة على فرنسة، وخاصة عندما شجعت كلمتي نائب جيرود فثنى على طلبي بتشكيل جيش وطني.

خروج الحكم السوري من الأزمة:

تجاهل رئيس المجلس كلمتي بعد أن أعياه السبيل للرد عليها. وبأسلوبه البارع، وبتأييد الأكثرية المجلسية، لف على ما اقترحته من تشكيل الجيش الوطني لممارسة حقنا بالسيادة

والاستقلال، وقصر النتيجة على حلف اليمين الدستورية، فأوعز للجنة الشؤون الخارجية بالانعقاد اثناء الجلسة، فأقرت اقتراحا تقدم به أحمد الشراباتي يقضي بأن "يقرر المجلس عقد جلسة خاصة يعينها رئيس المجلس في أقرب وقت، ويدعى إليها رئيس الجمهورية ليتفضل والنواب بحلف يمين الاخلاص وفقا للمادة 46 من الدستور المكون من 115 مادة".

وعلى الاثر طلب جميل مردم رفع الجلسة ربع ساعة تذاكر خلالها مع رئيس المجلس فارس الخوري، ورأوا أنه لم يعد أمامهم مجال للتهرب. فقال وزير الخارجية عند استئناف الجلسة: "إنني أغتنم هذه الفرصة لأرسل تحية إلى الحكومة اللبنانية والشعب اللبناني الكريم على ما ناله من تأييد حقه وعودة الأمور إلى مجاريها. ولقد كان ذلك بفضل الموقف الحازم الذي وقفه الشعب اللبناني والتأييد المطلق الذي أيدت به الشعوب العربية، وبفضل الموقف الرائع الذي وقفته سوريا. فإن سوريا عندما دعيت للقيام بواجبها لبث الدعوة وأضربت المدن السورية من أقصاها إلى أقصاها، ولم يفت هذا الواجب القرى النائية. وقامت المظاهرات في مختلف الأماكن حتى أنها في بعض الأحيان اتخذت شكلا من العنف. وعندما أدركت الأمة بأنها قد أعربت عن رأيها وأدت واجبها عادت إلى الهدوء، فأعطت بذلك درسا بليغا في النضج السياسي. وهي لم تعد إلى هدوئها وسكونها بدافع الخوف أو الرهبة. وأظن أن الأمة السورية عندما دعوناها إلى الهدوء والسكينة كانت عالمة أن الحق إذا لم يعد إلى نصابه فإنها تثور ثورتها الكبرى. وعندما تثور سوريا يعرف كل واحد إلى أي حد تصل".

وهكذا حاول وزير الخارجية جميل مردم أن يتستر على موقف الحكومة، ولكنه على الرغم من براعة أسلوبه لم يتمكن من ستر الحقيقة التي كانت ماثلة في ضمير الناس.

ثم تبعه رئيس المجلس قائلا :

" لم يبق ثمة حاجة للتأجيل، ويجب حلف اليمين على الأمانة لمواد الدستور التي قبلتها الجمعية التأسيسية. ولم يعد موجودا ذلك المحذور السابق أو الحذر الذي كان يمكن أن يقع من جراء إسقاط المادة 116 من موجبات اليمين. ونحن كما قلت لم نعترف بها بل بالمواد التي وضعتها الجمعية

التأسيسية وهي 115 مادة. وصوتت على هذه المواد بجملتها بهيئتها العامة بتاريخ 7 آب 1928، وقد كانت السلطة الفرنسية قد طلبت من الجمعية التأسيسية إسقاط ست مواد من الدستور وهي المواد: 2 و 73 و 74 و 75 و 110 و 112 التي تؤيد السلطة والسيادة القومية، كإعلان الحرب وتأليف الجيش والتمثيل الخارجي وقبول القناصل والسفراء وإعلان الادارة العرفية والعفو ما أشبه ذلك. ولكن الجمعية التأسيسية رفضت رفضا باتا أن تحذف هذه المواد التي هي وحدها عنوان الاستقلال والسياة، ثم جاء المفوض السامي وأوقف أعمال الجمعية التأسيسية مدة ثلاثة أشهر، ثم ألحقها بتوقيف الى أجل غير مسمى. وفي شهر أيار 1930 أعلن المفوض السامي الدستور السوري تاركا فيه المواد الست كما هي، إلا أنه أدخلت على النص الأصلي بعض إصلاحات لفظية لا علاقة لها بجوهر الدستور. وعندما يئس المفوض السامي الفرنسي من ادخال نصوص في صلب الدستور كما فعل بالدستور اللبناني أضاف للدستور السوري مادة تحفظية وأسماها مادة مؤقتة تزول مع زوال الانتداب... وإنني مستعد أن أعين جلسة خاصة في موعد قريب ندعو إليها رئيس الجمهورية والنواب لحلف اليمين".

وقد وافق المجلس على تكليف رئيسه بتعيين هذه الجلسة الخاصة وقد غمز رياض الصلح مرة أخرى من موقف الحكومة السورية عندما جاء في برقية الشكر التي أرسلها للمجلس النيابي قوله: "ولئن كان لإيمان اللبنانيين الراسخ بعدل قضيتهم وبصمودهم المكين في وجه القوة الجامحة فضل في استرداد الحق المغصوب والاستقلال المسلوب، **فلإخوانهم السوريين، ولا سيما نوابهم الأباة،** نصيبهم الوافر وأثرهم المباشر في بلوغ هذه النهاية السعيدة، وتقرير هذا الانتصار الباهر. وإذا أسعد لبنان أن يفوز هذا الفوز فإنه يزيده ابتهاجا أن يكون لسوريا العزيزة نصيبها من ثماره الطيبة تجنيها سريعا".

دور المجلس النيابي في قيادة الحركة الوطنية:

كانت مناقشات المجلس النيابي تصور بدقة تطور الأحداث في سوريا وتكشف عن خلفياتها الاجتماعية والسياسية وتلعب دورا رئيسيا في تنمية وتكامل الوعي السياسي والاجتماعي والقومي في البلاد.

وكان من الطبيعي أن يكون للمجلس النيابي هذه الأهمية - رغم الرقابة المفروضة على الصحف - نظرا لأن البلاد كانت محرومة من الأحزاب والمنظمات ذات الشأن، بعد أن بدأت الكتلة الوطنية تنهار شيئا فشيئا وتنقطع صلتها بالضمير العام، فأصبحت الأصوات الوطنية التي تنطلق في ساحة المجلس النيابي، والمناقشات التي تجري فيه، القيادة الحقيقية للجماهير الشعبية في مسيرتها الوطنية والسياسية والاجتماعية.

وقد ظل المجلس النيابي السوري حتى قيام الوحدة بين سورية ومصر منبرا للحركة الوطنية التقدمية، وقائدا فعليا للجماهير الشعبية، وصورة حية للمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

انسلاخ القيادات عن الجماهير:

لا يزال انسلاخ معظم القيادات السياسية العربية في الماضي والحاضر عن الاتصال بأعماق نفسية الجماهير العربية يولد كثيرا من المواقف المضطربة قوميا وسياسيا.

إن المهمة الأصلية للقيادة السياسية هي أن توضح ما هو كامن في نفسية الجماهير، لتنوير تطلعاتها وتحقيق أهدافها. ومن المؤسف أن تكون معظم القيادات السياسية العربية- بسبب انسلاخها عن الجماهير- قاصرة عن مستوى قيادة الأمة في معركة البقاء والتقدم.

لا بد من هذه المقدمة لوضع بعض القضايا القومية والسياسية في إطارها الصحيح المتصل بواقع تطور القضية العربية... وفي رأس هذه المواضيع التي لم تفسر تفسيرا صحيحا موضوع كيان لبنان واستقلاله وعروبته.

لماذا وهبت سوريا الأقضية الأربعة للبنان؟

اصدر الجنرال غورو، بعد احتلال سورية عام 1920 وفصل "دولة اللاذقية" و "دولة جبل الدروز" و "لواء الاسكندرون" عنها،

قرارا بضم مناطق واسعة من سوريا "للبنان الصغير" الذي كان منحصرا بالمناطق الجبلية المسيحية. وقد عرفت هذه المناطق باسم الأقضية الأربعة (عكار وطرابلس وبعلبك وراشيا وجبل عامل وصور وصيدا وقسم من بيروت) وظلت سوريا خلال كل فترة الانتداب تطالب- كما كان أبناء هذه المناطق ذاتها يطالبون- بإعادة الأقضية الأربعة إلى سوريا.. إلى أن قامت الحركة الاستقلالية في لبنان الكبير بقيادة بشارة الخوري ورياض الصلح ورفاقهما وحققت انتصارها على الانتداب الفرنسي في 22 تشرين الثاني 1943، فانقلبت الآية ولم يعد يرتفع في سوريا صوت واحد للمطالبة بعودة الأقضية الأربعة الى الأم سوريا، بعد أن عبر لبنان في حركته الاستقلالية المظفرة عن هويته العربية، وهزم المحاولات القديمة المشبوهة التي كانت تريد أن تصبغه بهوية غير عربية.

وقد عبرت عن ذلك في ردي على المسيو هيللو في المجلس النيابي إذ قلت: "إنني أعلن لأخواننا اللبنانيين أن يضموا إليهم ما اختاروا من الداخل. فأي أرض أرادوا ضمها هي أرضهم وبلادهم، وأي مكان في هذه البلاد هم أهلهم وأخوانهم. فلا نعد نحن الواهبين ولا هم الموهوبون. ما كان لبنان في يوم من الأيام أجنبيا بل كان دوما بلدا مجاهدا عربيا".

هل هو راي شخصي؟... هل هو شعور ذاتي؟.. لو كان الأمر كذلك لكان لا بد من تحملي مسؤولية وطنية جسيمة، الأمر الذي لم يحدث، لأن ما عبرت عنه كان شعور السوريين بعد الانتفاضة التحررية في لبنان عام 1943.

هل كان تسليم الكتلة الوطنية عام 1936 بحدود لبنان الكبير كافيا لدفن هذا الموضوع عام 1943 لو لم يكن وليد اقتناع عام في سورية البلد العريق بنضاله في سبيل الوحدة؟

لقد كانت مدينة طرابلس بصورة خاصة معتبرة في نظر السوريين إحدى مدنهم الرئيسية، بل كانوا يعتبرونها أهم من جميع المدن السورية، لأنها كانت ميناء سوريا الطبيعي، وسكان طرابلس ذاتهم كانوا أشد الناس إيمانا بهذه المشاعر،

ومظاهراتهم وإضراباتهم وتمردهم خلال كل تلك السنين للعودة إلى الأم سوريا تشكل سجلا حافلا في تاريخ هذه القضية، هذا مع العلم بأن "لبنان الصغير" لم يكن متحمسا بالأساس لانضمام هذه الكتلة الاسلامية من سكان الأقضية الأربعة إليه. بل كثيرا ما كانت ترتفع الأصوات، طيلة عهد الانتداب، من رجال لهم شأنهم تطالب بجعل لبنان وطنا قوميا مسيحيا، بل كانت ترتفع بعض الأصوات المشبوهة تطالب بجعل لبنان جزءا من الأمبرطورية الفرنسية.

وإذا كان موقف الكتلة الوطنية ويأس الجماهير سببا في التسليم بحدود لبنان الكبير في ظروف عام 1936 فإن ظروف عام 1943 كانت مختلفة وقد فتحت الأبواب الموصدة لضم الأقضية الأربعة إلى سوريا، لا سيما وأن ميثاق الاطلنطي يقوم على حق تقرير المصير. وكانت النتيجة معروفة سلفا في أي استفتاء يجري في هذه الأجزاء السورية المنسلخة عن وطنها الأم.

لكن كل ذلك زال على أثر الانتفاضة العربية التحررية في لبنان، في أواخر عام 1943.

إقدام في لبنان وتخاذل في سوريا:

خرج زعماء لبنان الوطنيين من معتقلات راشيا وبشامون أبطالا منتصرين في معركة الحرية والاستقلال، وفي الجلسة الأولى التي عقدها البرلمان اللبناني، في 1943/12/1 اقترح بعض النواب تعديل المادة الخاصة بالعلم اللبناني السابق. وبدون أية مناقشة عدلت المادة وصدقت بالاجماع.

إن دقة الظروف التي كان يمر بها لبنان وسوريا، وجرأة بشارة الخوري ورياض الصلح وإقدامهما في قيادة معركة الاستقلال، لم تفسح أي مجال للاحتجاج على استئثار بعض الاشخاص، دون العودة إلى الجماهير واستلهامها، في تقرير شكل العلم اللبناني المتحرر من عبودية فرنسا.

ثم ألقى رياض الصلح، في تلك الجلسة خطابا قويا ينضح رجولة وشجاعة واصرارا على حرية لبنان وإلغاء الانتداب وممارسة

الاستقلال فعليا، مؤكدا على هوية لبنان العربية التحررية بوعي كامل للظروف الدولية والداخلية المواتية لهذا الموقف الرائع.

ومما كان يحز في نفوسنا نحن السوريين، مجلسا وشعبا، أن حكومة القوتلي كانت لا تزال غارقة في حالة من الخوف والاستسلام، كانوا قد وصلوا إلى السلطة، وهم غير مستعدين للمغامرة بها بأي ثمن.

ففي نفس اليوم الذي ألقى فيه رياض الصلح بخطابه القوي في البرلمان اللبناني، عقد المجلس النيابي السوري جلسة أوعز فيها سعدالله الجابري للنائب ميخائيل اليان أن يلقي عليه سؤالا عن صلاحيات الاستقلال ومشاورات الوحدة العربية، عله يرفع من قدر نفسه وحكومته بنظر الشعب، فأتى السؤال مصطنعا والجواب هزيلا انهزاميا، بالرغم من أنها كانت مناسبة لاسترداد الثقة بالنفس والشجاعة بعد انتصار لبنان وانهزام فرنسا المشين الذي أنهى هيبتها ونفوذها حتى في نظر أعوانها ومريديها في البلدين.

رد الجابري على "السؤال المفاجيء" بذكر ضرورات الحرب كتبرير لسياسة الحكومة ثم قال مفتخرا:

"إننا أبلغنا السلطات المختصة أننا لا نقبل أي تشريع أو قانون يصدر من غير الحكومة المنبثقة من مجلسكم. وأظن أن هذا البلاغ في طريقه من عدة أيام. أما القسم الثاني (اصلاحيات الاستقلال) فإن هناك اختصاصات يمارسها الجانب الفرنسي كحفظ الحدود وجوازات السفر وإدارة العشائر وشؤون الأمن العام ومراقبة الصحف وما شابه ذلك".. وقال : "إننا بدأنا بممارسة هذه الحقوق فعلا وأبلغناهم ذلك. أما القسم الآخر من الصلاحيات الذي نشترك فيه مع لبنان، فهذا القسم لو فرضنا جدلا أن الانتداب نافذ من الوجهة الحقوقية حيث كان يمارسه على هذا الأساس فإن ممارسته له لا تخوله حق السيطرة على هذه المصالح المشتركة.

أما وقد اتفقنا مع لبنان على تسلم المصالح المشتركة بما فيها الجمرك ومراقبة الشركات ذات الامتياز وما يتبعها من مسائل فلم يبق أي سبب لبقاء الأجنبي ممارسا لها. وإنني أقول لكم باننا لم نجر مفاوضات بمعنى المفاوضات مع الجانب الأجنبي، ولكننا لما بحثنا مع الجنرال كاترو

اعترف بأننا أصحاب الحق، وأننا بعد أن اتفقنا مع لبنان لم يبق عليهم إلا التسليم".. وقال: "أما ما يطلبه الجانب الثاني مقابل نقل الصلاحيات وغيرها من معاهدة فإننا لا نرى هناك أي ضرورة لعقد معاهدة لتسوية هذه المسائل" ثم قال: "ولا أظن الجانب الآخر (الفرنسي) يفكر بهذا الأمر أو يقول به، وما وجدناه حتى الآن هو الاعتراف من الجانب الآخر (الفرنسي) بأن التسليم ضروري وسيعمل به". ولخص كلامه بالأمور التالية:

"1- إنه لا يوجد انتداب،

2- إنه لا توجد معاهدة،

3- إن الصلاحيات ستنقل إلينا وما نقل منها سيستكمل.

4- إن هناك بلادا عربية تسعى بأن تتحد. وسعيها سائر في طريقه الطبيعي.

5- إن هناك ضرورات حربية هي نتيجة للمساهمة في جهود الأمم المتحدة في سبيل النصر.

6- إن هناك ظروفا حربية فرضتها ضرورة سلامة جيوش الأمم المتحدة".

وبعد انتهاء خطابه طلبت الكلام للرد عليه فسبقني عدنان الأتاسي إذ كان له حق الأولوية بالكلام بصفته رئيس لجنة الخارجية، فقال:

"والذي فهمته من خطاب دولة رئيس الوزراء هو أن أمرا واحدا قد تم حتى الآن وهو حق تعيين مأموري جوازات السفر على الحدود، وأن قضية أخرى قد بت بها أيضا هي أنكار الحكومة حق التشريع على غير هذا المجلس الكريم. وأن هناك قضايا أخرى أو صلاحيات ستنقل في وقت قريب".

ثم قال: "أظن أن هناك صلاحيات ثانية، منها قضية الحرس السيار الذي يمارس وظيفة ادارية محلية بحتة وقضية الشركات ذات الامتياز، وإحداث الجيش السوري الذي هو عنوان الكرامة الوطنية ودليل الاستقلال ورمز السيادة".

فوافق سعدالله الجابري على كلامه بعد أن توجه إلى النواب طالبا منهم "أن يكفوا عن الكلام الآن". وقال: " وأما مسألة

الجيش فإننا لا نكتمكم أنها مسألة تحتاج لدرس، وأننا لا نستطيع أن نمشي فيها دون حساب دقيق وروية وتؤدة، وخاصة في هذه الظروف الحربية".

وقد خشي الجابري أن يكون في خطابه ما يحرجه فمنع الصحف من نشره، مؤجلا توزيع "نصه الرسمي" الى اليوم الثاني، فذكرت "النصر" أنه "لم يسمح لنا بنشر خلاصة هذا الخطاب الذي سينشر بنصه الرسمي اليوم"، العدد 43، 1943/12/2. وربما فعل رئيس الوزراء ذلك لأنه خشي أن تحذف الرقابة الفرنسية شيئا من خطابه فأراد أن يتأكد من ذلك قبل توزيعه على الصحف.

استلام الصلاحيات :

بعد أن أنهى المجلس النيابي جدول الأعمال المقرر في جلسة 1943/12/23 وقف رئيس الوزراء سعدالله الجابري خطيبا يزف للمجلس وللشعب بشرى استلام الصلاحيات، فبالغ بمدح الزعيم الرئيس (القوتلي) ومدح زميله جميل مردم الخارجية، ومدح فرنسا والجنرال كاترو ثم قال:

"إنني أعلن الشكر والامتنان العظيم، من على هذا المنبر، للموقف النبيل الذي وقفته فرنسا والجنرال كاترو (تصفيق) هذا الجنرال الذي وقف الموقف الذي يريد من كل قلبه وكل اخلاص أن يقدم لنا كل ما نريده بلا تردد ولا شك. كذلك لا أستطيع وأنا أمثل الحكومة أمامكم إلا أن أكرر الشكروأذكر هذا الجنرال بالخير".. وقال: "إن مفاوضات الحكومة السورية لاستلام الصلاحيات كانت قد بدأت منذ تشكيل الحكومة". ثم أردف قائلا أنهم انتظروا طويلا، وكان يسائل نفسه "لم هذا الانتظار؟.. هذا هو السبب الذي حملنا على السكوت هذه المدة، فما أن عاد الجنرال كاتروا الى لبنان وقابل فخامة رئيس الجمهورية ورجال حكومته (-بعد الانتفاضة اللبنانية) حتى جاء الينا فتوصلنا إلى اتفاق وقعناه هنا -في دمشق- بالاشتراك مع الحكومة اللبنانية، ولا أنكر عليكم أن رقة ولطفا ومجاملة واخلاصا لم نشعر به في يوم من أيام حياتنا وجدناه لدى الجانب الفرنسي".. ثم عدد تلك الصلاحيات التي كانت بيد المفوضية العليا والتي وعدوا باستلامها فقال إنها:

"المصالح المشتركة العائدة للدول، وهي مراقبة الشركات ذوات الامتياز، ومن هذه الشركات ما هو موجود في سوريا ومنها ما هو موجود في لبنان. وهي: شركة مياه بيروت، شركة كهرباء وترام بيروت، مصلحة الفنارات، شركة المياه والكهرباء والترام في حلب، شركة الكهرباء والترام بدمشق، وشركة الكهرباء في حمص وحماه، ومصلحة البارود والمفرقعات ورخص الصيد ورخص حمل السلاح، ومراقبة السيارات والكاوتشوك، ومراقبة البحث عن المعادن.

أما المصالح ذات الصبغة المالية فهي الريجي (إدارة حصر التبغ) ومعاملات الخزانة والجمارك والمصالح الاقتصادية وما يتعلق بها من شؤون مالية، والأشغال العامة التي كانت تدار باسم المصالح المشتركة، والبرق والبريد، ورخص التحري عن المعادن، والمصالح التشريعية والأدبية والادارية. والأمن العام والجوازات وإدارة العشائر ومراقبة الأجانب ومراقبة الحدود والحرس السيار ثم الجيش.

"هذه المسائل بمجموعها لم نجد في اثناء الدرس والبحث مع الجانب الآخر اي تعلل في تسليمها أو التمسك بها. وكل ما هنالك ملاحظات كانوا يبدونها فيما يتعلق بالحالة الحربية وبالمسائل المالية بالنسبة لحالتنا المالية لا أكثر. وستنتقل في أول يوم من عام 1944 إلى الحكومة السورية. وهناك أمر يهمنا جدا ويهمكم جميعا، ألا وهو أمر الجيش، هذا الجيش الذي لم نجد من الجانب الفرنسي أي فكرة في الممانعة بتسليمه ولكن تسلمه يحتاج إلى بحث لأن الجيش يكلفنا مبالغ لم نحسب لها حسابا في موازنتنا، ولا تستطيع واردات المصالح المشتركة أن تغطي أكلافه. واستطيع أن أقول لكم بصراحة أن تكاليف الجيش تبلغ 35 مليون ليرة سورية. ولذلك أرجأنا تسلم هذا الجيش إلى أن نبحث هذا الموضوع كحكومة ومجلس ونجد المال اللازم للانفاق عليه".

وقال: "أتلو عليكم نص الاتفاق باللغتين العربية والفرنسية، وهذه أول مرة يوضع عقد سياسي باللغة العربية ويوقع عليه الجوانب الثلاثة من المتفاوضين:

"تم الاتفاق في تاريخ هذا اليوم بين فخامة قائد الجيش الجنرال كاترو مفوض الدولة المكلف بمهمة، وبين ممثلي الحكومتين السورية واللبنانية

على تسلم هاتين الحكومتين الصلاحيات التي تمارسها الآن السلطات الفرنسية باسمها. وستنقل بحسب هذا الاتفاق المصالح المشتركة وموظفوها إلى الدولتين السورية واللبنانية وحق التشريع والادارة وذلك اعتبارا من أول كانون الثاني القادم. والأساليب المتعلقة بانتقال هذه الصلاحيات ستكون موضع اتفاقات خاصة".

دمشق في 1943/12/22

التواقيع: خالد العظم، جميل مردم، سعدالله الجابري، سليم تقلا، رياض الصلح، ج كاترو".

أعد اخراج هذه الجلسة البرلمانية قبل انعقادها بالاتفاق مع جميع الأطراف:

بكى سعدالله الجابري عند إعلانه استلام الصلاحيات، واعتبر النواب أنها جلسة مقدسة لأنها حققت الاستقلال، فوقف الجميع لحظة إجلالا لأرواح الشهداء. وتكلم ناظم القدسي وعدنان الأتاسي وسعيد الغزي مشيدين بهذا الاتفاق. كما تكلم بحماسة الاستاذ نجيب الريس[1] الذي تمثل بقول الشاعر:

قد كنت أحلم قبل اليوم في سنة فصرت أحلم بعد اليوم يقظانا

ثم أقامت وزارة الخارجية حفلة كبرى في فندق الشرق بمناسبة استلام الصلاحيات، حضرها الجنرال كاترو وجميع المستشارين الفرنسيين في المحافظات، وأعضاء السلك الدبلوماسي، ورياض

(1) انتخب الاستاذ نجيب الريس نائبا عن دمشق عام 1943 ضمن قائمة شكري القوتلي. عمل في الصحافة مراسلا لجريدة الاحرار البيروتية لصاحبها جبران التويني، ثم أصبح بعد ذلك صاحبا لجريدة القبس التي كانت تنطق بلسان الكتلة الوطنية وهو صاحب النشيد المشهور الذي كان يتردد في المظاهرات الشعبية:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد السجن إلا فجر مجد يتسامى
يا فرنسا لا تغالي لا تقولي الفتح طاب
سوف تأتيك ليالي برقها لمع الحراب

وقد نفي الاستاذ الريس مع الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وزعماء الكتلة الوطنية إلى جزيرة أرواد اثر الاحتلال الفرنسي لسورية حيث سجنوا في قلعتها التاريخية كانت المرة الأولى التي رأيت فيها الاستاذ الريس في العشرينات، كما أذكر، عندما زار مع رفيقه الدكتور خالد الخطيب مدرسة دار العلم والتربية التي كنت فيها آنذاك تلميذا في المرحلة الابتدائية. لقد أخرجنا المدير إلى باحة المدرسة فتحلقنا حول الريس والخطيب في صفوف منتظمة واستمعنا لخطابيهما بحماسة.

الصلح وسليم تقلا وعادل عسيران والأمير مجيد أرسلان وعبد الحميد كرامي وإبراهيم حيدر وصائب سلام والأمير جميل شهاب.

أشاد جميل مردم في هذه الحفلة بالاتفاق قائلا: "لقد جاءتنا الوفود وتلقينا التهاني لما نلناه من ظفر أحرزته الجمهوريتان السورية واللبنانية" وقال: "إني لأوجه الشكر إلى فخامة الجنرال كاترو والى اللجنة الوطنية الفرنسية التي وجدت في شخصه جميع المزايا السامية لحل هذه المعضلة المستعصية منذ ربع قرن".

فأجاب الجنرال كاترو محييا الرئيس الزعيم شكري القوتلي وفخامة الشيخ بشارة الخوري، وأثنى على لباقة جميل مردم الذي خصه بالشكر. ثم أثني على الخطابين اللذين ألقاهما في المجلس السوري واللبناني سعدالله الجابري ورياض الصلح...

بدأ سيل البرقيات ينهال على رئيس الجمهورية والحكومة من جميع أصحاب المصالح مشيدة بالظفر التاريخي المحجل.. تلك العادة التي ابتدعها حكم القوتلي واستغلتها الانقلابات العسكرية والديكتاتوريون فيما بعد أسوأ استغلال.

تشكيل لجنة العشائر (أواخر كانون أول 1943)

طرح رئيس المجلس فارس الخوري قضية تشكيل لجنة العشائر البرلمانية، بإيعاز من سعدالله الجابري وبالتفاهم مع طراد الملحم الذي كان يتزعم كتلة العشائر بالرغم من أن عشيرته (الحسنة) عشيرة صغيرة في بادية حمص[2] .

وافق المجلس على تأليف هذه اللجنة تنفيذا لأحكام الدستور، واختار رئيس المجلس أعضاءها من شيوخ العشائر التالية أسماؤهم: فواز الشعلان، مجحم بن مهيد، شايش

(2) كان محمد الملحم، والد طراد أو جده، قد قام بعصيان على الدولة العثمانية، فاقتيد إلى استانبول وحكم عليه بالاعدام، وأمام حبل المشنقة طلب أن يدلي بوصيته، فأجيب لطلبه، فأبدع قصيدة من الشعر البدوي تعد ملحمة في التراث الشعبي إذ أنها تزيد على ألف بيت عن روي وقافية واحدة، يفتخر فيها بانجاز قومه وعشيرته، ويتغزل بمحاسن وطنه وبادية حمص، وقد سارت هذه الملحمة الشعبية على كل لسان في سوريا، بين البدو والحضر، وظل الناس ينشدونها على الرباب عشرات السنين.

العبدالكريم، طراد الملحم، نواف الصالح، راكان المرشد، ميزر عبد المحسن، فهد البشير، عبود الجدعان، علي الزوبع، بركات الفرج، مجحم البشير، محمود الغانم، فاعور الفاعور، سعود الفواز، ومن نائب الرقة حامد الخجة. وقد أضاف لهم رئيس المجلس بعض الحقوقيين والمعاونين من النواب.

كان الفرنسيون - بسبب ثورة بعض القبائل البدوية عليهم في محافظتي حماه ودير الزور- قد تولوا مباشرة إدارة شؤون العشائر بما يخدم مصالحهم الاستعمارية فأسسوا مصلحة العشائر وتولى ضباط المخابرات الفرنسية ادارتها بشكل مستقل، كما أنشأوا من أفرادها قوى عسكرية دعيت بفرق الهجانة، واعتبرت هذه القوى العسكرية قطعة من جيش الشرق موضوعة تحت تصرف ضباط المخابرات الفرنسيين اداريا وعسكريا.

ومنذ استيلاء الفرنسيين على البلاد أصدر المفوض السامي قرارات قسم فيها العشائر -التي كانت تسير في طريق التحضير سريعا- إلى: بدو رحل، وبدو نصف حضر، لإيقاف موجة التحضير وعزل هذه القوة الوطنية عن الشعب، واستخدامها ضد البلاد عند اللزوم، وقد أخرج الفرنسيون جميع خلافات أبناء العشائر المدنية فعليا والجزائية حقوقيا عن صلاحية السلطة القضائية، وأصبحت هذه العشائر العربية منفصلة بكل شؤونها القضائية والادارية والسياسية والعسكرية عن الوطن وأنظمته وقوانينه، ومرتبطة مباشرة في جميع قضاياها بضباط المخابرات الفرنسيين.

ولذلك كان تشكيل لجنة عشائر برلمانية دون أن تنقل هذه المصلحة إلى الحكومة السورية تكريسا للوضع القائم وتسليما به من قبل الحكومة والمجلس وتمويها للوضع الحقوقي والسياسي والعسكري لهذه القبائل العربية. فأردت منذ البداية وضع النقاط على الحروف ومعالجة هذا الموضوع الخطير في حياة الأمة القومي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي فقلت:

"قرأ رئيس المجلس أسماء أعضاء لجنة العشائر، وتشكيل هذه اللجنة أمر لا غبار عليه من الناحية الدستورية لأن الدستور السوري نص في إحدى مواده على أن تكون ادارة العشائر في يد الحكومة السورية وكلكم تعلمون أيها الزملاء أن هذه الادارة لم تزل في يد السلطة الفرنسية حتى الآن، ولذلك أقول بكل صراحة أن تشكيل لجنة للعشائر لا يفيد شيئا إذا لم تستلم الحكومة السورية هذه المصلحة، فألفت نظر الحكومة والمجلس إلى هذا الأمر الخطير.. وهناك أمر أشد خطورة هو أن السلطة الفرنسية أصدرت عدة قرارات قسمت بموجبها العشائر السورية إلى أقسام: عشائر رحل، ونصف متحضرين، إلى آخر ما هنالك من قرارات أصدرها المفوض السامي ورمى من ورائها التدخل في شؤون العشائر الذي يضر البلاد ويهدد سلامتها ويفسد ضمائر أبناء العشائر، وهذا أمر يجب أن نوجه إليه الأنظار بصورة خاصة. ولا سيما وأن هذه القرارات تقضي على وحدة القضاء في البلاد لأنها رفعت يد المحاكم السورية عن الجنايات والجرائم التي تقع بين أفراد العشائر. فعندما تقع مثل هذه الجرائم تنظر فيها ادارة العشائر التي هي بيد ضباط المخابرات الفرنسيين، بالشكل الذي يروقها مستهدفة تحقيق غايات سياسية".

كانت هذه الكلمة بداية الاحتكاك مع شيوخ العشائر، الذي تطور فيما بعد إلى شكل عنيف أدى إلى شهر السلاح في وجهي ومحاولة اغتيالي تحت قبة البرلمان.

أساس مفاسد النظام البرلماني الديمقراطي:

في شهر كانون أول 1943 انتخبت عضوا في اللجنة القضائية باعتباري من الحقوقيين، وكانت تحال إلى هذه اللجنة جميع مشاريع القوانين لجواز النظر فيها، كما كان لها الحق في البحث - من حيث الأساس- بجميع مشاريع القوانين المتعلقة بالسلطة القضائية. لذا كانت عضوية هذه اللجنة نافذة يشرف منها النائب على كل نشاطات المجلس والحكومة.

كانت المرة الأولى التي اتضح فيها أمام ناظري بشكل جلي الأساس الفاسد الذي تقوم عليه حياتنا البرلمانية عندما بحثنا مشروع قانون الايجارات. ولا يخفي ما لهذا الموضوع من أهمية بالنسبة لأصحاب المصالح، ولا سيما في ظروف الحرب.

دخلت في معركة حامية مع أعضاء اللجنة المحامين، إذ كان كل منهم يدافع عن موكليه أصحاب المصالح، وكان هذا الأمر معروفا بشكل شبه علني داخل المجلس وخارجه، وكان عراكي شديدا معهم، وكانت حججي دامغة أمام ما أتقنوه من أساليب الاحتيال لتعديل القانون حسب مصالح موكليهم. أما الشعب فلم يكن سواي محاميا له في هذه اللجنة. وقد اضطررت في كثير من الأحيان أن أندد علنا بهذه الفضائح.

وقد حمدت الله كثيرا على أنني أعلنت، منذ انتخابي نائبا عن حماه، تركي مهنة المحاماة، بالرغم من أن هذا الاختيار كلفني باهظا في بعض الظروف التي مرت علي فيما بعد. ولكنها كانت فدية لا بد منها لدفع الشكوك، وهكذا إغلقت بابا كان يمكن أن يكون واسعا للدس والافتراء وإلقاء الشبهات على مواقفي في البرلمان. وسيرد فيما بعد كيف تعدت مفاسد المحامين البرلمانيين القضايا التشريعية إلى القضايا السياسية، إن هذه الصورة كانت ترسخ قناعتي بفساد الحياة البرلمانية التي تشكل الأوضاع الاقطاعية والرأسمالية قاعدة وأساسا لها..

1944: قضية حرية الفكر في مجلس النواب - المطالبة من جديد باستلام الجيش - ما في عيش بلا جيش - صعود نجم المعارضة - قضايا الاعاشة تطيح بالوزارة - جلسة القسم على دستور 1928 - القوتلي يحاول القضاء على الحركة الشعبية في مدينة حماة.

كل الصلاحيات، بلا جيش، لا تساوي بصلة:

بعد حفلة التكريم التي اقيمت للجنرال كاترو في فندق الشرق نشرت "صوت الأحرار" والصحف اللبنانية الأخرى تصريحا له قال فيه "ان السلطات الفرنسية ستحتفظ بجيشها الخاص الى ما بعد نهاية الحرب، وأنها لا تقبل بأي حل آخر". وما أن اطلع النواب السوريون على هذا التصريح الذي يكذب ما جاء في خطاب الجابري بشأن موافقة فرنسا على تسليم الجيش للحكومة السورية حتى أثاروا موضوعه في جلسة 1944/1/3 وقدموا بصدده التساؤلات، فغاب الجابري من الجلسة وتولى فارس الخوري، رئيس المجلس الاجابة على هذه التساؤلات متجنبا ذكر تسليم الجيش اذ قال: "بيننا الآن اثنان من الوزراء وسيبلغان رغبتكم الى زملائهما المختصين بهذه الناحية، على أنني لا أشك بأن الصلاحيات ستسلم، ولا عبرة لما تقوله هذه الجريدة أو تلك، وربما كان للقائل أو للمنسوب اليه القول غاية أو غرض آخر في بعض العبارات التي ذكرت وقيل انها نشرت في بعض الصحف".

فلم يقتنع المجلس بذلك بل قرر الموافقة على تقرير لجنة الدفاع الوطني الذي جاء فيه:

"بعد الاطلاع على القرار الذي اتخذه المجلس بوجوب استلام الجيش، مع استعداد المجلس والأمة لتأمين النفقات اللازمة، ترجو اللجنة المجلس دعوة الحكومة لتقديم مشروع قانون مالي يؤمن نفقات الجيش،

وتخصيص جلسة خاصة للبحث بأمر الجيش، وذلك قبل أن ينتقل المجلس الى بحث الموازنة".

وهكذا سدت جميع منافذ التهرب في وجه الحكومة، وقد تحمس أحد نواب العشائر فنهض قائلا: "ان الله تعالى قال في كتابه العزيز: وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم وأولادكم، أما الاستقلال والمصالح المشتركة وغير المشتركة والصلاحيات **فهذا كله بدون جيش لا يساوي بصلة".**

وهنا انقطع التيار الكهربائي فأظلمت القاعة، فأخذ رئيس المجلس - في الظلام - يهدي من حماس النواب ويحدثهم عن كيفية تكوين الجيش العراقي قائلا:

"عندما نال العراق استقلاله عرض الانكليز على الحكومة العراقية استلام الجيش وكان كالجيش السوري الذي ألفته السلطة الفرنسية عندنا والذي هو الان ملحق بالجيش الافرنسي التابع للجيش التاسع، فرفضت الحكومة العراقية استلامه بحجة أنه غير متدرب ولا منظم على الطريقة التي ترغب بها البلاد، ولكنها اتفقت مع السلطة الانكليزية على أنها كلما ألفت كتيبة تسرح السلطة الانكليزية كتيبة من الجيش المتطوع وهكذا الى ان تهيأ للعراق تأليف الجيش الحالي، ونحن بامكاننا أن نسير على غرار العراق بهذا الشأن".

وهكذا اراد رئيس المجلس أن يميع الموضوع ويفسح مجالا واسعا لفرنسا وللحكومة بالمماطلة والمراوغة عدة سنوات أخرى، عدا ما لهذا الاقتراح من مخاطر على استقلال البلاد وأمنها اذ يسمح للفرنسيين أن يستغلوا الجيش السوري، المهدد بالتسريح من قبل الحكومة الوطنية، للانقضاض على استقلال البلاد، كان حقا توجيها منحرفا وخطيرا جدا...

المنطلقات المنحرفة لعهد القوتلي منذ بدايته:

وقد تكلمت في هذه الجلسة فقلت: "انني أعددت أربعة أسئلة أتقدم بها الى الحكومة، فالأول يتعلق بالجيش وقد سبقني الزملاء الى الكلام فيه، والثاني قضية اطلاق سراح

المعتقلين وهذا أيضا تكلم فيه بعض الزملاء، ولذلك سأقصر كلامي على الأسئلة التالية:

أولا: أطلقوا سراح الفكر.

قضى الأجنبي قضاء تاما على حرية الكتابة، بل قضى على جميع الحريات الفكرية بزعم الضرورة الحربية فأوقف جميع تيارات النهضة سواء أكانت ثقافية أو اجتماعية أو أدبية أو سياسية، فأسنت النفوس وأظلمت دنيا الفكر في هذه البلاد. فما تنفس الفكر السوري الصعداء من كابوس المراقبة الأجنبية حتى أناخت عليه بكلكلها المراقبة الحكومية الوطنية. فما أشد حزننا عندما نرى أعمدة الصحف بيضاء، رغم أنها لا تمت للمواضيع العسكرية بصلة، بل هي شؤون داخلية، حتى هزلت صحفنا وأصبحت بحكم النسخة الواحدة، بعضها يغني عنها جميعا، أو واحدة منها تغني عنها جميعا، فاذا قضى الاجنبي باسم الضرورة الحربية على الحرية الفكرية فما هو عذر الحكومة الوطنية. ونحن في بدء أروع مرحلة من مراحلنا القومية؟

انا من الذين لا يؤمنون بنهضة أو نجاح ما لم يكن الفكر حرا طليقا، أليس من واجبنا أن نعلم الصحافة الحرية في معالجة شتى المواضيع؟ وأن لا نجعل سوى القانون اذا تعرضت أو أساءت الكفيل العادل في ردعها وزجرها، ان الحكومة في لبنان قد تركت للصحافة الجو حرا طليقا، بل رحبت بكل انتقاد بريء مع أن وضع لبنان السياسي يشبه وضعنا، ولذا فانني أرى أن ينحصر عمل الرقابة في الأنباء الحربية، وأرجو جوابا من وزير الداخلية.

ثانيا: لم يتعرض خطاب رئيس الوزراء لموضوع البنك السوري، مع أنه قدم لنا البشرى باستلام جميع الصلاحيات، ولا تخفى أهمية هذا الموضوع بالنسبة لمستقبل البلاد المالي والاقتصادي، لذلك فانني اسأل هل جرى بحث موضوع البنك السوري أثناء المفاوضات مع الجانب الفرنسي؟ واذا لم يجر بحثه فما هو السبب؟ وما هو موقف الحكومة من هذه القضية؟

ثالثا: هل هذا صحيح؟

يهمس بعض الناس، ولا أعلم ان كانوا صادقين، بأن وزارة الاعاشة قد منحت رخصا بالتصدير والاستيراد لبعض النواب من الذين كانوا تجارا والى البعض الآخر الذين لم يسبق لهم أن عملوا في هذا الميدان، انه من واجب الحكومة ان تتولى بنفسها أمر التصدير والاستيراد الذي يدر على الخزينة أموالا طائلة بدلا من ان تمنحها للأفراد. وهذا ما سأتولى بحثه مفصلا اثناء مناقشة موازنة الاعاشة، وعلى كل حال يجب أن تحجب الحكومة فورا هذه الاجازات عن جميع النواب اذا كان الخبر صحيحا، حرصا على المصلحة والسمعة ودفعا للشبهات. لأن الانسان الذي يصبح نائبا لا يجوز له أن يكون باسم النيابة تاجرا ولو برخص واجازات رسمية".

ان هذه الاسئلة التي طرحتها تصور المنطلقات المنحرفة التي قام عليها حكم القوتلي منذ البداية، وهي:

1- تهربه من مجابهة الاستعمار الفرنسي، والتسويف أمام المطالب الوطنية المجلسية والشعبية في ممارسة الاستقلال واستلام الجيش.

2- ونتيجة لهذا الموقف مارس حكم القوتلي رقابة صارمة على الصحف وضغطا على الحريات العامة.

3- فتحه باب الاستغلال غير المشروع بجعله من مصلحة الميرة والاعاشة مجالا لاستغلال الطبقة الرأسمالية والاقطاعية، لتأمين أكثرية في المجلس وركيزة طبيعية خارج المجلس.

4- وانسجاما مع هذه السياسة الاقطاعية الرأسمالية التي هي ركيزة نظام القوتلي لم تفكر الحكومة مطلقا بالغاء امتياز اصدار النقد، الذي يعادل في اهميته استلام الجيش السوري.

لذلك ركزت معارضتي لنظام القوتلي على هذه النقاط التي هي جوهر القضية الوطنية التحررية في تلك الفترة.

قضية الجيش مرة أخرى

كـان عـرض الموازنـة العامـة فـي المجلـس، فـي جلسـة 1944/1/11 مناسبة أخرى لاثـارة موضـوع الجـيش الـذي تجاهلتـه الحكومـة بـالرغم مـن كـل الاسـئلة والاقتراحـات والقـرارات التـي اتخذها المجلس، وقد أظهرت هذه المناسبة بشكل جلي انقسام المجلس بين أكثرية تؤيد الحكومة بشكل مطلق وبين أقلية وطنية معارضة ولكنها مائعة وغير متماسكة.

كـان رشـدي الكيخيـا أول المتكلمـين، فـأعلن عـدم موفقتـه على الموازنة سلفا لأنها قائمة على مراسيم اشتراعية لم يقرها المجلـس. فعقبـت علـى كلمتـه قـائلا:"اننـي اقتـرح رد مشـروع الموازنة من أساسه ليس للاسـباب التـي أوردهـا الزميـل رشـدي الكيخيا، وهي ان الموازنة مبنية على اتفاقات ومراسيم اشـتراعية لم يقرها المجلس النيـابي فحسـب، بـل لأن الـبلاد مقدمـة علـى عهد جديد يتطلب جيشا لحمايته. والجيش يتطلـب مـوارد ونفقـات لـم تلحظهـا الموازنـة. وتعلمـون أن الحكومـة اسـتلمت المصـالح المشـتركة، وهـذه المصـالح لهـا نفقـات ولهـا مـوارد لـم تلحظهـا الموازنة أيضا، وهناك كثير مـن المـواد درجـت فـي الموازنـة يمكـن الاستغناء عنها اذا عـدنا الـى وضـع موازنـة جديـدة. ولـذلك أرى أن نسـتمر فـي الـدورة الاسـتثنائية هـذه ونحـن مسـتعدون للمكـوث والبقاء، وللحكومة أن تأخذ الوقت الكافي لتضع موازنة جديدة على أسس جديدة وعلى ضوء العهد الجديـد الـذي نسـتقبله والمصـالح التـي اسـتلمناها والجـيش الـذي تطالـب الأمـة بأجمعهـا، شـبابها وشـيوخها وأطفالها ونسائها، باستلامه".

غنـي عـن القـول أن رد الموازنـة مـن قبـل المجلـس يقضـي، حسـب الاعـراف الدسـتورية باسـتقالة الحكومـة، فوقع طلبي هذا كالقنبلة في وسط المجلـس. فقـال نجيـب الريس ان "رفـض الموازنـة انمـا هـو عرقلـة للعمـل الـوطني وشـل لعمل الحكومة، وهي فـي ظـرف عصـيب تمـارس فيـه الصـلاحيات وأنه يؤدي الى ايجاد خطـر ويضـرب الاسـتقلال فـي صـميمه. نعـم هذا ما قلته ولا أزال أصر عليه".

وقد تولى وزير المالية خالد العظم الدفاع عن الحكومة وقال انه سيجري تسلم تدريجي للمصالح المشتركة والجيش. وسيعرض كل ما يتعلق بهذا الاستلام على المجلس، فلا مجال لادخال موازنات هذه المصالح في الموازنة العامة، لأن لها اعتبارات خاصة من حيث الموارد والانفاق، وقد كانت لها موازنات خاصة فيما مضى خارجة عن الموازنات العامة". ثم قال متهما: "بان رد الموازنة باجمالها لا يمكن تفسيره الا بتعطيل أعمال الدولة وعدم جبي الضرائب وعدم دفع الرواتب وبقية المصروفات الأخرى".

وبذلك افتى خالد العظم بأمور ليس قانعا بها ولا يقرها علم المالية. أما تدليله بأن هذه المصالح كانت لها موازنات خاصة مستقلة عن الموازنة السورية فلأن هذه المصالح - وعلى رأسها الجيش - كانت بيد الفرنسيين...

كانت هذه المناقشات تجري ورئيس الحكومة سعد الله الجابري مطمئن الى أن الاكثرية المجلسية ستصوت الى جانب الحكومة وتوافق على الدخول في مناقشة الموازنة، وعندما حدث ذلك فعلا قال الجابري:

"كنت اريد ان اقول كلمة ولكنني لم اعد ارى لزوما لها بعد ما وافق المجلس الكريم على قبول الموازنة والدخول في مناقشتها انما اريد ان اقول كلمة بشأن قضية الجيش، فحضرات النواب يعلمون جيدا انه قد تم الاتفاق على نقل المصالح المشتركة وجميع الصلاحيات بما فيها الجيش الينا ولكن هذا النقل يتطلب اسلوبا عمليا وهذا الاسلوب يتطلب البحث مع الجانب الاخر وهذا الجانب الاخر ليس بجانب واحد فقط".

واستطرد في كلامه على هذا النحو متجنبا تكذيب تصريح الجنرال كاترو. وهكذا تمكن من جعل قضية استلام الجيش قضية معلقة مائعة بدعم من الأكثرية المجلسية الساحقة.

صعود نجم المعارضة:

بسرعة غير منتظرة أصبح الشعب في سوريا، وفي جميع المحافظات، ينظر للمعارضة التي تمثلت بعدد قليل جدا من

النـواب، نظـرة الاعجـاب والاكبـار، ويتـابع مواقـف هـؤلاء النـواب ونشاطهم بقراءة ضبوط المجلس النيابي التي كانت تصدر ملحقة بالجريدة الرسمية، اذ كان المواطنون يشعرون بتشويه أنباء وقائع جلسـات البرلمـان مـن قبـل الرقابـة التـي كانـت مفروضـة ع**لـى الصحف. فكانت أعداد الجريدة الرسمية تنتقل مـن يـد الـى اخرى. وكان قراؤها ينقلون للآخرين حقيقـة مـا كـان يجـري في المجلس النيـابي بالتفصـيل مضـيفين اليهـا تعليقـاتهم التي تنسجم مع تطلعاتهم ونزعاتهم السياسية.**

ومن هنا نشأت معركة الحريات الديمقراطية بين المعارضة وبـين حكـم القـوتلي واسـتمرت الـى فتـرات الانقلابـات العسـكرية التي قضي فيها على الحريات الديمقراطية قضاء مبرما.

بدأت هذه المعركة مع بداية نظـام القـوتلي، فكانـت جلسـة 1944/1/13 التــي جــرت فيهــا مناقشــة موازنــة وزارة الداخليــة مناسبة لاثارة هذا الموضوع فقلت:

"تكلمت فيما سـبق عـن المراقبـة بشـكل عـام وطلبـت مـن وزارة الداخلية الغاءهـا الا فيمـا يتعلـق بالشـؤون الحربيـة.. وطلبـي هـذا ليس بدعة لأن الدستور نص في المادة السادسة عشرة على أن حرية الفكر مكفولة ولكل شخص حق الاعراب عن فكره في القـول والخطابة والتصوير ضمن حدود القانون وقال بعـض الـزملاء ان هـذه الرقابة لم تنحصر في الشؤون الداخلية بل تعدتها الى ما يقال في هذا المجلس...

رئيس الوزراء مقاطعا - رئيس الحكومة يعطيكم جوابا رسـميا عن المراقبة باسم الحكومة فـاذا كنـتم لا تصـدقون مـا قلتـه فـأني أطـرح الثقـة، وانـنـي أعطيـت أمـرا بـأن تنقـل الصـحف مناقشـات المجلس عن الضبط وليس مـن حقـي ان افـرض علـى الصـحف أن تنشر الضبط بكامله...

وتابعت قولي "نحن لا نريد ذلك مطلقا وانما نريد أن تكون الصـحافة حرة طليقة".

ومـع ذلـك فلـم تسـلم مـن مقـص الرقيـب حتـى الجريـدة الرسمية فقد قدم رشدي الكيخيا، فـي جلسـة 1944/1/18 دلـيلا علـى أن مقطعـا معينـا مـن خطـاب لـه قـد حـذف فـي الجريـدة الرسمية، فعلق النائب عبد الحكيم الـدعاس: "أعتقـد أن المراقـب قد حذف هذه الفقرة لأنه رأى أن مواد الجريدة كثيـرة فحـذف منهـا الزيادة بنية حسنة". فانفجر النواب ضاحكين ..

وزارة دفاع بلا جيش:

طرحت علـى المجلـس موازنـة وزارة الـدفاع. ولعـل القـارىء يتساءل: متى تشكلت وزارة الدفاع ولمن تدفع مخصصاتها؟

سـمح الفرنسـيون للشيخ تاج أن ينشـيء وزارة دفاع صـورية، مكونـة مـن وزيـر وبضـعة جنـود حـراس ومكتـب للـوزارة، وكـان الفرنسيون يحولون للخزانة السورية ما كانوا يقتطعونه من عائـدات السوريين التقاعدية في الجـيش المخـتلط، فأصـبحت وزارة الـدفاع السورية مكلفة بدفع رواتبهم التقاعدية، وكانت فرنسا تنفق علـى الجيش المختلط منذ انشائه من موازنـة المصـالح المشـتركة فـي المفوضية العليا.

اعترض رئيف الملقي على طـرح موازنـة وزارة الـدفاع قـائلا: "فـي الوقـت الـذي تصـر فيـه الأمـة علـى اسـتلام الجـيش تتقـدم الحكومـة الـى المجلـس بموازنـة للـدفاع الـوطني يبلـغ رقمهـا الاجمالي نحو مليون ليرة تقريبا، ولذلك أقترح عليكم ارجـاء البحـث في هذا الباب، حتى اذا تم استلام الجيش في هـذه الفتـرة ينظـر المجلس في هـذه الموازنـة، وقـد أربـك المجلـس هـذا الاعتـراض، فعلق عليه رئيسه فارس الخوري بقوله: "ان عدم البـت فـي هـذه الموازنة معناه أن الوزير وبقية موظفي الوزارة يبقـون بـلا راتـب مـع أنهم يقومون بالعمل فعليا".

فعقبت علـى الموضـوع: "أنـا أتفـق مـع الإخـوان بـأن وزارة الدفاع هي وزارة رمزية، ولكن هنـاك نقطـة جوهريـة تستحق البحث وهي: هل نريد أن ننشـيء جيشا جديـدا أو أن نسـتلم الجـيش السـوري الموجـود حاليـا؟ .. لأن انشـاء

جيش جديد مع بقاء الجيش السوري بيد الأجنبي يتنافى مع شروط السيادة، ولقد أقر الفرنسيون في معاهدة 1936 التي نكلوا عن ابرامها، بتسليم الجيش. مع ان البلاد أصبحت تأبى الآن أن تكون المعاهدات اساسا لعلاقتنا مع فرنسا. ولهذا أوجه نظر الحكومة الى ضرورة المطالبة باستلام الجيش السوري، لأن بقاءه بيد الاجنبي، فضلا عن أنه يتنافى مع شروط السيادة، فانه يصبح قوة بيده تهدد سلامة البلاد. وانني أثني على اقتراح الزميل السيد رئيف الملقي على تأجيل البحث في موازنة وزارة الدفاع، لا سيما وأن رئيس الوزراء أعلن في جلسة الصباح ان حكومته ستتقدم في بضعة أيام بمشروع يتعلق بوزارة الدفاع. فلا يضير المجلس ولا الحكومة هذا التأجيل".

فقال رئيس المجلس مقاطعا:"هل قال رئيس الوزارة: في بضعة أيام؟".

فتابعت: قال: في أمد قريب ... وأنا أرى، اجابة لرغبة المجلس وتحقيقا لارادة الأمة باستلام الجيش، ان يؤجل البحث في موزانة الدفاع".

وفي النهاية صادقت الأكثرية المجلسية على موازنة وزارة الدفاع كما صادقت على رواتب المستشارين الفرنسيين بعد مناقشة قصيرة اعترض فيها بعض النواب على وجودهم فأصر رئيس المجلس على بقائهم قائلا: "ان وظائفهم تقتصر على الخبرة، أما قول مجلس النواب ان هذا خبير وهذا غير خبير فهذا ليس من صلاحيات المجلس، انما الحكومة تقرر الخبرة والمجلس يصادق على اختيارها".

فتوليت الرد عليه: "ان هؤلاء المستشارين قد فرضوا على البلاد فرضا في عهد الانتداب وانا لا أريد أن أبحث فيما اذا كانوا خبراء ام غير خبراء، بل أكتفي بالقول انهم فرضوا فرضا. وما دمنا قد أصبحنا مستقلين فمن الواجب الوطني

ان نتخلص منهم، وعندما ترى الحكومة حاجة الى اشخاص ذوي خبرة واختصاص يمكنها عند ذلك ان تستخدم من تشاء وتتعاقد معهم بملء ارادتها واختيارها. وأرى ان يقتصر بحث المجلس على عدم المصادقة على رواتبهم المخصصة لهم في هذه الموازنة".

بالرغم من نجاح الحكومة - بمساعدة الاكثرية المجلسية - في الاستمرار على سياستها، فقد كانت المعارضة المجلسية تعبىء الرأي العام، ومن هنا بدأت تتعاظم القوى الشعبية التي تؤيد الأقلية المجلسية المعارضة، وأصبح الشارع ضاغطا على الحكومة والأكثرية المجلسية الموالية لها. ومن هذا الافتراق يتكامل الفكر السياسي وينمو الوعي الجماهيري الذي يسمح للأحزاب السياسية أن تشق طريقها بقيادة الأجيال الجديدة.

مصلحتا الميرة والاعاشة:

عرضت الحكومة موازنتي مصلحة الميرة ومصلحة الاعاشة بعد إلحاحي في طلب عرضهما على المجلس النيابي، وقدمت الحكومة لهما بعرض للأسباب الموجبة، وتقرير لجنة الموازنة، وايضاحات وزير الاعاشة والتموين مظهر رسلان.

كانت هاتان المصلحتان - في ظروف الحرب - تتحكمان بأقوات الناس وأسباب معيشتهم وبمالية البلاد وشؤونها الاقتصادية، وكانتا موضع الشكوى العامة من الناس نظرا لفسادهما وأوضاعهما الشاذة، لذلك اشترك معظم النواب في مناقشة موضوعهما، وابداء آرائهم واقتراحاتهم، كل حسب نزعاته ومصالحه، لكن الجو العام كان جو هجوم مركز على الميرة والاعاشة، حتى أن بعض النواب، تدليلا منهم على استعصاء الفساد بهاتين المصلحتين، وكمظهر من مظاهر الاحتجاج، تقدموا باقتراح لإلغائهما.

كانت معرفتي بهذه الشؤون بسيطة، واطلاعي متواضعا. ولذلك انكببت على دراسة موازنة هاتين المصلحتين وكل ما صدر

بشأنهما من بيانات وايضاحات، وحضرت جلسات لجنة الموازنة مستمعا لاتزود بالمعرفة اللازمة عن هاتين المصلحتين ، ومن السؤال والاستيضاح والحوار مع العارفين كانت الحصيلة هذه الدراسة التي تقدمت بها للمجلس، في جلسة 1994/1/18.

توجيه سياسة الاعاشة في بلادنا:

أولا - لجنة الاعاشة العليا: التي تدير سياسة التموين المشتركة بين سوريا ولبنان، وقد نشأت هذه اللجنة بحكم الضرورة وبحكم الوحدة الاقتصادية الطبيعية بين البلدين، وهي ليست بنتيجة اتفاق حربين الحكومتين السورية واللبنانية، بل بمحض ارادة المفوض السامي ورغبته في الظروف الشاذة الماضية، ولذا كان الحلفاء بها طرفا ثالثا ورابعا بل حكما ايضا، وهذه اللجنة على وضعها الحالي تتحكم بسياسة بلادنا الاقتصادية الى حد بعيد، أما حق اختيارنا فجزئي محدود.

ثانيا- مصلحة الميرة: وقد أحدثت بالقرار رقم 229 ف. ل المعدل، وبالعقدين الدوليين المؤرخين في 1942/5/16 و 1943/3/10 وبها تتمثل سوريا ولبنان والحلفاء طرفين آخرين، والحقيقة أنه ليس لنا في هذه المؤسسة من الأمر شيء، حتى ان تمثيلنا فيها تمثيل شكلي، والدليل على ذلك ما جاء في بيان وزير الاعاشة: "بقيت الميرة توزع الحنطة بدمشق وحلب على حساب الاعاشة فتقيد عليها نفقاتها دون أن يكون للاعاشة حق في مناقشتها" ثم قوله "من الطبيعي ان نرى انه ليس من مبرر لدوام الحالة على ما هي عليه".

انني لم أر أنسانا في هذه البلاد الا ويتساءل: ما هو مدى صلاحية هذه المؤسسة؟ وما هي حساباتها؟ وما هي كميات الحبوب المشتراة المستهلكة في بلادنا والفائضة عنا والمدخرة؟ وما هي نفقاتها؟ وما هي اثمان منتجاتنا من الحبوب الفائضة عن بلادنا؟؟

مما لا ريب فيه ان الحكومة الحاضرة لا تتحمل مسؤولية هذا الوضع لأن اتفاقية الميرة عقدتها حكومة غير شرعية. كما أن لجنة الاعاشة تألفت بقرار من المفوض السامي. ولكن هل يصح السكوت والاستمرار على هذا الوضع؟ ... يجب ان نعترف - قبل الاجابة - اننا في ظرف استثنائي، واننا نساهم بمجهود الحلفاء الحربي، وأن مصلحة التموين من صميم الأمور

الحربية التي تهم الحلفاء ومع هذا يجب أن نتأمل بما يطبق بمصر والعراق، وهما الشقيقان المرتبطان مثلنا بالحلفاء والمساهمان بالمجهود الحربي العام. وما دام الأمر كذك فيجب ان نطالب بما يتمتعان به من الحقوق، فمصالح الاعاشة عندهما مصالح وطنية تتعاون مع الحلفاء تعاونا. ولذا وجب علينا:

اولا: تحديد علائقنا بما يتعلق بشؤون الاعاشة عندنا حسبما هو جار في البلدان الشقيقة.

أما ما عقد من اتفاقات فهي لا تلزمنا، لأن الطرف العاقد لا يمثل الأمة، كما أن هذه الاتفاقات لم يقرها المجلس.

ثانيا: يجب عرض جميع المراسيم والقرارات المتعلقة بقضايا الاعاشة والتي صدرت في العهود السابقة على المجلس النيابي، لأنها كلها تقيد اقتصاديات البلاد لغير صالحها، فعلى سبيل المثال القرار رقم 952 تاريخ 1943/6/17 المتعلق بحصر الصوف، **فما هذا القرار الا وسيلة لبيع الصوف - وهو من أهم منتجات البلاد - بواسطة السماسرة بأسعار بخسة.**

والحقيقة ان كل ما عقد من اتفاقيات وما صدر من مراسيم وقرارات يقيد مالية البلاد لغير مصلحتها ويعد حصرا واحتكارا. ومن الواجب ان يعرض على المجلس النيابي **وذلك بحكم المادة (105) من الدستور التي نصها:**

"لا يجوز منح امتياز يتعلق باستثمار مورد من موارد ثروة البلاد الطبيعية، أو مصلحة ذات منفعة عمومية، ولا أي احتكار من شأنها ان تقيد مالية البلاد الا بموجب قانون ولا يجوز منح هذه الامتيازات والاحتكارات الا لزمن محدود".

هذه هي المساوىء في توجيه سياسة الاعاشة التي فرضت على بلادنا فرضا. أما المساوىء التي لا نزال نرتكبها بطوعنا واختيارنا في توجيه سياسة الاعاشة فهي:

اولا: ما يتعلق منها بالتجارة الخارجية:

لا تزال وزارة الاعاشة تمنح الافراد رخصا واجازات بالاستيراد والتصدير بالمواد الضرورية بما يخالف المصلحة، مع أنه من الواجب ان تتولى الحكومة امر التصدير والتوريد للاسباب الاتية:

اولا: ان مصلحة الاعاشة بحاجة لقسم كبير من الكميات المستوردة بدليل ما جاء في بيانها:"لجأت الاعاشة مؤخرا الى هذا التدبير. وقد حصلت من جرائه على فوائد كثيرة، وخلاصته أن تأخذ الاعاشة من الكميات المستوردة نسبة معينة. والغريب في هذا الباب أن تدفع الاعاشة احيانا 30% ارباحا لأرباب هذه الرخص والاجازات فوق ما يجنون من الأرباح الطائلة.

على أن حاجة الاعاشة للمواد المستوردة تزداد كلما امتد امد الحرب، سيما اذا توسعت في تطبيق نظام التوزيع المباشر ونظمت اسلوبه وطريقته، لأن أغلب هذه المواد اما من الحاجات الضرورية أو من الحاجات التي ستصبح ضرورية، أما أن يكون التوزيع بطريق التعهد كما هو جار في حلب، وبالتعويض، فهذا مما لا يجوز، سيما وأن التدقيق الذي اشار اليه البيان لا ندري نتائجه. ولكن الذي أعلمه أن الوزارة جددت التعاقد مع المتعهد.

ثانيا: ان هذه الرخص والاجازات تدر على وزارة الاعاشة ارباحا طائلة تربو كثيرا على الرسوم المفروضة، ولو لم تلجأ الى طريقة التوزيع المباشر للكميات المستوردة. عدا ان ذلك سلاح ماض لمقاومة الاحتكار، ولا يكون معرضا للأقاويل والشبهات واساءة الاستعمال، ولا يكلف مشقات كبيرة.

ثالثا: استحالة توزيع هذه الرخص بالعدل بين الناس.

رابعا: نصيحة الحلفاء لحكومتنا بتطبيق هذا المبدأ وبتحديد الاسعار، وهم يعدونها لقاء ذلك بتسهيلات عظمى ومخصصات كبيرة من البضائع.

أما التصدير فهو جار على أسوأ الأساليب، وكفى بتصدير المنسوجات مثلا، والمنسوجات حسب جدول الاعاشة اكثر الحاجات ارتفاعا بأثمانها [1] . مع ان كثيرا من موارد البلاد التي يجب ان تصدر لا تسمح الحكومة بتصديرها.

التجارة الداخلية:

طبقت وزارة الاعاشة قاعدة التصريح الاجباري على بعض الاصناف، كالغزل مثل، منعا للاحتكار والمضاربة، ومن الغريب أن هذا التصريح كان وسيلة للمضاربة والاحتكار، واذا عرفنا ان معامل الغزل عندنا تبيع الغزل بأسعار فاحشة لا تتناسب مع أسعار الأقطان والأكلاف، وهذه القاعدة لا تجدي فتيلا بل تصبح وسيلة للاحتكار ان لم تحدد الاسعار، وكفى ببيان الاعاشة دليلا حيث يقول:

"وعبثا حاولت الحكومة اقناع أصحاب معامل الغزل بضرورة المساهمة في تخفيض الأسعار فلم تتمكن من فرض ارادتها، لأن وزارة الاعاشة لا تتمتع بالصلاحيات التي منحت لوزارة الاعاشة في البلاد المجاورة". فأنا أسأل وزارة الاعاشة: من الذي حد من صلاحيتها في فرض ارادتها؟ وهل يجوز لحكومة تستمد سلطتها من مجلس الأمة أن تظهر هذا العجز في أبسط الأمور؟ أنا لا أفهم هذا العجز الا اذا كانت سياسة الأمة ومصالحها تسير حسب الاهواء والمحسوبيات والارضاء. والدليل على ذلك ان القرار رقم 789 المؤرخ في 1943/2/4 لم ينفذ على معامل الغزل بعد، بأخذ 15% من انتاجها.

ومن المؤسف أن يلح الحلفاء على حكومتنا بتحديد الأسعار وتوسيع نطاق التوزيع المراقب، والحكومة عاجزة. بدليل ما ورد في البيان" ولما طالبت الاعاشة السورية السلطات الحليفة بأن يسمح لها باستيراد كمية مماثلة من الغزل الهندي أجابت بالرفض مدعية أنه يجب الاستيلاء على الانتاج المحلي بأسعار تتناسب مع كلفتها الحقيقية وعلى الغزولات المستوردة للتجارة، ثم ينظر في أمر تخصيص "كوتا" كافية لسوريا"، فلنتأمل ذلك ولنتأمل في البرقيات التي وردت مؤخرا لرئاسة مجلس الوزراء من اصحاب معامل النسيج

(1) كان تصدير المنسوجات مسموحا، بينما كان ممنوعا تصدير القطن، وقد ازدهرت زراعته في سورية بعد السماح بتصديره، مما عاد بالنفع على المزارعين،بينما كان الصناعيون المستفيدين من رخص اسعار القطن.

بحلب يطلبون العمل على تنزيل اسعار الغزل ويتعهدون لقاء ذلك بتقديم الكساء للفقراء بالسعر الذي تحدده لهم الحكومة.

سياسة الخبز:

كان الحكم السابق حكما كيفيا أوصل الحكومة والبلاد الى ما هي عليه من الفوضى وسوء الحال. واكثر ما تتجلى مبادىء ذلك الحكم بوزارة الاعاشة حيث كانت وسيلة للاغراء والرشوة والمحسوبية. وقد تعدت سياسة المحسوبية والارضاء الأفراد الى المدن والمحافظات، هذه السياسة التي سميت - خطأ - سياسة الخبز. بل هي سياسة الدجل والخداع والاستهانة بمصالح البلاد، فأوقعت خزانة الدولة بعجز قدره 14 مليون ليرة. والغريب ان ينعي وزير المالية هذه السياسة ببيانه للمجلس عند تقديم الموازنة العادية، كما نعى وزير الاعاشة هذه السياسة ببيانه، ومع ذلك فلم تقض الحكومة على هذه السياسة منذ استلامها الحكم بل سارت عليها فهذه السياسة تقضي:

اولا: بالتفاوت بأسعار أقوات الفقراء في مختلف الأنحاء، حتى ان القمح يوزع مجانا في بعض المحافظات اذا حسبنا تكاليف الطحن والخبز.

ثانيا: تفاوت بأسعار أقوات الأغنياء في مختلف المحافظات، فهذه سياسة لا ترضى بها حكومة ولا تقبل بها دولة تحترم نفسها وشعبها في هذا العصر.

والحل الذي أراه للقضاء على هذه السياسة هو:

اولا: ان يتساوى الأغنياء بسعر الكيلو الواحد في مختلف أنحاء البلاد، وأن يكون الحد الأعلى لهذا الثمن هو 48قرشا، كما هو جار بدمشق.

ثانيا: ان يتساوى جميع فقراء الأمة في أثمان الكيلو الواحد وان يكون عشرين قرشا.

وهذا يحقق العدل بين الفقراء والأغنياء في مختلف الأنحاء كما يرفع القسم الأعظم من العجز الذي تنوء به خزانة الدولة.

المؤسسة التعاونية:

لم يوضح بيان وزارة الاعاشة أحوال هذه المؤسسة فبقينا نجهل من أمرها كل شيء، لا نعلم شيئا لا عن وارداتها ولا عن نفقاتها، ولكن العجيب

أنني لم ألق موظفا من موظفي الدولة الا ويبتدرني بالشكوى المريرة من هذه المؤسسة وضروة الغائها لسوء تصرف موظفيها وعدم فائدتها وجدواها. فكنت أعجب من هذه الشكوى الاجماعية. مع أن وزارتي المالية والاعاشة قد افتخرت بتأسيسها وعدتها المنقذ الوحيد لما يحيط بالموظفين من الضيق. بل جعلت منها مؤسسة معدلة لغلاء الحاجيات ومنظمة للأسعار بشكل عام.

جهاز الاعاشة الفضفاض:

مما لا ريب فيه أن جهاز وزارة الاعاشة جهاز فضفاض، حتى أنه يوجد في هذه المصلحة من الموظفين من لا عمل لهم الا قبض الراتب، ويتعدى هذا الأمر الأفراد الى دوائر هذه الوزارة، فما هي الأعمال، مثلا، التي تقوم بها دائرة الدراسات والاحصاءات؟ مع أن اسمها يدل على عظم أهميتها وأنها يجب أن تكون عضد الاعاشة الأمين بل المرشد والدليل لسياسة الاعاشة بوجه عام. وان كنتم في ريب مما أقول فاليكم اعتراف وزارة الاعاشة في بيانها بأن "الاحصاء مفقود عندنا".

أما كفاءة موظفي هذه الوزارة ونشاطهم فينبئك عنه ما ورد بالمادة السادسة من قانون موازنة الاعاشة التي تفرض تشريعا جديدا في استخدام المتقاعدين، مع أنه سبق للمجلس النيابي أن أبدى رغبته بالاستغناء عن المتقاعدين وتوظيف الشباب الاكفاء فما معنى هذه الرجعة؟

الخلاصة:

اولا: تحديد علائقنا الاقتصادية مع الحلفاء على أساس شرعي جديد.

ثانيا: عرض جميع المراسيم والقرارات المتعلقة بالاعاشة على المجلس النيابي.

ثالثا: اعطاء الايضاحات والحسابات والاحصاءات والاختصاصات عن مصلحة الميرة.

رابعا: توسيع طريقة التوزيع المباشر وتولي الحكومة أمر التصدير والتوريد، والسعي لتوحيد الأسعار.

خامسا: تساوي أسعار الأقوات فيما بين الفقراء وفيما بين الأغنياء في جميع انحاء البلاد، ان هذه النقطة دقيقة جدا وحساسة جدا، وأعود فاكرر

القول ان أية بلاد تحترم نفسها لا يمكن أن توجد عدم التساوي هذا في المحافظات، فهذا عيب وهذا عار ولا يمكن لحكومة أن تأخذ ذلك على مسؤوليتها، وعليه فانني أعلن باسم الأمة ان المجلس لا يقر هذه السياسة لأنها سياسة عوجاء وغير عادلة، فجميع أفراد الأمة متساوون في الحقوق والواجبات، أما اذا كانت الحكومة السابقة قد تمشت بشكل كيفي بوجود فارق بين محافظة وأخرى، فان أمة تحترم نفسها لا ترضى بذلك مطلقا ولا تقره.

سادسا: ايضاح أحوال المؤسسة التعاونية.

سابعا: اختصار جهاز الاعاشة الفضفاض وتطهيره وتشديد المراقبة والغاء المادة السادسة من موازنة الاعاشة".

لم تكن هذه الكلمة نهاية معركتي مع الحكومة بسبب الميرة والاعاشة، بل كانت هذه الكلمة بدايتها. فقد استمرت هذه المعركة طويلا وتصاعدت فيما بعد حتى أطاحت بوزير الاعاشة مظهر رسلان وكادت تؤدي لاحالته الى المحكمة العليا، كما أدت بوزارة سعد الله الجابري الى الاستقالة، وقد أساءت هذه القضية الى زعامة الجابري، والى سمعة عهد الكتلة.

الجابري يعترف بفرض الرقابة:

ان المهم في هذه الجلسة هو تأجيل المصادقة على موازنة الاعاشة لدورة المجلس القادمة، وكان الأكثر أهمية من ذلك اعتراف رئيس الوزراء سعد الله الجابري بأنه منع الصحافة من نشر النقاش الذي جرى في البرلمان حول المستشارين الفرنسيين بعد ان كان كذب ذلك في جلسة سابقة. قال: "لكنني انبه مجلسكم الكريم الى أنه عندما منعنا نشر البحث عن المستشارين كنا في أبحاث هامة تتعلق بما تطلبونه (يقصد استلام الصلاحيات). لقد فعلت دائرة المطبوعات ذلك، واذا كان فيه خطأ من حيث المبدأ الا أن فيه فائدة من حيث المرمى. وقد اتخذت التدابير لكي لا يعكر جو الابحاث (اي المفاوضات مع الجانب الفرنسي) ولكي نجعله سالما لبقا ليس فيه شيء من التشاد والخصومة وهو عمل لا بأس به وان كان فيه شيء من الخطأ".

جلسة القسم

وأخيرا خصصت آخر جلسة من الدورة الاستثنائية الخاصة ببحث الموازنة، بتاريخ 1944/1/24 لحلف اليمين الدستورية من قبل رئيس الجمهورية والنواب، **كانت فرحتنا عظيمة، وقد شعرت فعلا بعد جلسة القسم بأننا بدأنا من النقطة التي انتهت عندها الجمعية التأسيسية عام 1928. اذ أصبح للبلاد دستور شرعي متحرر من قيود الانتداب وتحفظاته، وبذلك فتحنا صفحة جديدة في تاريخ الحركة الوطنية الشعبية في سوريا التي بدأت منذ الاحتلال الفرنسي للبلاد.**

حضر رياض الصلح وحبيب ابي شهلا حفلة القسم اذ كانا قد وصلا الى دمشق للاشتراك مع الجانب السوري في استئناف المباحثات مع الجنرال كاترو ومعاونيه المسيو شاتينيو والكونت ستوروك.

وكانت جلسة القسم حفلة وطنية رائعة مهيبة، وكانت أشد وقعا وأبعد اثرا في النفوس من اعلان الحكومة استلامها للصلاحيات.

ما في عيش بلا جيش:

وهكذا انتهت الدورة الاستثنائية للمجلس، أما الدورة العادية فستعقد - دستوريا - اعتبارا من 21 آذار 1944، ولكن الحكومة - بالاتفاق مع رئيس المجلس - أجلت افتتاح الدورة الى 21 نيسان لتفادي اثارة المجلس لموضوع الجيش، اذ كان الفرنسيون لا يزالون متشبثين ببقاء الانتداب من ناحيتيه: الحقوقية الدولية، والواقعية.

هذا بالوقت الذي أصبحت فيه قضية استلام الجيش مطلبا شعبيا، فقد دعيت في 1944/1/22 الى حضور اجتماع شعبي كبير عقد في دار المتقاعد العسكري عارف التوام، في الجسر الابيض، باسم هيئة المتقاعدين العسكريين والمحاربين القدماء، وحضر الاجتماع عدد كبير من العسكريين المتقاعدين والنواب

والطلاب وزعماء الأحياء، وقد خطب صاحب البيت وخالد الخاني باسم المحاربين القدماء فبينا أهمية الجيش واستعرضا الأمثلة والأدلة من التاريخ العربي ومن تاريخ الشعوب الأخرى وألحا على ضرورة فرض الخدمة الالزامية، وتكلم فخري البارودي مدافعا عن موقف الحكومة من هذه القضية ثم تكلم مندوب الطلاب. وقد أجمع كل الخطباء على ان المال لن يكون عثرة في سبيل استلام الجيش، وأن الشعب مستعد أن يبذل بسخاء كل ما يملك.

وخرج صاحب البيت بالشعار الذي ردده المجتمعون في شبه مظاهرة عند خروجهم من الحفلة وهو: " ما في عيش بلا جيش" وقد أصبح فيما بعد شعار المظاهرات الشعبية في كافة أنحاء البلاد حتى الجلاء في عام 1945.

محاولة ضرب الحركة الشعبية في حماة

بدأ نظام القوتلي يشعر بالخطر من المعارضة الجادة التي انتهجناها في المجلس النيابي، فصمم على تقويض الحركة الشعبية التي نقودها في مدينة حماة، بالاعتماد على الأسر الاقطاعية وتدعيمها بأجهزة الدولة ولو أدى ذلك الى اراقة الدماء، مع تكتيل النواب الموالين في المجلس ودفعهم ايضا في هذا الطريق، وبصورة خاصة نواب العشائر. مما سترد تفاصيله فيما بعد، وهكذا حاولوا منذ البداية ان يخرجوا صراعهم مع المعارضة عن طابعه السياسي الديمقراطي الى طابع العنف والقسوة.

سرحت الحكومة محافظ حماة خيري رضا المسالم وغير الموثوق في تمثيل هذا الدور، وعينت مكانه سامي البكري الذي يشبه شكري القوتلي، ولكنه كان أقل ذكاء وفيه سذاجة ملحوظة، ولما سأل رئيف الملقي سعد الله الجابري رئيس الوزراء عن سر هذا التسريح والتعيين المفاجىء أجاب بأن خيري رضا كان متعاونا مع الفرنسيين، هذا بالوقت نفسه الذي أصدر فيه سعد الله قرارا بتعيين بهيج الخطيب مديرا للداخلية وهو أكبر المتعاونين.

كانت المدينة هادئة وراضية وفخورة بمواقف نوابها في المجلس، لا سيما وأن غالب العظم، على قلة اهتمامه ونشاطه أخذ يسلك في البرلمان الخط الوطني المعارض الذي كنا نسلكه، وقد شعر القوتلي والجابري باللعبة الذكية التي أراد أن يلعبها رئيف الملقي بتفاهمه مع غالب العظم، بعد أن ظهرت نوايا عمه فريد العظم بتهيئته ابنه عبد الرحمن ليحل محل غالب بعد ان أنجز دراسته الجامعية في اليسوعية.

كان غالب العظم مغلوبا على أمره، لأنه مختلف مع أبيه، ولأنه كان فقيرا بالنسبة لأعمامه، وكان حقوقيا ولكنه لم يمارس مهنة المحاماة بل كان منصرفا الى شؤونه الزراعية ولذلك لم يجرؤ على التمرد، في انتظار نهاية مدة المجلس للعودة الى أعماله الخاصة.

بعد تعيين سامي البكري محافظا لحماة فتح فريد العظم "منزولا" أسماه "بيت الشعب" واخذ احمد العظم وناصح العظم وفخري الكيلاني ومصطفى ابو السعود الكيلاني والمحامي احمد سلطان... الخ "يوالون اجتماعاتهم فيه بصورة منتظمة، وقد قرروا وضع خطط جديدة يتمشون عليها في اجتماعاتهم ومراجعاتهم للحكومة والدوائر الرسمية وخلافها من الأمور". النصر: 1944/1/7.. وسرعان ما أصبحت كل أجهزة الدولة في المحافظة تحت تصرف "بيت الشعب". واستقر المحافظ سامي البكري في منزل فريد العظم حيث كانت تقام الولائم والحفلات والدعوات، وراحت أجهزة الدولة تتدخل بالكبيرة والصغيرة وتشتد بالتضييق على أبناء المدينة في مراجعاتهم وعلاقاتهم بالدوائر الحكومية، كما أصبحت قوى الأمن تتلقى أوامرها من منزل فريد العظم، وصدرت جريدة "الفداء" لصاحبها (محمد الحافظ) الذي كان مستأجرا لفندق ابي الفداء الجاري بملكية بلدية حماة لتشن حملة اعلامية قاسية ومستمرة على الحركة الشعبية، كما دفعت الحكومة أحد أساتذة الأدب العربي (عثمان شقفي) لاصدار مجلة "النواعير" التي وضعت نفسها بصورة مباشرة في خدمة الحكومة.

هنا يصح التساؤل: هل كان الانكليز وراء تشجيع القوتلي وآل العظم في محاولتهم القضاء على الحركة الشعبية بحماة؟!

ان تشجيع البيوتات الاقطاعية كان من أسس السياسة الاستعمارية البريطانية القديمة والثابتة في المنطقة، كما ان الليدي سبيرز والجنرال سبيرز كانا يترددان بكثرة على حماة حيث ينزلان بضيافة فريد العظم في بيته، على أن تطور الأحداث فيما بعد سيكشف عن صحة ذلك التساؤل الذي لم تغفل عنه القيادات الشعبية في حماة آنذاك.

تجنبنا في البداية الدخول في هذه المعركة، ولكن آل العظم دفعوا زلمهم المسلحين للاعتداء على أنصارنا، بدعم وتأييد قوى الشرطة والدرك، وتطور الحال فصاروا يعتدون بالهجوم على بيوت أنصارنا في حي الحاضر مستهدفين استسلامهم أو تهجيرهم من هذا الجزء من المدينة. واستمرت هذه المناوشات الدامية عدة أسابيع وأصبحت أحياء الحاضر كساحة حرب ليلا نهارا، وقد صمدت الأسر الشعبية كآل عبد الرزاق، والعقاد، والخاني، وغيرهم، تؤازرهم بعض الأحياء الأخرى من الحاضر كحي السخانة والمناخ، وكان لرفاقنا الشباب الطلاب دور بارز في هذا الصمود.

ولما أرسل آل العظم زلمهم المسلحين الى ساحة العاصي يطلقون الرصاص ارهابا للمدينة انطلقت المظاهرات الصاخبة ضد المحافظ المسؤول عن هذه الفتن الدامية، فتجمع عشرات الألوف من أبناء المدينة في ساحة العاصي يهتفون بسقوط المحافظ سامي البكري فكان يطل عليهم من شباك غرفة مكتبه دون أن يرف له جفن.

خرجت أنا ورئيف الملقي للاحتجاج، باسم المتظاهرين، على موقف الحكومة ومسؤوليتها في هذه الحوادث الدامية، وكانت هتافات المتظاهرين تشق عنان السماء بتسقيط المحافظ "أكال اللحم الابيض" اشارة الى أكله لحم الدجاج على موائد فريد العظم... وما أن دخلنا غرفته حتى هتفت اليه زوجته من دمشق

لتطمئن عليه فأبلغها على مسمع منا، بكل بساطة، أنه قادم الى دمشق يوم الجمعة، وطلب اليها ان تعد له أكلة "قوزي" فانفجرت ضاحكا، فالتفت الي مستغربا ولم يدرك السبب.

ومع ذلك فان الفتنة لم تنته، بل استمر سامي البكري، بدعم من القوتلي والجابري، بتنفيذ هذه الخطة في ذلك الظرف الدقيق، فأصدر أوامره لقوى الشرطة والدرك في المحافظة بالتجمع لاحتلال بيت الدكتور توفيق الشيشكلي الذي كان يسمى "بيت الأمة" فداهمته بكامل قواتها ليلا فهبت المدينة غاضبة وأحاطت بهذا البيت وحالت دون احتلاله. كانت ليلة مشهودة، ولم تجرؤ قوات الأمن، أمام هذه السيول الدافقة من المواطنين على احتلال بيت الأمة.

وهكذا انقلب السحر على الساحر، اذ ان تلك المعارك، بدلا من أن تحقق هدفها، وحدت الصف الشعبي ومتنت الاواصر وأزالت كثيرا من الحساسيات السابقة والاختلافات الجانبية في صفوف الشعب، وجعلت من حزب الشباب وجماعة الملقي قوة متماسكة.

الحق على الزنطارية.

لم نر جدوى أو فائدة في اثارة هذا الموضوع في المجلس النيابي، نظرا للأوضاع السياسية عامة، ووضع المجلس النيابي خاصة، كما أن صحف العاصمة ظلت تتحاشى ذكر اي شيء عن حوادث حماة الدامية، بأمر من الحكومة التي كانت تشهر فوق رأسها سيف التهديد بقطع الورق عنها، ولم يرد ذكر لهذه الفتن الدامية في الصحف الا بعد أن قررت الحكومة ارسال توفيق الحياني الى حماة محققا، فنشرت الصحف بلاغ مديرية المطبوعات والاذاعة: "اثارت الخلافات المحلية في مدينة حماة بعض المظاهرات، فاتخذت الحكومة التدابير اللازمة وأرسلت لجنة تحقيق، وقد انتهت المظاهرات الان ولم يبق اي حادث".

كان توفيق الحياني من أركان سعد الله الجابري في حلب، وكان أخوه علي الحياني نائبا في قائمة الجابري، وقد انتدب لهذه

المهمة بصفته من كبار موظفي الدولة، لكن نتائج تحقيقه التي وضعها في تقرير مطول ظلت طي الكتمان في محفوظات الحكومة، على أنه كان يقول في أحاديثه معنا ومع النواب ان تلك الفتنة الدامية سببها مرض الزنطارية المنتشر في حماة بسبب تلوث مياه الشرب، فكنت أضحك لهذا الجواب وأقول له أن معظم ابناء المدن السورية الأخرى مصابون بالزنطارية فلماذا لم يتعرضوا لمثل هذه الفتنة؟

القوتلي يبذل "مساعيه الحميدة":

لما يئس القوتلي من جدوى استخدام أجهزة الدولة قرر استخدام نفوذه الشخصي وأساليبه الخاصة فقرر زيارة حماة ضمن جولة مفاجئة على المحافظات السورية ابتدأت في منتصف شهر آذار 1944، ولا شك أن القوتلي الذي رجع الى دمشق زعيما بعد زيارته للمحافظات السورية قبل انتخابات 1943. اراد أن يجرب حظه مرة أخرى ولا سيما بعد أن أصبح محتاجا للتأييد في دمشق ذاتها حيث تعاظمت فيها قوى المعارضة بعد انعقاد دورات البرلمان ولا أدل على ذلك من ان مدينة دمشق تظاهرت وأضربت، وكأنها على موعد مع بداية رحلة القوتلي للمحافظات، فاضطرت مديرية المطبوعات والاذاعة ان تصدر البلاغ الرسمي التالي:

"اضربت المدينة صباح اليوم اضرابا شاملا وخرج طلاب المدارس الثانوية والمعاهد العلمية في تظاهرة سلمية منظمة طافوا فيها شوارع المدينة الكبرى، وقابل وفد منهم دولة نصوح البخاري (وزير الدفاع) وقدموا اليه عريضة بمطالبهم وأمانيهم (استلام الجيش). وقامت تظاهرات متعددة في مختلف نواحي المدينة، والحكومة منصرفة الى معالجة الموقف بحكمة وروية". النصر:19 آذار 1943.

ابتدأ القوتلي جولته بزيارة حمص والرئيس هاشم الأتاسي، فاحتفى به الأتاسيون وعلى رأسهم فيضي الأتاسي رئيس البلدية الذي أقام له الحفلات والولائم، وقد ألقى القوتلي خطابا

طويلا، ولكن زيارته لم تخل من منغصات -خلافا لزيارته السابقة - فقد رد عليه الشيخ مصطفى السباعي.

كان قصد القوتلي حماة التي وصل اليها في 17 آذار، وكنا قد قررنا قبل مجيئه أن نشترك باستقباله بصفوف منظمة وشعارات محددة تدل بشكل قاطع على اتجاه المدينة الاجتماعي والوطني، وقد تولى شباب الحزب وضع الشعارات وكتابة اللافتات وتنظيم صفوف الجماهير، كانت الشعارات الوطنية تطالب باستلام الجيش وممارسة الاستقلال، وكانت الشعارات الاجتماعية تندد بالأوضاع الاقطاعية وتآمرها على القضية الوطنية.. وبكلمة مختصرة: انفجرت آلام الشعب بمئات اللافتات التي تحمل الشعارات الوطنية التقدمية، وكانت المرة الأولى التي يتبلور فيها الاتجاه الشعبي بأفكار واضحة محددة يلتف حولها الشعب في مدينة حماة.

وما أن وصل القوتلي الى حماة حتى انفجرت المدينة بمظاهرات شعبية كالبحر الهائج، تحمل الشعارات واللافتات، بشكل سحق كل أثر للدولة وللوجود الاقطاعي في المدينة، ولم يتمكن القوتلي والخوري وصحبهما من الوصول الى فندق ابي الفداء الواقع على ساحة العاصي الا بشق الأنفس، فألقى القوتلي كلمة صغيرة لم يصغ اليها أحد بسبب صخب الجماهير وترديد الهتافات الوطنية "فشكر الحمويين على عقيدتهم ووطنيتهم وطلب منهم ان يكونوا للوطن وحده" كما جاء في البلاغ الرسمي.

ولا شك أن هذه المظاهرات بالشكل الذي جرت فيه، منعت القوتلي من ارتكاب كثير من الحماقات التي كان من الممكن أن يتورط بها.. وفي اليوم الثاني أقام له محافظ حماة حفلة في فندق أبي الفداء كانت ذات مغزى ودلالة سياسية، فقد ألقى فيها عبد الرحمن العظم كلمة ترحيبية، بدلا عن غالب العظم كما ألقى الشيخ محمود الشقفة خطابا دينيا... ثم القى القوتلي خطابا جاء فيه:

"في هذه المدينة توجد طبقة يقال لها طبقة الذوات وأنا من هذا الطبقة، أنا من الذوات وعائلتي من اقدم العائلات، وأنا من أصحاب الأملاك وأرباب الأراضي. وهنالك طبقة أخرى تقول انها من الشعب وأنا أيضا من الشعب. وقد أمضيت عشرات الأعوام مناضلا في سبيل الشعب. انني أعلم معنى الفكرة التي يعتنقها كل ذات من الذاوات كما أعلم ماهية الفكرة التي يعتنقها كل رجل يقول انه من الشعب لكن اسمحوا لي ان اضع هذه الأمور في مواضعها. انني على استعداد لأن أضحي بأولادي وبعائلتي في سبيل الوطن وهذا ما اريده من كل فرد، فالوطن أعلى منكم ومني. والوطن سلامة، وأريد أن تضحوا وأن اضحي انا في سبيل الوطن". ثم قال: "أما الجيش هذا الجيش الذي يتغنى به كل فرد منا فاني أرجو أن يكون الوقت قريبا جدا حتى يكون هذا الجيش في أيديكم. هذا ما اؤمله بالنسبة لما قمنا به من أبحاث أو ما نقوم به من أبحاث حتى خلال رحلتنا هذه".

"وفي هذه المناسبة أشكر رجال الأمم المتحدة (من بريطانيين وفرنسيين) الذي اشتركوا معنا اليوم وأمس في هذه الحفلات فنحن نعتبر بأننا واياهم نسير اثر غاية واحدة ونمضي في سبيل واحد هو تأمين النصر".

وفي اليوم التالي ذهبنا برفقته الى السلمية حيث أقامت لنا البلدية حفلة غداء فخمة في المدرسة الزراعية... وأثناء تجوالنا في المدرسة ومشاهدة مصنع الالبان فيها حيث أخذ احد الاساتذة يشرح لنا كيفية استخدام الالات الحديثة في صناعة مشتقات الحليب، تناول محافظ حماة سامي البكري قرصا كبيرا من الجبن وانكب عليه يأكله بشراهة ونهم، فالتفت القوتلي الى من حوله قائلا: ان بطن سامي ستقتله.

كانت سيارة الرئيس في مقدمة الرتل، وأثناء عودتنا من السلمية الى حماة أوقف سيارته في الطريق واستدعانا اليه، انا والملقي، فجلسنا معه بجانب الطريق حيث راح يعظنا من اجل الصلح مع الذاوات والوفاق والتفاهم معهم. وبعد أن أنهى مواعظه تابع الرتل سيره الى حماة وعندما وصلنا المدينة وكانت سيارتنا

قد تأخرت عن الرتل قليلا أعد آل العظم بعضا من زلمهم الذين صرخوا عند مرورنا بأول حي الحاضر "ببعض الألفاظ غير المستحبة" وهي الالفاظ ذاتها التي أطلقها الملقي في الماضي اثناء استقبال الشيخ تاج. فتابعنا طريقنا غير آبهين. ولكنني قلت للملقي: هذه أولى نتائج الموعظة التي زودنا بها فخامة الرئيس.

تابع القوتلي زيارته للمحافظات الأخرى، وألقى فيها خطابات خالية من كل معنى محدد وواضح.

دمشق لم تستقبل القوتلي:

لم يعد القوتلي هذه المرة الى دمشق زعيما كما عاد في المرة السابقة، مع أن رحلته هذه امتدت خمسة عشر يوما قضاها متنقلا في المحافظات السورية. وعندما دخل دمشق لم يجر له أي استقبال شعبي، فاضطر ان يحشد في اليوم الثاني عددا من أنصار الحكومة في الجامع الأموي الذي أدى فيه صلاة الجمعة.

لم يتمكن القوتلي من كظم مشاعره. فقد كتبت الصحف ان وفدا من الطلبة هنأ القوتلي بسلامة العودة، "فأوضح لهؤلاء الطلاب ما كان لاضطراب الحالة في دمشق خلال أيام الرحلة من أثر سيء في نفسه".

- النصر: 2 نيسان 1944-.

التندر بخطاب القوتلي

كشف القوتلي ببساطة حقيقة الفتن الدامية التي كان يرتكبها النظام في المدينة، كما أشار الى قضية المدينة، الأمر الذي تجنبنا أثارته في المجلس وخشينا من مغبته، وكان للأسلوب الساذج الذي طرح به هذه المشكلة فائدة كبرى اذ ترك خطابه اثرا في جميع الأوساط الشعبية بسورية ولا سيما في دمشق، ولطالما سمعت الكثيرين يتندرون من قوله "انا من الذاوات".

اعداد مرشحي انتخابات 1947:

لم يتراجع القوتلي عـن اهدافـه بالنسـبة للحركـة الشـعبية في حماة بل سلك الـى تحقيقهـا الاسـلوب السياسـي بـدلا مـن العنف، فأصبح يهيء منذ الان عبد الرحمن العظـم بـدلا مـن غالـب العظم، والشيخ محمود الشقفة، وأديب نصور بـديلا لفريـد مـرهج. اما نجيـب البـرازي المـوالي للحكومـة فمرضـي عنـه. وهكـذا فقـد شرع في تهيئة القائمة النيابية سلفا بالنسبة للمعركة الانتخابيـة القادمـة بعـد ثـلاث سـنوات ... ولـم يكـن النـاس مخطئـين فـي ظنونهم، فقد حصل فعلا في انتخابات 1947 ما توقعوه سلفا.

15

1944 : تطورات الاقتراح الذي قدمته بتأليف لجنة برلمانية للتحقيق بأوضاع دائرة الاعاشة - لجنة حكومية وليس برلمانية للتحقيق - حول استلام الصلاحيات من الفرنسيين - التحاق جبل الدروز بالوطن الأم - انتخاب اعضاء المحكمة الدستورية العليا - مكافحة الاستغلال الرأسمالي.

فضح مفاسد الاقطاعية والرأسمالية:

كانت عودة القوتلي إلى دمشق موقوته مع افتتاح الدورة العادية في 22نيسان 1944 ولم أرد جوابا على خطاب القوتلي يوضح حقيقة الطبقة التي يفتخر بانتسابه إليها إلا أن أطرح بالوقائع والأرقام فساد هذه الطبقة فتقدمت في جلسة 10 مايس بالاقتراح التالي، بمناسبة المناقشة في موازنة الاعاشة:

رئيس المجلس النيابي الموقر:

كثرت الاتهامات وذاعت الشائعات عن وزارة الاعاشة، لا سيما بعد امتناع جميع مفتشي هذه المصلحة عن ممارسة أعمالهم.

وبما أن للمجلس حق التقرير والمراقبة والاشراف على جميع شؤون الدولة، لذلك أقترح تأليف لجنة برلمانية تقوم باجراء التحقيق الدقيق بوزارة الاعاشة على أن تستعين بجميع الأشخاص الذين ترى لزوما للاستعانة بهم. كما أن على الحكومة أن تقدم لها جميع التسهيلات للقيام بمهمتها لتتقدم الى المجلس بعد ذلك بنتيجة التحقيق لينشر على الناس، وبذلك يظهر اذا كان هنالك خلل فيرأب صدعه او جرائم فيدان فاعلها أو أخطاء يجب إصلاحها. واذا لم تكن هذه الشائعات والاتهامات صحيحة فان هذا التحقيق وحده كفيل بوضع حد لها، مما يعيد للامة الثقة والاطمئنان".

كان أحد مفتشي الاعاشة أبو النصر اليافي مستقيما طيبا نزيها. وقد توطدت الصداقة بيننا. فسألته عن حقيقة ما يشاع عن مفاسد وزارة الاعاشة فأكدها وقال انه ورفاقه الآخرين أضربوا عن ممارسة وظائفهم احتجاجا على تدخل الحكومة لعرقلة تحقيقاتهم. وذكر لي بعض الحوادث.

كانت الشائعات التي تنطلق عن مفاسد وزارة الاعاشة تمس شكري القوتلي بشكل غير مباشر، من جهة علاقته بالشركة الخماسية واستغلال أعوانه تجار دمشق، كما تمس رئيس الحكومة سعد الله الجابري باستغلال أنصاره تجار حلب. فلم يكن المقصود اذن من اقتراحي فضح وزير الاعاشة مظهر باشا رسلان وتجار حمص فحسب، بل كان قصدي الحقيقي فضح هذه الطبقة الاقطاعية والرأسمالية التي تشكل دعامة نظام القوتلي في البلاد.

كان الحسد والغيرة تتأكل صدور هؤلاء الرأسماليين من بعضهم بعضا. فكانوا هم أنفسهم ينشرون على الناس هذه الفضائح والمفاسد. ولذلك تكونت لدى الرأي العام - داخل المجلس وخارجه - قناعة لا تقاوم بصحة تلك الاشاعات، وهذا الرأي العام هو الذي أفسد على حكومة القوتلي أن تستعين بالأكثرية المجلسية الموالية لطمس هذه الفضائح، فأصبح مستقرا في قناعة الشعب أن كل من يقف في وجه اقتراحي متهم ومدان، وهذا ما جعل اقتراحي الخطير، الذي لم يطرح له نظير في المجالس السابقة، يأخذ طريقه الى التنفيذ بالرغم من معارضة الأكثرية المجلسية الموالية وبالرغم من نفوذ رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة بوضع الصعوبات والعراقيل في وجه تحقيقه.

وقد أدرك القوتلي والجابري منذ اللحظة الأولى أنهما سيكونان ضحية هذا الاقتراح اذا دخل في مرحلة التحقيق، لأن

مظهر رسلان وزير الاعاشة سيكون اول من يتناول الجميع اذا تخليا عنه وهذا ما حدث فعلا فيما بعد.

كانت أكثرية المجلس من الاقطاعيين الذين يستغلون مصلحة الميرة، ولكنهم كانوا يحسدون الطبقة الرأسمالية التي تستغل مصلحة الاعاشة، ولذلك ابتدأت بطلب التحقيق بفضائح وزارة الاعاشة، وفي حال نجاح هذا الاقتراح يصبح الطريق ممهدا للتحقيق في مصلحة الميرة [1] بالأسلوب ذاته..

وقد عقبت على الاقتراح الذي قدمته بكلمة اعربت فيها عن عدم موافقتي على موازنة الاعاشة التي قدمت الى المجلس للمرة الثانية بعد أن رفضت في المرة الاولى، وذلك لأنها تستند الى قرارات ومراسيم صدرت في عهود غير شرعية، وانهيت هذه الكلمة بالاصرار على تشكيل لجنة التحقيق بسبب ما يجري على ألسنة الناس من شائعات فقلت:

"أما الشائعات التي قدمت بها اقتراحا فانها كثرت في الأيام الأخيرة، ولا سيما بعد استقالة المفتشين وهم اشخاص معروفون بنزاهتهم، وان هذه الشائعات لم تنبت من دون أصل، ولا يمكن أن تروج على الألسنة بدون أن تكون مستندة ولو الى خيط دقيق من الحقيقة، فتأليف لجنة برلمانية تقوم بتحقيق دقيق - وهذا ما يسمح به الدستور - أصبح ضرورة ملحة لايقاف هذه الشائعات والاتهامات".

"وكلمتي الأخيرة هي أنني أطلب من اللجنة ان تتريث بالموافقة على موازنة وزارة الاعاشة والتموين الى أن تعرض جميع القرارات والمراسيم التي صدرت في عهود غير شرعية والتي تقيد مالية البلاد وتدعو الى الاحتكار. والأمر الثاني هو ان نوصي الحكومة بتقديم مشروع بشأن خبز الفقير الذي يشكل اكبر رقم في هذه الموازنة. كما نوصيها بوضع مشروع لتوسيع أعمال المؤسسة التعاونية، وهذا كله يجب أن يعرض على المجلس قبل الموافقة

(1) لم تكن سوريا قد استلمت مصلحة الميرة بعد، وانما جرى استلامها مع مخافر الأمن الداخلي ومصالح أخرى في شهر حزيران 1944.

علـى هـذه الموازنـة الجديـدة التـي هـي أسـوأ بكثيـر مـن الموازنـة السابقة".

ولم أكد أنتهـي مـن كلمتـي حتـى تعاقـب عـدد مـن النـواب ينـددون بمـا يجـري فـي وزارة الاعاشــة مؤيـدين اقتراحـي بـاجراء التحقيق كل التأييد..

وقد جاء اقتراحي مترافقا مع تبرعـات الرأسـماليين السـخية لشراء سرب من طـائرات سـبيتفاير واهدائـه للحلفـاء، كمسـاهمة منهم بالمجهود الحربي، وكلهم من الذين استغلوا الاعاشة، وكـان لتلك التبرعات أثر سيء في الأوساط الشعبية، لا سيما وأنـه جـاء مترافقا مع امتناع الفرنسيين عن تسليم الجيش السوري.

ترسيخ التقاليد البرلمانية وسلطة مجلس النواب من خلال مناقشــة اقتراحــي بتشــكيل لجنــة تحقيــق بأوضــاع وزارة الاعاشة:

كان اقتراحي بتشـكيل لجنـة برلمانيـة للتحقيـق بمـا يشـاع عن فضائح وزارة الاعاشة ثم ما تلا ذلـك مـن تـأليف لجنـة تحقيـق حكوميـة أهـم مـا نـوقش خـلال الـدورة العاديـة لمجلـس النـواب السوري التي امتدت من 22 نيسان الى آخر مايس 1944.

لقد أحال رئيس المجلس هذا الاقتـراح الـى لجنـة الدسـتور دون أن يأخذ رأي المجلس بـذلك، وكـان يعتقـد أن الاقتـراح سـينام في هذه اللجنة دون أن يخرج الى النور لأن أغلبيـة أعضـائها كانـت مواليــة لحكومــة الجــابري، واذا تعرضــت اللجنــة لضــغوطنا فــي المجلس النابي فإن الأكثريـة البرلمانيـة مضـمونة لـرده بحجـة أنـه مخالف للدستور.

ولذلك تقدمت بطلب استعجال النظر التالي:

"لفخامة رئيس المجلس النيابي الموقر

انني اقترحت في احدى الجلسات السابقة تأليف لجنة برلمانية للتحقيق في مصلحة الاعاشة، وقد أيدني الزملاء بهذا الاقتراح، ولكن وزير الاعاشة عده مخالفا للأصول الدستورية، وذلك لأن الأمر قد التبس عليه بين تأليف لجنة تحقيق برلمانية وبين تأليف المحكمة العليا التي نصت عليها المادة (97) من الدستور. وهي المحكمة التي يحال اليها الوزراء بتهمة الخيانة العظمى حسب نص المادة 94 من الدستور.

ومما لا يخفى ان الخيانة العظمى ليست موضوع بحث، وأرجو أن لا تكون موضوع بحث في هذه البلاد، بل ان موضوع البحث شائعات واتهامات نفتها وزارة الاعاشة بأجوبتها على اسئلة النواب، فهذه الشائعات والاتهامات هي التي ستكون موضع بحث اللجنة البرلمانية التي أقترح تشكيلها، ولا ينكر أحد على المجلس حقه بمراقبة جميع شؤون الدولة، فمن البديهي اذا كان له حق المراقبة والاشراف أن يكون له حق التحقيق والاطلاع. ولا سيما أن المادة (57) من الدستور نصت بقولها: "يحق للمجلس التحقيق في بعض الأحوال الخصوصية الداخلة ضمن حدود اختصاصه وذلك وفقا للنظام الداخلي ولكن نظامنا الداخلي لا يمنع حق المجلس بالتحقيق والاطلاع، يؤيد ذلك التقاليد الدستورية بتأليف مثل هذه اللجان في البلاد الديمقراطية. كما أن عدم وجود نص بالمنع يؤدي معنى الجواز، وعلى كل حال فان عمل هذه اللجنة لا يعد تدخلا من السلطة التشريعية بأعمال السلطة التنفيذية، لأن عمل التحقيق هو عمل اطلاع وبحث. والاطلاع غير الإجراء، ومن واجب المجلس ان يطلع على جميع شؤون الدولة ليتسنى له القيام بواجباته، ولذلك كان تأليف هذه اللجنة التحقيقية منسجما مع روح الدستور ونصه انسجاما تاما غير مخالف للأصول، وعليه فانني أطلب، استنادا للمادة 91 من النظام الداخلي التي تقرر جواز استعجال النظر، عرض اقتراحي على المجلس الكريم.

1944/5/17

اضطر رئيس المجلس الى عرض هذا الاقتراح مشترطا عدم المناقشة فيه، فنال الأكثرية، وأصبحت لجنة الدستور مضطرة

لتقديم تقريرها في برهة ثلاثة ايام. آنذاك قال رئيس المجلس "ان على لجنة الدستور ان تقرر هل هذا الموضوع داخل في نطاق نظامنا الداخلي ام انه يجب ان يقام بتحقيق خاص".

وفي جلسة 22 مايس تلي قرار لجنة الدستور وقد قضى - بالاكثرية - بعدم قبول هذا الاقتراح. وقبل ان يدخل المجلس في مناقشة تقرير اللجنة وقف رئيس الحكومة طالبا الكلام فقال:

"ان الحكومة لا تنكر على المجلس الحق باجراء التحقيق، لأنه حق طبيعي له. ولكن متى يطبق هذا الحق ومتى ينظر فيه وما هي الاسباب التي تدعو لتطبيقه؟ هذه سلسلة أبحاث اختلف فيها المؤلفون وناقشها العلماء ولم يتفق فيها اثنان على فكرة واحدة" "هل يا ترى لكل أمر بسيط او لأسواء ارتكبها موظف، وهي أسواء قد لا تتجاوز حدا معينا، تؤلف لجنة تحقيق برلمانية، أم لمسائل تتعلق بكيان الدولة السياسي أو الاجتماعي أو المالي؟" ..."فتجاه هذه الحوادث التي تحيط البلاد داخلا وخارجا ترى الحكومة ان يوافقها المجلس على تأجيل المناقشة بالموضوع أسبوعا.. أقول لكم ان الموقف لا يتحمل في هذه الساعة نقاشا. وها هي الحوادث امامكم. واذا لم تقبلوا منا هذا العرض فاننا نعرض عليكم امرا آخر - يقصد الاستقالة -"..

وقد حصلت مشادة بين سعد الله الجابري وبين حلمي الاتاسي وهاني السباعي ورئيف الملقي انتهت بموافقة المجلس على تأجيل المناقشة اسبوعا... فما هي الحوادث التي أشار اليها الجابري؟.

الجمعية الغراء... وشكري القوتلي:

كانت قناعة الجمعية الغراء، بعد انتخابات 1943، أنها هي التي صنعت القوتلي وانها دعامة نظامه وقد جعلها هذا الاعتقاد تطالب بحقها بان تتسلط على شؤون البلاد، الأمر الذي يرفضه الجابري مما يهدد زعامة القوتلي.

حاول القوتلي ان يظل حائزا على تأييد الجمعية الغراء ورضاها. وكان مستعدا لجعل الحكومة مطية لاستغلالها ونفوذها.

ولكن الجمعية لم يقف طموحها عند هذا الحد، بل حاولت ان تضع يدها فعليا على شؤون الحكم وتوجهه حسب مصالحها ومفاهيمها الدينية والسياسية، وكان اعتراضي على المخصصات التي وضعتها الحكومة في الموازنة العامة لجامع دنكز[2] ، وما لقيه من دهشة ورضى - في ان واحد - من قبل الرأي العام، مشجعا لحكومة الجابري أن تضع حدا لتسلط هذه الجمعية وتطاولها.

اتسع نشاط الجمعية الغراء فشمل جميع المحافظات السورية. واستفحل أمرها حتى راح انصارها يعتدون على الحريات العامة بدعوى مكافحة السفور، ووثقت الجمعية من قدرتها على اخضاع الحكومة لنفوذها بالقوة فتمكنت من القيام بمظاهرات عنيفة شملت معظم المحافظات السورية بداعي الحرص على الأخلاق والتقاليد الدينية التي تتهاون الحكومة بأمرها، فاقتحمت احدى المظاهرات في دمشق دارا للسينما اثناء حفلة خاصة للسيدات، وذهب ضحية هذا العمل الاجرامي بعض القتلى والجرحى، فاضطرب جو البلاد وتأزم الوضع تأزما شديدا.

واتفق ان كان في تلك الفترة موعد الحفلة الموسمية التي تقيمها في كل سنة جمعية نقطة الحليب [3] في نادي الضباط الفرنسيين بدمشق. لجمع تبرعات لهذه الجمعية التي وصفها الجابري في خطابه بالبرلمان بقوله انه "قام على تأسيسها الفرنسيون وعاونهم المسيحيون وقامت بعض السيدات المسلمات بالمساهمة بهذه الجمعية"... وقال: "ان وزارة الداخلية اتخذت جميع الوسائل لاقناع الجمعية الغراء بأنه سوف لا يشترك في هذه الحفلة من لا يجيز له دينه الاشتراك بها، وبرهنت بالمحسوس والملموس بأنه ليس هناك من امرأة مسلمة سافرة تشترك في هذه الحفلة".. ثم روى الجابري كيف ان الجمعية الغراء تمكنت بالقوة من اغلاق المدينة "وحاولت الهجوم على

(2) كان جامع دنكز أهم الجوامع التي تمارس فيها هذه الجمعية نشاطاتها الدينية والسياسية.
(3) أسست فرنسا جمعية نقطة الحليب عام 1922.وكانت الكونتيس لومبار - التي أصبحت مدام كاترو رئيسة لهذه الجمعية، ثم خلفتها زهراء العابد بنت محمد علي العابد رئيس الجمهورية السابق.

نادي الضباط الفرنسيين لمنع ذلك الاحتفال السافر" فأمر باطلاق النار على المتظاهرين، فقتل عدد من طلاب جامع دنكز ... وقال في تبرير حملته على الجمعية الغراء: "عندي من الوسائل والاحصاءات ما يؤكد ان الفسق والفجور والدعارة لم يكافحها دور من الادوار السابقة التي مرت على البلاد كما كافحناها نحن، ولكن اسمحوا لي يا سادتي أن أقول لكم اننا لا نستطيع ان نفرض على الزوج ارادتنا بضرورة دعوته لعمل هو أولى به. كما أننا لا نستطيع التغلب على امرأة تتعاطى الفجور بصورة سرية، ولكننا اذا توفقنا بالقبض عليها فالجزاء صارم".. ثم تساءل: "هل بامكاننا أن ندخل بيوت الناس ونفتش عما يجري فيها؟"..

وقد بدا أن الجابري كان محقا في موقفه الذي اتسم بالحزم والحسم ... والحقيقة أن دمشق ما كانت لتلبي طلب الجمعية الغراء بالاضراب والتظاهر لو لم يكن لهذه القضية جانبها الأخلاقي والوطني، أولا: لأن الفرنسيين هم الذين أنشأوا جمعية نقطة الحليب، وثانيا: لأنه ليس من المقبول ان تذهب النساء السوريات الى نادي الضباط الفرنسي. لا سيما وان النساء المشتركات في هذه الجمعية كن من الاسر الارستقراطية المتعاونة مع الفرنسيين، بالوقت الذي يرفضون فيه تسليم الجيش السوري.

خرجت حكومة الجابري من هذه المعركة ظافرة بتأييد الاكثرية المجلسية والصحافة والرأي العام الشامت بالقوتلي والجمعية الغراء في آن واحد.

وقد انتقمت الجمعية الغراء من القوتلي في انتخابات 1947 فتمكنت من اسقاط قائمته بدمشق، مما اضطر الحكومة لتزوير النتائج كما سيرد ذلك بالتفصيل في حينه.

والعبرة من هذه الحادثة والحوادث المماثلة في تاريخنا المعاصر هي ان تحرير المرأة من التقاليد البالية ومساهمتها في الحياة العامة مع الرجل على قدم المساواة لا يمكن ان يتم الا عن طريق التحرر الوطني.

وعندما نطلب من المجتمع العربي أن يقتنع بالتخلي عـن التقاليـد البالية بالنسبة للمـرأة، يجـب أن تكـون القـيم الوطنيـة والاخلاقيـة اساسا راسخا للقيم الاجتماعية الجديدة... وألا تصبح ردود الفعـل اغراقا في التعصب والمحافظة.

لجنة حكومية لا برلمانية للتحقيق بفضائح الاعاشة:

بعد ان انتهت حادثة نقطـة الحليـب وذيولهـا، وضـع القـوتلي والخوري والجـابري كـل ثقلهـم لتفشـيل اقتراحـي بتشـكيل لجنـة برلمانيـة للتحقيـق بفضـائح الاعاشــة، وعبـأوا المجلـس النيـابي لرفضه، وحاولوا ان يأخذوا زمام المبادرة في الهجوم، فأرسـل رئيس الحكومة الى البرلمان كتابا جاء فيه: "نحيط مقام المجلـس الكـريم علما أن الحكومة قد عينت لجنة مؤلفة من ممثـل لـوزارة الداخليـة وممثل لوزارة العدلية وممثل لوزارة المالية، للتحقيق مع مفتشـي الاعاشة الاربعة الذين كان انسحابهم موضـع بحـث فـي المجلـس النيابي وقد زودت الحكومة هذه اللجنة بكامل الصلاحيات"...

وقد منحت حق الكـلام، باعتبـاري صـاحب الاقتـراح، **فقلـت مدافعا عن حق مجلس النواب بتأليف لجان التحقيق، وعـن دستورية هذا الاقتراح، الأمر الذي يؤكـد سـلطة المجلـس، ويرسخ الحياة البرلمانية الدستورية الديمقراطية:**

"هل يأتلف تشكيل هذه اللجنة مع روح الدستور ونصه؟

كنـت منتظـرا أن تسـهب لجنـة الدسـتور بقرارهـا مـن غيـر أن يفوته التدليل والتعليل. لأننا ونحن في بدء حياتنـا الدسـتورية بحاجـة لبحـث مثـل هـذه المواضـيع والاهتمـام بهـا، ولكنـه مـع الأسـف ورد مقتضبا. وبرغم اقتضابه اتـى مخالفـا للنظريـات الحقوقيـة ولصـراحة الدستور فحجـب عـن المجلـس حـق التحقيـق بـداعي ان مـنح هـذا الحق للمجلس يخل بمبـدأ فصـل السـلطات، كمـا يفهـم مـن الفقـرة الاتية: (ان القواعد الحقوقية العامة في المراقبة، المتفق عليها بـين علماء الحقوق الاساسية، تقضي بأن تكون كل من سـلطة التشـريع والتنفيذ مستقلة).

فالـذي يظهـر مـن هـذه الفقـرة ان اللجنـة لـم تنتبـه الـى ان المراقبة وان كانت من حيث الاساس، مخلة بمبـدأ فصـل السـلطات، فـأن النظـام البرلمـاني لا يقضـي باسـتقلال السـلطات وانفصـالها انفصـالا مطلقـا، اذ لـو كـان الامـر كـذلك لمـا تمكـن هـذا النظـام مـن الانتصـار علـى جميـع الـنظم الاخـرى، ولجعلـه هـذا الانفصـال والاسـتقلال المطلـق جامـدا متحجـرا، وبالتـالي معرضـا للانفصـام والزوال في كل آن ومع ذلك فهل لنا بانسان يضرب لنا ولو مثلا واحدا لحكم دستوري قائم في العالم علـى مبـدأ فصـل السـلطات بصـورة مطلقة؟

ان النظام الامريكي الذي يعد نموذجا في هذا الصدد لـم يـدم لـو لـم تتنازل السلطات في سبيل وحدة الدولـة، حتـى ان بعـض المـؤلفين ينكرون وجود هذا المبدأ عمليا ولا يعتقدون الا بوجـود سـلطة واحـدة هي البرلمان.

والا فكيف يمكننا ان نفسر تأليف المحكمة العليا؟ وكيـف نجيـز مبدأ المسؤولية وحل المجلس؟ اليس في ذلـك تطـاول مـن سـلطة على حقوق واستقلال السلطات الاخرى؟

نحـن لا ننكـر ان الـنظم البرلمانيـة تقـوم علـى أسـاس تـوازن القوى وتميز وظائفها. ولكـن مـن الخطـأ الأخـذ بهـذه النظريـات علـى علاتها، لأنها تصبح عندئذ خرافة اذا قورنت بالوقائع.

كـان مـن الجـائز القيـاس والاجتهـاد علـى ضـوء هـذه النظريـات لـولا صراحة النص الـوارد فـي المـادة (57) مـن الدسـتور السـوري التـي تبحث حق المجلس في التحقيق وتؤيده. فهل يجوز لنـا اهمـال نـص الدستور الذي حلفنا عليه والأخذ بالنظريات، مع أنه لامسوغ للاجتهاد في مورد النص؟ .. وليس دستورنا بدعا بين دساتير الأمـم، فقـد ورد مثل هذا النص في المادة (108) مـن الدسـتور المصـري، وحتـى ان قانون عام 1919 في فرنسا اتاح للبرلمان الفرنسـي ان يمـنح لجـان التحقيق البرلمانية حقوق القضاء في سماع الشهود وتحليف اليمين حسب احكام قانون الجزاء.

فمهما تكـررت الاجتهـادات التـي تؤلـف مـع التعامـل بهـا عـادة التقاليـد البرلمانيـة، فانهـا لا تسـتطيع، قبـل تعـديل الدسـتور والغـاء

المادة (57) منه، ان تسلب هذا المجلس حق التحقيق، أما أن هذه المادة قد وفقته مع النظام الداخلي الذي أغفل أصوله فهذا أمر أخر لا يدعو لالغاء النص بل يوجب اتمام النقص في نظامنا الداخلي وقد سبق لمجلسكم ان منح لجنة الطعون حق التحقيق في انتخابات القلمون. فلم يجوز للمجلس هذا الحق في موضع ولا يجوز له في موضع آخر؟

ان للمجلس، في الأصل، حق الاشراف والرقابة، والتحقيق الذي هو من أهم عناصر الرقابة عمل اطلاع لا عمل اجراء، وبتعبير أوضح هو عمل جمع المعلومات، وقد فتح الدستور للمجلس باب الرقابة في موضعين آخرين غير التحقيق، وهما السؤال والاستجواب. وفرق وسائل الرقابة عن بعضها تفريقا واضحا، وذلك خلافا لما جاء في قرار اللجنة "من أن مسؤولية الوزارة محدودة في طريق السؤال. فاذا لم يكف يمكن ان يحول الى استجواب. وان لم يقنع المستجوب يمكن ان يصار طلب عدم الثقة بالوزير المسؤول، ان هذه الاعراف المستندة الى نص الدستور والنظام الداخلي قد أشارت الى صلاحية المجلس واختصاصه". والذي يظهر من هذا القول ان اللجنة لم تفرق بين الرقابة وبين ما يؤيد الرقابة، وهي مسؤولية الوزارة، فعوضا عن أن لا تعد المسؤولية عنصرا من عناصر الرقابة فقد اغفلت التحقيق وهو من أهم عناصرها المنصوص عنه. كما أنه أخطأت في تقرير هذا الارتباط والتسلسل بين السؤال والاستجواب وطلب عدم الثقة، فاذا جاز في فرنسا ان ينتهي الاستجواب في اغلب الأحيان، بناء على طلب المستجوب، إلى طلب عدم الثقة. فليس الأمر كذلك في نظامنا، كما يظهر ذلك من نص المادة 52 والمادة 93 من الدستور، والمواد 113، 116، 122 من النظام الداخلي اذ ليس هذا التحول من السؤال الى الاستجواب الى طلب عدم الثقة منوط برغبة السائل او المستجوب بل هو منوط بتأييد سبعة نواب على الأقل في الاستجواب وتوقيع عشرة نواب في طلب عدم الثقة مع حضور ثلثي اعضاء المجلس...

والغريب بعد ان يحدد قرار اللجنة اختصاص المجلس في هذه الأمور استنادا الى مبدأ فصل السلطات يعود بالنتيجة ناقضا لما

قرره، فيجعل للمجلس حق التحقيق، على ان يسبقه استجواب، مع انه لا نص يوجب هذا الارتباط ولا مسوغ له، كما جرى في قضية الطعون.

فيستخلص من ذلك ان تشكيل لجان التحقيق يأتلف مع روح الدستور ونصه.

ولكن لنا ان نتساءل: هل تقضي المصلحة العامة بهذا التحقيق؟

لا يخفى عليكم أيها الزملاء ما لاكته الالسنة من شتى الشائعات والاتهامات لمصلحة الاعاشة، فكنا نقابلها بالحذر الشديد، وكثيرا ما عزوناها للفوضى والأخطاء أو لسوء الظن الذي أصبح سجية من سجايا شعبنا لطول ما مرت عليه من النكبات، ولكن فجأة، وفي مثل هذه الحال، امتنع مفتشوا الاعاشة عن ممارسة وظائفهم، وهم من الموثوقين والمشهود لهم بالخلق والنزاهة ومما أعطى المصداقية لهذه الشائعات انهم امتنعوا عن التصريح بداعي الحرص على المصلحة وواجب الوظيفة فأصبحت هذه الشائعات حقائق عند كثير من الناس.

فهل من المصلحة في مثل هذه الحال ان ندع الرأي العام وشأنه أم الواجب يقضي بجلاء الحقائق وكشف الظنون؟ وهل من سبيل آخر لمعرفة الحقيقة واقناع الناس بها الا بتحقيق لجنة برلمانية عن هذه الشائعات، فاما ان تظهر صحيحة فيصلح الخطأ ويعاقب المسيء فتسير المصلحة سيرها الطبيعي، واما أن تظهر غير حقيقية فتنقطع ألسنة السوء... وبالتالي هل يدل التحقيق البرلماني الا على يقظة المجلس وسماحة الحكومة؟ أما التجاهل والإغضاء فلا يؤدي الا لاستفحال الداء.. وبعد أن بينت ان للمجلس حق تأليف اللجان البرلمانية التحقيقية أقول ان الكتاب الذي قدمته رئاسة الحكومة الى المجلس بتأليف لجنة للتحقيق مع هؤلاء المفتشين في الاعاشة هو ما يكفي حاليا، على أن يقرر المجلس مبدئيا حقه في التحقيق، واننا ننتظر الى الدورة القادمة لنعلم ما هي النتائج التي وصلت اليها الحكومة في تحقيقاتها، وعندها يقرر

المجلس تأليف لجنة التحقيق البرلمانية اذا لم ير نتائج تحقيق الحكومة كافية في هذا الموضوع.

استجر هذا الموضوع المجلس النيابي الى بحث في الفقه الدستوري استغرق عدة جلسات وملأ صفحات عديدة من سجل ضبوط المجلس، وكانت المعارضة التي وقفت في جانبي - على قلة عددها - المعارضة المتعلمة. فتحدث في هذه المسألة الفقهية الدكتور ناظم القدسي والدكتور عدنان الاتاسي ويوسف اليان وهاني السباعي ورئيف الملقي وحلمي الاتاسي، كما عارض النواب الموالون للحكومة: سعيد الغزي وعفيف الصلح وفخري البارودي وبدوي الجبل ونجيب الريس، وقد اشترك في هذه المناقشة معظم النواب القادرين على الكلام.

وكان الرأي العام خارج المجلس يتابع هذه المناقشات الفقهية باهتمام ويؤيد المعارضة بحماسة شديدة. وانتهى الموضوع بالشكل الذي ارتآه رئيس المجلس فارس الخوري باقرار:

اولا: حق المجلس بتأليف لجان التحقيق البرلمانية.

ثانيا: تشكيل لجنة لاضافة مادة جديدة على النظام الداخلي تتعلق بتحديد اختصاصات هذه اللجان.

ثالثا: تشكل الحكومة لجنة للتحقيق بقضايا الاعاشة.

رابعا: يرى المجلس رأيه بهذا الموضوع بعد اطلاعه على نتائج لجنة التحقيق الحكومية.

كنت في الحقيقة مرتاحا لهذه النتائج. لأن اقتراحي سيكون مصيره الرفض من قبل الاكثرية المجلسية فيما اذا عرض على التصويت، بالوقت الذي كنت فيه مقتنعا بأن اي لجنة تحقيق، ولو شكلتها الحكومة، سوف تخرج بنتائج مذهلة تزودنا بالمعلومات والوقائع الصحيحة عن الرشاوى والاختلاسات والمفاسد. فتدين الحكومة نفسها بنفسها أمام المجلس والرأي العام... وقد حدث هذا فعلا كما سيرد بالتفصيل.

قانون جديد للمعارف

بادرت حكومة الجابري، بعد استلام الصلاحيات، الى التعاقد مع الأستاذ ساطع الحصري كخبير فني لوزارة المعارف. وقد كان للاستاذ الحصري سمعة وطنية عاطرة، كما كانت له كخبير في شؤون التربية والتعليم - شهرة واسعة. وهو الذي رفع من مستوى التربية والتعليم في سوريا والعراق ابان الحكم الفيصلي عندما تولى آنذاك شؤون التربية والتعليم في سوريا ثم في العراق حيث تعاقد مع فريق كبير من المعلمين السوريين واللبنانيين للتعليم فيه.

وضع الحصري [4] مشروعا لقانون المعارف العام، ضم شتات احكام القوانين والقرارات المتعلقة بالمعارف، ووضع اسسا جديدة للتربية والتعليم تخالف نظام البكالوريا والأسس والمبادىء التي كان الانتداب يطبقها في سوريا ولبنان وكما اثار هذا القانون موجة من الارتياح والتأييد فانه اثار بذات الوقت موجة من المعارضة، ولا سيما من الأساتذة وخريجي الجامعات الفرنسية، بحجة أنه سيخفض المستوى الثقافي الذي حققته البلاد، بتعديله نظام البكالوريا السورية والغائه تدريس اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية.

ولم يكن النقاش حول برنامج الحصري يدور في نطاقه الفني، بل أثيرت فيه المشاعر الوطنية المتطلعة للخلاص من كل آثار الانتداب الفرنسي، كما لم تكن الحكومة والبرلمان بمستوى هذه المناقشة والحوار، ولذلك اقر مشروع ساطع الحصري في المجلس النيابي دون تعديل او تبديل، ولأن الاستاذ الحصري كان

(4) ساطع الحصري: عالم بالتربية والاجتماع والتاريخ، ومن أوائل الداعين للوحدة العربية ومن المنظرين للقومية العربية، من أصل سوري من مدينة حلب، ولد باليمن حيث كان والده قاضيا، درس بسورية وتركيا وفرنسا، تقلد وظائف تربوية وادارية في تركيا، انضم الى الحركة العربية التي استهدفت استقلال العرب ووحدتهم، التحق بحكومة الملك فيصل بسورية ثم رحل معه الى العراق، وهناك تولى شؤون التربية والتعليم ثم غادر العراق بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني، عمل بعد ذلك مستشارا لوزارة المعارف في الجمهورية السورية (1944)، انتدب استاذا للتربية بمعهد التربية في القاهرة ومستشارا في الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وضع اسس معهد الدراسات العليا وأنشأ به مكتبة جامعة في شتى حقول الدراسات والبحوث العربية، له مؤلفات وبحوث كثيرة اهمها دراسات في مقدمة ابن خلدون، يوم ميسلون، دفاع عن العروبة، اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية، القومية العربية، حوليات في التربية والثقافة.

صلبا عنيدا لا يتراجع عن رأيه. وكان ينعت معارضي برنامجه بالعمالة للانتداب الفرنسي.

وسأعرض فيما يلي بعض ملاحظاتي على مشروع الحصري كمنوذج للمناقشات التي جرت آنذاك:

ان هذا المشروع حقق وحدة التعليم في بلادنا في مواضع عديدة: فمن وحدة الشهادة لجميع المدارس الرسمية والخاصة من اهلية واجنبية، الى فحص عام تعطى بنتيجته الشهادات، كما انه سيفرض على المدارس الأجنبية تدريس التاريخ العربي والآداب العربية وجغرافية البلاد العربية، وانا بدوري أتساءل: **هل ان وحدة الشهادة وتدريس دروس واحدة ومواد واحدة كاف لتوحيد** (5) **التعليم في كل البلاد؟ لماذا لا يقال ان على جميع المدارس الخاصة من اهلية وأجنبية تدريس برامج المعارف المقررة؟ ربما تقولون ان وحدة الشهادة تحقق هذه الغاية انا لا انكر ذلك ولكنني أدعو الى تطبيق منهاج المعارف تطبيقا كاملا. وأي ضير علينا فيما لو أجبرنا المدارس جميعا بتطبيق مناهج التعليم الرسمي وبذلك نضع حدا مانعا لتلك الاتجاهات والسموم التي كانت تنفثها بعض الارساليات في هذه البلاد. فاذا كانت الغاية التي تدفع بالقائمين على هذه الارساليات ثقافية انسانية تعليمية فالأحرى بها والأجدر أن تطبق برنامج البلاد التعليمي ... ثم تساءلت:**

هل ان توحيد التعليم حسب الشكل الذي ورد فيه يوجد وحدة من الثقافة نحن بحاجة اليها؟ مما لا ينكر أن وحدة التعليم في البلاد هي الخطوة الاولى لوحدة الثقافة التي تنشدها الأمة، على أن هذه الخطوة لا تكون محققة للأهداف الا في تدارك أمور أخرى أولها استخدام التاريخ، ان بعض الأمم تحقيقا لتوجهاتها القومية تجيز لنفسها أن تحرف الروايات التاريخية أما نحن فلسنا بحاجة لتحريف تاريخنا لأن طياته وصفحاته مليئة بالامجاد، ولكن النزعات العديدة التي تسلطت على ماضي الأمة العربية ألبسته في كثرة من المواضع أشياء أجنبية بعيدة عن الفكر العربي والروح العربية، فنحن عند تقرير التاريخ يجب أن نستند الى أصح الروايات التاريخية

(5) كانت وحدة التعليم في سورية من اكبر اهتماماتي على اعتبار أنها الوسيلة الناجعة لتحقيق الانسجام بين افراد الشعب والقضاء على الاختلافات الطائفية بصورة خاصة.

والمصادر العربية، كما أن تدريس الاداب العربية يتجه اتجاها غير صحيح في الوقت الحاضر، فالأدب على ما أرى يدرس للأدب والفن للفن وفي الحقيقة نحن بحاجة لأن ننهج منهجا جديدا في آدابنا العربية، اذ يجب علينا أن نعتني عناية فائقة بالادباء والشعراء والكتاب العرب الذي تجلت في آثارهم النزعة العربية والشعور العربي وهذا ما يجب أن ننظر فيه في الكتب التي ستدرس في المدارس.

والذي لاحظته لدى دراستي لهذا المشروع أنه قد أهمل تدريس علم الاجتماع، ونحن في بدء نهضتنا القومية والعلمية في حاجة ماسة لدراسة هذا العلم دراسة صحيحة، لأنه لا وعي قومي ولا فهم قومي الا في تدريس هذا العلم، حتى انه في معاهدنا العلمية ومعهد الحقوق قد أهمل هذا العلم اهمالا تاما، فتعدد الاتجاهات المتناقضة في المفاهيم القومية مدعاة للتشويش".

®

تقييم ... ونهج: وجود المنظمات الحزبية الذي تتيحه الحرية الفكرية هو المرحلة الراقية من حياة الامة.

عند انتهاء الدورة البرلمانية في اواخر مايس 1944 سألتني مجلة "الاحد" الدمشقية: "ما هي ملاحظاتكم على سياسة الحكومة، وما هو التوجيه الصالح الذي يجب ان يتكتل النواب حوله في سبيل تعزيز دور البرلمان ليقوم بمهمته على الوجه الاكمل؟" .. فقلت: "ان ممارسة صلاحيات السيادة واستلام الجيش استلاما فعليا، وتنظيف الجهاز الحكومي من عقابيل الانتداب بالجرأة، والاقدام في تمرين النشء الجديد واستخدامه في شؤون الدولة، من الأمور التي يجب أن يحققها هذا العهد...

ان الحكم في الأساس وسيلة لا غاية، لتحقيق الأهداف القومية الموضحة في شتى المناحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولم تقم حتى الآن في بلادنا حكومة لها مثل هذه الاهداف الواضحة، وذلك ناشىء من فقدان المنظمات التي تشعر بحاجة الأمة الصحيحة وتجعل منها مثلا تسعى لتحقيقها، ولا تدعى منظمات تلك الجماعات التي تحترف السياسة ولا تؤلفها أو تفرقها الا الأغراض

الزائلة، واننا لا نقضي على فوضى الحكم ولا نصل في المستقبل الى هذه المرحلة الراقية الا بفسح المجال للحرية الفكرية بجميع انواعها، وهذا بنظري أعظم وأجل ما يجب أن تحققه الحياة الدستورية".

®

حول استلام الصلاحيات: كنت دائما مع اعادة الصلاحيات بدون أي شروط تعاقدية

أحالت حكومة الجابري الى المجلس النيابي المراسيم التشريعية المتعلقة باستلام بعض الصلاحيات المنصوص عنها في التصريح المشترك الصادر في 1943./12/24

1- مرسوم رقم (5) وموضوعه تأليف مجلس التموين.

2- مرسوم رقم (6) وموضوعه تأليف اللجنة الدائمة للتبغ والتنباك.

3- مرسوم رقم (8) وموضوعه وضع قانون لادارة دوائر المصالح المشتركة.

4- مرسوم رقم (10) وموضوعه تعديل المرسوم التشريعي رقم (8) المتعلق بادارة المصالح المشتركة.

5- مرسوم رقم (17) وموضوعه نظام مكتب القطع.

6- اتفاقية المصالح المشتركة.

وقد قررت لجنة الخارجية البرلمانية أن قضية الصلاحيات المرتبطة بسيادة الدولة تشكل وحدة كاملة لا تتجزأ ولذلك أرجأت النظر والبت في المشاريع المحالة اليها الى ما بعد استلام الصلاحيات الأخرى.

وقد علقت على قرار لجنة الخارجية قائلا:

"بالحقيقة ان جميع المراسيم التي عرضت على المجلس قائمة اولا على الاتفاق في 22 كانون الاول 1943 ، وهذا الاتفاق عبارة عن تصريح من الجانب الفرنسي بحقنا بممارسة بعض حقوق السيادة، **وهذا التصريح لا يحتاج الى اتفاق تعاقدي لأنه يتناول حقا أعيد الينا الان، وهذه المراسيم قائمة على ملاحق** - بروتوكولات - وهذه البروتوكولات تبين اسلوب وكيفية

تسلم هذه الصلاحيات. وهي مبنية على كتاب موجه من رئيس الحكومة السورية الى الجنرال كاترو، وتضمن وعدا بالاحتفاظ بجميع الموظفين لجميع الدوائر المستلمة".

فقاطعني رئيس المجلس فارس الخوري بحدة:

"هذه الأمور ليست موضوع بحث الان. والمطروح في البحث هو اما ان يقبل المجلس بالتأجيل أو يرفضه. وليس هناك لا بروتوكولات ولا غيرها لذلك أرجو أن لا تتعرض لأمثال هذه المواضيع غير الموجودة امامنا".

فأجبته: "ان قرار لجنة الخارجية لا غبار عليه. فالسيادة يجب أن لا تتجزأ، كما يجب أن نطلع على الاتفاقيات الاخرى لأنها تتعلق بمواضيع خطيرة جدا"..

وهكذا كان ينكشف الخوف والحذر اللذان كانا مسيطرين على جماعة النظام من تنوير الرأي العام بحقيقة المفاوضات مع الفرنسيين ... وكانت النتيجة - حسب العادة - ان قررت الأكثرية دون نقاش أو بحث أو توضيح اقرار رأي اللجنة الخارجية بتأجيل التصديق على تلك المراسيم.

أيام راحة في مصياف:

كنت متعبا جدا عند انتهاء دورة المجلس في أواخر مايس، فرجعت الى حماة معتزما الانتقال منها الى مصياف لقضاء العطلة الصيفية بالراحة والاستجمام.

كان الرأي العام في حماة راضيا جدا عن نشاطنا ومواقفنا في المجلس النيابي، بل انه لم يكن يتصور ان تكون لنا القدرة على مواجهة القوى التي يملكها نظام القوتلي سواء داخل المجلس او خارجه، وبدأت هذه الثقة تتسرب حتى الى نفوس الذين يستند اليهم الاقطاع في محاربته للحركة الشعبية. وكان الشعب يجري مقارنة بين مواقفنا وموقف نجيب البرازي الذي انحصرت مطالبه، طيلة الدورة البرلمانية، بموضوع (السفاد) لاقناع الدولة بشراء بعض الخيول الأصيلة التي يملكها لتحسين نسل

خيولها، ومطالبته أيضا بالغاء خبز الفقير. أما غالب العظم وفريد المرهج فلم يكن لهما وجود فعلي في المجلس النيابي تقريبا.

كانت المدينة هادئة بعد أن أضطرت حكومة الجابري لتسريح المحافظ سامي البكري واسناد وظيفته بالوكالة الى حسني الرفاعي قائد الدرك، وبالرغم من هدوء المدينة فان وجودي فيها سيضطرني لاستقبال الناس ليلا نهارا والتحدث معهم، مما لا تسمح به حالتي الصحية.

كان زادي اثناء اقامتي بمصياف كتيب اصدره زكي الارسوزي بعنوان "عبقرية الأمة العربية في لسانها" ... وبرغم بعض اللمحات المتناثرة في ثنايا الكتاب دون أي ارتباط فانني عجزت فعلا عن فهم الكتاب برغم الاناة والصبر الطويل، فقد كان الكتاب شتاتا من أفكار في فقه اللغة ولمحات فلسفية افلاطونية.

كان الارسوزي فاقدا لكل منهجية علمية في هذه الدراسة، فلم يصل الى النتائج التي كان يرجوها، لأنني لم أعثر على أحد من طلابه أو من غيرهم من ادعى انه فهم هذا الكتيب الصغير.

ولكنني استفدت من التراث بقراءة كتاب أخر هو كتاب رسائل اخوان الصفا الذي يعتبر بحق من أهم ما خلفه الفكر العربي من تراث.

كانت "مصياف" المدينة الصغيرة الجميلة الواقعة على كتف جبال اللاذقية، والتي تطل قلعتها القديمة على سهول حماة الغربية، مصيفا طبيعيا لمدينة حماة منذ القديم، ولهذا سميت بهذا الاسم ... كنت أقضي ساعات في مقهى نبع "الوراقة" الجميل، حيث كان يهرع الى بعض الشباب من الطلاب وحملة البكالوريا الذين كنت اتحدث معهم ومع أبائهم الذين لم ينقطعوا عن زيارتي في البيت باستمرار.

استلام المصالح من الادارة الفرنسية:

في 7 حزيران 1944 صدر بيان مشترك عن تسليم ادارات المصالح المشتركة الى الحكومتين السورية واللبنانية. ولا بأس

من ان نثبت هنا هذا البيان لأنه يعطي صورة حقيقية عـن سـيطرة الانتداب الفرنسـي وهيمنته على جميع شؤون الـبلاد الـذي جعـل من الانتداب استعمارا مباشـرا:

اسم المصلحة	تاريخ توقيع اتفاقها
1- اتفاق نقل الصلاحيات كلها	1943/12/22
2- اتفاق تسليم ادارة الجمارك	1944/1/3
3- اتفاق تسليم مراقبة حصر الدخان	1944/1/3
4- اتفاق تسليم مصلحة السيارات	1944/1/5
5- اتفاق تسليم مراقبة الشركات ذوات الامتياز (تراموای وكهرباء دمشق - كهرباء حمص وحماة - كهرباء حلب)	1944/1/5
6- الاتفاق المالي	1944/1/25
7- اتفـاق تسـليم مصـلحة المعـادن والمطـاط - مصـلحة مراقبـة السيارات - مصلحة الارصاد الجوية -	1944/2/4
8- اتفاق تسليم دائرة الشؤون الاقتصادية للمصالح المشتركة	1944./2/4
9- اتفاق تسليم دائـرة الشـؤون الاقتصـادية للمصـالح المشـتركة شعبة الخزينة (مصلحة البارود والمفرقعات)	1944/2/4
10- اتفاق تسليم مصلحة الدفاع السلبي	1944/2/5
11- اتفاق تسليم ادارة الصيدلة	1944/3/14
12- اتفاق تسليم مصلحة العشائر	1944/4/6
13- اتفاق تنظيم اموال مكتب القطع	1944/4/15
14- اتفاق تنظيم رقابة القطع	1944/4/19
15- اتفاق تسليم دائرة القطع	1944/4/19

16- اتفاق تسليم دائرة الاثار 1944/6/3

17- اتفاق تسليم الرقابة الصحية والبيطرية 1944/6/3

18- اتفاق تسليم ادارة حماية الملكية التجارية والصناعية والفنية والادبية
1944/6/3

19- اتفاق تسليم المراقبة العامة للبرق والبريد 1944/6/3

20- اتفاق تسليم دوائر الحجر الصحي 1944/6/3

21- اتفاق تسليم رقابة السكك الحديدية والموانىء 1944/6/5

استلام شكلي

استلمت الحكومة السورية هذه المصالح مع التعهد ببقاء موظفيها على رأس أعمالهم، أي بتعبير أوضح أن يبقى جهاز الانتداب مهيمنا عليها، مع بقاء جميع الامتيازات الفرنسية في تلك المصالح ... فكان الاستلام شكليا، وامتنع الفرنسيون عن تسليم الجيش الذي يجعل استقلال البلاد حقيقيا.

وفي هذه الفترة اعترف اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية باستقلال سورية وتبادل التمثيل الدبلوماسي معها، وكان أول سفير لها هو السيد نوفيكوف، كما اعترفت الولايات المتحدة باستقلال سورية أيضا وتبادلت معها التمثيل الدبلوماسي.

مؤتمر المحامين العرب:

لأول مرة تقام في سوريا أمثال هذه المؤتمرات القومية، لأنها كانت محظورة في ظل الانتداب الفرنسي، فقررت حضور هذا المؤتمر.

عقد مؤتمر المحامين العرب في دمشق، في شهر آب 1944، وكانت عناية القوتلي به عناية خاصة. وكان محقا في اهتمامه هذا الذي جعل دمشق في عرس عربي من الفرح.

ومن أهم ما جرى في ذلك المؤتمر أمران:

الأول: المبـارزة الفكريـة حـول الوحـدة العربيـة، فقـد أثـار يوسـف السودا، بشكل مفاجىء، موضوع الوحدة العربية وحاول أن يـدحض وجود القومية العربية ويؤكد استحالة تحقيقها، فقوبـل خطابـه فـي البدايـة بالتصـفيق لمـا عـرف عـن قدرتـه الخطابيـة، ثـم انتهـى الحاضرون الى حالة من الحزن والوجوم، وقد تـولى الاسـتاذ عـارف النكدي الرد على الاستاذ السودا، وكان موفقـا الـى ابعـد الحـدود، وهو اللبناني المطلع على دقائق تاريخ لبنان، وقد ركز جوابه علـى اثبات عروبة لبنان مستندا الى الوقائع التاريخية وعلى ذكـر حـروب القيسية واليمنية التـي انقسـم بهـا لبنـان وخـرج بهـا عـن طابعـه الطائفي.

والثاني: حضور رياض الصلح حفلة افتتاح المـؤتمر، فقـد ألقـى فـي حفلـة التكـريم التـي أقامتهـا مدينـة دمشـق خطابـا كشـف عـن هواجسه اذ قال: "انني في موقف حرج بـين اخـواني فـي الجهـاد الـذين يعتقـدون انـي اصـبحت اقليميـا، **انـي افضـل اتفـاق المسلم والمسيحي فـي لبنـان علـى أمبراطوريـة واسـعة ليسـت مسـتقلة كـل الاسـتقلال**" وذلـك بعـد ان قـال: "انـي عملت مع اخواني على أن يكون لبنان سيدا مستقلا عزيزا، ورفعنا علما جديدا ترونه خفاقا، علما وطنيا شريفا" .. ويفهم مـن هـذا ان رياض الصلح اراد ان يبرر اختيار شكل العلم اللبناني الجديد.

في ذكرى الدكتور صالح قنباز وتوفيق الشيشكلي توقعت أحداث عام 1945:

في ليلـة الثالـث مـن تشـرين الأول 1944 اقمنـا فـي جـامع السلطان بحماة احتفالا شعبيا بمناسبة ذكـرى المرحـومين صـالح قنباز وتوفيق الشيشكلي، حضرته جماهير غفيرة مـن المـواطنين، فتكلم من رفاقنا الدكتور نجيب عبد الـرزاق وعبـد الـرحمن الشـارع ومحمد الحجي وعلي عدي وعبد الرحمن خليـل كمـا ألقـى اديـب نصور كلمة: ثم القيت كلمة مكتوبة ورد فيها:

"من دلائل ضعف الامة أن يطالب العامل في الحقـل الـوطني بأجر عمله. كما أنه من دلائل الانحطاط الا تقـدر الأمـة المجاهـد حـق

قـدره والا تعتـرف بجهـوده وجهـاده، فمـن الـوعي اذن ان نميـز بـين المسيء والمحسن من رجالنا.

في شهر تشرين من كل عام تخطر في البال ذكريات شـتى: بعضها يسـتثير الالـم وبعضـها يسـتثير العـزة والنخـوة والامـل، وكلهـا تملي علينا أعظم العبر والعظـات، فاسـمحوا لـي اذن ان أبحـث مـن ذكريـات تشـرين ذكـرى الثـورة بصـورة عامـة، امـا ذكـرى الشـهداء ومزاياهم واثرهم العظيم فقد تكلم بها غيري فأحسن الكلام.

اسـمحوا لـي أن اقـارن بـين ثـورة عـام 1925 وبـين الثـورة المستقبلة اذا دعت اليها الضرورة الوطنية، فمن هـذه المقارنـة بـين ثورة ولدت وثورة ستولد نتبين درجـة الـوعي واليقظـة التـي بلغناهـا ونعلم مدى تقدمنا وارتقائنا.

كان السبب المباشر لاشتعال ثورة عام 1925 في جبل الدروز ان الكابتن كاربيه حاكم الجبل قد ارتكب اعمالا تسـيء الـى الشـرف والمروءة، أمـا الثـورة المسـتقبلية فسـيكون باعثهـا اي اعتـداء علـى استقلال الوطن وسلامة أرضه.

لقد انضم الى ثورة عام 1925 رجـال يحملـون عقائـد صـحيحة وايمان راسخ. أما الثورة المسـتقبلة فسينضـوي تحـت لوائهـا جميـع القادرين على حمل السلاح.

واذا ظهر في ثورة 1925 بعض الخونة والاشقياء والفوضويين، فسـوف لا يظهـر فـي صـفوف الثـورة الجديـدة الا الابـرار والانقيـاء الصالحون، سوف لا يكون هناك فوضى، بل طاعة ونظام.

واذا لم تثـر الحكومـة التـي أقامهـا الأجنبـي عـام 1925 ففـي ثورتنا الجديدة تشترك الأمة والحكومة في الوقوف بوجه المعتدين.

واذا كان الاجنبي قد سلط في عام 1925 علـى الثـورة بعـض الطائفيين والقبليين مغررا بهم، فانهم في ثورتنا الجديـدة سـيقاتلون معنا، يدا بيد، وقلبا مع قلب، لأنهم تعلموا واستيقظوا وشعروا شعورا كاملا بقوميتهم.

واذا خانت الاقطاعية الثورة عام 1925، فسوف لا يبقى اثر من آثار الاقطاعية في ثورتنا الجديدة، لاننا نكون قد اقمنا في بلادنا نظاما اقتصاديا واجتماعيا قوميا خالصا منسجما قويا وبالنتيجة اذا فشلت ثورة عام 1925 فسوف يكون الظفر حليفنا في ثورتنا الجديدة المستقبلة.

ربما جرحتكم هذه الحقيقة، ولكن هل ولدت حقيقة في هذا الوجود ما لم تصحبها الآلام والدموع؟.. هبوا أن الأجنبي اعتدى على استقلالنا في المستقبل، فماذا يجب أن يكون موقفنا؟ أيليق بنا أن نكون غير ثائرين محاربين لنرد الكيد والاعتداء؟... وهذا الاعتداء أمر جائز غير مستحيل في كل وقت، رغم اعتراف الدول العظمى باستقلالنا، واكبر دليل على جوازه ان هذه الدول اعترفت باستقلالنا ونحن لم نستقل بعد. أليس الجيش السوري لم يزل بيد الاجنبي يتصرف به كما يشاء ويريد؟!

ليس المهم ان تقرروا معي جواز الاعتداء، لأنه امر جائز على جميع الأمم المستقلة حقا، ودائما المهم ان تسألوني ماذا صنعنا وعملنا لنقيم ثورتنا الجديدة على أسس ظافرة لا فاشلة؟! هل نشرنا العلم في الانحاء القاصية والدانية لنرفع عن أعين الناس غشاوة الجهل؟ هل ذهب الى جبل الدروز والعلويين والجزيرة المبشرون الشباب بالعقيدة الوطنية؟ هل امنا عدم استخدام أبناء وطننا من قبل الاجنبي لطعن البلاد من غير أن يشعروا**؟ هل أقمنا في بلادنا نظاما اقتصاديا واجتماعيا راقيا منسجما حتى لا تقضي على ثورتنا الرجعية في هذه البلاد؟**

اذا اجبتم بأننا لم نعمل لذلك، فأقول لكم اذن أيها الاخوان: اننا نحتاج الى فهم جديد وعقل جديد وقلب جديد حتى نضمن الظفر في الثورة الجديدة".

ثم تبعني رئيف الملقي، وانهى خطابه باستفتاء الجماهير عن تكليف وكيل المحافظ برفع مطالبتها الى الحكومة باستلام الجيش. فوافق المحتفلون بحماس منقطع النظير.

اصغت الجماهير لخطابي باهتمام واستغراب، لأنها لم تكن منتظرة ان نعلن بدء الاستعداد للثورة المسلحة

على الفرنسيين لانتزاع استقلالنا واستلام الجيش. وكان للخطاب وقع بعيد الأثر، فقد بدأ الناس يعدون أنفسهم لذلك اليوم الذي لا مفر منه.

كنت مقتنعا ان فرنسا لا يمكن ان تسلمنا الجيش وتتنازل عن الانتداب الا بالثورة المسلحة، وانه من واجب القيادة الوطنية ان تنبه الشعب لاعداد نفسه لذلك اليوم، ولتلافي الثغرات في الصف الوطني سلفا جعلت موضوع خطابي المقارنة بين ثورة 1925 وثورتنا في الآتي القريب.

التحاق جبل الدروز بسوريا:

بعد عطلة مجلسية طويلة جدا اصدرت الحكومة مرسوما بفتح دورة استثنائية اعتبارا من 5 تشرين الأول 1944، خلافا للطلب الذي تقدمت به الاكثرية لفتح هذه الدورة قبل ذلك. ولكن الحكومة تأخرت بذلك - خلافا للنص الدستوري - لتخوفها من ملاحقة المجلس لقضيتي استلام الجيش والتحقيق بارتكابات وزارة الاعاشة.

تليت في هذه الجلسة الافتتاحية برقية من محافظ جبل الدروز حسن الأطرش تنص على "أن مجلس محافظة الجبل قرر بالاجماع في جلسته اليوم الالتحاق النهائي بسوريا راجيا ان تنال البلاد أمانيها التامة باستلام الجيش سياج الوطن". فهلل المجلس لقرار مجلس محافظة جبل العرب، وأشاد النائب يوسف هلال الأطرش بمواقف جبل العرب الوطنية في الماضي "تلك المواقف التي برهن فيها على تفانيه في الحرص على مصلحة سوريا خاصة والأمة العربية الموحدة عامة". وذكر كيف أنه كان يشاهد بأم عينه أبناء الجبل المجاهدين يتساقطون في ساحات الجهاد عام 1925. وقال:

"لقد كنا نذهب الى ميادين الشرف بالألوف ونعود منها بالمئات". واستشهد بقول الشاعر: قاصدا فرنسا:

فلا لينت منا قناة صليبة ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

وفـي جلسـة 1944/12/30 وافـق المجلـس النيـابي علـى تقرير اللجنة القضائية القاضـي بالغـاء الاسـتقلال المـالي والاداري لمحافظة جبل الدروز وربطها نهائيا بسوريا. فصدر القانون التالي:

المادة الاولـى: يلغـى الاسـتقلال المـالي والاداري لجبـل الـدروز وتطبق في هذه المحافظة جميـع القـوانين والأنظمـة النافـذة فـي كافة المحافظات السورية اعتبارا من أول كانون الثاني 1945.

المادة الثانية: ريثما يتم ادخال موظفي محافظة جبل الدروز فـي ملاكـات الدولـة تـؤدى رواتـب هـؤلاء المـوظفين علـى أسـاس الاعتمادات الملحوظة في موازنة المحافظة لعام 1944.

وقـد تمنـى النـواب أن تحـذو محافظـة جبـل العلـويين حـذو محافظة جبل العرب بانضمامها نهائيا الى أمها سوريا.

استقالة وزارة الجابري

طلب الاستاذ هاني السباعي من الحكومـة ان ترسـل الـى المجلـس تقريـر لجنـة التحقيـق الحكوميـة بقضـايا الاعاشـة التـي شكلها سعد الله الجابري بديلا عن لجنة التحقيق البرلمانية. فقال رئيس المجلس: "ان رئيس الحكومـة وعـده ان يبعـث بتقريـر لجنـة التحقيق الا انه لم يصل".

وكنا قد علمنـا ان التقريـر قـد كشـف عـن مفاسـد ورشـاوى واختلاسات وسوء استعمال تدين الحكومة التي صح عليهـا المثـل "من فمك ادينـك" ولـذلك عمـدت الحكومـة فـي جلسـة 9 تشـرين الاول الـى احالـة مرسـومين الـى البرلمـان. الاول يقضـي بانتـداب مظهر رسلان نائب حمص ووزير الاعاشة لوظيفة وزير مفـوض فـي مصـر، والثـاني يعهـد فيـه لـرئيس مجلـس الـوزراء باعبـاء وزارتـي الاشغال العامة والاعاشة والتموين".

وفي الجلسة التي أعقبتها بتـاريخ 12 تشـرين الأول 1944، ألقى سعد الله الجابري خطابا طويلا اسـتعرض فيـه أعمـال وزارتـه وشرح ما جرى في الاجتماعات التـي عقـدتها وفـود سـوريا ومصـر والاردن والعراق ولبنان في الاسكندرية لتأسـيس الجامعة العربيـة،

وقدم لمكتب المجلس النص الكامل لمحاضر هذه الاجتماعات والبروتوكول الذي انتهت اليه، وملاحقه وقراراته .. ثم قال في نهاية خطابه:

"اعتبر أن ما قمنا به من الأعمال، من حيث المهمة التي جئنا من اجلها سواء بتسلم الصلاحيات وتحقيق الاستقلال أو العمل للقضية العربية، قد انتهت، والآن اشكر لكم جميل لطفكم في مدة السنة التي اوليتموني فيها ثقتكم، وأعلن من فوق هذا المنبر أنني افاجئكم باستقالتي كما أفاجىء بها أخواني الوزراء والرئيس الاول. واسمحوا لي ان أذهب الان لارفعها الى الرئيس الأول والسلام عليكم".

كان معروفا لدى الجميع أن هذه الاستقالة لم تكن مفاجئة، وأنها جاءت بعد اقالة مظهر رسلان من وزارة الاعاشة وقرار اقصائه الى القاهرة، لا سيما بعد ان انتهت لجنة التحقيق الحكومية من وضع تقريرها الذي يفضح بالوقائع مفاسد وزارة الاعاشة وما ارتكب بها من استغلال وسرقات وسوء استعمال فلم ير الجابري مناصا - بالاتفاق مع رئيس الجمهورية - من تقديم استقالة حكومته للمجلس، خلافا للتقاليد الدستورية.

وبالرغم من استقالة الجابري فان ذلك لم يكن كافيا لتهدئة المجلس وسكوته ورضاه. فقد قام رئيف الملقي بعد أن انتهى الجابري من خطابه، وأسمعه ما يشير الى ان خطابه واستقالته لا يمكن ان يطمرا نتائج لجنة التحقيق، فثار الجابري واستشاط غضبا واخذ الرعاف ينزف من انفه لشدة الألم والانفعال.

الخوري والجابري يتبادلان الادوار

وهكذا اسدل الستار على وزارة الجابري الأولى. ولكن تقرير لجنة التحقيق ظل خطرا ماثلا، مما أوجب على الجابري والقوتلي تدبر العمل لطمسه. وكان الحل الذي اتفق عليه بين أركان جماعة القوتلي أن يكلف فارس الخوري بتشكيل الحكومة، وينتخب سعد الله الجابري رئيسا للمجلس ليتولى بنفسه ادارة

الاكثرية المجلسية الموالية مباشرة بما يضمن التغلب على الازمة التي لا تزال قائمة.

وتشكلت وزارة فارس الخوري، في 14 تشرين الأول 1944، على النحو التالي:

فارس الخوري: للرئاسة والداخلية والمعارف

جميل مردم: للخارجية والدفاع الوطني والاقتصاد الوطني.

خالد العظم: للمالية والاعاشة والتموين

الدكتور عبد الرحمن الكيالي: للعدلية والاشغال العامة.

ويلاحظ من اقتصارها على اربعة اعضاء انها كانت وزارة مؤقتة للانحناء امام العاصفة التي قامت بوجه حكومة الجابري السابقة..

كان النواب وأكثر الناس مطلعين على ما يجري من امور، لأنها غير قابلة للخفاء والتستير. وفي الجلسة الأولى من الدورة العادية الثانية، في 17 تشرين الأول1944، رشح الجابري نفسه لرئاسة المجلس ورشحت المعارضة غير المنظمة رشدي الكيخيا، فنال الجابري 67 صوتا ونال الكيخيا 42 صوتا فكانت هذه النتيجة مفاجئة للمجلس والحكومة والرأي العام. اذ لم يكن مقدرا أن ينال رشدي الكيخيا الا بضعة أصوات، وهذا ما يدل على الأثر البليغ الذي أحدثه موضوع التحقيق بوزارة الاعاشة على عهد القوتلي.

مظهر رسلان يتكلم:

انقطع مظهر رسلان عن جلسات البرلمان، والتزم فندق الشرق وراح يطلق لسانه في كشف مسؤولية الجابري والوزراء الاخرين في المخالفات التي وقعت في وزارة الاعاشة، كما رفض أن يسافر الى مصر ويمارس مهمته الجديدة واعتبرها اقصاء وغدرا به من قبل رفاقه.

ما كنت اريد للجابري، في ذلك الوقت، أن يقع في مثل هذه الورطة. ولكن ما العمل؟! كان لا بد لي من أن أقف هذا الموقف والا كنت متواطئا وخائنا لأمانة النيابة.

أما مظهر باشا فلم تأخذني به شفقة، لا لأنه مسؤول مباشرة عن تلك المفاسد فحسب، بل لأنه اعتدى على الطريق العام في بناء منزله قرب مقهى الروضة... فكنت كلما مررت بحمص وشاهدت ذلك الاعتداء اشعر بأن الباشا كان يصفعني على وجهي.

لكن ماذا تم بشأن تقرير لجنة التحقيق الخطير؟

تقرير لجنة التحقيق الحكومية:

لم يرد رئيس الحكومة فارس الخوري أن يتحمل مسؤولية طمس تقرير لجنة التحقيق الذي يقع في 23 صفحة من القطع الكبير، والمليء بارتكابات وزارة الاعاشة، فأحاله الى المجلس النيابي.

وقبيل انعقاد جلسة 1944/12/20 استدعاني رئيس المجلس سعد الله الجابري فاجتمعت به على انفراد. واخبرني عن احالة التقرير ورجاني أن أوافق على الاحتفاظ به في مكتب المجلس فيتمكن كل نائب ان يطلع عليه اذا شاء. وقال ان اثبات هذا التقرير في محاضر المجلس، يسيء اساءة بالغة للنضال الوطني. لا سيما وأن البلاد تخوض معركة المطالبة باستلام الجيش.

فأجبته بأنني أقدر الظروف واشعر بالمسؤولية، لذلك سوف لا أطلب احالة مظهر رسلان الى المحكمة العليا بالاستناد الى هذا التقرير.

ولكن لا يمكنني بشكل من الاشكال ان اشترك بطمس معالم هذه الجرائم التي كشف عنها التقرير، لذلك ارى من الواجب ادراجه في محاضر المجلس.

قال: الا يحق لمظهر باشا ان يدافع عن نفسه؟

قلت: بلى ولكن أمام المحكمة العليا وليس امـام المجلـس.. ومـع ذلك فان قرار التحقيق اذا ادرج في محاضر المجلـس فـانني لا أرى مانعا من أن يدافع عن نفسه.

أعلـن الـرئيس الجـابري فـي بدايـة الجلسـة بـأن الحكومـة أحالت اليه تقرير لجنة التحقيق "ولما كان هذا التقرير يقـع فـي 23 صفحة تتعذر معها تلاوته في هذه الجلسة لذلك احيله الـى لجنـة الاقتصاد الوطني.

فعلقت قائلا:

"سـيدي الـرئيس ان هـذا التقريـر لـيس كمشـاريع القـوانين الاخرى ليحال الى اللجان، انما هي قضية تحقيق، والحكومة قالت فـي كتابهـا انهـا شـكلت هـذه اللجنـة للتحقيـق فـي أمـور معينـة بالاعاشـة.

وان الكتاب الوارد من الحكومة باحالة هذا التقرير اشار الى تقديمه الى المجلس مباشـرة، لهـذا يجـب أن يطلـع عليـه المجلـس قبـل احالته الى لجنة الاقتصاد الوطني".

فقال: "ان من يريد الاطلاع على هذا التقرير يمكنـه ذلـك بمراجعـة مكتب المجلس... وسندخله في ضبط هذه الجلسة".

ووقفت القضية عند هذا الحد.

وقد دافع مظهر رسلان عن نفسه دفاعا لم يقنع احدا لا من النواب ولا من الرأي العام.

أمـا قبـولي بهـذا الحـل فسـببه قنـاعتي بـأن الاكثريـة المجلسـية الموالية للعهـد لـن توافـق علـى احالـة رسـلان الـى المحكمـة العليـا بينمـا كـان تثبيـت التقريـر فـي محاضـر المجلـس يفسح المجال لاعادة البحث فيه مرة اخرى في ظروف مناسبة.

حول البيان الوزاري لحكومة الخوري:

فـي جلسـة 26 تشـرين الاول 1944 تقـدم رئـيس الـوزراء فارس الخوري ببيان حكومته الوزاري، وقد علقت على هـذا البيـان بالكلمة التالية: "حضرات الزملاء...

"سأبحث قبـل كـل شـيء عـن دسـتورية تـأليف الـوزارة الحاضـرة، لا يخفى عليكم ان المـادة الثانيـة والتسـعين مـن الدسـتور تقـول فـي فقرتها الأخيـرة (لا يجـوز للـوزراء أن يكونـوا أعضـاء مجلـس اداري ايـا كان) فانا اتساءل مخلصا: هل ان تـأليف الـوزارة الحاضـرة يـأتلف مـع هذه الفقرة من المادة الدستورية؟ كان بودي أن لا أثير هذه القضـية، لأنـي أشـعر بـالظروف الحرجـة التـي احاطـت بتـأليف هـذه الـوزراة، والتضحية التي قدمها رئيس الوزراء في سبيل ذلـك، ولكننـي اتـذكر دوما يمين الاخلاص التي حلفناها للدستور، وان ذلـك يعتبـر مخالفـة دستورية ينتج عنها محاذير في المستقبل وفي ظروف اخرى.

ليسـت غايتنا انتقاد البيان الوزاري، وانما غايتنا الاستيضاح عن بعـض النقاط الغامضة فيه، وعن بعض نقاط جوهرية اخرى لم يرد لها ذكر.

لقد نصت المادة (90) من الدسـتور علـى ان الـوزارة يجـب أن تقدم خطتها للمجلس النيابي، وكما يفهم من هذه المادة فـان الثقـة بالوزارة ليست ثقة شخصية بـل هـي ثقـة بصـحة المنهـاج وسـلامة الخطة، والوزارة مسؤولة مجتمعة ومنفردة امام المجلس عـن تنفيـذ الخطة والمنهاج. ويسـرنا ان نقـول ان الـوزارة الحاضـرة سـارت علـى الأسـلوب البرلمـاني وتقـدمت بالبيـان الـوزاري الـى المجلـس لتنـال الثقة على أساسه. ولكن بالرغم مـن دخـول الـرئيس عنصـرا جديـدا قويا في هـذه الـوزارة فانهـا قـد تبنـت ويـا للاسـف موازنـة الحكومـة السابقة، وتعلمون ان الاتجاهات التي ترد في البيان الـوزاري تحقـق عمليـا بالموازنـة العامـة، فهـل يفهـم مـن هـذا ان الـوزارة الحاليـة ستسلك السبيل التي سلكتها الـوزارة السـابقة، أم أن هنـاك أمـورا أخرى يمكـن ان تحققهـا؟ ونأخـذ مـثلا علـى ذلـك مـا ورد فـي البيـان الـوزاري عـن الاقتصـاد الـوطني والوعـد بادخـال الآلـة فـي الزراعـة وتوزيع شبكة الري، وغيرها من الأمور التي لا يمكن تحقيقهـا الا عـن طريق الموازنة، والتي كما قلت لم أجد هناك من اتجـاه صـحيح يؤيـد هذا القول في الموازنة التي هي طريق العمل للحكومة.

وهناك أمور اخرى يمكن ان تحققها الوزارة الحاضرة. وهي قضية الحريات التي قال عنها البيان الوزاري انها من لوازم الحكم. واني أقول انها ليست من لوازم الحكم فقط بل هي من لوازم الحياة الديمقراطية الصحيحة ومن لوازم الحياة البرلمانية. ولكن ويا للاسف فان هذه الحريات الدستورية لم تطبق في بلادنا حتى الان، وقد نصت المادة السادسة عشرة عن حرية الفكر، ونصت المادة السابعة عشرة عن حرية الصحافة والطباعة، والمادة التاسعة عشرة عن حرية المراسلات، والمادة العشرون عن حرية الاجتماع. ان جميع هذه الأحكام الدستورية لم تزل احكاما نظرية، ولكن البيان الوزاري يعدنا باصدار تحديد لمراقبة الصحافة. وتعلمون ان مجلسكم الكريم قد أظهر رغبته مرارا بالغاء المراقبة الا عن القضايا العسكرية، فنحن لا نرغب باصدار التعليمات وانما نرجو الغاء المراقبة الغاء تاما فيما عدا المسائل العسكرية والا فنحن نضطر لاصدار قرار من هذا المجلس بهذا الخصوص اذا لم تعمد السلطة الاجرائية لذلك.

لقد ورد في المادة الثانية والعشرين من الدستور بأن التعليم الابتدائي الزامي، وقد تعهد البيان بأن يقدم لنا مشروعا يكلف بموجبه الأهلين بانشاء امكنة يأوي اليها المعلمون والطلاب، فأنا لا اشك بأن الاهلين سيقابلون هذا التدبير بكل ارتياح، كما أن الوزارة وعدت بتشجيع المدارس الخاصة، ولكنني اتساءل: هل ان هذين الأمرين كافيان لتعميم التعليم الالزامي وتطبيق المادة الدستورية الخاصة؟ فمما لا شك فيه أن هذا التدبير غير كاف ونحن نرغب من الوزارة أن تتقدم الينا بمشروع كامل عام لتوحيد التعليم الذي نصت عليه المادة (22) من الدستور يمكن تنفيذه اذا طبق البرنامج الاصلاحي الذي وضعه المربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري، فيما اذا لم تقم عقبات في سبيل تنفيذ هذا البرنامج من مصادر لا يروقها توحيد التعليم في البلاد.

لا بد أيها السادة، من الاعتراف بأن هناك مباديء قوية وردت في البيان الوزاري. منها الوعد بمكاشفة الأمة بجميع القضايا الحيوية الهامة، ما لم يكن هناك ضرورات خاصة. وأقول ان مبدأ الصراحة هذا هو من أقوى سبل الحكم الديمقراطي الصحيح، ومنها

وعدها بتطهير دوائر الاعاشة وتوحيد اسعار الخبز في البلاد، ومنها وعدها بايجاد الموظف للوظيفة لا الوظيفة للموظف كما كان يجري في عهد الحكم الكيفي ايام كنا لا نقرأ مرسوما او قانونا الا ونلمح وراءه اشخاصا كامنين، هذه أمور توجب الشكر للحكومة.

أما من ناحية السياسة الخارجية فقد استهل البيان السياسة الخارجية بالفقرة التالية (ان سياستنا الخارجية هي ما انتهجته الوزارة السابقة). فمن الطبيعي أن تنتهج الوزارة الحاضرة نهج الوزارة السابقة من حيث المنهاج فقط. ولكني أرجو منها السرعة والحزم. لأن السرعة والحزم هما من مصلحتنا في الظروف الحاضرة. ومما يدعو للاغتباط والسرور أن الوزارة الحاضرة عاهدت بأنها سوف لا تعاقد أية دولة أجنبية أخرى وسوف لا تكون مرتبطة بأي قيد ما خلا قيود الصداقة مع الدول العظمى.

أما قضية الجيش فقد أجملتها الفقرة التالية من البيان الوزاري (أننا نأمل أن نستأنف العمل لبلوغ الغاية في سبيل استلام الجيش). وقد أعلن رئيس الوزارة السابقة عن استنكاف الجانب الفرنسي عن الاتفاق بشأن قضية الجيش. وعلى كل حال فنحن نرجو من الحكومة الحاضرة أن تفكر بجميع الطرق والوسائل لاستلام الجيش.

مكافحة الاستغلال الرأسمالي:

تمكن المجلس والحكومة من تجاهل الموضوع الذي اثرته في مطلع خطابي، وهو عدم جواز الجمع بين الوزارة وعضوية اي مجلس ادارة... ولكن لم يمض على تأليف وزارة فارس الخوري شهر أو أكثر الا وبدأ سعد الله الجابري يحرض جماعته من النواب على احراج الحكومة، وفي جلسة 1944/12/29 اوعز لقاسم الهنيدي ان يتقدم بسؤال حول تقيد الوزراء بتطبيق المادة (92) من الدستور، فكان جواب الحكومة تأكيدها شفهيا وكتابيا على ان عضويها فارس الخوري وخالد العظم قد استقالا من عضوية مجالس ادارة الشركات.

لكن الجابري استمر بهذا التحريض فتقدم عدد كبير من جماعة النواب، وعلى رأسهم ميخائيل اليان وعلي الحياني بالاستجواب التالي:

"بما أن الأجوبة الواردة من الوزراء، الخطية منها والشفهية، على سؤال النائب السيد قاسم هنيدي لم تكن واضحة ولم يفهم منها انهم فعلا قد استقالوا، ولم يذكر الوقت الذي استقالوا فيه بصراحة، وبما أننا نرى بأن هناك مخالفة للمادة 92 من الدستور لذلك اتينا بهذا الاستجواب".

كان نواب حلب الرأسماليون الذين نجحوا في قائمة الجابري، مثل الحاج وهبي الحريري، في حالة حرب مصالح مع نواب حلب الرأسماليين الذين نجحوا في القائمة الانتخابية الاخرى، مثل أحمد خليل المدرس، وقد اتسع نطاق هذا التضارب المصلحي في التسابق على كسب المغانم المالية فخرج من اطار البرلمان في دعم الجابري لجهة ودعم الخوري للجهة الأخرى، ووصل الأمر الى قيام مظاهرات عمالية في حلب حصلت فيها اشتباكات دامية بين عمال مصانع الحريري وعمال مصانع المدرس، نتيجة للتنافس على توجيه السياسة الاقتصادية بما يكفل مصالحهم... لذلك اردت ان اخرج القضية من المدار الذي وضعها فيه الجابري وجماعته، وأضعها في محورها الصحيح، فعلقت على استجوابهم قائلا:

"قلت عند مناقشة البيان الوزاري انه يجب أن نتمسك بأحكام الدستور، ولا سيما المادة 92 منه، وقلت ان هذه المادة يجب أن يعمل بها لأجل المستقبل لأن الرأسمالية لم تتمكن من بلادنا بعد. لكن لا بد من الاحتياط منذ الان لأنه يجب أن لا تتدخل الرأسمالية في توجيه سياسة الدولة. ولا يمكنني الا أن أقول بصراحة انه اذا كانت الشركات الوطنية في دمشق وغير دمشق تستحق التشجيع في هذه المرحلة فاننا نعلن مع الأسف ونصرح ونعترف بأن الرأسمالية دخلت في سياسة الدولة والشعب متخذة شكلا لا يخلو من الخطر.

ان من السهولة بمكان ان يتقيد الوزراء الكرام شكلا بأحكام الدستور وان يعلنوا استقالتهم من عضوية أية شركة كانت، ولكنني أقول ان لهذا الاستجواب الذي قدمه فريق من الأخوان علاقة صحيحة بالاضراب الواقع بحلب، نحن لا نريد أن نعالج الأمور شكليا بل نريد ان نعالجها بصراحة ووضوح، نعم ان الوزارة يمكنها ان تعلن استقالتها من عضوية الشركات ولكننا نرغب من اخواننا أعضاء المجلس ومن الحكومة ومن الشعب الحلبي الكريم التجرد فلا يفسح مجالا لتنافس التجار او لتنافس الرأسمالية التي يذهب في سبيلها ضحايا بريئة عديدة، اكتفي بهذا القدر من القول وانتظر من الحكومة ان توافينا بجواب عن السؤال الذي تقدم به احد الزملاء بشأن اضراب حلب، وأرجو من الحكومة ان تتخذ سياسة صريحة تجاه هذه الاضراب. كما انني ارجو من زملائي الكرام ان لا يكونوا كما كان الشعب الحلبي ضحية لهذا التنازع بل يجب علينا أن نضع حدا لتدخل التجارة والرأسمالية في شؤون المجلس وسياسة الحكومة. يجب أن ننظر في الأمر نظرة مجردة، وعندما تقضي المصلحة الوطنية بأن نطبق ضريبة أرباح الحرب فيجب أن تطبق على الشركات وغير الشركات. وعندما توجب علينا المصلحة الوطنية ان نساعد هذه الشركات ونؤمن لها وسائل الازدهار فعلينا ان نفعل فلا ننظر الى الأمر نظرة خاصة ولا لأجل مصلحة خاصة".

انتخاب أعضاء المحكمة العليا:

منذ صدور الدستور السوري في عام 1928 لم تشكل في البلاد أية محكمة عليا تنفيذا للمادة 97 منه - وبمناسبة موضوع التحقيق بارتكابات وزارة الاعاشة تقدمت في جلسة 1944/10/19 باقتراح جاء فيه:

"أرى قبل المباشرة بأي عمل آخر أن يشرع المجلس بتأليف المحكمة العليا التي نصت عليها المادة 97 من الدستور والتي توجب انتخاب اعضاء هذه المحكمة في بداية كل سنة. ولا يخفي أن السنة تبتدي بابتداء هذه الدورة، لذلك ارى ان نشرع اولا بانتخاب هيئة هذه المحكمة.

وجرى الانتخاب ففاز بالأكثرية: سعيد الغزي ونعيم الانطاكي وصبري العسلي وعفيف الصلح وناظم القدسي ولطفي الحفار وميخائيل اليان وفتح الله أسيون.

واذا استثنينا ناظم القدسي الذي كان يعتبر معارضا آنذاك، فان الأكثرية الموالية انتخبت جميع اعضاء المحكمة العليا من جماعتها، وزيادة في التدليل على الكيد للمعارضة فان هذه الاكثرية الموالية منحت مظهر رسلان نفسه 33 صوتا في انتخاب أعضاء المحكمة العليا.

سؤال لا بد منه:

لم يكد يمضي وقت قصير على تأليف الحكومة الا وبدأت أجهزة الاعلام الفرنسية ومخابراتها تنشط داخلا وخارجا فتقدمت للحكومة بالسؤال التالي:

"نشرت الصحف الأجنبية ووكالات الاخبار البرقية بيانات موعزا بها تعرب عن وجهة النظر الفرنسية مما يعد تحديا لاستقلال سوريا وسيادتها وليس المهم ان ترد في هذه البيانات أخبار كاذبة عن تدخل البريطانيين في انتخابات عام 1943. لأنه من الثابت تدخل الفرنسيين علنا بالانتخابات، وبقوة الجيش احيانا في بعض المناطق، ولم تكن نتيجة تدخلهم الا الاخفاق التام، لأنه لم يعد في هذه البلاد خونة أو مارقون، كما انه ليس غريبا ان يفوز الوطنيون، لأن الشعب السوري برهن في كل مناسبة أنه لا يقل وطنية عن اي شعب اوروبي، اما الروح العدائية السائدة في هذه البيانات والأخبار فهذا مما بلوناه طيلة خمسة وعشرين عاما. كما أنه يظهر لنا عمليا في كل مناسبة حتى الآن. والمهم في هذه البيانات والأخبار أن نسأل الحكومة:

اولا: هل ان القضية السورية كانت موضع بحث بين فرنسا وبريطانيا؟ واذا كان الأمر كذلك فما هو موقف الحكومة السورية من أبحاث تجري بشأن سوريا ولا تدعي لحضورها وهي صاحبة العلاقة؟

ثانيا: ما هي التدابر التي تفكر بها الحكومة لوضع حد حاسم للافتئات على استقلال البلاد من محاولة اثارة الفتن والقلاقل واعتقال الاشخاص ونشر الأخبار الكاذبة والأراجيف في داخل البلاد وخارجها؟

ثالثا: هل أعلمت الحكومة السورية الطرف الفرنسي رغبتها بتصفية العلائق بصورة عملية، وأن سلوك فرنسا طريق الضغط والاكراه والروح العدائية لا يؤدي الا لاشمئزاز الشعب السوري ونفوره، وان حصولها على صداقة سوريا يتوقف على مقدار ما تثبته عمليا من النوايا الطيبة الحسنة لهذه البلاد بتسليم الجيش والسلوك الودي الصحيح داخلا وخارجا .. (جلسة 1944/11/15).

فرد وزير الخارجية جميل مردم على سؤالي بكلمة قال فيها:

"ان الحكومة قد تقدمت اليكم في مشروع الموازنة بطلب الاعتمادات اللازمة لتأليف جيش من جديد اذا اقتضى الأمر ذلك. وهي جادة كل الجد (تصفيق) في المهمة التي اخذت على عاتقها القيام بها، عازمة على أن يكون استقلال البلاد تاما من جميع الجهات لا من جهة واحدة، وان يكون محررا من كل تأثير او قيد او شرط او رجحان لدولة على أخرى، حتى يجتمع مؤتمر السلم الذي نرجو ان نشترك فيه احرارا طليقين".

استلام الخط الحديدي الحجازي:

كان المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان قد عقد في 22 شباط 1924 مع شركة (سكة حديد دمشق حماة وتمديداتها) اتفاقية عهد بموجبها اليها بادارة الخط الحديدي الحجازي في داخل الاراضي السورية، والذي هو وقف اسلامي حرف بشروط مفجعة جدا... وتنص المادة الثانية من تلك الاتفاقية انه يحق للمفوض السامي ان يخطر الشركة قبل ثلاثة أشهر من أول آذار من كل سنة بعزمه على فسخ الاتفاق. "لأن الشركة اعتبرت أول آذار في الاتفاقية بداية للسنة المالية".

وقد اقترح بعض النواب أن تنذر الحكومة الشركة، قبل الموعد المحدد، بانتهاء تلك الاتفاقية، ولكن وزير المالية خالد العظم رجا المجلس عدم احراج الحكومة بهذا الطلب الفوري، وطلب رفع الجلسة نصف ساعة ليجتمع في خلالها الى لجنة الاقتصاد الوطني للمذاكرة بهذا الموضوع.

لم أكن عضوا في هذه اللجنة ومع ذلك حضرت الاجتماع مستمعا. وقد حاول خالد العظم ان يثني النواب عن عزمهم خوفا من ان تمتنع الشركة عن تلبية طلب التسليم. فاشتركت في المناقشة - رغم كوني مستمعا - وقلت له: عند امتناع الشركة عن تسليمنا الخط الحجازي بامكان الحكومة ان ترسل قوة من رجال الامن وتضع يدها عليه. واذا تدخل الفرنسيون فانها ستكون مناسبة موفقة جدا لانفجار شرارة الصدام بيننا وبينهم اذ ان موضوع الخط الحجازي لا يستثير المشاعر الوطنية والدينية فحسب بل انه يستثير العالم الاسلامي كله.

كان جميع النواب متحمسين لفسخ العقد واستلام الخط مهما كلف الأمر. فقررت لجنة الاقتصاد الوطني "الطلب الى الحكومة اخطار الشركة قبل آخر تشرين الثاني 1944، رغبتها بفسخ الاتفاق المعقود بينها وبين المفوضية، المؤرخ في 22 شباط 1924، المتعلق باستثمار الخط الحجازي".

فقال خالد العظم عندما عاد المجلس للانعقاد:"ان الحكومة، ازاء هذا الاقتراح، لا يسعها الا الموافقة عليه والوعد بالاستمرار في تشبثاتها فيما يتعلق بالسكك الحديدية عامة والسكة الحجازية خاصة، وهي تؤيد هذا الاقتراح وستعمل على تنفيذه".

وقد حققت الحكومة هذا المطلب الوطني الهام، فوضعت يدها على الخط الحديدي الحجازي في أول آذار 1945.

16

عـام 1945: التخطـيط للثـورة التحرريـة - المطالبـة المســتمرة باســتلام الجــيش الســوري - قضــايا اجتماعية واقتصادية ووطنية في مناقشة الموازنـة - افتتــاح دورة اســتثنائية لبحــث قضــية الجــيش السوري - قانون حماية الاستقلال.

التخطيط للثورة التحررية:

كنت قاصدا في الخطاب الذي القيتـه فـي جـامع السـلطان، فـي مطلـع تشــرين الأول 1994 "مقارنــة بــين ثـورتين" أن يكـون مترافقا مع بدء السنة الدراسية حيث يشكل الطلاب عنصـرا مهمـا جدا في العمل الوطني دائما. فكانت مظاهرات الطلاب منذ افتتـاح المـدارس فـي خريـف 1944 مسـتمرة مـع الاضـرابات الشـعبية والمظاهرات التي عمت معظم أنحاء البلاد، ثم امتـدت الـى لبنـان، تطالب باستلام الجيش، وقد استمرت هذه المظاهرات حتى وقوع العدوان الفرنسي الأثيم في اواخـر مـايس 1945، وكـان أبـرز نقـاط الخطة العملية التي اتبعناها بعـد القـاء هـذا الخطـاب هـي النقـاط التالية:

أولا - جعـل مجلـس النـواب منبـرا للمطالبـة المسـتمرة باسـتلام الجـيش وممارســة الاســتقلال فعـلا، والتحـذير ممـا يهيئـه الفرنسيون من مكائد والتنبيه الى وسائل احباطهـا. وبكلمـة مختصرة: جعل المجلس منبرا للدعوة للثورة والاستعداد لها.

ثانيا: مواصلة التعبئة النفسية للثورة لدى الجمـاهير، وكانـت فـي ازدياد مستمر يوما بعد يوم.

ثالثا: العمل لتقوية وحدة الصف الوطني والابتعاد عن كل ما يفرق فئات الشعب، وجعل المطلب الأساسي فـي تلـك المرحلـة اســتلام الجــيش، وارجــاء كــل الخلافــات السياســية والاجتماعية الى ما بعد التحرير.

رابعا: قيام حـزب الشـباب بـدوره فـي حمـاة لتكـون المدينـة التـي تنطلق شرارة الثورة منها.

خامسا: الاتصال السري بالضباط السوريين في الجيش، بواسطة الاستاذ نخلة كلاس الذي كانت له علاقات صداقة واسعة معهم ... وكانت هذه المهمة منوطة بي، مع معرفة قيادة الحزب بذلك دون اطلاعها على الأسماء.

وقد عقدت أول اجتماع مع الملازم عدنان المالكي، الذي كان من ضباط ثكنة حماة، كان الاجتماع سريا في بيت نخلة كلاس بحي "المدينة". وللوهلة الأولى وثقت بهذا الضابط الشاب وتيقنت من اخلاصه وصدق وطنيته، فلم ار داعيا للتريث في طرح الخطة التي ننوي تنفيذها مستقبلا، فقلت له ان الفرنسيين لا يمكن ان يسلمونا الجيش الا بالقوة، وأننا عزمنا على أن نهيء أنفسنا في حماة لانطلاق ثورة يمتد لهيبها الى جميع أنحاء البلاد. والمطلوب من الضباط الوطنيين في الجيش السوري أن ينظموا الأمور منذ الان بشكل سري ويعدوا أنفسهم للالتحاق بهذه الثورة، مما ينزل بالفرنسيين ضربة قاصمة ولا يبقى أمامهم سبيل الا استقدام قوات من الخارج. هذا الأمر الذي يصعب عليهم تحقيقه في ظروف الحرب، واذا فعلوا فان الثورة تكون قد بلغت من القوة ما يؤهلها للصمود أمام القوات الغازية. كما انه سيكون لذلك العدوان الفرنسي رد فعل عالمي يصعب معه استمرار القوات الغازية في القتال.

فوافقني عدنان دون تردد:

قلت: لنبدأ منذ الان

وتواعدنا على الاجتماع ثانية في البيت ذاته، بعد أن يكاشف عدنان من يثق بهم من الضباط، وقد تم الاجتماع الثاني فحضره عدنان ورفيقاه هشام السمان وعمر القباني. وقد جرت مناقشة قصيرة اقتنع الضباط على اثرها بصواب الخطة. فأشرت عليهم أن يتصلوا باخوانهم الضباط في المدن الأخرى ليحققوا التحاقا جماعيا بالثورة عند اشتعالها، وقد أوصيتهم بالتكتم الشديد لئلا يتعرضوا للنقل او الاعتقال.

كما كنت اجتمع سرا، في حمص ودمشق، بعدد من ضباط الجيش الاخرين الذين تعرفت عليهم في مناسبات سابقة.

وكانت الخطوة الثانية توجيه الدعوة، من منبر المجلس النيابي، الى ضباط وأفراد الجيش للالتحاق بالحكومة السورية، وكان الجيش السوري شديد التأثر بمناقشات المجلس النيابي، وكانت شعبيتي في أوساط الجيش في تصاعد مستمر، دون سائر نواب المعارضة الآخرين. فقد كان الأفراد السوريون في الجيش شديدي التوق للخلاص من تحكم الضباط الفرنسيين المتغطرسين الذين يسيئون باستمرار لكرامتهم و مشاعرهم الوطنية والقومية. وكانوا يشعرون باعتزاز، بعد الاعتراف الدولي بالحكومة الوطنية. وهو شعور كان يوحي بالثقة والاطمئنان لمستقبلهم، فكان هذا عاملا نفسيا كبير الأثر في تشجيع تفكيك هذا الجيش ونزعه من يد الفرنسيين ليكون سلاحا بيد الوطن، ولذلك كنت باستمرار أشيد بوطنية الجيش السوري وأؤكد يقيني بأنه سوف يلبي طلب البلاد بالتحاقه بالحكم الوطني، وقد أثمرت هذا الخطة كثيرا كما سترد تفاصيل ذلك فيما بعد، كما كنت في الوقت ذاته ألح في مطالبة الحكومة على أمرين:

الأول: زيادة عدد قوات الدرك - التي يمكن تسليحها من الانكليز سلاحا خفيفا باعتبارها من قوى الأمن الداخلي - لتكون في جانب الثورة عند انطلاقها.

الثاني: اقناع الحكومة بشراء السلاح عن طريق التهريب، وتنظيم الميليشيات الشعبية الأمر الذي لم نصل به الى نتيجة.

كانت فرنسا طيلة عهد الانتداب حريصة كل الحرص، وعاملة ما باستطاعتها، لتجريد المواطنين من كل انواع السلاح، وكانت مشكلة السلاح - كما أشرنا سابقا - من أهم المشاكل التي كانت تعاني منها الثورات الوطنية السابقة في سورية، وظلت هذه المشكلة مستعصية حتى بعد قيام الحكم الوطني، بالرغم مما توفر لديه من امكانيات السلطة لتهريب السلاح بعد ان امتنع الانكليز والحلفاء عن بيع السلاح للحكومة السورية، وكانوا يهدفون

من وراء ذلك الى غايات استعمارية حاولوا أن يقطفوا ثمارها فيما بعد.

قضية تشكيل الجيش السوري:

بالرغم من أن الأشهر الأخيرة من عام 1944 والأشهر الأولى من عام 1945 كانت مخصصة لبحث قضايا الموازنة، فقد كان همنا، باستمرار، اثارة قضية الجيش بمناسبة وبلا مناسبة ليبقى الاتصال حيا بين المجلس وبين المظاهرات والاضرابات الشعبية التي كانت تسود معظم انحاء سوريا رافعة شعار "نريد جيشا للوطن ... ما في عيش بلا جيش".

ومنذ ان افتتحت في كانون الثاني 1945 دورة الموازنة العامة سعيت مع رئيف الملقي وقاسم الهنيدي ونواب آخرين لاقناع الرئيس الجابري بان يخصص جلسة 13 كانون الثاني لبحث قضية الجيش، فوافق الجابري، وقال عند افتتاح الجلسة: "بما أن لجنة الموازنة قد انتهت من تقريرها ووزع عليكم. ولما كانت المادة 96 من النظام الداخلي تقول: تعين جلسة مناقشة الموازنة بعد انقضاء 48 ساعة على توزيع تقرير اللجنة المالية على النواب، وبما انه ليس لدينا أعمال لهذا اليوم، نؤجل الجلسة اذا رغبتم الى يوم الثلاثاء القادم" وكان هدف الجابري اتاحة المجال لمناقشة موضوع استلام الجيش.

فشعر رئيس الحكومة فارس الخوري بما يبيته رئيس المجلس فقال له: "أليس لديكم أوراق واردة من الحكومة وأجوبة على أسئلة النواب؟"

فأجاب الجابري: "ليس لدي شيء من ذلك"

فطلب النواب تخصيص الجلسة لبحث موضوع الجيش فقال الجابري: "لا بأس من المذاكرة في هذا الموضوع"... وكنت أول المتكلمين فقلت:

"لقد أظهرت الأمة شعورها منذ العام الماضي وأعلنت رغبتها في تأليف الجيش السوري. ولا أظن أن هناك اي عثرة في سبيل

تأليفه بعدما علمنا ان الجانب الافرنسي تمنع عن تسليم الجيش السوري. ولذلك اقترح على المجلس الكريم أن يقرر حالا في هذه الجلسة تكليف الحكومة بالشروع فورا في تأليف الجيش. وذلك وفقا للمادة 110 من الدستور والمجلس النيابي مستعد ان يمنح الحكومة حق اصدار المراسيم الاشتراعية. كما انه مستعد لتخصيص جميع الاعتمادات اللازمة لتحقيق هذه الغاية. ولذلك ارى ان نبت في هذه القضية سريعا وان نجابهها بصرامة وان لا تكون المشاريع المقترحة لهذا الغاية عرضة للتسويف والتأجيل والمماطلة، لذلك أرجو من الزملاء ان يقروا ما اقترحته".

حاول وزير الخارجية جميل ردم ان يقطع الطريق على الاستمرار في بحث هذا الموضوع، فالقى كلمة حماسية، باسلوبه الخاص، انتهى فيها الى القول:

"كونوا على ثقة اذا طلبت منكم ارجاء البحث في هذا الموضوع الى ان ابحثه مع لجنة الشؤون الخارجية ثم مع لجنة الدفاع الوطني من أنني لا اقصد من ذلك التسويف او التأخير، ولكن لكي يكون العمل كاملا من جميع وجوهه الفنية، ولهذا أعاهدكم عهدا اكيدا باسم الحكومة بأن هذا الجيش الذي هو رمز استقلال الامة سنقوم بتحقيقه على الصورة التي تريدها الأمة وعلى اتم ما يريده البعض".

فعقبت على كلمته بما يلي:

"اننا نشكر دولة وزير الخارجية والدفاع على بيانه الفني القوي. ولكن يؤلمني ان اصرح علنا بان الاندفاع والحماسة والتهديد والوعيد لا ينتج امرا محسوسا ملموسا، فالاجنبي او الفرنسيون بصورة اوضح يماطلون ويسوفون لأنهم الان ضعفاء، حتى اذا جاء اليوم الذي يشعرون فيه انهم استعادوا قوتهم فانهم لا يتقاعسون عن سلبنا استقلالنا وجميع الصلاحيات التي استلمناها منهم، والقضية واضحة لا تحتاج الى تطويل ولا الى تسويف، فالأمة اعتبرت نفسها مستقلة، بل هي مستقلة بالفعل والفرنسيون ضعفاء الان، ونحن لا نعترف بوجود أية سلطة أو ميزة لأجنبي. والحكومة والأمة بحالة ثورة وانقلاب. وارادتنا هذه يجب أن يحققها العمل ولا يحققها

الا عندما نشرع في تأليف الجيش، ولا اعتقد أن تأليفه يحتاج الى مفاوضات او اجتماع لجان، وانما يحتاج الى عزم وحزم من الحكومة. لأن المال قد خصص في الموازنة".

وأما التشريع فان المجلس مستعد للتنازل عن حقه التشريعي للحكومة في سبيل تحقيق هذه الأمنية وما دام هذان الامران قد تما من قبلنا فما هو المانع الذي يمنع الحكومة من الشروع فورا في تأليف الجيش، وأما عبارات (في وقت قريب، وبعد قليل) فهذه أقوال لا أفهمها جيدا، قال احد الزملاء انه يجب على الحكومة ان تحزم والحقيقة انه يجب عليكم انتم ان تحزموا. فانكم عندما تقررون فان ارادتكم يجب أن تحترم ورغبتكم يجب ان تحقق، أما أن نشتغل بوضع قوانين خاصة بالجيش ونتناقش بها فما هذا الا مضيعة للوقت، لاننا لا ندرك هذه الامور التي يجب على الحكومة ان تعهد بها الى اخصائيين وخبراء في تأليف الجيوش وسن قوانينها. فيجب ان نحزم نحن لا أن نقول لأحد يجب عليك ان تحزم. ولذلك أقول انني لم افهم شيئا من هذا التسويف، اما الأمر الواقع فهو أن الفرنسيين امتنعوا عن تسليم الجيش الذي قلتم جميعكم انه سوري بلحمه ودمه. وما داموا قد امتنعوا عن تسليمه أصبح من الواجب علينا أن نسرع بتأليفه وأن ندعو الضباط السوريين الموجودين في الجيش السوري الحالي الى الالتحاق بجيشهم الجديد، وعندئذ نرى أي جيش تستطيع فرنسا أن تشكل في هذه البلاد، وعند ذلك يتحقق الانقلاب، وتتحقق الثورة التي ندين بها جميعا وندعو اليها".

وتعاقب بعد ذلك عدد من النواب. كما تكلم رئيس الوزراء ... ولئلا يذهب البحث سدى تقدمت بالاقتراح التالي:

"ان المجلس النيابي قد قرر تكليف الحكومة بالشروع حالا بتأليف الجيش السوري، تنفيذا لحكم المادة (110) من الدستور، وهو يمنح الحكومة حق اصدار المراسيم التشريعية لأجل تشكيل الجيش، كما انه مستعد لتقديم جميع الاعتمادات التي تحتاج اليها في هذا السبيل.

لم يطرح رئيس المجلس هذا الاقتراح على التصويت، بل أحاله الى اللجان، وهكذا انتهت الجلسة بدون نتائج ملموسة محددة ... ولكنني تابعت موضوع الجيش باستمرار خلال الجلسات

التاليــة المخصصــة لمناقشــة الموازنــة. فقلــت فــي جلســة 1945/1/24 بمناسبة بحث موازنة وزارة الدفاع:

"لا حاجة للاطالة، فالفرنسيون متعنتون، وقد تعنتوا حتى الان بتسليم الجيش، واننـي أقـول بصـراحة، لا بالتهديـد والوعيـد ولكـن بشعوري وشعور الامـة، بـأن هـذه المرحلـة التـي تقـرر موقفنـا مـن فرنسا الى الأبـد هـي التـي تثبـت بـأن عقليـة فرنسـا لـم تتغيـر وأن موقعنا منها سيتغير الـى الأبـد فعلـى فرنسـا أن تضـع الأمـرين فـي الميزان وتتبع احدى الخطتين. فاما ان نتعاون ونظـل أصـدقاء واما أن نيأس منها ومن عقليتها ونبت فـي كـل أمـر بيننـا وبينهـا، لنفـرض ان الافرنسيين لـم ولـن يسـلموا الجـيش، فمـاذا يجـب ان يكـون موقـف الحكومة وموقفنا نحن؟ ... يجب أن نستمر بالمطالبة بتسليم الجيش ولكن ما هي الوسائل التنفيذية لاستلامه؟ هناك وسائل عديدة فـاذا امتنـع الاجنبـي عـن تسـليمنا جيشـنا فسـنأخذه ونسـتلمه بـالقوة لا بالواسطة، وعندها يذهب دور المفاوضة ويأتي دور القوة.

سـندعو هـؤلاء الجنـود والضـباط الـذين هـم أخواننـا وأبناؤنـا الـى الانضمام لجيشنا الذي سنؤلفه. وسيندمج الجيش السوري بالجيش الـذي سـنؤلفه، وعنـدها يـرى الفرنسـيون ان المـواطن السـوري لا يمكن ان يكون اداة لاستعمار أمته وهـو ابنهـا البـار. هـذا هـو موقفنـا وهــذا الــذي يجــب أن يكــون موقــف الحكومــة، وعمــل المجلــس التشريعي هو تهيئة هذا الأمر.

فلقد رصدت الحكومة فـي الموازنـة المبـالغ اللازمـة لاسـتلام هذا الجيش او ايجاد جيش غيـره، ولكـن هـذا الـرقم ظـل خياليـا غيـر حقيقـي، نعـم تقـدمت الحكومـة بمشـروع قـانون لاحـداث ضـرائب الجيش، ودرسته اللجان وأعادته للحكومة، ولـم يـزل هـذا المشـروع في وزارة المالية، فيجب عليها أن ترسـله الـى المجلـس ليقـره عنـد البحث فـي قسـم الـواردات مـن الموازنـة . واذا كـان لـدى الحكومـة مشروع آخر فنرجو منها ان تتقدم به ليصـير اقـراره ويكتسـب الصـفة القانونية.

هنالك امر آخر يتعلق بالتشريع، وهو أن نعطي الحكومة سلطة اصدار المراسيم الاشتراعية أو أن يظل هذا المجلس منعقدا الى أن تنتهي هذه القضية، وبذلك نكون قد أوجدنا العناصر الثلاثة التي يمكننا بواسطتها حل هذه القضية. فقرار لجنة الموازنة الذي يمنع على الحكومة جباية ضمائم الجيش الا بموجب قانون أراه غير وارد في مثل هذه الظرف، فانا كما قلت اذا لم نشأ ان نعطي الحكومة سلطة واسعة للتصرف في أمور الجيش من ضرائب او تشريع يجب علينا ان لا نبارح هذا المكان، وأما وضع قيد بعدم التصرف بهذه الأموال الا بقانون فهذا يعرقل سير الأعمال ... لهذا ارى ان يتخذ مجلسكم الكريم قرارا على ضوء الملاحظات التي أبديتها، وأعتقد أنها الحل الوحيد لقضية الجيش".

قضايا اجتماعية ووطنية في مناقشة الموازنة:

كان اشتراكي بمناقشة موازنة 1945 اشتراكا عارضا، واكتفيت باثارة النقاط التالية:

ضرائب النظام الرأسمالي:

"أما أن الضرائب توزع توزيعا عادلا بين المكلفين، وأن الموازنة بنيت على هذا الأساس، فهو أمر مشكوك فيه، بل يمكننا ان نقول ان الضرائب غير موزعة التوزيع العادل على المكلفين، والدليل على ذلك ان ضريبة أرباح الحرب لم تفرض حتى الآن، فما الداعي لعدم فرضها؟ وها ان لبنان قد فرض هذه الضريبة وقام بجبايتها وهي تدر على الخزينة اموالا طائلة، ولا يخفى أن زمن الحرب حالة استثنائية وضريبة أرباح الحرب ضريبة استثنائية أيضا، أما ضريبة الدخل فهي ضريبة عادية مستمرة، وان الذين أثروا من أقوات الشعب المسكين ومن آلامه ودمائه وجمعوا الثروات بطرق غير مشروعة يجب ان يدفعوا للخزينة ضريبة أرباح الحرب، ولا أرى سببا للتأخر في فرض هذه الضريبة الا عدم الحزم والارادة في فرضها وجبايتها، ان هذا التأخر جعل الرأسماليين والمحتكرين يذهبون بعيدا في أطماعهم

وجعلهم يمانعون في اقرار ضريبة الدخل، وهل يعقل أن تظل ضريبة بدل الطريق تجبى من الفقراء وضريبة أرباح الحرب لا تجبى من الأغنياء؟"

حماية اراضي فلسطين:

"هنالك مسألة سياسية كنت اثرتها في الجلسة الماضية وأريد أن الفت نظر الحكومة ونظر لجنة الموازنة مرة أخرى. فقد ورد في البيان الوزاري بشأن فلسطين ما نصه " أما بشأن فلسطين فنحن مؤيدون لما اقره مؤتمر مشاورات الدول العربية في الاسكندرية بشأن فلسطين ومقدرون لأعضائه الأوفياء موقفهم الحازم الموحد حيال هذا الاقليم العربي العزيز". وكنت قد قدمت اقتراحا الى لجنة الموازنة طلبت فيه تخصيص اعتماد كاف لمكاتب الدعاية بما يتعلق بقضية فلسطين ولمنع تسرب الاراضي الى أيدي الصهيونية، فماذا تم بشأن هذا الاقتراح؟" (1)

طرح فكرة مشروع تجفيف مستنقعات الغاب

وفيما يتعلق بالمواضيع الزراعية قلت:

"ان موازنة الزراعة هي أهم وأخطر بنود موازنتنا. لأنه على أساسها تقوم حياة الألوف بل الملايين من السوريين.. لقد قال الأخ الهنيدي: يجب أن لا يكون في سوريا فقير وأرجوا أن لا تستغربوا هذا القول فهو قول حق. ويجب أن لا يكون في بلادنا فقير لأن أراضينا واسعة يتضاءل امام سعتها عدد النفوس، واذا كانت أزمات الأمم في كثرة النفوس وضيق الأراضي فأزمتنا على العكس: كثرة الأراضي الخصبة وقلة الأيدي العاملة.

---

(1) وكنت قد اثرت هذا الموضوع في جلسة 1944/12/27 فقلت:
"لا يخفى على أحد الخطر العظيم في استعمار أراضي فلسطين، الجدار الجنوبي لسوريا الطبيعية والقلب النابض للبلاد العربية، كما لا يخفى ان جميع مظاهر شعورنا القومي لا تغني عن الحقائق المادية التي يسبح بها دعاة الصهيونية في انشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين.
لذلك أقترح ان يرصد في موازنة عام 1945 اعتماد كاف لمساعدة مصرف الأمة العربية الذي تأسس لشراء الأراضي من العرب ومنع تسربها لأيدي الصهيونية، ولا بد ان جميع الدول العربية ستشعر بهذا الواجب فتخصص في موازناتها الاعتمادات الكافية، وبذلك يبرهن العرب على أنهم أدركوا الخطر وسلكوا الطريق الصحيح في مكافحته".

والحقيقة أن التوجيه للانتاج الصحيح مفقود، وأراضينا تفلح وتزرع على الطرق القديمة البالية المعروفة منذ ألوف السنين، ويمكننا أن نقول أن بلادنا زراعية من الدرجة الأولى، حتى انها كانت تعتبر في القديم أهراء العالم، وكانت تحوي على ما يقال ثلاثين مليونا من السكان، فما بالها تعجز الان عن ان تؤمن العيش لثلاثة ملايين؟

ان الأثار الرومانية هي التي تدلنا على السبب وترشدنا الى الطريق، لقد قال دولة رئيس الوزراء انه ليس على الحكومة ان تعمل كل شيء، ونحن لا نريد منها أن تعمل كل شيء وانما نريد منها ان تشق الطريق التي يجب أن نتبعها للوصول الى الغاية المنشودة، وقد ذكر وزير الاقتصاد الوطني (خالد العظم) المشاريع التي يريد تطبيقها، نعم ان هناك أشياء خطيرة لها وزنها وهناك أشياء عادية ثانوية، وجميل ان نرسل البعثات الى البلاد الأجنبية، وجميل أيضا أن نعمل على تحسين نسل الخيول وتربية المواشي، ولكن الأهم من ذلك كله هو مسألة الري.

ان بلادنا أيها الأخوان تحوي أقاليم متنوعة فمن جبال شاهقة الى صحار واسعة الى أراض خصبة قابلة لزراعة جميع أنواع الحبوب والغراس، ولكن ليس هناك ري، ولا يجوز ان ننتظر زراعة وانتاجا اذا لم نرو الارض ونحسن سقايتها، اذن فتوسيع شبكة الري في بلادنا هو الأمر الجوهري والهام في توسيع الزراعة وشق الطرق امام المزارعين ليستثمروا هذه الاراضي الخصبة ويحسنوا زراعتها. ونحن لا نلمح اثرا للري وان كان فأثره ضئيل لا يتعدى مشروع ري حمص وحماة (2).

وهذا المشروع لم ينته بعد لقد وضع تصميمه من قبل. أما بعد ذلك فلم أجد الا اثارا جد بسيطة، فلا يمكننا ان نقول اننا قمنا بمشروع الري الفلاني، ولكننا نتمم مشروع بدىء فيه.

(2) قامت المفوضية العليا بعهد المفوض السامي دومارتل بتنفيذ بعض المشاريع الانمائية، وكان من أهمها مشروع ري حمص وحماة الذي استكمل انشاؤه في عهد الاستقلال.

ان لتوسيع شبكة الري مساسا عظيما بصحة السكان في بعض الأحيان. خذوا مثلا سهل الغاب الذي يستخرج منه السمك الأسود، فهذه الارض وهذه التربة من أخصب الأراضي وأحسن الترب، ولكن أتدرون ماذا ينتج عنه الان؟

لا ينتج عنه الا المرض والوباء والموت لسكان هذه المنطقة، فلو جفف الغاب لكان كافيا لاعاشة مليون نفس من سكان هذه البلاد، وهذه الأراضي اذا جففت تمنع انتشار الأوباء والأمراض بين السكان.

- وفيما يتعلق بتوزيع اراضي أملاك الدولة قلت:

وهناك أراضي أملاك الدولة، تلك الأراضي الخصبة. لقد قال الأخ الشيخ طراد انه يجب أن نفسح المجال للعشائر لاستثمارها، وأنا أقول انه يجب ان نسمح لكل منتج ولكل فلاح بذلك. لأن الفلاح هو الذي يستوجب شفقتنا بالدرجة الأولى، أما الملاكون فكما قال بعض الزملاء ليسوا موضع ظلامة، والمظلوم هو الفلاح الذي لا يدر عليه انتاجه كفاية ولا يرفع مستوى معيشته الى درجة يشعر معها انه مواطن وأنه يعامل على قدم المساواة مع بقية السكان.

ولا أغالي اذا قلت ان ثلاثة أرباع هذا الشعب السوري لا يشعرون بأنهم مواطنون سوريون، لأن مستوى معيشتهم يصرفهم عن مثل هذا التفكير، والانسان قبل ان يتفلسف يفكر بأن يعيش ويأكل.

وأنا أقول انه عند البحث في توزيع أراضي أملاك الدولة يجب أن توزع على المنتج وعلى من يستثمرها بيده، لا أن تقطع لكبار الملاكين، لأن عهد الاقطاعية قد زال، ومن الخير والواجب زواله تماما، أقول هذا لأنني سمعت من مصدر رسمي ان مشروعا قدم بغية الحصول على الملكية بشكل واسع، والذين سيأخذونها لا ينتجون بيدهم وانما يستأجرون الفلاحين المساكين الذين لا يستطيعون تأمين قوتهم كبقية البشر.

موازنة لجيش غير موجود

وفيما يتعلق بمخصصات الجيش في مشروع الموازنة فقد علقت على ذلك:

ان الذي يسترعي الانتباه في مشروع الموازنة وجود مخصصات للجيش فيها، يمكننا ان نقول بصراحة ان هذه المخصصات خيالية لا اثر لها من الواقع فما الداعي لهذا التخصيص؟ أهو لتسكين عواطفنا وتهدئة عواطف الشعب ما دامت الحكومة غير عازمة على تحقيق استلام الجيش أو تشكيله؟

قضية الجيش في جلسة سرية:

بعد أن انتهى المجلس من مناقشة موازنة 1945 خلال جلسات شهر كانون الثاني، استجابت الحكومة لرغبة النواب بافتتاح دورة استثنائية لبحث قضية الجيش والقضايا السياسية الأخرى، وفي أول شباط 1945 افتتحت الجلسة الأولى من هذه الدورة، فاقترح رئيس المجلس سعد الله الجابري رفع الجلسة لعدم وجود ما يستحق البحث على جدول الأعمال، فتقدمت مع عدد من زملائي النواب باقتراح لقلبها الى جلسة سرية لبحث قضية الجيش فوافق المجلس على الاقتراح.

ماذا جرى في هذه الجلسة السرية؟

لم يكن عدد الخطباء كبيرا، كما هي العادة في الجلسات السرية دائما، فقد القى رئيس الحكومة فارس الخوري كلمة أعرب فيها عن تعنت الفرنسيين بتسليم الجيش، وان الحكومة جادة في بحث الموضوع مع لجنتي الخارجية والدفاع لإنشاء جيش وطني، ولم يضف الخوري شيئا جديدا على ما كان يقوله في الجلسات العلنية.

فقلت له: ان الفرنسيين لا يمكن أن يسلمونا الجيش الا بالقوة، واقترحت عليه اقتراحات محددة:

أولا: شراء السلاح ولو عن طريق التهريب، اذا كان الانكليز ممتنعين عن بيعه لنا، وتوزيعه على أفراد الشعب الذين يجب أن ينظموا لهذه الغاية.

ثانيا: انشاء نواة للجيش السوري وتسليحها، دون اضاعة الوقت في اجتماعات اللجان المجلسية، والمجلس مستعد لمنح الحكومة كل الصلاحيات للبدء بانشاء نواة الجيش، ولدعوة ضباط وأفراد الجيش السوريين للالتحاق بهذا الجيش الوطني.

فهمت من موقف الخوري أن الحكومة غير مستعدة لاستلام الجيش بالقوة، وأن تحصنها وراء ابداء استعدادها الكلامي لانشاء الجيش الوطني ما هو الا وسيلة لكسب الوقت امام ضغط الشارع والمجلس في آن واحد، ورغم ذلك فانني بقيت باستمرار أحضر اجتماعات لجنتي الخارجية والدفاع وأصر على تنفيذ الاقتراحات التي أثرتها في الجلسة السرية.

قانون حماية الاستقلال:

تواترت الأنباء عن بدء تحركات عملاء الانتداب في البلاد. فنضجت لدي فكرة تقديم اقتراح بمشروع قانون لحماية الاستقلال، لا سيما وان الحالة النفسية في البلاد أصبحت مستعدة لقبوله، فأعددت هذا المشروع سرا، ولم يطلع عليه الا زميلي رئيف الملقي.

وقبيل انعقاد أول جلسة برلمانية بعد الجلسة السرية، في 20 شباط 1945، عرضت المشروع على سعد الله الجابري رئيس المجلس في مكتبه لدرجه في جدول الأعمال وعندما قرأه لم يكن راضيا عن تقديمه، بداعي انه يؤدي الى مضاعفات سياسية خطيرة تنعكس آثارها على استقلال البلاد وأوضاعها الشرعية، وقال ان هذا الاقتراح انما هو اعلان ثورة من قبل الحكومة والمجلس معا ودعوة للعصيان على الفرنسيين من قبل الجيش السوري الذي يعتبره الحلفاء قطعة من قطعاتهم.

وأضاف بأن هذا الاقتراح يثير عملاء فرنسا في مناطق سورية المختلفة. وأشار الى سليمان المرشد والى خطورة ما في يد الفرنسيين من عملاء ووسائل لإذكاء الفتن والاضطرابات التي تعجز الحكومة عن قمعها.

فقلت له: ان رأيي هو عكس ما تقول تماما، لأن اقرار هذا الاقتراح هو الوسيلة الوحيدة لاحباط كل المؤامرات الفرنسية التي بدأت فرنسا تحيكها ضد البلاد بواسطة أجهزتها وعملائها.

لم يقتنع الجابري بما قدمته من حجج، فقلت له: إنني نائب، ولي الحق أن أتقدم بهذا الاقتراح.

كان الجابري حريصا على تطبيق النظام البرلماني، فاضطر لدرج الاقتراح في جدول الأعمال ولما افتتحت الجلسة وشرع أمين السر بقراءة الاقتراح خمد جو الحماسة والشجاعة الذي كان يسيطر على المجلس عند بحث قضية الجيش، ولمحت على بعض الوجوه خوفا وحذرا، وقد أحال الجابري المشروع الى اللجان ولكن لم يمض وقت قصير حتى أخذ عدد من النواب يبدون حماستهم لاقرار المشروع، وبدأت الصحافة تتحدث عنه وتبرز مواده، كما تراجع الجابري والحكومة عن مخاوفهم ازاء اقراره... وكان لمشروع قانون حماية الاستقلال - منذ نشره في الصحف - أثر بعيد في اذكاء المشاعر الشعبية وتوجيه البلاد في طريق الثورة، ثم تمت الموافقة عليه في جلسة لاحقة.

محاولات لتفكيك المعارضة:

في أواخر أيام حكومة الجابري بدأ صبري العسلي بالتمرد على القوتلي، فأجرى معنا اتصالات عديدة لتنظيم المعارضة، ولم نكن نشعر بأن تلك الاتصالات كانت تهديدا للقوتلي الا عندما صدر المرسوم بتعيين العسلي وزيرا للداخلية في حكومة فارس الخوري.

وتلا ذلك خطوة أخرى لتفكيك المعارضة وذلك عندما صدرت المراسيم بانتداب عدنان الأتاسي نائب حمص سفيرا في فرنسا، وانتداب ناظم القدسي نائب حلب وزيرا مفوضا مطلق الصلاحية في الولايات المتحدة.

17

عام 1945: اجتماع روزفلت بالملك عبد العزيز في البحيرات المرة - اجتماع شكري القوتلي بتشرشل والملكين فاروق وعبد العزيز في القاهرة - مشروع سورية الكبرى - اقرار ميثاق الجامعة العربية - قضية الحريات واستلام الجيش ثاران من جديد في مجلس النواب - التمهيد لتشكيل الحزب الوطني - سورية تحتفل بانتصار الحلفاء.

من الاهتمام بالحرب الى الاهتمام بالاستقلال:

كان الناس في سورية يهتمون بتتبع أنباء الحرب العالمية كل الاهتمام. وكانوا يستقون اخبارها في كل محطات الاذاعة وكان النقاش حول ما يسمعونه من أنباء يشغل معظم أوقاتهم، ولم يبق من يحسن القراءة إلا وكان يتابع تطورات المعارك على الخارطة، وكانوا محقين باهتمامهم هذا لأنه يتعلق على نتائج الحرب مصيرهم ومصير العالم.

ولكن منذ اعلان موعد انتخابات 1943 انصرف الرأي العام كليا عن الحرب وأخبارها الى قضايا البلاد ومن الطبيعي بالنسبة لشعب أصبح بامكانه النضال في سبيل تحقيق أهدافه الوطنية أن يدير ظهره للمشاكل الخارجية، لا سيما وأن الحرب بدأ مصيرها يتقرر منذ أواسط عام 1943 برجحان كفة الحلفاء وحتمية انتصارهم.

هكذا كان وضع الرأي العام في سوريا عندما انعقد مؤتمر يالطا الشهير، في النصف الأول من شهر شباط 1945، في جزيرة القرم على البحر الأسود، بين الرؤساء روزفلت وتشرشل وستالين، الذي انتهى بتاريخ 14 شباط.

الرئيس روزفلت والملك عبد العزيز:

عاد الرئيس الأميركي روزفلت من يالطا بطريق الجو الى مصر، فاجتمع على ظهر طراد أميركي في البحيرات المرة بالملك

فاروق، واستقبل في المساء أمبراطور الحبشة، وفي 15شباط وصل الملك عبد العزيز آل سعود من جدة الى البحيرات المرة على ظهر مدمرة اميركية في رحلة وصفها رسمي اميركي وصفا نشرته الصحف آنذاك وجاء فيه: "أقام جلالة الملك طوال الرحلة على ظهر المدمرة في خيمة

كبيرة نصبت عند برج المدفعية الأمامي .. وأقيمت عند مؤخرة المدمرة حظيرة للأغنام. وقد أمر جلالة الملك بأن يعد عدد كاف من الضأن لاطعام جميع البحارة. ولكن ضيق المكان حال دون أخذ عدد من الخرفان يزيد على حاجة الملك وحاشيته، ودعا جلالة الملك في مساء اليوم الأول بعد مغادرة جدة جميع ضباط المدمرة لتناول العشاء معه فجلسوا القرفصاء على الطريقة العربية، ودهش خدم جلالة الملك من السود عندما رأوا في المدمرة الطهاة والخدم الزنوج، وكان من العسير اقناعهم بأن هؤلاء الزنوج من رجال البحرية الأميركية، وانهم ليسوا من الأجانب الخ...."

بعد هذا الاجتماع الذي كان موقف الملك سعود فيه قاطعا ضد هجرة اليهود الى فلسطين توجه روزفلت الى الاسكندرية بينما توجه الملك السعودي الى الفيوم.

أما تشرشل فقد وصل الى أثينا بالطائرة، ومنها الى الاسكندرية حيث اجتمع بروزفلت، ثم قصد القاهرة فاجتمع بأمبراطور الحبشة... وفي 17 شباط زار تشرشل الملك عبد العزيز بالفيوم، وعاد منها الى القاهرة، وقابل الملك فاروق ثم اجتمع برئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي.

وبتاريخ 1945/3/18، بعد شهر من اجتماعه بالملك السعودي، اجتمع روزفلت بالدكتور ستيفن وايز رئيس مجلس الطوارىء الصهيوني في الولايات المتحدة ثم صرح:

" كنت قد أوضحت موقفي ازاء الصهيونية في شهر تشرين الأول، ولم أبدل موقفي ذاك وسأواصل السعي لتحقيقه في أقرب ما يمكن من الوقت"

فما هو ذلك الموقف الذي أشار روزفلت الى انه أوضحه في 15 تشرين الأول، وظل مصرا عليه بعد اجتماعه بالملك السعودي؟ ... انه "اشارة للكتاب الذي ارسله روزفلت الى السيناتور روبرت واكنز يطلب فيه أن يعرب لوفود المؤتمر السابع والأربعين السنوي للجمعية الصهيونية في امريكا عن رضى الرئيس عن بيان خطة الحزب الديمقراطي، وهي **"اننا نحبذ فتح فلسطين لهجرة واستعمار يهوديين غير مقيدين، وأية سياسة تؤدي** بالنتيجة الى انشاء كومنولث يهودي ديمقراطي حر هناك" كما جاء في هذا الكتاب:

" يجب أن نبذل الجهود لإيجاد الطرق والوسائل الملائمة لتحقيق هذه السياسة في أقرب وقت ممكن" (النصر 1945/3/18)
وقد تقدمت في جلسة 20 / 3 بسؤال للحكومة حول موقفها من هذا التصريح ولكن لم أحظ باجابة على هذا السؤال.

®

بعد اكثر من عشرين عاما على اجتماع روزفلت مع الملك السعودي صدر كتاب تحت عنوان: الصهيونية الأميركية وسياسة أميركا الخارجية من عام 1942 الى عام 1947، وهو اطروحة تقدم بها أحد الدارسين [1] الأميركيين لنوال الدكتوراه من جامعة جورج تاون، ويصف المترجم هذه الأطروحة بأنها دراسة جادة تكشف كل ما يريد العربي معرفته عن علاقة الولايات المتحدة بالحركة الصهيونية ودورها في خلق اسرائيل ...

يتعرض هذا الكتاب الى الاتصالات التي تمت بين الرئيس الأميركي روزفلت والملك عبد العزيز آل سعود والى الحديث الذي جرى بينهما على ظهر المدمرة الأميركية بما يلي:

"أوفد الرئيس روزفلت الكولونيل هوسكنز الى ابن سعود بناء على اقتراح [2] الزعيم الصهيوني وايزمن للتأكد من أن

---

(1) اعتمد المؤلف ريتشارد ستيفنس في تأليف اطروحته على المخطوطات الأصلية وعلى بعض المصادر التي كتبها مشاركون في أحداث تلك الفترة، ترجمها الى العربية جورج نجيب واكيم ونشرتها في بيروت دار الطليعة عام 1967.

(2) الاقتراح بالاصل كان صادرا عن جون فيلبي المستشار البريطاني في المملكة العربية السعودية (ص122)

الملـك عبـد العزيـز يقبـل بالاجتمـاع مـع وايـزمن أو مـع أي موظـف آخـر مـن الوكالـة اليهوديـة، الا أن الملـك لـم يقبـل بالفكرة اطلاقا وأخبر الموفد بغضـب انـه لـن يقبـل ان يـرى وايـزمن، وانـه لا يسـتطيع الـتكلم باسـم فلسـطين ولا أن يسلمها الى أيدي اليهود" (ص125)

وتستند الاطروحة على كتاب وضعه ادوار ستيتنيوس وكيل وزارة الخارجيـة الاميركيـة، وكـان حاضـرا اجتمـاع روزفلـت مـع ابـن سعود لالقاء بعض الضوء علـى الأفكـار التـي كانـت تـراود الـرئيس الأميركي بعد ذلك الاجتماع:

" قـال روزفلـت بانـه لا يمكـن التوصـل الـى اي حـل للمشـكلة الفلسطينية عن طريق التعامل مع ابن سعود، وفي طريـق عودتـه الى الولايات المتحدة توصل روزفلت على ما يظهر الـى الاسـتنتاج بانـه مـن الضـروري القيـام بطريقـة جديـدة كاملـة، وقـد اعطـى ستاتينيوس ملاحظته قائلا انه:

يجب ان يعقد مؤتمر مع زعماء الكـونغرس ونعيـد النظـر فـي سياستنا بكاملها في فلسطين، واضاف قائلا انه مقتنع جيـدا بانـه اذا سـارت الامـور سـيرها الطبيعـي سـتراق الـدماء بـين العـرب واليهود، وختم كلامه قائلا ينبغي ان تحول طريقـة مـا لـم تكتشـف بعد دون حرب كهذه... (ص144)

كما جاء في الكتاب ما يكشف هواجس روزفلت فـي موقفـه من القضية الفلسطينة:

وفي 22 كانون الثاني (يناير) عـام 1945 بحـث وايـز ورئـيس الجمهورية في مختلف نواحي القضية الفلسطينية وسأل روزفلت عن امكانات البلاد الاقتصادية وتحدث عن مخاوف العرب من انـه اذا دفعـت فلسـطين فـي ايـدي اليهـود تسـللوا الـى الاقطـار العربيـة المجاورة، وتساءل عما اذا كان الاتحـاد السـوفياتي سـيعارض فـي اقامة دولة يهودية. وقد حاول وايز ان يطمئن بال رئـيس الجمهوريـة بخصوص جميع هذه النقاط.

فقد قال يمكن زيادة امكانات البلاد الاقتصادية زيادة عظيمة باقامة ادارة لوادي نهر الاردن، اضف الى ذلك، اعتقد ان مليونا واحدا فقط من اليهود سيدخلون فلسطين في المستقبل القريب، وهذا لن يكون عبئا ثقيلا جدا على الموارد الاقتصادية الحاضرة واستبعد تسلل الهيود الى اراضي العرب وقال ان اليهود بالعكس سيهاجرون من المناطق المحيطة بفلسطين اليها.

أما بشأن احتمال المعارضة السوفياتية، فان وايز أظهر بأنه ليس قلقا من هذه الجهة على الاطلاق، وروى للرئيس روزفلت حديثا دار مع رئيس تشيكوسلوفاكيا الدكتور بينيش قال فيه بينيش للزعيم الصهيوني ان ستالين لم يعارض الفكرة شرط ان تستطيع الولايات المتحدة وبريطانيا الاتفاق على حل (ص 139)

لقد كان روزفلت في تردده وهواجسه وتناقض مواقفه واقعا بين ثقل الضغط الصهيوني عليه وعلى الحزبين الديمقراطي والجمهوري، وبين المصالح البترولية للولايات المتحدة في المنطقة، مع اقتناعه بأن الأمور اذا سارت سيرها الطبيعي ستراق الدماء بين العرب واليهود، ولكن نائبه ترومن الذي خلفه بعد وفاته قد حسم الموقف الأميركي من القضية الفلسطينية بانحيازه الكامل الى جانب الصهيونية.

خطاب القوتلي في 1945/2/26

كان الرئيس شكري القوتلي قد سافر الى المملكة العربية السعودية بتاريخ 8 شباط 1945 بناء على دعوة من الملك عبد العزيز "للبحث بالشؤون العربية" حسب تعبير البلاغ الرسمي، ثم سافر منها الى مصر. وكان رئيس الحكومة فارس الخوري في القاهرة ايضا حيث عقدت اجتماعات رؤساء سبع حكومات عربية للتوقيع على ميثاق الجامعة العربية.

وقد اجتمع الرئيس القوتلي في القاهرة مع المستر تشرشل وأنطوني ايدن، كما اجتمع بالملك فاروق، وعاد الى دمشق في 18 شباط.

لم يعرف احد ما دار بين القوتلي والعاهلين العربيين، أو ما دار بينه وبين تشرشل وايدن، الا بعد عودته والقائه خطابا في البرلمان، في جلسة 26 شباط 1945 قال فيه:

"أحب أن أعلن أمامكم - ليعلم كل من يهمه الأمر - أن هذه الأمة متمسكة بجمهوريتها الديمقراطية، حريصة على توطيدها، لأنها خير وسيلة لضمان الحريات الدستورية في بلادنا وخير أداة للسلام والوئام بين جميع الأقطار العربية، أما موضوع سوريا [3] الكبرى فقد جاهرنا ونجاهر برأينا بأننا نرحب به ترحيبا لا محاباة فيه، وهو أن تكون سوريا الكبرى جمهورية عاصمتها مدينة دمشق، وأن لا يتسرب اليها الطغيان الصهيوني.

على أن يتم ذلك باختيار أبناء الجمهورية السورية الكبرى، وأما لبنان فاننا نحترم استقلاله وكيانه وفاقا لما جاء في بروتوكول الاسكندرية".

وشكر بريطانيا وأمريكا ثم قال عن فرنسا: "اننا نرجو بما شاهدناه الآن من جانبها في أبحاثنا الأخيرة من نية حسنة أن نوفق لاسدائها شكرا جديدا".

ثم قال: "من الأدلة القاطعة على تمتع الأمة بسيادتها واستقلالها المطلق ان يكون في استطاعتها التفاوض مع أي أمة أخرى على قدم المساواة، ولذلك فان المفاوضات التي تجري بيننا وبين اي دولة تكون برهانا على استقلالنا، وكل دولة ذات سيادة تتعامل مع الدول الأخرى وتقيم معها صلات مختلفة تقتضيها طبيعة الحياة الدولية من تجارية واقتصادية وثقافية ومؤسسات خاصة

(3) كانت الصحافة البريطانية قد بدأت قبل يالطا، وقبل اجتماع تشرشل بالقوتلي بالتمهيد لمشروع سورية الكبرى الذي سيؤدي الى امتداد النفوذ البريطاني الى سورية، وقد علقت جريدة فلسطين الصادرة في القدس (أواخر آب 1944) على المقال الذي ورد في التايمس البريطانية شبه الرسمية حول المسألة الفلسطينة والذي جاء فيه: ان مشروع انشاء دولة سوريا الكبرى سوف يتخذ شأنا خاصا اذا هو صيغ في صورة من شأنها أن تفتح السبيل الى ادماج وطن قومي لليهود في الشرق الأوسط وحدود وحدته العربية، فقالت الجريدة:
ان غاية ما ترمي اليه التايمس من اللف والدوران حول موضوع سورية الكبرى هو افتراض تحقيق الوطن القومي اليهودي، اذا أراد العرب تحقيق سورية الكبرى، فما الذي أثار التايمس الى طلب التوسع في بناء الوطن القومي في رقعة اكبر في فلسطين؟ وتابعت الجريدة قولها:
لن تكون وحدة سورية ولا الوحدة الكبرى وسيلة لتوسع اجنبي على حساب العرب، اذ ما من عربي يقدر كرامته القومية يرضى بمثل هذه الوحدة أو يوافق عليها.

وغير ذلك من أمور والمفاوضات التي تجري في هذه الشؤون (يقصد المفاوضات مع فرنسا) تختلف كل الاختلاف عن المعاهدات التي يفاوض فيها على أساس يمس الاستقلال والسيادة....

ولا يساورن احدا الشك بأنه يجري تساهل ما بحقوق البلاد أو أن يمس استقلالها. فلا رجحان ولا مراكز ممتازة .... وما يمكن ان يعقد من اتفاق مع فرنسا يمكن أن يعقد مثله مع أمريكا مثلا أو غيرها من الدول الحليفة"...

وقال: "عقب وصولي من رحلتي اجتمع الى الجنرال بينيه مرتين لمست خلالهما رغبة اكيدة في انهاء قضية الجيش على شكل يحقق رغبة البلاد وتنتهي هذه المشكلة".

فهم النواب من هذا الخطاب، كما فهم الرأي العام:

اولا: أن تشرشل وايدن قد بحثا مع القوتلي مشروع سوريا الكبرى، وأن القوتلي رفض ذلك المشروع الهاشمي البريطاني بالاتفاق مع الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق.

ثانيا: ان القوتلي بعد عودته من هذه الرحلة جنح الى التساهل مع الفرنسيين وبدأ بتطبيق سياسة التعاقد والتعاهد مع فرنسا، تلك السياسة التي رفضها المجلس والرأي العام وأعلنت الحكومة في بيانها رفضها لها. وأراد أن يبرر هذه السياسة بمبررات متناقضة غير مقنعة.

اعلان الحرب على المحور

بعد أن أنهى القوتلي خطابه غادر المجلس، فتكلم رئيس الحكومة فارس الخوري قائلا: "لقد عقد مؤخرا مؤتمر القرم (يالطا) وقد سمعتم البيانات التي صدرت عنه، وفيها أن الدول المحايدة التي لا تعلن اشتراكها في المجهود الحربي حتى أول آذار لن يكون لها نصيب من الاشتراك في المؤتمرات التي ستعقد لتقرير السلم وعقد الصلح .... لا يجوز أن نتأخر عن اعلان الحرب لأنه ينتظر منه ثمرات لا بد من جنيها، وهو يساعد على سرعة

استلام الجيش وتسلم قيادته، لأن الحلفاء هم الذين يسيطرون على الأحوال السياسية في هذا الشرق ولهم الكلمة العليا في اكثر المواضيع وسيجدون وسيلة لمؤازرتنا بصورة جدية اذا كنا مساهمين في المجهود الحربي بالشكل الذي اقترحته".

فوافق المجلس بالاجماع على اقتراح اعلان الحرب مع تعليق بسيط بضروة الاسراع باستلام الجيش لعلاقته بالموضوع.

ردود الفعل على خطاب القوتلي:

كان خطاب القوتلي اكبر دعاية لمشروع سورية الكبرى دون أن يقصد ذلك، لأن الشعب في سورية أصبح بعد امتناع الفرنسيين عن تسليم الجيش يفضل الخلاص من الاستعمار الفرنسي بأي ثمن ولو أدى ذلك للوقوع تحت نفوذ بريطانيا التي تحتل الأردن والعراق وتؤيد الوطن القومي الصهيوني، وبعد أن كانت بعض المجموعات المعارضة للقوتلي والمقربة من البيوتات الهاشمية (حسن الحكيم - سعيد حيدر - حيدر الركابي - فهمي المحايري) تدعو لهذا المشروع سرا أصبحت تدعو له علنا، كما استمر ذلك الى ما بعد جلاء الفرنسيين عن سورية.

وقد اطلعني - فيما بعد - الاستاذ عبد البر عيون السود على بيان وزعه الاستاذ صلاح البيطار يؤيد فيه مشروع سورية الكبرى، ولكنني لا أتذكر تاريخ هذا البيان جيدا ويمكن أن يكون صدوره بعد خروج البيطار من السجن [4] بينما كنت ارى وجوب مقاومة النفوذ الاستعماري أيا كان لونه، وأن تستمر سورية بمطالبتها بجيشها وبوحدة البلاد وبعدم الاعتراف بالكيانات التي فرضتها صكوك الانتداب كما نص على ذلك دستور 1928 الذي حلفنا عليه يمين الاخلاص.

كان النواب حائرين بالاسلوب الذي سيناقشون فيه خطاب رئيس الجمهورية الذي يعتبره الدستور غير مسؤول والذي خرج فيه القوتلي عن الاعراف الدستورية بالقائه في البرلمان على

(4) أصدر صلاح البيطار منشورا فند فيه ما جاء في خطاب القوتلي فاعتبرته السلطات ماسا بمقام الرئاسة واعتقلته.

طريقـة النظـام الرئاســي الأميركـي، فـاعتبر النـواب الخطـاب بيانـا حكوميا ويمكنهم مناقشته على هذا الاساس.

كان رئيس المجلس يتهرب من عقد جلسة خاصة لمناقشــة سياسـة البلاد العامة، إذ أن خطاب القوتلي سيكون محور هذه المناقشة، وأخيرا عـين جلسة 28 آذار 1945 لهذه الغايـة. وقـد تحـدث رئـيس الحكومـة فـي مسـتهل الجلسة فاستعرض نتائج رحلته الى القاهرة قائلا: "كانت لإتمام العمـل الـذي اتفقنا عليه مع وفود الأقطار العربية السبعة".. وقال: "فالميثاق الذي تم وضعه من قبل اللجنة الفرعية، ثم من قبل اللجنة التحضيرية، ثم صدق فـي المـؤتمر الأخير في اليوم الثاني والعشرين من هـذا الشـهر ووقـع فـي القـاهرة وأعلـن في جميع البلاد في وقت واحد، هذا الميثاق سـيعرض بصـورة رسـمية علـى المجلـس النيـابي للاطـلاع عليـه ودرســه والموافقـة عليـه" ... وأشـاد بـولادة الجامعة العربية.

وبعد مناقشـة قصيرة اشـترك فيهـا النـواب ورئـيس الحكومـة قرر المجلس الاستمرار في مناقشة السياسة العامة... فكـان أول المتكلمين حلمي الأتاسـي نائب حمص وأحـد قـادة عصـبة العمـل القومي البارزين في السابق، قـال: "**يجـب ان لا يبلـغ التمسـك بالنظام الجمهوري حدا يقف في وجـه توحيـد الـبلاد ويقـوم حـائلا ومانعـا دون توســيع نطاقهـا وضـم شــملها ضـمن حدودها الطبيعية....**

ولا شك أيضا أن ثمة مجالا واسعا جدا للرأي والتفكيـر قبـل أن ترخص وحدة البلاد ويهدد جمعها في سـبيل شـكل مـن أشـكال الحكـم". وحمـل حلمـي الأتاســي علـى سياســة التعاقد التي جعلها القـوتلي احـدى محـاور سياسـته، ولـم يخل خطابه من تقريع لانحرافات القـوتلي فـي سياسـته الداخليـة والعربية.

وقـد أتـى دوري بـالكلام فقلـت: "أن رئـيس الجمهوريـة غيـر مسؤول، بحكم المادة (75) من الدستور السوري، لذلك فـاني أعتبـر خطابه بيانا للحكومة تطرق لثلاثة مواضيع هامـة جـدا فـي سياسـة

البلاد تتعلق بحاضر البلاد ومستقبلها: الأول: وحدة البلاد الطبيعية، والثاني: سياسة التعاقد، الثالث: قضية الجيش".

فقلت: "ان وحدة البلاد التي تتألف منها الجمهورية السورية الكبرى ليست موضع اختيار، وهي ليست مشروعا من المشاريع، ان سوريا الكبرى قد قررتها الطبيعة ووحدها القدر، واليكم ما ورد في المادة الثانية من مشروع الدستور السوري عام 1928: (ان البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية وحدة سياسية لا تتجزأ، ولا عبرة لكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب العامة)، ان الأهداف الوطنية والقومية لا يجوز تحويرها وانما تستخدم الأساليب السياسية في سبيل تحقيقها، وارادة الأمة كفيلة بتحقيقها، وهي أمانة في أعناقنا وفي أعناق الأبناء والأحفاد... ونحن نسعى لتحقيق هذه الأمنية بلا قيد ولا شرط.

كانت الحكومة الحاضرة، وقبلها حكومة الجابري، قد قررت أن لا تعاقد ولا تعاهد، واننا سنذهب الى مؤتمر الصلح محررين من كل قيد، وقد التقى ذلك مع وجهة نظر المجلس النيابي التقاء خاليا من كل غموض او التباس في هذا الموضوع. ولكن جاءنا خطاب رئيس الجمهورية واذا به يقر سياسة التعاقد بداعي أنه يوجد فرق بين التعاقد والتعاهد، ولكن في الحقيقة. لا يوجد هناك أدنى فرق بينهما، وان كان قد نفى وجود اي مركز ممتاز فان المعاني التي وردت في الخطاب سمحت بوجود مراكز ممتازة لجميع الدول الكبرى، فهل سمعتم بربكم ان امة افتئت على استقلالها الا باسم حماية المؤسسات الخاصة؟ وهل سمعتم ان دولة غلبت على أمرها الا باسم الثقافة وباسم هذه المؤسسات؟ وهل افتئت على اقتصاد أمة الا باسم السياسة التعاقدية والتجارية لا سيما وأن هذا التعاقد هو بين قوي وضعيف؟!... لذلك فاننا نعتبر ان اي دعوة للتعاقد هي دعوة غير صحيحة. لأن بقاء الجيش في أيدي الفرنسيين وسيلة ضغط واكراه تمنع حتى صحة هذا العقد".

وناقشت سياسة الحكومة بعدوانها على الحريات الدستورية، وحملت على اعتقال الاستاذ صلاح الدين البيطار "لا سيما وان السلطة الاجرائية ليس لها الحق في النفي أو الاعتقال .. ومع ذلك

لو فرضنا ان السلطة الاجرائية ضاقت ذرعا بالاستاذ البيطار فالأحرى بها أن تضيق ذرعا بما تراه من خونة وجواسيس يسرحون ويمرحون لا وازع لهم ولا رادع".

وقلت: "وهناك موضوع آخر هو موضوع السياسة المتبعة في منطقة عزيزة من جسم الوطن. ألا هي منطقة العلويين، إنني منذ بدأ هذا العهد وأنا أراقب سياسة الحكومة في هذه المنطقة العزيزة وما كانت الأيام الا لتزيدني استيثاقا بأن سياسة العهود الماضية ما زالت نفسها.

ان هذه المنطقة تحتاج الى تطبيق الحريات الدستورية بالمعنى الصحيح، وتحتاج الى سماح الحكومة للشباب الناهض أن يصدر الصحف ويؤسس النوادي ويؤلف الهيئات ويدعو الشعب الى التمسك بالعقيدة الوطنية ... كنت قدمت لمقام الرئاسة سؤالا عن الوضع الشاذ في منطقة جوبة البرغال. ولكنني وجدت بعد أخذ ورد - مع رئيس المجلس أن أرجىء تقديم هذا السؤال. واذ بنا نرى مع الأسف، أن فتنة جوبة البرغال - (5) **كانت موضع بحث في مجلس العموم البريطاني أما في المجلس النيابي السوري فلم تكن موضع بحث، كأن البريطانيين أحق منا في بحث أمورنا ولا سيما في هذه المشكلة الخطيرة". وقرأت للمجلس صيغة السؤال الذي كنت أنوي تقديمه، و حملت حملة كبيرة على مثيري الفتنة المرشدية الذين**

(5) جوبة البرغال قرية تقع في أعالي السفح الشرقي لجبال العلويين، المطل في سهل الغاب، وكانت معصى جبليا وعرا، وقد اتخذ منها (الرب) سليمان المرشد مركزا لدعوته المذهبية الخرافية التي أطلقها بعد الثلاثينات فأستفحل أمرها في أوساط تلك المنطقة المتخلفة بفضل عوامل الجهل والفقر ومساعدة الفرنسيين (للرب) والبطش والارهاب الذي كان يقوم به (رسل وأنبياء) سليمان المرشد في اعتداءاتهم الشرسة على قرى المنطقة، وقد عارض الفرنسيون دعوة المرشد في بدايتها ثم تحولوا عن مقاومته الى شرائه وتكريسه زعيما و (الها) يحقق أغراضهم في محافظة اللاذقية، واتخذوا من التفاف أتباعه حوله التفافا دينيا متعصبا سلاحا خطيرا في أيديهم يشهرونه في وجه حرية البلاد واستقلالها كلما تعرضت مصالحهم للخطر، حتى أصبحت حركة المرشد من أخطر ركائز الاستعمار الفرنسي في البلاد.
في العهد الاستقلالي أصبح سليمان المرشد نائبا في برلمان 1943. فلما بدأت البلاد تضغط على فرنسا لاستلام الجيش تحرك المرشد وأشعل فتنة داخلية دامية، وقام بأعمال سلب ونهب وقتل. فاعتقلته الحكومة وفرضت عليه الأقامة الاجبارية في دمشق وقد عرض المرشد مبالغ طائلة على بعض النواب المحامين ليسعوا لإخلاء سبيله تحت ستار التوكل الحقوقي. وقد فاتحني بعضهم (النائب حلمي الأتاسي) بالأمر فرفضت، غير أن مداخلات النواب المحامين أدت لإطلاق سراحه، وقيل يومذاك ان وزير الداخلية صبري العسلي نال قسطا لا بأس به من "بدل الأتعاب" وهذا ما جعل المرشد يعاتبه أثناء تنفيذ حكم الاعدام بعد ثلاث سنوات كما سيرد ذلك في حينه.

ارتكبوا الجرائم من قتل وسلب ونهب وحرق وقطع الأيدي وكل ذلك بدافع من الأجنبي وتحت اشرافه وسلطته مما يعتبر أفظع وصمة عار في تاريخ الاستعمار.

ومن الطريف أن أذكر أنني بعد القاء هذا الخطاب بفترة سلم علي سليمان المرشد في احد دهاليز المجلس وقال لي: انك قدمت قانون حماية الاستقلال وقصدك أن تطبق الحكومة هذا القانون علي. وسوف ترى بأن هذه الحكومة التي وضعت هذا السلاح في يدها سوف يطبقه القوتلي عليك وعلى جماعتك أيضا ... وهذا ما حدث فعلا فيما بعد. عندما طبق القانون على أنصارنا الذين تظاهروا في حماة.

تحفظ على ميثاق الجامعة:

في جلسة 31 آذار 1945 عرضت الحكومة مشروع القانون المتضمن تصديق ميثاق الجامعة العربية، فتقدمت وزميلي قاسم الهنيدي لرئيس المجلس، قبل الجلسة، بهذا الاقتراح:

"بما أن سوريا قد قررت في جميع المناسبات والظروف وحدة الوطن السوري الكبير، واقترنت ارادتها وتصميمها بالمادة الأولى من الدستور التي تنص على أن "سوريا دولة مستقلة ذات سيادة، ولا يجوز السماح بأي جزء من أراضيها" كما ينص بالمادة الثانية على أن "سوريا وحدة سياسة لا تتجزأ" وبما أن تحديد الوطن السوري موضح بنص المادة الثانية من مشروع الدستور الأساسي القائلة: "ان البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية وحدة سياسة لا تتجزأ ولا عبرة لكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب الثانية".

ولئلا يعتبر ميثاق الدول العربية المعروض على مجلسكم الكريم لتصديقه في هذه الجلسة مناقضا للدستور السوري في مادتيه الاولى والثانية من جهة اعتبار الأجزاء السورية المنفصلة عن الوطن السوري دولا مستقلة، ولئلا يعتبر أيضا مخالفا لأماني سوريا والأمة

العربية في الملحق الخاص بفلسطين باستناده الى معاهدة لوزان وميثاق عصبة الامم في تقريره وضع فلسطين الشرعي مع اعتبارنا وعد بلفور ذيلا لصك الانتداب المفروض على فلسطين.

وبما أن سوريا لم تعترف بالتجزئة التي طرأت على الوطن السوري منذ نهاية الحرب العامة الماضية رغم الظروف القاسية التي مرت بها كما أنها لم تعترف بالانتدابات التي فرضت على هذه الأجزاء من قبل عصبة الأمم. وبما أن الظروف الخاصة تسمح بتحقيق المبادىء الوطنية والقومية، ولذلك فانني أقترح على المجلس الكريم تأليفا للمادة الأولى والثانية من الدستور مع ميثاق جامعة الدول العربية أن يقرر ما يلي:

ان المجلس النيابي السوري، مع عظيم سروره بتصديق ميثاق جامعة الدول العربية، باعتباره خطوة أولى للوحدة العربية الشاملة، يحتفظ لنفسه بحق العمل لتحقيق وحدة الوطن السوري الكبير ولا يعترف بأية حالة من الأحوال بالانتداب المفروض على فلسطين والتي يعتبرها جزءا من أجزاء سوريا الجنوبية".

فجرى نقاش بيننا وبين رئيس المجلس، وقلت له ان هذا الاقتراح هو تحقيق فعلي لكلمتي التي علقت بها على خطاب الرئيس القوتلي. وانني مقتنع بان سياستنا الوطنية والقومية يجب أن تنطلق من هذا الاقتراح. فوافق الجابري على فسح المجال أمامي لعرضه على المجلس وكان بوده أن يبقى مجرد اقتراح وبعد أن بدأت الجلسة وتلي ميثاق الجامعة سمح لي الجابري بالكلام فقلت:

"لقد بينت في الجلسة الماضية وجهة نظري في السياسة الخارجية، لا سيما فيما يتعلق بميثاق جامعة الدول العربية، وانني بالاتفاق مع زميلي الأستاذ قاسم الهنيدي قد وضعت اقتراحا مشتركا هذا نصه" وتلوت الاقتراح.

وبعد أن أشاد المجلس بميثاق الجامعة، ووقف دقيقة صمت اجلالا لأرواح الشهداء، قال رئيس المجلس:

- اريد أن ألفت النظر الى اقتراح الاستاذ الحوراني بأن ليس هناك مخالفة للدستور ولا معارضة".

فأجبته:

إذا سمح مقام الرئاسة فأنا على استعداد أن أشرح اقتراحي...

ولكن الرئيس طرح المشروع على التصويت، فجرى التصويت بتلاوة الأسماء، ولما ذكر اسمي قلت: أنا اوافق مع التحفظ الذي أبديته". وكذلك فعل زميلي الهنيدي.

وقد ختم الجابري الجلسة بقوله: قبل المشروع بالاجماع مع التحفظ الذي أبداه الأخوان المحترمان السيدان اكرم الحوراني وقاسم الهنيدي.

تشكيل وزارة فارس الخوري الثانية:

في جلسة 4 نيسان 1945 ألقى رئيس الحكومة فارس الخوري خطابا طويلا حاول فيه الرد على النقد الشديد الذي وجه الى خطاب الرئيس القوتلي باعتباره بيانا سياسيا للحكومة... ثم اعتبر دعوة سوريا للاشتراك في مؤتمر سان فرانسيسكو، وقيام جامعة الدول العربية التي وافقت سوريا على ميثاقها، صفحة جديدة في تاريخ البلاد تقتضي تغييرات من مستواها، أهمها تعاون الشيوخ والشباب، واعتبر "أن المرحلة التي جربناها في الماضي قد انتهت عند هذه الصفحة فعرضنا لفخامة الرئيس هذه الحالة وله الرأي الموفق... اذا أصبح من المعقول أن نعيد الى رئيس الجمهورية الأمانة التي سلمنا إياها سابقا ليرى فيها رأيه الموافق للصواب، لإيداعها بالأيدي التي يجد من الحكمة ايدعها إليها"... وهكذا استقالت حكومة فارس الخوري، فكلفه رئيس الجمهورية باعادة تشكيل الحكومة.

وبعد خمسة أيام تليت في البرلمان، في جلسة 9 نيسان، مراسيم الاستقالة وتشكيل الحكومة الجديدة من:

فارس الخوري: للرئاسة

جميل مردم بك: للخارجية والدفاع الوطني.

سعيد الغزي: للعدلية ووكالة التموين، وعهد اليه بشؤون الأوقاف والإفتاء.

نعيم الانطاكي: للمالية

صبري العسلي: للداخلية

أحمد الشراباتي: للمعارف ووكالة الاقتصاد الوطني.

الدكتور حكمت الحكيم: للأشغال العامة.

(وفي 21 نيسان أضيف الى الوزارة حسن جبارة وزيرا للاعاشة والتموين)

استهل الخوري الجلسة بإلقاء بيان الحكومة الذي **أكد فيه على ضرورة تشكيل الأحزاب السياسية البرلمانية** فقال: **"علينا أن نلتفت إلى أمورنا الداخلية لأنها تقوم على الحزبية وتتوقف على مجلس النواب، ولا خشية من تعدد الأحزاب في مجلس النواب ما دامت تتحد وتتضامن في السياسة الخارجية".**

وكان شكري القوتلي وجماعته ينوون اعادة تشكيل الكتلة الوطنية باسم الحزب الوطني.

وقال فارس الخوري " انه من جملة الأمور الجديدة التي يجب أنتهاجها في الأعمال الحكومية المقبلة هو توسيع الحريات، ومن جملة الأسباب التي كانت تقييد الحريات نوعا ما هي حالة الحرب، ونحمد الله أنها قريبة النهاية، وقد جاء في هذا اليوم اعلان رسمي من الحلفاء بأن نتهيأ لاستقبال يوم البشرى بإعلان انتهاء الحرب القائمة". وأشار الى "الأمر الجديد الهام الذي تواجهة الحكومة وهو الاشتراك بالمؤتمرات الدولية التي تقرر مصير العالم" بعد انتهاء الحرب، وأهمها مؤتمر سان فرانسيسكو [6] .

وكان أخطر ما ورد في بيان فارس الخوري حديثه عن قضية تصفية العلائق القائمة بين سوريا وفرنسا تصفية نهائية، وقال: "لا

(6) في نيسان 1945 تشكل الوفد السوري الى مؤتمر سان فرانسيسكو من فارس الخوري رئيسا، ونعيم الانطاكي عضوا وناظم القدسي عضوا وفريد زين الدين خبيرا ونور الدين كحالة خبيرا وتوفيق الهنيدي ملحقا، وبعد أن سافر الوفد الى أمريكا تولى جميل مردم رئاسة الوزارة بالوكالة.

بد من هذا، لأن مشاكلنا مع هذه الدولة قد انحلت وأصبح كل واحد منا بمعزل عن الآخر، وتتلخص هذه العلائق ببعض الأمور، أولها مسألة الجيش الذي يجب استلامه... ومنها: تثبيت الصلات السياسية الدبلوماسية مع الاتفاق القنصلي. والامر الثالث هو تصفية العلائق المالية. اذ يوجد حساب جار بيننا وبين الفرنسيين منذ أمد طويل. وهناك العلائق الثقافية والمعاهد العلمية وأشياء أخرى لا بد عند وضع مثل هذه الاتفاقات من عرضها على المجلس الكريم لأن المادة الدستورية صريحة تنص على أن كل اتفاق يعقد مع دولة أجنبية يتعلق بسلامة الدولة أو ماليتها فلا بد أن يقترن بتصديق مجلس النواب، ولذلك لا حذر من أي عمل من هذا النوع لأنه سيعرض عليكم".

ومن ذلك يتبدى أن حكم القوتلي لا يزال ماضيا في خط سياسة التعاقد والتعاهد مع فرنسا مما عرض بيان الحكومة الجديدة لهجوم عنيف، ومع ذلك نالت الوزارة ثقة البرلمان بالأكثرية ومخالفتي ومخالفة زميلي قاسم الهنيدي.

□

مناحة على روزفلت.

ذكرت في صفحات سابقة تصريح الرئيس الأميركي روزفلت الذي أعلن فيه تأييده للمطامع الصهيونية في فلسطين، وقد مات روزفلت ولم يجف مداد تصريحه هذا بعد. فأقامت الحكومة والبرلمان، في جلسة 14 نيسان 1945، مناحة على الفقيد العظيم، استهلها جميل مردم رئيس الوزراء بالوكالة بكلمة رثاء غارقة بالدموع، ثم تبعه بقية الخطباء الثكالى، ومن حسن الحظ أنني كنت غائبا عن تلك الجلسة.

ومن أغرب الأمور في حياتنا العربية المعاصرة أن هذه الظاهرة العجيبة تكررت - وعلى نحو أوسع - عند مقتل الرئيس الأميركي جون كنيدي بعد ذلك بحوالي عشرين سنة!!

خنق الحريات ... وقانون المطبوعات:

برغم كل الوعود التي نثرها فارس الخوري في بياناته الوزارية بالحرص على سلامة الحريات الديمقراطية فإن الأمر لم يكن هكذا تماما فلم تزل الرقابة مفروضة على الصحف الى حد أنه عندما اعتدى عملاء فرنسا على بناء مجلس النواب في الأسبوع الأول من شهر مايس 1945 باطلاق الرصاص، خرجت الصحف وفي كل منها فسحة بيضاء كانت مخصصة لنشر ذلك الخبر... هذا مع أن الصحف كانت شديدة الحذر والرغبة في أن لا تنشر ما لا ترضى الحكومة عن نشره.

ولم تكن هذه السياسة لتخدم الا مصلحة فرنسا. لأن فرض الرقابة على الصحف، والتضييق على الحريات، كانا في الحقيقة لإخماد الثورة التي تتأجج في النفوس ضد تعنت فرنسا بعدم تسليم الجيش وتشبثها بامتيازات الانتداب تحت ستار سياسة التعاهد وعقد الاتفاقيات. كما أن هذا الجو سمح لفرنسا أن تحرك أجهزتها للتآمر على أمن البلاد وسلامتها، سالكة ذات الأساليب التي سلكتها في الماضي بعد عقد معاهدة عام 1936.

ورغم كل الضغوط الشعبية والبرلمانية وتحذير الحكومة من أن سياسة التضييق على الحريات العامة لا تخدم الا مصلحة الإستعمار، والتنديد بهذه السياسة في كل جلسة برلمانية، فإن الحكومة استمرت في نهجها، حتى وقوع العدوان الفرنسي في أواخر مايس 1945 . وكانت تتحصن دائما وراء وعدها بتقديم قانون جديد للمطبوعات.

وفي جلسة 28 نيسان 1945 تلي تقرير للجنتين القضائية والداخلية على اقتراح بعض النواب بالغاء الرقابة على الصحف، فأثيرت مسألة الحريات العامة من جديد، وتحدث عدد من النواب عما تتعرض له الصحافة من تعطيل اداري جائر، فقال وزير الداخلية صبري العسلي ان الحكومة ستقدم خلال اسبوع مشروعا لقانون المطبوعات "يعين الحقوق والواجبات بين الحكومة والصحافة" فقلت: "لقد تعهدت الحكومة بأن تعرض قانون المطبوعات على

المجلس خلال أسبوع واحد، أما اذا لم تعرض الحكومة هذا القانون بعد أن وعدت بعرضه عندئذ اذا كان للمجلس كرامة فانه يقف منها موقفا حاسما وقد مر اسبوع بل اسابيع، والحكومة تماطل في تقديم مشروع القانون الموعود.

قضية استلام الجيش مرة أخرى

لم يهل شهر مايس 1945 الا وكانت البلاد تغلي بالثورة ضد فرنسا. بينما كانت حدة المعارضة البرلمانية - على العكس تخف وتبرد وتضييع في متاهات مشاريع القوانين وتنشغل فيها عن قضية استلام الجيش، كما أصبح معروفا بأن الحكومة تحاول في جو من الصمت والتواطؤ وخنق الحريات وفرض الرقابة على الصحف، أن تحقق ما اعتزمته من التفاهم والتعاقد مع فرنسا.

في هذا الجو تقدمت لجنة الدفاع الوطني بتقريرها حول اقتراح القانون الخاص بتشكيلات وزارة الدفاع الوطني في جلسة 1945/5/1 فكانت مناسبة لعودتي الى المطالبة باستلام الجيش:

"هناك امور جوهرية يجب ان تعرفها الامة فنحن لا نريد ان نغل عنقها باي قيد ولا ان نقيدها باي عهد أو اتفاق قبل استلام الجيش وهذه هي ارادة الامة التي أعربت عنها واتفقنا عليها جميعا، اننا نسمع أن هناك اتفاقات ثقافية واتفاقات اخرى وفي الوقت نفسه يقدم الينا مشروع بتشكيل وزارة الدفاع واذا كان تقديمه يعني شيئا فهذا الشيء هو اننا صرفنا النظر عن قضية استلام الجيش واننا ننوي ان نشكل جيشا جديدا ولهذه النقطة من الاهمية ما لا يجوز لنا السكوت عنها."

"ان للجيش السوري تشريعه فبعد استلامه نبحث التشريع الخاص به اما بحثه قبل الاستلام فمعناه اننا اتجهنا الى ناحية التشكيل فنريد من الحكومة ان تعطينا ايضاحا عما اذا كانت تريد التشكيل ام الاستلام.

السيد عقلة القطامي - انا اؤيد الاخ الحوراني في رأيه فتشريع الجيش لا يجوز البحث به قبل استلامه."

تكلم رئيس الوزراء بالوكالة جميل مردم فدافع عن موقف الحكومة، وتعرض لذكر بعض الحوادث الداخلية التي كانت الصحف ممنوعة من نشر أخبارها فقال:

"هناك حوادث تقع وهي ناتجة عن طبيعة الحال التي نعيش فيها فهناك حوادث في اللاذقية تفضل الاخ السيد البرازي بالاشارة اليها وحوادث وقعت في الجبل اشار اليها الزميل السيد يوسف الاطرش فاقول لكم ان الحكومة تقوم تجاه جميع هذه الحوادث بكل ما يجب عليها فما يتعلق بالحادث الذي وقع في الجبل بادرنا حالا لارسال طبيب يعاين هؤلاء الانفار وابلغتهم الحكومة انهم اصبحوا منضمين الى الحكومة السورية وقد قمنا بهذا العمل اما اذا قيل ان السلاح لم يعط لهم فاقول بكل اسف ان السلاح غير موجود فيجب اذن ان لا نتسرع كثيرا بل ان ننظر الى الامور من جميع نواحيها".

وقد رد جميل مردم على ما جاء في كلمات بعض النواب وعلق عليها، كما تعرض لكلمتي، فقلت:

"ليست قضية الجيش في هذه الجلسة قضية احراج او استعجال الامر وبحثه قبل اوانه ولكن المشروع المعروض على المجلس يتعلق بصميم هذه القضية وقد قال دولة الرئيس ان اقرار هذا المشروع يفيد في الحالين، في حال استلام الجيش او تشكيله مما يستفاد منه ان دولته لا يجزم باحدى الناحيتين الاستلام او التشكيل وعلى كل فالذي اراه ان قانون تشكيل وزارة الدفاع الوطني يناقض من جهات عديدة تشريع الجيش السوري الموجود حاليا فيجب تحديد الخطة قبل اقرار هذا المشروع لان للجيش السوري كما تعلمون تشريعا معمولا به فيجب البحث في هذا التشريع عند استلام الجيش وانكم عندما تقرأون المشروع المعروض عليكم تجدون في كل نقطة وناحية منه مساسا بالتشريع القائم في الجيش السوري فارى أنه من قبيل البحث في الامر قبل حدوثه اقرار هذا القانون.

اما قضية الاتفاق الثقافي او كما قال دولة الرئيس الاتفاق الجامعي ان هذا الاتفاق سواء أكان ثقافيا أو جامعيا الا ان له مساسا صميميا

كما قلت في الخطة السياسية الخارجية فالاتفاق الجامعي لو فرضنا انه جامعي فقط له خطورته وله تأثيره على مستقبل البلاد وعلى ثقافتها.

اما أن الجيش لا قيمة له لان بلادنا صغيرة فانني اعتقد أن هذا القول مخالف للحقيقة ومخالف لاماني الامة مخالفة تامة.

رئيس الوزراء بالوكالة السيد جميل مردم بك - انا قلت من الناحية الحربية.

ثم تابعت: وبالحقيقة إن لهذا الجيش كل القيمة العسكرية فهل يمكن أن يستقر الحكم في أي بلاد دون أن يستند الى قوة عسكرية أتوني بمثال واحد في أية دولة من دول العالم هل قام حكم دون ان تدعمه قوة عسكرية؟ هذا من ناحية الوضع الداخلي اما من ناحية الوضع الخارجي فهل يليق بامة مستقلة ان تبقى بدون جيش ولو كان هذا الجيش شكليا أو رمزيا، ان أقل دول العالم عددا والتي تقل عنا كثيرا في مساحتها وعدد سكانها لها جيوش منظمة.

اما قضية مؤتمر سان فرانسيسكو والسلم العالمي في المستقبل فانني اقول لدولة الرئيس انه عندما تقرر الامم حل جميع قواها العسكرية فنحن عند ذاك نحل هذا الجيش السوري الصغير الذي سنستلمه والذي لا نريده ان يكون خنجرا في يد الاجنبي يهددنا به في كل وقت وفي كل آن.

اما الوضع السياسي الخارجي فانني اعتقد، وهذا ما اقوله بصراحة تامة ان نجاح سياستنا الخارجية يتوقف على سياستنا الداخلية مباشرة وان احترامنا في الخارج متوقف الى حد بعيد بل كل الوقف على موقفنا الداخلي اما انتظار الاحداث العالمية فهذا امر عجيب جدا لانني اخشى فوات الفرص"

سوريا تحتفل بانتصار الحلفاء ، وفي اليوم نفسه آلاف الضحايا في الجزائر

كانت جلسة 8 مايس 1945 البرلمانية جلسة الاحتفال "ببشرى" انتصار الحلفاء على ألمانيا الهتلرية، ووصف جميل مردم

ذلك اليوم بأنه "يوم حاسم في تاريخ الانسانية غلبت فيه على أمرها أعظم قوة عسكرية عرفها التاريخ ... واننا نرجو ونحن نساهم في هذا النصر كما ساهمنا قدر استطاعتنا في المجهود الحربي وانضممنا الى ميثاق الأمم المتحدة أن يطل على العالم فجر يحقق المبادىء السامية والمثل العليا...

وقد قررت الحكومة المشاركة في هذا اليوم العظيم واقامة معالم الزينة والأفراح مدة أربعة أيام ... وقد وضعت الحكومة برنامجا للابتهاج بأعياد النصر في كل المحافظات وكان للرئيس القوتلي دور بارز في حفلات دمشق، كما أقام حفة خاصة لتكريم جنود الحلفاء.

وفي هذا اليوم الذي احتفل فيه الشعب الجزائري أيضا بانتصار الحلفاء حصد فيه المستعمرون الفرنسيون بنيرانهم من المتظاهرين العزل 45 ألف شهيد لأن هذه المظاهرات السلمية الاحتفالية بعيد النصر هتفت لاستقلال الجزائر وحريتها، وكان لهذا المجزرة صدى ألم وحقد عميق ضد الفرنسيين سواء في سورية أو في البلاد العربية.

18

عـام 1945 : قضـية اسـتلام الجـيش فـي مجلـس النواب- المجلس يقر قانون حماية الاستقلال - ثورة الشـــعب الســـوري تتفجـــر وتتصـــاعد بســـرعة - الفرنسيون يقصـفون بنـاء مجلـس النـواب ودمشـق وبقية المدن السورية الأخرى -رئيس وزراء بريطانيـا تشـرشـــل يـأمر قائـد قـوات الحلفـاء فـي الشـــرق الأوسط بالتدخل لوقف العدوان.

عدوان استفزازي على مجلس النواب :

بينما كانت الحكومة السورية تحتفل "بأعياد النصـر" اسـتغل الفرنسيون هذه المناسبة فقاموا في اليوم ذاته باعتداءات وأعمـال اسـتفزاز وفـتن فـي معظـم أنحـاء الـبلاد. وقـام بعـض عملائهـم وماجوريهم المسـلحين بعـدوان اسـتفزازي علـى مبنـى البرلمـان، الأمر الذي حرمت الصحافة حتى من الإشارة إليه. فقلـت فـي أول جلسة عقدها المجلس النيابي بعد ذلك، في 14 مايس 1945 :

"اعتقـد أن المواضـيع التـي أثارهـا الـزملاء تلتقـي فـي صـعيد واحد. فقد سمعنا منذ مدة وتأكد لدينا أن السلطة الفرنسية أرسـلت جنودا إلى سوريا. كما أن الصحف نشرت برقيـات وتصـريحات معـزوة إلى رجال فرنسيين تتردد فيها النغمة الشيطانية التي تكاد لا تنتهي حتـى تبتـديء، وهـي نغمـة المعاهـدة. وهنـاك ظـاهرة ثالثـة رافقـت مجيء الجنرال بينيه من فرنسـا إلـى سـوريا وهـي ظـاهرة التحـدي والاستفزاز المرتب والمنظم مـن قبـل الفرنسـيين، والـذي ظهـر فـي جميع المدن السورية. وأعظم تلك التحديات والاعتداءات سوء ما وقع على بيت الأمة، هذا الحرم المصون فـي نظـر الشـعب. وهـو اعتـداء على الشعب وعلى الأمة بأسـرها. فقـد أرسـلوا أشخاصـا، أو جنـودا بالأحرى، بعد منتصف الليل فأطلقوا العيـارات الناريـة والقنابـل علـى هذا المجلس، ثم التجـأوا إلـى بعـض المنـازل بعـد فعلـتهم الشـنعاء. فيجب أن تعرف هذه المنـازل وأصـحابها. فـإذا كـانوا سـوريين اتهمـوا

بالخيانة العظمى لتآمرهم مع الأجانب، وإذا كانوا أجانب فعلى الحكومة أن تنزل بهم العقاب الصارم. ولا أخال هذه الحوادث فردية بل هي موعز بها من السلطة الفرنسية لمقاصد سياسية. وقد قيل لي أن الاشخاص الذين ركبوا العجلات وأطلقوا العيارات النارية واستفزوا الشعب هم من المنتسبين للدوائر السياسية. فأنا أسأل الحكومة أولا عن التحقيق الذي أجرته هل استكملته أم لا؟ ثانيا: ما هي التدابير التي اتخذتها وما هو موقفها من رجال الأمن الذين أتوا إلى المجلس؟ وكيف يجوز لهم بل كيف يليق بهم أن يتركوا هؤلاء المعتدين يفرون؟ .. لقد كان أولى برجال الشرطة أن يموتوا ولا يدعوا هؤلاء يفرون من بين أيديهم. فمن هو المسؤول؟ هل هو مدير الشرطة أو الحكومة؟ وما هي التدابير التي اتخذت؟ .. إنني ألفت نظر الحكومة إلى أن تفكر جديا بوضع حد لهذه المهازل التي تقوم في هذه البلاد. تلك المهازل التي طال أمدها وقد حان لها أن تقف عند حد.

إن النصر أيها الأخوان قد ساهمت فيه الأمم المتحالفة، وقد ساهمت فيه سوريا مساهمة فعلية. ولا أريد أن أقدر الدور الذي قامت به فرنسا ولا مساهمتها بهذا النصر، لأن جميع العالم يعرف ذلك ويقدره حق التقدير. فما هو الداعي لهذا المظهر الذي ظهرت به في هذه البلاد؟ ونحن نعلم أن الانكليز والأميركيين كانوا أكثر تضحية في مضمار هذه الحرب العالمية. ومع ذلك فقد كان موقف هاتين الدولتين يختلف كل الاختلاف عن موقف الحكومة الفرنسية. وإننا نعلم، والأمة تعلم أيضا، أن كثيرا من الفرنسيين الذين لا يزالون في هذه البلاد هم من بقايا فيشي، فما معنى هذا المظهر وما معنى هذا الموقف الذي تقفه فرنسا ولا سيما بعد مجيء الجنرال بينه وبعد تلك التصريحات؟ فهل تعتقد فرنسا أنها تستطيع بمثل هذه الوسائل أن تضغط على الشعب السوري وأن ترغمه على قبول المعاهدة المزعومة؟ إنني أريد من الحكومة جوابا على كل هذه النقاط".

وعندما قام جميل مردم ليرد على كلمات النواب، اضطر للاعتراف بالفتن الداخلية التي يثيرها عملاء المستعمرين، كما

اضطر للاعتراف بما كان يتخوف منه الناس وهو استقدام فرنسا لقوات من الخارج إلى سوريا ولبنان، فقال :

"أما البارجة المشار إليها فقد وصلت بالفعل يوم الأحد إلى مرفأ بيروت، ثم غادرته وعلى ظهرها قسم من الجنود يقول البعض إنه أقل من العدد الذي جيء به، ويقول البعض الآخر إن الذين أبحروا أكثر من الذين جيء بهم. فسواء أكان عدد المبحرين أقل أو أكثر فإن هذا لا تأثير له البتة على موقفنا السياسي، فوجود ألف جندي أو أقل أو اكثر لا يغير من موقفنا الذي أعلناه بصراحة تامة. حتى إنني صرحت اليوم في اجتماع الصحفيين بأن سوريا عازمة عزما أكيدا على الاحتفاظ باستقلالها والدفاع عن سيادتها، وهي غير مستعدة لعقد أية معاهدة تنتقص من هذه السيادة أو أي اتفاق يمس هذا الموقف. وهذه الخطة التي سارت عليها الحكومة وأيدها المجلس فيها ثم أيدتها البلاد في جميع الظروف والمناسبات أظن أنها خطة لا يمكن للحكومة الحاضرة ولا لأية حكومة تقوم في هذه البلاد أن تحيد عنها.

أما ما يتعلق بحوادث اللاذقية فإنني أشكر الزميل الأخ السيد نجيب الريس الذي أثار هذا الموضوع لأنني اعتقد أن ما حدث في اللاذقية منذ اربعة أشهر كان بمثابة اعتداء صريح على سيادة البلاد واستقلالها. وما كان يجوز بوجه من الوجوه إرسال جنود فرنسيين الى تلك المنطقة بحجة صيانة الأمن لأن حفظ الأمن في داخل البلاد من خصائص الحكومة السورية وحدها. وليس لأحد أن يتدخل في هذا الأمر أبدا. وقد أبلغت السلطات الفرنسية منذ شهر ضرورة سحب هذه القوات. وإنني أرغب عندما أذهب إلى اللاذقية أن يكون هؤلاء الجنود قد غادروا المنطقة. وقد أجبت منذ أسبوع بأن قسما كبيرا من هذه القوات قد سحب وأن القسم الآخر وهو القليل سينسحب الآن.

أما فيما يتعلق بالحوادث الأخيرة فتذكرون أن مجلسكم الكريم عندما كان يعقد جلسته الأخيرة أطلقت عيارات نارية بالقرب من هذا المجلس. ولما خرجت من المجلس استدعيت رئيس أركان الجيش الأفرنسي وأبلغته المحاذير التي تنجم عن هذه المظاهر، وفي ذلك

اليوم اتخذ هو التدابير اللازمة ضد وقوع هذه الحوادث، ولكن في اليوم التالي قامت مظاهرة مؤسفة في آن واحد اشترك فيها موظف افرنسي طافت في شوارع دمشق وأطلقت النار في كل مكان مما سبب الاضطراب، وقد اتخذت الاجراءات القانونية بحق هؤلاء المعتدين. وقد أرسلت هذه المذكرة منذ ثلاثة أيام. وجاءني اليوم السيد (الاغارد) وأبلغني أنهم يعتذرون ويبدون أسفهم لهذا الحادث الذي وقع وهو حادث فردي. وانه أمر باتخاذ جميع التدابير اللازمة واجراء تحقيق شديد لمعاقبة هؤلاء الأشخاص الذين قاموا بهذه الأعمال الفردية".

كما تليت في تلك الجلسة برقية سلطان الأطرش قائد الثورة السورية الكبرى إلى المجلس النيابي: "ما كنا قط لنستكين للذل والهوان في سبيل حرية بلادنا واستقلالها، إن بقايا السيوف من أبناء الجبل متهيأة للجهاد المقدس الذي يصون الحق ويزهق الباطل".

قانون حماية الاستقلال ووحدة الوطن :

تمكنت الحكومة، مع لجان المجلس، من تأخير صدور قانون حماية الاستقلال طيلة المدة المنصرمة. ولولا أن بلغت مؤامرات الفرنسيين وعملائهم ذلك الحد الذي أقر به رئيس الحكومة بالنيابة لما أمكن لهذا القانون أن يخرج من لجان المجلس إلى النور. ففي جلسة 14 مايس 1945 تلي تقرير اللجنة القضائية الذي لخص في مقدمته النقاط الأربع الأساسية للقانون بما يلي :

عقدت اللجنة القضائية عدة مرات لدرس الاقتراح المقدم من النائب السيد أكرم الحوراني المتضمن حماية الاستقلال ووحدة الوطن فوجدته يتناول أربعة أمور. الأول منها بمجازاة من يستغلون النعرات الطائفية أو المذهبية لإثارة اضطرابات من شأنها تمزيق وحدة الأمة والوطن. والثاني بمجازاة من يتجسسون لحساب دولة أجنبية أو يثيرون الفتن والاضطرابات مستغلين احدى النعرات المذكورة بدافع من احدى الدول الأجنبية. والثالث بمجازاة من لا

يلبون طلب الحكومة بترك خدمتهم لدى الدول الأجنبية. والرابع بإلغاء أحكام القرار رقم 4 المعروف بقانون قمع الجرائم.

ثم دارت في المجلس مناقشات مطولة حول تقرير اللجنة، بينما حاول بعض النواب الموالين تأجيل المصادقة على القانون مما يشير الى عدم استعداد الحكومة لدعوة الضباط والافراد المنتسبين للجيش للالتحاق بالجيش السوري، غير أن المناقشة انتهت بالموافقة على القانون مع بعض التعديلات.

أما بالنسبة لقانون قمع الجرائم الذي أصدره المفوض السامي بالقرار رقم (4) والذي كان سيفا مصلتا بيد الانتداب لقمع الانتفاضات والمظاهرات وفرض العقوبات الجائرة بحق المناضلين ضد الاحتلال، فقد وافقت الحكومة على إلغائه حسب تقرير اللجنة القضائية ولكنها طلبت الاستعاضة عنه بقانون آخر وفيما بعد عندما قدمت مشروع هذا القانون تبين أنها كانت ترمي إلى خنق أصوات المعارضة وذلك عندما تقدم صبري العسلي بالمرسوم الاشتراعي رقم 50 الذي قاومه الشعب مما اضطر الحكومة إلى إلغائه، كما سيرد ذلك في حينه.

الحكومة تغير سياستها :

يمكن اعتبار يوم 8 مايس الذي بدئت فيه الاحتفالات، بانتصار الحلفاء على ألمانيا بداية صفحة جديدة في تاريخ القضية الوطنية. فبعد أن صدق المجلس على قانون حماية الاستقلال، وبعد أن بلغت التعبئة الثورية ذروتها منتظرة الشرارة الأولى للانفجار، اضطرت الحكومة تحت ضغط الجو الشعبي والبرلماني لتغيير سياستها في التعاقد مع فرنسه على نحو يعد تراجعا كليا عن خطها السابق.

ففي 14 مايس عقد جميل مردم، رئيس الوزراء بالوكالة، مؤتمرا صحفيا قال فيه: "انه لا يجوز لأي سوري كان أن يعمل تحت علم أية دولة أجنبية أخرى أو يخدم في جيشها ... أما الاتفاق الثقافي فإن للفرنسيين مؤسسات علمية في هذه البلاد كما لغيرهم. وليس من داع للاتفاق الثقافي بيننا وبينهم لأنه لا

رابطة تربط لغتنا العربية باللغة الفرنسية، ونحن فوق ذلك مقيدون بأحكام ميثاق جامعة الدول العربية التي تقضي بعدم إبرام معاهات تتعارض مع أحكام ميثاق الجامعة".

وسئل مردم عن الجو السياسي فقال: "إن الجو مضطرب وهاديء، فهناك اضطراب في النفوس يسير إلى جانب هدوء في الأعمال وفي الحالة العامة. إلا أن الحوادث التي وقعت يوم النصر شوهت من جمال ذلك اليوم. إن هذه الحوادث تكررت في دمشق وفي اللاذقية".

وقال: "إن الحرب قد انتهت ويجب جلاء الجيوش الموجودة في البلاد، على أنه إذا كانت هناك ضرورات عسكرية فإننا سنجري اتفاقات بشأنها".

وسئل عن قضية الجيش السوري والأمور الأخرى فقال "إن الحكومة السورية صرحت مرار بأن الجيش السوري والفرق الخاصة يجب أن تنتقل ليد الحكومة السورية لأن كل شيء فيها سوري جنودها وضباطها وأسلحتها وتجهيزاتها اشتريت بأموال سورية".

وسئل ما إذا كان للحكومة السورية حصة في مصفاة طرابلس فأجاب: "إن مصفاة طرابلس وميناء بيروت والخط الحديدي الممتد إلى تل كوشك لسوريا علاقة وحصة به كما للبنان. لأن النفقات التي صرفت في سبيل ذلك كانت من أموال المصالح المشتركة ونحن ولبنان مشتركون في هذه المصالح".

ثورة بلا قيادة :

بعد منتصف شهر مايس 1945 انقلب الجو الشعبي في سورية من المظاهرات والاضرابات إلى وضع ثوري حقيقي ولكن - وخصوصا في دمشق- دون قيادة ولا تنظيم، بينما سرت اشاعات عن اتصال بعض السياسيين[1] بالسلطات الفرنسية.

(1) أثر العدوان الفرنسي في مايس 1945 انتشرت في دمشق إشاعات مفادها أن الفرنسيين اتصلوا أثناء الحوادث ببعض السياسيين الذين كانوا من أنصار الشهبندر ثم أصبحوا من جماعة الشيخ تاج بعد ذلك، فتفاهموا معهم على تأليف حكومة تقوم على أشلاء الحركة الوطنية

أمـا الحـزب الشـيوعي فقـد أصـدر بيانـا بتـاريخ 5 آذار، بعـد اجتماع عقده ممثلو اللجنة المركزية للحزبين الشيوعيين السـوري واللبنـاني، جـاء فيـه: "درس المجتمعـون تطـور العلاقـات السـورية اللبنانية - الفرنسية فاظهروا ارتياحهم في أن يستمر هذا الجو وأن تؤدي المفاوضات مع الجانب الفرنسـي إلـى تسـوية جميـع الأمـور المعلقة وإلـى اقامـة الصـداقة السـورية اللبنانيـة الفرنسـية علـى أسس وطيدة. ورأى المجتمعون ضـرورة التحـذير مـن العناصـر غيـر المسـؤولة ومـن جميـع العناصـر المدسوسـة الداخليـة والخارجيـة التي تحاول عرقلة سير المفاوضات لأنها تريد استمرار حالـة التـوتر والاضـطراب خدمـة لأغـراض غريبـة عـن المصـلحة القوميـة... إن السـوريين واللبنـانيين الـذين يبغـون الـتخلص مـن حالـة القلـق ... **يرون أن التحالف والصداقة بين الطرفين هما مـن مصـلحة سوريا ولبنان والشعب الفرنسي".**

وصول قوات فرنسية جديدة :

وكـان ممـا زاد بفضـح نوايـا الاسـتعمار الفرنسـي أن فرنسـا اسـتقدمت مـن الخـارج قـوات مسـلحة جديـدة فـي الوقـت الـذي استشرت فيه مؤامراتها واعتداءاتها فـي جميـع أنحـاء الـبلاد. فـزاد اسـتقدام هـذه القـوات الغازيـة مـن التعبئـة الثوريـة فـي صـفوف الشعب بسوريا ولبنان وفضح النواب اللبنانيون نوايا فرنسا المبيتة، فقد تساءل النائب أبو جودة عن أسباب قدوم هذه القوات قائلا :

ماذا يريد الفرنسيون من جلب الجنود الفنية بعد الفينة؟ هل يريدون إرغامنا على ما يرمون إليه؟

وقال النائب لحود :

والحياة الدستورية الديمقراطية، وقد ظلت هذه الاتهامات فـي حـدود الشـائعات فلـم تـر النـور لا على صفحات الجرائد ولا في المجلس النيـابي، إلا مـا ورد فـي تعريضـي الغـامض بوجـوب إدانـة المتعاونين، فلم يكن هنالك مستمسـك لهـذه التهمـة بـالرغم مـن أن الشـعب كـان يـذكر بعـض الأسماء مثل نصوح بابيل صاحب جريدة الأيام ومنير العجلاني ورياض العابد وغيرهم، ولكن نظـام القوتلي لم يحقق بصحة هـذه الـتهم، ويبـدو أن قـوى خارجيـة لـم يكـن لهـا مصـلحة بمثـل هـذا التحقيق.

لن نسمح لأي كان أن يرسل جنودا إلى بلادنا، فليس لبنان فندقا أو مأوى ، بل هو موطن الأحرار الذين يعرفون كيف يدافعون عن الحرية.

فرنسا لم تتزحزح عن عقليتها الاستعمارية :

استمرت الاضرابات والمظاهرات الشعبية في جميع المدن السورية من 20 مايس إلى ما بعد العدوان، في هذا الجو المتوتر عقد المجلس النيابي جلسة مساء 21مايس، وكنت أول المتكلمين فجاءت كلمتي على موعد مع بدء الثورة المسلحة في حماه. ففي ذلك اليوم أخلى الفرنسيون مطاريهما القريبين من حماه، كما أخلوا مواقعهم وثكناتهم ودوائرهم ودار المستشارية من داخل المدينة وانسحبوا الى ثكنة (الشرفة) خارج المدينة .. أما في دمشق فقد كان الوضع على العكس اذ كانت مواقع الفرنسيين واستحكاماتهم ومراكزهم العسكرية مبثوثة في البيوت والأمكنة والثكنات التي يحتلونها في قلب المدينة.

قلت في ذلك الخطاب: "لقد قلنا ولا نزال نقول إن عقلية الافرنسيين لم تتبدل. وإن ما طلبته فرنسا عام 1920 هو عين ما طلبته عام 1936 وهو نفس ما تطلبه الآن عام 1945. وهم يريدون منا مركزا ممتازا. وبهذا المركز يطلبون امتيازات ثقافية واقتصادية وامتيازات عسكرية بحرية وجوية وبرية. أي أنهم يريدون تبديل اسم الانتداب فقط لا حقيقته.

إن فرنسا الفيشية التي خدمت الألمان برجالها وبأرضها ورجالها أيضا تريد الآن أن تتحدى هذا الشعب الوديع الآمن، وتقوم بأعمال الاستفزاز والتعدي. وها هي حوادث حلب ودمشق ماثلة للعيان.

إن الله معنا أيها السادة، والعالم بأجمعه يؤازرنا ويعاوننا لنقوم بواجبنا على الوجه الأتم. وان التحرير الوطني لا يتم بالأساليب السياسية بل بالضحايا والدماء. ونحن مستعدون لبذل النفوس رخيصة في سبيل هذا التحرر وتأمين سيادتنا واستقلالنا.

إن وضعنا اليوم يختلف تمام الاختلاف عما كان عليه عام 1920. إذ أصبحنا أمة عربية تضم خمسين مليونا من العرب يشعرون بشعور واحد ويصدرون عن عاطفة واحدة ويقفون متضامنين تجاه أمة منهزمة تأتينا بحثالات الشعوب والأمم (إشارة للفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي) لتفرض علينا اتفاقات هي الاستعمار والاستعباد بل هي شر منهما.

لقد صرح وكيل الخارجية الأميركية بأن اعتراف أمريكا بسوريا مرتبط بشرف 150 مليون أمريكي. وقد قدمت اقتراحا لمقام الرئاسة يقضي بتأليف الجيش حالا ودعوة الضباط والجنود المستخدمين في الجيش السوري إلى الالتحاق بوزارة الدفاع الوطني خلال خمسة عشر يوما. ومن يتخلف تطبق بحقه المادة الثالثة من قانون حماية الاستقلال، ويتضمن أيضا دعوة الحكومة لجميع المواطنين من سن الثامنة عشرة حتى الستين، من الذين لديهم السلاح والقادرين على حمله، ليدربوا ويستخدموا كحرس أهلي، ويتضمن أيضا زيادة عدد رجال الدرك، وتكليف الحكومة أيضا منع محطة دمشق من نشر اذاعاتها والدعايات المغرضة الكاذبة".

وقد أجاب رئيس الوزراء بالوكالة جميل مردم، بخطاب طويل قال فيه:

"في الوقت الذي كنا نتوقع فيه أن نرى فرنسا بعد أن أظهرنا لها حسن نوايانا في طليعة الأمم المعترفة باستقلالنا والمؤيدة لسيادتنا، نراها تعمل على إضعاف هذا الاستقلال بمختلف الأساليب على الرغم من الجو الهادىء الذي أوجدناه في البلاد والاستعداد الحسن لحل القضايا المعلقة بيننا وبينهم وفقا للنصائح التي أمدتنا بها الدول الحليفة الكبرى والدول العربية الشقيقة، وبعد مرور أشهر عديدة صبرنا فيها وانتظرنا طويلا فؤجئنا بالحوادث الأخيرة. وها أنا أتلو عليكم الوثائق الرسمية المتعلقة بكل تلك الأحداث".

نص المذكرة الفرنسية المقدمة للحكومة السورية في 18 مايس 1945.

إن البادرة الأولى لسلطة فرنسا الحرة عند وصولها الى الشرق كانت إعلان استقلال سوريا ولبنان. وبنتيجة هذه البادرة أضحى هذا الاستقلال الآن أمرا راهنا. إنه ليسر فرنسا أن ما شرعت به قد آتى ثماره. وهي تتمنى أن تمارس الحكومتان السورية واللبنانية سلطتهما الكاملة بدون عرقلة أو عقبة من أي نوع كان.

وبهذه الروح وبدون أي تحفظ بشأن استقلال سوريا ولبنان ترغب الحكومة الفرنسية ان تؤمن -فيما يتصل بها- صيانة المصالح الجوهرية التي تحتفظ بها فرنسا في سوريا ولبنان. أن هذه المصالح هي على ثلاثة أنواع: ثقافية واقتصادية واستراتيجية.

ان الأحكام الثقافية التي تهم سوريا وفرنسا يمكن تحديدها وضمانتها باتفاق جامعي. ويكن تحديد الأوضاع الاقتصادية المتقابلة وضمانتها باتفاقات مختلفة ينص عليها في موضوع كهذا بالأصول الدولية المعتادة.

أما الأوضاع الاستراتيجية فتتضمن قواعد تمكن من ضمانة طرق مواصلات فرنسا وممتلكاتها فيما وراء البحار.

عندما يتم التفاهم على هذه النقاط توافق الحكومة الفرنسية على نقل القطعات الخاصة إلى الدولتين مع الاحتفاظ بإبقاء هذه الجيوش تحت القيادة العليا الفرنسية ما دامت الظروف لا تسمح بممارسة القيادة الوطنية ممارسة تامة.

نص المذكرة السورية المقدمة للجانب الفرنسي في 20 مايس 1945:

إن الحكومة السورية التي عملت جاهدة على خلق جو هادىء يساعد على حل المسائل المعلقة بين سوريا وفرنسا كانت وقفت موقف الآسف حيال الحوادث التي أثارتها بعض العناصر العسكرية الفرنسية والتي كثيرا ما عرقلت هذه الجهود.

وهي ترى من واجبها أن تحتفظ بالموقف الذي اتخذته من قبل فيما يتعلق بإنزال جيوش أجنبية في أراضيها وأن توضح مرة

أخرى أنها ترى في انزال قوات جديدة في سوريا ولبنان عملا غير ملائم ولا يمكن أن يرضى عنه.

ولقد بينت الحكومة السورية بجلاء للجانب الفرنسي في 4 مايس 1945 أنهالن تقبل في المستقبل بدخول جيوش أجنبية أراضيها أو مرورها على ظهر بارجة حربية دون سابق موافقة من الحكومة السورية بالرغم من أن وزير الخارجية السورية كان أوضح لسعادة الكونت أو ستوروغ حين سلمه مذكرته في مايس وجهة نظر الحكومة السورية في هذا الأمر.

وقد أبدى معالي السيد هنري فرعون وزير الخارجية اللبنانية بعد ذلك، متكلما باسم الحكومتين اللبنانية والسورية، أنه في حال وصول قوات فرنسية جديدة دون موافقة سوريا ولبنان ستتخذ الحكومتان الاجراءات التي تقتضيها الظروف.

وفي خلال المقابلة التي جرت في الساعة 17.30 من يوم الخميس في 17 مايس 1945 في قصر المهاجرين بين فخامة رئيس الجمهورية السورية وسعادة الجنرال بحضور دولة جميل مردم بك رئيس الوزراء بالوكالة ووزير الخارجية، أعلن الجنرال أن فرنسا مستعدة لتسليم الجيوش المسماة بالخاصة لسوريا ولبنان مع التحفظ بدرس أساليب انتقال هذه القوات. وأن فرنسا تطلب مقابل ذلك منحها قواعد بحرية في لبنان وأخرى جوية في سوريا، كما تطلب ضمان مصالحها المادية ومصالحها المعنوية التي يتفرع عنها عقد اتفاق جامعي.

وقد وجه فخامة رئيس الجمهورية ودولة رئيس الوزراء نظر الجنرال إلى أن هذه هي المرة الأولى التي تتقدم فرنسا فيها بمثل هذه الطلبات وأوضح له أن هذه الطلبات لا يمكن القبول بها. وقد اتفق في ختام هذه المقابلة على أن يحمل سعادة الجنرال بينيه في الساعة 11 من يوم الجمعة 18 مايس مذكرة خطية تتضمن فحوى هذا الحديث الى وزارة الخارجية حيث يستقبله دولة وزير الخارجية بحضور معالي السيد هنري فرعون وزير الخارجية اللبنانية.

وخلال الاجتماع الذي عقد في اليوم التالي قدم سعادة الجنرال مذكرة خطية تتضمن الطلبات الفرنسية التي ذكرها في حديثه. ولكن هذه المذكرة لم تقتصر على جعل انتقال الفرق الخاصة إلى سوريا منوطا بمنح القواعد المطلوبة بل أبقت هذه الفرق تحت القيادة العليا الفرنسية لمدة غير محدودة أنيطت بالظروف المستقبلة.

فأمام هذه الوقائع تعلن الحكومة السورية التي أقامت مرارا البرهان المحسوس على حسن نيتها وعلى أكيد رغبتها في إيجاد حل للأمور المعلقة بين فرنسا وسوريا أن هذه المذكرة تتضمن طلبات وتنم عن روح لا يتفق مع استقلال سوريا وسيادتها، وأنه ليس باستطاعة الحكومة أن تدخل في المفاوضة مع فرنسا على الأساس الوارد في المذكرة.

وهي إلى جانب ذلك تؤكد أنا تعتبر استقدام القوات الفرنسية إلى سوريا ولبنان دون الحصول على موافقة الحكومتين السابقة مساسا صريحا بسيادة البلاد واستقلالها وظاهرة ضغط لا يمكن قبولها.

لذلك فان الحكومة السورية تطلب بإصرار أن تسحب جميع القوات الأجنبية من أراضيها وأن يصار إلى تسليمها جيشها في أقرب وقت.

الثورة تتفجر وتتصاعد بسرعة

في مساء يوم الخميس 24 مايس انطلقت الثورة في حماه. وفي ذلك المساء ذاته كان المجلس النيابي يستمع إلى تقرير لجان الداخلية والدفاع والخارجية حول الاقتراح الذي قدمته مع بعض النواب بإضافة خمسة آلاف دركي إلى قوى الدرك الاحتياطية، ودعوة المواطنين الذين بلغوا الثامنة عشرة حتى الستين، لحمل السلاح. وقد أقرت اللجان هذين الاقتراحين في ذلك الجو الثوري".

وبعد يومين عقد المجلس النيابي آخر جلساته قبل العدوان الفرنسي على مبنى مجلس النواب، وقد خشيت بعد أن انطلقت

الثورة أن تتراجع الحكومة عن موقفها فتدخل بمفاوضات مع الجانب الفرنسي، فتقدمت بالسؤال التالي: **"أريد أن أعرف إذا كان دولة رئيس الوزراء سيجيب على جميع الأسئلة دفعة واحدة، وفي هذه الحال لدي سؤال أتقدم به إلى الحكومة وهو يدور في ذهن كل واحد منا: لنفرض أن الجانب الفرنسي تقدم بعروض جديدة تختلف عن الأسس التي ارتكز عليها في مذكرته السابقة.**

فهل الحكومة مستعدة للدخول مع هذا الجانب بالمفاوضة أم أنها غير مستعدة للدخول في مثل هذه المفاوضات ولا تقبل البحث مع الجانب الفرنسي على أي أساس كان إلا بعد تسليمنا الجيش السوري بلا قيد ولا شرط. لأن هذا الجيش الموجود الآن تحت القيادة الفرنسية وسيلة لتهديد الطرف السوري. وكل تفاهم قبل ذلك يكون تفاهما إجباريا وينتج اتفاقا غير صحيح. إذ يكون هناك الإكراه والضغط من قبل هذه القوى التي هي تحت قيادة الجانب الفرنسي. هذا هو السؤال الذي نريد أن نفهم من الحكومة عن استعدادها للاجابة عليه، إذ إنني اعتقد أن النكوص والتراجع بعد الإقدام خيانة. وليعلم العالم أجمع أننا وطدنا العزم على أن نسير الى أهدافنا فإما أن نفوز وإما أن نصرع في ساحات الشرف".

وقد حض عدد من النواب في خطبهم على القتال والصمود في تلك المعركة مع الفرنسيين حتى النهاية.

فعدت للكلام ثانية :

"إن البلاد أيها السادة في حالة حرب مع فرنسا، ولا أرسل القول جزافا وإنما أقرر الواقع. لأن الأمة ستحشد كل قواها وستحارب فرنسا في الشوارع والساحات ومن النوافذ وأعالي الجدران وستحاربها بالسلاح والرصاص والحجارة. فإما أن تفوز وتنال أمانيها وإما أن تصرع في ساحات الشرف. ونحن لسنا في حالة ثورة، لأن الثورة تقوم بها دولة غير مستقلة ضد الدولة المحتلة. ولكن الوضع عندنا يختلف عن ذاك. فهنا حكومة مستقلة ذات سيادة تحشد جميع موارد الدولة والبلاد للذود عن حياض الوطن والدفاع عن استقلال البلاد. وإن وضعنا الحالي ليختلف كل الاختلاف عما كان

عليه في عام 1925 . إذ كان حينذاك وضع ثورة ولكنه الآن وضع حرب منظمة.

ليس الحلفاء هم المسؤولون عن استقلالنا وعن صيانته والدفاع عنه، بل نحن المسؤولون عن هذا كله. لا سيما ودول العالم قد اعترفت بهذا الاستقلال. وأن الدماء التي سفكناها رخيصة في سبيل هذا الوطن لهي الضمان الكافي لاستقلال هذا البلد وتأمين سيادته. فإذا أراد الحلفاء أن يحافظوا على شرف عهودهم ويعملوا على معاونتنا لحماية استقلالنا فعندها يجب علينا شكرهم ونقول لهم: لقد صدقتم وبررتم. أما إذا كان موقفهم غير ذلك فلا يسعنا إلا أن نقول لهم ما قلناه في عام 1920 عندما تنكروا لنا. وطعنونا في الصميم. ونحن أيها السادة وطدنا العزم على أن ننال استقلالنا وأن نحميه بدمائنا وأرواحنا. وسواء أيدنا الحلفاء أم لم يؤيدونا فإننا ماضون في طريقنا هذا حتى النهاية مهما كلف الأمر.

بقي علينا أمر واحد وهو أننا نريد تطمينا للأمة ووضعا للنقاط على الحروف، ولكي لا تلتبس الأمور أو تجري ألعاب بشكل بهلواني يجب أن لا ننقض ما عاهدنا عليه. ومن ينقض العهد يكن خائنا. إن موقف فرنسا أيها السادة قد تحدد فيجب اذن أن يعين موقف سوريا وأن يكون موقفا صريحا واضحا كما يحسه ويؤمن به رجل الشارع الذي يرى ببساطة ووضوح أن فرنسا لم تسلمنا جيشنا السوري، ولم تعمل على جلاء جيوشها ولم تتوقف عن إرسال قوى جديدة فإن كل تفاهم مستحيل حتى تتحقق هذه الأمور دون قيد أو شرط.

وأخيرا فإنني أؤيد اقتراح الزميل السيد رشدي الكيخيا وأطلب عقد جلسة سرية بالرغم من أنه ليس هناك أسرار، لأننا أصحاب حق نعرب عن آرائنا بصراحة ووضوح. ولا يهمنا أن تنقل هذه الآراء بل نريد أن يسمعها الأصدقاء والأعداء على السواء. وموقفنا واضح كالشمس لا لبس فيه ولا غموض. إنا نريد من عقد الجلسة السرية أن نكون هناك أكثر تبسطا ونخرج بقرار حاسم نذيعه على الشعب، ويذهب كل منا إلى منطقته ليقوم بواجبه هناك على نهج الخطة التي نضعها. وأرجو من دولة رئيس الوزراء أن يلقي بيانه الآن وقبل

عقد الجلسة السرية ليطمئن الشعب ويطلع على سير الأمور وتسلسل الحوادث".

وقد عقدت الجلسة السرية وتقرر فيها أن ينصرف كل نائب إلى منطقته ليتولى مع الشعب قيادة المعركة ... وانفرط الاجتماع على موعد بالالتقاء ثانية لعقد جلسة برلمانية مساء يوم 29 مايس 1945 .. ولكن تلك الجلسة لم تعقد، فقد تطورت الأمور على نحو آخر، وهذا ما جرى.

كنت أسهر مع حرس المجلس النيابي حتى الصباح:

كانت الجماهير في دمشق دون قيادة، عزلاء من السلاح، فاقتصرت مقاومتها على الاضرابات والمظاهرات والاصطدامات مع أفراد الجيش. وعندما يخيم الليل كانت مواقع الافرنسيين في البيوت والدوائر والثكنات تطلق النار بشكل متقطع على الأهلين في الشوارع والبيوت.

وبعد الدعوة التي وجهها المجلس النيابي للمواطنين بالتطوع في قوات الدرك **رأيت من المفيد جدا أن نبدأ نحن بممارسة هذا التطوع، فانضممنا لقوات الدرك ولبسنا البزة العسكرية وحملنا السلاح مع بعض أخواننا النواب، منهم قاسم الهنيدي نائب دير الزور وعبد الحكيم دعاس نائب جيرود وغيرهما... وكنا نتدرب في قلعة دمشق، وقد رفع تطوعنا المعنويات كثيرا، فخرجت مشاريع زيادة قوى الشرطة والدرك عن معناها الرمزي الى وضعها الحقيقي كقوة مقاتلة. وكنت الحظ ذلك من عيون الناس عندما نجتاز الشوارع والساحات العامة. كما كنا نحضر بلباسنا العسكري جلسات المجلس النيابي حاملين سلاحنا باستمرار.**

وطيلة تلك الفترة المضطرمة كنت أبيت في المجلس النيابي مع حرسه. وكان مبنى المجلس مطوقا من جهاته الأربع بمراكز عسكرية فرنسية ... كنت أسهر مع حرس المجلس حتى الصباح. وكنت معجبا بالشاب الشهيد طيب شربك ضابط الدرك.

والشاب الشهيد سعيد القهوجي ضابط الشرطة ورفاقهما. وكنت أزداد يقينا بالإمكانيات التي لا تحد عند شعبنا الباسل الشجاع.

ولأعطي صورة عما كان يجري بدمشق في ليالي العشر الأخير من شهر مايس 1945 أذكر أنني ذهبت مرة إلى البيت، وهو قريب من المجلس، ولما حاولت العودة إليه حسب العادة أخذ الفرنسيون يطلقون النار من بيوتهم في زقاق الصخر باتجاه وزارة الصحة التي كان منزلي يواجهها مباشرة. انطلقت النار بغزارة ففتح لي حارس مبنى الوزارة باب الحديقة فدخلت ثم صعدت إلى مرصد الوزارة، وهو يشبه مئذنة صغيرة. ومن هناك بدأت بإطلاق النار على بيوت الفرنسيين في زقاق الصخر.

واستمر ذلك حتى الصباح، وكانت تلك هي الليلة الوحيدة التي لم أتمكن فيها من حراسة مجلس النواب، وكنت أود لو استطيع السفر إلى حماه بعد انطلاق الثورة فيها، وقد درست هذا الموضوع مع بعض الرفاق ولكن دون جدوى، إذ أن ثكنات الفرنسيين ومراكز تفتيشهم كانت على طول الطريق بين دمشق وحماه، لا سيما وأنني معروف ولا سبيل لاختفائي، وأن الفرنسيين إذا لم يلجأوا لقتلي فلا بد من إلقاء القبض علي واعتقالي.

جلسة لم تعقد :

عين رئيس المجلس سعد الله الجابري مساء يوم 29 مايس موعدا لانعقاد جلسة البرلمان. ولما حضرت في الموعد المحدد لبثت منتظرا بعض الوقت مع العدد القليل من النواب الذين حضروا. ولما لم يكتمل النصاب انصرفنا.

ذهبت إلى بيتي فوجدت بانتظاري بعض طلاب كلية الطب الحمويين، وقد طلبوا إلي أن أصحبهم إلى مركز التطوع في حي الحلبوني، حيث وضعوا على سواعدهم شارات الهلال الأحمر، وبعد أن تركتهم قفلت راجعا، لكن ما إن وصلت إلى رصيف فندق الشرق إلا وانهالت نيران الفرنسيين كزخ المطر من جميع ثكناتهم ومواقعهم تضرب بالرشاشات كل من يمشي في شوارع دمشق،

وكـان ذلـك نتيجـة للأمـر الـذي أصـدره أوليفـا روجيـه قائـد القـوات الفرنسية في دمشق وفيما يلي نصه:

دائرة الاركان الحربية: ب-د- رقم 24

بلاغ هام

أيها الضباط والجنود الاجنبية والفرنسية، أيها العاملون تحت العلم الفرنسي؛ بعد الانتصار الباهر الذي أحرزته جيوشنا تحت قيادة الجنرال ديغول وحررت اراضينا بصورة خاصة رأت الحكومة الفرنسية عطفا على التقاليد التحريرية التي أخذتها على عاتقها منذ اجيال أن تخدم سوريا ولبنان كما خدمتهما حتى الان بان تتعاقد معهما وتمد لهما يد المعونة لئلا تكون عرضة لمطامع دول مختلفة فبعد المفاوضات رأت الحكومة الفرنسية أن تعرض على الحكومتين السورية واللبنانية شروط معاهدة فيها السخاء من الجانب الفرنسي الا أن الجانبين السوري واللبناني لم يجدا في كل بند من هذه البنود الا الاستعمار المطلق.

ولما كانت الازمة بدأت تستفحل من الواجب أن ألفت نظركم جميعا الى الاستعدادات التي يجب أن يقوم بها جيش الشرق ليكون محافظا على شرف فرنسا أولا وعلى الامن العام الذي أخذه على عاتقه ثانيا مؤكدا أن أقل مخالفة لهذه الأوامر تؤدي إلى الاحالة السريعة على المحكمة الفرنسية العسكرية لأن الوقت العصيب لا يسمح بالعطف على الخونة الناقضين لشرفهم العسكري.

1- يقضي واجب فرنسا العسكري ابادة جميع عناصر الشغب التي تريد اخراج فرنسا المنتصرة من هذه البلاد

2- يجب احتلال جميع دوائر الحكومة السورية ومؤسساتها الثقافية.

3- منع الاتصال مع جميع الدول العربية المجاورة.

4- يجب تجريد أفراد الشعب من الاسلحة والآلات الجارحة في ظرف 48 ساعة.

5- يجب أن تدار البلاد من قبل الحاكم العسكري وتفتح المحاكم العسكرية الى أن تنظر الدول المنتصرة في قضيتي سوريا ولبنان وتعود المياه إلى مجاريها.

على جميع أفراد القوى (الفرنسيين، السنغال؛ الهجانة، الشركس، وفرق المتطوعة) ان تكون على استعداد ليلا ونهارا عندما ترسل الأوامر التي لا يمكن تبليغها الا خطيا لا هاتفيا لاجتناب الاوامر المدسوسة على الفرق المرابطة داخل المدينة أن تكون متجهة الى الدوائر الحكومية الاقرب اليها وتقاد هذه القوة من قبل قائدها الذي يجب عليه أن يصل إلى المركز المطلوب مهما كلفه الأمر من ضحايا وعتاد وإذا أبدى الأهالي أو العناصر المتطوعة في خدمة الحكومة السورية أية مقاومة عليه أن يقاومها بالمثل مع العلم أن مقاومة الاهالي التي عرفناها وتعودناها لا تدوم سوى وقت قصير ومع ذلك يجب أخذ يقظة الشعب وتدريبه الحديث بعين الاعتبار.

فالقوى الموجودة في دار المفوضية تتجه نحو قصر الرئاسة والقسم الثاني من هذه القوى يقصد دور الوزراء الذين هم بقربه والقوى المرابطة في شارع بغداد تتجه لحماية مدرسة اللايبك واحتلال وزارة الدفاع الوطني ووزارة المعارف وتساعد القوى الموجودة في دائرة الاركان الحربية لاحتلال البرلمان السوري تساعده في ذلك الدبابات والسيارات والمصفحات، والقوى الموجودة في شارع النصر يقع عليها القسم الأكبر من هذا الهجوم الليلي اذ يقضي واجبها باحتلال دوائر الحكومة والشرطة والبلدية مستعينة بالقوى المرابطة في ندوة الفرنسيين جانب نهر بردى بعد بدء الاحتلال بوقت قصير تعطى الاوامر للقوى العامة في ثكنة الحميدية والمزة لاحتلال المدينة احتلالا تاما بينما تقوم دائرة الامن العام الفرنسية بمساعدة موظفيها المخلصين بالقاء القبض على من كان سببا لاثارة الشعب على الحكومة الفرنسية الظافرة.

على فرق الشراكسة والهجانة المرابطة خارج المدينة وعلى أطرافها مراقبة الطرق المؤدية الى دمشق وتفتيش جميع السيارات قبل دخولها المدينة لايقاف تسرب الاسلحة التي أصبحت كثيرة في المدة الأخيرة من شرق الأردن والعراق، أما الجسور المختلفة المؤدية الى المدينة كجسر المزة وجسر تورا فيجب المحافظة عليها من قبل السيارات المصفحة والدبابات كيلا يتمكن الاهالي من نسفها وعرقلة دخول الامدادات العسكرية الى المدينة. واذا لاحظت قوى الشراكسة وصول نجدات من جبل الدروز والعلويين عليها أن تبيدها بدون انذار سابق أما السلاح الجوي فلدينا ما يكفي لدب الرعب في قلوب السكان واذا اضطر الحال يجب القاء القنابل المحرقة على أماكن التجمعات كالمدرسة التجهيزية والقلعة ويجب الحذر من دنو الطائرات لان لدينا

معلومات تقول بأن هنالك اسلحة يمكن أن تصل الى الطائرة اذا كانت على أقل من ألف مترا ولدينا معلومات أن الاهالي لديهم قنابل يدوية شديدة الانفجار بينما هنالك محاولات لاحراق المراكز العسكرية وقطع اسلاك الهاتف.

أما اذا تفوقت القوى الوطنية في بعض المراكز فعلى الجنود أن يبيدوا ما لديهم من اسلحة اذا لم يتمكنو من استعمالها ولا يغرب عن البال أن الشراكسة بالنظر لولائهم الشديد للحكومة الفرنسية الظافرة هم أكثر الجنود نقمة على الاهلين فعلى القواد أن يأخذوا هذه اليقظة بعين الاعتبار اما المتطوعة العرب في جيش الشرق فلا يمكن الاطمئنان اليهم اذ تدل المعلومات على أن هنالك حركة تدعو الى مقاطعة اهالي الضباط والجنود المذكورين واذا أضيف إلى ذلك موقف الحكومة السورية المرضي من هؤلاء ندرك ان انضمامهم الى القوى الوطنية لا يمكن أن يعتبر مستحيلا أما عائلات الضباط والجنود الفرنسية فيجب تحويلها بانتظار وصول النجدات والمعدات الحربية وقد أرسلت تعليمات إلى باقي المدن السورية ليكون العمل مشتركا وفي آن واحد على قوات الفرق المختلفة تطبيق هذه الأوامر بحذافيرها لتعش فرنسا. ليعش الجنرال ديغول.

قائـــد المنطقـــة الجنوبيـــة

أوليفاروجيه

وقد بدأ العدوان في الساعة السادسة والدقيقة الخمسين من بعد ظهر الثلاثاء 1945/5/29 حين أطلق الجنود المرابطون وراء متاريسهم في شارع النصر في بناية البرق والهاتف نيران رشاشاتهم على الناس دون سابق انذار، وفي الوقت نفسه أطلق الجنود من دار الأركان الفرنسية ومن جميع مراكزهم عند مفارق شارع البرلمان نيران اسلحتهم الثقيلة والخفيفة على مجلس النواب السوري وعلى حامية الدرك الموجودة فيه.

رأيت بعد ابتداء القصف، وكنت كما أسلفت موجودا أمام فندق الشرق أن أذهب إلى سراي الحكومة القريب من الفندق، فقد كان متعذرا علي الوصول إلى مجلس النواب، وعندما أصبحت أمام وزارة الزراعة والاقتصاد في آخر نزلة محطة الحجاز سمعت صياح الدرك يطلبون إلي الانبطاح وتجنب السير، فلم أعر صيحاتهم

اهتماما وتابعت سيري نحو سراي الحكومة والرصاص ينهال من كل الجهات ... وكان ذلك موقفا طفوليا إذ ظننت أنه مما يسيء للمعنويات أن أتلطى بالجدران تحاشيا للنيران.

وعندما وصلت إلى السراي نبهني بعض الأخوان إلى سترتي العسكرية التي مرت من طرفها طلقة رصاص بينما لم أصب ولا بخدش، فوجدت هنالك جميل مردم وحوله بعض النواب والوزراء، وكان هائجا مذعورا، فصرخ في وجهي قائلا:

هيك بدك ؟ فقلت له :

نعم هيك بدي.

أرخى الليل سدوله وانقطع التيار الكهربائي عن سراي الحكومة وخطوط الهاتف، واشتد إطلاق النار فتفرق المجتمعون في غرف السراي يتلطون بجدرانها وكانت القذائف والرصاص تنهال على السراي من بناية الهاتف في شارع النصر ومن سينما العباسية وكان بعضها يخترق النوافذ ويتساقط في الممرات، وبعد مضي ما يقرب من الساعتين فتح الدرك باب السراي لشخص طلب أن يختلي بجميل مردم برهة، وبعد قليل من هذه الخلوة خرج جميل مردم مع الوزراء والنواب وقد رافق خروجهم توقف اطلاق النار قليلا، وقد عرفت فيما بعد أنهم ذهبوا جميعا إلى بيت خالد العظم الذي يقول في مذكراته :

"جاءت وفود من أبناء الحي تطالب جميل مردم، وجماعته بالانتقال إلى حي آخر وقال بعض الوافدين بأن الحكومة لو أمرت بصد العدوان وتسليم الأسلحة للرجال وكانت على رأسهم تقودهم لما ترددوا في الجهاد ولكنهم لا يجدون في وجود الحكومة في الحي (أي في حي سوق ساروجة حيث يقع بيت خالد العظم) سوى الأذى".

كما يقول خالد العظم أيضا أن رئيس الجمهورية شكري القوتلي استدعى السفير البريطاني فجاءه داخل دبابة انكليزية فبلغه احتجاجا شديدا على أعمال الجيش الفرنسي وطلب منه

تدخل حكومته لوقف الاعتداء وان السفير عرض على الرئيس أن يذهب إلى عمان فلم يقبل"[2] .

□

لبثت في السراي عدة ساعات ثم أشارت علي حاميتها أن التحق بحامية فندق أمية (القديم) حيث أن موقعها هام جدا فهو يطل على ساحة المرجة -قلب المدينة- ومقابل للمراكز الفرنسية، فذهبت مع زميلي الهنيدي والدعاس الى فندق أمية وانضممنا إلى حاميته، وظللنا طوال الليل في مناوشات مستمرة مع المواقع الفرنسية المقابلة ومع الجنود الفرنسيين الذين كانوا يتسللون من شارع رامي إلى ساحة المرجة.

كان على رأس حامية الفندق الضابط عبدالرزاق البكري، وهو من أبناء حينا في حماه ، وقد نشأنا في الحي كأسرة واحدة، كما كان من ضباط الحامية الضابط ... ايزولي والضابط ابراهيم الأتاسي، ولا شك أن وجودنا مع الحامية قد رفع من معنوياتها وثبت أقدامها تجاه ما هو مقدر سلفا.

هاجمت الطائرات دمشق في صبيحة الثلاثين من مايس، فسقطت أول قنبلة ألقتها الطائرة على قلعة دمشق فتهدم أحد المهاجع فوق رؤوس السجناء وكان عددهم يقارب المئتين فلم ينج منهم إلا القليل، كما أخذت المدفعية الثقيلة تقصف دمشق والغوطه، بينما كان شعب دمشق غائبا عن المعركة، محروما من السلاح والقيادة.

الشهيد الدكتور البارودي :

استمرت المعركة ليلا ونهارا دون انقطاع، وظلت حامية السراي وحاميتنا صامدتين، وقبيل الظهر وبينما كانت الشوارع خالية إلا من زخات الرصاص والقذائف سمعنا صوت صفارة سيارة إسعاف، ثم رأيناها وعليها شعار الهلال الأحمر مقبلة نحو السراي ، ولكنها ما أن وصلت إلى مقابل مبنى البلدية (حاليا الهجرة

(2) مذكرات خالد العظم - دار النهار بيروت - ص 297 - 299.

والجوازات) قرب السراي حتى جنحت واصطدمت بإحدى الأشجار، فأرسلت أحد الجنود ليستطلع أمرها، وبصعوبة بالغة تمكن من الذهاب والعودة وعلمنا منه بأن الدكتور مسلم البارودي قد استشهد بينما كان قادما لإسعاف بعض الجرحى في السراي ... وهكذا قضى الدكتور البارودي ببسالة وشجاعة نادرتين مستهينا بالموت أمام القيام بواجبه الوطني والانساني.

عند الظهر، رفعت الحامية الفرنسية في بناية العباسية علما أبيض، فظن عبد الحكيم الدعاس أن الحامية تطلب الاستسلام، وقدر أنه لا بد من أن يكون بعض الجنود السوريين فيها قد تمكنوا من القضاء على الضباط الافرنسيين. وكان مسرورا جدا بهذا النصر.

قلت له :

إن الحامية هناك فرنسية مائة بالمائة. وهذا ما كنت ألاحظه من قبل، وإن رفع العلم الأبيض خدعة.

فأرسل الدعاس -سرا دون أن يعلمني- جنديين من أبناء منطقته القلمون الى حامية العباسية، فذهبا حذرين عن طريق السراي، وعندما علمت بذلك قلت له:

إنك قتلت هذين الشابين، ولم يطل الانتظار، فما أن وصلا إلى باب مبنى العباسية حتى انهالت عليهما القنابل اليدوية والرصاص فسقط أحدهما قتيلا وانسحب الآخر ناجيا من الموت بأعجوبة.

أمر بالانسحاب إلى القدم:

وصل إلينا الطالبان في كلية الطب جمال الأتاسي وعبدالخالق النقشبندي وكانا يقومان بعمليات الاسعاف، وقد تمكنا من الوصول إلينا تسللا من (جوزة الحدباء) فانضم النقشبندي إلينا ولكنه كان أعزل من السلاح.

حاول الفرنسيون عند الظهيرة أن يخرجوا من مواقعهم حول ساحة المرجة لاحتلال دار الحكومة فنزلت من شارع رامي بعض

المصفحات ووراءها عدد من الجنود المشاة ولكنهم لم يتمكنوا من الاقتراب من موقعنا فقد أصلیناهم برصاصنا وانهلنا على المصفحات بالقنابل اليدوية فابتعدت القوة عن موقعنا، وعند العصر وصل إلينا بعض ضباط الدرك وأبلغونا أمرا شفويا بالانسحاب إلى ضاحية القدم وقالوا ان الحكومة جعلت القدم مركزا للمقاومة فلم أر بدا من الانسحاب، وكان الخروج من الفندق صعبا إذا أصبح الفرنسيون مسيطرين على ساحة المرجة. فانسحبنا فرادى عن طريق سوق ساروجة. وأمام فندق دامسكوس بالاس التقى بي ناظم مرهج فحاول اقناعي بالالتحاق بأخيه فريد مرهج ورئيف الملقي اللذين ذهبا إلى الأردن لاستجلاب السلاح والإمدادات، فاعتذرت.

ومن هناك تابعنا تسللنا خلال الأزقة الضيقة متجهين إلى الميدان وآخذين حذرنا من العصابات التي ألفها الفرنسيون لسلب أفراد قوى الأمن السوريين أسلحتهم.

عجبا كيف تنقلب صورة الشعب عندما يحرم من القيادة والتنظيم .. شعب دمشق الثائر الشجاع قابع في المنازل ينتظر الموت تحت الركام، وعملاء فرنسا يتصيدون رجال المقاومة!!.

قد يتساءل القارىء: أين كان شكري القوتلي آنذاك؟.. لقد نشرت "الصياد" في عددها الأول بعد هذه الحوادث - 7 حزيران 1945 - أن "الوفود اللبنانية كانت تؤم عند وصولها إلى دمشق دار صاحب الفخامة شكري بك القوتلي -الذي كان في دور النقاهة- لتؤدي واجب التحية والاجلال للرجل الذي أصبح رمزا للنضال ليس في سوريا وحدها بل في جميع الأقطار العربية .. وروي لنا أن فخامته استقبل عندما كان الفرنسيون يمعنون في ضرب دمشق ممثل إحدى الدول الكبرى وقال له ما معناه: "أرجوك أن تبلغ حالا إلى حكومتك أنه إذا لم تتدخل في وقت قريب لوقف الفرنسيين عند حدهم فإنني سأحمل أنا رئيس الجمهورية على نقالة الى الشارع لأتلقى رصاص المعتدين ويكون مصرعي لطخة عار في جبين الدول الديمقراطية". وقد اتضح لممثل الدولة المشار إليها

أن فخامة الرئيس جاد كل الجد في قوله، ولذلك بادر إلى إرسال برقية ضمنها كلام الرئيس"

□

كان الجوع قد أخذ منا مأخذه، ولما وصلنا إلى قرب بيت الشيخ محمد الأشمر أرسل الينا حمولة سيارة من الخبز والخيار، فأكلنا ونحن نتابع طريقنا من الميدان إلى القدم. فوصلنا إليها عند الغروب، فلم نجد أحدا من أعضاء الحكومة بل ولا أحدا من قوى الأمن، فتابعنا طريقنا إلى قرية البويضة التي دخلناها ليلا، فقابلنا مختارها بكآبة لا مزيد عليها، وامتنع عن استضافتنا، وأشار علينا بالذهاب إلى مسجد القرية.

كانت ليلة عصيبة مؤلمة قاسية. كنت أتطلع نحو دمشق فأرى اللهب يتصاعد منها بالغا عنان السماء. كان منظرا رهيبا خيل إلي معه أن دمشق أصبحت ركاما. وقد استمر تصاعد اللهيب والدخان حتى الصباح[3] .

في الغوطة :

لم تضيع أجهزة الاستعمار الفرنسي وقتها، بل نظمت شبكة واسعة النطاق من العملاء للتخريب والاعتداء. إذ لم نكد نمكث في تلك القرية ساعات حتى هرع إلينا بعض المدسوسين صائحين: إن سرايا الشراكسة قد طوقت القرية، فنهضنا مسرعين نبحث عنهم فلم نجد أحدا.

مر بنا زيد الأطرش، وهو شقيق سلطان وأحد كبار ضباط الدرك، وكان معه سرية من الجنود. فقال لي أنه ذاهب الى الجبل. فحاولت إقناعه بالبقاء معنا لنبدأ حرب عصابات في الغوطة. فأجاب بأن الجبل هو المكان الذي يمكنه أن يعمل فيه، وتابع سيره هو ومن معه بعد أن تقاسمنا معهم صناديق الذخيرة والقنابل اليدوية التي كنا نحملها معنا.

(3) "النيران التهمت مجموعة من الأبنية في شارع فؤاد الأول وشارع رامي وسوق العصرونية، وراء القلعة وبعض الكاراجات على ضفة بردى عند بداية طريق بيروت".

وفـي صـبيحة اليـوم الثـاني قررنـا الاقتـراب مـن دمشـق مستفيدين من غطـاء أشـجار الغوطـة. وكـان عـددنا يتنـاقص كلمـا تقدمنا قليلا.

وعند الظهر لبثنا بعض الوقت في بستان كـان صـاحبه رجـلا شهما، تلقانا لقاء حسنا وقدم لنا طعام الغداء بعد أن أصـبح عـددنا لا يتجاوز العشرة أشخاص: نحن النواب الثلاثة، وجاري الضابط عبد الرزاق البكـري، والضـابط ابـراهيم الأتاسـي والطالـب عبـد الخـالق النقشبندي الذي كان يسير أعزل حافيا بعد أن خلع حذاءه الضيق.

ولم نكـد نستسـيغ اللقمـة الأولـى حتـى سـمعنا الرصـاص ينطلق غزيرا من حولنا. ثم أتـى مـن ينـذرنا بـأن عصـابة مسـلحين تطوقنا وتطلب إلينا الاستسلام دون معركة، فطلبت أن يجتمعوا بنا فرفضوا أن يحضروا إلينا قبل أن نسلم سلاحنا. فارسلت إليهم بأننا سنقاتلهم بأشد مما نقاتل به الفرنسيين، لأنهم عملاء خونة، ولن يغتصبوا سلاحنا إلا ونحن جثث هامدة. فـإذا أرادوا فمرحبـا بهـم ... فلم يعودوا وانقطع اطلاق الرصاص نهائيا..

تشرشل يأمر بوقف اطلاق النار :

اتفق عبد الحكيم دعاس مع أحد القرويين ليذهب معه إلـى بلدته جيرود كما انصرف متسللا من بقي معنا من الجنود.

وعنـد العصـر أتـى صـاحب البسـتان مسـرعا وأخبرنـا بـأن تشرشل أصدر أمرا للفرنسيين بوقف اطلاق النار والتزام ثكناتهم[4] .

(4) قال المسـتر إيـدن أمـام مجلـس العمـوم البريطـاني: أن الحالـة زادت خطـورة فـي سـوريا خـلال الساعات الأخيرة. وسرد الحوادث كإطلاق المدافع بشدة على دمشق ونشوب حـريقين كبيـرين وقصف الطائرات وإطلاق النـار فـي حمـص وحمـاه وحلـب، وطلـب محـافظ حمـاه توسـط الجـيش التاسـع البريطـاني لعقـد هدنـة 48 سـاعة لـدفن شـهداء المدينـة ونقـل الجرحـى. ثـم قـال: ان الحكومة توصلت إزاء ذلك ومنعا للمزيـد مـن اهـراق الـدماء وصـيانة للأمـن والنظـام فـي الشـرق الأوسط الذي يمر فيه خط المواصلات الحيوي إلى الشرق الأقصى لمحاربـة اليابـان، قـررت أن لا تبقى في موقف المتفرج بل أن تتدخل لاعادة النظام، وفعلا أبرق المستر تشرشـل إلى الجنـرال ديغول البرقية التالية:

نظرا للحالة الخطيرة التي آل إليها الأمر في سوريا ولبنان، وبالنظر للقتال الدامي الذي يجري مؤخرا في سوريا، أمرنا بالأسف الشديد قائد جيوش الشرق الأوسط بالتـدخل والعمـل للحيلولـة دون إراقة دماء أخرى. ولقد اتخذت هذه الخطوة حرصا على الأمن في ربوع الشرق الأوسط كلـه

سررنا بالنبأ كثيرا.

كان موقعنا قرب جرمانا، وقيل لنا أن نسيب البكري موجود في تلك القرية، فلم يسأل عنا ولم يتعرف علينا، فذهبنا إلى حي الميدان. وكان إطلاق النار قد توقف إلا من بعض طلقات متقطعة، وحين وصلنا إلى الميدان زرنا آل حباب ثم مررنا ببيت ميشيل عفلق الذي رحب بنا.

وفي صبيحة اليوم التالي، كان كل شيء قد انتهى، وخرج الناس الى الشوارع يشاهدون بألم وحقد ومرارة آثار الحرب والتخريب في مدينة دمشق.

وقفة على أطلال مجلس النواب

ذهبت إلى مجلس النواب، كان منظره مفجعا، لم استطع أن أمنع الدمعة عن عيني بينما كان قلبي يغلي بالغضب والحقد والألم. كان منظر مجلس النواب رهيبا بعد أن سلط عليه الفرنسيون نيران مدافعهم ودباباتهم، فالقنابل حفرت ثغرات في الجدران المرشومة بالرصاص والسوداء من آثار الدخان، وكان الجنود الفرنسيون بعد أن استشهدت حامية المجلس جميعها - عدا رجلا واحدا نجا بأعجوبة- قد نهبوا المكتبة وحرقوا بعضها وبعثروا الأوراق وحطموا المقاعد والأثاث وكانت عملية تنكيل فظيعة بالرجال المدافعين، أما دماء الشهداء الذين دافعوا عن مجلس النواب حتى الرمق الأخير فقد كانت هنا وهنالك، على الأرض والجدران والركام وحطام الآثاث.

أين أصدقائي القهوجي وشربك ورفاقهما البواسل ؟

لم يبق منهم الفرنسيون أحدا.

لقد أبى هؤلاء الضباط والجنود الأبطال المدافعون عن حرية الوطن أن يستجيبوا للانذار الذي أرسله إليهم الجنود الفرنسيون المرابطون في الأركان بأنهم سيطلقون عليهم النار إذا لم ينتظموا

وتحاشيا لأي اصطدام يقع بين القوات الأنكليزية والفرنسية نطلب إليكم أن تأمروا بالحال الجنود التابعين لكم بالكف عن اطلاق النار ورجوعهم الى ثكناتهم. وسنكون على استعداد حين عودة الأمن والنظام للشروع بمحادثات ثلاثية بين بريطانيا وسوريا وفرنسا في لندن.

عند الساعة السابعة والنصف مساء لتحية العلم الفرنسي عند إنزاله من فوق سارية بناية الأركان المقابلة لبناء المجلس النيابي.

وهكذا سجلوا صفحة من أروع صفحات الشجاعة دفاعا عن الوطن ممثلا بمجلس النواب رمز الحرية والديمقراطية والاستقلال.

صورة محزنة شاهدها مراسلو الصحف العالمية، فكان لما نقلوه عنها، وعن مشاهداتهم الأخرى أعظم الأثر في جميع أنحاء العالم، ولا أدل على ذلك من المقال الذي كتبه عبدالله المشنوق في مجلة النواعير الحموية، وجاء فيه:

"إنني بعد أن سمعت بمصرع نجل الدكتور بييرضودج رئيس الجامعة الأميركية ببيروت، في جبهة فرنسا، عدت مسرعا إلى الجامعة لأشاطر الوالدين مصابهما ... ولما دخلت منزل الرئيس لم أجد فيه ما يدل على أن ربة الدار قد فقدت أحد نجليها .. قالت : إنني فخورة بولدي، فقد مات في سبيل الحرية والعدالة والمثل الانسانية ... ومضت الأيام فتذهب عقيلة ضودج بعد العدوان الفرنسي إلى دمشق، فرأت بأم عينها آثار المأساة الدموية، وزارت المستشفيات وشاهدت الأطفال الذين فقدوا بصرهم أو بترت أطرافهم، والشيوخ المشوهين بالقنابل، وأطلال البرلمان، وشارع رامي، وسوق ساروجه ... وصدف أنني زرت بيير ضودج فحدثتني عقيلته عن زيارتها لدمشق وما شاهدت من آثار العدوان الفرنسي وعيناها تغرورقان بالدموع قائلة :

هذه أول مرة أبكي فيها ولدي .. لقد مات ولدي في سبيل لا شيء".

□

عندما شرع الجابري بإصلاح ما تخرب من بناء مجلس النواب، كنت ألح عليه وعلى رؤساء المجلس الذين تعاقبوا بعده لاقامة تمثالين للضابطين شربك والقهوجي عند مدخل المجلس فلم يفعلوا، ولما انتخبت لرئاسة المجلس في عام 1957، أقمت في صدر قاعة المجلس القديمة التي استشهد فيها حرس المجلس لوحة من الرخام الأسود، حملت أسماءهم وأسماء مدنهم، دليلا وشاهدا على اشتراك الشعب العربي في سورية، من كل مدنه وقراه، ومن كل طوائفه، بالدفاع حتى الاستشهاد عن تراب

الوطن وعن الحرية والديمقراطية. كما كنت مزمعا أن أقـيم تمثـالين للضـابطين الشــهيدين ســعيد القهـوجي وطيــب شربك في مدخل بناء المجلس لولا أن مدة الرئاسـة كانـت قصيرة، حيث قامت الوحدة بين سورية ومصر وحل مجلس النواب.

19

1945: الثـورة فـي مدينـة حمـاه - الجنـرال باجيـت القائد العام للقوات البريطانية في الشـرق الأوسـط يقول: لقد انقذنا الأهالي فـي سـورية مـن الجـيش الفرنسـي إلا فـي مدينـة حمـاه فقـد انقـذنا الجـيش الفرنسـي من الأهالي.

الثورة في مدينة حماه :

خلال النصـف الثـاني مـن شـهرمايس، جـاءني إلـى الغرفـة التي كنت أقطن فيها بالقرب من وزارة الصحة، صلاح الشيشـكلي عاريا إلا من ثيابه الداخليه، وبحالة بائسة يرثـى لهـا، وأخبرنـي أن الفرنسيين طردوه من الجيش وجردوه من لباسه العسكري فخـرج من الثكنة متجها إلي وهو بهذه الحالة. وعزا سـبب طـرده - وكـان برتبة اجودان -وكيل ضابط- لارتياب الفرنسيين بموقفه منهم. وقـال إنهـم حجـزوا بعـض الضـباط الـوطنيين كمـا أجـروا تـنقلات واسـعة بصفوفهم في سائر القطعات.

فقدرت فـي سـري بـأن عـدنان المـالكي ورفاقـه بحمـاه قـد شـملهم هذا النقل والاعتقال. وما ظننته كان قد حدث فعلا.

قلت له: والآن ماذا تنوي أن تفعل؟! فوجم صلاح.

أخرجت له بزة مـن ثيـابي وكـان طـويلا جهمـا، فبـدت عليـه قصيرة ضيقة، ثم ساعدته بما أمكن وزودته بكتاب الى رفاقي فـي حمـاه ليتـولى معهـم قيـادة فـرق المجاهـدين. وكـان هـذا الكتـاب ضروريا لمنع الارتياب والشك به. وقد كنـا بحاجـة ماسـة لخبـرة أي ضابط مهما كانت رتبته صغيرة. وقد أبدى صـلاح -كرفاقـه- شـجاعة في المعارك التي دارت فيما بعد في ثورة حماه.

شرارة الاحتكاك في ثورة حماه :

كانـت التقـارير تصـلني بانتظـام مـن قيـادة الشـباب بحمـاه، فتزودني بصورة دقيقـة عـن تطـور الأوضـاع الشـعبية فـي المدينـة باتجاه الثورة التحررية، وكان آخر هذه التقـارير رسـالة مـن الاسـتاذ

سـعيد الخـاني، بتـاريخ 1945/5/15 يصـف فيهـا الصـدام الأول بـين الأهلين وبين الجيش الفرنسـي:

"منذ يومين قامت مباراة بين ناديين في ملعب المغيلة. فحصلت مشاجرة بين جندي حموي متطوع في الجيش الانكليزي وجندي علوي متطوع في الجيش الفرنسي، فتعاون رفاق المتطوع في الجيش الفرنسي على الآخر، فتدخل بعض الناس وهاجموا الجنود المتطوعين في الجيش الفرنسي، فتدخلت قوى الأمن بالموضوع.. وفي صباح اليوم الثاني هاجم أحد الأهلين جنديا يعمل خادما لأحد الضباط الفرنسيين في شارع الجعابرة وجرحه بالموس، وإلى الآن لم نتمكن من معرفة سر هذا الحادث الثاني، هل هو مؤامرة طائفية أم لا" .

انتهى التقرير بهذه العبارة، وإذا رجع القاريء إلى نص الخطاب الذي ألقيته في جامع السلطان قبل عدة أشهر من هذا الحادث، والذي كان موضوعه "مقارنة بين ثورتين" يدرك سر ارتياب رفاقنا من أن يكون وراء تلك الحوادث المفتعلة مؤامرة طائفية. ذلك أن الجو الشعبي بحماه كان خلال تلك الأشهر يعبأ باتجاه ثورة وطنية تحررية تصهر عناصر الأمة وطوائفها في بوتقة واحدة، ويشترك فيها المسلمون والمسيحيون والاسماعيليون والعلويون والشراكسة وأبناء العشائر وتوجه فيها كافة القوة والامكانيات نحو عدو واحد هو الفرنسي المستعمر. هكذا كان مخطط الثورة في حماه ولذلك خشي رفاقنا أن تكون أجهزة المخابرات الأجنبية قد هيأت استغلال المباراة الرياضية بين ناد حموي وناد لاذقي لإثارة النعرات الطائفية.

وبفضل هذا التوجه الثوري السليم فشلت خطة المستعمر المبينة وانقلب سحره عليه فقام جمهور المتفرجين على المباراة - والحماس يتأجج في صدورهم - بمظاهرة مسائية لاهبة تضم كافة فئات الشعب وطوائفه، وتوجهوا إلى أقرب موقع للفرنسيين، وهو دائرة الأمن العام القريبة من الملعب البلدي في المغيلة، فحاصروها وأنزلوا العلم الفرنسي عن ساريتها ومزقوه ثم اتجهوا بسيلهم العارم ليلا إلى خان الشعبة لمهاجمته. ولكن الفرنسيين كانوا قد أخلوا كل مواقعهم العسكرية في المدينة وتجمعوا في ثكنة الشرفة التي تقع في مكان ستراتيجي حصين غربي

المدينة، على حافة هضبة عالية يمكن للمدفعية المنصوبة فيها أن تسيطر على المدينة تماما.

وكـان الفرنسـيون قـد سـلموا القيـادة الفعليـة لقـواتهم المتجمعة في ثكنة الشـرفة للكـابتن محمـد مهنـا، كمـا حـاولوا أن يكون معظم أفراد هذه القوات من العلويين.

اتصـل محـافظ حمـاه خالـد الداغسـتاني - تنفيـذا لسياسـة التهدئة التي أمرته بهـا الحكومـة - بالعقيـد توفيـق الـدوخي، وهـو ضابط في الجيش الفرنسي، وطلب إليـه تبليـغ القيـادة العسـكرية بالامتناع عن التحرش بالأهلين الذين ثارت ثائرتهم، فأبلغـه العقيـد الدوخي، بعد أن اتصل بالقيادة العسكرية الفرنسية في حمص، أن القيادة أمرت بمنع نزول الجنود الفرنسيين إلى المدينـة. كمـا أبلـغ المحافظ قرار نقل الكابتن مهنا إلى حلب. فقد كان الأهلون ناقمين على هذا الضابط لأنه كان يشـهد المباراة ويحرض على الفتنة.

لكن الفرنسيين لم ينفذوا هـذا القـرار بحجـة أنـه يوجـد فـي الثكنة أكثر من سـتمائة جنـدي وأن الكـابتن مهنـا يسـيطر علـيهم وأنهم تظاهروا عندما علموا بأمر نقله وأضربوا عـن الطعـام وهـددوا بمهاجمة المدينة - كما ادعت القيادة الفرنسية.

وهكـذا ظهـر خـداع الفرنسـيين وإصـرارهم علـى اسـتغلال النعرات الطائفية لتمزيق الصف الوطني وتحوير القضية عن اتجاهها التحرري، ولكن وعـي الشـعب أحـبط تـآمرهم فلـم تقـع أي حادثـة تجاه أفراد الشعب من العلويين الذين كانوا يسكنون في أحد أحياء المدينة الفقيرة غرب المدينة، بـل سـاهم هـؤلاء مـع إخـوتهم فـي هذه الثورة.

والذي ساعد كثيرا في هذا الموضوع أن أمين السر السابق لحزب الشباب عبد الستار البارودي كان قد تطوع في سلك الـدرك وأصبح ضابطا في قضاء السلمية، وقد قام هـذا الشـاب بـدور هـام وأساسي في تنفيذ الخطة التي دعونا إليهـا منـذ البدايـة، فمـا أن بـدأت المظـاهرات والاضـرابات فـي حمـاه، حتـى قـام عبدالسـتار، بالتعاون مع العناصر الوطنية كرفيقنـا أحمـد ناصـر ومحمـد الجنـدي

(ابـو سـامي)، يعبئـون الجـو الشـعبي فـي السـلمية التـي تعتبـر مجتمعا لأبنـاء العشـائر الاسـماعيلية وأبنـاء بعـض القـرى العلويـة، وبالدعايــة الذكيــة والتوجيــه الســليم اشــتعل القضــاء حماســة واستعدادا للثورة.

ومنذ بدء الحوادث صارت تفد إلى حماه وفود المسلحين من بلدة السـلمية وقضـائها، (أحـد الوفـود كـان يضـم ثمـانين مسـلحا) وتنضم إلى صفوف المجاهدين، كما صارت حماه تستقبل بحماسة كبيرة الوفود العديدة الأخرى من عشائر النعيم وبني عز والعقيدات والمشـارفة والغـازي والبوحسـن وبنـي خالـد والمـوالي والتركـي، ووفود مسلحة من المعرة وخان شيخون وسراقب والغاب والرستن وكلها تنضم الى صفوف المجاهدين، فـي الوقـت الـذي كانـت فيـه تقارير الشرطة المحلية تشـير إلـى أن "جـو المدينـة يسـوده قلـق كبيـر بسـبب مـا يقـوم بـه عمـلاء فرنسـا مـن تغذيـة بـذور الفتنـة الطائفية وما يشيعونه من شائعات". ولكن وعي القيـادة الشـعبية والجماهير أحبطت كل مسـاعيهم، وانضـم إلـى المجاهـدين فريـق من الشراكسة أيضـا- وقـام المسـيحيون فـي حـي المدينـة وفـي القرى المجاورة بـدور بـارز فـي صـفوف الثـورة وكـان علـى رأسـهم رفيقانا الأخوان نخلة وخليل كـلاس. ومنـذ حفلـة جـامع السـلطان، التي تحدثنا عنهـا، تحققـت الوحـدة الوطنيـة فـي المدينـة وصـارت تزداد صلابة يوما بعد يوم. وفي بداية شـهر مـايس 1945 تشـكلت قيـادة وطنيـة عليـا. كـان لهـا مركـزان: بيـت الأمـة (بيـت توفيـق الشيشكلي) في حي السوق وهو مركـز حـزب الشـباب وجماعـة رئيف الملقي (الجبهة الشعبية) وبيـت الشـعب فـي حـي الحاضـر وهو مركز آل العظم. وقد انبثقت عن القيادة الوطنية العليـا اللجـان الفرعية التالية:

1- لجنة استعلامات تقوم بتسجيل الحوادث ورفعها للقيادة.
2- لجنة لتأمين الميرة قوامها جمعية إنقاذ العامل.
3- لجنة لتوزيع الطعام.
4- لجنة لتأمين الماء بواسطة السيارات والعربات.

5- لجنة لتأمين الذخيرة.

6- لجنة لإعداد الأماكن والضيافة لنجدات المجاهدين القادمة من خارج حماه.

7- لجنة من الشباب تتناوب العمل ليلا ونهارا لتأمين الخدمات والمخابرات التلفونية في المكتب.

8- لجنة لتأمين السيارات لنقل المجاهدين داخل المدينة خارجها.

9- جمعية الهلال الأحمر وقوامها الفرق الكشفية وأطباء المدينة وصيادلتها.

10- لجنة لمراقبة الأسعار.

11- لجنة لمكافحة الدعايات والشائعات التي تبثها الأجهزة الخفية لنشر روح الهزيمة والذعر.

12- لجنة لتأليف فرق الشباب (الحرس الأهلي) للاشراف على أمن المدينة.

13- لجنة النشر، وكانت تعد النشرات اليومية وتوزعها.

14- لجنة التصوير. (وقد قامت بدور هام بتزويد الصحف ووكالات الأنباء بصور فوتوغرافية عن وقائع معارك حماه).

وكان يؤازر اللجنة الوطنية العليا واللجان الفرعية جميع أفراد الشعب ومؤسساته وجمعياته ونقاباته على اختلاف نزعاتها واتجاهاتها السياسية. فقد طهر الجو الثوري النفوس وحطم قيود التخلف فلم يظهر في المدينة متعاون واحد مع الفرنسيين، وانطلقت المرأة الحموية المحجبة تسهم في المعركة بدور رائع مشرف. وأظهر أبناء الأحياء الشعبية روحا إنسانية حضارية سامية باحتضانهم عائلات الفرنسيين ورعايتهم لها وحمايتها من أي سوء.

أما القيادة العسكرية فقد اتخذت مركزها في خان الشعبة الذي كان قبل أيام ثكنة فرنسية داخل المدينة. وقد تشكلت القيادة العسكرية من عناصر شعبية وطنية سبق لها الخدمة في

الجيش التركي والفيصلي. ورغم تقدم أكثرهم في السن فقد أبلوا بلاءا حسنا وأظهروا نشاطا لا مزيد عليه. منهم خالد مراد آغا وعمر الترمانيني والشهيد عبدالقادر المصري. وقد انضم إليهم من العناصر الشابة عدد آخر من المجاهدين.

في هذا الجو الثوري انقلب الجهاز الحكومي الرسمي، بعد بدء الحوادث المسلحة، إلى جهاز شعبي مع الثورة، فأغلق المحافظ دار الحكومة واتخذ من فندق أبي الفداء مقرا له، وأصبح يعمل هو والأجهزة الحكومية إلى جانب القيادات السياسية المناضلة. وتطوع رجال الدرك في صفوف المجاهدين وقاتلوا معهم في خندق واحد.

إن الوحدة الوطنية القائمة على أهداف تحررية تصنع المعجزات؛ فهي لا تمحق الطائفية الذميمة وتكسر كل قيود التخلف الاجتماعي القاتل فحسب، بل تستطيع أن تحقق النصر العسكري على العدو الأجنبي مهما كانت جيوشه أكثر ومدافعه أكبر ومعداته أحدث. وهذا ما جرى في ثورة حماه عام 1945.

فمنذ بدء الحوادث سحب الفرنسيون كل قطعاتهم العسكرية وأفرادهم المدنيين، بمن فيهم المستشار من ثكناتهم ومواقعهم ودوائرهم في داخل المدينة، وجمعوا قواتهم في ثكنة واحدة هي ثكنة الشرفة العالية المطلة على المدينة من ناحية الغرب، والقريبة من محطة القطار.

ومنذ بدء الحوادث المسلحة في 19 مايس حتى توقف إطلاق النار في الأول من حزيران كان هم الفرنسيين العمل لكسر نطاق الحصار الذي ضربه المجاهدون حول ثكنة الشرفة. لا سيما بعد أن عطل الأهالي مضخة على نهر العاصي في محلة باب النهر، فتعرضت الثكنة بمن فيها للموت عطشا. ولم ينفعهم للخلاص من هذا المأزق تسليطهم طلقات مدافعهم الرشاشة البعيدة المدى على بساتين باب النهر التي لجأت إليها النساء

والأطفال. لذلك لم يبق أمامهم إلا استجلاب قوات من المدن الأخرى لفك هذا الحصار عنهم. وكان أمامهم ثلاثة سبل.

أولا: استجلاب قوات من مواقع حلب، في قطار مسلح. وقد خرب المجاهدون سكة القطار فتدهور قرب قرية قمحانة. ولم يكن بمقدورهم استجلاب هذه القوات بالسيارات لأن طريقها سيمر من داخل المدينة، ابتداء من حي السخانة في شمالي الحاضر بينما كل شوارع المدينة قد تحولت إلى متاريس وخنادق للمجاهدين. كما أغلقت مداخل المدينة وتمترس العديد من المقاتلين على أسطحة المنازل فأصبحت حماه قلعة لا تقتحم.

ثانيا: استجلاب قوات من محافظة اللاذقية عن طريق مصياف. أي الوصول إلى ثكنة الشرفة من جهة الغرب. وقد قاموا بهذه المحاولة فتصدى لهم المجاهدون بمعركة باسلة أسفرت عن تشتت شملهم وأسر الضابط صلاح الدين الحسيني.

ثالثا: استجلاب النجدات عن طريق حمص .. ودخول المدينة من جهة الجنوب حيث وقعت أعنف المعارك وأكثرها ضراوة وشجاعة واستبسالا ... إذ كان المجاهدون قد أعدوا جبهة طويلة تمتد من مقابر تل الشهداء التي انكسرت عندها حملات الصليبيين كما ورد سابقا، إلى كرم الحوراني، إلى البياض، فمحطة القطار وحي العشر. وكانت جبهة قوية متماسكة.

هذا هو ملخص الوضع العام لخطوط القتال، فقد كانت المناوشات مستمرة ليلا ونهارا، وكانت طائرات الاستكشاف لا تنقطع عن التحليق في سماء المدينة ثم تعود إلى حمص. وكلما أرسل الفرنسيون من الثكنة جنودا لإصلاح مضخة الماء عند باب النهر كان المجاهدون يصلونهم نارا حامية ويردونهم خائبين.

طلب قائد الموقع الفرنسي الاجتماع بمحافظ حماه في محطة القطار. فذهب المحافظ إلى الاجتماع يرافقه قائد الدرك والميجر داردن البريطاني الذي كان واسطة المفاوضة، فرجا الضابط الفرنسي المحافظ أن يوعز للأهالي بفك الحصار عن ثكنة الشرفة، وأنه يتعهد لقاء ذلك بعدم إطلاق النار على المدينة وعدم

احـتلال محطـة القطـار. فلـم يـتمكن المحـافظ مـن تنفيـذ ذلـك واستؤنف القتال بجميع ما يملكـه الجـيش الفرنسـي مـن أسـلحة فاستشـهد ثلاثة مجاهدين وجرح عدد من أبناء المدينة.

وكان الأهلون قد بدأوا يجلون النساء والأطفال والشيوخ إلـى البسـاتين والقـرى المجـاورة، ولـم يبـق فـي المدينـة إلا الرجـال والنساء المتطوعات.

وفي السابع والعشرين من مايس جاءت نجدة فرنسية مـن حمص فوصلت إلى جنوب المدينة قبيل الغروب: فخرجت مصفحات العدو من ثكنـة الشـرفة للالتقـاء بتلـك الحملـة وحمايتهـا وإيصـالها إلى الثكنة. ولكن الطرفين فشلا ومنيا بخسائر كبيرة. فقـد قوبلـت الحملـة القادمـة مـن حمـص بمقاومـة عنيفـة مـن المجاهـدين المتمرسين وراء مقابر تل الشهداء. وقام بعضـهم ببطـولات خارقـة. فتشتت الحملة وتمزق شملها وقتل المجاهدون قائدها وفريقا من معاونيه وأحرقـوا مصـفحة وعطلـوا أخـرى وغنمـوا سـيارتي ذخيـرة وعتاد ... وبينما رجعت شراذم من نجا من الموت من أفراد الحملـة الفرنسـية إلـى حمـص منهـزمين، عـاد المجاهـدون إلـى سـاحة العاصي يعرضون فيها غنائم المدينة في معركتها الباسلة.

ولا بـأس مـن ذكـر حادثـة مـن الحـوادث التـي تـدلل علـى شـجاعة المجاهـدين واسـتماتتهم لكسـب المعركـة. فقـد هجـم الشاب محمد بن فرحـان الأميـرة - مـن عشـيرة التركـي القـاطنين بحمـاه - علـى مصـفحة فرنسـية، فأصـيب بقنبلـة يدويـة أفقدتـه عينيه. فبادر رفيقه الذي كـان قربـه وتمكـن مـن امتطـاء المصـفحة وقتل كل من فيها.

كمـا استشـهد فـي هـذه المعركـة رفيقنـا وقريبنـا حسـين الشقفة أبو عبدالقادر، سقط في كرم الحوراني، في نفس المكان الذي كنا نمضي فيه أشهر الربيع معـا. وقـد روى رفاقـه أنـه عنـدما جاءت الحملة المدرعة من الشرفة للاتصـال بالحملـة القادمـة مـن حمص اصطدمت بمقاومة الشهيد حسين الشقفة ورفاقه من أبناء حي السخانة، وتحت وطأة هذا الهجوم اضطر رفاقـه للانسـحاب إذ

ليس بأيديهم إلا البنادق العتيقة من مخلفات العهد العثماني. وأبى أبو عبدالقادر أن ينسحب وراح يصيح على رفاقه مؤنبا. وظل يقاوم الفرنسيين حتى نفذت ذخيرته فسقط شهيدا.

إثر هذه المعركة دب الذعر نفوس الفرنسيين المحاصرين في الثكنة فأحرقوا بيادر حي العشرالقريبة إليهم، وصبوا نيران قنابل مدافعهم الكبيرة على المدينة طول الليل. وفي اليوم الثاني زاد جنونهم بعد أن دهور المجاهدون قطار النجدة والمؤونة القادم من حلب، فاستمرت المدفعية الثقيلة تلقي قنابلها على منازل الأهلين فهدمت بعضها وقتلت وجرحت عددا من الرجال والنساء والأطفال.

ثم تضاعف تنكيل مدفعيتهم بالمدينة بعد أن هزم المجاهدون حملة النجدة الفرنسية التي كانت قادمة من مصياف.

وفي يوم الثلاثاء 29 مايس حلقت طائرة في سماء المدينة وألقت مناشير تتضمن الانذار التالي: "إن تنقلات عسكرية وقوافل عسكرية سوف تجري ما بين حمص وحماه وبالعكس. وبما أنه بتاريخ 27 مايس 1945 هوجمت قافلة كانت تسلك هذا الطريق وتكبدت خسائر، فمن واجبي أن أعلم عطوفة المحافظ بأنه إذا تكرر عمل كهذا فسيقوم سلاح الطيران بتدمير المكان الناتج منه هذا الهجوم بعد برهة ساعتين، تعطى لإخلاء النساء والأطفال. وإنني أؤكد أيضا أنه إذا وجدت على مقربة من الجيوش عناصر مسلحة فستضرب حالا بالقنابل.

التوقيع: الكومندان ديزيسار المندوب المعاون لمحافظتي حمص وحماه".

معركة يوم الأربعاء :

تسجل مدينة حماه بمداد من الفخر والاعتزاز انتصارها العظيم في معركة يوم الأربعاء 30 مايس 1945 ففي صباح ذلك اليوم هوجمت حماه بالطائرات الفرنسية التي استمرت تلقي قنابلها ومتفجراتها الثقيلة على البيوت أكثر من عشر دقائق.

فأسقط المجاهدون بنيران بنادقهم طائرتين، وجروا حطام إحداهما من قرية معرين إلى قلب المدينة، بعد انتهاء المعركة.

وتبع ذلك وصول حملة عسكرية ضخمة قدمت من حمص تضم عددا من الدبابات والمصفحات وأربعا وعشرين سيارة كبيرة مشحونة بالجنود، ومدفعين من العيار الثقيل. وكان يقود هذه الحملة الكومندان سيبس. وكان من الطبيعي أن تحاول الحملة دخول المدينة من الجنوب، لكنها جوبهت بمقاومة شديدة من مجاهدي تل الشهداء، فارتدت ثم اتجهت غربا تريد الوصول إلى الثكنة باختراق جبهة كرم الحوراني، وفي الوقت ذاته خرجت لنجدتها فرق الخيالة من الثكنة. فكانت المعركة الضارية الباسلة التي استمرت من السابعة والنصف صباحا حتى الثامنة مساء بين مجاهدين لا يملكون غير البنادق العتيقة وبين قوات نظامية مسلحة بأحدث الأسلحة والعتاد، في أرض مكشوفة لا تصلح لحرب العصابات ... .

وعلى الرغم من مشاركة سلاح الطيران الفرنسي بهذه المعركة وقصفه المدينة قصفا كثيفا أدى لتهديم مائة وعشرين منزلا فإن قلب هذه المدينة العربية الباسلة العامر بالوطنية والايمان لم يتهدم بل حقق انتصارا كبيرا. فقد فاز المجاهدون واندحرت الحملة المدرعة وقتل قائدها الكومندان سيبس وبعض معاونيه من ضباط المدفعية، من فرنسيين ولبنانيين وسوريين وسنغاليين، عدا الجنود الكثيرين الذين حملت السيارات جثثهم، ومئات الجثث التي بقيت في أرض المعركة بما فيها جثة قائد الحملة ذاته. ودمر المجاهدون فرق الخيالة وهزموها فعادت إلى الثكنة، وأسقطوا طائرة وعطبوا أخرى ما لبثت أن سقطت محترقة في قرية حر بنفسه. وجاءت قوات لنجدة الفرنسيين من مصياف فدمرها المجاهدون أيضا وشتتوا شملها.

وهكذا عادت فلول من بقي حيا من المعتدين خائبة إلى مواقعها تحت جنح الظلام.

غنم المجاهدون في هذه المعركة الباسلة سيارتين وعدة رشاشات وسيارة كبيرة مشحونة بقنابل المدفعية، وعطلوا دبابتين وعددا من السيارات المصفحة وسيارات اللوري، كما عطلوا مدفعا جبليا ضخما من عيار 27 بوصة ومدفعين من عيار 75ملم ومدفعا جبليا متوسط الحجم. وسحبوا كل هذه الغنائم إلى ساحة العاصي، ما عدا مدفعا ضخما ثقيلا لم يجدو وسيلة لسحبه فحملته القوات البريطانية إلى حمص فيما بعد.

كان لهذه الانتصارات دويها العظيم في سوريا والعالم. واستمرت النجدات للمجاهدين، فانضم اليهم في اليوم التالي الشيخ راكان المرشد مع عدد من أبناء عشيرته المسلحين، ومعهم أكثر من خمسة عشر مدفعا رشاشا. وقد صمم المجاهدون على الاستيلاء على ثكنة الشرفة الحصينة جدا مهما كان الثمن. وفيما هم يعدون العدة لذلك أبلغ الضابط البريطاني الميجر داردن محافظ حماه، مساء ذلك اليوم، 31مايس، بأن طلائع الجيش التاسع البريطاني قد وصلت إلى ضواحي المدينة، وأن مهمته وقف القتال بصورة مؤقتة إلى أن يتخذ قرار دولي بشأن هذا النزاع.

وفي منتصف يوم الجمعة 1 حزيران دخلت المدينة مفرزة بريطانية مدرعة تولت إدارة الأمن العسكري فيها. وبذلك توقف القتال ونجت ثكنة الشرفة من الاحتلال والتدمير.

دروس من ثورة حماه :

أولا: شهداء الوحدة الوطنية: أحصى الاستاذ عثمان الحوراني - الذي كان من أكثر القيادات الوطنية نشاطا وإيمانا- الشهداء والجرحى وخسائر المدينة. ومن استعراض هذا الجدول يتبين كيف أن هؤلاء الشهداء الأبرار عمدوا بدمائهم الوحدة الوطنية التحررية. فقد كان عدد القتلى 51 شهيدا، منهم (30) من أبناء الشعب بحماه و(11) دركيا (8) من عشيرة التركي (1) من عشيرة المشارفة (1) من مجاهدي الرستن ... كما بلغ عدد الجرحى 123، عدا أصحاب الجروح البسيطة الذين تداووا في

منـازلهم. ومـنهم (96) مـن أبنـاء المدينـة (8) مـن الـدرك (8) مـن عشــيرة التركــي (5) بقيــة العشــائر (3) مــن الســلمية (2) مــن الشرطة (1) حارس ليلي.

وهكـذا فـإن انتصـار الثـورة الاجتمـاعي علـى تركـة عصـور التخلف من الطائفيـة والاقليميـة لا يقـل قيمـة وأثـرا عـن انتصـارها العسكري التحرري على قوات العدو المحتل".

أولا: هذا الانتصار الوطني والاجتماعي كان تحقيقا للمباديء التي كان يبشر بها حزب الشباب والقيادات الوطنيـة فجعلـت منهـا هذه المعركة -لأول مرة- حقيقة واقعية. وقد دلل الشعب، بمختلف فئاته واتجاهاته وطبقاته ومذاهبه، على إدراك عميق وحس سليم واتجاه صميم للطريق القويم الذي يحقق له الانتصار على التخلـف والاستعمار.

ثانيا: تجلي الروح الانسانية الحضارية: في هذا الجو الثـوري الذي رجع به الشعب إلى أصالته وسمو نزعته الانسانية التحرريـة تجلت نزعته الحضارية الراقية بحرصه على المحافظة على عائلات الضـباط الفرنســيين الـذين تركوهـا وراءهـم فـي المدينـة، فبعـد انسحابهم إلى ثكنة الشرفة لم تمتد يد بـأذى لأي طفـل أو امـرأة من أسرهم، بل كانت الأحياء الشعبية ترعى هذه الأسر وتحرسها بينما كانت الطائرات الفرنسـية تقصـف المدينـة وتنـزل بهـا الخـراب والدمار ولا تفرق بين الأطفال والنساء والشيوخ الـذين قضـى عـدد مـنهم تحـت الأنقـاض -بـل ان القـوات الفرنســية "المتحضـرة" لـم تخجل حتى من خرق مواثيق الحـرب المتعـارف عليهـا دوليـا. فقـد اشترك في معركة يوم الأربعـاء أفـراد الـدرك. وكمـن عشـرة مـنهم في المكلـس غربـي حـي بيـت الحـوراني فتمكنـت فرقـة الخيالـة الفرنســية مــن تطـويقهم. ولمـا استســلموا أعـدمهم الفرنســيون جميعا في نفس المكان.

ثالثا: لهيب الثورة الوطنية يطهر النفوس: فعندما خلـت أكثـر البيـوت مـن سـكانها، بعـد لجـوء النسـاء والأطفـال والشـيوخ إلـى البساتين والقرى المجاورة، وانطلاق الرجال للقتال، لم تقع حادثـة

سرقة واحدة، ولم تسجل أية حادثة إخلال بالأمن على الاطلاق، ولم تمتد يد بسوء إلى البيوت التي هدمتها القنابل.

رابعا: في الثورة الوطنية الصادقة ينفض الشعب عنه غبار عصور التخلف والانحطاط، ويكسر الاغلال والقيود وينزع من نفسه رسوبات الماضي الذليل، ويقفز إلى الأمام قفزة هائلة. وليس أدل على ذلك من مساهمة المرأة الحموية - المحجبة المعزولة - بهذه المعارك. فقد "حملت المرأة الحموية إلى المجاهدين في خطوط النار المشتعلة ما يحتاجونه من ماء وعتاد وغذاء، وكانت تزغرد كأنها في حفلات الأعراس، وتلقي على المجاهدين من عبارات التشجيع ما يبعث في نفوسهم الحماس والتضحية. كما كن يقمن بأعمال الاسعاف ونقل الجرحى".

كانت حماه حريصة على تخليد ثورتها الرائعة، فأقامت نصبا تذكاريا لشهدائها عام 1945 في موقع المعارك ذاتها، المسمى تل الشهداء، بسبب المعارك التي خاضها سابقا أبناؤها ضد الصليبيين، ففي هذا الموقع حاربت حماه مرتين وانتصرت مرتين.

ماذا جرى في المدن السورية الأخرى :

وجه الفرنسيون نيران اسلحتهم على المدن السورية جميعها، تنكيلا وانتقاما من شعبها المضرب المتظاهر الأعزل من السلاح والتنظيم والقيادة، في دمشق وحمص وحلب ودير الزور واللاذقية. فذهب ضحية هذ العدوان عدد كبير من القتلى والجرحى ... وقد قال الجنرال باجيت قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط بعد توقف إطلاق النار: "إننا أنقذنا الأهلين في سوريا من الجيش الفرنسي إلا في حماه فقد أنقذنا الفرنسيين من الأهالي".

أما جبل العرب فقد تحرر دون مقاومة. إذ أن الفرق الدرزية أسرت ضباطها ووضعت يدها على الثكنات والأسلحة والذخائر. أما في درعا فقد هاجم الحوارنة ثكناتها ببسالة فائقة دون تحقيق نتيجة تذكر بسبب غيبة القيادة والتنظيم. وقد قدم أهالي حوران البواسل عددا من الشهداء على مذبح الحرية.

كما جرت مناوشات في بعض الأقضية السورية بين الأهالي العزل من السلاح والجيش الفرنسي المزود بجميع أنواع الأسلحة.

أن تستمر المعركة حتى الجلاء

كان همي الوحيد بعد توقف إطلاق النار أن تستمر المعركة، فقد أصبح الجو مؤهلا لاغتنام الفرصة بالاستمرار في المعركة حتى يتحقق جلاء الفرنسيين الفعلي عن البلاد. وكنت حريصا جدا على عامل الوقت لقطع الطريق على الرجوع إلى سياسة التعاقد ليس مع فرنسا فقط بل مع فرنسا وبريطانيا معا. وليس من سبيل لتحقيق ذلك إلا باستمرار المعركة بعد توقف إطلاق النار، والعمل على تفكيك الجيش والتحاقه بالحكم الوطني، مما يضطر الفرنسيين للجلاء وسحب ما يتبقى من قطعاتهم العسكرية إلى لبنان. كانت مسؤوليتي كبيرة، لأنني كنت الوحيد بين القيادات السياسية الذي يمكنه أن يساهم مع الضباط الوطنيين بأداء هذه المهمة نظرا لما كنت أتمتع به من شعبية في وسط الجيش والشعب معا.

أول ما توجهت إلى حماه وأنا أتخيل، حسب الأخبار التي ذاعت، أن المدينة أصبحت ركاما وأن بيتنا الذي كان قريبا جدا من موقع المعارك قد أصبح أثرا بعد عين. ولم أكن قد عرفت بعد من بقي حيا من أهلي وإخواني ورفاقي. ومع ذلك فإنني لم أشِعر بالحزن والأسى بعد هذا الانتصار المعجز.

وصلت إلى حماه ليلا، في أوائل شهر حزيران. صرت أمعن النظر في البيوت فلا ألمح آثار الخراب والدمار الذي كان يشغلني. كان الليل قد أرخى سدوله على المدينة الباسلة النائمة على انتصارها باعتزاز.

وصلت إلى بيتنا فوجدته لا يزال قائما. وكذلك بيوت الحي، فدهشت. قرعت الباب فخرجت والدتي تستقبلني بالعناق، وشرع أهلي وأخوتي يروون لي أنباء المعارك فعرفت الحقيقة. لم يكن عدد الشهداء كبيرا كما لم يكن التخريب واسعا بالشكل الذي

كنت أتصوره مما كان يشاع ويذاع. ولا شك أن عجز الفرنسيين عن اقتحام المدينة حماها من الخسائر الفادحة المتوقعة في أمثال تلك المعارك.

ذهبت فورا إلى "الجمعية" التي كانت مركزا حزبيا يسمر فيه أبناء حينا. وسرعان ما تقاطروا ليروي لي كل واحد منهم قصة المدينة الباسلة حسب ما شاهده ورآه وساهم به في معركتها المظفرة.

لم أتوقف طويلا بل ذهبت في تلك الليلة إلى مقر القيادة العسكرية للثورة في خان الشعبة، فاجتمعت هناك بخالد آغا وصلاح الشيشكلي ورفاقهما، ثم توجهت إلى بيت الأمة فشاهدت فيه أحد المدافع التي غنمها المجاهدون منصوبا في الحديقة. ثم ذهبت إلى مقر حزب الشباب فأخذت صورة كاملة عما جرى وعن الوضع الراهن، إذ كان المجاهدون لا يزالون يطوقون معسكر الشرفة رغم توقف إطلاق النار.

وفي تلك الليلة زرت الأخوين نخلة وخليل كلاس فعرفت منهما صورة الوضع في حلب، حيث كان شقيقهم الضابط بهيج كلاس قد تمكن من الفرار من القطعات الفرنسية وشكل مع رفاقه قيادة في حلب واستمروا بمناوشة الثكنات فيها ليلا بعد توقف إطلاق النار. فأوصيتهما أن يتصلا ببهيج لإعلامه بضرورة الاستمرار في المعركة حتى ننتهي من الحاق الجيش بكامله بالحكم الوطني، ويتم جلاء ما يتبقى من القوات الفرنسية إلى لبنان ... كما قررنا الاتصال فورا بالضباط السوريين في ثكنة الشرفة بحماه، الذين لم يتمكنوا من الفرار لأن الفرنسيين قد حجزوهم طيلة تلك المدة، ومنهم الضابط نبيه صباغ. والضابط القباني، وعدد من رفاقهما الآخرين.

وبعد أن تم الاتصال بهم نصبنا في الليلة الثانية كمينا قرب الثكنة لحمايتهم عند خروجهم منها. وقد تمكنا من العودة بالقباني وصباغ دون اصطدام، لأن الفرنسيين لم ينتبهوا لفرارهما.

بقيت العقبة الوحيدة أمامنا التحاق الضابط محمد مهنا، الذي كان يسيطر على معظم القوات في الثكنة، فأرسلنا إليه الأخبار بأننا نكفل مستقبله في الجيش إذا التحق مع قطعاته بالحكم الوطني. ولكنه لم يطمئن، حيث كان بيته قد نهب لأن المدينة كانت تعتبره مسؤولا عن كل ما أصابها في تلك المعارك. وقد حاولت عبثا تطمينه أو التمكن من إرجاع أثاث بيته بعد أن أنكر الأشخاص الذي نهبوه فعلتهم. ولم يكن أحد منهم بطبيعة الحال من حزب الشباب. ولما رأيت أن أمر التحاقه ربما يستغرق بعض الوقت قررت العودة إلى دمشق. لا سيما وأنني أصبحت مطمئنا على الوضع في حماه حيث أصبح الشباب مهيمنين على المدينة بفضل ازدياد ثقة الشعب بهم.

ولكن حدث قبل أن أغادر حماه أن قدم إليها الضابط صلاح البزرة ملتحقا بالحكم الوطني، مصطحبا معه بعض الجنود وبضعة رشيشات هوشكيس وأسلحة أخرى. وقد اقترح أن نهيئ حملة للاستيلاء على ثكنة مصياف العسكرية. وكانت هذه الثكنة تقع على الطريق العام عند مدخل مصياف من جهة حماه. فقررنا أن نحمل المقاتلين بسيارات، بينها سيارة باص كبيرة تحمل عددا كبيرا من المجاهدين الذين يخفون أسلحتهم تحت ثيابهم المدينة. وعندما نقترب من الثكنة نتوقف ونتمترس في التلال المطلة عليها بينما تستمر سيارة الباص فتدخل الثكنة في وقت الغداء، فيقوم المجاهدون بانقضاض مفاجيء على الجنود ...

لا أدري الآن إذا كانت مثل هذه الخطة ستنجح في حال تنفيذها أو ستنتهي بكارثة ولكن عندما أرسلنا أحد الضباط لاستطلاع الثكنة رجع إلينا قانعا بفشل هذه الخطة واعتبرها جنونية.

في دمشق كان عدد الضباط السوريين الملتحقين بالحكم الوطني يزداد باستمرار. لذا أخذ الفرنسيون بسحب ما تبقى من قطعاتهم إلى لبنان شيئا فشيئا. وقد أخبرني هؤلاء الضباط الذين تعرفت على أكثرهم آنذاك أن العقيد أنور بنود هو الآن في معسكر قرب شتورا. وأنه مستعد للالتحاق بالجيش السوري ولكنه يشترط

أن يكون ذلك بضمانتي وعلى يدي شخصيا. وقد قيل لي إن التحاقه يشجع عددا كبيرا من ضباط الجيش السوريين الآخرين الموجودين في معسكرات الفرنسيين بلبنان، لأنه كان من ذوي الرتب العالية من السوريين فسافرت إلى شتورا واجتمعت بأنور بنود في المكان والموعد المحددين، بعيدا قليلا عن الطريق العام بين شتورا وزحله.

كان الفرنسيون يشددون الرقابة على الضباط السوريين فأرسلوا في إثر أنور بنود سيارة للبحث عنه. وعندما كنا نتحادث معه مرت السيارة فانتبه لها العقيد ولكنها مرت دون أن تلحظنا. وغادرنا المكان بعد أن تحققت الغاية.

ذهبت إلى حمص بعد ذلك ولم أكن أعرف أحدا من الضباط فيها. فقصدت مقرهم الكائن مقابل سراي الحكومة، فتعرفت بواسطة صديقي ابراهيم الأتاسي الضابط بالدرك الذي كان معي في دمشق أثناء العدوان على شقيقه الضابط فتحي الأتاسي. كما تعرفت على الضابطين غسان جديد وعزيز عبدالكريم، وعلى بعض الضباط الآخرين. أخبرتهم بأنني مستعد لكل مساعدة. وكانوا على أهبة الذهاب إلى تلكلخ حيث ما زالت المناوشات مع الحامية الفرنسية مستمرة.

وهكذا تجددت المعارك في معظم أنحاء سوريا: في حلب واللاذقية والرقة وتلكلخ وحوران وغيرها. وكان هذا الضغط عاملا على فرار العناصر السورية من القطعات الفرنسية، وكان في الوقت ذاته عامل ضغط على الفرنسيين للانسحاب إلى لبنان.

انتقل الضابط محمد مهنا مع بعض القطعات السورية إلى المعسكرات الفرنسية قرب بعلبك. فاتفقت مع الضابط حسن مهنا والضابط عزيز عبدالكريم على السفر إلى هناك للاتصال به. ولما وصلنا إلى بعلبك توجهنا إلى بيت أبو دريد ياغي الذي كان رفيقي حسن مهنا على معرفة به. فتعرفت إليه، ونزلنا في بيته ضيوفا فأكرمنا وأحسن ضيافتنا، وتجند لتسهيل مهمتنا آل ياغي

وجماعتهم من أهالي بعلبك فأمدونا بكل ما نحتاج إليه من سيارات وغيرها. كما تطوعوا معنا للقيام بهذه المهمة.

كان مقهى العين مركزا لنشاطنا. فالتحق بنا أحد الضباط من آل الأطرش. وكانت مراقبة الفرنسيين للضابط محمد مهنا وقطعته شديدة. مما اضطرنا للمجازفة بالاقتراب كثيرا من المعسكر. وكدنا نقع بيد الفرنسيين ولكننا نجونا بأعجوبة.

20

1945: استلام الجيش السوري - المعارضة المجلسية تبدأ الهجوم على العهد - تشكيل كتلة النواب الأحرار - تشكيل الكتلة الدستورية - المعارضة تدعم فارس الخوري في ترشيحه لرئاسة مجلس النواب.

استلام الجيش السوري:

اضطرت الحكومة الفرنسية لإصدار بيان في بيروت وباريس، في 8 تموز، جاء فيه: "لما كانت الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية ترغب بأن تجيب الطلب الذي تقدمت به الحكومتان السورية واللبنانية فيما يتعلق بتسليم الوحدات العسكرية المتطوعة محليا، ورغبة منها في أن تظهر لحكومتي سوريا ولبنان نيتها الطيبة عن طريق ارضائهما ارضاء تاما فيما يتعلق بهذه الوحدات وبما أن الحرب قد انتهت في أوروبا ولم يعد هناك أي اعتراض حول الرغبة المشروعة التي أبدتها الحكومتان السورية واللبنانية بشأن تشكيل جيوش وطنية لها، لذلك نصرح بتسليم هذه القوات الى الحكومتين السورية واللبنانية وفق شكليات ستحدد خلال 45 يوما على أبعد حد".

وقد جرى استلام ما تبقى من القطعات التي انسحبت الى لبنان، من أفراد وأسلحة، دون قيد أو شرط، بواسطة لجنة فنية شكلت لهذا الغرض، كما طالبت الحكومة بواسطة هذه اللجنة أن تستلم الأسلحة والذخائر العائدة للجيش، وقد علقت جريدة "الديلي هيرالد" على قرار الحكومة الفرنسية بقولها :"لو جاء هذا القرار قبل عام على الأقل لأمكن ان يفسح الطريق في وجه تسوية هذه المشلكة، لأن الطلب الرئيسي لحكومتي المشرق (سوريا ولبنان) كان إذ ذاك تسليم القوات الخاصة، أما اليوم فان سوريا ولبنان تصران على الجلاء التام كمقدمة لأي مفاوضات قد تحدث".

وهكذا، وخلال شهر تموز 1945، كانت فرنسا قد سلمت جميع الثكنات العسكرية الى الحكومة السورية. وأصبح الجيش السوري بكامله تابعا للحكم الوطني، وشرع عبد الله عطفه رئيس أركان الجيش ورفاقه كبار الضباط السوريين باعادة تنظيمه من جديد.

وبعد إعادة تنظيم الجيش السوري جرى عرض عسكري في دمشق بمناسبة الاحتفال بعيد تولي رئيس الجمهورية في 17 آب 1945، وقد حضرت هذا الاحتفال. وعندما بدأت فرق الجيش السوري تمر أمامنا أجهشت بالبكاء. فخجلت ووضعت يدي على وجهي، وعندما التفت الى وجوه الجالسين قربي رأيتهم جميعا يبكون.

كان لاستلام الجيش أثر عميق في نفوسنا اذ اصبحت بلادنا لأول مرة تشكل قواتها الوطنية المسلحة التي يعقد عليها الأمل والرجاء بانقاذ فلسطين.

الفرنسيون يعلنون عن نيتهم البقاء في لبنان وفي بعض المطارات السورية:

ترافقت هذه الأحداث التي ذكرناها في سوريا مع انعقاد مؤتمر بوتسدام في 3 آب 1945، والقاء القنبلة الذرية الأولى على اليابان في 29 آب والثانية في 10 أب واستسلام اليابان في 16 أب.

وكانت وكالة الأنباء الفرنسية قد نشرت في مطلع آب أنه "تم عقد اتفاق بين الجنرال باجيت بوصفه القائد الأعلى للقوات البريطانية في الشرق الأوسط وبين الجنرال بينيه بوصفه المندوب الفرنسي العام، حول سحب القوات الفرنسية عن سوريا الشرقية وإبقائها على الشاطىء السوري الغربي في لبنان، ووضع بعض المطارات في دولتي المشرق تحت اشراف القوات الفرنسية".

وقد بادرت الحكومة السورية لتكذيب هذا الخبر، بالوقت الذي لم يكذبه البريطانيون ولا الفرنسيون ... وعند بحث اتفاقية

(بـيفن بيـدو) فيمـا بعـد سـيظهر بـأن هـذا الخبـر كـان صـحيحا وأن المفاوضات كانت تجري بموافقة الحكومة السورية.

إن ارتياب المعارضة بموقف الحكومة جعلها تطلب عقـد دورة استثنائية للمجلس النيـابي فاضـطرت الحكومـة لفـتح تلـك الـدورة اعتبارا من 14 آب 1945.

وهكذا أصبحت خطتنا تقضي:

اولا: متابعة الوقوف بحزم أمام أية سياسة تعاقديـة مـع فرنسـا أو بريطانيا.

ثانيـا: المطالبـة بجـلاء القـوات الفرنسـية والبريطانيـة دون قيـد او شرط.

ثالثا: تسليح الجيش السوري وتجهيـزه وتطبيـق الخدمـة الالزاميـة استعدادا للمعركة القادمة بفلسطين.

ولتحقيق هذه الأهداف لا بد من اجراء انتخابات جديـدة فـي البلاد...

كان رصيد المعارضة يتعـاظم باسـتمرار بعـد العـدوان، سـواء في اوساط الشعب أو الجيش. بالرغم مما كانـت تملكـه الحكومـة من امكانيـات السـلطة ولا سـيما وسـائل الاعـلام وأجهـزة الأمـن، وكان علينا أن نعمل في هذا الاتجاه، بتعاون المعارضـة المجلسـية مع التكتلات الحزبية خارج المجلس. لا سـيما وأن النظـام قـد بـادر لأول مـرة منـذ انتخابـات 1943 بالعمـل علـى تشـكيل تنظـيم سياسـي رسـمي أسـماه تنظـيم الكتلـة الوطنيـة البرلمانيـة. وقـد تمكنـت الكتلـة، بمسـاعدة رئـيس المجلـس، أن تضـم اثنـين وخمسين نائبا.

انتظرناهم من الشرق فجاءونا من الغرب:

افتتحت الدورة الاستثنائية في 14 آب 1945، فعقد البرلمـان الجلسـة الأولى بعد العدوان الفرنسـي، واسـتهلها رئيس المجلـس سـعد الله الجـابري، حسـب عـادة المسـؤولين العـرب فـي سـتر مسؤولياتهم عن الهزائم بقولـه: "**فاجأنـا الاسـتعمار الفرنسـي**

بضربة غدر مساء 29 مايس 1945 في الساعة السابعة الا خمس دقائق".

ثم استشهد محذرا بالمثل الأجنبي:

إن فيليب ما زال على الأبواب، وقال:

نعم ان الخصم ما زال أمامنا بأشخاصه ووسائله وعدده وإغراءاته وافساده ليفكك الصف، ويبعثر الكلمة، فعلينا بالاتحاد... ثم قال:

ان حكمتكم كفيلة به، انتم الذين جاهدتهم، وكان من نتيجة جهودكم وشجاعتكم وحزمكم وحكمتكم هذا الأثر الاستقلالي الذي نراه الان.

وكان الجابري خلال العدوان في فندق الشرق، ولكنه استطاع أن يهرب الى لبنان ومنه الى القاهرة، ليطلب اجتماع مجلس الجامعة العربية، وقيل ان الذي ساعد على تهريبه متنكرا هو السيد سولود سفير الاتحاد السوفيتي وذلك بعد ان اتصل بطريرك موسكو، وكان في الفندق، بالسفير سولود الذي نقل الاثنين معا الى لبنان.

وفي القاهرة انعقد مجلس الجامعة العربية حيث قرر:

"إن بقاء القوات الفرنسية في سوريا ولبنان يتنافى مع حقوق السيادة والاستقلال المعترف لهما بها".. الخ. كما أرسلت بعض الدول العربية البعثات الطبية والأدوية الى سوريا.

المعارضة تبدأ هجومها

كانت خطة القوتلي والجابري الالتفاف على موقف المعارضة لذلك تم الاتفاق على تنظيم أوضاع "الكتلة الوطنية البرلمانية" وتقديم اقتراح موقع من أثنين وخمسين نائبا بسحب الثقة من الحكومة لتشكيل حكومة جديدة، وكان الوقت قصيرا أمام المعارضة قبل انعقاد الجلسة، ومع ذلك فقد حاولنا تكتيل المعارضة، وصممنا على المبادرة بالهجوم وكشف الخطط المبيته.

كانت المعارضة، مع الاسف، تنوء بما تحمله من أهواء شخصية وتأثيرات اقليمية وطبقية مختلفة، لكنها الأداة الوحيدة للوقوف في وجه التكتل الاقطاعي العشائري والرأسمالي الحاكم الذي تدعمه السلطة بما تملك من وسائل. وكان معظم أركان المعارضة من طبقة القوتلي والجابري ذاتها، ولا يفرق بين الفريقين الا التنازع على الحكم والسلطة.

كانت هذه المعارضة تجمع حلمي الاتاسي الى جانب هاني السباعي، ورشدي الكيخيا وغالب العظم الى جانب رئيف الملقي ... وقد أطلقنا على كتلة المعارضة اسم "النواب الاحرار".

ولشد ما كان استغراب رئيس الحكومة ورئيس المجلس كبيرا عندما بدأ غالب العظم يهاجم الحكومة قائلا:

"ان الحكومة هي المسؤولة عن كل ما حدث، لأنها لم تحسب حسابا للنكث بالعهود ولم تتخذ خطة حكيمة لدرء الخطر وإحباط مؤامرة السفاح أوليفا روجيه التي كانت على علم بها قبل وقوعها، ولم تستمع لأقوال النواب الذين طالبوها بتوحيد الجهود دفعا للعدوان المنتظر، وضربت باقتراحاتهم العملية عرض الحائط برفضها دعوة السوريين المجندين للانسحاب من القطاعات الفرنسية... أجل انها لم تفعل شيئا من ذلك بل راحت تنعت تحمس الشعب شغبا وتوثبه تمردا، قائلة بوجوب اخماد جذوته بقوة السلاح".

فرد فارس الخوري منزعجا من هذه الحملة، بكلمة أشار فيها الى غيابه عن البلاد أثناء العدوان، حيث مثل سوريا في مؤتمر سان فرانسيسكو. وذكر أن من الاسباب التي دعت حكومته لافتتاح هذه الدورة الاستثنائية هي اطلاع المجلس على النتائج التي حصل عليها الوفد في المؤتمر، وتقديم مشروع القانون الخاص بابرام ميثاق مؤتمر سان فرانسيسكو للأمم المتحدة الى المجلس للمصادقة عليه، وفتح اعتماد للانفاق على الجيش السوري، الذي تم استلامه، وتسليحه وتجهيزه واعادة تنظيمه، لبينما يتم وضع ملاك الجيش النهائي بقانون خاص، ثم أسهب باستعراض جهوده في المؤتمر.

وفي الجلسة الثانية، بتاريخ 20 آب، ألقى رئيس الحكومة فارس الخوري بيانا وزاريا مطولا، في الحقل الخارجي والمالي، والاقتصادي والمعارف والعشائر والصحافة، وأسهب في شرح ميثاق الأمم المتحدة، ثم مر أخيرا على الموضوع الأساسي مرورا عابرا فقال: "انكم تعرفون الظروف القاسية التي مرت في طريق تسليم الجيش الينا، فقد حاول الفرنسيون بمختلف الوسائل الاحتفاظ به، فلم يعمدوا الى تسليمه الا بعد ان التحق عدد كبير منه".

وتعاقب بعده الوزراء يقدمون للمجلس التقارير عن شؤون وزاراتهم، فجاء في تقرير وزير الداخلية صبري العسلي: **"أقر هذا المجلس تأليف القوة الاحتياطية البالغة خمسة آلاف جندي، وشرعت قيادة الدرك بتنظيمها وتدريبها ولكن الحوادث التي عاجلت والوقت الضيق الذي لم يسعف لم تمهل الدولة لأن تخرج الافراد على الشكل الذي يمكن ان يكونوا معه قادرين على القيام بالواجبات المفروضة... وهكذا قيل ان فريقا من الجنود قد ترك مراكز عمله وان فريقا آخر قد تقاعس عن القيام بواجبه وأن فريقا ثالثا قد استسلم وان سلاحا قد فقد ... ليس طبيعيا ان تنصب الحمم على فرد من كل حدب وصوب وأن لا يملك من وسائل الدفاع الا بندقية مع بضعة خراطيش ثم يطلب منه أن لا يستسلم. كذلك ليس طبيعيا ان يطلب من أي ضابط وجد أن محاولة الدفاع عبث لا فائدة تحته، ولا من بقائه في مكانه اذا كانت النجاة ميسورة بين يديه"...**

وهكذا حاولت الحكومة ان تتنصل من المسؤولية بل حاولت أيضا أن توجد المعاذير للمنهزمين والمتقاعسين والعملاء الذين اعتدوا على المجاهدين.

وتقدمت الكتلة الوطنية البرلمانية التي كان يديرها ميخائيل اليان نيابة عن سعد الله الجابري بالاقتراح الموقع الذي ذكرناه سابقا: "بالنظر للدور الدقيق الذي تجتازه البلاد وللأحداث المتتابعة والامور العديدة التي تتعلق بمصالح البلاد الداخلية والخارجية ولمشاريع القوانين المعروضة على هذا المجلس وبهذه الدورة ومن أهمها مشروع قانون استلام الجيش السوري وغيره فاننا

نحن نواب الأمة نقـرر أنـه لا يمكـن معالجـة هـذه القضـايا الخطيـرة والبحث فيها الا أمام حكومة حائزة على ثقـة هـذا المجلـس" - 52 توقيعا -.

وقد تمكن فارس الخوري أن يتجنب نزع الثقة من حكومته اذ قـدم اسـتقالته وشـرع بتـأليف وزارة جديـدة، بالتفـاهم مـع رئـيس الجمهورية ورئيس المجلس والكتلة الوطنية البرلمانية.

أما المعارضة المتمثلة بكتلة النواب الأحرار فقد تصدت لهـذه المحاولة باصدار البيان التالي، الذي اذاعته مساء يوم 20 آب.

وقد كلفت أنذاك بوضع صيغة البيان وهذا نصه:

بيان كتلة النواب الأحرار:

بعد المذاكرة والبحث في الموقف الحاضر على ضوء اختبـارات وتجارب الماضي قررنا توحيـد جهودنـا ومسـعانا للوصـول الـى تنفيـذ خطة سياسية نعتبرها المخرج الوحيد من المأزق الـذي وصـلت اليـه البلاد من فوضى في الادارة الداخلية وتردد وضعف وخطـل وانحـراف فـي الشـؤون الخارجيـة، وذلـك فـي البحـث عـن عناصـر جديـدة لـم تشترك فـي الحكـم فـي ظـل الانتـداب الـذي دام خمسـة وعشـرين عاما، لأن الوضع الاستقلالي الحالي يتطلب خططا وأسـاليب جديـدة في الحكم وهمما وثقافة وعزما أكيدا، ولا سبيل للوصـول الـى هـذه الغايات الا بانتقاء رجال جـديرين بهـا وقـادرين علـى تحقيقهـا، والـذي يشجعنا أن البلاد ليست من العقم بحيث لا تقدم مثل هـؤلاء الرجـال. واننا على يقين ان هذه الرغبة هي ارادة الأمة اذ لا يخفى ان طبيعة الانتداب اشاعت في النفوس هـذا الـزعم اليـائس مـن عبقريـة هـذه الأمة، وإلا فهل يعقل ان تقصر قدرة الحكم على أشخاص معـدودين؟ ولا نرى دواء لهذه الحالة البائسة الا بافساح المجال لكفاءات الرجـال سواء من داخل المجلـس أو مـن خارجـه وان دسـتورنا لمـن المرونـة بحيث يسمح ويساعد على تحقيق ذلك.

الخوري يحاول استدراج النواب الأحرار:

حـاول فـارس الخـوري ان يشـكل وزارة ائتلافيـة مـن الكتلـة الوطنية البرلمانية ومن النواب الأحرار، لتطويق الأزمة.

وكان الخوري قد عين قبل ذلـك نـاظم مـرهج سـكرتيرا فـي رئاسة مجلس الوزراء، وهو شقيق فريد مرهج نائب حماة وصـديق رئيـف الملقـي، وعـن هـذا الطريـق أراد الخـوري أن يشـرك النـواب الأحرار بالحكومة لا سيما بعد صدور بيان النواب الأحرار الذي لاقـى استجابة شعبية قوية والذي وضع شرطا واضحا محددا قاطعا كحـد الشفرة باقصاء كل من تعاون مع الانتداب في العهود الماضـية عـن الحكم.

وذكـرت الصـحف الصـادرة بتـاريخ 24 - آب -1945 أن فـارس الخـوري "بـدأ اتصـالاته بأركـان الكتلتـين النيـابيتين " الكتلـة الوطنيـة التـي يـدير دفـة العمـل فيهـا السـيد ميخائيـل ليـان والسـيد علـي الحياني، وكتلة النواب الأحـرار التـي يـدير دفـة العمـل فيهـا السـادة أكرم الحوراني ورئيـف الملقـي وحلمـي الأتاسـي وبقيـة أخـوانهم... وقد أوفد رئيس الـوزراء امـين سـره الاسـتاذ نـاظم مـرهج الـى كتلـة النواب الأحرار وطلب الـيهم درس موضـوع اشـتراك الكتلـة بـالوزارة، كما اتصل دولته كذلك بالسيد ميخائيل ليان، وقد سألنا كلا من رجـال الكتلتين بيان تطورات الأزمة فأكد الفريقان ما ذكرناه في أول الكلام، وزاد عليه رجال كتلة النواب الأحرار بأن رغبتهم الملحة تنصـرف الـى ادخال تطور ملحوظ على الطرق والأساليب التـي اتبعـت حتـى الأن، وهي ترى أن المناصب الوزارية يجـب أن يمارسـها رجـال لـم يسـبق لهـم أن اسـتوزروا فـي عهـود الانتـداب، اذ لا يجـب أن يكـون هـؤلاء السياسيون اصـحاب الوجـوه الدائمـة فـي الحكومـة، وأكـد هـؤلاء أن مباحثاتهم تستهدف هذه الفكرة، وقد استقبل رئيس الـوزراء الملكـف من رجال هذه الكتلة بعد ظهر أمس السادة أكرم الحـوراني وحلمـي الأتاسي وفريد مرهج استقبالا دام حوالي الساعة".

فماذا جرى في هذه المقابلة؟

قال لنا فارس الخوري انه يرغب بتشكيل وزارة ائتلافية، وأنه يطلب الينا تقديم أسماء من نرتأي ترشيحهم للوزارة.

فقلت له: ليست الصعوبة في تقديم هذه الأسماء وانما هناك قضية مبدئية اساسية يجب حلها أولا.

قال: وما هي هذه القضية المبدئية.

قلت: لا بد أنك قرأت في الصحف قرار النواب الأحرار الذي يقضي بفتح صفحة جديدة في البلاد بعد ثورة مايس 1945 وذلك بإقصاء كل الذين استوزروا وتعاونوا مع الانتداب من مقاليد الحكم. ثم اجراء انتخابات نيابية جديدة.

فصمت قليلا ثم سألني: هل تعتبرني أنا مثلا من الذين استوزروا في عهد الانتداب؟

قلت له: تعلم أنك استاذنا، نجلك ونحترمك دون سائر الآخرين الذين يفاخرون، بمناسبة وغير مناسبة، بجهادهم فاسمح لي أن أجيبك بصراحة: أن قرارنا واضح وشامل، مع اعترافنا أن هنالك فروقا في درجة المسؤولية، ولكننا لا نعتبر أنفسنا أننا تحررنا فعلا ألا من ليلة الواحد والثلاثين من شهر مايس 1945، وان هذا الاستقلال الفعلي الذي حققته البلاد بما ضحت به من خراب ودماء وآلام وشهداء يجب أن يقوده في هذه المرحلة رجال لم يسجلوا على أنفسهم تعاونهم مع الانتداب الفرنسي في الماضي مهما كانت مبررات ذلك التعاون.

ثم تمثلت بقول المسيح: "لا تضعوا خمركم الجديدة في الجرار العتيقة".

فابتسم فارس الخوري بامتعاض.

كان لقرارنا دوي كبير في سوريا وخارجها، وعلقت عليه احدى الصحف الأجنبية بقولها: "ان سوريا قد خرجت من العدوان الفرنسي بثورة حقيقية عميقة الجذور".

وزارة فارس الخوري الثالثة ومناقشة دستورية حول تأليفها

في 24 آب أعلن عن تشكيل الوزارة الجديدة على النحو التالي:

فارس الخوري	للرئاسة
لطفي الحفار	للداخلية
خالد العظم	للمالية والدفاع الوطني
ميخائيل اليان	للخارجية
صبري العسلي	للعدلية
أحمد الشراباتي	للمعارف
حسن جبارة	للاقتصاد الوطني والاعاشة والتموين
الدكتور حكمت الحكيم	للاشغال العامة.

وهكذا خرجت الوزارة الجديدة وكلها من نواب الكتلة الوطنية، فكانت وزارة حزبية بكل معنى الكلمة.

وقد تعرض المجلس أثناء مناقشة البيان الوزاري لقضية دستورية تتعلق بعدد الوزراء. فقد نص الدستور على أن يكون عددهم سبعة بينما هؤلاء ثمانية. فجرت مناقشة قصيرة قلت فيها:

"من المعروف أن القوانين القضائية تفسرها محكمة التمييز، كما أن النظم الادارية يفسرها مجلس الشورى، أما الدستور فهناك أسلوب لتفسيره عند وقوع اختلاف على أحد نصوصه، وفي مثل هذه الحال يحال الاقتراح الى لجنة الدستور فتدرسه وتقدم تقريرها ليعرض على المجلس ليرى رأيه فيه، هذا هو الأسلوب الواجب الاتباع، أما ما جرى في السابق وهو أن أحد الزملاء السيد رشدي الكيخيا كان قد اعترض على تشكيل الوزراة الأولى من ثمانية أعضاء بينما الدستور ينص صراحة على تشكيلها من سبعة فقط، وقد جرى نقاش حول هذا الأمر وانتهى عند هذا الحد دون تقرير من لجنة الدستور أو قرار من مجلس النواب، والمعلوم أن التقاليد الدستورية عبارة عن اجتهاد متكرر عن تفسير مكرر بينما لا يوجد هناك أي تفسير أصولي أعطي به تقرير من لجنة الدستور ومن ثم أعطى المجلس رأيه بهذا القرار. بل كل ما هنالك عبارة عن مناقشة

بسيطة انتهت عند هذا الحد، فلا تقاليد ولا اجتهاد ولا أعراف برلمانية تجيز لنا تأليف الوزارة من ثمانية أعضاء بينما نص الدستور على وجوب تشكيلها من سبعة فقط.

أما تقرير لجنة الدستور في الجمعية التأسيسية فقد رجعت اليه وقرأت جميع محاضر وضبوط المجلس التأسيسي، وباستطاعتي أن أؤكد للزميل الكريم ولغيره أيضا بأنه لا يوجد في ذلك التقرير أية اشارة تشعر أن رئيس الوزراء مستثنى من عداد الوزراء السبعة، ويمكن الرجوع الى تلك المحاضر التي لا بد أن تكون موجودة في مكتب المجلس.

اما قضية تسهيل المصالح العامة كما تفضل الزميل الريس فانني أقول له ببساطة: عندما يفسر المرء أحد النصوص يستند الى النصوص نفسها ويضعها أمام عينيه، وهذه لها أساليب للتغيير والتبديل والالغاء أيضا.

فاذا كان من غير المعقول ومن غير الجائز أن يكون عدد الوزراء سبعة، فباستطاعة الزميل الكريم أن يقدم اقتراحا بالغاء هذه المادة والطريق الدستوري معروف، وهو أن يتقدم ثلث أعضاء المجلس بهذا الطلب ثم يقر بأكثرية الثلثين، أما أن نقول ليس من المصلحة أن يقتصر عدد الوزراء على السبعة فهو قول لا يستند الى الحقيقة ولا الى الواقع. لهذا أرجو من المجلس الكريم أن يصادق على تقرير لجنة الدستور المستند الى حجج دافعة.

ولما رجع المجلس الى المحضر الذي أشرت اليه كان الحق في جانبي فاضطر الخوري لتطبيق أحكام الدستور فاستقال أحمد الشراباتي وتولى رئيس الوزراء مهام وزارة المعارف.

تصدى نواب المعارضة لفارس الخوري، بعد تلاوة بيانه الوزاري، بأسئلة محرجة تتعلق بموضوع الجلاء النهائي للقوات الفرنسية والاستعانة بالخبراء الأجانب، وبتحديد موقف الحكومة من قضايا العمال، كما سأله حامد الخجة عما اذا كان لا يزال عضوا في مجلس ادارة احدى الشركات، وهكذا تتابعت حملة نواب

المعارضة على الوزارة الجديدة وامتدت مناقشة البيان الوزاري حتى وقت السحور.

لما أتى دور نواب الكتلة الوطنية بالدفاع عن الوزارة حاولوا أن يطرحوا قضية اليمين واليسار علها توهي من تماسك نواب المعارضة، فاعتبروا انفسهم من أهل اليمين، واعتبروا النواب الأحرار من أهل اليسار، فقال النائب الشاعر بدوي الجبل:

"رضي الله عن ملائكة اليسار، أن مهمتهم أيها السادة كما تعلمون أن لا يتركوا سيئة الا سردوها، ولا هفوة إلا عدوها، بل ان مهمتهم في بعض الاحايين أن يكبروا الذنوب ويخلقوا من الحسنات العيوب، أما ملائكة اليمين فقد خلقهم الله لذكر الحسنات وأوكل إليهم تدليلها والعناية بها، وفوق ملائكة اليمين وملائكة اليسار عفو الله ورحمته يتسعان للبرىء ولا يضيقان بالمسيء" ثم تعرض لقرار النواب الأحرار متسائلا: من هم هؤلاء الاشخاص الذين يتهمونهم كل هذه التهم؟ انهم الرعيل الاول الذي كافح الاجنبي طيلة ثلاثين عاما ... أما أن يؤخذ على بعض هؤلاء أنه استوزر في زمن الانتداب فهذا قول مردود لأن الأمة هي التي رفعته الى الوزارة لمقاومة الانتداب. وقد اشتغل سعد زغلول وزيرا في عهود الحماية فما منعه ذلك أن يكون زعيما للأمة المصرية" ... الخ.

أطلقت مدافع السحور فعلقت الجلسة الى العاشرة من صباح اليوم التالي: 29 آب، لمتابعة المناقشة فنالت الحكومة الثقة باكثرية 52 صوتا، وحجب الثقة عنها 29 نائبا من مختلف فئات المجلس، واستنكف عن التصويت النواب الاخرون من أعضاء الكتلة الوطنية الذين أخرجوا من الوزارة: جميل مردم وأحمد الشراباتي والنائبان عفيف الصلح ونعيم الانطاكي.

هوامش:

* في جلسة 30 آب 1945 أقر المجلس ميثاق الأمم المتحدة دون مناقشة.

* وفي تلك الاونة أوعزت الحكومة للدكتور منير الأسود والمحامي عبد الرحمن عياش ومحمد الحافظ باصدار جريدة باسم "العاصي"

لتفتح حملة اعلامية ضدنا في حماة، فحصلت على امتياز لاصدار جريدة "اليقظة" في حماة باسم الدكتور نجيب عبد الرزاق، فعلقت "النصر": "وستكون الزميلة الجديدة، واسمها اليقظة لسان حال الحركة الشعبية في حماة، وهي الحركة التي يقودها الاستاذان رئيف الملقي وأكرم الحوراني" (21 آب - 1945).

* قمنا بالاتفاق مع رشدي الكيخيا بتهيئة حملة من البرقيات التي اخذت تنهال على الحكومة من حماة وحلب أثناء تشكيل الوزارة الجديدة، مطالبة بحل المجلس واجراء انتخابات جديدة، فلم يكتب لهذه الحملة النجاح رغم أنها كانت تعبر تعبير صادقا عن اتجاه الرأي العام في البلاد.

مناقشة قضايا الجيش: في جلسة 15 ايلول 1945 طرح مشروع قانون استلام الجيش للمناقشة، فوجدتها فرصة لتنفيذ خطتنا التي انتهجناها، فقلت:

"ان الاعتمادات المرصدة للجيش السوري تدل دلالة واضحة على أن في نية الحكومة ابقاء الجيش السوري على حالته الحاضرة، كما أن بيان الوزارة الذي ناقشناه في هذا المجلس يدل من ناحية أخرى على ان الحكومة لا ترى وجها لاصلاح هذا الجيش الا تجهيزه بالمعدات، والواقع أن ابقاء الجيش على حالته الراهنة أمر مضر بالمصلحة القومية ضررا فاحشا. اذ لا بد من اجراء اصلاحات عميقة وصالحة كي يصبح هذا الجيش جديرا بحماية أمن البلاد الداخلي والخارجي. ولا بد لنا قبل ان نتطرق للاساليب الواجب اتباعها لإصلاحه أن نقول ان الجيش السوري الحالي قد أنشأه الفرنسيون لا ليكون جيشا يحمي البلاد ومصالح الأمة انما كانت غايتهم ان يقمعوا بواسطته كل حركة وطنية أو قومية تقوم في هذه البلاد وقد اتبعوا في أمر تشكيله ما اتبعوه في تطبيق المبادىء المكيافيلية سواء في السياسة او الاجتماع، فألفوة فرقا على أساس النعرات الطائفية والعنصرية، فكانت هنالك قوى درزية واسماعيلية وعلوية واخرى شركسية الى آخر ما هنالك، ولكن لا يمكن ان ننكر بأن كل ما أراد الفرنسيون تطبيقه في هذه البلاد لم ينجح ولم يكتب له التوفيق لأن هناك عناصر ممتازة جدا بين الضباط

الموجودين في الجيش السوري الحالي، ومن الجنود أيضا، وأريد أن اشير هنا الى أن بحثي هذا يرمي الى تغيير الأساليب والوسائل التي اتبعها الفرنسيون في تأليف هذا الجيش، من المعلوم أن قيمة الجيوش من الوجهة العسكرية منوطة بثلاثة أمور: الأولى درجة ثقافة الجنود وحالتهم الروحية والمعنوية وتدريبهم الصحيح.

الثاني: كفاءة القادة وقدرتهم العسكرية.

اما الثالث: فهو التجهيز الحديث بالأسلحة والعتاد.

فهذه الأمور اذا اتبعت وطبقت في تشكيل جيش ما بلغ شأوا عظيما من الناحية العسكرية، فاذا ما تطرقت الى بحث ثقافة الجنود ووضعهم الروحي والمعنوي في الجيش السوري فانني أقول بصراحة ووضوح انها لا تمثل تمثيلا صحيحا الروح والمعنويات الموجودة في الأمة، وبتعبير أصح: ان مستوى الجنود في الجيش السوري لا يمثل مستوى الشعب السوري وتطلعات الأمة العربية، لأن هذا الجيش قام على مبدأ الاحتراف بمعنى أن كل شخص تضيق في وجهة سبل العيش كان يضطر للانخراط في سلك هذا الجيش ليؤمن معاشه بينما تشكل الجيوش لا في سبيل توطيد الامن الداخلي والخارجي فحسب بل تعتبر بحد ذاتها مدارس اخلاقية وثقافية. وروحية للأمة. وعندما يطبق مبدأ الخدمة الاجبارية نرى في هذا الجيش جنودا يمثلون كفاءة البلاد ومستواها تمثيلا صحيحا. وعندها يصبح الجيش مدرسة اخلاقية روحية ومعنوية لشباب الأمة، ولن يمضي وقت طويل حتى يصبح الشباب بأجمعهم مدربين تدريبا عسكريا ممتازا، ولديهم الاستعداد التام للدفاع عن بلادهم وأوطانهم عندما تهدد بخطر خارجي او داخلي، لذلك أرى أن نقرر مبدأ الخدمة الاجبارية، ولا أقول بتطبيقه فورا بل يمكن أن يكون ذلك على مراحل.

أما الأمر الثاني وهو كفاءة القادة وقدرتهم العسكرية فالمعمل الذي يخرج الضباط والقادة هو عادة المدرسة الحربية، وهذه قد بقيت على وضعها الذي أنشأه الفرنسيون فلم يتبدل بنظمها ولا أشيائها أمر جديد. ولذلك أقترح أن توضع انظمة جديدة للمدرسة

الحربية، كما أنه يجب أن نأتي بالخبراء العسكريين كأساتذة لهذه المدرسة، وأرى أن يكون الخبراء الأجانب من الدول التي لا مطامع لها في هذه البلاد. وعندما تقوم المدرسة على هذا الاساس تكون معملا جيدا لتخريج ضباط وقواد عسكريين ممتازين.

أما التجهيزات فهذا أمر يمكن للحكومة أن تتعاقد بشأنه مع الحكومات الأخرى كي تجهز الجيش السوري بأحدث الأسلحة والمعدات ولكن من الواجب أيضا أن تكون هذه الأسلحة والتجهيزات مماثلة للأسلحة والتجهيزات الموجودة لدى جيوش الدول العربية الأخرى. إذ لا يخفى ما في توحيد سلاح الجيش السوري مع أسلحة الجيوش العربية الأخرى من كبير فائدة.

والذي أراه أن ابقاء الجيش على حالته الراهنة أمر له خطورته الكبرى، وأرجو من دولة وزير الدفاع الوطني أن يبدي رايه في الملاحظات التي أبديتها قبل مناقشة المشروع الأساسي للجيش السوري وقد أجاب وزير الدفاع الوطني السيد خالد العظم: ..." ان ما تفضل به حضرة الزميل السيد أكرم الحوراني فيما يتعلق بالمدرسة الحربية فان نظاما جديدا سيطبق فيها وهو يتضمن التعليم الوطني الصحيح، ويتلاءم ومصلحة البلاد. وسنعنى أيضا بجلب أخصائيين فنيين ومدرسين من البلاد العربية الشقيقة، أي من مصر والعراق، واذا اقتضى الأمر أخذنا معلمين من الفئة التي ذكرها حضرة الزميل أي التي ليس لها مطامع في بلادنا، وسنرسل بعثات الى الخارج أيضا للتدرب والتعلم.

الحوراني: والخدمة الاجبارية؟؟

العظم: يمكن أن تقرر فيما بعد".

جميل مردم يهاجم نظام القوتلي:

أراد جميل مردم، قبل اختتام الدورة الاستثنائية في جلسة 16 ايلول 1945، أن يغمز من قناة الحكومة التي اقصي منها فألقى خطابا قال فيه:

"اننا نشكو دائما وأبدا من سوء ادارتنا ومن الخلل فيها، ونشكو كذلك من سوء نظامنا المالي، ونشكو أيضا من سوء نظامنا الاجتماعي، حتى أصبحنا نشكو من نظامنا العائلي، وكل ذلك نتيجة لتلك السياسة التي هيمنت على البلاد وكان همها الأكبر تشجيع الرذيلة في كل مكان ومحاربة الفضيلة في كل مكان، وبينما كان المفكرون الوطنيون يعملون لأجل القضاء على كل فكرة طائفية أو عنصرية كانت تلك السياسة تشجع هذه النعرات وتنشرها بمختلف الوسائل، فتحارب الكفاءة والنزاهة وتوطد دعائم الفساد في كل ناحية من نواحي حياتنا القومية".

وقال: "إن الوطن يمر بأزمة شديدة وخطيرة ... وانني أعلم علم اليقين بأن هنالك مؤامرة مدبرة... وتوجد وثائق في وزارة الداخلية ورئيس الوزراء مطلع عليها، وقد جاءتني تقارير مختلفة منذ شهر ونيف تتضمن ان الأجنبي يعد عدته لنشر البلبلة في البلاد... أقول ان هذه المؤامرة لم تنته بعد... هناك أمور كنت أريد أن يحاسب المجلس عليها، فقد أثيرت قضايا في الاعاشة ووزير الاعاشة الحالي كان في الوزارة السابقة وقدم تقارير وعندي معلومات عن ذلك... ماذا فعلنا خلال سنتين؟ ولماذا نسير على القوانين المالية البالية وعلى طرق الجباية التي كان يسار عليها منذ قرن ... أريد أن اعرف من هو المسؤول عن ذلك"... الخ.

وقد أردت استدارج جميل مردم أثناء القائه خطابه، واحراجه للبوح بما يتستر عليه، فلم يخرج عن حدود الغمز والتلميح، فقلت معقبا على خطابه:

"لقد ورد في خطاب الزميل أشياء هامة جدا، ولا يعنيني دفاعه عن نفسه، اذ له الحق أن يدفع كل اشاعة وكل تهمة بالوسائل التي يراها، انما الذي يعنيني ويعني الأمة هي التحقيقات والتقارير الموجودة والتي ألمح اليها دولة الزميل وأطلع عليها دولة رئيس الوزراء والوزراء، والذي يفهم أن دولة جيمل مردم بك مقتنع بصحة هذه الاتهامات المستندة الى التقارير الواردة الى الوزارة، فانا أتساءل أولا: من المسؤول عن عدم احالة الأشخاص الذين يستخدمهم الأجنبي لاثارة الأزمات والقلاقل في البلاد على المحاكم، وهل من الجائز أن يسكت عنهم في هذا الأمر الهام؟ وأنا أقول ان المسؤولية تقع على الوزارات السابقة والحالية. وان السكوت عن هذه التقارير والتحقيقات أمر غير جائز.

لطفي الحفار يهاجم ايضا:

"ومثل ما فعل جميل مردم فعل لطفي الحفار وزير الداخلية الذي لم يباشر مهام وزارته، لكنه كان أكثر منه اندفاعا فلم يوفر أحدا حتى جميل مردم نفسه، فقد قال في بيان وزعه على الصحف: "على أن ما وجدته في الآونة الاخيرة يختلف عما يحق لي أن أتوقعه ... وجدت مهاترات تجاوزات كل حد وخلت من كل احترام للمبادىء العامة. وجدت مبالغة وامعانا في تدبير الدسائس ضد الحكم الوطني بالاستعانة بفريق ممن كانوا عونا للاجنبي ووسيلة من وسائل التجسس والخيانة للبلاد. وجدت انسياقا عند البعض مع أهوائهم النفسية لمجرد ابتعادهم عن الحكم وعدم كونهم في عداد أعضاء الوزارة"... ولذلك لم يطل عمر هذه الوزارة اكثر من خمسة أسابيع.

الجابري يقلب الخوري

كان سعد الله الجابري يهيمن بقوة على الكتلة الوطنية البرلمانية التي ما لبث رئيسها الظاهري ميخائيل اليان أن كشف أنها "كانت مؤلفة بشكل سري منذ نهاية عام 1934، وان اسمها الحقيقي هو الهيئة البرلمانية للكتلة الوطنية، وأنها ما زالت تعمل منذ ذلك التاريخ ضمن نطاق نظامها".

وقد تمكن الجابري بجعله هذه الهيئة تتقدم باقتراح لسحب الثقة من وزارة فارس الخوري، أن يدفعه للاستقالة كما رأينا، ولكن الجابري تفادى أن يؤلف الحكومة ليتحمل فارس الخوري كل التبعات التي نتجت عن سياسة الفترة الماضية والتي انتهت بالعدوان الفرنسي.

لم يشعر الخوري بالفخ المنصوب فعاد وألف الوزارة ثانية ليتلقى هو وحكومته نقمة الشعب وهجوم المجلس بالحملات المركزة التي ذكرناها، وما أن مرت العاصفة حتى قام الجابري بالعمل على اسقاط هذه الوزارة من داخلها. فوعد لطفي الحفار برئاسة المجلس النيابي، فأصدر هذا بيانه الذي أشرنا اليه مظهرا حرده وانقطاعه عن ممارسة مهام وزارة الداخلية، كما أوعز للوزراء الاخرين صبري العسلي وميخائيل اليان وحكمة الحكيم

بالانسحاب من الوزارة ووضع العراقيل في دربها، فاضطر فارس الخوري لتقديم استقالة حكومته في 30 أيلول 1945، أما جميل مردم فقد أرضاه الجابري بتعيينه وزيرا مفوضا في مصر والسعودية ومندوبا لسوريا لدى الجامعة العربية في القاهرة.

ورغم أن فارس الخوري خرج من هذا المقلب ناقما على الجابري وما أدى اليه المقلب بتحميله كامل المسؤوليات، فان الجابري حاول أن يسترضيه بارساله الى هيئة الأمم المتحدة، ولكن الخوري رفض هذا التعيين بعد أن وعد من كتلة النواب الأحرار بتأييده في انتخابات رئاسة المجلس.

هذه صورة تمثل ضعف الشعور بالمسؤولية لدى القيادة السياسية. اذ بينما كانت سورية والقضية العربية تواجهان أخطر المشاكل - مما سنذكره بعد قليل - كان هم هؤلاء الساسة منصبا على التآمر بعضهم على بعضهم للوصول الى الحكم وتسخير الدولة والحكومة والمجلس لتحقيق هذه المقالب والشهوات وحبك المؤامرات.

وزارة الجابري الثانية:

وفي اليوم الذي أعلن فيه فارس الخوري استقالة حكومته، 30 أيلول 1945، تألفت الوزارة الجديدة على النحو التالي:

سعد الله الجابري: للرئاسة والخارجية والدفاع الوطني

لطفي الحفار: للداخلية

نعيم الانطاكي: للمالية ووكالة الاشغال العامة.

صبري العسلي: للعدلية ووكالة المعارف

حسن جبارة: للاقتصاد الوطني ووكالة الاعاشة والتموين.

وهكذا نرى انه لم يتغير في الوزارة الا رئيسها... كما جرى تأليف هذه الوزارة في غيبة المجلس الذي أجل موعد افتتاح دورته الدستورية أربعة اسابيع بحجة أن أعمال ترميم مبنى البرلمان بعد

العدوان لم تنته بعد، كما أن مدرج الجامعة السورية الذي عقد فيه المجلس دورته الاستثنائية السابقة أصبح ضروريا للطلاب بعد افتتاح السنة الدراسية.

بيتي في زقاق الصخر

زقاق الصخر شارع ضيق قريب من البرلمان، وكانت اكثر بيوته مستأجرة من قبل الفرنسيين الذين أصلوا دمشق بنيرانهم من هذه المواقع، وبعد العدوان غادروا البلاد فاستأجرت في زقاق الصخر بيتا كان يشغله احد الضباط الفرنسيين، وقد خصصت احدى غرفتي هذا البيت فيما بعد لتكون مكتبا لجريدة اليقظة اصبح يعرف باسم "دار اليقظة"

آثرت البقاء في دمشق لأظل على اتصال بضباط الجيش المشغولين باعادة تنظيم جيش البلاد بهمة ونشاط ونزاهة، كانت فرحتهم كبيرة جدا وكان حماسهم عظيما جدا اذ انهم كانوا يشعرون لأول مرة باسترداد كرامتهم وحريتهم في العمل وخلاصهم من لعنة استخدامهم في جيش اجنبي، وها هم الان يعملون في خدمة وطنهم مالكين حريتهم رافعين رؤوسهم. كنت أقضي أكثر الليالي ساهرا مع هؤلاء الضباط نبحث في شؤون الجيش ونتداول الحديث في الآمال التي نعقدها على دوره في المستقبل لانقاذ فلسطين.

ولكن حدث في حماة حادث مفجع اضطرني للسفر.

مؤامرة على الوحدة الوطنية في حماة:

ذكرنا أن الوحدة الوطنية في حماة كانت من أسباب انتصار ثورتها، وبعد العدوان الفرنسي كان جو المدينة رائقا صافيا على أحسن ما يرام، وفجأة تذكر الصحف، بعد تأليف وزارة الجابري بيوم واحد "أن زكي الوتار [1] الموظف في بلدية حماة اعتدى على محمد الصباغ في محلة العليليات فخر صريعا يتضرج بدمه. وقد

(1) عائلة فقيرة كانت تابعة للاقطاعين

هاج أهل الحي على اثر هذا الاعتداء ورجموا بيت القاتل بالحجارة انتقاما. وقد قبض رجال الشرطة على القاتل. وبعد انتهاء الحادث ذهبت قوة من الدرك والشرطة وألقت القبض على خمسين شخصا".

وفورا أدركت خطورة المؤامرة المبيتة لضرب الوحدة الوطنية في حماة، خصوصا بعد أن تضايق النظام من المعارضة وفوجىء بموقف غالب العظم المعارض للنظام بالشكل والأسباب التي ذكرناها، فكانت الفتنة المبيتة لاعادة اذكاء الشقاق بين الحركة الشعبية والاقطاعيين في المدينة.

ذهبت الى حماة وأنا حزين على الشهيد محمد الصباغ الذي كان من العناصر الوطنية، والذي كان له مواقف مشهودة ابان معارك حماة... كما انني كنت ناقما على الأسلوب الحقير بالاعتداء عليه وقتله بيد رجل صاحب سوابق حافلة بالاجرام، ومع ذلك فقد تبنته الحكومة وعينته موظفا في البلدية... واكثر من ذلك فان اجهزة الأمن ألقت القبض على أكثر من خمسين شخصا من أنصار الحركة الشعبية، من الذين اهتاجوا لذك الاعتداء الغادر فرجموا بيت القاتل بالحجارة، فاتهمتهم بالقيام بهجوم جماعي وشن غارة ومحاولة احراق المنازل، وكلها جرائم يؤدي الاتهام بها الى أحكام أشد من القتل.

فركزت جهودي في حماة على خنق الفتنة وتهدئة النفوس، وبينت لرفاقنا أبعاد هذه المؤامرة وأهدافها بشق الوحدة الوطنية وطعن المعارضة من الخلف، وأوصيتهم بالهدوء وترك القضية للقضاء.. ولكن هيهات، ما دامت أجهزة الدولة ذاتها هي التي صنعت هذه الجريمة الشنيعة، ولم يفرج عن أبناء حي العليليات بل صدرت بحق بعضهم أحكام ثقيلة... وهكذا صدقت نبوءة سليمان المرشد الذي قال لي في السابق:

أتظن انك وضعت قانون حماية الاستقلال ليكون سلاحا ضدي، انهم سيستخدمون هذا السلاح ضدك أنت.

نواب الكتلة الدستورية:

بعد تأليف حكومة الجابري، وما تكشف من هيمنة الكتلة الوطنية على المجلس، وما ظهر من نواياها المبيتة لم ير النواب الأحرار بدا من اعادة تنظيم تكتلهم المعارض بشكل اكثر تماسكا، ولا شك أن التنافس على الزعامة في حلب بين رشدي الكيخيا وسعد الله الجابري كان حافزا كبيرا لحماسة الكيخيا لتنظيم المعارضة بالمجلس. وقد أطلقنا على هذا التكتل المعارض اسم "نواب الكتلة الدستورية بدلا من النواب الاحرار، وقد افتتحت الهيئة البرلمانية للكتلة الوطنية مكتبا لها في شارع البرلمان فافتتحنا للكتلة الدستورية مكتبا في شارع عين الكرش المتفرع من شارع بغداد.

انتصار المعارضة بفوز الخوري:

في 24 تشرين الثاني عقد مجلس النواب جلسته الأولى من الدورة العادية الخامسة، بعد أن تأجل موعد انعقاده شهرا كاملا كما ذكرنا.

وفي الأيام التي سبقت انعقاد هذه الجلسة بذلنا نشاطا كبيرا في أوساط النواب ليفوز فارس الخوري برئاسة المجلس بعد أن نكث به رفاقه - القوتلي والجابري- وحملوه مسؤولية كل ما ارتكبوه أثناء غيابه في هيئة الامم وبالرغم من أنها لم تكن الطعنة الأولى التي توجه لفارس الخوري من اخوانه فانها كانت آلم على نفسه من جميع الطعنات السابقة.

ولهذه الأسباب كانت معركة رئاسة المجلس قاسية، والذي ساعدنا على تأمين فوزه على خصمه لطفي الحفار - مرشح الجابري - أن التصويت كان سريا، فكان هذا أول ظفر سجلته الكتلة الدستورية المعارضة على حكومة الجابري ومؤيديها أعضاء الهيئة البرلمانية للكتلة الوطنية التي يرئسها ميخائيل اليان نائب حلب وخصم رشدي الكيخيا اللدود.

21

1945: مناقشة البيان الوزاري لحكومة سعد الله الجابري - الكتلة الدستورية تتقدم بمذكرتين حول الجلاء والقضية الفلسطينية- استكمال التحاق محافظة اللاذقية بالوطن - مجلس النواب السوري يسقط الاتفاقية الفرنسية البريطانية لتقاسم النفوذ في سورية.

الجابري يعرض بيان حكومته:

بعد الانتهاء من انتخابات مكتب المجلس تقدم رئيس الحكومة الجديدة سعد الله الجابري ببيانه الوزاري.. ولا بأس أن أذكر عبارات اعتذاره عن تهيئة البيان لأنه دلالة بليغة على طبيعة تفكيره. قال: "كنت أتمنى، تبعا لعادتي، أن ألقي خطابي بدون تهيئة ومن غير تلاوة، ولكنني رجحت آخر الأمر، بالنسبة للحوادث والظروف، أن أتلو على مسامعكم بيان الحكومة تلاوة، فأرجو منكم العفو عما قد يقع فيه من أخطاء"! وألقى بيانا مكتوبا طويلا تحدث فيه عن السياسة الخارجية والداخلية والادارة والصحة والعشائر والجيش المشترك والأشغال العامة والمعارف والصحافة والموظفين والأوقاف، ثم تقدم في نهاية بيان بمشروع قانون الموازنة لعام 1946.

كان البيان بمجمله بعيدا عن معالجة شؤون البلاد المصيرية، سواء منها الداخلية أو العربية أو الخارجية ولم يرد فيه أي شيء جديد سوى وعود فارغة.

كنت أعرف شخصية الجابري عن كثب، انه شخص يستطيع المرء أن يثق بوطنيته، ولكنه كان مجموعة من المتناقضات، كان يبدو مهذبا، حازما ومترددا، غرا ماكرا، متواضعا ومتعجرفا.

مناقشة البيان الوزاري:

كان المجلس النيابي قد خصص في السابق نصف مليون ليرة لتوزع على منكوبي حوادث العدوان الفرنسي. كما تألفت

لجان شعبية لجمع التبرعات في كافة المحافظات، وفي الوقت ذاته تلقت الحكومات تبرعات من مختلف البلاد العربية، وقد مضى على العدوان سبعة أشهر دون أن يوزع منها قرش واحد على المنكوبين، فكان هذا الموضوع أول ما أثاره النواب لدى مناقشتهم البيان الوزاري. فاعتذر الجابري بأن الحكومة لم تفتح الاعتماد المرصود، أما التبرعات التي أرسلت من مختلف البلدان العربية فهناك لجنة ستطبع كتيبا توزعه على الناس يفهم منه على من وزعت هذه الأموال، فصاح المجلس بصوت واحد.

- ولمن وزعت هذه الأموال؟

فقال الجابري: لا أعلم، وبعد المناقشة وعد باجراء التحقيق واعطاء الجواب.

قام نواب الكتلة الوطنية، حسب العادة، ينشدون قصائد المديح للجابري وأعضاء حكومته، كما تولت المعارضة تسديد حملة مركزة عالجت شؤون البلاد، مستشهدة بالأحداث الماضية والوقائع الماثلة، ولم تترك شاردة أو واردة الا وذكروها، وقد ساعد على ذلك نقمة بعض الوزراء السابقين الذين لم يشركهم الجابري بحكومته.

مناقشتي بيان حكومة الجابري:

كنت اخر المتكلمين من النواب، فقلت:

لو رجعنا بالذكرى الى الماضي نرى أن الحكومات المتعاقبة كانت تتقدم الى المجلس ببياناتها التي كانت نسخة واحدة في أسسها وأصولها وتفرعاتها وكنت أنوي الا أناقش هذا البيان لعلمي بأن المناقشات الطويلة الماضية لم تجد نفعا ولكن أتمثل بالاية الكريمة "وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين"..

يعالج البيان الوزاري أولا: السياسة الخارجية ثانيا: الشؤون الداخلية..

وقد ورد في البيان الوزاري انه لم يبق من صلاحيات الأستقلال الا مصلحة الهاتف والاذاعة والحقيقة بأن هناك قضايا هامة جدا وأن اسباب السيادة لا تستكمل باستلام مصلحة الهاتف والاذاعة فحسب بل أن هناك أمور اخرى جوهرية كقضية المحاكم المختلطة مثلا التي وعدت حكومة الخوري السابقة بإلغائها.. ان وجود هذه المحاكم يخالف الاستقلال وحق السيادة مخالفة تامة وهو يخالف المواثيق الدولية كميثاق هيئة الامم المتحدة، فالمحاكم المختلطة أثر من أثار الامتيازات الاجنبية في عهد الحكومة العثمانية وقد فرضها الانتداب بعد ذلك على البلاد وقد زال الانتداب فلا مبرر اذا لبقائها...

بحث الزملاء القضايا المالية واني ألفت نظر الحكومة اليها باختصار منعا للتكرار وهي أولا:

قضية البنك السوري وقضية تحرير النقد والاتفاق المالي السابق وقضية الشركات ذوات الأمتياز والتي وعدت حكومة الخوري السابقة بحلها وقالت انه يمكن استلام هذه الشركات بأساليب متعددة منها مثلا بواسطة قرض وطني ولا يخفى عليكم الاضرار الفادحة التي لحقت باقتصاد البلاد من جراء هذه الشركات..

أما قضية الجلاء فقد كان توارد خاطر بين السيد سعد الله الجابري وبين وزير الخارجية البريطانية، اني كنت منتظرا الا يقع هذا التوارد في الخواطر بين الرئيس الجابري وبين المستر بيفن كنت منتظرا من الرئيس الجابري أن يقول بأنه لا يعترف بأي شكل من الاشكال على أية مفاوضات تخص سورية ولا تكون الحكومة السورية طرفا فيها لا سيما بعد تصريح (دوغول) الأخير والذي يزعم ان لفرنسا امتيازات تجارية وثقافية الى آخر ما هنالك من النغمات التي عرفناها سابقا. والذي يخيل الى أن قضية الجلاء عن بلادنا موضع مساومة على سيادة هذه البلاد واستقلالها مع أنه من واجب الحكومة أن تفصل في هذا الموضوع فصلا حاسما فنحن نطلب الجلاء ولا نعترف بأية مساومة أو مفاوضة بين الحكومة البريطانية والفرنسية وما يتم بينهما من اتفاقيات.

وقد قاطعني الدكتور عبد الرحمن الكيالي مؤكدا - خاصة اذا كانت على حسابنا!!

وتابعت ... يقولون ان هناك اتفاقا بين الحكومتين بالوقت الذي يصرح فيه الجنرال دوغول بأن لفرنسا امتيازات في بلادنا مما يدل على أن المفاوضة التي جرت بين فرنسا وبريطانيا لا تتعلق بالجلاء فقط بل تتعداها الى أمور أخرى...

أما قضية فلسطين التي تهم الأمة العربية وتهم المسلمين أجمعين فإنها تهم بصورة خاصة السوريين لأنها جزء من البلاد السورية ... وخطر الصهيونية يهددها بشكل مباشر.. ولكني مع الأسف لم أشعر بأية خطة عملية حتى الأن قد وضعت لأنقاذ هذه القطعة الغالية في الوطن السوري الصغير ومن الوطن العربي الكبير... ان من واجب الحكومة السورية ان تقوم بتوجيه جامعة الدول العربية للعمل على انتهاج خطة عملية من شأنها انقاذ هذه البقعة العربية الغالية.

ثم استطردت ببحث الحريات الخاصة والعامة وتساءلت هل عملت الحكومة على صيانة الحريات.. أقول كلا لأن هذه الحكومة والحكومات السابقة جميعها التي تعاقبت على كراسي الحكم، قد خالفت أحكام الدستور ولم تنفذ القوانين والدليل على ذلك أن الدستور نص على حرية الاجتماع وتأليف الاحزاب والهيئات، ولكن هذه الحكومة، والحكومات السابقة سارت جميعها على نهج واحد، فلم تسمح لأية جماعة أو حزب أو هيئة سياسية بممارسة نشاطها، ان الحكومات امتنعت حتى عن منح الترخيص للنوادي والجمعيات الثقافية والدليل على ذلك ان كثيرا من الشباب في محافظة العلويين والمحافظات السورية الأخرى تقدموا بمثل هذه الطلبات التي كان نصيبها الرفض.

لقد نص الدستور على حرية الرأي والصحافة والقول والاجتماع ولكن احكام الدستور لم تنفذ... تقدم المواطنون الى وزارة الداخلية بأربعين طلبا للترخيص لهم باصدار صحف ومجلات فرفضت طلباتهم جميعها... وان ثلاثة من نواب هذا المجلس وهم الاستاذ الملقي والهنيدي والماثل امامكم تقدموا بطلب رخصة اصدار جريدة

فـرفض طلـبهم... فأنـا يـا سـادتي لسـت مسـتعدا أن أمـنح ثقتـي لحكومة لا تطبق أحكام الدستور والقوانين...

وقد ركزت في هذا الخطاب الطويل بصورة خاصة على ثلاثة أمور جوهرية هي قضية توطين العشائر، والجيش، والغاء الأوقاف، فقلت بصددها ما ملخصه:

ان تحضير القبائل لا يتم بتوزيع أراضي أملاك الدولة على رؤسائها وأمرائها وشيوخها بل من واجب الحكومة ان تعمل لازالة حالة البداوة من البلاد اولا: بالطرق التشريعية واعني بذلك أن يعامل جميع أفراد العشائر بالقوانين السورية السائدة وان لا يكون هناك شريعة جاهلية تحكم أمورهم ولا تكون هناك قرارات المفوض السامي التي تفصل بين البدو والحضر ونصف الحضر وغير ذلك من القرارات التي جعلها الفرنسيون مطبقة لتنفيذ مآربهم الاستعمارية في البلاد، ان تحضير العشائر يكون جديا عندما تفكر الحكومة باحداث مدارس زراعية ابتدائية وإكمالية تختص بتعليم أبناء القبائل الرحل وبعد تخرجهم يقتطعون من أراضي أملاك الدولة يعملون فيها وعندها ندعي بأننا انتقلنا من الحالة البدوية الى الحالة الفلاحية الزراعية الحضرية.

الجيش والخدمة الأجبارية: أنشأ الفرنسيون الجيش السوري على أساس طائفي ومذهبي وعنصري وقبلي... فاذا أردنا انشاء جيش وطني فما علينا الا تطبيق الخدمة الاجبارية.. لقد ذكرت مرارا ان مقدرة الجيش الفنية تتوقف على مقدرة ضباطه وقادته وكفاءتهم العسكرية وخبرتهم ومزاياهم الخلقية وان المصنع الوحيد - كما تعلمون للضباط والقادة هو المدرسة الحربية.. فأنا أتساءل عن الاصلاح الذي أجرته الحكومة للمدرسة العسكرية ... أقول بكل تأكيد ان هذه المدرسة بقيت على حالها كما كانت في السابق في عهد الفرنسيين... أما قضية التجهيزات فقد وعد البيان الوزاري بأحدث الاسلحة والمهمات وقد سمعنا هذا الوعد في السابق ولكن مع الأسف لم يجهز جيشنا حتى الان بهذه الاسلحة الحديثة؟ ولا أدري ما هي الأسباب أهي موانع داخلية أم خارجية؟ واننى اسأل

الحكومة وأقول اذا امتنعت احدى الدول عن بيعنا السلاح اللازم فلماذا لا نشتريه من دولة اخرى.

كما طالبت بحل الأوقاف الذرية وتوزيع أراضي أملاك الدولة على الفلاحين المحرومين، استغرقت مناقشة البيان الوزاري جلسة أخرى عقدت في 29 تشرين ثاني وقد نالت الحكومة الثقة بمخالفة ثمانية عشر نائبا.

المؤامرة على فلسطين:

اشتعلت المظاهرات الشعبية والطلابية، والاضرابات العامة في سوريا، بعد ان ازدادت أنباء الاعتداءات الاجرامية الدامية التي كانت تقوم بها العصابات اليهودية في فلسطين ضد العرب، ولازعاج القوات البريطانية للضغط على لندن لفتح ابواب الهجرة - رسميا - أمام اليهود المستجلبين الى فلسطين. وقد استغرقت أعمال اليهود الاجرامية الدامية شهر تشرين الأول 1945 كله، كما استمرت المظاهرات والاضرابات في سوريا وبعض البلدان العربية وتصاعدت الى أوجها في 29 تشرين بمناسبة ذكرى وعد بلفور. وكانت الصحف تنشر يوميا أنباء هذه المظاهرات الشعبية التي تؤكد استعداد الشعب لبذل كل التضحيات لحماية فلسطين من الهجمة الصهيونية الضارية.

وفي الوقت ذاته كانت اجهزة المخابرات اليهودية تقوم باخطر عملية سيكون لها دورها الحاسم في معركة 1948، الا وهي "تهريب" اليهود من البلاد العربية، وعبرها، الى فلسطين، وكانت هذه الأجهزة تعمل بكل راحة وحرية، ولا يتصدى لها الا بعض أبناء الشعب بما كانوا يرسلونه الى الصحف من رسائل التنبيه للخطر. ففي 14 تشرين الأول ذكرت النصر "ان مواطنا من درعا كتب اليها بضرورة مراقبة القطارات وبث العيون والأرصاد في الطرق التي تسلك الى فلسطين لنمنع وصول اليهود اليها بعد ان استفحل امر التهريب وأصبحت عصابات المهربين تعمل علنا وتتناول 40 جنيها فلسطينيا عن كل يهودي يريد دخول فلسطين خلسة".

ولم تكن هذه الفضيحة محصورة في نطاق سوريا فحسب، بل انها كانت مبعث استنكار الشعب العربي في جميع اقطاره، فقد جاء من بيروت في 11 تشرين الأول أن "الصحف اللبنانية أجمعت على استنكار العمل الذي اعتقل بسببه النائب رفعت قزعون وطالبت بضرورة كشف الستار عن عملائه وزملائه في هذا العمل الجرمي بتهريب الأسلحة واليهود الى فلسطين ... وقد احتج النائب قزعون بأن الأسلحة التي وجدت لديه تخص شخصا اسمه ابراهيم الكنج (من اللاذقية) وهو حمو المتهم ومن زعماء عشيرة الحدادين، وقد أكدت الصحف أن رفعت قزعون ارتكب جريمة قومية وخيانة وطنية، وأنه "ينتسب الى الأسرة المشهورة في البقاع، تلك الأسرة التي لا تزال متمسكة بتقاليدها الاقطاعية .. وقد وجد فيه الصهاينة المطية المناسبة لتسخيرها لاغراضهم الوطنية فأقبلوا على شراء ضميره وحمله على استغلال نفوذ نيابته مقابل دريهمات معدودة".

وكتب حبيب جاماتي في جريدة "المصري": "ثبت لدينا ان في سوريا ولبنان اشخاصا كانوا ولا يزالون في مناصب الوزارة او في مناصب كبيرة اخرى او في المجلسين النيابيين لا شغل لهم غير تهريب اليهود والأسلحة الى فلسطين فضلا عن انصرافهم الى زراعة الحشيش وتهريبه ايضا الى مصر".

ورغم كل ذلك الاهتمام الشعبي العظيم بقضية تهريب اليهود من البلاد العربية وعبرها الى فلسطين فان حكومة دمشق، بدلا من أن تتصدى لشبكات المخابرات التي تدير هذه العمليات الواسعة، كانت تتصدى للصحف بسلاح "التعطيل الاداري" وتنشر البلاغات التي تكذب عمليات التهريب، كالبلاغ الذي نشر في 18-24 تشرين الأول، وهو التالي: "نشرت جريدة النضال [1] الغراء في المقال الرئيسي الذي عقدته في 1945/10/21 بعنوان: يجب القضاء على الخونة والسماسرة في البلاد، فقرات ذكرت في احداها ما يلي:

(1) وهي جريدة الدكتور سامي كبارة المعارض لحكم القوتلي.

لقد قامت في العام الماضي ضجة حول نائب معروف من الجزيرة اتهم اتهاما صريحا بأنه يعمل لليهود، كما ان احد وزراء الخارجية قد أمر الوزير المصري المفوض في أنقرة بصفته قائما بأعمال الأمور السورية ان يؤشر على جوازات 130 يهوديا وصلوا الى حدودنا عن طريق تركيا يحملون جوازات رسمية مؤشرا عليها.

ان التحقيق الدقيق الذي أجرى حول الموضوعين أثبت ان ما نشر عنهما لم يكن منطبقا على الواقع ... مديرية المطبوعات والاذاعة".

وهكذا كانت حكومة الجابري تصدر التكذيب تلو التكذيب، ولا تعترف الا بالحوادث التي وضع الشعب يده عليها، كما فعل الجابري نفسه حين قال في مؤتمره الصحفي في 1945/10/17: "لقد بدأت عملية الاهتمام بقضية فلسطين تعطي ثمراتها، اذ كان لنشاط الحكومة وسهرها أن أوقف خمسة من السماسرة في القامشلي، وثلاثة عشر صهيونيا تسربوا الى البلاد، والامل كبير بأن يكون التوفيق حليفنا في هذا المضمار لتكون النتائج سارة".

وكان الكونغرس الاميركي قد أصدر في 15 /1945/10 قرارا يقضي بأنه "ينبغي على الولايات المتحدة ان تبذل سعيها وتتخذ في الحال التدابير اللازمة بقصد اعادة فتح ابواب فلسطين أمام الشعب اليهودي، وأن تعطى لليهود الفرصة لاستعمار تلك البلاد والاستقرار فيها". كما بدأ الرئيس ترومن يسخو بتصريحاته المعروفة بتأييد الحركة الصهيونية والضغط على بريطانيا لتوافق رسميا على طلب الصهاينة بفتح باب الهجرة على مصراعيه أمام اليهود الى فلسطين وكانت الحكومات العربية متشابهة في غض النظر عن هرب اليهود العرب وهجرة اليهود الأجانب عبرها الى فلسطين، أما بعد قيام دولة اسرائيل فإن عراق نوري السعيد وعبد الإله قد هجر ألوف اليهود الى فلسطين. وهكذا فان هجرة اليهود استمرت بشكل واسع قبل وبعد قيام اسرائيل وذلك من المغرب العربي واليمن ولبنان وسورية حتى شكل اليهود العرب اكثر من نصف سكان اسرائيل، وكانت آخر عمليات التآمر لدعم دولة اسرائيل بالمهاجرين هي تواطؤ النميري في الثمانينات على

تهريب يهود الحبشة (الفلاشا) بتمويل من المخابرات المركزية عبر السودان.

جهود المعارضة لخنق المؤامرة:

بعد تشكيل حكومة الجابري اقتضت الظروف بقاء معظم أركان المعارضة في دمشق. وكان أول ما فعلناه بعد افتتاح المقر متابعة القضيتين الأساسيتين الهامتين في مستقبل سوريا والأمة العربية آنذاك وهما: الجلاء وقضية فلسطين. وقد أعددنا مذكرتين بهاتين القضيتين وقدمناهما للجابري رئيس الوزراء، مع شرح طويل لأهمية هاتين القضيتين وتحميل الحكومة مسؤولية كل تهاون بهما. وكانت المذكرتان شديدتي اللهجة، لذا لم تجرؤ الصحف على نشرهما بل اكتفت بعضها بنشر مقتطفات منهما بما لا يوقعها تحت طائلة غضب الحكومة ومعاناة عقوبة التعطيل الاداري.. قالت "النصر" في 1945/10/15:

"اختتم نواب الكتلة الدستورية اجتماعاتهم، وفيما يلي نص المذكرة التي قدموها الى دولة رئيس الوزراء فيما يتعلق بالجلاء:

يا صاحب الدولة:

لما كانت البلاد لا تزال تطلب جلاء الجيوش الأجنبية باصرار والحاح، وتعيين الموعد النهائي الذي يتم به الجلاء، وحيث أن التأجيل من حين الى حين يزيد القلق والاضطراب، وخشية أن تكون المفاوضات التي تجري بين الدول المسؤولة (بريطانيا وفرنسا) تسير على مبدأ المساومة على حساب سوريا ولبنان، وبما أن الحرب العامة قد انتهت ولم يعد هناك مبرر لبقاء الجيوش أو تأخيرها. وإن ذلك لمما يمس سيادة البلاد واستقلالها ويؤثر مباشرة في الاستقرار المنشود وبما أن المجلس النيابي قد أجل شهرا كاملا وكانت قضية الجلاء من المسائل التي ستثار في المجلس في أول جلسة من قبلنا وأصبح ذلك متعذرا، رأت هيئتنا أن تقترح على الحكومة الجديدة بأن تتخذ وزارة الخارجية جميع الاجراءات الفعالة مع الدول الحليفة للبت في قضية الجلاء النهائي بأسرع ما يمكن، لأن التسويف يؤخر تصفية علاقاتنا مع فرنسا ويحد من الاستقرار

المنشـود ويكشـف لنـا عـن نوايـا سـيئة قـد يكـون لهـا مـا بعـدها... وتفضلوا...

أما المذكرة المتعلقـة بشـأن فلسـطين فاننـا نعتـذر عـن عـدم نشرها بنصها نظرا لضيق المجال، وننشر فيما يلي المقررات الهامـة التي اتخذوها بهذا الشأن:

1- **دعوة الأمة العربية الى البـت فيمـا يجـب اتخـاذه مـن الاجـراءات الفعلية في سبيل قضية فلسطين.**

2- **دعـوة الحكومـات العربيـة لتحديـد موقفهـا مـن القضـية بصـورة حاسمة.**

3- **مطالبـة الحكومـات العربيـة بـالتحري عـن الهيئـات والمنظمـات الصهيونية التـي تعمـل سـرا فـي البـلاد والتـي يتعـدى خطرهـا حدود فلسطين.**

4- **مطالبـة مـن يجـب مطالبتـه بـاجراء أشـد التحقيقـات لمعرفـة المسـؤول عـن اعطـاء اشـارة التـرخيص علـى جـوازات مـرور الصهيونيين من البلاد العربية وعن تهريب اليهود الى فلسـطين بمختلف الوسائل، لإيقاع أشد العقاب بهؤلاء المسؤولين.**

5- **دعوة الهيئات العربية في الوطن والمهجر لتنظيم حركة واسـعة النطـاق لمقاومـة الصـهيونية فـي العـالم أجمـع ومقاطعـة بضائعها..."**

مناقشة موازنة 1946: طرحت حكومة الجابري مشـروع موازنـة الدولـة لعـام 1946 علـى المناقشـة، فعلقـت عليـه بخطـاب فـي جلسة 1945/12/5، أثبت فيما يلي بعض فقراته ممـا يلقـي ضـوءا على الأوضاع العامة في البلاد آنذاك:

تقوم الموازنـات علـى أسـاس صـحيح اذا كانـت مواردهـا قائمـة علـى ضرائب عادلة وموزعة توزيعا صحيحا وليست فوق طاقة المكلفين. وتقوم على أسـاس صـحيح اذا كانـت هـذه المـوارد تتفـق مـع مصـالح الـبلاد الحقيقيـة الجوهرية. فهل هذه الموازنة قائمة على المبادىء الصحيحة أم لا؟

يمكننا أن نقول بصورة عامة إن الضرائب ليست فوق طاقة المكلفين ويمكننا أن نقول أيضا ان نسبة ما يدفعه المكلف السوري ضريبة للدولة لا يتجاوز عشرة بالمئة من موارده مع أننا نرى في الدول الأخرى ان هذه النسبة تبلغ 30-40 بالمئة في الحالات العادية أو 95 بالمئة في الحالات الاستثنائية وفي حالة الحرب. ولكن الضرائب عندنا ليست موزعة توزيعا عادلا على المكلفين السوريين، وان كثيرا من الأموال الضخمة وكثيرا من الأغنياء لا تطولهم هذه الضرائب ولا يدفعون للخزانة السورية شيئا. ولهذا كان من العدل ومن مصلحة الدولة أن يعاد النظر في النظم والقوانين المالية التي تجبي الضرائب بموجبها. وانه لما يسرنا جدا هذا النشاط وهذه الحيوية من وزير المالية في وضعه مشروع قانون رسم الانتقال على الحقوق والأموال المنقولة وغير المنقولة. نشكره على هذا الوعد. كما أننا نشكره على تفكيره باعادة النظر بضريبة الدخل. كما نرجو من الحكومة أن تعيد النظر في جميع القوانين والنظم التي تجبي الضرائب بموجبها لتحقيق العدل في هذا الوطن.

أما من ناحية الانفاق فأكتفي بالقاء نظرة عجلى على الاعتمادات المخصصة للوزارات والمصالح، فنرى مثلا أن أمن البلاد الداخلي والخارجي يكلف الحكومة نصف موازنتها. أي أنها تصرف على الجيش السوري والدرك والشرطة والعشائر خمسين مليونا و 350 ألف ليرة، فهل هذا الحال طبيعي؟ .. من المعلوم أن الأمم في الحالات الاستثنائية وفي حالات الحرب تنفق معظم مواردها على الجيش، أما في الحالات العادية فلا أعتقد أن موازنة في العالم تزيد النسبة فيها على ثلث موارد الموازنة العامة، وهذه ناحية خطيرة جدا، وأعتقد أنه اذا استمرت الحال على هذا المنوال فستصبح موازنة الدولة بمجموعها بعد عدة سنين عبارة عن رواتب لرجال الشرطة والدرك والجيش والعشائر ورواتب تقاعدية لهم. أما المشاريع الانشائية فتنعدم في هذه البلاد. فما هي الحلول لتدارك هذا الوضع الشاذ؟

لقد نشأ هذا الوضع عما خلفه الفرنسيون في الماضي وعما أصاب البلاد من التطور السياسي في الآونة الأخيرة، ولا حاجة لذكر هذه المراحل والتطورات سواء منها القديمة أو الأخيرة **ولكن الذي نعلمه والذي نعتبره حلا لهذا الوضع الشاذ هو ما أشار اليه بعض الإخوان في ملاحظاتهم على الموازنة وهو تقرير الخدمة الاجبارية حالا وأن يصدر قانونها مع قانون الموازنة. فتكلف الحكومة بتقديم مشروع يقره المجلس قبل**

ختام هذه الدورة، وبذلك يتوفر على الحكومة ما يزيد على 15 مليون ليرة على ما أعتقد. والأمر الثاني وضع مادة في قانون الموازنة تلغي بموجبها مصلحة العشائر وأن يناط أمر البادية بالجيش كما هي الحال في البلدان التي فيها عشائر وبدو.

ففي مصر لا توجد مصلحة للعشائر وكذلك في المملكة العربية السعودية مع أن معظم رعاياها من البدو، وهكذا الأمر في العراق وفلسطين وشرق الأردن، فحفظ الأمن في هذه البلدان جميعها منوط بالجيش. أما هذا الوضع الشاذ وهذه المصلحة فعندنا فقط. وهي عبارة عن مصلحة مؤلفة من موظفين مدنيين وعسكريين لا يعلم أحد منهم حدود صلاحياته. فالحل الصحيح اذا لهذه المشكلة يقضي بالغاء هذه المصلحة على أن يناط حفظ الأمن في البادية بالجيش. وهكذا يتوفر على الدولة ما لا يقل عن أربعة ملايين ليرة.

والحل الثالث هو توحيد الشرطة والدرك وأن يكون هذا التوحيد بموجب مادة ثالثة تضاف الى قانون الموازنة، وأن يسرح عدد من أفرادهما ويطلق على هذه الفرقة اسم الشرطة ويناط بها حفظ الأمن في المدن والملحقات. فاذا تم ذلك كله فقد يبلغ الوفر الحاصل من هذه المادة ما لا يقل عن عشرين مليون ليرة.

قد يتوهم البعض أن هناك عقبات تحول دون القيام بهذه التدابير ولكن هذه الاوهام تزول بتصميم لجنة الموازنة وتوجيه الموازنة حسب رغبة المجلس فتتحقق هذه الرغبات التي أبداها الزملاء تحقيقا صحيحا بواسطة نصوص نضعها في صلب قانون الموازنة، أما أن نتكلم ونبدي آراء ونطلب مطالب وتبقى الموازنات كما ترد من الحكومة فكل ما نقوله يذهب عبثا.

أما الوفر الذي يحصل من تحقيق هذه المبادىء التي ذكرتها فيجب ان يضاف الى موازنة وزارة الاقتصاد الوطني، حقا انه لمن العجيب والغريب ومن الأمور المدهشة الاعتمادات الخارجية (4.200.000) ليرة، واعتمادات المالية (450.000) ومخصصات الامن الداخلي (5.500.000) ليرة، أي أن الوزارات التي يقوم عليها انتاج البلاد وحياتها وتطلب منها أشياء عظيمة جوهرية حيوية يخصص لها أقل الاعتمادات في الموازنة، فلذلك يجب أن يحول الوفر الحاصل من العملية المقترحة الى وزارة الاقتصاد الوطني اولا ثم الى الصحة العامة التي خصص لها ما يقرب من ثلاثة ملايين ليرة فقط. فلا عجب اذا رأيتم أمراضا

منتشرة وأجساما مريضة. فاذا اردتم أن تضعوا الأمة في المستوى الراقي الذي يجب أن تكون فيه عليكم بمكافحة الأوبئة والأمراض وعليكم أن تنشئوا أجساما صحيحة سليمة لأن العقل السليم في الجسم السليم فلا مناص اذن من صرف الوفر الحاصل في سبيل الصحة والأشغال العامة وزيادة مخصصات المعارف فوق ما زيدت في هذا العام.

هناك تضخم ملحوظ في وزارة الخارجية، انه لمن المستحسن أن ننشىء سفارات في جميع دول أوروبا وأن تقام لنا قنصليات في جميع مدن العالم، فهو شيء مفيد وحسن، ولكن التمثيل الخارجي منوط بقدرة الأمة الحالية، وفي هذا الباب يقدم الأهم على المهم، كما أن هناك تضخما في رئاسة مجلس الوزراء. والخلاصة اننا لا نجد اعتمادات معقولة الا في وزارة العدلية، أما بقية المصالح التي تحتاج الى اعتمادات ضئيلة فاننا نرى اعتماداتها تتصاعد، والتي تحتاج الى اعتمادات كثيرة نرى اعتماداتها تتناقص، وهذا شد ما تمنى به الأمة أن تصرف مواردها على الأمور الثانوية وأن تهمل الأمور الضرورية.

ورد في موازنة الأشغال العامة تجفيف المستنقعات. وهذا ما بحت من أجل تنفيذه أصواتنا، باعتبار أن تجفيف المستنقعات عمل صحي واقتصادي في وقت واحد. وقد ورد في الموازنة تجفيف مستنقعات دمشق وحوران ودير الزور وحمص وحماة. ولكن ليس هناك تصاميم لهذه المستنقعات التي تجهل وزارة الأشغال أسماءها. فأنا أسأل معالي الوزير ما هي المستنقعات التي تنوي الوزارة تجفيفها في حوران؟ أريد جوابا على هذا السؤال فاذا لم يجب الوزير فأنا أجيب بأنه لا يعلم ولا وزارة الاشغال تعلم ولـيس لديها تصاميم لأمور كهذه. وكذلك عن حفر الآبار في دير الزور وفي بادية حمص وحلب فإنني أعتقد أن ليس لدى المصلحة تصاميم ولا دراسات ولا تعلم أين يجب أن تحفر الابار.

وسوف يجري ما جرى في العام الماضي حيث أن ما خصص لحفر الابار في البادية حفر في أمكنة أخرى.

أما مشاريع الري فإن مصلحة الري مصلحة هزيلة لا يوجد فيها أكثر من 15 موظفا حسبما ورد في الموازنة، ولا يتجاوز عدد مهندسيها الثلاثة أو الأربعة، وفوق هذا يطالب النواب بتعميم الري وتدلي الحكومات ببيانات بأنها

ستعمم الري، وينادي الكل بوجوب تنفيذ مشاريع الري. وأن الازدهار لا يكون الا به. ومع ذلك تقدم موازنة مصلحة الري بخمسة عشر موظفا وثلاثة أو أربعة من المهندسين، وما الذي تستطيع أن تقوم به هذه المصلحة الصورية؟.. اذا أردتم الجد فألغوها وان أردتم العمل المثمر فوسعوها لتكون مصلحة حقيقية تنعش اقتصاديات البلاد وزراعتها. وأنا أقترح أن يخصص الوفر لتوسيع هذه المصلحة كي تقوم بأعمال صالحة نافعة، وان مشروع ري حمص حماة قد ذكر عنه أحد الزملاء بأنه ناقص من بعض النواحي، ولكن على كل حال هو مشروع خطير وله مستقبل زاهر. ولكن على الأقل كان يجب على الحكومة السورية، لا سيما ولديها التصاميم الكافية المهيأة لاتمامه، ولكن مع الأسف لم تعمل شيئا في هذا السبيل، وان هذا المشروع الذي يروي أراضي حمص وحماة قد اقتصر على ما أوصله اليه الفرنسيون، أي أنه لم يرو من أراضي حماة شبرا جديدا واحدا. أما الخمسمائة ألف ليرة المخصصة في الموازنة فهي بالحقيقة تكملة لجر المياه من قناة الري وتنقيتها في المصافي واسالتها الى حماة. أما اتمام مشروع ري الأراضي الذي ذكرته فلم ينفذ منه شيء في العام الماضي ولم تخصص له الاعتمادات في هذا العام. فهذه الاعتمادات اذا اعتمادات وهمية ومن واجب الحكومة أن تتم هذا المشروع فعلا. يقال بأن الحكومة السورية تسلمت بعض الدراسات والتصميمات التي تخص مشاريع الري والتي كان الفرنسيون ينوون تنفيذها في البلاد، فاذا صح ذلك وكانت هناك دراسات وتصاميم أرجو من الحكومة أن تستفيد منها بدلا من تجزئة النفقات هذه التجزئة المضحكة، وفي الحقيقة انها مضحكة وسخيفة معا اذ ان بعض الطرقات خصص لها خمسة آلاف ليرة وبعضها عشرة وبعضها خمسة وعشرون ألفا. والحقيقة أن هذه المبالغ كلها تصرف ولكنها لا تعطي فائدة، لأنه من العبث أن تصلح الطرقات بهذه المبالغ، وكان من الواجب والمعقول أن تصرف الطرق الحيوية في البلاد فتشق وتمهد كلها لا أن تجزأ وتقسم ولا تأتي بالفائدة المطلوبة.

هناك ملاحظة تتعلق بالمعارف والجامعة السورية، فالجامعات في البلدان الراقية عادة تعتبر رأسا بالنسبة للتعليم الابتدائي والثانوي ولا حياة للبلاد اذا لم يكن فيها تعليم راق.

واني أتساءل ما هو وضع الجامعة السورية وما هي مخصصاتها؟ ... أن مخصصاتها هزيلة جدا ولا تزيد عن 1.5 مليون ليرة سورية، وفروعها ناقصة

تقتصر على الطب والحقوق بينما البلاد بحاجة الى فروع للهندسة والدراسات الاجتماعية ولمدرسة صناعية عليا، وان تكون الهندسة بفروعها المختلفة من انشاءات وميكانيك وغيرها. ونحن بحاجة لمدارس زراعية عليا أيضا. والبلاد قبل كل ذلك بحاجة لاصلاح هذه الجامعة واصلاح الفرعين الموجودين فيها حاليا. وقد وضع الأستاذ ساطع الحصري تقاريره الاصلاحية، ولكن مع الأسف لم تنفذ تلك التقارير، وعلى ما يظهر بأن العائق في تنفيذها واصلاح هذين الفرعين هو بعض اعتبارات شخصية وسياسية، فإذا اردتم جامعة فأصلحوا الفرعين واذا اردتم جامعة فزيدوا عدد فروعها وزيدوا مخصصاتها أيضا لأنها شيء جوهري وحيوي بالنسبة للأمة وثقافتها ومستقبلها.

وقد تقدمت الى المجلس باقتراح يحمل ملاحظاتي على الموازنة هذا نصه:

أرجو أن يخصص الوفر الحاصل من الغاء مصلحة العشائر ومن اعتمادات الجيش بعد تطبيق الخدمة الاجبارية ومن الوفر الذي يحصل من توحيد الدرك والشرطة لوزارة الإقتصاد والأشغال العامة والمعارف والصحة.

وقد أحال رئيس المجلس هذا الأقتراح الى رئاسة الوزراة ولجنة الموازنة.

استكمال التحاق محافظة اللاذقية بالوطن:

كان الفرنسيون قد ابقوا على الاستقلال المالي والاداري لمحافظة اللاذقية بعد الغاء دولة العلويين، وقد رأى المجلس في جلسة 1945/12/9 أن الأوضاع الاستقلالية تقضي بالغاء هذا الوضع الشاذ، فوافق على اقتراح تقدم به نواب المحافظة هذا نصه:

"لما كانت الادارة القائمة في محافظة اللاذقية لم تلتئم مع الوضع الاستقلالي الجديد، وكان الاستقلال الاداري والمالي الذي فرضه الأجنبي على محافظة اللاذقية قد طبق دون موافقة أهالي المحافظة على هذا الوضع. لذلك فان المجلس النيابي يقرر الغاء الاستقلال المالي والاداري المتبع في محافظة اللاذقية، وتطبيق كافة القوانين المرعية الاجراء في الدولة السورية فيها"... ثم أصدر المجلس قانونا بهذا الشأن.

اتفاقية بيفن بيدو:

انتقل الصراع العنيف مع الحكومة والنواب الموالين من الشارع الى ساحة البرلمان، وكادت مناقشات قضيتي تحضير البدو الرحل واتفاقية بيفن بيدو تؤدي لاغتيالي تحت قبة البرلمان.

فقد بثت الاذعتان البريطانية والفرنسية، منذ صباح 1945/12/13، نص اتفاق الحكومتين البريطانية والفرنسية بشأن سوريا ولبنان. كما ذكرت الصحف بأن بيفن وزير الخارجية البريطانية ألقى عصر ذلك اليوم بيانا عن هذه الاتفاقية في مجلس العموم البريطاني، فأعقبه ايدن مهنئا وواصفا هذه الاتفاقية بأنها "حل لمشكلة عسيرة كادت تفسد العلاقات بين بريطانيا وفرنسا، وأنها ستلقى ترحيبا قويا في كل من سوريا ولبنان".

وقد أذاعت مديرية المطبوعات السورية ترجمة لنص البلاغ الرسمي الصادر عن الحكومتين البريطانية والفرنسية، وأن رئيس الجمهورية اللبنانية قد باغت المجلس النيابي بزيارته مصطحبا معه رئيس أركان الجيش وقائدي الجيش والدرك ومديري الشرطة والأمن العام، وأن رياض الصلح رئيس الوزراء تلا البيان الذي سلمه اليه ممثلا بريطانيا وفرنسا في لبنان، وأنه بعد فراغه من تلاوته وقف النواب مبتهجين وأنشدوا النشيد الوطني اللبناني.

تحفظ شكلي:

وقد ذكرت الصحف أنه جاء في خطاب رياض الصلح قوله:

"انني أشارك رئيس المجلس بشكره للرئيس الأعلى على هذه النتيجة التي وصل اليها، انما أخشى أن نسجل هذا البيان (أي البيان الفرنسي البريطاني) دون أن نقول كلمة في الموضوع، فقد ورد في البيان ان استقلال هذه البلاد كان نتيجة اعلان من جانب

واحد (وهو يشير الى وعد فرنسا باستقلال سورية ولبنان عام 1943) مع انه كان نتيجة لمشيئة أهل البلاد واستطرد قائلا:

لا أريد أن أنتقص من قيمة البيان، ولكنني أريد أن أعلن للملأ ان هذا الاستقلال هو نتيجة مشيئتنا وان الجلاء أمر طبيعي وحق لنا. كما قال: انني لم أكن أنا ورفاقي في يوم من الأيام نشك في هذه النتيجة.

الأرمنازي معجب ببيفن:

كما نشرت الصحف تصريحات لنجيب الارمنادي وزير سوريا المفوض بلندن عقب فيه على الاتفاقية قائلا انه معجب بصفات المستر بيفن واخلاصه في محاولة حله مشكلة البلدين، وأنه يرجو أن يأتي البت عاجلا في شأن الوسيلة التي ستتبع في تنفيذ الاتفاق الجديد.

بيان سوري لبناني مشترك

وفي صباح يوم 1945/12/15 اجتمع شكري القوتلي، في قصر الرئاسة، مع رئيس الجمهورية اللبنانية، بحضور رئيسي الوزراء ووزيري الخارجية، وأصدروا بيانا مشتركا هذا نصه:

"بحثنا في هذا الاجتماع نص البيان الرسمي الذي سلم الينا بتاريخ 13 كانون الأول 1945 بشأن جلاء القوات البريطانية والفرنسية نهائيا عن الأراضي السورية واللبنانية، هذا الجلاء الذي كان أمنية البلدين والذي ما فتئت الحكومتان تطالبان به الى أن تقرر، وقد كانت وجهات نظر الحكومتين متفقة كل الاتفاق".

يسمون اتفاقية تقاسم النفوذ جلاء:

وهكذا يبدو، بشكل رسمي قاطع، أن الحكومتين السورية واللبنانية قد سميتا اتفاقية بيفن بيدو لتقاسم النفوذ اتفاقية جلاء عن البلدين تستوجب الاحتفال والابتهاج واقامة معالم الزينة

والافراح... فأصدر وزير الداخلية لطفي الحفار أوامره الى كل أجهزة الدولة في جميع المحافظات بأن تقيم معالم الزينة وتحتفي ابتهاجا بالاتفاق البريطاني الفرنسي. وبذلك وقع ما كنا نخشاه ونحذر الحكومة منه. وقلما كانت تمر جلسة برلمانية دون أن نلفت نظر الحكومة فيها الى أنباء المفاوضات بين فرنسا وبريطانيا وتآمرهما على استقلال سوريا ولبنان. فكانت الحكومة تنكر أنباء هذه المفاوضات تارة وتنكر اطلاعها عليها تارة أخرى، ولطالما تعهدت للمجلس بعدم الاعتراف بهذه المفاوضات التي كانت تجري دون اطلاعها.

وفي جلسة 1945/12/17 التي اعقبت نشر البيان الرسمي عن هذه الاتفاقية تقدم عدد من النواب بالسؤال التالي: "قرأنا في الصحف نص البلاغ الرسمي الذي صدر عن الحكومتين الفرنسية والبريطانية الذي يشير الى الاتفاق المعقود بينهما بشأن الجيوش الفرنسية وجلائها عن سوريا بحيث ان هذا البلاغ قد تضمن أمورا خطيرة تتعلق بصميم الوطن واستقلاله ولا بد من مناقشة ما ورد فيه لأهميته. لذلك نطلب تعيين جلسة خاصة ليفسح للنواب المجال لبيان آرائهم وملاحظاتهم على هذا البيان الخطير"..

ولكن رئيس الوزراء، بعد أن شعر بالجو المتفجر، طلب الى المجلس امهاله لكي يقدم اليه كل الايضاحات. ولم يكن طلبه موضع خلاف، لأن النظام الداخلي يعطيه هذا الحق. فانتقل النقاش الى موضوع البرقية التي أرسلها وزير الداخلية الى المحافظات لاقامة معالم الزينة والأفراح، فاعترف لطفي الحفار، بصلافة بأنه هو الذي أرسل هذه البرقيات ابتهاجا بذلك الاتفاق واردف قائلا:

انني مرتاح لما ورد بهذه الاتفاقية من جلاء الجيوش الأجنبية والجمل التي وردت بهذه البرقية واضحة جدا من أنها البشرى بجلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد وما يتعلق بسيادتها واستقلالها.

فتعرض وزير الداخلية لحملة شديدة من المعارضة لتضليله الشعب بأخطر قضية تتعرض لها البلاد. وكادت تحدث مشادة بين الحفار والجابري وبين نواب المعارضة. وقد اشتركت بهذه المناقشة قائلا:

أود أن أستبق الأمور فأتكلم في موضوع الاتفاق البريطاني الفرنسي، لأن المصلحة تقضي بأن يكون هناك انسجام بين الحكومة والمجلس، لا سيما في القضايا التي تتعلق بسيادة البلاد وحريتها، وبما أن الحكومة كانت قد أعلنت عن عدم استعدادها للبحث بهذا الموضوع الان، لتقديم الايضاحات الكافية للمجلس، فقد نزلنا عند رغبتها وعند حقها بهذا التأجيل.

ولكن ما حدا بي للكلام الان هو موضوع البرقية التي نشرتها الصحف، واصرار وزير الداخلية "على ان هذا الاتفاق البريطاني الفرنسي هو في مصلحة البلاد". فقاطعني وزير الداخلية ولكنني تابعت الكلام: "ان نص البرقية واضح صريح يدعو ان يقوم الموظفون الاداريون وأجهزة الحكومة بالدعاية لهذا الاتفاق الذي لم نطلع عليه وانما نشر بلاغ عنه يتعرض لنقاط غامضة أثارت في نفوسنا كثيرا من الشكوك والريب، وان المجلس يريد أن ينسجم مع الحكومة في المواضيع الخارجية ولا سيما في موضوع خطير كهذا، بينما الحكومة تأبى الا ان تنهج نهجا خاصا تدل عليه البرقية دلالة واضحة، واصرار وزير الداخلية في هذه الجلسة بأنه متفائل رغم أقوال النواب لا يمكن أن يقال عنه الا أنه موقف مريب، إنني أسال رئيس الحكومة: اذا رفض المجلس هذه الاتفاقية فما هو موقف الحكومة من الشعب السوري بعد أن قدمت الحكومة لهذا الاتفاق مختلف انواع الدعاية؟ لا شك أن الموقف سيكون ضارا بالحكومة وبمصلحة البلاد معا... انني، تمشيا مع الأصول والأساليب البرلمانية ومع مذكرات لجنة الشؤون الخارجية أرجىء مناقشة البلاغ البريطاني الفرنسي الى يوم السبت القادم. وأرجو من الحكومة ان تكف عن أي دعاية لهذا الاتفاق قبل أن يعلن المجلس رأيه الصريح بعد استماعه لبيانات الحكومة".

ولما اشترك بعض النواب الموالين بتقريع وزير الداخلية على برقيته ضاق رئيس المجلس فارس الخوري ذرعا فقال: "ان

المسألة واضحة، فوزير الداخلية يقول انه أرسل البرقية فماذا يترتب على ذلك؟ اذا كان شيء دستوري يترتب على ذلك فليلجأ النواب اليه، فلا حاجة لاعادة الكلام وتكراره".

كان الأستاذ الخوري يعلم أن الشيء الذي يترتب على ارسال هذه البرقية هو سحب الثقة من الحكومة، ولكن المعارضة كانت عاجزة عن اسقاط الحكومة وليس بوسعها الا الاعادة والتكرار لتعبئة الرأي العام ضد الاتفاقية ... فأجبت رئيس المجلس:

كيف يجوز لوزير الداخلية، وقبل أن يبحث هذا الأمر الخطير مع زملائه الوزراء، أن يوجه مثل هذه البرقية من تلقاء نفسه؟

وقد قصدت من هذا التساؤل الذي فيه تجاهل العارف احراج رئيس الحكومة ليعترف بمسؤولية الحكومة بارسال البرقية، ولكن الرئيس الجابري ظل صامتا، وعاد وزير الداخلية للقول بسذاجة: لقد كانت هذه البرقية نتيجة لشعوري لأول وهلة وابتهاجي بالجلاء، ولم يحدث هذا عندنا فقط بل حدث عند غيرنا ايضا - يقصد لبنان.

فأجبته فورا: أن خطأ غيركم لا يبرر خطأكم.

عوامل تدخل بريطانيا بقضية الجلاء.

في جلسة 1945/12/22 ألقى سعد الله الجابري خطابا طويلا حول جلاء القوات الأجنبية عن سورية ومفاوضات بريطانيا وفرنسا بشأنه وفيما يلي أهم ما ورد في ذلك الخطاب:

"سادتي استميحكم عذرا ان طلبت منكم الاصغاء لما أقول لا لأنكم لا تصغون ولكن لأن خطورة الأمر تتطلب الاصغاء التام لكل ما سأقول واننـي سأعطيكم جميع المعلومات والايضاحات والتفاصيل التي تمكنت من الحصول عليها دون مواربة أو تأويل.

لا شك بأن حوادث أيار كان لها علاقة وثيقة بتدخل بريطانية لوضع حد لهذه الفاجعة الدامية وهذا التدخل هو الذي هيأ لبريطانية الفرصة لكي تدخل مع فرنسا لبحث قضايا سوريا ولبنان، فاذا كان هناك من مفاوضات أو مذكرات

بين الدولتين فهي لم تكن الا نتيجة لهذا الأمر، لقد جرت عدة مذكرات وأبحاث للفصل في مشاكل سورية وانهائها ولكنها لم تنته إلى نتيجة لأن اختلاف الدول على شكل المذاكرات كان المانع لاجرائها، ولما بدأت المذاكرات الأخيرة في شهر أيلول الماضي كان ذلك أثناء انعقاد مجلس وزراء خارجية الدول الخمس ولم تنته الى نتيجة لأن حوادث داخلية في فرنسا حالت دون إكمالها وتأخرت الى شهر تشرين ثاني **فعادت المذاكرات من جديد وتمت على ما تمت عليه، أما سورية فلم تشترك فيها ولم تطلع عليها وليس لها بها علم مطلقا، ولكننا مع لبنان لم نترك فرصة او وسيلة الا ولاحقنا قضيتنا فيها، وخاصة جلاء الجيوش كي لا يكون هذه الاستقلال مهددا ولا يوجد تهديد للاستقلال مثل وجود قوى أجنبية في البلاد، وأهم ما كانت تتابعه الحكومتان هو الجلاء التام الذي تم أكثره في سورية وبقي قسم كبير منه في لبنان، وقد بوشر بترتيب الجلاء منذ البارحة بين الدولتين البريطانية والفرنسية من حيث وضعية جيوشهما لا غير ولكي يهيأ المنهاج لجلاء جيوشهما.**

نعود الآن الى أساس الموضوع:

لدينا بلاغ واتفاق ومنهاج للجلاء، وعندما صدرت هذه الاتفاقات أصرت الحكومة السورية كل الاصرار على اعلانها للملأ كي يطلع عليها الرأي العام في البلاد ولكي لا يفسح أدنى مجال لأي تأويل بل يجب أن يعرف الناس كل شيء ان كان حسنا أو سيئا، وبالأمس تلقيت الخبر بان هذه الوثائق التي كانت مكتومة في أول أمرها، قد قبلت نظرية الحكومة السورية باعلانها.

وأنا الان أتلوها عليكم وهذه هي الترجمة الرسمية لها:

بلاغ حول الجلاء

ان تبادل وجهات النظر المتعلقة بقضايا المشرق والشرق الأدنى الذي جرى بين المستر بيفن والمسيو بيدو في أواخر أيلول الماضي بمناسبة انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الخمسة قد استمر منذ ذلك الحين بالطرق الدبلوماسية.

ان هذه المباحثات التي جرت بروح الصداقة والثقة المتبادلة قد أفضت الى اتفاق على نواح مختلفة للقضايا المبحوثة.

ان الحكومتين تحدوهما الرغبة بأن تزيلا بطريقة دائمة كل اختلاف في السياسة من شأنه أن يضر بمصالح كل منهما ويسيء الى حسن التفاهم الذي تنويان زيادة توثيقه قد اعترفتا بأن من مصلحتهما المشتركة أن تشجعا ضمن التعاون الدولي الرفاه الاقتصادي والأمن والسلامة لشعوب الشرق الاوسط، وعلاوة على ذلك فان الحكومتين رغبة منهما أيضا بأن تؤمنا لسورية ولبنان ممارستهما التامة للاستقلال الذي أعلنته فرنسا عام 1941 والذي ثبت بقبول هاتين الدولتين في عداد الأمم المتحدة ورغبة منهما في استنباط النتائج الطبيعية الناشئة عن انتهاء القتال فيما يتعلق بأوضاع الحلفاء العسكرية في المشرق، قد قررنا أن ندرس معا الظروف لاعادة ترتيب وسحب القوات العسكرية من هذه المنطقة بطريقة منظمة، وسيجتمع لهذه الغاية في بيروت في الحادي والعشرين من كانون الأول من عام 1945 خبراء عسكريون بريطانيون وفرنسيون، وسيكون تحديد موعد قريب جدا للتدابير الأولية للجلاء احدى مهامهم الأساسية.

اتفاقية الجلاء

البيان المتعلق بتماثل الاهداف البريطانية والفرنسية.

ان الحكومة المؤقته للجمهورية الفرنسية وحكومة جلالته للمملكة المتحدة، بعد أن درستا الوضع في الشرق الأوسط، تصرحان بانه تحدوهما الغاية الواحدة لأن يقوما بما هو مترتب عليهما من أن الاستقلال الذي وعد به البلدان المبحوث عنهما سيكون مؤمنا ومحترما.

لقد اتفقت الحكومتان على أنه من مصلحتهما المتبادلة ان ينشطا بالتعاون مع الحكومات الأخرى للرفاه الاقتصادي لشعوب هذه المنطقة في ظروف من السلم والسلام، وستتبادل الحكومتان - حسب الحاجة - المعلومات المتعلقة بأحسن الطرق التي يستطاع الوصول بها الى هذا الغرض، والحكومتان ترغبان بتبادل معلومات كهذه وأن تتمكنا من تجنب اختلافات سياسية قد تمس مصالحهما المتبادلة، كما تؤكد كل من الحكومتين نيتها بأن لا تعمل شيئا لأن تحل محل الحكومة الأخرى في مصالحها ومسؤولياتها في الشرق الأوسط، مع الاعتبار العام للوضع السياسي في البلاد المبحوث عنها.

منهاج الجلاء

سيجتمع في بيروت في 21 كانون أول عام 1945 خبراء عسكريون بريطانيون وفرنسيون لوضع تفاصيل برنامج للجلاء **على مراحل مع** ما يقابل ذلك من إعادة وترتيب القوى وسيكون أحد أغراض هذه المباحثات تعيين تاريخ قريب جدا يبدأ فيه الجلاء.

انه من المفهوم ان الجلاء عن سورية سيجري بنسبة متعادلة بحيث يتم **جلاء القوى البريطانية والفرنسية بآن واحد، وسيوضع برنامج الجلاء بشكل يؤمن الاحتفاظ بقوى كافية في المشرق لضمان الأمن الى الحين الذي تكون مؤسسة الأمم المتحدة قد اتخذت قرارها بشأن تنظيم السلامة الاجتماعية في هذه المنطقة، والى أن تتم هذه الترتيبات تحتفظ الحكومة الفرنسية بقوى معادة الجمع والترتيب في لبنان.**

ان حكومة جلالته في المملكة المتحدة، والحكومة الفرنسية ستخبران الحكومتين اللبنانية والسورية عن تفاصيل الجلاء، وستدعوان هاتين الحكومتين لأن تعينا بأقرب وقت ممكن ممثلين ذوي صلاحية لبحث التدابير التي سيتفق عليها بالاشتراك كنتيجة لهذه المقررات، وستتناول هذه المباحثات أيضا التدابير التي ستتخذ من أجل تمكين الحكومتين السورية واللبنانية من الاضطلاع بواجبهما في حفظ النظام.

الجابري يشرح موقف الحكومة

وتابع الجابري خطابه قائلا:

مما لا شك فيه أن هناك مسائل كثيرة تستوجب التساؤل ومسائل اخرى واضحة لا تتطلب البحث والسؤال والحكومة السورية أخذت على نفسها أن تستوضح جميع الجهات في جميع النقاط التي يمكن أن ترد على الخاطر فاستعلمت عنها، فلم تترك جهة بريطانية ولا مفوضياتها ولا الدول العربية ولا الجامعة العربية الا واستوضحتها فكان من نتيجة ذلك أن تكونت لديها مجموعة من الأجوبة سألخصها لكم الان، وأنا أنقل اليكم ما يمكن أن يرد على الخاطر من اسئلة وأبحاث في هذا الموضوع، ومن البديهي ان الابحاث والاسئلة التي ترد على البال تجتمع في هذه النواحي الثلاث: البلاغ والاتفاقية والمنهاج، وهي وان كانت في مجموعها لا تختلف كثيرا عن بعضها البعض ولكن في كل واحدة منها مادة تستوجب السؤال.

تعلمون ان العادة حتى الان في لغة السياسية التي يكون فيها تعاقد أن لا يجنح فيها الى الغموض والابهام، وخاصة من ناحية الجهة الفرنسية التي اعتادت ان تجعل اتفاقاتها وعقودها على جانب من الصراحة التي اشتهرت بها، وأما هذه البيانات الثلاثة فهي ملأى بالغموض والابهام ومن الصعب أن يبت فيما اذا كان هذا الغموض والابهام مقصودا، أو لم يستطع الوصول الى تعابير أوضح وأصرح، ولذلك ابديت هذه الملاحظة عرضا، وعلى هامش الابحاث، وأول ما يتبادر الى الذهن قضية اعلان استقلال سورية في عام 1941 المذكور في البلاغ وهذا النص انفرد فيه البلاغ وحده، وليس له ما يماثله أو يشابهه في الاتفاق أو المنهاج، وهو ينصب رأسا على المشرق لأن هناك تعابير اصطلح عليها واستعملت في هذه البلاغات بين الشرق الأوسط وبين المشرق، وألخص لكم النقاط التي جمعتها: كلمة الشرق الأوسط أو المشرق، كلمة الشعوب، يحتويها البلاغ والاتفاق وهي تنصب على الشرق الاوسط لاعلى المشرق، فالاستقلال الموعود ينصب على الشرق الأوسط.

الدكتور عبد الرحمن الكيالي:

ماذا تقصدون من الشرق الأوسط؟

سعد الله الجابري:

الشرق الأوسط هو ما يعبرون عنه بالفرنسية proche - orient وباللغة الانلكيزية middle - east وقد سألنا عنها فقالوا ان middle - east هو الشرق الأوسط وان كانوا يستعملوا أحيانا near- east وذلك يعني البلاد العربية وحدها وهي تشمل المملكة العربية وفلسطين وشرق الأردن ومصر والعراق وسورية ولبنان، وقضية استقلال عام 1941 موجود في البلاغ ولم يأت ذكره في الاتفاق أو المنهاج وينصب على المشرق أي levant والاحترام التام للوضع السياسي ينص على الشرق الأوسط وقد أتى ذكره في الاتفاق، وقضية بقاء قوات الأمم المتحدة في المشرق موجودة في منهاج الجلاء، ثم هنالك المسؤوليات فهي مذكورة في الاتفاق والمصالح مذكورة في البيان والاتفاق والمنهاج.

اسمحوا لـي أيهـا السـادة أن اسـتعمل الصـراحة فـان أول مـا يخطر على البال هو قضية الجلاء، وكلنا يذكر جيدا كم أثار هـذا الأمـر قلق المجلس والبلاد والحكومات المتتابعة وكم كان الاهتمام شـديدا والاسئلة كانت تتردد على الحكومة وبلغ الأمر في بعض الاحيان أنـه كان التوتر فيها شديدا واننـي اقـول لكـم أنـه لـم تتـأخر حكومـة فـي ملاحقة هذا الأمر لأن الحكومات جميعها تشـارك المجلـس والشـعب ولا يوجد استقلال يمكن التمتع به والاطمئنان اليه اذا لم يكـن هنالـك جلاء، فأول ما يرد في البلاغ وفـي المنهـاج هـو الجـلاء. وكلمـا طالبنـا بالجلاء كنا نجاب حتى الان بأننا سندرس ونعمل وسنبحث وغير ذلـك من السينات ولكن هنا لأول مرة يدخل أمـر الجـلاء فـي اتفـاق دولـي بين البلدين اللذين توجد جيوشهما في هذه البلاد، وكمبدأ لا شك أن تقرير الجلاء نقطة طيبة على البلاد أن تستفيد منها وكما يقال:

خذ من هذا الأمر ما صفا.

ثم هنالك نقطة ثانية صريحة وهي ان النظام وتأمينه هـو مـن اختصـاص البلـدين سـورية ولبنـان، ولـيس لهـم الا أن يسـهلوا الأمـر ويعطونا السلاح وما نحتاجـه مـن تجهيـزات وأدوات، علـى أن نسـتعد ونستطيع القيام بواجبنا من حيث تأمين النظام في الداخل.

وعندما يبحث في السلامة المشتركة نكون نحن أصحاب الحـق الأول مع الجامعة العربية لتأمين السلامة الاجتماعية في بلادنا...

هاتان النقطتان هما الأساسان القويان اللذان تجـد الحكومـة انهمـا مـن فائـدة البلاد. ولكن هناك أمور أثارت قلقنا:

وأول ما أثار هذا القلق ما جاء في ذكر الاستقلال عام 1941 ذلك البيـان الـذي رفضته الحكومة السورية مرارا وترفضه دائما وعندما سألنا عنه ورد الايضاح بأن ذكره لم يأت في هذا البلاغ الا عرضا لذكر حادث تاريخي ولـيس فيـه موجبـات تفـرض علينـا لا الاعتـراف ولا التقيـد بـه واسـتقلالنا ثابـت فـي انتسـابنا الـى منظمة الأمم المتحدة استنادا الى اجتماع مؤتمر سان فرنسيسكو ..

الأمر الثاني كلمة (الشعوب):

تعلمون جيدا أيها السادة ان كلمة الشعوب بدأت في مؤتمر سان ريمو ثم ذكرت في عدة ابحاث سياسية، **استعملها ميليران عام 1923 ليفرق هذه البلاد بدعوى انها ليست أمة واحدة ولا شعبا واحدا وليس باستطاعتها أن تكون دولة واحدة، وكانت هذه الكلمة وسيلة للاستعمار ليفرق بيننا فكانت البلاد في مختلف أدوارها تحتج بأنها لا تقبل أن توصف بأنها تضم شعوبا متعددة، واننا اذ نرجع الى كلمة الشعوب نجد انها لا تشمل سورية ولبنان بل تنصب على الشرق الأوسط وهذا أيضا لا نقبل به لأننا أمة عربية، ولسنا شعوبا متفرقة، وانما تجمعنا كل الروابط التي تجمع الأمم الموحدة فقيل لنا اننا لم نقصد مطلقا بتعبير الشعوب أي أمر سياسي أبدا، ولكنه جاء في أمر الرفاه الاقتصادي الذي هو سياسة الدول الكبرى لإنعاش العالم فيما بعد الحرب لكي تجابه الظروف الاقتصادية، وعندما يقال رفاه اقتصادي ينصرف على الناس ولذلك استعملت كلمة شعوب وليس فيها أي معنى سياسي.**

ان الاستقلال الموعود الذي ورد في الاتفاق هو الذي أثار أيضا سؤالنا واستيضاحنا:

هل صحيح ان استقلالنا ما زال في حيز الوعد بعد جميع الاعترافات الرسمية والممارسة السياسية الفعلية التي نمارسها؟

يقولون ويذكرون في هذا الصدد ان الاستقلال الموعود معناه ان هذا الاستقلال ذاته سيحترم، وهذا ليس له تعلق بسورية ولبنان في تعبير الشرق الأوسط، لأن هنالك بعض البلدان التي لها أشكال سياسية وأوضاع خاصة ينصب عليها هذا التعبير ولا ينصب على سورية ولبنان.

ثم هل مفروض علينا نحن أن نكون موضوع مساومة بين دولتين لأجل تأمين مصالحها الاقتصادية وما هي هذه المصالح؟

سألنا فكان الجواب على أساس الاشتراك فيما بينها، وسورية ولبنان حرتان ولا يوجد أي قيد يقيد سياستهما الاقتصادية بالارتباط مع أية دولة كانت أو عدم الارتباط لتستطيعا أن توجها سياستهما الاقتصادية كما تقتضيها مصلحتهما الخاصة.

نأتي لقضية المسؤولية:

الاتفـاق يقـول (المسـؤولية والمصـالح) وهـذه المسـؤولية ليسـت مسـؤولية احـدى الـدولتين عـن سـورية ولبنـان لأن الـدولتين مسـتقلتان كـل الاستقلال وسيادتهما غير منقوصة وجل ما في الأمر ان المسألة تنصب على الشرق والأوسط أيضا.

ونعود الى قضية المصالح فيمكن أن نلخصها تفسيرا منـا بأنهـا مصـالح اقتصادية ومصالح تجارية ومصالح ثقافية أو مصالح سياسـية الا أن ذكرهـا فـي موضع الرفاه الاقتصادي جعلها تنحصر فـي هـذه الناحيـة، ولكـن مـن مصـلحتنا نحن أن نحدد مفهوم هذه المصالح، وهي المصالح التي تكـون تابعـة للقواعـد الدولية العامة من مؤسسات أو شركات أو مدارس وهـذه المصـالح لا تريـد أي دولة أن تحل محل الثانية لتأخذها هي، ولكـن هـذه المصـالح لا تفـرض علـى سورية ولبنان أي موجبات لكي تجعل أي امتياز أو أي رجحان لأي دولـة كانـت بل تطبق عليها قوانين الدولة السورية وما تقتضيها المصالح.

وهناك أمر بقي غامضا وأقول لكم أن غموضه هذا لا يـزال يخـيم علـي أنا وبالفعل لم أجد له جوابا وهو في المنهاج العسكري من انه **سيبقى فـي الـبلاد بعـض القـوى العسـكرية الـى أن تقـرر الأمـم المتحـدة مركـز السلامة الاجتماعية في هذه المنطقة، فأقول:**

أولا: ان ذكر هذا الأمر سابق لأوانه، وكان يجب ألا يشار اليه لأنه مـن اختصاص منظمة الأمـم المتحـدة، لا مـن اختصـاص أيـة دولـة ودولـة على انفراد، فـنحن أعضـاء فـي هـذه المنظمـة التـي سـتجتمع فـي العاشر من شهر كانون الثاني المقبل (عـام 1946) ومـن الصـعب أن يجد المـرء صـيغة تبـرر هـذه القيـد، ولـذلك لـم نجـد لـه ايضـاحا الا أن المساعي في منظمة الأمم المتحدة تكون له جوابا وايضاحا.

أما الاجوبة التي وردت علينـا مـن مفوضـياتنا ولا سـيما مفوضـيتنا فـي القاهرة بعد أن اجتمع وزيرنا الى أعضاء الجامعـة العربيـة فهـو أن هـذا الاتفـاق على ما هو عليه من غموض الأصل في قضية الجلاء وأبحاثه، فـاذا لـم تمـس الجلاء شائبة من الشوائب وكان حقيقة واقعة فليس في الاتفاق مـا يخيـف أو يضر، كما ورد علينا من احدى مفوضياتنا ان مرجعا كبيرا مسؤولا صرح بأن هـذا الاتفاق هو في صالح سورية.

إن أول ما يستدعي اهتمامنا أيها السادة هو أبحاث الجلاء، فهي المقياس الصحيح للحكم على الاتفاق لأن الجلاء هو من أهم ما نبتغيه لممارسة استقلالنا وتوطيد سيادتنا فيجب أن نهتم له كل الاهتمام مع بقية المسائل التي تثير قلقنا والحكومة معكم في هذا الموضوع لا يقيدها أي قيد وقد اتفقنا مع لبنان على أن تكون الخطة مشتركة بين الطرفين ومتماثلة لتأمين هذا الجلاء والدفاع عن حقوقنا.

نحن أيها السادة لم نشترك بأي مذاكرة ولا نستطيع أن نعتبر أنفسنا مقيدين بأي قيد أو اتفاق لم يكن سبق لنا أن اطلعنا عليه أو اشتركنا فيه ولكننا نأخذ منه ما نريد ونعرض عما لا نريد، نحن لا نعطي رجحانا لأية دولة كانت، ولا امتيازا لأي كان في أي ناحية من نواحي البلاد سياسية كانت ام اقتصادية أم ثقافية، وأرى من الضروري أن أصرح هنا ومن على هذا المنبر مكررا ما تقرر في هذا المجلس وما هو متفق عليه من الحكومات المتعاقبة، اننا لا نعطي امتيازا ولا رجحانا الا لأنفسنا، وقد اتفقنا مع حكومة لبنان على اعلان هذا البلاغ الذي سأتلوه عليكم:

بلاغ الحكومة السورية

نشرت اليوم (1945/12/21) في لندن وباريس وثيقتان رسميتان عن الاتفاق الأخير الفرنسي والبريطاني تتعلقان بـ:

1- **بجلاء الجيوش الفرنسية والبريطانية عن الأراضي السورية واللبنانية.**

2- **بتماثل الاغراض البريطانية والفرنسية في الشرق الأدنى وتعرب هاتان الوثيقتان عن مبادىء، وتعين أصولا لجلاء الجيوش، فدفعا لكل التباس واجتنابا لكل خطأ في التفسير تعلن الحكومة السورية مرة أخرى بصدد هاتين الوثيقتين ما يلي:**

1- **لما كانت سورية لم تشترك في المحادثات التي أسفرت عن الاتفاقية الآنفة الذكر فانه لا يمكنها أن تتقيد بالمقررات التي اتخذت في غيابها والتي قد تمس بحقوقها أو مصالحها.**

2- لا يمكن ولن يمكن أن يمس استقلال سورية وسيادتها وان سورية وهي العضو في منظمة الأمم المتحدة، ستتصرف تجاه هذا الاتفاق التصرف الذي تمليه عليها سيادتها التامة.

3- ان جلاء الجيوش الاجنبية عن الأراضي اللبنانية سيتم في آن واحد وفقا للتأكيدات الحاسمة التي اعطيت مرارا عديدة والتي أعرب عنها مؤخرا.

4- تصرح الحكومة أنها لن تقبل أي عمل أو تحفظ من شأنه أن يبدل وضع سورية، سواء أكان ذلك داخل مؤسسة الأمم المتحدة، أو بالنسبة الى جامعة الدول العربية.

5- ان المحادثات العسكرية البريطانية الفرنسية التي بدأت في بيروت يوم 21 كانون الأول 1944 والتي ستعرض نتائجها على حكومتي سورية ولبنان ستكون موضع اهتمام الحكومة السورية الكلي، وستظل الحكومة السورية متصلة بالحكومة اللبنانية.

الشعب يرفض اتفاقية بيفن بيدو

لم يكن استمهال الجابري للمجلس في القاء بيان حول الاتفاقية من مصلحة وزارته فقد كانت المظاهرات والاضرابات تعم البلاد منذ انتشر خبر تلك الاتفاقية الاستعمارية، ولا زلت أذكر تلك المظاهرة الضخمة التي قادها الطلاب وطافت شوارع العاصمة معلنة استنكار الشعب للاتفاقية والاحتجاج على موقف الحكومة حيالها وحين وصلت المظاهرة الى البرلمان تعالت الهتافات طالبة أن أخرج لالقي كلمة في المتظاهرين، فخرجت إليهم مع زميلي رئيف الملقي الذي ألقى كلمة حماسية باسم نواب المعارضة، ثم أعقبه أحد طلاب الجامعة فحمل حملة شعواء على الجابري وأعضاء حكومته متهما أياهم بالتواطؤ مع الاستعمار، وقد ظهر لي من لهجة ذلك الطالب ومدلول خطابه أنه حلبي، فعلمت من أحد طلابنا أن اسمه عبد الفتاح الزلط وهو يدرس في كلية الحقوق.

وبناء على طلبي وموافقة المجلس أحيل خطاب الجابري والوثائق التي قدمها للمجلس الى لجنة الشؤون

الخارجية التي كنت مقررها وكان خالد العظم رئيسها، وقد حـددنا يـوم 1945/12/25 موعـدا لاجتمـاع هـذه اللجنـة البرلمانية.

عكفـت علـى اعـداد تقريـر اللجنـة، بعـد دراسـة الخطـاب والوثائق والبيانات، ولكن اللجنة لم تتمكن من الاجتماع لأنـه أوعـز لبعض أعضائها بالتغيب فلـم يكتمـل النصـاب، فاضـطررنا ان نحـدد موعدا لاجتماع آخر في اليوم الثاني، **وفي هذا الاجتماع قدمت تقريـري فحـاول رئـيس اللجنـة خالـد العظـم جهـد طاقتـه اقناعي بأن افرق في التقرير بين بريطانيـا التـي سـاعدتنا وفرنسا التي اعتـدت علينـا، فبقيـت مصـرا علـى المطالبـة بجلاء الجيشين البريطاني والفرنسي عن البلاد، كما بقيت مصرا علـى الشـكوى مـن اتفاقهمـا علـى قـدم المسـاواة، وقلت له أن الشعب والمجلس سيكونان الحكم فيما بيننـا، فاضطر للتراجع بعد أن طلب حذف بعـض العبـارات التـي لا تؤثر على جوهر التقرير.**

ولتهيئة الرأي العام سربت لبعض الصحف خلاصة عـن هـذا التقريـر ، فنشـرت "النصـر" فـي صـفحتها الأولـى: "أكـد منـدوبنا استنادا الى أوثق المصادر ان لجنة الشـؤون الخارجيـة لـم تجتمـع يوم أمس الأول لأنه لم يتكامل نصابها القانوني، ولهذا فقـد عقـدت اجتماعها الثاني قبل ظهر أمس وأقرت نهائيـا التقريـر الـذي وضـعه الأستاذ اكـرم الحـوراني عـن الاتفـاق الفرنسـي البريطـاني ورغـم التكـتم الشـديد حـول هـذا التقريـر فـان منـدوبنا يؤكـد بـأن لجنـة الشؤون الخارجية أقرت التوصيات الأتية:

1- الاحتجـاج لجامعـة الـدول العربيـة علـى الاتفـاق البريطـاني الفرنسي.
2- الاحتجاج لهيئة الأمم المتحـدة باعتبـار أن هـذا الاتفـاق خـرق لميثاق الهيئة، ولأنه يتنافى مع منطوق الميثاق نصا وروحا.
3- دعـوة الحكومـة والـبلاد لـرد كـل اعتـداء يقـع علـى سـيادتها واستقلالها".

كما نشرت الصحف ما نقلته وكالات الأنباء عن عرقلة المحادثات الدبلوماسية بين لندن وباريس بسبب الخلاف الذي نشب بين القادة العسكريين الفرنسيين والانكليز في اجتماعهم الذي عقدوه في بيروت لتنفيذ الاتفاقية، ونقلت "رويتر" من باريس "ان المفهوم طبقا لشروط منهاج الجلاء أن تجلو القوات البريطانية عن سوريا الى فلسطين في حين تجلو القوات الفرنسية الى لبنان، ولكن البعثة العسكرية البريطانية في بيروت تلقت تعليمات من القيادة البريطانية في القاهرة تقول بوجوب اعادة تشكيل القوات البريطانية في لبنان لا في فلسطين". ويضيف مراسل رويتر بأن الأوساط العليمة في باريس نفت أن تكون المحادثات في بيروت قد انقطعت، وتقول انها توقفت مؤقتا بانتظار المحادثات الجارية بين لندن وباريس.

وهذا ما يفسر الموقف المائع الذي اتخذته الحكومتان السورية واللبنانية بعد ثورة الشعب على الاتفاقية منتظرين نتائج المفاوضات البريطانية الفرنسية التي انقطعت في بيروت، **ومن هنا تتأكد أهمية تقرير لجنة الشؤون الخارجية الذي حدد سلفا موقفا حاسما ضد هذه الاتفاقية وألزم الحكومة بالعمل على مستوى هيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية لرفضها، وتعبئة البلاد لمقاومتها.**

اصرار على رفض تحضير العشائر

قبيل انعقاد جلسة 1945/12/27 أخبرني بعض نواب المعارضة أن رئيس الوزراء سعد الله الجابري قد وعد نواب العشائر برفض اقتراحي الذي يطالب بالغاء مصلحة العشائر، وأنه اتفق معهم على اسكاتي بالقوة فيما اذا أصررت على اقتراحي، وقد رجوني الا افسح للجابري مجالا لاستغلال نواب العشائر بعد أن طرح على المجلس قضية اتفاقية بيفن بيدو، وكان أكثرهم اصرارا علي زميلي رئيف الملقي.

وعند انعقاد الجلسة تلي جواب الحكومة على اقتراحي وهذا نصه:

"بالاشـارة علـى حاشـيتكم المؤرخـة فـي 1945/12/10، والمرقومـة بالعـدد 223/6239 المسـطرة علـى صـورة اقتـراح حضـرة النائـب السـيد أكـرم الحوراني المتضمن طلب الغاء مصلحة العشائر، لا ترى هذه الوزارة رأي النائب فيما يتعلق بالغاء مصلحة العشائر، اذ ان مهمة هذه المصلحة لا تنحصر بالنظر في أمور العشائر والنظر في أمور البادية فحسـب بـل تتعـداها الـى أهـم مـن ذلك، ونعني به السعي الحثيث لتحضير العشائر البدوية التـي تؤلـف قسـما لا يستهان به من مجموع سكان البلاد الخ..."

فعلقـت علـى جـواب الحكومـة سـائلا وزيـر الداخليـة عـن "المشروع والخطة التي تتمشى عليها مصـلحة العشـائر لتحضـير القبائـل. لأننـي فهمـت مـن جـواب الحكومـة أن الـوزارة تـدعي أن مصـلحة العشـائر تعمـل علـى تحضـير القبائـل، ولأننـي أعـرف أن مهمة هذه المصلحة هي توطيد الأمن في البادية ويمكـن تحقيـق ذلك بواسطة الجيش".

فتولى سعد الله الجابري الدفاع عن بقـاء مصـلحة العشـائر. وكـان نـواب العشـائر يعتبـرون هـذه القضـية قضـية حيـاة أو مـوت بالنسبة اليهم، فمصـلحة العشـائر هـي التـي تمكـنهم مـن وضـع أيـديهم علـى المسـاحات الشاسـعة مـن الأراضـي، وهـي التـي تجبي لهم ما يفرضونه على أفراد العشائر باسم المشيخة وباسم فض المنازعات وجمع دية القتلى والأتاوات الخ. فرد الملقـي علـى رئيس الحكومة قائلا:

ان الزميل الحوراني، لم يبتـغ بطلبـه هـذا أن يعرقـل عمـلا مـن أعمـال العشائر، وانما رمى الى اصلاح هذه الدائرة، واذا أرادت الحكومة أن تحـتج بـأن هذه المصلحة توجه من قبل وزارة الداخلية، فأنا أسأل رئيس الوزراء ان يضـرب لنا مثلا واحدا عن هذا التوجيه، أما أنا فاني مستعد لإعطاء مئات الأمثلـة عـن الفوضى التي لا تقتصر على وزارة الداخلية فحسب، بل تتعـداها الـى رئاسـة الوزراء أيضا...

اننا نطلب أن تشكل في هـذا الملجـس لجنـة للعشـائر تعمـل لايجاد مشروع انشائي يبحث في نشـر التعلـيم فـي البادية وتوزيـع الأراضي، وتوفير الخدمات الصـحية وغيـر ذلـك، واما ان تقتصـر ادارة

العشائر على عمل سياسي كان يزاوله الفرنسيون، فهذا ما لا يهيء أجيال البادية في المستقبل للانسجام بين المواطنين من الساحل الى بادية تدمر، هذا ما نريده وما نطلبه من الحكومة.

دافع طراد الملحم عن بقاء مصلحة العشائر واستمرار الأعراف البدوية، رافضا تطبيق القوانين المدنية، وقال:"قد قيل أن قانون العشائر من قوانين الجاهلية الأولى، فما هي قوانين الجاهلية؟؟ نحن لا نرضى ان نسمع هذه الكلمة والجاهلية هي الكفر بالله والشرك به ووأد البنات فهل هذا موجود في عشائرنا؟ كل ايها السادة، انه غير موجود ... ثم قال: نحن رؤساء العشائر ونوابها هنا في هذا المجلس نمد يدنا الى كل من يريد أن يتفاهم معنا ونقدم له ما يشاء من المعلومات حتى نتفاهم واياكم وأما هذه المعارضة (ويعنيني طبعا) فلا أعتقد أنها بنية سيئة بل انها بنية حسنة ونحن نشكر الأخوان ولكن عليهم أن يجتمعوا باخوانهم نواب العشائر الذين لا يتأخرون عنهم مرة واحدة.

وهكذا لم يتمكن رئيس الحكومة من تنفيذ ما كان يبيته، ولكن الجلسات التالية اثبتت انه لم يتراجع عنه، وكان غريبا أن يكون جواب الحكومة على اقتراحي فيما يتعلق بالعشائر في هذه الجلسة التي سيتلى فيها تقرير لجنة الشؤون الخارجية حول الاتفاق الفرنسي البريطاني، وفي الوقت التي تعم البلاد المظاهرات احتجاجا على هذا الاتفاق.

بعد هذه المناقشة، تلي تقرير لجنة الشؤون الخارجية حول الاتفاق وفيما يلي نص التقرير:

اجتمعت لجنة الشؤون الخارجية بتاريخ 1945/12/26 وبعد الاستيضاح من وزير الخارجية وتلاوة البلاغ والاتفاق المتعلق بتماثل الاهداف البريطانية والفرنسية والمنهاج ودرسها تبدي ما يلي:

ان الشعب السوري الذي أرخص طوال اعوام عديدة كل تضحية في سبيل استقلاله، قد مارس فعليا وتأكد وثبت واقعيا وحقوقيا اشتراكه بمنظمة الأمم المتحدة الذي ضمن ميثاقها مبدأ التساوي بالسيادة بين صغيرات الدول وكبيراتها فنصت الفقرة

الأولى من المادة الثانية أن تقوم المنظمة على مبدأ المساواة في السيادة بين جميع الاعضاء، كما نصت على ذلك المادة الثامنة والسبعون حيث ان العلاقات بين الأمم يجب أن تقوم على التقيد بمبدأ المساواة في السيادة وان نظام الوصاية لن يطبق على البلاد الي اصبحت عضوا في منظمة الأمم المتحدة، لذلك فان اسلوب الاتفاق البريطاني الفرنسي المتعلق بتماثل الاهداف هو اسلوب غريب جدا، لأنه يبحث في شؤون تخص الجمهورية السورية دون دعوتها واشراكها، مما يعد منافيا لأبسط الحقوق الدولية ومناقضا لميثاق الأمم المتحدة.

لقد أشار هذا الاتفاق الى :" انه من مصلحتهما المتبادلة (أي مصلحة فرنسا وبريطانية) أن ينشطا بالتعاون مع الحكومات الأخرى للرفاهية الاقتصادية لشعوب هذه المنطقة في السلم والسلام" مع أن ايجاد شروط الاستقرار والرفاهية الاقتصادية هي من مقتضيات السيادة للجمهورية السورية في بلادها كما هو من شؤون منظمة الأمم المتحدة ضمن حدود المادة 55 في الميثاق، فلا يعد بحث الاتفاق لمثل هذه الأمور الا تدخلا غير جائز ولا مشروع بقضايا تتعلق بدولة أخرى مساوية لموقعيه من حيث السيادة التي تتناقض مع أية مسؤولية أو مصلحة لهما حتى تكون موضع مساومة بينهما "وحتى تؤكد كل من الحكومتين نيتها بأن لا تعمل لأن تحل محل الحكومة الأخرى في مصالحها ومسؤولياتها في الشرق الأوسط" كما لا يحق لهما "أن تدرسا أية مقترحات تقدمها مؤسسة الأمم المتحدة حول موضوع السلامة الاجتماعية" الا بالنسبة لهما.

ان الشعب السوري الذي بذل جميع جهوده في سبيل انتصار الحلفاء قد طالب بعد انقضاء الحرب وزوال الضرورات الحربية بجلاء جميع الجيوش الأجنبية عن بلاده، لأن بقاءها لا يتلاءم مع سيادته بل كان مصدرا للاخلال بالأمن والنظام بالنسبة للمحاولات العدوانية التي قامت بها القوى الفرنسية، كما أيدتها وطالبت بذلك جامعة الدول العربية، وبانتظار الوعود المقطوعة بالجلاء التام، أشار المنهاج "للاحتفاظ بقوى كافية في المشرق لضمان الأمن الى الحين الذي تكون مؤسسة الأمم المتحدة قد اتخذت قرارها بشأن تنظيم

السلامة الاجتماعية" كأن الدولتين قد اخذتا على عاتقهما ذلك مما يخالف مبادىء منظمة الأمم المتحدة في حفظ السلامة الاجتماعية ويخل بها سلفا بحجة انتظار قرار الأمم المتحدة، أو كأن الجمهوريتين السورية واللبنانية تحت تأثير عدوان عاجل عليهما، والحقيقة انه لا يمكن أن يعتبر بقاء أية قوى بريطانية وفرنسية الا بحكم القوى المحتلة لأن بقاءها ووجودها يخالف المادة الثالثة والأربعين من الميثاق "تجري المفاوضات بأسرع ما يمكن لوضع الاتفاق أو الاتفاقات بناء على طلب مجلس الأمن على أن تعقد هذه الاتفاقات بين مجلس الأمن وبين أعضاء المنظمة او بين مجلس الأمن وبين مجموعات من اعضاء المنظمة ويجب أن تبرم من قبل كل من الدول الموقعة حسب القواعد الدستورية المرعية فيها"

انه لما يسيء الى سورية ويمس كرامتها أن يتم الاتفاق البريطاني الفرنسي على حسابها، وانه مهما كانت التفسيرات والتأويلات لنصوص البلاغ والاتفاق والمنهاج التي استحصلت عليها الحكومة السورية من حجة شمول نصوص الاتفاق لقضايا الشرق الأوسط فانها عدا عن ضعفها كمستند، غير مطمئنة وغير مريحة للمحاذير والمخاوف التي تثيرها، بينما لم يتقرر مبدأ الجلاء وبدون حقيقته وواقعه، عدا احتمال وجود ملاحق للاتفاق لم تنشر، وبما أن الشعب السوري على استعداد لبذل أي تضحية في سبيل المحافظة على استقلاله وسيادته وكرامته مؤيدا بمنظمة الأمم المتحدة وبجامعة الدول العربية ترى اللجنة:

1- أن يرفع احتجاج الى منظمة الأمم المتحدة على هذا الاتفاق وعلى بقاء بعض الجيوش الاجنبية وطلب التوسط باجلائها العاجل التام.

2- الاتصال بجامعة الدول العربية لتقدم احتجاجها وتسعى لتنفيذ قرارها بالجلاء.

3- دعوة الأمة والحكومة للاستعداد لمجابهة كل حالة من شأنها أن تمس استقلال البلاد وسيادتها.

دمشق في 26 كانون الأول 1945

المقرر: اكرم الحوراني رئيس لجنة الشؤون الخارجية: خالد العظم

فصول مناقشة اتفاقية بيفن بيدو:

بعد تقديم تقرير لجنة الشؤون الخارجية استمر المجلس في حملته على الحكومة اثناء مناقشة موضوع الاتفاقية الفرنسية البريطانية، وقد شارك في فضح الأغراض الاستعمارية لهذه الاتفاقية بعض نواب الهيئة البرلمانية للكتلة الوطنية، فقد قال نجيب الريس:

"ان نص البيان الفرنسي البريطاني يخالف صراحة ميثاق الأمم المتحدة ويحاول اخراجنا من عداد الدول المستقلة الى عداد الدول الموصى عليها، وليس البيان المشترك وحده هو الذي يحاول هذه المحاولة الخطيرة بل ان منهاج الجلاء نفسه أيضا يثبت أغراض الدولتين".

وتعاقب النواب على منبر الخطابة، وكان الدكتور عبد الرحمن الكيالي اقساهم هجوما على حكومة الجابري:

"ففي مطلع العهد الجديد من سني ما بعد الحرب يخرق الاتفاق الفرنسي البريطاني حرمة القانون الدولي ويهدم مقررات مؤتمر سان فرانسيسكو وينقض ما جاء في ميثاق الاطلنطي الذي وقعته فرنسا وانكلترا ووقعناه نحن والدول الأخرى... اننا لسنا على استعداد لاعطاء اي امتياز أو أي رجحان لأي دولة كانت. لأن ذلك تنازل عن حقوقنا وانتقاص لسيادتنا ... ونسجل على أنفسنا اننا لن نراعي الا ما هو ضمن التعاون الدولي ولمصلحة السلام العالمي لا لمصلحة الاستعمار".

وبعد انتهاء الكيالي من القاء كلمته ارتفعت الاصوات وانهالت الشتائم واشتبكنا مع النواب الموالين للحكومة وتعطلت الجلسة... واثناء فترة رفع الجلسة بادر الجابري وجماعته لاسترضاء نواب المعارضة فلم ندرك مآربهم. وعند استئناف الجلسة وقف الجابري خطيبا فقال:

"لست من الناس أو الاشخاص الذين يريدون أن يفرضوا على مجلسكم أي رأي كان أو أية سياسة كانت ولا أي شخص أو حكومة وأنا من

الذين آمنوا منذ نشأتهم بأنه لا حياة لهذه البلاد الا عن طريق الديمقراطية والحكم في ظل الحياة النيابية".

ثم استطرد مستعطفا المجلس بقوله: "انني لم أقاطع الدكتور الكيالي بكل ما استعمل من الفاظ وجمل واتهامات حتى اوصلنا الى الاستسلام لوحي القوة السرية الأجنبية، وأظن انه لا يليق بكم أن أكون في الحكم وأنا استوحي اعمالي من القوى السرية الأجنبية، فاما أن تثبت علينا هذه التهمة أو أن يؤخذ بصدقنا".

ثم قال:"أنا لا أستطيع مع أعضاء حكومتي ان نبقى في هذا الموقف المملوء بالشكوك والشبهات في امر صار داخليا (يقصد برقية لطفي الحفار) صحيحا او خطأ ارتكبناه".. وأصر على طرح الثقة بحكومته " إنني احتكم الى المجلس هل يسقطني أم لا؟"

وحاول رئيس المجلس أن يثنيه عنها، ولكنه لم يتمكن وأصر على طرح الثقة واقفال باب المناقشة. فأدركت اللعبة فطلبت من رئيس المجلس ان يستمر النواب بالكلام: "ان للمجلس الحق أن يتكلم".. ثم استطردت موجها الكلام الى الجابري:

"نحن لا ننكر أن الحكومة وقفت تجاه هذا الاتفاق موقفين متناقضين. فبالرغم من أنها اطلعت على الاتفاق والبلاغ والمنهاج فانها سلكت سلوكا ضد مصلحة البلاد، وذلك بارسال برقية ابتهاج وسرور بالاتفاق البريطاني الفرنسي. كما أنها أوعزت لمصادر عديدة رسمية وغير رسمية لالقاء الخطب في المساجد دعاية لهذا الاتفاق فأنا أسأل الحكومة قبل أن تطرح الثقة هل أنها مسؤولة بكاملها عن هذا التوجيه أم أن وزير الداخلية وحده يتحمل هذه المسؤولية؟ فاذا كانت الوزارة بكاملها هي المسؤولة فلنا موقف يختلف عما اذا كان وزير الداخلية وحده المسؤول دون زملائه الاخرين".

فأجاب الجابري:

يا سيدي هذا معناه دخولنا في المذاكرة. ونحن نريد أن نعرف أولا هل نحن موثوقون أم لا؟

فانصاع رئيس المجلس لارادته. وبتمثيلية دراماتيكية نالت الحكومة الثقة بأكثرية 59 صوتا ومخالفة ثمانية واستنكار واحد.

بكى الجابري بعد اعلان النتيجة وقال:

اسمحوا لي أيها السادة والدمع في عيني أن أمد يدي الى الدكتور عبد الرحمن الكيالي والسيد رئيف الملقي اللذين تخاصمت معهما. وثقوا بأني لا أعمل الا بارادتكم وفي سبيل هذا الوطن. وانني أتقدم اليكم بالشكر وأرى أن الظروف تتطلب الوقوف عند هذا الحد والانصراف للعمل لمجابهة الموقف والاتفاق. وأنا ذاهب الي بيروت في هذه الساعة. وأرجوكم اذا كان بالامكان الاكتفاء بالبحث الان ونجدده في وقت آخر".

لم يكتمل نصاب جلسة يوم السبت 1945/12/29 حيث أوعز الجابري للهيئة البرلمانية للكتلة الوطنية ان تتغيب عن حضورها لمنع الاستمرار في المناقشة، فترك ذلك اثرا سيئا لأن الدورة النيابية ستختتم حتما في 1945/12/31، والقضية المطروحة للمناقشة موضع اهتمام المواطنين ومتابعتهم وانشغالهم.

وفي الجلسة التالية أوعز الجابري لنائب حلب علي الحياني أن يتقدم باسم نواب العشائر - بقانون يكرس الأوضاع العشائرية في البلاد بصورة أشد خطورة مما كانت عليه في عهد الانتداب، وذلك لضمان موقف نواب العشائر بتعميق الانقسام بينهم وبين نواب المعارضة، وقد أدرك نواب المعارضة الغرض من تقديم هذا المشروع في ذلك الوقت، وتفاديا من الاشتباك مع نواب العشائر وقع رئيف الملقي على ذلك الاقتراح الذي رفضت التوقيع عليه. وقد وضعته الهيئة البرلمانية للكتلة الوطنية في رأس مواضيع جلسة 1945/12/31 الصباحية. فحاولت أن أكشف النقاب عن الموضوع فقلت:

"أريد أن ألفت نظر مقام الرئاسة الى بعض المخالفات للنظام الداخلي وللدستور التي ارتكبتها في الجلسة السابقة، أنني ألفت نظر الرئاسة الى أن للنائب الحق ان يتكلم دون مدة محددة كما جاء في النظام الداخلي وأن يتكلم في أي وقت أراد الا فيما يتعلق بالاستجواب فقد حدد النظام الداخلي

المدة التي يحق للنائب ان يتكلم بها بعد تقديم استجوابه. وهناك مخالفة أخرى اذ عندما تطرح قضية الثقة من قبل الحكومة مجتمعة أو من قبل وزير واحد يفسح النظام الداخلي المجال للمجلس ان يناقش هذا الامر وذلك استنادا للمادة 93 من الدستور التي جاء فيها (لا يمكن طرح طلب عدم الثقة بالوزارة أو بأحد الوزراء على الاقتراع ما لم يكن ثلث أعضاء المجلس على الأقل حاضرين، أما اذا طرحت الوزارة أو أحد الوزراء مسألة الثقة فيكتفي بوجود أكثرية الأعضاء ليتمكن المجلس من المناقشة في الأمر)... واستطردت موجها الكلام الى رئيس المجلس: ولا يخفى عليكم أننا في الجلسة السابقة منعنا عن مناقشة الثقة لأنني طلبت وبعض زملائي المناقشة في الموضوع ولكن رئيس الوزراء أصر على طرح الثقة بوزارته دون مناقشة ودون أن يعطي جوابا على الأسئلة التي توجهت بها اليه، كما طلب رئيس الحكومة من المجلس ان يكتفي ويمتنع عن مناقشة الاتفاق البريطاني الفرنسي. لذلك أرجو منكم أن تفسحوا المجال أمام المجلس للاستمرار في المناقشة كي نصل الى نتيجة حاسمة في الموضوع.

فرد رئيس المجلس:"لقد جرت مناقشته في الجلسة السابقة، ولكن لم يفسح المجال كما يجب. وربما كان هنالك شيء من الاستعجال في العمل".

الملقي يستقيل من النيابة:

وبعد الانتهاء من جدول الأعمال سمح رئيس المجلس بمتابعة المناقشة، ولم يكن رئيس الحكومة ووزير الخارجية سعد الله الجابري حاضرا، فأشار رئيف الملقي الى "أن الصحف الحلبية كتبت بأن الحكومة استدعت أنصارها الى اجتماع عقد بجانب وزارة الخارجية، واتخذت قرارا بأن لا تنعقد جلسة أول أمس.

ان هذا يدل على أن هنالك أمورا معقودة يراد اثارتها (يقصد موضوع العشائر) لا ان المسألة كما تبدت لنا في شكلها الظاهري ... أننا لا نرضى على أنفسنا في يوم من الأيام أن نكون سببا في تعطيل جلسة من جلسات المجلس... هذه الأوضاع هي التي دعتنا لأن نحتج على هذه الأساليب التي يراد من ورائها كم أفواه بعض النواب بأساليب ملتوية. وهذا ما جعلني أشعر بعجزي عن

القيام بالمهمة التـي ألقاهـا علـى عـاتقي النـاخبون". وأردف ذلـك بتقديم كتاب استقالته وغادر المجلـس، فطالبنـا بـرفض الاسـتقالة وعدم تلاوة الكتاب، فأبدى رئيس المجلـس أسـفه ولـم يتـل كتـاب الاستقالة.

نتيجة حاسمة للمناقشات:

وللوصول الـى نتيجـة حاسـمة مـن هـذه المناقشـات اقترحت على المجلس أن تخرج البنود الثلاثة، التي انتهـى اليهـا تقريـر لجنـة الشـؤون الخارجيـةن بصـيغة قـرار مـن المجلس، فأخذ الـرئيس فـارس الخـوري بـاقتراحي وطلـب الـى "لجنـة الشـؤون الخارجيـة" بعـد سـماعها الخطـب والملاحظات التي أبداها النواب وأخذت علما بأن المجلـس يريد أن يتخذ قرارا بهذا الشأن أصبح عليها أن تـأتي بصـيغة لما أراد المجلس، في ضوء المباحثات. ورفع الجلسـة الـى مساء اليوم ذاته.

وقبل انعقاد الجلسة المسائية وضـعت صـيغة القـرار وهذا نصه:

"أن مجلـس النـواب السـوري، بعـد اطلاعـه علـى الـبلاغ والاتفاق المتعلـق بتماثـل الاهـداف البريطانيـة والفرنسـية فـي الشـرق الاوسـط، ومنهـاج الجـلاء، وبـلاغ الحكومـة السورية، وبعد الاستماع لبيـان دولـة رئـيس الـوزراء ووزيـر الخارجيـة، وتقريـر لجنـة الشـؤون الخارجيـة، وملاحظـات السادة النواب، يقرر ما يلي:

أولا: علـى الحكومـة أن ترفـع احتجاجـا الـى منظمـة الأمـم المتحدة علـى هـذا الاتفـاق وعلـى بقـاء بعـض القـوى الأجنبية وطلب التوسط بإجلائها العاجل التام.

ثانيا: على الحكومة أن تدعو مجلس الجامعة العربية بوجـه السـرعة للاجتمـاع لينظـر فـي هـذا الاتفـاق الـذي لا يقتصـر علـى سـوريا ولبنـان بـل يشـمل كافـة الـبلاد

العربية، ليتخذ التدابير التي تؤدي الى تنفيذ قراره المتعلق بجلاء الجيوش الأجنبية عن سوريا ولبنان.

ثالثا: على الحكومة ان تتخذ جميع التدابير اللازمة لمجابهة كل حالة من شأنها أن تمس سيادة البلاد واستقلالها.

دمشق في 31 كانون الأول 1945

مقرر اللجنة رئيس لجنة الشؤون الخارجية

أكرم الحوراني خالد العظم

وقد وافق مجلس النواب على صيغة هذا القرار بالاجماع

22

1946: محاولة اغتيالي في قاعة مجلس النواب- المظاهرات تعم دمشق وحماه- حادثة اغتيال الشيخ طراد الملحم ومحاولة استغلالها.

مؤامرة لاغتيالي بسلاح العشائر

في مطلع سنة 1946 افتتح المجلس النيابي دورته الاستثنائية السابعة لدرس الموازنة. وفي جلسة 1946/1/10 قدمت الحكومة جوابها على اقتراحاتي السابقة:

"جوابا على طلب نائب حماه السيد أكرم الحوراني بشأن الوفر الحاصل من إلغاء مصلحة العشائر وتسريح جنودها وموظفيها المدنيين. ومن الوفر الحاصل من اعتمادات الجيش بعد تطبيق الخدمة الاجبارية، ومن الوفر الذين ينتج عن توحيد قوى الدرك والشرطة، وتخصيص هذا الوفر لوزارة الاقتصاد الوطني والاشغال العامة والمعارف والصحة. ان طلب حضرة النائب الموما إليه سابق لأوانه لأن مصلحة العشائر لم تلغ بعد. واعتمادات الجيش لا تزال على حالها لأن مبدأ الخدمة الاجبارية لم يتقرر، أما ما أمكن توفيره من تخفيض قوى الدرك والشرطة فقد وزع بطبيعة الحال على سائر مواد الموازنة بحسب مقتضيات المصلحة العامة التي كثرت على أثر استلام الجيش ودمتم. وزير المالية 1941/1/3".

مع أن الحكومة كانت قد أرسلت في السابق جوابها على هذا الاقتراح ولم يعد الأمر من اختصاصها بل من اختصاص لجان المجلس. ولكنها عمدت إلى تكرار جوابها مما فتح مناسبة لإثارة نواب العشائر.

قال جمال علي أديب نائب جبله :

إن "لجنة الدفاع الوطني قد أرسلت تقريرها بالموافقة على الاقتراحات إلى مكتب المجلس وطلبت من الحكومة أن تهيء القوانين اللازمة ليجري تنفيذها في السنة القادمة". كما قال هاني السباعي "إن اقتراح الزميل السيد أكرم الحوراني موجود الآن لدى لجنة الموازنة وقد بحثته أثناء درس موازنة العشائر كما بحثته عند درس موازنة الدفاع الوطني. ولجنة الموازنة

ستتقدم برأيها في هاتين الناحيتين معا. وعندئذ يثار بحث قضية إلغاء مصلحة العشائر وقضية الخدمة الاجبارية وأعتقد أنه عندما يوافق المجلس على قرار اللجنة يجب على الحكومة أن تهيء المشاريع لذلك".

فعلقت قائلا:

إنني أطالب بإقرار الاقتراحات التي تقدمت بها. والوزارة أعطت جوابها في إحدى الجلسات الماضية رافضة إلغاء مصلحة العشائر وقد جرى نقاش طويل حول الموضوع آنذاك. وفي هذه الجلسة تبعث الحكومة بجوابها على قضية الخدمة الاجبارية وهو كما سمعتموه. أما من جهتي فإنني مصر على اقرار الاقتراحين. ولكن بما أن الموضوع الآن متعلق بقضية الخدمة الاجبارية وقد أقرته لجنة الدفاع الوطني فإنني أقترح تلاوته في المجلس. وعندما يعطي المجلس قراره في موضوع الخدمة الاجبارية تضطر الحكومة ولجنة الموازنة آنذاك أن تتمشى حسب قرار المجلس واتجاهه".

وبالرغم من إنني أردت أن يقتصر البحث على موضوع الخدمة الاجبارية، في معزل عن الاقتراح الثاني المتعلق بإلغاء مصلحة العشائر، فإن الشيخ طراد الملحم، بالاتفاق مع رئيس الحكومة، اتخذ ذلك مناسبة للاعتداء علي فقال:

"أنا اتكلم بلسان جميع العشائر فهم لا يقبلون إلا بأحد أمرين: اما أن تكون لهم دائرة معروفة حددها الدستور وإما أن تلغى جميع القوانين المتعلقة بهم وتطبق عليهم القوانين الحالية **وعند ذلك يرفع رؤساء العشائر المسؤولية عن أنفسهم".** وفي كلامه ما فيه من تهديد.

فأجبته قائلا:

أنا ما أردت إثارة هذا الموضوع ولكن الزميل أراد ذلك وحشره في هذه الجلسة حشرا. فجواب الوزارة على اقتراحي وما دار في الجلسات الماضية كان كافيا. ولكنني أعود وأقول إنني مصر على رأيي هذا حتى النهاية. ومؤمن بأن هذا الاقتراح موافق لنص الدستور وإذا كان الزميل يتكلم باسم العشائر فيحق له، كما يحق لي أن أتكلم باسم الأمة، لأنني عندما أبحث هذا الموضوع لا أبحثه باسم حماه أو باسم العشائر ولكن باسم الأمة وأنا ما أردت من إلغاء مصلحة العشائر ان أخالف الدستور، لأنني بينت في اقتراحي أن بإمكان الجيش توطيد الأمن في البادية. وإن قرارات المفوض السامي أوجدت

بلبلة عظيمة. وان الاعتمادات البالغة 4 ملايين ليره سوريه التي تنفق على مصلحة العشائر يمكن أن تعتبر وفرا في الموازنة، أما ما يختص بالشق الثاني وهو التشريع فأنا أصر على ما ذكرته في الجلسات السابقة، وأعلن بأن القرارات التي اصدرها المفوض السامي لم تكن الا طعنة في صميم القضية الوطنية. وأن فرنسا بتشريعها لم تستهدف سوى تطبيق سياسة استعمارية معينة.

وأنا عندما أطلب إلغاء هذه القرارات وإعادة النظر بأمرها لا أكون قد تعرضت لإخواني نواب العشائر بأي سوء. وكما هم حريصون على مصلحة أفراد العشائر فأنا حريص مثلهم لأنهم من أفراد هذه الأمة وأرجو من اخواني أن لا يثيروا العصبيات وانما يجب أن نبحث الموضوع بكل حرية لنصل إلى ما نريد تحقيقه بما يتلاءم مع المصلحة العامة دون الالتفات إلى شيء آخر.

وهكذا يبدو من كلمتي المتزنة أنني حرصت فيها على أن لا أستثير نواب العشائر. ولكن الشيخ طراد الملحم أجاب:

"لقد تكلم حضرة الأخ وقال إنني حشرت هذه القضية حشرا، وأراد أن يدافع عن نظريته. وكنت أظن أن حضرة الزميل عندما يجد أن رأيه خطأ يقول: الرجوع إلى الحق ولا التمادي في الباطل. ولكنه الآن أراد أن يصر على رأيه وإن كان خطأ. ثم أردف وقال أن المفوض الافرنسي أوجد هذه القرارات التي ليست الا ضربة في صميم الأمة. وهو يريد أن يلبس العشائر أنهم يدافعون عن قرارات المفوض الافرنسي. وحاشا يا حضرة الأخ أن يدافع أفراد العشائر عن قرار المفوض الافرنسي. ولكن هذا القرار تدافع أنت عنه في المحاكم عندما يوكلك أحد الناس، وهذه القرارات موجودة في صميم القانون. ونحن لا ندافع عن قرار المفوض الافرنسي انما ندافع عن قانون خلفه آباؤنا وأجدادنا. وإننا لنفتخر بأننا ندافع عن هذا القانون الذي هو عربي كما أنك عربي. وقد يمكن أن يكون آصل من كل فرد يقول أنه عربي من أصله حتى قبل الاسلام. وأرى أنك تلاحق مسألة العشائر كأن العشائر أعداء لك وأرجوك أن تتجنب هذه القضايا. ونحن لا ندافع عن قرار المفوض الافرنسي. وأطلب من نواب العشائر أن يحاكمونني على هذا الكلام".

□

عندما انتهى طراد الملحم من القاء كلمته ظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد. ولم يدر بخلدي أن يهب جميع شيوخ العشائر دفعة واحدة .. وكان عددهم يتجاوز الخمسة عشر نائبا- فيهجموا علي مصوبين مسدساتهم نحوي. فلم أتزحزح من مقعدي، وبمنتهى الاستخفاف أفلتت من فمي كلمة لا أحب تسجيلها في هذه المذكرات، فقام النواب يحولون بينهم وبيني، كما هب الزائرون في شرفات المجلس. وحاول بعضهم الدخول الى القاعة للدفاع عني ولكن الشرطة منعتهم، وقد أثار ثباتي وبرود أعصابي وموقفي المتحدي اللامبالي إعجاب النواب والزوار على حد سواء، وعندما حاول الحاضرون إخراجي من قاعة المجلس حماية لي امتنعت عن الخروج إلا بعد أن يخرج منها جميع هؤلاء الأعراب.

بعد قليل جمعني النواب مع نواب العشائر للمصالحة وانتهى الأمر بتقبيل اللحى ... فاستأنف فارس الخوري الجلسة وتابع المجلس أعماله كأن شيئا لم يكن.

وإذا كانت القضية قد انتهت داخل البرلمان عند هذا الحد. فإنها خارج البرلمان انتشرت بسرعة البرق وألهبت مشاعر الشعب وأثارت الطلاب الذين خرجوا بشكل عفوي بمظاهرات صاخبة محتجة تطوف شوارع دمشق وتقف أمام البرلمان وتقصد القصر الجمهوري شاجبة موقف الحكومة، منددة بنواب العشائر. فنشرت هذه المظاهرات في دمشق جوا حماسيا لاهبا ضد الحكومة ونواب العشائر. فاضطر هؤلاء لأن يجتمعوا ويقوموا بزيارة لمكتب الكتلة الدستورية حيث قدموا لي اعتذارهم. كما اضطر سعدالله الجابري أن يعلن استياءه من الحادث "الذي وقع لأول مرة في تاريخ حياتنا البرلمانية" وأدعى أمام الصحفيين بأنه "اجتمع إلى نواب العشائر وأبلغهم استياءه. كما طلب إلى رئيس المجلس النيابي أن يطبق النظام الداخلي فلا يسمح بدخول أي كان إلى المجلس مسلحا"... هذا بالوقت الذي أمرت به الحكومة قوات الدرك المصفحة في حمص أن تتجه إلى حماه التي أضربت مع دمشق اضرابا عاما شاملا. فقد "قامت منذ الصباح مظاهرات

الطلاب رافعة الأعلام التي كتب علـى **أحـدها (الطـلاب يؤيـدون الوحـدة التشـريعية والسياسـية لأجـزاء الـوطن السـوري، ويسـتنكرون ....)**. ومـا أن انتهـت مظـاهرة الطـلاب الـذين رفعـوا احتجاجهم إلى المحافظ إلا وتبعتها مظاهرة تضم الآلاف من جميـع أحيـاء المدينـة. وقـد رفعـت لوحـات كبيـرة تحمـل عبـارات التأييـد وتتعرض لحادث البرلمان بالشجب والاسـتهجان.. وهكـذا اجتمعـت المدينة فـي سـاحة العاصـي طالبـة مـن المحـافظ رفـع احتجاجهـا واسـتنكارها إلـى المراجـع المسـؤولة. كمـا أرسـل الشـعب مئـات البرقيـات إلـى الحكومـة والمجلـس احتجاجـا علـى هـذه المـؤامرة الدنيئة وفي الوقت ذاته توجهـت إلـى دمشـق عشـرات السـيارات الصغيرة والكبيرة تحمل المئات من أبناء حماه المسلحين، ممـا زاد جو العاصـمة التهابـا. وقـد زار هـؤلاء المسـلحون بيتـي ثـم توجهـوا بسياراتهم الى مقر نادي النواب الدستوريين.

ورغم سيف التعطيل الاداري المشهر فـوق رؤوس الصـحافة فإنها علقت قائلة:

"كان للحادث المؤسف الذي وقع فـي المجلـس النيـابي بـين الاسـتاذ أكرم الحوراني من جهة والسيد طراد الملحم وبعض نـواب العشـائر مـن جهـة ثانية صدى أسف عميق في جميـع الأوسـاط التـي أكثـرت مـن الحـديث عنـه والتعليق عليه طوال اليومين الماضيين. وكـان الـرأي السـائد هـو ان المجلـس النيابي ندوة ان لم تضمن حرية الفكر ويسمح فيهـا للسـادة النـواب أن يعبـروا بحرية عما يدور في نفوسـهم من معتقدات وآراء، لم يكن هنالك معنى لقيـام الحياة النيابية التي كانت الـبلاد تطالـب بقيامهـا منـذ فجـر نهضـتها الأول. وإذا كانت اعتبارات جمـة تحملنـا علـى ان نسـكت عـن روايـة أقاويـل كثيـرة كانـت تلوكها الألسـن في تفسـير هذا الحادث المؤسـف إلا أننا لا نسـتطيع إلا أن نذكر بأن الاسـتاذ أكرم الحوراني معـروف بـين جميـع زملائـه بأنـه ينضـح عـن إيمـان عميق بما يقوله في البرلمان. وهـو لـم يعتـد أن يـدلي بـرأي الا بعـد تمحـيص ودراسـة فيهمـا الجهـد الكثيـر. وممـا زاد الأسـف فـي النفـوس كـون الاسـتاذ الحوراني عرف منذ أن دخل جلسـة الحياة البرلمانية بشـدة تحمسـه لتحضـير العشائر وتخليصها من الحياة الضنكة التي تحياها، كما عرف إلـى جانـب ذلـك

باختياره لألفاظه التي مهما قيل في وصفها فلا يمكن أن يقال بأنها تجرح كرامة زميل او تمس شعور نائب أو وزير". النصر: 1946/1/13.

اغتيال الشيخ طراد الملحم:

لم استفق في اليوم الثالث لحادث البرلمان: إلا متأخرا جدا، نظرا لانهماكي في اليوم السابق بالاجتماعات والزيارات والمظاهرات... ولم أكد أفرغ من تناول القهوة إلا وفاجأني بعض أبناء حي زقاق الصخر بأن طراد الملحم قد اغتيل الآن عند خروجه من فندق أمية بساحة المرجة- الساعة 11.30 ظهرا- فلم أصدق الخبر فأكدوه لي وطلبوا إلي مغادرة المنزل فورا. وقالوا إنهم شاهدوا عددا من البدو المسلحين يخرجون من دار أمير عشيرة الرولة نوري الشعلان القريبة من منزلي حاملين الرشاشات والقنابل والبنادق. وأنهم اتجهوا إلى مديرية الشرطة. وألحوا علي بمغادرة المنزل فرفضت. ولما يئسوا من اقناعي ذهبوا ليجمعوا الحمويين للقيام بحراستي. ولم يمر وقت طويل حتى هرع الشباب باسلحتهم إلى بيتي وأخذوا أهبتهم واستعدوا للمقاومة والدفاع.

ولم يمض إلا بعض الوقت حتى اتى من أخبرنا بأن السلطة قد ألقت القبض على القاتل الذي اعترف بجريمته العلنية. وأنه لم يعد هنالك أي داع للقلق. خصوصا وأن عارف النكدي مدير الأمن العام قد أصدر البلاغ التالي:

"اعتدى شخصان من عشيرة النعيم هما أحمد بن عزو المحمد وشلاش العزو على الشيخ طراد الملحم رئيس الحسنة بأن أطلقا عليه الرصاص في ساحة المرجة لخلاف عشائري. وقد قبض على المعتدين فورا. إننا نحذر الأهلين عامة من أن كل تجمع أو مظاهرة تقمع بالقوة ولا يمكن أن تتساهل الحكومة بأية حركة من شأنها الاخلال بالأمن العام. إن حمل السلاح ممنوع بالكلية سواء كان مرخصا أو بدون ترخيص ويصادر من حامله وتجري بحقه التدابير القانونية".

ولكن المسلحين الحمويين لم يقتنعوا بمغادرة المنزل وظلوا متمترسين في مواقعهم. وكنت راضيا عن تشبثهم وبقائهم. وقد سهروا حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة. وكانت لهم تحسبات أتت أقوال الصحف مصداقا لها في اليوم التالي. فقد ذكرت "النصر" أن نبأ اغتيال الشيخ طراد "انتشر في المدينة بسرعة البرق، وتبادر إلى الكثيرين أن لاغتياله علاقة بحادث البرلمان. مما أثار الذعر في مختلف أنحاء المدينة فأغلقت بعض المتاجر أبوابها خشية تطور الحادث ... وحين وصل النبأ إلى أسماع شيوخ العشائر وأمرائها وبعض أفرادها بدمشق انطلقوا بأسلحتهم نحو مديرية الشرطة، هائجين مائجين، يخرج الشرر من عيونهم. فكان موقف رجال الشرطة صعبا، لولا أنقذ الموقف الدكتور عبدالكريم العائدي الذي أدرك ما يدور في خواطرهم من ظنون فابتدرهم بقوله: أحمدوا الله، لقد اعترف القاتلان، وهما من عشيرة النعيم، وليس للحمويين علاقة بالحادث ... وقد أبدى دولة رئيس الوزراء اهتماما بالغا بالأمر. فزار بنفسه مديرية الشرطة ودخل إلى غرفة التحري حيث كان أحد القتلة يستجوب، وأشرف بنفسه على سير التحقيق، ولما شهد ثورة رجال القبائل اصطحب معه الأمير فاعور الفاعور ليريه بأم عينه أن القاتل من عرب النعيم وليس حمويا كما كانوا يظنون"...

على أن أهم ما يلفت النظر في أنباء الصحف عن هذه الحادثة أن أحد القاتلين كان مصابا بطلقة نارية، وفيما كان ينقل بسيارة الاسعاف قامت محاولة لاغتياله قبل إدلائه باعترافه ...

لماذا اغتيل الشيخ طراد الملحم؟

يقطن في حينا بحماه الشيخ عبدالجليل الحياري، وهو من عشيرة النعيم. وكنت أيام الطفولة والصبا أزورهم في بيتهم لأحضر حلقات الذكر التي كان يعقدها والده. وهو شيخ متدين ذو لفة خضراء كبيرة وجثة ضخمة. وكان الذاكرون يرددون معه "أحمد يا رفاعي يا بو العلمين. قاعد عالحصير يعلم شو بصير"... وبوجه عام كانت سمعة عرب النعيم بين العشائر سمعة تدين وتقوى وكان هناك نزاع قديم بين عشيرة النعيم وعشيرة الحسنة التي

تتزعمها أسرة الملحم، حول ملكية بعض القرى الواقعة شرقي حمص. وكانت الحسنة على صغرها معروفة بشدة البأس... وقد ذكرنا شيئا عن محمد الملحم -جد طراد- وعصيانه على الحكومة العثمانية والحكم عليه شنقا في الأستانة.

وبعد العدوان الفرنسي في عام 1945 تجدد الاقتتال بين العشيرتين، فساعد سعدالله الجابري الشيخ طراد بأن جرد من أجله حملة كبيرة على عشيرة النعيم اعتقلت عددا كبيرا منهم ونكلت بهم وجمعت كل ما لديهم من أسلحة ونهبت بعض مواشيهم.. ومن هنا يستبين الثمن الذي أراد الشيخ طراد أن يرد به الجميل للجابري.

وقبيل حادث البرلمان بأيام اجتمع بي الشيخ عبدالجليل الحياري في مقهى الهافانا بدمشق على انفراد وأخبرني بأنهم مستعدون لاغتيال الشيخ طراد الملحم. ونظرا لما بيننا من أواصر المودة، فإن العشيرة فوضته أن يبحث معي هذا الأمر. فزجرته زجرا شديدا. وأوصيته أن يبلغ شيوخ النعيم بأن لا يقدموا على هذا الأمر الذي يعرضهم لأفدح الأضرار وأشد المهالك. أما من جهتي في المجلس النيابي فإنني كفيل بالشيخ طراد ونواب العشائر الذين يتزعمهم. وإنني لست بحاجة للاشتراك بهذه الجريمة الشنعاء التي أرفضها رفضا قاطعا... فانصرف الشيخ عبدالجليل خجلا نادما من مفاتحتي بهذا الموضوع، وقد كنت مقتنعا بأن النعيم لن يقدموا على هذا الأمر، ولذلك لم أهتم بالموضوع ولم أشعر بقلق.

وعندما بلغني نبأ اغتيال طراد الملحم انصرف ذهني فورا إلى حديث الشيخ عبدالجليل الحياري. ولكن ذلك ظل سرا في نفسي منذ تلك الأيام حتى كتابة هذه المذكرات.

ذهبت مع وفد من النواب إلى حمص لتشييع جنازة الشيخ طراد، وقد أبنه بعد الدفن نائب دمشق سعيد الغزي فلم يتعد الحقيقة عندما قال عنه: الخطيب المفوه، الفصيح، الشجاع، الذكي، لأنها كانت صفات الشيخ طراد الحقيقية. فهو ابن أو حفيد

-لا أدري- الشيخ محمد الملحم الذي ظل الناس بدوا وحضرا أكثر من نصف قرن يغنون على لحن الرباب ملحمته التي ارتجلها أمام حبل المشنقة وكنت أتحسر في نفسي على هدر هذه الطاقات والقدرات في شعبنا.

نتائج حادث البرلمان واغتيال طراد الملحم :

لا يزال الكثيرون يستغربون كيف انني نجوت من القتل - خلال حياتي السياسية العاصفة- على يد الاقطاعية والعشائرية المهيمنة على البلاد والتي كان دوري كبيرا جدا في تهديم أركانها والقضاء على استغلالها ونفوذها وسلطانها ولا شك أن وقفتي الجريئة المستمدة من ايماني بما أقول تجاه مؤامرة شيوخ العشائر في البرلمان الذين كانوا يشكلون أشرس وأعتى قوة اقطاعية قبلية كان أحد هذه الأسباب.

وقد روى أحد شباب عائلة الأيوبي، وهم من أعرق عائلات دمشق في الوجاهة ومن الذين تجمعهم بالقوتلي والجابري أقوى الأواصر، وكان حاضرا بين الزوار جلسة البرلمان: انني كنت أحمل كرها وحقدا لا مزيد عليهما لأكرم الحوراني. ولكن لم يسعني عندما كان الزوار يصيحون بشرفة القاعة ويشتمون نواب العشائر إلا أن أشاركهم. وقد حاولت أن أنزل معهم إلى قاعة البرلمان لنساعد أكرم الحوراني ضد نواب العشائر فمنعتنا شرطة المجلس من الدخول. وكانت قلوبنا واجفة من سماع طلقات الرصاص التي لم تنطلق بمعجزة.. إنني آمنت بشجاعة واخلاص هذا الرجل. إذن انهزم الهجوم القبلي السلطوي بالشكل الذي رويته. وكان هذا ما تملكه الاقطاعية والقبلية والسلطة من سلاح ضد قادة الحركة الشعبية التقدمية. وقد أرهبت تلك المظاهرات والاضرابات التي عمت البلاد بالشكل الذي تحدثت عنه الطبقة الحاكمة. ثم تبع ذلك اغتيال الشيخ طراد في رابعة النهار، مما ترك أثرا عميقا بعيدا في نفوس الحاكمين والنواب وأبناء الشعب عموما. وهذا ما كان زاجرا قويا لكتلة نواب العشائر لأن تقف عند حدها في جميع العهود البرلمانية. فلم يخرجوا عن حلقة التهديد الفارغ حتى عندما استولى الاصلاح الزراعي على اقطاعياتهم الواسعة.

عقابيل حادثة اغتيال طراد الملحم ومحاولة استغلالها:

أصبح للضابط البريطاني الميجر داردن شأن كبير ونفوذ واسع ونشاط في البلاد، ولا سيما في أوساط العشائر. وقد سهل اتصالاته وتعاظم نفوذه تغاضي السلطات السورية عنه بحجة أنه كان بجانب أهالي حماه إبان العدوان الفرنسي، ولا زلت أذكر مأدبة الغداء التي أقامها محافظ حماه لنواب المدينة إثر العدوان والتي كان مدعوا إليها هذا الضابط باعتباره صديقا للبلاد.

لقد استغل داردن وأمثاله من ضباط المخابرات سمعة بريطانيا الطيبة بعد أن أصدر تشرشل أمره بوقف اطلاق النار إبان العدوان الفرنسي، ولذلك لم ير النائب غالب العظم أمرا مستهجنا أن يقول لداردن على المائدة :

- إننا نحن نواب حماه نؤيد مشروع سوريا الكبرى ما عدا الاستاذ أكرم الذي يناهض هذا المشروع.

فأجاب داردن : إنني صديق لسوريا وإنني لا أتدخل بشؤونكم الداخلية.

فقلت له: إن عدم تدخلكم بشؤوننا هو الموقف الصحيح الذي يكتب للصداقة العربية البريطانية أن تدوم.

ضاعف الانكليز وعملاؤهم من النشاط، بعد العدوان، ليحل نفوذهم محل النفوذ الفرنسي، وتوسلوا لذلك بشتى الذرائع. كما شرعوا بحبك المؤامرات بعد أن بدأ الشعب يطالب بجلاء الجيشين الأجنبيين عن البلاد وعرض الشكوى السورية على مجلس الأمن، فبدأت أجهزة المخابرات البريطانية الخفية تعمل على إثارة الفتن والاضطرابات. وقد كان اغتيال طراد الملحم إحدى هذه المناسبات.

فبالرغم من انكشاف القضية والقاء السلطات القبض على القاتل حاول ضباط المخابرات البريطانيون إثارة شيوخ العشائر. فملأت الأنباء والإشاعات أجواء البلاد عن تجمعات العشائر في البادية ومؤتمرات شيوخها مع ضباط المخابرات، كالميجر هيد والميجر داردن. وفي 1946/2/8 ذكرت الصحف: "تفيد أنباء البادية

أن رؤساء عشائر سوريا والعراق وشرقي الأردن يعقدون مؤتمرا عشائريا كبيرا في مكان يدعى وادي الهيل في الصحراء الجنوبية، على الحدود العراقية الأردنية، ويقال أن عددا من كبار الضباط البريطانيين وعلى رأسهم كلوب باشا قائد الجيش العربي يحضرون هذا المؤتمر".

وكانت الحكومة السورية تتجاهل هذه الأنباء وتكذبها أحيانا.

الحكمة في معالجة الفتنة المبيتة:

أوعز ضباط المخابرات الانكليز لعميلهم النائب سعود الفواز، رئيس إحدى العشائر الضاربة بين اللجاة والأردن، أن يقف في جلسة 12 شباط 1946 بدون مناسبة، وقفة المريب الذي يكاد يقول: خذوني، فيقول:

- أريد أن أسأل الحكومة عن المدى الذي وصل إليه التحقيق بمقتل المرحوم الشيخ طراد الملحم. وأريد أن أبين في هذه المناسبة أن العشائر ليسوا إلا من أبناء هذا الوطن ومن الوطنيين المخلصين. وليسوا كما يتوهم البعض أنهم ضد هذا الوطن أو عثرة في سبيل استقلاله. ولا يخفى أن مقتل الشيخ طراد، سواء كان من قبل عرب النعيم أو من قبل غيرهم فإن التحقيق سيبين النتائج التي يتوصل إليها.

كان تقدير من دفعوه لهذا الكلام أن أرد عليه، مما يذكي نار الحقد ويوجه الاتهام لي في أوساط العشائر. ولكنني لم أرد عليه بكلمة، بالرغم مما في أقواله من تعريض ظاهر.

فقال رئيس الوزراء سعدالله الجابري:

- ليس هناك من يقول هذا القول عن العشائر. لأن العشائر ورؤساءهم لا يعملون إلا في سبيل هذا الوطن والاستقلال. والتحقيق لا شك آخذ مجراه الطبيعي.

فعاد سعود الفواز إلى القول مرة أخرى بدون مناسبة:

- إن العشائر لا يقصدون عرب النعيم الذين يقال بأنهم قتلوا الشيخ طراد الملحم، وهم لم يقتلوه، إن قتله كان لأهداف أخرى.

ولم يخطر ببالي، بعد أن وصلت الأمور إلى تلك الحدود، أن ينهض الجابري مرة أخرى ليجيب الشيخ سعود الفواز بمثل هذه الإجابة المائعة الغامضة حول قضية طراد الملحم :

- ليعذرني حضرة النائب ان لا أتدخل في قضية التحقيق العدلي الذي يجري بحياد وعناية واهتمام. أما موضوع العشائر فهو غير موضوع مقتل الشيخ طراد الذي يجري التحقيق به في دوائر القضاء. والأمر الثاني الذي سئل فيه عن تجمعات العشائر في الصحراء فليس هناك تجمعات ولا اجتماعات بل أن بعض الشيوخ اجتمعوا وليس معهم عشائر أو شيء من هذا. **وأنا ذهبت وزرت بعض الأماكن ولكن لم أذهب لهذه الغاية ولم أر شيئا.** أما ذهاب الجند وتجوله فهذا ليس في هذا اليوم فقط الذي تخرج فيه القوى (يقصد الجيش) وتجوب الصحراء بل هي تخرج للتمرينات والتدريبات أو لحوادث التهريب أو غير ذلك".

قطع مدير الشرطة والأمن العام عارف النكدي، منذ إلقاء القبض على القاتل، الطريق على أية ظلال من الشكوك أو الاتهام بالنسبة إلي عندما أصدر منذ البداية بلاغا فوريا كشف فيه عن اسم القاتل وملابسات الحادث. ولذلك كان موقفي الذي اتخذته بامتناعي عن البحث بهذا الموضوع موقفا حكيما. يضاف إلى ذلك موقف الجيش الذي كان بنشأته وثقافته مناهضا للنفوذ البريطاني بشكل طبيعي. وكانت مخابرات الجيش، رغم حداثة تشكيلها، على اطلاع بما يبيته ضباط المخابرات البريطانيون من مؤامرات. فقامت قطعات من الجيش بمناورات في البادية أرعبت رؤساء العشائر. كما أن محاكمة القاتل "شلاش" وضعت حدا لكل تآمر واستغلال وأزالت أي التباس في هذه القضية.

لقد كان مقتل طراد الملحم جرما مشهودا انتهى التحقيق فيه بسرعة زائدة. ولذلك جرت المحاكمة بعد فترة قصيرة، تلك المحاكمة التي كشفت أسباب الجريمة وأدانت أدبيا وسياسيا المقتول طراد الملحم ورئيس الحكومة الذي ساعده على الظلم والعدوان. ولخصت الصحف وقائع المحاكمة العلنية واعتراف القاتل بالجريمة، وقالت: " ولكنه انكر العمد والتصميم فصور الحادث على أنه (فورة دم) وعزا اسبابه إلى الشيخ طراد الذي اغتصب من

عشيرة النعيم قرية كانت تتخذها مرعى لها، واستفاد من نفوذه عند الحكومة، فأجلت الحكومة بسياراتها عشيرة النعيم لا عن القرية المتنازع عليها وإنما عن قراهم العشر الأخرى، فكان من ذلك أن حل البؤس بهذه العشيرة بعد أن كانت مكتفية، وعشعش البوم في مضاربها بعد أن كانت أغنام حمص في مراعيها، واضطر هو بنفسه مع رفيقه أحمد عز الدين أن يذهب إلى حمص ليبيع بندقيته وينفق ثمنها على اخوته المرضى المعوزين وليذهب إلى أبناء عمومته (النعيم) الضاربة بحوران ليستعطي (اي للشحاذه) فلما رأى طراد لم يسعه إلا أن يستل مسدسه ويقتله".

وقد شهد الحاج مراد أحد تجار حمص :

"ان شلاش ورفيقه جاءا إليه في متجره بحمص وعرضا عليه بندقية شلاش لشرائها وانه سمع شلاش يقول:

إذا لم تنصفنا الحكومة وتعيد إلينا قرانا فإنني سأسطوا على طراد الملحم".

23

1946: بعد استلام الجيش قضية جلاء القوات الاجنبية عن سورية - سورية ترفع القضية الى مجلس الامن - الاتحاد السوفيتي يستعمل حق الفيتو - اصداء الجلاء عن سورية في البلاد العربية - بطل الجلاء.

هل تتكرر غزوة ميسلون؟

اذا كانت سنة 1945 قد انتهت في جو شعبي متأزم بالاضرابات والمظاهرات ضد اتفاقية بيفن بيدو، والمناقشات والمعارك التي جرت بشأنها في المجلس النيابي، فان سنة 1946 بدأت بأنباء تزيد من اضطرام المشاعر الوطنية واثارة التخوف من تكرار غزوة ميسلون، فقد قالت الصحف "ان الباخرة ساجيتير انزلت بميناء بيروت 120 فرنسيا كلهم من الطيارين الذين نقلوا الى رياق حيث كانت توجد قاعدة جوية فرنسية وعندما كان اركان الحكومة اللبنانية يدلون بتصريحاتهم في مجلس النواب مساء اليوم نفسه عن الأوامر التي أصدروها لمنع نزولهم بالقوة كان هؤلاء الطيارون في الاماكن المعدة لهم في رياق منذ اكثر من خمس ساعات ولم يكن هؤلاء الطيارون هم كل من أنزلتهم هذه الباخرة بل قيل ان هناك عددا من اللبنانيين قد اعيدوا الى بلادهم بعد ان انتهت مدة تعاقدهم مع الجيش الفرنسي كما انزلت هذه الباخرة على الشاطىء اللبناني معدات وذخائر حربية".

فبدأت حماة اضرابها الشامل ومظاهراتها الصاخبة منذ صباح 1946/1/3 وارسلت المدينة مئات البرقيات: "الشباب في حماة يرون في نزول جنود فرنسيين بادرة لعدوان جديد، حماة المضربة المتظاهرة الصاخبة مستعدة للجهاد من جديد".. وسرعان ما عم الاضراب سورية ولبنان وخرجت جماهير الشعب الغاضبة بمظاهرات صاخبة في كافة المدن السورية، "وقد القيت المتفجرات على مراكز الفرنسيين في مدينة حلب وعلى دار المندوبية فيها. كما حاول الشعب اعتراض سيارة المندوب فوكنو

عنـد مرورهـا فـي الشـارع فأصـيبت سـيارته بالرصـاص، فأقـام الفرنسيون الاستحكامات في حي الجميلية بجانب القشلة وبـدأوا يتحروشون بالمارة. كما اثار القلق ان طـائرة فرنسـية تحمـل اربعـة ضباط فرنسيين من رتب عالية نزلت في مطار النيرب بحلب ونقلـوا بحراسـة الجنود البريطانيين الى مواقعهم".

وكان الجابري في ذلك اليوم يعلن اسـتقالة نعـيم الانطـاكي (من حلب) وزير الماليـة مـن الحكومـة دون ان يـذكر السـبب، كمـا اعلن للصحفيين " بأن الحكومة تلقت خبرا سريا خاصا بأن الجنـرال اوليفـا روجيـه (سـفاح دمشـق) جـاء الـى مطـار المـزة فاتخـذت الحكومة حالا التدابير الآيلة الى اخراجه، وكان من نتيجتها ان رجـع روجيه من حيث اتـى علـى الطـائرة نفسـها، وقـد اتخـذت التـدابير لمنع جميع الطائرات الفرنسية من المجىء الى بلادنا".

وفي الوقت نفسـه بـدأ الجـيش السـوري بممارسـة مهامـه الوطنية، فقام بتركيـز اسـتحكاماته علـى طـول السـاحل السـوري ووقف على أهبة الاستعداد لصد أي محاولـة نـزول فرنسـية علـى الشواطىء السورية.

قضية جلاء القوات الاجنبية عن سوريا

كان مـن ثمـرات الاضـراب والمظـاهرات الشـعبية قـرار لجنـة الشؤون الخارجية الذي وافق عليه المجلـس النيـابي والـذي صـدر في آخر يوم من سـنة 1945، القاضـي برفـع الشـكوى الـى هيئـة الامم المتحدة والمطالبة بجلاء القوات الاجنبية عن البلاد.

ومن حسـن الطالع ان يتوافق صـدور ذلـك القـرار مـع ارسـال جميع الدول المشتركة في الحرب وفودها الى لندن لحضور مـؤتمر الجمعية العموميـة لمنظمـة الأمـم المتحـدة، ولـم يكـن فـي جهـاز القوتلي سوى فارس الخوري من هو كفء لتـرؤس الوفـد السـوري الى هذا المؤتمر. فأصدرت الحكومة بلاغا فـي 1946/1/3 بتسـمية

أعضاء الوفد السوري من فارس الخوري رئيسا، ونجيب الأرمنازي وناظم القدسي وفريد زيد الدين مندوبين، وحسني باقي وعصام الانكليزي وناظم مرهج وحيدر الركابي سكرتيرين. قد حل محل فارس الخوري في رئاسة المجلس نائبه محمد العايش، وهو تاجر وملاك كبير في دير الزور.

قلت من حسن الحظ ان يتوافق قرار المجلس النيابي مع انعقاد الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة لأن طريق التأجيل والتنصل من عرض الشكوى على المنظمة الدولية أصبح مسدودا امام الحكومة السورية، لا سيما بعد سفر الوفد السوري مع الوفد اللبناني الذي كان يضم حميد فرنجية ورياض الصلح وكميل شمعون.

وكان من عوامل الاثارة والتشجيع استقالة حكومة الجنرال ديغول في فرنسا، وانتخاب مصر عضوا في مجلس الأمن الدولي، وقرب انعقاد مجلس جامعة الدول العربية برئاسة جميل مردم سفير سوريا في القاهرة، وتأزم الوضع بين الشعب في سوريا وبين مراكز الاحتلال الفرنسي لا سيما بعد انزال قوات فرنسية في لبنان.

كان مما أثار الدهشة والاستغراب ان الوفد السوري لم يرفع شكوى سوريا رسميا الى مجلس الامن، واكتفى فارس الخوري من عرض الشكوى بأن قال في الخطاب الذي ألقاه في الجمعية العمومية:

"هناك قضية خطيرة قد ظهرت بصورة غير منتظرة من جراء الاتفاق الذي تم بين بريطانيا العظمى وفرنسا في اليوم الثالث عشر من كانون الاول 1945، وفي اليوم الذي تعقد لجنة الامم المتحدة المؤقته جلساتها التحضيرية توطئة لانعقاد الجمعية العمومية الاولى لمنظمة الأمم المتحدة، حدث فعليا ان هاتين الدولتين المتمثلتين في المنظمة المذكورة قد عقدتا اتفاقا بينهما يتعلق بسوريا ولبنان الممثلين ايضا في المنظمة نفسها دون ان يطلب اليهما الاشتراك في الابحاث، ويبدو ان بريطانيا العظمى وفرنسا

ترغبان بأن تتخذا لنفسهما صفة الحراسة على سوريا ولبنان ... أما نحن فيصعب علينا ان ندرك معنى هذا الاتفاق ولا نرى وجها للتوفيق بينه وبين مبادىء الامن التي ينص عليها الميثاق. وبدلا من أن يضمن وجود هذه القوات الأجنبية استتباب الأمن في البلاد السورية او اللبنانية فان التجارب الماضية قد دلت بأن وجود قوات من هذا الطراز يؤدي للفوضى واضطراب حبل الأمن فيها... وليس هناك خطر خارجي يهدد جمهوريتنا لأنهما مرتبطتان ارتباطا وثيقا بالدول المحبة للسلام الممثلة بهيئة الأمم المتحدة، واذا هدد الخطر كيانهما بالرغم من ذلك يصبح لزاما على الحكومة السورية أن تعالج الحالة الطارئة وان ترفع شكواها الى هيئة الأمم المتحدة.

ومما زاد في الدهشة والاستغراب ان ثلاثة شكاوى قدمت من قبل دول المعسكر الاشتراكي تطلب فيها سحب القوات الاجنبية من ايران واليونان واندونيسيا.. هذا بالوقت الذي نقلت فيه وكالات الانباء العالمية ان في نية روسيا عرض طلب اخراج القوات الاجنبية من سوريا ولبنان. وقد علقت جريدة "النيوز كرونيكل" على هذا النبأ بقولها:"من المحتمل اذا ما تم ذلك ان يحدث موقفا غريبا بالنظر لما قاله مندوبا سوريا ولبنان في لجنة الامن من أن الدولتين تلفتان النظر الى القضية ولكنهما لا تريدان اثارة الموضوع الان في مجلس الأمن" 1946/1/24.

خشيت حكومة الجابري مغبة ردود الفعل التي أحدثها عدم عرض الشكوى السورية على هيئة الأمم المتحدة كما يقضي بذلك قرار المجلس النيابي، فانقسمت الصحافة السورية الى اتجاهين. فالصحف المعروف بأنها تنطق باسم (القصر) كصحيفة "البلد" لصاحبها سعيد التلاوي كانت تهاجم بعنف عرض الشكوى على مجلس الامن وتنعت قرار المجلس النيابي والذين سعوا لاصداره بشتى النعوت حتى الخيانة... بينما سارعت الصحف الأخرى المعروفة بعلاقتها برئيس الحكومة للقول بأن "الحكومة السورية ارسلت تعليمات محددة الى الوفد السوري برفع الشكوى غير ان دولة الأستاذ الخوري رأى ان يقتصر لفت أنظار

الجمعية العمومية الى هذا الموضوع لأن هذا كل ما يمكنه عمله 11 - 1946/1/21.

وكان يبدو للوهلة الأولى ان هناك اختلافا في وجهات النظر بين القوتلي والجابري حول هذا الموضوع فالجابري اراد ان يحمل فارس الخوري - كما هو المعتاد - مسؤولية عدم عرض الشكوى على هيئة الأمم لتكون له مخرجا عند اضطراره امام ضغط الشارع والبرلمان، بينما اتخذ القوتلي موقفا معاكسا، هذا بالوقت الذي وافقت فيه الحكومة اللبنانية على استقبال قوات فرنسية وقوات بريطانية من فلسطين بحجة تبديل الدولتين قواتهما العسكرية في لبنان.

كان النظام الداخلي للمجلس النيابي يمنع اثارة هذه المواضيع طالما كانت جلسات البرلمان تعقد لمناقشة الموازنة. وعندما قال رئيس المجلس: "والان ننتقل لمناقشة موازنة الخارجية" تصدى له رئيف الملقي متعرضا لقرار المجلس بضرورة جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد وعرض القضية على هيئة الأمم والجامعة العربية، واثار قضية الهجرة اليهودية الى فلسطين بمعدل 1500 يهودي كل شهر، ثم تبعه هاني السباعي قائلا:

"ان الوفدين السوري واللبناني في لندن حينما بحثا في أمر عرض قضية الجلاء على منظمة الأمم المتحدة وقفا امام صعوبة هي ان الحكومتين السورية واللبنانية لم تتقدما الى بريطانيا وفرنسا بمذكرة تطلبان فيها الجلاء، في حين ان المجلس كان قد طلب ذلك من الحكومة مرارا. فأرجو من الحكومة ان تعطينا ايضاحا عن ذلك".

فأجاب الجابري: "بعد الاتفاق البريطاني الفرنسي (اتفاق بيفن بيدو) والأبحاث التي جرت في المجلس وما انتهت اليه لجنة الشؤون الخارجية من قرارات كانت الحكومة أسرع من الجميع برفع هذه القرارات الى جامعة الدول العربية كي تعلمها بموقف سوريا حكومة ومجلسا وشعبا، وقد أرسلت هذه القرارات أيضا الى جميع الدول العربية، ومن جهة ثانية فقد صادف اجتماع منظمة الامم المتحدة. اثناء هذه الحوادث وقد سافر وفدنا مخولا بكل الحقوق

والصلاحيات التي يمكن لأي انسان وطني ان يعمل فيها، وعندما سأل رئيس الوفد الحكومة عما يمكنه ان يفعل أجبته تحريرا وشفاها بأن لكم مطلق الحرية كي ان تعملوا للدفاع عن قضيتنا تجاه الاتفاق البريطاني الفرنسي، وعليكم قبل كل امر اخر ان تعرضعوا قضيتنا على منظمة الامم المتحدة وتقوموا بالدفاع عنها، وقد أيدنا ذلك بالبرقيات المتتابعة التي ارسلناها للوفد. وهذا دليل على اننا قمنا بالواجب حسب رغبة المجلس وحسب قرار لجنة الشؤون الخارجية".

ولما سئل الجابري: هل قدم مذكرة لفرنسا بطلب جلاء جيشها عن البلاد؟ اجاب: "لقد قدمنا المذكرة لانكلترا فقط، لأنه ليس بيننا وبين الفرنسيين مخابرات، ومع ذلك فقد أبلغناها لوزيرنا المفوض في فرنسا (عدنان الاتاسي) وأبلغناه قرار المجلس وقرار الحكومة" ثم استطرد مبررا موقف الوفد السوري بأن "الوفد السوري كان موفقا جدا. وهذه شهادة لا انقلها عفوا انما وردت من مختلف الدول العربية والاجنبية فقد قيل بأنه نجح نجاحا هاما في طراز تقديم قضيتنا ضمن الخطاب العام".. ثم وعد تجاه ما كانت تتمخض عنه البلاد بأن "وفدنا بالاتفاق مع الوفد اللبناني سيقدم وآمل ان يأتيني الخبر بأنه قدم الشكوى الى مجلس الأمن. ولكن الخبر لم يصلني حتى الآن".

وبعد هذه المناقشات رددت عليه قائلا:

كان المجلس قد قرر عرض قضية الجلاء والاتفاق البريطاني الفرنسي على منظمة الأمم المتحدة وطلب توسط المنظمة، كما قرر طلب دعوة مستعجلة لجامعة الدول العربية للعمل على تنفيذ مقرراتها السابقة بما يتعلق بالجلاء، وقد قال دولة رئيس الوزراء ان الحكومة بلغت قرار المجلس الى الدول العربية وأظن ان دولة الرئيس يقر معنا بأن التبليغ هو غير الطلب المستعجل لانعقاد جامعة الدول العربية، فالتبليغ شيء والدعوة للانعقاد شيء آخر.

الامر الثاني هو عرض الاتفاق البريطاني الفرنسي على منظمة الامم المتحدة فإن الزملاء يعلمون ان قرار المجلس لم ينفذ، وانما

اكتفى دولة الرئيس فارس الخوري بأن لفت نظر المنظمة الى هذه القضية دون عرضها. ولا يخفى الفرق بين الأمرين، كما ان هناك تناقضا بين قرار المجلس وبين موقف الحكومة السورية بين المجلس والشعب وبين التصريحات التي أدلى بها رئيس الوفد المصري والتي تضمنت بأن ليس لمجلس الأمن ان يبحث بقضايا الأمم العربية حسب تعبيره فهذا التصريح أثار ضجة كبرى في مصر. وقد طلب المجلس النيابي اللبناني من الحكومة اللبنانية عرض قضية سوريا ولبنان على منظمة الامم المتحدة. وعلى ما اذكر فان الحكومة اللبنانية أصدرت بيانا في هذا الشأن تطمئن به الشعب على عرض القضية، ونحن نريد أن نعرف ما هو موقف الحكومة السورية من هذه الامور المتناقضة وما هو موقفها الأخير في هذا الشأن".

فأجاب الجابري: "لقد ذكرت لكم اننا ابلغنا الجامعة فورا، وقدمنا طلبا للاجتماع أما تصريحات رئيس الوفد المصري فقد ارسلت برقية الى مفوضيتنا للاستفسار فجاءني الجواب بأن هناك تحريفا بالتصريح وأن بدوي باشا لم يقل ذلك. وانني اعتبرت القضية منتهية. وقد ذكرت لكم انني انتظر اليوم خبرا يتضمن عرض القضية على منظمة الامم المتحدة بالاتفاق مع الحكومة اللبنانية ولكن حتى الان لم يصلني شيء من هذا".

وأخيرا عرض قضية الجلاء على مجلس الأمن:

اضطر نظام القوتلي، تحت ضغط الاضرابات والمظاهرات والشارع والبرلمان، للايعاز للوفد السوري بعرض شكوى سوريا على مجلس الأمن، ولكن الأجهزة الحكومية والاعلامية استمرت في سياستها فبالوقت الذي كانت فيه عناوين الصحف تذكر مثلا: "اتجاهات مجلس الأمن بمعالجة شكوى سوريا ولبنان" كانت تكتب تحت هذا العنوان:"محادثات مباشرة مع بريطانيا وفرنسا تحت اشراف مجلس الأمن".

كان موقف الحكومة مؤذيا ومشينا ومثيرا الى درجة ان بعض الصحف المحلية، بالرغم من سيف التعطيل الاداري المسلط على

رقابها، نددت بهذا الموقف المتناقض، فقد جاء في "النصر" بتاريخ 1946/2/8:

"تتردد على الألسنة في بعض المجالس وعلى صفحات بعض الصحف اقوال يفهم منها ان الوفد السوري لدى منظمة الأمم المتحدة أقدم كارها على عرض قضية جلاء الجيوش الاجنبية من سوريا ولبنان ومسألة الاتفاق الفرنسي البريطاني المتعلق بالشرق الاوسط على مجلس الامن الدولي بحجة ان عرض القضية لم يكن برأي الوفد، انما جاء نتيجة لتعليمات تلقاها من حكومته تحت ضغط النواب، وقد اثير شيء من هذه الأقوال في جلسة المجلس النيابي عصارى يوم الثلاثاء الماضي، ومع أن رئيس الوزراء بوصفه وزيرا للخارجية نفى اي يكون هناك اي اختلاف في وجهات النظر حول هذا الموضوع بين الحكومة والوفد او بين الحكومة والنواب فما تزال بعض الدوائر والمجالس تنتقد الملابسات التي قضت بعرض قضيتنا على مجلس الأمن بل تذهب الى أبعد من هذا فتنتقد عرض القضية نفسه مدعية بأن خطأ قد يعود على قضيتنا بالضرر أكثر مما يؤول الحصول منه على فائدة وذلك بحجة ان جلاء الاجنبي عن سوريا أصبح في حكم المؤكد وانه اذا كان هنالك من يجب ان يعرض القضية على مجلس الأمن فهو لبنان وحده.... ان الخطر كل الخطر ان نفرق بين البلدين الشقيقين في هذا الموضوع بعينه ونزعم بأن سوريا اوشكت ان تتخلص من القوات الاجنبية وأن الامر بات يهم لبنان وحده... الخ"

وهكذا فإن الحكومة بدلا من أن يكون تقديم مذكرة للدولتين بجلاء جيوشهما عن البلاد مستندا عند تقديم الشكوى الى مجلس الامن، قلبت الاية، فحولت المذكرة الواجب تقديمها الى مفاوضات تضعف من موقفها في مجلس الأمن وترجىء البت في هذه الشكوى بحجة تلك المفاوضات.

كان موقف الحكومة موضع سخط عام، ولا أدل على ذلك مما كتبه في تلك الفترة صديقنا فريد الكيلاني في جريدة النصر بتوقيع مستعار:

"وسط بحران الاخبار المتناقضة عن قضيتنا في جمعية الأمم (نبق) فجأة اسم وزيرنا المفوض في باريس (عدنان الاتاسي) والى جانبه اسم المسيو بونسو (سقا الله) ونبقت مع الاسمين أخبار عن مفاوضات مع فرنسيين تجري

ومفاوضات تتوقف ومفاوضات تفشل، ووزيرنا الباريزي يتنقل خلال ذلك بين العواصم لندن باريس، تتقدمه التصريحات بالتفاؤل والتطمينات بتغيير العقليات الفرنسية والأساليب الفرنسية وعواطف المسيو بونسو والى آخر المونولوج...

أعلمونا بحق السماء من الذي يتولى حل القضية بالنيابة عن سوريا أهو الوفد أم الوزير الباريزي المفوض؟ وعلى أي شيء يفاوض؟ أعلى نصف جلاء أم على ثلاثة أرباع الاستقلال؟ ... هزوا وزيركم المفوض وأفهموه اننا في عام 1946 لا عام 1936. أفهموه ذلك، أبلغوه قرار المجلس النيابي الأخير. قولوا له: يتفضل بقى بلا مسخرة".

هذا بالوقت الذي كانت فيه أجهزة الاعلام الفرنسية والانكليزية تنشر بأنه: "لا تزال جميع الوفود في هيئة الأمم متأثرة بفكرة عامة، وهي أنه يغلب على الظن أن يوصي مجلس الأمن بالحل الذي اتخذ في مسألة النزاع بين ايران وروسيا. ونعني به اجراء مفاوضات مباشرة بين الطرفين المختصين وسيؤدي هذا لاجراء محادثات بين بريطانيا وفرنسا وسوريا ولبنان"، بينما كانت الصحافة الفرنسية تتهم سورية لعرضها قضية الجلاء على مجلس الأمن بأنها دسيسة روسية.

باشرت فرنسا بتنفيذ اتفاقية بيفن بيدو بجلاء قواتها من سوريا الى لبنان، وبدأت مديرية المطبوعات تنشر البلاغات التي تطمئن فيها الشعب بتحقيق الجلاء الفرنسي عن سوريا:

"وردت لوزارة الداخلية برقية من محافظ الجزيرة تشير الى أنه في الساعة السادسة من صباح يوم الخميس غادر آخر جندي أجنبي أراضي محافظة الجزيرة واستلمت الحكومة الثكنات والمطار وقد رفعت عليها الاعلام السورية باحتفالات عسكرية ضخمة اشتركت بها جموع الأهلين بالفرح والابتهاج" 1946/2/8.

قضيتنا في مجلس الأمن:

قدم مندوب سوريا فارس الخوري كتابا الى مجلس الأمن بتاريخ 4 شباط باسم سوريا ولبنان معا جاء فيه "أن وجود القوات البريطانية والفرنسية في الأراضي السورية واللبنانية يعتبر انتهاكا صارخا لسيادة هذين البلدين ثم احتج على الاتفاقية البريطانية الفرنسية التي تقضي بالاحتفاظ ببعض القوات البريطانية

والفرنسية في لبنان للمحافظة على الأمن هناك ريثما تتم هيئة الأمم المتحدة الاجراءات التي تراها ضرورية لصيانة الأمن في تلك المنطقة".

وقد تأخر مجلس الأمن ببحث هذه القضية انتظارا لما تسفر عنه المفاوضات والاجتماعات المستمرة بين رئيسي الوفدين السوري واللبناني وبين وزيري خارجية بريطانيا وفرنسا المستر بيفن والمسيو بيدو ومضت الجلسة الأولى التي عقدها مجلس الأمن بتاريخ 14 شباط للنظر بشكوى سوريا ولبنان في البحث عما اذا كانت القضية مسألة نزاع أو مجرد حالة. لأنه اذا اعتبرت المشكلة مجرد حالة فيصبح لممثلي بريطانيا وفرنسا - وهما عضوان رئيسيان في مجلس الأمن - حق الاشتراك في التصويت. أما اذا اعتبر نزاعا فلا يحق لهما التصويت على قرار المجلس.

ثم قرر المجلس دعوة مندوبي سوريا ولبنان للاشتراك بجلسات مجلس الأمن وعرض قضيتهما دون الاشتراك في التصويت، ومن الطريف ان نذكر ان فيشنسكي مندوب الاتحاد السوفيتي عندما طلب السير في بحث المسألة على اعتبار أنها قضية نزاع شبه الشكوى السورية اللبنانية مثل شكوى شخص يتقدم الى المحكمة طالبا اخراج غريب دخل الى منزله بدون ارادته.

وقد عرض السيد حميد فرنجية القضية بما خلاصته: ان وجود القوات الأجنبية في الاراضي السورية اللبنانية، رغم عدم وجود حالة حرب وعدم موافقاتهما على ذلك لا يتفق مع استقلالهما. وقال ان وجود هذه القوات يسبب نزاعا دائما، وأما الاتفاق الذي عقد بين بريطانيا وفرنسا فهو انتهاك لحرمة وسيادة البلدين ويمس الشؤون الداخلية أيضا.

ثم تكلم السيد فارس الخوري قائلا: نحن لا نوجه أنظاركم فقط الى قضيتنا بل نوجه أنظار العالم أجمع اليها ثم خلص الى القول بانه يصر على المجلس ان يقرر سحب القوات الأجنبية معا وأن يعين موعدا لهذا الجلاء يتفق مع الضرورات الفنية. ثم أوضح ما

عناه بكلمة "جميع القوات الأجنبية معا" بقوله: لو أردنا الى القوات البريطانية ان تنسحب لكان ذلك ممكنا في الحال ولكنها هي لا تنسحب الا اذا انسحبت القوات الفرنسية. وهذا ما اقصده من كلمة "معا".

وقد احتج وزير خارجية فرنسا "بيدو" على ما ورد في بيان فارس الخوري وقال: ان هذا التمييز بين وجود القوات البريطانية والفرنسية في بلاد المشرق هو بمثابة اهانة لفرنسا. وأن بقاء القوات العسكرية في هذه المنطقة حتى الان هو احدى نتائج الحرب، ان سوريا تنفرد بالشكوى من حالة نجد لها حالات مشابهة في كثير من البلدان التي اشتركت بالحرب والتي ترابط فيها حتى الان قوات من جنسيات مختلفة.... ثم قال: ان فرنسا هي التي اعلنت استقلال سوريا ولبنان عام 1941 وهي التي تدخلت لدعوتهما الى مؤتمر سان فرانسيسكو. وان الحكومتين البريطانية والفرنسية تودان أن توضحا بأنهما مستعدتان للبدء بسحب قواتهما العسكرية الموجودة في سوريا ولبنان. نحن لا نفهم لماذا أرادوا أن يجعلوا من هذه القضية قضية نزاع مع أن القوات البريطانية والفرنسية جنبت سوريا ولبنان ويلات الحرب. واليوم يقولون انها تهددهما، وهذا تشويه للواقع.

وتكلم السير الكسندر كادوغان الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية بالنيابة عن "بيفن" مستعرضا الاضطرابات التي وقعت في أيار 1945 يوم طلبت الحكومة السورية من القوات البريطانية التدخل لاعادة النظام، وقال: ان الحكومة البريطانية أعطت التأكيد الذي طلبته حكومتا سوريا ولبنان بأن البريطانيين لن ينسحبوا ما دامت هناك قوات أجنبية. وقال انه لا يزعم ان اتفاق كانون الأول (الفرنسي البريطاني) كان مثال التمام. فما هو سوى محاولة لإيجاد مخرج من موقف أصبح يثير حفيظة جميع من لهم علاقة به.

وقد رد وزير خارجية لبنان السيد حميد فرنجية قائلا: زعم مندوب فرنسا المسيو بيدو أنه قبل انتهاء الحرب بزمن وفي ظروف صعبة أقدمت حكومة الجنرال ديغول في حزيران 1941 على اعلان

نية فرنسا على الاعتراف باستقلال سوريا ولبنان، والحقيقة هي أن قيادة الحلفاء العليا عندما قررت اجتياح سورية ولبنان (كانت فيهما قوات فيشي) لم يكن لديها سوى 7 آلاف جندي انكليزي ونحو 3 آلاف فرنسي للقيام بهذه المهمة. فالحلفاء اذن كانوا بحاجة الى مساعدة سكان سوريا ولبنان. ولضمان حصولهم على هذه المساعدة أصدر السير مايلز لامبسون بتاريخ 8 حزيران 1941 تصريحا موجها الى سكان سوريا ولبنان قال فيه انه مخول من قبل الحكومة البريطانية ان يعلن باسمها ان قوات الحلفاء قد أتت الى سوريا ولبنان لتنفذ استقلالهما. وان السوريين واللبنانيين أحرار فيما اذا رغبوا بأن يؤلفوا دولة واحدة مستقلة او أن يبقوا دولتين مستقلتين. وفي ذات اليوم أعلن الجنرال كاترو من محطة القدس باسم فرنسا الحرة مخاطبا السوريين واللبنانيين بقوله: اذا انضممتم الينا بقواكم فكونوا واثقين بأن بريطانيا بالاتفاق مع فرنسا ستخولكم جميع المنافع التي تتمتع بها الدول الحرة المشتركة بالحرب مع الحلفاء، والواقع ان سوريا ولبنان قدمتا للحلفاء كل مساعدة. فوضعتا جميع وسائل مواصلاتهما وكل مرافقهما تحت تصرفهم. وفي كل ميدان حربي خاض السوريون واللبنانيون غمار القتال كجزء من قوات الحلفاء وبخاصة الفرنسية. ثم ان جميع موارد البلاد كانت تحت تصرف الحلفاء بحكم المصادرة. فالاستقلال الذي حصلنا عليه اذن ليس منحة أو هبة من أحد. وانما هو نتيجة عادلة للدور الذي قمنا به في الحرب.

ثم ختم كلامه بقوله بأن ما طلبه الوفد الفرنسي من وضع الثقة بفرنسا وانكلترا للتفاهم فيما بينهما على منهاج الجلاء لا مبرر له. وان الشيء الوحيد الذي يجب ان يتعلق بالجلاء هو الوسائل الفنية لاتمامه تنفيذا كاملا. ان الوفد اللبناني والوفد السوري يصران على طلب جلاء القوات الفرنسية والبريطانية واحترام السيادة المطلقة لسوريا ولبنان دون قيد او شرط وان يتم الجلاء دون قيد أو شرط كذلك.

أما مندوب الولايات المتحدة فكان من رأيه استمرار المفاوضة، على أن تبقى القضية في الوقت ذاته موضع اهتمام

مجلس الأمن واشرافه، وقال ان سياسة الولايات المتحدة تقوم على تشجيع جلاء القوات الأجنبية عن بلدان الأمم المتحدة التي تطلب جلاء هذه القوات عنها. وقال: أريد أن أعرب الآن عن رأيي بأن رغبات حكومتي سوريا ولبنان بجلاء القوات البريطانية والفرنسية عن أراضيهما يجب ان تلاقي القبول والرضى.

وقال السيد فشنسكي مندوب الاتحاد السوفيتي: لقد بحث مجلس الأمن في جلسات سابقة المسائل التي أثيرت عن اليونان واندونيسيا وايران، وبعد الذي قيل في تلك الجلسات أرى ان المسألة التي تبحث اليوم يجب ان لا تثير أية صعوبة، لقد سمعنا اليوم البيان الذي ألقاه المسيو بيدو وسمعنا السير كادوغان يبسط وجهة نظر بريطانيا فلأ تحدث أولا عن بيان المسيو بيدو، أريد أن أعرض هنا وثيقة قدمت في 18 أيار 1945 من قبل الجنرال بينيه ممثل فرنسا في سوريا ولبنان الى حكومتي المشرق. وفي هذه الوثيقة تصرح الحكومة الفرنسية أنه قد تم استقلال سوريا ولبنان. ولكنها من جهة أخرى تقول أن لفرنسا مصالح وتريد اتخاذ تدابير خاصة لصيانة هذه المصالح. ثم تمضي الوثيقة فتتحدث عن مصالح فرنسا التي هي على ثلاثة أنواع: ثقافية واقتصادية واستراتيجية وأن الحكومة الفرنسية لا تستطيع ان تقبل بتسليم القطعات الخاصة الا بعد اتفاق ثقافي واقتصادي واستراتيجي مع سوريا ولبنان.

ثم يقول فيشنسكي ان حكومة لبنان أعلمت فرنسا بانه لا يمكن أن تفاوض على أساس هذه الشروط أي تحت تهديد القوات المسلحة. وأن مذكرة بينيه بروحها ومبناها تعد انتهاكا لسيادة لبنان. وبعد يومين أرسلت حكومة سوريا الى فرنسا مذكرة مماثلة قالت في ختامها: ان الحكومة السورية التي أقامت مرارا البرهان المحسوس على حسن نياتها وعلى أكيد رغبتها في ايجاد حل للأمور المعلقة بين فرنسا وسوريا تعلن ان مذكرة بينيه تتضمن طلبات وتنم عن روح لا تتفق مع استقلال سوريا وسيادتها.

ثم ذكر بعد هذا ما أفضى به الجنرال ديغول في حزيران 1945 أمام المجلس التأسيسي الفرنسي: "ان أرباب

المصالح البريطانيين هم الذين أعدوا عدتهم واستعملوا قوتهم الاقتصادية وبثوا دعاتهم ونشروا دعايتهم للقضاء على النفوذ الفرنسي في بلاد المشرق لاحلال النفوذ البريطاني في محله، وان كل اعمالهم تستهدف استبدال المصالح الفرنسية بالمصالح البريطانية بطريقة يستحيل معها على فرنسا ان تدافع عنها وان تعلن انها فرنسية كاستغلال حصة فرنسا من بترول الموصل، وكاستغلال معامل تكرير البترول في طرابلس (المصفاة) ...ان مصالح فرنسا تشمل المصالح المتعلقة بمنابع النفط في سوريا وأنابيب البترول الممتدة الى البحر الأبيض المتوسط وبترول العراق ولا سيما الحصة الفرنسية التي هي المورد الوحيد للبترول الفرنسي في العالم، ان كل المصالح تجعلنا نتمسك بالحصول على نفس المركز الذي تتمتع به بريطانيا في الشرق الأوسط وأن لا نسمح لنفوذ آخر ان يحل محل نفوذنا".

كما رد فيشنسكي على أقوال الكساندركادوغان واعتبر الاتفاقية البريطانية الفرنسية خرقا لسيادة عضويين في هيئة الأمم المتحدة، وكان خطابه ناجحا جدا في فضح النوايا الاستعمارية لفرنسا وبريطانيا، كما كان له صداه في سورية والبلاد العربية.

الاتحاد السوفيتي يستعمل حق الفيتو:

في نهاية هذه المناقشات التي استمرت جلسات عديدة عرضت على التصويت عدة اقتراحات سقطت جميعها فطرح **بعدئذ الاقتراح الأميركي باستمرار المفاوضة على التصويت فأيدته المكسيك ومصر والصين والبرازيل والولايات المتحدة وهولندا والتشيلي. وما أن شرع السكرتير العام باعلانه أن الاقتراح قد اصبح قرارا حتى ابتدره فيشنسكي معترضا بأنه لم يصبح قرارا لأن المادة 27 بفقرتها الثالثة**

توجب ان يصوت جميع الأعضاء الدائمين ايجابيا على الاقتراح وبما أن مندوب روسيا لم يصوت ايجابيا فان الاقتراح لا يعتبر قانونيا قد اتخذ صفة القرار. وهنا أعلن مندوبا فرنسا وبريطانيا ارتباطهما بالاقتراح الأميركي وموافقتهما عليه، وهذا نصه:

"ان مجلس الأمن قد اخذ علما بالبيانات التي أفضى بها كل من مندوبي بريطانيا وفرنسا وسوريا ولبنان وبآراء الأعضاء الاخريين. وهو يعرب عن ثقته بأن القوات البريطانية الفرنسية ستنسحب من سوريا ولبنان بأسرع وقت ممكن. وتوصلا لذلك تجري مفاوضات بين الفرقاء بدون تأخير. وهو يحث الفرقاء جميعا على إطلاع المجلس على نتائج المفاوضات".

□

كانت خطب فيشنسكي وفارس الخوري لا تخلو من الظرافة والنكت المستملحة. فقد جاء في احدى خطب الأستاذ الخوري: لقد سمعنا المسيو كادوغان يقول ان وجود القوات البريطانية في دولتي المشرق ضرورة لتجنب حدوث نزاع بين سوريا ولبنان من جهة وبين القوات الفرنسية من جهة ثانية، وسمعنا الفرنسيين يقولون انهم لا يستطيعون الجلاء عن بلادنا اذا ما بقي البريطانيون فيها. وبكلمة مختصرة فان الفرنسيين والبريطانيين يحافظون على بعضهم بعضا. ان هذه الظاهرة تذكرني باقصوصة استميحكم عذار اذا ما قصصتها على مسامعكم: وجدت مرة شارة مركزة على كومة أحجار في منتصف الشارع العام، فلما سئل واضعوها: لم هذه الشارة؟ أجابوا لتدل على الأحجار التي تحتها. ولما سئلوا لم هذا الأحجار؟ قالوا: لتثبت الاشارة التي فوقها وتحملها.

آثار مناقشات شكوانا بمجلس الأمن:

نشرت الخطب التي ألقيت أثناء مناقشات مجلس الأمن في الصحف وفي نشرات خاصة وزعت في جميع أنحاء البلاد، وقد اضطررنا الآن أن نثبت مختصرا عنها ليتمكن القارىء من الاطلاع

على الأثر الذي تركته تلك المناقشات في الرأي العام السوري خاصة والعربي عامة، فقد كان السوريون يشعرون بكل اعتزاز وفخر للمستوى السياسي والثقافي والحضاري الذي عالج به مندوبا سوريا ولبنان القضية التي خلفت دعاية واسعة للبلدين في جميع أنحاء العالم. انها عمقت الثقة في نفوس السوريين واللبنانيين بأنهم أكفاء لما نالوه من سيادة واستقلال وأنهم بلغوا مستوى الشعوب الناهضة الراقية، كما عمق الموقف المشترك بين سورية ولبنان صلات الأخوة والجوار بين البلدين الأخوين.

وبالاضافة الى ذلك فإن هذه المناقشات والخطابات التي قرئت على نطاق واسع عمقت الوعي السياسي لدى الجماهير وفضحت بشكل جلي نوايا بريطانيا وفرنسا الاستعمارية في سوريا ولبنان، **وبعد أن انتهى بحث الشكوى السورية اللبنانية في مجلس الأمن قرر المجلس جلاء الجيوش الفرنسية والبريطانية عن البلدين بدون قيد او شرط فتم الجلاء عن سورية منذ مطلع شهر نيسان عام 1946 وتم الجلاء عن لبنان في شهر حزيران من العام نفسه.**

أصداء الجلاء عن سورية ولبنان في البلاد العربية

كان لانتصار سورية ولبنان في معركة الجلاء أثر بعيد في البلاد العربية فقامت في تونس مظاهرات صاخبة، مطالبة بالجلاء، فقمعها الاستعمار الفرنسي بوحشية وقسوة، وقامت في بغداد مظاهرات الابتهاج والتأييد للجلاء عن سوريا ولبنان، واشتعلت في مصر الاضرابات والمظاهرات الشعبية العارمة، بقيادة الطلاب والعمال وتصاعدت الى حدود الثورة اللاهبة وأدى قمعها الى وقوع ضحايا عديدة وخسائر كبيرة، مما هز المشاعر القومية في سوريا هزا عنيفا كان من أصدائه أن تقدم زميلي قاسم الهنيدي الى البرلمان بالاقتراح التالي:

"عندما كان المجلس النيابي في عطلته وقعت حوادث دامية في القطر المصري الشقيق، فقد هب الشعب المصري ينادي بجلاء الجيوش الأجنبية عن أراضيه ويطالب باستقلاله ووحدة أراضيه، وقد

قابل المستعمر هذه التظاهرات القوية بالرصاص فخر عدد غير قليل من أخواننا المصريين صرعى وهم ينادون باستقلال وطنهم. فعلى أرواح هؤلاء الأخوان الشهداء أقترح وقف الجلسة دقيقة واحدة حدادا واجلالا"... وبعد أن وقف النواب دقيقة حداد واجلال وافق المجلس على اقتراح بابلاغ مجلسي النواب والشيوخ في مصر بما يلي:

"ان المجلس النيابي السوري يؤيد مصر الشقيقة بوحدة وادي النيل وجلاء الجيوش الانكليزية جلاء تاما وبمطاليبها القومية الاستقلالية" - 2 أيار 1946.

وفي 28 آذار 1946 عقدت بريطانيا معاهدة تحالف مع الملك عبد الله وضعت - كما أذيع - على غرار المعاهدة العراقية البريطانية التي عقدت عام 1930 وقد حاولت بريطانيا أن تهيىء بهذه المعاهدة الأسباب لما تخبئه هي والصهيونية لسورية وللقضية الفلسطينية مع بقاء احتلالها لشرق الأردن.

كان هنالك فرق كبير بين المعاهدة العراقية البريطانية، والمعاهدة البريطانية الأردنية التي ابقت قيادة الجيش الأردني بيد بريطانيا بالوقت الذي كانت فيه رواتب الجيش الأردني تدفع من المعونة البريطانية بل كان كيان الأردن ذاته قائما على هذه المعونة، والذي كانت بريطانيا تقصده من اظهار الأردن بمظهر الدولة المستقلة هو تحقيق شيء من الانسجام بين وضعه وبين الأوضاع في العراق وسورية، دول مشروع سورية الكبرى الذي نادت به بريطانيا، لمد نفوذها الى سورية، على أن يكون للوطن القومي الصهيوني مكان في هذا المشروع، الذي فاتح به تشرشل شكري القوتلي، بينما كانت الولايات المتحدة ترى أن يكون يهود فلسطين ضمن كومنولث عربي، مما يعني قيام دولة لهم في فلسطين.

بعد رفض سورية مشروع سورية الكبرى، طرح نوري السعيد مشروع الهلال الخصيب الذي يقتصر على الاتحاد بين سورية والعراق، فكانت هذه المحاولة الثانية من قبل بريطانيا لادخال سورية في منطقة نفوذها، أما المحاولة الثالثة فكانت

الضغط على سورية لادخالها في حلف بغداد، وقد أدت هذه المحاولات الى حبك المؤامرات والانقلابات العسكرية في سورية مما سيرد تفصيله لاحقا.

بطل الجلاء

في هذا الجو الثائر الذي عم العالم العربي، أقام شكري القوتلي في 17 نيسان 1946 مظاهرة احتفالية ضخمة بمناسبة الجلاء حضرتها وفود من جميع الدول العربية، وخرجت صحف 17 نيسان في دمشق مزينة بصور شكري القوتلي والملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق والامام يحيى حميد الدين وابنه سيف الاسلام أحمد والملك فيصل الثاني وعبد الرحمن عزام وناظم القدسي ونجيب الارمنازي ومظهر باشا رسلان وخالد العظم ونعيم الانطاكي وجميل مردم ولطفي الحفار وصبري العسلي وفتح الله أسيون ومظهر البكري وأحمد الشراباتي والأمير فيصل بن عبد العزيز الذي كان واضحا حين عقد مؤتمرا صحفيا في دمشق قال فيه: "يوم العروبة لا يوم الجلاء في دمشق".

وأفاضت الصحف بوصف ضخامة الاحتفالات والعرض العسكري وسؤال رؤساء وفود الحكومات العربية عن مشاعرهم. كما نشرت خطابات رؤساء الوفود في الاحتفال الكبير.

لقد كان الشعب في أول احتفال للجلاء غائبا عن مسرح البطولة، وهو الحاضر دائما عند تحمل التضحيات والآلام والمسؤولية، وان التاريخ لن يقلب صفحة كوارثنا وهزائمنا، ذلنا وانكسارنا الذي يهدد وجودنا الا عندما تتبدل هذه الصورة المزورة فيصبح الشعب هو البطل، وهو المنتصر، وهو الحقيقة.

عندها تسمى الأمور بأسمائها، فتبرز القيادات التي تتحمل مسؤولياتها باخلاص، فتتعارف الوجوه، وتسقط الاقنعة، وتنكشف المعميات، وتظهر المخفيات.

فارس الخوري يشيد بدور المجلس النيابي في تحقيق الجلاء:

عاد فارس الخوري من لندن بعد أن تأخر فيها قليلا وقد ترأس أول جلسة برلمانية بعد الجلاء في 24 نيسان. ولعله تجاه ما جرى اثناء غيابه من تزوير للحقائق، أراد أن ينصف نفسه وينصف الحياة الديمقراطية، فاستهل افتتاح الجلسة الأولى بقوله:

"تأجل اجتماع مجلس النواب مدة شهر واحد اعتبارا من 19 آذار وهذه الجلسة هي الأولى التي يعقدها مجلس النواب بعد الجلاء واستكمال عناصر استقلال البلاد، فانني بهذه المناسبة لا بد لي في افتتاح هذه الدورة أن اهنئهم بما انتهت اليه مساعيهم الناجحة وجهودهم المثمرة ببلوغ الهدف السامي الذي ما زالت الأمة تكافح وتجاهد وتبذل أعز ما لديها في سبيله منذ اكثر من ثلث قرن... وأرى من واجبي ان أسجل ما كان لهذا المجلس من الايادى البيضاء والمواقف المشرفة في الجهاد المرير منذ انعقاده في صيف 1943، فهو ما زال في كل جلسة من جلساته مثابرا على اثارة النقمة على التسلط الأجنبي والمطالبة الملحة والتقاضي الملزم لحق البلاد بممارسة استقلالها كاملا غير منقوص... كانت مواقفه وقراراته توجهها واضحا وحافزا قويا ومسندا متينا للوزارات التي انبثقت عنه... فتعاقبت على مناصب الحكم لمواصلة الطلب والصمود ضمن الحدود التي أقرها المجلس لاحراز استقلال كامل ناجز غير مشوب بميزة او موقع خاص لأية دولة كانت وغير مقيدة بعهد يحد من استقلال البلاد. فاستحق رجالها أيضا تقدير الأمة وشكرها. وهذه ضبوط مجلس النواب حافلة كلها بصفحات نيرة وخطب فياضة بالحماسة الوطنية والعزة القومية، وقد كانت هذه الأهداف الشغل الشاغل للمجلس والحكومة والأمة بأسرها من ورائه تشد أزره وتدعم أمره بجميع ما لديها من وسائل التقاضي الناجع،

وبذلك أستطيع بملء الحق ان أصرح من هذا المقام بأن مجلس النواب في هذا الدور الاشتراعي قد قام بالمهمة التي أنيطت به من هذه الناحية خير قيام وأدى الأمانة حقها بالعزيمة الصادقة والاخلاص الناصع وسجل بذلك صفحة مشرفة بتاريخ سوريا الحديث يعرفها له الجيل الحاضر والجيل الآتي....

ثم استطرد معددا جهوده وجهود المجلس سواء بالنسبة لوضع ميثاق جامعة الدول العربية أو اعلان الحرب على المحور، واشتراك سورية في هيئة الأمم المتحدة، وقال: **أسجل لهذا المجلس أيضا قراره الحازم بالاحتجاج على الاتفاق البريطاني الفرنسي المعلن في الثالث عشر من كانون الأول الماضي المتعلق بهذه البلاد وبوجوب عرض قضيتنا بشأنه على مجلس الأمن بلندن، وقد عملنا بموجب هذا القرار فحالفنا التوفيق لتنفيذ مقتضى المبادىء المقررة بالميثاق، وبذلك زال الخطر الباقي للسلطات الأجنبية المتخلفة في أراضي وطننا العزيز بعد أن استلمنا جميع المصالح التي أصبحت ممارستها من اختصاصنا.**

وأنبأ المجلس أن رئيس الوزراء قدم استقالته لرئيس الجمهورية فكلفه بالدوام على العمل الاداري ريثما تتألف الوزارة الجديدة.

كان تعليق بعض النواب على خطاب فارس الخوري أنه رد فعل على اتهامه من قبل حكومة الجابري بمسؤولية تأخير تقديم الشكوى الى مجلس الأمن، فأجبتهم:

ان الاستاذ فارس الخوري يختلف عن رفاقه رجال الكتلة الوطنية ولا سيما بعلمه وثقافته الواسعة، كما أن المجلس لم يكن في الحقيقة صفا واحدا في مواقفه الوطنية التحررية، بل أن اكثرية النواب، كانت تسير كالقطيع وراء الحكومات من أبناء طبقتها التي تحقق لها مصالحها ومطامعها، واذا كان هنالك من فضل في قيادة

الحركة الوطنية بطريقها الصحيح الشجاع فانه يرجع للشعب الذى قاد المجلس والحكومة الى الجنة بالسلاسل...

كان الشعب معلمنا الذى بث بنا حرارة الايمان والبقين، وهو الذى ألهمنا وأرشدنا ووجه خطانا...

ولم تكن بعض الأصوات التي انطلقت في المجلس الا معبرة عن بعض ما يعتلج في نفس هذا البطل، وقد تمنيت لو أننا نقيم عيدا آخر للجلاء يذهب فيه نواب المجلس الى الأماكن التي جرت فيها المعارك الدامية بين الفرنسيين والشعب، فتمجد ذكرى الشهداء، في كل مدينة وناحية وقرية، لأنهم هم صانعوا الجلاء.

أما أعداء الجلاء، فنفتح لهم سجلا آخر، يعدد أسماء العملاء والمتواطئين مع الاستعمار، كما تجرى محاكمتهم، لينالوا جزاء ما أقدموا عليه.

بمثل هذا ننصف الأفراد والشعب والتاريخ، ونفتح صفحة جديدة مشرقة في تاريخ هذا البلد.

24

1946: مجلس النواب السوري يبدأ بمحاسبة الشركات الاجنبية ذوات الامتياز

نضال شعب سورية ضد الاستغلال الاقتصادي

لم يكن نضال الشعب العربي في سورية لأجل الاستقلال وجلاء الجيوش الاجنبية مترافقا فقط مع النضال لأجل الديمقراطية، وانما كان في الوقت نفسه مترافقا مع النضال ضد الاستغلال الاقتصادي الاستعماري الذي استمر الى ما بعد الجلاء بحماية الاقطاعية والرجعية والديكتاتورية، وقلما كانت تمر جلسة من جلسات المجلس النيابي السوري الا وكنا نلاحق الحكومات لتحرير البلاد من هذا الاستغلال الذي يشكل نزيفا لموارد البلاد لا يمكن أن تفيد معه الا عمليات الاستئصال (تأميم الشركات والامتيازات الاجنبية) وفيما يلي نماذج لما كان يجري في سورية من استغلال اقتصادي استعماري:

خطأ في الحساب

اثار النواب موضوع مراقبة الشركات الاجنبية ذوات الامتياز، في جلسة 7 شباط 1946، وأمر استغلالها وسرقاتها ونهبها، فاعترف وزير الاشغل العامة فتح الله آسيون قائلا:

أما فيما يتعلق بشركة كهرباء حلب لا شك أنكم سمعتم بما اتخذته بلدية حلب بحق الشركة بالاتفاق مع مصلحة المراقبة من تدقيق حسابات الشركة والنتيجة الحسنة التي توصلت اليها.

فقيل له:

- يعني كشف الفضيحة؟!

فأجاب:

- نعم ... إن الخسارة التي كانت متحققة على البلدية سابقا انقلبت الى أرباح سوف تجنيها البلدية. أما في دمشق فإننا ساعون لمراقبة حسابات شركة الكهرباء، ونحن نبحث الآن عن

خبير مالي كالذي توفقنا بالحصول عليه في حلب... اننا نفكر في ذلك، ولا بد بعد تدقيق الحسابات أن نتوصل الى النتائج الحسنة والاصلاحات اللازمة، والحكومة تعدكم بأن تقوم بالتحقيق.

فقيل له:

- هل اكتفت الحكومة والبلدية بحلب بقبض الأربعة ملايين ليرة التي اختلستها الشركة؟!

أولا يشكل هذا الاختلاس سببا مباشرا لإبطال الامتياز؟ نريد جوابا على هذا السؤال.

فأجاب الوزير:

- المسألة لم تكن اختلاسا بل كانت عبارة عن خطأ في الحساب.

فقيل له:

- أأربعة ملايين ليرة تعد خطأ؟؟ انها سرقة ! ان الاستعمار يأتي الينا ويستنزف أموالنا ويسرقنا ونسكت عنه.

فأصر الوزير على القول: كان الخطأ في الأصول الحسابية.

فأجبته:

- الذي أتعجب منه أن يدافع الوزير عن هذه الشركة، وأعتقد أن مجرد ظهور هذه القضية التي ارتكبتها الشركة كاف لابطال امتيازها، ولا سيما أنه سبق لهذا المجلس أن نبه الحكومة الى وجوب اعادة النظر في وضع جميع أمتيازات الشركات الأجنبية في هذه البلاد، انني ألفت نظر الحكومة ثانية هذا الموضوع الخطير.

نهب ثرواتنا المعدنية:

وهذه المناقشات عينها جرت بالنسبة للرخص التي أعطيت لاستثمار المعادن بناء على قرار استعماري كان قد أصدره المفوض السامي الفرنسي بقصد استغلال الرساميل الفرنسية والأجنبية للثروة المعدنية في سوريا. فطلبت من الحكومة "أن تتقدم بمشروع قانون جديد. لأن هذا القرار (قرار المفوض السامي) لا يتفق مع مصلحة البلاد ولا يفي بالحاجة بعد أن

ظهرت المخالفات التي ارتكبت وسوء الاستعمال الذي وقع باعطاء الرخص للبعض ومنعها عن الآخرين، لذلك أقترح، تلافيا لهذا المحذور وتمشيا مع أحكام الدستور، أن يوضع في قانون الموازنة مادة تلغي قرار المفوض السامي رقم 113، على أن تتعهد الحكومة بأن تتقدم الينا بمشروع قانون جديد لاستثمار المعادن".

وقد عارض رئيس الحكومة سعد الله الجابري هذا الاقتراح، فقلت:

"يظهر أن رئيس الوزراء لم يكن حاضرا الجلسة التي قال فيها المراقب "للشركات ذوات الامتياز" السيد شكيب الجابري بأنه لم تعط الا رخصة واحدة للسيد ممدوح مردم بك الذي أساء الاستعمال وفرضت عليه الغرامة من قبل الادارة كما نص القرار رقم 113. ومن هذا يتبين أنه لم تعط رخصة ما الا لهذا الشخص. ثم أعطيت رخصة جديدة للسيد سماقية (من حلب) وقد أصبحت الرخصة السابقة التي أسيء استعمالها ملغاة، أما الجديدة فلم تنفذ بعد. وعلى ذلك ليس هنالك اي محذور من الغاء القرار والرخص التي أعطيت بموجبه انتظارا لوضع قانون جديد للمعادن".

قضية مصفاة طرابلس

إن احدى صور الاستغلال الاقتصادي الاستعماري تتبدى في تواطؤ شركة نفط العراق مع الاستعمار الفرنسي في قضية مصفاة طرابلس، فبعد فترة من تأميم العراق شركة الآي. بي. سي في عام 1969، نشرت النهار بهذه المناسبة التصريح التالي للنائب خليل أبو جودة:

"ورد على لسان الرسميين والخبراء ان مصفاة طرابلس هي ملك شركة "الاي بي سي" وانها ستعود للدولة بعد استهلاك المنشآت خلال 14 سنة بمعدل 7 في المئة سنويا.

والذي اعرفه ان هذه المصفاة انشئت بأموال المصالح المشتركة، اي بأموالنا. وقد كانت تديرها في ذلك الوقت المفوضية العليا نيابة عنا. وقد قلت في خطاب لي في هذا الصدد في جلسة مجلس النواب المنعقدة في 8 شباط 1945 ما نصه:

"هنالك مسائل عدة لا تزال معلقة بيننا وبين المنتدبين تجب تصفيتها لتحقيق الاستقلال وتنقية جو العلاقات بين الصديقين القديمين، لبنان وفرنسا.

وعلى ذكر التصفية فلنبدأ بمصفاة البترول في طرابلس. فهذه المصفاة انشئت باموال لبنانية على أرض لبنانية ويديرها ويستثمرها غير اللبنانيين مع انها جزء من المصالح المشتركة التي كانت تدار مع بقية المصالح نيابة عنا فيجب ان تعاد الينا".

ومن الطبيعي انني وقتئذ لم اطرح هذا الكلام بلا مستند. فقد اخذت معلوماتي من الدوائر الرسمية وبالتحديد من وزارة الخارجية. وقد وافقت الحكومة والمجلس على كلامي بالاجماع كما يتضح من الاقتراح الذي تقدمت به في نهاية الخطاب، فكيف انتقلت ملكية المصفاة الى الشركة؟

هل كان ذلك بموجب بيع او مقايضة او على سبيل الهبة او بأي اتفاق معقود بين الحكومة والشركة، او عن اهمال ومسايرة او بعد صفقة سرية عقدت لا ادري في اي عهد؟

هذا ما احببت ان الفت اليه المسؤولين لعل فيه فائدة للبلاد.

النهار 1972/6/5

فكان ذلك ردا على تصريح رئيس الحكومة صائب سلام الذي اعترف للشركة بملكية المصفاة قائلا: ان لبنان لن يلجأ لتأميمها لأن ذلك يتعارض مع نظامه.

وكانت مصفاة طرابلس موضوعا للنقاش الذي جرى بيني وبين حسن جبارة وزير الاقتصاد السوري وذلك في جلسة مجلس النواب بتاريخ 1946/2/4:

أكرم الحوراني: المصفاة في طرابلس هل هي للحكومة السورية أم للحكومة اللبنانية؟

وزير الاقتصاد: ليست للحكومة السورية ولا للحكومة اللبنانية بل هي لشركة البترول العراقية والمفوضية الافرنسية وضعت يدها

على المازوت الموجود في طرابلس لأنه لم تكن هناك مصفاة. أو بالأحرى وضعت يدها على الوقود الموجود في طرابلس في حين لم تكن هناك مصفاة، واحتاجت البلاد الى الوقود. ولم يكن بالامكان استيراده من حيفا فجاءت المفوضية الافرنسية ووضعت يدها على المستودعات في طرابلس والأنابيب التي تصب البترول فيها والتي كانت تأتي من العراق، واستحضرت مصفاة وأمنت حاجة البلاد من البنزين والكاز مدة طيلة الحرب.

اكرم الحوراني: إذن فالمصفاة للحكومتين.

وزير الاقتصاد الوطني: يا سيدي بعد ذلك أتت الشركة، والشركة من حقها الأساسي بموجب امتيازها ان تبني المصفاة، فدفعت التكاليف التي كانت استلفتها المفوضية الفرنسية من أموال المصالح المشتركة وأعيدت الى المصالح المشتركة ودخلت في مواردها لتوزع بين البلدين، وأصبحت المصفاة الآن الواقعة ضمن أراضي لبنان ملكا للشركة ولبنان لا يملكها.

اكرم الحوراني: امتياز الشركة هو لمرور الانابيب فقط أم امتياز وجود مصفاة؟

وزير الاقتصاد الوطني: امتيازها في سوريا لمرور الأنابيب، وضمن المقاولة مع لبنان نص على انشاء مصفاة في طرابلس.

أما ما هي التكاليف، وما هي المدة التي بقيت أموال المصالح المشتركة تحت تصرف شركة نفط العراق ومتى اعادتها فذلك لم يكن في حساب الحكومات التي سلمت للشركة بحقها في امتلاك المصفاة.

هذه صورة للعقلية التي كانت حاكمة والتي لا تزال تحكم الأقطار العربية والتي كلفت وستكلف غاليا.

ومن المدهش حقا أن لا تجيب الحكومة اللبنانية على ما قاله النائب أبو جودة. كما أن الأوساط البرلمانية اللبنانية لم تبد به أي اهتمام. وانما كان الاهتمام في مجلس العموم البريطاني عندما سأل احد النواب رئيس الحكومة عن مصير مصفاة طرابلس

بعد تأميم شركة نفط العراق وهل لا تزال المصفاة بيد الشركة، فكان جواب رئيس الحكومة مطمئنا للشعب البريطاني.

هكذا تتصرف الأنظمة بمصائر الأمة العربية!!

فخري البارودي يستجوب الحكومة

كان الاستجواب الذي تقدم به فخري البارودي في جلسة 1946/1/19 كاشفا لمدى سيطرة واستنزاف الاستعمار الفرنسي لثروات البلاد طيلة ربع قرن، ففي تلك الجلسة تقدم البارودي بأسئلة محددة، أدعى أنه وضعها بعد أن قرأ كتابا - لم يسمه في علم المالية، مع انه كان، كما يعرف الجميع، بعيدا بعقله واهتماماته ومزاجه عن بحث مثل هذه المواضيع، وقيل يومذاك أن خبيرا بالشؤون المالية قد صاغ له تلك الاسئلة الدقيقة، التي كان لها الفضل في الكشف عن تفاصيل الامتيازات المالية والاتفاقات المعقودة التي جعلت فرنسا مسيطرة على السياسة النقدية في سورية الى ما بعد الجلاء:

السؤال الأول: هل الاتفاقية المعقودة سنة 1937 بينما كان الوزير الاصيل شكري القوتلي في الحج (الاتفاقية التي وقعها وزير المالية بالوكالة آنذاك جميل مردم) مع مصرف سوريا ولبنان تنص على المدة لانتهائها، وهل يفكر وزير المالية بعرضها على المجلس لتصديقها او الغائها؟

الجواب: نعم عقدت الاتفاقية لمدة محدودة وهي 25 سنة تبدأ من 1 كانون الثاني 1940 وتنتهي في 31 كانون الأول 1964، أما قضية عرض هذه الاتفاقية على مجلس النواب فالحكومة تدرس هذه الاتفاقية كما تدرس الاتفاقيات الأخرى وستقول كلمتها في حينه.

السؤال الثاني: ماذا تبلغ تغطية الاصدار للنقد السوري المتداول الان؟ وهل قام المصرف السوري بتفيذ شروط الاتفاقية من جهة التغطية التي تنص على أن تؤلف عشرة بالمائة من قيمة الاصدار

ذهبا والباقي يجري تغطيته بسندات على الخزانة وبودائع في باريس وسندات تجارية مقبولة على الأفراد.

الجواب: ان تغطية الاصدار للنقد السوري المتداول هي دائما 100%. أما أحكام الاتفاقية التي تنص على أن تؤلف التغطية من عناصر متعددة فقد أوقف مفعولها بقرار المفوض السامي رقم 175 ل.ر المؤرخ في 25 حزيران 1940 بسبب تعذر تنفيذها خلال الحرب.

السؤال الثالث: ما هي قيمة النقد المتداول في سوريا؟

الجواب: قيمة النقد المتداول في سوريا اليوم تبلغ (205.250.000) ليرة سورية.

السؤال الرابع: أين وضعت الحكومة تغطية النقد المتداول الذي استلمته من فرنسا في شهر تشرين الثاني 1945؟

الجواب: لقد وضعت تغطية النقد الذهبية المستلمة مؤخرا في أقبية مصرف زحلة المعدة خصيصا لحفظ النقود الذهبية والأموال الأخرى.

السؤال الخامس: هل صحيح أن تغطية الاوراق النقدية الصادرة لاسم الحكومة اللبنانية تبلغ 10% ذهبا وأن تغطية الاوراق النقدية الصادرة لاسم الحكومة السورية 6.5% حسبما جاء في تصريح مدير مالية لبنان ولماذا هذا الفرق بين سوريا ولبنان؟

الجواب: لقد نصت اتفاقية لبنان على أن تكون نسبة التغطية الذهبية 10% وأشارت الى تطبيق نصوص الاتفاقية السورية اذا كانت أفضل من ذلك، وقد نصت الاتفاقية السورية على أن تكون نسبة التغطية الذهبية 10% حتى نهاية عام 1941 و15% حتى نهاية 1949 و20% حتى نهاية 1956 و 25% حتى نهاية عام 1936 و30% بعد ذلك. والنقد الذهبي الموجود في الوقت الحاضر والبالغ 94903 ليرة انكليزية و47705 ليرة عثمانية يعادل 10% من المبلغ الذي كان موضوعا في التداول قبل إلغاء هذا القيد بقرار المفوض السامي الذي ذكر أعلاه. وهكذا الحال في لبنان، ولا

أعلم من أين جاءت نسبة الـ 6.5% المذكورة في السؤال والمسندة لوزير مالية لبنان.

السؤال السادس: لماذا لا تعرض اتفاقية شباط 1944 الموقعة من كل من دولتي سوريا ولبنان ودولتي بريطانيا وفرنسا على المجلس لتصديقها؟

الجواب: لقد نص الدستور على تصديق العقود والاتفاقيات التي تتضمن منح امتيازات أو توجب اعباء على البلاد أو على خزانة الدولة بقانون، واتفاقية شباط 1944 ليست من النوع الذي يعطي امتيازا أو يضع على عاتق الخزينة أعباء من أي نوع. فضلا عن أنها قابلة للالغاء في أي وقت شاء أحد الموقعين، لذلك لم تتقدم الحكومة بمشروع قانون لابرامها.

السؤال السابع: هل يفكر حضرة وزير المال بأن اتفاقية عام 1937 والتي وصفت في عهد الانتداب ليست في مصلحة البلاد، وما هو العمل الذي قامت به أو ستقوم به لتعديلها أو الغائها؟

الجواب: ليس بمقدوري الان بيان الرأي الحاسم في الاتفاقية. وستدلي الحكومة برأيها عندما تستوفي درس هذا الموضوع الخطير من جميع نواحيه. وعندئذ يقول المجلس الكريم كلمته الأخيرة.

السؤال الثامن: هل ما زال المصرف السوري حرا في اصدار الاوراق النقدية تمشيا مع القرارات الموضوعة من قبل المفوضين السابقيين.

الجواب: لا يملك المصرف السوري حرية اصدار الاوراق النقدية كما يشاء، كما أنه ليس هناك قرارات من المفوضين الساميين تتعلق بهذا الموضوع، فالاصدار يتمشى مع الحاجة وهذه الحاجة تراقبها الحكومة.

السؤال التاسع: من هو مفوض الحكومة الدائم في مراقبة عمل الاصدار وتنفيذ الاتفاقية

الجواب: ليس للحكومة مفوض دائم ولكن للحكومة مراقبا يشرف على أعمال الاصدار وحساباته وانني أتولى شخصيا هذا العمل.

السؤال العاشر: هل ما زالت قرارات المفوض السامي مرعية الاجراء والتطبيق بشأن النقد، وماذا تفكر الحكومة القيام به لالغائها؟

الجواب: لم أفهم ما يرمي اليه النائب الكريم.

السؤال11: ما هي المبالغ التي يضعها المصرف تحت تصرف الحكومة ولا يأخذ فائدة عنها، وهل لا يرى وزير المالية ان هذه المبالغ أصبحت قليلة بالنسبة للكميات المتداولة وهل يفكر الوزير برفع نسبتها؟

الجواب: ان المبالغ التي يضعها المصرف تحت تصرف الحكومة ولا يأخذ عنها فائدة محدودة بموجب الاتفاقية بـ 250.000 ليرة سورية. ولا شك في ان هذه المبالغ قليلة جدا بالنسبة للنقد المتداول. ولكن البحث في تعديلها يدخل ضمن نطاق البحث في مجموع الاتفاقية وهو كما قلت سيقع بعد أن تكون الحكومة قد استوفت درس الموضوع برمته.

السؤال 12: ان الفائدة التي يأخذها المصرف عن رصيد حساباته مع الحكومة هي 4% وهذه الفائدة فاحشة لا يتمكن الأشخاص الذين يغامرون بأموالهم كسبها في أيام السلم العادية فضلا عن جسامتها. فماذا يفكر وزير المالية عمله في هذا الشأن؟

الجواب: ان الفائدة التي نصت عليها الاتفاقية فيما يتعلق بالسلف التي تمنح للحكومة قد حددت بـ 4% وهي فعلا فاحشة ولكن الحكومة لا تنوي الاستفادة من هذه السلف. ولذلك فهي لا تدفع هذه الفائدة فعلا. كما ان اعادة النظر في الفائدة يدخل ضمن اعادة النظر في أحكام الاتفاقية...

25

1946: الهجرة الى فلسطين في مجلس النواب السوري

مطامع الصهيونيين القديمة باستعمار الجولان

حاول الصهيونيون في عهد الانتداب - كما اشرنا في السابق - استعمار الجولان الذي حققوه بعد هزيمة الخامس من حزيران 1967.

وفي أواسط شهر شباط 1946 أصدر القاضي العقاري بدرعا - بالرغم من نفوذ الاقطاعيين وبذل الرشاوى وتآمر بعض كبار الموظفين - حكمه حول ملكية العقارات والأراضي الواقعة بقرية سحم الجولان، لمصلحة الفلاحين العرب، وفسخ أسناد التمليك المعطاة للشركة اليهودية الاستعمارية "بيكا" فأعاد تسجيلها بأسماء أصحابها الأصليين العرب، وعلى اثر ذلك أرسل محافظ درعا كتابا بتسليم غلال سحم الجولان لأصحابها العرب بعد أن حفظت مدة طويلة عند شخص ثالث.

الهجرة اليهودية الى فلسطين

كانت البلاد تغلي بالغضب حيال موقف نظام القوتلي المائع المتراخي تجاه قضية الجلاء، وبينما كانت جريدة "البلاد" الناطقة بلسان العهد تدمغ بالخيانة من يطالب برفع شكوى سوريا الى مجلس الأمن بهذا الشأن كان سيف التعطيل الاداري مسلطا فوق رؤوس الصحف غير الموالية للعهد، فصدر مرسوم بتعطيل ثلاثة صحف عن الصدور دفعة واحدة، ومما زاد في اضطراب الأوضاع وغليان الشعب بالغضب أن الحكومة البريطانية أصدرت قرارا بالسماح بدخول 1500 مهاجر صهيوني شهريا الى فلسطين، هذا بينما كان النواب الذين يعقدون جلستين في كل يوم مكبلين بقيود النظام الداخلي لأن جلسات البرلمان كانت مخصصة لمناقشة الموازنة، وتحت ضغط المجلس والشعب تلي في الجلسة الصباحية من يوم 5 شباط تقرير لجنة الشؤون الخارجية وجاء فيه:

"يعلن مجلس النواب السوري استنكاره واحتجاجه على القرار الصادر عن الحكومة البريطانية باباحة دخول ألف وخمسمائة مهاجر صهيوني شهريا الى فلسطين، ويكلف رئيس المجلس ليبرق الى مجلس العموم البريطاني والكونغرس الأميركاني بهذا القرار".

وبصفتي مقرر لجنة الشؤون الخارجية فقد قلت بعد تلاوة هذا القرار:

"أراد المجلس الكريم أن يعلن استنكار الأمة واحتجاجها على السماح بهجرة 1500 صهيوني شهريا الى فلسطين. ولكن الذي أراه ان لغة الاستنكار والاحتجاج لم تعد تجدي العرب شيئا منذ 25 عاما، والسياسة الانكليزية التي أرادت ان تجعل من فلسطين مسرحا تسيل فيه دماء العرب وتزهق أرواحهم وتسلب أموالهم وأراضيهم لتضع يدها نهائيا على عنق الزجاجة لأن فلسطين هي كعنق الزجاجة بالنسبة للشرق العربي، وقد أدخلت اميركا أخيرا شخصا ثالثا لتحملها المسؤولية، وقد رأى الساسة الاميركيون على ما يظهر ان في ذلك دعاوة سياسية لهم في أميريكا فلم يعارضوا في زجهم في هذا المأزق.

ان لغة الاحتجاج والاستنكار لم تعد مجدية. فعلى البلاد العربية ان تتخذ الموقف الواجب. ولذلك فانني أرى ان تسعى الحكومة السورية لدى الجامعة العربية كي تعلن ان الحكومات العربية غير مسؤولة عن أية أعمال عنف تجري في فلسطين. فقد كفى الأمة العربية ذلا ووقوفا موقف المستضعف بينما يقف غيرها موقف المستأسد. ان ثورة فلسطين الماضية التي اشتركت جميع البلاد العربية فيها قد تعود وتتجدد، ولكنها اذا تجددت في هذه المرة فستكون بشكل اشد عنفا وأكثر جدية وجدوى. ان الشعب العربي قد استيقظ وقد شعر بالخطر الغربي. فاذا استمر الحال في فلسطين على هذا الشكل فانها ستزول من جسم الوطن العربي الأكبر والوطن السوري".

وكان سعد الله الجابري غائبا عن الجلسة، وبصفته رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية تأجلت مناقشة هذا القرار الى الجلسة المسائية في اليوم ذاته.

وما أن افتتحت الجلسة المسائية حتى حوصر الجابري بهجوم من نواب المعارضة ان كنا نلخصه فيما يلي فلكي يعرف القارىء ما تم بشأن

قضية الجلاء وعقلية أركان نظام القوتلي الذي أرادوا أن يجعلوا منه، بدلا عن الشعب، بطل الجلاء.

"اكرم الحوراني: ان ملاحظات النواب تتناول أولا سبب تأخر الحكومة في ابداء رأيها بقضية فلسطين، وثانيا عدم اجتماع مجلس جامعة الدول العربية واتخاذها موقفا حازما تجاه هذه القضية.

سعد الله الجابري .... رغبة منا في أن تكون جميع البلاد العربية منسجمة في الأجوبة رأينا أن تتولى الجامعة العربية الاجابة باسم هذه البلدان جميعها. فاقترحت على البلدان العربية ان تقدم كل منها جوابها الى الجامعة وهي تستخلص من هذه الأجوبة جوابا واحدا يعبر عن رأي الجميع.

اكرم الحوراني: هل يعتقد دولة الرئيس ان هذه الاحتجاجات والاستنكارات التي يبديها الشعب العربي تجاه هذه القضية في كل مناسبة، هل هي مجدية هذه المرة أم يجب على الدول العربية ان تفكر جديا بدفع هذا الخطر الداهم؟

سعد الله الجابري: ان الاحتجاج لا يمكن الا ان يكون مجديا. ولكن الى أية درجة يجدي فهذا لا يمكن ان يعينه لا وزير الخارجية ولا سواه.

رئيف الملقي: تفضلتم أنكم ستسألون الجامعة لماذا لم تجتمع لتعطي جوابها على قضية السماح، الهجرة الصهيونية فما هو رأي الحكومة؟ ... ثم: عندما أعلن البلاغ عن الاتفاق البريطاني الفرنسي سئل سفير سوريا في مصر (جميل مردم) الذي يترأس الجامعة الآن فقال ان هذا الامر لا يعني الجامعة ولكن يعني سوريا ولبنان فقط. فكيف يقول رئيس الجامعة الذي هو ممثل سوريا ان الاتفاق الفرنسي البريطاني لا يعني الجامعة العربية؟

نصوحي البخاري: هل يسمح لي دولة الرئيس بسؤال؟ هل لا يكون من المفيد أيضا ايصال شكوانا من السماح بالهجرة اليهودية لفلسطين الى مجلس الأمن؟

الجابري: لقد أبرقنا لرئيس الوفد بالموقف وتركنا له اختيار العمل والصيغة للدفاع عن هذه القضية، وهذا كل ما نستطيعه.

رئيف الملقي: كنت مرة في دار الحكومة واذا بالهاتف من جريدة "البلد" يسأل المرجع الرسمي عن رأيه بالقضية الفلانية ماذا يريد

ان يكتب بها. وقد نشرت جريدة البلد جواب الجهة الرسمية وفيه أن عرض القضية على مجلس الأمن هو خطأ وجناية.. نطلب من الحكومة اصدار بلاغ رسمي في الموضوع كي يرتفع كل التباس من الأفكار وكل ما يتعلق بهذه الجريدة.

الجابري: نحن غير مسؤولين عما تكتبه الصحف...

رئيس المجلس: أظن ان البحث كاف في هذا الموضوع".. الخ

تعليق

يظهر من تعليقي على قرار السماح بالهجرة اليهودية الى فلسطين آنذاك، لا سيما بما يتعلق بموقف أمريكا من القضية الفلسطينية، أن فهمي كان ساذجا غير واقعي. والسبب أن العالم بصورة عامة، والعرب بصورة خاصة، كان يجهل ما دار في المؤتمر الذي عقده مجلس الطوارىء التابع للمنظمة الصهيونية في فندق بالتيمور بنيويورك بشهر أيار 1943، والذي ظهر بعد سنين أن الصهيونيين قرروا فيه نقل مركز نشاطهم وقيادتهم من لندن الى نيويورك، ليحققوا على يد الأميركيين من أهدافهم ما لم يتمكنوا من تحقيقه على يد بريطانيا التي اصبحت بعد الحرب من الدرجة الرابعة.

كان مجهولا لدى العرب النتائج التي ستترتب على مقرراته، كما كان مجهولا لديهم الصورة المرعبة للنفوذ الصهيوني على الادارة الأميركية بجميع أجهزتها ونفوذها على المؤسسات الأميركية، وتحكمها فيها جميعا وتسخيرها لتحقيق أغراضها التوسعية العدوانية في البلاد العربية.

27

1946: معركة الحريات التي خاضها الشعب السوري ضد المرسوم 50 إحدى أعظم المعارك النضالية في تاريخ سوريه- قضية الحرية ترتفع في نظر الشعب الى مرتبة الاستقلال- مراقبة المراسلات البريدية والبرقية والهاتفية ممنوعة بموجب المادة 18 من الدستور السوري لعام1928

عودة الجنرال سبيرس إلى سورية .

بعد الحرب العالمية الثانية سارت السياسة البريطانية في المنطقة على محورين في وقت واحد: محور عربي (بإقامة اتحادات) ومحور إسلامي بزعامة تركيا لإقامة تكتل إقليمي باسم الدفاع عن الشرق الأوسط ضد روسيا. وكلا المحورين هدفه ربط البلدان العربية المستقلة حديثا أو المناضلة لنيل الاستقلال في عجلة السياسة البريطانية الاستعمارية.

لذا كان ضيق بريطانيا شديدا من جريدة اليقظة التي كانت تتابع نشاط أجهزتها الخفية والدعائية، وتحصي الأنفاس على تحركاتها ومحاولة تغلغلها وبسط سيطرتها ونفوذها على أجهزة الدولة، وكانت وراء إغلاق الصحيفة وإحالتي على المحاكمة، وكان مقررا لدى الانكليز أنه بدون قيام حكم قوي في سورية، يمسك الزمام بقبضته لا يمكن تنفيذ السياسة البريطانية في المنطقة.

ففي 10/17 وصل الجنرال سبيرس قادما من القاهرة، وقد أقيمت له مأدبة في القصر الجمهوري حضرها رئيس المجلس النيابي ورئيس مجلس الوزراء وبعض النواب والقائم بأعمال المفوضية البريطانية، وكانت حكومة القوتلي قد منحت الجنرال سبيرس لقب مواطن سوري، بعد أزمة مايس 1945، وحاولت أجهزة الدعاية خلال تلك الفترة تصوير هذا الجنرال البريطاني بصورة صديق سورية الصدوق، فوجدت فيه بريطانيا، الرجل المناسب لإشعار السوريين بأن بريطانيا وراء نظام القوتلي، فقام

سـبيرس بجولـة فـي سـورية، يلقـي الخطابـات المؤيـدة لنظـام القوتلي وسياسته.

بعد يومين من وصول سبيرس الى سورية، نشرت الحكومة ملاكـات الدولـة بمراسـيم اشـتراعية، بعـد أن خولتهـا اكثريتهـا البرلمانية ذلك، وكان من بينها المرسـوم رقـم 50 الشـهير فعلقـت جريدة اليقظة :

"لـيس مـن قبيـل الصـدفة أن تتفـق زيـارة صـديقنا الصـدوق الجنـرال سبيرس مع ظهور الملاك[1] المشهور الـذي بطـش بحريـات الفـرد والجماعـة، وكان بمثابة المادة 116 بالنسبة الى كافة الحقوق التي كفلها الدستور".

كان لا بد من كشف هذه الاوضاع فكتبت في جريـدة اليقظـة افتتاحيـة بعنوان "أساليب التوريط" هذا نصها :

"تساءل الناس كثيـرا عـن سـر زيـارة الجنـرال سـبيرس للـبلاد العربيـة عامة ولسورية بصورة خاصة، في مثل هذه الظروف**!**

والذي يهمنا أن نقرره مبدئيا سواء كانت رحلة الجنرال سبيرس بـدعوة من الامانة العامة للجامعة العربية أو بدون دعوة، فمما لا شك فيه ولا ريب، أن رحلته هذه كانت بايعاز من قبل الحكومـة البريطانيـة للقيـام بـاعظم المهمـات السياسية.

ولا يمنع الجنرال سـبيرس "المحـافظ" أن يقـوم بمـا تكلفـه بـه حكومـة حـزب العمـال، لان الحزبيـة فـي بريطانيـة لا تـؤثر فـي سـبيل خدمـة مصـلحة الامبراطورية.

ويمكننا أن نستنتج مـن جميـع البـوادر التـي رافقـت رحلـة الجنـرال ان مهمته كانت عظيمة ومتشعبة، فهي تتعلق بالقضـية الفلسـطينية وبالتحـالف الشرقي عامة وبالقضية السورية بصورة خاصة، وهذا ما يعنينا بحثه الان.

لا شك أن اسلوب الجنرال سبيرس فـي تحقيقـه للاغـراض البريطانيـة في سورية كان لبقا جدا وذكيا جدا، ولا نظن أنه تعدى في بحثه مـع الحكومـة السورية موضـوع التحـالف الشـرقي وتمتـين أواصـر الجامعـة العربيـة وتطمـين

(1) هذا الاصطلاح في سورية هو تعريب لكلمة CADRE الفرنسية وهـو يعنـي تحديـد مـوظفي كـل وزارة مع تحديد مراتبهم وحدود وظيفتهم.

الحكومة السورية عن النوايا البريطانية تجاه الوضع القائم في البلاد السورية وقد تعدت تطمينات الجنرال الحكومة الى الشعب، فقال في خطابه بحلب "بأنه لم يسمع قط في بريطانية بمشروع سورية الكبرى..." مع أن الشعب السوري يسمع دوما بالدعاية الواسعة لهذا المشروع من قبل الشركات التي خلفها الجنرال في هذه البلاد!! وقد أثنى في خطابه ايضا بدمشق على الشعب السوري "**لأنه مستعد للانطباق على ما يفرضه هذا الوضع من انظمة وقوانين جديدة**"، فنحن أخشى ما نخشاه من مواطننا الجنرال ومن صديق سورية ايام محنتها ان يؤدي بحكومتنا بعد تطمينها عن مشروع سورية الكبرى وتأكيده لها بحسن نوايا الحكومة البريطانية الى آخر ما هنالك من هذه الاساليب، الى توريطها بقضايا وأمور تطعن الوضع القائم في الصميم! والا فما شأن الجنرال سبيرس بالدعاية لانظمة الحكومة السورية وقوانينها الجديدة، **مع أن السوريين لم يروا فيها، سيما ملاك الداخلية، الا "ديناميتا" معدا للانفجار بعد عام أو اكثر، وما يهم بريطانية الانتظار عاما أو بعض عام وهي تعد مشاريعها لمئات الاعوام"** 1946/10/24.

لا تسيئوا إلى النظام الجمهوري .

وفي 1946/10/23 كتبت افتتاحية بعنوان "لا تسيئوا إلى النظام الجمهوري" هذا نصها:

"دست الحكومة في مراسيم ملاكات الدولة التي اصدرتها، قوانين لا يحق حتى للمجلس النيابي اصدارها قبل تعديل الدستور السوري، لانها لا تخالف أحكامه فحسب، بل انها تنسف النظام البرلماني الديموقراطي من حيث الاساس! وهذه القوانين تقضي على الحريات العامة قضاء مبرما وهي افظع سيئة قاتلة من سيئات الملاكات العديدة الاخرى.

ان الدستور السوري قد كفل الحريات العامة، كما كفل الحريات الشخصية، ولكن هذه الملاكات تقضي حتى على الحرية الشخصية بصورة لم يشهد لها نظير ألا في الدول الدكتاتورية فأصبح للوزير بموجب هذه الملاكات الحق بتحريم حرية الاجتماع، كما اصبح له الحق ايضا ان ينفي الاشخاص بحسب تقديراته الخاصة ولم يبق الا ان تمنح الحكومة نفسها حق قطع الرؤوس والاعناق حسب هذه التقديرات أما حرية القول فقد حكم عليها بكم الافواه نهائيا، واما الصحافة فقد الغيت الغاء مطلقا واصبحت وظيفة من وظائف

الحكومة، وأما الصحافيون فأصبحوا موظفين مأجورين للتسبيح بالحمد والثناء. **ولكن كل هذا... سيطبق بطريقة لبقة، وبعد أن يفحص أحد اعضاء المجمع العلمي هذه الصحف، كأن قضية الحرية من القضايا النحوية أو اللغوية، مع عضو من محكمة التمييز كأنها قضية قضائية، وباشتراك مدير المطبوعات "الفني" طبعا! فيصبح لكل مدينة عدد من الصحف الموظفة حسب نسبة السكان. اما الصحف التي ستلغى امتيازاتها فستأخذ تعويضا على حساب الأمة!**

فماذا تعني هذه التصرفات؟ انها تعني بأن الحكومة قد فاجأت الناس بكشف جديد في عالم السياسة والحكم والتشريع لم يرد على خاطر غيرها من الحكومات، لانها فقهت من الحرية الفكرية التي ضمنها الدستور لمجموع الامة السورية، بانها وقف بطريق الحصر والقسر على الحاكمين انفسهم فقط الذين لا يتجاوز عددهم اصابع اليد.

والذي يحزننا أثر هذه التصرفات في حياة الامة ومستقبلها البعيد، سيما ونحن في طريق النشوء نتلمس الطريق تلمسا، ولا تزال جميع مشاكلنا تحت التأمل والبحث ولما تحل بعد، سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية او القومية. **فهل يجوز ان يفرض على هذه الامة الناشئة الفتية ألا تفكر ولا تعقل ولا تحس ولا ترى إلا ما يراه هؤلاء السادة الحاكمون؟ وهل هذا سبيل من يريد ان يخطو بامته خطوة واحدة الى الامام؟ اللهم ان ما يسلكونه ان هو الا طريق التقهقر والانحطاط، مهما حاولوا ان يبرروا اعمالهم بالمزاعم الزائفة** والا فكيف يجوز أن يقضى على الحرية الفكرية بحجة كثرة الصحف- وكان الاجدر بهم أن يفسحوا المجال للصحف الحرة بعد ضمان الشروط والمؤهلات العلمية والاخلاقية بسن تشريع جديد للمطبوعات والا فكيف يجوز ان يبقوا على الصحف المأجورة ويلغوا الصحف الحرة ويمنعوا على جميع ابناء الامة حرية البحث وابداء الرأي والتفكير بقضاياهم الجوهرية! **وهل الطريق الصحيح للتخلص من كثرة الصحف ان يحجبوا الرخص حتى على المجلات العلمية والثقافية البحتة حتى الآن عن الطالبين!!** ان جميع مثقفي البلاد والمتنورين فيها يؤمنون بصلاح النظام البرلماني الجمهوري لانه ضامن للحريات العامة، سيما ونحن من الشعوب التي تسير في طريق النهوض... **فاذا قضي على هذه الحريات ضمن هذا النظام، ألا تزول أعظم**

الحجج والمستندات التي تؤيد بقاءه واستمراره؟ وإلا يزول معنى النظام البرلماني الديمقراطي من حيث الاساس!

لذا فنحن معذورون أن نعد الحكومة القائمة الآن التي تعتبر نفسها حامية لهذا النظام انها اساءت إليه اعظم اساءة واصمته بابلغ اصابة بمثل هذه التصرفات. **ونحن نخشى اذا استطاع المسؤولون تطبيق هذه الملاكات بموافقة من المجلس النيابي أن تكون في المستقبل ثغرة استغلال خارجي أو داخلي يطيح بنظام هذه البلاد واستقلالها.**

اننا نستهدف ان نجعل من نظامنا في سورية نظاما مثاليا نموذجيا وطريقا تحرريا للاقطار العربية الاخرى، ولكن الحاكمين يأبون ألا أن يجعلوا منه حكما رجعيا كيفيا".

□

إحدى اعظم المعارك النضالية في سورية: قضية الحرية في نظر الشعب ترتفع الى مرتبة الاستقلال:

كان معبرا عن الواقع الشعبي ذلك المعلق الذي كتب في جريدة اليقظة تلك الفترة:

"ارتفعت منزلة الحرية في بلادنا إلى مرتبة القضية، فأصبحت الحرية في الظرف الحاضر كما كان الاستقلال في ظرف الاحتلال أمنية عزيزة غالية تثير الخواطر وتلهب المشاعر". والواقع أنه منذ نشر نص المرسوم رقم (50) وحتى سقوط وزارة الجابري في 1946/12/22 خاض الشعب في سوريا معركة هامة من معاركه النضالية، **ارتبط فيها النضال لضمان الحريات الديمقراطية بالنضال للمحافظة على الاستقلال ومناهضة المشاريع البريطانية الاستعمارية.** وإنني لأعتبر ما أسفرت عنه هذه المعركة، من سقوط حكومة سعدالله الجابري، وتراجع نظام القوتلي عن خطته واضطراره لالغاء المرسوم رقم (50)، ثم تعديل قانون الانتخاب منعطفا كبيرا في تاريخ سورية السياسي، وسببا في انهزام مشاريع الغرب الاستعمارية التي تعرضت سورية لضغوطها خلال الاثنتي عشر سنة القادمة.

ربما يعتري القارئ السأم من سرد وقائع ودقائق وتفاصيل معركة الدستور والحريات الديمقراطية التي خاضها الشعب ضد الرجعية والطبقية والاقطاعية، ولكن من يستقرئ هذه الوقائع بإمعان يجدها شواهد لا تقبل الدحض **على أن معركة الديمقراطية في البلدان النامية هي معركة التطور وترسيخ القيم الوطنية والاخلاقية وبناء القاعدة المادية للجميع على أساس صحيح من العدالة الاجتماعية... إنها معركة بين عوامل ورسوبات التخلف والهزيمة وبين عوامل التقدم والنهضة، ومن المؤسف ان كل ما حققه الشعب في سوريا بتضحياته على طريق الديمقراطية قد قضت عليه الأنظمة العسكرية والديكتاتورية باسم الثورة والاشتراكية فهيأت بذلك من جديد كل العوامل لهزيمة الخامس من حزيران عام 1967. إن الأحزاب الشيوعية والماركسية تتحمل مسؤوليتها في هذه الهزيمة لأنها جعلت من نفسها منظرا للأنظمة العسكرية وجعلت من الديمقراطية نقيضا للاشتراكية وهو خطأ وانحراف فكري أدى إلى الاشتراك في لعبة الاستعمار الجديد في العالم الثالث.**

□

معركة الحريات 9/24 أواخر عام 1946.

سأكتفي -للاختصار- بذكر عناوين الأخبار يوما بيوم كما نشرتها "اليقظة" آنذاك، ما بين 10/19 و 1946/11/15.

"حريات كفلها دستور 1928 يتنكر لها حكام 1948 (مقال)- بدء معركة الحرية بين أسرة الصحافة والحكومة - ملاك وزارة الداخلية أو صراع بين الحرية والسلطة المطلقة (مقال)- خطر هذا الملاك (مقال)- إذا نفذتم هذا المرسوم فلنترحم على الدستور (مقال) - سألت اليقظة شفيق جبري عضو المجمع العلمي عن رأيه بالمرسوم رقم (50) فأجاب: الوجه القبيح ترعبه المرآه- عصبة العمل القومي تستنكر المرسوم 50- بيانان لحسن الحكيم ضد

المرسوم 50- بيان جبهة الدفاع عن الدستور والحريات العامة: الأمة تدخل معركة فاصلة لتوطيد حريتها ودفع سياسة الطغيان- خمس عرائض من حماه تطالب بجعل قانون الانتخاب على درجة واحدة- الشباب المثقف يوالي احتجاجه على خنق الحريات ووأد الصحافة الحرة- بيان لسلطان الأطرش يؤيد جبهة الدفاع عن الدستور ويناشد الشعب والبرلمان وضع حد للطغيان وخنق الحريات وخرق الدستور ويطلب من النواب رفض التصديق على المراسيم وسحب الثقة من الحكومة- حمص بمحامييها وأطبائها وتجارها ووجهائها وشبابها وطلابها تعلن احتجاجها واستنكارها لمحاولة خنق الحريات وخرق الدستور والقوانين- عرائض حماه بخمسة آلاف توقيع تطلب تعديل قانون الانتخاب- أحياء حمص تستنكر المرسوم 50- برقيات من حماه بالاستنكار والاحتجاج على خنق الحريات وخرق الدستور"... الخ.

□

كان من الطبيعي أن لا يهدأ لنا نشاط في تلك الفترة النضالية، وعندما عقد المجلس النيابي أولى جلسات دورته في 1946/10/24 حاولت إثارة الموضوع قائلا: "إن الدستور قد اخترقت حرماته في أقدس الأمور"... ولكن الحكومة والنواب الموالين لها استطاعوا صرف الجلسة الى قضايا انتخاب مكتب المجلس، ثم تأجلت الجلسات بحجة عيد الاضحى اسبوعين آخرين، فسافرت الى حماه، ولدى مروري بحمص، واستراحتي في مقهى الروضة، سألني محرر "السوري الجديد" الحمصية عن الوضع فأجبت "إن اليقظة الفكرية التي قابل بها الشعب في دمشق مرسوم ملاك وزارة الداخلية تبعث على الأمل. فلقد بلغ الغليان الفكري حدا لم يشاهد له مثيل أمام أدهى الأرزاء التي اجتاحت هذه البلاد". وتحدثت عن نشاط لجنة **الدفاع عن الدستور التي كان لي دور بتأليفها في دمشق،** ثم قلت: "ان الحكومة سعت لتأجيل جلسات المجلس لتتحاشى مواجهة النواب وهم على ما هم عليه من حماسة وغليان، وظنت ان الزمن يطفئ حماستهم بعض الشيء".

ومر عيد الأضحى، وظنت الحكومة أنها إذ تواجه البرلمان بتاريخ 1946/11/12 فسيكون الغليان قد هدأ نوعا ما بمرور الوقت ومظاهر العيد، ولكن الأمور سارت على عكس ما تهوى، فقد انعقد البرلمان في جو متأزم ملتهب بسبب اطلاق الشرطة النار على الطلاب المتظاهرين في دمشق، وجرح عدد من الطلاب العزل، واستشهاد الطالب نسيب الخطار وتشييعه بموكب مهيب يغلي بالغضب على النظام الذي كان اعتداؤه على الطلاب أول تنفيذ للمرسوم الديكتاتوري رقم 50، كما جرى إطلاق النار على الطلاب في اليوم الثاني على التوالي، فسقط أكثر من عشرة جرحى، مع تعطيل عدد من الصحف هي جريدة الجهاد الناطقة بلسان الحزب القومي العربي، وجريدة النضال لصاحبها سامي كبارة، وجريدة الجبل (جبل الدروز) كما عطلت فيما بعد جريدة اليقظة عن الصدور.

لم يكن الجابري موافقا على خطة القوتلي الجديدة:

بهذا الجو الغاضب المتأزم عقد المجلس النيابي جلسته المقررة في 1946/11/12 "فازدحمت قاعة المجلس بجموع غفيرة لشهود الجلسة المثيرة". ولكننا فوجئنا، عندما نهض الرئيس سعدالله الجابري ليلقي بيانه حول الموضوع الذي أثرته في الجلسة السابقة، بتراجع واضح عن الخطة الحكومية التي أثارت تلك المعركة النضالية. فقال أولا مبررا الأحكام التي وردت في المرسوم (50) :

"لنتجرد قليلا عن الأشخاص الذين يطبقون هذا القيد، ولا تنظروا إلى الماثل أمامكم هل إنه سيطبقها هو أو غيره بل انظروا إلى الموضوع نفسه انه ضرورة من ضرورات حياتنا السياسية في هذه الأيام، أخاف عليكم وعلى البلاد منها، قد يكون في الاسلوب أو الصيغة ما يمكن ان يعتبر أنه غلو أو مبالغة أو فيه شيء من القسوة، فالموضوع أمامكم باستطاعتكم أن تبحثوه وأن تقبلوه وأن تعدلوه أو ترفضوه. ونحن لسنا من الأشخاص الذين يجعلون العناد أصلا في العمل ولا الادعاء من خصائصنا".

وختم خطابه بقوله: "ان الحكومة غير متهالكة على تنفيذ هذه المراسيم: فأنا أقول أن الحكومة مع تمسكها برأيها وقناعتها واستعدادها للدفاع عنه فهي تستعجلكم بقدر ما تسمح لكم أعمالكم أن تقوموا بإنجاز هذا العمل في ثلاثة أيام. والملاك الذي يهمكم أكثر من غيره اعملوا على إنهائه. ونحن على استعداد لوضعه موضع التنفيذ".

وعندما جاء دوري في الكلام قلت :

أريد أن أبين أن هذا القانون يعد مخالفة للقوانين وللدستور: فقال الجابري.: هذا يحتمل المناقشة، فقلت :

"إن الموضوع صريح جدا، فقرار المفوض الافرنسي صدر في عام 1924 عندما كانت البلاد على أبواب الثورة السورية. ولم يستهدف المفوض الافرنسي من قراره هذا إلا حماية شخصه وجيوشه في هذه البلاد. وهذا القرار يعتبر ملغيا بنشر الدستور السوري، فكيف تأتي الحكومة وتنبشه بعد عشرين عاما بعد أن ألغي بالدستور السوري وبعد صدور قانون المجلس النيابي بتحديد تعطيل الصحف شهرا واحد.. فالقضية إذن عامة ودستورية وقانونية أيضا"..

ثم عدت الى الكلام قائلا: "إن عددا كبيرا من أعضاء هذا المجلس يعتقد أن في هذه الملاكات مخالفة للدستور. وطالما أن الأمر كذلك فيجب أن تعرض على لجنة الدستور لتعطي قرارها بهذا الشأن"..

□

كان واضحا من خطاب سعدالله الجابري في هذه الجلسة، بأنه ليس على اتفاق مع شكري القوتلي في سياسته التي كان مزمعا على تنفيذها بواسطة وزير الداخلية صبري العسلي، وهي كم الافواه ليستطيع تعديل الدستور بما يتيح له تجديد رئاسته التي ستنتهي بعد عام، ويشير إلى ذلك خالد العظم في مذكراته:

بدأ رئيس الجمهورية منذ أواخر تشرين الثاني يلح علينا بضرورة الاستقالة مدعيا بأن مرض رئيس الوزراء لا يسمح له بتعاطي مهامه، ولكن السبب الحقيقي لرغبة القوتلي في التخلص من الوزارة لم يكن مرض

الجابري فحسب، بل أيضا اختلافه معه في قضية يعتبرها القوتلي ذات أهمية عظمى وهي أنه كان يطمع بتجديد رئاسته خلافا للدستور ولم يوافقه الجابري على التعديل، فنشب الخلاف بينهما، فولى الرئيس وجهه عنه والتفت إلى جميل مردم الذي أبدى موافقته على تعديل الدستور وتجديد انتخاب القوتلي لقاء أن يعهد إليه برئاسة الوزارة (ص328 الجزء الأول).

كانت جلسة 1946/11/12 آخر جلسة حضرها سعدالله الجابري إذ ذهب على أثرها إلى القاهرة للاستشفاء من مرض اليرقان الحبشي الذي أودى بحياته بعد ذلك بشهور قليلة، وعندما توفي كان الخلص من أصحابه ناقمين على شكري القوتلي الذي اعتبروه مسؤولا عن استفحال مرض الجابري الذي أدى إلى وفاته.

لم نكن عارفين بحقيقة مرض سعدالله الجابري، إذ لو عرفنا ذلك لامتنعنا عن مهاجمته بتلك الحدة، وقد ندمت ندما شديدا على ذلك، فقد كانت تربطني بالجابري أواصر المحبة بالرغم من خلافنا السياسي، ولا أدل على ذلك من أنه إثر تشكيل حكومته الأخيرة طلب مني أن أقوم بمهمة في وزارة الخارجية، مع مهماتي النيابية، لوضع الصيغ والاشراف على كل ما يخرج من وزارة الخارجية من أجوبة على المذكرات التي ترد إليها. وهذا طبعا يدل على ثقة كبرى، فاعتذرت له عن القيام بهذه المهمة، بالرغم من أنها كانت تجعلني على اطلاع رسمي على سياسة الدولة الخارجية، لانني ما أردت أن أكون مقيدا في طرح آرائي وافكاري سواء في جريدة اليقظة أو في المجلس النيابي.

قلت للجابري آنذاك إنني أشكره على ثقته الكبيرة ولكن مثل هذه المهمة تحد من تصرفاتي وطرح آرائي على كل المستويات الصحفية والمجلسية والشعبية كما قلت له:

إن من مصلحتكم، وأنت رجل مجاهد، أن تبقى أصواتنا المعارضة الحادة لأنها عون لكم في مواقفكم تجاه الضغوط الخارجية والعربية التي تواجهكم والمؤامرات التي تحيق باستقلال البلاد الوليد.

□

في جلسة 1946/11/14 ، تلي الاستجواب الذي تقدمت به بشأن توقيف الصحف عن الصدور، وعلى اثر ذلك انتقل المجلس الى بحث الملاكات مبتدئا بسماع بيان وزير الداخلية صبري العسلي عنها، وبعد مقدمة طويلة عن الأعراف الدستورية في بريطانيا وفرنسا بخصوص تنازل المجالس النيابية للحكومات عن السلطة التشريعية- وكانت كل الأمثلة التي أوردها عن حالات الحرب والحالات الاستثنائية لتبرير حق الحكومة بإصدار هذه الملاكات بمراسيم اشتراكية وبعد أن حمل على الصحف وقال: "إن ملاك الداخلية أعطى الحق لوزير الداخلية بأن يسترد الرخص الممنوحة للصحف والمجلات والنشرات وجميع المطبوعات في أحوال معينة وهي :

1- التعرض لما يسيء إلى مباديء الدستور ونظام الحكم الجمهوري ورئيس الدولة.

2- التواطؤ مع الدول والمنظمات الأجنبية.

3- تكرر المخالفات التي تستوجب التعطيل الاداري".

واختتم بيانه: "وها أنني أقترح على مجلسكم الكريم دراسة مشروع قانون تقدمه الحكومة الآن وهو يتضمن 1- وقف العمل بأحكام المرسوم رقم 50 تاريخ 1946/10/19 2- يحال المرسوم رقم 50 الذي سيقرر مجلسكم الكريم وقف العمل به لبحثه بأسرع ما يمكن وإقرار ما يريد اقراره منه بالشكل الملائم". فكان ختام بيانه مختلفا عن مقدماته... فتلي مشروع القانون وهو من مادتين فوافق المجلس عليه. وبذلك حقق النضال الشعبي أول انتصاراته في هذه المعركة.

□

في جلسة 11/18 تلي تقرير لجنة الدستور حول مخالفة الملاكات لأحكام الدستور وفيما يتعلق بالمرسوم 50 ورد فيه ما يلي:

"لما كان قد تبين من تدقيق المرسوم التشريعي رقم 50 أن وزير الداخلية خول نفسه حق الترخيص للأحزاب والجمعيات والمنظمات والنوادي والترخيص لعقد الاجتماعات وحق المراقبة والاشراف على فعالية الأحزاب والجمعيات والاجتماعات. يعني ذلك أن له وحده حق المنع المطلق بإرادته الكيفية. كما أن المرسوم المذكور خول وزير الداخلية حل ومنع جميع هذه المؤسسات حسب تقديراته الشخصية التي قد تخطيء أو قد تصيب دون أن يكون هناك أي مجال في مناقشة تقديراته الخاطئة وما ينتج عنها من أسواء وأضرار قد تكون بالغة جدا. أن هذا المرسوم خول وزير الداخلية أيضا حق فرض الاقامة الاجبارية على المواطنين السوريين دون أن يكون في القوانين النافذة ما يجيز له ذلك مطلقا.

وخوله حق تحديد الصحف حسب عدد السكان وحق الترخيص بإصدارها وتعطيلها وحق اغلاق المطابع واصدار مراسيم تنظيمية تتعلق بتنظيم شؤون المطبوعات وممارسة الصحافة وتحديد أسعار الصحف وغير ذلك من الأمور، مما يخالف أحكام الدستور صراحة. وفضلا عن كل هذا فإن المرسوم المذكور في المادة 31 منه نص على اجراء تغييرات وتبديلات الغاء وإحداثا في المناطق الادارية كالأقضية والنواحي بمرسوم تنظيمي مما يخالف النص الدستوري القاضي بأن لا يصدر ذلك إلا بقانون[2] .

وفي المواد 37 و 38 و 39 و 40 من المرسوم المذكور خول المحافظ سلطة التصرف بالجيش بصورة مستمرة وتوريطه في الأمور الداخلية بأي وقت شاء، على خلاف الغاية الأساسية من تشكيل الجيش وإيجاده وهي تأمين الأمن الخارجي والدفاع عن حدود البلاد والاشتراك بتأمين الأمن الداخلي في حال الطواريء وفي حال قيام اضطرابات تستدعي قيام الأحكام العرفية التي نص الدستور في المادة 112 منه على أنها من اختصاص رئيس الجمهورية وحده على أن يعلم المجلس حالا. وإذا كان المجلس في العطلة دعاه للاجتماع بدون تأخير.

وكان التشريع الموضوع من جهة أخرى فيما يتعلق بالحريات العامة لا يستهدف صيانة الحريات وحمايتها وكفالتها كما ينص الدستور بل يستهدف

(2) كان ذلك تهيئة للانتخابات القادمة، لأن التغيير في المناطق الإدارية يمكن أن يؤدي إلى نتائج انتخابية.

العبث بها بصورة كيفية ففوضها لرأي شخص واحد هو رأي وزير الداخلية وحده. **وكيف تحمى الحريات وتصان وتكون مكفولة ما دام وزير الداخلية وحده بتقديراته الشخصية يستطيع أن يقضي على جميع الجمعيات ويحل جميع الأحزاب ويغلق المطابع ويسترد امتيازات الصحف ويبعد الناس عن مواطنهم. وبالاجمال يتصرف بحريات الناس كافة حسب أهوائه وتقديراته الشخصية التي لا مرجع لمناقشته فيها. في حين أن روح الدستور والمبادئ الأساسية تقضي بأن يترك لكل فرد حق الدفاع عن نفسه لدى المراجع المعينة تجاه كل ما يمس حريته التي منحه إياها الدستور بل حقه الطبيعي كفرد من أفراد المجتمع، ولذلك قررت اللجنة بإجماع آرائها بأه المرسوم الاشتراعي رقم 50 يخالف الدستور في المواد الآتية: المادة 30، 33، المتعلقتين بحصر حق التشريع بمجلس النواب وبحظر نشر القوانين قبل اقرارها منه، والمادة 109 المتعلقة بتحديد مناطق الادارة واختصاصها بقانون، والمادة 112 المتعلقة باعلان الأحكام العرفية من قبل رئيس الجمهورية، والمادة 11 المتعلقة بعدم جواز أبعاد السوريين عن مواطنهم إلا بقانون، والمادة 16 المتعلقة بكفالة حرية الفكر، والمادة 17 المتعلقة بحرية الصحافة والطباعة، والمادة 25 المتعلقة بحرية الجمعيات وعقد الاجتماعات.**

إن اللجنة ترى أن المرسوم التشريعي رقم 50 خالف الدستور في مواده المنصوص عنها آنفا. وهي توصي المجلس بالموافقة على قرارها بعدم دستوريته في المواد الآنفة الذكر من المرسوم رقم 50 وتقترح حذفها ومن ثم إحالة مواد المرسوم الأخرى الى اللجان المختصة لدراستها حسب الأصول".

وفي الجلسة التالية بتاريخ 1946/11/23 أعلن خالد العظم رئيس الوزراء بالوكالة موافقته على تقرير لجنة الدستور قائلا: "تأسف الحكومة لأنها ليست على اتفاق مع لجنة الدستور ولكنها، كي لا يكون هناك ما يشطر المجلس ويشطر البلاد تفضل طي المواد التي نص عليها تقرير لجنة الدستور، وأن يحال المرسوم 50 خلوا من هذه المواد إلى اللجان المختصة لدراسته وتقرير ما تراه بشأن بقية المواد".

□

مراقبة المراسلات البريدية والبرقية والهاتفية ممنوعة بموجب دستور 1928.

عند تلاوة سؤالي في جلسة 1946/11/28 عن حجز البرقيات المرسلة لجريدة اليقظة تلي جواب وزارة الداخلية الذي اتهمني فيه بأنني ألقيت خطبا سياسية في حماه أدت إلى اضطراب حبل الأمن وأن البرقيات التي أرسلت على أثرها تحوى عبارات نابية ومثيرة للرأي العام ولذلك أمر وزير الداخلية بإيقافها واقامة الدعوى على مرسليها. وبعد ثلاثة ايام سلمت البرقيات الى أصحابها. وبرر وزير الداخلية عمل الوزارة هذا بالاستناد إلى اتفاقية مدريد الدولية التي تمنع تبادل البرقيات المنافية للآداب والمخلة بالنظام. وكذلك تعليمات مديرية البرق والبريد تبرر هذا الاجراء. أما قطع المخابرات الهاتفية عني فقد نفى علمه بها وقال "ان الحكومة لم تستعمل حقها بقطع هذه المخابرات".

فأجبته قائلا: "عندما نبحث المخالفات الدستورية والقانونية لا نبحث أمرا شكليا، وإنما نبحث أمرا جوهريا تتوقف عليه حياة هذه الأمة وبقاء هذا النظام واستمراره. ولذلك راينا منذ بدء الحياة النيابية صراعا بين عقليتين: - عقلية ترى في الدستور والقوانين قضية **شكلية، وعقلية ترى فيهما حياة أو موتا لهذه الأمة**. ولذلك ارجو من الزملاء الكرام أن لا يروا الموضوع الذي تكرر بحثه في غضون ثلاث سنوات من الأمور الشكلية أو من الأسباب التي يلجأ إليها لأهداف سياسية، فنحن نبحث الموضوع من الناحية القومية الجوهرية لا من الناحية الشكلية كما قد يظن. وعلى هذا الاعتبار عندما شعرت أن الحكومة قد اخترقت المادة الدستورية رقم 18 رأيت من واجبي أن أتقدم بهذا السؤال. وقد دلت الحكومة بسلوكها الذي سلكته على أن هذه المادة من الدستور السوري اصبحت حبرا على ورق. وقبل الدخول في الموضوع يؤسفني أن أقول إن جواب وزارة الداخلية لا يطابق الحقيقة والواقع، بدليل أنني لم أسمع هذه الأمور من أناس آخرين، وإنما وقفت عليها بنفسي. وهاكم خلاصة الأمر:

على أثر تعطيل جريدتي (اليقظة) بقيت في دمشق مدة طويلة تلقيت في اثنائها برقيات من مختلف الانحاء السورية احتجاجا على خنق الحريات العامة. وقد علمت أن هناك برقيات أرسلت من حماه وتأخرت في

دائرة البريد زهاء ثمانية أيام. ولما اتصلت بالدائرة المذكورة أعلمتني أن ذلك كان بناء على أوامر من وزارة الداخلية. وبعد ذلك بيوم أو يومين تسلمت صور البرقيات المؤرخة قبل ثمانية أيام. هذه هي الحقيقة، لا كما وردت بجواب الحكومة. وكان ذلك قبل أن أذهب إلى حماه إذ كنت لا أزال في دمشق. وعلى كل حال فإنني لم ألق خطبا سياسية في حماه بل ألقيت خطابا واحدا لم أثر فيه الرأي العام ولا جرى إخلال بالأمن العام من جرائه. ولكن الحكومة هي التي أخلت بالأمن العام وأحالت أكثر من ثمانين شخصا إلى المحاكمة بشكل مخالف للقانون. وهذا موضوع آخر لا أريد البحث فيه الآن **وإنما أريد أن ابحث الناحية التي اعترفت بها الحكومة وقالت إنها أمرت بتأخير البرقيات مدة ثلاثة أيام وأن هذا التأخير تبرره اتفاقية مدريد المعقودة عام 1932. وها أنا أستميح المجلس الكريم عذرا إذا قلت بصراحة إنني اعتبر هذا الجواب هزءا بالعقول والأفكار.**

إن اتفاقية مدريد أيها السادة اتفاقية دولية تتعلق بالمخابرات الخارجية، ولكنها لا علاقة لها بشكل من الأشكال بالمخابرات الداخلية التي نص الدستور في مادته (18) على حريتها! إذ قال: "المراسلات البريدية والبرقية والهاتفية مكتومة من كل مراقبة وتوقيف إلا في الأحوال والطرق التي يعينها القانون". فالاتفاقية المذكورة إذن معقودة بالنسبة للمخابرات الخارجية لا المخابرات الداخلية. ولنفرض- وهذا فرض غير واقع- أن هذه الاتفاقية تشمل المخابرات الداخلية **فإن معالي وزير الداخلية، وهو أعرف الناس بذلك، يعلم حق العلم أنه في العقود الدولية تراعى نصوص الدستور. فلا يعقد أي عقد مع أية دولة أجنبية يخالف نصوص دساتير الدول التي عقدتها.** إن وزير الداخلية لا يجهل ذلك. ومما يدعو للأسف أن تتقدم الحكومة بهذا البيان وهي تعرف ذلك تمام المعرفة. والذي يؤلم أكثر من هذا أن تستند في تبرير توقيف المخابرات إلى تعليمات مديرية البريد والبرق. فهذه التعليمات بعرف الحكومة القائمة تلغي أحكام الدستور ويمكن الاستناد إليها والضرب بأحكام الدستور عرض الحائط. ولهذا أعتبر أن الحكومة قد خالفت أحكام الدستور بسلوكها مخالفة جازمة قاطعة، وأرادت من المجلس أن يصادق عليها في الملاكات التي أصدرتها بمراسيم. وقد أعلنت لجنة الدستور رأيها فيها.

إن هذه المخالفة الفعلية تعطي البرهان القاطع على عقلية الحكم القائم في هذه البلاد. فعلى المجلس الكريم أن يضع حدا لهذه التصرفات. **وإنني أعتبر المخالفات الدستورية قضية دينية وقضية أخلاقية وقضية قومية، فهي قضية دينية لأنكم حلفتم الأيمان وأعطيتم المواثيق أمام ثلاثة ملايين سوري، وقضية وطنية اجتماعية لأنه إذا أهملت أحكام الدستور ومزقت الدساتير فلا يمكن أن يستقيم نظام ولا يمكن أن يستمر حكم"...**

وأثار بعد ذلك نواب المعارضة حملة عاصفة على جواب وزير الداخلية فهاجمه بعنف رئيف الملقي وهاني السباعي وناظم القدسي وغيرهم. واضطر وزير الداخلية كما اضطررت للعودة إلى الكلام مرارا. وعندما حوصرت الحكومة وأدين موقفها لم تجد أمامها من حل أفضل من مفاجأة المجلس بطلب طرح الثقة بها "لئلا يبقى هناك أي مجال للمناقشة" كما قال وزير الداخلية. غير أن النواب طالبوا بالاستمرار في هذه المناقشة التي كشفت عن مدى تعدي النظام على الحريات، لكن رئيس المجلس محمد العايش، وهو من الموالين للحكومة، أوقف المناقشة... وكما هو معروف فإن الحكومة نالت الثقة، عند الاقتراح، بأكثرية 56 صوتا.

مناقشة حادة حول حرية الصحافة .

بالرغم من تراجع الحكومة عن مواقفها وسياستها السابقة فإن المعارضة استمرت في حملتها عليها بعنف حتى تتحقق الغاية من إسقاطها بعد أن تبدت نياتها تجاه الحريات، ففي الجلسة التالية التي عقدت في 1946/11/30 طرح للمناقشة جواب الحكومة على الاستجواب الذي كنت قد تقدمت به مع ستة نواب آخرين حول تعطيل الصحف فورد في الجواب: "**تعتبر الحكومة عملها بتعطيل الصحف قانونيا لأنها طبقت قرارا أصدره المفوض السامي ولم يلغ بعد،** وإن القانون الذي حدد فيه المجلس التعطيل الاداري بمدة شهر لا يتعارض مع هذا القرار لأنه يحدد الحالات التي يطبق فيها".

فقال رئيس المجلس: لقد سجلنا أسماء المتكلمين، وهم على التتابع السادة: أكرم الحوراني، رئيف الملقي، عبد الرحمن الكيالي، ناظم القدسي، نجيب الريس، وهؤلاء الخمسة يغنونكم عن خمسمائة. فقلت :

"أريد أن أبحث في الموضوع أولا من ناحية مخالفته لأحكام القوانين الصادرة عن المجلس النيابي، ومن ثم انتقل إلى المخالفة الدستورية.

مما لا يخفى على أحد ولا يختلف فيه اثنان أن التوقيف هو نفس التعطيل إلى أجل غير مسمى. ولا يمكن أن يفسر إلا بهذا التفسير. وأعتقد أنه لا يوجد إنسان في العالم يفهم من معنى التوقيف غير ما يفهمه من معنى التعطيل إلى أجل غير مسمى. والذي قصده القرار رقم 2630 من معنى التوقيف هو نفس ما رمى إليه القرارالصادر في نيسان عام 1925. وأقول هذا لأنه لم يصدر أي مرسوم بتعطيل الصحف بعد قرار عام 1925 إلا بالتعطيل إلى أجل غير مسمى. وهذا ما اضطر المجلس النيابي عام 1938 إلى اصدار قانون في مادة واحدة توجب أن يكون التعطيل إلى أجل معين. وقد جاء في الأسباب الموجبة لذلك القانون بأنه لا يجوز بشكل من الأشكال توقيف الصحف عن الصدور دون تعيين أجل لهذا التوقيف. ومن هذه الأسباب الموجبة تتبين جلية الأمر ويتبين أن التوقيف هو نفس التعطيل الاداري إلى أجل غير مسمى. وقد سبق لهذا المجلس أن تناقش في هذا الموضوع وأدلى رئيسه آنذاك فارس بك الخوري برأيه.

ولا يخفى أن مجلسكم الكريم أبدى رغبته بعد ذلك بأن يحدد التعطيل بمدة، بحيث لا يكفي تعيين الأجل بل تحديده. فصدر القانون عام 1946 وحدد التعطيل بمدة شهر واحد. ومن هذا يظهر بشكل قاطع أن الحكومة في المراسيم التي أصدرتها بتوقيف جرائد الجبل والجهاد والنضال قد ارتكبت مخالفة قانونية، أي أنها ضربت عرض الحائط بالقانون الصادر عن المجلس النيابي عام 1938 وبالقانون الصادر عن المجلس أيضا عام 1946. وهذه هي المخالفة القانونية. أما المخالفة الدستورية فإن الاستناد إلى القرار رقم 2530 الصادر حينما كانت البلاد على أبواب الثورة السورية، والذي ذكر فيه صراحة أن القصد منه حماية الجيوش الافرنسية والمفوض السامي ومندوبيه، حيث يفهم من ذلك وجود امتيازات لدولة أجنبية هي الدولة الفرنسية، ولا يمكن بشكل من **الأشكال أن نصدق ما ورد في جواب الحكومة من أن**

الجيش الفرنسي يعني الجيش السوري المحلي. لأن الجيش الفرنسي يا معالي الوزير غير الجيش الوطني. والقرار المذكور أوجد امتيازات للدولة الفرنسية. وهذا لا يتفق مع الوضع الاستقلالي الحالي ومع نصوص الدستور السوري... ولهذا أرى أن الحكومة قد ارتكبت مخالفتين: الأولى للدستور وعدم الاعتراف بوضع البلاد الحالي، والثانية المخالفة القانونية التي بينتها".

ثم تكلم نواب المعارضة في حملة عنيفة على الحكومة، وانتهت الجلسة الصاخبة بملاسنة حادة إذ قال رئيف الملقي:

- إن هذه الحكومة القائمة غير شرعية لأنها لا تستند إلى أساس دستوري. ونحن سنحرص على النظام الجمهوري الديمقراطي وسنقاوم هذه الحكومة بكل سلاح.

فأجابه وزير الداخلية صبري العسلي:

- إما أن ترضخ الأقلية لحكم الأكثرية أو أن تذهب من هذا المجلس، وليس لك الحق بأن تقول أن الحكومة غير شرعية، فالحكم هنا للأكثرية.

وكأنه يقول لزعماء المعارضة: اذهبوا وبلطوا البحر.

□

حوار على صفحات جريدة البعث .

كانت الاندفاعة الشعبية التي انطلقت منذ بدء معركة الحريات ما تزال قوية عارمة مضطرمه بعد وقوع ذلك العدد الكبير من الطلاب في دمشق ضحية نيران قوات الشرطة، وكان يجب لمعركة الحريات أن تأخذ مداها بتعديل قانون الانتخاب وجعله على درجة واحدة، وقد شعرت بنقص الوسائل بعد تعطيل اليقظة للمرة الثانية، ولكن البعث كانت غير معطلة، وكأنما كانت اليقظة والبعث تتناوبان فترات الصدور والتعطيل، وقد نشرت جريدة البعث بتاريخ 46/12/3 هذا الحوار الذي أجرته معي:

"س: ما رأيكم في الثقة التي نالتها الحكومة بعد خرقها الدستور بشكل واضح؟

ج: إن خرق الدستور جريمة سياسية واستهتار بالحكم النيابي يرجع البت فيه إلى المحكمة العليا، أن خرقه يعتبر خيانة عظمى. ولذا فإن كل ثقة نالتها الحكومة بعد خرق الدستور لا معنى لها وإنما هي استمرار في الاستهتار. فقد كان من المحتمل أن تطلب الحكومة الثقة قبل أن تعلن لجنة الدستور خرقها له: أما بعد أن ثبت عبثها بحقوق الشعب المقدسة فإن مجرد لجوئها إلى طلب الثقة من مجلس بيدها أكثريته ليدل على خلل كبير في الحياة النيابية عندنا. خلل لا سبيل للتغاضي عنه لأنه طعنة في الصميم.

س: ما رأيكم بالانسحاب من المجلس والرجوع إلى الشعب؟

ج: إن الشعب هو المرجع الأخير الذي ينصرف إليه ممثلوه الحقيقيون، فالشعب هو الذي أوكل أمره ومصيره إلى نوابه وممثليه. وعندما يرى هؤلاء الممثلون استحالة الدفاع عنه وحمايته أمام حكومة رجعية استثمارية فإنهم يعودون آنئذ إلى مصدرهم، إلى صميم الشعب الذي انتظر عبثا التمتع بحريته واستقلاله بعد أن بذل في سبيلها الدماء. ولكننا لم نيأس بعد وسنستمر على نضالنا في هذا المجلس إلى أن يعرف الجميع حق المعرفة رجال الحكومة ونواياهم ومدى استهتارهم بحقوق المواطنين.

س: ألا ترون ضرورة لتشكيل جبهة من النواب المعارضين في المجلس تحتكم إلى الشعب في الخطب والنشرات؟

ج: نعم أرى ذلك لأنه الطريق الوحيد لأن يقف الشعب الذي يحال بينه وبين حريته على الوضع النيابي الفاسد الذي نعيش فيه. ولأن هذا هو سبيل خلق الوعي في الشعب.

س: ما رأيكم بسلوك وزير الداخلية في الجلسة الأخيرة؟

ج: أراه طبيعيا، وكل ما في المجلس منسجم كل الانسجام، لأن المصلحة التي تربط النواب المؤيدين والحكومة واحدة. وما دام الاستثمار والمنفعة الشخصية هما المبدأ، فالنتائج كلها طبيعية، وما دام الأمر كذلك فإن وزير الداخلية يستطيع أن يتصرف إلى أبعد من هذا... ولا أستبعد أن توافقه الأكثرية على فلسفته في ضرورة خنق الحرية.

س: ألا ترون أن رجال الحكومة لا يستطيعون أن يكونوا إلا كما هم الآن؟

ج: لرجال الحكم القائم عقلية غريبة لأنهم يرون أن السلطة الفرنسية قد ذهبت وعليهم أن يحلوا محلها. ولذلك فهم يتبعون نفس الأساليب التي استعملها الفرنسيون في بلادنا. وهم أبعد الناس عن أن يتوهموا أنهم ممثلون للشعب. وهم لا يرون أنه يجب عليهم أن يكونوا ممثلين حقيقيين له ليحكموا باسمه ومصلحته، ولأنهم في الحقيقة لا يعتبرون أن الحكم من الشعب وإليه... وقد كان الفرنسيون يحافظون على شكلية القوانين أما هؤلاء فإننا نرى أن وزير الداخلية يتحدى الجميع ويصرح عن رغبته في العمل بموجب قرارات المفوض السامي الاستعمارية الملغاة. ولذلك فمن الصعب أن تغير هذه العقلية. ولكن إرادة الشعب تستطيع أن تفعل كل شيء عندما تعلن وجودها.

س: لماذا لا تثار في المجلس قضية تغيير قانون الانتخاب وجعله على درجة واحدة بشكل عنيف ومجد؟

ج: اتبع الفرنسيون قانون الانتخاب الحالي ليؤمنوا، الأكثرية التي يريدونها ولشل إرادة الشعب ورغبته القوية في انتخاب ممثليه الحقيقيين. لأن الانتخاب على درجة واحدة هو الضامن الوحيد لوجود التمثيل النيابي الصادق المعبر عن مصلحة جمهور الشعب. وليست هذه المشكلة غريبة بل إن الحكومة تريد أن تحتفظ بالنظام الحالي، إرث الاستعمار، لأنها تريد أن تؤمن الأكثرية التي تريدها وتربطها بها مصالح واحدة، لا كما يريد الشعب الذي تعيش على استثماره... وقد عبر الشعب عن رغبته في تغيير قانون الانتخاب في البرقيات والاحتجاجات. ولدى الحكومة الآن ما يزيد عن (5000) توقيع من حماه وحدها يطلب أصحابها فيها جعل الانتخاب على درجة واحدة. ولا يزال الأمل قويا في إلجاء الحكومة إلى التفكير جديا بالأمر، لأنه جوهري في حياتنا السياسية".

□

صورة الأوضاع قبيل سقوط حكومة الجابري.

كان هدف الحكومة من طرح الثقة- بعد عزلة رئيسها في مصر- حفظ ماء وجهها على الأقل، بعد أن اصبحت استقالتها أمرا مبتوتا فيها ويشار إليه في الصحف علنا، فقد كان ظفرا كبيرا أن يسقط الشعب الحكومة الحائزة على ثقة الأكثرية المجلسية.

لـذلك انصـرف اهتمامنـا لـربح المعركـة الثانيـة التـي رفعـت الجماهير لواءها وهي تعديل قانون الانتخاب الذي خلفه الاستعمار الفرنسي وجعله على درجة واحدة.

وقد عبر المقال الأول الذي نشرته فـي اليقظـة بعـد عودتهـا للصدور في 1946/12/16، تعبيـرا دقيقـا عـن هـذه المرحلـة، وكـان بعنوان "حكم الشعب"، وهذا نصه:

عطلت "اليقظة" اداريا خلال فترة قصيرة مرتين فلم يزدنا هـذا التعطيـل الجائر الا ايمانا بصحة اتجاهنا وصدق عقائـدنا، ولـيس الـذي أدى إلـى تعطيـل اليقظة بعض نزواتها الجامحة، كما ذكرت ذلك بعـض الصـحف، وانمـا الـذي أدى إلى تعطيلها هو خلاف اساسـي دائمـي لا يمكـن أن تجـري عليـه التسـويات والمساومات التي هي طريقة المسؤولين في معالجة هذه القضايا. فكل عدد اذن من اعداد "اليقظة" تستحق عليه التعطيل في نظر هؤلاء المسؤولين.

نعم نحن في خلاف اساسي دائم منشؤه اختلاف المفاهيم والعقائد، حتى والنظر للحياة عامة، **فنحن لا نـؤمن الا بالشـعب غايـة، ولا نثـق الا بحكم الشعب وسـيلة لكـل تطـور وارتقـاء. ولـيس بنظرنـا الاسـتقلال الذي رويناه بالدماء الا طريقا للوصول إلى هـذا الحكـم. ولا نفهـم مـن الاستعمار الا أنه حاجز للشعب من حكم نفسه بنفسه لضمان بقائـه واستنزاف دماء ضحاياه. وهكذا سلط الاستعمار أوشاب الناس علـى كرامهم تحميهم السلطة، ويـدعمهم نفـوذ الدولـة مـن دون ان يحكـم دستور أو ينفذ قانون. وهكذا اصبحت الامة كالطفيليات والعلـق تحيـا وتنمو على دماء بعضها البعض! فزال كل اثر للتعاون الصميمي الذي يجب أن تبنى عليه دعائم المجتمع. وهكـذا سـاد الاسـتغلال المـادي وكشر عن نابيه الاغتيال الاخلاقي!**

أما الآن وقد زال سلطان المستعمر - بجهاد الشعب وحده رغم كل مـا وضعه المتزعمون امامـه مـن عراقيـل ومصـاعب، فمـن الطبيعـي اذن أن يعـود سلطان الحكم للشعب وحده لا لهؤلاء المتـزعمين... لتعـود حيـاة الأمـة بحـق الى مجراها الطبيعي كسالف عهدها لتسير قدما في معارج الرقي والكمال.

فنحن لم نعـد نـؤمن بقـانون الا القـانون الـذي يسـنه الشـعب لمصـلحة الشـعب، فـلا يسـنه شـخص لمصـلحة شـخص، ولا فئـة

لمصلحة فئة، ولا طبقة لمصلحة طبقة! لاننا لا نطيق أن يثرى انسان على حساب المجتمع، فيكنز الاموال من أقوات الشعب ويقتطع الضياع من دماء المواطنين، باسم القانون أو بمخالفة أحكام القانون! نحن لم نعد نطيق أن يجترم الاجرام فيعتدي انسان على الآخرين ولا يحاسبه القانون على اجرامه!..

نحن لم نعد نطيق الرشوة والالتماس طريقا لوصول الناس إلى حقوقهم. أو إلى الافتئات على حقوق الاخرين... لاننا نستهدف المساواة التامة بين جميع الافراد بالحقوق والواجبات امام القانون، ولكن القانون الذي يسنه الشعب لمصلحة الشعب. نحن لا نفهم كيف يميز مواطن على آخر الا بأهليته وكفاءته ومروءته. نحن مختلفون لاننا نؤمن بان القانون يجب أن يكون ناظم العدل والمساواة بين المواطنين، لا وسيلة للتسلط والاعتداء... ولذا حرصنا على تطبيق احكام القوانين والانظمة واستمتنا بالدفاع عن الدستور الذي هو رأس جميع القوانين والانظمة! وحكمنا على كل مسؤول اخترق احكام الدستور والقانون والنظام بأنه ظل الاجنبي لاقامة الحكم الكيفي في هذه البلاد...

نحن حرصنا على ضمان الحريات لأنها وسيلة الشعب للتعبير عن ارادته ورغبته ونوازعه وآماله واحلامه وعقائده.. وأمنا بأن كل ضغط على هذه الحريات يعني الضغط على تطور الأمة، وهو بالاساس، كعادة المسئولين، خروج على احكام الدستور والقوانين التي سنها الشعب لمصلحة الشعب.

نحن حرصنا على اصلاح قانون الانتخاب الذي سنه الانتداب، لان هذا الاصلاح يؤدي إلى حكم الشعب الذي هو وسيلة النهوض...

نحن حاربنا قوانين الانتداب وانظمته وجهازه، لانها وضعت بقصد اقصاء الشعب عن حكم نفسه بنفسه، ووضع جميع العراقيل التي تحول دون تطوره وتقدمه. نحن نفرق جيدا بين الحرية والخيانة، ولكن المسئولين ناهضوا الحرية واغضوا عن الخيانة. نحن حاربنا الخائنين والمتعاونيين، ولكن المسئولين رضوا عنهم وبرروا خيانتهم بتوبتهم أو بقدرتهم أو بغير ذلك من مبررات فلم تتغير الوجوه ولم تختلف الاساليب **لأن ابناء الانتداب** ما زالوا يمسكون برقاب اغلب مصالح الامة والدولة.

ان منشأ خلافنا وما يؤدي إليه من نتائج بعيدة:

هـو أننـا نريـد أن تحكـم هـذه الـبلاد بعـد زوال الانتـداب حكمـا برلمانيا ديمقراطيا كطريق لوصول الشعب الى حكم نفسـه بنفسـه. واذا ما بلغنا هذه المرحلة امنا نهائيا كل انتقاض مـن الخـارج، وشـققنا سـبيل نهوضنا العاجل من الداخل.

رمز متفائل لليقظة الجديدة .

خرجت "اليقظة" بعد التعطيل الثاني بكليشـة جديـدة تمثـل فتيانا تتقدمهم فتـاة تحمـل مشـعلا، تتنـاثر منـه الأضـواء الحمـراء، والفتيـان يسـيرون شـاهرين معـاولهم ومجـازفهم. وكانـت كلمـة "اليقظة" بخط الفنان "بدوي" الجميل...

صـادف إعـدام "الـرب" سـليمان المرشـد اليـوم الأول لصـدور اليقظة بعد تعطيلها، وقد رفضت إرسال مصور إلـى سـاحة المرجـة حيث جرى الاعدام، بينما نشرت الصورة باقي الصحف، مما سـبب رواجها ذلك اليوم، وقد دهشت عنـدما علمـت أن النـاس يتوجهـون إلى هذه الساحة كلما تم فيها تنفيذ حكـم بالاعـدام، وأنهـم ظلـوا ساهرين الليلة الماضية، رجالا ونسـاء، ليشـاهدوا شـنق المرشـد ونبييه.

نضال الشعب لتعديل قانون الانتخاب:

تصاعد النضال الشعبي في شـهر كـانون الأول 1946 وحـدد شعاره المرحلي بتعديل قـانون الانتخابـات، فوجهـت النـداء التـالي في مكان بارز من العدد الأول مـن "اليقظـة" بعـد عودتهـا للصـدور، منبهـا فيـه الشـعب إلـى لعبـة الحكومـة بالاسـتعانة بعـدد مـن المثقفين الخبراء**!** لإبقاء الانتخابات على درجتين:

"أذا أصـرت الحكومـة علـى عـدم اصـلاح قـانون الانتخـاب الاستعماري فأنت أيها الشعب مصدر الحكـم وعليـك أن تنفـذ ارادتـك برغم المتآمرين.

أيها الشعب الكريم:

أن أوضح برهان، وآخر برهان، يمكن أن يدلى به انسان، على ما يحاك حول مستقبلك وحياتك من مؤامرات هو الوقوف في وجهك والحؤول دون تحقيق رغبتك وارادتك بتعديل قانون الانتخاب الفرنسي واصلاحه وجعله على درجة واحدة.

فمهما حشدوا باسم العلماء والخبراء... فلا يخرج عملهم عن معنى التآمر لاقصائك عن حكم نفسك بنفسك، ليبقى الحكم وسيلة استثمار لمواهبك واستنزاف لدمائك وامتهان لكرامتك، لا ليكون وسيلة لتقدمك وتطورك وسعادتك!

أيها الشعب: ان كل من يخالف ارادتك بجعل قانون الانتخاب على اساس الدرجة الواحدة، فهو اما متآمر أو مأمور أو ماجور أو مغرور..

أيها الشعب: اذا لم يقم نوابك بتنفيذ ارادتك؛ وهم وكلاؤك فما عليك، وأنت الاصيل، ألا أن تنقذ حياتك ومستقبلك بيدك."

كما صدر في جريدة "النصر" نداء مماثل بعنوان: "احذروا حكم التاريخ". أما جريدة "البعث" فقد امتلأت أعدادها ببيانات مثل: "أنقذوا الحرية بتعديل قانون الانتخاب" و "يجب نسف قانون الانتخاب"... الخ.

وكذلك الصحف المعارضة الأخرى.

أما جو الغليان الشعبي الذي عم البلاد فتصوره، باختصار، العناوين التي صدرت في صحف تلك الفترة:

- مظاهرات صاخبة في حمص تنادي بسقوط قانون الانتخاب، برقيات العمال والطلاب ورجال الأحياء بطلب انتخابات على درجة واحدة.
- بيان الحزب العربي (بشير البكري ومنير المالكي) وبيان القوميين العرب (صبحي العمري ومنير الريس) بالمطالبة بتعديل قانون الانتخاب.
- صوت واحد من مختلف المدن السورية: انتخاب حر على درجة واحدة واضرابات شاملة.

- بيـان طـلاب الجامعـة بسـقوط قـانون الزعامـات الاقطاعيـة الاستعماري.
- برقيات حماه بنسف قرارات الاستعمار ... الخ.

هذه كانت صورة الأوضاع الشعبية في البلاد، فماذا كان يحدث في الجهة الأخرى؟

فتاوى المثقفين!

قدم هاني السباعي مشروعه بتعديل قانون الانتخاب، فأحاله المجلس إلى لجنة الداخلية لدراسته، وعندما شعرت الحكومة بخطر موافقة اللجنة على المشروع، لجأت إلى الاستعانة بعدد من "المثقفين" للاشتراك في أبحاث لجنة الداخلية كخبراء، أذكر منهم الدكتور منير العجلاني، والدكتور أحمد السمان، وسهيل الخوري، وسيف الدين المأمون. وفريد زين الدين، وكانت مهمة هؤلاء اقناع لجنة الداخلية بأفضلية بقاء قانون الانتخاب على درجتين.

وعلى الرغم من أنني لست عضوا في لجنة الداخلية، فقد حضرت اجتماعاتها التي بلغت اثني عشر اجتماعا، واشتركت مع هاني السباعي ورئيف الملقي بالرد على حجج هؤلاء "الخبراء" (يجوز حضور النائب غير العضو اجتماعات اللجنة البرلمانية ولكن لا يحق له التصويت).

كان نظام القوتلي في حذر شديد من تعديل قانون الانتخاب، ومن تطبيق الخدمة الالزامية، وقد تحايل على هذا المطلب الشعبي الى ما بعد حرب 1948، أما تعديل قانون الانتخاب، فكان لا بد من إقراره بعد أن اقترب موعد الانتخابات العامة.

فشلت جهود (الخبراء) أمام الضغط الشعبي وردود نواب المعارضة فبدا للحكومة أن تقوم بتسوية، بأن تجعل الانتخابات في المدن على درجة واحدة وفي الريف على درجتين، لتظل محتفظة بالأكثرية النيابية الموالية، ولكن هذه المحاولة فشلت أيضا.

وفي جلسة 1946/12/16 تلي تقرير لجنة الداخلية الذي تقول فيه انها "عقدت 12 جلسة متتابعة مع العلماء والخبراء. وفي جلستها الأخيرة في نفس اليوم رأت ان تتقدم إلى المجلس الكريم مبينة له خطورة هذا القانون لما له من مساس مباشرة بحقوق الشعب وما يجري تأمينه من العدل بين أفراد الأمة بممارسة هذا الحق والقيام بما يفرضه من واجب مع المحافظة على مصالح الدولة... ولما كان وزير الداخلية حضر في هذه الجلسة وأفاد بأن الحكومة لم تبت برأيها بعد وأنها بحاجة لمدة أسبوع آخر تعتقد أنها كافية لاتمام دراستها وتكوين فكرتها النهائية لهذا القانون... ولذلك فإن اللجنة قررت بأكثريتها أن تطلب إلى المجلس أن يمهل الحكومة مدة هذا الاسبوع".

انحلال حكومة الجابري في غيابه .

في صباح السبت 1946/12/21 رفع خالد العظم رئيس الوزراء بالوكالة والوزراء استقالتهم، فقبلها رئيس الجمهورية وطلب إليهم تصريف الأمور ريثما تتشكل وزارة جديدة. ويشير خالد العظم في مذكراته الى هذه الاستقالة بما يلي:

"ارسل القوتلي محسن البرازي الى الاسكندرية ليجتمع بالسيد سعدالله الجابري، ويأخذ منه كتاب الاستقالة، فقابله الجابري باشمئزاز، وحمله رسالة شديدة اللهجة إلى القوتلي لأنه استعجل في طلب الاستقالة، معتبرا أن ذلك دليلا على القنوط من شفائه، مما يؤدي إلى انهيار مقاومته المعنوية للمرض، ومع ذلك وضع الأمر تحت تصرف القوتلي" (ص 329 الجزء الأول).

ولا شك أن استقالة الحكومة على هذا الشكل، كانت أحد الأسباب التي جعلت أكثرية أعضاء لجنة الداخلية تقرر مبدأ الانتخاب على درجة واحدة.

ولكن هذه الحكومة لم تشأ أن تنحل دون أن تسدد آخر ما في جعبتها من سهام مسمومه، إذ كان آخر ما اتخذته من مراسيم تعطيل جريدة البعث شهرا كاملا "لنشرها مقالا يثير الرأي العام".

كما ارتكب وزير الدفاع أحمد الشرباتي مخالفة شنيعة بقبول ثلاثة طلاب بالكلية العسكرية لا يحملون - كما يقضي نظام الكلية - شهادة الدراسة الثانوية فقدم طلاب الكلية العسكرية استقالتهم، احتجاجا على هذه المخالفة، وهكذا "لعبت هذه المداخلات والتوصيات دورا رئيسيا، وفي أخطر مكان يمس حياة الأمة وشبابها المثقف: في الكلية العسكرية التي انشئت لكي تقدم لنا ضباطا يؤمنون بالقيم". (جريدة اليقظة).

بعد أن فشل نظام القوتلي بفرض ديكتاتوريته المقنعه فشلا ذريعا، لم ير أمامه بدا من التراجع أمام صلابة المعارضة وعنف الانتفاضة الشعبية، فتألفت الحكومة الجديدة برئاسة جميل مردم على اساس التراجع قليلا إلى الوراء.

وفي نفس اليوم الذي تشكلت فيه الوزارة، وهو 1946/12/28 أوعز صبري العسلي لتوفيق حبوباتي أن يعتدي على أحمد علوش رئيس تحرير اليقظة وكان السبب المباشر لهذا الاعتداء، ما نشرته اليقظة قبل يوم تحت عنوان: "هزل الدهر مرة" وهو مقال انتقادي لاذع فيه إشارة إلى نادي الصفا، لصاحبه توفيق حبوباتي، دعامة صبري العسلي ومفتاحه الانتخابي والسياسي في الأحياء الدمشقية، وقد كان نادي الصفا، كما أصبح فيما بعد نادي الشرق وفندق بلودان، مقرا لمقالب صبري العسلي السياسية ومباذله الشخصية، ولذلك اعتبر التلميح لنادي الصفا قضية تمسه شخصيا. وبينما كان أحمد علوش يهم بدخول دار جريدة الأيام فاجأه من ورائه شخص عرف فيما بعد أنه يدعى محمود الدرويش، فأخذ يضربه على رأسه بحجرين مدببين أنتجا جرحا عميقا في رأسه، وقد بادر من كان في دار الأيام إلى اللحاق به، فقبضوا عليه وسلموه للشرطة، وبعد أن أجرى الطبيب الشرعي المعاينة أعطى السيد علوش تقريرا بعشرين يوما للتداوي، واثني عشر يوما يتعطل خلالها عن العمل. وليس من قبيل الصدفة، أن يشترك المعتدي محمود الدرويش نفسه باغتيال رفيقنا الشهيد الشيخ عادل العلواني، بعد ثلاث سنوات، مما

سآتي على ذكره بالتفصيل، ولا شك عندي بأن هذا المجرم كان عميلا للمخابرات البريطانية.

كما أنه ليس من باب الصدف، أن يبعث إلينا مراسل اليقظة بحماه الاسبوع نفسه بما يلي:

أم حماه الميجر هارفي بصحبة الميجر داردن باللباس المدني، وقد أقام لهما نائب حماه نجيب البرازي حفلة غداء في قصره ضمن الاصدقاء والمحبين. والذي علمته ان المستر دردن عاد حديثا من السودان بعد أن قام ببعض الاعمال الفنية**!!** فهل في سورية ما يشبه الاوضاع في السودان أو مجال لخبرة المستر داردن؟ أم انه الف شركة متعددة الحلقات في الوطن العربي يعمل الان لربط حلقاتها ببعضها؟."

28

1947: شكري القوتلي يهيء الجو لإعادة انتخابه، تصاعد الهجمة الصهيونية على فلسطين، استقبال القاوقجي في مدينة طرابلس يتحول إلى مجزرة، تزايد نشاط الاجهزة الخفية البريطانية في سورية مع اقتراب موعد الانتخابات.

وزارة جميل مردم الثالثة .

في جلسة 1946/12/28 تلي مرسوم تأليف حكومة جميل مردم كما يلي:

جميل مردم: رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للداخلية والصحة والاسعاف العام.

سعيد الغزي: وزيرا للمالية.

نعيم الانطاكي : للخارجية.

أحمد الشراباتي: للدفاع الوطني.

حكمت الحكيم : للاقتصاد الوطني.

عادل أرسلان: للمعارف.

عدنان الأتاسي: للعدلية والأشغال العامة.

كان اشتراك عدنان الأتاسي، حليف رشدي الكيخيا في المعارضة، عربونا لتراجع النظام عن سياسته السابقة التي فضحتها معركة الحريات، وإشارة لتلبية الحكومة الجديدة بعض مطالب المعارضة ، وذلك يتبين من خطاب جميل مردم الذي ألقاه في جلسة 1946/12/30، وتعهد فيه بتنفيذ أحكام الدستور واحترامه، وتطبيق القوانين على المواطنين دون أي تفريق أو محاباة، وصيانة الحريات الخاصة والعامة ولا سيما حرية الصحافة، والافراج عن الصحف المعطلة. كما تعهد بصيانة النظام الجمهوري وتقديم مشروع قانون خدمة العلم، وتعديل قانون الانتخاب، ودراسة مشروع المياه لإرواء حلب العطشى. وقال: "ان السياسة السورية في الجامعة العربية

هـي سياسـة اخـاء ثـم قـال أريـد هـذه الـوزارة ماضـية بسياسـة الانتصار لفلسطين إلى ابعد حـد، وسـنجعل منهـا دسـتورا للعمـل السياسـي والقـومي". فقـرر نـواب المعارضـة مـنح حكومـة مـردم الثقة. وقد بينت أسـباب ذلـك بالخطـاب الـذي ألقيتـه تعليقـا علـى بيانها الوزاري بعد أن ناقشه عدد من النواب، فقلت:

إنني سوف لا أبحث في الموضوع من جميع نواحيـه، ولكـن لا بـد لـي من الاشارة الى بعض النقاط الهامـة التـي تعـرض لهـا الزميـل العسـلي، فأنـا مقتنع معه بأن الحكومات السابقة عندنا كانت توحدها البيانـات الوزاريـة التـي تنفصل عن الاعمال والنتائج كما أنني مقتنع معه بأن الأحـزاب لا تتـألف عنـدنا حسب برامج واضحة. ولكـن الغريـب ان يقتنـع السـيد العسـلي بوجـوب قيـام الأحزاب لحل الأزمة السياسية ثم يطعـن الدسـتور والحريـات العامـة بالصـميم عندما كان وزيرا، **لأن الحريات العامة كما لا يخفـى عليـه هـي السـبيل الصحيح لتشكيل الاحـزاب الصـحيحة.** لا هـذه التكـتلات التـي نشـاهدها والتي تسيرها المنافع والأهـواء والمصـالح والشـركات. والشـخص الـذي يـدعو لقيام أحـزاب ذات بـرامج يجـب عليـه أن يحتـرم الدسـتور وأن يقـدس الحريـات العامة.

انني لا أزال مختلفا في أغلب النـواحي مـع هـذه الحكومـة كمـا كنـت مختلفا مع الحكومة السـابقة. لكـن الـذي يجعلنـي أمنحهـا الثقـة أنهـا وعـدت باحترام الدستور وتطبيق أحكام القوانين، وهي المرة الأولى التـي تتقـدم بهـا حكومة بمثل هذا الوعد بكل تواضع.

ومن جهة أخرى تعهدت الحكومـة بفـرض نظـام خدمـة العلـم، وللمرة الأولى تعد حكومة بتحقيق هذه الرغبة الغالية، وهذا أمر هام جدا.

بيد أنني لا أرى بدا من سؤالها عن أمور غامضة وردت في بيانها:

لقد وعدت **أن تتقدم بمشاريع قـوانين لصـيانة الحريـات العامـة.** وأرجو أن تحدد الحكومة موعدا لتقديم هذه المشاريع. لأنني أعتقد أن الحريات حتى التي تضمنها قانون التجمعات العثمـاني وقـرارات المفـوض السـامي قـد ضن بهـا علـى هـذه الأمـة. ومـع هـذا قـام المرتزقـة والمـأجورون يصـيحون أن الحريات قد فاضت ويطلبون تقنينها.

وهنالك أمرا آخر يلابسه الغموض، **وهو تعديل قانون الانتخاب** مع أني أؤمن أنه إذا لم يعدل تعديلا كاملا فلن نصل إلى حكم برلماني صحيح. والتعديل الكامل لا يمكن أن يقرره هذا المجلس. ولذلك قنعنا بتعديله تعديلا يقرره المجلس كجعله على درجة واحدة وغير ذلك من الاصلاحات التي أقرتها لجنة الداخلية. وكان يجب على الحكومة أن تتبنى قرار لجنة الداخلية ليقره المجلس حالا، وانني أخشى أن يكون وعد الحكومة بتعديل قانون الانتخاب في دورة آذار هو للقضاء على هذا المشروع. وألح بضرورة تعيين مواعيد لتقديم هذه المشاريع خشية أن تصير الوعود الحاضرة الى مثل ما صارت إليه الوعود السابقة".

□

نالت حكومة مردم الثقة بـ 58 صوتا ضد 33، فقد حجب الثقة عنها عدد من نواب الكتلة الوطنية البرلمانية، بعد التفاهم الذي تم بين جميل مردم والقوتلي من جهة وبين أقطاب المعارضة في حمص وحلب من جهة أخرى.

ولدفع أي التباس، عدت لبيان سبب منحي الثقة للوزارة مرة ثانية بالمقال الذي نشرته في اليقظة بتاريخ 1947/1/4:

"لكل نظام اسلوبه الخاص في تأليف الوزارات. أما في البلاد البرلمانية الديمقراطية فتتألف الوزارات عادة من حزب الاكثرية في المجلس النيابي. وقد تشير نتائج الانتخابات سلفا إلى الحزب الذي سيستلم مقدرات الحكم، واذا تعددت الاحزاب فانها تتداول الحكم حسب الظروف والاحوال السياسية. وسواء استلم حزب الاكثرية الحكم أم استلمته مجموعة هذه الاحزاب او بعضها، فانها تستهدف على كل حال تنفيذ برامج واضحة وأهداف معينة. فالوزارة المتألفة مسؤولة امام المجلس، كما هي مسؤولة امام الحزب، وبالتالي أمام الامة عن تنفيذها والتقيد بها والسير بوحيها. فالمسؤولية اذن مركزة، والاهداف محددة واضحة، والامة ساهرة واعية. وسر النظام **البرلماني بالاساس انه متصل الحلقات من الشعب الى الحزب الى المجلس فالحكم لتحقيق غايات الامة المثالية. والحكم اذا للشعب وعلى اساس رضائه وقناعته المؤيدة باكثرية الآراء طبعا.**

اما نحن فلا نزال نمارس النظام البرلماني اسما وشكلا لا فعلا وحقيقة. ولذلك فاننا حتى الآن نضيع جميع مزايا هذا النظام العظيمة، كما أننا نتحمل بالوقت ذاته جميع مساوئه ونواقصه. وستظهر هذه الحقيقة بوضوح شيئا فشيئا كلما مر الزمن على ممارستنا له بهذا الشكل والاسلوب. **فنحن اذا كان لنا مجلس نيابي اسما فهو ليس منبثقا عن الشعب حقيقة. واذا تألفت عندنا الوزارات فهي ليست مسؤولة امام المجلس لانها تخضع في تاليفها لاعتبارات غريبة عن مصلحة الامة وعن الاعتبارات التي يخضع اليها تأليف الوزارات عند الامم البرلمانية الديمقراطية الاخرى. فالوزارة تخضع عندنا في تاليفها لاعتبارات المدينة والاسرة والطائفة والمصلحة**، وبتعبير اصح فانها تتألف على اساس محور دمشق-حلب، اما طرف الشمال فيجب أن تتمثل فيه بعض الاسر والاشخاص والمصالح. وأما محور دمشق فيجب أن يتعاقب في تمثيله عدد من الاشخاص ضمن حلقة معروفة تؤيدهم بعض الاسر والمصالح ايضا، وربما اشترك في محور دمشق في الانتخابات القادمة كما في حلب رأس المال والاتجار بصورة علنية إذ كان لا يزل حتى الآن بصورة سرية. وستظل نتائج اعمال الوزارات المتعاقبة وبياناتها متشابهة وان اختلفت قليلا بالنسبة لاشخاص الوزراء من النواحي الخلقية والعملية، ما لم تتغيرهذه الاعتبارات في انتخابات المجالس النيابية أو في تأليف الوزارات.

فنحن لا نزال نعتقد أن الحل الطبيعي لقيام نظام برلماني صحيح منبثق عن الشعب مصدر جميع السلطات **هو تعديل قانون الانتخاب تعديلا كاملا مع تعديل** الدستور واشتراع جميع القوانين الاساسية للحريات العامة بصورة تلائم روح العصر. وعند اجراء هذا الاصلاح يمكن عندئذ أن يقوم نظام برلماني يرافق تطور الامة، وعندئذ يمكن أن تحل جميع مشكلاتنا القومية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أو تصبح في طريق الحل.

وليس من الغريب بعد هذا أن نمنح الثقة للوزارة الحاضرة عندما لا نرى في مثل هذا الوضع سبيلا لاشراك الامة إشراكا فعليا في مقدرات الحكم واخراجه من نطاق الاشخاص والاسر والمصالح الخاصة إلى ساحة الامة، ساحة الصالح العام، إلا بضمان الحريات العامة ضمن هذا الوضع اذا لم يمكن تغييره كاملا لتتمكن الامة من تأليف الاحزاب التي تنشأ على أساس البرامج والاهداف الواضحة فتمثل وجهة نظرها في المجلس وفي الحكم في

المستقبل، وهذا ما تعهدت به الوزارة الحاضرة التي لا يسمح لها وضعها ان تخل بهذا العهد على ما نعتقد.

وعلى أساس عدم اشراك بعض اعضاء الوزارة المستقيلة المنتمين الى احدى الكتل الشخصية وجد في المجلس من يحجب الثقة عنها مع العلم بأن الوزارة المستقيلة قد طعنت الحريات بالصميم واخترقت حرمات الدستور والقوانين ومن الغريب أن يعترف احد الوزراء المستقيلين بأن الوزارات التي تعاقبت عندنا تألفت على أساس شخصي داعيا لتأليفها على أساس الاحزاب السياسية، مع أنه كان حربا على الحرية، ولكن يزول العجب عندما نعلم بأن هذا الوزير هو واخوانه لا يفهمون من حرية انشاء الاحزاب، بل ومن جميع الحريات، الا أنها وقف عليه وعلى اخوانه أو على من يريد من الناس.

بداية النهاية.

كان تأليف حكومة جميل مردم بداية النهاية لنظام القوتلي فكيف تم تاليفها على النحو الذي ذكرناه؟

بدأ التناقض يظهر بين القوتلي والجابري إثر العدوان الفرنسي عندما أوعز الجابري الذي كان رئيسا لمجلس النواب إلى ميخائيل ليان وخالد العظم بتنظيم الأكثرية المجلسية الموالية له باسم (الكتلة الوطنية للهيئة البرلمانية) في وجه معارضيه من نواب حلب وحمص، وأمام طمع القوتلي بتعديل الدستور لتجديد رئاسته، فكان أول أعمال هذه الكتلة تقديم مضبطة الـ 52 نائبا التي سحبت الثقة من وزارة فارس الخوري، ثم تتابع نشاطها حتى أوصلت الجابري رئيس مجلس النواب إلى رئاسة الوزارة، ولكن المرض لم يمهل الجابري كثيرا فاضطر للاستشفاء في القاهرة، فتولى خالد العظم في غيبته رئاسة الحكومة بالوكالة، وكان بمساعدة زميله ميخائيل ليان يقودان الحكومة والاكثرية الموالية في المجلس، ولما تأكد القوتلي بأن الجابري أصبح ميئوسا من شفائه رآها فرصة سانحة لتحقيق أهدافه فاتفق مع جميل مردم على توليه رئاسة الحكومة لقاء تجديد الرئاسة كما أصبح مجال المساومة مفتوحا أمامه مع خصوم الجابري ومعارضيه في حمص وحلب (جماعة الكيخيا

والأتاسيين) على تجديد الرئاسة لقاء مساعدة مردم لهم في الانتخابات القادمة.

أغضب اتفاق القوتلي مع المعارضة وجميل مردم ميخائيل ليان وخالد العظم الطامعين بالحكم فعمدوا إلى توقيع مضبطة من 65 نائبا من الاكثرية المجلسية الموالية لاسقاط حكومة مردم وإرغام شكري القوتلي على تكليف خالد العظم بتشكيل الحكومة فباءت مساعيهم بالفشل وتراجع معظم النواب الموقعين على العريضة بضغط من القوتلي فصوتوا لحكومة جميل مردم.

كان القوتلي يعرف ضعف خالد العظم أمام المراكز الحكومية فعينه وزيرا مفوضا في باريس، فترك العظم زميليه ميخائيل ليان وصبري العسلي يذوقان وحدهما مرارة المعارضة المجلسية ضد الحزب الوطني الذي "تقمص" الكتلة الوطنية السابقة.

موازنة 1947 والقضايا الهامة التي أثارتها .

بدء الاهتمام بالتخطيط وبمواضيع البترول والشركات الاجنبية

في شهر كانون الثاني 1947 عقد المجلس النيابي دورة استثنائية خصصت لمناقشة وإقرار الموازنة العامة للدولة.

كان تقرير لجنة الموازنة هذه المرة يختلف عن التقارير السابقة بعض الشيء. فقد ظهر فيه تأثير أفكار المعارضة بشكل ملحوظ إذ جاء فيه أن لجنة الموازنة كانت "في السنة الماضية قد بحثت مشروع الجندية الاجبارية الذي تقدم به النائب المحترم السيد أكرم الحوراني وأقرت هذه الفكرة وأوصت المجلس بالموافقة عليها. والمجلس بإجماع آراء اعضائه أيد هذه الفكرة ووافق عليها وطلب الى الحكومة أن تضع مشروع قانون بهذا الشأن تراعى فيه ظروف البلاد وحاجاتها الضرورية. ومع أن الحكومة اذ ذاك وعدت بتقديم المشروع في دورة آذار فقد انقضت الدورة المذكورة والدورة التي أعقبتها والحكومة لم تتقدم للمجلس بهذا المشروع الحيوي الهام. ونرجوا أن تفي الحكومة الجديدة بالعهد الذي قطعته بتنفيذ الجندية الاجبارية وفق ارادة المجلس التي أعلنها مرار وتكرارا".

كما طالب التقرير بإجراء إحصاء عام للسكان، والاهتمام بالمشاريع العمرانية، "إن على الحكومة أن تدرس حاجة البلاد وتضع مشروعا كاملا تقدم فيه الأهم على المهم وتعمل على تنفيذه وتطبيقه خلال مدة معينة"... وهي دعوة وتوجيه للدولة بوضع برامجها على اساس التخطيط.

وطالب التقرير بتنفيذ مشروع ري مدينة حلب وانشاء المرفأ السوري. وتطرق بصراحة إلى موضوع الشركات ذوات الامتيازات فقال: **"نجد في الموازنة، في حقل الواردات مبلغ 360 ألف ليرة باسم عوائد البترول. إن اتفاقية البترول التي عقدتها الحكومات غير الدستورية لم تعرض على المجلس النيابي. كما لم تعرض الاتفاقيات الأخرى الملحقة بها. ومن الواجب على المجلس الكريم، محافظة على حقوق الشعب، أن يطلب من الحكومة اطلاعه على هذه الاتفاقيات، وأن يستعمل حقه في دراستها، حتى إذا وجدها تضر بالمصالح العامة ولا تأتي بالفوائد المنشودة لجأ إلى الغائها أو تعديلها".**

وقال التقرير: "في قانون موازنة عام 1946 وضعت لجنة الموازنة نصا بمادة أوجبت توقيف العمل بالقرار 113 المتعلق بالمعادن وإلغاء جميع الرخص المعطاة بموجبه. وذلك الى أن تضع الحكومة مشروع قانون خاص بالمعادن يحفظ مصالح البلاد. وقد مضت السنة بكاملها ولم تتقدم الحكومة بالمشروع المطلوب. مما دعا الى وضع مثل هذا النص في ميزانية هذه السنة أيضا. ويترتب على المجلس الكريم أن يقف موقفا حازما في هذا الشأن.

بهذا النفس الجديد صدر تقرير لجنة الموازنة بعد أن حقق الشعب انتصاره في معركة الحريات... وأثناء مناقشة مواد الموازنة، في جلسات متتالية عديدة، أثيرت عدة قضايا هامة نشير إلى بعضها فيما يلي:

قضية الخبراء الأجانب .

أخيرا اضطرت الحكومة تحت الضغط المستمر، لتقديم لائحة بالخبراء غير السوريين العاملين في دوائر الدولة المختلفة. فكان بينهم تسعة مصريين، وثلاثة عراقيين، وثلاثة فلسطينيين، وأميركي واحد (في الجراحة) وطبيب وأربع ممرضات من ايطاليا، وبريطانيون سبعة كان أخطرهم الكولونيل فوكس (الثعلب) الذي

سيرد الحديث عن الدور الذي لعبه في الأحداث العسكرية بفلسطين عام 1948، ولما اعترضت على تعيينه خبيرا بوزارة الدفاع، قال وزير الدفاع أحمد الشرباتي: "إن هذا الخبير هو تابع لأكثر من وزارة، وذلك في أصل عمله". وقال إن الحكومة لا زالت تستعين به منذ عام 1945 ولا تستطيع الاستغناء عن خدماته بعد أن انتقلت بعض المعدات العسكرية البريطانية الى الدرك والشرطة. "وهو يقوم بنفس العمل في وزارة الدفاع للتدريب على المصفحات، وهو ليس من الخبراء الذين يصح أن يسموا خبراء لوزارة معينة".

فقلت لوزير الدفاع: "لقد سمعنا في هذا الموضوع تصريحات متناقضة جدا. فهو يوما مرتبط برئاسة مجلس الوزراء وهو يوما خبير لدى وزارة الدفاع. والذي علمته أن هذا الرجل لا يدرب على الآليات فحسب، بل تعرض عليه جميع القضايا ليدلي برأيه فيها.. أهو مستشار؟ إننا نريد أن يبين لنا الواقع فيما يختص بهذا الرجل وغيره من الخبراء. وقد أعرب هذا المجلس منذ سنتين عن رغبته بأن لا تتعاقد الحكومة مع خبراء ينتمون لدول لها مطامع ببلادنا. وبين المجلس بأنه يستحسن أن تتعاقد الحكومة مع خبراء من الدول السكندنافية. فلماذا لم يؤخذ بهذا الرأي؟... وفي الوقت ذاته خصصنا في العام الماضي مبلغا ضخما للبعثات فلماذا لم ترسل وزارة الدفاع أحدا من ضباط الجيش الى الخارج للتخصص في الشؤون الفنية؟"

ومن الطريف أن ناظم القدسي فضح قصة خبير احتال على الحكومة ثم تبين أنه "محتال فقال وزير الدفاع: "نعم يا سيدي هناك حادثة مؤسفة كان بطلها رجلا مصريا محتالا ادعى أنه موفد من قبل الحكومة المصرية، وتم استخدامه كخبير في الجيش ثم ثبت أن أوراقه مزورة".

فضجت القاعة بالضحك والتعليقات الطريفة.

الاختلاسات والرشاوى والسرقات .

وأثيرت أثناء مناقشة الموازنة قضايا الاختلاسات والرشاوى والسرقات التي كان تضج بها البلاد وتشير الصحف إلى "مسلسلها" يوميا، مما جعل مستثمري العهد لا يتورعون عن بث

الشائعات بين الناس بأن هذه الأمور الشينة تحدث "بسبب الاستقلال". فقلت:

"لا علاقة للاستقلال بهذه الجرائم. بل على العكس إن من طبيعة الاستقلال أن يكون للشعب رقابة على الحكم، وأن تمنع هذه الرقابة الشعبية جميع الأسواء، وينتج عنها إنزال العقاب الصارم بكل مستغل مستثمر لمصالح الشعب. فالاستقلال وسيلة للوصول إلى الكمال. ولا أعتقد أن إنسانا من هذا الشعب يلعن الاستقلال لوجود[1] حصر للسكر وما جره من اختلاسات، وإنما تنزل اللعنة على أولئك الذين يقومون بهذه الاختلاسات أو يسببونها".

وعدت إلى الكلام مرة ثانية ففضحت ذلك التواطؤ المستمر الذي يؤدي دائما إلى لفلفة فضائح الاختلاسات وذر الرماد في العيون وعدم إجراء تحقيقات ناجعة تحدد المسؤوليات وتحيل المرتكبين إلى القضاء. "فهذا السلوك يشجع على الاختلاس وسوء الاستعمال، لا سيما وأن الناس يرون أن الاختلاسات تنتهي دون إدانة أحد".

وأشرت إلى أننا "كثيرا ما نرى أن الأبنية الحكومية لا تلبث أن تنهار بعد الانتهاء من إنشائها. ولكننا لم نر أحدا من الملتزمين أو المتعهدين قد لوحق قضائيا، مما يشجع على الغش ويعرض أموال الدولة للضياع".

وكان أقطاب النظام المرتكبون لهذه الجرائم يرمون المسؤولية دائما على بعض صغار الموظفين فقلت: "إننا نسمع أن الكاتب الفلاني أو الجاني الفلاني قد أحيل إلى القضاء، وتقوم ضجة كبرى ويقتنع الناس بأن هناك ملايين مختلسة من الدولة ثم تنتهي القضية عند هذا الحد... مع أن من يرتكب هذه الأعمال يجب أن يحاكم ولو كان من الوزراء الذين أمروا الموظفين بارتكابها".

فلسطين .. دائما .

وفي آخر جلسة من جلسات مناقشة الموازنة تقدمت مع عدد من الزملاء باقتراح بقانون هذا نصه:

"يحول مبلغ المليون ليرة المرصد في موازنة 1946، والموضوع أمانه لدى الخزينة السورية، إلى الأمانة العامة لجامعة

(1) كانت الدولة هي التي تستورد السكر ثم توزعه على التجار بواسطة وزارة الاعاشة.

الدول العربية، لينفق في سبيل مساعدة عرب فلسطين وإنقاذ أراضيهم".

وقد وافق المجلس على هذا الاقتراح ، فقال رئيس الوزراء جميل مردم:

"إنني أشكر الزملاء الكرام الذين أرادوا أن يكون اختتام هذه الدورة ختام مسك. والحقيقة أن قضية فلسطين هي قضية العرب في جميع أقطارهم وأمصارهم. لقد قمتم بالأمس بتأييد قضية مصر في مطاليبها القوية، ونهضتم اليوم بإجماع رائع للاعراب عن شعوركم الفياض نحو قضية فلسطين التي هي قضيتنا. إن العرب أيها الأخوان في جميع بلادهم القاصية والدانية يعتقدون اعتقادا جازما بأن قيام وطن صهيوني في فلسطين مهدد لبلادهم ولأجيالهم المقبلة. ولذلك فنحن نعلن في هذه القاعة التاريخية وفي هذا البلد العربي المؤمن بحق العرب ومستقبل العرب بأن الشعب السوري على استعداد دائما لتقديم أكبر التضحيات في سبيل انقاذ فلسطين".

تصاعد الهجمة الصهيونية على فلسطين .

إن الهجرة اليهودية - بالأشخاص والأموال والأسلحة- إلى فلسطين، التي استعرضنا بعض فصولها بإ يجاز ضمن أحداث عامي 1945 و 1946، تصاعدت كثيرا في مطلع سنة 1947. كما اشتد في الوقت ذاته عنف الاعمال الارهابية والاجرامية التي كانت ترتكبها العصابات الصهيونية.

وفي أواخر شهر كانون الثاني 1947 عقد في لندن "مؤتمر فلسطين" لبحث مشروع وزير الخارجية البريطاني بيفن "الذي يقترح إنشاء اتحاد على شكل مقاطعات على غرار المقاطعات السويسرية". كما بدأت الصحف العربية تتحدث عن "مشروع التقسيم". وقد حضر مندوبون من عرب فلسطين هذا المؤتمر.

ولكي نعطي صورة موجزة عن واقع القضية الفلسطينية خلال شهر شباط 1947 نكتفي بذكر العناوين التالية التي وردت في صحف تلك الفترة:

- بعض الوفود العربية قبلت تقسيم فلسطين.

- الانكليز يبدأون ترحيل عائلاتهم من فلسطين.
- اتحاد الأحزاب اللبنانية يقرر مكافحة الصهيونية ورفض مقررات مؤتمر لندن إن كانت ضد الحق العربي.
- الوفود العربية في مؤتمر لندن ترفض التقسيم والهجرة والمقاطعات الاتحادية.
- المقترحات البريطانية خطوة لجعل فلسطين دولة يهودية.
- القبض على 30 يهوديا في سيارة بلبنان يغنون النشيد الصهيوني ومعهم آلة لاسلكية.
- بيفن يعلن في 14 شباط 1947: بالنظر إلى أنه لم يقبل أي اقتراح من المقترحات التي قدمتها الحكومة البريطانية لذلك قررت الحكومة إحالة القضية الفلسطينية على هيئة الامم المتحدة.
- اليهود ينسفون نادي الضباط البريطاني في القدس، 100 قتيلا وعدد كبير من الجرحى... الخ.

كما كانت الصحف تنشر يوميا نصوص خطابات المندوبين العرب في مؤتمر لندن، وأنباء استمرار الهجرة اليهودية وأعمال التهريب، وكل ما يشير إلى تصاعد المؤامرة الكبرى على فلسطين، وكانت هذه الأنباء تثير في النفوس غيظا كظيما يتجمع للانفجار. في هذا الوقت تطلعت الأنظار بأمل إلى فوزي القاوقجي الذي أخذت الصحف تنشر نبأ عودته إلى مدينته طرابلس في لبنان وتصريحاته أثناء مروره بالقاهرة.

استقبال القاوقجي يتحول إلى مجزرة .

في ذروة الأحداث الفلسطينية أعلن لأول مرة أن فوزي القاوقجي سيعود إلى مدينته طرابلس بعد غيبته الطويلة عنها، منذ عام 1925، كان يخوض خلالها غمرات الثورة العربية في سوريا وفلسطين والعراق، ثم انتهى به المطاف أخيرا إلى غربته في أوربا، وقد سألني مكتب الفرع بحماه عن رأيي في اشتراك حماه باستقبال القاوقجي في طرابلس فوافقت على الفكرة، لأن

استقبال القاوقجي جماهيريا بالشكل الذي يستحقه هو تأكيد لقيادته التي ستستمد من الجماهير العربية الوفية العزم والتصميم واليقين.

ولم تكن حماه - في الواقع - بحاجة إلى موافقتي، فما أن وصل إليها النبأ حتى سارعت بالزحف إلى طرابلس لاستقبال القاوقجي، وكان على رأس ذلك الزحف الجماهيري الواسع رفاق القاوقجي من قدامى المجاهدين... ولم يكن يخطر في بال أحد أن ينقلب هذا الاحتفال الرائع إلى مجزرة رهيبة بين أفراد من الشعب الطرابلسي، ففي ذروة الاستقبال الحماسي الحاشد انطلقت النيران من البنادق والرشاشات تحصد الناس حصدا بالرغم من تدخل رجال الدرك، وقدرت الحكومة اللبنانية عدد الضحايا بثلاثة عشر قتيلا، وخمسين جريحا، كما اعتقل اكثر من ثلاثمائة.

وكتب مراسل اليقظة - 3/7/ 1947 - عن هذا الحادث :

"كان الحمويون يحيطون بموكب القاوقجي أثناء الاشتباك، وقد صرع منهم برصاص المتخاصمين ثلاثة أشخاص وسقط عدد من الجرحى، وقد شيعت حماه قتلاها بالدمع، وعاد معظم المستقبلين إلى حماه ما عدا من اعتقل منهم".

وهكذا حملت حماه قتلاها الأبرياء إلى المقابر، وجرحاها إلى المستشفيات، وأرسلت وفودها إلى دمشق للعمل على الافراج عن المعتقلين الأبرياء الذين هم بالحقيقة من ضحايا الحادث المجرم.

لم أكن على معرفة شخصية برياض الصلح فرجوت رئيس الحكومة جميل مردم أن يتصل به للإفراج عن المعتقلين، فاتصل به هاتفيا وقال له إن فلانا بجانبي، فتكلمت مع رياض الصلح لأول مرة، فكرر وعده بإطلاق سراح الموقوفين فورا... وسرعان ما بر بوعده.

كان لهذا الحادث الأليم أثر بليغ في نفسي. فبينما كان الجو العربي يتمخض عن ثورة قومية، تقع هذه المجزرة الرهيبة لخلاف

عائلي بين آل كرامي وآل المقدم، مما زادني يقينا بضرورة معالجة أمراضنا الاجتماعية وفي رأسها الاقطاعية والعشائرية والطائفية والعصبيات العائلية مهما كلف الثمن، وتأكد لي أنه لا جدوى من كل ما يبذله الشعب من تضحيات ما لم يتحرر من هذه الأمراض والعاهات الاجتماعية، كما اشتبهت بذلك الحادث، فقد كانت تلك الأيام تتكشف باستمرار عن شبكات التهريب والتجسس الواسعة المتشعبة التي كان يفضحها أبناء الشعب ويلاحقونها وكثيرا ما كانوا يلقون القبض على أفرادها ويسلمونهم للسلطات في سوريا ولبنان والعراق[2] . لذلك كان وقوع هذه المجزرة الرهيبة بالشكل الذي جرت فيه أمرا مثيرا للريبة والاشتباه.

والذي عزز اشتباهي بالحادث ما صرح به رئيس الوزراء جميل مردم بتاريخ 1947/2/11 من أن القاوقجي وجه إليه رسالة يذكر له فيها أنه في برلين، في المنطقة الروسية، وأن درجة البرودة هناك 19 تحت الصفر، وهو يعاني قلة التغذية وانعدام التدفئة، ويطلب في كتابه إرجاعه إلى البلاد، **كما يذكر أن الولايات المتحدة تطلب حجزه وتسليمه إليها.**

وقال مردم :

لقد خابرنا كل المراجع المختصة لتسهيل عودته.

وفي 17 آذار 1947 وصل إلى حماه وفد طرابلسي لتعزية عائلات الشهداء، وهو مؤلف من الشيخ منير الملك وسليم الذوق وشوقي الصوفي وسليمان الأدهمي وابراهيم المقدم وكامل هاجر وأحمد المحمود وأمين الجبيلي وأحمد ذكي الأفيوني، وفور وصولهم زاروا مكتب الشباب وقدموا تعازيهم لمدينة حماه، وأوضحوا حقيقة الحادث والأسباب التي أدت إليه.

تزايد نشاط الأجهزة الخفية البريطانية مع قرب موعد الانتخابات .

(2) وكان أبناء الشعب يلاقون من الحكام جزاء سنمار فقد ألقت حكومة نوري السعيد القبض على أعضاء "جمعية مكافحة الصهيونية" وأحالتهم إلى المحاكمة في شهر شباط 1947 وحكمت عليم بالسجن بحجة تأليف جمعية بدون ترخيص.

ازداد نشاط الأجهزة الخفية الانكليزية في جميع أنحاء البلاد مع قرب موعد الانتخابات النيابية. وكانت الرسائل تردنا من مختلف المحافظات عن هذا النشاط المشبوه، فكتبت في اليقظة بتاريخ 1947/3/25 مقالا تحت عنوان "إحموا استقلالنا" ورد فيه:

"يشعر كل فرد من أفراد هذه الأمة أن قوى غريبة تحيك حول استقلالنا الدسائس والمكائد، ولكن يظهر أن الحكومة لم تدرك هذا الخطر أو أنها أدركته ولكنها لا تريد أن تعمل إزاءه أي شيء، ففي كل يوم نسمع عن شخصية انكليزية تتجول بألبسة مدنية في البلاد تحمل جوازا موقعا من المراجع المسؤولة، فقد نشرت الصحف أن انكليزيا من سلاح الطيران كان يتجول في حماه ويسأل عن بيت أحد وجهائها. وقد أقام له ذلك الوجيه حفلة غداء، فإلى متى التغاضي عن هؤلاء العملاء الذين يعبثون بمقدرات الأمة؟".

كما أثرت هذا الموضوع في جلسة 1947/5/31 فقلت :

"نحن نرغب أن تقف الحكومة الموقف الحازم تجاه ما يقال وما ينشر في الصحف من أن أموالا أجنبية قد تسربت إلى هذه البلاد لخدمة المصالح الاستعمارية... ولا يجوز أن تتغاضى الحكومة عمن تسول له نفسه الاتصال بدولة أجنبية مهما كانت مرتبته، ومهما علت مكانته، وأقول مع الأسف الشديد أنه لم تقف أي حكومة من الحكومات التي تعاقبت على البلاد حتى الآن موقفا حازما من الخونة الذين يعبثون بهذه البلاد، بل كانت تقف منهم موقفا حليما، فاسمحو لي أن لا أعد هذا حلما بل جبنا" وقد اعترف بذلك رئيس الحكومة جميل مردم في الرد على كلمتي عندما قال:

"جاءنا نحن أيضا من نواح مختلفة أن أموالا تتسرب ودعايات تنشر، وأن هناك أحزابا لا تجرؤ أن تضع في برامجها احترام نظام الحكم القائم، وهو النظام الاستقلالي الصحيح، لأنها مرتبطة بجهات معينة ارتباطات سرية، فكل هذا موضع درس وتدقيق".

□

في هذا الجو الذي تميز بنشاط الأجهزة البريطانية، اجتمعت بوزير الخارجية نعيم الانطاكي في مكتبه، بناء على طلبه، فأخبرني أن الوزارة "انتقت" ... الدباس الموظف بالمفوضية

البريطانية بدمشق، لتعيينه وزيرا مفوضا في لندن، وسألني: ما رأيك؟

قلت: تسألني أنا؟ كيف أوافق على هذا التعيين والرجل كما تقول موظف في المفوضية البريطانية؟ انني أعارض هذه الفكرة أصلا، كما هددت بأن اثير هذا الموضوع في مجلس النواب فيما إذا تم التعيين، فقال لي:

لا لزوم لذلك، فأنا إنما أردت استشارتك بالموضوع.

□

انباء المعارك الحربية في حماه!

كان أبرز ما رافق نشاط الاجهزة الخفية البريطانية الفتن الدامية ولا سيما في مدينة حماه، إذ كان "زلم" الاقطاعيين ومأجوروهم يقومون باعتداءات على الأحياء الشعبية بشكل متواصل ومثير. وكانت هذه الفتن مصحوبة بدعاية مبالغ فيها، تنتقل بسرعة البرق في جميع أنحاء سوريا ولبنان. حتى صورت مدينة حماه وكأنها في حالة حرب. "وكان طالب حموي في جامعة بيروت عند اهله بحماه حين وقوع احدى الحوادث، وهو عارف بتفاهتها، وعندما عاد الى بيروت سمع بائع الصحف ينادي: أهم أنباء المعارك الحربية في حماه. فكاد يجن جنونه وأمسك بتلابيب البائع غاضبا". (النصر 1947/3/3).

وكانت الاجهزة الحكومية تبالغ بذكر هذه الاعتداءات لتبرر ارسالها المصفحات الى المدينة، والمزيد من قوات الدرك، بينما كان حزب الشباب واعيا لما يبيت له في الخفاء، فكان يوصي أنصاره بتجنب الرد على الاستفزازات والاثارة مهما كلف الثمن.

وفي الوقت نفسه، تمكنت الأجهزة الخفية أن تولد قناعة عامة باستحالة نجاحي في الانتخابات القادمة، مما أصبح موضع رهان بين الناس، وبدأت الشائعات تتحدث عن انقسام الصف الشعبي في حماه، وعن تفاهم رئيف الملقي مع الحكومة لتأليف قائمة واحدة مع الفئة الاقطاعية.

□

كان عدد سكان سورية التي تمارس عليها تلك الضغوط الاستعمارية لا يتجاوز المليونين ونصف، ومع ذلك فقد كانت بلدا كبيرا في آماله متطلعا لقيادة النهضة العربية، ففي تاريخ 1947/3/26 جرت عملية احصاء السكان في سورية، ولكن لم ينشر شيء عنه بسبب تلك النتجية غير المتوقعة.

□

تشكيل الحزب الوطني .

في تلك الفترة شرع نبيه العظمة بتأليف حزب سياسي سمي (الحزب الوطني)، فقام خلال شهر شباط 1947 بجولة على المحافظات، واتصل بجميع الكتلويين السابقين داعيا إياهم للانضواء تحت لواء الحزب الجديد، وبعد عودته الى دمشق تابع مساعيه فاجتمع بي وحاول اقناعي بالانضمام إلى حزبه، مصورا اياه بأنه شركة تضم أفراد الفريق الذين لهم سابقة في العمل الوطني، يساهمون فيه بقدر رصيد كل منهم، وقال هذا الحزب كفيل بتحقيق وحدة الصف الوطني التي تصون استقلال البلاد وتضمن تقدمها وارتقاءها. وأخبرني أنه زار حماه واجتمع بنجيب البرازي وخضر الشيشكلي والدكتور محمد السراج وآل العظم، وأنه وجد لديهم جميعا قبولا بالانضمام لهذا الحزب.

ثم استطرد قائلا: إن هناك دعاية مبالغ بها عن تخلف مدينة حماه التي زار أحياءها الشعبية وخرج بنتيجة أن دمشق ليست أرقى منها بكثير.

اعتذرت لنبيه العظمة عن الانضمام لهذا الحزب، لأن لي رأيا بتأليف الأحزاب. ولفت نظره إلى أنني عالجت ذلك في جريدة اليقظة عندما أثار صبري العسلي وزير الداخلية موضوع الاحزاب في البلاد.

□

باشـر نبيـه العظمـة بـالخطوات العمليـة لتشـكيل الحـزب الجديد، ففي مساء 28 آذار 1947 "عقد اجتماع بمنزل الدكتور عبد الرحمن الكيالي بحلب، حضره حسن فؤاد ابـراهيم باشـا، رشـدي الكيخيـا، أحمـد الرفـاعي، الحـاج وهبـي الحريـري، أحمـد خليـل المدرس، جميل ابراهيم باشا، معروف الـدواليبي، ظـافر الرفـاعي، للبحـث فـي موضـوع الـدعوة التـي وجههـا نبيـه العظمـة لحضـور الاجتماع الأول للحزب الجديد، وبعد مناقشة كلامية تقرر بالاجمـاع عدم الاشـتراك بهـذا الحـزب، ولـم يشـذ عـن هـذا الاجمـاع سـوى الدكتور عبد الرحمن الكيالي، وأحمد خليل المدرس.

وفـي 29 آذار 1947 اجتمـع 65 سياسـيا فـي المـؤتمر الأول للحـزب الجديـد فـي بيـت نبيـه العظمـة بدمشـق، وقـرروا اعتبـار الحاضرين هيئة عامة للحز ب. وألفوا لجنة لدرس مشـروع المنهـاج والنظام الداخلي، وهذه اللجنـة مؤلفـة مـن: نبيـه العظمـة، مظهـر باشا رسلان ، جمال علي أديب، محمد سـعيد الـزعيم، فريـد زيـن الدين، منير المالكي، عدنان الازهري، عبدالله فركوح، عبـد الحميـد قنباز، قاسم الهنيدي، حسن مراد، الـدكتور محمـد السـراج، خضـر الشيشكلي، ظافر القاسمي.

وفي اليوم الثاني صرح ناطق باسم المجتمعين:

"إن هذا الحزب لـيس إعـادة لتنظـيم الكتلـة، لأن الكتلـة لـم تكن تحمل أي منهاج أو برنامج مـنظم، وإنمـا هـي حـزب جمعـتهم السلبية ومناهضة الاستعمار فقط. أما هذا الحزب الجديد فسيبنى على اساس منهاجي غائي يتبع نظامـا اقتصـاديا وسياسـيا مبينـا تمليه حاجة البلاد وواقعها الحاضر"...

كانـت قناعـة النـاس بـأن هـذا الحـزب هـو حـزب شـكري القوتلي، وأن الذين سينتسبون إليه هم المحظوظون وحدهم فـي الانتخابات المقبلة. ولذلك أمكن لنبيه العظمة أن يلف حوله معظـم الكتلـويين السـابقين وجميـع الاشـخاص الـذين يطمعـون بتأييـد الحكومة، ولم يكن ظـن النـاس بعيـدا عـن الصـواب إذ تكشـف بعـد قليل أن القوتلي كان يسعى لاستغلال المعركة الانتخابية لضـمان

الاجماع النيابي حول تعديل الدستور وإعادة انتخابه رئيسا للجمهورية.

□

كان القوتلي مقتنعا بضرورة تأليف حزبين من أبناء طبقته ورفاقه الكتلويين: حزب مؤيد وحزب معارض، وكان يتصور أن الحزب الوطني سوف يكون مؤيدا له بزعامة نبيه العظمة، بينما يتولى زعامة الحزب المعارض رشدي الكيخيا الذي تفاهم معه عند تشكيل وزارة مردم على تعديل الدستور وتجديد الرئاسة، وكان القوتلي يظن بأنه سيكون الحكم بين الحزبين، هكذا توهم ولم يكن عارفا بأن الأمور ستسير، رغم وعد الكيخيا له بتجديد رئاسته، على عكس ما يتصور، وأنه سيخسر الحزب الوطني المؤيد وحزب الشعب المعارض بآن واحد.

تكشفت لي خطة القوتلي عندما فاتحني بالأمر الدكتور محسن البرازي، أمين سر القصر الجمهوري، أثناء انعقاد دورة البرلمان في شهر نيسان 1947، حيث اجتمعت به بناء على رغبته في احدى غرف وزارة الخارجية، والظاهر أنه أراد أن يكون هذا الاجتماع في منأى عن القصر الجمهوري.

قال: لا يوجد بين افراد الكتلة الوطنية من يصلح لرئاسة الجمهورية غير فخامة الرئيس، ولذلك أصبح تجديد رئاسته ضرورة وطنية، ثم أردف قائلا:

إذا لم يجدد للقوتلي فسيصبح جميل مردم المرشح الوحيد، فهل تقبل ان يحل جميل مردم محل القوتلي؟ قلت للبرازي:

أنت تثق بي وتعرفني جيدا، فقال: اللهم نعم.

قلت له:

من مصلحتي الانتخابية أن أؤيد شكري القوتلي بقضية تعديل الدستور وتجديد الرئاسة، وأنت تعلم أنني لا أرجح جميل مردم أو سواه من هذه الفئة على شكري القوتلي، ولكن تعديل الدستور

لا يبنى على هذه القياسات الشخصية، كما أن رجال الكتلة الوطنية قد فقدوا احترام الشعب وثقته بهم، وعلى رأسهم شكري القوتلي وهذا أمر خطير ما دامت البلاد لا تهيء البديل، وليس هنالك وسيلة لإعادة الثقة الضائعة إلا بترفع القوتلي وزهده عن التشبث بالرئاسة، وان تجديد انتخابه سيكون كارثة عليه وعلى البلاد، وأما إذا أظهر تعففه وزهده بالرئاسة فإنني على يقين بأن الشعب سيعود للثقة به مرة ثانية، ولا تنسى ان استقالته من وزارة المالية عام 1938 هي التي أوصلته الى زعامة البلاد. إن القوتلي خارج القصر الجمهوري سيكون أقوى بكثير منه في رئاسة الجمهورية مرة ثانية بعد تعديل الدستور، وأنا أكرر لك بأنني لست خصما شخصيا للقوتلي بل أنا خصم لسياسته وأساليبه.

كان الدكتور محسن يصغي الي بانتباه شديد وهو يهز رأسه، وانتهى الحديث دون أن يلحف بالطلب، فانصرفت وأنا أفكر، في طريقي للمجلس النيابي: أن محسن كان كما يبدو مقتنعا بكل ما قلته اقتناعا تاما، ولكن لم يكن من مصلحته إلا أن ينفذ رغبة سيد القصر.

كان من سوء طالع الرئيس القوتلي أن صورته في نظر الشعب قد تشوهت كثيرا في تلك الفترة بالذات، بسبب استمرار تفجر مسلسل الفضائح في مصالح الدولة بالرشاوى والاختلاسات والسرقات، وكان بعض المدانين الذين رماهم القضاء في السجون من أنصاره وزلمه أو من المقربين إليه شخصيا.

وحيدا ... بين الخيبة والأمل.

بدأت أشعر بالحصار يشتد علينا بعد أن دفع القوتلي نبيه العظمة لتشكيل الحزب الوطني، وبعد أن اتفق مع رشدي الكيخيا على تعديل الدستور وتجديد الرئاسة، تلك الصفقة التي كان ثمنها - بعد خروج الجابري من الحلبة السياسية - مساعدة الكيخيا بحلب وترسيخ زعامته فيها، وبعد انقسام الصف الشعبي في حماه على اثر اجتماع خضر الشيشكلي مع مؤسس الحزب

الوطني، مما جعل تشكيل قائمة شعبية موحدة أمرا ميئوسا منه، وبعد نشاط الأجهزة الخفية وتركيز جهودها على تفشيلنا في الانتخابات، وهكذا بقينا وحدنا في ساحة المعارضة مما ولد في نفوسنا جوا من الوحدة والاغتراب.

كان هذا شعوري وشعور كل واحد من رفاقي في تنظيم حزب الشباب، شعور المضطهدين المطوقين الذين يتربص بهم الجميع.

وقد انعكست آثار هذا الشعور على جريدة اليقظة بشكل واضح ومؤثر، فكنا بدلا من الافتتاحيات، ننشر أقوالا مختارة لنيتشه وجبران خليل جبران. وتحت عنوان **"لقد تخلصنا من المتطرف المقلق"** نشرت اليقظة بتاريخ 1947/12/27 الأقوال التالية لجبران :

"أحب من الناس المتطرفين.

أحب القادرين على الهبوط إلى لجج الحياة والصعود إلى أعاليها

أحب الذين يميلون بكليتهم الى وحدانية الامور فلا يقفون مترددين بين نقيضين. أحب المتطرفين المتحمسين الملتهبين بشعلة نزعتهم، المضطربين بوجدان قلوبهم، المتحولين عن اختلاط الافكار الى فكرة أولية مجردة، المنصرفين عن معترك المبادئ إلى مبدأ خاص يرتفع بهم إلى ما وراء الغيوم وينحدر بهم إلى أعماق البحار.

إن من يعتدل في دين يقضي حائرا بين خوفه من العقاب ورغبته في الثواب، فإذا مشى في موكب المؤمنين توكأ على عكازه ، وإذا ما ركع مصليا انتصبت فكرته ضاحكة منه.

ومن يعتدل في مناصبة الشر ومناصرة الخير لا يصرع شرا ولا ينجد خيرا. يكتفي بأن يصون ما سال من عواطفه بما جمد منها فيصرف عمره على شاطيء الميول، وهو كالمحار حجري الظاهر مخاطي الطوية .. ومن يعتدل في السعي وراء الحرية لا

ولن يرى سوى آثار قدميه بين التلول والمنحدرات ... كيف يتحول القرود الى بشر والأقزام إلى جبابرة وهم قانعون بضعفهم وتفاهتهم؟

أحب ذاك الذي صلبه المعتدلون ولما لوى عنقه وأغمض عينيه قال بعضهم لبعض: لقد تخلصنا من المتطرف المقلق. ولم يدروا أن روحه كانت في تلك الساعة متغلبة على الأمم وعلى الأجيال.

أحب الشهداء المشغوفين، المستميتين، المسترخصين كل شيء الا الغاية القصوى، المستصغرين كل أمر إلا الغرض الأسمى.

أحب الذين أحرقوا ورجموا وشنقوا وقضوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة أشعلت قلوبهم... .

وكنا ننتشر المقتطفات الكثيرة لنيتشة، المماثلة لهذا الذي ذكرت في تعبيرها عن الوحدة الروحية المترعة بالغضب والاصرار على المثابرة في درب الحق.

آخر دورة لبرلمان 1943 .

كانت دورة نيسان ومايس 1947، التي جرت في جو بدء المعركة الانتخابية من اكثر الدورات اهمية وانتاجا. فقد تقدمت الحكومة الى المجلس بمشاريع قانون المطبوعات، وقانون البلديات، وقانون الجيش الاساسي، وقانون الخدمة الالزامية، فأحالها رئيس المجلس الى اللجان وقال: "نظرا لضيق الوقت ولأهمية هذين المشروعين (الأخيرين) رأينا إرجاء النظر فيهما إلى الدورة القادمة التي سيعقدها المجلس الجديد.. فهو يبت بهما كما يشاء".

فقلت: "إذا كان ضيق الوقت يحول دون النظر بالمشروعين معا، فلا أقل من أن نبت بقانون الجيش لأنه لا يجوز أن يبقى الجيش بلا قانون".

فلم يلتفت المجلس الى طلبي لأنه كان يريد سرعة انقضاء الدورة والانصراف للمعركة الانتخابية، ومع ذلك أمكن لنا أن نقر قانون البينات في المواد المدنية والتجارية دفعة واحدة، هذا القانون الجديد الذي ينسف معظم ما تبقى من مجلة الأحكام العدلية.

كما أقر المجلس، في هذه الدورة، تعديل قانون الانتخاب وجعله على أساس الدرجة الواحدة، وقد تم ذلك في جو من المظاهرات الشعبية الضاغطة التي عمت البلاد وسقط فيها عدد من القتلى والجرحى، وقالت "البعث" في معرض تصويرها الانتفاضة الشعبية: "لا يذكر النضال العربي الا ويرتسم اسم مدينة حماه أمامنا تعبيرا قويا عن استبسال شعبنا الأبي ضد الاستبداد. وها هي حماه تهب اليوم لتحطيم بقايا العهد الاستعماري المتمثلة بقانون الانتخاب الرجعي". 1947/4/25.

وعندما تليت المادة الأولى من مشروع تعديل قانون الانتخاب قوبلت بصمت جميع النواب وسكوتهم، فقال رشدي الكيخيا :

"بمناسبة اقرار المادة الأولى التي تجعل الانتخابات على درجة واحدة بالاجماع أريد أن أسرد عليكم حكاية فيها بعض الطرافة. وقد حدثت في المجلس النيابي السابق عام 1939. عندما نكلت الحكومة الفرنسية عن تصديق المعاهدة السورية الفرنسية، فعمدت الى استعمال الضغط على النواب لمنع حضورهم جلسات المجلس بالتهديد والوعيد، حتى بدأ الخوف يدب إلى قلوبهم فأخذوا يتخلفون عن حضور الجلسات، وكانت رئاسة المجلس آنذاك تحاول جمع الاكثرية فيتعذر عليها ذلك. وعندما عقدت إحدى الجلسات تليت الكتب التي يعتذر بها النواب عن حضور الجلسة. ومن بينها كتاب يعتذر فيه صاحبه من عدم حضوره جلسات المجلس بسبب الضغط، فتساءل رئيس المجلس بعد تلاوة الكتاب: هل إن الضغط ناشيء عن الموقف الحاضر أم عن سبب مرضي؟ فضحك النواب.. فالحالة التي مرت بالمجلس اليوم عند إقرار المادة الأولى بالاجماع تشبه تلك الحالة التي وقعت قبل بضع سنوات".

وبعد مناقشات طويلة بقيت الكراسي الاستثنائية العشائرية والطائفية، وكان الكسب الشعبي الكبير بجعل انتخاب نواب المجلس على درجة واحدة إنجازا جذريا هاما بالنسبة للحياة البرلمانية الديمقراطية، وقد جرت فيما بعد تعديلات أخرى جذرية ومهمه جدا في عامي 1949، 1954 وسترد تفاصيل ذلك في حينه.

□

بعد انتهاء دورة المجلس، وقبل أن يذهب النواب الى مناطقهم الانتخابية، رغب إلي رشدي الكيخيا أن نذهب سوية للنزهة في شارع بغداد، وأثناء سيرنا قال لي أن القوتلي عازم على تعديل الدستور وتجديد الرئاسة، ولا سبيل لمعارضة هذا الموضوع، وأرى أن تظهر موافقتك على تجديد الرئاسة وتعديل الدستور، ولا سيما أن المعركة الانتخابية على الأبواب.

ذكرت للكيخيا ما جرى من بحث سابق بيني وبين محسن البرازي، واعتذرت عن الموافقة، وقلت: انني افضل السقوط في الانتخابات على أن أوافق على تعديل الدستور لانتخاب القوتلي.

تكشفت امام ناظري لعبة القوتلي كاملة. وقدرت ما سوف ينتظرني من متاعب ولكن لم يخطر في بالي أن يلجأ الى تزوير الانتخابات في دمشق بالشكل الذي جرت فيه، وما رافقها من فضائح وما تركت وراءها من آثار أدت بعهد القوتلي للانهيار.

□

في غضون ذلك أصدر الحزب الوطني - الجديد - بيانا أعلن فيه انتخاب هيئته الادارية على النحو التالي:

سعدالله الجابري	رئيسا
لطفي الحفار	نائبا للرئيس
صبري العسلي	أمينا للسر
مظهر رسلان	مراقبا عاما

عبد الرحمن الكيالي أمينا للصندوق

أمـا الأعضـاء الاداريـون فهـم : عبـدالله شـريتح، بـدوي الجبل(محمد سليمان الأحمد) ، جمال علي أديب، فايز الخوري، سليمان المعصراني، ميخائيل اليان.

وفـي اليـوم ذاتـه 1947/4/26 انسـحب مـن الحـزب الـدكتور حسـن ابراهيم باشا "لأن بين هؤلاء من تآمر فيما سبق على حياة الزعيم هنانو". وكذلك انسحب نسيب البكري لأنه شـعر "بـأن جـو الحزب الجديد مشبع بفكرة بقاء الانتخابات على درجتين".

كان الجابري لا يـزال فـي مصـر يعـاني مـن مرضـه الشـديد، فاعتذر عن اختياره لهذا الدور.

وقد قوبل الحزب الجديد بالانكماش والحـذر مـن قبـل الـرأي العام، وتناولته الألسن بالنقد اللاذع، فأطلق عليه الكاتـب السـاخر فريد الكيلاني فـي جريـدة النصـر اسـم حـزب الروبابيكـا، اي حـزب الاشـياء القديمـة التـي كـان فقـراء اليهـود يتـاجرون بهـا فـي أزقـة دمشق الشعبية، وقد التصق هـذا الاسـم بـالحزب الـوطني الـذي كان انهياره سريعا فيما بعد.

26

1946: إصدار جريدة اليقظة - باعة الصحف ينـادون:
يا نايمين... اليقظة.

بعض عناوين ومواضيع المقالات التي تناولتها جريدة اليقظة:

1- مـا تتطلبـه الـبلاد: الأســس الصـحيحة للحيـاة الديمقراطيـة البرلمانيـة 46/5/7 .

2- مناقشة البيان الوزاري لحكومة سعدالله الجابري الثالثة - 1946./5/5

3- القضية الفلسطينية تحت عنوان : ليست فلسطين للانكليز ولا للصهاينة وانما لأصحابها العرب - 1946/5/8 .

4- أمـا الجيـوش الفرنســية فقـد جلـت وأمـا فرنســا فلـم تجـل عـن الـبلاد - 1946./5/9

5- تعليق على مؤتمر بلودان (القضية الفلسطينية) - 46./6/9

6- التصدي لتسرب النفوذ البريطاني إلى سوريا - 1946./5/8

7- التصدي لتسرب النفوذ البريطاني إلى سوريا - 1946./5/9

8- بدء الحديث عن مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط - 1946./6/5

9- مقال عن المحاكم المختلطة - 46./5/8

10- مقـال عـن ضـرورة التعدديـة الحزبيـة لسـلامة بنـاء الحيـاة الديمقراطيـة. 1946./5/14

11- حرية الصحافة - 1946./5/15

12- قانون للعمال، وآخر للفلاحين - 1946./5/12

13- اصلاح الجهاز الاداري - 1946./5/7

14- إلى الذين لا يعيشون إلا في الظلام - 1946./5/19

15- بقـوة اليقـين والايمـان ظهـرت المعجـزات فـي التـاريخ (حـول ثـورة حمـاه 1945) 1946./6/1

16- نحن وتركيا - 1946./5/21

17- قضية لواء اسكندرون في مجلس الأمن - 1946./5/26

18- مشكلة الخبراء الاجانب - 1946./6/9

19- الضغط الاستعماري البريطاني على سورية - 1946./6/28

20- الجيش .. الجيش .. مرة أخرى - 1946./6/17

21- سياسة الاتحاد السوفييتي العربية - 1946./6/27

22- أول صيحة لاستخدام النفط في المعركة المصيرية - 1946./7/5

23- حول النعرة الاقليمية - 1946./7/25

24- الاوضاع الاقتصادية في مدينة حماه - 1946./6/6

25- الاتصال بالحركات التحريرية العربية: مقال عن نضال تونس - 1946./9/4

26- قضية سليمان المرشد 1946/9/17، 1946/9/19 .

27- الدعوة لتعديل قانون الانتخاب 1946./9

28- العلاقة مع الاتحاد السوفيتي 1946./10/2

29- أساليب التوريط 1946./10/24

30- لا تسيئوا إلى النظام الجمهوري 1946./10/23

31- اقتلاع جذور النفوذ الفرنسي 1946/9/25.

الإعداد لإصدار جريدة اليقظة :

قبيل عرض الشكوى السورية اللبنانية على مجلس الأمن، وما رافقها من مضاعفات وملابسات، أصبحت أشعر بضرورة إصدار جريدة يومية بجانب نشاطي في المجلس النيابي الذي لم يعد وحده كافيا لمعالجة القضايا الكبيرة التي طرحت على مستوى سوريا والأمة العربية، لا سيما وأن الحكومة كانت توعز للصحف بإهمال ما لا تود نشره من مناقشات المجلس، أو حذفه، أو تحريفه.

وكثيرا ما كانت تعطل عدة صحف معارضة دفعة واحدة بمرسوم واحد ولمدة طويلة, كما كانت الحكومة تلجأ إلى تأجيل انعقاد دورات المجلس النيابي في مواعيدها الدستورية ... ولا حاجة بي للتدليل على مدى أهمية وسائل الاعلام وتأثيرها وفاعليتها، ولا سيما في الأيام المصيرية من حياة الشعوب، إذن لا بد من إصدار جريدة.

وهذا يعني أنه لا بد من المال والرخصة.

أما المال فليس لدي منه الا سبعون ليرة ذهبية كانت لا تزال مدخرة من عهد المحاماة قبل عام 1943. وهو مبلغ ضئيل لا يكفي. فاتفقت مع زميلي قاسم الهنيدي بأن يساهم معي ماليا لإصدار الجريدة للأسباب التي ذكرتها، فتحمس للفكرة، واتفقنا نحن الاثنين مع رئيف الملقي أن نقنع سعدالله الجابري بالترخيص لنا بإصدار جريدة في دمشق باسم اليقظة التي كنت قد استحصلت على امتياز لإصدارها في حماه، ولكنها لم تصدر لأنني لم أجد جدوى كبيرة من صدورها ضمن ذلك الاطار المحلي الضيق... وقد اضطرت حكومة الجابري أن تمنحنا الترخيص بعد أن أثرت هذا الموضوع في المجلس النيابي.

وانصرفت للاعداد لاصدار اليقظة في اقرب وقت.

دار اليقظة ... من هنا:

يقع النواب، في أعرق الدول بالديمقراطية البرلمانية، تحت وطأة مراجعات أبناء مناطقهم الانتخابية، وقد ذكر تشرشل أنه عندما كان النازيون في ذروة هجومهم الجوي على الجزر البريطانية أرسلت إليه امرأة عجوز كتابا تشكو فيه انهدام مجارير منزلها.

أما في البلدان النامية فإن النواب ينصرفون عن مهمتهم الأساسية لقضاء معظم أوقاتهم في الانشغال بمشاكل أنصارهم من الناخبين، لأن ذلك يضمن لهم النجاح في الدورة التالية، وغالبا ما يكون حل هذه المشاكل على حساب حقوق الآخرين أو على حساب مخالفة القوانين والأنظمة والدستور فيزيد ذلك في فساد وانحراف الحياة الديمقراطية البرلمانية كما يزيد في ترسيخ الزعامات والأوضاع الطائفية والاقطاعية والعشائرية والاقليمية، وشيئا فشيئا يزداد تناقض هذا النظام مع العدل الاجتماعي ومع تقدم الشعب ووعيه مما يهيئ الأسباب للانقلابات العسكرية.

وفي الأساس، أقام الاستعمار الأوروبي هذه النظم البرلمانية في البلدان المتخلفة على أساس طبقي اقطاعي وعشائري وطائفي ليستخدمها مطية في تحقيق مصالحه.

كان نجاحي في الانتخابات ثمرة حركة شعبية تقدمية ضد الاقطاع والعشائرية والطائفية والاقليمية، ولذا كان موقفي من الناخبين في مراجعاتهم وشكاواهم مختلفا كل الاختلاف عن موقف نواب المجلس الآخرين.. وربما كنت النائب الوحيد الذي كان يستقبل يوميا أكبر عدد من المواطنين المراجعين، سواء في العهود البرلمانية أم في العهود الأخرى. بل إنني حتى عندما اضطررت للجوء إلى لبنان عدة سنوات بعد انقلاب الثامن من آذار 1963 كنت أفاجأ ببعض المواطنين الذين يأتون إلي من أقاصي سوريا ليطلبوا مني مساعدتهم لحل مشكلة لهم في لبنان أو سورية.

ومنذ أن نجحت بانتخابات عام 1943 كنت استقبل المراجعين في مقهى صغير على ضفة بردى. لأنني كنت أقيم

في غرفة (ببنسيون) ثم صرت أستقبل المراجعين بعد ذلك في بيتي "دار اليقظة" بزقاق الصخر، ثم في مكتب الحزب العربي الاشتراكي بشارع بغداد، أو في بيتي بهذا الشارع بعد أن تزوجت، ثم في مكتب حزب البعث العربي الاشتراكي بعد دمج الحزبين، واعتقد أن كثيرا من قراء هذه المذكرات تتحرك في مخيلة كل منهم ذكريات عن زيارات قاموا بها لي بهذا الخصوص.

على أنني منذ البداية وضعت لهذه المراجعات قواعد لم أحد عنها أبدا، وقد أكسبني التزامي الشديد بها محبة وثقة الفقراء والكادحين، وأفقدني تأييد فريق من البورجوازية. وهذه القواعد هي:

1- عدم قبول المراجعة بأية مشكلة تخالف الأنظمة والقوانين.

2- أفضلية الاهتمام بقضايا المراجعين حسب عدالتها لا بالنسبة لأهمية شخص المراجع، لذلك فإنني كنت أدعم القضايا العادلة والقانونية التي تخص خصومي السياسيين ذاتهم.

3- فتح الباب أمام كل مراجع، والاصغاء له، من أية منطقة أو فئة كان، علما بأن الأكثرية العظمى من المراجعين كانت من الفلاحين وأفراد الشعب والفقراء.

كان وضع هذه القواعد وتقرير الالتزام بها أمرا سهلا، ولكن الصعب كان اقناع بعض الناس، علما بأنني كنت أشرح موقفي هذا لكل مراجع تخالف مشكلته هذه القواعد، وكنت أمتنع بشكل صارم عن التدخل بأمور القضاء الذي يجب أن يظل مصونا. وكنت أضرب لهم الأمثال بأنفسهم كيف يتألمون ويقلقون عندما يلجأ خصمهم إلى متنفذ يتدخل في شؤون القضاء ضدهم، وكنت أشرح لهم بأن حركتنا حركة عادلة ولذلك فهي ثورة على النفوذ الاقطاعي والعشائري الظالم الفاسد، فكيف نبيح لأنفسنا أن نسلك طريق هؤلاء الخصوم، كان التبشير والشرح والتوضيح متعبا أكثر من المراجعة نفسها، ولكنه كان عملا مثمرا، لأنني كنت ألاحظ مدى تأثير شرحي وإيضاحاتي على وجوههم ثم على سلوكهم وتصرفاتهم فيما بعد..

كانت معظم قضايا الفقراء الكادحين والبورجوازية الصغيرة قضايا عادلة مشروعة، لأن هذه الفئات الشعبية لا تزال تتأثر بالقيم الأخلاقية والوطنية والدينية، حيال جهاز حكومي متخلف لا يزال متأثرا بعقلية التعالي على الضعفاء والاستذلال والتزلف للأقوياء. فكنت أعتبرها قضايا مبدئية أتكفل بها وأتحمس لها مهما كلفني ذلك من متاعب.

ومع الزمن تكونت قناعة لدى الناس، لا في محافظة حماه فحسب بل في سورية كلها، بالتزامي الصادق الحازم بهذه القواعد القانونية والقيم الأخلاقية.

خلف الانتداب الفرنسي إدارة منتظمة قائمة على البيروقراطية وعلى المركزية الشديدة. فكان أبناء المحافظات النائية يضطرون للسفر إلى العاصمة لتحويل استدعاء من دائرة إلى دائرة أو لأمور شكلية جدا. وكان الموظفون المتغطرسون يضطرون هؤلاء المراجعين للمكوث بالعاصمة عدة أيام من أجل تحويل استدعاء بسيط مثلا، مما يكلف الفقراء منهم نفقات لا قبل لهم على تحملها. وكان شعور الموظفين بالمسؤولية ضعيفا. فقد كانت معظم هذه المشاكل التي يرغمون المراجع بشأنها على البقاء في دمشق عدة أيام، تنتهي فورا بهاتف من قبلي للموظف المسؤول. وكان الموظفون يلبون طلباتي حبا أو خوفا بعد أن أصبحت نائبا بارزا مرهوبا.

كانت مشاكل الناس في مجتمعنا البائس آنذاك مشاكل متنوعة، أكثرها يتعلق بالخدمات العامة كالصحة والتعليم وغير ذلك. وكان جهاز الدولة قاصرا وموازنتها أكثر قصورا عن تقديم الخدمات العامة للمواطنين.

وفيما يلي مثال واحد من ألوف الأمثلة التي تصور تلك الحالة:

طرق أحد المواطنين منزلي ليلا، ففتحت الباب فواجهني بسعال متواصل وهو يبصق يمنة ويسرة. وقد لاحظت أنه مصاب بالسل وأنه في الدور الثالث، لأنه كان يبصق دما. فخشيت من

العـدوى، ولكننـي لـم أسـتطع أن "أكسـر بخـاطر" هـذا المـواطن المريض الذي لجأ إلي لأسعى بإدخاله إلى المستشفى.

قلت له: سأسعى لك بذلك منذ الصباح.

فقال إنه جوعان، فقدمت له طعاما.

فقال إنه متعب ويريد أن ينام فنقدته أجرة الفندق، فطلب أن ينام في منزلي، فقلت له إنني أنتظر قدوم والدتي من حماه.

ولم أستطع في اليوم الثاني إدخاله إلى المستشفى إلا بعد جهود شاقة، لأن عدد المشافي اقل بكثير من حاجة البلاد، ولأن المخصصات غير كافية، وعندما أوصلته إلى المستشفى رأيت عددا كبيرا من المرضى ممددين على الأرض في الممرات. وعدت إلى البيت وأنا أردد الآية القرآنية: "ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا" ... .

كانت معظم مراجعات المواطنين من هذا النوع الذي يشجي النفس ويدمي القلب، إنها الصورة الواقعية لما كان يعانية شعبنا من فقر ومرض وجهل. ولكنها كانت مددا للصبر ومعينا لا ينضب لحب هذا الشعب العظيم الذي يصارع الموت والفناء.

بعد أن استأجرت منزلي في زقاق الصخر، وبعد أن أصبحت نائبا مرموقا، أصبح الضعفاء والمظلومون واليائسون يتدفقون إلى منزلي من جميع أنحاء سوريا. ولم تعد زيارتهم لي كما كانت في السابق، تتم في مواعيد محددة في المقهى ، بل أصبحوا يؤمون المنزل ليلا ونهارا، مما أرهقني مع تحمل مسؤولياتي النيابية والسياسية، وظل هذا الوضع ملازما لي طيلة حياتي السياسية. وقد أصبح مألوفا لدى سكان زقاق الصخر أن يدلوا الفلاحين والفقراء على بيتي قبل أن يسألوهم عنه، فيقولوا لهم سلفا: دار اليقظة من هنا.

وإذا لم يكن منزلي في زقاق الصخر يتسع ليكون فندقا لهؤلاء البؤساء الذين كانوا يستدينون أجرة السفر إلى دمشق. فإنه كان بالحقيقة نزلا لإخواننا ورفاقنا من قيادات الحزب الذين لم

يكونوا أحسن حالا من أولئك الفقراء، فكانت "دار اليقظة" مضافة لهم توفر عليهم نفقات الاقامة في العاصمة التي كانوا يؤمونها إما لضرورات حزبية أو للأخذ بيد هؤلاء البؤساء.

وبعد زواجي في عام 1950 أصبح الوضع أقل عنتا وأكثر انتظاما، لأنني خصصت إحدى غرف المنزل لاستقبال المراجعين وكانوا سابقا يصلون إلى غرفة نومي، فأصبحت لا أخرج إليهم إلا بعد أن أحلق وأرتدي ثيابي وأطالع صحف الصباح. كانوا يملأون الغرفة دائما، وكان بعضهم ينتظر في المدخل أو تحت أشجار الرصيف، وكان لكل منهم قضية، وكنت من إصغائي لأحاديهم وشكاواهم أظل على اطلاع مستمر على حياة الشعب.

المدرسة الشعبية لتخريج القيادات الحزبية:

كلما تكاثر عدد الشباب المتخرجين من كليتي الطب والحقوق كلما كانت تنزل عن عاتقنا أعباء ثقيلة. فقد كانت القيادات الحزبية من الأطباء تقدم الخدمات الصحية للمواطنين الفقراء مجانا، كما كانت القيادات الحزبية من المحامين، في بعض الأحيان، تقوم مجانا بخدمات المواطنين الفقراء الادارية والقضائية. وكانت هذه الخدمات مقياسا وطنيا وانسانيا لا يخطيء في انتقاء القيادات الحزبية الصالحة، كما أنها كانت مدرسة أخلاقية ووطنية لهذه القيادات لشابة تزيد من تعلق الشعب بها واحترامه لها وإيمانه بصحة اتجاهها. وبهذا المقياس كان الشعب هو الذي يخرج القيادات الحزبية الصالحة. وبهذا السلوك الذي ذكرته أصبح الاتجاه التقدمي ينمو في ظل ذلك النظام البرلماني.

... ومن هنا كان يتأكد ارتباط مواقفنا الفكرية والاجتماعية والسياسية في المجلس مع جماهير الشعب ومشاعرها وآلامها وتطلعاتها. ولم يعد ارتباطنا بالجماهير على مستوى منطقتنا الانتخابية بل أصبح يتسع شيئا فشيئا ليصبح على مستوى البلاد كلها، وهكذا أصبح اطلاعنا ينمو شيئا فشيئا، على أوضاع الشعب وشؤون المجتمع وأحواله بالدقائق والتفاصيل، في جميع المحافظات السورية.

مشاغل كثيرة وأعباء أكثر:

تقدمت حكومة الجابري ببيانها الوزاري إلى المجلس النيابي في 1 أيار 1946، ولم يبق لموعد صدور العدد الأول من "اليقظة" إلا أربعة أيام. لذلك كان عملي شاقا بجانب مسؤولياتي النيابية وسيل المراجعين الذين لا ينقطع وبجانب مسؤولياتي الحزبية والسياسية الأخرى. كانت فترة من أكثر فترات حياتي مشقة وعناء وتعبا. وقد كنت مضطرا -لقلة المال- أن أتولى بمساعدة رئيس التحرير أحمد علوش مسؤولية كتابة الافتتاحية وتحرير معظم أبواب الجريدة، بل كنت مخبرا ومصحح أحرف لطبعات التجارب في الوقت ذاته. لأن الأنظار كانت جميعها متجهة للجريدة. الأصدقاء والخصوم الذين يتسقطون الهفوات والأخطاء، إن الكتابة والتحرير في الجريدة غير الخطابة والنقاش في المجلس النيابي، فهي تقتضي في البداية جهدا كبيرا شاقا. يضاف إلى ذلك مصاعب توزيع الجريدة وملاحقة الأجهزة الخفية التي تعمل على تعطيل توزيعها سواء في دمشق بواسطة الموزعين والبائعين أو في البريد مما سأروي عنه بعض الأمثلة.

إن العمل الصحفي تمرين وتجربة بالدرجة الأولى، ولم يسبق لي معاناته ولا معرفة أسراره وخفاياه، وهو أيضا فن يكتسب بالتجربة وسعة المعرفة. إن الاستعداد الفطري ليس وحده كافيا للنجاح.

كان عبئي ثقيلا بين المراجعين وشؤون "اليقظة" والمسؤوليات النيابية والحزبية، ولكنني جعلت همي الأول "اليقظة" للأسباب التي ذكرتها...

وإذا كنت قد حرصت على أن أعرض ضمن هذه المذكرات بعض المقالات التي كتبتها في جريدة اليقظة في فترة مفصلية من تاريخ سورية (فترة ما بعد الجلاء) فلأن الغرض الرئيسي من ذلك هو عرض صورة دقيقة -قدر المستطاع- عن تطور الفكر العربي القومي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي في بلادنا.

ربما لا تكون قراءة هذه المقالات التي كتبتها منذ ما يقرب من خمسين عاما شيقة بالنسبة للقارئ، ولكن أهميتها تكمن في كونها تعالج كثيرا من المشكلات على المستويين القطري والقومي التي لا تزال معلقة ومطروحة على بساط البحث والتي تنتظر وضع حلول لها وتنفيذها.. هذا بالاضافة إلى ما لمسته من العناء الكبير الذي يلاقيه طلاب الدراسات العليا من فقدان المراجع التي تساعدهم على كتابة اطروحاتهم عن كثير من نواحي حياتنا العربية، ولا سيما عندما يكون تاريخ سورية موضوع ابحاثهم ودراساتهم لندرة ما كتب ونشر عنه سواء من كتب أو مذكرات أو وثائق، ولذلك رأيت إدراج بعض مقالات اليقظة ووضعها في سياق المناسبة والجو الذي كتبت فيه مما يعطي فكرة عن أحداث تلك الحقبة.

□

صدر العدد الأول من جريدة اليقظة في اليوم الخامس من أيار 1946 متوجا بافتتاحية تحت عنوان: اليقظة شروق فجر جديد.

كان موضوع هذه الافتتاحية عن مفهوم العروبة، وقد كتبت ، بأسلوب انشائي، ونزعة رومانسية واضحة فورد فيها:

غفا الوجدان العربي قرونا حتى ظن أنه شهاب ثاقب... عارض من عوارض الطبيعة والتاريخ، وحتى كاد هذا الوهم أن يصبح حقيقة... . استيقظ النائم، فاستيقظ فيه أرث جميع الحضارات التي لا تزال آثارها ماثلة في كل شبر من أراضيه وعبيرها فائح في كل حفنة من ترابه.

يقظة الوجدان العربي، يقظة وجدان حي لا مشوه ولا ممسوخ، لا شرقي ولا غربي، بل يقظة الذات العربية، القديمة الحديثة، التي تستمد نسغها من أعمق الحضارات الانسانية، والعالم دوما بظمأ لعبير نفحاتها المنعشة..

وهذا واجب اليقظة: ايقاظ الشعور الصحيح بالذات العربية الوارثة لحضارات الشرق العربي منذ الأزل، لا من ابتداء الفتح، هذه الذات التي تستغرق ولا تغرق والتي تهضم ولا تهضم.

وأما عن أسلوب يقظة الوجدان العربي فقد ذكرت الافتتاحية:

محاورات ومناقشات في البيت والمعمل والمدرسة والحقل، في السياسة والاجتماع والاقتصاد، في الاخلاق والدين، في كل معنى من معاني الحياة: جيل مضى وجيل ناشيء جديد، وبالجيل الجديد تتمثل يقظة هذا الوجدان وتنصب أمام ناظريه جميع المشكلات. ولكن سيعالجها على ضوء خاص لا من نافذة اصطلاحات جوفاء أن علمها العقل أنكرها الشعور والعاطفة".

وباسلوب تنسجم فيه الاضداد، فلا دماء ولا أحقاد، ولا خصوم ولا أعداء، بل بسير عربي، وهو الاخلاق بمفهومها العربي الخاص مهما تحولت مظاهرها في التاريخ من وحي ودين والهام، فهي من نبع النفس العربية المتفتحة السمحة المجنحة المحلقة، وهذا السر هو الذي عزف الأمة العربية منظومة منسجمة الألحان والايقاع تتماوج احداؤها منذ اقدم العصور، من وطن العرب الأم، من طهارة رمل الصحراء، واشراق نورها اللالاء.

فعلى ضوء هذا ستعالج اليقظة بدقة جميع ما نصبه القدر امام أعيننا من مشكلات امتنا الخالدة.

رئيف الملقى قاسم الهنيدي أكرم الحوراني"

كما ضم العدد الأول عدة مقالات وأبحاث، من جملتها مقال بقلم صلاح البيطار عنوانه "يجب أن تسترد الحريات الدستورية". وفي الواقع أن "اليقظة" اصبحت لسان حال الفئات التقدمية القومية في سوريا.. والتفت حولها الأقلام الواعية التي راحت تزودها بفيض من المقالات والدراسات، وكان اسلوبنا في معالجة قضايا البلاد القومية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية يتصف بالواقعية والتحديد العلمي الواضح الذي لا تشوبه النزعة الرومانسية التي تبدت في تلك الافتتاحية.

ففي العدد الثاني من "اليقظة" كتبت افتتاحية بعنوان "ما تتطلبه البلاد" عالجت فيها الأسس الصحيحة للحياة الديمقراطية البرلمانية، **ورفعت الصوت الأول بوضع قانون جديد للانتخابات على أساس الدرجة الواحدة وإشراك الجيل الجديد بالانتخابات، وتعديل الدستور. كما عالجت موضوع الحريات العامة والأحزاب، وإلغاء الاقطاع، وتوزيع أراضي**

أملاك الدولة على الفلاحين، وفرض الضرائب التصاعدية، وتوسيع القطاع العام.

وفيما يلي نص هذه الافتتاحية، التي كان عنوانها: ما تتطلبه البلاد: أمور حيوية ذات تأثير فعال ينبغي على المسؤولين أن يحققوها: (46/5/7)

بعد أن ناقش المجلس النيابي البيان الوزاري الذي نالت الحكومة الثقة على أساسه، وبعد أن علق عليه الشيء الكثير، لا بد لنا من بحث بعض الأمور لأهميتها، لا بالنسبة للمجلس والحكومة فحسب بل بالنسبة للأمة التي هي مصدر جميع السلطات.

من البديهي بعد أن تم جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد - الذي لا يعني تحقيقه في الدرجة الأولى سوى فسح المجال للنهوض بشتى مناحي حياتنا القومية- ان يعمد المسؤولون أول ما يعمدون إلى اصلاح القانون الاساسي الذي تنشأ منه وترتكز عليه سلطات الدولة العليا. فاصبح من الواجب البدء بتعديل قانون الانتخاب تعديلا يسمح للامة باعلان ارادتها والاعراب عن رغبتها، كجعله مثلا على درجة واحدة، وتوسيع نطاق اشراك الجيل الجديد، وتحديد حق الانتخاب بشرط التسجيل، إلى آخر ما هنالك من تعديلات جوهرية. ومن ثم حل المجلس، واجراء الانتخاب لمجلس جديد قادر على تعديل الدستور الذي شرع في ظروف وأحوال خاصة، والذي لم يعد يتلاءم حاليا مع ما بلغته البلاد من التطور والرقي.

وبما أن شرط بلوغ النتائج الحسنة لا يتم بتعديل القوانين فحسب، بل في صحة وصلاح تنفيذها، اصبح من الواجب إشراف حكومة حيادية على هذا الانتخاب، مؤمنة بهذا الانقلاب، تشجع تباشير النهضة، وتحاول إشراكها في مسؤولية الحكم إذا أمكن.

أما دواعي هذا الانقلاب فأولها أن المجلس الحالي جرى انتخابه في ظل السلطات المحتلة الأجنبية، وبموجب قانون انتخابي توخى الفرنسيون منه ضمان الاكثرية النيابية لهم، وهو يعبر تعبيرا واضحا عن عقليتهم وسوء نياتهم. ولا نجهل ما يرافق الانتخاب

الجديد من المصاعب، ولكنها لا توازي أهمية النتائج. واقتراح حل المجلس وتعديل قانون الانتخاب دعا إليه المجلس نفسه، فردده الداعون، ولكن بنيات مختلفة، فمنهم من أراد أن يجعل من هذا التعديل واجراء الانتخاب، وسيلة للتخلص من العناصر الحية المؤمنة التي صوروها باطلا مصاعب وعراقيل في سبيل العمل والاصلاح. أما دعوتنا نحن فلا تستهدف الاشخاص، وانما تستهدف ضمان تمثيل ارادة الامة أعمق تمثيل بالصورة التي أوردناها.

أما وأن السلطة الاجرائية التي تملك حق الحل، لم تحل هذا المجلس - العاجز بوضعه الراهن عن أن يحل نفسه، أو أن يعدل قانون الانتخاب والدستور تعديلا ناجعا- فلا بد لنا على الاقل، مع تمسكنا واصرارنا على هذه الدعوة، من معالجة البيان الذي نالت الوزارة الثقة على أساسه في الجلسة الماضية، فنقرر مبدئيا استحالة وصولنا إلى نتائج معينة في مناقشته ما لم نوضح بعض المفاهيم توضيحا كافيا لأننا نشعر بفرق كبير بين ما نفهم من معنى الخطوط الكبرى والمبادئ والحلول الأساسية، وبين ما عناه البيان الوزاري من ذلك، ولا يخلوا هذا البحث من فائدة التوجيه السليم في الطريق القويم لتحقيق الاهداف في المستقبل .

ومن المعلوم أن الهيئات السياسية تنشأ بالصورة الطبيعية من اختلاف وجهات النظر بالنسبة للخطوط الكبرى والمبادئ العامة في حل مشاكل البلاد الاساسية. والتشريع عامة، السياسي والمالي والقضائي والاداري والاقتصادي، وحتى المشاريع الانشائية الكبرى، تتجه وجهة هذه الحلول. ومن هنا اختلف التشريع بين الامم باختلاف قضاياها ومشكلاتها بالنسبة لخصائصها القومية، وبالنسبة لعوامل الزمان والمكان، ودرجة الرقي، بكلمة مختصرة بالنسبة لاوضاعها وامكانياتها المادية والمعنوية، الداخلية والخارجية، فاذا عنينا ذلك من مفهوم الخطوط الكبرى لحل مشاكل البلاد التي لم يذكر عنها البيان شيئا، كان الوضع الاقطاعي الراهن احدى هذه المشكلات التي تتطلب الحل سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، وسواء بالنسبة للمالكين أو لحقوق الفلاحين. وربما اقتضى ذلك بحث حق الملكية على اساس جديد

صحيح وتحديده وهذا ما يجرنا للبحث بقضايا الاوقاف عامة، الذرية والطائفية، وأراضي أملاك الدولة، وكيفية توزيعها، وحسبما نضع من حلول تتجه القوانين حتما وجهتها، حتى الدستور الاساسي، كتعديل المادة 114. وبهذا الطريق نفك عقال الأمة، فتأخذ مجال تطورها الطبيعي الصحيح من النواحي الاجتماعية والاقتصادية بل والروحية ايضا، فيزدهر الانتاج، وتزداد الثروة العامة بالفعل، وعندئذ تتحقق الفقرة الواردة بالبيان الوزاري من زيادة الانتاج الصناعي والزراعي. وبهذا ندفع عن الامة شبح اخطار النزعات الزائفة المتطرفة.

وعلى هذا القياس ايضا، يجري تقرير السياسة المالية بالاجابة على هذا السؤال: هل من المصلحة ان تتجه الدولة اتجاها اشتراكيا. وعند الاجابة على هذا السؤال بالايجاب ينهج التشريع المالي، طريقة فرض الضرائب المالية المباشرة التصاعدية، وتدخل الدولة بالتدريج في عداد المرافق العامة جميع المؤسسات الصناعية الكبرى التي هي في طريق النشوء والتكاثر، فتحول بذلك دون تكوين الطبقة الرأسمالية في البلاد.

وكذلك المشاريع الانشائية الواسعة التي هي تصميم وتنفيذ لهذه الخطوط ذات الاهداف المعينة، خذ مثلا انشاء مرفأ اللاذقية - المنفذ الطبيعي بعد فصل اللواء لمحافظات سورية الشمالية: الجزيرة والفرات وحلب وحماه، ومرفأ طرطوس المنفذ الطبيعي لسورية الشرقية والجنوبية. فهذه المشاريع الانشائية التي تحقق ارتباط الساحل بالداخل، والتي أصبحت حيوية ومستعجلة بالنسبة لاقتصاديات البلاد، فانها تحقق من جهة أخرى استقلالنا الجمركي والاقتصادي. وهذا الاستقلال ربما كان من الاسباب التي تحقق الوحدة الطبيعية المنشودة في المستقبل.

وقصارى القول أن وضع الخطوط الكبرى الاساسية لحل مشكلات البلاد، ليس من اختصاص الخبراء والفنيين الذين يدرسون التفاصيل، ويضعون التصاميم، ويتولون التنفيذ، وانما هو من وحي الساسة، والهام القادة المتألمين لآلام الامة، الشاعرين بحاجاتها، وهذا تمييز بديهي بين المبدأ والفهم والشعور، وبين الخبرة والفن والتنفيذ.

ومن هذه الجهة يعد البيان خاليا من أي اتجاه معين، ومن أي ذكر لمشاكل البلاد، مضطربا ، حائرا، متناقضا، لا طعم له ولا لون، بينما البلاد أصبحت تستحث الحكومة لبدء خطوات التقدم، هاضمة لاعمق معاني الاصلاح.

□

حكومة الجابري الثالثة :

تألفت حكومة الجابري في 26 نيسان 1946 على النحو التالي :

سعدالله الجابري	رئيسا لمجلس الوزراء ووزير للخارجية.
خالد العظم	وزيرا للاقتصاد الوطني والعمل.
نبيه العظمة	وزيرا للدفاع الوطني.
صبري العسلي	وزيرا للداخلية.
أحمد الشراباتي	وزيرا للمعارف.
ميخائيل اليان	وزيرا للأشغال العامة.
أدمون حمصي	وزيرا للمالية.

البيان الوزاري لحكومة الجابري الثالثة :

من استعراض أسماء الوزارة يتضح أنه لم يتغير في التركيبة الحكومية شيء. لذلك فإن بيانها الوزاري لم يختلف عن البيانات السابقة، مع أن البلاد أقبلت على عهد جديد حقا بعد الجلاء ويجب أن تبنى فيه السياسة العامة على أسس من مستوى تطلعات الشعب وآماله. وهذا ما كنا نطمح إليه.

قال الجابري: "كنت أتمنى أن ألقي البيان الوزاري -كعادتي- ولكن صوتي لا يسمح لي ولا يساعدني ولذلك أعهد لوزير الداخلية بتلاوته.

فتلا صبري العسلي البيان الطويل، الذي وردت فيه إشارة إلى أن "هذه هي الحكومة المستقلة الأولى التي تتقدم ببيانها إلى هذا المجلس الكريم بعد أن لبست البلاد حقا ثوب العزة والكرامة"... "وأصبحنا أحرارا في ديارنا، يظلنا فخامة الرئيس بقوة إيمانه وثاقب بصيرته، ونافذ حكمته، وبعد نظره"... وقال إن "قوام عملنا في مجال الدفاع الوطني جيش الأمة أو جيشنا الفتي يحتاج إلى كثير من الدراسة الاصلاحية في أنظمته وأسلحته وكل

مرافقه، وبعد الانتهاء من هذه الدراسة سنضع المشاريع التي نرى أنها كافلة إنماء جيشنا وتقدمه ورقيه. ونرى أن تدمج من الناحية المسلكية قوى البادية والدرك والشرطة مع الجيش، وستتخذ الوسائل التي تهيء لهم إطراد رقيهم. كذلك سنقدم لهذا المجلس الكريم قانون التجنيد وقانون الجيش وكل القوانين الأخرى بعد استكمال دراستها. وسنقوم بإيفاد البعثات العسكرية إلى ارقى الأمم للاستفادة من تجاربها وسنعمل على تأسيس مدارس خاصة لفروع الجيش".

أما عن فلسطين فقد وعد بأن الحكومة "ستظاهرها إلى أقصى حد ممكن في مكافحة الصهيونية وفي سبيل الحصول على استقلالها والذود عن عروبتها والعمل على استخدام المبالغ المخصصة من أجل فلسطين بإشراف الجامعة العربية، باذلين السعي في شجب تقرير اللجنة الأميركية الانكليزية وعدم الاعتراف به إذ صدر غير متلائم مع ما كنا نأمله ونرجوه من الغايات العليا".

ولفت نظري في البيان الوزاري ما جاء فيه: "ولا شك أن الدعايات المغرضة قد أضرت بالتربية السياسية حتى صار من واجبنا أن نضع حدا لهذه الدعايات بقوة وحزم **وأن نحارب كل ما يمت إلى الشعوبية بصلة رجعيا كان أو ثوريا على السواء"... .**

ومن الطريف أن أورد تعليق نائب الجمعية الغراء عبد الحميد الطباع على تلك الفقرة فقد قال في جلسة 4 أيار :

"أما القول بأن نحارب كل ما يمت إلى الشعوبية بصلة، رجعيا كان أو ثوريا على السواء، فهذا الذي نريد البحث عنه. فما هي الشعوبية الرجعية وما هي الشعوبية الثورية التي يجب محاربتها؟ هذا أسلوب في التعبير لم نر مثله من قبل. فهل ترون الدعوة الى الفضيلة ومكافحة الرذيلة رجعية؟ وهل تسمون من يرفع صوته في ذلك ثوريا؟ وما رأيكم فيمن يستنكر تهتك المرأة تظهر في الشوارع والأسواق ودور اللهو والنوادي كاشفة عن ساقيها حاسرة عن رأسها وساعديها بألبسة شفافة تحكي حجم ثدييها، مجملة وجهها بالأبيض والأحمر، مرققة حاجبيها تستهوي الناظرين إليها؟

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء " ...

□

تعليق اليقظة على البيان الوزاري : أمة واحدة ذات مصلحة واحدة :(46/5/5)

"يشعر كل من يقرأ البيانات الوزارية -منذ ثلاث سنوات- أنها ان تفاوتت قليلا بالأسلوب فانها تتفق اتفاقا مطلقا في الموضوع لفقدان الموضوع. ومن الطبيعي ذلك طالما أن الوزارات تتألف -عندنا- حسب الرغبات والمناسبات والشخصيات ولا تتألف حسب وحدة المناهج والاهداف. وطبيعي أن تأتي البيانات على ذكر غوامض لا تغني شيئا ولا تحاول أن تعالج مشاكل البلاد صراحة لان من يدبجها لا يعنى بهذه المشكلات ولا يشعر بها واذا شعر بها لا يفكر بوضع حلول لها واذا فكر بالحلول فتعوزه الجرأة في تبنيها والاعراب عنها. وكيف يفعل ذلك والسياسة عند معظم سياسي بلادنا حرفة وغاية لا وسيلة لتحقيق الاهداف العالية. وشذوذا عن القاعدة نجد في البيان الوزاري الاخير جملة شاردة تستلفت النظر وتستحق التعليق وهي التي يجدها القاريء في المقدمة. واذا فسرناها كما نريد فانها تشير الى إحدى مشاكلنا الوطنية والقومية.

نصح "مكيافلي" في تعاليمه منذ عدة قرون كل فاتح أن يعمد إلى تجزئة البلاد المغلوبة إلى دول وإمارات اساسها العنصر أو الدين ليضمن في نزاعها المستمر دوام السلطان. وقد عملت "فرنسة" جهدها لاستغلال هذه التعاليم في بلادنا بشتى الأشكال والاساليب فاستغلت النعرات العنصرية والطائفية والمذهبية في العلم والتشريع والسياسة فاقامت الحكومات والدويلات ولكن وعي الامة أحبط مسعاها المكيافلي المنكر، ولكنها بالرغم من افلاس هذه السياسة وبالرغم من الاستقلال وجلاء الجيوش الاجنبية عن البلاد فان بقايا طابورها الخامس لا يزال ينفخ في هذا الصور. كما لا تزال تحاول بعض الدول الحليفة ان تنهج معنا في علاقتها على هذا الأساس كأن الزمن لم يدر دورته فقوض اركان القيصرية وطوى صفحة الامبراطورية العثمانية. وفي هذا المنهج ما فيه من مهانة لكفاءة هذه الامة واهليتها. اما حكومتنا فهي رحبة الصدر حتى الآن تشاهد هذه الامور كأنها تقع في بلاد أخرى...

وحسبنا أن نقرر أن موطن الضعف في كياننا في الماضي عدم استكمال انسجامنا القومي. فعلينا أن نعمل الآن على اتمام هذا الانسجام واضحى من واجب الحكومة أن تقضي على الشعوبية والطائفية وعلى جميع العصبيات الضيقة فتبدأ في تطهير جهازها من هؤلاء الدعاة مهما كان شأنه. ولا يعني هذا التفريق بين المواطنين أو التمييز بينهم بل لان مصلحة الامة لا تسمح باثارة هذه النعرات والعمل لها التي لا تجني منها هذه العناصر خاصة والبلاد عامة الا الضرر والفوضى. **كما لا تسمح أن تستغل هذه النعرات تحت ستار سواء كان باسم الهيأة السياسية أو الجمعيات أو النوادي لخدمة مصالح أية دولة اجنبية. ومن المؤلم أن يظل قانون حماية الاستقلال في حكم المبادئ الوطنية ولا يطبق في مثل هذه الاحوال. كما أنه من المؤلم أن يظل قانون المعارف العام في حكم المبادئ النظرية ولا يطبق فعليا لتحقيق وحدة التعليم في جميع مدارس الدولة الحكومية والخاصة.**

وحكمنا في هذا العدد على العنصرية والشعوبية كحكمنا على الطائفية والمذهبية سيما وقد انتشرت نواديها وجمعياتها وهيآتها انتشارا يسترعى الانتباه.

ولا نعني اقلية أو اكثرية معينة فحكمها واحد في نظرنا بل ربما كان نصيب الاكثرية من هذه الجناية مضاعفا.

وقصارى القول: أن على الحكومة إذا أرادت أن تفي بما وعدت في بيانها الوزاري أن تعمد الى تنفيذ احكام القوانين بحق جميع هذه المؤسسات التي تقوم على احدى هذه النعرات. وأن تحقق الوحدة القومية والوطنية بوحدة التعليم وتنفيذ القوانين وتشجيع جميع المؤسسات القومية التقدمية على اختلاف الوانها وشتى اتجاهاتها سالكة محجة هذا المبدأ: **أمة واحدة ذات مصلحة واحدة".**

فلسطين للعرب :

نشرت الصحف في مطلع أيار 1946 تقرير لجنة التحقيق الأميركية البريطانية تحت العناوين التالية:

"تقرير اللجنة ينسف الكتاب الأبيض من أساسه إذ يفتح أبواب الهجرة ويهدم مبدا بيوع الأراضي لليهود. اللجنة توصي بالسماح لمئة ألف يهودي بالهجرة حالا إلى فلسطين وبأن يفتح باب الهجرة أمام اليهود بصورة دائمة ويباح بيع الأراضي لليهود". وكانت توصيات اللجنة تنطوي على تهويد فلسطين قبل أن تنتقل من الانتداب إلى نظام الوصاية المقترح. ولا داعي لاثبات تقرير اللجنة المنشور في معظم ما صدر من كتب عن القضية الفلسطينية.

فكتبت في العدد الثالث افتتاحية بعنوان: "ليست فلسطين للانكليز ولا للصهونيين، وانما فلسطين للعرب. وهذا نصها:

"لم يزل يتردد في خاطري ما قاله أحد اللوردات الانكليز، قبل الحرب العالمية الأولى: "ليست فلسطين للعرب ولا لليهود وانما فلسطين للانكليز". فبهذه العبارة يتجلى سر السياسة البريطانية في فلسطين، التي وضع تصميمها- قبل انهيار الخلافة العثمانية، وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى- وهي لم تزل دائبة على تنفيذها بمهارة ودقة واسلوب يختص به الانكليز وحدهم دون بقية الأمم والشعوب.

ويمكننا أن نعين خطوط هذه السياسة التي نفذت على مرحلتين، ابتداء من الحرب العالمية الأولى: فقد وعدت بريطانية العرب واليهود في آن واحد وعدين متناقضين: وعد بلفور، ورسائل مكماهون، فاستغلت بذلك جهود الطرفين العرب واليهود في كسب الحرب. وبعد الاحتلال، وفرض الانتداب على فلسطين، جعلت -بسبب هذين الوعدين- فلسطين مسرحا يتنازع عليه العرب واليهود. وأما العالم فشاهد، وأما الانكليز فمحكمون عند الاقتضاء. لأنهم جعلوا -باسلوب غريب- من هذا النزاع قضية حقوقية ودعوى عالمية، فجهد الطرفان المتنازعان بايراد الحجج المنطقية والحقوقية والتاريخية لتأييد دعواهما والانكليز ... يبتسمون .

وفعلا فقد أوفدوا لجانا للتحقيق بسخاء، لتحكم في هذا النزاع ولكن بنزاهة وحياد!! وصدرت الأحكام والكتب، ولكن من غير تنفيذ، الا بالسماح الفعلي لليهود بالهجرة وشراء الاراضي .

ويتساءل المرء: لم طالت فصول هذه المسرحية؟ والجواب بسيط لانها لم تتم، وليس لها نهاية، ما دام الاحتلال الانكليزي لفلسطين ليس له نهاية. وهذا ما يفقهه الرأسماليون اليهود. ولكن أي ضرر سينالهم وأي خسار يصيبهم؟ فهم يوفدون من شذاذ الآفاق ما يجعلون منهم معبرا لاستعمارهم الاقتصادي للشرق العربي، وهو يرضي بالوقت نفسه أهواءهم وأنانيتهم العنصرية والدينية.

ولئلا تفتضح هذه السياسية سمح الانكليز للحكومة الاميركية ان تتدخل في هذه المسرحية، ولكن في المرحلة الثانية... وعدوا تدخلها مخرجا لهم، وسببا للتنصل من عبء مسؤولية هذا العمل الاجرامي، امام الرأي العام العربي والعالمي. وليس اكثر من الاميركان استعدادا لتمثيل هذا الدور. فاليهود عنصر رأسمالي قوي عندهم، وبؤرة للدعاوة السياسية، والساسة الاميركان بحاجة لاسترضائهم واستغلال قدرتهم، ومن السهل التغرير بالشعب الاميركي واقناعه تحت ستار الانسانية، وهو يجهل كل شيء عن المأساة الفلسطينية. ولكن لهذا التدخل حدود لا يتعدى تنفيذ الخطة الانكليزية المرسومة. وفعلا فقد تألفت لجنة التحقيق الانكلو - أميركية، التي اصدرت توصياتها المهيأة سلفا بعد الدرس ... ولكن بريطانية تتظاهر أنها غير راضية عن تنفيذ هذه التوصيات وحدها. وما يدرينا لعل طلب هذا التدخل متفق عليه من الجانبين لتنفيذ مآرب أخرى... وعلى كل حال فالرواية تتمثل، ولكن على حساب دماء العرب ومصالحهم وحدهم، وهكذا تستغل بريطانية لتقبض باحتلالها الدائم على عنق الزجاجة، وبتعبير اصح على خناق الشرق العربي. وان المعاهدة البريطانية الاردنية الاخيرة توضح هذه الغاية، وتدل أيضا على أن شرقي الاردن في نطاق هذا الاحتلال.

هذا هو موقف الانكليز الذي يجرح صميم الشعور العربي، ويحول دون التحالف بينهما. فماذا يجب أن يكون موقفنا، نحن السوريين خاصة والعرب عامة؟ أن مجال العمل اصبح واسعا جدا، فبامكاننا ان نحبط المساعي الانكليزية الصهيونية اذا سلكنا الطريق السوي. لان التعاون العربي يزاد ارتباطا ورسوخا، وهو اعظم مما كان عليه قبل هذه الحرب، عندما كانت صرخات فلسطين لا تجد صداها البعيد، واثرها العميق الذي تستحقه، في غير سورية والعراق. أما الان فيستجيب لهذه الصرخات افئدة سبعين مليونا من العرب. وليس على الزعماء والحكومات الا توجيه هذه القوى للعمل المستمر المثمر،

وذلك بسلوك نفس الخطة التي يسلكها الصهيونيون في هذا السبيل. سيما وأن بقدرة الحكومات العربية ان تضحي باضعاف اضعاف ما خصصته من الاموال للقضية الفلسطينية، فتنشيء بها اعظم المؤسسات التي يمكنها ان تحول دون تسرب اي شبر من الاراضي للصهيونيين التي هي نقطة ارتكازهم لاقامة دعائم الوطن القومي. وعندما تتحطم هذه النقطة تنهار جميع آمالهم من الاساس. ولا يقتصر الامر على هذا، بل من الواجب السعي لرفع مستوى العرب في فلسطين بشتى النواحي، لان القضية بين الشعبين قضية تنازع البقاء.

واما العمل الشعبي، فمن واجب الحكومات العربية تشجيعه وتوجيهه بتشكيل المنظمات العاملة باستمرار في جميع انحاء العالم العربي. فالاحتجاجات والتصريحات والاجتماعات المؤقتة، مهما كان لها من اثر سياسي، فهي لم تعد كافية لعملية الانقاذ، وقد سمع العالم باعمال المنظمات الصهيونية بشتى انحاء العالم، فاين اعمال منظماتنا العربية؟ مع أننا اكثر منهم عددا، واعدل منهم قضية، واقوى منهم موقفا... ونحن المحيطين بفلسطين كالسوار، فمتى يتم التضافر بين الحكومات العربية والشعب العربي لنتمكن في اللحظة المناسبة الحاسمة ان نردد:

محا السيف اسطار البلاغة وانتحت عليك ليوث الغاب من كل جانب".

□

كان هذا المقال من وحي الغضبة الشعبية التي عمت سوريا والبلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها استنكارا لقرار لجنة التحقيق الانكلو اميركية، والتي كان عدم مقاطعتها من قبل الحكومات العربية وجامعة الدول العربية والهيئة العربية العليا خطيئة كبرى بنظر الشعب العربي، فقد ثارت في دمشق المظاهرات الكبرى تحمل اللوحات التي كتب عليها: "اليوم احتجاج وغدا رصاص". كما أضربت حمص وحماه وحلب واللاذقية وجبل الأكراد وجبل العرب ودير الزور إضرابا عاما شاملا وسارت فيها مواكب المتظاهرين منادية بحياة فلسطين عربية مستقلة. وقد طير المتظاهرون البرقيات إلى مختلف المراجع معربين عن

استعدادهم للتضحية بأنفسهم وبكل ما يملكون في سبيل انقاذ الأرض المغتصبة.

وهكذا -كما هو الحال في كل المناسبات القومية المماثلة - كان الشعب لا يملك سوى سلاح الاضراب والمظاهرات، ولكن كان سلاحا مفلولا أمام تواطؤ الحكام وتخاذلهم.

أول مؤتمر قمة عربي بشأن فلسطين :

بدأ اليهود منذ عام 1946 بالتحضير الجدي والواسع لخوض معركة عام 1948، بعد أن تمكنوا من فتح أبواب الهجرة الرسمية (بمساعدة أميركا وبريطانيا) بالاضافة إلى الهجرة عن طريق التهريب عبر تركيا والبلاد العربية. وكان تهريب يهود أوروبا المدربين على القتال إلى فلسطين يجري على نطاق واسع وبأساليب مختلفة وفيما يلي نموذج عنها :

نشرت "النصر" بتاريخ 17 مايس 1947 لمراسلها بحمص ما يلي: "قدم حمص أحد وجهاء بلدة عامودة (الجزيرة) المدعو اسماعيل حمو الكردي وهو من كبار تجارها ومن رؤساء العشائر الكردية في الشمال. وقد تحدثت معه عن الثورة الكردية بإيران فأجاب قائلا: إن العشائر الكردية تريد أن تجمع شملها وتعيد مجدها الغابر ليكون لها مكان ممتاز كأمثال بقية العشائر. ثم قال: إن الثورة الكردية في الشمال قد أدخلت الرعب إلى قلوب الناس بداعي أن الاكراد يريدون تشكيل دولة كردية، مع أن أكثر أفراد العشائر الكردية مشتتون في جميع البلاد العربية والتركية لا يجمعهم جامع مهما تقلبت الظروف. ولكني أريد أن ألفت نظرك إلى مسألة هامة بصفتك صحفيا لتنبه المسؤولين إلى باب من الأبواب الكثيرة التي يتمكن فيها اليهود من الهرب إلى فلسطين. إن اكثر أفراد الجيش التركي على الحدود يقومون بتهريب اليهود لقاء مبالغ من المال. وطريقة التهريب إما بواسطة القطارات وإما عن طريق البادية بواسطة البدو. أما كيفية التهريب بالقطارات فإنني اقول لك بأن المواشي التي ترسل من الشمال إلى بيروت بالقطار عن طريق الترانزيت يكون الرعاة الذين يرافقونها من اليهود

لقاء مبالغ لا بأس بها يدفعونها لأصحاب المواشي والى موظفي القطار لأن عربات القطار مختومة لا يمكن فتحها إلا في المكان المرسلة إليه. ومن هناك أي في بيروت يكون بانتظارهم السماسرة الذين يتعهدون بإيصالهم إلى الأراضي الفلسطينية".

ولذلك كان عام 1946 وما تلاه أعواما هامة وحاسمة في تاريخ القضية الفلسطينية، سواء من الناحية السياسية أو من ناحية الاعداد العسكري لحرب 1948. فماذا فعل العرب في غضون ذلك؟

في 28 و 29 مايس 1946 اجتمع الملوك والرؤساء والأمراء العرب في انشاص وتداولوا بقضية فلسطين. وفي 30 مايس خطب سعدالله الجابري في المجلس النيابي السوري مشيدا بهذا المؤتمر "رافعا آيات الشكر والتقدير والإجلال إلى أصحاب الجلالة والفخامة والسمو - تصفيق-" ثم تلا علينا البيان الذي أذاعوه بعد مؤتمرهم، وخلاصته أنهم يعتبرون قضية فلسطين قضية عربية، وأنهم يرفضون الهجرة اليهودية ويعتبرونها نقضا صريحا للكتاب الأبيض الذي ارتبط به "الشرف البريطاني". وقالوا أن لهم "عظيم الأمل أن لا يعكر صفو علائق المودة القائمة بين الدول والشعوب العربية من جهة والدولتين الديمقراطيتين (أميركا وبريطانيا) من جهة أخرى، أي تشبث من جانبهما يرمي إلى اقرار تدابير ماسة بحقوق عرب فلسطين، حرصا منهم على دوام هذه الصداقة وتفاديا لرد فعل ينشا بسبب ذلك ويفضي الى اضطرابات قد يكون لها أسوأ الأثر في السلم العالمي. أما فيما رأوا زيادة على ذلك فقد كلفوا الأمين العام لجامعة الدول العربية أن يحمل الى مجلس الجامعة نتائج ابحاثهم ومداولاتهم وتوجيهاتهم في هذا الشأن ليتخذ أفضل الوسائل لصيانة مستقبل هذا الوطن العزيز".

وبعد أن تلا الجابري بيان الملوك والرؤساء قال "إنهم اتخذوه وحدهم ولم يكن معهم أحد. واستطيع أن أقول لكم إنهم حوصروا ولم يخرجوا إلا بهذا القرار".

فسألته: ومن حاصرهم؟

فانتبه الجابري لنفسه وقال: هم حاصروا أنفسهم.

ثم تعاقب النواب على منبر الخطابة يظهرون شكرهم وامتنانهم، فوقفت قائلا:

- مع احترامي العظيم لمؤتمر الملوك والرؤساء فإن لي سؤالا أرجو دولة رئيس الوزراء أن يجيب عليه: هل وضع الملوك والرؤساء خطة عملية لتنفيذ قرارهم، أم عهدوا بذلك إلى الجامعة العربية؟

فأجاب الجابري : "إنه عهد بتنفيذ القرارات إلى الحكومات والشعوب العربية.

وبعد اسبوع عقد مجلس الجامعة العربية دورة طارئة في بلودان بحجة البحث بتنفيذ توجيهات بيان انشاص ثم أذاعت الأمانة العامة للجامعة بيانا عن اجتماعات بلودان ما بين 8 و 12 حزيران 1946 أكدت فيه أن مجلس الجامعة "اخذ بنصائح وتوجيهات رؤساء الدول العربية، واتخذ التدابير اللازمة لتحقيقها.. وقرر إرسال مذكرتين إلى انكلترا وأمريكا في الرد عليهما بشأن توصيات لجنة التحقيق، ومذكرة ثالثة بشأن القضية الفلسطينية، وعلاقتها بانكلترا وهيئة الأمم المتحدة، وستذاع هذه المذكرات في حينها.. ثم اتخذ المجلس بعد مداولات طويلة قرارات متعددة هامة احتفظ بسرية بعضها وسمح بنشر ما يأتي منها:

1- تأليف لجنة خاصة تدعى لجنة فلسطين وتمثل فيها جميع الدول العربية للاشراف على جميع الأعمال المتعلقة بفلسطين.

2- تأليف هيئة عربية عليا من السادة جمال الحسيني بك، وأحمد حلمي باشا، والدكتور حسين الخالدي بك، وإميل الغوري بك.

3- طلب تسريح القوات الصهيونية وتجريد الارهابيين من السلاح في فلسطين.

4- توصية الدول لسن تشريع يقضي بفرض عقوبات جنائية على بائعي الأراضي لليهود والسماسرة والمهربين.

5- العمل بجميع الوسائل على انقاذ اراضي فلسطين وبذل جميع المساعدات اللازمة لذلك .

6- توصية الحكومات العربية باصدار طوابع بريدية ومالية لمساعدة عرب فلسطين.

7- إنشاء صندوق خاص لفلسطين تساهم فيه الحكومات العربية ويتلقى التبرعات والاعانات من الأمة.

8- اعادة تنظيم الدعاية وتقويتها.

9- تشديد المقاطعة وتوسيع نطاقها وتعزيز المراقبة عليها بعد أن ثبت نجاحها.

10- توجيه نداء إلى الشعوب العربية لنصرة عرب فلسطين، ونداء آخر إلى أهل فلسطين لجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم والصمود أمام الغزو الصهيوني.

كما أيد المجلس أهداف مصر بوحدة وادي النيل، واستقلال ليبيا.

وقد كتبت في اليقظة بتاريخ 1946/6/9 تعليقا على مؤتمر بلودان ما يلي:

"يجتمع مجلس جامعة الدول العربية في بلودان، ولا نعلم ما يمكن أن يبحثه من القضايا سوى القضية الفلسطينية. فاذا انبثقت الجامعة العربية استجابة للشعور العربي في مختلف الاقطار افلا يحق لنا ان نعرب عن امانينا ورغباتنا وشعورنا تجاه قضايانا الرئيسة الكبرى؟؟

لا شك أن قضية فلسطين من اخطرها لانها تهدد الكيان العربي بالفناء والزوال وقد بحثنا بعض الاقتراحات السياسية العاجلة لحل هذه القضية ولا نريد أن نعود اليها، فمجلس الجامعة، بحكم اطلاعه الواسع على الشؤون السياسية الدولية، يمكنه أن يقرر على ضوئها التدابير الحاسمة؛ مهما كانت جريئة ومهما كلفت العرب من تضحيات. وهم مستعدون ولا يفتشون الا عن

طريق البذل وينتظرون النداء الذي يوجه إليهم ونحن نعتقد أن ضيق الامكانيات الحالية لتنفيذ خطة جريئة عاجلة، ناشئ عن فوضى سيرنا بالماضي وعدم تنفيذنا مع الزمن لخطة منظمة مقررة، فمعالجة القضية الفلسطينية لم تأخذ حتى الآن شكلا جديا عمليا، وقد اقتصرت على فوضى الدعاية السياسية الضعيفة الصدى والتأثير والمحدودة الآفاق بالنسبة للدعاية الصهيونية العالمية المنظمة.

فما هي الخطة الدائمة الواجبة التنفيذ مع الزمن بدون توقف ولا انقطاع بقطع النظر عن الاحداث السياسية الطارئة؟؟ يتبادر للذهن بداهة: تشكيل المؤسسات المالية والزراعية الكبرى التي تحول دون تسرب الاراضي العربية للصهيونيين، التي هي نقطة ارتكاز احلامهم بانشاء الوطن القومي ورفع مستوى الفلاح الزراعي بتجديد وسائل الانتاج، وانشاء المؤسسات الصناعية والشركات التجارية الكبرى التي ترفع مستوى عرب فلسطين الاقتصادي عامة، وانشاء المستشفيات والمؤسسات الصحية والكليات العلمية في مختلف الفروع.

وبتعبير مختصر رفع مستوى عرب فلسطين من جميع نواحي الحياة طالما أن صراعنا مع الصهيونية صراع البقاء. ولا نؤمن التوازن والكفاءة بين الطرفين الا بامداد ومساعدة موازنات الدول العربية بشكل سخي دائمي. ولا نظن ما خصصته هذه الموازنات كافيا حتى الآن بل هو ضئيل جدا ويكاد يكون معدوما، ومع هذا فلا نعلم جدوى طرق الصرف والانفاق!! **ويجدر بنا في هذا الصدد أن نهاجم الخصم الصهيوني بشن حرب اقتصادية مضادة منظمة الطرق والاساليب نؤمن تنفيذها بدقة مبتدئة بفلسطين ومتصلة الحلقات بجميع الاقطار العربية.**

ان العرب منتشرون في جميع انحاء العالم، ويمكن انشاء المنظمات في جميع الاقطار العربية وفي المهاجر لتتولى هذه المنظمات العمل الشعبي بالدعاية والتنظيم وجمع الاعانات بمساعدة الحكومات العربية بحياد تام دون أن تتدخل الحزبيات الشخصية والانانيات الصبيانية. وقد آن لمجلس الجامعة أن يحسم الخلاف الشخصي بين الفئات الفلسطينية، وان يوجه قواها الضالة التائهة إلى تنفيذ الأمور العملية.

أما القضية الأخرى- التي لا تزال مجهولة من الرأي العام المصري خاصة بحكم موقع مصر وبعدها بالتخوم والحدود، والتي لا تقل اهمية وخطرا عن القضية الفلسطينية فهي قضية لواء الاسكندرونة. اذا كنا نؤمن بوحدة المصلحة العربية العامة ولا نلتفت لبعد أو قرب المواقع والتخوم. فيكفينا أهميتها وعروبتها. كما يكفي أن يكون اصغر موقع أو جزيرة في اقصى المحيطات موضع اهتمام الامبراطورية البريطانية كاقرب نقطة او موقع فيها.

ولواء الاسكندرونة اهم واخطر بقعة بالنسبة للمصلحة العربية العامة ولا تزال قضيتها معلقة بيد الاقدار. ومن سوء الحظ اهمال الحكومة السورية مهمة الشرح والتعريف على أهميتها للبلاد العربية التي تشغلها مشاكلها المحلية الملحة عن استقصاء القضايا العربية الاخرى.

ونعتقد أن من التدابير المجدية لانقاذها توحيد الخطة السياسية العربية نحو الدولة التركية فتكون قضية اللواء الموجه والمحور لهذه السياسة. والظرف لا يزال مناسبا جدا لعرضها على مجلس الامن سيما وأن حقنا -من الوجهة الحقوقية الدولية- واضح وقوي لا مجال فيه للغموض والابهام. وفي بحث مجلس الجامعة لهذه القضية ما يثلج صدور الملايين من العرب الواعين الذين يقدرون خطورتها واهميتها. وأكبر تعزية للعنصر العربي باللواء الذي يلفظ انفاسه تحت وطأة اقدام المظالم الطورانية. **ومن الغريب أن تمنع الحكومة السورية ابناء اللواء من عرض القضية على اعضاء المجلس بدلا من أن تسهل لهم الطريق؛** سيما واعضاء المجلس أهل واخوان لا تحجبنا عنهم القيود السياسية المعروفة.

أما قضية طرابلس الغرب فقد بذلت الجامعة في سبيلها مجهودا سياسيا كبيرا... ولكننا لا نعلم مدى اتصالها بهذا القطر لبث الدعوة والتوجيه الشعبي في ظرف يحتمل فيه ارسال لجنة دولية لاستطلاع راي السكان! كما لا نعلم شيئا عن الخطة الايجابية السياسية التي تحقق اشتراك الجامعة في تقرير مصير هذا القطر العربي! وهي صاحبة الحق وحدها فيه أولا وأخيرا.

أما الامر الذي يبعث القوة بموقف الجامعة الخارجي ويساعدها على حل جميع هذه المعضلات، كما ينفخ القوة والحياة في الواقع العربي الداخلي فهو تقرير هوية العرب سياسيا واعلان حقيتهم القومية في رأس ميثاق الجامعة الذي لا يزال مصطبغا حتى الان بصبغة المعاهدات الاجنبية التي

كبلت البلدان العربية. ولم يأخذ الميثاق بعد شكله الحر الحقيقي بالنسبة للامال العربية القومية البعيدة... ونترك البحث بالنتائج الحقوقية والسياسية والتشريعية التي تترتب على تقرير القومية المشتركة للجان الجامعة التي تعلم أكثر منا امكانيات التطبيق العملية ونحن قانعون حتى ولو اقتصر هذا الامر على الاعلان المنصوص عله ينقذ بعض ابناء البلدان العربية من فوضى المفاهيم التي تلتبس فيها فكرة الوطن بفكرة القومية والجنس.

وعلى تقرير هذه القضايا يتصل مجلس الجامعة بشعورنا كعرب قوميين، وبحكوماتنا ودولنا كسياسيين واقعيين".

التصدي لتسرب النفوذ البريطاني:

تحقق الجلاء ولكن امتيازات الانتداب وآثاره ظلت قائمة في البلاد، بالوقت الذي كانت تتعرض فيه البلاد خفية وعلنا لمطامع بريطانيا الاستعمارية فتصدت جريدة اليقظة منذ عددها الأول لتقف بالمرصاد أمام تغلغل النفوذ البريطاني الذي كان يحاول أن يدخل من النافذة بعد أن خرج من الباب فكتبت تحت عنوان: "الطائرات الأجنبية في سماء سوريا":

"مرة أخرى يؤسفنا أن نقول أن حلفاءنا لا يحترمون الجلاء "الذي منوا به علينا" فمنذ انتهينا من يوم 17 نيسان الماضي واحتفالاته ومهرجاناته حدث مرات متعددة أن اجتازت سماء سوريا دون سابق انذار أو بلاغ، طائرات معروفة الهوية تتجول في هذه السماء كأنها في بلادها أو فوق البحر. ولقد اهتمت وزارة الدفاع الوطني للأمر أخيرا وشاءت أن تكون مهذبة ودبلوماسية فلم تخاطب أحدا بصورة مخصوصة. ولكنها وجهت مذكرة إلى كل جاراتنا حتى التي لا تملك منها طائرات تطلب إليها إبلاغ الطيارين التابعين لها أو لشركاتها غير المرخص لها سلفا بالمرور، ضرورة الحصول على اذن سابق قبل اجتياز سماء سوريا سواء كان ذلك للنزول في مطاراتها أم للمرور عبرها الى سماء أخرى. ونحن نعلم أن وزارة الدفاع ما تزال بكل أسف فقيرة لا تملك مدافع مضادة للطائرات تؤيد بها رغبتها في تنفيذ هذا الطلب. ولكننا نحب أن نرجو من هؤلاء الحلفاء، في كثير من الرقة والهدوء، أن ينسوا كل النسيان عادة اعتبار هذه البلاد من المناطق (الستراتيجية) وأن يقنعوا أنفسهم بأن لنا كل

الحق بأن نعني بالجلاء جلاء كاملا عن الارض والسماء، وعن الأموال والأفكار أيضا".. 8 أيار 1946.

كما كتبت في 9 أيار تحت عنوان: "هذا ما علمناه حول الجلاء عن سوريا: الحكومة تسمح للضباط البريطانيين بالتجول فيها" المقال التالي:

"في السابع عشر من شهر نيسان 1946 أعلن رسميا أن جلاء القوات الفرنسية والبريطانية عن سوريا قد تم نهائيا. وصدق الناس جميعا ذلك. **ولكن الواقع انه ما يزال في سوريا قوات بريطانية ولكن في ألبسة مدينة. هذا فيما عدا الجنود والضباط البريطانيين الذين (سرحوا) في سوريا وأصبحوا فيها تجارا وعملاء.** وتفصيل ذلك أننا اطلعنا أمس في وزارة الداخلية على كتاب طويل جاء فيه ما خلاصته أنه لما كانت لا تزال هناك بعض الأعمال التي تحتاج للتصفية في الأسابيع القليلة القادمة التي تلي الجلاء فقد وافقت رئاسة مجلس الوزراء على السماح للضباط البريطانيين الذين تنتدبهم السلطات العسكرية بالدخول إلى سوريا والتجول فيها بسياراتهم وبألبسة مدنية.. ثم يسرد الكتاب تفاصيل الكتب المتبادلة بين الحكومة والمفوضية البريطانية. **ومن الغريب أن كل هذا الكتب تعرضت للرقابة على رخص السيارات، ولتهريب البضائع الخاضعة للجمرك،** ولأشياء أخرى كثيرة، ولكنها لم تتعرض أبدا لتحديد موعد نهائي لجلاء هذه القوات الجديدة.

بدء مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ الانكليز بالإعداد لتنفيذ مخططاتهم في المنطقة العربية باسم مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط تجاه روسيا، بواسطة الحكومات العربية... فكتبت تعليقا بعنوان: هل العرب متحدون في تقرير سياستهم الخارجية؟ .. قلت فيه:

"فاوض السيد نوري السعيد تركية وذهب بعيدا.. حتى حاول أن يضمها لجامعة الدول العربية. ولكن بالتفاهم على كل حال مع الحكومة السورية الذي انتج تبادل سورية التمثيل السياسي مع تركية! وتحاول تركية الان برغم تشاؤمها من جلاء البريطانيين عن مصر أن تتفاوض معها لتحقيق

زعامة كتلة قوية في الشرق الاوسط. كما تتصل هذه الحلقة بزيارة رئيس الجمهورية اللبنانية كما يقال لتركية قريبا.

ويحق لنا أن نتساءل على حساب من هذه المفاوضات وتلك الزعامات؟ لا شك أنها على حساب العرب وعلى حساب قضية اللواء. فيظهر أن تركية تتقاضى الان ثمن اغتصابه زعامة الشرق، اي زعامة جبهة قوية في كفاحها مع روسية.

لا بأس على تركية أن تمد يدها للشرق العربي لتأليف جبهة قوية ضد كل اعتداء خارجي، وفي الشرق ما فيه من قوى كامنة عظيمة. ولكن ألا يجب أن تكفر عن سياستها الماضية على اقل تقدير فترجع للعرب حقهم السليب في اللواء الشهيد؟

نحن لا نعجب من موقف تركية في الماضي، كما لا نعجب من محاولتها في الحاضر، ولكن الذي نستغربه موقف الدول العربية الذي يدل على انه ليس لها سياسة خارجية موحدة والا لكان من بديهيات الامور ان تكون قضية اللواء محور السياسة العربية نحو تركية. فهل الارادة العربية مشلولة يا ترى في تقرير سياستها الخارجية؟ أم انها مسيرة لا مخيرة؟ **أم ان الدول العربية اجنبية عن شعور واماني شعوبها؟"** 5 حزيران 1946.

المطالبة بتصفية آثار الاستعمار الفرنسي:

وبالوقت الذي كانت فيه الجريدة حارسا دون تسرب النفوذ البريطاني إلى سوريا، نشرت في عددها الثالث مقالا أطالب فيه بتصفية آثار الانتداب تحت عنوان: "أما الجيوش الفرنسية فقد جلت وأما فرنسا فلم تجل عن البلاد". وقد ورد فيه:

"يزعم الكثيرون الذين يفكرون باعينهم ان فرنسة قد رحلت عن البلاد ابتداء من تاريخ اعياد الجلاء، **والحقيقة ان جيوشها وموظفيها قد رحلوا فعلا، وأما هي فباقية حتى الآن. لان حقيقة الاحتلال ليست جيوشا اجنبية، بل مجموعة مصالح جوهرية وما الجيوش والموظفون الا وسيلة تثبيت وتأييد لتلك المصالح التي هي الهدف والغاية من كل احتلال واستعمار. وقد سبق لفرنسة مرارا أن سلمت بمبدأ الجلاء دون حقيقته، لانها اشترطت ما يضمن هذه المصالح. وما معاهدة**

عام 1936 بجوهرها وحقيقتها الا تعهدا بالمحافظة على مؤسساتها القائمة الآن بالبلاد رغم أنف الجلاء"

"أن هذا الاستعمار يبدو بالبنوك والشركات والمدارس والمعاهد والمحاكم المختلطة. أما أذنابه وجواسيسه، وخدامه، فهم قائمون بوظائفهم في جميع مصالح الدولة. واما العقلية والانظمة والقوانين والاساليب فباقية لم يطرأ عليها تعديل ولا تبديل. فيحق لنا اذن ان نقول ان فرنسة قد جلت بجيوشها وقواها، ولم تجل باساليبها ومؤسساتها الاستعمارية. فالى متى يدوم هذا الاستعمار؟ نحن لا تخدعنا الدعاية والمظاهر، ولا تعمينا عن رؤية الحقائق، لاننا ما زلنا غير مقتنعين بما عناه البيان الوزاري الاخير من انه لم يعد هنالك حاجة للعمل في سبيل استكمال اسباب السيادة والاستقلال. كما أننا لا ننام على الوعود بعد أن برهنوا لنا بأن الوعد شيء، والتنفيذ شيء آخر..

لقد وعدنا كثيرا بدرس مشكلة البنك والنقد وحلها، ولكنها لم تدرس، ولم تحل مع انها من اخطر المشاكل وعلينا أن نستقل بنقدنا وشؤوننا المالية، ضمن الحدود الدولية بأي شكل من الأشكال. لأن الاستقلال المالي والاقتصادي من دعائم الاستقلال السياسي.

ووعدنا بالغاء امتيازات الشركات الاجنبية التي منحتها فرنسة للشركات الفرنسية، ولم تمنحها الأمة واستلامها اثر ازمة نوار الماضية بواسطة قرض وطني، أو وسائط اخرى تختارها الحكومة فلم ينفذ الوعد، ولا تزال الشركات كالاخطبوط في جسم البلاد تسيء الاستعمال وتمتص الدماء، بلا وازع ولا رقيب، كما لا يزال المسيو بيدو مقتنعا بما قاله في مجلس الأمن.

" ليس هناك، على ما اعلم مشادة حول القسم الباقي من المصالح الاقتصادية، بعد ان سلمنا- ويقصد الصلاحيات- الجزء الاكبر منها" وبكلمة موجزة ان فرنسة قابضة على مقدراتنا المالية والاقتصادية.

وناديا بالغاء المحاكم المختلطة بعد أن زال الانتداب، واشتركنا بمنظمة الامم المتحدة، اثر حوادث ايار الماضية، فلم تلغ برغم ما تتطلبه المصلحة من السرعة بالغائها.

كمـا أن المعاهـد والمـدارس الفرنســية تصـطبر حتـى يـأتي الفـرج، فتستأنف المسير..

نحن لسنا من دعاة التفضيل بين المدارس الاجنبية، ولكننا مـن وجهـة النظر القومية، نؤمن بوحدة التعليم، فاذا اقتنعت الحكومة بـان قـانون المعـارف العام يحقق هذه الوحدة، فلم هذا الاغضاء الفعلي والتصـريحات المتناقضـة؟ لا سـيما ونحن احرار كجميع الامم المسـتقلة بتقريـر قضـايا التربيـة والتعلـيم. ولا يجوزان تتدخل المساومات الخارجية في مثل هذا الموضوع الخطير .

وكذلك التمثيل الديني لا يقل شأنا وخطرا كما لا يخفى عن غيـره مـن الامور، فلم يزل الفرنسـيون واسطة الاتصال بيننا وبـين الفاتيكـان مـع ان بلادنـا مهد المسيحية والديانات السماوية، وقد عالج لبنـان الشـقيق هـذا الموضـوع الخطير حتى تم الاتفاق على تبادل التمثيل بينهما.

يظن بعض السـاسـة ان الزمن كفيل بحل جميع الأمور. واذا صح التريـث في حل المعضلات في بعض الاحيان، فانه لا يجوز الانتظـار والفرصـة سـانحة، أن نترك للزمن أن يقرر ما شاء بما يمس صميم مصـالح الـبلاد. وكلنـا متفقـون بانه لن يمر علينا ظرف خارجي اثمـن مـن هـذا الظـرف لحـل جميـع معضـلاتنا ومشاكلنا الخارجية".

إلغاء المحاكم المختلطة:

كانت المحاكم المختلطة في سورية أثرا من آثـار الامتيـازات الاجنبية في السـلطنة العثمانية التي منحها سـلاطين آل عثمـان، بأزمنة مختلفة، لرعايا الـدول الاجنبيـة تحـت عامـل الضـغط عنـدما أصبحت الدولة العثمانية تلقب بالرجل المريض.

كان الرعايا الأجانـب بموجـب هـذه الامتيـازات غيـر خاضـعين لقوانين السـلطنة القضائية والإدارية والمالية، فكـان التقاضـي بـين الرعايا التابعين لدولة أجنبية من اختصاصـات قناصـلهم، وقـد ألغـت الدولة العثمانية هذه الامتيازات بعد إعلان الحـرب العالميـة الأولـى ثم أعيدت بعد انتهائها بموجب معاهدة سيفر عام 1920.

ظلـت سـورية باعتبارهـا جـزءا مـن الدولـة العثمانيـة فـي الماضي خاضعة لمعاهدة سيفر، فاستغل الانتداب الفرنسـي هـذا

الوضع الشاذ لمصالحه، فأوعز إلى مجلس الاتحاد السوري عام 1924 بإصدار قانون جعل الاجانب بموجبه تابعين من حيث القضاء إلى محاكم سميت بالمحاكم السورية الناظرة بقضايا الأجانب، واشترط هذا القانون تعيين رؤساء تلك المحاكم والنيابات العامة من القضاة الفرنسيين، فكانت أحكامها والتقاضي أمامها يجري باللغة الفرنسية ولم تتعرض معاهدة 1936 إلى إلغاء هذه المحاكم، فكان إلغاؤها واجبا بعد اعلان الاستقلال لأن وجودها يتنافى مع أبسط شروط السيادة، وقد ألغيت بعد ضغط شعبي كبير استمر عدة أعوام.

وقد سبق لي في المجلس النيابي، أن طالبت، مع نواب آخرين، وفي مناسبات عديدة بإلغاء المحاكم المختلطة، ولكن الحكومات المتعاقبة كانت تماطل وتسوف دون عذر مقبول، إلى أن قدمت بريطانيا مذكرة بخصوص المحاكم المختلطة، فكتبت في 8 أيار 1946 تعليقا حول هذه المذكرة:

"يبدو أن مشكلة ما يسمونه "المحاكم السورية الناظرة في قضايا الاجانب" قد اخذت تلبس ثوبا جديدا ليس في مصلحة السوريين. فالمعروف حتى الآن أن هذه المحاكم كانت ابدا طريق النجاة التي يلجأ إليها كل من خاف عدالة المحاكم الوطنية، وأن توقفها عن العمل، بنتيجة رحيل القضاة الفرنسيين عقب حوادث أيار الماضي، قد أدى إلى تعطيل مصالح أرباب المصالح، واتاح للكثيرين من المجرمين سبل الفرار من وجه العدالة، بحيث لم يكن لهذا التوقف الا فائدة واحدة، هي حرمان "الوسطاء الاجانب" الذين يدخلون عادة طرفا شكليا في الدعوى من أرباحهم وألاعيبهم.

ولقد قيل ذات يوم أن وزارة العدلية رفعت إلى رئاسة مجلس الوزراء مشروع قانون يتضمن سحب كافة الدعاوي الموقوفة لدى هذه المحاكم الاجنبية واحالتها الى المحاكم الوطنية للنظر فيها، وأن رئاسة مجلس الوزراء احالته بدورها إلى المجلس النيابي لاقراره ووضعه موضع التنفيذ.

وسواء اصح هذا أم لم يصح، فالمهم في الامر، والجدية فيه، أن الحكومة البريطانية بعثت إلى رئاسة الحكومة السورية بمذكرة تقترح فيها أن توافق هذه الحكومة ، حلا للقضايا المعلقة، على

تعيين قضاة جدد للمحاكم المختلطة يشترط ان يكونوا من بلاد حيادية، ريثما تتفق "الدول ذات الامتيازات" على حل نهائي وهي في كتابها تذكر الحكومة بانه لا يمكن عمل اي شيء جديد الا بموافقة "الدول ذات المصلحة" جميعا.

ولسنا ندري ما سيكون موقف الحكومة من مذكرة حكومة جلالته، **ولكننا نعرف حق المعرفة أن هذا يعني اصرار "الدول الممتازة" على الاحتفاظ بامتيازها، كما نعرف أن المحاكم المختلطة عار كان يجب أن نخلص منه،** وكان يمكن أن نخلص منه، لو أن حكومتنا فكرت في ان تتبع سياسة الامر الواقع بعد حوادث ايار مباشرة، وان تجابه باسترداد حقها، الذي سلب منها دون موافقتها من حكومة جلالة الملك البريطانية وشريكاتها في الامتياز!

ولئن كان حقا ما قالته لنا الدول الكبرى في اعترافها باستقلالنا التام، من اننا اصبحنا مساوين في سيادتنا لأي دولة اخرى، وأن لنا نفس الحقوق التي تملكها الدول الاعضاء في هيئة الامم المتحدة، فمن الغريب اذن هذا التدخل الجديد، **ومن الغريب ايضا موقف الحكومة في السكوت عنه. وأغرب من هذا ومن ذاك أن تقبل حكومتنا باستقلال أبتر تستطيع من تلقاء ذاتها استكماله اذا فتشت عن معنى "الاستقلال" في أي قاموس دولي، وفهمت من هذا المعنى أن قضية الغاء المحاكم الاجنبية اصبحت قضية داخلية بحتة، لا دخل فيها لأحد، ولا سلطة عليها لمعاهدة، وانها يمكن أن تحل بقانون ذي مادة وحيدة يصدقه المجلس النيابي في دقائق!.."**

محاولة لإلغاء الأحزاب:

بعد انقضاء العدوان الفرنسي، ألف خليط من رجال السياسة، المعارضين سابقا للكتلة الوطنية، حزبا سياسيا سموه "منظمة اتحاد الأحرار"، واتخذت المنظمة مكتبا لها قرب المجلس، وأخذت تدعو للملك عبدالله ومشروع سورية الكبرى، وبمناسبة ذكرى شهداء السادس من أيار عقد هذا الحزب في ناديه احتفالا حمل فيه الخطباء حملة عنيفة على نظام القوتلي، فتحركت الحكومة وألقت القبض على فهمي المحايرى، أحد أعضاء الحزب

البارزين، وأغلقت مكتب الحزب بموجب المواد 2 و6 و 12 من قانون الاجتماعات العامة العثماني، ولاحقت بقية أعضاء الحزب الآخرين.

وفي جلسة 11 ايار 1946 آثار هذا الموضوع بعض النواب محتجين على أن الحكومة أقفلت نادي منظمة اتحاد الأحرار واعتقلت بعض أعضائه وهي تلاحق الآخرين.

قال الدكتور عبد الرحمن الكيالي: "إن الحكومة قد تكون محقة فيما فعلت، ولكن تنفيذ القوانين يجب أن لا يكون مطبوعا بطابع التمييز والحزبية بل يجب أن يطبق على الجميع سواء بسواء. في البلاد جمعيات وأحزاب كثيرة والحكومة بدلا من أن تنفذ أحكام القانون بإنذار الجمعيات والأحزاب لتطبيق بنوده طالبة إليها تقديم برامجها ودساتيرها عمدت إلى اغلاق نادي حزب من غير انذار. مع أننا نعرف أن في البلاد أحزابا كثيرة مثل الكتلة الوطنية والحزب الشيوعي والعمل القومي والحزب السوري والبعث العربي والأحرار الى آخر ما هنالك، أن هذه الاحزاب تمارس عملها في وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من الحكومة فلماذا لم تطبق الحكومة القوانين عليها جميعا؟"

فأجاب وزير الداخلية صبري العسلي بأن "الحكومة تريد أن تعامل جميع الأحزاب على السواء، وستصدر بلاغا غدا بل إنه صدر ولكن لم يوزع وقد أرسله ديوان وزارة الداخلية لجميع المحافظين لمعاملة الجمعيات والأحزاب والهيئات على قدم المساواة تنفيذا لما يفرضه عليها القانون. وهي ستجعل جميع أعمالها متفقة مع المادتين الثانية والثالثة من قانون الجمعيات العثماني. فإذا وجدت أن المتقدمين بطلب الرخصة يصح أن يؤلفوا الجمعيات السياسية رخصت لهم بذلك".

لم يخطر في بالي أن يكون اعتقال فهمي المحايري، الموظف والعصبوي سابقا، مناسبة لإلغاء جميع الأحزاب والجمعيات التي تمارس نشاطا فعليا، وأن تتحكم الدولة بمصيرها حسب أهوائها. فتدخلت بالموضوع:

"أريد أن أسأل الحكومة سؤالين: أولهما ما هي الخطة التي ستسلكها في منح الاجازات والرخص لتأليف الأحزاب والجمعيات؟ أهي على أساس المناهج أم على أساس الأشخاص، فالدستور كما هو معلوم قد نص على صيانة

الحرية الفكرية وتأليف الأحزاب دون أي اعتبار للأمور الشخصية. إنني وجهت هذا السؤال لكي أعرف النهج الي ستنهجه الحكومة تجاه الأحزاب السياسية القائمة في البلاد. وقد تقدم بعضها فعلا بطلب الترخيص فرخصت لها الحكومة بالعمل. وبعضها الآخر لم يتقدم بطلب الترخيص لأنه يقدر سلفا أن الحكومة ستمتنع عن الترخيص له... أما السؤال الثاني فإنني بقطع النظر عما قاله المعتقل السيد المحايري فإن ما اتهم به هو قضية سياسية" والمعتقلون السياسيون يعاملون معاملة حسنة، ولكنني علمت مع الأسف أنه مضرب عن الطعام وحالته سيئة".

لسلامة بناء الحياة الديمقراطية:

والحقيقة أن هذه المناقشة في المجلس النيابي لم تكن كافية لتوضيح النهج السليم في تشكيل الأحزاب السياسية الذي تتوقف عليه سلامة بناء الحياة الديمقراطية في البلاد. ولذلك كتبت في "اليقظة" بتاريخ 14 أيار مقالا تحت عنوان: "الهيئات والأحزاب السياسية في البلاد". وهذا نصه:

"كانت أحكام الدستور والقانون، التي تجيز تشكيل الجمعيات والاحزاب في عهد الانتداب حبرا على ورق...

وقد نشأت رغم المنع فعليا بعض التكتلات، ولسنا بصدد البحث عن نشأتها ولا عما احاق بها، ولا عن آثارها السياسية والاخلاقية والروحية حتى الآن **ولكننا بصدد بحث منع تشكيل الاحزاب في العهد الدستوري برغم المادة 16 من الدستور التي تضمن حرية الفكر والمادة 25 التي تضمن حرية الاجتماع وانشاء الجمعيات، وبرغم قانون الجمعيات العثماني فقد رفضت الحكومات الدستورية المتعاقبة الترخيص والاجازة ولكن- برغم المنع وعدم الترخيص- فقد تشكلت الاحزاب فعليا واصبحت أمرا واقعيا.**

وأما الحكومة القائمة فقد ادعت- ولعل ذلك اثر اغلاق مكتب منظمة الأحرار- **انها ستسمح باعادة تشكيل الهيئات القومية بعد تقديم طلب الترخيص مرفقا بالمبدأ والمنهاج ولكنها لم تصرح بالمقاييس التي ستمنح بها الرخصة أو تمنعها عن الطالبين**، فإذا ارادت ان تسلك الطريق الدستوري القانوني- فما عليها الا ان تجيز الطلبات

عند استكمالها الشرائط القانونية، وهذا مالا تنوي فعله، **لان للحكومات في بلادنا على ما يظهر الخيار فيما تشاء تطبيقه من احكام الدستور والقانون".**

لقد حاولت ان تبرر هذا الخيار ببعض الاقتراحات والتوصيات، وهي دعوة لجنة من الخبراء- لتدقيق كل منهاج تتقدم به الاحزاب- وعلى ضوء تقريرهم تمنح أو تمنع الحكومة الاجازة والترخيص... **وهذا راي من أطرف الآراء...** وهو يدل بحقيقته على منطق الحكم السائد في هذه البلاد. واختصارا للراي المقترح ، قلت في نفسي: **ولم هذا التطويل والعناء، فيمكن أن تشكل الحكومة على هذا القياس لجنة من الخبراء تضع عددا من المناهج- حسب الرغبة- تتقدم بها الحكومة للأمة، وعلى اساسها وعددها تتشكل الهيئات والاحزاب السياسية.** وهذا قياس صحيح -بالنسبة للاقتراح- فعلام الاستغراب؟ **ألسنا بحاجة للخبراء لتجفيف المستنقعات والمنشآت والدراسات المالية والشؤون النقدية؟ ولم لا تطبق دساتير الرياضيات على شؤون الحياة والقوميات؟**

ولكن هذا الفهم العلمي والرياضي هو الذي دعانا لمعالجة موضوع تشكيل الهيئات السياسية، وموقف الحكومة منها.

لا تتشكل الاحزاب السياسية- عادة- كما تتشكل الشركات التجارية باجتماع الاشخاص مهما بلغ عددهم على مصلحة شخصية معينة، كما أنها ليست مجموعة اصدقاء يكلفون احدهم- ولو كان اثقفهم- لوضع المنهاج- كما يضع فرضا انشائيا او محاضرة علمية.

فالاحزاب تنبثق عن شعور عميق بواقع الامة السيء وشعور وآمال أعمق بإنقاذها والتحليق بها في جو أعلى وامثل وواقع أجمل واكمل، والخبراء اعجز من ان يشعروا هذا الشعور، لانه فوق نطاق العلم والخبرة.

إن دور الخبرة والخبراء يأتي بعد ان تستلم الهيئآت -لا قبل تشكيلها- الحكم اذا قدر لها لتتولى الدراسة تنفيذ التفاصيل والتفرعات. **فالمبادئ احلام المستقبل المثالي، وعمل الاحزاب تحقيقها، ومهمة الخبرة والعلم الدرس والتنفيذ ليصبح المستقبل المثالي واقعا حقيقيا.**

والفـرق بينهـا واضـح كـالفرق بـين البطـل والعـالم، أو بـين العـالم والفنـان، **فالمبادئ العميقة الاصول، الصادقة الاتجاه، عاصفة مجتاحة لجذور الفساد في المجتمع الفاسد، وسيل هدار جارف لأرجاس الواقع، وحلم جميل للمستقبل البارع فدعوا للناس حريتهم بالتكتل والتحزب ضمن نطاق القانون مهما كثرت احزابهم فلا بد لهذه الجداول والفروع أن تنصب في النهر العظيم.**

فشؤون الحياة الروحية والقومية لا تخضع لحساب الاعداد ودساتير الرياضيات. ولكم سمعت عبارات الضجر من كثرة الاحزاب - عندنا- ولكم سمعت التمنيات لو كانت اثنين أو ثلاثة أو حزبا واحدا، كما في روسية وانكلترة واميريكة، فهم يبحثون بالاعداد ولا يفكرون بالدواعي والاسباب ولا بما هو أعمق من الاعداد والاشكال.

وعلى كل حال فالاحزاب الحقيقية لا تنتظر الرعاية والعطف من الحاكمين حتى تنشأ، لأن بذورها تزداد نموا وخصبا في تربة المجتمع كلما تصبب عرق الجهاد والاضطهاد ، وغزرت دموع العذاب، والآلام، أما الاحزاب المزيفة فهي التي تنتظر الرعاية والمفاوضة والمساومة، وهي التي تموت جنينا مائعا قبل أن تولد.

فما على الحكومات القائمة الآن الا ان تحسن تطبيق الدستور والقانون فتسمح لجميع الاحزاب القومية - لا الاجنبية ولا الطائفية- أن تنشأ وتنمو لأن في عرقلة سيرها واعاقة تقدمها ما يجوز أن يهدد البلاد باعنف النزعات وأخطر الاتجاهات. **واذا كان للحكم البرلماني مزايا، فاعظم مزية له ضمان الحريات العامة، وهذا سر مرونته التي يحتفظ بها بالاستمرار والبقاء، ويقي البلاد من خطر الانقلاب والمفاجئات، لانه يفسح لها سبيل التطور والارتقاء".**

□

اليقظة للأصوات التقدمية جميعا:

لقد اعتبرت "اليقظة" نفسها، منذ العدد الأول، لسان حال الطليعة والجيل الجديد على مختلف الآراء والاتجاهات، وقد ساهم بالكتابة فيها السادة: صلاح البيطار، وهيب الغانم، زكي الأرسوزي، جمال الأتاسي، عارف قياسة، نزار كيالي، عبد السلام

عيون السود، سليم عادل عبد الحق، احسان مسوح، أحمد علوش، منير الشريف، نزيه الحكيم، وغيرهم من الاساتذة والمثقفين وطلاب الجامعة.

كما كانت "اليقظة تسعى لصدور صحف حزبية تقدمية ملتزمة أخرى، بينما كانت الحكومة تتمنع عن الترخيص لها. وقد تقدم صلاح البيطار بطلب إصدار جريدة "البعث" فقمت وزملائي النواب بالضغط على رئيس الحكومة سعدالله الجابري لمنحه هذا الترخيص، وكتبت المقال التالي تحت عنوان "حرية الصحافة":

"لم يزل يتدفق علينا -منذ أيام- سيل من البرقيات الواردة من المدن السورية، ومن طلاب الجامعات في بيروت، يطالبون فيها باطلاق حرية الفكر الأولى- وهي حرية الصحافة- التي يضمنها الدستور ويقننها القانون، وتتجلى أولا: باجازة اصدار الصحف والمجلات للطالبين- ضمن القيود والشروط القانونية- دون أن يكون للحكومة الخيار في منح الاجازة أو منعها.

ثانيا: حماية الصحافة من التعطيل الا بحكم القضاء- وهو السلطة الثالثة المستقلة في الدولة- فيحول دون طغيان الحكومة وجورها على الصحافة. ويعاقبها بسوء استعمالها لهذه الحرية عند الاقتضاء.

أما في بلادنا فلا تزال حرية الصحافة مهيضة الجناحين: فلا حرية في الكتابة وابداء الراي ما دام التعطيل الاداري بيد الحكومة تضرب به عندما تشاء، ولا حرية في اصدار الصحف لان للحكومة الخيار في المنح أو المنع. وهذا تراث الاستعمار الفرنسي الذي قبض بيد من حديد على عنق الحرية الفكرية فحاول ألا يرتفع صوت ولا يبشر برأي بغير ما يوحي به أو يرضى عنه...

وهذا من طبيعته لان الحرية والاستعمار ضدان لا يجتمعان، أما استقلال- بلا حرية- واستمرار لهذا الوضع فهو لا يدل إلا على أن الاستقلال ان تحقق بالقوة فلا يزال غير متحقق بالفعل، وباخلاص القصد يمكننا ان نتخلص من هذا الوضع الشاذ- حتى بواسطة تطبيق قانون المطبوعات الذي صدر في ظل الانتداب- بصورة تتلاءم مع مفهوم الاستقلال ونصوص الدستور لبينما يصدر قانون المطبوعات الجديدة بمنح الاجازات عند استكمال الشرائط القانونية، واحالة المسيء للحرية من الصحفيين للقضاء دون اللجوء للتعطيل الاداري. اما التذرع بكثرة عدد الصحف، واستثمار بعضها كوسيلة عيش

وارتزاق، فلا يبرر بقاء هذا الوضع الـذي يمنـع المـواطنين والهيئـات السياسـية من التعبير عن آرائها ووجهات نظرها في قضايا الـبلاد وشـؤونها، كمـا لا يتفـق بالاساس مع ما يسمى بحرية الفكر ولا مع تطور البلاد وتقدمها.

ولذا فـنحن نسـتنكر التعطيـل الاداري ومنـع الاجـازات بإصـدار الصـحف. ونطلب الاسراع باصدار قانون المطبوعات الجديد". (15 أيار 1946).

قانون للعمال :

وإذا كان المناخ الثوري يطرح القضايا الاجتماعيـة، كمـا جـرى بعد العدوان وتحقيق الجلاء، فإن في رأس هذه القضايا الاجتماعية قضايا العمال والفلاحين.

كانـت موفقيـة كبـرى، فـي ذلـك الحـين، أن يـتمكن أحـد موظفي وزارة الاقتصاد الوطني من اقناع الحكومة بالموافقـة علـى إحالة قانون العمـل- الـذي وضـعه فـي عـام 1944- إلـى المجلـس النيابي، وكان مشروعه أول تشـريع عمـالي تقـدمي نسـبيا وضـع في البلاد العربية. وقد ظل هذا المشـروع عـامين فـي أدراج لجـان المجلـس النيـابي لأن النـواب الرأسـماليين مـن أصـحاب المصـانع حـالوا، بمسـاعدة الحكومـات المتعاقبـة، دون تقديمـه للمناقشـة العامة في المجلس النيابي، وكان الفضـل فـي إخراجـه مـن أدراج اللجان يعود إلى وعـي العمـال وتضـامنهم، ففـي مطلـع شـهر آذار من عام 1946 عقـد العمـال مـؤتمرا فـي مـدرج الجامعـة السـورية خرجوا فيـه بمقـررات علـى رأسـها المطالبـة بـإقرار قـانون العمـل، ونظموا تأييدا لمقرراتهم مظـاهرة عماليـة طافـت شـوارع دمشـق. وقد قام وفد منهم بزيارة جريدة اليقظة، فكتبت بتـاريخ 1946/5/12 كلمة وضعت فيها مشكلة العمال ضمن إطارهـا الحقيقـي وهـو أن المشكلة ليست مشكلة عمال فقط وانما مشكلة ايجاد الأعمـال، ودعوت الحكومة إلى ايجـاد المشـاريع الانتاجيـة والتشـجيع عليهـا مما يؤمن العمل للعاطلين.

المطالبة بقانون حماية الفلاح :

وتحت كابوس المظاهرات العمالية سارعت الحكومة واللجنة الاقتصادية البرلمانية المؤلفة من كبار صناعيي سورية: جورج صحناوي، وأحمد خليل المدرس، وسامي صايم الدهر وغيرهم، الى احالته للمناقشة العامة في جلسة 22 أيار، فوجدت ذلك مناسبة لإثارة قضية الفلاحين والمطالبة بوضع تشريع خاص بهم، فقلت: "قبل الدخول في مناقشة المواد أريد أن ألفت نظر الزملاء الكرام إلى أمر جوهري هو أننا جميعا طالبنا بإنصاف العمال، ولكن مع الأسف لم يرتفع أي صوت مطالبا بإنصاف الفلاحين الذين يشكلون في هذه البلاد ما لا يقل عن 70% من سكانها، فأريد أن الفت نظر الحكومة إلى وضع تشريع خاص بهم، لأن لهم وضعا خاصا في هذه البلاد، لذلك أرجو أن تضع الحكومة في أقرب فرصة ممكنة قانونا للفلاحين مستوفيا الشروط الكاملة ومراعيا أوضاع البلاد الزراعية".

وتقدمت للمجلس بالاقتراح التالي :

"أقترح أن تقدم الحكومة تشريعا كاملا تحفظ فيه حقوق الفلاحين في هذه البلاد الذين يشكلون أغلبية هذه الأمة، وأن يقتصر قانون العمل على العمال فقط. لأنه غير واف بأحكامه بما يحفظ حقوق الفلاحين كاملة. كما أن هذا القانون لا يعالج وضع الفلاحين الحقوقي والزراعي"

وقد اقر المجلس، في جلسات متعاقبة، قانون العمل الذي حل محل قرارات المفوض السامي السابقة، ولكن تحقيق اقتراحي بسن تشريع خاص للفلاحين اقتضى شعبنا سنوات عديدة من النضال الشاق المرير.

إصلاح الجهاز الاداري:

كان التأثير الشعبي على الحكومة عظيما بالنسبة للثورة على التشريع الاستعماري السابق. ولكن القيادة السياسية كانت عاجزة عن تلبية تطلعات الشعب فشهدت دورة ايار عام 1946 -التي اقترحت فيها وقوف المجلس دقيقة واحدة اجلالا لشهداء العدوان والضحايا التي اريقت دماؤها في ساحة البرلمان-

صورة لهذه الثورة التشريعية التي استهدفت المطالبة بإصدار تشريعات جديدة للبلديات والموظفين وملاكات الدولة والتنظيم الاداري فأردت أن أبين أهمية الانسان الصالح، بجانب التشريع الصالح، ليتحقق الانقلاب المطلوب. فعقدت بتاريخ 17 أيار مقالا بعنوان "اصلاح الجهاز الاداري" ورد فيه :

"تذمر الناس وعمت الشكوى من الجهاز الحكومي القائم بأجمعه، سواء داخل الندوة البرلمانية أو بين الأوساط الشعبية. وهو الجهاز الموروث عن العهدين: العثماني والفرنسي. والناس محقون في هذه الشكوى، لأنه علة بقاء أمراض الامة، وهو كالشراك نتخبط فيه دون ان نهتدي الى طريق النجاة ومع ذلك فاننا لا نطمع باصلاحه اصلاحا كاملا، فذلك يقتضي وضع خطة كاملة... وانما نقتصر على معالجة ناحية من نواحيه العديدة، وهي الناحية الادارية، التي لا تكلف الحكومة لاصلاحها الا قليلا من عزم المؤمنين بتنفيذ بعض المبادئ وتغيير بعض الموظفين الاداريين، على الرغم من بقاء النظم الادارية السيئة الموروثة، **ولنا أن نتساءل من هم الموظفون الاداريون؟ وما هي عقليتهم الادارية؟ وما موقف الحكومة منهم وموقفهم منها؟** حتى نلمس الداء ونصف الدواء...

يمكننا أن نعتبر الموظفين الاداريين -حاليا- في المناطق السورية اجراء للوجوه والمتنفيذين والزعماء الاقطاعيين، ومهمتهم الادارية تنحصر بارضائهم وتنفيذ رغباتهم بنفوذ الحكومة لاستغلال الشعب واستثماره، اما حدود هذا الارضاء، فامره يعود لوجدان هؤلاء واما موقف الحكومة، فاما التصفيق والتوفيق لمن لا يسمع عليه شكوى ولا تذمر، واما الاخفاق والاخراج لمن ترتفع عليه اصوات الشكوى من الزعماء لا من أفراد الشعب، لان اصواتهم تخنق بقوة السياط أو قوة السلاح عند الاقتضاء. فاذا كان الموظف -اداريا لبقا- فبامكانه ان يثرى بارضاء هؤلاء المستغلين للشعب بسلطان الشعب. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد فكثيرا ما يغضب الزعماء والمتنفذون فيهددون ويتوعدون باسم الشعب -الذي يستمثرونه ويستعمرونه ويكرههم ويكرهونه.

فاعجبوا ممن يهدد الحكومة باسم الشعب، ويستثمر الشعب باسم الحكومة. فالى متى تدوم هذا الحال؟؟ ان للحكومة العثمانية والحكومة الفرنسية ما يبرر لها خلق هذه الزعامات لسحق روح المقاومة بالشعب العربي، وكان هؤلاء مطيعون يعبدون الخالق ويسبحون بحمده.

أما الآن فقد تغير الحال واصبحوا خطرا على الحكومة باسم الشعب المستثمر سواء باسم الدين او العشيرة، او ماضي الجهاد الوطني في بعض الاحيان، لأن الاجنبي لفظهم واستغنى عن خدماتهم- فأصبح لهم باعناق الشعب حقوق مكتسبة باستثماره واستغلاله.

نحن لا نطمع من الحكومة ان تقف موقفا ايجابيا للقضاء على هذا الوضع، الطائفي العشائري الاقطاعي الاستثماري الذي يعرقل تطور الامة وتقدمها ويهدد كيانها وبنيانها اذا استمر- بخطر الاتجاهات المتطرفة الزائفة، بل نقنع منها بموقف سلبي: وهو حياد الحكومة سواء بين هؤلاء الزعماء أو بينهم وبين أفراد الشعب، وأن تمنع سلطتها عن الاستثمار حتى يقنع أي فرد في البلاد ان حقوقه مصونة وانه يتمتع بها بصفته مواطنا دون واسطة انسان. وعندئذ تشاهد البلاد كيف تنهار هذه الزعامات الزائفة. وهذا لا يتحقق باستخدام من استخدامهم الاجنبي لانهم انتهوا إلى وضع اخلاقي وروحي وسلوك إداري لا يضمن التنفيذ. وانما يتحقق بالشباب المثقفين المؤمنين الذين يفقهون مشاكل البلاد ومن ورائهم حكومة تدعمهم لانها تؤمن ايمانهم. وهذا ما يفترض استغناء الحكومة عن ثقة هؤلاء الزعماء بثقة الامة لا أن تكون هي علة المرض وسبب الداء".

حق المواطن بممارسة التفكير السياسي :

ما أن صدر العدد العاشر من "اليقظة" حتى بدأنا نشعر بما كنا ننتظر حدوثه، فقد اشتركت القوى الخفية والرجعية بمحاربة الجريدة بكافة الوسائل. وبينما كان رئيس التحرير أحمد علوش يخبرني عن اتصال المفوضية البريطانية به كان بعض الباعة يخبرونني بأن عناصر الأمن العام السوري يحاولون - بالتهديد أو الترغيب- منعهم من عرض أعداد الجريدة للبيع.

وهذا أمر طبيعي، فكلما أخذت المبادئ طريقها من الغموض الى الوضوح، ومن التصميم إلى التحديد، ومن النظرية إلى الممارسة، تزداد خطورتها بنظر الخصوم وتدفعهم لمحاربتها بما يملكون من أسلحة، هذا بالنسبة للخصوم أما بالنسبة للاصدقاء فإنها تجعلهم أشد إخلاصا والتزاما وتماسكا واستعدادا للتضحية.

وقد كنت مقدرا قبل صدور "اليقظة" - وهي أول جريدة تنطق بلسان الاتجاه الجديد- أن تزيد في عدد الخصوم وتجعلهم أشد شراسة في محاربة هذا الاتجاه، كما أصبح الإعلام الحكومي يعتبر اتجاه اليقظة اتجاها يهدد أمن البلاد واستقرارها وينذر بالفتنة.

ولكن أي أمن أو استقرار أو فتنة يقصدون؟ وما هو مفهومهم لهذه الكلمات؟ للاجابة على هذه التساؤلات، وفضح الهجمة الرجعية الشرسة، كتبت بتاريخ 19 أيار مقالا وجهته "إلى الذين لا يعيشون إلا في الظلام ويخشون الناس أن يناقشوهم الحساب" قلت فيه:

"إن الفتنة التي ينذرون بإطفائها لينعموا بالاستقرار والاستمرار بعدها هي جذوة الإحساس في نفوس الناس. فكل دعوة للاصلاح أو نأمة من شكوى هي في عرفهم مما يهدد الاستقرار لأنه يذهب الاصطبار... وكل توجيه أو إشارة للأوباء و الأمراض والأخطار هي عراقيل في سبيل الاصلاح المنشود. فهذه الدعوى هي دعوى من يحاول ويطاول تهربا من تحمل التبعات... فهل يعقل أن نطلب الاستقرار إلا بعد تنفيذ الاصلاح ولم نلمس له أثارا جدية؟ ... وهم يضجرون من انتشار (وباء السياسة) لأن العامل أصبح يبحث ويناقش. أفيريدون أن تخوى بطونهم ولا يبحثون عن الأسباب؟ وإذا فكروا عد ذلك منهم (تدخلا سياسيا) محرما عليهم، فعلى رسلكم. إن ما تصفونه بالوباء هو الوعي. وليس بقدرتكم إطفاء نوره. أما الوباء السياسي فهو احتراف السياسية واستئجار ضمائر المحترفين... اضجروا من العلائق السياسية القائمة على الرشوة والمصالح الشخصية... اضجروا من تدني القيم الروحية والأخلاقية التي رخصت عن السلع المادية... فعلى رسلكم. ان من حق الفلاح والعامل والجندي والموظف ان يتفهم مشاكل أمته ويناقش جميع قضاياها دون أن يعد ذلك منه تدخلا محرما. ولكن لا يجوز أن يستغل هذا الوعي المستغلون فيجعلوا من الشعب طبقة ممتهنة لتعرض الضمائر والأخلاق سلعا تباع بساح السياسية وتشترى... إن استغلال تفتح النفوس، وإقامة العلاقات السياسية على الدراهم والدنانير واستئجار الضمير بدلا من أن تقوم على الاعجاب والحب والتقدير هو من أخطر ما يبتلى به قوم وتمنى به أمة"...

في الذكرى السنوية الأولى للعدوان الفرنسي :

بمناسبة مرور عام على ذكرى العدوان الفرنسي كتبت مقالا في اليقظة تعرضت فيه لذكر بعض الوقائع التاريخية الهامة:

فقبل العدوان بثلاثة أيام، أي في مساء 26 أيار 1945 دعا نائب رئيس الحكومة جميل مردم ستين نائبا للاجتماع في سراي الحكومة، حيث كان أزيز الرصاص لا ينقطع الا قليلا في تلك الليالي. وكان هذا الاجتماع خاصا **لتقرير الموقف بعد اندلاع الثورة في حماه وفي بعض المناطق السورية الأخرى.**

افتتح جميل مردم الاجتماع شارحا سوء الوضع وما سيؤدي إليه، ليبرر سياسة اللين والمهادنة والتفاهم مع فرنسة. وإذ كان الاجتماع مرتبا من قبل فقد انبرى بعض المجتمعين لتأييده والدعوة لاتباع سياسة الحكمة والتعقل، فكان موقفا متخاذلا مشينا بعد أن أصبحت البلاد تتأجج بنيران الثورة وبدأت المعارك الدامية تجري فعليا في حماه وبعض المناطق الأخرى. فبادرت الجمتعين قائلا: إن كل تراجع أو دعوة للتساهل هو خيانة بحق البلاد. وإن الثورة قد اندلعت والمعارك قد بدأت، وانه لا بد من الصمود حتى الظفر... وبعد نقاش استمر قليلا اقترحت على المجتمعين اتباع الخطة التالية:

أولا: أن تتولى قوات الحكومة، بمساعدة الشعب، شن حرب عصابات على خطوط المواصلات التي تربط ما بين المواقع العسكرية الفرنسية في كافة المدن، ومنع الاتصال فيما بينها بعد ضرب الحصار عليها.

ثانيا: أن يوجه المجلس النيابي دعوة رسمية إلى أفراد الجيش السوريين للالتحاق بقوى الحكومة تحت طائلة العقاب بقانون حماية الاستقلال.

ثالثا: تكوين قيادة عسكرية وقيادة سياسية في كل مدينة وقضاء من الشعب وجهاز الدولة معا، على أن تأتمر جميعا بقيادة مشتركة عليا في العاصمة تؤلف من الحكومة والقيادات السياسية والعسكرية.

فوافق الجتمعون على هذه الخطة، على أن يجري تنفيذها اعتبارا من صباح اليوم الثاني، ولكن جميل مردم أبلغنا في اليوم الثاني بأن الخطة التي قررناها تؤدي إلى تهديم (الدور الوطني). وأنذرنا بأننا نتحمل كامل التبعات والمسؤوليات التي تترتب على ذلك. ولما لم ينجح جميل مردم بإقناعنا بهذا الأنذار قال انه سيكشف لنا سرا. وهو أن الانكليز بعد اطلاعهم على الخطة أنذروا الحكومة بالتدخل عند دعوة الجنود والضباط السوريين للالتحاق بالقوى الوطنية.

ولما سمع النواب بالانذار البريطاني انهارت اعصابهم وتراجعوا عما قرروه في الليل، وتركوا للحكومة حرية التصرف.

لم أكن أشك بالانذار البريطاني الذي تحدث عنه جميل مردم. ولكنه كان تهديدا لا يقدمون على تنفيذه وإنما كانت غايتهم -كما ظهر فيما بعد- أن يخرجوا من المعركة بصورة المنقذين لسوريا لا أن يخرج السوريون ظافرين في معركتهم مع فرنسا. وشتان بين نتائج الموقفين وانعكاساتها على نفوذهم ومصالحهم في سوريا والمنطقة العربية. وهذا نص المقال الذي عقدته بتاريخ 31 ايار 1946 تحت عنوان: "يوم الذكرى: بقوة اليقين والايمان ظهرت المعجزات في التاريخ".

علامات تجوف الأمم :

"من علامات تجوف الامم ان تؤخذ بالمظاهر فتعمى عن الغايات والاهداف! أفيقصد من ذكرى يوم التاسع والعشرين من نوار التظاهر، أم المقصود أن تتذكر الامة أمجادها فيذكو غرورها وشعورها، أو أن تتذكر اخفاقها وأخطاءها فتتأمل بروحها ووعيها العبر الغالية التي تطهرها وتقيها غوائل العثرات في المستقبل؟ فهل رجعنا نحن لانفسنا في هذا اليوم فتذكرنا أمجادنا ومخازينا على السواء؟ اننا قمنا بالاحتفالات ودبجنا المقالات، ولكننا لم نجرؤ على رواية المخازي السوداء وتعيين المسؤوليات وذكر المسؤولين! وعندما يخشى الناس الجهر بالحقيقة، فطبيعي أن يصبح الجبان شجاعا، والخائن بطلا، بل ... وأن يشيع القاتل جنازة القتيل! فلا تفقد الغاية من يوم الذكر المقدس فحسب بل تنقلب شر منقلب.

فمن الواجب إذن أن نذكر بعض الحقائق بعد أن سكن الضجيج مهما كانت مرة صارمة جارحة. ويحق لك أيها القاريء أن تعلم قبل كل شيء موقف حكومتك في ذلك اليوم وقبله وما تلاه؟ كنا نلح قبل أكثر من عامين من يوم الكارثة على الحكومة ان تستعد لمجابهة الاعتداء الفرنسي المنتظر.. فأبنا لمواطنينا اثر الاحتفال باستلام الصلاحيات ما سوف يقع بالتفصيل، ودعوناهم للاستعداد والجهاد. وعيينا باقناع الحكومة سواء في المجلس أو في اللجان، ولكننا حاولنا عبثا! حتى ضغط الشعب على المجلس والحكومة في شهر نوار المنصرم، فاضطرت للمسايرة اضطرارا، ثم أخذت تماهل وتطاول حتى تحل الأزمة! وقد عقدنا اجتماعا في دار الحكومة قبل بضعة أيام بحضور ستين نائبا وتداولنا بالتدابير اللازمة لمجابهة الكارثة: باثارة جميع الانحاء وتقطيع أوصال القوى الفرنسية المتناثرة في أجزاء الوطن، وتجنيد القادرين وزيادة قوى الدرك وشراء الاسلحة ودعوة جنود الجيش السوري وضباطه، فنعتوا هذه الاقتراحات بالشغب والفوضى!

ولكننا برغم ذلك خرجنا مجمعين على اقرارها. وفي جلسة الغد انذرونا بمسؤولية تهديم الدور! واحتجوا بانذار الانكليز بالتدخل عند دعوة الجنود والضباط.

وما كان تجنيد الطلاب آنذاك الا تدبيرا لتسكين العواطف المتأججة الثائرة.

وفي حوالي الساعة السابعة من مساء اليوم التاسع والعشرين من نوار المنصرم وقعت الواقعة. فالتفت أحد المسؤولين في دار الحكومة قائلا: هذا ما طلبتموه، فقلت له لسنا من النادمين. وفي مساء اليوم الثاني أصدر وزير الداخلية أمرا بانسحاب جميع القوى من دمشق إلى القدم، فوصلناها مع ستين دركيا من أصل ما ينوف على الالف دركي، ولم نعثر للحكومة ولا للقيادة على اثر! وبخروجنا من دمشق تركناها فريسة للفرنسيين وللطابور الخامس.

أفهذه دمشق؟ أفهذه أم الثائرين، وعرين المجاهدين؟

كانت حماة عزلاء من كل سلاح الا سلاح الايمان، ومن كل استعداد الا استعداد الروح، فقاتلت برجالها ونسائها واطفالها، فاتت بالمعجزات وظفرت

بجميع الساحات! قال الجنرال باجيت "اننا انقذنا الفرنسيين بحماة من ايدي السوريين".

فما هو السر يا ترى؟ ان دمشق في مختلف الثورات قد أتت بالمعجزات من البطولات، ولكن ماذا تفعل دمشق والجهاز الحكومي فيها وفي خارجها - خشية أو اتفاقا- قد قتل كل روح للمقاومة، وحجب كل معونة عن الشعب!

قال أحد المسؤولين : علمنا الآن سر اندفاعهم في المجلس. فأجبنا يا ليتنا كنا مشتركين سوية في سر هذا الشعور. واحتج آخر انهم بوغتوا قبل استكمال استعدادهم الذي يستغرق ستة أشهر. فقلت في نفسي: ليتكم وقفتم على الحياد! كما برروا هذا الفشل الذريع بانه اكسبهم عطف العالم المتمدن. والحقيقة اننا خرجنا من المعركة مخفقين لولا تدخل الانكليز الذين عملوا على ايصالنا الى هذه النتيجة !

فما هو السر في موقف الحكومة يا ترى؟ ان هذا السر هو عكس السر الذي حدا بالالمان بعد انكسارهم أن يجازفوا بمدينة برلين الجميلة! واليونان بعد يقينهم بالانكسار أن يقاوموا ويخوضوا غمار القتال الذي جعل بلادهم قاعا صفصفا. والفنلنديين الذين حدا بهم أن يحاربوا السوفييت فتتهدم بلادهم وتقتل زهرة شبابهم. **هو سر الامم الحية التي لا تحسب للخسارة المادية المستعاضة حسابا في سبيل الفوز الروحي والمعنوي الخالد. وهو عكس سر الامم الفاشلة التي تحسب النضال تجارة تقاس بالأرقام. هو السر في موقف زعمائهم في الغرب وموقف المتزعمين في الشرق. وهذا هو سر نجاحهم وسر اخفاقنا. هو موقف فاصل بين المؤمنين بقيم الحياة الراقية والعابثين بها.**

ان موقف الحكومة بعد انجلاء الأزمة كان نتيجة لما ذكرته من المقدمات فكوفئ الخائنون واضطهد المجاهدون. وبررت جميع المخازي والخيانات والاساءات ولم تستفد البلاد المنكوبة شيئا من هذه التجربة القاسية.

فيا أيها المجاهدون من أبناء دمشق ويا أيها المجاهدون في حماه, وفوق كل ارض عربية حسبكم الله، ان اضطهادكم هذا معركة

من معارك الجهاد الاكبر! وسلام على الشهداء الاحياء عند ربهم وعند أمتهم! ".

المجاهدون إما مشردون أو زبالون

في جلسة 29 أيار 1946، بعد مرور سنة تماما على العدوان الفرنسي الوحشي على سوريا، وقف نائب جرابلس محمد الشيخ ابراهيم العويس وقرأ علينا الخطاب التالي :

"إخواني النواب المحترمين إنها شهادة حق في عنقي أؤديها لكم لقوله تعالى (ولا تكتموا الشهادة). وأنا لا أرجو من ورائها سوى راحة الضمير.

عندما وقع الاعتداء الفرنسي على دمشق كان يقود درك جرابلس - وهي بلدة سورية صغيرة على حدود تركيا- ضابط شاب لم أعرف عنه قبلا سوى أنه من اللاذقية، ويدعى محمد عزة القربي، وكان عدد رجاله لا يزيد عن عدد أصابع اليد. فجمع كبار الأهلين في داره وطلب منهم مساعدته للاستيلاء على الثكنة العسكرية الإفرنسية، وكان بها ما ينوف على مائة وخمسين جنديا بكامل سلاحهم وعدتهم. وكانت الثكنة محصنة تحصينا تاما. وقر الرأي على تحضير الرجال والسلاح. فقام الضابط المذكور بتدارك الأسلحة اللازمة وجمعها من عموم انحاء القضاء، وجند بها ما ينوف عن أربعين رجلا ألبسهم الثياب العسكرية التي تداركها مثل ثيابه وثياب جنوده من الأسواق. ولم يمض ليلة وضحاها حتى كان لديه خمسون جنديا كان يدربهم ليلا نهارا. وكان شعارهم ونشيدهم بعد التمرين: لنمت ويحيى الوطن. ولما تم له تدريب هذه الشرذمة وتحضيرها معنويا وعسكريا، وبعد أن ألهب روح الوطنية في قلوب الأهلين بدأ بمناوشة الافرنسيين حتى هاجمهم في عقر دارهم واستخلص منهم سلاحهم وحاربهم به إلى أن هزمهم. ودامت المعركة أكثر من يومين وأتته النجدة من حلب والجوار، واحتلوا الثكنة العسكرية. ورفع الضابط المذكور بيده العلم المفدى عليها تحت وابل الرصاص، وسلمته السلطات التركية الأسرى من الفرنسيين الذين هربوا إلى الأراضي التركية.

فكان فرحنا بهذا الضابط الذي حقق حلمنا لا يعادله سوى فرحنا بهزيمة الفرنسيين وجلائهم عن قضاء جرابلس. فطير الأهلون برقيات التهاني إلى نواب وزعماء اللاذقية يهنئون اللاذقية بولدها البار. وعندما انجلت المعركة وأعيد الأمن إلى نصابه بلغ هذا الضابط قرار إنهاء خدمته من الدرك بموجب القانون 141، وفوجيء بمرض زوجته التي بقيت تحت الرصاص، ووفاة طفلته، وحرمانه من وظيفته ومورد رزقه. فكانت الصدمة قوية لا يتحملها سوى قوي الايمان".

ثم حدثنا هذا النائب عن الجهود المضنية التي بذلها خلال سنة مع وزير الداخلية صبري العسلي لاعادة هذا الضابط الى عمله. دون جدوى وقال: "وكأني بهذا الضابط الذيى ضحى بكل ما يستطيع يتابعه سوء الحظ ويعامل كأنه ساقط من الحقوق المدينة، لا لشيء إلا لأن ضابطا فردا شهد بأنه غير صالح للخدمة بالدرك وكأن عمله المجيد لم يكن شهادة بكفاءته العالية".

أما الحادثة التالية عن مصير أحد المجاهدين فهي حادثة جرت معي شخصيا:

ذكرت فيما مضى شيئا عن الجهود التي بذلناها بعد العدوان الفرنسي مباشرة لتحريض العناصر السورية في الجيش للانفكاك منه والالتحاق بالحكومة السورية، وكان أن استجاب لهذا النداء الوطني، بالاضافة إلى الضباط السوريين، بعض الجنود الجزائريين في حماه وفي القطعات الفرنسية بالمدن السورية الأخرى، ففروا من قطعاتهم والتحقوا بالقوات الوطنية. فكان ذلك بادرة قومية رائعة منهم، مع أنهم كانوا لا يستطيعون الكلام باللغة العربية. وقد ارتسمت في ذهني صورتهم الرائعة عندما قابلتهم في حماه بعد العدوان فشكرتهم وأثنيت عليهم وشجعتهم... وبعد مرور سنة، وبينما أنا أخرج من دار اليقظة في زقاق الصخر بدمشق ذهلت إذ رأيت واحدا منهم بثياب رثة وهيئة بائسة يقوم بتكنيس الشارع. عرفته وعرفني، وفجعت لوضعه الغريب فأخبرني أن الحكومة سرحته هو ورفاقه. فلم يجد أمامه مجالا للحصول على اللقمة إلا أن يعمل كناسا. فهدأت من خاطره ومنحته

مساعدة مالية على قدر الامكان وذهبت الى رئيس الحكومة وعرضت عليه الموضوع طالبا إرجاع هؤلاء الجزائريين إلى الجيش، ومع ذلك بقي هذا الجندي العربي كناسا.

نحن ... وتركيا

لم يدرك العرب إلا متأخرين جدا أن الحركة الصهيونية، بتأييد من الاستعمار الغربي ودعمه، كانت وراء انقلاب الاتحاديين الأتراك ووراء تعصبهم القومي الطوارني وعدائهم للحضارة العربية والاسلام باعتبارهما علة تخلفهم عن ركب الحضارة الغربية، تلك السياسة التي شرع بتنفيذها فيما بعد مصطفى كمال أتاتورك. كما كان إدراك القيادات العربية متأخرا لحقيقة أهداف هذه الدعوة من تقطيع الأواصر التي تجمع الأمة العربية بالعالم الاسلامي ليسهل على الحركة الصهيونية والاستعمار تحقيق أغراضهما العدوانية في البلاد العربية.. وذلك التآمر المستمر الذي تجلى أيضا في سياسة شاه ايراه بدافع من الحقد والتعصب القومي وبتشجيع من الاستعمار الغربي المتحالف مع اسرائيل في تآمرها على الأمة العربية، كما تجلى في سلخ لواء الاسكندرون وإلحاقه بتركيا رغم صك الانتداب الذي يلزم فرنسا بعدم التفريط بأي جزء من أجزاء الوطن السوري ورغم تقرير لجنة التحقيق الدولية الذي دحض الحق التركي في لواء الاسكندرون، وقد تعرضت جريدة اليقظة في شهر أيار 1946 لقضية لواء اسكندرون في مقالين متتاليين :

"لم يكن لسورية في عهد الانتداب البغيض من يرعى مصالحها، ويحمي حقوق أبنائها في الخارج. ولم تكن علاقاتنا في السابق مع الدول الاجنبية مبنية على مبدأ المساواة والمعاملة بالمثل. إذ كان الاجانب يتمتعون في بلادنا بميزات وحقوق كان السوريون في البلاد الاجنبية محرومين منها، أما الآن، وقد أخذت الحكومة السورية على عاتقها حماية حقوق رعاياها والدفاع عن مصالحهم في الخارج، فان ذلك يقضي أن تقوم علاقاتنا بعد الآن مع الدول الاجنبية على مبدأ المعاملة بالمثل غير أننا مع الأسف ما زلنا نشاهد خروجا عن تطبيق هذا المبدأ بعلاقاتنا مع الأتراك فما زالت الحكومة السورية تتمشى على نفس الخطة التي وضعها الفرنسيون لحل مشكلة

أملاك السوريين في تركيا، وأملاك الترك في سورية، والتي أدت إلى تجريد السوريين من أملاكهم على أثر مأساة كليكيا، بينما ظل الأتراك يتمتعون بحق استثمار أملاكهم في سورية حتى الآن. فقد اعتبرت تركيا - بعد أن تخلت فرنسا لها عن كليكيا- أن جميع العقارات العائدة للسوريين في تلك المنطقة أراض محلولة، وادخلتها في أملاكها الخاصة وباعتها إلى الاتراك، دون أن تعترف لاصحابها بحق، وبذلك خسر السوريون املاكهم في تركيا.

فماذا فعل الفرنسيون تجاه هذا التدبير الجائر؟ انهم اصدروا قرارا بتاريخ 20 حزيران 1927 يقضي بمنع الأتراك من بيع عقاراتهم في سورية، أو انتقالها من أجل ديون واقعة قبل التاريخ المذكور، دون أن يمس هذا القرار حق الملك وحق الاستعمال والاستغلال. وكذلك ظلت عقارات الاتراك مسجلة على اسمائهم يستغلونها كيفما شاؤوا وأرادوا دون قيد ولا شرط، بينما خسر السوريون عين عقاراتهم، وغلالها. وهي تعادل اضعاف أضعاف العقارات التي يملكها الاتراك في سورية.

وعلى أثر مطالبة السوريين باملاكهم عقدت بتاريخ 27 تشرين الأول عام 932 اتفاقية انقرة بين فرنسة وتركية وفيها تعهد الطرفان بارجاع الاملاك الى اصحابها، **ولكن هذه الاتفاقية نفذت من جانب سورية ولم تنفذ من جانب الاتراك.** ولم يسترد السوريون أملاكهم بحجة انها انتقلت بطريق البيع الى اياد تركية اكتسبت حقا فيها بمرور الزمن، وبهذا كانت الاتفاقية حبرا على ورق بالنسبة للسوريين.

واثر كارثة الاسكندرونة اتسعت املاك السوريين الخاضعة لنفوذ الاتراك اذ نزح عن ارض اللواء ما يزيد عن الخمسين الفا من ابنائه، حافظوا على جنسيتهم السورية، وتركوا املاكهم في اللواء دون أن يستطيعوا تصفيتها لقصر المدة الممنوحة لهم، لأن المعاهدة الفرنسية التركية المعقودة بتاريخ 23 حزيران 1939 القاضية بتنازل فرنسة عن أراضي اللواء، نصت في المادة الرابعة على منح الاشخاص الذين ينزحون عن اللواء مهلة (18) شهرا لتصفية أملاكهم، على أن لا يحق لهم نقل اثمانها الا عن طريق البنك التركي، وبعد دفع رسوم عنها تستغرق الثلث. كما أن الحكومة التركية لجأت بطرق غير مباشرة لمنع شراء عقارات السوريين الى أن انقضت مهلة الـ (18) شهرا، ثم بادرت الى تطبيق نفس الاسلوب في مصادرة املاك السوريين في كليكيا فاعتبرت العقارات السورية اراضي محلولة لتغيب اصحابها عنها، وادخلتها في

عـداد أمـلاك الدولـة الخاصـة، وباعتهـا لحسـاب خزينتهـا. علـى الـرغم مـن أن معظم اصحاب هذه العقارات اقاموا عنهم وكلاء رسميين لادارة عقاراتهم، فلـم تعتـرف الحكومـة التركيـة بهـذه الوكـالات، ورفضـت جميـع عقـود البيـع والهبـة الواقعة بعد المهلة المذكورة.

أما القرى التي لـم تـتمكن مـن بيعهـا فقـد اسـكنت فيهـا مـن أهـالي الاناضول مثل قرى (جبل موسـى) وغيرها التي نزح عنها سكانها الى سوريا.

فماذا فعلت الحكومة السورية لحفظ حقوق ابنائها في تركيـا؟ انهـا لـم تتعد تطبيق القرار الذي اتخذه الفرنسيون في 20 حزيران 1927 القاضي بمنـع الاتراك من بيع املاكهم الكائنة في سورية. فهل يكفي هذا التدبير وما قيمته؟ ما دام الاتراك يملكون حق اسـتثمار عقاراتهم واسـتغلالها كيفمـا شـاؤوا وأرادوا في الوقت الذي تصـادر فيـه أمـلاك السـوريين، وتبـاع بـابخس الاثمـان دون أن يصيب اصحابها شـيء من ثمنها.

ان واجب الحكومة يقضي عليهـا فـورا بتطبيـق مبـدأ المعاملـة بالمثـل، فتصادر جميع أملاك الاتـراك الموجـودة فـي سـورية وتنـزع يـد اصـحابها عنهـا، وتمنعهم من اسـتغلالها واسـتثمارها، فتؤجرهـا وتصـرف غلتهـا علـى العـائلات المنكوبة من مهاجري اللواء المشـتتين في أنحاء الـبلاد. وهـذا أقـل مـا ينبغـي فعله لأن أملاك الاتراك في سورية لا تعدل بشـيء أملاك السوريين. ومثل هذا التدبير ضروري لان تسـاهل الحكومة السورية في تطبيق مبدأ المعاملة بالمثل على الاتراك والسماح لهم بالتجاوز على حقوق السوريين، بينما هي تحمـي حقوقهم في سورية يؤذي البلاد بحقوقها وكرامتها.

واذا كانـت الحكومـة تعتصـم الآن بالسـكون حيـال قضـية الاسـكندرونة وحـق سـورية فيهـا، وتـدابير الاتـراك فـي اللـواء للقضـاء علـى عروبـة ابنائـه باضطهادهم وزج المئات منهم في السجون لتكلمهم باللغة العربية، فهل مـن مبرر لسكوتها في الدفاع عن حقوق رعاياها الذين حرصوا على جنسـيتها مـع ما كلفهم هذا الحرص من تضحيات!

الا يحق لهم بصفتهم سوريين ان يطـالبوا حكـومتهم بحمايـة حقـوقهم في الخارج كسائر ابناء هذا الوطن". (21 أيار 1946).

والمقال الثاني بعنوان : "قضية اللواء في مجلـس الأمـن الـدولي". وهذا نصه:

"وأخيـرا سـيجتمع ملـوك العـرب، وأمـراؤهم ورؤسـاؤهم فـي الثـامن والعشـرين من هذا الشـهر في مدينة القاهرة. وسـيبحثون بلا ريب قضايا الـبلاد العربية سـيما قضية فلسـطين، ومن المحتمل ألا يبحثوا قضية اللواء التي هـي من أخطر قضايا الشـرق العربي.

فاذا كان الصراع لم يـزل قائمـا فـي فلسـطين بـين العـرب والصـهيونية فالعنصر العربي يلفظ أنفاسه الاخيرة باللواء... وإذا كانت فلسـطين جـزءا هامـا من الوطن السـوري وموقعا خطيرا بالعالم العربي، فهل يقل موقـع اللـواء عنهـا خطرا وأهمية؟؟

ففي الاسـكندرون مفاتيح الشـرق العربـي، وعنـد مضـايق بـيلان وممـر العاصـي شـهد التـاريخ أعظـم المعـارك الحاسـمة الكبـرى! **فليسـت قضـية اللواء قضية الوطن السوري بل هي قضـية الشـرق العربـي تاريخيـا وطبيعيا.**

قال "دزرائيلـي" أن مصـير العـالم سـيقرره يومـا مـا مرفـأ الاسـكندرونة الذي تشـير عليه قبرص بأصبعها". ومـن المؤسـف العجيـب ان يشـعر الشـعب العربي شعورا عميقا بهذه الحقائق ولا يشعر بها بعض السياسيين. فـلا يـرى السيد نوري السعيد بأسـا أن يتوجـه لتركيـة متجـاهلا مصـلحة قومـه وبـلاده، **فالاسكندرونة ليست منفذا لسورية الشمالية فحسب بل هي مرفـأ طبيعي للعراق،** اذ ورد بدائرة المعارف البريطانية:

"إن خليج الاسكندرونة مرفأ العراق الطبيعي". والا دهـى مـن ذلـك ان تكون هذه السياسـة بالتشـاور مـع الحكومـة السـورية، للاعتـراف باسـتقلالنا وتبـادل التمثيـل السياسـي معنـا. ولكـن عبثـا يحـاولون - منـذ الماضـي- ان يطمسوا آثار هذه المأساة، فالجراح تزداد عمقا وستبقى هـذه البقعـة الغاليـة شـهقات حرى للانسـال والاجيال العربية ومبعث الضغائن ومثار الاحقاد.

وما على تركية الا أن تصلح ما افسدته وان تختار بـين صـداقة الشـرق العربي وبين اللواء الذي اصبح بضعة مهملة من الوطن التركي بعد اجتزائه من محيطه الطبيعي. وعلى هذا الموقف يضمن مسـتقبلها المتـأرجح بـين كفتـي الاقدار الدوليـة... ومـن الغبـاء وقصـر النظـر ان تسـتهين تركيـة بقـوى الشـرق العربي الكامنة.

واذا ما اصرت واستكبرت فيصبح من البديهي عرض قضية اللواء على مجلس الامن الوارث الشرعي لعصبة الامم، كما يفرض الواجب ان تستيقظ الحكومة السورية من غفلتها لانها بحكم الواقع اكثر ادراكا ووعيا لهذه القضية من حكومات الشعب العربي الأخرى. سيما وأن ميثاق منظمة الامم المتحدة لا يمنع عرض هذه القضية التي ستبقى مصدر الاخطار الدائمة في الشرق.. كما أن المادة السابعة بعد المائة من الميثاق لا تنطبق عليها لانها ليست من نتائج هذه الحرب.

فالباب امامنا مفتوح، وجميع تطورات هذه القضية الماضية تؤيد حقنا الصارخ. فمنذ ما وضع صك الانتداب منع على الدولة المنتدبة "بمادته الرابعة" حق التنازل عن أي جزء من الاراضي السورية. ولكن فرنسة رمت باتفاقية انقرة عام 1921 ان تهيء الاسباب لادعاء الاتراك بمطالب جديدة في اللواء.

وقد قدمت تركية فعلا - اثر معاهدة عام 1936 الى عصبة الامم- بزعم حفظ سلامة السكان الاتراك- مطالبها مع تأييد تصريحاتها السابقة بانه ليس لها أي مطمع سياسي ببسط سيادتها على اللواء.

وبتاريخ 19 كانون عام 1936 قرر مجلس العصبة ايفاد لجنة تحقيق دولية برئاسة "المستر براين" الانكليزي للاطلاع على أماني سكان اللواء. وبعد التحقيق **رفعت اللجنة تقريرها إلى مجلس العصبة تدحض فيه جميع مزاعم الاتراك.** وبالرغم من ذلك قرر مجلس العصبة وضع قانون اللواء الاساسي من قبل خمسة خبراء الذي قضى باستقلال اللواء اداريا مع اتحاده بسورية بجميع شؤونه الاخرى كما أعطى تركية حق استعمال مرفأ الاسكندرونة.

وفي شهر آذار عام 1938 قامت لجنة مؤلفة من أربعين عضوا باجراء تسجيل عام لناخبي الدرجة الأولى تطبيقا لاحكام المادة التاسعة من القانون الاساسي. فنال العرب برغم اعمال الارهاب والتزوير التي ارتكبتها فرنسة معدل 85 بالمائة من مجموع الاصوات. فاوقفوا التسجيل بعد هذه الهزيمة المنكرة ورفعت اللجنة الدولية تقريرها الى عصبة الامم تشرح فيه جميع ما قامت به فرنسة بالاتفاق مع تركية من أعمال التعسف والارهاب.

وبتاريخ 23 حزيران سنة 1939 تعاقدت فرنسة مع تركية بمعاهدة تحالف وصداقة قضت بضم اللواء نهائيا إلى تركية دون **موافقة عصبة الامم**

وبدون اعتراف الشعب السوري الذي قرر بلسان مجلسه النيابي عدم الاعتراف باغتصاب اللواء من قبل الحكومة التركية.

هذه هي مراحل قضية اللواء وتطوراتها دون تعليق على ما رافقها من فظائع ومآس ارتكبتها فرنسة بالاشتراك مع تركية. وجميع هذه المراحل تؤيد حقنا السليب الواضح الصريح باللواء الشهيد اذا تضافرت الجهود العربية وتبنى القضية مجلس جامعة الدول العربية. والا فستتحمل الحكومة السورية - النصيب الاوفى- تجاه الاجيال- من تبعات الاهمال، سيما وقد سنحت الفرصة واصبح الاقدام واجبا ومضمون العواقب". (26 أيار 1946).

مشكلة الخبراء الأجانب:

دأب الاستعمار البريطاني على ايهامنا بعد الجلاء، بأن الحل السحري للمشكلات التي نعانيها هو استخدام الخبراء الأجانب. وكان رئيس الحكومة سعدالله الجابري اكثر المقتنعين بذلك، فأوقفت الحكومة بحث جميع مشاريع القوانين في المجلس النيابي ريثما يتم التعاقد مع الخبراء الأجانب لدراستها كقانون البلديات وقانون التقسيمات الادارية والقوانين المالية... الخ.

وكنا نشعر بأن هذه القضية هي قضية حق أراد بها الانكليز باطلا، لأن حاجتنا للخبراء الأجانب أمر مسلم به. ولكن الانكليز كانوا يأملون من ذلك بث عناصر مخابراتهم في كل أجهزة الدولة ليضمنوا هيمنتهم على جميع شؤون البلاد. وقد عالجت "اليقظة" هذا الموضوع بشكل صريح وباستمرار في الزاوية المخصصة لرجال الفكر والشباب الواعي. وقد جاء في تعليق باليقظة نشر في 9 حزيران 1946:

"ما زلنا نسمع بين الحين والحين أخبار اتفاقات تعقدها الحكومة مع خبراء اجانب لدراسة شتى النواحي الادارية والاقتصادية والعلمية في بلادنا وقيام هؤلاء برحلات وزيارات ودراسات متنوعة لم تظهر نتائجها بعد. فهل في هذه السياسة المتبعة خير كبير للبلاد؟

من واجب الصحافة الحرة في البلاد الحرة ان لا تتقيد بالمجاملات وأن تقول الحق للشعب وللحكومة دون مواربة في سبيل المصلحة العليا التي هي فوق كل شيء وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن سياسة الاكثار من الخبراء

الاجانب والاعتماد عليهم في التنظيم والاصلاح هي سياسة خاطئة مضرة ستعود على البلاد باوخم العواقب وذلك لاسباب كثيرة :

أولا- ان تعيين الخبير الاجنبي لدليل واضح واعتراف فاضح بعجز المواطنين عن العمل في سبيل التقدم والاصلاح والنهوض بهذه البلاد من كبوتها وهذا بعينه ما كانت تقول به الدول الاستعمارية، أجل هذه هي النغمة التي عزف عليها الاعداء وما زالوا وهذا ما كنا نأباه عليهم ونردده في وجههم قائلين: ان في البلاد شبابا قادرين على حمل العبء والسير به في مضمار الرقي، ورجالا نابغين لا يقلون قدرة وكفاءة عن كبار رجال سائر الدول، وكنا نرد عليهم بان حجتهم كاذبة وحيلة استعمارية مفضوحة، فهل انقلبت الأمور الآن واصبحنا نعترف بالعجز اعترافا فنستدعي العدد الوافر من الخبراء الاجانب - والله يعلم مدى خبرتهم- لتسيير الامور ووضع النظم والقوانين الحديثة واصلاح الجهاز الحكومي؟

نحن ما زلنا على اعتقادنا الاول ان في البلاد شبابا قادرين وعبقريات مطموسة أخنى عليها استعمار الاجنبي، ففتشوا عن هؤلاء الشباب وافسحوا لهم المجال للعمل ولا تقيدوهم بقيودكم وباهوائكم السياسية ولا تخافوا منهم على مراكزكم، بل اعملوا جميعا للوطن وأنا ضامن بأنهم سيسدون الفراغ الذي تملأونه الآن بالخبراء الاجانب. واذا كانت العبقريات تنقصنا في بعض الفروع فلنفتش عنها أولا في البلاد العربية الشقيقة.

ثانيا- ان الخبراء الاجانب يكلفون الدولة نفقات باهظة في بلاد صغيرة فقيرة كبلادنا، لا سيما وقد كثر عدد هؤلاء الخبراء كثرة لا موجب لها. وخير لنا ألف مرة أن نؤسس المدارس وننشيء الجيل القادر على السير بهذه البلاد نحو الرقي في هذا العصر الذري، وان نرسل البعثات العلمية للدراسة في شتى العلوم والفنون بدلا من ان نقوم بدفع الرواتب الضخمة واجور التنقلات الكبيرة الى هؤلاء الخبراء مما سيؤثر على الميزانية، ان عاجلا وان آجلا.

ثالثا- وهو اعظم ما نخشاه، ان يكون بعض هؤلاء الخبراء غير مخلصين في عملهم اتوا الى هذه البلاد لغايات سياسية او استعمارية وهم يجدون أمامهم، بحجة الدراسة والاصلاح، المجال فسيحا للاطلاع على اسرار الدول ونوايا القادة ورجال الحكم في السياسة والدفاع والادارة والاقتصاد فينقلون الى دولهم أو إلى الدول التي يعملون لها جميع ما هي بحاجة اليه او يصبغون

دوائرنا بلون خاص، وفي هـذا مـن الخطـر الكبيـر مـالا حاجـة لنـا بالتنويـه عنـه والتفصيل فيه...

واكبر انواع هذا الخطر هو أن نحشـد جيشـا مـن الخبـراء ينتمـون إلـى دولة واحدة. **فاذا اضطررنا إلى الخبراء اضطررا ولم نجـدهم فـي الـبلاد العربية الشـقيقة، فلنأخـذهم مـن دول مختلفـة، بعيـدة عـن الغايـات الاستعمارية، او بالاحرى بعيدة عن التفتـيش عـن منـاطق نفـوذ فـي بلادنا،** وليكن هؤلاء الخبراء من الـدول الصـغيرة البعيـدة - كـدول شـمال أوربـة الاسكندينافية- التي لا تتطاحن على مناطق النفوذ بغية استعمال هذا النفوذ بصورة عملية في تطاحن عالمي مقبل.

فيا أيها المسؤولون عن مقدرات هذه الامة على رسلكم فهوة الخبـراء الاجانب ان تم انزلاقكم نحوها، هي هوة سحيقة المدى بعيـدة القـرار لا تقـل شيئا عن السير بهذه الامة نحو استعمار جديد."

الضغط الاستعماري البريطاني على سوريا:

إن من عاش الحقبة التي تلت الجلاء مباشرة يدرك مدى ما تعرضت له سوريا من ضـغط اسـتعماري بريطـاني كـان سـببا فـي معظم ما عانته من مشاكل ومصاعب وما منيت به من هزائم فيما بعد بالنسبة للقضية الفلسطينية. ولذلك لم يخـل عـدد مـن أعـداد اليقظة إلا وفيه فضح لنوايا بريطانيا الاستعمارية في بلادنا وكشـف لمحاولاتها الرامية لفـرض سـيطرتها ونفوذهـا، تـارة باسـم الـدعوة لمشروع سورية الكبرى" وتارة باسم الخبراء. وقد عاد إلـى سـوريا بعد الجلاء عدد من ضباط المخابرات البريطـانيين الـذين كـانوا فيهـا إبان الحرب. فالجنرال (فراير) الذي جلا مع الجـيش البريطـاني بعـد العـدوان رجـع الينـا بـدعوى فـتح مكتـب تجـاري لـه فـي دمشـق، وسترد خلال هذه المذكرات قصص عديدة عن أمثال الجنرال فرايـر، وقد عالجت اليقظة ذلك في افتتاحيتها بتاريخ 46/6/28 :

يذكر القراء اننا كنا الصحيفة الوحيدة التي كشفت عن "أسـرار مـا بعـد الجلاء" وبينت انه لا تزال هناك مرحلـة "اخيـرة" هـي مرحلـة التصـفية، وهـي مرحلة لم تنته حتى الآن ولا ينتظر لها أن تنتهي قبل أن تتم "التصـفية" التـي أشار إليها البلاغ البريطاني الصـادر مسـاء السـبت الماضـي حـول الجـلاء عـن

لبنان. ولعل القاريء يذكر ايضا أن دخول الضباط البريطانيين الى سوريا كان مقيدا بشرطين: الاول أن يكونوا بثياب مدنية، والثاني أن يحملوا جوازات من نوع خاص يبلغون الحكومة عنها في حينها.

ومن المستغرب ان لا تكون حكومتنا قد تلقت حتى الآن اكثر من ثمانية أو تسعة إبلاغات عن جوازات من هذا النوع، بحيث يكاد المرء يظن أن البريطانيين يقومون حقيقية بما سموه "مرحلة التصفية" وانهم موجودون فقط في لبنان أو فلسطين أو المملكة الأردنية الهاشمية المستقلة!! لولا أنه يراهم يملأون الشوارع ويجرحون اسماع الناس بلكنتهم في الطريق...

وشيء آخر ما يزال يقوم به هؤلاء البريطانيون، كأن الحرب لم تنته بعد وكأن يوم 17 نيسان لم يكن ولم يحتفل به أحد! فما يزال الاشوريون الذين لجأوا الى سوريا فاضفيت عليهم جنسيتنا التي اصبحت حلالا لكل الناس، والذين تطوعوا في الجيوش البريطانية المقيمة في العراق يدخلون سورية- إلى الجزيرة حيث يقيمون- في سيارات عسكرية بريطانية، دون أن يحملوا جوازا أو يحصلوا على سمة باجتياز الحدود، كما كانوا يفعلون أيام الحرب، حين كانت سورية ارضا مشاعا مباحة لجيوش الارض.

وهكذا بينما يتحدث المسؤولون هنا عن "هيبة الحكم" ويسلكون لبلوغها وسائل عهد الاقطاع، نتساءل نحن هنا، في كثير من الالم، عن هيبة الدولة وهيبة الامة، كيف تضيعان نتيجة لاهمال من بيدهم الجيش لحماية حدودنا بالجيش.

وأخيرا، نحب أن نسمع من الحكومة جوابا صريحا عن موقفها من هذا الاستخذاء الذي طال أمده".

وفي 92 حزيران 1946 كتبت "اليقظة" :

"جاء في الزميلة (بردى) أن المفوضية البريطانية في دمشق أبلغت وزارة الخارجية السورية أنها عينت المستر هارولد شاد فورت نائب قنصل لها في دير الزور... والذي نعلمه، استنادا إلى كل كتب القانون الدولي أن انشاء القنصليات وتعيين القناصل يستند قبل كل شيء إلى موافقة الدولة التي تنشأ في أراضيها هذه القنصليات. وللبريطانيين في دمشق وحلب قنصليتان تكفيان وزيادة لحماية مصالح رعاياهم في بلادنا. ونحن نعلم أيضا أن الحكومة ترفض رفضا باتا انشاء القنصليات في المدن الصغرى وأنها رفضت مرتين

السماح بانشاء قنصلية بريطانية في اللاذقية وفي دير الزور، أما في هذه المرة الثالثة فقد عمدت المفوضية البريطانية إلى مجرد الاخبار بالأمر دون أي استشارة أو موافقة. كأننا ما نزال في العهد البائد".

الجيش الجيش .. مرة أخرى :

في 17 حزيران 1946 استقال نبيه العظمة من وزارة الدفاع الوطني فأسندت وزارته إلى أحمد الشراباتي وعين الأمير عادل أرسلان وزيرا للمعارف مكانه... وبهذه المناسبة عدت لاثارة المطالبة بإصلاح الجيش، فكتبت مقالا في "اليقظة" بتاريخ 22 حزيران هذا نصه :

تقدم وزير الدفاع باستقالته اخيرا، بعد مرور عام على استلام الجيش السوري، وعلى تعهد جميع الوزارات -التي تعاقبت- على اصلاحه وتسليحه وتنظيمه! ورغم ذلك فقد ظل حتى الآن بلا قانون ولا ملاك ولا اصلاح ولا سلاح ولا نعلم الى متى يدوم هذا الاهمال؟

يضم الجيش السوري - بوضعه الحالي - نخبة من أنجب الشباب كفاءة واخلاقا، ومستواه بصورة عامة ارفع من مستوى مصالح الدولة الأخرى. أما ما يثار حوله من الدعاوات فهي مغرضة في أغلب الاحيان. وهي لا تمس شرف الجيش كأفراد واشخاص، وانما تمس باستمرارها شرف سورية العسكري. وتقاس دوما قوة الشعوب وفتوتها باحترام جيشها. ونحن نعتقد أن الجيش السوري يصبح جديرا بكرامة هذه الامة وشرفها بعد تنظيمه واصلاحه واجراء بعض التشذيب فيه بعد التفتيش والتدقيق. اما اصلاحه من الوجهة التشريعية والعملية فيبدأ بوضع قانون بانشائه وملاكه وتطبيق الخدمة الاجبارية الضرورية بالنسبة لوضع الامة والجيش معا. وقد الحفنا بتطبيقها منذ استلامه، ولكن عبثا حاولنا اقناع الحكومات الا مؤخرا حيث وعدنا بتقديم مشروع قانون مع تأجيل تنفيذه، اما دواعي هذا التأجيل فعلمها عند المسؤولين فقط!

ولا تمثل الجيوش عادة مستوى بلادها الروحي والثقافي والاخلاقي الا عندما تطبق الخدمة الاجبارية. ونحن بحاجة اساسية الى تنشئة شبابنا على التربية العسكرية. **فلو كنا بغنى عن الجيش لاوجبتنا الضرورات الاجتماعية والقومية على انشائه، فهو الذي يصهر هيئاتنا**

الاجتماعيــة المتعــددة بهيــأة واحــدة، فيقضــي علــى العصــبيات والعنعنات، ويشيع روح الطاعة والنظام ويبعث بالامـة قوتهـا وفتوتهـا من جديد. فيرتفع مستوى الجيش الروحي والاخلاقي والثقافي الـى مستوى الأمة، كما يرتفع قدما مسـتوى الأمـة الـى مسـتوى الجـيش، حتـى نتمكن بالمستقبل من حماية بلادنا خارجيـا، أو أن نهيـئ لأولادنـا السـبل لان يموتوا شهداء أو ابطالا علـى اقـل تقـدير. ولا تـزال قيمـة الجيـوش عنـد الامـم منوطة الى حد بعيد على ايمانها ومعنويتها. وقد ضـربت الامـم الصـغيرة علـى ذلك في هـذه الحـرب اعظـم الامثـال. ولا نعتقـد أن الصـعوبات المزعومـة فـي تأخير تطبيق الخدمة الاجبارية الا تبرير للاهمال أو من قبل الأوهام، لان العراق الشقيق قد طبقهـا منـذ عشـرين عامـا وهـو دوننـا فـي مسـتواه الاجتمـاعي والثقافي.

ولا نـذيع سـرا اذا كـان الجـيش السـوري بحاجـة قصـوى خطيـرة الـى تزويـده بالاسـلحة والاعتـدة الجديـدة، ولمعامـل الـذخيرة والتصـليح. فـلا يـزال سلاحه فرنسيا قديما غير كاف ولا واف لا في انواعـه ولا أعـداده ولا مقـاديره. فيجب تلافي هذا النقص الخطير... والاستغناء عن سـلاحه ان لـم يكـن دفعـة واحـدة فبالتـدريج، حتـى يصـبح سـلاح الجـيش جديـدا بنوعـه **وموحـدا مـع اسلحة الجيوش العربية الأخرى.**

ولا يخفى شديد حاجتنا لسلاح الطيران، وكل مـن يعقـل يقـدر خطـورة هذا السلاح في حفظ الامن الداخلي، فبضع طائرات تقوم مثلا باعمال لا تقوم بها الفرق العديدة في بعض المعاقل والمعاصي.

ومن المستغرب ان تهمل الحكومة حتى الان تسليح الجـيش وتطبيـق الخدمــة الالزاميــة، ويقتصــر اهتمامهــا علــى القشــور ومظــاهر اللبــاس والاسـتعراض، ونحـن فـي أدق الحـالات وأحـرج الظـروف التـي يتـأرجح فيهـا مسـتقبلنا، ولسـنا مقتنعـين بالمصـاعب التـي تـدعيها، فبامكانهـا ان تـولي وجهها شطر الدول الأخرى دون تـردد ولا وجـل، فـنحن لا يعوزنـا اللبـاس وانمـا يعوزنا السلاح، ولنا بالجيش التركـي الحـديث باطمـاره واثمالـه اسـوة حسـنة ودرس بليغ! ولا بد لإصـلاح الجـيش مـن اعـادة تشـكيل الشـرطة والـدرك مـن جديد، ونظمها بفرقة واحدة باسـم "الشـرطة" كمـا هـو فـي العـراق والبلـدان الاخرى تخضع لكل ما يخضع له الجيش. ويتخرج ضباطها من المدرسـة الحربية مع تلقي بعض المعلومات المدنية بعد انتهاء التحصيل العسكري.

فاذا ما قمنا بهذه الاصلاحات جميعها رفعنا مستوى امتنا القومي روحيا واجتماعيا وعسكريا. واننا لنعتقد باستحالة استمرار هذا الوضع السياسي ان لم نسلك هذا الطريق. واننا نخشى ان يستمر الاصلاح باقتصاره على اصطناع المظاهر والاهتمام بالنفوذ الشخصي بادخال العناصر المتهرئة، فتسدد انفذ طعنة لصميم قضية البلاد ومستقبلها!

واننا لنضع منذ الآن ما سينتاب البلاد على عاتق المسؤولين اذا لم يبادروا باصلاح الجيش العاجل بحزم وعزم واقدام.

سياسة الاتحاد السوفيتي العربية في عام 1946.

عين الاتحاد السوفيتي -بعد اعترافه باستقلال سورية- السيد سولود أول وزير مفوض له في دمشق، وقد بدأ سولود نشاطا واسعا في أوساط الأقليات العنصرية والدينية، مما أعطى صورة ذكرت البلاد بالأساليب التي كانت تستعملها الدول الاستعمارية في الماضي، ولذلك تعرضت العلاقة مع السوفييت في تلك الحقبة للصعود والهبوط في نظر السوريين والعرب عامة، ولكن هذه العلاقة سجلت ظفرا كبيرا بعد عرض الشكوى السورية على مجلس الأمن، وموقف الاتحاد السوفيتي من قضية جلاء الجيوش الفرنسية والبريطانية عن سورية ولبنان بدون قيد ولا شرط، وهكذا بدأ الناس يفتحون عيونهم وآذانهم وقلوبهم، بعد أن كان الاتحاد السوفيتي عالما مجهولا غريبا بالنسبة إليهم، ولكن انتصار الدعاية السوفيتية لم يدم طويلا، فقد صدم الرأي العام العربي من موقف السوفيت من القضية الفلسطينية في عامي 1947 و 1948.

وقد رأيت انه من المفيد أن اثبت هنا ما كتبته بتاريخ 27 حزيران 1946 متعرضا "للموقف السوفيتي من قضايانا" وذلك قبل أن تصل العلاقة الى أوج أزمتها، عندما أيد الاتحاد السوفيتي قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة.

"من الطبيعي ان تتناقض السياستان السوفيتية والانكلو اميريكية في الشرق تناقضا كليا لاختلاف الأهداف والمصالح والغايات وقد اتاحت ظروف الحرب للدعاوة الروسية ان تقوم بحرية بمجهود عظيم بالاقطار العربية تركت بعض الآثار الهامة. ولا يفتأ الشرق العربي موضع الاهتمام العظيم لانه أضحى أحد الميادين الرئيسية الحساسة بالعالم الذي يتصارع فيه النفوذان الانكلو اميريكي والسوفييتي وجها لوجه.

استهدفت السياسة السوفيتية بواسطة دعاوتها الواسعة اقامة نقاط ارتكاز لنفوذها من الاقليات الدينية والعنصرية حتى تتوصل الى نفس النتائج التي وصلت اليها بايران، فتضرب النفوذ والمصالح البريطانية بالصميم في الظروف الملائمة. وعلى هذا الأساس حاولت انشاء علاقات خاصة -باسم

الارثوذكسية- فلم تنجح تجاه التيار القومي الجارف، كما سهلت لهذه الغاية سبيل الهجرة الارمنية. ولا تزال تغري بالجمهورية الاقليات الكردية. ولا تزال تركية والعراق وايران مهددة بالانتفاضات المفاجئة في كل آن.

وقد اتخذت من القضية الفلسطينية وسيلة دعاوة خصبة بين الاوساط العربية واليهودية والعالمية على السواء، بانتهاج سياسة التوفيق بين العرب واليهود على طلب الاستقلال دون التعرض لقضية الوطن القومي. وهذا نفس ما تدعو اليه الصهيونية من جهة أخرى. وهي من اطلى والبق الدعاوات باكتساب العطف وتحقيق الغرض، وما قصد الصهيونية من هذه الدعوة الا ذر الرماد في العيون لتحقيق الخطوة الأولى من برنامجها وهو جعل فلسطين وطنا قوميا. ولا يأتي دور العمل على تحقيق الاستقلال قبل تحقيق الخطوة الأولى، وهذا ما تدركه بريطانية تمام الادراك.

ومن المحزن ان تضيع المصلحة العربية في هذه القضية الحيوية فتتوزع السياسة الانكلو اميركية والسوفيتية الرأي العربي فيبدأ الخلاف بين الاحزاب في فلسطين -بين عرض القضية على منظمة الامم المتحدة أو عدمه- وينتهي بقرار مؤتمر الجامعة العربية ببلودان الذي قبل مبدئيا فكرة العرض عند الاقتضاء. ولا يعني روسية من هذا الامر- في انسب ظرف يمر على اليهود في العالم- الا جعل هذه القضية وسيلة تفضح الاجرام البريطاني دون النظر إلى عقبى الاخفاق الذي يستهدف المصلحة العربية وحدها بالصميم.

أما ما يفسر مقاومة روسية لكل تكتل عربي كالجامعة العربية ومشروع سورية الكبرى او تكتل شرقي فلانها تعتبر هذه التكتلات من الوسائل البريطانية لمقاومة سياستها ونفوذها، عدا انه يؤلف سدا يحول في المستقبل دون تحقيق اغراضها ومراميها.

وتتوزع بريطانيا وروسية الرأي العربي تجاه هذه التكتلات، أما المصلحة العربية فهي مستقلة عنهما استقلالا تاما، فلا تستهدف مقاومة الوحدة السورية الكبرى جملة وتفصيلا وانما تستهدف مقاومة استطالة الاستعمار البريطاني باسمها وتحت ستارها. كما أن من المصلحة العربية تأييد جامعة الدول العربية على ضعفها كخطوة أولى في سبيل تحقيق الوحدة المنشودة.

وكـان مـن البـديهي ان يسـتغل العـرب هـذا التنـاقض والتنـاحر بـين السياسة السـوفياتية والانكلـو اميريكيـة، الـى أبعـد حـدود الاسـتغلال، ولكـن المصلحة العربية مع الاسف كانت موضع استغلال واستثمار السياستين.

أول صيحة لاستخدام سلاح النفط في المعركة المصيرية :

شـدد اليهود حملاتهم الارهابية في فلسطين خلال شـهري حزيـران وتمـوز 1946، وممـا شـجعهم علـى التمـادي فيهـا بيـان أنشاص وقرارات جامعة الدول العربيـة الهازلـة. ممـا جعـل الـرئيس الأميركي ترومان يصرح في 2 تموز إثر مقابلتـه فـي البيـت الأبـيض لأربعة أعضاء مـن الوكالـة اليهوديـة عـن اسـتعداده لاطـلاق سـراح أعضاء الوكالة اليهوديـة المعتقلـين وتـأمين نقـل مائـة ألـف يهـودي وتغطية نفقات هجرتهم إلى فلسطين.

هذا بالوقت الذي كانت فيه الهجرة غير القانونية أكبر حجمـا بكثير مما سمح به قرار الهجرة، سواء عن طريق البر أو البحر تحت سمع وبصر الانتداب البريطاني في فلسطين.

إن المؤتمرات العربية واجتماعات مجلس الجامعة غير الجادة جعلت بريطانيا تعلن صراحة تراجعها عن الكتاب الأبيض. وكان لا بد تجاه هـذا الخطـر الماثـل، وتهـاون الحكومـات العربيـة فـي معالجـة القضية الفلسطينية، من لفت نظر الرأي العام العربي إلى السلاح الماضي الذي يمكن أن تشهره الأمة العربية فـي وجـه المـؤامرات الصـهيونية الانكلـو أميركيـة علـى القضـية الفلسـطينية، فانطلقـت لأول مرة في تاريخ المنطقة هذه الصيحة الداعية لاستعمال سلاح البترول العربي".

وقد ترك مقالي هذا، الذي نشر بتاريخ 5 تموز 1946، صـدى بعيدا ليس على مستوى سوريا فحسـب بـل تـرددت أصـداؤه فـي العـالم العربـي، واعتبرتـه الاوسـاط القوميـة مـن أجـرأ وأشـجع المعالجات الجادة لإنقاذ فلسطين، أما المسؤولون السـوريون فلـم يكتموا خوفهم وذعرهم. وهذا نص المقال :

"ما من عربي يشك أن من أولى وظائف الحكومات العربيـة الاساسـية - سواء في الجزيرة خاصة أم بالشرق العربي عامة - القيـام بتـأمين الخـدمات

الجوهرية للمصالح البريطانية والاميركية على حساب المصالح العربية، فهي تهب البترول العربي... وتقوم بحماية الانابيب على طول الصحارى المترامية ودفع تكاليفها وتشترك في حفظ خطوط المواصلات الامبراطورية وتفتح أبواب الشرق للاستثمار الاقتصادي. اما ما تقدمه بريطانية واميركا للامة العربية لقاء هذه الخدمات الجوهرية العظيمة على حساب مصالحها الحيوية فهو ابادة العنصر العربي في فلسطين. واعاقة النهضة العربية وتقدمها بشتى الاساليب السرية والعلنية السلمية والعنيفة فاصبح من البديهي أن يطرح على بساط البحث هذا السؤال: ماذا يخسر العرب اذا اعلنوه جهادا مقدسا على بريطانيا واميركا في حال حماية الصهيونية واخفاق المفاوضات السياسية القائمة في البلاد العربية طالما أن الأوضاع السياسية القائمة في البلاد العربية مسخرة لتأمين المصالح الانكلو اميركية؟

لا يخسر العرب - اذا خسروا - من هذا الجهاد الا صنائع بريطانية السياسيين في البلاد العربية. وهذا اكبر انتصار للقضية العربية، ولا نعني بهذا الجهاد الانتصار الحربي، فبريطانيا واميركة تمتلك جميع وسائل الغلبة العسكرية.

ومع ذلك سيتبين لبريطانيا واميركا من الذي سيكسب بالنهاية برغم ما يملكونه من القنابل الذرية.

إن الامر قد خرج عن نطاق الصبر وعن نطاق العمل السياسي بعد ما ادلى به (اتلي وترومان) من البيانات التي تعد بحقيقتها اهانة لصميم المقررات والمقررين في انشاص وبلودان. إن الجهاد المقدس بشتى ميادينه الحربية والاقتصادية والسياسية هو السبيل الوحيد لتوحيد العرب سياسيا وتطهيرهم وتزيكتهم روحيا. وفي هذا ما يوازي جميع ما سيخسره العرب بالأموال والانفس.

وإن القرارات السرية التي هدد بها الامين العام لا تعني شيئا أن لم تعن هذا الجهاد المقدس".

ثم عالجت بتاريخ 25 تموز 1946 النعرة الاقليمية بمقال عنوانه "محور دمشق - حلب" هذا نصه :

"بينما تجري اعمال التزيين والتجميل في محافظة، يقضي الناس بالملاريا والدوسنطاريا في محافظة اخرى! وبينما تفتح المدارس والمعاهد

بسخاء في منطقة راقية، يحرم من نعمة التعليم ابناء المناطق الاخرى!! وبينما ينحصر الاهتمام بنوافل الامور تهمل مشاريع ارواء وتجفيف المستنقعات! وبينما تنسى وتهمل كليا الارياف الزراعية مصدر الثروة الاقتصادية تصبح المدن محط انظار المهاجرين من الفلاحين والمزارعين! مع أن منشأ جميع أزمات المدينة هو تأخر الريف السوري، ولا ازدهار للمدينة الا بازدهاره. والسبب في ذلك فقدان الخطة لمشاريع الدولة فهي التائهة في خضم النزعات والاهواء الشخصية!! فسار جهاز الدولة باتجاه يخالف صالح الامة العام!!

اعطى الاحتلال الفرنسي -بعض الاقاليم- شكلا سياسيا في اللاذقية وجبل العرب ومحافظة حلب. وقد ألغيب دولة حلب ولكن ظل التنافس البلدي قائما بين دمشق وحلب!!

وتغلغلت الروح الاقليمية حتى في الاوساط الشعبية والسبب في استمرار هذا الوضع، ان الوزير الدمشقي - كما كان في عهد الاحتلال الفرنسي - يحصر اهتمامه بامور دمشق الثانوية ويهمل امورها الجوهرية باعتبارها عضوا في البلاد السورية! وما يعنيه حسب تصوره وتفكيره من مشاريع الفرات أو حوران التي تؤثر باقتصاديات دمشق طالما أنه مشغول بدعاوته الانتخابية بالبيئة الدمشقية؟ وماذا يعني الوزير الحلبي من مشاكل اللاذقية وهو مشغول بالسياسية الحلبية: كتعيين محافظ أو مدير شرطة أو رئيس بلدية يضمن نجاح سياسته الشخصية؟

إن السياسة البلدية ما تزال تلعب دورها ضد مصلحة الدولة، ولا تزال هذه الاوضاع تلهي الاوساط الشعبية عن قضاياها الجوهرية. والبرهان ان صحفيا طالب جهارا كردة فعل باستقلال المحافظات المالي والاداري! دون أن يقدر خطورة ونتائج ما يدعو إليه! فاعتبر هذا الاستقلال علاجا شافيا لهذا الوضع الشاذ الذي عاينه عن كثب، مع ان الاتجاه الطبيعي كان يقضي عليه، أن يهاجم المسؤولين عنه لا أن يدعو لهذا الاستقلال المالي الذي ينكب البلاد ويمنع عليها القيام بأي مشروع حيوي هام!! فهل تتمكن اللاذقية من انشاء المرفأ ومد الخطوط الحديدية هل تتمكن اية محافظة من القيام بمشروع كمشروع ري حمص وحماة او مشروع الفرات في حال استقلالها المالي؟ مع أن مشاريع من هذا النوع تعود فائدتها على البلاد عامة. لأن البلاد وحدة طبيعية واقتصادية واجتماعية وروحية لا يمكن فصلها وانفصامها.

فقد اضطر الفرنسيون برغم تطبيقهم سياسة التجزئة الاستعمارية ان يجعلوا من المفوضية العليا دولة مشتركة للحكومات المصطنعة التي اقاموها بما فيها لبنان الشقيق.

والذي يهمنا ان نقرره ان استمرار الحكم القائم بالسير على سياسة الاهواء الشخصية والبلدية يطعن دمشق وحلب خاصة كما يطعن الامة عامة، ولا يمكن ان يقبل بهذه السياسة كل من ينظر الى بواطن الامور ويشعر شعورا سليما ويؤمن ان صالح المحافظات وحدة لا تتجزأ.

عندئذ يمكن ان تدرس جميع مشاريع البلاد عامة فيقدم الاهم منها على المهم بالنسبة للمصلحة الاقتصادية والاجتماعية والروحية بقطع النظر عن المؤثرات العائلية والاقليمية والطائفية. فالوطن بلد واحد وكائن حي يداوي المسؤولون مواطن الضعف والمرض فيه. وعندئذ تزول آلام الوطن العامة. وسيظل سير الجهاز الحكومي محتذيا سياسة الاحتلال الفرنسية ما لم تتحقق هذه الخطوة".

التنمية وبناء القوة العسكرية

كان هذا شعار "اليقظة" الذي يقوم على انقلاب شامل في أوضاعنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتخلفة.

لقد تحررت سوريا من الاحتلال الفرنسي وهي مهدمة منهوكة القوى. ويكفي دليلا على ذلك التذكير بأن موازنة الدولة في عام 1943 وهو من أعوام الحرب والازدهار الاقتصادي في سورية، وتدفق ما صرفه الحلفاء على جيوشهم لم تتجاوز التسعة وأربعين مليون ليرة سورية، مع التضخم وضعف القيمة الشرائية للعملة السورية، كما أن عدد سكان البلاد لم يكن يزيد كثيرا عن المليونين ونصف حتى عام 1947..

وفيما يلي ما كتبته في 1946/6/6 عن الاوضاع الاقتصادية في محافظة حماه، وهو صورة مجتزأة من وضع البلاد العام :

"ذهب البعض في حل أزمة حماة الاقتصادية والاجتماعية بطلب توسيع صلاحيات جباية الرسوم واقامة المكتبات وبناء المنشآت أو نقل بعض الدوائر من مدينة لأخرى! وجميع هذه الامور ثانوية لا تقدم حلا للأزمة الاساسية،

وهـي لا تـدل الا علـى اهمـال اولـى الامـر لقضـايا المدينـة حتـى فـي الامـور المشـروعة الثانوية.

ونحـن نعتقـد أن المشـاكل المحليـة فـي المنـاطق السـورية تتصـل جذورها بالمشكلة العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مهمـا تعددت المظاهر بالنسبة للموقع الطبيعي او بالنسبة لدرجة الرقي او لمؤثرات سياسـية اخرى الا أن البلاد تخضع جميعها لدورة طبيعية اجتماعية واقتصـادية وسياسـية وروحية واحدة.

ولذلك يتوقف حل المشاكل المحلية الـى حـد بعيـد علـى حـل المشاكل السورية العامة من الأساس.

وبالرغم من شكنا في قدرة وكفـاءة القـائمين علـى الامـر فـان هـذا البحـث لا يخلو من فائدة التمهيد واطلاع القادرين على حلها في المستقبل .

مرت حماه كما مر غيرها من المدن السورية في العهد العثمـاني علـى حكـم اقطاعي قضى على عوامل الازدهار والنور وخلف آثارا بالغـة عميقـة اقتصـادية واجتماعية وروحية.

ومنذ الاحتلال الفرنسـي اخـذ الوضـع الاقطـاعي كمـا كـان فـي العهـد العثماني يوطد بقاءه بالتأييد السياسـي للحكم الفرنسـي. **ولكـن السياسـة الفرنسية استمرت في عهد الحكم الـوطني**! ولا تـزال سـلطة الحكومـة تستخدم وتستثمر داخل المدينة وخارجها فترتكب الاساءات رغم قيام المدينة بما يشبه الثورة في احـرج الظـروف تطالـب الحكومـة بالحيـاد. **ولا تـزال فـي ثورة نفسية ونقمة روحية مكبوتة.** ويحاول عبثا بعـض "الزعـانف" اخفاءهـا بالمظاهر الكاذبة والدعاوى الزائفـة! حتـى ليخـرج المـرء بالنتيجـة القائلـة: **ان الحكم القائم في هذه البلاد لا يعني الا اسـتخدام الشـعب السـوري لقضاء مصالح بعض الاسر الاقطاعية**.

وعلى سياسة الحكومة أو حيـاد سـلطتها مـن تطـور الشـعب فكريا واجتماعيا يتوقف التطور الاقتصادي الى حد بعيد..

ان ثروة حمـاة الاقتصـادية تتكـون مـن كميـات الحبـوب المتنوعـة التـي يمتلك معظمها بضعة اسر من كد عشـرات ألـوف الفلاحـين الـذين يسـتثمرون الاراضـي البعليـة بالوسـائل الزراعيـة القديمـة. ولا عمـل لهـذه الفئـة المالكـة

سوى النوم الطويل حتى يحل موسم الحصاد. ولم تتشكل في المدينة بعد طبقة تجارية كبيرة لان السياسة الفرنسية عزلت المدينة وقطعت كل اتصالاتها، ومن هذه التدابير الحاق قضاء مصياف بمنطقة العلويين وعزل هذه المنطقة عنها فكريا واقتصاديا. ويشكل شركاء البدو - باستثمار منتوجات الاغنام - القسم الاعظم من السكان، ولا بد للازمة ان تجتاحهم عاما بعد عام بكارثة تقضي بهلاك مئات الالوف من الرؤوس التي تودي بثروة تقدر بمئات الالوف من الليرات العثمانية هذه هي حقيقة وضع حماة الاقتصادي والاجتماعي الذي ورثته عن العهدين العثماني والفرنسي. اما طريق الحل فيقضي:

أولا: ان تنهج الحكومة في سياستها الحياد تجاه تطور المدينة الاجتماعي والروحي وان تمنع نفوذها من ان يستثمر في ارتكابات لا تقع نظائرها الا في القرون الوسطى!!

ثانيا: توطيد الامن في المدينة والملحقات والبادية حتى يسمح لافراد الشعب ان يستثمروا بالزراعة والاعمار اراضي املاك الدولة.

ثالثا: فتح كلية زراعية راقية -علاوة على مدرسة السلمية الزراعية- يقتطع متخرجوها أراضي املاك الدولة ويزودون بالآلات والاموال! فيتوجه شباب المدينة للمشاريع المنتجة.

رابعا: اتمام مشروع ري حمص - حماة والعمل على تجفيف مستنقع الغاب الذي وضع الفرنسيون تصميمه والذي يدر على الأمة الملايين ويعيل مئات الالوف من السكان. كما ينقذ حياة الالوف من وباء الملاريا في كل عام! كما انه وسيلة لتحضير القبائل البدوية.

خامسا: تلافي كوارث هلاك الاغنام عاما بعد عام، وفي مشروع الحكومة الزراعي الذي لم تقره لجنة الموازنة ما يشير الى بعض هذه التدابير.

سادسا: ربط حماة بالساحل بخط حديدي بعد انشاء مرفأ اللاذقية الذي يعتبر المنفذ الطبيعي- بعد فصل اللواء- لسورية الشمالية والشرقية!

وقصارى القول: أن ما تطلبه حماة من حياد السلطة في مرحلة تطورها تتطلبه جميع المحافظات السورية، وما يتمثل من المظالم فيها يشكو منه ابناء العلويين وجبل الاكراد والجزيرة والفرات وحوران، وما تحتاج إليه من

تعميم الري والآلة والغرس وشبكة المواصلات تحتاج إليه جميع المناطق مع التفاوت العظيم في درجات المصيبة. ولا أخال مدينة مهملة مظلومة عن عمد في العهدين الوطني والفرنسي كمدينة حماة.

مخبر صحفي .. ولكن بطريقة خاصة :

أتاحت لي عطلة المجلس النيابي في صيف 1946 أن انصرف كليا للعمل بجريدة اليقظة، فكنت أزور الوزراء في مكاتبهم، ولكنني لم أكن أنشر وقائع تلك الزيارات دون تذييلها بتعليق أو مناقشة وفيما يلي هذان النموذجان :

في 5 تموز 1946 كتبت عن زيارة قمت بها لوزير الدفاع الجديد أحمد الشراباتي ما يلي :

"قال الوزير عن نتائج رحلته إلى مصر انها استهدفت الصفقة التي عقدتها الحكومة السورية على مخلفات الجيش الأميركي بمبلغ ثمانمائة ألف دولار، وأنه اعتزم تنزيل ثمن هذه المخلفات إلى ما يقرب الخمسين بالمائة. ولأجل تحقيق هذا التنزيل احتجزت الحكومة مبلغ 150 ألف ليرة سورية لم تدفعها للأميركيين من ثمن هذه المخلفات. وقد اطلع معالي الوزير على تقرير هام قدمه إليه الرئيس صلاح البزرة الذي يبين فيه الأدوات والأوائل غير الصالحة لاستعمال الجيش السوري. وقد قال الوزير فيما يتعلق بموضوع الصفقات: أن مثل هذه الصفات تجريها الوزارة على مسؤوليتها مباشرة حسبما هو منصوص في القانون الذي أصدره المجلس النيابي في العام الماضي. وليس من صلاحية الرئيس البزره ولا غيره عقد مثل هذه الصفقات، وأن وزارة الدفاع عازمة على اصدار بلاغ حول ما نشرته بعض الصحف عن سوء الاستعمال المزعوم في شراء المخلفات الأميركية للجيش السوري.

ثم قال إنه جرى اتفاق بين الحكومة السورية والحكومة البريطانية على شراء جميع المنشآت الانكليزية في سوريا بما يقارب الثلاثة ملايين ليرة سورية وان عقد الشراء هذا هو قيد التوقيع.

وسئل عن قانون الجيش والخدمة الاجبارية وماذا حل بهما فقال إنه سينهي دراستهما الأخيرة في القريب العاجل. وسيتقدم بقانون الجيش الأساسي وقانون الخدمة العسكرية الاجبارية الى المجلس النيابي في دورته المقبلة لإقرارهما.

(تعليق اليقظة): كانت فرنسا قد امتنعت عن تسليم بعض الأسلحة المهمة لا سيما الثقيلة منها. ومن الطبيعي ان يبحث أمر تسليم هذه الأسلحة مع عدة أمور هامة لها خطورتها طالما أن العلاقات السياسية في طريق العودة إلى طبيعتها بين البلدين، ولا بد من تسوية هذه الأمور تسوية صحيحة عامة. والذي يبدو أن انكلترة مترددة بتزويدنا بالسلاح الضروري. فأصبح لا مناص من التعاقد مع الدول الأخرى لتأمين هذا السلاح.

وقد تطرق البحث مع وزير الدفاع إلى قضية الطيران فقال:

إن الوزارة اعتزمت فتح مدرسة الطيران التي خصصت لها الموازنة حوالي مليون ليرة سورية، والوزارة تباشر الآن عقد شراء عشرين طائرة لتدريب الطيارين السوريين في هذه المدرسة التي سيكون مقرها المزة. وكذلك فقد شرع الأهلون من جهتهم بالعمل والسعي والمساهمة في هذا المشروع، فقدموا طلبا بإنشاء جمعية أهلية لمساعدة الطيران السوري. وستتألف فروع لهذه الجمعية في جميع أنحاء البلاد السورية.

(تعليق اليقظة): كان التجار والأثرياء في سوريا قد تبرعوا فيما مضى أي في زمن الحرب، بشراء 18 طائرة قدمت هدية للجيش البريطاني من جملة مساهمات سوريا في النصر، والآن تمتحن أهلية ووطنية وأخلاق التجار والأثرياء في هذه البلاد بمساعدة الطيران السوري الحديث الذي هو بحاجة ماسة الى التشجيع. فلا قيمة للجيش بدون طيران حربي، ولا يجب أن يخفى أن أهمية هذا السلاح بالنسبة لحياة البلاد تفوق كل شيء. لذلك فإننا ننتظر من تجار البلاد والمستثمرين فيها أن يظهروا غيرتهم ووطنيتهم في مثل هذه المشاريع القومية الحيوية. وقد كان النائب الحاج وهبي الحريري أول من تبرع بثمن طائرة، ونرجو أن نرى هذه الطائرة تحلق في سماء سوريا قريبا... وبهذه المناسبة نحب أن نذكر الحكومة والسلطات البريطانية أن وعدا قد قطع لسوريا عندما تبرعت أثناء الحرب بالطائرات التي قدمت للجيش البريطاني بإعادة هذه الطائرات التي حملت بعضها اسم دمشق وبعضها الآخر اسم حلب إلى سوريا لتكون نواة للطيران السوري. وها أن الحرب قد انتهت ولا ندري ماذا حل بهذه الطائرات. ولا ندري أي عار سيلحق الأثرياء وهؤلاء التجار الذين تبرعوا للطيران البريطاني في حال بخلهم بالتبرع للطيران السوري".

هذا نموذج ...

وفي 8 تموز 1946 زرت وزير الاشغال ميخائيل اليان، بصفتي مخبرا للجريدة، وأجريت معه حوارا حول مشـروع جـر ميـاه الشـرب إلـى حلـب، ومشـروع مرفـأ اللاذقيـة وسـألته عـن مشـروع الغـاب أجاب:

- ليس لدي معلومات عن هذا المشروع.

فنشرت جواب الوزير في اليقظـة فـي اليـوم الثـاني وعلقـت عليه بما يلي:

"الـذي نعلمـه بالتأكيـد أن الفرنسـيين قـد وضـعوا تصـميم هـذا المشـروع لأن جمعية الأمم كانت قد قررت إسكان الآشوريين والأرمن في الغاب بعد تجفيفـه وريه. وفعلا بدأوا بتنفيذ التصميم. ولكـنهم توقفـوا عـن إتمامـه بعـد أن أسـكنوا الآشوريين في منطقة الجزيرة علـى ضـفاف الخـابور. وهـذا المشـروع الكامـل الدراسة والتصاميم يعتبر من أعظم مشـاريع الـري فـي سـوريا عـدا أنـه ينقـذ مئات ألوف السكان من وباء الملاريا. ومنطقة الغاب من أخصب منـاطق العـالم وهي تكفي لاعاشة ما يقارب نصـف مليـون مـن السـكان فـي حـال تجفيفهـا واستثمارها. وربما كانت مواردها في بضع سنين تربو على مصـاريف تجفيفهـا وريها. لأنها قابلة لجميع أنواع المزوعات، وهي تصلح بحكم موقعهـا فـي قلـب البلاد السـورية وقربهـا لمقـام القبائـل البدويـة لأن تكـون وسـيلة مـن وسـائل تحضيرهم. كما أنها متصلة بجبال العلويين حيث تكثر اليد العاملة وتزداد كثافـة السكان.

وقد وعد وزير الأشـغالي أن يهـتم بالبحـث عـن تصـميم هـذا المشـروع الـذي سلمه الفرنسيون للحكومة السورية. ولا نعلم هل هـو موجـود أم مفقـود فـي مصـلحة الـري. ونأمـل أن تتـولى الحكومـة بنفسـها تنفيـذ هـذا المشـروع. أو بواسطة الشركات الوطنية بعد دراسة الموضوع دراسة كافية.
وسئل معاليه عن مشروع مرفأ اللاذقية وربطه بخط حديدي لمناطق الداخليـة فقال: إن دراسة هذا المشروع لم تتم بعد.

وقد رآني ميخائيل الياس بعد ايـام مـن نشـر هـذا "الخبـر" ، ففاجأني، قبل السـلام، قائلا بصوت مرتفع:

- معك حق.

- بأي شيء ؟

قال: إن مشروع الغاب مشروع عظيم، فقد ذهبت مع صبري العسلي إلى مصيف صلنفة للمرة الأولى. وقد شاهدنا من قمة جبل العلويين المطلة مباشرة على سهل الغاب منظرا رائعا جدا لم أشاهد له مثيلا. مما اقنعني بضرورة تنفيذ هذا المشروع الذي هو بحق من أهم المشاريع الانمائية.

قلت له: من حسن الحظ أنك شاهدته بنفسك وعلينا الآن أن نقنع خالد العظم بزيارة صلنفة ليرى ما رأيت.

فأدرك ما قصدت، لأنه كان حاضرا في المجلس عندما طالبت بتجفيف سهل الغاب فقال خالد العظم إن تجفيفه يحرم الخزينة من رسوم صيد سمك السلور.

وقد زادتني هذه الحادثة يقينا بأن معرفة الوطن تعمق الارتباط به وتزيد من محبته. لقد كان المتخرجون من المدارس الأجنبية، وحتى من المدارس الرسمية الحكومية يعرفون عن جغرافية فرنسا وتاريخها أكثر ما يعرفون عن بلدهم وتاريخه وشؤونه وقد كانت التجزئة التي أقامها الفرنسيون عائقا يحول دون تواصل المواطنين وارتباطهم الوثيق ببلدهم ومعرفتهم بشؤون بعضهم البعض وتعاطفهم المستمر.

مصر تناضل لتحقيق تحررها - افتتاحية اليقظة تنادي منذ عام 1946 بتحديد ملكية الأرض في مصر وتوزيعها توزيعا عادلا.

ذكرت كيف أن جلاء القوات الأجنبية عن سوريا كان له صدى عميق على الحركات العربية التحررية الأخرى وخصوصا مصر، ومنذ أن احتفلت سوريا بعيد الجلاء في 17 نيسان 1946 كانت الصحف لا تخلو يوميا تقريبا من أنباء المظاهرات الشعبية في مصر وبيانات الأحزاب المصرية وأخبار مفاوضات اسماعيل صدقي رئيس الوزراء مع الوفد البريطاني وكلها تدور حول جلاء القوات البريطانية عن مصر وربما كانت عناوين الأخبار التالية كافية لإعطاء صورة عن تطور هذه القضية:

- النحاس باشا رئيس حزب الوفد يتهم صدقي باشا بالتواطؤ مع بريطانيا بقضية الجلاء: 9 مايس 1946.
- بريطانيا تطلب من الشعب المصري 450 مليون جنيه ثمنا لجلاء يتم خلال خمس سنوات : 17 مايس.
- موقف بريطانيا إما تحالف عسكري أبدي مع مصر لحماية القناة وإما استمرار معاهدة 1936 لعشر سنوات 30 حزيران.
- حزب الوفد: اقطعوا المفاوضات وألغو المعاهدة وتقدموا لمجلس الأمن:2 تموز.
- تعقد المفاوضات يهدد وزارة صدقي بالسقوط: 5 تموز.

كما كانت الصحف تنشر الأنباء عن الاصطدامات الدامية التي كانت تحدث بين أبناء الشعب وبين قوات الاحتلال البريطاني، وأنباء الاصطدامات بين جماعة الأخوان المسلمين وجماعة حزب الوفد. وقد كنت متتبعا باهتمام شديد ما يجري في مصر، حيث تتكرر فيها الفصول التي جرت في سوريا قبل الجلاء. ولذلك كتبت في 14 تموز 1946 المقال التالي في جريدة اليقظة، مبينا فيه أن أزمة مصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا يمكن أن تحل إلا على أساس عربي:

"ليس بغريب أن نعالج الأزمة المصرية بعد أن عالجتها الصحف الاجنبية. فما أحرى المؤمنين بالوحدة العربية ان يهتموا بها ويعالجوها.

اذيعت مؤخرا انباء قمع الحركة الشيوعية بصورة تلفت النظر وتدعو للتأمل! وسواء أكانت هذه الانباء مبالغا فيها أو كانت صحيحة فالنتيجة تؤدي الى ان الشيوعية وجدت في البلاد المصرية تربة صالحة!

وسواء أكان قمع الشيوعية بمصر حلقة من سلسلة التدابير البريطانية، قامت به الحكومة المصرية على مسؤوليتها بحماسة ورغبة، سيما وهي مؤلفة من كبار الاقطاعيين والرأسماليين، أو أنه تهويل قصد به اقناع الشعب المصري باستفحال الخطر الشيوعي، لقبول نتائج مفاوضات الجلاء، سيما وقد رافق قمع الشيوعية اضطهاد الاحزاب المصرية الأخرى.

فان الذي نرمي إلى تقريره هو أنه لا يمكن مكافحة الشيوعية، مهما بلغت المناعة القومية، ما لم تتحقق العدالة الاجتماعية والاقتصادية. وليس في المجتمع المصري أي اثر لهذه العدالة! لان عشرات الالوف من المواطنين يملكون جميع الأراضي المصرية، اما الثمانية عشر مليونا من السكان الآخرين فهم يعيشون على هامش الحياة! ولا يزال الشعب حافيا يفتك به المرض والجوع، وهو مع ذلك يتكاثر بنسبة عالية ومما زاد في استعصاء حل الازمة ان كثافة السكان بازدياد مستمر حتى لتزيد عن كثافة الشعب البلجيكي، ولا أمل بتوسيع الأراضي القابلة للري والاستثمار لانها محدودة ومهما بلغت طرائق التحسين الزراعي والصناعي لا يمكن أن يزيد الانتاج زيادة ترفع من مستوى المعيشة ارتفاعا معقولا.

فما هو السبيل اذا لحل الازمة المستعصية؟

ان تحديد حق الملكية وتوزيع الاراضي توزيعا عادلا هو الحل البديهي والاولى الذي يحقق العدالة ويحول دون انتشار الحركات المتطرفة. وقد نعى مجلس النواب المصري على أحد اعضائه صاحب هذا الاقتراح دعوته للشيوعية فقبر هذا المشروع في مهده.

ولا بد أن يرافق توزيع الاراضي نهضة صناعية وتحسين لطرق الاستثمار الزراعي حتى يرتفع مستوى المعيشة. والا فستظل النتائج محدودة الفائدة.

ولا يليق بالشعب المصري أن يتضور جوعا ويقضي مرضا وهي حال لا تبشر بالتقدم، بل تنذر بالتقهقر وحتى لو تمكنت سلطة الحكم بحال ضعف الشعب ان تقضي موقتا على كل حركة متطرفة، ولكن اليأس ينمو ويكمن ولا يلبث ان ينفجر كالبركان في ظروف غير منتظرة، برغم التدين والمناعة القومية وحركة القمع التي قام بها اسماعيل صدقي باشا. كما لا يمكن أن يصدق اغبى الناس ان يتمكن من مكافحة الجهل والمرض وسببها الفقر، والبلاد تقوم على اساس هذا الوضع الاقتصادي. ولا نظن الاساليب التي يعنيها الباشا تعدو أساليب مكافحة الحفاء الماضية وذلك باهداء الفقراء الوف النعال التي اهترأت بعد شهور فعادوا للحفاء من جديد...

وعلى كل حال فإن الحل النهائي للأزمة المصرية في المستقبل هو أن تفكر الجامعة العربية منذ الآن بانشاء مشاريع الري الكبرى للمهاجرين

المصريين الذين ضاقت وستضيق بهم بلادهم مهما ازدهرت الاساليب الزراعية والصناعية. ومن المؤسف حقا أن تحلم الصهيونية بهذه المشاريع في الشرق العربي، بينما لا تزال الجامعة العربية مترددة حتى باقرار وحدة الجنسية والغاء الجوازات السفرية وهي الخطوة الأولى في هذا السبيل. واذا تعممت مشاريع الري في الهلال الخصيب فانها تكفي وحدها لاعاشة الملايين من ابناء الشعب العربي. وهذه المشاريع يجب الا تبقى خيالات وأوهاما بل يجب أن تفكر بها الجامعة تفكيرا جديا اذا كانت تضمر للشعب العربي خيرا وتؤمن حقا بوحدة الامة العربية التي يجب أن توثق أواصر عراها الاقتصادية والاجتماعية أيضا".

تعطيل صدور "اليقظة" :

كانت الرقابة الشعبية معدومة على ارتكابات الجهاز الحكومي في عهد الانتداب. وما أن تحقق الجلاء حتى هب الشعب ليمسك بزمام أموره ويراقب الأجهزة الحكومية الموروثة بتكوينها وتركيباتها من عهد الانتداب، فيفضح مفاسدها وانحرافاتها، ويكشف بشكل خاص عن السرقات والاختلاسات.

وكنت أرى هذه الظاهرة أمرا طبيعيا، فلم يعد من هموم للصحافة والرأي العام إلا الحديث عن فضائح الاختلاسات التي تفجرت بشكل مذهل.. وفيما يلي بعض الأمثلة من عناوين الصحف :

- التحقيق باختلاسات محاسب وزارة الداخلية يدل على أنها مستمرة منذ عام 1941.
- اختلاسات أموال ضريبة الدخل.
- فقد كثير من الأوراق والوصولات في التحقيق باختلاسات المالية.
- وزير المالية يصرخ: الاختلاس بلغ 260 ألف ليرة.
- حقائق وغرائب عن التلاعب باختلاسات مصلحة السكر... الخ.

وكانت الحكومة تصدر البلاغ تلو البلاغ بتكذيب ما تنشره الصحف، أو بمنعها من نشر أنباء الاختلاسات التي يفجر بعضها

بعضا، بحجة سلامة التحقيق مع المتهمين، كما لم يعد للوزراء من شاغل إلا نشر التصريحات حول الاختلاسات. بينما كان الكتاب "يبدعون" بابتكار المقالات الطريفة من وحي الاختلاسات حتى بلغ الأمر إلى نشر مقال عن الاختلاسات في الموسيقى العربية... الخ.

أما "اليقظة" فقد ظلت رصينة تجاه هذا الموضوع، متجنبة التسرع بالاتهام ونشرالفضائح، إلى أن وصلني في مطلع شهر تموز تقرير طويل جدا مذيل بتوقيع صريح باسم وجيه الانطاكي، حول الاختلاسات والمفاسد والرشاوي والارتكابات التي تجري في سلك الدرك السوري، ويسرد التقرير الوقائع والأرقام، ويؤكد مرسله أنه مستعد لتحمل مسؤولياته فيما إذا أدى نشر التقرير إلى الإحالة للقضاء. ثم زارني شخصيا وأكد لي أقواله. فنشرت في 16 تموز بعض ما ورد في التقرير لعل الحكومة تقوم بواجبها بالتحقيق. لكن وزارة الداخلية بدلا من إجراء التحقيق، سارعت لتكذيب تلك الوقائع، فاضطررت لأن أنشر ردا على بلاغ وزارة الداخلية قلت فيه: "نسأل وزير الداخلية: لماذا لم تحرك ساكنا ولم تحقق في أشياء ذكرت بكتاب مضمون أرسل إلى وزير الداخلية نفسه تحت رقم 517 تاريخ 1946/5/7، وهو يتضمن أشياء ووقائع مخجلة تجري في دوائر الدرك وتفوق أضعاف أضعاف ما نشر في عددنا أمس الأول. خاصة وقد أظهر مرسل الكتاب (و. أ) استعداده لإثبات جميع ما ذكره في الكتاب بأدلة تحريرية احتفظ بها وبشهادات الشهود. فلماذا لم تحقق الوزارة بكل هذه الوقائع؟ ألأن من تعرضت لهم الاتهامات يتمتعون بمراكز كبيرة في الدرك؟" 1946/7/19.

وكتبت في اليوم ذاته الافتتاحية التالية التي أزعجت نظام القوتلي كثيرا ومما أدى إلى تعطيلها عن الصدور مدة شهر.

"جو جديد يغمر البلاد وروح جديدة تبعث الأمة، فما هذا الجو وما هذه الروح؟ لقد اصبح من الممكن ان يجابه السارق بانه سارق، والمتزعم بأنه دجال، والمحترف السياسي بأنه محتال. نعم هذا هو الجو الجديد جو التحرر. وهو أكبر مؤيد للمبادئ الاخلاقية والسياسية العامة.

فالناس مغتبطون. فمن هم المتضايقون؟ إنهم الطافون كالاوساخ على سطح الحياة، الطفيليون الذين شربوا دماء الأمة هازئين بالآمها راقصين بمآتم احزانها. كان الشعب يعيش متناقضا مع عقائده وسلوكه، فسارت عجلات الاقدار عكسيا في هذه البلاد. أما الان فبدأت تسير سيرا صحيحا. كان الانسان النزيه مضطهدا والعبقري مهملا والشرير متحكما والخائن سياسيا بل قائدا، لان سلطة الاجنبي من طبيعتها ان ترفع الوضيع وتخمل الرفيع فتواري الطيبون والمخلصون ليسلموا بشرفهم واعراضهم. أما المتفانون فقد قضوا واستشهدوا. وأما جمهور الشعب فقد حاول الاجنبي ترويضه على التزلف والخضوع للاقويا الحاكمين حتى كاد يستذل ويستخذي، وكاد يقتنع ان من واجبه احترامهم مهما أجرموا. بعد أن كموا فمه عن الجهر بابسط ما يشعر به. بل كاد يعتقد أن جميع ما فرض عليه هو واجب التقديس والاحترام. أما في هذا الجو -جو التحرر- فاصبح قادرا على اعلان ما يشعر به وان يجاهر بما يضمره كما اصبح قادرا على الا يصدق ما "يفبرك" له من الاضاليل ويصنع له من الاحابيل.

إن الجهر بالحقيقة لا يزعزع الثقة ولا يهدد كيان الدولة. بل يخلق الثقة الصحيحة وينشيء الدولة الصالحة. اما استمرار السكوت والتستر بالظلام فلا يعني الا استمرار وضع الاحتلال، اي جو الخيانة والرشوى والزيف. ان وضوح الحرية كفيل بتقويض عروش الجهل والعجز والخيانة، لترتفع مكانها مواهب وعبقرية وابداع هذه الامة. تلك العبقرية التي سحقت وكبتت.

فاعلن ارادتك ايها الشعب وعبر عن آلامك واجهر برأيك، وليرتفع صوتك فان رفع صوت الحق هو من طبيعة الحرية بل من أسمى معانيها الجوهرية التي رويتها بالدموع وغذيتها بالآلام والدماء، انها بشير الثقة الحقيقية لا الثقة المزيفة المصطنعة التي يستجدونها منك، ويحتالون بها عليك.

كان الموظف يسرق ويرتشي - في عهد الاحتلال- وهذا مقياس نبوغه وعبقريته فيستر شريكه الاجنبي افتضاح امره. ويخون السياسي والصحفي والزعيم ولا يجرؤ انسان على فضح خيانته، فقد كان الاجنبي قادرا أن يتهم بالخيانة من يجهر بالحقيقة حتى في أوساط الشعب الذي اضلوه حتى كاد يضيع المقاييس الصادقة فيستعيض بما يفرض عليه من المقاييس المزيفة الخاطئة.

أما الآن فمن واجبنا أن ندعو للجهر بالحقيقة - كما هو واجبنا دائما- ولكن الفرق بين الحالين: أن الشعب اصبح حرا يعرف ما نعرفه ويعلم ما نعلمه. أما فيما مضى فقد منع عنه الاجنبي وسائل المعرفة والاهتداء الى الحقيقة.

هل يصدق ان العلم اصبح احتكارا وتدجيلا؟ وأن الجامعة السورية هي اكبر معهد علمي تصبح مستقرا وممرا.. لأعفن العقول؟ وملجأ لأظلم عقليات القرون الوسطى؟ هل يصدق ان تسرق وتنهب محافظة دمشق على مرأى ومسمع من نصف مليون نسمة من ابناء العاصمة، فلنقدر بعد هذا ماذا يجري في المحافظات السورية الاخرى.

اما الآن. فمن الجنون أن يظن أي انسان انه قادر على كم الافواه! لأن حراب الاجنبي اصبحت بأيدي المواطنين، وستسدد لقلب كل من يحاول ان يفرض على الامة دوام عقلية الاحتلال. نعم لقد استدام النهب بالاعاشة ما ينوف على الثلاثة اعوام، حتى استأثرت الشركة الخماسية بمالية البلاد هي وحفنة من المحتكرين. كما ظل الجهاز الحكومي الفرنسي قائما حتى الآن. ولكن لا يمكن ان يستمر هذا الوضع اكثر من هذا ... فالاجنبي الذي كان يحتل البلاد قد رحل عنها إلى غير ما رجعة..

ان من يحمي الخائن فهو أخون منه، ومن يحمي السارق فهو اسرق منه. فالشريف الشريف من يبرئ ذمته من حماية اللصوص والخائنين والعاجزين. وسوف لا تسمح الامة بتضليل الشركاء المائعين الذين يتذرعون بالفاظ اللباقة واللياقة لستر اجرام المجرمين. لان الامة ستضع النقاط على الحروف وتسمي الامور بمسمياتها. وستعد هذه اللباقة واللياقة الكاذبة خيانة مستترة.

نحن لا نسكن اشمئزاز ونفور الامة من هذا الشر المقيم وسنذكي هذا الشعور لنجتث شأفة الشر والقبح، وليزدهر شعور الجمال والخير.

نظام القوتلي وجريدة البعث :

في أوائل شهر تموز 1946 صدرت جريدة البعث بعد الصعوبات التي تحدثت عنها سابقا، وكان من اطراف التعليقات التي كتبت بهذا المناسبة، في العدد الأول من اليقظة بعد عودتها الى الصدور في أول أيلول ما كتبه نزيه الحكيم في زاوية "بالعربي

الفصيح، وكان بعثيا وصهرا لمشيل عفلق (زوج أختـه)، وفيمـا يلـي نصه:

"تساءل الناس وكثر تساؤلهم عن الدوافع الخفية التـي أخـرت تعطيـل الزميلة (البعث) بالرغم من خطة المعارضة الممعنـة فـي العنـف الملحـة فـي النقد الذي تناول الأمر جملة وتفصيلا.

وقد قيل إن (البعث) ولـدت معطلـة كمـا تولـد بعـض الصـحف ميتـة لمـا عـرف عـن المسـؤولين مـن (رحابـة) الصـدر ولمـا عـرف عـن مـنهج الصـحيفة وأمثالها من تصميم على نقد الأوضاع الملتوية. لقـد تسـاءل النـاس عـن ذلـك وحق لهم أن يتساءلوا. فالأمر لم يكن طبيعيا. ولكن متـى عـرف السـبب بطـل العجب. ونحن هنا نروي ما اتصل بنا عن اسباب هذا التأخير كما نقله لنـا أحـد الرواة ممن عرفوا بسعة الخيال وحسـن التقدير.

قال الراوي:

خرجـت صـحيفة (البعـث) إلـى النـاس فـي جـو كـان ولا يـزال سـيف التعطيل الاداري مصلتا على الرؤوس. فكانت الصـحف المعارضـة تعطـل مثنـى وثلاث. وتناقلت أيدي المسؤولين هذه الصـحيفة وقرئـت مـنهم بإمعـان شـديد فلم يجدوا فيها ما يحرج ويثير وما يدفع للتعطيل.

وسار الأمر كذلك زهاء أسبوعين، وعدت (البعث) معتدلة رزينة في نظر المسؤولين. حتى قيض الله لأحد المسؤولين أن يحمل له أحد الـذين يتقربـون زلفـى ترجمـة وافيـة شـاملة لاحـدى افتتاحيـات (البعـث) فـي اللغـة السـهلة الدارجـة. فـانكر ذلـك المسـؤول أن يكـون هـذا الكـلام هـو الـذي قصـد فـي الافتتاحية التي تراءت معتدلة هادئة رزينة. وعندئذ صـح الـرأي عنـد ولاة الأمـر أن يشـكلوا لجنة تضم الخبراء في اللغة والفلسـفة والسياسـة ومـا إلـى ذلـك من علوم تمس موضوعات الافتتاحيات، وذلك لترجمـة كـل مـا يشـتبه بـه مـن مقالات (البعث) وتعليقاتها وأخبارها.

وأنت تعلم أعمال اللجان واجتماعات اللجان واختلاف وجهات النظر بين أعضائها، فقد ظلت لجنة اللائحة الداخلية في مؤتمر الصلح أسابيع عدة حتى اتفـق الـرأي بـين أعضـائها علـى طريقـة التصـويت. أتكـون بأغلبيـة الثلثـين أو الأغلبية العادية. لذلك سلخت لجنة ترجمة البعـث شـهرا كـاملا حتـى اتفقـت على الترجمة الحرفية باللغة الدارجة لما اشتبه فيه وما لم يشتبه.

ولما استوت هـذه النصـوص الجديـدة المفهومـة بـين أيـدي ولاة الحـل والعقد، ثارت الدهشة وكانت مفاجأة غريبة لهم. وما هو يوم وبعض يـوم حتـى اكتملت مراسم مرسوم التعطيل. وعندئذ كف الناس عن تساؤلهم، لأن الأمور سارت في مجراها الطبيعي. وهل أكثر انسجاما وتمشيا مـع الطبيعـة مـن أن تعطل كل صحيفة توجه النقد الخفيف والعنيـف لرجـال الادارة والسياسـة فـي ظل نظام ديمقراطي كفل حرية الراي والقول والعمل؟

وعملا بأصالة الراي والحـزم فقـد جعلـت لجنـة ترجمـة البعـث دائميـة، على أن تترجم الافتتاحيات خلال يوم واحد حتـى لا يكثـر تسـاؤل النـاس عـن تأخير التعطيل، ويتهم ولاة الأمور بالإهمال وقلة الحزم والعزم".

كان التعطيل إكراما للسياسة البريطانية:

في اليوم الثاني لتعطيل اليقظة نشر وزيـر الداخليـة صـبري العسـلي بيانا وزعه على الصحف جاء فيه:

"حينما أعلنت الحكومة في المجلس النيابي أنها لاجئة إلى اجابة الرغبة الظاهرة بفتح باب حرية الصحافة على مصراعيه كانت ترى أنها تعمل الواجب الذي تمليه عليها طبيعة النظام الدسـتوري والحكم الديمقراطي. وقد أعطيت فعلا امتيـازات عديـدة الـى كثيـر من الأساتذة.

إلا أنني لاحظـت أن كثيـرا مـن هـذه الصـحف الحديثـة منهـا والقديمة أخذت بالطعن والهجـوم علـى كثيـر مـن مـوظفي الدولـة كبيرهم وصغيرهم دون **تمييز بين أصـحاب السـلك السياسـي مـنهم وبـين الـدركي أو الشـرطي أو الجـاني"** ثـم يسـتطرد فيذكر السبب الحقيقـي لتعطيـل اليقظـة قـائلا: "لـم يقتصـر الأمـر علـى معالجـة الشـؤون الداخليـة بهـذا الاسـلوب غيـر الموفـق بـل تعـداه الـى التـدخل بسياسـة الحكومـات العربيـة الشـقيقة، أو بعلاقتنـا بهـا، **أو إلـى الهجـوم علـى كبريـات الـدول الاجنبيـة التي اعترفت باستقلالنا** وعاونتنا في أيام محنتنا، والطعـن فـي كثيـر مـن المناسـبات غيـر المحقـة ممـا يسـيء إلـى صـلاتنا بهـا وعلاقتنا معها"... وفي نهاية بيانه الطويل قال: "إنني أمـرت بإقامـة

الدعوى على جريدة اليقظة بما نشرته عن حوادث الرشوة والدرك في عددها الصادر في 19 تموز 1946".

أثناء تعطيل "اليقظة" :

عطلت "اليقظة" عن الصدور خلال شهر آب 1946 كما ذكرنا، وفي 7 آب حضرت المحاكمة لأشهد الدعوى التي أقامها علي النائب العام ، بناء على كتاب من قائد الدرك العام (هرانت)، (وهو أرمني وكان قائدا للدرك منذ أيام الفرنسيين) بصفتي مديرا مسؤولا لجريدة اليقظة. والتهمة هي "القدح والذم بحق بعض الاشخاص في الدرك السوري".

طلبت مني المحكمة الاجابة على ادعاء النيابة العامة، فلفت نظرها إلى التناقض بين وضعي كعضو في المحكمة العليا الدستورية وبين وضعي كمتهم أمام هذه المحكمة. ولكنها استمرت في الدعوى فقلت ما خلاصته: "إنني منذ قدمت إلى العاصمة عام 1943 كنائب، والشكاوى ترد إلى عما يرتكبه رجال الدرك من رشوات واختلاسات وقد عمدت منذ ذلك الوقت إلى لفت أنظار الحكومة إلى ما يجري في قيادة الدرك من أمور مشينة. وأنا لا أدعي هذا الآن، فضبوط المجلس النيابي تثبت ذلك. وكنت لا أتوانى أيضا طول هذه المدة عن لفت نظر الحكومة إلى كل ذلك لأن الأوضاع السياسية التي كانت تمر بها البلاد وقتئذ لم تكن لتسمح لنا بالجهر بمثل هذه الأمور علنا في المجلس النيابي. ولكن الحكومة لم تبد أي اهتمام جدي بالأمر، بالرغم من أنها طلبت أخيرا منحها الصلاحيات لتطهير الجهاز الحكومي.. وإنني أحيل الحكومة إلى تصريحات المسؤولين، ومنهم سعدالله الجابري، فقد اعترف بوجود اختلاسات خطيرة. وهذا مدون في ضبوط المجلس النيابي. كما أن وزير الداخلية ذكر لي شخصيا حوادث عديدة من هذا النوع وقال لي إنه لو ثابر على عمليات التطهير في مصلحة الدرك لوقع في عجز فني... أما أنا فأرى أن الحكومة لو استمرت بتطهير الجهاز من المسيئين

لانتظمت الأمور كثيرا. إذ أنه ثبت فعليا أن الأحوال والأمور قد صلحت إثر إخراج 18 ضابطا. وعندما أصدرت صحيفة اليقظة ثابرت على لفت نظر الحكومة إلى ما يجري في قيادة الدرك. وقد ورد فيها كتابان، أحدهما نسخة عن كتاب أرسل إلى وزارة الداخلية فلم تقم الوزارة بأي تحقيق، فاتصلت بالوزير شخصيا ورجوته اجراء التحقيق. ويظهر أن هذا الكتاب قد سرق من الوزارة بالرغم من أنه يحمل رقم تسجيله فيها. فاضطررت أن أقوم بواجبي كنائب وكصحفي وكمواطن فأحمل الحكومة المسؤولية بهذه القضية. وعوضا عن اسراع الحكومة باجراء التحقيقات اللازمة بعد نشر الكتاب سارعت إلى اقامة هذه الدعوة. وإنني أقول كملاحظة عاجلة أن الحكومة اكتشفت على أثر إلفاتنا نظرها لهذه الأمور سرقات عديدة تبلغ احدها ثلاثة عشر الف ليرة سورية، وهي مذكورة في الجريدة الرسمية بتاريخ 21 تموز.

وإنني قانع بحكم محكمتكم بعد أن قمت ببعض ما يترتب علي من الواجبات تجاه مواطني **إلا أنني أخشى أن تصبح المقاييس المعكوسة مقاييس طبيعية في هذه البلاد فيقيم السارق الدعوى على المسروق. لأنني اعتبر نفسي مسروقا في هذه الدعوى بصفتي مواطنا سوريا.**

ثم قلت: إنني لا زلت ممسكا عن ذكر بعض الحقائق التي اطلعت عليها شخصيا. ولكن اذا شئتم فإنني على استعداد لاعلانها أمامكم، واستدعاء المسؤولين في الحكومة الى محكمتكم كشهود".

ولكن المحكمة استمرت في رؤية الدعوى. واستدعت الضابط مصطفى حكمت العدوي لاستماع شهادته، فقلت:

"قبل شروعكم باستماع شهادات شهود الحق العام فإنني اعترض على وظيفة محكمتكم لأنني أحد أعضاء المحكمة العليا التي تحاكم الوزراء ولأن بعض النواب سيتقدمون إلى هذه المحكمة بشكوى لتعطيل الحكومة الصحف ولتقصيرها في التحقيق بأجهزة الدولة ومسؤوليتها في المخالفات الدستورية

والقانونية وخاصة حجز البرقيات التي أرسلت احتجاجا على خنق الحريات، والتي يمكن من جرائها أن تدين المحكمة العليا الحكومة بما يترتب عليها من مسؤوليات سياسية ومالية. وهذا ما قد يؤول إلى ايجاد التناقض بين وضعي كعضو في المحكمة العليا وبين وضعي كمتهم أمام محكمتكم".

ولكن المحكمة أصدرت القرار باختصاصها بالنظر في الدعوى المقامة علي بصفتي صاحبا لجريدة اليقظة لا بصفتي نائبا ولا عضوا في المحكمة العليا. كما أن المجلس النيابي ليس بحالة انعقاد الآن. فقدمت استدعاء الى رئاسة المحكمة استأنفت فيه هذا القرار. فقررت المحكمة رفع القضية إلى النيابة العامة لاحالتها الى محكمة الاستئناف.

برقيات الاحتجاج وسجن مرسليها:

وعندما توقفت اليقظة عن الصدور انهالت مئات برقيات الاحتجاج على رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ووزير الداخلية والصحف من حماه وحمص ومصياف ودير الزور ومن جميع المحافظات السورية. وفيما يلي نموذج عنها:

"إن الشعب العربي خط بالدماء تاريخه الحديث في سبيل حرياته. حجارة البلاد تضج استياء من الحكم القائم. وبصفتكم المرجع الأعلى التنفيذي (يعني رئيس الجمهورية) في الدولة نطلب تدخلكم لخلق انسجام بين الشعب والحكم لضمان حرية القول والعمل نستنكر تعطيل الصحف".

لكن نظام القوتلي، بدلا من أن يستجيب لارادة الشعب، حجز البرقيات وأحال مرسليها إلى القضاء. فقد نشرت "البعث" الرسالة التالية التي بعث بها مكاتبها في حماه بتاريخ 9 آب 1946:

"كنت أخبرتكم في هاتف ماض خبرا مجملا عن إحالة موقعي برقيات الاحتجاج على تعطيل الصحف إلى المحاكمة. ولقد نظرت المحكمة في أمر موقعي البرقيات الخمس الأولى الذين حوكموا بتهمة إطالة اللسان على موظفي الدولة وأخبرتكم أن عدد البرقيات التي ارسلت من حماه لا تقل عن

أربعين برقية عدا من رفضت برقياتهم. وقد حاول موقعوا البرقيات أمس أن يبرقوا إلى دمشق محتجين من جديد على محاكمتهم. ولكن الأوامر صدرت بألا تقبل برقياتهم. وصادف أن قبل مأمور البريد السيد صلاح معروف خطأ برقية واحدة فأتاه مدير البرق مهددا غاضبا، وانتهى الأمر بضرب المأمور ضربا مبرحا نال على أثره تقريرا طبيا لمدة يومين، واعتزل وظيفته، إنها طريقة جديدة في تأديب الموظفين.

ومساء أمس وصل حماه الاستاذ أكرم الحوراني فخف الناس لاستقباله وتجمعوا بما يشبه المظاهرة وهتفوا للنائب الحر محطم الزعامات الاقطاعية، فخطب فيهم النائب الحوراني كما خطب بعده الاستاذ المحامي خليل كلاس. ويظهر أن هذه الهتافات وتلك الخطب لم ترق للسلطات الحاكمة فعملت الشرطة على تفريق الجموع وأرسلت في نفس الوقت إلى دمشق وحمص تطلب مزيدا من قوى الجيش والدرك فأتاها ليلا من دمشق أربع سيارات من الدرك كما أتاها مثل ذلك من حمص.

وفوجيء الناس في الصباح الباكر حين شهدوا المصفحات والقوات تحتل البلد وتتمركز في ساحة العاصي. وبينما كانت الأعصاب قلقة متوترة صدر الأمر إلى الشرطة باعتقال من تشاء اعتقالا إداريا. فبدأت الاعتقالات من الشوارع ظهرا، وأصبحت المدينة -في سرعة غريبة- خالية من المارة، وليس فيها الا المصفحات والشرطة.

وقد بلغ عدد المعتلقين حتى الساعة السادسة مساءا ما يزيد عن خمسين شخصا نذكر منهم خليل كلاس ومحسن الشيشكلي وأبو الحافظ مراد آغا والحاج خالد الراس وأحمد خطار وحمدو سلورة وديب سلورة ومحمود حوا وعثمان عدي وسراج الدين السمان وسعد مغمومة والحاج صابر حجازي وكثيرين غيرهم.

وقد حضر مفوض الشرطة على رأس ثلة من الجند إلى دار الاستاذ الحوراني في الساعة الخامسة مساء وطلب إليه اغلاق جمعية حي المحالبة، فرفض ذلك قائلا إن بيت الجمعية بيتي. ولبس من فوره ثيابه وذهب إلى بيت الجمعية مع أبناء الحي، وقد هم بعض الشباب ببعض الأعمال ولكن الاستاذ الحوراني طلب إليهم التروي".

وبينما يحدث هذا في حماه، يصرح صبري العسلي وزير الداخلية في دمشق بأن "الحكومة ساهرة على الأمن ولن تتساهل مطلقا، إذ أن أيام المظاهرات والحركات قد انتهت بانتهاء الفرنسيين وجلائهم عن البلاد".

وعن حوادث حماه بتاريخ 12 آب نشرت "البعث" لمراسلها ما يلي:

"أضربت مدينة حماه منذ الصباح الباكر إضرابا عاما شاملا، وتكتلت الجموع في الشوارع وسارت في مظاهرات تكررت في جميع الأحياء ودامت إلى ما بعد الظهر. واشترك فيها الشعب بمختلف طبقاته. وقد منع رجال الشرطة المتظاهرين من الوصول إلى مقر المحافظ لرفع احتجاجهم على اساليب الارهاب والاعتقالات. ولما لم يفلحوا في تفريقهم أطلقوا الرصاص واعتقلوا منهم عددا كبيرا، فيهم من طلاب الجامعة السادة: فوزي الطيار، نوري عبدالباقي، أحمد حديد، واصل عدي، أدهم الطيار، وغيرهم من شباب المدينة... وأستطيع القول أن غليان النفوس قد بلغ مداه عند الظهر وأن الشعب كان في شبه دهشة وعلى جانب كبير من النقمة والغضب على أساليب العنف والارهاب التي لم يكن ينتظرها من حكومة ما بعد الجلاء... وقد قابل المحافظ وفد من كبار تجار المدينة والأحياء محتجين على تدابير الحكومة غير المشروعة فوعد المحافظ بإلغاء هذه التدابير كما وعد رجال الأحياء والتجار من جهتهم بإنهاء الاضراب.. على أن حماه لا تزال مضربة بعد أن انسحب رجال الشرطة والدرك من الساحات العامة، ولم يفرج عن أحد من المعتقلين.

وقد أصدرالنائب الاستاذ أكرم الحوراني البيان التالي:

"أيها الشعب الكريم، لقد أثبتت مدينتكم مبلغ استيائها من الضغط على حريات أبنائها فأعلنت الاضراب العام في هذا اليوم. وإنني أرجو أن يكتفى باضراب هذا اليوم رمزا لشعور المدينة، كما أرجو العودة إلى الأعمال آملا أن يعتبر من تهمه العبرة أن يتفهم تمسككم بحريتكم. إنني شاكر ما لقيته من مشاعر متعلقة بشخصي، وإنني مجدد العهد على الثبات في الدفاع عن مقدساتكم مهما كانت الظروف".

وقد ظهرت في دمشق وحمص وحماه منشورات كثيرة بتوقيع: الشباب العربي في حماه، يستنكر الارهاب".

□

كان موقف حماه الباسل درسا ناجعا لنظام القوتلي الذي نشر جوا من الخوف في دمشق، فوضع حدا لاستمرار الحكومة في سياستها وافتئاتها على الحريات العامة، ولم أمكث في حماه إلا بضعة أيام حيث عدت بعدها إلى دمشق مصطحبا معي معظم محامي مدينة حماه للمرافعة في القضية المرفوعة على "اليقظة"... وبعد أن تأجلت الدعوة مرات عديدة انتهى الحكم بفرض غرامة بسيطة، لكن النيابة العامة أقامت الدعوى على جريدتي "البعث" و "النصر"، اثناء تعطيل اليقظة- لنشرهما ملخصا عن وقائع محاكمة اليقظة. وكانت التهمة الموجهة إليهما هي "مخالفة" الأوامر... ثم أصدرت الحكومة بعد ذلك قرارا بتعطيل جريدة "البعث".

ويلاحظ القاريء وحدة الاتجاه والنضال بين حركتي "البعث" و "الشباب" بعد أن تمت في السابق مرحلة التعارف والتقارب بيننا وبين قادة حركة البعث، وقبيل الترخيص لجريدة البعث بالصدور، تغديت مع ميشيل وصلاح في مطعم سقراط. وقد بحث الأستاذان أثناء الغداء ضرورة توحيد الحركتين، على أن استلم أمانة سر الحزب، فاعتذرت عن تلبية طلبهما.

بعد التعطيل:

بعد أن انتهت فترة التعطيل عادت "اليقظة" إلى الصدور بلهجة أقسى وبأسلوب أشد صرامة وحدة وصراحة، فكتبت في العدد الأول المقال التالي:

" في اليوم الذي خرجت فيه هذه الجريدة الى النور، وفي الوقت الذي صممنا فيه على اصدارها، لم نفكر في شيء مطلقا سوى انها ستكون لسان الشعب الناطق تعبر عن آماله وامانيه وتنقل ما يشعر به وتدافع عن حقوقه. ليس هذا ادعاء، بل هو ما سارت عليه هذه الجريدة منذ صدورها، وستظل هذه خطتها لا تحيد عنها مهما كلفها ذلك من تضحيات وارهاق.

ولكن الحكومة، نعم هذه الحكومة، لا تريد أن تستمع إلى النقد وإلى الشكوى، ولا تريد أن تنتبه الى الاخطاء التي ترتكبها هي ويرتكبها موظفوها كبارا وصغارا، فاتخذت التعطيل الاداري سلاحا تسلطه على الاحرار لكم

افواههم وعدم تمكينهم من اظهار شكاوى الناس التي اشتدت في المدة الاخيرة من كثرة الاختلاسات والرشوات والتهاون والاستهتار، فلجأت إلى سلاح المستعمر تستعمله إلى اقصى حد، وبدأت سياسة الارهاب، ولكن بشكل لم يسبق له مثيل، ظنا منها أن هذه السياسة تغير العقائد والمبادئ وتنال من سمة الصحف القومية التي انشئت لغايات سامية نبيلة، فخاب فألها، وكانت الخيبة مريرة ومريرة جدا في هذه المرة.

و "اليقظة" تصدر اليوم بعد أن نالت أول وسام بتعطيلها شهرا كاملا، وهي تفخر كل الفخر، وتعتز كل الاعتزاز بانها ستظل سائرة على نفس الخطة التي سارت عليها من يوم صدورها حتى الآن، ولن يغير التعطيل، ولن تغير المحاكمة، المبدأ الذي كان نبراسا لها في جهادها وفي نضالها ضد الظلم والطغيان الذي لا يمكن لاي انسان حر أن يقبل به او يسكت عنه.

ان التعطيل والاحالة للقضاء في وقت واحد لن يفل من العزائم، ويخطيء الحكام اذ يظنون أو يعتقدون أن تعطيلنا أو محاكمتنا سيؤثران على قضية كنا وما نزال ندافع عنها في كل مكان.

فليطمئن بالا كل حاكم، فان للباطل جولة ثم يضمحل، والباطل مهما كان قويا لا بد أن يصرع. واننا مقيمون على العهد الذي قطعناه" 2 أيلول 1946.

مفاسد وانحرافات نظام القوتلي :

ثابرت، بعد عودة اليقظة إلى الصدور، على كتابة المقالات في كشف مفاسد النظام وانحرافاته، وتبيين الطريق السوي لبناء نظام ديمقراطي على مستوى مطامح الشعب وتطلعاته في بداية مرحلة الاستقلال الجديد التي سيكون لها أثرها على مستقبل البلاد والأمة.

فكتبت في 5 أيلول 1946 افتتاحية بعنوان: "من هم الذين يهدمون استقلال البلاد وسلامتها ونظامها" فكان ردا عنيفا صارما على تعطيل اليقظة وإحالتي للقضاء:

"رغم جميع المصاعب والعراقيل المادية والمعنوية صدرت "اليقظة" بدافع من الشعور العميق، بأن الامة في ظرف احوج ما تكون فيه إلى التوجيه والتحذير والتنبيه. فكانت عقيدتنا اننا خرجنا بعد جهادنا مع الفرنسيين من

الجهـاد الاصـغر الـى الجهـاد الاكبـر. وهـو الجهـاد الاجتمـاعي والاقتصـادي والسياسـي والروحي والاخلاقي، لان تثبيت دعائم الاستقلال في نظرنا منوط اولا وأخيرا باهليتنا وكفاءتنـا كأمـة جـديرة بهـذا الاسـتقلال، مسـتحقة لأرقـى مراتب الحياة الانسانية. فبدأت مهمتنا الطبيعية في "اليقظة" بالبحث والتدليل علـى جميـع الاخطـار التـي تهـددنا، والتـي خلفهـا الاسـتعماران العثمـاني والفرنسي، ولا تزال جاثمة بجهازها الثقيل على صدر هذه الأمة.

هذه غايتنا، وهذا ما نهجنا عليه، فماذا فعل المسؤولون؟؟

شـكونا مـن الامـراض الاخلاقيـة والروحيـة فـي جهـاز الدولـة وشـيوع الرشوى والاخـتلاس والعجـز، وطالبنـا باقامـة جهـاز جديـد قـائم علـى الكفـاءة والاخلاص والنزاهة فبرموا من هذه الشكوى، لان الجهـاز العثمـاني الفرنسـي بنظرهم نقي بريء سليم من العيوب، ولان الشكوى من الاختلاس والرشـوى والعجز تثير الرأي العام .

طالبنا باستبدال القوانين والانظمة والقرارات التـي اصـدرها العثمـانيون والفرنسيون، وجميعها تطعن مصالح الـبلاد وتخـالف الدسـتور، لأن الفرنسـيين لم يعترفوا علـى الدسـتور عنـد اصـدارهم هـذه التشـاريع التـي توطـد دعـائم الانتـداب، فـارغوا وازبـدوا وازدادوا تشـبثا بكـل مـا صـدر عـن هـذين العهـدين البائدين، حتى أنهم نبشوا من القـوانين العمثانيـة والانظمـة الانتدابيـة مـا لـم يسمع به كثير من الناس قبل الان.

بحثنـا فـي بنـاء الامـة المنحـرف الـذي اسـتقرت عليـه نتيجـة عهـدين استعماريين، سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، ونادينـا بمحاربـة الطائفيـة والاقطاعيـة والعشـائرية حتـى يسـتقيم المجتمـع العربـي السوري على اساس صحيح تتحقق فيه العدالتان الاجتماعية والاقتصادية.

أشفقنا من سياسة الازقة والمدينة **والعائلة والطائفة التي كـادت تقضي على بقايـا تماسـك الامـة،** فاسـتعجلوا باسـتغلال هـذه الاوضـاع، واعداد الانتخابات المقبلة يدعمهم نفوذ الدولة واموالها تبدد في هذا السبيل.

أشفقنا من النفوذ الاجنبي فنوهنا بعظم التبعات التي تقع على عـاتق الذين يسـهلون امتداده وفساده! فضاق ذرعهم واصدروا حكمهم الاخير باغلاق "اليقظة" واحالتهـا علـى القضـاء مـع اغـلاق سـبع صـحف أخـرى. فعلـى مـاذا برهنوا بهذه الاعمال؟؟

انهم برهنوا على تمسكهم وحمايتهم لجميع الامراض والاوزار التي تشكو منها الامة وتهدد بقاءها بالزوال انهم برهنوا على نكثهم بالعهود وحنثهم بالايمان التي اقسموها على التمسك باهداب الدستور، **لأنهم لم يصونوا الحريات العامة التي اؤتمنوا عليها، ولانهم أوقفوا البرقيات وراقبوها رغم منع الدستور والعقود الدولية لهذه الرقابة والتوقيف.** كما برهنوا على مخالفتهم للقوانين باغلاق الصحف قبل أن يصدر بعضها.

برهنوا على إصرارهم وتشبثهم بالعقلية العثمانية الفرنسية بل بما هو افظع منها، باحالة ثمانين شخصا على القضاء لقيامهم باستقبال سلمي بحماة، وذلك بموجب قانون التجمعات العثماني الذي استعاض عنه الفرنسيون بقانون قمع الجرائم لفظاعة قانون التجمعات القديم، بينما يطلق الرصاص بعدها في عدة استقبالات رسمية مأجورة، وبينما يطلق الرصاص ايضا امام قصر رئاسة الجمهورية بالزبداني بمظاهرة مسلحة يقودها احد موظفي الدولة[1] . تستهدف الاعتداء على فئة اخرى من ابناء القضاء. فبرهنوا بذلك على عدم عدلهم حتى في أحكامهم "القرقاشية".

انهم هزئوا بالقوانين وسخروا بالدستور ونكثوا بالعهود لان المجلس النيابي حدد التعطيل الاداري الجائر بشهر واحد، واذا بهم يلغون امتياز جريدة "الجبل" او يوقفون صدورها استنادا، كما يقولون، ولا ندري، على قرار المفوض السامي الفرنسي الصادر عام 1924. اما قانون المجلس النيابي بتحديد التعطيل ووعد رئيس الوزراء امام جميع النواب بعدم تطبيقه الا نادرا، فهذه من القضايا التي لا يجب بنظرهم التقيد بها.

انهم برهنوا على ممالأتهم أو استخذائهم امام النفوذ الاجنبي، فاذاعوا ببيان رسمي اصدره وزير الداخلية وبتصريح رئيس الوزارة اثر تعطيل الصحف "أن من اسباب التعطيل ما وردهم من الكتب التي تقدمت بها بعض الدول الاجنبية بطلب تعطيل بعض الصحف السورية".

انهم برهنوا على انهم حماة الرشوى والاختلاس لانهم احالوا "اليقظة" على القضاء لانها نشرت صورة كتاب رفع لوزارة الداخلية من قبل شخص يتهم به قادة الدرك، قبل ان تجري الحكومة التحقيق الذي تعهدت

(1) هذه المظاهرة المسلحة أمام قصر رئيس الجمهورية قادها فيصل العسلي الذي كان موظفا في مصلحة الميرة، والذي رشح نفسه منافسا لجميل الشماط عن قضاء الزبداني.

باجرائه ببلاغ رسمي اصدرته قبل احالة "اليقظة" على القضاء. كما جرأت الحكومة ايضا ان تقدم المتهمين من قادة الدرك شهودا علينا في هذه الدعوى.

فكيف تتثبت دعائم الاستقلال على هذا الاساس، والبلاد لا تزال تساس بعقلية الاحتلال؟

ومن منا يهدد الاستقلال والنظام، أفمن يحرص على ارث الاجنبي، أو من يحاول خلاص الامة وانعتاقها من هذا الارث الدخيل؟

نحن لا نتوجه للمسؤولين بما نكتب، وانما نتوجه للامة، ونحاول ان نضع امام انظارها وابصارها جميع مشاكلها حتى تحلها بنفسها في المستقبل، وسنستمر على خطتنا بدافع من شعورنا ووجداننا ولو نصبوا لنا أعواد المشانق"...

□

ثم أصدر المدير العام للشرطة والأمن البلاغ التالي :

"نعلن للاهلين في كافة المدن السورية أن الاجتماعات التي تعقد ولم يراع فيها أحكام قانون الاجتماعات رقم 72 المنشور في العدد الثاني من مجموعة القرارات الادارية (بطلب رخصة) محظورة. ورجال الشرطة والامن مكلفون بمنعها واتخاذ التدابير القانونية بحق المخالفين لذا أذعت على لسان الصحف هذا البلاغ للإحاطة به علما والسلام".

فعلقت عليه بافتتاحية 1956/7/10 بالافتتاحية التالية :

"كنا نستميت منذ عودة الحياة النيابية للبلاد بطلب المحافظة على الحريات العامة الدستورية رغم شعورنا باستخفاف المسؤولين، كاننا اصبحنا بنظرهم نتخذ من هذا الموضوع قميص عثمان.

فاضحى علينا لزاما بعد العبث الصارخ بهذه الحريات توضيح اثرها البعيد في حياة الشعوب وتطورها وارتقائها. اذ لولا الدماء السخية التي هدرتها الانسانية لما سجلت خطوة واحدة الى الامام في طريق تطورها وتقدمها، فمن الطبيعي اذا، أن تضمن الامم لافرادها حرية التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم في جميع شؤون الحياة، حتى لتفسر جميع الثورات التاريخية

الكبرى بأنها نضال وصراع بين قوى الحرية وقوى الطغيان الرجعية، ولكن الحرية كانت تخرج ظافرة منتصرة في كل صراع ومعترك فالحريات العامة والمثل العليا القومية والانسانية بالحقيقة أقوم متحد الاصول والجذور والنتائج. فيمكننا ان نقرر اذا الحقيقة التالية:

ان الحكومات التي لا تصون الحريات لا بد لها من بلوغ احدى النهايتين: إما التقهقر والانحطاط، وإما الثورة .

وقد ضمن النظام البرلماني بعد تجارب الانسانية الدامية التاريخية الطويلة الحريات العامة تفاديا من هذه الثورات والانقلابات والمفاجآت واذا كان لهذا النظام البرلماني الديمقراطي ميزات وحسنات فأولى هذه الميزات والحسنات ضمان الحريات التي اصبح موضوعها بعد الحرب الاخيرة موضوعا انسانيا لا قوميا فحسب، كما برهنت هذه الحرب ان الامم التي قادتها ارقى ما انجبه القرن العشرين من الشخصيات والعقليات قد انهارت. لانها لم تضمن لابنائها هذه الحريات. وهذا ما يفسر لنا بالحقيقة انتصار الديمقراطيات على الديكتاتورية، لانه لا يمكن ان تحيا امة بعقلية فرد ولا فئة مهما كانت مختارة ممتازة، فكيف بنا ونحن تساس بالعقلية العثمانية الانتدابية حتى الآن؟

لا شك ان هذا الوضع اما ان يؤدي الى قتل الروح المثالية، ونضوب الحياة الانسانية، واما الى ثورة جائحة تقضي على حواجز العقليات المتحجرة. وأننا لنعتقد أن كل مساوئ هذا الوضع القائم في بلادنا يرجع بحقيقته لعدم ضمان الحريات العامة، كما أننا نعتقد منذ الآن بمصيره المحتوم اذا استمر على هذا الاسلوب.

فبرغم ان الدستور السوري ضمن في مواده 16 و17 و18 و25 حرية القول والكتابة والخطابة والصحافة والطباعة والاجتماعات والجمعيات والمراسلات البريدية والبرقية، فقد عبثت بها الحكومة صراحة، أو مداورة، وذلك بتطبيق القوانين والانظمة العثمانية الفرنسية على الاحزاب والجمعيات والإجتماعات والمطبوعات والمراسلات، وقد خالفتها ايضا عندما لم تحقق لها الغرض والغاية .

ولا يخفى ان جميع قوانين وانظمة العهد العثماني لا تتلاءم مع روح هذا العصر، وهي تخالف الدستور السوري لانها صدرت قبل وضعه كما أن جميع قوانين المفوض السامي وانظمته وقراراته لم يعترف عند اصدارها بالدستور السوري، سيما ما يتعلق منها بموضوع الحريات، مع أن القاعدة الحقوقية والدستورية تعتبر كل قانون أو نظام ملغيا من تلقاء نفسه اذا خالف أحكام الدستور. ولذلك تعتبر الحكومة انها ارتكبت اعظم المخالفات الدستورية بتطبيق القوانين والانظمة العثمانية والفرنسية، ولا يمكنها ان تحتج بان الدستور قد ضمن الحريات بحدود القوانين، لان هذه القوانين لم توضع بهدي الدستور وروحه، بل بصورة تخالفه، نصا وروحا، حتى ليحق للشعب ان لا يتقيد باحكام هذه القوانين الاجنبية.

فهل يجوز في هذا العصر، على كل حال، ان تشل حرية الاجتماعات بهذا البلد ببلاغ تصدره مديرية الشرطة بالاستناد إلى قرار المفوض السامي رقم 72، كأن الأمة لا تزال تحت وطأة احتلال العهدين العثماني والفرنسي؟

ام هل يجوز ان تمنع الحكومة على الاحزاب السياسية الإجازات الرسمية رغم تقيدها بالشروط التي توجبها حتى القوانين العثمانية الفرنسية، ورغم تطلع الامة للاحزاب الناشئة الفتية؟

ام هل يجوز ان تحكم الصحافة في هذا العصر بقانون المطبوعات الفرنسي وذيوله، ويمنع صدور جريدة بالاستناد الى قرار المندوب؟

أم هل يجوز احالة المواطنين على القضاء بقانون التجمعات العثماني الذي لم يطبقه المرحوم السلطان عبد الحميد؟ واذا اردنا أن نستمر بضرب الامثال لطال بنا المقام.

وقصارى القول أن الحكومة اذا كانت بحاجة صادقة للتشاريع التي تقنن الحريات العامة التي نص عليها الدستور، فما عليها الا أن تعمد لتهيئتها وعرضها على المجلس النيابي، لانها أعظم وأهم من أي موضوع آخر، وقد سبق لجميع الامم المتمدنة ان عنيت عناية فائقة دقيقة بوضع القوانين التي تقنن وتحدد مدى هذه الحريات العامة مسترشدة بهدي الدساتير وروحها واتجاهاتها ".

الاتصال بالحركات التحررية في المغرب العربي :

زار دمشق بتاريخ 10 آب 1946 الحبيب بورقيبه "المجاهد التونسي العربي، ورئيس الحزب الدستوري الحر، الذي تتمثل في شخصه الوطنية المؤمنة المجاهدة الواعية، كما يتمثل فيه التاريخ الحديث للحزب الدستوري المناضل بلا هوادة ضد المستعمر الافرنسي الباغي" حسب تعبير جريدة "البعث" لأن "اليقظة" كانت معطلة.

وكنت آنذاك في إبان انشغالي بالمحاكمة وذهابي الى حماه بعد الحوادث التي مرت تفاصيلها، فلم يتيسر لي الاجتماع بالضيف التونسي، كما لم يكن اجتماعه بي من مصلحته في ذلك الظرف الذي كنت فيه بصدام مع السلطة في أعنف أشكاله.

وقد أسفرت هذه الزيارة عن تأسيس المجاهد التونسي يوسف الرويسي لمكتب المغرب العربي بدمشق، وقد نشأت وتوطدت أواصر الصداقة بيننا وبين الاستاذ الرويسي، فبذلنا كل ما نستطيع من جهد لمساعدته في نشاطه الوطني الواسع والمتعدد الجوانب، وكان منها قبول الطلاب التونسيين في المعاهد السورية، وكان بعضهم جيرانا لدار اليقظة.

وقد قدم حزبا البعث والشباب، منذ البداية، كل عون ليوسف الرويسي ومكتب المغرب العربي في نضاله من أجل القضية التونسية، الذي استمر إلى ما بعد قيام الوحدة بين سوريا ومصر، وإلى ما بعد خلاف الاستاذ الرويسي وأحمد بن صالح مع بورقيبة والانشقاق الذي أصاب الحزب الدستوري (الاشتراكي) بعد ذلك.

ولذلك عالجت جريدة اليقظة، منذ صدورها بعد التعطيل، القضية التونسية، فنشرت التعليق التالي في 4 أيلول 1946 :

"تدل الانباء التي تذاع بين الحين والحين على أن قطرا عزيزا على قلب كل عربي يقطر دما اليوم ومنذ عديد من السنين بسبب الجرائم الوحشية التي ترتكبها فرنسة باسم المدنية فيه.

وقد استنجد هذا القطر العربي - ونعني به تونس - بدول الجامعة العربية وبالعالم المتمدن، وبمنظمة الامم المتحدة، طالبا تخليصه من المذابح والجرائم التي ترتكبها فرنسة في بلاده، ولكن من يسمع؟

ان الظلـم اذا حـل بامـة لا يزيـدها الا مضـاء، والا نضـالا علـى نضـال، فالشعب التونسي صمم على مقارعـة السياسـة الفرنسـية الارهابيـة التـي تتبعها الامة "المتمدنة" هناك ولو تألبت عليه شـعوب الارض "المتمدنـة" ايضـا بأجمعها!

ولكن ... هل نسيت الدول العربية واجباتها تجاه شعب اعـزل، وشـعب عربي ابي كريم؟

لقد صـارع هـذا الشـعب منـذ القـديم اكبـر قـوة وحشـية، وهـو مـا زال يصارعها وحده حتى اليوم، وهي تمعن في التنكيل به وتذبح اطفاله وشـيوخه وتقتل النساء على مرأى ومسمع من الـدول العربيـة ومـن دول العـالم أجمـع. ولكن ما العمل وهذه الفظائع ترتكب مـن قبـل الدولـة التـي يعقـد فـي أرضـها مؤتمر الصلح.. فهل حقا ان السلام سيخيم على العالم؟

ان العرب يعتقدون اعتقـادا جازمـا بانـه لا سـلام فـي العـالم مـا دامـت عقليـات الشـعوب المسـتعمرة، وخاصـة عقليـة فرنسـة، لـم تتبـدل، واذا كـان الذين يدعون للسلم حقـا يريـدون هـذا السـلم، فمـا علـيهم الا أن ينقـذوا أولا البلاد التي ترزح تحت وطأة الطغاة والسفاكين!

أما واجـب الجامعـة العربيـة، أو الـدول العربيـة، فهـو أعظـم واجـل، انـه واجب الاخ نحو أخيه، فلتهب البلاد العربية لنصرة إخواننا فـي تـونس والمغـرب لان السكوت على الاعتداء والقتل والفتك اصبح جريمة لا تغتفر.

الـوعي المبكـر لمـا تبيتـه بريطانيـا لسـوريا وللقضـية الفلسطينية:

كـان ضـغط بريطانيـا علـى حكومـة الجـابري وراء تعطيـل "اليقظة" وإحالتي على القضاء، الأمر الذي أشار إليه وزير الداخلية فـي بيانـه علنـا. ولـذلك عـدت منـذ العـدد الأول مـن اليقظـة بعـد التعطيل الى المثابرة على كشف تحركات السياسة الاسـتعمارية البريطانية وأجهزتها الخفية في سوريا، التي كان يساعدني علـى رصدها تطـوع المـوظفين الـوطنيين المبثـوثين فـي أجهـزة الدولـة. ولطالما أظهر سعد الله الجابري استغرابه في مناسبات عديدة من دقة المعلومات السرية التي كانت تنشرها اليقظة.

وقد نشرت في 5 أيلول نبأ عن اتفاقية سرية عقدتها الحكومة مع بريطانيا قبل شهرين، وتساءلت عن دور "الخبراء" العسكريين البريطانيين "لأنه يشاع في الأوساط أن (فوكس) ليس معلما للمدرسة الحربية كما قال وزيرالدفاع بل خبيرا لهذه الوزارة وأكثر من خبير".

وسيتبين للقاريء الدور التخريبي الخطير الذي لعبه (فوكس) في أوضاع الجيش السوري بحرب 1948.

وفي 9 أيلول وصلني من مديرية المطبوعات والاذاعة البلاغ التالي، بتوقيع وزير الدفاع أحمد الشراباتي:

"نشرت جريدة "اليقظة" في العدد 64 المؤرخ في 5-9-1946 نبأ يقول أن طائرة حربية مجهولة الهوية حلقت فوق سماء المزة عدة مرات، **وبما أن هذا الخبر عار عن الصحة وبما أن وزارة الدفاع الوطني ساهرة لحفظ الجو السوري من الطائرات الاجنبية فقد اقتضى التنويه.**

ونشرت "اليقظة" في عددها الصادر في 5-9-1946 ذي الرقم 64 نبأ يقول أن وزارة الدفاع الوطني عقدت اتفاقا مع الحكومة البريطانية.

وبما أن هذه الوزارة لم تعقد ولن تعقد اتفاقات مع أية حكومات كانت لان ذلك **ليس من صلاحيتها فقد اقتضى التنويه".**

فعلقت على هذا البلاغ بالمقال التالي :

"ما زلنا مستغربين هذا البلاغ الذي ينفي ما نشرناه حول حادث الطائرة الحربية المجهولة الهوية والتي حلقت في سماء المزة، لانه اتصلت بنا من مصدر موثوق، وموثوق جدا تفاصيله الكاملة وما تبعه من شؤون لم ننشرها، بل نشرنا الخبر بشكل عادي لافتين نظر المسؤولين الى أخذ الحيطة وتزويد مديرية المطار بالتعليمات والصلاحيات الواجبة.

ونحن معذورون اذا نشرنا ما لدينا من المعلومات حول هذا الخبر.

فقد اتصل بنا ان وزارة الاشغال وجهت كتابا إلى وزارة الدفاع وبعض الوزارات الاخرى تحت رقم (2927) بتاريخ 2-9-1946، يتضمن ما جاء في النبأ الذي نشرناه عن الطائرة المجهولة الهوية لان القسم المدني من مطار المزة عائد للاشغال العامة. وعلى كل حال فالمهم في الموضوع ان قصدنا من نشره كان توجيه الانتباه والحيطة والقيام بالواجب بمثل هذه الاحوال.

اما خبر العقد البريطاني السوري الذي نفاه بلاغ وزارة الدفاع فقد اتصل بنا من مصدر رسمي مسؤول عرض عليه بالذات كما يقول وهو يتعلق بمواضيع تخص وزارة الدفاع. وقد اقرته الحكومة السورية.

وكنا نود أن يتعرض هذا البلاغ الى مهمة الخبير البريطاني "فوكس" فلم يشأ أن يتعرض اليها، وقد صرح لنا معالي وزير الدفاع الوطني ان نص العقد مع فوكس البريطاني سوف تنشره الحكومة بالجريدة الرسمية، ولكننا مع الاسف لم نعثر عليه في الجريدة الرسمية حتى نعلم مهمة هذا الخبير، لان التعاقد مع الخبراء الاجانب يكون عادة على مواضيع معينة تنتهي مهمتهم بالقيام بها، كمهمة الخبير البلجيكي مثلا التي انتهت بتقديم تقاريره عن قضايا البلاد الادارية، وسيغادر البلاد الى بلاده يوم السبت المقبل.

فما هي يا ترى مهمة الخبير البريطاني العسكري ومتى تنتهي؟

هذا وقد نشرت جريدة "المصري" انه اتصل بها من مصدر موثوق بان بعثة سويدية عسكرية ستقصد سورية قريبا تلبية لدعوة حكومة دمشق، وانها سوف تكرس جهودها للقيام بمهام في الجيش وقوات الشرطة وتوحيدها بشكل يجعل منها قوة فعاله، وان الحكومة البريطانية قد رخصت لكبار الضباط في الجيش البريطاني بسورية أن يعتزلوا مناصبهم دائمة كانت أو وقتية وأن لا يقبلوا إلا مناصب ذات صبغة استشارية في بعض اقسام الوزارات مثل المواصلات".

فاذا صح هذا النبأ وقدمت البلاد البعثة العسكرية السويدية فهل يبقى من حاجة للخبير البريطاني العسكري؟ وهل يصح ان تقبل الحكومة السورية مناصب البريطانيين الاستشارية في بعض اقسام الوزارات بالوقت الذي يمكنها فيه أن تتعاقد مع الخبراء السويدين مثلا اذا كانت بحاجة ماسة قصوى لهؤلاء الخبراء ؟؟ " .

وفـي الوقـت ذاتـه كنـا ننبـه إلـى اسـتئناف نشـاط أجهـزة المخابرات الفرنسية، فقد نشرت اليقظة فـي العـدد ذاتـه تسـاؤلا تحت عنوان: "هل يمـارس الفرنسـيون نشـاطا فرنسـيا بـالبلاد؟ .. أشـياء غريبـة تتطلـب الحـذر والانتبـاه الشـديد". وفيـه نطـرح أمـام المسؤولين وقائع النشاط الجديـد للأجهـزة الفرنسـية الخفيـة بعـد عودة العلاقات السياسية ونغمز من قناة الجهـاز الـذي ورثنـاه عـن الانتداب الفرنسي. وهكذا كان العمـل فـي جريـدة اليقظـة يتطلـب منـا اليقظـة الشـديدة لكـل مـا يجـري فـي الـبلاد، حتـى تحليـق الطائرات الأجنبية في سماء البلاد.

قضايا الرب سليمان المرشد :

كانت قضية (الرب) سليمان المرشد في جبال اللاذقيـة مـن أخطر القضايا علـى الـبلاد سـواء قبـل الجـلاء أو بعـده، وقـد سـبق الحديث عن الفتن والاعتداءات التي قامت بها جماعة المرشد عام 1945 وكيف عالجـت الحكومـة هـذه القضـية بأسـلوب شـجع هـذا (الرب) على التمادي في طغيانه وتوسـيع دائرة تسـلطه وإرهابـه.. فكان الناس يتناقلون باستمرار أخبارا لا يصدقها العقـل عـن الدولـة التي أنشـأها فـي قريـة (جوبـة البرغـال) رغـم أنـه كـان نائبـا فـي البرلمان السوري. وفي 12 أيلول 1946 نشرت إحـدى الصـحف نبـأ عـن "اعتـداء بعـض الأشـقياء علـى سـيارة قائـد لـواء الـدرك فـي اللاذقية" فسارعت وزارة الداخلية لتكذيب هذا النبـأ -وهـو صـحيح- وقالت في بلاغ رسمي: "إن الحكومة وجدت من المناسـب إرسـال قوات من الدرك لمحافظة اللاذقية بصورة احتياطية لتنفيذ ما قررتـه اللجنة المؤلفة تحت إشـراف محافظ اللاذقية من تأمين إعادة بعض فلاحي قرية جوبة برغال إلـى أراضـيهم المغصـوبة التـي كـانوا قـد نزحوا عنها على أثر حوادث عام 1945، وإعادة الأراضي التي وضـع السيد سليمان المرشد يده عليهـا فـي قريـة قلعـة المهالبـة إلـى أصـحابها كـي يتمكنـوا مـن اسـتثمارها وفلاحتهـا بصـورة هادئـة، وليكون عامة الأشخاص المعادين الى جوبة برغال وقلعـة المهالبـة في أمان واطمئنان في حمي القانون".

وقد نشرت في جريدة اليقظة عدة مقالات حول الموضوع وفيما يلي بعض ما ورد فيها :

يقول بلاغ الحكومة أنها عمدت في بداية الأمر إلى تأليف لجنة لحل الخلاف بين الطرفين. وكان ذلك برضائهما. ثم تواردت اليهما الأنباء تشير إلى أن (الرب) لا ينوي التقيد بقرار اللجنة الآنفة الذكر... فأرسلت قائد اللواء الخامس للاشراف على الوضع. وما أن بلغ موقع (العويرة) الذي يبعد 6 كيلومترات عن (الجوبة) حتى تساقط عليه وعلى جنوده الرصاص من كمين بثه سليمان المرشد، فقابله الدرك بالمثل واستمرت المعركة ساعات تشتت على أثرها العصاة، ثم تقدمت قوات الدرك فاحتلت الجوبة وساقت (ربها) الى اللاذقية. وقد استشهد أثناء المعركة الملازم أول جميل هلال والدركي طاهر مكانس وجرح فريق من الضباط، وذهب اثنا عشر فلاحا مسكينا كقافلة أخيرة من ضحيا هذا الرب الدموي.. وقبل أن يستسلم المرشد أفرغ رصاص مسدسه برأس احدى زوجاته.. كما أن ابنه (فاتح) اعتقل أيضا..".

"ان معركة جوبة برغال الاخيرة ليست كالمعارك التي دارت بين الحكومات العثمانية والفرنسية وبين من شقوا عليها عصا الطاعة من ابناء الجبل، وانما هي معركة وطنية لانها معركة انقاذ لشرف واموال واعراض مواطنينا بل هي معركة انقاذ لشرف وسمعة هذه البلاد".(1956/9/17)

"إن ما يدعونا للعودة من جديد لبحث فتنة "جوبة برغال" جهل الكثيرين من المواطنين لشؤون هذه المناطق جهلا تاما، مع أنها من أخطر وأهم المناطق السورية. ولذا فنحن نخشى أن يرتكب المسؤولون بعض الأخطاء في معالجة فتنة سلمان المرشد، فتؤدي أعمالهم بالبلاد إلى اسوأ النتائج، لا يخفى أن جميع اتباع سليمان المرشد هم من القرويين السذج البسطاء، وهم بالحقيقة من ضحايا الاستعمار الفرنسي الذي سلط هذا "الرب" على اموالهم وعقولهم واعراضهم. فهل هم مسؤولون عن أعمال من ينكل بهم؟ أم هم يستحقون كل العطف والحب والمناصرة والانقاذ؟

"اننا نعلم أن كل من كان يتمرد على طغيان سليمان المرشد كان نصيبه الموت فهل يلام هؤلاء الاتباع على اتباعه؟ اننا نخشى أن لا يفهم المسؤولون حقيقة الوضع، فلا تستعمل الحكومة الحكمة والرأفة بحق هؤلاء الابرياء".

"ان محاربة الجهل والفقر في "جوبة برغال" كفيلة ان تقضي على جميع ما يثار من الدعوات الخطرة. فبنعمة العلم، وبفكرة الحق والعدل نبعث امتنا من جديد. أما القوة والظلم والجهل فهي من اساليب المستعمرين في مكافحة نهضتنا القومية.

اننا معذورون اذا خشينا ان يظهر في الميدان "أرباب" جدد، لاننا نشاهد الاعناق تمتد للاستغلال! ولكن باسم الحكومة وتحت ظلالها طبعا. الا استبدال رب واحد بأرباب من نوع جديدة".

ونحن لعطوفة محافظ اللاذقية الذي يعود اليه الفضل بالقضاء على هذه الفتنة نتجه بالعمل على أن يكون سبيل قوى الأمن الرحمة والعطف والحكمة والدعوة الحسنة. وان يسعى لتعميم التعليم في هذه المنطقة، كما نأمل أن يقطع الطريق على من يمدون الاعناق لاستغلال هذه الفتنة فينشئوا زعاماتهم على حساب آلام الشعب وجروح هؤلاء البؤساء الابرياء من جديد. (1956/9/19).

كان حلمي الأتاسي نائبا معارضا في البرلمان، يدعو لمشروع سوريا الكبرى، وقد كان محبوبا في الأوساط الشعبية حتى من خصومه السياسيين، وذلك لما كان يتمتع به من مواهب شخصية. وكان يسافر باستمرار إلى فلسطين للمعالجة من السرطان في بلعومه. وفي مطلع ايلول 1946 سقطت به الطائرة اثناء عودته من فلسطين فلقي مصرعه. فشيعته حمص بموكب مهيب اشترك فيه أنصاره وخصومه جميا. وقد شاركت بتشييعه باعتباره زميلا ومعارضا في المجلس النيابي.

وما أن شغر المقعد النيابي بوفاته حتى بدأ الاستعداد للمعركة الانتخابية الفرعية في حمص، فكتبت بهذه المناسبة مقالا بعنوان "حكم الشعب" طرحت فيه تقدم تعديل قانون الانتخاب، وجعله على درجة واحدة، وتأييد المشروع الذي تقدم به زميلنا نائب حمص هاني السباعي .. وهذا نص المقال :

"تضطرب سياسة الدولة الداخلية، منذ بدء الحياة النيابية، في استرضاء العناصر الانتخابية، وتأمين الاكثرية البرلمانية العاجلة. وهذا علة الوساطات والشفاعات والاستثناءات، وتبني جهاز الانتداب باشخاصه وانظمته وقوانينه، وستر الاختلاسات، وما ارتكب من الاساءات الاقتصادية والمالية،

واسترضاء زعامة الاسرة والحي والعشيرة والطائفة. حتى اصبحت الدولة بسلطتيها التشريعية والتنفيذية شركة كبرى يتقاسم فيها المساهمون الارباح! اما الشعب فموضوع استثمار هذه الشركة، ليس له رأي ولا ارادة. وبالرغم من ذلك فلا تزال تتردد المعزوفة المعروفة بان الامة قد اولتهم ثقتها، وانهم يحكمون باسمها، لا باسم هذه الشركة طبعا!!

ان من يراجع قوائم اعضاء المجالس التمثيلية والنيابية التي تعاقبت على البلاد، يجد أن عهد هذه الشركة قديم منذ الاحتلال الفرنسي. فلم يتغير اعضاؤها الا تغيرا نسبيا بمن توفاه الله منهم فحل محله وريثه الشرعي! حتى ليظن من يقيس تطور الامة بمستوى مجالسها النيابية انها لم تتقدم خطوة واحدة خلال ربع القرن الماضي الى الامام! مع أنها بالحقيقة قد تطورت تطورا رائعا، ولكن هذه المجالس وما تقوم عليه من الاجهزة السياسية والادارية لا تمثل الامة تمثيلا صحيحا، بل تمثل زعامات الاحياء والعشيرة والمذهب والطائفة والملكيات الكبيرة في البلاد.

ولو كان بنية المسؤولين تبديل هذه الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة، لكان من المعقول ان يتجهوا لتبديل جميع قوانين الانتداب، مع اننا نلمس شديد تمسكهم وحرصهم عليها. ولكان من الواجب أن يبدأ هذا التعديل بقوانين الدولة الاساسية كقانون الانتخابات مثلا. لانه القانون الاساسي الذي يؤيد هذا الوضع والذي يعتبر العثرة الكاداء امام تقدم الامة وتطورها.

ونحن سنبحث ناحية واحدة من جميع ما يجب تعديله من نواحيه السيئة، التي تقتصر أهميتها مبدئيا ولكن تعطي مفعولها السريع، في المدن السورية خاصة، وهي جعل الانتخاب على درجة واحدة كما هو الأمر في لبنان الشقيق وفي جميع انحاء العالم. وقد استهدف الفرنسيون من جعله على درجتين القبض على مقدرات البلاد السياسية بتأمين الاكثرية في المجالس النيابية لانه باستطاعتهم ان يؤثروا بوسائل الاغراء والتهديد والاكراه على عدد من الناخبين الثانويين، ولكن ليس باستطاعتهم أن يؤثروا على مجموع الشعب.

ويكفي ان يقضي هذا التعديل على الوسطاء الثانويين وهم الذي استؤجروا زمنا طويلا في كثير من المناطق السورية حتى اتقنوا طرق

الاستثمار والاستغلال واصبحت المساومات السياسة حرفتهم الرابحة. وهم بالحقيقة مسؤولون عما يقوم به الحكم القائم من المساوئ في سبيل استرضائهم على حساب مصلحة الشعب وحياته ومستقبله.

ويكفي ان يقضي هذا التعديل على زعامات الحارات والاحياء والافخاذ فيفسح المجال لاشتراك العناصر الشعبية، والفئة المثقفة المتحررة ومن ضرورات هذا التعديل لقانون الانتخاب اقرار قانون البلديات الذي اخرت الحكومة اقراره ثلاث سنوات. لان مجالسها المنتخبة احدى الاجهزة الهامة وحلقة من حلقات الحياة النيابية.

ان الامة قد اجمعت على مطالبة المجلس النيابي عند افتتاح دورته المقبلة بجعل قانون الانتخاب على درجة واحدة، واقرار قانون البلديات، لان القناعة اصبحت مطلقة وعامة في اذهان الناس جميعا بعدم امكان استمرار النظام البرلماني القائم على الاساليب الانتدابية الماضية. وانه لا بد من هذه العملية لانها عملية انقاذ سريعة عاجلة.

واذا لم يلتفت المسؤولون الى نداء الامة فلا يمكنهم ان يتبجحوا بعد الآن بثقتها. فقد اخرجت فرنسة كثيرا من المجالس النيابية كان نصيبها الفشل الذريع فلم تستمر ولم تستقر برغم جميع وسائل الضغط والاكراه. ولم تجرؤ على الادعاء بان هذه المجالس التي اخرجتها تمثل الأمة.

لقد اخرجت سنة التطور والارتقاء الامر من ايدي الفرد والعشيرة والطائفة والطبقة الى ايدي المجموع فاصبح الحكم حكم الشعب وهذا هو سر النظام البرلماني الصحيح". 1946/9/22

وجرت الانتخابات في حمص حسب القانون القديم ففاز مكرم الأتاسي، خليفة لحلمي الأتاسي وكان من أعضاء عصبة العمل القومي قبل حلها.

ثم نشرت في 2 تشرين الأول 1946 التعليق التالي حول امكانية إنشاء علاقاتنا مع الأتحاد السوفيتي.

"عندما اذاع راديو موسكو نقلا عن مراسل جريدة "البرافدا" الروسية نبأ العرض البريطاني لعقد معاهدة تحالف عسكرية بين انكلترة وسورية، عندما أذيع هذا النبأ سارعت الحكومة السورية فاصدرت بلاغا تقول فيه "ان

هذا الخبر لا صحة له" فايقنا أن الحكومة رأت أنه اصبح من الضروري ايضاح جميع الملابسات الداخلية والخارجية بالنسبة لوضعنا الحالي. ولكن هذا اليقين يزول شيئا فشيئا عندما تنشر وتذاع اخبار اخرى لها صلة وثيقة بوضعنا وحالتنا، فتسكت الحكومة عليها وتسعى لجعلها في زوايا النسيان!

فقد نشرت احدى الزميلات منذ عدة أيام ما قالته احدى الصحف اليهودية في برقية خاصة تلقتها من بيروت **"أن حكومة الاتحاد السوفياتي قدمت الى سورية ولبنان اقتراحات تعرض فيها على البلدين ضمانة لاستقلالهما وسلامتهما، وانها مستعدة لمؤازرة موقف البلدين الدولي وتأييد خطوات كل منهما في مجلس الامم المتحدة وفي كل مؤتمر دولي آخر، وتأييد مطالب سورية من تركية في مسالة الاسكندرونه، وتقديم التراكتورات والآلات الزراعية ومواد البناء وعقد معاهدات تجارية معهما، وتقديم العتاد العسكري بثمن مؤجل لمدة طويلة، ولقاء هذا كله يترتب على البلدين التعهد بعدم اشتراكهما بأية اتفاقات دولية ضد روسية السوفياتية".**

هذا ما نشر صباح الاحد الماضي، ولم تقابله الدوائر الرسمية الا بالصمت التام كأن الامر لا يعنيها في قليل او كثير ... ولكننا لا نستطيع ان نقف نحن من هذا الموضوع مكتوفي الايدي، بل ان الامة تريد أن تعرف الحقائق، والحقائق مفصلة، لان بلادنا اصبحت بحكم موقعها الجغرافي ميدانا للتنافس بين الدول الكبرى صاحبة النفوذ، فيجب علينا أن نستفيد من هذا الظرف الخطير مهما امكنتنا الاستفادة.

ان استقلالنا مضمون من هيأة الامم المتحدة.

اما تقديم العتاد العسكري لجيشنا، فالذي نعرفه أن بريطانية، وقبلها فرنسة، لم توافقا على اعطائنا السلاح الكافي لهذا الجيش الفتي، ثم كانت معارضة هاتين الدولتين لنا واضحة في شرائنا السلاح من اميركة، وها هي روسية تعرض العتاد العسكري لقاء التعهد بعدم اشتراكنا بأية اتفاقات دولية ضدها، فما هو موقفنا ايضا من هذه العرض؟

ان المنطق، وموقفنا الدولي، ومصلحتنا، كل هذا يقضي علينا بعدم معاداة أي دولة من الدول، الا اذا حاولت الانتقاص من استقلالنا وسيادتنا.

اقتلاع جذور النفوذ الفرنسي :

وفي 25 ايلول 1946 كتبت الافتتاحية التالية في "اليقظة" :

"كنا ارتأينا على الحكومة مرارا أن تصفي علاقاتها مع فرنسة قبل تبادل التمثيل السياسي معها، ولكن الحكومة اخرت تصفية هذه العلاقات. والآن تتقدم الحكومة الفرنسية بعد أن تم تبادل التمثيل السياسي معها مطالبة باملاكها المزعومة. فلا يكون من الحكومة السورية ازاء هذا الطلب العجيب الا احالته بصورة عفوية الى امانة السجل العقاري للتثبت من الملكية مع درس ظروف وملابسات تسجيلها! فهل كان موقف الحكومة السورية موقفا يمليه عليها الحق والواجب؟ ..

سجلت فرنسة كثيرا من القلاع والامكنة الاثرية والابنية والمنشآت التي تعود ملكيتها للدولة او للافراد السوريين، وذلك لقاء تعويض اجباري زهيد جدا أو بدون تعويض. كما انشأت فرنسة باموال المصالح المشتركة وجهود الجيش السوري بعض المنشآت الاخرى. أما اراضي هذه الابنية والمنشآت فقد اغتصبتها من الافراد اغتصابا، أو بتعويض جزئي واجباري ايضا.

هذه حقيقة ما تدعيه الحكومة الفرنسية من المنشآت والاملاك في بلادنا باموالنا وجهود ابنائنا...

اما حقوقنا، نحن السوريين بقطع النظر عما ارتكبته فرنسة من الهمجية من قتل وحرق في دمشق وحماة وجبل العرب وحوران والغوطة والقلمون وجبل العلويين والزاوية والفرات، وفي كل صقع وجزء من أجزاء هذا الوطن، ان حقوقنا المادية بقطع النظر عما اهرقته من هذه الدماء تنوء بحملها الحكومة الفرنسية. ويكفي اجراء تقدير عادل نزيه لاضرار النهب والسلب والحرق والتخريب خلال مدة احتلالها والتي لا تزال بعض آثارها ماثلة للعيان في كل مكان. فالسلطة الفرنسية قد احتلت مثلا منزل صاحب هذه الجريدة عند دخولها للبلاد مدة خمس سنوات بدون اجر او تعويض، كما أحرقت[2] قريته مرتين!

أفهل تعلم أمانة السجل العقاري التي أحالت اليها الحكومة طلب فرنسة باملاكها بهذه القضايا والشؤون، وهل اعطتها الحكومة السورية هذه

(2) قرية القبيبات الواقعة بين حماه والمعرة وقت أحرقت هذه القرية خلال ثورتي جبل الزاوية وعرب الموالي.

الصلاحية، أما كان الاولى بحكومتنا ان توجه نـداء للمتضـررين السـوريين ماليـا وحقوقيا من الحكومة الفرنسية ليتقدموا بدعاواهم عليها؟؟

فاذا فعلـت هـذا فـلا نكـون مبـالغين اذا قلنـا بـان نصـف أفـراد الشـعب السوري سوف يتقدمون بدعاواهم المالية الصريحة الحقة التـي ربمـا تجـاوزت عشرات الملايين من الليرات. وعندئذ يمكـن ان تتـذكر فرنسـة مـا فعلتـه فـي هذه البلاد، وتعلم حقيقة ما طلبته من املاكها المزعومة التـي لا تعـود عليهـا الا بالخسـران المبين من الناحيتين المادية والمعنوية امام الرأي العام الدولي.

لقد سبق "لليقظـة" أن نوهـت بـأن السياسـة لا تعـرف الحقـد، ولكـن فرنسـة غرسـت مدة احتلالها احقادا بليغة، وبليغة جـدا، فـي نفسـية الشـعب السـوري، وكـم تمنينـا ان لا تنكـأ هـذه الجـراح والاحقـاد بعـد تبـادل التمثيـل السياسي الطبيعي معها من جديد. ولكن عقلية موظفيها السفاحين على ما يظهـر الـذين خرجـوا مـن بلادنـا بالصـفائح الذهبيـة مفتضـحين لا تـزال توجـه سياسـة الحكومة الفرنسية نحونا حتى الآن. ان هذه البوادر لا تدل على اقامة عهد جديد، وستؤدي بفرنسة الى خسران مادي ومعنوي كبير. وقد اصبح من واجـب الحكومـة العاجـل الغـاء جميـع امتيـازات الشـركات الاجنبيـة والا فـان المجلس بدورته المقبلة سيضطر لالغائها، سـيما وقـد تهيـأت جميـع الاسـباب الحقوقيـة والقانونيـة والشـرعية لالغـاء هـذه الامتيـازات غيـر الشـرعية التـي عقدتها فرنسة مع شركائها دون ارادة الشعب السوري".

31

1947-1948: دعوة مجاهدي مدينة حماه للتطوع- فرقة بدر وفرقة سعيد العاص تتوجهان من حماه إلى الجليل في فلسطين - الهجوم على قلعة جدين.

دعوة مجاهدي حماه للتطوع.

كنت أنظر إلى تلك الدعايات الاعلامية التهويلية على أنها فقاعات صابون لا جدوى منها.. لذلك تركت المجلس وقفلت راجعا إلى حماه حيث وجهت الدعوة إلى كافة الفئات من أبناء المدينة لعقد اجتماع عاجل لتنظيم حملة من المجاهدين للقتال في فلسطين... كنت يائسا في قرارة نفسي من أي حل آخر سوى القتال في فلسطين مع حفنة من المجاهدين ولو كانت محرومة من الوسائل والامكانات.

ولكن هل كان بإمكاننا أن نشكل ثقلا في ثورة فلسطين؟

لم أكن أعتقد ذلك، وإنما كان تقديري أن انطلاقنا نحو فلسطين سيكون بمثابة الشرارة التي ستشعل النار، وكنت أظن أن الانكليز واليهود سيقضون علينا بمجرد اجتيازنا الحدود، وأن ذلك سيثير الرأي العام العربي ويجعل الناس يفكرون تفكيرا أكثر جدية، وبتعبير مختصر كنت أظن أننا سنكون معبرا لتدفق القوافل التالية من المتطوعين والفدائيين من جميع البلاد العربية.

وفي كانون الأول نشرت "النصر" لمراسلها في حماه ما يلي :

"وجه عميد حزب الشباب نائب حماه الاستاذ أكرم الحوراني دعوة إلى مختلف الهيئات في المدينة لحضور اجتماع يعقد في دار العلم والتربية للبحث في قضية فلسطين وجمع الأموال اللازمة للمساهمة في الدفاع عن عروبتها. ومنذ عرف قرار الأمم المتحدة المجرم وحزب الشباب يبدي نشاطا متزايدا. فقد نصب مكبر الصوت على ساحة العاصي، وأخذ الخطباء لمدة ساعة في كل يوم يحثون الناس على التطوع والتبرع لفلسطين".

وفي اليوم التالي ذكر مراسل "النصر" ما يلي :

"لبى أكثر المدعوين الدعوة التي وجهها إليهم النائب السيد حوراني في حماه. وبعد أن تناقشوا في قضية فلسطين تكلم الشيخ محمد الحامد مؤيدا التضامن والاتحاد حول تلك القضية وشاكرا السيد الحوراني على توجيه الدعوة. ثم تشكلت لجنة من السادة: مفتي حماه الشيخ محمد سعيد النعساني، والنائب الحوراني، والخوري عيسى، والشيخ محمد الحامد، والحاج أحمد السبع، والحاج خالد مراد آغا، ومحمد نور حميدان، وعبد الحسيب الشيخ سعيد، وعبد الحميد قنباز، وجميل نيربية، وعبد القادر حسن، وعثمان الحوراني، وخالد طيفور، والشيخ علي العثمان، وفريز بشارة، وعبد الرحيم الشقفة، وعبد الحميد الخاني".

أما الاقبال على التطوع فقد وصفه المراسل بقوله:

"افتتحت مراكز التطوع أبوابها في الساعة الثامنة صباحا، وكانت الجماهير محتشدة على الأبواب بكثرة وهم يتسابقون لتسجيل أسمائهم. وقد طاف عطوفة المحافظ وقائد الدرك ورئيس البلدية على مراكز التطوع لمشاهدة عمليات تسجيل المتطوعين.. كما أن المتطوعين من القرى سيسجلون أسماءهم في مكاتب حماه".

□

بعد أن بدأت عمليات تسجيل المتطوعين. وجمع التبرعات عدت إلى دمشق وقد تركت لإخواني في حماه متابعة تنظيم الحملة، تساعدهم "لجنة الأحياء" المؤلفة من عدد من قادة الشعب وذوي المكانة المحترمة والكلمة المسموعة في أحيائهم وأغلبهم من المتمسكين بتعاليم الدين الاسلامي.

وفي دمشق كانت مظاهرة الحكام العرب التضليلية على أشدها. فقد وصل من القاهرة، بتاريخ 13 كانون الأول وزير الدفاع أحمد الشراباتي، بعد أن حضر جانبا من اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية. ونشرت الصحف أنه قال لمودعيه في مطار القاهرة بحماسة شديدة: "أستودعكم الله.. انتظروا أحداثا هامة".. أما اجتماعات اللجنة السياسية فقد كانت الصحف تنشر أخبارها تحت عناوين من نمط العنوان التالي: "أعظم مظاهرة

عربية لنصرة فلسطين تقام في القاهرة يتقدمها مردم والصلح وجبر والرفاعي، وعزام والأميران فيصل وعبدالله".. ثم لا تلبث الصحف أن تنشر أن "قرارات الجامعة العربية النهائية: عدم اشتراك الجيوش العربية النظامية في تحرير فلسطين" اعتمادا على أرقام المتطوعين التي ثابر الاعلام العربي على نشرها..

وفيما كانت الصحف توصي بأن الملك عبدالعزيز آل سعود قد يلغي اتفاقيات البترول الأميركية، كانت شركة "التابلاين" تمضي قدما في مشروعها. لذلك بادرت في جلسة 11 كانون الأول أسأل الحكومة حول "ما نشرته الصحف عن قيام شركة التابلاين الأميركية بإنشاء مبانيها وتوظيف العمال والمهندسين وتصريح مسؤوليها بالبدء بالعمل فيها.. إنني أسأل كيف تشرع هذه الشركة بأعمالها قبل أن تعرض اتفاقيتها على المجلس؟".. ثم أبديت مخاوفي من أن تصبح التابلاين مثل البنك السوري "الذي ما زال قائما منذ أيام الاحتلال الفرنسي دون أن تعرض اتفاقيته على المجلس".. ثم ذكرت المجلس بقراره الذي اتخذه بتخصيص جلسة لبحث أوضاع الشركات الأجنبية وطالبت باحترام هذا القرار...

وفيما كانت الحكومات العربية تملأ أعمدة الصحف بأنباء دعمها للمجاهدين "بعث مجاهدو حماه رسلهم إلى العاصمة ليتصلوا بالمشرفين على لجنة تحرير فلسطين، وكذلك بالمسؤولين، ليعرفوا ما الذي أعدوه لخوض المعركة. وقد صرح لي عدد من كبار المجاهدين بأن كل ما يطلبونه هو إمدادهم بالذخائر اللازمة للقتال، وتأمين اتصالهم بالمجاهدين العرب في فلسطين".. النصر 1947/12/14.

فرقة بدر تغادر حماه إلى فلسطين.

ومع ذلك فإنني كنت أشعر، من مراجعاتي للمسؤولين مع هؤلاء المجاهدين، بأن طلبيهم البسيطين لن ينفذا. بل أن العراقيل العديدة ستوضع في طريقهم للحيلولة دون مسيرتهم نحو فلسطين. وهذا ما حصل فعلا عندما وصل أول فوج من مجاهدي

حماه إلى دمشق بتاريخ 18 كانون الأول 1947، فقد اعترضت السلطات طريقهم، ومنعتهم من دخولها .

لكن لنذكر أولا وصف مراسل "النصر" في حماه لذلك اليوم، فقد قال: "بارحت اليوم فرقة بدر المجاهدة حاضرة أبي الفداء إلى فلسطين، وهي فرقة تتألف من ثمانين شابا من أبطال حوادث أيار (ثورة 1945)، وكل منهم مسلح بأتم السلاح وأكمل العتاد على نفقته الخاصة.. فمنذ الساعة السادسة صباحا بدأت صفوف المجاهدين الأبرار ترد على المكتبة الخيرية المتخذة مقرا لهم، وعلى عواتقهم بنادقهم، وتلفهم أحزمة الرصاص والقنابل اليدوية، وتملأ نظراتهم الشجاعة والتضحية اللتان اتصف بهما شباب حماه.. وما أن التأم الفوج حتى غصت ساحة العاصي بالمودعين من رجال ونساء، وتوقفت حركة السير، وخاصة عندما ركب المجاهدون سياراتهم الثلاث الكبيرة، وشرع الناس يهللون ويكبرون والنساء يزغردن: لعينيك يا فلسطين.. وقد بلغت أصوات المودعين المهللة عنان السماء في ساحة العاصي معلنة حركة الجهاد الأولى من المدينة التي برهنت على تقديمها الضحايا الأولى في معارك الجهاد.. وقد خطب الشيخ محمد الحامد في الجمهور فشبه هذه الفرقة بفرقة بدر التي جهزها الرسول الأعظم لقتال الأعداء".

وعندما عجزت الحكومة عن منع مجاهدي "فرقة بدر" من دخول دمشق، ولما لم تر بدا حيال إصرارهم، وجدت الحل الوحيد أن تسمح لهم بالمرور بدمشق شريطة أن يذهبوا إلى معسكر قطنا للتدريب. فمروا علي في منزلي بدار اليقظة، وتابعوا سيرهم إلى المعسكر بعد أن وعدتهم باللحاق بهم بعد أيام..

وفي 21 كانون الأول "غادرت مدينة حماه فرقة سعيد العاص بالزغاريد والأهازيج الوطنية مع التهليل والتكبير من النساء والرجال المزدحمة بهم ساحة العاصي، وقد ألقى بعض الشباب خطابات حماسية في الجماهير فانطلقوا يحيون عروبة فلسطين والمجاهدين الأبرار... وتتألف الفرقة من سبعين شابا على رأسهم الشاب المسيحي خليل الكلاس أمين سر حزب

الشباب، وهم مجهزون بأسلحتهم الكاملة من بنادق وميترااليوزات" - النصر 1947/12/21.

كيف تسلح هؤلاء المجاهدون؟

للإجابة على ذلك أذكر حادثين: كان رفيقنا محيي الدين البرازي لا يملك من حطام الدنيا إلا عدة النجارة التي يعمل بها في دكانه.. فباع عدة الشغل ومحتويات الدكان ليشتري بثمنها سلاحا... وكان رفيقنا علي الدهبية، من أهالي حي السخانة، لا يملك إلا أثاث منزله البسيط. فباع الأثاث واشترى بندقية، مما أثار خلافا بينه وبين زوجته التي "تركها على الأرض" لكن أخواننا أعادوا إلى الزوجة أثاث منزلها ودفعوا ثمن البندقية من حصيلة تبرعاتهم.

ممن كان أفراد فرقة بدر وفرقة سعيد العاص؟

لقد كانوا يمثلون الشعب على مختلف فئاته وهيئاته وطبقاته ومستوياته، منهم من اشترك في ثورة فلسطين عام 1936، ومنهم من شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 التي كان من دوافعها الرئيسية تحرير فلسطين، ومنهم من قاتل الفرنسيين في ثورة حماه عام 1945، وبعضهم ممن لم يسبق له أن حمل بندقية. ولا شك أن عدم تدريب الشعب على القتال كان حائلا دون الانخراط على نطاق أوسع في حرب التحرير الشعبية. **كما أن عدم تطبيق قانون خدمة العلم كان جريمة كبرى في حق القضية.** لقد ساهمت في هذين الفوجين فئات الشعب كلها، فكان فيهما عمال وفلاحون وبدو وأطباء ومحامون ومعلمون ورجال أحياء، وكان تسليحهم عن طريق شراء بقايا الأسلحة الفرنسية العتيقة الموجودة في سورية مع ذخيرة قليلة.

ولا أزال أذكر من أسماء هؤلاء المجاهدين: فيصل الركبي، ومحمد عطورة، وخليل كلاس وعبد الكريم زهور وعبد اللطيف سالمة وعدنان حوراني وعبد الرحمن العوير وعبد الرحمن الشارع (أبو رميح) وأنور البوشي ومنير النبهاني وجواد العيان وحسين القدور ومحيي الدين البرازي وعلي دهبية وزيد الحريري وعلي

سراج الحريري وعلاء الدين الحريري وعوض التركاوي ونعسان زكار ومصطفى الكردي وعبد الحسيب الزكار (الشهيد) وخالد حمضمض وكمال حبال وحافظ مراد آغا وفارس مراد آغا ومحمد الدياب ومحمد علي علوش وعلي العبيد وكمال لطفي (الشهيد) وعبد اللطيف الراعي (الشهيد) ونايف الكدع ومصطفى شاكوش وخالد الصالح وسعيد الجدي (الشهيد) وفهد عواد وعبيد فليفل التركاوي ومحمد جنيد، ومحييى الدين خيارة، ومحمد جميل نبهاني وعبد العزيز الخالد وأحمد عون وحسن هوانا وعبيد التركاوي وصبحي عرابي وأبو السعود الريحاوي وعبد اللطيف الهنداوي وأبو محمود الأخرس وابن أخيه محمد، وعلي مخلوطة وصالح ديبو الجبيلي وعبد الحميد قياسة وعبد الكريم الفرا وأحمد نايف العلواني ومحمد خالد العلواني وفريد السمان والطالبين الثانويين أدهم الطيار ومظهر العمر وكلهم من مدينة حماه.

كما أذكر من مجاهدي حلب الذين التحقوا بنا الأستاذ ابراهيم الشهبندر وعلي الحلبي. ومن حمص الحاج حفني وعبد الكريم رمضون، هذه بعض من تذكرت من الأسماء وقد بلغ عددهم أكثر من مئة مقاتل منهم ثلاثة وعشرون مقاتلا من عرب العكيدات والخراشين منهم عجيل الفهد، متعب الصلال، خالد الحمود، ناعس الجربوع، محمد الموسى، فريج الموسى.

كان لتشكيل هذين الفوجين، ومرورهما بدمشق رغم أن السلطة حاولت منعهم من دخولها وتطوعي معهم، أثر كبير في البلاد، ولا أدل على ذلك من التعليق التالي الذي نشر في "النصر" بتاريخ 1947/12/29 تحت عنوان: "صيحة الأندلس الجديدة- في أول الخالدين":

"التحق النائب الشاب الاستاذ أكرم الحوراني منذ أمس بمعسكر التدريب، ثم توجه إلى ميدان الشرف متطوعا للجهاد على رأس فرقة بدر... إن عدم تسليمي بمبدأ التفريط برجالاتنا الذين هم من نوع أكرم لا يمكن أن يعني قط الاعتراض على تطوع أكرم فداء للعروبة التي تفترس اليوم في فلسطين. لأن أكرم لم يكن يوما غير جندي في قلب ساحة الجهاد الأكبر في الحياة العامة وفي البرلمان يكافح عن حياة هذا الشعب وكرامته. وإنما يعني

أن مكان أكرم في ساحة البرلمان- إذا فرغ لا سمح الله- فلا يمكن أن يملأه أحد من الناس سواه ولكن أكرم أبى إلا أن يستأثر بجهاد الساحتين، وإلا أن يضرب المثل للخافقين، وإلا أن يكون للعرب كافة كما كان للسوريين وإننا أن ابتهلنا الى الله أن يردك سالما، فإننا نبتهل بذلك من أجل انفسنا، أما أنت فقد استوت لديك السلامة والاستشهاد".

□

غادرت دمشق إلى معسكر قطنا بعد أن اشتريت بندقية فرنسية طويلة عتيقة، مع بعض الذخيرة، كما اشتريت من مخلفات جيوش الحلفاء معطفا مبطنا بفرو اصطناعي لأتقي البرد القارس في ذلك الشتاء... وقد احتفى بي ضباط المعسكر، وكنت أقضي النهار مع أخواني في التدريبات القاسية ودروس الرماية، وأقضي السهرة مع الضباط في ناديهم، نتسامر ونتحدث عن قضية فلسطين وخطورة الهجمة الصهيونية الاستعمارية والنتائج التي ستترتب عليها في المستقبل. وكان الضباط الشباب الملتهبون بالحماسة يصغون لأقوالي بشوق الأرض العطشى للمطر.

ذكريات في معسكر التدريب.

قي ذلك المعسكر تعرفت على اللواء صالح حرب باشا، وزير الدفاع المصري السابق، ورئيس جمعية الشبان المسلمين بمصر، الذي انتدبته هيئة وادي النيل العليا للدفاع عن فلسطين للاطلاع على شؤون المتطوعين السوريين، فأقام معنا في معسكر قطنا عدة أيام، وقد انعقدت أواصر الصداقة بيني وبينه وتوالت الاجتماعات الودية.

كان صالح حرب مناضلا عربيا ومجاهدا قديما من الذين اشتركوا في حرب طرابلس الغرب ضد الاستعمار الايطالي وكان عسكريا جديا، مؤمنا، نظيف العقل والنفس، شديد الثقة والاعتداد بنفسه. وكان نموذج الجندي المصري الممتاز. وقد ترك في نفسي أثرا كبيرا من المحبة والاحترام، ونظرا لصغر سني بالنسبة إليه فقد كان يأخذ في حديثه دور المرشد والواعظ. وكنت أتقبل منه ذلك بكل فرح وسرور نظرا لتجاربه وحنكته وسوابقه المشرفة

في الجهاد والجندية.. وكان متشائما جدا من الاستعداد العربي، وواعيا كافة أبعاد القضية، ومقدرا المستوى الواجب بلوغه لمجابهة الخطر الذي يحيق بالأمة العربية.

كما تعرفت في معسكر قطنا على الاستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة، وهو نموذج مختلف عن صالح حرب كل الاختلاف. كان أحمد حسين رجلا سياسيا ومحدثا ساحرا وكان معه خمسة متطوعين من حزبه، هم على غاية الانضباط والانقياد . وكنت أعجب لمعاملته لهم إذ لم تكن معاملة الرفاق بقدر ما كانت معاملة السيطرة وفرض الانقياد بأكثر مما يعامل به الضابط جنودهم. وقد جرت أحاديث شتى حول الأوضاع في مصر وسوريا، وابدى استعداده للذهاب معنا إلى فلسطين ولكنني كنت مقدرا أنه سيعود بعد الأيام الأولى من عبور الحدود وهذا ما حدث فعلا.

□

لم يكن المقال الذي نشرته النصر إلا صدى لنبأ تطوعنا للقتال في فلسطين الذي أثار هزة وأثرا عميقا بعيد المدى، فراحت الوفود تنهال على معسكر قطنا لتوديعنا وتشجيعنا ومباركة عملنا، وبدأ الضباط يطلبون الأذن من الجيش للتطوع في صفوف المجاهدين، كما دفعت الحماسة الطلاب للالتحاق بنا فكنا نحاول إقناعهم بالعودة لمتابعة دراساتهم.

أصبحت قطنا محجة للزوار من وفود النواب وأفراد الشعب على مختلف اتجاهاتهم وأحزابهم، وأذكر أن زميلنا النائب الشيخ مصطفى السباعي رئيس الاخوان المسلمين ألقى كلمة طيبة في المعسكر فقال له علاء الدين الحريري بعد انتهاء خطابه:

ما دام الجهاد والاستشهاد سبيلنا إلى الجنة فلم لا ترافقنا إلى فلسطين؟ فأجابه الشيخ مصطفى: سأقوم بواجبي إن شاء الله.

شرحت لوفود النواب الأوضاع في معسكر قطنا، ودرجة الإعداد، وطلبت منهم مواصلة الضغط على الحكومة، لتلافي التقصير والاهمال واللامبالاة. وهذا ما جعل زميلنا النائب محمد

السراج يقول في البرلمان: "كنت منذ ساعة في معسكر قطنا، وقد لمست، كما أوضح لنا الزميل الحوراني الموجود هناك، أن المعسكر يحتاج إلى عناية كلية، ولا أجيز لنفسي أن أبحث هذا الأمر في جلسة علنية، بل أرجيء ما أريد قوله إلى جلسة سرية تعقد من أجل فلسطين فيما إذا قرر المجلس عقدها.. أما التبرعات فإنها لا تغذي عملا نضاليا قوميا كالعمل القادم من أجل فلسطين، ولا سيما أننا لمسنا في التبرعات أنها تبلغ حتى عشر الدخل السنوي لطبقات العمال وصغار التجار وأمثالهم ولكنها لم تصل إلى القادرين على الدفع إلا بنسبة واحد بالمائة أو واحد من ألف بالنسبة لدخلهم السنوي. ولهذا لا بد لنا من أن نفكر بفرض ضرائب تصاعدية حتى لا يقع العبء على أناس دون أناس، بل يلحق بصورة خاصة الأشخاص الذين يجب أن يساهموا في معركة التحرير".

ومن طرائف تلك الزيارات أذكر الحادثة التالية :

انتسب إلى الكلية العسكرية في حمص ابن المجاهد المغربي عبد الكريم الخطابي فكان رفيقنا الاستاذ نخله كلاس يحبه ويرعاه وقد جاءا معا لزيارتنا في المعسكر، وفي اليوم الثاني أتى من يخبرني بأن الأمير عبد الكريم الخطابي قادم لزيارتنا، فرأيت من واجبي أن ألقاه خارج نادي الضباط، فوجدت رجلا ضخما يرتدي الثياب المغربية المعروفة فعانقته بحماسة قائلا: مرحبا بالأمير الخطابي، فقال لي: "أنا الشيخ الكتاني". فشعرت بالمفاجأة المذهلة وكأن سطل ماء بارد سكب علي. فقد كنت أمقت هذا الشخص للشبهات التي كانت تحوم حوله ولا سيما في قضية اغتيال المرحوم الدكتور الشهبندر.

قضينا أسبوعين في معسكر التدريب نتمرن على الرماية وإلقاء القنابل والتدريبات العسكرية المألوفة، ورغم ما كان يحز في نفوسنا من التقصير والاهمال والفوضى في المعسكر، فإننا قضينا فيه أكثر من خمسة عشر يوما تعتبر من أروع أيام العمر نشوة وفرحا واستبشارا: جو طاهر نظيف غسل نفوسنا وجعلنا بحكم الشخص الواحد نتوجه جميعا نحو الهدف أنقياء أبرياء تغمرنا محبة المواطنين وتشجيعهم وتهليلهم. وكان مما يزيد في فرحنا واستبشارنا أن فرق المتطوعين بدأت تتشكل في سوريا وتفد إلى

المعسكر تباعا. فقد التحق بنا عدد من مجاهدي حمص، على رأسهم الحاج حفني، وعبد الكريم الرمضون ورفاقهما. كما التحق بنا من حلب ابراهيم الشهبندر وعمر الحلبي ورفاقهما وهما من حزب الشباب وقبل أن نغادر المعسكر بأيام انضم إلينا الدكتور عبد السلام العجيلي نائب الرقة، وشيئا فشيئا ازداد عددنا إلى ما يقارب ثلاثمائة فدائي بعد أن انضم إلينا تباعا عدد من الطلاب والأطباء، كشوقي الأتاسي من حمص بالاضافة إلى من التحق بنا من الضباط الشباب أذكر منهم الملازم فتحي الأتاسي (الشهيد) والملازم شفيق العبيسي (الشهيد) والملازم عبد الحميد السراج والملازم محمد جديد (الشهيد) والمقدم أديب الشيشكلي، وبعد دخولنا إلى الجليل بشهرين التحق بنا حسين الرفاعي الضابط المتقاعد في الدرك ثم التحق بنا فوج من أبناء إدلب وأريحا بقيادة النائب غالب العياشي.

تنظيم الفوج عسكريا.

عين أديب الشيشكلي رئيسا عسكريا للحملة نظرا للقربى بينه وبين محسن البرازي[1] أمين سر رئيس الجمهورية شكري القوتلي فلم أعترض على هذا التعيين، إنه على كل حال سيؤمن لنا ميرتنا وذخيرتنا لأننا غير قادرين على ذلك، وقد قدرت أنه سيكون صادقا ومخلصا معنا فهو ابن بلدنا، ورفيق الصبا، وهو عسكري شجاع.

بدأ الشيشكلي بتنظيم شؤون المتطوعين فسجل أسماءهم وأحصى أسلحتهم ووزع عليهم ذخيرة كافية ونظمهم حضائر وسرايا، وقد استغرب أحمد حسين قبولي بقيادة أديب الشيشكلي العسكرية فسألني مندهشا:

- أليس معظم هؤلاء المتطوعين من حزبك؟

قلت: بلى

(1) والدة أديب الشيشكلي من عائلة البرازي، ومحسن البرازي ابن عمته، كان من أسباب قبولنا بقيادة أديب سهولة اتصاله بمحسن البرازي أي بالقصر رأسا مما يمكن أن يسهل لنا حصولنا على الذخيرة والميرة، كما كان للقصر غايته من هذا التعيين وهي الرقابة على فوج الشباب وضبطه.

- إذن كيف تقبل أن يكون الشيشكلي رئيسا لهم؟

قلت له: لأنني أثق بإخلاصه وشجاعته ولأنني لست عسكريا فأنا من هذه الجهة جندي مثل رفاقي بل أنا أقل كفاءة منهم من حيث التدريب والتمرس على فنون القتال.

التوجه إلى بنت جبيل.

في مطلع كانون الثاني 1948 أجرى الشيشكلي تجربة استنفارنا للتوجه إلى فلسطين كعملية تمويه واختبار للانضباط والنظام، وبعد أيام استنفرنا وتوجهنا فعلا إلى فلسطين.

غادرنا المعسكر قبل غياب الشمس بسيارات كبيرة، ثم توقفنا قليلا لأن فوزي القاوقجي أراد أن يتفقدنا فنزلنا من السيارات وتحلقنا حوله بصفوف منظمة، فألقى كلمة أشاد فيها بأديب الشيشكلي دون أن يشير إلي وإلى النواب المتطوعين بكلمة واحدة، مع انني كنت قد اقترحت في مجلس النواب أن يتولى قيادة الجيش السوري وأشدت بكفاءته دون سابق معرفة إلا ما كنا نسمعه عن دوره في ثورة عام 1925 وثورة فلسطين عام 1936 وثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام 1941، وقدرت أن تجاهله كان مرضاة لشكري القوتلي ووزير الدفاع أحمد الشراباتي.؟

تابعنا السير ليلا على طريق راشيا ومرجعيون فوصلنا بنت جبيل في مطلع الفجر فاستقبلنا أهلها بالترحيب والتهليل، فزرنا مخفر الشرطة كما زرنا بيت الشاعر موسى الزين شراره المطل على باحة صغيرة، وقضينا في بنت جبيل ساعات بين أهلها الذين أحاطونا بعواطفهم.

تجربة الضياع الأولى.

في ضحى ذلك اليوم توجهنا إلى "عيتا الشعب"، وهي قرية لبنانية تقع في سهل صغير، تحيط بها من كل جانب الجبال المكسوة بالأحراج ومنها كان علينا متابعة سيرنا متوجهين إلى

"فسوطة" أول قرية في فلسطين ، فكان علينا أن نجتاز الجبال التي تغطيها الأحراج الكثيفة كعباءة خضراء.

تم تنظيم الفوج الى حضائر وسرايا. وكانت القيادة مؤلفة مني ومن الرئيس أديب الشيشكلي، يرافقنا الاستاذ محمد عطورة وأبو ابراهيم الصغير، وكان الملازمون فتحي الأتاسي، شفيق العبيسي، عبد الحميد السراج، محمد جديد، بالاضافة إلى صلاح الشيشكلي رؤساء السرايا، أما رؤساء الحضائر فكانوا من المجاهدين أنفسهم.

وكان اصطحابنا لأبي ابراهيم الصغير كخبير يعرف مداخل الأرض ومخارجها وكدليل في الطرقات الجبلية الحراجية، بينما كانت البغال وراءنا تحمل الميرة والذخيرة.

□

وصلنا إلى تخوم الجبال الحراجية الخضراء عصر ذلك اليوم فدعا أديب الشيشكلي جميع رؤساء السرايا وقال لهم مشيرا:

انظروا إلى تلك الشجرة الكبيرة في قمة الجبل، إن ملتقانا هنالك ولتذهب كل سرية من طريق.

فذهبت السرايا بقيادة رؤسائها متجهة نحو الشجرة الكبيرة في القمة.

قلت لأديب:

لقد أخطأت وعليك أن تتراجع عن الخطأ قبل أن يدخل رفاقنا بين أشجار الحرج ولما استوضحني أديب عن السبب قلت له:

كنا نلعب ونحن أطفال في أحراج قرية (حرمل) في جبال اللاذقية، فتعلمت أن من يدخل الأحراج حتى في النهار لا يمكنه أن يشاهد شيئا فالحرج متاهة، وأنا أؤكد سلفا بأن رفاقنا سوف يضيعون داخله ولن يستطيعوا أن يتلاقوا عند الشجرة التي رأوها قبل دخولهم الغابه .

امتعض أديب واعتبر ذلك تدخلا بقضية عسكرية فقلت له:

إن القضية قضية خبرة وتجربة فتدارك الأمر قبل أن يضيع اخواننا في هذا الحرج الكثيف عندما يخيم الليل، ولما لم يقتنع قلت له: أنت المسؤول عن النتائج.

وبعد مسيرة قصيرة بدأ ليل كانون الثاني يلف المنطقة، وكانت النجوم تتلألأ في سماء تلك الليلة القارسة كما تتلألأ ثريات الكريستال... التفت أديب إلى دليلنا أبي ابراهيم قائلا:

- تابع مسيرك أنت والميرة والذخيرة الى فسوطة، ونحن سنتوجه إلى رفاقنا.

ذهب الدليل في طريقه، وسرنا أنا وأديب ومحمد عطورة في طريقنا.. وبعد بضع ساعات من الضياع أدرك أديب خطأه فسألني:\

- ما العمل ؟

أجبته : إذا ضل السائر ليلا طريقه فعليه أن يلبث في مكانه حتى الصباح ليستبين له الطريق.. لأننا إذا واصلنا السير فإننا لن نلتقي بإخواننا. وقد نصل دون أن ندري، الى "كمب" انكليزي أو مستعمرة يهودية، وخير لنا أن نبقى حيث نحن حتى الصباح، وفي النهار يمكننا أن نفتش عن رفاقنا الآخرين، فكبرت عليه المسؤولية كثيرا، وانتفض كالمجنون، ونزع سترته رغم البرد القارس وقال:

- سأبحث أنا عن الرفاق، فإذا لم أجدهم عدت إليكم.

قلت له:

- اسمع مني وابق معنا. فإنك لن تتمكن حتى من العودة إلينا.

كان المرتفع الذي بقيت فيه مع محمد عطورة مطلا على البحر البعيد وعلى كثير من مدن فلسطين الساحلية وقرى الجليل الجبلية التي كنا نشاهد أضواءها البعيدة مع أضواء النجوم وكنا كمن تاه به زورقه في بحر الليل البهيم، يلسعنا البرد القاسي، ولا ندري ماذا نفعل، فألح علي محمد عطورة بأن نمشي لنبعث في أجسامنا الدفء والحرارة فقلت له:

- هيا.. ولكن إلى الخلف.. إلى عيتا الشعب.

فمشينا ودليلنا النجم، كنا لا نرى طريقنا، نصطدم بشجرة فتتلقانا أخرى، فنرتمي على الأرض، ولن أنسى تلك المطبات من الاشجار والادغال التي كنا نقع بها، فتمزقت ثيابنا وأكلت الإغصان من جلودنا، ولا أدري كيف نجونا من تلك الأدغال والمطبات.

جلسنا في كنف صخرة كبيرة نتقي برد الرياح القارسة، وقلت لمحمد: خير لنا أن نمكث هنا، وعند الفجر مرت بنا حضيرة عبد اللطيف سالمة (11 مجاهدا) فرأونا في حالة التجمد من شدة البرد، سلموا علينا فرددنا عليهم إيماء برؤوسنا.

قضينا معظم النهار حتى استطعنا أن نلم فلولنا الهائمة، وقد روى لي فتحي الأتاسي أنه وصل إلى قرب الكمب الانكليزي، ولولا سرعة ارتداده مع سريته لتعرضت السرية لخطر الصدام مع البوليس الانكليزي.

في قرية فسوطة.

من جبل إلى واد، إلى جبل آخر، كانت فسوطة التي تقع على قمة الجبل أول قرية دخلناها في فلسطين، فتلقانا أهلها بالترحيب الحاد، واستضافونا في بيوتهم فقضينا ليلة دافئة بعد ما عانيناه من الجوع والسهر والتعب.

منذ اليوم الأول شاهدت على الطبيعة أن جبال الجليل هي امتداد طبيعي لجبال لبنان وجبال اللاذقية، فهي سلسلة جبلية واحدة تمتد من لواء اسكندرون إلى جنوب فلسطين بمحاذاة الساحل، إنها تشبه بعضها بعضا تشابها يكاد يكون كاملا بطبيعتها ومناخها وأحوال سكانها الزراعية والاقتصادية والمعاشية، فزراعة التبغ في فسوطة وزراعة الزيتون والفواكه في الجليل هما مصدر المعيشة الرئيسيان هنا كما هو الحال في جبال اللاذقية، ولكن

مستوى معيشة الفلاح في الجليل[2] كان أعلى من مستوى معيشة الفلاح السوري.

كانت قرية فسوطة صغيرة ومنعزلة، ولكن منذ اجتماعنا بأهلها في ضحى اليوم الأول أدركت غيبة الأحزاب والهيئات السياسية وانقطاعها عن الاتصال بالجماهير لتوعيتها بحقيقة المعركة التي سيتعرضون لها، وضرورة استعدادهم لها.

وقبيل مغادرتنا القرية اجتمعنا بأبنائها في بيت المختار. فتكلم أديب كما تكلمت شارحا خطورة المعركة بين اليهود والعرب وما سوف يترتب عليها من نتائج خطيرة، كما أكدت ضرورة الاستعداد للمعركة بتوحيد الصفوف ونسيان الخلافات وشراء السلاح والتدريب على الرماية والقتال، وكانت الدعاية والتوعية سلاحنا الوحيد، لأننا لم نكن قادرين- لضآلة عددنا- أن نتوزع في قرى الجليل لنقوم بتنفيذ هذه المهمة، وليس على الأهلين إلا أن يتولوا بأنفسهم تنظيم شؤونهم الدفاعية عن القرية ونحن مستعدون لتقديم كل مساعدة ممكنة لهم.

كان جو من الاطمئنان يرين على نفوس أبناء الجليل، ولم يكن يخامرهم أي قلق أو اهتمام جدي لما سيتعرضون له في المستقبل القريب.

أيام في سحماته .

غادرنا فسوطة متجهين إلى قرية "سحماته" التي لا تبعد عنها كثيرا، فسلكنا الطريق العام وسرنا دون توقف أو استراحة

---

(2) الجليل كلمة سامية تعني (الدائرة). وتمتد جبال الجليل من أقصى شمال فلسطين إلى مرج ابن عامر جنوبا، ومن سهل عكا غربا إلى وادي الحولة شرقا، تقدر مساحتها بنحو 380كلم مربعا، تكوينها غالبا من الصخور الجيرية الممتصة للماء، وهذا سبب كثرة كهوفها ومغاورها وفقر تربتها إجمالا، مما جعل انتاجها الزراعي محدودا، واقتصاد قراها قائم على التبغ والزيتون وأشجار الفاكهة المتساقطة الأوراق خريفا، وعلى الحبوب في هضابها الشرقية.. تقسم الى قسمين يفصلهما وادي الشاغور:

" 1- الجليل الشمالي:يدعى الجليل الأعلى، مركزه مدينة صفد، صخري وعر، تتراوح الأيام الماطرة فيه بين60و80يوما.

2- الجليل الجنوبي: يدعى الجليل الأدنى، أقل ارتفاعا من سابقه ولكنه أكثر خصبا، مركزه مدينة الناصرة ويتخلله سهل البطوف، يتراوح معدل الليالي التي يتكون فيها الندى في القسم الغربي منه بين (200) و (250) ليلة (موسوعة فلسطين الجغرافية ص 81).

حتى وصلنا سحماته عشية ذلك اليوم، وقد بدت لي القرية أكبر بكثير من فسوطة. نمت في اليوم الأول مع أديب الشيشكلي في بيت واحد. وفي الأيام التالية رأيت من المفيد أن أبيت مع الحضائر لأبقى على اتصال وثيق بها.

ومنذ اليوم الثاني في سحمانه بدأت ترد إلينا بعض الوفود على نطاق محدود من أبناء القرى المجاورة وقد شعرنا من خلال الأحاديث ما ينبئ بالانقسامات التي تسود منطقة الجليل محليا وعربيا، فأكدنا للأهالي بأننا لا ننتمي للهيئة العربية العليا، ولا لقيادة القاوقجي، وليس لنا أية علاقة بالخلافات المحلية التي حدثت في الماضي، وكنا نؤكد على ضرورة وحدة الصف وتناسي الخلافات، والتوجه للمعركة والاستعداد لها، كما كنا نبصرهم بالعواقب الوخيمة التي ستحل بالعرب عامة وبهم خاصة إذا لم يعدوا أنفسهم لهذه المعركة، وكنت أشير إلى أن اليهود إذا ظفروا فإنهم سيستولوا على كل هذه القرى فيطردوا أهلها ويعملوا بهم قتلا وتشريدا.. كنت أصور لهم المأساة التي وقعت فعلا فيما بعد، فكانت الدهشة ترتسم على وجوههم. وكنت أسمع منهم بعد كل حديث جوابا واحدا وبصوت واحد: "ما بيسترجوش". فقد كان راسخا في نفوسهم احتقار اليهود وازدراؤهم، كما كانوا واثقين من أن اليهود لن يحتملوا أية مواجهة مع العرب لأنهم كانوا يسمعون آناء الليل وأطراف النهار الدعايات التي ترددها الاذاعات العربية عن تأييد العالم العربي والاسلامي لهم.

كانت أقوالنا مستغربة وغير قابلة للتصديق في جو من الاستسلام والانقسام كان يسود الجليل بعد ثورة 1936، ولم يكن هناك أي أثر يذكر للتوعية السياسية ما خلا بعض المدن مثل عكا وصفد، وكانت العلاقات السياسية بالهيئة العربية العليا علاقات عائلية وزعامات محلية، وبالرغم من ذلك فإن الثورة كانت تشق طريقها ببسالة رغم حرمانها من كل الوسائل والامكانات.

كان في رأس مهماتنا إذن توعية السكان لأن ذلك لا يقل أهمية عن قيامنا بالعمليات العسكرية بل كنت أردد دوما بأن العمليات يجب أن تكون في البداية وسيلة للتوعية السياسية

وتنظـيم الأهلـين، ولكـن قلـة عـددنا وضـعف إمكانياتنـا بالتسـلح والتدريب والتجهيز بالنسبة لمنطقة الجليل الواسعة، لم يسمح لنا بفرز عدد من الواعين المتعلمين من أفراد فوجنا ليقيموا فـي هـذه القرى بشكل دائم، كما لم يكن لدينا عدد كاف من الضباط يمكنهم أن ينصرفوا لتدريب أبناء هذه القرى، بالوقت الذي كـان فيـه معظـم أفراد فوجنا بحاجة للتدريب أيضا.

إن انتشارنا في قرى الجليل للقيام بهذه المهمات الضـرورية كان سيمنعنا حتما مـن القيـام بـأي عمليـات عسـكرية ضـد العـدو ومهاجمتـه واقلاقـه وإيقـاع الخسـائر بـه.. ويـا ليتنـا سـلكنا ذلـك الطريق، طريق تثوير أبنـاء المنطقـة، إذن لكـان أجـدى وأكثـر فائـدة بالنسبة للمستقبل، ولكن هل كان بإمكاننا أن نفعل ذلـك ونسـلم مـن الألسـنة الحـداد التـي كانـت لنـا بالمرصـاد تحـاول أن تشـوه سمعتنا وتمزق صفوفنا؟ فأقل ما كنا سنوصم به اننا ذهبنا للنزهـة والدعاية لأنفسنا. إن لم نتهم بالجبن والتخاذل والمتاجرة.. فكان لا بد لنا من سلوك الطريق الآخر.

ولو اقتصـرت المعونـة العربيـة للشـعب الفلسـطيني علـى تسـليحه وتجهيـزه وتدريبـه علـى القتـال وإعـداده للمعركـة للعـب الشـعب الفلسـطيني الـدور الحاسـم عنـد دخول الجيوش العربية الـى فلسـطين ولمـا أمكـن للحكـام العـرب أن ينفـذوا تـآمرهم الـذي كانـت أولـى بـوادره عقـد الهدنة الأولى عام 1948.

كانت خطتنا ألا نبـدأ بأيـة عمليـات عسـكرية قبـل أن نتعـرف على أرض الجليل وطبيعتها شبرا شبرا. ولم يمـض وقـت طويـل إلا وكنا جميعا قد درسناها كلها سيرا على الأقدام من قرية إلى قرية ومن موقـع إلـى موقـع. وكنـا علـى اتصـال وثيـق بـالأهلين لنجمـع المعلومات عـن العـدو، ونرصـد كـل مالـه علاقـة بـه وبمسـتعمراته المنتشره في الجليل والحولة.

في سحماتة خرجنا من جو المجهول الذي كان ينتظرنا قبـل دخولنا لفلسطين، وبدأنا نأنس بالطبيعـة والأهلـين، وأخـذنا نشـعر

وكأننا من أبناء المنطقة، كما أصبحنا أكثر ثقة بأنفسنا لأننا لم نتعرض لأي هجوم من قبل الانكليز أو اليهود، ولم نعد نخشى الصدام معهم بعد أن أصبحنا على الحالة التي ذكرت، كما شعرنا بأن اليهود كانوا يتجنبون التعرض لنا ويتحاشون الاشتباك معنا... وقصارى القول: إن اقامتنا في سحماته أياما هيأت لنا هذه الأفكار التي انطلقت على ضوئها جميع تصرفاتنا وأعمالنا السياسية والعسكرية فيما بعد، وكانت اقامتنا القصيرة في سحماته غنية بآثارها، إذ أصبحت تربطنا بأهالي القرية مودة وألفة وثقة بفضل ما كان يتجلى به أفراد الفوج جميعا من وعي سياسي.

قررنا الانتقال إلى قرية "بيت جن"، وهي قرية درزية، فحذرنا أهل سحماته من زيارتها مؤكدين أن ذهابنا إليها عمل لا يخلو من المغامرة والمخاطرة... وما أن غادرنا سحماته حتى مر بنا أحمد حسين فالتقط لنفسه عدة صور فوتوغرافية وهو يمتطي حصانا، ثم قفل راجعا هو ورفاقه الخمسة إلى مصر..

أزمة في قرية "بيت جن" .

ذهبنا إلى بيت جن وسط أشراك جبلية حرجية وعرة، وأكثر ما عانيناه من هذه الأشراك ليس وعورتها وصعوبة السير بها بحيث تمزقت أحذيتنا وثيابنا، ولا الحمولة التي كنا ننوء بها من أسلحة وذخائر وحوائج، بل العرق الذي كان يتصبب من أجسادنا بغزارة، مما اضطرنا لأن نجعل مسيرتنا على مرحلتين، وأن نتوقف قليلا في الطريق لنأخذ قسطا من الراحة، فيتجمد العرق على أجسادنا ويتحول إلى قشعريره بعد الاستراحة القصيرة. وهذا ما تسبب بالنزلات الصدرية لبعض رفاقنا، فاضطررنا لإرسال بعضهم الى صور للمعالجة والتداوي.

تقع قرية بيت جن على قمة عالية وعرة تطل على واد صغير تحيط به الجبال من كل جانب. وقد وصلنا إليها عند غياب الشمس فلاقانا أهلها بالاعراض وعدم الاستعداد لقبولنا في قريتهم. فتأزمت الأمور وكاد يحدث بيننا صدام لولا ما كان يتحلى به أفراد الفوج من وعي سياسي، بحيث أخذوا يشيدون بشجاعة

بني معروف وكرمهم المشهور في جبل العرب بسوريا، فسلس قيادهم شيئا فشيئا ثم قبلوا أن يستضيفونا، على الامتعاض والحذر.

أقمنا في بيت جن أياما، وركزنا أحاديثنا على علاقاتنا بسلطان الأطرش- ذلك الاسم السحري الذي كان يفتح مغاليق القلوب- وعلى جبل العرب وشجاعة بني معروف في ثورة عام 1925 في سوريا، وبطولاتهم ومعاركهم الباسلة لا سيما حملة الجنرال ميشو التي أبادوها عن بكرة أبيها بالسلاح الأبيض، وكثير من روايات الثورة التي كنا نحفظها منذ طفولتنا ونرويها بشكل اسطوري مثير، فاستأنس بنا الأهلون بعد جفاء، وأحبونا بعد مقت وكره، وزالت مظاهر الجفاء والحذر وحلت محلها علاقات المودة والألفة.

في بيت جن شعرت بالنقص الكبير في حملتنا لانها لم تضم شبابا من جبل العرب اذ لو كانوا معنا لقاموا بدور هام في نشر الوعي الوطني والسياسي في قرى الجليل الدرزية، وقد كانت علاقتنا مع سلطان الاطرش والشعبيين في الجبل علاقات وثيقة وطيبة ولكنها لم تتبلور في إطار سياسي محدد.

وأبرز ما لفت نظري في قرية بيت جن نظافة بيوتها التي ذكرتني بنظافة أهالي القلمون السورية، إن نظافة أهالي بيت جن، رغم الفقر وضآلة الموارد كانت تفوق نظافة بيوت أبناء المدن.

بعد الأيام الأولى غمرنا أبناء القرية بكرمهم رغم عدم حاجتنا إليه، فقد كانت حاجتنا إلى قلوبهم وثقتهم أشد من حاجتنا إلى كرمهم وسخائهم.

وقد بدأ يتوافد إلى القرية، بشكل محدود، أبناء القرى الدرزية في الجليل، فاعتبرناها فرصة ثمينة لشرح غاياتنا وأهدافنا وعلاقاتنا، والدوافع التي حدت بنا لتنظيم حملتنا، كما كنا نؤكد لهم عدم ارتباطنا بأي من الزعامات الفلسطينية أو العربية، كما كنا نشرح لهم أن ثورتنا تختلف كثيرا بصفائها ونقائها عن ثورة عام

1936 التي ارتكبت فيها كثير من الاخطاء والانحرافات التي نالت القرى الدرزية نصيبها منها.

العودة إلى سحماته.

لم تطل إقامتنا في بيت جن فقفلنا راجعين الى سحماته ثانية، فاستقبلنا أهلها بأحسن مما استقبلونا به في المرة الأولى، وكان على رأس المرحبين إمام القرية القصير ذو اللحية السوداء الذي يتقد حماسة واندفاعا وكان يحض على الجهاد باستمرار في مسجد القرية المتواضع، ومما لفت نظري قلة الأئمة والمساجد في قرى الجليل، الأمر الذي يختلف عما هو الحال في سورية، ولكن هذا لم يكن يعني عدم تمسك فلاحي الجليل بالدين، كما أننا لم نشعر بوجود أثر للطرق الصوفية والخرافات الدينية التي كانت تسيطر على عقول بعض أبناء القرى في سورية، وربما كان للثورات التي تعاقبت في الريف الفلسطيني أثر بارز في تحرر الذهن من الخرافات والأساطير.

أيام في سبلان.

اتجهنا شرقا من سحماته إلى قرية حرفيش وهي تقع أسفل جبل سبلان وقد اتخذها أديب مقرا له، وتسلقنا فرادى، وبصعوبة بالغة، قمة سبلان، ذلك الجبل العالي الأقرع الذي يطل منه المرء على مشاهد رائعة، حيث الغابات وأشجار الزيتون تحيط به من جهاته الأربع، ونهير صغير يجري في واديه السحيق من الجهة الجنوبية الغربية، فكنا نستحم فيه رغم البرد القارس، ونغسل ثيابنا وحوائجنا.

وعلى قمة سبلان نصبنا خيامنا حول الغرفة الصغيرة التي يلجأ إليها رعاة الماعز وأقمت فيها مع بعض الرفاق، كان البرد قارسا والتغذية سيئة، من التين العفن الذي ينخر به الدود، والبقسماط اليابس القاسي الذي كان الجيش يرسله إلينا، وكان يتسحيل علينا مضغه ما لم نكسره بالحجر ثم ننقعه بالماء. كان بمقدور بعضنا أن يشتري حاجاته من القرى المجاورة، ولكن أيا منا لم يشأ أن يسجل على نفسه أنه يأكل طعاما أفضل مما يأكل

رفاقه، أو أن يظهر بمظهر الضعيف أمام تحمل التقشف وشظف العيش، وكان تفسيرنا لسوء التموين تعجيزنا وانتشار الرشوة والفساد بين المسؤولين في الجيش وقد كانوا مطمئنين لعدم تفرغنا لفضحهم وإحراجهم، وقد عانى الجيش السوري من فساد التموين الشيء الكثير مما سأورده في حينه.

استبدت بي الرغبة ذات يوم لفنجان من القهوة، فذكرت ذلك أمام رفاقنا الحماصنة، فقال لي الحاج رمضون:

- إليك فنجان قهوة مرة.

وأخرج من جيبه علبة تحوي حبوبا سوداء صغيرة، أعطاني واحدة منها فبدأت امتصها وأنا أشعر كأنني أشرب فنجان قهوة مرة مصنوعة جيدا على الطريقة البدوية، فسألته عن سر الصنعة فقال إن هذه الحبوب الصغيرة السوداء هي عبارة عن قهوة مرة مجففة، وأنه هيأها لنفسه قبل مجيئه إلى فلسطين.

كانت كل مصاعبنا محتملة، إلا مصيبتنا بالقمل، رغم اغتسالنا في النهر الذي يجري في أسفل الوادي، فاضطررت لاستعمال مادة الـ ددت، وبتشجيع من صلاح الشيشكلي مزجت الـ ددت بالبترول ، ورششته على جسمي وثيابي، فلم أذق للنوم طعما في تلك الليلة، فقد التهب جسمي وأصبحت أشعر وكأنه يكوى بالنار.

نزلت الى حرفيش لأستقبل مع أديب الشيشكلي الوفد الأول من أبناء العائلات الميسورة في عكا، كان تسلحهم جيدا وكانوا يتقدون حماسة واعتزازا بأسلحتهم، أما الوفد الثاني فقد كان من فتيات عكا جئن بالهدايا مما صنعته أيديهن من القمصان والكنزات، وكان منظرا مؤثرا عندما قدمن الهدايا للمجاهدين، ثم توالت وفود عكا من فتيان الفرق الكشفية الى وجوه المدينة، وكانوا جميعا يعربون عن حاجتهم الشديدة للسلاح الأمر الذي توضحه الرسالة التي وصلتني بتاريخ 1948/1/16 من المحامي العكاوي السيد عبد القادر شبل:

"لحضرة السري الأمثل الزعيم الكبير الأخ الأديب أكرم بك الحوراني المحترم:

تحية أخوية طيبة، وبعد رجعت واخواني أمس وكلنا ألسنة شكر تنطق في هذه التضحية الكبرى التي تتولون القيام بها وهي بحد ذاتها تعبر تعبيرا صحيحا عن نكران الذات في سبيل الجهاد والذود عن حياض العروبة في سوريا الجنوبية التي تضم مقدسات العرب وذكرياتهم وأمجادهم وتقاليدهم، تلك الأمجاد التي لا تستطيع الرطانة الأجنبية والاستعمار الغاشم أن تنال شيئا منها، وثقوا أيها الاخ الزعيم أن أخوانكم في هذه البلاد تحملوا في جهادهم سحابة تسعة وعشرين عاما للدفاع عن حقهم الطبيعي في الحرية والاستقلال ضد استعمارين غاشمين مزدوجين، ما لم يتحمله شعب آخر في البلاد العربية جمعاء، وأنهم لا يزالون مصممين على الجهاد إلى أن يعاد الحق المغصوب إلى نصابه لا يضنون على هذا الوطن المقدس بنفس أو نفيس ولا ينقصهم العزم والايمان وإنما ينقصهم السلاح والعتاد، وهذا أصبح بكل أسف محدودا وثمنه غاليا غلاء فاحشا. وإذا كانت سوريا الحبيبة أرسلت بفلذات أكبادها وعيونها التي ترى النور بها يدرجون في ميدان الجهاد بين الأودية والجبال في هذه البلاد المقدسة هاجرين إلى حين الفراش الوثير والحياة المحفوفة بالنعيم والدلال، وقد غادروا في سبيل الله سوريا الحبيبة التي تنعم بالحرية والاستقلال الى الأبد إن شاء الله، فإن هذه النهضة الوطنية الكبرى والشعور المقدس للدفاع عن الوطن انتقلت بصورة عجيبة من بطاح سوريا إلى بلادنا هذه فتأسست فيها عند الشعور بالخطر كتائب الجهاد من نخبة الشباب وعلية القوم، وفي طليعتها (سرية الجامعة العربية) التي أقدم لكم كتابي هذا مع أحد أعضائها البارزين الاستاذ الفاضل السيد علي صادق رستم، وهو استاذ في المدرسة الثانوية الأميرية بعكا للذكور، حسب اتفاقي مع سعادتكم أمس لأرى وأنفذ ما تأمروه من اختيار المكان الذي قررتم اتخاذه في هذا القضاء حسبما تحادثنا أمس، وإن أي مكان تتخذونه حتى ولو كان بيت جن مثلا فلدي من الوسائل التي تخلق الرغبة الطبيعية في نفس أهالي بيت جن لأن تجعلهم عن رضاء واختيار ودون إكراه أو اجبار لأن يهبوا إلى مقركم خفافا ثقالا ويستقبلونكم في بلدهم على الرحب والسعة والصلاح والمنفعة حيث أنني بمجرد وصول أمركم سآخذ معي بعد البحث والاقناع رئيس الطائفة الدرزية فضيلة الشيخ أمين طريف بصورة سرية لا يعلم

بها أحد فأزور وإياه قرية بيت جن وأجري اللازم بما يحقق لي نصيبا ضئيلا في خدمة المجاهدين الأبرار والأبطال الأحرار من عيون سوريا الحبيبة في هذه المسألة البسيطة وإذا رأيتم اختيار خلافها في هذا القضاء فما عليكم إلا أن تأمروا وليس علي إلا تنفيذ الأمر فإنني أخا المجاهدين أينما حللت، وإني لجوابكم مع حامل رسالتي هذه الرسول الأمين لمنتظر ولكل أجل كتاب ولكل حادث حديث، والسلام عليك أخا الجهاد وعلى أخوتك المحترمين ورفاقك الأبرار وبركاته... المخلص أبدا أخوكم عبد القادر شبل.

الهجوم على قلعة جدين.

بالقرب من قرية طرشيحة الكبيرة والآهلة بالسكان العرب تقع قلعة جدين، وهي قلعة قديمة بناها أحمد باشا الجزار والي عكا، كما يقال بأنها من بقايا قلاع الصليبيين، وقد حولها اليهود إلى مستعمرة حصينة وسموها "يحيام".

عقد أديب الشيشكلي أول اجتماع عسكري للقيادة في حرفيش وأطلعنا على خطة الاستيلاء على قلعة جدين، وكانت خطة عسكرية مدروسة ومبنية على المعلومات الدقيقة التي جمعها أديب عن أحوال سكان تلك المستعمرة الذين كان من عادتهم أن يخرجوا باكرا جدا وقبل طلوع الشمس من القلعة إلى عملهم في الحقول والكروم المحيطة بها، فعهد إلى الملازم الطيار عمر صفر على رأس فريق بالتسلل تحت جنح الظلام إلى قرب القلعة حيث ينتظر خروج الصهاينة منها فيبدأ هجومه من الجنوب ليحول دون ارتدادهم الى القلعة، وكان على فريقنا بقيادة أديب أن نسلك طريق طرشيحا ونلبث متربصين في السفح الجبلي المطل على القلعة من الشمال ولا نبدأ هجومنا إلا بعد أن يشتبك فريق عمر صفر مع اليهود.

كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لاحتلال القلعة لأننا لا نملك الأسلحة الثقيلة وكانت خطة واقعية مدروسة بناء على المعلومات التي نقلها إلى الشيشكلي عيونه وأرصاده، وكانت معلومات دقيقة عن عدد المقاتلين ومواعيد خروجهم من القلعة

ورجوعهم منها وطريق تموينهم ونجدتهم من نهاريا الواقعة على الساحل شمالي عكا ومواعيد مجيء القوافل التموينية الخ...

وقد أناط الشيشكلي بالملازم عبد الحميد السراج قيادة الكمين على طريق تموين وإمداد قلعة جدين.

تم تنفيذ الخطة على النحو المرسوم فانطلق الملازم عمر صفر مع أبو ابراهيم الصغير بمجموعته ليلا متجنبا المرور في القرى، سالكا الوادي الذي تشرف عليه قرية يركا الدرزية المطلة على قلعة جدين، كما سلكنا نحن طريقنا إلى طرشيحا حيث كمنا تحت جنح الظلام في المرتفع المطل على القلعة مباشرة ولما كنا قد وصلنا قبل الموعد فقد غفونا قليلا على الأرض.

عندما سمع اخواننا اطلاق النار بدأوا هجومهم على القلعة من سفح مكسو بالأشجار، وكان أديب الشيشكلي في طليعة المهاجمين ... كانت دريئاتنا من نيران العدو الكثيفة تلك الشجيرات الصغيرة حتى وصلنا إلى قرب القلعة، وهي تقع في سهل مكشوف وعندها أدركنا أن فريق الملازم عمر صفر قد فشل في تنفيذ مهمته، وعرفنا أن سبب إخفاقه يعود أولا لعدم جرأة أبو ابراهيم الصغير في الاقتحام السريع للحيلولة دون رجوع اليهود إلى القلعة، ولأن المجاهدين بادروا بإطلاق النار قبل أن يصلوا إلى أبواب القلعة مما نبه الصهاينة وجعلهم يعودون إليها ويتحصنوا فيها.

بعد الظهيرة انتهت المعركة وتراجعنا إلى المرتفعات التي تشرف على القلعة عندما خفت قوات الجيش البريطاني لنجدة سكانها.

كان مستوى الرماية والتصويب لدى القناصة اليهود على درجة عالية جدا، فقد كان في كل مستعمره عدد من القناصة والرماة الماهرين.

تركنا في أرض المعركة قريبا من أبواب القلعة جريحا من حماه من عائلة السراقبي، كان يستغيث بصوت يفتت القلوب وقد

حاولنا سحبه من أرض المعركة ولكن الصهاينة جعلوا منه مصيدة فجرح اثنان من رفاقنا بهذه المحاولة الفاشلة.

كان التوفيق الذي أصبناه في هذه العملية الكمين الذي نصبه الملازم عبد الحميد السراج عندما قدمت مصفحتان من نهاريا لنجدة الحامية اليهودية فما إن توقفتا عند الخندق حتى أصلاهما المجاهدون نارا حامية بالرشاشات والقنابل اليدوية فأحرقوهما بجميع من فيهما.

أما خسائرنا فكانت الشهيد حمود السراقبي الذي اضطررنا لتركه في أرض المعركة، وعددا من الجرحى بينهم علي الحريري وزيد الحريري وآخرون قام أطباؤنا بإجراء الاسعافات الأولية لهم، بعد نقلهم إلى طرشيحا. ثم اصطحبهم الدكتور فيصل الركبي إلى مستشفى صور الذي يقوم عليه الدكتور الجراح سعد الدين الخليل، وسنذكر فيما بعد الخدمات الجليلة التي قدمها الدكتور الخليل للمجاهدين. بعد انسحابنا الى المشارف المطلة على جدين، حاولت طائرة يهودية أن تقصفنا فألقت علينا بعض القنابل التي انفجرت في الجو، فركزنا عليها نار بنادقنا ورشاشاتنا فشاهدناها تهوي إلى الأرض والنار تلتهمها، وهي طائرة مدنية حولها اليهود إلى طائرة حربيه، كما استخدموا طائرة مماثلة لها في معركة كمب النبي يوشع التي سأتحدث عنها فيما بعد.

لم نحقق كامل هدفنا من هذه المعركة، ولكن بالرغم من ذلك كانت معركة ناجحة، إذ أن خسائر العدو كانت أكبر من خسائرنا، كما شددت من عزائم أبناء منطقة طرشيحا، وكانت سببا في ايقاظهم، ونذيرا بضرورة استعدادهم وتنظيم صفوفهم، كما كانت أول تجاربنا في مهاجمة التحصينات اليهودية، اكتسبنا منها خبرة وتعلمنا منها ما لايمكن أن نتعلمه من الدراسات النظرية.

تحدثت الصحف الفلسطينية عن نتائج هذه المعركة فبالغت فيها كثيرا، وأدعت أننا استولينا على قلعة جدين ورفعنا عليها العلم السوري. كما قدرت خسائر اليهود بأرقام خيالية، أما القاهرة

فقد أذاعت بتاريخ 21 كانون الثاني 1948 وصفا دقيقا للمعركة وبالغت في عدد المهاجمين واشتراك أبناء القرى المجاورة بالمعركة، فقد ذكرت "النصر" في 1948/1/22 نقلا عن القاهرة ما يلي :

"القاهرة 21- توفرت تفاصيل جديدة عن الهجوم الذي قامت به قوات المجاهدين العرب على المستعمرة الصهيونية "يحيام" الواقعة في منطقة الجليل الشمالية قرب عكا. ففي ساعة مبكرة من صباح أمس قامت قوات المجاهدين العرب التي يبلغ عددها ستماية مجاهد بتطويق القلعة التي توجد في تلك القرية والتي كانت منذ الحروب الصليبية، وأخذوا يصبون نيران مدافع الهاون عليها لاقتحامها. ومهد هؤلاء للهجوم على المستعمرة وقلعتها بنسف الجسر المؤدي إليها، كما هاجموا المصفحة الصهيونية وأضرموا فيها النار وقتلوا 15 صهيونيا وجرحوا 4 آخرين.. ووجه المجاهدون بعد ذلك هجومهم الى القلعة واستخدموا البنادق والمدافع الرشاشة والقوا القنابل على المراكز الصهيونية فقتلوا 4 وجرحوا 15 يهوديا. وعندما احتدمت المعركة خفت قوات الجيش والشرطة البريطانية لنجدة سكان المستعمرة الصهيونية في اللحظة الأخيرة عندما قاربت على الفناء عندما اقتحم المجاهدون العرب الاستحكامات الخارجية حول القلعة، وظل العرب في التلال المجاورة يسددون الرشاشات نحو قوات الجيش، مما أدى إلى اصابة جنديين بريطانيين بجراح خطيرة... وقد علم أن القوات العربية التي قامت بهذا الهجوم كانت مؤلفة من سكان القرى المجاورة وليست من القوات العربية[3] وقد فهم ان السلطة البريطانية أوصت سكان هذه المستعمرة بإخلائها خشية هجوم واسع النطاق".

وقد أشارت اليقظة إلى معركة جدين في عددها الصادر بتاريخ 1948/2/27، وكانت قد عادت الى الصدور على شكل مجلة نصف شهرية، وورد في هذا الوصف ما يلي :

"يصل بين المستعمرات اليهودية في هذه الوهدة جسر يقوم على نهر صغير، وكانت الخطة تقضي أن يرابط الضابط عبد الحميد السراج أمام هذا الجسر وينسفه في الساعة السادسة من اليوم التالي بغية قطع الاتصالات ومنع وصول النجدات والامداد إلى المستعمرات الواقعة في منطقة نشاطنا.

(3) كان سبب ايراد الخبر على هذه الصورة التنافس الموجود بين فوزي القاوقجي والحاج أمين الحسيني الموجود ي مصر.

وقد نفذ عبد الحميد الأمر في تمام السادسة. فبدأ أديب الشيشكلي وفتحي الأتاسي بقصف القلعة بمدافع الهاون قصفا لا هوادة فيه. وسددنا نحن طلقاتنا إلى البراكات خارج القلعة تحت حماية بطاريات أديب وفتحي. ووصلت إلينا ونحن نتقدم أخبار من كتيبة عبد الحميد السراج أن كمينه اصطاد قافلة يهودية وقتل ركابها وفجر ذخائرهم. وكانت ضحاياه خمسة عشر هوية يهودية ... وتقدم علي الحريري الى الأمام كأنه زوبعه، فكان أول جريح من كتيبتنا، وألقى بنفسه بين يدي أكرم الذي حمله حيث ضمدت جراحه.... وتقدم حمود السراقبي حتى اصبح بين الاسلاك الشائكة، فسقط جريحا فبادر زيد الحريري إلى حملة فسقط فوقه، فتبعه مصطفى طنيش فسقط فوقه، كما سقط ايضا أحمد حمود التركاوي، ولكن حمود السراقبي تحامل على نفسه، وصرح فيهم:

ارجعوا عني، ولفظ أنفاسه الأخيرة، وينتهي الوصف الى القول:

هذه صورة مختصرة عن معركة جدين التي انتهت بخسائر فادحة لليهود، ولما قدم الانكليز لإغاثة المستعمرة تلقينا الأوامر بالانسحاب".

32

1948: الزعامات وصف لمعركة الكابري في جريدة اليقظة بعد إعادة صدورها - معارك مستمرة حول مستعمرة عين زيتم - معركة كمب النبي يوشع.

الانقسام في الزعامات العربية والفلسطينية.

كانت المقاومة التي نظمتها الهيئة العربية العليا في المدن الفلسطينية، ولا سيما في القدس تتسع وتأخذ شكلا منظما وفعالا، وبالرغم مما قامت به الهيئة من جهود كبيرة لشراء وتهريب سلاح الحرب العالمية الثانية من ليبيا ومصر، فقد حال الحظر المفروض والرقابة المشددة دونها ودون تلبية حاجات عرب فلسطين من السلاح، كما لم يكن هناك أي اتصال أو تنسيق ما بين القيادات السياسية والعسكرية لقوات المقاومة الموجودة على أرض فلسطين. والسبب في ذلك يعود لخلاف الزعامات العربية ولا سيما ما بين فوزي القاوقجي والحاج أمين الحسيني، كما ساهمت خلافات الحكومات العربية في تمزيق صفوف المقاومة وتوسيع الانقسامات الفلسطينية.

ولم تكن تلك الخلافات والانقسامات خافية على أحد، فقد ذكرت "النصر" بتاريخ 9 آذار 1948 ما يلي :

"تنشر الصحف الصهيونية مقالات وأخبارا كثيرة تحاول أن تبرهن فيها أن القائد فوزي القاوقجي قد دخل الاراضي الفلسطينية ليقوم بأعماله مستقلا عن الهيئة العربية العليا، وليتبع أهدافا سياسية مخالفة لأهداف سماحة الحاج أمين الحسيني، وقد أفضى ناطق بلسان الهيئة العربية العليا بتصريح إلى وكالة الصحافة الفرنسية تعليقا على هذه التخرصات قال فيه: ان الاتفاق التام يسود جميع العلاقات بين الهيئة العربية العليا والقائد فوزي القاوقجي الذي دخل فلسطين بعد أن تمت تسوية جميع القضايا، وأضاف: أن صلاحيات القائد القاوقجي هي صلاحيات عسكرية محضة وليست له أهداف أو مهمات سياسية".

□

لم تقف الهيئة العربية العليا منا، في الجليل، موقفا سلبيا، ولكنها لم تقف موقفا نشيطا في جانبنا، فقد كان لفقدان وحدة القيادة السياسية والعسكرية أثر كبير على ضعف فعالية المقاومة والحيلولة دون تصاعدها وشمولها، وكأنه كان مرسوما للثورة الفلسطينية أن لا تلعب الدور الذي كان يجب أن تلعبه في الحرب العربية الاسرائيلية عام 1948.

رسالة من أحمد الأسعد.

إثر معركة جدين وصلني كتاب من أحمد الأسعد، الزعيم الاقطاعي البارز في مناطق لبنان الجنوبية المتاخمة للجليل، ورئيس مجلس النواب اللبناني لعدة دورات، إذ أن أسرته كان لها نائب في البرلمانات اللبنانية باستمرار، وهو يطري في كتابه جهادنا ويثني على نضالنا، ويتحدث في الوقت ذاته عن المآثر الوطنية لآل الأسعد ويبدي استعداده لدعمنا بخمسمائة مقاتل. عرضت كتاب أحمد الأسعد على أديب الشيشكلي وسألته: ما رأيك؟ فقال لو كان صادقا في عرضه لجعل أنصاره في جنوب لبنان يتصدون لعمليات تهريب اليهود العرب من لبنان الى فلسطين ولمنع تسرب البضائع والأغذية إلى اليهود.. ولكن هذا الكتاب عبارة عن عنجهيات فارغة.

كانت الحكمة تقضي أن نحاول الاستفادة من عرض أحمد الأسعد ولو كان الأمل ضئيلا، ولكن تبقى عقلية العسكريين بعيدة عن المرونة السياسية، وأنا لا أزال أعتقد أنه كان بإمكان الأسعد في ذلك الوقت أن يقدم المعونات والخدمات فيما لو استدرجناه بالحكمة والسياسة الى تقديمها.

إعادة إصدار "اليقظة".

انتشرت الشائعات في سوريا إثر معركة جدين، مع المبالغة بتقدير خسائرنا، مما سبب قلقا واضطرابا في أوساط أسر المجاهدين الأمر الذي جعلنا نفكر جديا بإقامة اتصالات مباشرة مع الحزب وأسر المجاهدين، كما جعلنا نفكر بتنظيم الاعلام على قدر ما تسمح به إمكانياتنا المادية. فأوعزنا إلى الطالب الجامعي

محمد عبده علوش بإعادة إصدار جريدة اليقظة بطبعات نصف شهرية، على أن تقتصر موادها على أخبار معارك المجاهدين وأحوالهم.

وقد قام محمد عبده علوش بإصدار جريدة اليقظة لوحده، بالإضافة إلى مشاغله الحزبية الأخرى ودراسته الجامعية، وقد أفادت تلك الأعداد نصف الشهرية في نقل أنباء الثورة الفلسطينية والمناوشات والمعارك وأخبار المجاهدين وأحوالهم، مع نشر صورهم تطمينا وتشجيعا لأهاليهم وأسرهم.

أصدر محمد عبده علوش العدد الأول من "اليقظة" بتاريخ 27 شباط 1948، وكانت الافتتاحية بعنوان "رسالة من الميدان" وهي على النحو التالي:

يرسل إلينا أكرم الحوراني بين وقت وآخر رسائل مقتضبة يضمنها لمحات عن حياة المجاهدين في إبان معركة التحرير.. وفيما يلي ننشر كتابه إلى أحد أفراد حزب الشباب، بعد أن حذفنا منه الفقرات التي تقتضي ضرورة الحال في فلسطين حذفها :

"أخي ...

إن أعمالنا العسكرية تأخذ طريقها إلى النصر والتوفيق، فلا يمضي يوم واحد دون أن نوقع بالصهيونيين الخسائر الفادحة بالأموال والأرواح بصورة متوالية مستمرة.. كان بودي أن أصف لكم كل معركة من معارك فلسطين وأبسط لكم أحوال الصهيونيين بصورة مفصلة لولا ضيق الوقت واضطرارنا للعمل ليل نهار. وعلى كل حال فأنا جد متفائل ومتأكد من النصر الأخير لأن الله معنا والحق بجانبا... لا أريد أن أطنب ببطولة فوجنا ولكن لا بد لي أن أعلن أنه بعد المعارك المستمرة برهن رفاقنا على جلد عجيب وشجاعة نادرة المثال. ويمكننا أن نفخر بأن سورية ستكون المحررة لجميع الشعوب العربية، وهذا ليس بالجديد بالنسبة إلينا، لأنه أحد آرائنا ومعتقداتنا الثابتة... بعد معركة جدين جرت معارك عديدة لم نخسر فيها بالأرواح أبدا، بل أوقعنا بالخصم أكبر الخسائر بدون تضحية تذكر وفي كل معركة يبرهن الشباب على كفاءة وبسالة عظيمة.. فلسطين في 5 شباط 1948 .. أكرم الحوراني" .

كتبت تلك الرسالة في قرية الصفصافة في بداية شهر شباط 1948، عندما ألح علي الرفيقان علي عدي ومحمد عبده علوش أن أكتب لهما افتتاحية العدد الأول من "اليقظة" بعد أن اتفقنا على إعادة صدورها، فقلت لهم إن الميدان الذي أعيشه الآن ليس ميدان كتابة مقالات وافتتاحيات، ولايجاد حل حيال إصرارهما كتبت تلك الرسالة. والواقع أن ما دعانا لإعادة إصدار اليقظة آنذاك، رغم الضيق المادي الشديد، هو مؤامرة الصمت الاعلامي حيال أخبار المجاهدين في الجليل، وكان الذي يهمنا من نشر أخبار المجاهدين في الصحف تشجيع وتوسيع حركة التطوع في صفوف الشعب، ولكن نظام القوتلي الذي كان يناصبنا العداء ضرب نطاقا من الصمت والتجاهل حول أخبارنا، وبدأت أجهزته الخفية توجه الطعنات الغادرة إلى صفوف المجاهدين حين كانت تنشر الإشاعات الكاذبة حولهم، وأنهم ذهبوا إلى فلسطين للدعاية لأنفسهم والتباهي بالبطولات الكاذبة.

□

كان العدد الأول من "اليقظة" منسجما مع الغرض الاعلامي الذي هدفنا إليه، وهو توضيح معالم المعركة للمواطنين وتشجيع حركة التطوع. وإنني لا أزال معجبا بذلك الشاب الواعي، محمد عبده علوش، الذي استطاع بجهده الفردي، بالإضافة إلى مشاغله الدراسية في الجامعة، أن يصدر ذلك العدد من "اليقظة" وما تلاه من أعداد، وسيرد فيما بعد كيف أن يد عهد القوتلي السوداء ستمتد للانتقام من هذا الشاب وتصرعه غيلة وغدرا.

ضم العدد الأول من اليقظة، بالإضافة إلى العديد من صور المجاهدين الفردية والجماعية، وصور هويات القتلى اليهود، المقالات التوجيهية التالية:

- العمل مقياس الأخلاق بقلم عبدالله عبد الدايم.
- هل بدأنا نعيش مآسينا بقلم علي الخش .
- إنها معركة المثقفين الواعين بقلم عبد الكريم زهور.

- لنبحث عن البداية بقلم صدقي اسماعيل.
- أثر نداء أكرم : ريبورتاج عن فوج مجاهدي إدلب.
- أيها الساسة الأميركيون سيحكم التاريخ بيننا وبينكم بالحق.
- سننتصر لأننا ندخر العزم: رسالة من مواطن الى خليل كلاس.
- هكذا نحن الشباب : مقال عن مباديء وأهداف حزب الشباب.
- شهيد وصلاة: كلمة رثاء للشهيد أحمد محيي الدين قمر من أهالي دمشق بقلم حافظ طيفور.
- الحرب والمحاربون: مقاطع مختارة من كتاب "هكذا تكلم زرادشت".
- مجاهدون من بلدنا، قصة بقلم حسيب الكيالي عن المجاهدين الأدالبة.
- وقصيدتان للشاعرين أنور الجندي ومحمد الحريري.

في كفر سميع وكسرى.

بعد معركة جدين تمركزت بعض الحضائر في طرشيحا بقيادة الاستاذ خليل كلاس، أما القسم الآخر فقد تمركز في القريتين الدرزيتين كفر سميع وكسرى في راس المثلث ما بين سحماته وطرشيحا، وقد قام الاستاذ خليل كلاس بنشاط واسع في منطقة عكا.

بدأت أنباء معاركنا تعطي ثمارها، فلم يحل شهر شباط إلا وبدأ بعض المتطوعين يفدون إلينا، فقد وصل نائب أدلب غالب العياشي على رأس عدد من المتطوعين الأدالبة، فارتأى أديب الشيشكلي أن يمركزهم في دير الأسد، وقد زرتهم للمرة الأولى فوجدتهم يتمتعون بمعنويات عالية.

لبثت فترة متنقلا بين كفر سميع وكسرى، وكنا نقضي الوقت بالتدرب على الرماية. ولا أزال أذكر ذلك الجبل العالي الذي كان اجتيازه يقرب المسافة ما بين كسرى ودير الأسد، ولا أزال

أشعر بالدوار كلما تذكرت ذلك الجبل ومدرجاته العديدة الصعبة التي كان تسلقها نحو القمة أو النزول عليها إلى أسفل الوادي مغامرة كبرى.

في قرية كسرى قمنا بما يلي.

أولا: تنفيذ ما فكرت به في قرية بيت جن حول ضرورة تشكيل سرايا مقاتلة من أبناء جبل العرب، فقد كنا نحن عاجزين من كل الوجوه عن القيام بمثل هذه المهمة، فوجهت رسالة الى شكري القوتلي ووزارة الدفاع أشرح فيها الضرورة التي تقتضي تشكيل هذه السرايا من أبناء جبل العرب وإرسالهم إلى الجليل للاشتراك في الثورة، وكان الأولى بي أن أرسل هذه الكتب إلى سلطان الأطرش وإلى شباب الجبل مباشرة، مما يجعل لها نتائج مثمرة للغاية، ولكنني أخطأت في توجيهها للحكومة.

والأمر الثاني: قيام رفاقنا بمبادرات شخصية واعية بين الأهلين، فوثقوا العلاقات وأجروا الاتصالات، وكان أكثرهم وعيا لهذه المشكلة عبد الكريم زهور حيث قام بعدة زيارات لقرية (يركة) وعقد عدة اجتماعات مع آل (المعدي) لشد هذه القرى العربية إلى صفوف الثورة الفلسطينية.

وكنا نلاحظ أن مستوى معيشة الفلاح الفلسطيني أعلى نسبيا من مستوى الفلاح السوري كما كان مستوى الخدمات في فلسطين بصورة عامة أرقى مما هو عليه في سوريا، كانت شبكة من الطرقات تغطي منطقة الجليل وفلسطين كلها، وقد أنشأها الانكليز خلال الحرب العالمية الثانية، كما كانت المستوصفات والأبنية المدرسية والمراكز الزراعية متوفرة في جميع المناطق، وقد استمرت إدارة الانتداب البريطاني- برغم وجودنا في الجليل بالقيام بأعمالها كالمعتاد، وكأن شيئا لم يتغير، ولا زلت أذكر تردد موظفي الحكومة على القرى التي كنا نقيم بها، واستمرار فرق المساحة على أعمالها، وكانوا يجتمعون بنا ويسهرون معنا أحيانا، وإذا استثنينا شؤون الأمن، فإن كافة أعمال الادارة والخدمات كانت تجري في طريقها المألوف.

كان نشاطنا يتعاظم كلما التحقت بنا دفعة جديدة من المجاهدين فمنطقة الجليل هامة وواسعة وتحتاج إلى عشرات أضعاف عددنا، كما تحتاج إلى تسليح الأهلين وتنظيمهم وتدريبهم، حتى تتمكن الثورة من القيام بدور حاسم في المستقبل، ولكن هذه الأمور جميعها لم تتحقق، فقد بقي معظم الفلسطينيين القادرين على حمل السلاح خارج المعركة إلى ما بعد وقوع الكارثة، كما بقيت فصائل المجاهدين تعمل تحت إمرة قياداتها السياسية والعسكرية مشتتة ممزقة دون تفاهم أو تنسيق، بدافع من الحكومات العربية التي استغلت التنافس الشخصي والعائلي والمحلي في فلسطين.

كانت القرى الدرزية في الجليل متخلفة عن القرى الأخرى بشكل عام ومتقوقعة على نفسها، فقيرة باشجار الزيتون التي تغطي أراضي القرى الأخرى، وكانت الزراعة مقتصرة على الحبوب في مساحات صغيرة من تلك الاراضي الجبلية الوعرة، بين بقايا الأشجار الحرجية التي كانت تغطي تلك المناطق في السابق.

تحسن تموينا عن ذي قبل، فأخذنا نشرك به أهالي القرى المضيفة، مما زاد من تعميق الألفة وتمتين الأواصر بيننا.

فوج بقيادة محمد صفا.

أنبأنا الشيشكلي في كفر سميع بأن فوجا من المجاهدين، بقيادة محمد صفا، قد دخل إلى فلسطين في منطقة لواء الناصرة، فاقترحت عليه أن يرسل إلى محمد صفا تقريرا عن نتائج خبرتنا وتجربتنا التي تعلمناها خلال هذه المدة، لئلا يرتكب خطأ بمحاولة اقتحام المستعمرات الاسرائيلية بالاسلحة الخفيفة، ولينصرف إلى أساليب حرب العصابات، من نصب الكمائن إلى قطع طرقات التموين، وإنهاك العدو وإرباكه وإرغامه على الخروج من قلاعه المحصنة...الخ. فرفض أديب أن يتصل به. فقلت له "أخشى أن يرتكب حماقة فهو شاب نزق مغرور، فقال: "إلى جهنم"... ولم تكن العلاقات بينهما ودية بل كان يسودها الحسد والتنافس والكراهية.

وبعد أقل من عشرين يوما سمعنا بأن محمد صفا هاجم إحدى المستعمرات اليهودية في ليلة ماطرة فلم يتمكن من احتلالها، وارتد عنها بخسائر كبيرة من القتلى والجرحى. وقد أصيب الملازم حسن مهنا (من منطقة جبلة) فكسرت ساقه وأخرج على أثر ذلك من خدمة الجيش.

وقد سمعت فيما بعد أن الانكليز أشاروا بمهاجمة تلك المستعمرة لأنها شيوعية، وهذا ما يفضح عقلية القيادة التي كانت تتحكم بمصير المعركة.

ظهرت على الشيشكلي أمارات الزهو والشماتة بعد وصول أنباء تلك المعركة واخفاق محمد صفا.

ذكرت هذه التفاصيل ليكون القاريء على اطلاع بالخلفيات التي كانت وراء تصرفات القيادات العربية والتي كان ولا يزال لها الأثر الأكبر في هزائمنا العسكرية والسياسية.

ومع ذلك فلننظر كيف روى الاعلام العربي أنباء تلك المعركة:

فقد ذكرت صحف دمشق يوم 17 شباط 1948 ما يلي: "القاهرة 16- وردت أنباء عن معركة كبرى يخوضها المجاهدون العرب لافناء ثلاث مستعمرات صهيونية هي (ماتر ريفي) و (عين صبحة) و (الحمراء) واشترك فيها 1200 مجاهد عربي، وتدل الأنباء الأولى عن هذه المعركة بأن المجاهدين استطاعوا أن يخرقوا خطوط الدفاع الأولى للمستعمرة الأولى، وأنجد 1500 مجاهد عربي آخرون من نابلس القوات الزاحفة لافناء هذه المستعمرات، وقد دخلت قوات المجاهدين العرب المستعمرة الأولى ونسفت جميع مكاتبها، وبلغ عدد القتلى من سكانها اليهود 70 والجرحى 100 وتعمل القوات العربية على نسف المستعمرتين الأخريتين، ووردت تفاصيل جديدة تفيد أن ألفا من أبناء نابلس وطولكرم وجنين قد أزروا المجاهدين، وقد دمرت المستعمرة الأولى تدميرا كاملا بجميع منشآتها وقتل جميع رجال الهاغاناه الذين كانوا يدافعون عنها، وبلغ عدد القتلى في المستعمرات الثلاث 200 قتيلا والجرحى 300. وعندما حاول المجاهدون مهاجمة مستعمرة الحمراء أغرقها حراسها بالماء وفجروا مستودعات المياه ولكن القوات العربية تحيط بها من كل جانب. وتشاهد نيران المعركة من بعد 25 كيلومترا. وهي ما تزال محتدمة".

معارك حول مستعمرة عين زيتم .

اتجه فصيلنا من كفر سميع وكسرى الى الشرق، عن طريق سحماته حرفيش، سعسع الجش، وتمركزنا في الرأس الأحمر[1] (وطيطبة) كما اتجهت سرية الأدالبة من دير الأسد الشرق واقتربت من بحيرة طبريا.

أقام أديب الشيشكلي معنا في الرأس الأحمر بعض الوقت، ونزل فيها ضيفا عند آل الخطيب. ثم أخذ يتنقل بين مراكز فصائل المقاومة المنتشرة في منطقة الجليل. وقد انعقدت أواصر الصداقة بيننا وبين أهالي الرأس الأحمر ففتحوا لنا قلوبهم وبيوتهم. ولا أزال أذكر ما أحاطونا من عناية ومؤازرة ومحبة ظلت منعقدة إلى ما بعد انتهاء الحرب الفلسطينية وهجرتهم إلى سوريا ولبنان.

كان تماسنا المستمر مع اليهود في قرية طيطبا التي تواجهها مباشرة مستعمرة (عين زيتم)، على بعد لا يتجاوز الاربعمائة مترا. وكانت طيطبا لا تبعد عن الرأس الأحمر وإلا بضعة كيلو مترات وكان يتولى القيادة فيها الملازم محمد جديد، من أبناء الأقضية الشمالية في سوريا، وهو من أنبل وأشجع من عرفت من الضباط.

لم يكن لمستعمرة عين زيتم أهمية من الناحية الزراعية أو السكانية، بل كانت أهميتها استراتيجية عسكرية، لأن موقعها يتحكم ويسيطر على مواصلات صفد ومداخلها من الغرب والشمال والشرق، ومنها كان اليهود يصطادون المواطنين العرب، الداخلين أو الخارجين من مدينة صفد مركز المنطقة.

كانت هذه المستعمرة تتصل مباشرة بمستعمرات جبل بيرة التي تمدها بالمؤن والمساعدات، ولم تكن المستعمرات اليهودية في حقيقتها إلا حصونا مشيدة في أهم المواقع الستراتيجية التي تتحكم بالجليل، بصورة مدروسة، كما كانت محصنة تحت الأرض وفوقها بحيث لا تؤثر فيها إلا المدفعية والطائرات.

---

(1) أقام اليهود فيما بعد مكان الرأس الأحمر مستعمرة (كرم بن زمرة).

قضينا معظم الوقت في مناوشات مستمرة مع يهود هذه المستعمرة، وكثيرا ما كان الجيش البريطاني في المعسكر في ثكنات جبل بيره، يتدخل بناء على شكاواهم، وفي كل يوم كنا نمشي حوالي نصف ساعة من الرأس الأحمر حتى نصل إلى الاستحكامات والخنادق التي أنشأها الملازم محمد جديد على بعد لا يزيد 200 مترا عن عين زيتم، وكان هدفنا تشديد الحصار عليها، وكنا نعتبر احتلالها ظفرا عسكريا وسياسيا كبيرا لأنه يحرر صفد ويجعل الدفاع عنها قويا لا يمكن اقتحامه، ولكن اليهود كانوا مقدرين أهمية هذا الموقع الذي سيقرر مصير صفد في المستقبل، فقاوموا بعناد وإصرار، وصبروا وثبتوا وراء حصون المستعمرة إلى أن تم احتلال مدينة صفد فيما بعد.

أخذت المناوشات المستمرة بيننا وبين سكان مستعمرة عين زيتم شكلا روتينيا إلى أن قمنا ذات يوم بهجوم عام مركز بقصد احتلالها. وقد اندفع سكان القرى المجاورة واشتركوا معنا بعد بدء الهجوم، فاقتربنا منها كثيرا حتى كدنا نبلغها، فاستنجد اليهود بالانكليز فقدموا بمدافعهم ومصفحاتهم وأصلونا نارا حامية اضطرتنا للارتداد.

كانت خسائر اليهود في هذه المناوشات أكثر من خسائرنا، على أن المناوشات تصاعدت واستمرت في معارك ليلية ونهارية حتى سقوط صفد، وفي الوقت ذاته ضاعف اليهود من تحصين المستعمرة وإمدادها بالمقاتلين وبالسلاح الثقيل من مدافع الهاون والمصفحات، وكان اكثر ما ضايقنا ذلك التراكتور المصفح الذي لم تكن تؤثر فيه نيران البنادق والرشاشات والقنابل اليدوية، فلم نكن نرى بدا من التراجع والانكفاء أمامه عند خروجه من المستعمره.

التحق بنا، منذ دخولنا الى فلسطين، فلاح شركسي من أهالي الجليل اسمه "الحاج عبدالله" يتجاوز الستين من عمره ولكنه كان أكثر همة ونشاطا من الشباب، وكانت له خبرة في صنع المتفجرات بالوسائل البدائية المتوفرة، فتسلل ذات ليلة مع بعض المجاهدين الى قرب المستعمرة وزرع لغما في الطريق المعتاد الذي يخرج منه التراكتور المصفح. وعندما بدأ الهجوم على

المستعمرة في اليوم التالي خرج التراكتور محاولا التقدم نحونا فانفجر به اللغم فمزقه ومن فيه.

دقة تسديد اليهود .

استفدنا كثيرا من مدافع الهاون التي أرسلتها القيادة إلينا بقصف مستعمرة عين زيتم وتضييق الحصار عليها وايقاع الخسائر بالمدافعين عنها. فاستقدم اليهود -بالمقابل- عددا من مدافع الهاون التي كثيرا ما كانت قنابلها تصوب بدقة وإحكام إلى أهداف محددة في قرية طيطبا، حتى لقد خيل إلينا أن حامية المستعمرة تتلقى معلومات دقيقة عن أماكن تمركزنا ومستودعات ذخيرتنا وميرتنا. ولكن التجارب التي مررنا بها في قرى الجليل كانت تدل على أن اليهود كانوا يجهلون كل شيء عن أحوالنا وتنقلاتنا، وأن الصفوف العربية كانت نظيفة على ما يبدو.

اليهود ينسفون قرية سعسع.

كان بيت آل الخطيب الذي كنا نبيت فيه بقرية الرأس الأحمر يطل على واد سحيق ينحدر بشكل جداري تقريبا. وذات ليلة زارنا أديب وبات معنا في ذلك المنزل. كانت ليلة ماطرة مظلمة مرعدة عاصفة بشكل رهيب. وما أن غفونا حتى شعرنا بأن البيت يكاد يميد بنا من شدة الانفجارات، فنهضنا إلى أسلحتنا ونحن نعتقد أن الكومندوس اليهودي قد لغم القرية بالمتفجرات، فخرجنا منتشرين من البيوت لملاقاة العدو، ولكننا لم نشاهد أحدا، ومع ذلك استمرت أصوات الانفجارات تتصاعد في ذلك الليل البهيم الماطر، لم تكن أصوات الانفجارات وأضواؤها كما لم تكن إشارات المسدسات الضوئية التي يستخدمها الكوماندوس عادة في قتالهم الليلي بعيدة عنا. ولكننا لم نتمكن من تحديد مواقعهم، فذهبنا بعيدا عن القرية، على غير انتظام، علنا نصطدم بهم اثناء عودتهم، ولبثنا حتى الصباح حيث عرفنا أن اليهود هاجموا قرية سعسع ولغموا البيوت وفجروها على أهليها. كان أهالي سعسع معروفين بين أهالي الجليل بشجاعتهم وبسالتهم وشدة مراسهم، فهم "سباع الجليل".

ذهبت فورا مع بعض الرفاق الى تلك القرية، وقدرت ان هجوم اليهود عليها كان ردا على معركة جدين والمعارك المستمرة حول عين زيتيم كما كان هجومهم الانتقامي هذا يهدف إلى إرهاب السكان الذين بدأوا يشاركون في المعارك معنا.

وصلنا إلى سعسع فرأينا فيها ما يدمي القلب. كانت بعض البيوت الملغومة قد انهارت على أهلها، ولكن عدد الجرحى والقتلى لم يكن كبيرا، غير أن خوف السكان وذعرهم كان كبيرا جدا حتى أن بعضهم كان على وشك الرحيل عند وصولنا، فاجتمعنا بهم وأخذنا نشجعهم ونستثيرحميتهم ونبعث فيهم روح الصمود، وأوضحنا لهم أسباب هذا الهجوم الوحشي، وطلبنا إليهم عدم مغادرة القرية، وشددنا على ضرورة التسلح والتدريب وتنظيم الحراسة، وقلنا لهم لو كان في القرية حراسة منظمة وعدد كاف من المسلحين المدربين لما أمكن لليهود أن يتسللوا إليها، ولو هاجموها فإنهم سيتكبدون خسائر كبرة، كما حدثناهم عن خروجنا مسرعين للنجدة ولكننا لم نتمكن في ذلك الليل من معرفة أماكن الانفجارات التي سمعناها والأضواء التي رأيناها..

وقد بقي بعض رفاقنا في سعسع لتشجيع أهلها ومواساتهم وكان هذا غاية ما بإمكاننا أن نفعله لهم.

زيارة عكا .

سافرت بالسيارة مع خليل كلاس من دير الأسد إلى عكا، تفاديا من الذهاب إليها عن طريق طرشيحا الذي يمر بنهاريا اليهودية، وكانت المرة الأولى التي أزور بها هذه المدينة التاريخية، التي يحيط بها سورها المشهور حيث لا تزال بعض أقسامه قائمة حتى الآن، وهو السور الذي شهد اندحار نابليون بقيادة أحمد باشا الجزار والي عكا. إنها مدينة تشبه كثيرا مدننا الساحلية، فتجولنا فيها وزرنا معالمها واتصلنا بأهلها الذين كانوا شعلة من الحماسة المتقدة، ولكنها حماسة تفتقر للاعداد المادي من تنظيم وتدريب وتسليح، استعدادا لذلك اليوم الأسود الذي هاجر

فيه العكاويون من مدينتهم مخلفين فيها كل ما يملكونه في هذه الحياة.

كانت هذه الزيارة الأولى والأخيرة لعكا، أما خليل الذي تولى قيادة فصيل طرشيحا فقد استمرت زياراته اليها فتمتنت علاقاته وصداقاته بأبنائها ومناضليها.

حسني الرفاعي .

في تلك الفترة التحق بنا حسني الرفاعي، وهو من كبار ضباط الدرك المتقاعدين، مع عدد قليل من شباب حمص، بينهم الشابان البعثيان نزار الأتاسي وطاهر الأتاسي، فرأى أديب الشيشكلي أن يكون مركزهم في قرية (قدس) المهيمنة على خط مواصلاتنا مع لبنان.

لم يكن الشيشكلي مرتاحا لالتحاق حسني الرفاعي فلم أوافقه على شعوره وقلت له: أن التحاق رجل مسن كحسني الرفاعي دليل على شجاعته وطيب عنصره وصفاء معدنه. وربما كانت السمعة السيئة التي لحقت به بسبب فضيحة بناء مخافر الدرك التي تهدمت بعد بنائها مباشرة تقع مسؤوليتها على المتعهدين، فصمت الشيشكلي ولم يشأ أن يشرح السبب الحقيقي لامتعاضه وهو اصطحاب الرفاعي لهذين الشابين الأتاسيين البعثيين اللذين يكن لحزبهما الكراهية والاستخفاف.

كان حسني الرفاعي مدربا ذكيا فلم يمض على إقامته بعض الوقت إلا وأرسل إلينا عددا من الكتب العبرية بينها كتاب سميك بحجم (اللاروس) وقد جوفت أوراقه من الداخل على قياس المسدس المخبأ فيه كما أرسل إلينا أيضا عددا من هويات القتلى اليهود الذين سقطوا في كمين نصبه لهم على الطريق الذي يمون به اليهود مستعمرة الهراوي، فأرسلت كل هذه الهويات وأنباء المعركة الى محمد علوش فنشرها في "اليقظة" كما نشرت الصحف السورية أنباء هذه المعركة في 19 شباط 1948 بما يلي : "تلقى رئيس لجنة تحرير فلسطين في حمص كتابا من السيد حسني الرفاعي قائد فصيل خالد بن الوليد ينبئه فيه بأن

مجاهـدي الفصـيل فـي حالـة جيـدة مـن الصـحة والغـذاء، وأنهـم يتمتعـون بمعنويـات قويـة.. ويصـف الكتـاب عمليـة حربيـة قـام بهـا الفصيل فأوقع قافلة يهودية كبرى في كمين قتـل فيهـا 12 يهوديـا، وأحرقـت سـيارتان تحمـلان عشـرة أطنـان مـن الأرزاق والأغذيـة، وبالنظر لهذه النتـائج البـاهرة فقـد أسـندت القيـادة العامـة لفصـيل خالد منطقة خاصة به".

كان الشيشكلي ممتعضا ضمنا من نجاح حسـني الرفـاعي فـي هـذا الكمـين، فقـد كـان الشيشـكلي معقـدا، وذلـك احـدى الخلفيات التي تفسـر مـا ارتكبـه فيمـا بعـد مـن أخطـاء وانحرافـات سياسية.

□

ذهبت الـى قـدس لزيـارة حسـني الرفـاعي وجماعتـه فلـم أجده هناك لأنه كان ذاهبا بمهمة، فالتقيـت بنـزار أتاسـي وإخوانـه في بيت أحد الفلاحين، وجـاء أديـب الشيشـكلي علـى أثـري، ولا أدري إن كان مجيئه صدفة أو عـن عمـد، فـانتحى بـي جانبـا وقـال بانفعال:

- ليس هنا مجال الحزبيات، فقد كفانا تقتير المسؤولين علينـا فـي الميرة والذخيرة، فهل تريد أن يقطعوها عنا؟ وهـل نسـتعيض عنهـا بوهيب الغانم وصلاح البيطـار؟ قـال ذلـك بلهجـة وانفعـال ظـاهرين، فقلت له:

- ما الداعي لهذا الكلام؟

قال: يأتي وهيب الغانم ويذهب صلاح البيطار.

قلت : إنهما صديقان، ومن واجبنا الترحيب بهما، وهما لم يمكثا إلا بضعة أيام، وكانت زيارتهما زيارة ود واطلاع.

□

كان شـكري القوتلي قد سـلط فيصـل العسـلي علـى حـزب البعث فهاجم مكتبه ولاحق الحزبيين، وكان الشيشكلي يقدر كـره القوتلي وحقده علينا وعلى حـزب البعـث ولا سـيما بعـد أن شـرع

بالعمل لتعديل الدستور وتجديد رئاسته، وعلى سبيل المثال عن أعمال عصابة فيصل العسلي ما نشرته النصر بتاريخ 1948/3/19.

"كان مساء أمس موعد إلقاء محاضرة الاستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وموضوعها (الدستور والحرية) وقد امتلأ نادي حزب البعث بالمستمعين وما أن بدأ الاستاذ البيطار كلامه الا وسمع صوت انفجار مفرقعة داخل النادي عرف فيما بعد أنها ألقيت من سطح إحدى الدور المجاورة، وجرت ملاسنة بين البعثيين وسواهم من الذين حاولوا تشويش الاجتماع تطورت الى شجار كان السلاح فيه العصي والأيدي، وكانت قوات الأمن والشرطة مستعدة سلفا، فأسرعت الى المتشاجرين وفرقتهم، وقد أصيب فيكتور اصلان شوربا بشج في رأسه، وقبض رجال الشرطة على زهاء أربعين شخصا واقتادوهم الى القسم للتحقيق معهم".

فصائل المجاهدين من جبل العرب.

في الاسبوع الاول من نيسان 1948 أخبرني الشيشكلي بأن كتابي لشكري القوتلي ووزارة الدفاع قد أثمر بتشكيل سرايا من الدروز بقيادة شكيب وهاب، وأنها الآن في منطقة "شفا عمرو" في الجليل الجنوبي، وأنه اجتمع بشكيب وهاب وهو في طريقه إلى تلك المنطقة.

كنت أسمع عن شكيب وهاب أنه من رجال ثورة 1925، ولكنني لم أتعرف إليه شخصيا، واستغربت أن لا تلتحق سرايا الدروز بنا حسبما بينت للمسؤولين بدمشق في كتابي. والذي فهمته من أديب أن شكيب وهاب أرسل مستقلا في شؤونه وقيادته عن قواتنا في الجليل وكان أديب يقول ذلك بامتعاض.

ولم تمض أيام حتى وفد إلينا رسل من قبل شكيب وهاب يطلبون نجدتهم بمدافع الهاون التي هي بتصرفنا، وأخبرونا أنهم هاجموا مستعمرة كفر مزاريب ووصلوا إلى جدرانها بالبنادق، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها، فرفض الشيشكلي تلبية الطلب، فانتحيت به جانبا وقلت له:

يجب علينا ألا نكتفي بمدهم بمدافع الهاون فقط، بل يجب علينا أن نمدهم بالمقاتلين، لأن شكيب وهاب إذا هزم بهذا

الهجوم فإنه سيرتد إلى سورية بنفس السرعة التي دخل بها إلى الجليل، وأنا أعرف طبيعة هؤلاء المتطوعين غير المدربين، فهم كأبناء العشائر ينقضون في هجومهم كالصاعقة، ولكنهم إذا فشلوا في هجومهم يدب التخاذل في صفوفهم، وليس لديهم الصبر والنفس الطويل، فواجبنا أن نساعدهم، بل وبأكثر مما يطلبون، ولكن الشيشكلي لم يعمل بنصيحتي.

كان تقديري صائبا، فبعد أن فشل شكيب وهاب في هجماته الأولى، لم أعد أسمع بأي نشاط له، ولا أعلم إذا كان قد بقي في الجليل أم انه عاد إلى سورية.

مغادرة الرأس الأحمر.

بقي محمد جديد وسريته ومجموعة الأدالبة في قريتي طيطبا ودلاته واتجهنا نحن من الرأس الأحمر الى مشارف الجليل المطلة على سهل الحولة مباشرة، فأقمنا في قريتي (ماروس) (والقباعة) الواقعتين على السفح المتصل بسهل الحولة.

3 قرى جزائرية في الجليل.

كانت القباعة قرب الجاعونة، وتشرف على مستعمرة "نجمة الصبح" وعلى القريتين العربيتين "كراد الغنامة" و "كراد البقارة". أما ماروس فقد كانت واقعة قرب العموقة وديشون، وهذه القرى الثلاث يسكنها المغاربة، وأظن أن استيطانهم تم بعد إقامة الأمير عبدالقادر الجزائري في سوريا، وقد كشف البحاثة الفرنسي "مارسيل إيمريت" في مقال منشور في المجلة التاريخية الفرنسية المجلد 107،[2] السنة السادسة والسبعون أن فرنسا فكرت بعد مذبحة عام 1860[3] في دمشق أن تشجع هجرة الجزائريين الى سورية لدعم الامير عبدالقادر الذي فكرت بتنصيبه ملكا في المشرق العربي، في عهد الأمبراطور نابوليون الثالث، فلم يكتب لهذا المشروع النجاح والتنفيذ.

(2) راجع الترجمة العربية لهذا المقال في مجلة "دراسات عربية" العدد الخامس، السنة الثامنة، آذار 1972.

(3) قام الأمير عبدالقادر الجزائري بحماية بعض المسيحيين خلال أحداث 1860.

أصبحت قواتنا إذن موزعة بين الرأس الأحمر وطيطبا ودلاته وماروس والقباعة، وكانت فصائل دلاته وطيطبا بقيادة الضابط محمد جديد وفصيلا ماروس والقباعة بقيادة الضابط فتحي الأتاسي[4] . وكنت أتردد باستمرار ما بين هذه المراكز الثلاثة. على أنني كنت أقضي معظم الوقت مع فتحي الأتاسي الذي وجه جهوده لقطع الطريق العام الذي يصل ما بين مستعمرات الحولة ابتداء من المطلة على حدود لبنان إلى جنوب طبريا، وقد كان طريقا عسكريا واقتصاديا هاما بالنسبة للمستعمرات والمزارع الاسرائيلية المنتشرة في الجليل وسهل الحولة وطبريا، ومتصلا عن طريق الجاعونة بمدينة صفد.

مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت.

التحق بنا الطالبان في الكلية العسكرية مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت، وكنت قد شجعتهما على الانتساب لهذه الكلية، فسألتهما هل كان التحاقهما بإذن من وزارة الدفاع؟ فأجابا بأنهما فرا من الكلية للالتحاق بنا، فأمرتهما بالرجوع فورا خوفا من العقوبة العسكرية التي ستترتب على جرم الفرار ولا سيما وإن وزير الدفاع سوف يستغل تلك الحادثة للتخلص منهما، وهما معروفان بانتمائهما السابق لحزب الشباب، وعندما تمسكا بالبقاء قلت لهما: لا بأس عليكما أن تبقيا معنا يومين آخرين. إن فتحي الأتاسي يعد كمينا ويمكنكما أن تشتركا فيه. وقد ابتهجا لهذا الاقتراح الذي أدى لتهدئة عواطفهما الثائرة ولإقناعهما بالعودة.

□

كان ذلك العام باردا جليديا في الشتاء، ماطرا عاصفا في شباط وأشهر الربيع، وقد رسم الأتاسي خطة هذا الكمين وحدد مكانه هضبة مطلة على الطريق، شرقي قرية (ديشون).

انطلقنا من قرية ماروس ليلا، متجهين نحو ذلك الموقع المحدد، ومعنا الشيخ الشركسي "الحاج عبدالله" وقد هيأ لغما

(4) لم يكن ذلك تدبيرا حكوميا، فقد كان تطوع الضباط شخصيا بموافقة الحكومة.

كبيرا للطريق العام. واثناء مسيرتنا اعترض سبيلنا نهر صغير في وادي ماروس فلاحظت ارتباك إخواننا في اجتيازه. فاندفعت بحماسة لا مبرر لها أخوض النهر بثيابي ففعلوا مثلما فعلت. والجميع يرتجفون من شدة البرد، وعندما انتهينا من اجتياز النهر وزعنا الأتاسي على قمة التل وقد استلم كل من مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت رشاشا فرنسيا "اف. ام". نزل الحاج عبدالله إلى الطريق العام فزرعه بلغم لينفجر بآليات القافلة اليهودية التي نعرف أنها تمر في الصباح الباكر من كل يوم، وبسبب فقدان الوسائل ربط الحاج عبدالله اللغم بحبل.

لبثنا منتشرين وراء الصخور ننتظر مرور القافلة بفارغ الصبر وكان البرد قارسا ونحن في ثيابنا المبللة، وكم كانت نشوتي رائعة عند بزوغ الفجر عندما بدأت الحياة تسري في جسمي تحت أشعة الشمس المشرقة.

عند مرور القافلة سحب الحاج عبدالله الحبل فانقطع، ولم ينفجر اللغم، فأخذنا نمطر القافلة بنيران بنادقنا ورشاشاتنا وبالقنابل اليدوية واستمر ذلك ربع ساعة استطاعت القافلة بعدها، أن تتابع سيرها حتى دخلت مستعمرة نجمة الصبح.. تاركة آثار الدماء على الطريق مما يدل على وقوع اصابات اما نحن فلم نتكبد أية خسائر.

وفي أحد الأيام التالية بينما أنا أسرح نظري على هذا الطريق، مرت سيارة جيب انكليزية مسرعة فانفجر بها ذلك اللغم فتطايرت ومن فيها أشلاء في الفضاء.

شهيد من عرب العكيدات.

لم يقتصر نشاطنا على نصب الكمائن، بل حاولنا أن نقوم بعمليات تخريبية داخل مستعمرات الحولة، ولذلك أرسل فتحي الأتاسي مستطلعا شابا طويل القامة من عرب العقيدات ليتسلل الى هذه المستعمرات وليجمع المعلومات المفصلة عنها، فانطلق ليلا ولم يعد إلينا في اليوم الثاني، وبعد منتصف الليلة الثانية سمعنا أصوات الرصاص والقنابل اليدوية والمتفجرات من قرية

عربية صغيرة قريبة من الطريق العام، فقدرنا وقوع رفيقنا بكمين يهودي، ولكننا لم نتمكن من نجدته وخشينا أن نقع في إحدى الكمائن التي يمكن أن ينصبها اليهود حولها، وفي اليوم الثاني روى لنا أبناء القرية الذين بقوا على قيد الحياة بأن "أحد المجاهدين" لجأ إلى قريتهم ليلا ولم يكد يأخذ غفوة من النوم إلا وقام اليهود الذين كانوا يتعقبونه بالهجوم على القرية فضربوا حصارا حول البيت الذي كان ينام فيه فنشبت معركة بينه وبين الكوماندوس اليهودي وقال أهل القرية:

لقد ظل يقاوم حتى الصباح وألحق بالمهاجمين خسائر كبيرة يقدرون بأنها أكثر من فصيل من الكوماندوس المدربين وبعد أن استشهد لغموا بيوت القرية وغادروها. كان خطأ الشهيد انه لم يتقيد بمهمة الاستطلاع وانما اشتبك بمصادمات مع حرس المستعمرات.

محاولة مع عرب اللهيب.

كان لا بد لنا من إجراء عمليات الاستطلاع ومحاولة اقناع عرب الحولة بالتعاون معنا ولا سيما عشيرة اللهيب المعروفة بشدة مراسها وشدة فقرها بآن واحد. وقد استطاع اليهود أن يستخدموا بعض أفرادها عن طريق المال فأرسلنا من قرية قباعة، وبموافقة الشيشكلي، حضيرة من الشباب الواعي أمثال علاء الدين الحريري وعبد اللطيف سالمه، إلى محمد الحسين شيخ عرب اللهيب الذي كان يقطن في قرية "الخالصة" (كريات شمونة).

كان لمحمد الحسين أحد عشر ولدا، أحدهم الجاسوس كامل الحسين الذي اغتاله الضابط السوري أكرم طبارة في لبنان عام 1949، وقد كان إرسال رفاقنا في تلك المهمة مغامرة لا بد منها، وكنا نخشى أن يغدر بهم محمد الحسين ويسلمهم لليهود، فأوصيناهم بالحيطة والحذر.

استضافهم محمد الحسين ورحب بهم ولكنه راوغ بأمر الاشتراك في العمليات التي كنا ننوي القيام بها ضد مستعمرات الحولة، وهكذا فشلت المحاولة.

هل يعدم هذا البدوي:

وبعد أيام ألقى إخواننا القبض على بدوي من عرب اللهيب لاطيا قرب القرية، فاشتبهوا بأمره، وبعد أن حققوا معه اعترف بأنه مرسل من قبل اليهود لينقل إليهم معلومات عن عددنا ومواقعنا وتسلحنا، فأمر فتحي الأتاسي بإعدامه، فمنعته من ذلك وقلت له لا يجوز أن يعدم إلا بعد أن يحاكم. فتشكلت المحكمة برئاستي، وعندما استجوبته اعترف ثانية بجريمته، فقلت له: هل يقبل عربي على نفسه وشرفه أن يصبح جاسوسا للاعداء اليهود؟؟ فبكى وقال انه يعيل أسرة وأطفالا صغارا باتوا على الطوى أياما، وقد اتصل به اليهود ونقدوه بعض المال ليقوم بهذه المهمة، فحكمت ببراءته وأطلقت سراحه بعد أن أخذت منه عهدا وميثاقا على القرآن بأن يقطع صلته بالمخابرات اليهودية.

إن قصة هذا البدوي زادتني اقتناعا بأن القضاء على الاقطاع، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتحرير المواطن من الفقر والجهل والمرض، هو السبيل لايقاظ الوجدان القومي والشعور الوطني. كان فلاحو قرية "المنصورة، الذين يملكون أراضيهم في الحولة يدافعون عن قريتهم ببسالة اسطورية ضد الكوماندوس اليهودي الذي يهاجمها باستمرار فيرتد عنها خائبا منهزما، وبقيت المنصورة صامدة لأن أهاليها كانوا يدافعون عن أراضيهم وبيوتهم، بينما كان اليهود يستخدمون عرب اللهيب الذين يعيشون في المنطقة ذاتها لأنهم لا يملكون الأرض، وإنما كانت تلك الأراضي ملكا للاقطاعيين السوريين واللبنانيين فباعوها لليهود الذين أقاموا عليها هذه المستعمرات فأصبح عرب الحولة خدما لليهود.

في قرية القباعة.

نزلنا في القباعة بضيافة أحمد أيوب الذي ارتبت به منذ اللقاء الأول لأنه يرطن في لهجته كما يرطن اليهود. كان بيته بيت فلاح فلسطيني فقير، وكان الرجل يتسم هو وعائلته وأولاده بكل صفات الفلاحين الفلسطينيين الفقراء، وكان على غاية من

التهذيب والذكاء، يعمل مستخدما في مصلحة مكافحة الملاريا في منطقة الحولة.

وعلى الرغم من شدة تدينه وتقواه فإنني خشيت أن تكون خداعا ومكرا، فقمنا بتحقيق سري مع أبناء القرية فشهدوا به شهادة طيبة... وسألته عن سبب هذه الرطانة في لهجته فعزاها إلى أنه تعلم وهو صغير في المدرسة اليهودية بالجاعونة.

بعد احتلال اليهود لفلسطين هاجر احمد ايوب الى سوريا مع عائلته، فساعدته بتعيينه في وزارة الصحة.

كان مطلعا وخبيرا بشؤون المنطقة، فحاولنا بواسطته الاتصال بالعرب من أبناء الجاعونة القريبة من القباعة.

هدنة دائمة بين عرب الجاعونة ويهودها.

يقطن قرية الجاعونة بالتساوي العرب مع اليهود المحليين القدماء. ورغم اشتعال نيران الثورة ظلت هذه القرية محافظة على هدوئها، فقد كان أهلها يقولون نحن نسكن بلدا واحدا منذ القديم وإن اي قتال سيكلف الطرفين غاليا، فمن الخير أن نبقى على علاقاتنا القديمة إلى أن يظفر أحد الفريقين وعندها ننضوي تحت جناحه دون أن نهدر قطرة من دماء لأن اقتتالنا لن يقدم أو يؤخر في مصير المعركة.

لم تكن لتقنعنا تلك الخديعة الفضوحة التي أقنعت أهل الجاعونة العرب، فأرسلنا إليهم رفاقنا للاتصال بهم وتحريضهم على القتال مع الوعد بمساعدتهم ومساندتهم، فلم يقتنعوا بخرق الهدنة بينهم وبين اليهود التي رسختها العلاقات المتوارثة.

استشهاد محمد جديد .

أتاني نبأ استشهاد محمد جديد وأنا في القباعة فأسرعت الى "دلاته" فدخلتها حزينا باكيا محمدا زين الشباب، وأجتمعت بالمجاهدين وهم على حالة يرثى لها من الحزن والكآبة وقد حدثوني عن تفاصيل المعركة التي اشتهد بها الملازم محمد جديد:

مع اقتراب موعد جلاء الانكليز كانت الضرورة تدفع بنا لأن نشرع بالاستيلاء على عين زيتم لنحول دون سقوط صفد عاصمة الجليل، ولم تكن قيادة جيش الانقاذ تلبي طلبات أديب فتمده بالمقاتلين والعتاد والسلاح الثقيل. فلم ير أمامه سبيلا لاحتلال هذه المستعمرة إلا أن يقطع طريق تموينها وإمدادها من مستعمرات جبل (بيره) اليهودية، فكلف بهذه المهمة الملازم محمد جديد وأمده بسرية الأدالبة إثر انسحابها من منطقة طبريا، بعد معركة حامية كان من نتائجها وقوع ستة من المجاهدين الأدالبة أسرى بيد الانكليز.

حاول محمد جديد قطع طريق بيره عين زيتم، وكان موقع الطريق لا يبعد عن دلاته أكثر من ثلاثمائة متر تقريبا مما يتيح لحامية دلاته نفسها أن تشترك بالقتال فورا عندما يحاول اليهود فك الحصار عن عين زيتم. وقد تضايق اليهود كثيرا من هذا الحصار. ولم يكن المجاهدون على مستوى تنفيذ هذه الخطة من الحذر والحيطة والتقدير الصحيح لقوة العدو. لأن اليهود كانوا يشاهدون مواقع الأدالبة من جبل البيره. وذات ليلة لليلاء ماطرة انقضت عليهم قوة كبيرة من رجال الكوماندوس المدربين على القتال الليلي، فأخذوهم على حين غرة، وأسروا منهم ثلاثة وجرحوا عددا مماثلا بعد اشتباك بالقنابل اليدوية فأسرعوا من دلاته لنجدة رفاقهم، فكانت معركة حامية استمرت حتى ظهيرة اليوم الثاني.

وقد قال لي أحد إخواننا بأن الملازم محمد جديد كان يطلق رصاصه وهو منتصب القامة، فخر صريعا بنار أحد القناصة اليهود، كما جرح طالب من حزب الشباب هو مظهر العمر جراحا خطرة في صدره مع عدد آخر من القتلى والجرحى.

أبو رميح في مستشفى صور.

نقلنا جرحى المعركة الى مستشفى صور.. وفي الطريق تدهورت إحدى السيارات فجرح رفيقنا أبو رميح جراحا بالغة فأدخل معهم إلى المستشفى.

واتفـق أن زار الشـيخ بشـارة الخـوري، رئـيس الجمهوريـة اللبنانية، مستشفى صور، فـآنس الجرحـى بكلماتـه الطيبـة. فـرد عليه أبو رميح في سـريره بخطـاب رائـع أثـر كثيـرا بالشـيخ بشـارة الذي لم يكن ليتوقع من جريح طريح الفراش تبدو عليه كل سـيماء البداوة والأمية أن يكون فصيحا بليغا رائعا إلى هذا الحد.

خليل كلاس يقود معركة ناجحة.

خفف قليلا من حزننا وألمنا نبـأ الكمـين النـاجح الـذي نصـبه خليل كلاس قرب "الكابرى" فقد قضى الكمين علـى قافلـة تمـوين يهودية وأسر سيارة مصفحة كبيرة، ولما زرته في طرشيحا وجـدت برفقتـه فـؤاد جديـد الـذي التحـق حـديثا بالمجاهـدين وكـان برتبـة مساعد بالجيش وهو شـقيق غسان جديد وصلاح جديد.

وقد روى لي خليـل كـلاس تفاصـيل هـذه المعركـة الموفقـة التي أبادوا فيها القافلة اليهودية بأجمعها وقصة السيارة المصـفحة التي بقيت في أرض المعركة فاقتربوا منها ومنحوا لجنودها الأمـان إذا خرجـوا مستسـلمين لكـن اليهـود رفضـوا الاستسـلام وفجـروا انفسـهم داخلهـا بالقنابـل اليدويـة، وقـد نشـرت اليقظـة تفاصـيل معركة الكابري كاملة.

الانتقال إلى الصفصافة.

كانت إقامتنا في القباعة مملة إذ لـم نـتمكن مـن أن نحقـق ما كنا نتصوره من نشـاط تخريبـي واسـع فـي مسـتعمرات الحولـة لعدم توفر الألغـام وآلات التفجيـر الحديثـة ولعـدم اسـتجابة أهـالي الحولة في مؤازرتنا وكان رفاقنا يقولون آسـفين: كيـف نسـتطيع أن نفعل شيئا طالما أن آلة تفجيرنا قطعة من حبال؟

كان فصيل الملازم فتحي الأتاسـي في ماروس كافيـا وحـده لمزاولـة النشـاط الـذي كنـا نمارسـه معـا، فطلبنـا مـن أديـب الشيشكلي أن ينقل فصيلنا إلى مكان آخر.

أقمنا في قرية "الصفصـافة" بعـض الوقـت وقـد ألقـى رفاقنـا القـبض ذات ليلـة علـى ضـابط أجنبـي يسـتقل سـيارة عسـكرية

صغيرة فتولى أحد شباب القرية مهمة الترجمة بيننا وبين هذا الضابط الذي أبرز لنا هويته مؤكدا أنه ضابط بريطاني، فسألناه عن سبب مجيئه الى المنطقة فقال إنه كان في طريقه إلى بيروت ليمضي ليلة مع صديقة له هناك ثم يعود، فأطلقنا سراحه.

في مدينة صفد، قلب الجليل.

اتفقنا مع أديب الشيشكلي أن نتمركز في مكان يمكن أن نقوم فيه بنشاط ضد العدو، فانتقلنا من الصفصافة الى صفد، وقد صعدنا إليها بعد أن اجتزنا واديا جميلا يقع على الجانب الغربي منها، ومن هناك تسللنا الى صفد مبتعدين عن الطريق الذي تتحكم به مستعمرة عين زيتيم.

كانت المرة الأولى التي أزور بها مدينة صفد الجميلة الساحرة بالرغم من اننا أقمنا في مراكز عديدة قريبة منها، وهي مدينة على غاية من الروعة والجمال، ولها طابع عريق فريد يأخذ بمجامع القلوب، وقد تلقانا أهل صفد بالحفاوة والترحاب وهم في ذروة الحماسة والاستعداد للقتال وكان شبابهم قد نظموا صفوفهم قبل ذلك بقيادة الضابط الشهيد إحسان كملماز الذي كان الشيشكلي يستخف بنشاطه رغم انه قام بأعمال جريئة ونشاط واسع مع شباب صفد دون أي مساعدة أو تشجيع.

مكثنا أياما في صفد بضيافة أهلها الكرماء من آل قدورة والمفتي والنحوي[5] وغيرهم كما زرنا قلعتها وتجولنا في أحيائها التي تقع على سفح جبل شبيه بسفح جبل قاسيون في دمشق، وتحيط بصفد الوديان الخضراء من جهاتها الثلاث وتتصل من الجهة الشمالية الشرقية بجبل بيره المطل على بحيرة طبريا والحولة.

عرجنا في طريقنا لصفد على كنيس يهودي يبعد عنها بضعة كيلومترات إلى الغرب قيل لي أن اليهود يحجون إليه كل عام، وأظن أنه قرب مزار النبي شعيب فوجدته خاليا إلا من بعض

(5) تنتمي عائلة النحوي إلى عائلة الحلقي في جاسم التي تنتمي إليها ايضا عائلة الحوراني.

الكتب العبرية، وكان داخله مزركشا على الطريقة العربية وقد شعرت بالفخر والاعتزاز لأن الأيدي العربية لم تعبث به رغم اشتعال الثورة.

أخبرني أديب انه اجتمع بقائد معسكر صفد البريطاني بعد أن استقبله بالمراسم العسكرية وكان موضوع البحث وضع الترتيبات لعدم الاصطدام مع القوات البريطانية اثناء انسحابها.

في عين زيتون.

تقرر في صفد أن ننتقل الى قرية عين زيتون، التي تقع على سفح جبل بيره في الجانب المقابل تماما لمدينة صفد من الجهة الشمالية الشرقية، وتعتبر ضاحية من ضواحيها ترتبط بها بطريق مزفت متعرج يمر بمستعمرة عين زيتم التي لا تبعد عنها أكثر من 250مترا، ولا يفصل بين عين زيتون العربية وعين زيتم اليهودية إلا تلة صغيرة تشرف عليها مباشرة.

كانت عين زيتون، كاسمها، مكسوة بأشجار الزيتون الممتدة الى اسفل الوادي، وكان موقعها من الناحية اليهودية العسكرية خطرا جدا لأنها تقع على سفح جبل بيره حيث تتحكم بها المستعمرات اليهودية تحكما تاما، فكان اليهود قادرين أن يشلوا كل نشاط نقوم به ضد مستعمرة عين زيتيم، ولم أكن مقدرا لهذه الأمور عندما اختارها الشيشكلي مركزا لنشاطنا.

انتقل فصيلنا من الصفصافه الى قرية عين زيتون، مارا بالوادي الذي تظلله أشجار الزيتون، دون أن نعرج على صفد، وكنت أمشي مع الملازم شفيق العبيسي نتجاذب أطراف الحديث فلم ننتبه إلى أننا أصبحنا على مرمى نار قناصة عين زيتم. وكان يتبعنا بدوي من سوريا التحق بنا في ذلك اليوم، فقلت لشفيق أن يأمره بالتسلل زحفا. فالتفت شفيق اليه فرآه يزحف على الأرض قبل أن يأمره بذلك، انهال علينا الرصاص من المستعمرة بشكل غزير، فتابعنا تسللنا حتى اجتزنا منطقة الخطر فنهضنا وتابعنا سيرنا، وقد استغرب شفيق يقظة هذا البدوي وحذره رغم أنه لم تسبق له أية معرفة بالمنطقة، وكانت المستعمرة تقع في لطية

غيـر ظـاهرة فـي أعلـى السـفح، فقلـت لـه أن ظـروف البـدوي المعاشية تجعل منه منذ ولادته، كوماندوسا مدربا بالفطرة.

أقمنا في عين زيتون فترة قصيرة، فحفرنا الخنـادق، وانشـأنا الاسـتحكامات، وكانـت المناوشـات لا تنقطـع بـين الحـي اليهـودي وأهالي صفد، وكنا نساهم أحيانـا، مـن عـين زيتـون، بـإطلاق النـار علـى الحـي اليهـودي الـذي كـان موقعـه فـي آخـر مرمـى بنادقنـا ورشاشاتنا، وقد زارنا إحسان كمالماز الشاب الجريء الـذي يتفجـر حيويـة وحميـة، بصـحبة بعـض المجاهـدين مـن ابنـاء صـفد وهـم يحملون رشاشا ثقيلا من نـوع الهوشـكيس، وهـو مـن أجـود أنـواع الأسـلحة الفرنسـية فنصـبناه علـى مكـان ملائـم قبالـة الحـي اليهودي. وكنا نسـمع بعـد اطـلاق النـار شـتائم اليهـود وصـراخهم، وقال لنا الصفديون أن اليهود اليمنيين المتمركزين فـي ذلـك الحـي هم الذين يكيلون الشتائم والسباب باللغة العربيـة وكـان اليمنيـون مـن أشـجع اليهـود العـرب، وقـد تمكـن أكثـرهم أن يهـاجر الـى فلسـطين رغـم بعـد الشـقة وصـعوبة الوصـول، إذ كانـت الوكالـة اليهوديـة قـد تولـت أمـر تهجيـر اليهـود العـرب بمختلـف الوسـائل والاسـاليب وبـرغم كـل الصـعوبات والعوائـق، مسـتخدمة شـبكاتها الممتـدة فـي الـبلاد العربيـة ومسـتغلة إهمـال العـرب وتخلفهـم وجهلهم مما وفر لها عددا من المقاتلين مع أموالهم المهربة.

□

كنـا لا ننـام فـي الليـل الا قلـيلا، حـذرا مـن هجـوم يهـودي مباغـت، ولـم ينقـذنا مـن هـذا الموقـع اللعـين إلا زيـارة اسـماعيل صفوت باشا، المفتش العام لقـوات جـيش الانقـاذ، فبعـد اجتماعـه بالشيشكلي وتفقده لبعض المواقع وملاحظته لخطورة موقعنا أمره أن نخلي قرية عين زيتون فانتقلنا إلى قرية (قدس).

أخبرني أديب أن اسماعيل صفوت كان شـديد الاعجـاب بمـا سمعه ورآه وشـهد بأن شباب هذا الفوج هم أشـرف وأنبـل شـباب العرب، وأقسم بأنه لو كان له بنـات لتمنـى أن يكـن زوجـات لهـؤلاء المجاهدين.

التفاؤل في أحلك الظروف.

انتقلت سريتنا إلى قدس[6] وكانت تتشكل في معظمها من شباب الحزب وكان صلاح الشيشكلي طوال وجوده معنا في الجليل ينشر اليأس والتشاؤم فلم أكن مرتاحا إلى ذلك، ولا سيما أننا أصبحنا في قدس بعيدين عن رفاقنا وإخواننا الآخرين الذين كانوا يعيشون، حتى في أحلك الظروف، جوا من التفاؤل والمرح والأمل. وهل أنسى نكات الدكتور عبد السلام العجيلي وقصائده الهزلية وتعليقاته الشعرية الضاحكة في أحرج الظروف؟ وهل أنسى المساجلات الطريفة والمداعبات الظريفة بين الدكتور شوقي الأتاسي والدكتور فيصل الركبي؟

إنني لا أزال أذكر تلك الليلة الليلاء التي تركنا فيها الملازم فتحي الأتاسي في ماروس واتجهنا إلى دلاته ومعنا الدكتور شوقي وعدد من الإخوان، عشية يوم ربيعي صاح، فما أن غابت الشمس حتى لفنا الليل المعتم وليل آخر من غيوم كثيفة داكنة تطلق الرعود والصواعق فلا نرى الا البرق الخاطف والأمطار الربيعية المتدفقة، ولما لم يعد بإمكاننا العودة إلى ماروس اضطررنا أن نتابع سيرنا إلى دلاته نخبط خبط عشواء، ننزل في الوديان ونطلع في الجبال الوعرة ونحن لا ندري الى أين سننتهي الى دلاته أم الى مستعمرة يهودية.

كان شوقي الأتاسي ورفاقه الغارقون بالأمطار والوحول يطلقون النكات الحمصية الظريفة المستملحة.

أحسسنا تخمينا اننا أصبحنا قرب "دلاته" فاحترنا بالاسلوب الذي ندخل فيه القرية في هذا الليل ونحن لا نملك كلمة السر، وكنا نخشى أن يطلق علينا حراسها النار فور اقترابنا منهم، ومن حسن الحظ أننا عندما أصبحنا جوار القرية ونحن غير متأكدين مما إذا كنا على ابوابها أم على أبواب مستعمرة يهودية صاح بنا الحراس فأجبناهم بأسمائنا فتعرفوا على أصواتنا وقادونا إلى حيث

(6) تل قدس (بالعبرية: تل قدش) يقع على الحدود الفلسطينية اللبنانية الى الشرق من قرية عيترون اللبنانية والشمال من قرية المالكية الفلسطينية، عند خط عرض 7 33 درجة وخط وحلول 30 35 درجة.

يقيم محمد جديد فغيرنا ثيابنا ونعمنا بالدفء والطعام وانعقدت ندوة الدكاترة الظرفاء، ولكن هذه الصحبة وتلك الليالي وذلك الجو لم نعد نتمتع به في قدس.

تملك هذه القرية إحدى الأسر الدمشقية، وأظن أنها تعود لآل القدسي، ولم أر مالكيها إلا مرة واحدة فقد كانت مستعمرة "الهراوي" تقع على إحدى هضباتها ولا بد أن يكون أولئك الملاكون قد باعوا بعضا من أراضيها لليهود.

كمب النبي يوشع.

تقع قدس وديشون والمالكية على هضبات متصلة مع بعضها بشكل مثلث، ومن قدس تمتد فسحة صغيرة إلى الجهة الشمالية الشرقية لتنتهي عند حافة عالية تطل بشكل مباشر على واد سحيق يتصل بسهل الحولة، هناك شيد الانكليز مخفرا سمي "كمب النبي يوشع" وشقوا طريقا جبليا متعرجا يصله بالطريق العام الذي يخترق سهل الحولة. وهذا الكمب ذو الموقع الاستراتيجي الخطير مبني بالاسمنت المسلح على طراز القلاع القديمة، بطوابق عدة تطل من سورها الخارجي كوى الرماية الضيقة من الخارج والمنفتحة من الداخل، وقد سبقنا اليهود فاحتليناه اثر جلاء الانكليز عنه وقد ترك الانكليز حوله مداحل ضخمة وآلات لشق الطرق وتعبيدها وتزفيتها فوددت لو أن بإمكاننا إرسالها إلى وزارة الاشغال العامة في سوريا.. وقد بنى البريطانيون كمب النبي يوشع في جملة مخافر مماثلة عديدة أقاموها في المواقع الستراتيجية الهامة في فلسطين.

ويقع كمب النبي يوشع قرب طريق تموينا وإمدادنا مع لبنان كما يتحكم بالطريق الذي يصل الهراوي وقدس بسهل الحوله، ومن مشارف الكمب كنا نشاهد ذلك الطريق الذي تمر عليه السيارات اليهودية تنقل الأسماك للمستعمرات من بحيرة الحولة ومستنقعاتها. وكانت الضرورة تقضي بالدفاع عن هذا الموقع الستراتيجي الهام فوضعنا منذ وصولنا إلى قدس نظاما درويا لحراسة الكمب ليلا نهارا، وقد عثرنا مع أحد رفاقنا على

قنبلة طائرات مضيئة، يمكن قذفها باليد بعد إشعالها، فتشع ضوء ساطعا وتنير ما حولها ليلا، وكان الأهالي في حماه قد جمعوا عددا كبيرا من هذه القنابل التي تركها الفرنسيون في مطار (معردس) بعد جلائهم عن حماه. فأصبحنا نستخدمها بقذفها من سطح الكمب كلما هاجمه اليهود ليلا متسللين من مستعمرة الهراوي بقصد احتلاله والسيطرة عليه لتطويقنا وقطع طريق اتصالنا بلبنان.

كانت قرية قدس صغيرة فقيرة يسكن فلاحوها في بيوت تشبه بيوت القرى البائسة التعيسة في سوريا.

معركة كمب النبي يوشع.

ذات ليلة، ونحن نيام في قدس، أفقنا على أصوات المتفجرات والرصاص بشكل غير مألوف، فقدرت أن ثمة هجوما يهوديا كبيرا على الكمب الذي كان يتولى حراسته الملازم شفيق العبيسي ... فأشرت على صلاح الشيشكلي أن نبادر فورا بالتوجه إلى الكمب والاشتراك في المعركة، وقلت له: إنني أعتقد أن هذا الهجوم ليس كالهجمات السابقة، فقال: وما يدرينا؟ لعل اليهود يقدرون هذا الحساب وهم ينتظرون خروجنا من القرية حتى يحتلوها فنطوق من كل الجهات.

فاكتفينا بإرسال نجدة لضرب اليهود المهاجمين من الخلف، فتوجه عوض التركاوي (من عرب التركي) مع حضيرته وتدخل في المعركة وكان تدخله مفيدا جدا لرفاقنا المحاصرين، وعند طلوع الفجر توجهت الى الكمب مع بعض الاخوان، وتحت الرصاص المنهمر فتح لنا رفاقنا باب الكمب ودخلنا إليه فرأيتهم بحالة هياج يطلقون الرصاص كيفما اتفق. فهدأت من روعهم وأوصيتهم بأن لا يطلقوا الرصاص إلا على أهداف محددة، فقال لي شفيق إنهم بحالة من الانهاك والتعب الشديدين... ثم خفت الرماية وبدأ اليهود بالانسحاب والتراجع الى مستعمرة الهراوي، فوقفت أراقبهم فقدرت عددهم بالمئات ما عدا شرذمة منهم لم تتمكن من الانسحاب، فخرج بعض المجاهدين من الكمب للقضاء عليها، ومن

سطح الكمب شهدت شابا من دروز سوريا يلحق بأحد المقاتلين اليهود الفارين حتى تمكن من الامساك بتلابيبه واستلاب رشاشه والقضاء عليه بخنجره.

ترك اليهود قرب الكمب مصفحة سليمة وصالحة للاستعمال أصيب سائقها في رأسه من كوتها الصغيرة وقد رأيته ميتا مكبا على المقود

أحصيت القتلى الذين لم يتمكن الصهاينة من سحبهم من أرض المعركة فبلغ عددهم أكثر من عشرين قتيلا وكلهم من الأوروبيين ذوي الاجسام الرياضية وقد وجدت بعضهم مرميا عند جدار الكمب.

حدثني أحد المتطوعين من العلويين ممن خدموا في الجيش الفرنسي قائلا:

بينما كنا منصرفين إلى إطلاق الرصاص على المهاجمين سمعت ضرب إزميل في اسفل جدار الكمب فقدرت أن بعض اليهود قد وصلوا إلى الجدار وهموا بلغمه فعاجلتم بإسقاط عدد من القنابل اليدوية عليهم، وقد شاهدنا الالغام والأدوات المبعثرة والاشلاء حول جدار الكمب في المكان الذي أشار إليه هذا المجاهد الواعي الشجاع.

كان اليهود عند انسحابهم من المعارك حريصين جدا على سحب القتلى من أرض المعركة مهما كلفهم ذلك من خسائر، ومع ذلك فقد تركوا بعد فشلهم بالاستيلاء على الكمب كثيرا من الجثث التي قذف بها من عال الى الوادي السحيق لوقاية الكمب من الروائح الكريهة والجراثيم. أصبحت أمر بالجثث مرورا عابرا مع انني كنت فيما مضى اتجنب كثيرا رؤية الموت ومشاهدة القتلى والجرحى ولكننا في فلسطين ألفنا هذا المنظر وأصبحنا كطلاب الطب الذين يالفون تشريح الجثث.

كان انتصارنا رائعا ولم يكلفنا أية خسارة، وقد لعبت الحضيرة التي أرسلناها دورا هاما في هذا الانتصار. وأصبحت مهمتنا محددة، وهي المحافظة على هذا الكمب ريثما نقوم بالهجوم

على مستعمرة الهراوي لاحتلالها، عندما ترسل إلينا دمشق بطارية مدفعية ثقيلة ، وكان أديب ينتظر وصولها على أحر من الجمر.

كان تقدير أديب الشيشكلي للوضع العسكري صحيحا: إن احتلال مستعمرتي الهراوي وعين زيتم يمكننا من حماية الجليل، ولبينما تدخل الجيوش العربية، وتحقيق هذا الأمر لا يكلف سوى إمدادنا ببعض النجدات والذخائر وبعض الاسلحة الثقيلة.

خف الشيشكلي لزيارتنا عندما وصلته أخبار المعركة، وكان فرحا جدا بالنتائج التي أسفرت عنها، وقد اتفقنا على أن اليهود مصممون على احتلال الكمب لذلك لا بد من الاسراع باحتلال مستعمرة الهراوي وتنظيف المنطقة والاطمئنان على خطوط مواصلاتنا نهائيا.

وفي عصر اليوم الثاني شاهدنا طائرة يهودية تحوم فوق الكمب، فأصلاها المجاهدون نارا كثيفة من رشاشاتهم فألقت بعض القنابل التي تفجرت في الجو وولت هاربة، أما المصفحة التي غنمناها فقد جلنا فيها على مراكزنا في الراس الأحمر وطيطبا والمراكز الاخرى تشجيعا لرفاقنا وشدا لعزائمهم وتثبيتا لاقدامهم.

33

1948: العودة الى دمشق المشغوله باحتفالات الرئاسة الثانية لشكري القوتلي- فخري البارودي يقول لي: لا تحزن يا أكرم وإذا كنتم رجالا فحافظوا على سورية- جلسة سرية لمجلس النواب السوري تذاع من اسرائيل- القوتلي يحاول ارهاب معارضيه بواسطة زعران فيصل العسلي- مقتل فتحي علوش رئيس تحرير جريدة اليقظة- إلقاء مفرقعة في مكتب حزب البعث.

العودة إلى دمشق .

في يوم 19 نيسان 1948 نشرت صحيفة "النصر" الدمشقية ما يلي: "وصل إلى دمشق أمس من ميادين الجهاد في فلسطين نائب حماه الجريء الأستاذ أكرم الحوراني، وقد زاره الكثيرون للوقوف على حقيقة أنباء المجاهدين في مختلف الساحات".

□

كادت ذخيرتنا تنفد بعد اشتداد المعارك مع اقتراب موعد انسحاب الانكليز من فلسطين حيث أصبحنا مع اليهود في سباق على احتلال المواقع الاستراتيجية استعدادا للمعارك المقبلة الفاصلة، وقد أصبحنا نشعر جميعا بأن أسلحتنا وأعدادنا أصبحت غير كافية حتى للمحافظة على مواقعنا في صفد والجليل، وبرغم طلبات الشيشكلي المستمرة التي كان يرسلها للقيادة بدمشق لإمداده بالمدفعية الثقيلة والذخائر الكافية والنجدات الضرورية على جناح السرعة فإن القيادة كانت تصم آذانها عن هذه الطلبات والاحتياجات، وهذا ما دعاه لأن يزورنا ثانية في قدس لدرس الموضوع، فعقدنا اجتماعا حضره ايضا الملازم شفيق العبيسي حيث تداولنا بالمخاطر المحيطة بنا من جراء تأخير إرسال الذخائر والإمدادات والأسلحة الثقيلة فأجمع الحاضرون على ضرورة ذهابي الى دمشق، وقالوا إن وجودي في المجلس النيابي أصبح اكثر تأثيرا وأهمية بالنسبة للقضية من بقائي معهم في فلسطين،

حيث لا يمكن ان تحل مشاكلنا العسكرية ما لم تحل المشاكل السياسية في دمشق أولا.

وقد رأيت أنه لا مناص من تنفيذ قرارهم ولم أشأ أن أتحمل مسؤولية نفاد الذخيرة الذي بات يشكو منه المجاهدون جميعا. فأزمعت على الرحيل.

□

كنت محتفظا ببندقية انكليزية كذكرى لتطوعنا في ثورة 1945، وقد أعطيت هذه البندقية أحد رفاقنا واشتريت بندقية افرنسية طويلة عند دخولنا لفلسطين، وبعد أن غنم المجاهدون بعض الاسلحة والرشاشات في معركة كمب النبي يوشع استعاض عنها رفيقنا بما تسلح به من الغنائم، وقد عرض علينا شاب فلسطيني في قدس بيع سيارة جيب عتيقة من مخلفات الجيش البريطاني لقاء بندقيتي الانكليزية التي كنت أحب أن أظل محتفظا بها لما تمثل من ذكريات، ولكنني وافقت على الصفقة مضطرا.

غادرت الجليل متوجها إلى دمشق في تلك السيارة العتيقة المهلهلة التي كان يقودها خليل كلاس ، وكنت حزينا ومتشائما مما وصل إليه الوضع العربي في فلسطين حيال هجمات اليهود وفظائعهم الإجرامية، وكنت قد سمعت وأنا في الجليل أنباء مذبحة دير ياسين وما شابهها من الفظائع الوحشية اليهودية الأخرى.. لذا كنت أفكر طول الطريق في ما يجب علي أن أفعله للإسهام بإنقاذ الموقف.

وعندما وصلت الى دمشق لم ألمح على وجهها المشرق الجميل علائم القلق، بل إن دمشق كانت منصرفة إلى الاحتفالات بالذكرى الثالثة لعيد الجلاء، والشوارع ملأى بصور الرئيس شكري القوتلي، وباللافتات التي تعلن "ابتهاج الشعب" بإعادة انتخابه رئيسا للجمهورية.

اجتازت بنا سيارة الجيب العتيقة شوارع دمشق الى المنزل وأنا أتساءل: أهذه هي دمشق قلب العروبة النابض؟ وارتسم في خاطري ما سوف تلاقيه مهمتي من عراقيل وصعوبات.

أما الصحف وقد طال انقطاعي عن قراءتها طيلة غيابي في فلسطين فقد خرجت بالعناوين التالية:

- بالإجماع أعاد النواب انتخاب الرئيس القوتلي في جلسة تاريخية.
- ملوك العالم ورؤساؤه يهنئون الرئيس القوتلي بإعادة انتخابه- برقية ودية من الرئيس الأميركي ترومان ذات مغزى خاص.
- دمشق تهنيء الرئيس بتجديد ولايته - الوفود تتزاحم لرفع التهاني.

وقد زاد عجبي واستغرابي منذ اليوم الأول لوصولي إلى دمشق عندما قرأت الصحف فوجدت أنه لم يرد أي ذكر لفلسطين في "الجلسة التاريخية" لا في خطاب رئيس المجلس ولا في خطاب القوتلي الذي وجهه للنواب إحتفاء بتجديد ولايته.

□

كان أول ما فكرت أن أقوم به في صبيحة اليوم التالي زيارة قيادة جيش الانقاذ في مبنى وزارة الدفاع لتحقيق المطالب العاجلة التي يتوقف على تحقيقها سلامة رفاقنا والمحافظة على الجليل تلك المنطقة العربية الهامة من فلسطين، وكان على رأس قيادة جيش الانقاذ ضابطان عراقيان متقاعدان هما طه باشا الهاشمي واسماعيل صفوت باشا، ومن خلال مقابلاتي السابقة للرجلين أنست باسماعيل صفوت ووثقت بإخلاصه، وأن كنت غير واثق بكفاءته وقدرته.

زرت القيادة فلم أجد فيها غير اسماعيل صفوت فشرحت له تفاصيل معركة كمب النبي يوشع، وحدثته عن استبسال قواتنا رغم قلة عددها وعتادها وما تعانيه من قلة ذخيرتها، وشرحت له

المخاطر التي تنجم عن استيلاء اليهود على هذا الكمب وعلى قدس والمالكية الأمر الذي يقطع طريق مواصلاتنا مع لبنان، كما بينت له أهمية مدينة صفد الستراتيجية والمعنوية وأن سقوطها يعني سقوط الجليل، ورجوته إرسال الذخائر الكافية على جناح السرعة، وإمداد المجاهدين بالسلاح الثقيل، حيث أن البنادق الفرنسية العتيقة التي هي من مخلفات الحرب العالمية الأولى وبعض رشيشات (اف ام) لم تعد مجدية بعد دخول الجيش الاسرائيلي في المعركة.

كان جواب الرجل جافا باردا، فلم يلب طلباتنا العاجلة، محتجا بأنه ليس لديهم إمكانيات لدعم حاميتنا... ولم يعر شروحي وايضاحاتي أي اهتمام، مع أنه سبق له أن زارنا في مواقعنا بالجليل وخرج بانطباع رائع لما رآه وشاهده هناك، صفعني موقف اسماعيل صفوت صفعا أليما كما زادني يقينا بأنه لا حل لمشكلة فلسطين العسكرية ما لم تحل المشكلة السياسية، لا سيما وقد جرت هذه المقابلة بعد أنباء المعارك الدامية في أرجاء فلسطين الأخرى وانتقال الهاغاناه من ظفر إلى ظفر واستيلاء اليهود بسرعة على المواقع العربية، وسقوط القرى والمدن، واستشهاد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل، وكنت أردد في نفسي أن المعركة ستنتهي حتى خلال شهر واحد لصالح اسرائيل إذا بقي الحال على هذا المنوال ولم تبادر الجيوش العربية بسرعة لانقاذ الموقف.

بعد ثلاثة أيام دمشق المناضلة تسفر عن وجهها العربي.

رجعت الى البيت من هذه المقابلة لا ألوي على شيء، وكان بيتا متواضعا استأجرته وعشت فيه عدة سنوات، واتخذت من غرفتيه سكنا ومركزا لجريدة اليقظة ومكتبا، وكنت لا أزال عازبا غير مسؤول عن أحد إلا عن والدتي التي تركتها عند إخوتي في حماه.

وما أن ذاع نبأ وصولي لدمشق حتى توافد علي الجيران والإخوان من الطلاب والنواب والشخصيات السياسية والشعبية بأعداد كبيرة يسلمون علي ويستوضحون مني أنباء ما يسمعون عن فلسطين.

وفي مساء يوم الخميس 22 نيسان 1948، توجهت الى المجلس لحضور الجلسة، وفي حديقة المجلس رآني النائب فخري البارودي، وكان على عادته مزينا صدره بوردة حمراء كبيرة من ورود نيسان، ولاحظ أنني كنت مغتما مكتئبا، فسلم علي وقبلني وقال لي كلاما لا أنساه ما حييت:

- يا أكرم لا تحزن ولا تبتئس .. إن فلسطين قد ضاعت. وإذا كنتم رجالا فحافظوا على بلدكم سورية، إن حزنك لن يجدي فتيلا.

فاجأني البارودي بهذا الكلام فأذهلني، لأنني كنت متيقنا من أن الامكانيات العربية متوفرة للقضاء على أحلام الصهيونية فالنصر لا شك مؤكد إذا دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين وحسمت المعركة بسرعة.

انعقدت الجلسة برئاسة محمد العايش نائب دير الزور، وكنت منتظرا أن لا يبحث النواب أمرا غير القضية الفلسطينية فإذا بهم يبحثون ويتناقشون في قضية مياه حلب وتصديق زيادة مخصصات النواب (نواب حزب الشعب بقيادة الكيخيا ونواب الحزب الوطني بقيادة ميخائيل ليان) فدارت الدنيا برأسي ولم أنبس ببنت شفة وخرجت من قاعة الاجتماع الى الردهة وطلبت من بعض النواب ان يقدموا اقتراحا لعقد جلسة سرية لبحث القضية الفلسطينية، وفعلا تقدم النواب محمد المبارك وحبيب كحالة وفخري البارودي ونجدة النجاري ولطفي الحاج حسين وغيرهم بهذا الاقتراح فوافق عليه المجلس ورفعت الجلسة الى يوم 28 نيسان.

لقد رأيت من الضروري تخصيص الجلسة السرية لمناقشة هذا الموضوع وحده نظرا لأهميته البالغة، وحتى لا يكون موضوعا عارضا مختلطا مع مواضيع أخرى، كما استهدفت من سرية

الجلسة أن آخذ حريتي بالشرح والتوضيح بشكل لا يستفيد منه العدو، لا سيما وأن المعارك قائمة على قدم وساق في فلسطين، ولم يخطر ببالي قط أن وقائع هذه الجلسة السرية ستذيعها محطة اسرائيل.

لقد رأيت أيضا أنه من المفيد تهيئة الجو الفكري والنفسي والسياسي في أوساط النواب والرأي العام قبل انعقاد هذه الجلسة لشرح خطورة المرحلة التي وصلت إليها القضية، فباشرت بعقد الاجتماعات مع النواب وجميع الأوساط الوطنية، وركزت بصورة خاصة على اتصالاتي بالطلاب، وكان جو الصحافة الدمشقية، رغم سيف التعطيل المشهر فوق رأسها مواتيا لاستثارة مشاعر الناس الوطنية والقومية، كما كانت تعليقات الصحف لا تتناقض مع الافكار والايضاحات التي كنت أشرحها للناس في الاجتماعات المستمرة ليلا نهارا في بيتي وفي المجلس، اذ لم يكن عندي صحيفة، وكانت اليقظة قد توقفت قبل سفري الى فلسطين، ثم أصبحت نصف شهرية بحجم صغير مقتصرة على أنباء نشاطنا في الجليل، ثم توقفت عن الصدور قبيل رجوعي الى دمشق. خلال أيام انقلب الوضع في البلاد:

ضمن مظاهر الأبهة والافراح ورسائل التهاني والتبريك للرئيس القوتلي بتجديد ولايته انقلب الوضع إلى جو إضرابات مستمرة ومظاهرات صاخبة في جميع انحاء سورية تطالب بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين لإنقاذها وقد ساعد على ذلك وصول قوافل اللاجئين التي أصبحت تتوافد على دمشق مستثيرة مشاعر الناس وعواطفهم القومية.

لقد استيقظت دمشق.

"القوتلي يستخدم عصابة فيصل العسلي لتصفية معارضيه جسديا"

في مساء يوم السبت 24 نيسان 1948 وهو اليوم الذي اشتعلت فيه المظاهرات الشعبية والطلابية الصاخبة، خصوصا في دمشق، كنت جالسا في غرفة أمانة سر المجلس النيابي مع

الدكتور محسن البرازي والدكتور عدنان الأتاسي فدخل الغرفة بضعة شباب دامية وجوههم ممزقة ثيابهم عرفت منهم الطالب نوري الدين الأتاسي من حزب البعث، وقد شكا للدكتور البرازي ان جماعة فيصل العسلي المسلحين هاجموا مكتب حزب البعث بالقرب من (عرنوس) فحطموا أثاثه واعتدوا على من فيه وأوسعوهم ضربا ولكما فوعدهم البرازي بالاهتمام بالموضوع.

تألمت من هذا المشهد ولم أكن آمل بنتيجة لهذه الشكاية، فكيف يمكن لمحسن البرازي أن يقمع جرائم فيصل العسلي المؤيد من الرئيس القوتلي ومن أجهزة الدولة تأييدا يتيح له أن يفعل ما يريد؟

ذهبت الى بيتي القريب من البرلمان (دار اليقظة) فوجدت محمد عبده علوش ولفيفا من طلابنا الذين كان لهم نشاط كبير في مظاهرات ذلك اليوم، وكان علوش شابا من أحب طلابنا إلي لما يتمتع به من ذكاء وأخلاق وكفاءة فرويت لهم ما حدث، ونبهتهم الى وجوب الحذر، فاستأذنوا مني للذهاب إلى مكتب البعث العربي لمواساة وتأييد إخوانهم المعتدى عليهم.

كان الاعتداء ضمن خطة اتبعها شكري القوتلي لقمع الحركات التقدمية باستخدام فيصل العسلي، ولم يكن هذا هو الاعتداء الأول، فقبل ذلك بشهر تقريبا كان ميشيل عفلق قد أرسل إلى رئيس الجمهورية البرقية التالية:

"في الاجتماع الذي دعا إليه حزبنا لاستماع محاضرتين عن الدستور والحرية من الاستاذ صلاح الدين البيطار ومني، اندس بعض المأجورين بين المستمعين، وحاول أحدهم أن يقاطع الاستاذ البيطار، وانضم إليه خمسة أو ستة ليحدثوا الشغب، ثم ألقيت مفرقعة على فناء دار المكتب من سطح البيت المجاور، بينما هجم أفراد مسلحون بالعصي والخناجر واعتدوا على شباب الحزب القائمين بحراسة باب المكتب بمساعدة بعض رجال الأمن العام، ثم أعقبهم عدد كبير من هؤلاء حاصروا المكتب واعتقلوا خمسين من الشباب وتغاضوا عن المعتدين".

بعد أقل من ساعة من مغادرة الطلاب لدار اليقظة وبينما كنت أتناول عشائي عادوا إلي مضطربين صفر الوجوه ليخبروني بالفاجعة الأليمة: قالوا انهم ذهبوا إلى مكتب البعث فلم يجدوا فيه أحدا فاقترحوا أن يتنزهوا في شارع بغداد قبل ذهابهم إلى النوم، وفي أول شارع بغداد توقفت بجانبهم سيارة "ستيشن" ونزل منها أفراد مسلحون أطلقوا عليهم النار دون سؤال أو جواب فاستشهد محمد عبده علوش برصاصهم كما جرح أحد رفاقهم من عائلة القبيطري وهو الآن مسجى في المستشفى.

صعقني النبأ فتوجهت فورا لدائرة الشرطة فلم أجد فيها أحدا من المسؤولين، أما من كان موجودا من ضباط الشرطة فلم يحركوا ساكنا كأن ما وقع لا يعنيهم، فتوجهت إلى المستشفى الوطني وألقيت نظرة أخيرة على الشهيد الحبيب وعدت إلى البيت حزينا باكيا ثائرا على تواطؤ الشرطة في هذه الجريمة النكراء، وفي صبيحة اليوم التالي شيعت دمشق الشهيد علوش بجامعتها ومعاهدها ومجلسها وشعبها بمظاهرة كبرى لم تخطر على بال أحد، فكأن دمشق أرادت أن تبدي عواطفها المقهورة من حكم القوتلي، ومن عصابة فيصل العسلي التي كانت تعيث فسادا في طول البلاد وعرضها، وكأن دمشق أدركت بحسها السليم ان مقتل الطالب علوش جزء من مخطط التآمر على القضية الفلسطينية وتهديد لمعارضي هذا المخطط بالتصفيات الجسدية، وقد انتهت مظاهرة التشييع الضخمة أمام مجلس النواب حيث أبن الشهيد رفاقه الطلاب والنائب الدكتور عبد الوهاب حومد الذي قال انه كان يفضل أن يؤبن الشهيد علوش صريعا برصاص الصهاينة لا صريعا برصاص واحد من أبناء وطنه، ثم أطرى أخلاق الشهيد ونجابته واجتهاده رغم اهتمامه بالقضايا القومية وزياراته ميادين القتال في فلسطين عدة مرات.

توجهت مع نعش الفقيد إلى حماه التي استقبلت ابنها عن بكرة أبيها وشيعته بمظاهرة وطنية ضخمة، وبعد رثائه ومواراته الثرى رجعت إلى دمشق في اليوم ذاته تاركا حماه غارقة في

الحـزن ومظـاهرات الاســتنكار.. رجعـت لحضـور جلســة البرلمـان السرية وفي نفسـي حسـرة وفي عيني دمعة.

في اليوم الثاني نشرت جميع صحف دمشق بعناوين بـارزة نبأ مظاهرات تشييع جثمان الشـهيد علـوش فـي دمشـق وحمـاه بالتفصيل، فأصدرت النيابة العامة بيانا جاء فيه:

"نرجو من حضـرات السـادة أصـحاب الصـحف عـدم نشـر أي شـيء يتعلق بحادث قتل المغدور السيد محمد علـوش الـذي وقـع بتاريخ 24 نيسـان 1948 حفاظـا علـى سـلامة التحقيـق". كمـا أن وزارة المعارف قررت إيقاف الدروس "حتـى إشـعار آخـر فـي جميـع كليات الجامعة السورية والمدارس الثانوية والابتدائية".

جلسة سرية حول قضية فلسطين.

عقـدت الجلسـة السـرية مسـاء ذلـك اليـوم بحضـور رئـيس الحكومة جميـل مـردم وأعضـاء الحكومـة والنـواب جميعـا، حيـث أن رئاسة المجلس كانـت قـد أرسـلت تأكيـدا للجميـع بضـرورة حضـور هـذه الجلسـة الهامـة، وقـد قـررت قبـل عقـد الجلسـة أن أملـك اعصابي بعد أن اتضحت لي أبعاد ما يحيط بي من تآمر يهدف إلـى صرف أنظار الراي العام الوطني عن القضـية الرئيسـية إلـى معـارك ثأرية وتصفيات جسدية، ولم أكـن مبالغـا فـي تقـديري، فلقـد روى لي صبري العسلي بعد ذلك بعشر سنوات، في عـام 1958- كيـف أن شـكري القـوتلي كـان قـد كلفـه باغتيـالي وقـد روى صـبري العسلي هذه القصة لي ولغيري في عدة مناسـبات كمـا حـدثني عـن مماطلتـه وامتناعـه خوفـا مـن أن يتخلـى القـوتلي عنـه بعـد تنفيذه المؤامرة فيذهب هو أيضا ضحيتها.

كنـت أول الخطبـاء لأننـي كنـت قادمـا مـن سـاحة المعركـة مباشـرة، ولانـني كنـت المسـتهدف مـن جريمـة اغتيـال الشـهيد علوش التي هزت أعماق الشعب في سورية قاطبة.

وقـد كـان جـو المجلـس النيـابي جـوا عاطفيـا وطنيـا صـادقا ومنفتحـا لسـماع أقـوالي، فشـرحت للنـواب أسـباب المـؤامرة الشنيعة وأغراضها الدنيئـة، واعتبـرت محمـد عبـده علـوش شـهيد

القضية الفلسطينية، كما اعتبرت المجرمين ودافعيهم خونة بحق القضية، ثم أعلنت أنني سوف لا ألجأ إلى الثأر، لأنني لا أريد أن أخرج البلاد عن القضية الاساسية الى معارك ثأرية جانبية يودها الأعداء، وقلت إن موضوع فلسطين سيتقرر خلال شهر: إما نصر للعرب إذا حاربوا، وإما نصر للصهيونية لا تقف أبعاده على فلسطين وحدها بل يهدد العرب في جميع أقطارهم.

وشرحت أن سلاح الجيوش العربية لا يزال أرفع مستوى من تسليح الهاغاناه. وأن القوى العربية لا تزال متفوقة على جيش العدو عددا وعدة، وأن المقاتل العربي أكثر شجاعة من اليهودي وإن كان أقل منه تدريبا، وأن الفلسطينيين محاربون أشداء ولكن ينقصهم التسليح والتنظيم والقيادة، إذن فلا بد من دخول الجيوش العربية قبل أن يستولي اليهود على فلسطين ويصبح أهلها لاجئين: كما قلت إن الموقف سينقلب رأسا على عقب إذا أعطيت لليهود الفرصة، بعد جلاء البريطانيين، لأن يستوردوا الأسلحة الحديثة والثقيلة من خارج فلسطين عن طريق البحر، ويستنفروا المتطوعين من العالم الخارجي، عند ذلك ينقلب ميزان القوة لصالح اليهود، وضربت لهم الأمثال على ضعف تسليح اليهود حيث أن معظم المصفحات التي كانوا يستخدمونها في معاركهم هي مصفحات رديئة من صنع محلي، وليست بمستوى المصفحات الموجودة لدى الجيوش العربية، كما أننا لم نشاهد عندهم حتى الآن طائرات حربية بل استخدموا في معاركهم طائرات مدنية كانت تقصف بعض القنابل التي تتفجر قبل وصولها الى الهدف، وقد اسقطنا إحدى هذه الطائرات بالبنادق والرشاشات، واقترحت أن يدخل الجيش السوري من منطقة الجليل بأسرع وقت، وأن يكون هدفه الاستيلاء على الساحل ليمنع سيل الامدادات والمتطوعين، كما اقترحت توجيه اهتمام الجيوش العربية الاخرى إلى الاستيلاء على الساحل الفلسطيني بأكمله، فالسرعة في اقتحام فلسطين واغلاق سواحلها بوجه السلاح والنجدات يقضي على القوات اليهودية المحاصرة ولذلك فالسرعة السرعة، والنجدة النجدة، فالسرعة تتحكم بمصير المعركة وإذا تأخرت النجدة

فستسقط قريبا صفد في الجليل كما ستسقط المدن الأخرى وسوف يستميت اليهود على احتلال المدن الساحلية.

بعد ذلك خطب الدكتور عبد السلام العجيلي مؤيدا كل ما جاء في كلمتي واستنكر اغتيال الشهيد محمد عبده علوش، كما خطب عدد كبير من النواب بمن فيهم نواب الحكومة - ما عدا فيصل العسلي- يستنكرون جريمة اغتيال الشهيد ويطالبون بالتحقيق وإنزال أشد العقوبة بالفاعلين والدافعين للجريمة.

أما عن قضية فلسطين فكانت خلاصة جواب الحكومة، على لسان رئيسها جميل مردم الذي كان قد عاد لتوه من اجتماعات اللجنة السياسية العربية في عمان الوعد بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين قبل 15 مايس مع شرح لما يقومون به من جهود دبلوماسية مع الدول العربية لتدخل جيوشها الى فلسطين وعما يقومون به من استعدادات عسكرية.

□

كان للطائفة اليهودية ممثل في البرلمان هو منير مزراحي، لكنه لم يحضر هذه الجلسة، إذ أنه منذ بداية الأزمة انقطع نهائيا عن الحضور ومع ذلك، فقد سمعت ممن يتابعون إذاعة اسرائيل آنذاك أنها ذكرت أشياء هامة عن وقائع هذه الجلسة "السرية" وأنها أكدت اعتزام اليهود احتلال صفد قبل موعد جلاء البريطانيين كما كالت إلي شخصيا سيلا من الشتائم.

فيصل العسلي يعفو عن أهل دمشق وحكم المزرعة يبريء قاتل الشهيد علوش.

في صباح اليوم التالي لهذه الجلسة النيابية نشرت بعض الصحف الدمشقية بيانا لفيصل العسلي ذكر فيه أنه قد عفا عن أهالي دمشق الذين شاركوا في مظاهرة تشييع الشهيد محمد عبده علوش وأنه تغاضى عن "مظاهر التحدي والاستفزاز المغرضة في دمشق" وأنه يستنكر وحزبه الحادث ويعلن عدم علاقته به، وكان بيانه ينضح بالغطرسة والوقاحة والإقليمية البغيضة- إذ كيف يشيع الدمشقيون شهيدا حمويا حسب رأيه؟- ولما عوتب بعض

أصحاب الصحف على نشر هذا البيان قالوا إنهم نشروه، أو أشاروا إليه، تحت الضغط والتهديد.

ولكن مضاعفات الجريمة النكراء استفحلت في البلاد، فاستمرت المظاهرات في حماه، ونشرت الصحف انباء تلك المظاهرات التي كانت تهتف بحياة فلسطين وتنادي بضرورة إسراع الجيوش العربية لنجدتها وانقاذها، وكان المتظاهرون يهتفون ضد قتلة الطالب الشهيد محمد عبده علوش ويطلبون إعلان نتائج التحقيق وأسماء المشتركين وانهالت البرقيات من جميع أنحاء سوريا تطالب بإنزال العقاب الصارم بالمجرمين، فاضطرت مديرية الشرطة والأمن العام ان تنشر اعلانا بمكافأة قدرها ثلاثة آلاف ليرة لمن يدلي بمعلومات أو يرشد إلى مكان المتهم بقتل الطالب الشهيد، الفار من وجه العداله، المدعو فايز عربي كاتبي.

لقد وقع شكري القوتلي بالحرج الشديد وشعر بالخوف من الجو الذي انتقلت إليه البلاد، مجلسا وشعبا، بعد مقتل الشهيد علوش بالشكل الذي قتل فيه، والذي فضح نوايا وأهداف مرتكبي الجريمة والدافعين اليها. فلجأ للتهدئة بعد أن اخفقت كل الاساليب التي لجأ اليها من اغلاق المدارس ومنع الصحف من ذكر أي شيء عن الحادث الاجرامي، فاضطر لاعلان هذه المكافأة، ولما لم يجد هذا الاسلوب في التهديئة أيضا أوعز للقاتل فايز عربي كاتبي، وهو من اعضاء حزب فيصل العسلي المعروفين جيدا، بتسليم نفسه للقضاء، وفي الوقت ذاته صدر بيان بإعادة فتح المدارس.

أما نحن فقد اتفقنا مع والد الشهيد على أن لا نتقدم بالإدعاء الشخصي، وأن لا نرسل إلى المحكمة وكيلا من قبلنا للادعاء والمرافعة، فنحن موقنون بأن المحكمة سوف تبريء القاتل في الظرف الذي تراه مناسبا، وقد تقدمت إلى المجلس النيابي باستجواب وقعه ثلاثة وأربعون نائبا هذا نصه:

"وقع مساء 24 نيسان 1948 حادث اغتيال أثيم أودى بحياة أحد طلاب الجامعة السورية، وقد تكررت حوادث الاعتداء الرهيبة التي يشترك ببعضها عدد من موظفي الحكومة دون أن تقوم الحكومة بواجبها في حماية أرواح المواطنين وسلامتهم، مما أدى لبعث حالة قلق واضطراب في الرأي العام قد يؤدي إلى أسوأ النتائج وأوخم العواقب.

لذلك جئنا باستجوابنا هذا طالبين بصورة خاصة ايضاح النقاط التالية:

1- لماذا لم تتخذ الحكومة أي تدبير لقمع حوادث العدوان الارهابية المتكررة، وخاصة تلك التي وقعت على الطلاب المتظاهرين لأجل قضية فلسطين يوم حادث الاغتيال؟

2- كيف سكتت الحكومة عن أعمال ارهابية يشترك فيها بعض موظفي الدولة؟

3- كيف تبرر الحكومة عدم القاء القبض على قتلة الطالب الحقوقي، ومن هو المسؤول عن ذلك؟

4- ما هي الضرورات التي دفعت الحكومة لمنع الصحافة من ذكر عوامل القتل وملابساته ونتائجه؟

5- هل تحققت الحكومة من عدم استعمال سياراتها الرسمية في حادث الاعتداء المذكور وفي كثير من المظاهرات الحزبية؟".

قدمنا هذا الاستجواب في جلسة 27 نيسان 1948 .. ثم أثرنا القضية في عدة جلسات أخرى، بعد اعتقال القاتل وبعد تبرئته، دون أن تجرؤ الحكومة على مناقشة الاستجواب، وكانت تتهرب من ذلك بأساليب ملتوية وأعذار واهية، كغياب وزير الداخلية عن الجلسة مثلا، وقد برأت المحكمة في 9 تشرين الأول ساحة القاتل فايز عربي كاتبي بحجة انه كان في حالة الدفاع المشروع عن النفس.

ان تعديل الدستور، وتجديد رئاسة القوتلي، وهذه الجريمة وانكشاف الاهمال والفساد والتواطؤ بكارثة فلسطين، مما سيطلع

القارئ عليه ضمن مجرى الأحداث بالاضافة إلى عوامل أخرى هيأت الأسباب لانقلاب حسني الزعيم.

كانت وصية شهداء الجليل أن يدفنوا في تربة حماه.

بينما كانت هذه الاحداث تجري في سورية، كان رفاقنا الذين أودعناهم الجليل يسقطون شهداء في ساحة الجهاد.

لم تذهب مقابلتي لاسماعيل صفوت عبثا، والظاهر أن جو سورية العام إثر مقتل الشهيد علوش قد أثر على الرجل فصرح للصحف قائلا بأن "ما حدث في فلسطين لم يكن بالمواقف المفاجئة بل هي مواقف منتظرة وقد نبهت اليها مرارا. وحتى الآن لا تزال هناك امكانيات للقبض على زمام الامر في مختلف ميادين فلسطين فيما اذا أجيبت طلبات القيادة". وهذا التصريح يدين الحكم بشكل مباشر وعلني، مما اضطر الحكومة لأن ترسل إلى رفاقنا المجاهدين في الجليل بطارية مدفعية ثقيلة وبضع مصفحات. وقد قام أديب الشيشكلي فور وصول هذه "الامدادات" بشن هجوم على مستعمرة الهراوي، ولكنه كان فاشلا لأن قصف المدفعية لم يكن مركزا إذ كانت قنابلها تتساقط قرب المهاجمين، وقد استشهد اثنان من رفاقنا في هذه المعركة، فأصدر الشباب البيان المقتضب التالي:

"بكل فخر واعتزاز ينعي الشباب بحماه بطليهم الشهيدين عبد الحسيب زكار ومصطفى الكردي اللذين سقيا بدمائهما الحمراء الأرض المقدسة.. الرحمة والرضوان للشهيدين والنصر للعرب ولتحيا فلسطين".

وكان الشهيدان قد أوصيا قبل المعركة بأن ينقل جثمانهما الى حماه. فشيعتهما المدينة باحتفال مهيب وجللت جثمانيهما بالعلم السوري، وقد أبرقت من دمشق الى مكتب الحزب وذوي الشهيدين بما يلي :

"وصلني الخبر متأخرا فلم أتمكن من الحضور الى حماه لتشييع شهيدينا البطلين، ان المعركة الدائرة في فلسطين أخطر معركة مرت على العروبة في التاريخ، هذا ما يعزينا بشهدائنا

الأبطال، الصهيونيون يزجـون بشـبابهم وبنـاتهم فـي هـذه المعركـة الحاسـمة، الحكومات والشعوب العربية مسـؤولة أمـام الله والتـاريخ إن لم تبادر بزج جميع قواها في هذه المعركة الفاصلة.

رجع الشيشكلي مع بطارية المدفعية الى صفد بعـد فشـله فـي هـذا الهجـوم وظـل موقـع كمـب النبـي يوشـع الـذي اشـتدت هجمات اليهـود الضـارية عليـه صـامدا، وأثنـاء قيـام رفيقنـا المـلازم شـفيق العبيسـي بإلقـاء بعـض القنابـل المضـيئة ليكشـف مواقـع اليهود ليلا أصابته رصاصه في جبهته فصرعته شهيدا.

□

34

1948: جلسات المجلس النيابي السوري قبيل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين - تهرب رئيس الوزراء جميل مردم ووزير الدفاع أحمد الشراباتي من حضور الجلسات- الجيوش العربية تدخل فلسطين وخمسة عشر يوما من الانتصارات العسكرية- أوضاع الجبهة السورية بعد دخول الجيش الى فلسطين.

في الاسبوعين الأولين من شهر مايس 1948 كانت البلاد تغلي كالبركان وهي تتطلع إلى التدابير التي ينبغي على الحكومة أن تتخذها لدخول المعركة دخولا مشرفا وعلى مستوى الخطر الداهم. وبالمقابل فإن الحكومة كانت تحاول أن تمتص ذلك الغليان الشعبي وتخدره بالتصريحات العنترية الكاذبة. فكأنما كانت هناك حالة من "حوار الطرشان" بين الشعب وحاكميه. وربما كان أحسن تصوير لحوار الطرشان هذا أن نستعرض بإيجاز بعض وقائع المجلس النيابي خلال تلك الفترة المصيرية المضطرمة.

فقد عقد البرلمان أربع جلسات خلال هذين الأسبوعين كانت الحكومة ونوابها الموالون يحاولون فيها جهدهم صرف المناقشات الى أية قضية أخرى غير قضية فلسطين. كانوا يشغلون المجلس بقضايا جانبية جدا أو تافهة جدا، مثل "مكافحة حشرة السونة".. وحين كانوا يحشرون في "القضية المصيرية" فإنهم كانوا يطرحون أمر المناقشة بطلب الحكومة النظر بقانون فرض الرقابة على الصحف، أو إقرار مخصصات اضافية لوزارة الدفاع (مما كان النواب يوافقون عليه دون حاجة لمناقشته). كما كان رئيس الحكومة وأكثر وزرائه يتغيبون عن الجلسات لاعطاء رئاسة المجلس مبررا لتأجيل مناقشة القضية "في غياب المسؤولين".

وكانت المواضيع التافهة تحشر في جدول أعمال الجلسة حشرا. لذا كنت ألجأ إلى كل وسيلة ممكنة لجر المجلس الى مناقشة القضية التي كانت الشاغل الأكبر للشعب. ففي جلسة

4 أيار 1948 اعترضت أمين سر المجلس أثناء تلاوته جدول الأعمال وقلت:

"بين هذه الأوراق الواردة برقيات من مختلف المدن السورية تطالب بدخول الجيوش العربية الى فلسطين. وقد كان هذا الموضوع مدار نقاش في الجلسات السرية الماضية، وأخذ المجلس التأكيدات الوافية من رئيس الورزاء. ولكن على ما يظهر من تصريحات الرجال المسؤولين، ولا سيما الأمين العام للجامعة العربية عزام باشا وتصريح الملك عبدالله، أن الجيوش العربية لن تدخل فلسطين إلا بعد انتهاء الانتداب. **فهذه التصريحات تخالف تلك التأكيدات التي سمعناها في الجلسات السرية الماضية.**

إنني ألفت نظر المجلس الكريم، كما لفت نظره في الجلسات **الماضية إلى أن معركة فلسطين ستنتهي في الأيام القريبة الآتية عندما يحل يوم 15 مايس.**

وإني لأقولها بصراحة أيضا: إن الدولة اليهودية يكاد يتم إنشاؤها، وأقول أيضا وأيضا إن الجيوش العربية اذا تدخلت بعد 15 مايس فإنه من العسير جدا أن تفعل ما تظنون أنها فاعلة. فاليهود يحتلون المواقع الهامة يوما بعد يوم. وتقول صحفهم منذ أكثر من شهر أنهم سيحتلون المراكز الستراتيجية الهامة ثم يقفون موقف المدافع حيال القوات العربية في فلسطين واحتمال دخول الجيوش العربية اليها، فأنا أحمل المجلس الكريم هذه المسؤولية كما أحمل الحكومة هذه المسؤولية الجسيمة. وإذا كنا أخطأنا في الماضي فلم نستعد للمعركة الفاصلة بيننا وبين اليهود فإننا مسؤولون أيضا في خلال الأيام القليلة الآتية. وإنني لأخشى أن تقف الجيوش العربية موقف العجز بعد انقضاء التاريخ المذكور. وأخشى إذا تدخلت هذه الجيوش أن لا تبقى كرامة للعرب في أعين الاجانب بل في أعين العالم أجمع.

إن القضية ليست بسيطة ولا هي قضية ثانوية. إنها قضية يتوقف عليها مصير العروبة. وهي لا تخص فلسطين وحدها. وأنا لا أقول ذلك من قبيل التهويل أو التهويش. انها معركة العروبة. فإذا توفق اليهود في إنشاء دولتهم فإن مصير العروبة والشرق في خطر أكيد. وإن المعركة سوف لا تستمر كما يقولون مئات السنين، فهي لن تمتد إلا إلى ايام .

وأنا أتوجه بهذا السؤال إلى معالي وزير الخارجية بالوكالة، وهو أن التصريحات والتأكيدات التي قيلت لنا في الجلسة السرية تنقضها تصريحات رجال مسؤولين آخرين. فأطلب من الحكومة جوابا على هذه الناحية الهامة. كما أطلب من المجلس أن يقف موقفا حازما. فإذا كان مسؤولا في الماضي فلن يتنصل من المسؤولية والكارثة العظمى".

ومن المؤلم في معركة "حوار الطرشان" هذه، أن رد الحكومة على أقوالي كان طلبها من النواب النظر بقانون فرض الرقابة على الصحف، وطلبا آخر هو جعل الجلسة سرية، ومنذ ذلك اليوم صار همها الأكبر أن تشغل النواب بمناقشات عقيمة حول سرية الجلسات أو علنيتها. ونحن منذ البدء كنا مع علنية الجلسات، خصوصا بعد أن سمعنا من اذاعة إسرائيل ردا على خطابي في الجلسة السرية الماضية، إذن فلماذا لا يعرف الشعب الحقائق، فهل يقصد من سرية الجلسات إخفاء الحقائق عن أعين الشعب فقط؟

والواقع أن الاكثرية الموالية كانت تنجح في تقطيع كل جلسة الى فترات، بعضها علني "للأمور البسيطة" وبعضها سري حيث تبحث أمور تتعلق بقضية فلسطين. ولكن الجلسة في كلا الحالين كانت تظل غير ذات جدوى.. وكانت المهزلة تتكرر باستمرار لالهاء الشعب ريثما يحل يوم 15 مايس وتحل الكارثة.

ففي يوم 10 مايس عقد البرلمان جلسة أخرى كنت أتوقع أن أرى فيها رئيس الوزراء جميل مردم الذي كان قد عاد من رحلة الى الرياض وبغداد، ولكنني فوجئت بغيابه وغياب وزير الدفاع أحمد الشراباتي.. كما أن جدول الأعمال كان -كالعادة- يشمل مواضيع عادية جدا، لذا قلت معترضا:

"قبل البحث في هذه الأمور الثانوية، ولا سيما أن معظم المشاريع التي ستدرس في هذه الجلسة مشاريع شخصية مع الأسف، أقول قبل البحث في هذه الأمور جميعا إن الانباء التي ترد إلينا تباعا من فلسطين مزعجة جدا. فقد علمنا أن مدينة صفد، وهي من الخيوط الأخيرة لآمالنا، قد سقطت في أيدي الأعداء. وبما أن رئيس مجلس الوزراء وصل إلى دمشق اليوم أقترح على المجلس أن لا يبحث أي أمر آخر قبل حضوره إلى هنا لبحث هذا الموضوع الذي تتوقف عليه حياة العرب"[1] .

رئيس المجلس: إن دولة رئيس الوزراء لا يستطيع الحضور حاليا.

النواب: ننتظر.

ترفع الجلسة .. ثم تستأنف دون أن يحضر رئيس الوزراء.. أطالب بحضور وزير الدفاع على الأقل.. وزير الداخلية محسن البرازي يطلب تحويل الجلسة من العلنية الى السرية.. أعترض قائلا:

"إن جلسات المجلس يجب أن تكون علنية، ولا يجوز أن تبقى في الظلام والكتمان، لا سيما وأن النواب مطلعين على ما جرى في الجلسات الماضية، ولذلك نريد أن يطلع الشعب والبلاد على كل الأمور".

---

(1) يقول خالد العظم في مذكراته :

تسلط النفوذ البريطاني على ملوك العرب ورؤسائهم بدون استثناء، وقد تبلور ذلك في التريث بالهجوم على فلسطين قبل انسحاب الجيوش البريطانية منها، فأضيعت بذلك فرصة احتلال الاجزاء من فلسطين التي تسلمتها القوى اليهودية وتمركزت فيها في هذه الفترة. أما في سورية، فالكولونيل كورنوالس البريطاني كان حلقة الاتصال بين وزارة الخارجية البريطانية والسيدين شكري القوتلي وجميل مردم، اللذين كانا يتبلغان عن طريقه تعليمات "داوننغ ستريت". أما ملوك العراق والأردن والسعودية ورئيس لبنان، فكان أمرهم معروفا ومشهورا اكثر من امر الفاروق والقوتلي. فقد اكتفوا باحتلال جيوشهم للاراضي المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم، وامتنعوا عن دخول غيرها. مذكرات خالد العظم، الطبعة الأولى، الجزء الأول ص 383.

يدور خلاف ونقاش بين المعارضة التي تصر على العلنية وبين الحكومة التي تصر على السرية.. كل ذلك ورئيس الحكومة لم يحضر بعد.. فترفع الجلسة.. ثم تستأنف سرية بحضور "دولته".

في اليوم التالي، في 11 مايس 1948، عقد البرلمان جلسة أخرى مماثلة تماما. فقد كان رئيس الوزراء ووزير الدفاع متغيبين، كما دار نقاش حول البدء بأي من الموضوعين: حشرة السونة أو قضية فلسطين ثم تحول إلى مناقشة حول زمن الرقابة على الصحف بطلب من محسن البرازي وزير الداخلية الذي قال "أريد أن أحيط المجلس علما بأن المجلس النيابي اللبناني والمجلس النيابي العراقي قد أقرا قانونا كهذا القانون تماما". فقلت معترضا:

"إنني لا أفهم فرض الرقابة في الوقت الحاضر إلا بمعنى واحد وهو أن الحكومات المسؤولة عن المأساة الواقعة في فلسطين وعن المأساة التي تهدد حياة الأمة العربية ومستقبلها، تريد أن تخفي عن أعين الشعوب العربية هذه المسؤولية الكبرى، ولذلك فإذا أقر المجلس هذه الرقابة فهو مشترك مع الحكومة في هذه المسؤولية".

في تلك الجلسة وجه وزير الداخلية محسن البرازي الى الصحافة كلاما لم يسبق أن وجهه نابوليون او السلطان عبد الحميد، على شدة كرههما للصحافة، فروى في هذه المناسبة أحد النواب الطرفة التالية:

"حدث في العهد العثماني أيها الأخوان أن اقدم أحد الصحفيين على انتقاد الفوانيس التي وضعتها البلدية في الشوارع، فعطلت جريدته ونفي الى مجاهل بعيدة بحجة أن انتقاد الفوانيس هو انتقاد للبلدية، وانتقاد البلدية إنما هو لوزارة الداخلية، وانتقاد وزارة الداخلية هو انتقاد للصدر الأعظم، وهذا معناه انتقاد السلطان الاكبر الذي لا يجوز ان ينتقد. وهكذا ترون أن انتقاد فانوس البلدية أدى الى تعطيل ونفي صاحبها. وغدا أيها

الأخوان لا يبعد إذا انتقد صحفي سائق سيارة وزير الداخلية ان تغلق الجريدة وان يحذف هذا الخبر بحجة أن وزير الداخلية يعمل لأجل قضية فلسطين، وأن هذا الخبر أوجد العراقيل في هذا السبيل".

ثم تحدث وزير المعارف منير العجلاني حديثا طويلا عن جمال الحرية وغيرة الحكومة عليها وقال: "نحن لا نقبل أن يقال بأن الحكومة تفرض الرقابة على الصحف لأنها تريد من وراء ذلك أن تمهد لحل يفرض على البلاد العربية وفيه خسارة فلسطين".. فقلت له: "لقد خسرتموها يا سيدي بسياستكم".

وفي 13 مايس عقدت جلسة مماثلة. ودار فيها نقاش طويل حول مكافحة حشرة السونة، واسباب السماح باستيراد القطن (حيث أن لوزير المالية الحاج وهبي الحريري معامل غزل ونسيج في حلب) ومبررات السماح بتصدير الزيت.. وكان ذلك قبل موعد دخول الجيوش العربية الى فلسطين بيوم واحد فقط.

ليلة 14-15 مايس 1948 ليلة حافلة بالأحداث الهامة.

لا يمكن لمن عاش أحداث تلك الفترة ان ينسى ليلة 14-15 مايس 1948. ففي تلك الليلة الحافلة بالترقب والتطلعات والأماني والتساؤلات جرت حوادث هامة جدا على المستوى الدولي والعربي والسوري:

ففي منتصف تلك الليلة تماما غادر آخر مندوب سام بريطاني ميناء حيفا كاشعار رسمي بانتهاء عهد الانتداب وجلاء بريطانيا نهائيا عن فلسطين مع أن الجلاء الحقيقي اداريا وعسكريا كان قد تم قبل ذلك من معظم أنحاء فلسطين، وهي الفترة التي ارتكب فيها اليهود مذابحهم الوحشية وقامت فيها المعارك العديدة بين عصاباتهم وبين المجاهدين العرب.

وفي منتصف تلك الليلة تماما أعلن اردیو اسرائيل قيام دولة اسرائيل وتسمية حاييم وايزمن رئيسا للدولة ودافيد بن غوريون رئيسا للوزراء وموشي شاريت وزيرا للخارجية.

وفي منتصف تلك الليلة بترت أوساط هيئة الأمم المتحدة في نيويورك المناقشات العقيمة التي كانت غارقة فيها واختتمت دورتها متخذة قرارا بتعيين الكونت فولك برنادوت - ابن عم ملك السويد- وسيطا دوليا بين العرب واليهود.

وبعد دقائق قليلة من منتصف تلك الليلة أعلن الرئيس ترومان اعتراف الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا، واتحاد جنوبي افريقيا ويوغسلافيا والمجر ودول أخرى.

وفي تلك الليلة عقدت في دمشق ثلاثة اجتماعات :

"1- اجتماع للجنة السياسية للجامعة العربية.

2- اجتماع لقادة الجيوش العربية.

3- اجتماع للمجلس النيابي السوري امتد إلى ما بعد منتصف الليل حيث أعلن رئيس الوزراء جميل مردم، قبيل نهاية الجلسة، أن الجيوش العربية تحركت "في هذه اللحظة" وعبرت حدود فلسطين فقوبل بيانه بالابتهاج والتهليل.

وقد أقر المجلس في هذا الاجتماع قانون الأحكام العرفية فأصبح جميل مردم بموجبه حاكما عسكريا عاما، وقانونا آخر بفتح اعتمادات للأعمال العسكرية، وأعلن البدء بتنفيذ قانون خدمة العلم (الخدمة العسكرية الالزامية) مع أنه كان قد أقرمنذ شهر كانون الأول عام 1947 ولكن الحكومة المردمية لم تبادر للشروع في تنفيذه إلا ليلة بدء المعركة لأن القانون ربط أمر تنفيذه بإرادة الحكومة.

كان النواب وأعضاء الحكومة يرقبون موقفي من هذه القوانين باهتمام بالغ ولا سيما قانون الأحكام العرفية خشية من أن تستغله السلطة للتنكيل بالمعارضين وخنق الحريات باسم معركة فلسطين وسلامة الوضع العسكري، وكانت هذه الخشية في محلها لا سيما وانه قبل إقرار قانون الاحكام العرفية عطلت عدة صحف واغتيل الشهيد محمد عبده علوش، ولكنني قدرت أنه

لا بد في حالات الحرب من الموافقة على اعلان الأحكام العرفية لسلامة المعركة والجيش والبلاد، كما قدرت أن وهج هذه المعركة القومية سيحد من أهواء وغرائز الحاكمين. وعلى كل حال فإنني كنت أقول لنفسي: "لنسهل دخول الجيوش العربية فلسطين".

أقر المجلس القانون مع التعديلات التي اقترحها نواب المعارضة والتأكيد على جميل مرد بعدم استغلاله هذا القانون للتنكيل بالخصوم، وذكرناه بمواقف الحكومة المعادية للحرية قبل إقراره فقطع عهد الشرف بأن يكون ملتزما حدود مصلحة المعركة وسلامة البلاد وأن يمنع حدوث أي استغلال من قبل الدولة لقانون الأحكام العرفية.

غادرت المجلس تلك الليلة وأنا بين الأسف والابتهاج والشك، كنت آسفا لأن قانون خدمة العلم الذي لم آل جهدا لصدوره قبل ذلك بأكثر من سنتين لم ينفذ إلا عند دخول الجيش السوري إلى فلسطين، ولكنني كنت مبتهجا بأن أرى الجيوش العربية تنجد فلسطين فذلك ما كنت أركز عليه جهودي منذ عودتي من الجليل أما خوفي فقد كان من أن تستغل السلطة قانون الأحكام العرفية لا لصالح المعركة بل للتنكيل بالحرية والأحرار.

هذا ما كان يتجاذبني من مشاعر وأفكار بعد منتصف تلك الليلة الربيعية المنعشة، وأنا في طريق عودتي إلى بيتي لأنام.. ولكن من الذي نام في تلك الليلة الفريدة؟

كانت النفوس متشوقة لسماع الأخبار، وكانت الآذان مصغية لما يذيعه الراديو وكان من أهم أخبار تلك الليلة أن الطائرات العربية دخلت أجواء فلسطين في نفس اللحظة التي دخلت إليها الجيوش العربية، تلقي عليها منشورات توضح فيها الغاية السامية التي تسعى الجيوش العربية لتحقيقها، وإنني أثبت فيما يلي نص أحد تلك المنشورات لعل القارىء يقارن بينها وبين تصريحات "زعماء العرب" قبيل حرب 5 حزيران 1967.

"في هذه الآونة الخطيرة التي يجد فيها العرب واليهود في فلسطين أنفسهم في موقف الخصام رأينا من الضروري توجيه هذه الكلمة الى تلك الفئة غير القليلة من اليهود الذين يعيشون في فلسطين تحت ضغط عصاباتهم الارهابية المتعصبة رغبة منا في ايضاح الحقائق التي ربما حجبت عنهم والتي لربما تساعد معرفتها على وضع حد لسفك الدماء البريئة.

إن الدول العربية لا تبتغي من وراء هذه العمليات الحربية أي توسع اقليمي ولا هي تستهدف الاعتداء على أرواح وممتلكات الشعب اليهودي في فلسطين، ولا هي كذلك تبتغي المساعدة على طغيان أي طائفة على أخرى وليس المقصود أيضا فرض أي حل بقوة السلاح، ولكن لم يعد يخفى على أحد ما ارتكبته بعض القوات المسلحة اليهودية في فلسطين من فظائع وتشنيع في النساء والأطفال العرب الأبرياء غير المحاربين. كما أنه اتضح للعالم ان هنالك مطامع توسعية سياسية تتنافى مع الانصاف والعدل والمباديء القويمة وكذلك مع المصالح الحيوية لعرب فلسطين والبلاد المجاورة لأنها تعتبر بحق تهديدا لكيانهم القومي.

إن الالوف بل الملايين من الشعب اليهودي عاشوا ويعيشون الآن في قلب البلاد العربية ويتمتعون بكل المزايا والحقوق التي يتمتع بها العرب أنفسهم[2] بل وبأكثر مما يلاقونه في أي بلد متمدن آخر.

وعلى الرغم مما اقترفه الصهيونيون من فظائع وتقتيل وتشويه وتشنيع فإن الحكومات العربية تعلن استعدادها للمحافظة على حقوق اليهود في بلدانها المختلفة وهي تحث الشعوب العربية على مراعاة مواطنيهم اليهود وبنفس الوقت تطلب من هؤلاء المواطنين اليهود أن يمتنعوا عن كل اتصال محظور مع الصهيونيين تجنبا لتعريض أنفسهم للعقوبات التي تنص عليها أنظمة البلاد التي يقيمون فيها.

ان فلسطين يجب أن تبقى لاهلها غير مجزأة ولا بد من أن يعيش جميع سكانها بوئام تحت ظل ادارة حاكمة واحدة تؤمن للجميع حق العيش والعبادة والطمأنينة دون تفريق.

(2) ذكرت في صفحة سابقة أنه كان للطائفة اليهودية بدمشق ممثل في مجلس 1947 النيابي السوري وفي المجالس النيابية السابقة.

فإلى تلك الفئة من أبناء الشعب اليهودي نوجه هذا النداء لكي يساعدوا على إعادة الأمن الى نصابه حالا، وأن يطمئنوا الى مستقبلهم ويتغلبوا على الفئة المتطرفة في مبادئها وأعمالها، وأن ينشروا فيما بينهم مبدأ القبول بفكرة الدولة الموحدة[3] والدستور الواحد المؤسس على المبادئ الديمقراطية السائدة في جميع انحاء العالم، وأن لا يتجاوزوا في الطمع والعدوان اللذين ليس لهما من نتيجة سوى سفك الدماء والدمار، وانها لتؤكد تأكيدا غير قابل للمزيد بأنها لم تدخل فلسطين الا لتأمين السلام والامن اللذين تعتبر فقدانهما عاملا مهددا لكيان بلادها المجاورة وأنها ستنسحب الى أقطارها بمجرد تحقيق هذا الهدف، ولذلك فهي سوف لا تتدخل في ممارسة اي فرد من سكان فلسطين لحقوقه الشرعية المقدسة في تقرير جهاز الحكم الذي يختارون وفقا للأصول المرعية في جميع أقطار العالم".

بمثل هذه الروح دخليت الجيوش العربية اراضي فلسطين ليلة 14-15 مايس 1948.

15 يوما من الانتصارات العسكرية العربية.

لاقت الجيوش العربية مقاومة شديدة من اليهود وحصونا منيعة، ولكنها رغم ذلك سارت قدما تحتل المدن والقرى وتدك المستعمرات. ولم تمر بضعة أيام حتى اجتاز الجيش المصري مسافات شاسعة في زحفه من الجنوب، وبعد أن احتل غزة انقسم الى محورين، أحدهما تابع زحفه بالطريق الساحلي متجها

(3) بتاريخ 7 مايس 1948، أي قبل اسبوع من دخول الجيوش العربية الى فلسطين ، نشرت مجلة "وورلد ريبورت" الاميركية شبه الرسمية والمعروفة بعلاقتها الوثيقة مع المخابرات المركزية، تقريرا هذه خلاصته:

"إن الحرب ستؤدي إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وأن القنابل ستعجل في أنجاز هذا التقسيم حيث فشلت الدبلوماسية... هناك خطة يجري تنفيذها تحت ستار الحرب في فلسطين. وقد تنقضي عدة أشهر في مفاوضات سرية قبل أن يتهيا العرب واليهود لقبولها. والخطوة الأولى من هذه الخطة هي إثارة الحرب بين العرب واليهود، ومن ثم اعلان هدنة بينهم.. أما العصابات العربية الموالية للمفتي والمتطرفون، فانهم يودون خرق الهدنة ولكن الحرب لا تلبث ان تنتهي عندما يتفق رؤساء الدول العربية وزعماء الحكومة اليهودية على انهائها".

ومن العجيب أن هذا التقرير الذي "تنبأ" حرفيا بما حدث فعلا لم يترجم الى العربية ولم ينشر في بعض الصحف العربية الا بعد اقرار الهدنة الثانية.

نحو تل أبيب حتى أصبح على بعد 18 كيلومترا منها، والثاني سار شرقا فاحتل بئر السبع ثم شمالا باتجاه القدس فاحتل الخليل ووصل إلى بيت لحم حيث اتصل بالجيش الاردني في منطقة القدس.

أما الجيش الأردني فقد حقق ظفرا باستسلام الصهاينة في القدس القديمة بعد معركة دامت أحد عشر يوما، ثم ضرب نطاقا حصينا حول القدس الجديدة، وتابع زحفه باتجاه يافا، فخاض معارك طاحنة ضد الصهيونيين الذين حاولوا عبثا فتح الطريق الى القدس الجديدة لنجدة قواتهم المحاصرة فيها. وقد مني اليهود في هذه المعارك، وخاصة في باب الواد واللطرون واللد والرملة بهزائم كبيرة، وفقدوا الألوف من رجالهم.

وأما الجيش العراقي فقد دخل فلسطين من الشرق وأخذ يشق طريقه نحو البحر على محورين، وبعد أن وصل نابلس فطولكرم تابع زحفه فاحتل المستعمرات القريبة من الساحل وأهمها كفاربونا وجولم، وأخذ يضرب ناتانيا، كما اتجه الى مهاجمة بتاح تكفا التي تعد الخط الأمامي للدفاع عن تل أبيب إذ لا تبعد عنها أكثر من ثمانية كيلومترات، وكان توقف الجيش السوري أمام حصون خط ايدن في منطقة طبريا وعدم تمكنه من التقدم والاتصال بالجيش العراقي دافعا لاغراء اليهود بمهاجمة القوات العراقية في جنين بقوات كبيرة، فقابلهم الجيش العراقي بمعركة من أكبر معاركه المظفرة، وأنزل بهم خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات التي غنم منها الشيء الكثير، وردهم على أعقابهم وقد فقدوا مئات القتلى والجرحى.

اما الجيش اللبناني، بمؤازرة جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي، فقد دخل منطقة الجليل التي كان اليهود قد سيطروا عليها قبل دخول الجيوش العربية باحتلالهم المالكية وكمب النبي يوشع وصفد وعكا. فاسترد قرية المالكية واحتل الناقورة واخذ يهيمن على معابر الجليل الغربي.

هنا لا بد لي أن أتحدث بإيجاز عن أهمية منطقة الجليل وعن ألمي العميق عندما تلقيت في دمشق قبل ذلك نبأ استشهاد شفيق العبيسي وإخلاء كمب النبي يوشع، ثم نبأ سقوط المالكية، ثم الانسحاب من صفد وتسليمها لليهود، ثم سقوط عكا، وسيطرة اليهود على الجليل بكامله قبل أن تدخل الجيوش العربية فلسطين.

ولكن كيف سقطت مدينة صفد؟

التحق بنا ضابط أردني عرف في أوساط المجاهدين باسم الملازم جميعاني، وقد عينه الشيشكلي قائدا لحامية صفد لأنه فضل أن يتمركز خارج المدينة ليقصف منها مواقع اليهود، وبعد قتال مرير استبسل فيه المجاهدون أصدر الشيشكلي أمرا بالانسحاب من صفد، والظاهر أن أديب تخاذل أمام تهويلات جميعاني فوافقه على الانسحاب، وهكذا حامت الشائعات حول الشيشكلي وجميعاني معا.

وتقديري أن الاسباب التي أدت إلى هذه النتيجة المفجعة هي أن بطارية المدفعية والمصفحات التي أرسلت إلى الشيشكلي بعد عودتي إلى دمشق لم تكن كافية لانقاذ الموقف في الجليل لأن اليهود استماتوا للاستيلاء على صفد والجليل مبكرا، نظرا لأهمية الجليل من الناحية القومية والسياسية والستراتيجية بالنسبة للطرفين المتحاربين، ولا سيما للعرب، فقد كان الجليل آنذاك منطقة عربية بأكثريته الساحقة، ولكن اليهود كانوا يعتبرون - قبل التقسيم وبعده- أن منطقة الجليل وصحراء النقب يشكلان معا العمود الفقري في بناء دولة اسرائيل. وهذا أحد الأسباب التي دعتهم لاغتيال الوسيط الدولي برنادوت، الذي كان مصرا على إبقاء النقب منطقة عربية.. وفيما بعد لعب الجليل والنقب دورا كبيرا في بناء اسرائيل انمائيا (تحويل نهر الاردن الى النقب) واقتصاديا وسياسيا وعسكريا. وكانا مجالين هامين لاستيعاب المستوطنين اليهود الجدد، والجليل الآن من أكثر مناطق اسرائيل اكتظاظا بالسكان وبالصناعات الهامة على مختلف أنواعها. **كل هذا يثير التساؤلات حول دخول الجيش**

السوري غير المتوقع من منطقة طبريا - عام 1948 - بدلا من دخوله الجليل من الشمال.

معركة دكانيا قرب سمخ:

لقد نشرت معلومات كثيرة عن أوضاع الجيوش العربية العراقية والمصرية والاردنية بعد حرب 1948. وذلك من خلال المذكرات التي كتبت والمحاكمات التي اصطنعت. أما أوضاع الجيش السوري في تلك الحرب فلم تنشر عنها معلومات ولم تجر بشأنها محاكمات- وسوف نبين الأسباب عند كشفنا خفايا لجنة التحقيق البرلمانية التي شكلها المجلس النيابي السوري لمعرفة اسباب الهزيمة العسكرية في فلسطين، والتي باشرت عملها وأنهت تحقيقاتها ووضعت تقريرها قبل قيام حسني الزعيم بانقلابه.

لقد كان مقدرا للجيش السوري أن يدخل فلسطين عن طريق لبنان الى منطقة الجليل. وذلك للأسباب التي ذكرناها، ولو قدر للجيش السوري أن يفعل هذا لتغير وجه المعركة ولاختلفت النتائج اختلافا كبيرا.

لقد نصبت الحكومات العربية الأمير عبدالله قائدا عاما للجيوش العربية التي أدخلت الى فلسطين بالوقت الذي لم يكن الجيش الأردني فعليا بقيادته بل بقيادة الضباط البريطانيين[4] وعلى رأسهم غلوب باشا المعروف بأبي حنيك مما وضع الجيوش العربية وخططها فعليا بيد الاستعمار البريطاني الأمر الذي اوقع الخسائر الفادحة بالجيوش العربية. وعلى سبيل المثال أذكر ما يلي: كانت خطة الجيش السوري تقضي بالزحف الى فلسطين عن طريق بنت جبيل الى الجليل الذي كان ولا يزال قلب فلسطين ولأن جبال الجليل تسيطر على الحولة شرقا

(4) في مذكرات عبدالله التل قائد معركة القدس التي نشرها في كتاب بعنوان كارثة فلسطين يثبت التل جدولا باسماء قادة الوحدات يوم دخول الجيش الأردني فلسطين ومن بين 50 ضابطا يوجد خمسة عرب فقط هم التل والمجالي والجندي والساكت والحياري. مذكرات عبدالله التل- دار القلم- القاهرة- الجزء الأول ص 81.

وعلى الساحل الفلسطيني غربا، ومن الجليل يمكن للجيش السوري ان يفصل المستعمرات الاسرائيلية في شمال فلسطين عن المستعمرات الواقعة في الجنوب.

ولكن الجيش السوري بعد أن بدأ فعلا بالتوجه إلى الجليل غير خططه وتوجه إلى منطقة سمخ وطبريا حيث ارتطم هنالك بخط (ايدن) الاستراتيجي الذي انشأته بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية لصد جيوش المحور، فاتخذه الجيش الاسرائيلي خطا دفاعيا، مما تسبب في عجز الجيش السوري عن اختراقه فتراجع عنه وقد أدى ذلك الى تكبيد هذا الجيش الناشئ القليل بعدده وعدته خسائر كبيرة بالرغم من استبساله في جميع المعارك التي خاضها مع الاسرائيليين حيث كانت نسبة من استشهد من ضباطه أكبر من أي نسبة معروفة في الجيوش المحاربة، فقد كان هؤلاء الضباط يخوضون المعارك وهم على رأس قطعاتهم، ويتحدث الضابط عبدالله التل قائد معركة القدس عن هذه الواقعة في مذكراته بما يلي:

لقد احتل الجيش السوري سمخ بعد أن طرد الاسرائيليين منها ثم لحق بهم الى دكانيا (٨) الواقعة في خط ايدن فاستحال عليه الاستمرار في الزحف نظرا لما لذلك الموقع (باب الثم) من أهمية حربية طبيعية".

"وفي تلك المعركة خسر الجيش السوري عددا كبيرا من ضباطه وجنوده البواسل وأدت تلك الخسارة إلى سقوط سمخ بيد اليهود ثانية وانتهت المرحلة الأولى من حرب فلسطين والجيش السوري يعمل في منطقة سمخ والغور مكشوف الجانح الأيسر بعد انسحاب الجيش العراقي وهو ما كان يرمي إليه الفريق غلوب باشا من القضاء على الجيش السوري، ولكن ذلك الجيش استطاع أن يحافظ على شرفه العسكري".

"وبالرغم من حداثة الجيش السوري في الخدمة والتدريب وضعفه في التسلح فإن ما قام به رغم قلة عدده وضعف معداته مما يعتبر فخرا للأمة العربية".

وينتهي التل في حديثه عن الجيش السوري الى هذه النتيجة:

"ان من يطلع على الخطة المدبرة التي كانت مبيته للقضاء على الجيش السوري فإنه لا بد أن ينحني اعجابا ببطولة الضباط والجنود الأبرياء الذين ضحوا بدمائهم في سبيل فلسطين ومكنوا الجيش السوري من الخروج من الحرب بشرفه".(5)

لقد هزت معركة سمخ المفجعة، منذ بداية القتال، سورية بأسرها فاضطر الرئيس القوتلي لإقالة أحمد الشراباتي من وزارة الدفاع وعبدالله عطفه من رئاسة الأركان وتعيين رئيس الوزراء جميل مردم وزيرا للدفاع وحسني الزعيم رئيسا للأركان.

□

كان عدد أفراد الجيش عندما استلمته الحكومة من الفرنسيين عام 1945 سبعة عشر ألفا، فأصبح عدد أفراده عند دخوله معركة فلسطين عام 1948 لا يزيد عن سبعة آلاف.. هذا بالنسبة لعدده أما بالنسبة لتسليحه وعتاده فقد كان سلاحه فرنسيا عتيقا وكانت ذخيرته ضئيلة وغير كافية، وكان لفرنسا -عند الجلاء- مستودعات ضخمة مليئة بالأسلحة والذخائر مدخرة منذ الحرب العالمية الثانية، وقد حاولت كثيرا منذ استلام الجيش عام 1945 أن أقنع سعدالله الجابري رئيس الحكومة بأن تشتري سورية حاجتها من هذه الاسلحة والذخائر لا سيما وقد أصبحت فرنسا بعد الجلاء تحاول مرضاة سورية بعد جريمتها الشنعاء عام 1945 وكان من مصلحتها أن تلبي طلباتها من الاسلحة والذخائر المخزونة التي اضطرت فيما بعد لنقل قسم منها إلى فرنسة،

(5) عبدالله التل - ص 190

بينما تسرب بعضها الى اليهود في فلسطين، ولو نفذت حكومة الجابري هذه السياسة لادخرت سورية من هذه الاسلحة والذخائر ما يكفي لتسليحها وتسليح أهالي فلسطين ولأثرذلك على نتائج معركة عام 1948، ولكن نظام القوتلي -باستسلامه للسياسة البريطانية- كان يسير بعكس هذا الاتجاه فقد كان ينفذ بالجيش منذ استلامه سياسة إنقاص عدده وتقليل امكاناته حتى يصبح بموازاة قوى الأمن الداخلي، وكانت وعود الجابري لي شخصيا ووعود وزيري الدفاع أحمد الشرباتي ونبيه العظمة باصلاح الجيش وتسليحه وتقويته وعودا كاذبة، وكنت أشعر بأن الجيش كان في طريقه إلى التصفية قبل دخوله معركة فلسطين.

كنت أعرف موقف النظام من الجيش منذ عام 1944، أي منذ أن أعلن سعدالله الجابري في المجلس النيابي استلام الصلاحيات فقد صرح لي مرة أن سورية ليست بحاجة لجيش تتحمل نفقاته وأخطاره لأن استقلالها مضمون دوليا، وأنه يجب عليها أن تتخذ من سويسرا مثالا يحتذى، ولم يكن هذا رأي الجابري وحده ولا النظام، بل كانت هذه هي السياسة البريطانية التي مهدت لقيام اسرائيل في حرب عام 1948.

إن ما ورد في كتاب قضية فلسطين تأليف الدكتور طربين استاذ التاريخ في الجامعة السورية على لسان اللواء عبدالله عطفة عما سمعه من الجابري نفسه كان صادقا ودقيقا:

"نحن لا نحتاج للسلاح ولا للجيش، لأننا مستقلون باعتراف الأمم المتحدة، وفي أطرافنا دول عربية، ووضعنا في سورية كوضع سويسره نفقاتنا توازي وارداتنا ونحتاج فقط الى قوى أمن داخلي رمزية".

ويعلق الدكتور طربين على ذلك:

"يبدو أن الحكومة السورية آنذاك كانت تردد نظرية بريطانيا التي كانت توحي بها الى الساسة السوريين منذ حزيران 1945 اثناء اشتداد مطالبة السوريين لفرنسا بتسليمهم الجيش،

والقائلة: لا حاجة لكم بالجيش، ولكن الحكومة لم تجرؤ على اعلان ذلك خوفا من غضبة الشعب الذي استمات ليفوز بالجيش".

لم تكن القضية قضية اقتناع المسؤولين بإرشادات بريطانيا وايماءاتها فقط كما يظن الدكتور طربين، بل كانت بريطانيا تنفذ سياستها في الجيش السوري مباشرة بواسطة عملائها، وإلا كيف نفسر إصرار الحكومة على التعاقد مع الكولونيل فوكس بصفته خبيرا في وزارة الدفاع منذ عام 1946 بالرغم مما رافق التعاقد معه من الحملات القوية للمعارضة سواء في المجلس النيابي أو في الصحافة (اليقظة) مما وردت تفاصيله سابقا؟ لقد استمر الكولونيل فوكس مستشارا في وزارة الدفاع حتى انقلاب حسني الزعيم عام 1949 ولا ندري اذا لم يكن هذا الكولونيل البريطاني يهوديا".

الاوضاع الداخلية في الجيش.

ورثت البلاد هذا الجيش من الفرنسين بكوادره من الضباط القادة، والضباط، وضباط الصف، والجنود، وكان اسمه في عهد الانتداب "الجيش المختلط" ... كان جيشا محترفا يهيمن فيه الضباط الفرنسيون على كل شيء، وكان الضابط الفرنسي يأمر من هو أعلى منه رتبة من الضباط السوريين واللبنانيين، ونادرا ما كان الضابط العربي ينال الترقية الى رتبة قيادية ما لم يتحقق الفرنسيون من ولائه، وهذا أمر طبيعي لأن سورية كانت في ثورة دائمة على الانتداب، وفي ثورة 1945 لم يلتحق من "الضباط القادة" بالثورة إلا عدد قليل بعد وقف اطلاق النار، ثم جرى تسليم الآخرين للحكومة السورية فيما بعد، بينما غامر معظم الضباط الشباب فالتحقوا بالثورة، وهم شعلة من الحماسة والحمية والجرأة والوطنية.

لقد بنى الانتداب الفرنسي الجيش على اساس عنصري، وطائفي وإقطاعي وعشائري لضمان ولائه له ولكن النعرات الطائفية والعنصرية لم تكن مثارة في صفوفه بعد ثورة عام 1945 بل كان انقسامه الى فريقين: الضباط الشباب والضباط الكبار وكان

وزير الدفاع أحمد الشراباتي يشجع هذا الانقسام ويعمل جاهدا على كسب ولاء الضباط الشباب وكانت هذه سياسة القوتلي وحكوماته حيال الجيش: خفض تعداده، عدم تسليحه وتجهيزه، تشجيع الانقسام بين ضباطه.

إن هذا الاسلوب الذي اتبع في الجيش بالوقت الذي كانت فيه قضية فلسطين تقترب من الحسم العسكري كان اسلوبا خاطئا، **وكان من الواجب الوطني والقومي تقوية هذا الجيش لا تصفيته، وذلك عن طريق تطبيق قانون الخدمة الالزامية التي تمنحه الطابع الشعبي والوطني، وترفده بعشرات الألوف من الشباب.**

معنويات الجيش قبل المعركة 1948.

كانت معنويات الجيش للقتال في فلسطين عالية جدا، ويكفي أن يكون ما قدمه من شهداء وارتفاع نسبة الاستشهاد بين ضباطه شاهدا على حماسة الجيش واستبساله في تلك المعركة بالوقت الذي فقد فيه نظام القوتلي نهائيا ثقة الجيش والشعب معا.. أذكر فيما يلي حادثتين مع ضابطين مختلفين كل الاختلاف دليلا على ذلك:

1- رأيت صديقنا الضابط الشاب فتحي الأتاسي في مقهى الهافانا بعد دخول الجيوش العربية الى فلسطين فوجدته مغتما حزينا ولما سألته عن سر اكتئابه أجابني بالحرف الواحد :

- سأذهب غدا للقتال ولسوف استشهد بالرغم من عدم اقتناعي بمواقف قيادتنا العسكرية والسياسية.

اعلن نبأ استشهاد فتحي الأتاسي بعد أيام في معركة مشمار هايردن عندما اقتحمها على رأس جنوده ومات من النزف قبل وصوله إلى مشافي دمشق لأن الوسائل الطبية لم تكن متسيرة في جبهة القتال.

بكيته ورافقت نعشه الى مثواه الأخير في بلدته حمص.

2- تعرفت على الملازم محمد صفا عندما التحق بنا عند ذهابنا إلى العراق للاشتراك في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941، وقد التحق بقوات جيش الانقاذ عام 1948 ، وكان آنذاك برتبة رئيس، كما كان من أنصار القوتلي والشراباتي، ثم أصبح فيما بعد عقيدا ومن أنصار مشروع الاتحاد مع العراق.. وفي عام 1955 أصدر كتيبا يهاجمني فيه لأنني لم أنقذه بعد أن كشفت السلطات تآمره مع نظام نوري السعيد..

يذكر العقيد صفا في كتيبه هذه الوقائع الصحيحة عن وضع الجيش السوري قبل خوضه معركة فلسطين:

"كنت أطلع أكرم الحوراني متألما على نقص الاستعداد العام للقتال في الجيش وخارجه راجيا أن يخاطب المسؤولين الكبار في الأمر، كما أطلعته على ما جرى معي في الاجتماع الذي أشرت إليه في اليوم التالي لحصوله، وكان ذلك في مقهى الروضة بحمص، أطلعته على تفاصيل ما جرى في ذلك الاجتماع لعله يحاول مع الحكام اصلاح الخلل".

ويتحدث عن هذا الاجتماع قائلا:

" في صبيحة العاشر من أيار 1948 دعيت الى اجتماع يعقد في مكتب وزير الدفاع لغرض الاطلاع على مراحل القضية الفلسطينية وتبادل الرأي حولها. وقد حضر الاجتماع وزير الدفاع أحمد الشراباتي- رئيس اركان الجيش عبدالله عطفه- مدير الدفاع أحمد اللحام- الرئيس عزيز عبدالكريم- الرئيس سعيد حبي- الرئيس مأمون البيطار- (استشهد بعد ذلك)- الرئيس فؤاد مردم مردم بك- الرئيس زهير وصفي- الملازم قصيباتي- الرئيس صفا.

تكلم وزير الدفاع فتعرض للقضية الفلسطينية، ثم التفت الى رئيس الأركان وسأله:

- كيف حال جيشك يا عبدالله بك.

- مفخرة يا معالي الوزير.. خيرة الجيوش العربية كلها، ثم اضاف بعد فترة كلمة:

نسبيا..

فما كان مني إلا أن هتفت بحدة قائلا:

والله يا معالي الوزير إن جيشك لا يساوي شروى نقير.

ويقول العقد صفا انه أرسل في تلك الفترة البرقية التالية إلى الرئيس القوتلي:

"الموقف يتأزم ويفسد وأنتم منصرفون إلى محاسبتنا على ترفيع عريف، معترضون على حقنا في مكافأة متطوع أو تسمية رقيب. إنا نستنكر هذه الطريقة في القيادة، هذه العرقلة لتصرفاتنا وهذه المساومة على أرواحنا وانتم وراء مكاتبكم قابعون. انا ندعوكم إلى معالجة الموقف بسرعة وواقعية، أو تفضلوا وانزلوا الى الميدان قادة بأنفسكم لنرى عبقريتكم ونتعلم منكم.. إن لم تؤخذ برقيتي هذه بعين الاعتبار فسأنشرها على صفحات الجرائد".

ويقول:

"كانت النتيجة أن نقلت من قيادة لواء اليرموك الأول متهما بسوء الأدب وبنقص التربية المسلكية، وكان ان طار الجليل كله بعد ذلك"..

الظروف الموضوعية التي هيأت لانقلاب حسني الزعيم.

كان فساد نظام القوتلي، وهزيمته في معركة فلسطين، وإقحام الجيش بالسياسة وذلك باشراكه في تزوير انتخابات عام 1947، اسباب كافية لحدوث أول انقلاب عسكري في سورية، وقد هيأ القوتلي بنفسه القيادة العسكرية والسياسية لهذا الانقلاب. وحدث **ذلك عندما أقنع محسن البرازي شكري القوتلي، وكان آنذاك أمين القصر الجمهوري بتعيين حسني الزعيم قائدا للجيش.**

لم يكن حسني الزعيم معروفا بحسن السمعة ولكنه كان معروفا بالشجاعة والمغامرة منذ أن تولى اثناء الحرب العالمية الثانية قيادة القتال بجانب الفيشيين، ولذا تمكن بسرعة بعد تعيينه أن يسترد اعتباره العسكري في الجيش. **وهكذا أعد القوتلي بنفسه محسن البرازي وحسني الزعيم لقيادة الانقلاب العسكري القادم.**

□

اوضاع الجبهة السورية بعد تعيين حسني الزعيم رئيسا للأركان.

استدعي حسني الزعيم فور تعيينه رئيسا للأركان كل الذين سرحوا من ضباط، وضباط صف وجنود في عهد الشراباتي، فزاد عدد عناصر الجيش الى ضعف ما كان عليه لدى دخوله الى فلسطين.

والجيش الذي كان قد جمد أوضاعه العسكرية في منطقة طبريا أمام دكانيا لأنه لم يتمكن من اقتحام خط ايدن بدأ يتحرك من جديد، فركز هجومه على مستعمرة مشمار هايردن (حارسة الأردن) في الحولة بمعركة باسلة مظفرة احتل فيها هذه المستعمرة، الأمر الذي كان ميسورا له أن يفعله منذ البدء لو دخل الى فلسطين عن طريق جنوبي لبنان الى منطقة الجليل، وقد دخل الضباط السوريون على رأس جنودهم الى هذه المستعمرة الحصينة ومن بينهم سامي الحناوي الذي رقاه حسني الزعيم بعد انقلابه الى رتبة لواء.

في تلك الفترة القصيرة، فترة المعارك في فلسطين، كانت دمشق تعيش جو الحرب في كل نواحي الحياة ومظاهرها... كانت دمشق تعج بالمقاتلين. منهم من هو آت من ميادين القتال بعد طول عناء، ومنهم من يستعد للالتحاق بالجيش وأخذ مكانه في المعركة بعد أن تم استدعاء كل المسرحين للعودة للخدمة.

وفي كل لحظة كانت الأنباء تملأ دمشق عن تطور المعركة بتفاصيلها وجزئياتها، ففضول السوريين للأخبار معروف، فكيف بهم

وهم يواجهون معركة مصيرية مرتبطين بها بقلوبهم ووجدانهم وعقولهم حتى الموت؟

كانت الشوارع والفنادق والأماكن العامة تغص بالناس. وكانت أفواج اللاجئين من أبرز معالم الصورة الجديدة في المجتمع المتطلع لمواصلة الحرب حتى النصر كما أصبحت المشافي مليئة بالجرحى.. وكانت مواكب تشييع الشهداء مناسبات لتفجير حماس الشعب وشد العزيمة على مواصلة القتال.

كانت فترة حافلة، متوهجة، متوقدة بالفعالية والامل.. ولكنها كانت فترة قصيرة من عمر النوم الطويل. أسبوعان أو ثلاثة اسابيع من الانتصارات العسكرية، فالنصر الحاسم بات قريبا، والنفوس تزداد ثقة بالأمل الكبير، والقدس القديمة سقطت، والقدس الجديدة محاصرة وسكانها اليهود يعانون من الجوع ونفاد الذخيرة، والقوات العراقية أصبحت على بعد ثمانية كيلومترات من تل أبيب، والقوات المصرية أصبحت على بعد ثمانية عشر كيلومترا منها، والطائرات المصرية تقصفها، والخرافة الصهيونية على وشك السقوط.

ويشير ييغال ألون في كتابه انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي الى الانتصارات التي حققتها الجيوش العربية بعد دخولها الى فلسطين: "لقد أحرز العدو مكاسب جوهرية إذ نجح المصريون في التقدم إلى مسافة اثني عشر كيلومترا من رحبوت وأقام السوريون رأس جسر عبر نهر الأردن في الجليل الأعلى، ورابطت قوات شرقي الأردن في البلدتين العربيتين اللد والرملة وتضم الأولى المطار الدولي وتبعد نصف ساعة بالسيارة عن تل أبيب كما نجحت في صد الهجمات الاسرائيلية حول جنين واللطرون".

□

في غمرة هذا الجو فوجئت بطلب من القصر الجمهوري، وكان الوقت ليلا.

كنت مترددا في تلبية الدعوة. لأنني كنت لا أزال متأثرا بحادث اغتيال الشهيد محمد عبده علوش على يد عصابة فيصل العسلي التي تعد الأداة التنفيذية للقوتلي.. ثم إنني لشدة تأثري يومذاك كنت أحدث الناس بما كان بعض الفلاحين في الجليل قد رووه لي قبل عودتي من فلسطين، من أن القوتلي باع للصهاينة أرضا تقع بين عكا وطرشيحا، كما كان يشاع قبل ذلك في دمشق أن شكري القوتلي باع أراض كان يملكها في فلسطين عن طريق سمسار أراضي سوري كان معروفا في فلسطين اسمه يوسف من عائلة الزمريق الدمشقية، وكان هذا السمسار يشتري الأراضي من أصحابها الذين لا يريدون بيعها مباشرة الى الصهاينة.

ترددت كثيرا قبل أن البي طلب القوتلي ولا سيما انني لم أكن أعرف موضوع الاجتماع، ثم رأيت انه من الأحسن أن ألبي الطلب، وعندما اجتمعت به في احدى غرف القصر على انفراد، بدأ على عادته يلف ويدور في الحديث، ثم روى لي أن اليهود قد اتصلوا به اثناء مفاوضات الوفد السوري عام 1936 لعقد المعاهدة مع فرنسا عارضين أن يدعموا الكتلة بالمال والسلاح والتأييد السياسي لقاء اعتراف سورية بالوطن القومي الصهيوني، تلك الحادثة التي رواها صبري العسلي في المجلس النيابي، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن القضية الفلسطينية فذكر جهوده القديمة مع بعض القادة الفلسطينيين، وأورد اسم موسى العلمي ومحاولاته انشاء مستعمرات عربية على الطراز الاسرائيلي.

عند هذا الحد من الحديث قدرت ان القوتلي رآها مناسبة- بعد أنباء انتصارات الجيوش العربية في فلسطين- ليشعرني بأنه لم يبع لليهود أرضا في فلسطين، وعندما انتهى حديثه استأذنته بالانصراف.

بهذه الروح الايجابية المتفائلة كنا نعيش تلك الأيام القصيرة من الانتصارات، فألغينا حفلة تأبين الشهيد محمد علوش التي كان مقررا إقامتها على مدرج الجامعة السورية، ولكن فجأة اشتعل الضوء الأحمر في وجه الجيوش العربية، وتوقفت الحرب.

ففـي 29 مـايس 1948- أي بعـد أسـبوعين فقـط مـن بـدء القتال- اتخذ مجلس الأمن الدولي قرارا "بدعوة العرب واليهود الـى عقـد هدنـة" فـي فلسـطين مـدتها أربعـة أسـابيع. وهـدد بفـرض عقوبات اقتصادية وعسكرية على الجهة التـي تـرفض تنفيـذ القـرار خلال 48 ساعة.

وفورا أعلن اليهود قبولهم الهدنة.

وبعد 48 ساعة أعلن العرب قبولهم بها أيضا.

35

اقتحام منزلي من قبل رجال الأمن بموجب قانون الطوارئ ومصادرة سلاح المجاهدين.

مصادرة اسلحة المجاهدين التي اشتروها بأموالهم الخاصة دون التعويض عليهم.

في الأيام الأخيرة من شهر مايس 1948 عقد المجلس عدة جلسات متتالية وراح نواب المعارضة يطالبون بعقد دورة استثنائية الأمر الذي لم يتم إلا بعد خمسة وسبعين يوما كانت فصول الكارثة قد تمت فيها، وفي تلك الجلسات لم تطرح قضية فلسطين على الرغم من أنباء المعارك والجو اللاهب الذي يغمر البلاد برمتها. فقد كانت مواضيع جدول الأعمال تنصب على مناقشة قانون المطبوعات، وتخفيض الضرائب عن المستشفيات، والميرة ومشاكلها، وتسريح موظفين تقدميين، وقانون العقارات، ومناقشة اقتراح بقانون لجمع الأعشاب البرية لعلف الماشية عند الحاجة.

وعند عرض مسألة تسريح الحكومة لعدد من الموظفين التقدميين "لتنظيف جهاز الدولة" طرحت هذ السؤال:

- أريد أن أوجه إلى الحكومة هذا السؤال: هل نظفت جهازها من عملاء اليهود؟ وهل بقي أحد منهم في وظائف الدولة أم لا؟

كما أنني في جلسة تالية اقترحت على البرلمان إرسال برقية تحذير الى الرئيس الاميركي ترومان، نوضح فيها محاذير مواقفه الصريحة مع اليهود في عدوانهم علينا.

وفي تلك الفترة عدت الى البيت من احدى جلسات المجلس، متعبا مهموما، ففوجئت بأن وجدت باب البيت مفتوحا عن طريق الخلع والكسر، وعلمت من الجيران إن رجال التحري دخلوا البيت اثناء وجودي في البرلمان وعبثوا بما فيه وأخذوا منه كمية من الأسلحة كان المجاهدون الذين عادوا من الجليل بعد دخول الجيوش العربية قد أودعوها عندي لنقرر مصيرها فإما الاحتفاظ بها وإما التعويض عليهم من قبل الحكومة.

وفـي الجلســة التاليــة، وكـان جميـل مـردم متغيبـا عنهـا، قاطعت، جدول الأعمال وقلت:

"كنت أود أن ارى دولة رئيس مجلس الـوزراء فـي هـذه الجلسـة لكـي نوجه إليه بعض الأسئلة ونسوق بعض التوصيات.

إن هذا المجلس الكريم يعلم حـق العلـم أن أول فـوج مـن المجاهـدين ذهب الـى فلسـطين اشـترط عليـه أن يكـون سـلاحه علـى حسـابه الخـاص، فسارع المتطوعون الحمويون الذين قاتلوا الفرنسيين عام 1945 لتلبيـة النـداء. وكان فوجهم هو الفوج الأول الذي دخل فلسطين وقد بـاع اكثـرهم أثـاث بيتـه وعقاره- ولست مغاليا في ذلك البتة- وابتاع بثمنه سلاحا فـي ظـروف قاسـية جدا وباسعار فاحشة وذهب الى ساحة الجهاد في فلسـطين، وبعـد خمسـة اشـهر قضاها هؤلاء المجاهدون في ضنك وعـذاب دائـم فاستشـهد مـنهم مـن استشـهد وجـرح مـن جـرح اسـتلمت مـنهم الحكومـة او وزارة الـدفاع او قيـادة المتطوعين اكثر من ثمانين بندقية وعددا من الرشاشات دون ان تطلـب مـنهم ان يتبرعوا بها. كما انها ذوقا ووجدانا لم تعطهم تعويضا عنها، فانا استغرب جدا مـن الحكومـة هـذا الموقـف العجيـب اذ كيـف يجـوز لهـا ان تكـافيء هـؤلاء المجاهدين بمصادرة سلاحهم دون ان تفكر بـالتعويض علـيهم، وهـم لـو كـانوا من الاغنيـاء لقـدموا هـذا السـلاح هديـة الـى الحكومـة، امـا وأن اكثـرهم مـن الفقراء فقد كان على الحكومة اذا لم تر حاجة لشراء السـلاح مـنهم ان تعيـده اليهم واذا كانت ترى ان الضرورة تقضـي بالاحتفـاظ بهـذا السـلاح فمـن ابسـط قواعد العدل والمروءة والاخلاق والوطنية ان تعطيهم تعويضا يتناسـب والاثمـان التي دفعوها لشرائه.

فدفعا لكل التباس ودفعا للاقاويل المغرضة والدعايات الكاذبة أطلب من الحكومة- ولديها قيود وسجلات بانواع هذه الاسلحة وارقامها- ان تعطينا ارقـام هذه الاسلحة التي هي ملك المتطوعين وان تبين لنـا مـا هـي الحلـول التـي تراها لهذه القضية فاذا كانت بحاجة الى هذا السـلاح فلتعـوض علـى اصـحابه وان لم تكن بحاجة اليه فلترجعه اليهم ولا سـيما انهـا هـي التـي حلـت هـذه الافواج التي فعلت في فلسطين ما لم تفعله الجيوش.

السـيد محمـد السـراج- تفضـل الزميـل المحتـرم الاسـتاذ الحـوراني وسبقني الى ما كنت أريد قوله ولكنه لم يشـأ أن يـأتي علـى النقطـة الهامـة

في هذه القضية وهي أن السلاح قد صودر من بيته وفي أثناء غيابه، ففي بيت الزميل الحوراني كان المجاهدون يجتمعون قبل ذهابهم الى ساحات القتال وبعد ايابهم منها. وكانوا يودعون اسلحتهم هذه في بيته. أما في هذه المرة فلم نشعر الا والسلطة تداهم البيت وتفتشه تفتيشا دقيقا كانه بيت رجل يعمل مع الاجنبي او شخص لا يتمتع بالحصانة النيابية.

السيد معروف الدوالبي- انا اؤيد الزميلين الكريمين فيما قالاه وأزيد على ذلك أن نائبا تقدم باسم مجلس النواب لخوض المعارك في ساحات الجهاد ما كان يجوز أن يعامل مثل هذه المعاملة فيفتش بيته كما تفتش بيوت المجرمين المهربين للسلاح فكان على الوزارة ان تدعوه وان تبين له حاجة الحكومة للسلاح وتطلب منه ان يتبرع لها بما لديه منه أما ان تعامله كما تعامل المجرم المهرب فاظن ان هذا المجلس الكريم لا يسمح مطلقا بأن يعامل أحد اعضائه الذي سار باسم جميع زملائه الى ساحات الجهاد مثل هذه المعاملة وان ينظر اليه كما ينظر الى المجرمين.

السيد هاني السباعي- لا شك بأن المجلس الكريم كان اعطى الحكومة صلاحيات واسعة للتحري والتفتيش دون تفريق بين المنازل، والغاية من ذلك كما اعتقد مصلحة الحكومة قبل كل شيء ومصلحة الشعب ومصلحة العرب التي تقوم بها الحكومات العربية أما ان تستعمل الحكومة هذا الحق وهذه الصلاحيات في تفتيش بيت نائب كريم جاهد واشتهر بوطنيته واخلاقه العالية فاعتقد ان في ذلك لوما على الحكومة وعتبا عليها لانها لم تستعمل القانون كما يجب ان يستعمل ولان الناحية الاساسية التي كنا نخشاها بوشر بتطبيقها وهو مالا نريده ولا نقبل به ابدا.

السيد لطفي الحاج حسين- أنا أؤيد جميع الزملاء الذين استغربوا موقف الحكومة من الزميل الكريم السيد الحوراني بمصادرتها الاسلحة التي كانت موجودة في داره دون علمه ودون ان يجري اي تحقيق حول ذلك وكلنا يذكر ايها السادة الكلمة التي تفضل بها دولة رئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكري في هذا المكان حينما اعطى الصلاحيات الواسعة لتطبيق الاحكام العرفية فقد قال ما نصه "وانني سوف لا استعمل هذه الصلاحيات الا للمصلحة الوطنية، وللمصلحة الوطنية فقط وانني سوف لا استعملها لغايات شخصية أو حزبية البتة".

هـذا مـا قالـه رئـيس الـوزراء بـالحرف الواحـد وكلنـا يعلـم ان الاسـتاذ الحوراني كان في جميع المناسـبات مثـالا للتضـحية ومثـالا للوطنيـة الصـادقة فكان يضحي بنفسه وماله في سبيل هذا الـوطن وخدمتـه الخدمـة الصـحيحة وهذا العمل الـذي أقـدمت عليـه الحكومـة لا يعـد مـن المصـلحة الوطنيـة فـي شـيء اذ كان عليها ان تحافظ على كرامة النائب التي هي كرامة الوطن.

السـيد فيضـي الاتاسـي - فـي الامـس صـوتنا علـى قـانون الاحكـام العرفية وبذلك اطلقنا يد الحكومة في الحريات، ثـم صـوتنا علـى ملايـين القينـا بها بين يدي الحكومة، وما من يوم الا ونـزود فيـه الحكومـة بصـلاحيات خطيـرة ونفوض اليها فيه سلطات هامة. واننا اذ نفعل هذا كله انما نفعلـه وقـد نسـينا انفسـنا ومصـالحنا، واسـتجبنا الـى داعـي المصـلحة الوطنيـة والقوميـة، فهـل للحكومة ان تنسى هي ايضا وساوسـها وتـدفنها ولـو الـى حـين؟ لا شـك أن المعاملة التي لقيها زميلنا الحوراني معاملة شاذة من شـأنها أن تثيـر الظنـون والشبهات. فللحكومة وحـدها ان تبـدد هـذه الظنـون وهـذه الشـبهات بايضـاح الاسـباب التـي أدت إلـى هـذه المعاملـة. ان حالـة الحـرب التـي نحـن فيهـا تستدعي اجماع الامة في البذل والتضحية. فمن واجب الحكومة والحالة هـذه ان تكف عـن المعـاملات الشـاذة وان تشـيع فـي صـفوف الامـة حكـم القـانون وشرعة العدل والمساواة.

السيد عبد السلام العجيلي- لدي شهادة تتعلـق بهـذا الموضـوع أريـد أن أدلـي بهـا امـام المجلـس الكـريم فممـا لا شـك فيـه ان الاشـخاص الـذين صودرت اسلحتهم من منزل الزميل الحـوراني هـم رجـال خاضـوا المعـارك فـور اعلان الجهاد ولا شك بان وجودهم في حالة حـرب غيـر نظاميـة قـد اكسـبهم شيئا من عدم المبـالاة وعـدم التقيـد بـالامور التـي تعتبـر ضـرورية فـي البـلاد المحكومة ولا سيما في هذا الظـرف. وأنـا لا اشـك ابـدا بـأن الـذين اتـوا بهـذه الاسلحة ووضعوها في بيت الزميل انما فعلوا ما فعلوه بنية حسنة فكان يجـب ان يعاملوا بغير ما عوملوا به ولذلك أرى أن الحكومة او رجالها قد تسرعوا فيمـا فعلوه وكان من الواجب ومن اللياقة ايضا قبل كـل شـيء كمـا ذكـر الاخـوان ان يسألوا الاخ الحوراني عنها وان يحترموا جهاده وشعوره.

السيد محمد الفتيح - تكلـم بعـض الاخـوان حـول قضـية أثارهـا السـيد الحوراني وكنا قد سمعنا منذ ثلاثة أيام انـه عثـر علـى سـلاح فـي دار الزميـل الحوراني فلم اصدق ما قيل اما وقد اثيرت هذه القضية الان فهي اذن صحيحة

وعلى أنا ايضا ان أدلي بشهادتي بهذا الرجل واصرح علنا بانه من احسن رجالاتنا الذين خدموا هذا الوطن خدمة صادقة وسواء أكان هذا السلاح للمجاهدين او لغيرهم فلا يجوز أن ينسب الى السيد الحوراني انه يحتفظ بهذه الاسلحة لغاية غير وطنية، ولا شك بان هذا السلاح يخص المجاهدين، قلت في مستهل كلامي انني لم اصدق الخبر عندما سمعته ذلك لانه لم يقل احد في هذا المجلس كلمة واحدة في الموضوع اما وقد قيل ذلك الان فاني اؤيد الاخوان فيما قالوه واريد من الحكومة احتراما للسيد الحوراني الذي كان اول مناضل ذهب الى فلسطين في طليعة اخوانه الحمويين المجاهدين ان تبذل له كل المساعدة وان لا يكرر هذا العمل مرة اخرى وان تنصفه الحكومة وتنصف اخوانه.

السيد عادل ارسلان- اذا كان هذا السلاح المصادر مسجلا باسماء من كانوا يحملونه فانا ايضا استنكر عمل الحكومة اما اذا كان غير مسجل فيجب تسجيله والتحقيق عن كيفية وصوله إلى دار الاستاذ الحوراني وعلى كل كان يجب اعلام الزميل الكريم بما سوف يجري قبل الدخول الى بيته وارجو ان لا يكرر بعد الان القول بانه صودر من دار الاستاذ الحوراني سلاح غير مشروع.

السيد اكرم الحوراني - **قلت واعيد القول ان هذا السلاح مسجل في وزارة الدفاع الوطني والقيود الموجودة لديها تبين نوع كل قطعة وباستطاعة كل منكم ان يطلع على هذه القيود.**

السيد رشدي كيخيا- انا اشارك الزملاء الكرام في استنكارهم لهذا العمل الذي كان يجب ان لا تقدم عليه الحكومة ولو كانت تملك الصلاحيات المطلقة لتفتيش كافة الدور بموجب القوانين الاستثنائية التي صدرت عن هذا المجلس ولكنها اقدمت على تفتيش دار الاخ السيد اكرم الحوراني الذي برهن في مواقفه العديدة على انه من خيرة شباب هذه البلاد ومن أشد الناس حرصا على سيادتها واستقلالها وليس أدل على ذلك من العمل الذي اقدم عليه بذهابه الى فلسطين وتقديمه نفسه ضحية في سبيل هذا الوطن، فكان يجب على الحكومة من قبيل الكياسة ان تخبر حضرة النائب بما سوف تقدم عليه وان تستوضح منه عن الاسباب التي دعته لحيازة هذه الاسلحة قبل تفتيش منزله ومصادرة ما فيه من السلاح فنحن نطلب من

الحكومة ان تجيبنا جوابا صريحا في هذا الموضوع وان تعطي هؤلاء المجاهدين تعويضا حسنا عن هذه الاسلحة فيما اذا كانت بحاجة اليها.

السيد عبد الوهاب حومد- لم يبق لي ما أقوله بعد الذي تفضل النواب وتكلموا عنه ولكن من المؤسف حقا أن يستغل بعض الموظفين الصلاحيات الممنوحة لضرورات استثنائية في هذه البلاد فيبدأوا بالتنكيل باخصام لهم أو باشخاص هم في حكم الاخصام ولا أقصد بهذا النعت الزميل الحوراني الذي استنكر الاخوان ما جرى في بيته فأنا اشاركهم استنكارهم.

واعتقد ان كل صلاحية استثنائية تعطي لاية حكومة في هذه البلاد مصيرها الى سوء الاستعمال وستؤدي حتما الى التنكيل بالمواطنين وهكذا فشلت التجربة التي أراد بها المجلس ان يمتحن حرص الحكومة على تنفيذ القوانين واستعمال الصلاحيات الاستثنائية فنرجو من الحكومة ان لا تحمل النواب على الاعراب عن اسفهم بعد الآن لاعطائها اية فكرة في تدبير استثنائي لاننا نرى بوادر غير مستحبة وهي أن هذه الصلاحيات التي اخذت انما تستخدم ضد المواطنين.

السيد فخري البارودي- ان الحزب الوطني يأسف لما جرى ويشاطر الاخوان اسفهم وهو يطلب من الحكومة ان تتريث في اعمالها اما البنادق المصادرة فيجب أن يدفع ثمنها كما يدفع ثمن الاسلحة الاخرى.

الرئيس - هل يريد وزير الاقتصاد الوطني ان يقول كلمة في الموضوع؟

وزير الاقتصاد الوطني السيد سعيد الغزي: انا شخصيا من الذين يقدرون في السيد الحوراني التضحية والاخلاص والوطنية واعتقد ان جميع زملائي في الحكم يقدرون ذلك.

الرئيس - كلنا نقدر ذلك في الاستاذ الحوراني.

السيد سعيد الغزي- اما ما تفضل به حضرات النواب وطلبوا الجواب عليه فانني سانقل طلباتهم هذه الى رئيس مجلس الوزراء المكلف بهذه الأعمال واطلب منه ان يجيب على اسئلة السادة النواب.

المطالبة بتطبيق قانون خدمة العلم.

في 27 مايس تلي في البرلمان مرسوم بقبول استقالة أحمد الشراباتي من وزارة الدفاع، ومرسوم آخر بتسمية جميل

مـردم وزيـرا للـدفاع، ثـم أرادت الحكومـة هـدر الوقـت عبثـا ببحـث مشروع لتوظيف خمسائة دركي وشـرطي لحفظ المعابر والجسـور فقلت:

"إن الاسلوب الذي نسير عليـه خـاطيء يضـطرنا لأن نرتكـب خطيئة بينما نحن نريد تلافي الاخطاء، إن قـانون الخدمـة الاجباريـة الـذي طالـب بـه المجلـس كثيـرا منـذ جـلاء الفرنسـيين عـن هـذه البلاد، وطالـب بإلحـاح شـديد، لـم يقـر الا مـؤخرا، وقـد أقـر بصـورة شـاذة مخالفة لكل القوانين التي صدرت عـن هـذا المجلـس. إذ أن هذا القانون أصبح تنفيذه منوطا بـإرادة السـلطة الاجرائيـة، وطالمـا تلقينا برقيات عديدة من مختلف المحافظات تطالب بأن يصـبح هـذا القانون مرعي الاجراء.

ولكننا حتى الآن لـم نـر أثـرا لتطبيقـه أو تنفيـذه، فأنـا أسـأل الحكومة فيما إذا لو وقعنا فـي كارثـة عسـكرية لا سـمح الله فمـاذ يكون مصـيرنا ومصـير الـبلاد؟.. كـان مـن الأولـى ان تطبـق الخدمـة الاجباريــة دون اللجــوء الــى هــذه الاســاليب الواهيــة لاضــافة خمسماية دركي وشـرطي لحفظ المعابر والجسور، لأن هـذا اللـف والدوران لا يقنعنا أبدا بل يجعلنا على يقين من أن الاسـلوب الـذي تسير عليه الحكومـة اسـلوب خـاطيء وغيـر صـحيح.. نرجـو الله أن يلاحظنا بعنايته".

1984: المصالح البترولية الأميركية والبريطانية تطفو على السطح بعد الهدنة الأولى - فترة القتال الثانية - الهدنة الثانية.

الهدنة الأولى:

لم يكن أحد يتوقع أن يوافق العرب على الهدنة، خصوصا وأن الحكام كانوا يدلون بتصريحات قوية يعلنون فيها "عزمهم الصادق" على مواصلة القتال حتى تتحقق الاهداف النبيلة التي ذكرناها عند ايرادنا نص المنشور الذي كانت تلقيه الطائرات العربية عشية دخول الجيوش العربية فلسطين، ومن الأمثلة على ذلك أن الملك عبد الله أدلى بتصريح في 29 مايس، أي قبل أقل من أسبوع من القبول بقرار الهدنة قال فيه: "ان الهدنة التي طلبها مجلس الأمن لا تستند الى قواعد الحق والعدل والانصاف، وان الشعوب العربية لا يمكن ان تقبل وقف القتال لأنه عمل غير مشرف لها، وان العزم الصادق الذي تمتلىء به قلوبها هو الذي سيقود حركتنا النبيلة الشريفة الى أسمى الأهداف والغايات، واننا قد عقدنا الخناصر على ان نقود الحركة حتى نهايتها لنعيد الأمن والسلام الى فلسطين ونحمي أبناءنا من عصابات الصهيونيين".

لكن الحكام العرب أعلنوا بعد اقل من أسبوع قبولهم الهدنة في 2 حزيران، رغم تعارض قرارهم مع رأي العسكريين، ورغم اضطراب ودهشة الرأي العام العربي الذي كان يمتلىء أملا واستبشارا، ورغم صرخات وتحذيرات كل الوطنيينن، وقد تسلسلت أحداث تلك الفترة على النحو التالي:

1- لم يكد يمضي اسبوعان على الزحف حتى كانت الجيوش العربية تسيطر على المناطق المخصصة للعرب في قرار التقسيم مع بعض استثناءات فيها زيادة من جهة ونقصان من جهة أخرى...

2- ما بين صدور قرار الهدنة عن مجلس الأمن في 29 مايس وقبول العرب به يوم 2 حزيران ووقف النار رسميا في 11

حزيران أخذ الزحف العربي يتباطأ شيئا فشيئا وصارت الأرجل تراوح مكانها.

3- منذ يوم 11 حزيران 1948 بدأت الهدنة لمدة أربعة أسابيع وبدأنا نقرأ في الصحف انباء تتكرر يوميا عن الاسلحة والمعدات التي كانت تصل يوميا الى الاسرائيلين وعن خرقهم للهدنة وعن الشكاوى العربية للوسيط الدولي برنادوت وكانت معظم الصحف العربية تنذر من عواقب الهدنة ووقف اطلاق النار..

ويشير ايغال الون في كتابه: انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي الى هذه الفترة بقوله:

"قام الاسرائيليون باستغلال فترة وقف اطلاق النار في تدعيم جوانب تنظيمهم العسكري الى أقصى حد مستطاع، فأصبح الجيش البري يتكون من سبعة ألوية نظامية وثلاثة ألوية بالماخ ولواء مدرع، وقد تحسن مستوى تجهيز الألوية بأسلحة تشيكوسلوفاكية وفرنسية وبينها مدفعية بشكل افضل وحصلت القوات الجوية على عدد من طائرات مستر شميت وسبتفاير التي تم شراؤها من أوروبا وكذلك على عدد من طائرات داكوتا لأغراض النقل والقصف وحسن الاسطول تجهيزه وتدريبه".

كان يمكن لسوريا أن تلزم الأقطار العربية الأخرى برفض الهدنة الأولى

في أيام المعركة الموفقة التي خاضتها الجيوش العربية في فلسطين لم نكن لنعي جيدا ما يمثل على المسرح الدولي والعربي، فالصحافة كانت مراقبة والأنباء والتعليقات خاضعة لمقص منفذي قانون الأحكام العرفية، كما أنه لم يكن لدينا أية وسيلة للاتصال بالأحداث بعد أن انتهت الدورة البرلمانية العادية. وقبيل اقرار الهدنة وقعنا مع عدد كبير من النواب طلبا بفتح دورة استثنائية لنكون على اتصال بمجرى الاحداث، ولكن الحكومة بالاتفاق مع رئاسة المجلس، لم تفتح هذه الدورة الاستثنائية لأنها كانت تخشى المجابهة والاحراج عند اقرار الهدنة على ما ظهر فيما بعد فخالفت بذلك أحكام الدستور والنظام الداخلي وقد

صرح مسؤول في الحكومة، بعد اقرار الهدنة، عندما استوضحته الصحف عن قضية دعوة المجلس النيابي لعقد دورة استثنائية: "ان هذه القضية مقررة أما موعد الدورة فرهن بالتطورات السياسية للقضية الفلسطينية.

كان لنا بعض العزاء عن عدم فتح دورة استثنائية أيام القتال اذ كان المدفع يتكلم في قضيتنا العادلة، كما ان الشعب كان يردد في الاذاعات والشوارع: خلي السيف يقول" وهي أغنية شاعت أيام المعارك الأولى كثيرا.

لقد فاجأنا قرار الهدنة في 2 حزيران 1948 كما فاجأتنا وأذهلتنا فيما بعد هزيمة الخامس من حزيران 1967 وان كانت هذه الهزيمة أشد ايلاما ووقعا في النفس.

لقد دخلت سورية في حرب 1948 ونحن موقنون بتخاذل وضعف القوتلي وجماعته، ولكن نظرتنا إليه والى رجال الكتلة الوطنية عموما، انهم قادوا لفترة طويلة النضال الوطني حتى استقلت سورية استقلالا تاما بالرغم مما ارتكب من أخطاء وانحرافات.. أما الأقطار العربية الأخرى فان الاحتلال كان جاثما على أراضيها كما في العراق ومصر والأردن التي كان قائد الجيش فيها كلوب باشا - أبو حنيك - بالاضافة الى العدد الكبير من الضباط البريطانيين، وكانت المعونة البريطانية تتكفل بدفع رواتب الجيش الأردني، بل كان كيان الأردن ووجوده يعتمد على هذه المعونة.

كنا في سورية نتساءل بارتياب كبير:

لماذا دخل الجيش السوري الى طبريا بدلا من دخوله الى الجليل؟

لماذا أقيل وزير الدفاع أحمد الشراباتي ورئيس الأركان عبد الله عطفه؟

ما هي صحة الاشاعات التي ملأت أجواء سورية عن وزير الدفاع أحمد الشراباتي؟

هل ينحصر كون هؤلاء الحكام مستسلمين لنصائح الانكليز أم أن هنالك خونة؟

من هم الخونة الذين أضاعوا على سورية فرصة تاريخية بقيادة المعركة العربية لانقاذ فلسطين وتحطيم حلم الصهيونية؟

ان سوريا تتمتع بظروف وشروط لم تتوفر لأي بلد عربي آخر: بلد مستقل وشعب متقدم واع اشترك مع إخوانه الفلسطينيين بمعاركهم منذ البداية، فهل يقبل بعد هذا عذر جميل مردم وشكري القوتلي بأنه ليس باستطاعتهم رفض الهدنة الأولى واقناع الاخرين برفضها؟ هل بإمكان الحكام العرب الاخرين أن يقبلوا بالهدنة اذا رفضتها سوريا؟ ما هو عذرهم أمام شعوبهم؟ أليس في العراق ومصر والاردن ولبنان شعب وقيادات وطنية لا تسكت عن حكامها فيما لو رفضت سوريا اقرار الهدنة؟ أم أن فلسطين قد ضاعت كما أخبرني فخري البارودي، فلنسع لحماية سوريا من الاحتلال اليهودي بعد اقرار الهدنة؟

هل كان البارودي يتنبأ أم أنه كان مطلعا على مواقف رفاقه من الرعيل الأول في هذه القضية؟ أليس هناك بصيص أمل بمتابعة القتال بعد انتهاء الهدنة والظفر على الصهاينة حتى ولو استجلبوا السلاح والمتطوعين الى فلسطين؟

... هل من سبيل لنقض هذه الهدنة؟ ... وان كان ثمة أمل بنقضها فهل هنالك أمل بأن لا تتكرر؟

كنت أجري هذا الحوار مع نفسي وأنا أسير هائما، في هجير الظهيرة، في شوارع دمشق، بعد أن أعلنت اللجنة السياسية العربية موافقتها على الهدنة الأولى... كنت لا أدري الى أين أذهب وقد رأيت صدفة عبد الكريم زهور وكان من رفاقنا في معارك الجليل فرأيته أيضا مثلي هائما على وجهه.

تابعت مسيري وأنا لا أستطيع الخروج من دوامة التساؤلات والحوار الذاتي، وكنت أقول في نفسي:

ليس هنالك أمل أن يتمكن شعبنا من خوض الجولة الثانية وتحقيق النصر فيها، وإن المشكلة ستظل سياسية، وليست القوة العسكرية الا أداة تنفيذ للقرارات والخطط والأهداف السياسية، فلا بد اذن من ايجاد قيادة تسخر هذه الاداة وتوجهها لتحقيق الأهداف السياسية والقومية.

كنت أعي ذلك جيدا قبل واثناء حرب فلسطين، ولكن ما هو السبيل؟ اليس الاستعمار أقوى منا بكثير؟ كيف يمكن أن يسمح لنا بالبناء الجديد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي استعدادا للجولة الثانية؟

هل باستطاعتنا أن نقود ثورة ضد نظام القوتلي؟

إنها مغامرة.. مغامرة يمكن أن تقضي علينا وعلى استقلال سورية..

اذن لا بد لنا من متابعة طريقنا السابق الشاق والطويل، الطريق البرلماني الديموقراطي، مهما اعترضتنا المؤامرات والمهالك، واذا قضينا فسيأتي بعدنا من يتابع السير في هذا الطريق.

□

ظلت سورية رغم الصدمة التي منيت بها بسبب عقد الهدنة الأولى مؤمنة بالنصر، وفي الوقت ذاته كانت حكومة القوتلي ومردم على استعداد لاتهام وقمع أية معارضة لسياستها، مستغلة بذلك الأحكام العرفية.

وقد دعيت لاجتماع في حمص، في بيت رئيس الجمهورية السابق هاشم الأتاسي، حضره رشدي الكيخيا وعدنان الأتاسي، وناظم القدسي وآخرون من اعضاء الكتلة الدستورية، فكانوا جميعا مستنكرين تعطيل الصحف وتشديد الرقابة، وكبت الحريات، ومستنكرين عقد الهدنة ومقدرين لمخاطرها، واستقر الرأي على ملاحقة الحكومة باصرار لعقد دورة استثنائية للمجلس، ليكون رقيبا ومطلعا على ما يجري في تلك الظروف العصيبة.

□

كان انشغال الشعب بمعركة فلسطين مناسبة للمصالح النفطية الأميركية والبريطانية كي تثبت أوضاعها في سورية، وقد بدأت الصحف قبل الهدنة، تنشر أنباء عن قيام شركة نفط العراق البريطانية بأعمال تمهيدية لانشاء مرفأ بترولي في بانياس، ووصول بواخر محملة بالمعدات والأدوات، فاستغرب الناس تلك الانباء، كما كنا نحن أشد استغرابا، ورحنا نتساءل مع الناس:

متى منحت الشركة امتيازا لانشاء مرفأ بترولي لها في بانياس؟

وبعد أيام قليلة من اقرار الهدنة بدأت الصحف تنشر أنباء عن مفاوضات رسمية تجري في مبنى وزارة الخارجية السورية بين جميل مردم رئيس الوزراء وبين ممثل لشركة التابلاين الأميركية بحضور نعيم الانطاكي، أحد أعضاء الكتلة الوطنية، والنائب في البرلمان بعد الاستقلال ووزير الخارجية السابق، وهي مفاوضات لمد خط أنابيب لهذه الشركة الأميركية من السورية، عبر الاردن وسوريا ولبنان الى ميناء الزهراني على البحر الأبيض المتوسط، فزاد ذلك من استغرابنا، خصوصا وان الاصوات الوطنية كانت ترتفع مطالبة بالغاء الامتيازات البترولية ما لم تمتنع الحكومتان البريطانية والاميركية عن دعم الحركة الصهيونية.

□

كانت دمشق بعد اقرار الهدنة ووقف اطلاق النار تعج بأفراد جيش الانقاذ وبالضباط والجنود المجازين بمأذونيات من الجيش النظامي وكنا نقرأ في الصحف أنباء زيارات فوزي القاوقجي للرئيس شكري القوتلي وانباء ما يقام له من الحفلات، كما كنا نقرأ بحسرة وألم الأنباء المتكررة يوميا عن ورود المتطوعين والمقاتلين اليهود والأسلحة والعتاد والطائرات والمؤن والذخائر، وأنباء تموين اليهود مستعمراتهم المعزولة، وانشائهم الطرق ومنها طريق من يافا الى القدس الجديدة، لمد سكانها المحاصرين بالمؤن والسلاح، ولا سيما بعد استيلاء الاسرائيليين على ميناء حيفا، بعد ان استلموه من بريطانيا قبل دخول الجيوش العربية، وبذلك صار لهم منفذ حر على البحر يستقبلون منه سفن

الأسلحة وأفواج المتطوعين، كما أصبحت مصافي البترول في حيفا تمدهم بالوقود، بعد أن أصبح ميناء تل أبيب غير صالح لاستقبال السفن بسبب ما أنزلت به المدفعية المصرية من تدمير، كما أعلنت بريطانيا رسميا أنها أوقفت شحن الأسلحة الى مصر والعراق والاردن بحجة التزام الحياد وعدم تقوية العرب أثناء الهدنة!!

أما الحكام العرب فقد راحوا يتبادلون برقيات التهنئة على ما حققته جيوشهم من انتصارات، ويمطرون شعوبهم بتصريحات تؤكد أنهم لم يوافقوا على الهدنة نتيجة لضغط ووساطات الدول الكبرى، بل ليثبتوا حسن نواياهم وتعلقهم بالسلم أمام العالم، وأنهم سوف يستأنفون القتال اذا لم تتحقق المطالب العربية كاملة.

بينما أخذت الأنباء تترى عن حوادث خرق اليهود المتكررة لأحكام الهدنة، كما كانت تترى في الوقت نفسه شكاوى العرب للوسيط الدولي برنادوت على غير طائل.

وفي غضون تلك الأسابيع الأربعة كان الوسيط الدولي يتابع اتصالاته مع العرب واليهود للوصول الى صيغة اتفاق، ولكنه واجه طريقا مسدودة، فقد أبلغته اللجنة السياسية العربية رفض العرب لأي حل يقوم على التقسيم، كما أبلغه اليهود رفضهم لكل حل لا يقوم على الاعتراف بالدولة اليهودية، فدعا خبراء من الطرفين الى جزيرة رودس، للرجوع اليهم فيما قد يحتاج اليه من بيانات [1]، واعتكف معهم في رودس نحو أسبوع. وانتهى في 27 حزيران 1948 من وضع مقترحات رآها صالحة لتكون أساسا لتسوية سلمية أرسلها بمذكرة الى كل من الحكومات العربية واليهود، وقد رفض اليهود مقترحات برنادوت هذه لأنها تعطي العرب النقب ومدينة القدس، وأعلنوا في الوقت ذاته استعدادهم لقبول تمديد الهدنة، كما رفض العرب تلك المقترحات لأنها تقوم على أساس التقسيم.

(1) كان بين الخبراء العرب الذين وصلوا الى رودس في 21 حزيران 1948 أحمد الشقيري، وكان بين الخبراء اليهود موشى دايان.

وأخـذت الصـحف العربيـة تحمـل علـى مقترحـات برنـادوت، والتصـريحات تتـوالى برفضـها وتنـادي باسـتئناف القتـال، ولمـس برنادوت الخطر فراح يناشد العرب تمديد الهدنة عشرة أيام، ووسط الشيخ بشارة الخوري لاقناع اللجنة السياسية باجابة طلبه، ولكن العرب أصروا على موقفهم وقررت اللجنة السياسـية فـي الجامعـة العربية استئناف القتـال ورفـض تمديـد الهدنـة، وأرسـلت بتـاريخ 8 تموز 1948 مذكرة مسهبة الى برنادوت والـى مجلـس الأمـن تبـرر فيها رفضها. واهتمت بأن تعـزو ذلـك الـى اسـتغلال اليهـود للهدنـة الأولى وخرقهم لها خرقا فاضحا متواصلا. ثم اردفتها بمذكرة أخـرى مماثلة في منتصف ليل 9-10 تموز، موعد انتهاء أجل وقـف اطـلاق النار.

استقبل الناس قرار اللجنـة السياسـية بحمـاس واسـتبشـار وبأمل أن تتدارك الجيوش العربية في جولتها الثانيـة مـا فاتهـا فـي الجولة الأولى، وخرجت الصحف بتصريحات جديدة للحكام العـرب... أما نحن فقد كنا متشائمين، بل ازداد تشاؤمنا كثيرا عن ذي قبل.

□

قرأت فيمـا بعـد المـذكرات التـي ألفهـا رؤسـاء لجنـة الرقابـة الدولية في فلسطين، وفي احداها يقول المؤلـف ان المعركـة كـان يمكن ان تحسم لمصلحة العرب حتى بعد الهدنـة الاولـى فيمـا لـو صمموا على القتال... ويقول: انه وان تحسـن وضع الهيود كثيرا بعد الهدنة الأولى فان متاعبهم كانت أكبر مما كان يعانيه العرب.

فترة القتال الثانية

من 9 تموز الى 19 تموز 1948

فـي 9 تمـوز تجـدد القتـال فـي الجبهـات الفلسـطينية كافـة وسط استبشار الشعب، ولكن الرقابة على الصحف اشتدت حتـى أصـبحت تصـدر مليئـة بالأعمـدة البيضـاء، وبلـغ التعطيـل الاداري للصحف درجة أصدرت فيها الحكومة يوم 15 تموز مرسـوما بتعطيـل خمس صحف دفعة واحـدة وهـي الجهـاد الحلبيـة والمنـار والأخبـار والانشاء والقبس الدمشقية، كما باشـرت جمعيـة الـدفاع المـدني

عقد الاجتماعات واصدار الأوامر المشـددة بضـرورة التعتـيم والقيـام بتـدابير لحمايـة دمشـق مـن الغـارات الجويـة، ولـم يكـن للغـارات اليهودية اي تأثير في بداية القتـال ولكـن فـي أواخـره قامـت قلعـة طائرة (هكذا كانت تسمى أنذاك) من طراز امريكي... بالقاء قنابلها على دمشق وقد سقطت احداها علـى بيـت فـي حـي السـبكي فهدمته.

وعندما ذهبت لأرى ما فعلته هـذه الغـارة كـان بـين الجمـوع رجل حديث النعمة من أثرياء الحرب يمتلـك عمـارات يؤجرهـا وكـان يصيح ويصرخ: فليرحل عنا هؤلاء الفلسطينيون لقد خربوا بيوتنا فلم أر بدا من توبيخـه وافهامـه ان القضـية ليسـت قضـية الفلسـطينين وانما هي قضية كل عربـي، كـان واحـدا مـن البورجوازيـة السـورية التـي تشـكلت خـلال الحـرب كالطفيليـات وهـي فـي عقليتهـا الانهزامية لا تتطلع لغير مصالحها المادية، هذا بينمـا كـان الشـعب يغلي كالبركان حماسة واندفاعا، وكـان كلمـا شـيع نسـرا طيـارا او شهيدا يزداد حماسة واندفاعا، كما بدأ يعي بشـدة ومـرارة اهمـال حكومته في الاعداد لهـذه المعركـة، وبـدأت بعـض الأقـلام الوطنيـة تسرب بين أعمدة الصحف تعليقات تعبـر عـن رأي الشـعب، فعلـى اثر هجوم الهاغاناة علـى مسـتعمرة مشـمار هـايردن لاسـترادادها واندحارهم عنها بخسائر كبيرة نجد التعليق التالي:

"لو أن حكومتنا الاستقلالية عملت خلال الأربـع سـنوات الماضـية علـى ايجـاد جيش كامـل العـدد والمعـدات يتناسـب مـع قـدرة سـوريا وتفانيهـا فـي مثلهـا الوطنية العليا، هل كـان جيشـنا الباسـل يكتفـي مـن ثمـار هـذا الظفـر الرائـع بالوقوف على أبواب المستعمرات اليهودية في اقصى الشمال؟

لم يكن لواحد من حكامنا السابقين أي نيـة سـيئة!! اذ لـم يتوقعـوا ان تكون بنا حاجة ماسة ومستعجلة الى جيش كامل العـدد والعـدة، ولـذلك فقـد كانوا معذورين ان انشغلوا عن كل ذلك بالاعاشـة والتوظيف وخبز الفقير وترويج الاحتكار والتحكير ومسـاعدة الـبعض علـى جمـع الملايـين، انهـم معـذورون... نيتهم كانت حسنة".

كما أخذ الضغط الاميركي والبريطاني يزداد شدة ووضوحا بتأييد اسرائيل "ضمن تقديم المساعدة من أسلحة وذخائر ومعدات بل ومحاربين يتدربون في الولايات المتحدة، وفي أوروبا لارسالهم الى فلسطين" كما قال فارس الخوري في الامم المتحدة الى تلقي الحكومات العربية مذكرات شفهية متتالية من الدبلوماسيين الاميركين والبريطانيين تضغط لقبول طلب الكونت برنادوت الهدنة من جديد.

ولكنهم ماذا كان يجري في ميدان القتال؟

لقد استؤنف القتال في 9 تموز في كل الجبهات بحماسة وحيوية وكان اليهود في هذه الجولة أوفر عدة وعددا مما كانوا عليه في الجولة السابقة، وخاصة في الطائرات والمدافع والضباط والمقاتلين المدربين، وانتقلوا في أكثر الجبهات الى الهجوم بدلا من الدفاع، فوقعت اشتباكات عديدة ومعارك ضارية أكثر مما وقع في الجولة الأولى، وكانت الحالة في الأيام الأربعة الأولى من القتال حسنة بالنسبة للعرب اذ انهم استطاعوا أن يزيحوا اليهود عن نقاط كثيرة استولوا عليها أثناء الهدنة، وأن يتقدموا في نقاط عديدة أخرى في الشمال والوسط والجنوب، كما عاد سلاح الجو المصري الى غاراته على تل أبيب وغيرها واشتد ضغط الجيش الأردني على القدس وكان يرهق الصهاينة بالقصف فتزداد الحالة العربية أملا واستبشارا.

أربعة أيام فقط ثم ما لبثت الصورة أن انقلبت واخذت الأوضاع العسكرية تتبدل وأخذ اليهود يشددون ضغطهم في مختلف الجبهات وخاصة في مناطق القوات الأردنية والعراقية مثل اللد والرملة ورأس العين ومرج بن عامر، أربعة أيام من القتال وستة أيام من الانتكاس تم فيها الإنسحاب من اللد والرملة مما جعل الشعب في سورية والعراق والأردن ومصر ولبنان يقوم بمظاهرات لاهبة في الوقت الذي قام فيه الحزبان الشيوعيان في سورية ولبنان بتوزيع بيانات تتضمن حملة على الحكومات العربية ودعوة لوقف القتال، وكانت هذه البيانات تسمي القتال الدائر في

فلسطين "حربا أهلية" مما دعا الشعب للقيام بحملة قاصمة ضد الشيوعين ومهاجمة مكاتبهم في دمشق وحمص.

كان انسحاب القوات الاردنية - التي يقودها ضباط بريطانيون - من اللد والرملة، وانسحاب القوات العراقية من رأس العين ومجدل بني فاضل وبعض مناطق مرج ابن عامر، وانسحاب فصائل جيش الانقاذ بعد ذلك من الجليل، قد قلب الميزان رأسا على عقب بصورة مفاجئة ومذهلة. وخسر العرب المركز الحربي الجيد الذي كان لهم قبل استئناف القتال وخسروا ايضا نحو ربع المنطقة العربية العامرة التي كانت في أيديهم.

ونزحت عن فلسطين ألوف أخرى من اللاجئين.

أصبح قصر الملك عبد الله في عمان إبان ذلك مشد الرحال للحكام العرب فزاره عبد الاله الوصي على عرش العراق، وعبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية وجميل مردم رئيس وزراء سوريا، ورياض الصلح رئيس وزراء لبنان ومزاحم الباججي رئيس وزراء العراق وصادق البصام وزير الدفاع.. وكانوا يمطرون الشعب بتصريحات تؤكد "أنه ليس هناك أي تفكير في الهدنة، وأن اجتماعات عمان قد أسفرت عن اتفاق تام على الاستمرار في الحرب بقوة وعنف الى النهاية".

وأصدر مجلس الامن الدولي، في 15 تموز، دعوة لوقف القتال وتنفيذ هدنة جديدة بإشراف الوسيط الدولي برنادوت لفسح المجال أمام مواصلة مساعيه السلمية، مهددا باتخاذ عقوبات اقتصادية وعسكرية.. وسرعان ما استجاب اليهود - نظريا - لقرار مجلس الأمن. أما من الجانب العربي فقد اجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية في عاليه بلبنان، وأصدرت يوم 18 تموز مذكرة تعلن فيها قبول دعوة مجلس الأمن ووقف القتال، وعاد جميل مردم من عاليه الى دمشق وعقد اجتماعا مع شكري القوتلي في القصر الجمهوري. وكنت في تلك الفترة قد اتخذت من مجلس النواب مقرا للاتصال بالنواب والعمل على عقد دورة استثنائية لفضح تخاذل الحكومات العربية بعقد الهدنة الأولى

والثانية وشرح أهمية هذه المعركة المصيرية بالنسبة للمستقبل العربي.

ومن القصر الجمهوري جاء جميل مردم ليجتمع بنا في المجلس ... كان عددنا حوالي خمسة وعشرين نائبا من مختلف الاتجاهات السياسية والكتل البرلمانية، فأخبرنا بأن اللجنة السياسية في اجتماعها بعاليه قد وافقت على اقرار الهدنة الثانية، وانه حاول ان يثني الحكومات العربية الأخرى عن ذلك فلم تجد محاولاته لا سيما وان الحكام العرب كانوا مصرين على قبول الهدنة، فلم يسعه الا الموافقة لأن سورية لا يمكنها أن تخرج على وحدة الصف العربي في موضوع الحرب، اذ ان ذلك يعرضها للخطر اذا استفردت بها اسرائيل، ثم ذكر ان الموافقة على اقرار الهدنة الثانية لم تكن بلا قيد او شرط بل هي مشروطة بتحقيق الأماني العربية مما يمكننا من استئناف القتال مع البلاد العربية الأخرى. قلت لمردم يومذاك:

لقد أضعتم فلسطين وانتهت المعركة، ولم تقتصر مسؤوليتكم على إضعاف الجيش السوري والعمل على تصفيته وعدم اعداده لخوض هذه المعركة فحسب بل انكم تواطأتم على القضية الفلسطينية، وقلت له: كان بامكان سوريا برغم كل ذلك، ان تلعب دورا في منع اقرار الهدنة الأولى. وقد سبق لي أن نبهت في الجلسة البرلمانية السرية قبل دخول الجيوش العربية لفلسطين، الى جميع المحاذير التي لم تتجنبوها.

حاول مردم ان يضع المسؤولية على عاتق من سبقه في وزارة الدفاع بشأن عدم اعداد الجيش للمعركة. كما عاد يبرر مواقف الحكومة باضطرارها لقبول الهدنة لعدم امكان خروج سوريا على وحدة الصف العربي، فقلت له: لماذا لا تحرص الدول العربية على وحدة الصف الا فيما يطعن القضية العربية؟ واذا كان للدول العربية الاخرى

عذرها بالخضوع لضغوط لدول الاجنبية لأنها تحت الاحتلال فما هو عذركم أنتم؟؟

كان نواب المعارضة بجانبي، وقد نددوا بالمخالفة الدستورية التي ارتكبتها الحكومة بامتناعها عن فتح دورة استثنائية في حينها لابقاء الحكومة بعيدة عن رقابة المجلس.

حاول مردم أن يبرر موقفه، مرة أخرى، بذكر مساجلات اللجنة السياسية العربية مع الوسيط الدولي برنادوت [1] ، ومساجلاتها مع الممثلين الدبلوماسيين لامريكا وبريطانيا، كما قرأ علينا نص الكتاب الذي تلقته اللجنة السياسية من الوسيط الدولي اثر صدور قرار مجلس الأمن القاضي بوقف القتال، ثم راح يشرح الحالة العسكرية في جميع الجبهات بشكل يبعث على اليأس، ليبرر قبول اللجنة السياسية بالهدنة الثانية.

وخلال الاجتماع كان بعض النواب الموالين للقصر المؤيدين للحكومة يوافقون مردم على أقواله، وراحت الحكومة تعد النواب بأنها ستدعو لعقد الدورة النيابية الاستثنائية ولكن بعد أن انتهت المعركة، ومما هو جدير بالملاحظة ان المطالبة بعقد دورة استثنائية لم يكن مطلبا في سورية وحدها يومذاك بل كان مطلب المعارضة في لبنان أيضا، وقد عقد المجلس النيابي اللبناني هذه الدورة ولكن لتصديق معاهدة النقد مع فرنسا والمعاهدة الثقافية، أما رئيس المجلس النيابي السوري محمد العايش فقد راح يشغل النواب بانتخاب ممثيلهم لحضور مؤتمر البرلمانيين العالمي في أوروبا.

□

(1) اعترف برنادوت أمام مجلس الأمن الدولي ان الهدنة الاولى افادت اليهود، وقرر ان أية هدنة من شأنها ان تفيدهم في وقف الهجوم عليهم وتقوية مراكزهم الدفاعية.

انفض الاجتماع مع جميل مردم وعدت الى بيتي حزينا غاضبا وأنا أتذكر مقابلة سابقة معه منذ حوالي سنة وعلى وجه التحديد بعد انتخابات عام 1947.

زرته في مكتبه فأخبرني بشكل مفاجىء انه سيعتزل العمل السياسي عما قريب وسوف يقيم في مصر بشكل دائم لأنها بلد مستقر وفيه مجال واسع للعمل والربح، فدهشت من كلامه ولكنني عللته بأن مردم يئس من انتخابه رئيسا للجمهورية، بعد عزم القوتلي على تعديل الدستور وتجديد انتخابه، وانه أصبح يفكر جديا باعتزال العمل السياسي والاقامة في مصر للتجارة، فمعروف عنه منذ وزارته الأولى في عهد الانتداب انه استغل منصبه فأوفى ديونه وأصبح رجلا ثريا.

هذه كانت قناعة الناس منذ وزارته الأولى، فقد كان رجلا مطعونا في نزاهته بنظر الشعب ونظر رفاقه، وقد أقام مردم فعلا فيما بعد في مصر، بلد التجارة والربح حسب تعبيره، ثم انصرف للأعمال المصرفية في سويسرا مع ابنه وأقاربه.

37

1948: الاوضاع الشعبية في سورية بعد الهدنة الثانية - الجهات الاستعمارية تستغل كارثة الهزيمة لجر سورية الى مناطق النفوذ - مطالبتي في مجلس النواب بتأليف لجنة برلمانية للتحقيق باسباب الهزيمة.

تحويل قضية فلسطين الى مشكلة لاجئين:

في 19 تموز 1948 بدأت الهدنة الثانية، وبذلك انتهت الحرب العربية الاسرائيلية عسكريا، ولم يبق من القضية الفلسطينية - على مستوى هيئة الأمم المتحدة - الا قضية تجريد القدس من السلاح وحل مشكلة اللاجئين، كما صرح الكونت برنادوت الوسيط الدولي، بينما ضرب اليهود عرض الحائط، وبصلف وغرور، كل مساعي الوسيط وجهوده ومقترحاته.

أما على الصعيد الرسمي فكانت اجتماعات الحكام والهيئة السياسية للجامعة العربية تنعقد وتنفرط، وكلها اجتماعات وابحاث تدور في الفراغ، وانقلبت تصريحات الملوك والرؤساء وخطاباتهم العنترية الى لهجة الاستعطاف، فأصبح من أقصى أمالهم أن تثمر جهود الكونت برنادوت لحل مشكلة اللاجئين "لانها امتحان لحسن نوايا اليهود". كان عدد اللاجئين الفلسطينيين يزداد باستمرار، مع الأسابيع، بل مع الأيام، حتى أصبح عددهم في سورية وحدها تسعين ألفا، ثم بدأ بالازدياد، فانشغل الشعب والحكومة بموضوع ايجاد المأوى وتأمين الاعاشة، فقد كان اللاجئون بحالة يرثى لها، فلا المساجد ولا الخيام عادت تتسع للأعداد الضخمة الهائمة على وجهها من المذابح الاسرائيلية، وفي الوقت نفسه كانت صرخات الفلسطينيين تتعالى طالبة السلاح لمتابعة القتال وانهم لا يريدون ان يتحول الاهتمام بمشكلتهم عن قضية فلسطين.

وبعد أشهر قليلة، اطلعت على تقرير يدمي القلب عن شؤون اللاجئين واحوالهم، فقد كشف ذلك التقرير ان الأمراض، ولا سيما السل، قد بدأت تنتشر في اوساطهم على نطاق واسع.

الأوضاع الشعبية في البلاد العربية اثر الهدنة الثانية

كان الوضع الشعبي في البلاد العربية بعد الهدنة الثانية وضعا واحدا، هو الاستنكار والرفض واتهام الحكام، كما كان وضع الحكام واحدا من حيث استخدام الاحكام العرفية، وتشديد الرقابة على الصحف، ومصادرتها واغلاقها، واللجوء الى القمع والاعتقال، وكانت الأمور تجري في الاقطار العربية وكأنها مخطط لها من قبل موجه واحد، وانني لا أنسى كيف أن محسن البرازي وزير الداخلية أجابني عندما عارضت مشروع قانون مراقبة الصحف:

"ان البرلمان العراقي والبرلمان المصري أقرا مثل هذا القانون فكيف نرفضه؟"

كان موقف المعارضة في كل البرلمانات العربية موقفا واحدا متشابها، الا في سورية حيث استطاعت المعارضة البرلمانية أن تفرض موقفا جذريا كفيلا بالوصول الى نتائج قاطعة حول أسباب الهزيمة وتحديد المسؤولية، وذلك عندما قرر البرلمان - فيما بعد - تشكيل لجنة تحقيق نيابية لتحديد المسؤولية في كارثة فلسطين.

ففي البرلمان اللبناني نددت المعارضة بالهدنة وقال المعارضون "دخلنا القتال كرماء، ولم نكد نعود اليه في الجولة الثانية الا وكان قتالا رمزيا خسرنا فيه خمس مدن كبرى وتشرد معه عشرات ألوف اللاجئين".

وفي العراق أصدر رئيس الحزب الوطني الديموقراطي كامل الجادرجي، وحزب الاستقلال، بيانات تشير الى هول الكارثة، وتندد بالمسؤولين عنها، وتستنهض الهمم لمجابهة المخاطر المحدقة بالأمة العربية.

وهذا عين ما كان يجري في مصر، ولا سيما الحملة المركزة التي كان يقودها الاخوان المسلمون برئاسة الهضيبي بعد استشهاد زعيمهم حسن البنا، وجمعية الشبان المسلمين التي كان يرئسها اللواء صالح حرب، والجناح التقدمي من حزب الوفد، والحزب الوطني، والحزب الاشتراكي الذي سبق لرئيسه أحمد

حسين[1] ان أمضى معنا أياما في معسكر التدريب في قطنا وبضعة أيام أخرى في فلسطين كما ذكرت سابقا.

أما الأحزاب الشيوعية العربية فكان موقفها في العراق ومصر اكثر سوء من موقفها في سورية ولبنان [2]

وانفرد نوري السعيد بين الحاكمين باصدار كتيب عاقدا فيه الأمل على بريطانيا لحل مشكلة فلسطين بشكل يحقق الاماني العربية، بينما خشيت بريطانيا من مبالغته فأعلنت على لسان مرجع مسؤول تكذيبها لأقواله.

لقد أردت من هذا الاستعراض الموجز والسريع للأوضاع العربية على الصعيدين الشعبي والرسمي أن أشير الى أمرين:

أولا: تأكيد الوحدة الشعبية العربية تجاه القضايا المصيرية، فالتطورات الشعبية التي كانت تجري في دمشق، كان يجري نظيرها في بغداد والقاهرة وعمان وفي جميع أنحاء الوطن العربي، وكما كان للاستعمار والصهيونية تخطيط واحد في المنطقة كان للشعب العربي مواقف واحدة.

ثانيا: قربت كارثة فلسطين ما بين الحركات العربية المعارضة بشكل أثر على مجرى الأحداث فيما بعد في الأقطار العربية المحيطة باسرائيل، وعلى تطور أوضاعها الداخلية وسياستها الخارجية.

القوتلي يحتفل بتجديد رئاسته، ويشكل حكومة جديدة برئاسة جميل مردم أيضا.

أخذ الشعب في سورية يستفيق من هول الكارثة من خلال وقائعها اليومية، وكانت أحوال اللاجئين تنبهه الى ابعاد الكارثة والمأساة والمخاطر الجدية على الأمة العربية، فإذا كان في

(1) روى لي جمال عبد الناصر بعد قيام الوحدة كيف انتسب الى الحزب الاشتراكي، فقد رأي مظاهرة في احد شوارع القاهرة ورأى الشرطة تنهال ضربا على المتظاهرين فتعاطف معهم وانضم اليهم، وحين ألقي بهم في السجن عرف انهم من حزب أحمد حسين فانتمى لهذا الحزب. ولكنه استقال منه فيما بعد.

(2) روى لي الاستاذ خالد بكداش عام 1957 كيف استعصى على محاولات اليهود الشيوعيين قبل حرب عام 1948 لاغرائه باساليب المخابرات المعروفة بما فيها استخدام العنصر النسائي.

الماضي يسمع ويساهم من بعيد فانه صار الان يعيش المأساة والكارثة وأصبح يشعر بالخطر المباشر، هذا الشعور الذي أخاف حكام سوريا كثيرا وكانت وسيلتهم لدرء الخطر عن أنفسهم التضييق على الحريات والارهاب، فلم يدع المجلس النيابي الى الدورة الاستثنائية الا عندما انتهت المعركة... آنذاك وافق الحاكمون على عقد الدورة الاستثنائية ووجهت الدعوة للنواب لحضور الجلسة الافتتاحية المخصصة لا لمناقشة ما جرى بشأن القضية الفلسطينية، بل لشهود حفة أداء القسم الدستوري للرئيس القوتلي، وكانت اسوأ مناسبة اختارها في 17 آب 1948، وقد أحيطت بمظاهر احتفالية ضخمة أساءت له وللعهد اساءة كبرى، وآثرت ألا أحضر تلك الجلسة.

ألقى القوتلي في البرلمان، بهذه المناسبة، خطابا ينضح بالغرور والاشادة بمواقفه ومآثره الماضية، أما عن "القضية" فقد قال: "لن نتخلى عن واجبنا بانقاذ فلسطين وان المعركة لم تنته وليس فينا من يزعم أنها انتهت. فاذا وجد فهو انهزامي".

كانت الكتلة الدستورية التي تجمع معظم عناصر المعارضة في المجلس قد أصدرت قبل أيام من ذلك الاحتفال بيانا تهاجم فيه الحكومة وسياستها ومسؤوليتها عن الكارثة وتذكر شيئا جديدا مفاجئا اسمته "سياسة العزلة" فقد ورد في البيان: "**ان من أبرز الاثار التي أثمرت عنها سياسة الحكومات المتعاقبة هذه العزلة التامة التي منيت بها البلاد في عالم الدول".**

وقد عقد أعضاء الكتلة الدستورية مؤتمرا في فالوغا بلبنان في 48/8/12 أي قبل حفلة قسم اليمين الدستورية بخمسة أيام قرروا فيه تحول الكتلة الى حزب سياسي باسم (حزب الشعب) وكان ذلك بعد محاولتهم الاولى اثر انتخابات عام 1947 التي مرت وقائعها فيما سبق، ومن الجدير بالذكر ان أعضاء هذا الحزب الذين أصدروا ذلك البيان وقاطعوا حفلة القسم الدستورية كانوا قد ساهموا بتعديل الدستور وتمديد رئاسة القوتلي من قبل.

التنافس الاستعماري يستغل الهزيمة لجر سورية الى مناطق النفوذ.

تعرضت سورية بعد اعلان الهدنة الثانية، وبعد أن بدأ شيء من اليأس والخوف يتسلل الى النفوس، الى حرب نفسية شديدة تحت شعار خروج سورية من العزلة لحماية نفسها، فقد اعتبر موجهو تلك الحملة ان ما تتمتع به سورية من الاستقلال عزلة عربية ودولية، ونشطت الدعاية التي كانت تهيئ الشعب نفسيا لهذا الاتجاه، وذلك عن طريق نقمة الشعب على الحكم ودغدغة حلمه بالاتحاد مع العراق، فباشرت بغداد تنشر نبأ امتناعها عن اقرار الهدنة الثانية اثر المظاهرات الكبرى التي قام بها الشعب العراقي والبيانات الشديدة التي أصدرتها الأحزاب العراقية مستنكرة استسلام اللجنة السياسية العربية لقرار مجلس الأمن، وأيد ذلك رئيس الوزراء مزاحم الباجة جي الذي صرح في بيروت بأن الصحف "**لم تعد الحقيقة حين ذكرت أن العراق رفض الهدنة رفضا باتا وأن رفضه هذا مسجل في محضر الجلسات"**، وصارت الأنباء تتضارب في موضوع اقرار الهدنة الثانية هل كان بالاكثرية أم بالاجماع؟ وقال العراق أنه لم يحضر اجتماع اللجنة السياسية وانما أرسل الى المجتمعين كتابا يرفض فيه وقف القتال الى أن تتحرر فلسطين ويقضى على الصهيونية، **ولكن جميل مردم حاول، في النهاية لفلفة الموضوع بدبلوماسيته المعروفة فقال: "ان قرار اللجنة السياسية بوقف القتال كان بالاجماع، غير ان سورية أبدت بعض الملاحظات. وليس الان وقت المباهاة بأنفسنا، فالقرار كان بالاجماع"..** ومع ذلك فقد استمرت الدعاية لموقف حكومة العراق في الصحف السورية دون ان تمتد اليها يد الرقابة التي كانت تمتد حتى الى توافه الأمور.

كان العراق قد أعلن أيضا، بعد إقرار الهدنة الثانية وتوقف القتال مباشرة أنه منع تصدير النفط الى مصفاة حيفا، الأمر الذي لقي استحسانا جعل الناس غافلين عن تفاصيل هذه العملية، فقد صرح مسؤول عراقي بأن "ما قام به الصهاينة من استثمار

البترول العربي يجعل من المستحيل تصدير البترول من العراق الى حيفا، وان كان ذلك سيسبب اضرارا جسيمة للخزينة العراقية" وأعقب ذلك تصريح للدوائر السياسية في لندن " بأن استيلاء اليهود على معامل تكرير النفط في حيفا يعد اجراء حربيا طالما لم تجاوب السلطات اليهودية على الاحتجاج البريطاني، لأن الأوامر بالاستيلاء على هذه المعامل صدرت من السلطات الحربية اليهودية، ولأن قوات الهاغاناة هي التي احتلت هذه المعامل. ومن المعتقد بأن كميات البترول التي استولى عليها اليهود تقدر بعشرين ألف طن"

ولم يسأل أحد أبدا: لم تأخر العراق بوقف ضخ النفط الى ما بعد انعقاد الهدنة الثانية؟ لم مون العراق القوات اليهودية بالوقود طيلة مدة الحرب؟ وهل يحق للعراق وبريطانيا أن تضفيا طابع الوطنية والتضحية على ايقاف ضخ النفط بعد انتهاء الحرب؟

مهدت هذه الدعاية الواسعة لزيارة الملك فيصل بن غازي والوصي على العرش عبد الاله لسوريا، فهيئت الاستقبالات الضخمة احتفاء بمرورهما في دمشق والمدن الأخرى عبر سوريا في طريقهما الى العراق.

وسيرد خلال استعراض الأحداث القادمة كيف أعلن حزب الشعب المعارض لحكم القوتلي شعار الاتحاد مع العراق، وبالمقابل كيف أعلن الحزب الوطني (حزب القوتلي) على لسان رئيسه صبري العسلي امكان عقد معاهدة مع بريطانيا بحجة الخروج من العزلة الدولية، **وكيف التقى حزب الحكم وحزب المعارضة على هدف واحد، ولكن بأسلوبين وطريقين مختلفين باختلاف المطامع الشخصية والاقليمية والارتباطات العربية.**

ولكن بريطانيا لم تقبل طريقة القوتلي بل سارت في طريق الفريق الاخر، والسبب في ذلك ان سياسة التعاقد المكشوفة مع الأجانب التي حاول القوتلي سلوكها قد

تجاوزتها التطورات الداخلية والدولية، فقد اخفقت منذ مشروع بيفن بيدو، وأصبح من غير الممكن تحقيقها مهما كانت الحجج والذرائع. أما مشروع الاتحاد مع العراق فهو في ظاهره مشروع وحدوي يحقق للبورجوازية السورية، ولا سيما في حلب، مصالحها الطبقية، لذلك يمكن، بما لها من تأثير ووزن سياسي تحقيقه بالطرق البرلمانية الدستورية، بينما رأى القوتلي في سياسة التعاقد مع بريطانيا ما يرضيها وما لا يغضب في الوقت ذاته حليفه الملك عبد العزيز آل سعود.

ان موقف القوتلي وحزب الشعب جعل الولايات المتحدة وفرنسا تسرعان للقيام بانقلاب حسني الزعيم محافظة على مصالحهما ونفوذهما المهددين، كما زاد في الوقت نفسه حراجة موقفنا، فأفقدنا بعض حلفائنا وأصدقائنا من المعارضين، وشدد من نطاق التآمر حولنا، وفسح مجالا رحبا للدعاية ضدنا من الأطراف المتصارعة، داخليا وخارجيا.

□

استقالت حكومة مردم بعد انتخاب الرئاسة الأولى فكلف القوتلي جميل مردم ثانية بتشكيل الحكومة فألفها على النحو التالي [1] :

جميل مردم	لرئاسة الوزراء ووزارة الدفاع
لطفي الحفار	نائبا للرئيس ووزير دولة
محسن البرازي	وزيرا للخارجية
صبري العسلي	وزيرا للداخلية
وهبي الحريري	وزيرا للمالية

(1) بعد أشهر قليلة سيصبح نوري ايبش والامير عادل أرسلان وزراء في أول حكومة تشكل بعد انقلاب حسني الزعيم برئاسة محسن البرازي أما الحاج وهبي الحريري (من أثرياء الحرب العالمية الثانية) فسيقبض من خزينة الدولة نصف مليون ليرة سورية بموجب ورقة عادية من حسني الزعيم وسترد تفاصيل ذلك في حينه.

منير العجلاني وزيرا للمعارف

محمد العايش وزير دولة (نائب رئيس المجلس النيابي)

نوري الايبش وزيرا للزراعة

الأمير عادل أرسلان وزيرا للصحة والشؤون الاجتماعية.

سعيد الغزي وزيرا للعدلية

أحمد الرفاعي وزيرا للأشغال العامة

ميخائيل ليان وزيرا للاقتصاد الوطني

لقد أظهر تشكيل الوزارة على هذه الصورة نوايا القوتلي وخطته السياسية فاشتراك الحزب الوطني ولا سيما بشخص ميخائيل ليان هو ضد زعامة الكيخيا في حلب وتحد لحزب الشعب الجديد، كما استقال نبيه العظمة الذي كان عضوا في الوزارة السابقة من رئاسة الحزب الوطني فحل محله صبري العسلي وأصبح وزيرا للداخلية.

والحقيقة ان تأليف هذه الوزارة على هذا النحو لم يكن لضرب حزب الشعب فحسب بل لضرب المعارضة الوطنية التي كانت تعتبر - في نظر الحاكمين - اكثر تطرفا وخطرا، وقد أعلن جميل مردم عن ذلك صراحة حين قال في مؤتمر صحفي عقده إثر تشكيل حكومته الجديدة: "لن نعرف الهوادة والوهن وسنضرب على أيدي الانهزاميين" ويقصد بالتحديد كل من يعارض حكمهم.

وقد استمر أركان العهد بما يمتازون به من صلافة واستهتار، فلم تؤدبهم الكارثة، بل استمروا في طغيانهم كأن شيئا لم يكن، وفيما يلي نموذج عما كان يعانيه الفلاحون من ظلم واضطهاد في معظم انحاء البلاد.

ففي عز الكارثة والانهزام نشرت الصحف الدمشقية خلاصة لبرقية أرسلها أهالي قرية "سحم الجولان" يشكون فيها مر الشكوى مما يعانونه من عنت واضطهاد وتنكيل وترويع من قبل المتنفذين الذين كانوا على حد تعبير الفلاحين "تغذيهم الجمعيات

الصهيونية من وراء ستار" ويطالب الفلاحون في هذه البرقية بالاغاثة والنجدة لأن المتنفذين روعوا أسرهم وحجزوا أغراضهم وسعوا لاغتصاب قريتهم.

وكان اليهود قد قاموا بمحاولات سابقة للاستيلاء على قريتي سحم الجولان وكوكبة.

□

بهذا الجو عقد المجلس النيابي، في 28 آب 1947، جلسته الثانية بعد جلسة اليمين الدستورية **فكانت من أخطر ما عقده المجلس من جلسات خلال الحياة البرلمانية في سورية، فقد هبت فيها عاصفة لاهبة أثيرت فيها، خلال سبع ساعات، مسؤولية الحكم في كارثة فلسطين...**

ويبدو أن الحكومة فوجئت بما حدث. لأنها أعدت الجلسة لتبرئة النائب أحمد الشراباتي ولفلفة قضية اقالته من وزارة الدفاع، بالاتفاق مع القصر. وكان في ظنهم ان الجلسة ستقتصر على تلاوة البيان الوزاري وخطاب مكتوب يلقيه الشراباتي في معرض الدفاع عن نفسه وعن سياسة العهد خلال توليه منصب وزير الدفاع ثم تنتهي الجلسة بمنح الحكومة الجديدة الثقة بأكثرية مضمونة من النواب الموالين ونواب الحزب الوطني، وكتلة المستقلين التي شكلها القوتلي بقيادة نائبي حماة عبد الرحمن العظم وأديب نصور.

ولكن الرياح جرت على غير ما كان يشتهي القوتلي والحكومة والشراباتي، فما تلي البيان الوزاري الا واعتلى المنبر فيصل العسلي ليطرح الاسئلة التالية:

أولا: ما هو سبب تأخير عقد الدورة النيابية الاستثنائية؟

ثانيا: ما هو سبب قبول الهدنة الأولى والثانية؟

ثالثا: ما هي تدابير الحكومة لحماية الحدود من حوادث خرق اليهود للهدنة، وحماية المدن من القصف الجوي؟ (2)

فقام الشراباتي وتلي خطابا مكتوبا قال فيه انه "رجا رئيس الوزراء أن يصدر بيانا واضحا صحيحا عن أسباب استقالته من وزارة الدفاع وتكذيب الاشاعات المغرضة التي روجت عنه وعن الجيش السوري وتسليحه وخسائره وعدده الى اخر ما جاء من الافك والافتراءات". وكرر رجاءه للحكومة باصدار ذلك البيان وقال: "ان العمل لانقاذ فلسطين هدف من أهدافي القومية، وأراد ان يدغدغ عواطفنا فقال: "وانا اعلم أن كل واحد منكم كان لا بد ان يقوم بالعمل نفسه لو كان في مركزي خصوصا وقد ذهب الكثيرون الى أبعد من هذا فعرضوا حياتهم في سوق الشرف يبيعونها في سبيل العروبة" ثم فند الاشاعات وقال "قيل ان وزارة الدفاع قد أنقصت عدد الجيش. ان عدد الجيش منذ استلامي وزارة الدفاع قد ازداد ولم ينقص في عدده وأفراده وضباطه. حتى ان عدد ضباطه زاد ستين بالمائة، وزاد عدد صف الضباط خمسة وعشرين بالمائة".. ثم قال: "كان الجيش في زمن الفرنسيين تكتلات عنصرية موزعة في أطراف البلاد. فألغيت هذه التكتلات وعملت للقضاء عليها" واستطرد مفندا التهم فقال "ان الجيش لم ينهزم ولا في معركة من المعارك، فهدم الحصون واخترق الخطوط الجبارة التي بناها الانكليز لصد الالمان، اذن لم ينقص عدد أفراد الجيش في يوم من الأيام بل كانت تخصص له الزيادات الكبيرة".

ثم قال: "ان الجيش انتقل الينا من الفرنسيين بطريقتي الالتحاق والتسليم وجاء معه بأسلحة قليلة وذخائر أقل، وعند استلام وزارة الدفاع في تموز 1946 كانت الطريقة الوحيدة للحصول على الذخيرة هي السوق السوداء المحلية (3) وقبيل انقضاء العام اشترينا من الفرنسيين جميع ما وافقوا على

(2) من هنا يظهر بأن فيصل العسلي انقلب معارضا للحكم ليحقق أغراضه لحسابه الخاص ولم يعد أداة تنفيذ لمآرب القوتلي ... وسوف نرى نتائج ذلك في المستقبل القريب".

(3) ورد في مذكرات خالد العظم بمناسبة الجهود التي بذلها لشراء السلاح من فرنسا عندما كان وزير سورية المفوض فيها عام 1948 ما يلي:
"والحقيقة التي لا مراء فيها ان جميع الحكومات المتعاقبة ولا سيما وزارة الدفاع الوطني مسؤولة عن عدم شراء الاسلحة قبل تأزم القضية الفلسطينية ووقوع الحرب فقد كانت الابواب قبل ذلك مفتوحة لتدارك الاسلحة دون رقيب او حسيب فان لم يكن من قبل الانكليز الذين كانوا دائما يمنعون الاسلحة حتى عن الشرطة والدرك فمن بلاد محايدة أخرى كسويسرا او السويد وايطاليا حيث المعامل عديدة والمعدات جيدة وحديثة (الجزء الاول ص 246)

بيعه لنا من الاسلحة والذخائر وبكميات كافية، وفاوضناهم على كميات اضافية تعهدوا بتسليمنا اياها فيما بعد" ثم أشار الى أن صفقات الاسلحة لا تتم في طبيعتها بجهود وزارة الدفاع وحدها، وانما هي نتيجة للمساعي الخارجية، وان عمل وزارة الدفاع في هذا المضمار لا يتجاوز تحديد الانواع والكميات وكل ما هو فني [4] وقال "وقد اشترينا بعد ذلك من غير الفرنسيين فاشترينا من أمريكا الطائرات التي تعهدت لنا بها خطيا وباعطائنا الاسلحة والذخائر اللازمة لها. ولكنها لم تف بما وعدت" ثم قال "انه لولا خطر اذاعة الاسرار العسكرية لأطلع المجلس على جهود اللجنة التي ألفها لشراء السلاح، وكيف ان تلك اللجنة درست مختلف العروض وفحصتها جميعا وتعرضت لمختلف انواع الضغوط والاخطار، ولكنها لم تهمل ولا عرضا واحدا حتى تلك العروض التي كان يقدمها الصهاينة عن طريق بعض الوسطاء! كما جابت لجان فنية أخرى عواصم العالم لهذه الغاية. ويكفي أن أقول: ان العقود التي عقدتها وزارة الدفاع تزيد تسعة أضعاف عن مخصصات الموازنة لها وان هذه المساعي لم تأت متأخرة أو بعد حظر شحن الأسلحة وانما هي مساع قديمة معظمها سابقة لقرار التقسيم" كما نفى هزيمة الجيش في التاسع عشر من أيار وهو تاريخ استقالته. "بل بالعكس فان الجيش السوري أحرز نصرا كاملا على الاعداء واحتل مدينة سمخ ومستعمرتي مشمار هاغولان ومسعدة وكانت خسائره شهيدا واحدا.

وأن توقف الجيش في منطقة سمخ كان بناء على الأوامر الصادرة اليه من القيادة العامة في عمان".

وعزا سبب استقالته الى الطلب الذي تقدم به لاجراء تبديلات سريعة في القيادات "حفظا لسلامة الجيش والبلاد، وقد استمهلت فلم أقبل بالنسبة لخطورة الأمر".

وهكذا تعرض الشراباتي بخطابه لأمور كذبته فيها الوقائع المحسوسة:

1- ان الجيش عندما دخل الى فلسطين اوقفه اليهود أمام خط ايدن بعد معركة تكبد فيها خسائر كبيرة.

(4) اراد الشراباتي بهذا ان يرمي المسؤولية - بشكل مبطن - على عاتق سعد الله الجابري الذي كان في الفترة السابقة رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية.

2- ان نقص السلاح والذخيرة والعتاد أمر كانت وزارة الدفاع تعلنه جهارا، وتعتذر به عن عدم تسليح القوات الفلسطينية والسورية المحاربة قبل دخول الجيوش العربية.
3- لم يكن السبب في استقالة الشراباتي طلبه تبديل القيادة وتنحية عبد الله عطفة، لأن هذا التبديل في القيادة كان مصحوبا باستقالة الشراباتي، وقد ظل عبد الله عطفة رئيسا لأركان الجيش طيلة وجود الشراباتي في وزارة الدفاع على التعاقب بعد الجلاء.
4- ان اشتراك الجيش في تزوير انتخابات 1947 واقامة تكتلات فيه لصالح النظام أمر مفضوح يومذاك ويعرفه الدمشقيون خاصة والسوريون عامة وهذا يكذب ادعاء الشراباتي بأنه قضى على التكتلات الطائفية في الجيش وصرفه للتدريب.
5- تحدث عن صفقات السلاح التي اشترتها وزارة الدفاع من مختلف أنحاء العالم، وهذا أمر يكذبه واقع الحال، لأن الجيش كان محروما حتى من السلاح الفرنسي ومقترا عليه بالذخيرة.
6- قال انه أخضع نفقات وزارة الدفاع لرقابة وزارة المالية وديوان المحاسبة، تدليلا على نزاهته، مع أن الواقع الذي يعرفه الناس ان مخصصات المكتب الثاني كانت تصرف، لا لمعرفة اخبار العدو وأسراره، بل للدعاية لشخصه ولشكري القوتلي، وعلى شؤون لا علاقة للجيش بها مطلقا.

□

تحدث بعد ذلك عدد كبير من النواب فتطرقوا الى مواضيع مختلفة لأسباب مختلفة، ولكن معظمهم تطرق لموضوع فلسطين اما مؤيدا او معارضا لسياسة الحكومة محملا اياها، مسؤولية الكارثة، وساد جو المناقشات في تلك الجلسة الصاخبة هرج ومرج وصراخ وضرب على الطاولات. وكان جميل مردم يصرخ موجها الكلام الينا: "هناك هدامون في هذا الدور". ولكنه أسكت، ثم القيت كلمة ورد فيها:

"حضرات الزملاء الكرام

انني اتوجه اليكم عند طرح الثقة ولا اتوجه الى الوزارة الحاضرة فالوزارة الحاضرة قد بلوتم اعضاءها وعرفتم اساليبها فالذي يضع النقاط على الحروف والذي يحدد المسؤوليات ويحمل التبعات لاصحابها هو مجلسكم الكريم **وثقوا ان عدم التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية هو علة المشاكل القائمة في البلاد وهي ناتجة عن أن المجلس النيابي لا يمارس سلطته كاملة وان التوازن غير قائم بين السلطتين .**

زملائي الكرام ارجو ان يتسع صدر رئيس مجلس الوزراء لصراحتي وانني سأبحث الامر موضوعيا دون ان اتعرض للاشخاص قطعا والذي يمنعني من ان اتعرض للاشخاص هو أنه ليس في نيتنا والحمد لله ان نصبح وزراء او ان نصبح موظفين ولا شأن لنا بالخصومات والحزبيات التي تعصف بالنفوس وتولد ما نراه وما نشاهده الان.

لو رجعنا الى برنامج الوزارة السابقة ومحصنا برامج الوزارات منذ عام 1945 اي عندما استقلت البلاد استقلالا تاما ناجزا، عندما نرجع الى تلك البيانات الوزارية نتأكد ان الوزارات الماضية لم تنفذ من برامجها الا الامور التافهة جدا وقد أرادت الوزارة الحاضرة ان تجعل قضية فلسطين الموضوع الكامل لبرنامجها فانا أسألكم أيها الاخوان ألم يقل دولة رئيس مجلس الوزراء في وزارته السابقة نفس القول الذي قاله الان، انه قال سنجهز جيشنا بالوسائل اللازمة وسنطبق قانون خدمة العلم وسنطبق المشاريع القانونية الضامنة للنصر وقد أتى في قوله هذا اليوم بشيء جديد اذ قال أنه سيسعف اللاجئين العرب من ابناء فلسطين وقال انه سيوالي العمل كالسابق لانقاذ فلسطين وانا اقول له بصراحة انكم اذا اردتم ان توالوا العمل كالسابق لانقاذ **فلسطين فلا شك انكم ستضيعون فلسطين نهائيا واخشى ان تكون هنالك مخاوف واخطار تهدد هذه البلاد نفسها** ومن هذه الجهة اريد ان نرجع الى الماضي لنرى هل كان اسلوب الوزارة السابقة والوزارة الحالية التي لم تختلف عنها باعضائها وان كان قد اضيف اليها بعض الوزراء الذين مارسوا الحكم في السابق وانا اعتقد انهم جميعا مسؤولون عن هذه الكارثة وعن جميع الاخطاء السابقة، لنرجع الى الماضي ولا بد انكم تذكرون - ولا سيما من كان منكم في المجلس السابق - ان المعارضة لم تكن كما يقولون لاجل شرطي او دركي او قائمقام بل كانت معارضة جدية تستهدف انقاذ البلاد **لقد**

كانت المعارضة منذ عام 1945 عندما كانت تعقد جلسات المجلس في بهو الجامعة السورية اثر كارثة مايس قد ألحت على الحكومة تطلب تسليح الجيش تسليحا كاملا وفرض الخدمة الاجبارية ومن يرجع الى ضبوط تلك الجلسات التي تبين قول كل فرد من اعضاء المجلس وتحصي الكبيرة والصغيرة يتأكد بان المعارضة كانت بالنسبة الى جميع الموازنات التي عرضت على المجلس تلاحق الحكومة بشكل مستمر لتنظر الى الجيش السوري نظرة جدية بتسليحه تسليحا حديثا وتطبيق خدمة العلم فلو كانت تلك الوزارات السابقة قد التفتت الى ما تقدمت به المعارضة لما وقعنا في الكارثة التي هددت مليون ونصف من عرب فلسطين بالفناء والتي تهدد البلاد العربية بالزوال والفناء ايضا.

أيها الاخوان ان الضعف الذي شعرت به الحكومة بالنسبة لجيشها اعتقد انه هو الذي دفع بها الى ارتكاب خطيئات سياسية كبرى كان من جرائها ضياع هذا القطر الشقيق - وهذه الخطيئات السياسية - ولا اريد ان ارجع الى الماضي البعيد بل اريد ان ارجع بكم الى شهري نيسان ومايس الماضيين عندما كان هذا المجلس يعقد جلساته السرية - **تقدم بعض الخطباء في هذا المجلس وقالوا للحكومة بشكل صريح ان التأخير في دخول الجيوش العربية واعطاء الصهيونيين اية فرصة لتدفق الاسلحة والاعتدة والمتطوعين اليهم سيجعل الجيوش العربية تقف عاجزة في فلسطين، لقد قيل لهم هذا القول حرفيا** وقد قيل لهم ما هو اشد من هذا القول مرارا وتكرارا وقد كانت تلك النتائج السيئة رغم هذه التحذيرات والحكومة واعضاؤها يعلمون كما نعلم وليسوا بجاهلين نتيجة تأخر الزحف الى ما بعد 15 ايار ومع ذلك قلنا الامر لله، وانتظرنا من الجيوش العربية مجتمعة رغم تأخر الزحف انقاذ فلسطين من السقوط في مدة وجيزة والقضاء المبرم على بقايا المقاومة **ولكنهم ارتكبوا خطيئة ثانية فانهم قبلوا الهدنة الاولى وأعطوا اليهود الفرصة اربعة اسابيع ليتلقوا من اوروبا ومن مختلف انحاء العالم الوف** المتطوعين والاسلحة الحديثة والاعتدة الثقيلة من طائرات ومدافع. انني لا أحاسب الحكومات العربية الاخرى وانما **احاسب الحكومة السورية لاننا كنا ننتظر منها ومن الوطن السوري المستقل استقلالا تاما بخلاف شرق الاردن والعراق ومصر كنا نأمل**

ان يجعل من بلاده محررة ومنقذة للبلاد الاخرى، لقد كنا مع الاسف مجرورين بسياسات وبالتأكيد خارجية متآمرة تشمل اقطارا عربية اخرى.

ايها الزملاء: هنالك موضوع هام لا يسعنا بصفتنا نوابا ولا يسع السيد احمد الشراباتي ولا يسع المجلس ان يسكت عنه، انني لا اريد ان اناقش السيد احمد الشراباتي في الفرعيات والاصول دون أن يكون هناك تحقيق يشكل قناعة كاملة فاذا كان السيد احمد الشراباتي مسؤولا بصورة خاصة او ان زملاءه مسؤولون معه عن هذه الاخطاء التي عددتها فان هنالك امورا تعرض لها السيد الشراباتي قد شاع أمرها وذاع بين الناس فلا يجب ان نسكت عنها او نلقي بشأنها بعض الكلمات ونمر بها مر الكرام، قال السيد الشراباتي انه قدم تقارير سرية وانه لم يقصر في أمر العروض التي قدمت اليه وانه الى آخر ما هنالك، **فانا اقترح على المجلس ان يشكل لجنة تحقيق لنعلم مدى مسؤولية السيد الشراباتي في الامر، فاذا كان مسؤولا فيجب ان يحال الى المحكمة العليا واذا لم يكن مسؤولا او كانت مسؤوليته لا تتعدى حدود مسؤولية زملائه فيجب ان يعلم الشعب ذلك وأن لا يظلم احد.** انني لا أبت في جميع الشبهات وفي جميع ما اشيع قبل ان تتألف لجنة التحقيق وانني اقول لكم اننا ننتظر منكم موقفا حاسما فاصلا، ولا يجوز ان نمر بهذه الامور بالقاء كلمات وخطابات لا تقنع احدا".

لقد كان التحقيق بالقضايا التي أثارها الشرباتي في خطابه يشكل موقفا جذريا بالنسبة للمستقبل حتى ولو ظل محصورا في اطار التحقيق معه، ولكن الشرباتي كان يعرف ان التحقيق بالكارثة وأسبابها سيدين الحكومات المتعاقبة التي كان القوتلي يوجهها كما هو معروف، لذلك طلب من الحكومة - علنا وبالحاح - ان تصدر بيانا حول قضيته، وفي ذلك تهديد مبطن لشركائه في المسؤولية ولكن الحكومة لم تجرؤ على اصدار مثل هذا البيان.

كنت مؤمنا بأن بداية السير في الطريق الصحيح للانتصار على الهجمة الاستعمارية الصهيونية لا يمكن ان تتهيأ للشعب ما لم يطلع على الأسباب الحقيقية للهزيمة وعلى خلفياتها، فعلى نتائج ذلك تتضح الرؤية، ويتمكن الشعب من مجابهة التحديات المطروحة، ولكن لم يخطر في بالي أن تأتي الأيام بالأعاجيب،

فيأتي انقاذ الشرباتي بطي القضية برمتها - بعد انتهاء التحقيق فيها - على يد خصمه اللدود حسني الزعيم لا على يد شركائه في المسؤولية من جماعة النظام الذي كان واحدا منه.

ان هذا الهدف الخبيث، اخفاء المعلومات عن الشعب، كان وراء تزييف المحاكمات التي جرت في مصر بعد انهيار النظام الملكي اذا اصبحت المشكلة في نظر ثورة يوليو هي محاكمة المسؤولين عن دخول الجيش المصري الى فلسطين، بدلا من محاكمة المتآمرين الحقيقين من أركان النظام الملكي الاقطاعي الذين تسببوا في هزيمة الجيش المصري.

إن المشكلة هي مشكلة سياسية، هي مشكلة النظام، لأن الجيش المصري رغم سوء تسليحه حقق انتصارات في بداية المعركة التي أرغم على ايقافها من قبل القيادة السياسية التي أتاحت للعدو الفرصة السانحة لزيادة استعداده ثم أرغم ثانية على وقف القتال.

ان ما ورد في التقرير المرفوع بتاريخ 1947/3/10 من القنصل العام اللبناني في القدس الى وزارة الخارجية اللبنانية يوضح للقارىء كيف ان المسؤولية هي مسؤولية القيادات السياسية اولا، مسؤولية فساد النظام وتواطئه. يذكر القنصل انه استقبل في دار القنصلية بالقدس "الخواجا ساسون" السكرتير الشرقي للشعبة السياسية في الوكالة اليهودية التي كانت قبل تأسيس دولة اسرائيل شبه حكومة للصهاينة في فلسطين فأخبره ساسون بما يلي:

"في شهر ايلول من عام 1946، حينما كنت مسافرا الى لندن، اجتمعت في مصر برئيس الوزراء دولة اسماعيل صدقي باشا، وبحثت معه في قضية فلسطين، فأجابني أنه شخصيا لا يرى غير التقسيم حلا لها، وهو يؤيده، ولكنه لا يريد ان يعرضه على الدول العربية الا اذا كلفه الانكليز بذلك.. وكنت في هذه الاثناء على اتصال دائم بمعالي وزير الخارجية أحمد لطفي السيد باشا، وكان من رأي صدقي باشا".

ويتابع ساسون حديثه مع القنصل قائلا:

من أوائل كانون الأول عام 1946، قابلت الدكتور [6] محمد حسين هيكل وأنا مسافر الى سويسرا لحضور المؤتمر الصهيوني العالمي في بال ودار بيننا الحديث طويلا حول قضية فلسطين. فكان هيكل باشا يرى ان تعقيد القضية والنفور الشديد بين العرب واليهود راجع الى رغبة الأجنبي ... وأنه لا خير يرجى للمصلحة العامة الا بأن يقع الاتصال بين العرب واليهود. واذا كان لليهود ما يشكونه من موقف العرب منهم فما على اليهود الا ان يعرضوا شكواهم مباشرة على الجامعة العربية وقد كلفني هيكل باشا ان أعرض هذا الرأي على زعماء اليهود في بال وقد وافق زعماء اليهود على عرض القضية على الجامعة العربية وفوضوني في مباحثة الدكتور حسين هيكل باشا من جديد... وحين رجعت الى مصر اتصلت بهيكل باشا وأبلغته القرار فسر به وأظهر استعداده بل تصميمه، بصفته عضوا في الهيئة الرسمية لممثلي مصر في الجامعة العربية، على أن يعرض الاقتراح على المجلس في الدورة القادمة".[7]

ان في هذه الوثيقة الرسمية ثلاثة اسماء من أسماء المسؤولين المصريين، اصبح أحدها بعد انقلاب عام 1952 موجها سياسيا للانقلابين هو أحمد لطفي السيد المعروف بدعوته للقومية المصرية، وقد حدثني عبد اللطيف بغدادي خلال عهد الوحدة بين سورية ومصر ان اعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر ترددوا بعد خلافهم مع محمد نجيب حول شكل الحكم، هل يعتمدون النظام الديموقراطي أم يستمرون في الحكم العسكري؟ فلجؤوا الى أحمد لطفي السيد "وكنا نحترم رأيه فطلبنا مشورته، فاقترح علينا إلغاء الأحزاب والسير في طريقنا كما بدأناه".

(6) كان محمد حسين هيكل رئيسا لمجلس النواب آنذاك.

(7) يقول خالد العظم في مذكراته انه تلى على ممثلي الدول العربية في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة الذي انعقد في باريس عام 1948 خطابا بمناسبة اغتيال الكونت برنادوت، وكان حاضرا وزير خارجية مصر وهو وخشبة باشا ومحمود فوزي مندوبها الدائم وسفيرها بباريز أحمد ثروة، وأحمد الداعوق سفير لبنان في فرنسا، والامير فيصل، وقد اشتد الجدل حول استعمال كلمة قتل في وصف جرم اليهود، فاقترح محمود فوزي أن تستبدل بكلمة موت، فقال له العظم لم أنت متخوف من هذه الكلمة بينما لم يتورع اليهود عن القتل نفسه؟ وظل محمود فوزي يسانده وخشبة باشا يجادل حتى اضطر خالد العظم لترك الجلسة وتلاوة خطابه دون تعديل. (ص55 الجزء الاول) ومن الجدير بالذكر ان محمود فوزي كان نائبا لرئيس الجمهورية جمال عبد الناصر عند وفاته، ثم أصبح رئيسا للوزارة الاولى التي ألفها السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية.

ان غياب الديموقراطية، وقيام الحكم البوليسي الرهيب، مكن الأعداء من وضع العالم العربي في الفراغ والمتاهات والجهل لحقيقة ما يجري وسوف يجري، ومن فرض الحصار النفسي والفكري على الانسان العربي، وبلغت الأمور حدا أبعد من هذا وأبشع، ففي كارثة 1948 خرج الشعب العربي غاضبا يتهم الحكام أما في كارثة 1967 فقد خرج بعض الحكام يتهمون الانسان العربي بالقصوروالعجز والتخلف.

يقول ييغال الون في كتابه انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي:

ان اسرائيل تحظى بميزة تفوق وحيدة بارزة هي مبناها الاجتماعي ونظام حكمها السياسي، فاسرائيل دولة ديمقراطية اشتراكية تقف أمام أنظمة حكم متخلفة ارستوقراطية، اوتوقراطية، استبدادية مطلقة، وديكتاتورية مصابة حتى الصمم بالفساد الطبقي والشخصي.

تطورات قضية فلسطين في الأسابيع التالية للهدنة الثانية

في غضون الأسابيع القليلة التي تلت اقرار الهدنة الثانية وتوقف اطلاق النار من الجانب العربي فقط على جميع الجبهات حدثت الامور التالية:

اولا: لم توقف قوات المجاهدين القتال.

على الرغم من توقف القوات العربية النظامية عن القتال في جميع الجبهات فان قوات المجاهدين غير النظامية استمرت في القتال في القدس مما جعل الوسيط الدولي يصب جهوده في اتصالاته مع الجامعة العربية لتجريد القدس من السلاح ومراقبة الهدنة، فوافقت الجامعة العربية على تجريد القدس من السلاح بينما رفض اليهود ذلك.

كما استمر القتال الشديد بين اليهود وقوات جيش الانقاذ التي تغلغلت عميقا في الجليل، بعد أن فتحت طريق بليدا والمنارة والعدسية ومرجعيون، فوصلت الى تلال تشرف على سهل البطوف وصفورية، كما وصلت قوات جيش الانقاذ الى مرتفعات الليات غربي مجد الكروم التي تشرف على عكا ونهاريا، ووصلت ايضا الى تلال صفد في الشرق، وبذلك أصبح اليهود رغم احتلالهم المدن الرئيسية في الجليل: حيفا، عكا، صفد، ومعظم المراكز التي تهيمن على طرق المواصلات مع جنوب لبنان، في

وضع يضطرهم لخوض معارك ضارية مع قوات جيش الانقاذ للدفاع عن مواقعهم في هذه المنطقة، لذلك راحوا يشنون الهجمات على فصائل جيش الانقاذ التي سلكت حرب العصابات. لكن هجماتهم كانت تبوء بالفشل، وأصبح جيش الانقاذ خطرا حقيقيا على الاحتلال اليهودي للجليل، وكان ذلك مصداقا لما أوردته سابقا عن أهمية الجليل الاستراتيجية وقابليته الكبيرة لحرب العصابات.

2- اغتيال الوسيط الدولي الكونت برنادوت

بعد الهدنة الثانية قام برنادوت بعدة اتصالات مع العرب واليهود، وأخذ نشاطه ينحصر بقضية اللاجئين الفلسطينيين واسعافهم وقضية مراقبة الهدنة، أما موضوع حل القضية فقد صار في الصف الثاني من اهتماماته بعد أن بعث بتقريره الى هيئة الأمم المتحدة الذي عرض فيه مقترحاته النهائية لحل القضية الفلسطينية، تلك المقترحات التي أدت لاغتياله.

ففي ليلة 17 أيلول 1948 اغتال اليهود برنادوت ومساعده الفرنسي في القدس، بعد ان اطلعوا على مقترحاته التي تنطوي على اخراج النقب والقدس والجليل من أيديهم وعودة اللاجئين الى ديارهم والتعويض عليهم وجعل حيفا ميناء حرا، واعطاء العرب منفذا الى البحر ومنفذا آخر الى مطار اللد، فحقدوا عليه واغتالوه وكانت قضية النقب والجليل من أهم أسباب اغتياله. وقد أبدت الحكومات العربية تفجعا وحزنا كبيرا على اغتيال نرنادوت حتى أنها نكست الأعلام حدادا عليه، وكان هذا الاغتيال دليلا على استهتار الصهاينة بالأمم المتحدة، ولكن الجريمة على بشاعتها لم تهز الضمير العالمي ولم تغير من واقع الأمر شيئا.

3- نشوء حكومة عموم فلسطين

قررت اللجنة السياسية العربية في اجتماعات ايلول 1948 انشاء حكومة عربية فلسطينية أسوة باليهود. ووافقت الحكومات العربية على ذلك باستثناء الاردن الذي أبدى معارضة عنيفة واستخدم كل الوسائل الممكنة لعرقلة ذلك.

لكن الهيئة العربية العليا، والدول العربية التي كان يهمها احباط مشروع [7] دمج القسم العربي من فلسطين بالاردن، أي سوريا ومصر والمملكة العربية السعودية، شجعت قرار انشاء حكومة عربية فلسطينية.

وفي 23 ايلول 1948 أعلنت حكومة عموم فلسطين في غزة برئاسة أحمد حلمي عبد الهادي وتم ابلاغ الحكومات العربية والجامعة العربية بذلك ودعي حوالي 150 شخصا من الفئات التي تمثل فلسطين لعقد اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني في غزة برئاسة الحاج أمين الحسيني، وقد انعقد المجلس ومنح حكومة أحمد حلمي عبد الهادي ثقته، كما قرر شكل علم الدولة وأقر دستورا مؤقتا لها.

ولكن في اليوم نفسه الذي انعقد فيه المجلس الوطني الفلسطيني في غزة، أي في 1تشرين الاول 1948، عقد الملك عبد الله اجتماعا لمجلس وطني فلسطيني آخر في الضفة الغربية سمي مؤتمر أريحا، وشنت مصر وسوريا حملات ضد مؤتمر اريحا فكان رد الملك عبد الله ان جعل مجلس النواب ومجلس الاعيان الأردنيين يعقدان اجتماعا مشتركا يقرران فيه "الموافقة على توحيد فلسطين والاردن واعلان الملك عبد الله ملكا عليهما".

أما في الميدان العسكري فقد استصفى الهيود جميع النقب تقريبا وحصروا الجيش المصري في شقة غزة الضيقة، وطاردوا فصائل جيش الانقاذ في الجليل، ثم توغلوا في الاراضي اللبنانية واحتلوا عشرين قرية منها ظلت في أيديهم رهينة الى أن عقد لبنان معهم الهدنة الدائمة، ثم انتهزوا فرصة سوء العلاقات بين الملك عبد الله وحكومات الجامعة العربية المؤيدة لانشاء حكومة عموم فلسطين في غزة، فقاموا بالتقدم نحو خليج العقبة، واحتلوا المنطقة الواقعة على هذا الخليج من ناحية النقب، فغدا النقب من أوله الى ساحله في ايديهم..

(7) وهو أحد مقترحات برنادوت، وقد لاقى دعما كبيرا من بريطانيا

أما حكومة عموم فلسطين فقد رفضت هيئة الأمم المتحـدة قبولهـا فـي عضـويتها، ثـم سـارت هـذه الحكومـة فـي طريـق الاضمحلال تدريجيا حتى لم يعد يسمع بها أحد.

38

1948: التضييق على الحريات بعد كارثة فلسطين

اعتقال ميشيل عفلق

كان حكم القوتلي يزيد من تشديد قبضته ورقابته على وسائل الاعلام وتضييقه على الحريات كلما تصاعدت واشتدت معارضة حكمه المدان بالفساد والاستغلال وتأكدت مسؤوليته عن كارثة فلسطين، وقد اتسع نطاق هذا التشديد حتى وصل الى قاعة المجلس النيابي، فأصبح المجلس ساحة عراك بين المعارضة والموالين من نواب العشائر والاقطاعيين المتنفذين والانتهازيين.

وفي شهر ايلول 1948 أصدر حزب البعث العربي بيانا يصف فيه نظام القوتلي بأنه "يمثل مصالح الاقطاعيين وعقليتهم ويعتبر الدولة ملكا خاصا لهم ولذويهم وحواشيهم الذين يرون أن الشعب وجد ليكون مستعبدا مستثمرا" كما جاء في البيان: "ان معركة فلسطين كانت مناسبة لظهور بعض المؤامرات التي كان الجيش أول ضحاياها" ويصف أعضاء وزارة مردم الجديدة بأنهم "من الذين عافتهم البلاد وخذلتهم في الانتخابات النيابية خذلانا اجماعيا حتى اضطروا لكي ينجح بعضهم في الانتخابات التكميلية الى استعمال التزوير العلني بقوة السلاح" كما أشار البيان الى الاعتداء المتكرر على حرمة الدستور.

وما ان قرأت البيان حتى أخبرني بعض طلاب الحزب الجامعين بنبأ اعتقال ميشيل عفلق، وفي جلسة المجلس التي عقدت بتاريخ 1948/9/18 وأثناء تلاوة جدول الاعمال أثرت قضية اعتقال عفلق فحاول الرئيس منعي من الكلام بحجة التقيد بجدول الاعمال، ولكنني تابعت الكلام دون الالتفات الى معارضته وقلت:

ان الانتقادات التي كانت توجه من قبل بعض الناس الى الرجالات المسؤولين في الحكومات السابقة اقسى وأمر بكثير مما ورد في المنشور المذكور وعليه اسأل الحكومة عن سبب هذا الاعتقال والفت نظرها الى ان الحريات العامة مصونة بالدستور

وانني لعلى يقين من أن مثل هذا المنشور لا يستوجب الاعتقال حتما حتى ولو ظهر بالعهد الحميدي فكيف ونحن الان في ظل جمهورية شعبية ديمقراطية في بلاد مستقلة تتمتع بحرياتها كاملة وعليه فلا يجوز لنا بشكل من الاشكال ان نمر بهذه الاعتقالات دون ان نوجه الى الحكومة مثل هذا السؤال، كما اتساءل من جهة اخرى هل يفهم من نصوص قانون الاحكام العرفية ان تصادر الصحف مرارا وتكرارا من اجل مواضيع لا تتعلق بانباء الجيوش في فلسطين فالرقابة قد تعدت حدودها واصبحت مقصورة على حماية بعض الاشخاص وقد رأينا ان صحفا عطلت وصحفا اخرى صودرت اعدادها فلا يسعنا والحالة هذه ان نسكت عن هذه الامور، لقد صودرت اعداد جريدة المنار [1] لاسباب خارجة عن موضوع فلسطين وتنقل الجيوش العربية في فلسطين فانا الفت نظر الحكومة الى وجوب التقيد بالقانون الصادر عن هذا المجلس والذي حصر الرقابة فجعلها مقتصرة على الانباء العسكرية وما يتناول القضية الفلسطينية، فالصحف يجب ان تتمتع بكامل الحريات ولا سيما ان اكثر اعضاء الحكومة قد ذاقوا من الاضطهاد ما ذاقوا سواء في العهد التركي او الفرنسي فاحرى بجماعة ذاقوا من الاضطهاد الوانا ان يكونوا أبعد الناس عن اضطهاد خيرة الشباب المثقف في البلاد وانا أقول بكل اخلاص وتجرد ان الاستاذ ميشيل عفلق واخوانه هم من طليعة الجيل الجديد فلا يجوز لنا ان نضيق صدرا بانتقادات توجه الى الحكومة سواء منهم او من غيرهم.

وبعد الانتهاء من تلاوة جدول الاعمال كانت الحكومة، بالاتفاق مع الأكثرية البرلمانية متهيئة للهجوم على المعارضة كوسيلة من وسائل الدفاع عن نفسها تجاه مخالفتها الدستورية التي ارتكبتها حين امتنعت عن عقد دورة استثنائية للبرلمان في الموعد المحدد الذي ينص عليه الدستور، فألقى منير العجلاني وزير المعارف كلمة مطولة حمل فيها على المعارضة، مبررا المخالفة الدستورية التي ارتكبتها الحكومة وهذه عينة من كلامه: "يقول بعضكم: كيف تجرؤ الحكومة على مخالفة المجلس في

(1) جريدة الاخوان المسلمين.

عقد الدورة الاستثنائية في الموعد المحدد... فأنا أجيبهم جواب عمر عندما حل ببلد فيها مرض متفش حيث قيل له: اتفر من قضاء الله؟ فقال: نعم من قضاء الله الى قضاء الله. ولقد هربت الحكومة من النواب الى النواب".

ثم تقدم النواب الموالون بعريضة موقعة سلفا من 49 نائبا يحملون بها على المعارضة لأنها قاطعت جلسة اداء الرئيس القوتلي اليمين الدستورية بعد تعديل الدستور لتجديد ولايته، طالبين صرف النظر عن بحث المخالفة الدستورية، متذرعين بان حالة البلاد لا تسمح بالمهاترات والمناقشات البيزنطية.

ولما منع نواب المعارضة من الكلام اصبح المجلس ساحة عراك وشجار وشتائم وقد وصفت الصحافة الحالة بقولها: "أصبح البرلمان ساحة معركة في لمحة خاطفة. ذلك ان الدكتور عبد الوهاب حومد (المعارض) حاول أن يلقي كلمته وراء الميكروفون، غير ان السيد عادل العجلاني (موال) خرج ليسبقه اليه. وهنا تدخل اكرم الحوراني وحصل شجار ولكم وصفع، وكانت الكراسي تتطاير في الجو كما يتطاير السباب والشتائم، وترتفع الايدي وتلعلع الاصوات".

وقد تمكنت الحكومة رغم ذلك أن تطوي مسألة مخالفتها الدستورية بالارهاب الذي فرضته حتى على المجلس النيابي على أنها لم تتمكن من أن تطوي مسألة اضطهاد الحريات.

ففي الجلسة البرلمانية التالية، التي عقدت بعد ثلاثة أيام. اثار نواب المعارضة قضية مصادرة الصحف الدمشقية عندما تصل الى المحافظات، وقضية المراقبة العسكرية على الصحف التي تحذف حتى الانباء الداخلية، وقضية اعتقال ميشيل عفلق فأجاب وزير الداخلية صبري العسلي بصددها قائلا "ان منشوره كان فيه قدح وذم واتهامات ودس، وأنه أحال أمره الى القضاء بعد توقيف24 ساعة مكرما معززا وسيقول القضاء كلمته فيه".

لكنني لم أقنع بهذا الجواب فوجدتها مناسبة لان أثير قضية احترام الحريات، وقضية فلسطين دون سائر الأمور التي تصرف الناس عنها، فقلت:

انني أشكر معالي وزير الداخلية على صراحته واعترافه بان المصادرة تشكل مخالفة قانونية، وانه كان يتوجب تطبيق احكام القانون بالنسبة للصحف التي تتعدى أحكام الرقابة وقد وعد معاليه بان الرقابة ستنحصر بالامور العسكرية وقضية فلسطين واحب هنا ان الفت النظر الى أمر هام وهو مراقبة ضبوط مجلس النواب وهذا لم يسبق له مثيل ويذكر الاخ السيد صبري العسلي بانه في زمن الحرب لم تكن ضبوط جلسات مجلس النواب خاضعة للرقابة ولا ادري هل نتقدم في هذا المضمار ام نتأخر كلما تقدم بنا الزمن، ولا بد لي من الاعتراف بالواقع وهو ان الحريات العامة لم تمر بوقت اضطهدت فيه كما هي مضطهدة الان في هذه البلاد والزملاء والشعب يشعرون بهذا الاضطهاد المريع للحريات العامة، ولا يخفى على معالي وزير الداخلية بانني لا أعترض على سوق انسان الى القضاء اذا كان مخالفا للقانون ولكني أعتقد بانه يقر معي بان الاستاذ عفلق لم يتعد في انتقاده المذكور في منشوره الذي أصدره ما ذكره بعض رجالنا المسؤولين من انتقادات لرجال الحكومة السابقة واذا قسنا منشور السيد ميشيل عفلق الى تهجمات المسؤولين في هذه الوزارة على الوزارة السابقة وجدنا انه لا يعد شيئا مذكورا، ولا أظن ان مثل هذا المنشور يصدر في ظل نظام جمهوري ديمقراطي يؤدي الى ان يزج بصاحبه في السجن، ولا يمكن ان تبرر هذه الحادثة ايضا بانها نتيجة مخالفة للقانون او ان صاحب المنشور احيل الى القضاء بسببه، وأحب ان اروي لكم مثالا لتدركوا ان الحرية مضطهدة عندنا فعندما كنت في حماة دعاني بعض القرويين لزيارتهم في احدى القرى وتحدثوا الي وتحدثت اليهم فما كان من الحكومة الكريمة الا ان ذهبت الى تلك القرية وأخذت تستجوب الفلاحين وتسألهم لماذا استقبلتم اكرم الحوراني وتحدثتم اليه؟! وانني استحلفكم بالله هل يجوز ذلك في ظل حكم جمهوري وأن يلاحق نائب اذا ما اتصل بناخبيه فيسأل هؤلاء الناخبون ثم تعمد الادارة الى سوق أحد الفلاحين واخراجه من قريته واضطهاده لانه اتصل بي وحدثني وحدثته، وانني اقول للحكومة بكل صراحة ان اضطهاد الحريات العامة مما يوقع الفتن ويلقى مسؤليتها على مضطهدي الحريات ولا يمكننا بشكل من الاشكال ان نسكت على هذه التصرفات

الشاذة، واذا استمرت الحكومة على هذا الاسلوب فانني على استعداد لان أذهب الى كل مدينة وقرية واتحدث الى الاهلين واجتمع اليهم واعقد الاجتماعات مهما كلف الامر والمسؤولية بعد ذلك لا تقع الا على عاتق المسؤلين المضطهدين للحريات، وأقول بكل هدوء للحكومة بأن اضطهاد الحريات العامة لعب بالنار وليس قضية بسيطة وانني باسم المحافظة على استقلال هذه البلاد وباسم المحافظة على النظام الجمهوري أهيب بالمسؤلين ان لا يتعدوا حدود المنطق ولا يوقعوا البلاد في مآزق هي في غنى عنها لا سيما في هذه الظروف الحرجة.

والمجال الان لا يتسع لبحث قضية فلسطين ولكنها وصلت كما يعلم الزملاء من مطالعة الصحف الى مأساة وهذه المسرحية التي مثلت على حساب دماء العرب وخيرة شباب هذه الامة قد انكشف الفصل الاخير منها حينما اعلنت بريطانيا موقفها بكل صراحة، وكما أن مسؤولية الاشتراك في هذه المأساة وكما أن المتأمرين افتضح أمرهم أمام العيون فلا مجال والحالة هذه الى الايغال في اضطهاد الحريات العامة ولا مجال لزج البلاد في مآزق هي في غنى عنها في مثل هذه الظروف الحرجة.

□

بعد اعتقال ميشيل عفلق بأربع وعشرين ساعة حكم القضاء السوري ببراءته، كما أصدر بتاريخ 48/9/23 قرارا بتبرئة الشيوعيين يوسف فيصل وبهجت بكداش - شقيق خالد بكداش - من تهمة قتل الطالب صلاح جعفري الذي استشهد أمام مكتب الحزب الشيوعي بدمشق يوم 47/11/30 أثناء المظاهرات الصاخبة التي قامت آنئذ احتجاجا على قرار تقسيم فلسطين.

39

1948: ثـلاث هجمـات اسـتعمارية اقتصـادية علـى سورية.

أصـبحت سـورية فـي فتـرة مـا بعـد الجـلاء هـدفا للصـراع والتنافس على النفوذ بين الدول الكبـرى الـثلاث الولايـات المتحـدة وبريطانيا وفرنسـا، مما سـيكون له أثر بالغ على الاحـداث التاريخيـة في المستقبل القريب والبعيد، فمنذ عام 1947 كتبت فـي جريـدة اليقظة (العدد 181 1947/3/23) افتتاحية قلت فيها:

"ليسـت معلوماتي رائعة عن القنبلة الذريـة، طولهـا وعرضـها وحجمهـا ووزنهـا وقدرتها على التخريب، ولكنني موقن بأنها أبشع ما يمكن ان تقع عليه العـين وخاصة اذا احتكرتها خزائن شعب جبار كالولايات المتحدة ... هذه القنبلة كانت مصدر الوحي للرئيس ترومان في خطابه الأخير.

لقد اسـتنكفت الصحافة العربيـة عـن التعقيـب علـى هـذا الخطـاب، ولا يسعني سوى القول بأن ذلك كان تقصيرا فاضحا من جانبها بحق الـرأي العـام في أخطر ظرف مر بالبلاد العربيـة بعـد الحـرب، لأن هـذا الخطـاب يعتبـر اعلانـا رسـميا لعـزم الولايـات المتحـدة علـى التـدخل فـي شـؤون العـالم والشـرق الأوسط...

ولكن على أي أساس سيكون هذا التدخل؟

كل ما نـراه ان السياسـة الأميركيـة تعتبـر الاتحـاد السـوفيتي خطرا على البلاد العربيـة وتتطـوع لحمايتهـا مـن هـذا الخطـر، ولكـن الحياد يملـي علينـا نحـن العـرب أن نصـرح اننـا لـم نشـعر يومـا بهـذا الخطر، وانه لا يسعنا الاقتناع بوجوده لمجرد ادعـاء المسـؤولين فـي الولايات المتحدة، ومهما سـمحنا لانفسـنا بالـذهاب مـع هـذا الادعـاء فانه لا يسعنا القول الا ان الاتحاد السوفيتي خطر بالقوة بينما سواه خطر بالفعل، وما الذي يشجع الاتحاد السوفيتي على التـدخل فـي شـؤون الشرق الأوسط الا ان موارده في يد غيـر أهلـه، وان القـائمين علـى اسـتثمار هذه الموارد، وفي طليعتها البترول، لا يرون لنـا غيـر وظيفـة الأجيـر او الحمـال كما صرح بذلك مسؤول اميركي في معرض حديثه عن البتـرول العربـي، وغيـر

هذا الضغط الشديد على الحريات في اقطار عربية شتى، وهذا التجاوز على حقوق العرب كما هو جار في فلسطين؟

ان التقاء العرب مع السياسة الاميركية على مسرح الشرق العربي رهن بالاتجاه الذي تنتهجه هذه السياسة، فاذا كانت الولايات المتحدة تريد ان تدخل كعنصر مرن وعصري وحضاري في جسد السياسة البريطانية المتخشب وتضع حدا لأخطائها المؤذية وتكفكف من ظمئها الى دم الاقتصاد العربي، ونعني به البترول، فليس متعذرا ان يقبل العرب هذه السياسة الاميركية.

واما اذا كانت الولايات المتحدة تريد التدخل لانقاذ الاستعمار البريطاني الذي لم يعد يقوى على الوقوف في وجه ارادة التحرر في الوطن العربي، واذا كانت قد تأذت من اعراب هذه الارادة عن نفسها واعتبرت ان الطفل العربي قد اسرف في الدلال، فالمصير المحتوم لسياستها هو الفشل الذريع والاخفاق سواء رشتنا بالقروض، أو تحدت الضمير العالمي باستعمال وسائل العنف ضدنا..

ذلك ان الانسان قد انتصر دائما على الموت، وان العرب يعرفون عند الحاجة ان يحموا انفسهم من الموت بالاقبال عليه.

□

في الربع الأخير من عام 1948 بدأت الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية بالضغط على حكم القوتلي لتصديق اتفاقية مرور أنابيب شركة التابلاين من سورية وقد تم توجيه أجهزة الاعلام في سورية ولبنان للدعوة لهذه الاتفاقية، والترغيب بعقدها، وان مذكرات محسن البرازي [1] التي صدرت فيما بعد تشرح بالتفصيل ضغط الملك عبد العزيز واستخدامه علاقاته الشخصية مع شكري القوتلي لعقد الاتفاقية، وتبرمه من الابطاء

(1) رأيت هذه المذكرات في بيروت أوائل السبعينات مطبوعة في كتيب صغير، وفي عام 1994 نشرت الدكتورة خيرية قاسمية الطبعة الاولى من المذكرات استنادا على نسخة مصورة وعلى اعداد جريدة الحياة التي نشرت المذكرات في بداية عام 1953... ومن الجدير بالذكر ان الاطروحة التي قدمها محسن البرازي في باريس لنوال الدكتوراه كانت بعنوان الاسلام والاشتراكية.

في عقدها، وعدم تفهمه ما يلاقيه نظام القوتلي من مقاومة وصعوبات في هذا السبيل.

□

في الوقت الذي كانت تتعرض فيه سورية للضغط الاميركي، كانت بريطانيا تقوم بتمديد خطوط البترول من كركوك الى بانياس على الساحل السوري، وبناء مصب في بانياس، مستندة الى اتفاقية الاي بي سي التي تجيز لها تمديد الخطوط النفطية وبناء الموانىء والمطارات والمصافي دون ان تحتاج الى امتيازات جديدة، والسبب في وضع سورية بكاملها تحت تصرف هذه الشركة بموجب هذا الامتياز الشاذ الذي لم يسبق له مثيل، هو ان فرنسا المنتدبة على سورية كانت تملك (قبل تأميم البترول العراقي) 25% من أسهم هذه الشركة، وهي التي عقدت هذا الامتياز الذي لم يقترن بتصديق الجانب السوري، ولم يجر تعديل هذا الامتياز العجيب مع الشركة الا في عام 1955.

□

أما بالنسبة الى فرنسا، فقد كان اكثر ما يعنيها، بعد أن جلت عن سورية ولبنان، هو المحافظة على مصالحها الاقتصادية وامتيازات شركاتها في البلدين الشقيقين وقد ذكرت فيما سبق كيف ان فرنسا عندما احتلت سورية ولبنان اثر الحرب العالمية الأولى انشأت في بيروت ما أسمته "المفوضية العليا" التي كانت الادارة المركزية لكافة شؤون البلدين السياسية والتعليمية والادارية والاقتصادية والمالية وشؤون الجمارك والنقد والشركات ذوات الامتياز والجيش، كما كانت مرجعا تشريعيا في كل الامور والقضايا بما فيها الاوقاف الاسلامية، وكان المفوض السامي حاكم البلدين يدير هذه المصالح بما يتفق مع السياسة الاستعمارية الفرنسية.

وعندما اعلن استقلال البلدين واستلمت الادارة الوطنية فيهما كافة الصلاحيات من الجنرال كاترو عام 1944 (ما عدا الجيش) اهتزت أوضاع هذه المصالح المشتركة التي انتقلت الى

ادارتين مرتبطتين بالاوضاع الداخلية في كلا البلدين، وبالمصالح الطبقية للفئات الحاكمة في كل منهما.

كان السوريون يريدون بناء كيان اقتصادي وطني مستقل بينما كان التجار اللبنانيون يريدون الاستمرار كوسطاء بين المصدر الاجنبي والمستهلك السوري واللبناني. كما كان لبنان يسير في طريق الاقتصاد الحر كبلد سياحة واصطياف بينما كانت سورية تريد أن تسير بتوجيه اقتصادها في طريق التنمية واستغلال مواردها الطبيعية.

لقد تمكنت الصداقات الشخصية التي كانت تجمع ما بين حكام سورية ولبنان ان تجعل الأوضاع تسير بقوة الاستمرار ثلاث سنوات أخرى بعد الجلاء، لكن فرنسا التي شعرت بأن مصالحها الاقتصادية بعد زوال الانتداب في سورية قد أصبحت معرضة للخطر، رأت أن تحافظ عليها وتكفل استمرارها عن طريق التعاقد مع لبنان أولا، لذلك عقدت اتفاقية بتاريخ 1948/1/26 أقرها مجلس النواب اللبناني في أيلول 1948 بعد معارضة كان على رأسها كمال جنبلاط وكميل شمعون الذي قال بأن عقد هذه الاتفاقية يدل على أن النفوذ الفرنسي لا يزال قائما في الشرق الاوسط، وقد حفظت هذه الاتفاقية لفرنسا كامل مصالحها الاقتصادية والنقدية بما فيها امتياز شركاتها في لبنان.

لقد أرادت فرنسا من هذه الاتفاقية مع لبنان ان تمهد لاتفاقة مماثلة مع سورية، وفيما يتعلق بموقف الحكومة السورية فان حميد فرنجية وزير الخارجية آنذاك قد صرح: "ان الحكومة السورية كانت مؤيدة للتفاوض بل ومطلعة على مراحل المفاوضات وموافقة عليها" كما قال: "ان سورية اشتركت في هذه المفاوضات وان الاتفاقية وضعت بمعرفتها" ولكن الحكومة السورية لم تجرؤ على توقيع اتفاقية مماثلة للاتفاقية اللبنانية الفرنسية بسبب المعارضة العنيفة وبسبب ظرف كانت تتحمل فيه مسؤولية كارثة فلسطين، لذلك اعلنت استقلال النقد السوري عن الفرنك، وبالتالي استقلاله عن النقد اللبناني، وأعلنت تنصلها من

المشاركة في الاتفاقية النقدية اللبنانية الفرنسية او من موافقتها عليها.

لقد لعب الاقتصاديون السوريون مع المعارضة دورا هاما في الضغط على الحكومة لاتخاذ هذا الموقف، فقد كان الشعب السوري يتجه الى بناء اقتصاد وطني مستقل وكانت البرجوازية السورية بما تشمله من صناعيين وتكنوقراطيين ترى ان مصالحها تتحقق مع هذا الاتجاه الاقتصادي، وكان مؤتمر الاقتصاديين في 48/9/10 برئاسة وزير الاقتصاد [2] وهبي الحريري أحسن تعبير عن اتجاه البورجوازية السورية الناشئة بعد الحرب وانسجام مصالحها مع بناء اقتصاد وطني مستقل، فقد خرج المؤتمرون ببيان اعربوا فيه عن ضرورة الحد من الاستيراد وحماية الثروة الزراعية والصناعية القطنية واستغلال الثروات الطبيعية الخ... كما أعلنوا معارضتهم لاتفاقية النقد اللبنانية الفرنسية.

أما تجار لبنان فقد عقدوا مؤتمرات عديدة وقاموا بنشاط واسع تؤيدهم الحكومة اللبنانية لفتح باب الاستيراد على مصراعيه، والمطالبة باستقلال لبنان الاقتصادي مع تأييد الاتفاقية اللبنانية الفرنسية.

كان موقف وهبي الحريري معبرا عن مصالحه - بصفته صناعيا - كما كان في الوقت ذاته يهدف الى كسب ود المعارضة الوطنية التي كانت تطالب دوما بالحد من الاستيراد والسير في طريق الاقتصاد الموجه.

أما الحكومات السورية التي تعاقبت فكانت تتنصل من مسؤولية السياسة الجمركية المتبعة بحجة الشراكة مع لبنان

(2) نشأ وهبي الحريري في حلب وكان ذكيا فقيرا مغمورا لم يتمكن من اتمام تحصيله الثانوي ولكنه أصبح فيما بعد أثناء الحرب العالمية الثانية رأسماليا وصناعيا كبيرا نتيجة لمغامراته التجارية، وهو الذي تولى تمويل قائمة سعد الله الجابري في انتخابات عام 1943 في حلب، ولم يكن هو وزملاؤه الصناعيون والرأسماليون الحلبيون حتى من كان في عداد الكتلة الوطنية اولا ثم الحزب الوطني فيما بعد من يعتبر من رجال القوتلي لأنهم يعتبرون حكم القوتلي أسيرا لمصالح الطبقة البورجوازية الدمشقية.

في ادارة الشؤون الجمركية وعدم تمكنها من تسيير السياسة الاقتصادية في الطريق الوطني السليم.

ان الغرب عموما وفرنسا خصوصا قد بدأ يسعى لتفجير التناقض بين سياسة سورية ولبنان الاقتصادية، مما أدى أخيرا الى انهيار الوحدة الاقتصادية التي كانت قائمة بينهما في ظل الانتداب ليبقى لبنان معتمدا في اقتصاده على الخدمات بدلا من اعتماده في الدرجة الاولى على استثمار ثرواته الطبيعية ليبقى سوقا استهلاكية وممرا رئيسيا للبضائع الغربية الى كل المنطقة العربية وحكرا لاستثمار رساميل الغرب وشركاته وأجهزته السياسية والاعلامية في المنطقة.

لقد رافق الاتفاقية النقدية اللبنانية الفرنسية واستقلال النقد السوري انخفاض في قيمة العملة السورية بالنسبة للعملة اللبنانية بسبب تدفق التجار السوريين على الأسواق اللبنانية للحصول على البضائع المتوفرة فيها والتي أدت التدابير الاقتصادية الوطنية في سورية الى التضييق على استيرادها، فأصبح سوق النقد السوري - منذ ذلك الوقت - خاضعا في لبنان لقانون العرض والطلب بعد ان حجزت فرنسا فرنكاتها عن سورية اثر اعلان استقلال النقد السوري وفك ارتباطه بالنقد الفرنسي.

وان بعض الارقام الاحصائية البسيطة يمكن أن توضح لنا الصورة الحقيقية لتآمر فرنسا مع الطبقات الوسيطة المستغلة اللبنانية على تدمير الاقتصاد السوري وابقاء سورية بلدا متخلفا عاجزا عن التحرر الاقتصادي.

لقد استورد لبنان من البضائع خلال الأشهر الستة الأولى من عام 1948 ما قيمته (الرسمية) 240 مليون ليرة في الوقت الذي صدر فيه ما قيمته 22.5 مليون ليرة أي أن عجز ميزان التجارة الخارجية خلال النصف الأول من تلك السنة بلغ 217.5 مليون ليرة وتكون النتيجة ان البلدين سيخسران من ثروتهما القومية في عام 1948 وحده 435 مليون ليرة وهو عجز ميزان التجارة الخارجية لتلك السنة.

لقد بدأت أرقام العجز بعد جلاء الفرنسيين عن سورية ترتفع باطراد ففي عام 1944 كانت 47 مليون ليرة ثم أصبحت 97 مليون ليرة عام 1945 وارتفعت الى 181 مليون عام 1946 والى 435 مليون عام 1948، وقد كان السيد (بواسون) الفرنسي مدير بنك سورية ولبنان وراء التوجيهات والمفاوضات والمساومات خلال عقد الاتفاقية اللبنانية فأكثر من ذهابه وايابه بين دمشق وبيروت.

□

في تلك الفترة وبتاريخ 1948/10/5 تقدمت باستجواب للحكومة عن القضايا الخمس الاتية:

1- قضية النقد والشؤون المالية مع فرنسا والمفاوضات مع لبنان.
2- قضية المفاوضات البترولية مع شركة التابلاين.
3- قضية توزيع خبز الفقير على منطقة العلويين.
4- قضية تسرب اسئلة البكالوريا الى الطلاب.
5- قضية الضابط فؤاد مردم (الضابط المسؤول عن استيلاء اسرائيل على باخرة محملة بالأسلحة كانت سورية قد اشترتها لحسابها خلال حرب 1948)

وقد تبدو هذه القضايا الخمس على أهميتها وكأنها لا ترابط بينها والحقيقة ان ما يربطها هو تعرية النظام بانحرافاته تجاه أهم الأمور وأخطر القضايا.

1- استقلال النقد السوري والمفاوضات المالية مع فرنسا

لقد كان جواب الحكومة على هذا السؤال ما يلي:

1- ان ما يسمى بقضية النقد المعلقة بين سورية وفرنسا هي في الحقيقة دين على فرنسا لسورية ويجب تصفيته بأحسن الشروط، أما النقد السوري فقد أصبح مستقلا ولم يتأثر بتأخر البت في قضية الدين المذكور، اذ من البديهي ان قوة النقد لا تقاس بنوع التغطية بل بميزان البلاد التجاري في التصدير والاستيراد، وهذه أمور تعالجها الحكومة السورية بالاشتراك مع لبنان نظرا لما بينهما من وحدة اقتصادية.

2- على فرنسا دين لسورية ومن البديهي ان تجري بين الدائن والمدين اتصالات لتسوية الدين.
3- لم تقترن المباحثات السورية اللبنانية بعد بنتائج نهائية، ويتوقع اقترانها بالنتائج عما قريب.
4- ان خطة الحكومة في علاقاتها مع لبنان هي المحافظة على الوحدة الاقتصادية بشرط صيانة حقوق سورية في قضايا النقد والمدفوعات.

□

لقد كانت كل خطوة تخطوها سورية بعد الجلاء نحو التحرر الاقتصادي وبالتالي نحو التحرر الاجتماعي والسياسي تقتضي خبرة فنية، وكان الخبراء العالمون ببواطن الأمور يحتلون المراكز الهامة في الدولة، ولم يتوصل معظمهم الى هذه المراكز الا في ظل الانتداب الفرنسي، فكانت القيادات الوطنية تبذل جهدا في فهم القضايا الاقتصادية والشؤون المالية، ولا سيما قضايا النقد والبترول والشركات مما يقتضي اختصاصا وخبرة، في الوقت الذي كانت البلاد فيه مفتقرة للعناصر الوطنية ذات الاختصاص والخبرة، أما المختصون والخبراء فكان معظمهم من بنية النظام الذي اقامه الانتداب فكان فضح تآمرهم أصعب من فضح تآمر السياسيين وكشفهم... **كان لا بد لكل قضية من هذا النوع ان تطرح على الرأي العام وأن يجري بحثها وملاحقتها وكشف جوانبها وغوامضها وتعريتها أمام الشعب حتى يتمكن من خوض معاركها المظفرة، تساعده على ذلك التناقضات الدولية القابعة وراء هذه المصالح.**

لقد فجر استجوابي عن النقد والمفاوضات المالية بين فرنسا ولبنان، وقضايا السياسة البترولية وقضية الشركات ذوات الامتياز قضية اتفاقية البنك السوري:

فلقد اتضح اثناء المناقشة بأن اتفاقية المصرف السوري لا تعتبر نافذة حتى من الجهة الشكلية الا بعد تصديقها من المجلس النيابي السوري الذي حله المفوض السامي عام 1939 ليشكل حكومة المديرين، وبالرغم من ضرورة عرض هذه الاتفاقيات على

مجلس النواب بعد الجلاء، فان الحكومات المتعاقبة كانت تتهرب وتنجح في تهربها بسبب هيمنة الحاكمين على السلطة التنفيذية وعلى الأكثرية في السلطة التشريعية.

وكما هي العادة فقد طلب رئيس المجلس الموافقة على تأجيل البحث والاكتفاء بما قيل وانتظار جواب الحكومة ولكن المعارضة أصرت على الاستمرار في البحث والمناقشة فوقف رئيس الحكومة السيد جميل مردم طالبا انتظار تقرير الاختصاصيين الذين يدرسون مواضيع الشركات ذوات الامتياز.

وبما انني كنت صاحب الاستجواب فقد قلت في المجلس مخاطبا رئيس الوزارة:

"ان الاتفاقات والامتيازات لا تزال تنفذ فعلا والقول بأننا لم نوافق عليها قول هراء.

هذه الاتفاقات والامتيازات تطبق فعلا وتستثمر البلاد، فعلى الحكومة وعلى المجلس أن يقفا من هذا الموضوع موقفا حاكما حازما.

لقد اثرت هذا الموضوع في دورة تشرين الماضية، وتذكرون ان المجلس آنذاك قد أوجب على الحكومة أن تقدم نتيجة دراساتها الجدية وخطتها تجاه الشركات في دورة آذار، وبالرجوع الى ضبوط المجلس تتأكدون من ذلك.

لقد سمعت خلال غيابي في فلسطين، كما قرأت في الصحف ان الحكومة قد ألفت لجنة لدراسة وضع هذه الشركات وامتيازاتها، وهذا تهرب من الحكومة من تحمل مسؤولياتها، لأن دراسة أوضاع هذه الشركات هو من واجباتها لا من اختصاص النواب، وما ذلك الا بقصد المماطلة والتهرب من وضع خطة جدية للسياسة الاقتصادية.

انني سأقدم اقتراحا وسأطلب من المجلس أن يقره طالما ان الحكومة تتهرب، وهو يتخلص في أن نقف موقفا حازما من هذه الشركات والاتفاقات والامتيازات".

وهنا قام رئيس اللجنة البرلمانية التي أوكلت اليها الحكومة هذه الدراسة وهو النائب مصطفى برمدا [3] فقال ان اللجنة لم تنته بعد من الدراسات.

□

لقد كانت المفاوضات المالية مع فرنسا والمفاوضات الاقتصادية مع لبنان، واستقلال النقد السوري، جوانب أساسية بالنسبة للمصالح الاقتصادية الفرنسية ولكن الموضوع الأساسي الهام والحساس الذي قادت اليه المناقشات في هذه الجلسة هو موضوع اتفاقية بنك سورية ولبنان وموضوع الشركات ذوات الامتياز.

ومن المعروف ان أحد بنود الانذار الذي وجهه الجنرال غورو الى الملك فيصل كان يقتضي التعامل بالنقد الفرنسي، وان يكون بنك اصدار النقد بنكا فرنسيا، وهذا ما كان يقوم به بنك سورية ولبنان بعد الاحتلال بصفته بنك اصدار وبنك تجاري برأسمال فرنسي لا يتجاوز بضعة ملايين من الفرنكات، ثم أصبح هذا البنك يتصرف بمئات الملايين من ودائع الدولة والمواطنين فهيمن على اقتصاد سورية زراعيا وتجاريا وصناعيا، وبالتالي سياسيا، بأبشع صور الاستغلال والنهب الاستعماري، كما كان داعما لأعوان الانتداب من الطبقة الاقطاعية والرأسمالية فكان يقوم بتمويل مشاريعها واستثماراتها الزراعية والتجارية.

لقد استمرت الأحوال على هذا الشكل بالمماطلة والتسويف الى أن استقالت حكومة جميل مردم، وتألفت حكومة خالد العظم الذي كان وزير الاقتصاد فيها حسن[4] جبارة، فاستؤنفت المباحثات مع فرنسا في شهر تشرين الأول عام 1948 وانتهت الى الاتفاق الذي وقعته حكومة خالد العظم

(3) كان مصطفى برمدا رئيسا لمحكمة التمييز مدة طويلة قبل استقالته من الوظيفة ونجاحه في الانتخابات النيابية.

(4) حسن جبارة من ابناء لواء الاسكندرون، كان خبيرا بالشؤون الاقتصادية واسع الاطلاع رغم ان تحصيله لم يتعد الشهادة الثانوية، تدرج في وظائف الدولة المالية في عهد الانتداب مما أكسبه خبرة في الشؤون المالية، اعتمده سعد الله الجابري منذ 1943 خبيرا في الشؤون المالية والاقتصادية، ثم دفع به الى كرسي الوزارة، كذلك اعتمده خالد العظم فيما بعد.

بدمشق في 1949/2/7، ولكن معارضتنا في المجلس حالت دون اقرار هذه الاتفاقية المالية، التي تتناقض مع روح الاستقلال وحقوق السيادة.

بعد انقلاب حسني الزعيم في 49/3/29 أبرمت هذه الاتفاقية بمرسوم اشتراعي أصبحت بموجبه نافذة ومرعية الاجراء.

40

أواخر عام 1948: سورية بعد كارثة فلسطين، الحزب الوطني يميل الى سياسة التعاقد مع بريطانيا حماية لسورية من الاخطار، وحزب الشعب يدعو للاتحاد مع الدول العربية المستكملة شروط الاتحاد - والشعب العربي في سورية يتظاهر احتجاجا على موقف الدول العربية المتخاذل بينما كان الاسرائيليون يخرقون الهدنة.

استقالة حكومة جميل مردم:

في الفترة الأخيرة من وزارة جميل مردم التي انفرط عقدها بسبب استقالة أربعة من وزرائها، بالاضافة الى تحميلها من قبل الشعب والمعارضة مسؤولية كارثة فلسطين، كانت المعارضة تقدم الاسئلة والاستجوابات عن مشاكل عديدة، دون أن يقترن ذلك بنتائج محسوسة، وفيما يلي نماذج عنها:

توزيع خبز الفقير:

في جلسة 1948/10/5 علقت على هذا الموضوع بقولي:

"ان منطقة العلويين هي من المناطق السورية التي لا تنتج من الحبوب ما يكفيها ولكن الدولة لا تعيرها اهتمامها... ان القرى في تلك المنطقة لا تنتج الحبوب فلا يجوز ان يعطى ابناء المدن ويحرم ابناء هذه المناطق من خبز الفقير، وليس من العدل في دولة واحدة ان يوزع خبز الفقير على أغنياء المدن ويحرم منه فقراء القرى التي لا تنتج الحبوب الكافية لاعاشتها. ان منطقة اللاذقية بطبيعتها الجبلية من المناطقة السورية غير المنتجة للحبوب بصورة تكفي أهلها البذار والتموين حتى في سني الخصب، ولا يزال الريف السوري في أعوام القحط والجفاف يحتاج الى التموين والبذار.

فضيحة تسرب أسئلة البكالوريا والحكم البوليسي:

أصبحنا نشعر بعد كارثة فلسطين بأن الأنظمة البرلمانية قد بدأت تنحدر الى مهاوي الحكم البوليسي في المنطقة العربية كلها، فقدمت في المجلس سؤالا عن تسرب اسئلة البكالوريا

فأجابت الحكومة بأنها تجري تحقيقات لمعرفة الفاعلين وأنها ستحيلهم الى القضاء فعلقت على هذين الموضوعين بما يلي:

"ان جواب الحكومة غير مقنع لي بشكل من الأشكال لأنني واثق من صحة الحوادث التي سردتها في سؤالي، كما أنه ليس هنالك أي تحقيقات وعلاوة على ذلك فانني ألفت نظر الحكومة الى أمور خطيرة جدا تذكرنا بالعهد الحميدي فكثيرا ما تقوم مصلحة الأمن العام باجراء تحقيقات مع الاشخاص الذين يجلسون ويتحدثون معي ويمكنني أن اذكر اسماء هؤلاء الاشخاص وأسماء موظفي الأمن ايضا، وأنا اعتقد انه حتى في العهد الحميدي لم يكن يساء الى المواطن الذي يتحدث الى أحد النواب، وأضيف:

"ان هنالك طلابا في الثانويات يعملون لحساب مصلحة الأمن العام وهم موظفون لديها، كما ان هنالك طلابا في الجامعة السورية موظفون في الامن العام وهذا امر لا يجوز بشكل من الاشكال، لان للعلم قدسيته وهؤلاء الطلاب لا يجوز مطلقا استخدامهم في هذه المصلحة فرفقا بالطلاب والعلم ووقوفا عند حدود العقل والوجدان".

قضية فؤاد مردم

كانت قضية باخرة الأسلحة السورية التي استولت عليها اسرائيل تعبر بشكل بالغ عن العقلية التي كانت تتحكم بمقدرات البلاد والقضية العربية.

كان فؤاد مردم ضابطا في الجيش السوري وقد قبله الفرنسيون في الكلية العسكرية جريا على سياستهم بجعل الجيش وقفا على أبناء "الذوات" والوجاهات العائلية والاقليات العنصرية والدينية، ولم يكن فؤاد مردم من الضباط الذين التحقوا بالحكومة السورية خلال معركة الاستقلال عام 1945 بل كان من الذين بقوا مع القوات الفرنسية حتى نهاية الجلاء، وهو أحد المتهمين بالمشاركة في قصف مدينة دمشق خلال الأحداث، وكان قبيل كارثة فلسطين أحد الضباط الموثوقين من وزير الدفاع أحمد الشراباتي لقرابته من الرئيس جميل مردم فأرسله لعقد صفقة سلاح ليتم تهريبها من ايطاليا على احدى البواخر الى سورية لأن حظر السلاح كان عاما وشاملا لمنطقة الشرق

الاوسط بحجة التزام الدول بالحياد تجاه الصراع العربي الاسرائيلي، وقد تمكن اليهود من الاطلاع على أسرار الصفقة وعلى موعد ابحارها من ايطاليا، وبعد أن اتفقوا مع بحارتها استجروها الى فلسطين، وقد كشفت المخابرات الاسرائيلية فيما بعد عن تفاصيل هذه العملية، وعن أهمية الدور الذي لعبته هذه الصفقة في حرب 1948.

هذه خلاصة القضية التي قدمت للمجلس استجوابا بشأنها، بعد ان ذاع أمرها، وبالوقت الذي بقي فيه فؤاد مردم بالجيش طليقا دون أن يحقق معه، وكان جواب جميل مردم رئيس الحكومة على استجوابي:

"ان القضية عبارة عن مخالفة مسلكية" وسترد فيما بعد تفاصيل هذه القضية في المحاكمة التي جرت للمتهم فؤاد مردم.

تبرئة قاتل محمد علوش

في هذه الفترة بالذات برأت المحكمة قاتل الشهيد محمد علوش بداعي انه دافع عن نفسه دفاعا مشروعا بعد أن أطلق عليه الطلاب النار من مسدساتهم مع أن الطلاب الذين كانوا يرافقون الشهيد كانوا عزلا من السلاح، وكانوا لا يعرفون القاتل فايز عربي كاتبي من قبل.

كان حكما فاجرا مزورا للحقائق الصارخة في قضية أثارت مدينة دمشق وسورية احتجاجا واستنكارا.

لقد تمادى نظام القوتلي في طريق الارهاب حتى اصبح أمين سره ووزيره محسن البرازي لا يتورع عن ارسال ابن عمه فيصل البرازي مع بعض أزلامه للاعتداء على منير الريس صاحب جريدة بردى لأن محسن البرازي قد انزعج مما يكتب في هذه الجريدة التي لم يكتف بتعطيلها، ولقد فضحت هذه القضية عندما ألقى الجمهور القبض على المعتدي وسلمه الى الشرطة وكان هذا الاعتداء مبعث الاستنكار من الصحافة والناس.

قضية أزمة الوقود

فجرت هذه الاوضاع المظاهرات الشعبية التي كانت تعم البلاد كلها بصورة شبه دائمة... وفي هذا الجو المشحون توقفت شركات النفط عن توزيع البنزين والكاز والمازوت، فأصبح الشعب يعاني من البرد بعد أن حل فصل الشتاء وانقطع عنه المازوت والكاز. كما صار يشكو من انقطاع النور حيث ان مولدات الكهرباء تعمل بالمحروقات، وجاء ذلك في وقت كان الشعب فيه يعاني من قضية توزيع الخبز كما أصبحت آليات الجيش مهددة بالتوقف والشلل.

وقد كان قطع البترول حربا نفسية شنها الاستعمار بهدف الضغط على الشعب لقبول تمديد خط كركوك بانياس والموافقة على تمديد خطوط التابلاين الاميركية، كما كان الغرض منها الضغط على الجيش لمنعه من مساعدة القوات المصرية التي كانت اسرائيل تكيل لها الضربات في النقب.

وفي هذه الفترة - وكانت الاضرابات والمظاهرات قد بدأت تعم المدن السورية احتجاجا على التخاذل العربي وعلى الشركات البترولية الاجنبية التي بدأت تستغل هذا التخاذل لتثبيت أوضاعها في سورية، استدعى شكري القوتلي وفدا من طلاب الجامعة كانت بينهم زوجتي الطالبة في كلية الاداب، ولم أكن قد تعرفت عليها آنذاك.

في تلك المقابلة تحدث القوتلي عن أهمية الاتفاق مع شركة التابلاين الاميركية وذكر ان الطائرات السورية لم تستطع ان تشارك في حرب 1948 بسبب نقص البنزين! وعندما انهى الاجتماع مهددا الطلاب فيما اذا تابعوا اضرابهم بأنه يستطيع ان يصدر أمرا بتمديد اغلاق الجامعة السورية حتى نهاية العام مما يضيع عليهم سنة كاملة، أجابه أحد الطلاب:

يا فخامة الرئيس: ان الفرنسيين لم يتجرأوا على هذا الأمر.

جميل مردم يهرب من الباب الخلفي لنادي اللواء في حلب:

في شهر تشرين الثاني 1948 ذهب جميل مردم قبيل استقالته الى حلب بموكب فخم ومر في طريقه على مدينة المعرة، فاستقبله صديقه ملك المعرة (كما كان يطلق عليه) الاقطاعي حكمت الحراكي استقبالا يليق به وبكرمه الحاتمي كما قالت احدى الصحف.

وفي حلب اقيمت له حفلة كبرى في نادي اللواء، وصفتها الصحف آنذاك "بأنها حفلة ضربت الرقم القياسي بين كل ما أقيم من حفلات حتى الان"

وبدأ جمع التبرعات للجيش عن طريق يانصيب على جائزة قدمها القوتلي، وهي شعار سوري مصنوع من الذهب ونموذج صغير لطائرة صنع في رحبات الجيش السوري.

لم يكن مقررا في هذا الحفل ان يكون الشاعر عمر أبو ريشة بين المتكلمين ولكن الجمهور طلبه بالحاح فألقى قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

رب وامعتصماه انطلقت بين افواه السبايا اليتم

لامست اسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم

فانقلب الحفل الى مظاهرة كبرى اضطرت جميل مردم الى الهرب من الباب الخلفي لنادي اللواء.

وسارت القصيدة على أفواه الناس، حتى انني سمعت فتيانا يرددونها في حماة وهم أمام أحد الأفران، لقد كانت القصيدة تعبر عن صميم ما كانت تختلج به مشاعر الشعب آنذاك.

انفراط عقد وزارة جميل مردم

تفجرت وزارة جميل مردم من داخلها بشكل مفاجىء فاستقال وزير المالية وهبي الحريري دون أن يبين أسباب استقالته وأصدر الحزب الوطني بيانا يعلن فيه استقالة وزرائه لطفي الحفار وصبري العسلي وميخائيل اليان من الحكومة.. كما اصدر امين سر الحزب صبري العسلي بيانا يوضح فيه ان الاستقالة جاءت احتجاجا على السياسة الخارجية المتبعة، وعلى

ضرورة خروج سورية من العزلة، والتعاقد مع بريطانيا والدول الكبرى.

ففي تلك الفترة ارتفعت أصوات عديدة تنادي بالتعاقد مع بريطانيا، وكانت أقوى ما تكون في لبنان ومصر التي دعا رئيس وزرائها اسماعيل صدقي باشا الدول العربية لسياسة التعاقد والصلح مع اسرائيل، وفي حديث لي مع النائب حبيب كحالة [1] عما تعاني منه البلاد بعد كارثة فلسطين، وبعد أن راجت الدعوة في سورية لسياسة التعاقد مع بريطانيا بداعي الخروج من العزلة وبحجة ان بامكان بريطانيا مساعدة سورية تجاه ما يهددها من مخاطر، قال لي حبيب كحالة:

"ان القوتلي موافق على سياسة التعاقد مع بريطانيا ولكنني علمت ان بريطانيا مترددة في التعاقد مع نظامه"

وسيرد فيما بعد ان السيد صبري العسلي قد اعترف في خطاب له في المجلس النيابي بأن ايماءة من الاجنبي كانت تعتبر بالنسبة اليهم أمرا يجب تنفيذه.

□

طلبت الحكومة المردمية في آخر أيامها جلسة سرية فأصرت المعارضة على علنيتها، وكانت المعارضة أثناء فترة وجود الجيوش العربية في فلسطين تطالب بسرية بعض الجلسات لئلا يستفيد منها العدو، أما بعد الهدنة الثانية فلم يعد أي مبرر لعقد مثل هذه الجلسات السرية الا تغطية الحكومات المسؤولة عن الكارثة، ولكن الأكثرية البرلمانية الموالية تمكنت من فرض عقد الجلسة بصورة سرية بتاريخ 1948/11/29، وفي تلك الجلسة كرر رئيس الوزراء التبريرات المعروفة للهزيمة وتنصل من المسؤولية ورماها على عاتق الدول العربية الاخرى، وعلى الأردن بصورة خاصة، واصر على استمرار سياسة الشدة والقمع وفرض الاحكام

(1) حبيب كحالة: نائب دمشق، وصاحب مجلة المضحك المبكي. كان صحفيا لامعا وقد سار مع الحركة الوطنية في عهد الانتداب بما كان ينشره في مجلته من نكات وسخريات لاذعة، وأصبح نائبا عن دمشق بقوائم الحزب الوطني عام 1947، وقد أصدر المجلة بعد وفاته ابنه المحامي سمير كحالة ولكنها توقفت بعد فترة قليلة من انقلاب الثامن من آذار 1963.

العرفية، نظرا لما يحيط بسورية من مخاطر بعد أن أصبحت وحيدة في الساحة لا تستطيع أن تتخذ موقفا مستقلا، وكان جواب المعارضة التذكير بتنبهاتها الماضية ومواقفها وتحذيرها المستمر من انحرافات الحكومات المتعاقبة ومخالفتها الدستورية مما أدى الى الكارثة.

وقد وصفت أحدى الصحف الجلسة - بعد أن تسربت بعض تفاصيلها - بأنها "كانت جلسة عاصفة تعدت الأقوال حتى أصبح المجلس ساحة عراك" ولكن الحكومة أشاعت بواسطة الصحافة الواقعة تحت وطأة التعطيل بأنها خرجت متفقة مع المعارضة بعد الادلاء "بياناتها المقنعة" مستغلة سرية الجلسة وعدم وجود ضبط مكتوب.

فاضطررت في الجلسة العلنية التالية، المنعقدة بعد خمسة أيام، لأن أشير الى الجلسة السرية مكذبا أقوال الحكومة:

"لو تعلم الصحافة ما حدث في تلك الجلسة السرية او كان يجوز لي أن أبوح به لظهر للعيان ان ما جرى لم يكن سوى الرجوع لرأي المعارضة، وان الحكومات المتعاقبة لو أعارت آراء المعارضة التفاتها لكان من المؤكد عدم حدوث ما حدث من نكبات لأن القضية أصبحت قضية محسوسة وبحكم الوقائع المادية".

تاريخ النكبة الحقيقي لم يكتب بعد.

لقد تعرض المؤرخ محمد عزة دروزة لهذه الجلسة السرية في كتابه عن القضية الفلسطينية في معرض حديثه عن سبب استقالة الحكومة المردمية، ولكنه لم يكن دقيقا في الاحاطة بملابسات هذه الاستقالة وقد يكون في ذلك متأثرا بعوامل الصداقة التي تربطه بشكري القوتلي:

"ولقد كان من آثار ذلك الجمود (يقصد جمود الجيوش العربية الذي أعقب الهدنة الثانية بينما كان الاسرائيليون يخرقون تلك الهدنة في الجبهة المصرية) [2] أن عقد المجلس النيابي السوري أيضا

(2) محمد عزة دروزة - القضية الفلسطينية - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت 1960 الجزء الثاني ص 231

جلسة سرية له في 1948/11/29 للوقوف على تطورات الحالة، وبدا النواب متحمسين جدا، وكانت الحكومة متجاوبة معهم، ومع ذلك ففي اليوم التالي قامت في دمشق مظاهرات صاخبة أدت الى اشتباك المتظاهرين مع رجال الشرطة واراقة الدماء الذكية وقيل ان ايدي الأحزاب المعارضة قد لعبت فيها استغلالا لغليان النفوس ورغبتها في العمل الذي لم تكن امكانيات سورية الميسورة الراهنة تستطيع أن تتحمل منه شيئا مجديا لوحدها، واستقال جميل مردم رئيس الوزارة نتيجة لهذه الحركة".

القوتلي يكلف هاشم الأتاسي بتشكيل الوزارة

بعد استقالة الوزارة المردمية ، وأثناء محاولات التكليف بتشكيل وزارة جديدة تقدم حزب الشعب بمذكرة الى الرئيس القوتلي جاء فيها ما خلاصته: " ان الحكومات المتعاقبة (اي حكومات القوتلي) لم تستعد في الوقت المناسب لمجابهة الأخطار في الداخل والخارج والخطر الصهيوني بنوع خاص، بل اقتصرت جهودها على تصريف الأمور بما يفرضه عليها وحي الساعة، فعجزت عن ايجاد حل موفق لأية قضية من القضايا الكبرى، فلجأت للتسويف والتهرب من حمل المسؤولية وأصبحت سوريا في وضع يتعذر عليها معه دفع الخطر الصهيوني بمفردها مهما عبأت من قوى مادية ومعنوية، وانه آن الاوان لبذل المساعي لانشاء اتحاد دولي عربي يضم سوريا وغيرها من البلاد العربية التي استكملت فيها شروط هذا الاتحاد".

كان النواب الدستوريون، بعد أن انتظم معظمهم في حزب الشعب، أكثر انقيادا لسياسة آل الأتاسي واكثر اعتدادا بأنفسهم وحذرا من زملائهم المعارضين واستقلالا برسم سياستهم وكتمانا لشؤونهم، ولكن بقي لي بينهم من تشدني اليه اواصر الصداقة، كالدكتور عبد الوهاب حومد وشاكر العاص وغيرهم.

وكان انطباعي بعد قراءة مذكرة حزب الشعب أنه يدعو لاتحاد عربي أقوى من جامعة الدول العربية. ولكن حصر هذا الاتحاد بالدول العربية المستكملة شروطه، جعلني اعتقد انهم يقصدون العراق أحب الاقطار العربية وأقربها الى قلوب السوريين،

وهو التفسير الصحيح الذي فهمه الناس آنذاك، في الوقت الذي كانت فيه البلاد تغلي بمظاهرات الاحتجاج والدماء تسيل والدرك يقمعون تحركات المعارضة الشعبية بمنتهى القسوة والعنف واطلاق الرصاص على الطلاب والاهلين واعتقالهم وزجهم في السجون باعداد كبيرة فاضطر القوتلي - تهدئة للأوضاع - الى استدعاء هاشم الأتاسي - رئيس الكتلة الوطنية ورئيس الجمهورية سابقا والاب الروحي لحزب الشعب - وتكليفه بتشكيل الوزارة.

□

لم تؤد استقالة الحكومة المردمية الى تخفيف حدة الغليان الشعبي أو تهدئة لموجة المظاهرات التي كانت تعم البلاد بأسرها، بل ازدادت المظاهرات الشعبية حدة وغضبا وعنفا، ففي الاسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني دأب اليهود بعد محاصرتهم القوات المصرية في الفالوجة على خرق الهدنة والقيام بالهجمات المستمرة للاستيلاء على النقب بكامله، والجيوش العربية واقفة لا تبدي حراكا، واللجنة السياسية العربية تجتمع في القاهرة وتنفض دون نتيجة، بينما استغل دعاة الفرعونية هذا الموقف العربي أسوأ استغلال.

كان هذا الموقف عاملا هاما في اذكاء مظاهرات الاحتجاج في سورية والاقطار العربية الأخرى، وعندما تقدم أحد النواب باقتراح الى المجلس يرجو بأن "تبذل الحكومة أقصى جهدها، وتسعى لدى الدول العربية لتسارع الى الاشتراك مع الجيش المصري الباسل" علقت على هذا الاقتراح بقولي:

"ان طلب بعض الزملاء يرمي الى بحث القضية من الوجهة السياسية مع أن القضية تقتضي موقفا عسكريا، ولقد رأينا كيف ان قوات من الجيش المصري قد عزلت في الفالوجة بينما لم تتدخل القوات العربية الأخرى، فاذا كان الحال سيجري على هذا المنوال فانني أخشى ان يوجه الصهاينة ثقلهم العسكري للقضاء على الجيش المصري، ونحن نطلب من دولة رئيس الوزراء أن يعمل سريعا على مؤازرة هذا الجيش واعتقد ان معظم الزملاء يطالبون بهذا".

كان هدف الاسرائيليين الاستيلاء على النقب وايلات التي كانت تسمى ام الرشراش قبل الاحتلال الاسرائيلي، وقد اعترف زعماء اسرائيل فيما بعد بأن هدفهم كان انزال ضربة بالجيش المصري تجعله غير قادر على الحرب لمدة عشر سنوات.

لقد ساهم الموقف العربي الجامد تجاه الغارات الاسرائيلية على الجيش المصري في اذكاء مظاهرات الشعب في سورية، وانني أفضل ان أنقل عن جريدة النصر الصادرة في 1948/12/2 وقائع يوم من تلك الأيام التي بلغ فيها الغليان الشعبي أوجه، احتجاجا على تخاذل حكام العرب، وعدم استئناف القتال:

نامت دمشق ليلة أمس، اذا جاز ان نطلق على دمشق امس صفة النوم، واذا جاز ان يكون النوم اغماض العيون على الدموع، وكتم الانفاس على الاهات والحسرات وتلمس البلسم في الظلام للجراح... يد تجفف الدماء ويد على الصدر ترتعش حنانا على فلذات الاكباد تطيح.

من المسؤول عن كل هذا؟

انهم نواب الشعب الذين تهاونوا في محاسبة رجال الحكم الطامعين بغنائم شخصية على حساب اغفال مصالح اكثرية الشعب المكدود واهمال روح الدستور.

اننا ننحني اجلالا لمن صرع من طلابنا أمس، وأسفا لما نزف من طاهر الدماء... أما الاحداث الدامية فقد وقعت على النحو التالي:

أمس الأول عاشت دمشق يوما لاهبا تتخلله مظاهرات صاخبة معلنة سخطها على الحكام العرب، مطالبة بانقاذ فلسطين. كما قام جمهور من المتظاهرين بايقاد النار في محل السيد احمد الشراباتي، وقد أتلفت النار سيارتين وعددا من البرادات وأثاث المحل.

وأمس استيقظت دمشق على دوريات الدرك والشرطة شاكية السلاح موزعة في مفارق الطرق وأمام أبواب المدارس، وفي الساعة الثامنة صباحا بدأت جموع طلاب المدارس الثانوية تتكتل وتنتظم صفوفا في باحاتها معلنة ارادتها في الخروج الى الشوارع متظاهرة ضد الحكم السائد باعتبار فلسطين ضحية السياسة العربية عامة، وقد اشترك التلاميذ الثانويون مع

طلاب الجامعة في مظاهرات سقط فيها عدد من القتلى والجرحى، وعندما لاحظ الطلاب فقدان الحجارة فاوض فريق منهم رجال الدرك والشرطة بهدنة مؤقته ريثما يحملون جرحاهم الى المستشفيات فقبل "القادة العسكريون" بذلك شريطة أن لا يقوم الطرف الاخر بهجوم معاكس جديد، وفي هذه الاثناء جمع التلاميذ الصغار الحجارة من الامكنة البعيدة في حقائبهم المدرسية ووضعوها خلف "خطوطهم الحربية" استعدادا لاستئناف القتال. وكان هؤلاء الطلبة يصيحون بأعلى أصواتهم: "خبئوا بنادقكم للجبهات وأطلقوا رصاصكم لتخليص العروبة فنحن مثلكم مواطنون"... وعند استكمال جمع الحجارة هجم سيلهم الهادر بقوة نحو السراي ومديرية الشرطة متصدين للرصاص والقنابل المسيلة للدموع.. ودوى الرصاص بشدة واعتقل عدد من المتظاهرين بعد أن سقط في صفوفهم عدد من القتلى والجرحى.. وفي الساعة التاسعة والنصف قام الاهلون بمظاهرات اخرى يعضدهم الطلبة في حي عرنوس حيث حطموا حافلة كهربائية، كما حطم المتظاهرون في أحياء أخرى زجاج حافلات كهربائية عديدة، وفي خلال ذلك بدأت سيارات الاسعاف تحمل جرحى الطلاب والأهلين للمستشفى الجراحى، كما أن عيادات الاطباء كانت تتبرع لإسعاف الجرحى مجانا، وباختصار فان جهات المدينة الأربع كانت تعج بالهتافات الصاخبة ضد مستثمري الشعوب العربية وخادعيها ومطالبة بمعاقبة المسؤولين ... وفي الساعة العاشرة والنصف بدأت مداخل البلد الرئيسية تخلو من المارة بعد أن خضبت أراضيها دماء زكية طاهرة، بينما لا زالت الطلقات تدوي من حين لاخر، ونفير سيارات الاسعاف يحمل الضحايا من حول البرلمان ومن جهات قبر عاتكة والبحصة وجسر فكتوريا، اذ لم تكن الطلقات للارهاب بل للقتل والابادة.. وقد سقط اكبر عدد من القتلى الاطفال قرب البرلمان فقد كان الدرك يكمنون للمتظاهرين ولما رأوهم يتقدمون باتجاه البرلمان سقوهم وابلا من الرصاص سقط على اثرها عدد من الحملان، واستمرت معركة شديدة أدت الى تفرق الطلاب الذين ما لبثوا ان جمعوا صفوفهم وعادوا فاحتلوا بناية السيد عبد الحميد دياب المقابلة للبرلمان، وهي بناية لم تكتمل بعد. لذلك كانت حجارتها ذخيرة للطلاب الثائرين، الى أن جاءت نجدات من الدرك فأجلتهم.

وفي الساعة الواحدة تقريبا هاجم فريق من المتظاهرين، في مدخل سوق ساروجا، عريفا من الدرك، فأشبعوه ضربا مبرحا ويقال انه مات على اثره.

وحتى الساعة الثانية عشرة ظهرا كان عدد ضحايا التلاميذ والأهلين الذين دخلوا المستشفى الوطني فقط 43 جريحا بينهم ثلاثة قتلى وثلاثة آخرون في حالة الخطر. أما المستشفيات الأخرى فقد استقبلت اكثر من مئة مصاب".

□

لم يكن الغليان الشعبي في باقي المدن السورية أقل منه في دمشق، وكان من الطبيعي أن تتظاهر مدينة حماة التي بدأت فيها مظاهرة هادئة سلمية لم تقع فيها أية حوادث مخلة بالأمن، وكان القوتلي أثناء غيابنا في فلسطين قد عين عبد الكريم العائدي، أحد انصاره، محافظا للمدينة، لينفذ سياسته الدموية تجاه حزب الشباب، هذه السياسة التي ابتدأها بمقتل الطالب محمد علوش، كما استغل المحامي رئيف الملقي الذي فشل في انتخابات 1947 لحبك المؤامرة، وقد وجد المحافظ والملقي في هذه المظاهرة الفرصة المنتظرة عندما كمن عدد من المسلحين فوق أسطحة بعض المنازل المطلة على سوق الطويل، وانتظروا مرور المتظاهرين ليفاجئوهم بسيل من الرصاص الغادر دون أي سبب، فأصيب أخي واصل الحوراني في ساقه، واستشهد الشاب المناضل كسار الانطكلي كما سقط عدد من الجرحى الذين كانوا من أشجع وأنبل العناصر التي اشتركت في الجهاد في فلسطين.

لقد ضبط قادة منظمتنا أعصابهم بشكل كبير، فبالرغم من انهم قبضوا على رئيف الملقي وهو يطلق الرصاص، كما قبضوا على بعض الغادرين المتآمرين الاخرين، فقد حموهم من الجماهير الغاضبة لأنهم أدركوا فورا ان ثمة مؤامرة قد دبرت في ليل، وقد لفت نظرهم بشكل خاص ان قوات الامن لم تتدخل لمنع هذا الاشتباك.

بعد هذه الأحداث استدعاني رفاقي من دمشق، فلم أر بدا من أن أوقف القوتلي وعبد الكريم العائدي عند هذا الحد من التورط، فنظمت مظاهرة كبرى، اجتمع فيها شباب المدينة ورجالها في ساحة العاصي، فخطبت فيهم كاشفا اسباب المؤامرة وأبعادها ومسؤولية حكم القوتلي عن الدماء التي لم يتمكن اليهود من اراقتها على أرض فلسطين، فأريقت في شوارع دمشق وحماة، وأشهدت الله والشعب بأنه اذا لم يكف النظام عن مؤامراته، فاننا سنضرمها ثورة شعبية تقضي على حكم المزرعة الى الأبد، ومن حسن الحظ ان هذه المظاهرة المسلحة وهذا التهديد باضرام الثورة قد وضعا حدا للتآمر في تلك الفترة العصيبة..

أوعزت الحكومة للقضاء بنقل الدعوى من محاكم حماة الى محاكم حمص بحجة ان بقاءها في حماة يثير الرأي العام ويخل بالأمن وحرصا مني على نشر الاخاء والمحبة بين أبناء المدينة، أوعزت لرفاقي بالتنازل عن حقنا بالدعوى، ومصالحة من استخدموا من قبل السلطة لاثارة هذه الفتنة.

41

أواخر عام 1948: اعلان الاحكام العرفية في سورية - خالد العظم يشكل الوزارة ويلقي بيانه الذي ينفي فيه سياسة التعاقد مع بريطانيا - اتفاقية التابلاين مع الشركات الاميركية - واتفاقية النقد مع فرنسا.

أزمة وزارية بعد استقالة وزارة جميل مردم:

ظلت البلاد بلا حكومة مسؤولة خلال اسبوعين عصيبين في أزمة داخلية خطيرة ومفتعلة في الوقت نفسه، فلم تتشكل حكومة خالد العظم الا بعد ان صدر قرار باعلان الاحكام العرفية واستلام قائد الجيش مقدرات الأمن في البلاد.

انني لا أزال أحتفظ بين أوراقي بكلمة طريفة لصديقي الأديب الحموي الساخر فريد الكيلاني يصف فيها أحسن وصف حالة البلاد خلال هذين الأسبوعين فيقول:

"نزل بنا في ظرف الأسبوعين الأولين من كانون الأول الحالي - لا ردهما الله - ما يلي خبطة واحدة:

1- تكشفت لأعيننا نكبة ضياع فلسطين.

2- فقدت المحروقات والأنوار وأصبحنا في قبور مظلمة باردة.

3- ضرب الناس بالسلاح وأشهرت عليهم الأحكام العرفية وسيقوا كل مساء الى البيوت كما يساق الدجاج.

4- وأظرف ما كان من تلك المصائب المتراكبة المتراكمة تلك الطريقة المبتكرة في اعلان الاحكام العرفية، حيث اعلنت جوا بمنشورات ألقيت علينا من الطائرات"

وهو يشير بذلك الى البلاغ الذي أصدره حسني الزعيم بعد استلام مقدرات حفظ الأمن في البلاد وقد جاء فيه ما يلي:

"ان قيادة الجيش أمرت بأن تكون مسؤولة عن الأمن في جميع أنحاء سورية اعتبارا من الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة

3 كـانون الأول عـام 1948. وأنهـا تعتبـر كـل اخـلال بـالامن ضـربا لمؤخرة الجيش السـوري المـرابط فـي سـاحات القتـال ومسـاعدة مسلحة للعدو... ولذلك أصدرت امرا الى قواد القطعات بـأن يعتبـروا كل مخل بالأمن أو محرض معتديا على سلامة الجـيش او سـلامة الحـدود" وخـتم الـبلاغ بفـرض منـع التجـول فخـيم الهـدوء وفتحـت الحوانيت المغلقة وقوبل تدخل الجيش بالعطف والترحيب من قبـل الشعب.

□

لكن ما هو السبب في تأخر تشـكيل الحكومـة الـذي فسـح المجال لتفاقم الاخطار، مما استدعى صـرف الجـيش عـن الجبهـة وتسليمه مقاليد الأمن وفرض الاحكام العرفية؟

لا شك ان القوتلي تعمد ذلك فكلفه وكلف البلاد غاليا، لأنه أراد ان يظهر أن الاحزاب المعارضة هي المسؤولة عن سحب الجيش مـن الجبهة، وعن اعـادة فـرض الأحكـام العرفيـة، وعـن تـرك الـبلاد بـلا حكومة في أحرج الظروف...

وقد ترافـق هـذا الموقـف بتوجيـه علنـي، ففـي أبـان الازمـة الوزارية استدعى القوتلي النواب للاجتماع به في القصر ونصـحهم بوحدة الصف وبعدم التناحر وتسهيل امر تشـكيل الحكومـة ... كمـا أوعز للصحافة ان تحمـل حمـلات شـعواء علـى الاحـزاب المعارضـة وتحملهـا المسـؤولية بعبـارات نابيـة كالـدس والفسـاد والتحـريض وعرقلة تشكيل الحكومة.

فكان موقف القوتلي موقف المهاجم الذي يهدف الى تصـوير الثورة الشعبية والمظاهرات الطلابية العنيفة التي كانت تعم البلاد بأنها ليست تعبيـرا عـن فسـاد [1] الحكـم ومسـؤولياته عـن كارثـة

(1) بعد ان فقد القوتلي تأييد المشـايخ والحركـة الدينيـة السياسـية المتمثلـة بالجمعيـة الغـراء، اثـر تزوير انتخابات عام 1947 وسقوط مرشحيها، أصبح اكثر اعتمادا - على الصعيد الشـعبي - علـى بقايا زعامات الاحياء، ومنهم ابو راعي الصفرا وابو عبدو العشى وابو أمـين القبـاني وغيـرهم مـن زعامات الاحياء الدمشقية الذين فسدت اخلاقهم من طول مـا اسـتخدموا فـي العهـود السـابقة، وكان استغلال هذه الزعامات لحكم القوتلي ومداخلاتها الواسعة شاهدا على فساد ذلك الحكـم وتخلف عقليته وأساليبه، بالوقت الذي كان يشدد فيه على عزل الطلاب والمـوظفين والمثقفـين عن المشاركة بالنضال الوطني، مما دعا أحد المعلقين الى كتابة هذا التعليق الساخر:

فلسطين، بل هي مظاهرات شغب تقوم بها الاحزاب المعارضة لاصطناع الفتن وارغامه على صرف الجيش عن مهامه في الجبهة واستدعائه لحفظ الامن في الداخل، ولم يجد نائب دوما فرزت المملوك الموالي للقوتلي أي حرج في أن يقول في المجلس النيابي: "قامت في البلاد في أواخر عهد الوزارة المستقيلة حركة قال بعضهم انها حركة أجنبية وقال آخرون انها ذات أغراض صدرت عن طائفة من الناقمين".

تشكيل وزارة خالد العظم.

كلف الرئيس القوتلي هاشم الاتاسي بتأليف الوزارة ثم مصطفى برمدا وعادل أرسلان على التوالي ثم استدعى خالد العظم سفير سورية في باريس وكلفه بتشكيل الوزارة فما لبث ان اعتذر بناء على توصية القوتلي نفسه الذي قال له:

"أعلن أنت بادىء ذي بدء عن اعتذارك، لأكلف أنا الأمير عادل أرسلان مجددا، وأهزه وأضعضعه حتى يتعب فيترك، ثم تعود أنت للظهور وتؤلف الوزارة بليلة واحدة" (مذكرات خالد العظم ص 369 الجزء الاول)

وهكذا جرى اذ كلف القوتلي عادل أرسلان ثانية فعجز عن تأليفها فكلف خالد العظم ثانية فشكلها على النحو الآتي:

خالد العظم	رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للخارجية والدفاع الوطني.
محسن البرازي	وزيرا للمعارف
محمد العايش	وزيرا للزراعة
احمد الرفاعي	وزيرا للعدلية والصحة والشؤون الاجتماعية

"اذا لم يشتغل الطلاب والموظفون بالسياسة وهما الطبقتان المفكرتان في الامة فانه لا يبقى للسياسة غير فئة التجار، وجماعة أخينا ابو شروال المرابط في كل حي صاحب الخنجر والشوارب والخال ومرحبا يا خال".

حنين صحناوي [2] وزيرا للاقتصاد الوطني

حسن جبارة وزيرا للمالية

عادل العظمة وزيرا للداخلية

مجد الدين الجابري وزيرا للاشغال العامة.

ويروي خالد العظم في مذكراته ملابسات استدعائه من فرنسا لتشكيل الحكومة التي خلفت الحكومة المردمية وقصة الأزمة المفتعلة التي ساهم بها شكري القوتلي بعد استقالة مردم، وفيما يلي بعض هذه الملابسات عن لسان محسن البرازي.

"وبدأ البرازي يسرد لي انباء الازمة الوزارية من اولها الى آخرها بتفصيل لم يعد بامكاني تذكره كما هو، فاكتفي بالتلخيص، قال: "اضطرت وزارة جميل مردم للاستقالة على اثر الحوادث الدامية التي وقعت في دمشق وذهب ضحيتها احد الشبان. فسارت مظاهرة بقيادة فيصل العسلي المنتمي الى رئيس الجمهورية، مدعيا بأن الاحزاب المعارضة قتلت شابا من جماعته. وحمل هؤلاء نعشه على الاكتاف وساروا به في شوارع المدينة، ولامر ما لم يعلم سببه انقلب النعش ووقع على الارض، فظهر انه فارغ لا يحوي جثة احد. فثارت الجماهير وانقلبت على فيصل العسلي فتوارى عن الانظار.

في حلب قامت مظاهرات عنيفة حملت الحكومة على طلب نزول الجيش الى الشوارع واعلان الادارة العرفية لقمع الفتنة. واصدر حسني الزعيم منشورا قاسيا اعلن فيه توليه الحكم في حلب. وعلى اثر ذلك قدم حزب الشعب مذكرة الى رئيس الجمهورية طالب فيها بتوحيد سورية والعراق. (الجزء الاول ص 363)

"واقترح هذا الحزب تكليف هاشم الاتاسي بتأليف وزارة تساير اتجاههم السياسي المذكور. فاضطر جميل للتنازل عن الحكم لقمع الفتنة معللا النفس بالرجوع اليه،" (الجزء الاول ص 364)

(2) يقضي الدستور بأن لا يكون الوزير عضوا بمجلس ادارة شركة تجارية، وحين عين حنين صحناوي وزيرا للاقتصاد قدم استقالته من عضوية مجلس ادارة كل من شركة السكر والمنتجات الزراعية، وشركة الصناعات الزجاجية والخزفية وشركة المصابغ الفنية وشركة المغازل والمناسج.

أما افتعال الأزمة الوزارية فيرويها العظم كالتالي:

"وبدأ الرئيس الاتاسي استشاراته ثم زار القوتلي وطلب إليه الموافقة على المذكرة التي قدمها اليه حزب الشعب لتؤلف الوزارة على اساسها، فراوغ القوتلي واخذ يتصل بالهيئات لكي تتصل هي بدورها بالاتاسي وتظهر له معارضتها لخطة حزب الشعب وتبدي عزمها على معارضة وزارة تؤلف على هذا النمط. كما اخذ القوتلي يحرض الاشخاص الذين قبلوا الاستيزار مع الاتاسي على سحب موافقتهم. وهكذا حتى مل الرئيس الاتاسي وذهب الى القصر واعلن فشله وانسحابه. فاظهر له القوتلي اسفه الشديد، رياء ونفاقا. وعلى الاثر ارسل البرقية باستدعائي من باريس. غير انه احب ان يضلل الناس في هذه الفترة، فكلف الامير عادل ارسلان بتأليف الحكومة. فراح الامير يستشير زيدا وعمروا من غير النواب كعارف النكدي ونهاد القاسم، آخذا الامر بجدية غير عالم بأن الرئيس لم يكلفه الا كسبا للوقت، ريثما اصل انا من باريس." (الجزء الاول 364)

□

لم يكن تشكيل حكومة خالد العظم نجاحا للسياسة البريطانية، لأن الرجل كان قريبا لفرنسة بحكم ثقافته وعقليته، كما ان تعيين عادل العظمة صديق القوتلي القديم وزيرا للداخلية يشير الى الصرامة والشدة بما يتفق مع رغبات القوتلي..

أما تعيين محسن البرازي صديق فرنسا وزيرا للمعارف فيشير الى ارضاء فرنسا، والى نية القوتلي في السيطرة على الطلاب وعزلهم عن المشاركة بالعمل الوطني، فقد كان القوتلي يعتبرهم من دعائم المعارضة لحكمه.

وعلى كل حال فقد قوبل بالهدوء تشكيل الحكومة برئاسة خالد العظم، بالرغم من المعارضة الشديدة التي قوبلت بها من قبل حزب الشعب، ومن الفتور والاحتجاج الضمني من قبل الحزب الوطني الذي أخذ يبتعد شيئا فشيئا عن القوتلي.

□

جاء البيان الوزاري لحكومة خالد العظم نافيا لسياسة التعاقد مع بريطانيا، وأكد العظم على ذلك في رده على ملاحظات النواب في جلسة الثقة عندما قال "أما ما أشير في بعض كلمات النواب الى المعاهدات السياسية التي يظهر البعض التخوف من اقدام الحكومة على عقدها فأقول: ان بيان الحكومة لا يشير قط الى مثل هذه المعاهدات السياسية انما قصدنا معاهدات تجارية او اقتصادية لا سياسية. لأننا في الوقت الحاضر لا نريد ان نرتبط مع اي دولة أجنبية بعقد التزامي. وانما نسعى جهدنا في هذا المعترك الى ان نبقى على الحياد لنتمكن في الازمات ان نكون مالكين تمام حريتنا بدون الزام او اجبار".

كما اشار الى استبعاد سياسة الاتحادات الثنائية فقال: "أما ما قيل عن اتحاد العرب فكلكم يعلم كيف نشأت الجامعة العربية وكيف تطورت، ومقدار الجهود التي بذلت حتى توصلنا الى هذا التضامن والاتفاق بين الدول العربية فاذا كانت هنالك اهداف تجعل هذا الاتحاد اكثر ارتباطا وتضامنا مما هي عليه الان فذلك ما ستكشفه الايام وسيجتهد بتحقيقه كل عامل بهذا الحقل".

وأشار البيان الى القضية النقدية: "بأنها تحتل المكان الاول في سياسة الدولة المالية والاقتصادية والحكومة اذ تعلن انها عازمة على ايجاد نقد جديد لاصدار النقد وتغطية تضمن الاستقلال النقدي سترى من الضروري تمهيدا لهذه الغاية تصفية المطالب السورية الفرنسية تصفية نهائية على اسس واقعية"

ثم صرح خالد العظم تعقيبا على ملاحظات النواب:

"ان هناك مشروع اتفاق وضع في باريس وكنت احد المطلعين عليه، ان لم أقل احد العاملين على وضعه، وسوف اعرض هذا المشروع على الحكومة للتذاكر به وابداء الرأي، فاذا قرر مجلس الوزراء انه مقبول قدمته اليكم مدافعا عنه".

لم يذكر بيان خالد العظم شيئا عن اتفاقية تمديد خطوط شركة التابلاين غير ان الصحف السورية الخاضعة للرقابة ذكرت أن

صحف بيـروت نشـرت تصـريحا لـرئيس وزراء لبنـان بالوكالـة السـيد غبرييل المر جاء فيه"

"ان الحكومة السورية وقعت اتفاقية التابلاين وهـي تنتظـر احالتهـا للمجلس النيـابي للتصـديق" وقـد عقبـت الصـحف السـورية علـى الخبر بقولها:

"ان توقيع الاتفاقية صحيح ولكنه غير جديد، لأنها وقعـت عنـدما تـم عقدها منذ أكثر من سـنة ولـم يـدع احـد أنهـا لـم توقـع، أمـا عـدم تنفيذها فهو انتظار تصـديقها مـن المجلـس النيـابي السـوري ولـم يعـرف بعـد مـا اذا كانـت سـتعرض علـى المجلـس فـي مسـتقبل قريب".

لقد اوعز خالد العظم بهذا التعليق قاصدا أمرين:

اولا: نفي المسؤولية عن نفسه بتوقيـع اتفاقيـة التـابلاين ليضـعها على عاتق حكومة مردم المستقيلة.

ثانيا: لم ينف تبني حكومتـه لهـذه الاتفاقيـة وامكـان عرضـها علـى المجلس النيابي في المستقبل.

وهكذا يتبين ان القوتلي جـاء بحكومـة خالـد العظـم ليحقـق ابرام اتفاقيتي التابلاين والشؤون المالية مـع فرنسـا بعـد عرضـهما على المجلس النيابي.

يقول خالد العظم في مذكراته:

" وكان جميل مردم وقع بالحروف الاولى على المشروع، لكنه لم يجسر على تقديمه الى مجلـس النـواب، لانـه خشـي ان يـتهم بقـبض عمولـة. امـا خالـد العظم، فهو فوق الشبهات وليس فـي المجلـس مـن يتهمـه. ولـذلك يجـب ان يؤلف الوزارة هو وان يستقيل جميـل مـردم. هـذا كلـه لـم اسـبر غـوره الا بعـد تأليف الوزارة والحاح القوتلي علي في تقـديم المشـروع الـى مجلـس النـواب واصراره على اقالة الوزارة اذا تهربت او رفضت. وكنت في الواقـع حريصـا علـى تصديق اتفاق النقد مع فرنسا الـذي باشـرته فـي بـاريز، وذلـك لتـأمين ضـمان النقد السـوري، لكن الرئيس القوتلي صرح لي بوضوح: "اما ان نرسـل مشـروع

التابلاين [4] مع مشروع الاتفاق النقدي سوية الى المجلس واما ان لا نرسل شيئا"

وكانت اتصالاتي بالنواب اكدت لي استحالة موافقتهم على المشروع الاول وصعوبة التصديق على الثاني مع عدم الاستحالة.

"وكان موقف النواب السلبي تجاه هذا الاتفاق في طليعة الاسباب التي حملت حسني الزعيم على القيام بانقلابه العسكري في الثلاثين من شهر آذار 1949 وليس ذلك لان حسني كان مهتما بتصديق الاتفاق، بل لانه كان آلة صماء استعملها الامريكيون مباشرة، أو عن طريق الافرنسيين وعملائهم، للاطاحة بالحكومة وبمجلس النواب وايصال حسني الزعيم الى الحكم، فلا عجب ان يعمد فورا الى اصدار مرسومين اشتراعيين، صدق وابرم بهما كلا من الاتفاقيتين"

الجـــــزء الاول (ص 373- 374- 375)

□

في اول جلسة عقدها المجلس النيابي بعد تشكيل وزارة خالد العظم، أثار نائب حلب رشدي الكيخيا قضية قمع المظاهرات بأساليب وحشية واطلاق الرصاص عليها وفرض الاحكام العرفية، فألقيت كلمة حملت فيها رئيس الجمهورية مسؤولية خرق الدستور، واقحام الجيش بالسياسة بداعي حفظ الامن:

"يعلم الزملاء الكرام اننا قد اقررنا في الماضي قانونا للاحكام العرفية كما أقر المجلس ايضا الموافقة على اعلان هذه الاحكام العرفية وعلى ما اذكر **ان المدة التي حددت لتنفيذ هذه الاحكام كانت ستة أشهر وقد انقضت فاصبحت الاحكام العرفية ملغاة بطبيعتها فلاعلانها مجددا يجب ان تتبع الاساليب الدستورية ونحن لا نبحث ما اذا كان من الواجب اعلان الاحكام العرفية ام لا وانما نبحث بامر دستوري فقد فوجيئنا باحكام عرفية غير معلنة.**

(4) لمعرفة مدى الضغط الذي كان يمارسه السعوديون وبالتالي الاميركيون على شكري القوتلي لتوقيع الاتفاقية من قبل مجلس النواب، يمكن الرجوع الى مذكرات الدكتور محسن البرازي أمين القصر الجمهوري (جريدة الحياة 1953) (خيرية قاسمية 1994).

أنا لا ألوم قائد الجيش فقد أمر باتخاذ هذه التدابير ولكنني اتساءل من هو الذي امر قائد الجيش باتخاذها مع انها مخالفة لنص المادة (112) التي تحصر حق اعلان الاحكام العرفية بفخامة الرئيس الاول على أن يعرض هذا الاعلان على المجلس واذا كان المجلس منفضا دعاه للاجتماع وعرض عليه الامر.

اننا نلوم ونضع مسؤولية مخالفة الدستور صراحة على عاتق من امر قائد الجيش باعلان هذه الاحكام العرفية وأقول لكم من جهة ثانية ان الذين أوقفوا قد أوقفوا بصورة غير دستورية ولا قانونية لان اعلان الاحكام العرفية لم يكن دستوريا ولا قانونيا.

أمر واحد اطلبه من الحكومة هو ان نعلم من هو الذي امر قائد الجيش باعلان الاحكام العرفية لنقول لهذا الرجل انه لم يحترم الدستور وانه لم يتقيد باحكام القانون وتعلمون ايها السادة ان الشعب اذا كنا نحترم ارادته واذا كنا نعتقد ان في هذه البلاد شعبا فان الشعب ينقم ويعبر عن شعوره، اما اذا كنا لا نعترف بذلك فانني امسك عند هذا الحد، ولكنني اعتقد ان بين الزملاء من يحترمون ما يسمى رأيا عاما ويحترمون ما يسمى شعبا ويؤمنون بان للشعب حرية التعبير عن مشاعره وآلامه وان النقمة التي اظهرها في المظاهرات السابقة نقمة يجب ان ننظر اليها بعين الاعتبار ويجب ان نصلح اساليبنا الفاسدة الماضية التي كادت تودي بالبلاد الى الهلاك.

ان الشعب قد طالب بمحاكمة المسؤولين في الماضي وهو طلب جوهري وقد تقدمت فئة كريمة من هذا المجلس طالبة الى فخامة الرئيس الاعلى ان يحاكم المسؤولين عن الجرائم المقترفة فيما مضى **ومن جملة هذه الجرائم على ما أعتقد اعلان الاحكام العرفية بصورة مخالفة لنص الدستور فانا لا أعترف بهذه الاحكام العرفية الاستثنائية ولا اعترف مطلقا بصحة وقانونية توقيف الذين اوقفوا واؤمن ان من خالف الدستور يجب ان يحاكم وهو مسؤول عن مخالفته للدستور الذي اقسمنا جميعا ان نحترم نصوصه واحكامه والا فلا وازع ولا حدود للحكومة ولا للمجلس ولا لأي انسان في هذه البلاد".**

ويفهم مما قلته صراحة أنه موجه للرئيس القوتلي، وانني أحمله مسؤولية مخالفة الدستور واقحام قائد الجيش بهذا الامر،

ان جعل قائد الجيش مسـؤولا عـن الـبلاد بحجـة حفـظ الامـن كـان الخطوة الاولى للانقلاب، وقد أغرى حسـني الزعيم ذلك الاسـتقبال الرائع الذي قوبل به الجيش والهدوء الذي خيم على البلاد.

42

أوائل عام 1949: المجلس يوافق على تشكيل لجنة برلمانية من مختلف الاتجاهات للتحقيق بأوضاع وزارة الدفاع بعد نكبة فلسطين - واللجنة البرلمانية تضيف للنظام الداخلي موادا حول قانونية تشكيل اللجان وصلاحيتها.

في تلك الفترة الهامة من تاريخ سورية طرحت على مسرح الأحداث قضايا داخلية رئيسية هامة:

أولا قضية دائرة الميرة: هذه الدائرة التي كانت موازنتها تشكل أكثر من نصف موازنة الدولة، ومع ذلك فقد كان المجلس لا يطلع عليها، وقد ذكرت فيما سبق تفاصيل كثيرة عن هذه المصلحة والمناقشات الطويلة التي كانت تثار حولها في الصحف والمجلس النيابي.

وقد استمرت مصلحة الميرة في عملها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لتأمين الخبز للمستهلكين وتأمين البذار للفلاحين. وكانت وقفا على استغلال الاقطاعيين وكبار التجار والموظفين ذوي المحسوبية الذين جعلوا من ملاك مصلحة الميرة اطارا لتشكيلات حزبية كالحزب الاشتراكي التعاوني الذي يرأسه فيصل العسلي، كما ان سورية لم تتمكن في تلك الفترة من تشييد مستودعات فنية للحبوب تساعدها على تأمين سياسة تموينية صحيحة وثابتة ومأمونة، لذلك خسرت كثيرا من جراء الاهمال والفساد والسرقات خلال وجود مصلحة الميرة [1]، وهذا هو السر وراء ملاحقاتي المستمرة لهذه المؤسسة الفاسدة، وقد أكدت، بمناسبة عرض الموازنة العامة على المجلس النيابي في 1949/1/17، على ضرورة عرض موازنة الميرة على المجلس قائلا: **"لقد سبق لي أن طلبت من الوزارة أن تقدم لنا حسابات الميرة. ويظهر ان وزير المالية قد أتانا في احدى الجلسات بنتائج الحسابات. على ان طلبي يتعلق بتقديم موازنة**

(1) بعد أن ألغيت مصلحة الميرة في سورية أصبح اسم الدائرة التي حلت محلها "مكتب الحبوب".

الميرة اي حسابات الميرة بالتفصيل، اذ على المجلس ان يطلع على حقيقة ما يجري في مصلحة الميرة التي تعادل موازنتها اكثر من نصف موازنة الدولة.

وكانت أموال الميرة تعتبر بحكم المصاريف السرية، وقد تكون رأسمالها من الأموال الاحتياطية، فاضطرت بسبب الفساد والسرقات لاستقراض خمسين مليون ليرة من البنك السوري.

ثانيا: قضية الصلح في جبل العرب:

تحدثت سابقا وبالتفصيل عن الأسباب التي أشعلت الفتنة بين أبناء جبل العرب وزيارتي مع ميشيل عفلق وشاكر العاص لسلطان الأطرش وزعماء "الشعبيين"، وفي أواخر عام 1948 عين القوتلي عارف النكدي محافظا للسويداء.

وقد استطاع النكدي بجهده وحكمته وصبره أن يعقد رايات الصلح في جبل العرب على أساس تنازل النواب الأطارشة وحسن عامر عن مقاعدهم النيابية، لتصبح المراكز النيابية من حق "الشعبيين": داود هنيدي، حمد عزام، جميل ابو عسلي، حسين الشوفي.

وفي يوم 1949/1/24 أقيم في بلدة صلخد احتفال كبير تمت فيه المصالحة...

ويبدو ان الرئيس القوتلي كان ينتظر من مساعي النكدي ان تؤدي الى تهدئة النفوس، بعد المعارك المسلحة التي سقط فيها عدد من القتلى أشهرهم حمزة الدرويش، ولكن النكدي توصل الى حل الخلاف نهائيا، فبدأ الحكم يعرقل مساعيه مما أثاره ودفعه الى توجيه برقية قاسية الى القوتلي كانت مثار استجواب في المجلس، قال فيها:

"يوم بليت من الحكومة بوعود مكذوبة وتخصيصات منهوبة" لذلك طلب النواب من الحكومة "بيان اسباب تصرفها الشاذ في جبل العرب، وما هي حقيقة هذه المخصصات المنهوبة ومن هو

الذي أساء استعمالها" ولكن طلب عارف النكدي دفن ولم يجر اي تحقيق في هذه القضية.

ثالثا: تشكيل لجنة برلمانية للتحقيق بشؤون وزارة الدفاع والبحث عن أسباب الهزيمة:

لم يكن شكري القوتلي رئيسا للجمهورية فحسب بل كان قابضا على زمام السلطات جميعها بواسطة أجهزة الدولة، والحكومة والأكثرية البرلمانية.

وبالاضافة الى ذلك فان المجلس النيابي كان ضعيفا أمام السلطة التنفيذية، وعاجزا عن ممارسة حقه بالتوجيه والرقابة والمحافظة على أحكام الدستور وسلامة تنفيذ القوانين، حتى أنه كان في بعض الفترات عاجزا عن ممارسة السلطة التشريعية ذاتها لأن الحكومات كانت تقف دوما ضد كل تشريع يمس مصالحها او يهدد مراكزها أو يخالف سياستها.

لم يكن ثمة داعم للمعارضة المجلسية الا المعارضة الشعبية كسبيل لسن اي مشروع تقدمي، أو منع اي انحراف خطير أو أي ارتكاب كبير... وهكذا استمرت المخالفات الدستورية والقانونية منذ فجر الاستقلال والى ما بعد نكبة فلسطين، والطبقة الحاكمة لا تتزحزح عن مواقعها بالرغم من النقمة الشعبية العارمة ولا تتراجع عن مواقفها الا بنضال داخل المجلس وخارجه في الصحافة والجامعة والمدرسة والمعمل والشارع والقرية وبعد ارسال الوفود الشعبية وتقديم العرائض واغلاق الأسواق والمظاهرات، وقد سبق ان عرضت نموذجا عن ذلك بقانون خدمة العلم الذي لم يشرع بتطبيقه الا بعد حرب 1948 ولم يصدر قانون الجيش الا بعد استقالة الوزارة المردمية .. ففي ذات الجلسة التي أقر بها قانون الجيش كانت معظم مشاريع القوانين الهامة موقوفة في اللجان مددا تتجاوز السنوات، وقد قلت لرئيس المجلس لطفي الحفار يومذاك:

ان قانون البلديات ارسل الى هذا المجلس منذ عام 1944 وقد مضى عليه ما يقرب من الاربع سنوات، فما هو السبب في تأخير انجاز هذا القانون؟ ان

تدخل السياسة الشخصية حتى في المشاريع القانونية هي الذي يجعل المجلس غير منتج. مع ان النظام الداخلي يقضي بطرح اي مشروع قانون مضى عليه اكثر من عشرين يوما على المجلس والدليل على ان القضية تتعلق بسياسة شخصية ان اللجنة الداخلية قد اعطت ثلاثة تقارير على قانون البلديات، وعندما أصبح المشروع في يد النواب لمناقشته في الهيئة العامة سحبه الزميل صبري العسلي وكان وزيرا للداخلية بحجة ان للخبير البلجيكي ملاحظات على هذا القانون".

وقلت القول ذاته بصدد قانون المطبوعات.

□

وافق المجلس بالاجماع على مشروع قانون تقدمت به حكومة العظم الجديدة بفتح اعتماد في حدود خمسة عشر مليون ليرة لتجهيز الجيش، فكانت الجلسة مناسبة لتكرار المطالبة بتشكيل لجنة التحقيق البرلمانية، فقلت:

"بعد موافقتنا جميعا على هذا المشروع أحب ان لا أكتم المجلس بأن الموافقة على المشروع لا تعني الثقة والاطمئنان بتبدل الأساليب الماضية الا بعد تعيين المسؤوليات، ولا يجوز بشكل من الاشكال ان تصل البلاد الى هذه الحالة الخطرة وأن نخسر القضية الفلسطينية ثم نمضي ونمر على هذه الامور مرور الكرام.. فاذا كانت الحكومة تريد ان تبرهن على أنها ستقيم صفحة جديدة ناصعة فعليها ان تبدأ بالتحقيق، لأن هناك مجرمين وهناك خونة مارقين وهناك مختلسين هم المسؤولون عما وصلت اليه البلاد من الخطر الدائم الذي يهددها بحياتها واستقلالها، وعلى عاتقهم تقع المسؤولية بضياع فلسطين، فلا يجوز ان نسكت عنهم ابدا، والحكومة اذا كانت تريد ان نثق بها فعليها ان تبدأ بالتحقيق ثم بمحاكمة المسؤولين، وعندها يطمئن المجلس ويطمئن الشعب الى ان السياسة الماضية قد قضي عليها القضاء المبرم، وان البلاد ستسير على نهج سياسة جديدة صريحة طيبة، وقد تقدمنا منذ شهور باقتراح نطلب فيه اجراء التحقيق في وزارة الدفاع الوطني، ولكن لم يحقق هذا الطلب، أن السيد احمد الشراباتي تقدم بطلب الى رئاسة المجلس يتعلق بالتحقيق فأحيل الى لجنة الدفاع الوطني [2] . وأنا احب أن

(2) كانت لجنة الدفاع الوطني برئاسة فخري البارودي نائب دوما.

الفت نظر مقام الرئاسة الى أن مثل هذا الامر لا تختص بـه لجنـة الـدفاع. لأن المادة "57" من الدستور تجيز في مثل هذه الاحوال تأليف لجنة خاصة تبحث موضوع الزميل السيد احمد الشراباتي وجميع القضايا الاخرى. وأحب ان اذكر المجلس بأمر هو أنني عندما سألت رئيس مجلس الوزراء السابق عن موضوع السيد فؤاد مردم بك أجابني بأن قضيته عبارة عن مخالفة مسلكية، ولكننا نسمع الان بأن هذا الرجل بعد سجن طويل قد أحيل الى المحكمة العسكرية [3] فكيف تريد منا الحكومة أو يطلب منا أي انسان أن نثق بالأساليب الماضية التي لم نستعد فيها لتسليح الجيش تسليحا كاملا ولم تطبق الخدمة الالزامية؟ وكيف نثق ونحن نسمع كل يوم باختلاسات كبرى وأمور يعجب الانسان كيف تقع [4] ونرى بالاضافة الى ذلك ان السياسة التي اتبعتها سوريا حتى الان هي سياسة مضطربة غير صحيحة سواء في الحقلين الداخلي، والخارجي، ولذلك أحببت ان أقول بأن الموافقة على هذا المشروع لا تعني الثقة والاطمئنان الا عندما نرى المسيئين الذي عرضوا البلاد للخطر يلقون ما يستحقون من عقوبة امام المجلس وأمام الشعب.

وقد أيد أحمد الشراباتي مطالبتي بتشكيل لجنة التحقيق البرلمانية بعد أن احرق الشعب محلات الشراباتي التجارية في دمشق وبعد أن أصبح الرجل مهددا بحياته.

حاول رئيس المجلس لطفي الحفار ان يطوي البحث حول تشكيل لجنة التحقيق، وأيده في ذلك بعض النواب، ولم تخل المناقشة حول الموضوع من احدى حذلقات منير العجلاني عندما قال:

"ان لجان التحقيق تؤلف في مجالس العالم وتكون أسماؤها أقل هولا من هذا الاسم، فهم يسمونها مثلا لجنة البحث، أما لجنة التحقيق فهي تذكرنا بقاضي التحقيق وبالجناة والمجرمين" كأن ما حدث في فلسطين لم يكن جريمة.

---

(3) تشكلت لمحاكمة فؤاد مردم محكمة عسكرية خاصة، كان من أعضائها العقيد فوزي سلو والعقيد محمود الهندي والعقيد في الدرك رفيق فكرت.

(4) امتدت يد اللصوصية والاختلاسات والسرقات والجشع الاستغلالي حتى الى مخصصات اللاجئين الفلسطينين من مواد الاعاشة الضرورية، فكانت تلك المخصصات تباع في أسواق دمشق وحلب التجارية واللاجئون البؤساء يعانون من الجوع. وقد راجعني العديد من إخواننا الفلسطينين بهذا الموضوع فكنت أخجل ان اطرحه في البرلمان، ولكنني في النهاية تحدثت به وأعلنت خجلي من أن يجري مثل هذا العمل اللانساني في بلادي وطالبت بالضرب على أيدي العابثين.

لقد أراد لطفي الحفار طي البحث قياسا على سابقة عدم موافقة المجلس على لجنة التحقيق البرلمانية بقضايا الاعاشة متذرعا ببعض أقوال فارس الخوري الذي أصبحت سمعته ناصعة جدا بعد ترؤسه مجلس الأمن الدولي، وبعد دفاعاته المجيدة عن قضايا العرب عامة وعن قضية فلسطين خاصة في هيئة الامم المتحدة... بينما كان فارس الخوري يوصف قبل ذلك بأنه ضعيف الشخصية، بل وكان يطلق عليه لقب سمكري الدولة، أي انه كان يلحم لزعماء الكتلة كل ما يكسرونه بفتاواة المبنية على اطلاعه وثقافته الواسعة.

ولم يشعر لطفي الحفار، حين اعاد الى الاذهان قضية التحقيق بقضية الاعاشة أنه يقع بتناقض كبير، اذ ان التستر على الفساد في الماضي هو الذي ادى الى المطالبة من جديد بتأليف لجنة تحقيق برلمانية، ولكن على وزارة الدفاع هذه المرة وعلى ما يتعلق بالأسباب التي أدت الى كارثة فلسطين .. كما نسي لطفي الحفار ان الظروف قد تغيرت وأنه اذا كان بامكانهم ان يكموا الاصوات في الماضي ويتستروا على الفساد فليس بامكانهم ان يفعلوا ذلك الان.

وعلى الرغم من معارضة الحكومة تشكيل هذه اللجنة فقد اقر المجلس تشكيلها بعد مناقشات طويلة، كما عزم على انتخاب أعضاء المحكمة العليا التي نص عليها الدستور والتي بقيت شكلية، اذ ان الحكومات المتعاقبة لم تقدم أي مشروع لأصول المحاكمة أمام هذه المحكمة فاضطر نائب حلب رزق الله انطاكي لتقديم اقتراح لأصول المحاكمة، فنام الاقتراح اكثر من سنة تحت تسويف الحكومة وتهربها، الى أن بعثه المجلس من جديد لبحثه واقراره مع موافقة حكومة خالد العظم على ذلك...

ربما كان التحقيق بأوضاع وزارة الدفاع من الاسباب التي جعلت شكري القوتلي يستدعي فارس الخوري من هيئة الامم المتحدة ليتولى رئاسة المجلس النيابي لاستغلال ماله من سمعة طيبة ومن تأثير ادبي على المعارضة، وكان المجلس قد انتخبه رئيسا أثناء غيابه، وقد عاد ليتولى رئاسة المجلس منذ

جلسة 1949/1/13 التي كانت جلسة تكريم له من قبل النواب والحكومة.

بعد تشكيل لجنة التحقيق البرلمانية بأوضاع وزارة الدفاع بناء على قرار المجلس، وكان قد روعي في تشكيلها ان تكون ممثلة لمختلف الكتل المجلسية، تقدمت هذه اللجنة بالتقرير التالي:

"بناء على الدعوة الموجهة من نائب رئيس المجلس دولة السيد لطفي الحفار اجتمعت لجنة التحقيق البرلمانية ظهر يوم الأحد 1949/1/16 في قصر مجلس النواب وحضر من أعضائها السادة:

صبري العسلي، احمد قنبر، اكرم الحوراني، عبد الرحمن العظم، فرزت المملوك، رزق الله انطاكي، جمال علي اديب، عادل العجلاني، نديم شومان، ابراهيم طيفور، وتخلف عن الحضور السيدان نوري الايبش وهاني السباعي، واللجنة ترفع تقريرها لمقام الرئاسة لاعلام المجلس ذلك ومن ثم الدوائر ذات العلاقة ودمتم.

دمشق في 19 كانون الثاني 1949

مقرر لجنة التحقيق البرلمانية رئيس لجنة التحقيق البرلمانية

اكرم الحوراني صبري العسلي

وكان التقرير يتضمن اقتراحا باضافة النص التالي الى لائحة النظام الداخلي للمجلس النيابي، وهذا النص يتضمن الصيغة القانونية لتشكيل لجان التحقيق البرلمانية وصلاحيتها:

"المادة 124: للمجلس حق اجراء التحقيق ليستنير في بعض مسائل معينة داخلة ضمن حدود اختصاصه، ويعين

المجلس لجنة خاصة لاجراء التحقيق ولها حق استدعاء اي شخص ترى فائدة في سماع أقواله، ولها حق الاطلاع على جميع البيانات والأوراق والوثائق التي تطلبها من الحكومة وتتخذ جميع الاجراءات التي تراها كفيلة للوصول الى الحقيقة.

المادة 125 : للجنة الحق بجلب الشهود أو احضارهم أمامها واذا امتنعوا عن الاجابة أو شهدوا بغير الحق فلها ان تطلب من رئيس المجلس مخاطبة وزير العدلية بشأن رفع الدعوى عليهم باسم الحق العام طبقا لاحكام قانوني الجزاء وأصول المحاكمات الجزائية.

المادة 126 : اذا ثبت اثناء التحقيق وقوع جرائم او جنح او مخالفات فتحال الأوراق الى زير العدلية لاجراء المقتضى القانوني.

دمشق في 16 كانون ثاني 1949

المقرر رئيس لجنة التحقيق البرلمانية

اكرم الحوراني صبري العسلي

43

1949: محاكمة الضابط فؤاد مردم بقضية باخرة السلاح السورية التي استولت عليها اسرائيل

كان لهذه القضية وقع بعيد الأثر في سورية، ففي تقدير الجيش السوري أن هذه الباخرة لو وصلت سالمة لتغير وجه المعركة، وكان هذا ايضا تقدير الاسرائيلين فقد ذكر ايغال ألون في مذكراته عن حرب الجليل ان توفر بعض السلاح عند أحد الطرفين كان يتحكم بمصير المعركة بينهما.

وقد زاد في نقمة الشعب والجيش في سورية عندما عرف ان المسؤول عن هذه القضية هو الضابط فؤاد مردم الذي لم يلتحق بالحكومة السورية بعد قصف دمشق والمدن السورية في ثورة 1945، مثلما فعل كثير من الضباط، وانما بقي الى آخر لحظة في خدمة فرنسا الى أن استلمت الحكومة السورية الجيش من الفرنسيين عند الجلاء عن سورية، ولم يكن من سبب لتكليف هذا الضابط بمثل هذه المهمة المصيرية سوى انه ابن عم جميل مردم رئيس الوزارة **الذي حاول عندما قدمت استجوابا في المجلس عن ملابسات هذه القضية ان يصفها بأنها مخالفة مسلكية، وكان ذلك ابان تطلع الرأي العام في سورية والبلاد العربية الاخرى الى معرفة أسباب هزيمة عام 1948، ولا سيما في سورية، البلد المتحرر الوحيد القادر على القيام بدور يمكن ان يكون حاسما في هذه المعركة المصيرية، وهذا الاهتمام من قبل الرأي العام هو الذي ساعد على اقرار المجلس لاقتراحي بتشكيل لجنة تحقيق برلمانية بأسباب هزيمة الجيش السوري.**

لقد حاول القوتلي للدفاع عن نفسه، ان يحمل المسؤولية للاخرين، لذلك تولى شخصيا - بعد التعبئة الرهيبة ضده بالنسبة لمسؤولية الهزيمة - التحقيق في بعض الفضائح التي ارتكبها جماعته من التجار المتعهدين بتموين الجيش، ويروي خالد العظم في مذكراته هذه الواقعة:

"وصلت بنا السيارة ووراءها السيارة التي تقل حسني الزعيم ومعاونيه الى مستودعات الجيش، وهناك دخلنا احد العنابر.... وطلب الرئيس من أمين المستودع ان يحضر وابور كاز ومقلاة وبيضا ففعل، فوضعت قطعة السمن ضمن المقلاة ولما حميت تصاعدت منها رائحة كريهة حتى اننا اضطررنا الى سد انوفنا، فطلب الرئيس ان تحمل تنكة السمن الى سيارته ليأخذها معه لفحصها... ويقول العظم: بعد ذلك ذهبت الى وزارة الدفاع فسألت حسني الزعيم عمن يعقد هذه الصفقات فقال "هنالك لجنة للعقود ولجان للاستلام ويشرف على كل ذلك العقيد بستاني".

فغيرت كل ذلك، ثم أرسلت النماذج للتحليل.... ولما ذكرت الصحف الخبر مقتضبا وذكرت انني أمرت بالتحقيق استاء رئيس الجمهورية فأوعز للصحف بأن تسرد زيارته للمستودع بالتفصيل وتذكر انه هو الذي أمر وزير الدفاع بفتح باب التحقيق ومعاقبة المسؤولين" (ص 182-183) الجزء الثاني.

وقد أمر شكري القوتلي ايضا باحالة الضابط فؤاد مردم للتحقيق والمحاكمة العلنية، مع احاطة هذه المحاكمة بمظاهر احتفالية، فكان نادي الضباط مركزا لها، كما حضرها عدد كبير من الضباط ورجال الصحافة والسياسة وجمهور غفير من الناس، وضمن تلك المظاهر الاحتفالية ادلى النائب العام بالمرافعة التالية:

"ان الرجل الماثل امامكم، الذي يحمل رتبة مقدم، كفر بعروبة فلسطين وطعن قضيتها بالصميم بنذالة ودناءة، لقد كان عونا للعدو على بلاده فاستحق غضب الله ونقمة الامة ولعنة الاجيال الصاعدة، لقد باع فلسطين وسبعين مليونا من العرب في سبيل امرأة يهودية اتخذته مطية لمساعدة الصهيونيين، فانقاد لها ونفذ رغباتها ناسيا فلسطين مغمضا عينه عن رؤية إخوانه الضباط والجنود الذين كانت تصرعهم نيران العدو [1] ، وأصم أذنيه عن سماع أصداء عويل

(1) أغلب شهداء الجيش السوري الذين صرعوا في ارض المعركة بفلسطين انما سقطوا بسبب قلة العتاد والذخيرة بل وفقدانها اصلا... حدثني العميد المتقاعد جورج محصل انه عندما كان برتبة ملازم في حرب 1948 كلف بالقيام بهجوم على مستعمرة يهودية مع اثنين وثلاثين جنديا، كان 17 منهم مسلحين ببنادق قديمة، أما الباقون فكانوا عزلا من السلاح.

العذارى وندب الثكالى وبكاء الاطفال وأنين العجائز والشيوخ في مذابح دير ياسين وصفد وحيفا".

ثم ذكر النائب العام وقائع القضية فقال: ان وزارة الدفاع تعاقدت مع احدى الشركات التشيكوسلوفاكية على شراء ثمانين الف بندقية وستة ملايين طلقة. وأوفدت لجنة عسكرية لاستلام الاسلحة وشحنها الى سوريا. وقد قامت هذه اللجنة بمهمتها فاستلمت الاسلحة واتفقت مع شركة (انترسبيد) لنقلها الى بيروت. فشحنت على متن الباخرة (لينو) بعد التأمين عليها لدى شركة (سلافيا) في براغ لقاء خمسين الف دولار. ولما بلغت هذه الباخرة مدينة (مولفينا) الايطالية توقفت لأن ربانها الشيوعي أراد الاستيلاء على شحنة الاسلحة لتوزيعها على الشيوعيين الايطاليين فشعرت الحكومة الايطالية بالأمر وسارعت الى القاء الحجز على الباخرة واعتقال ربانها وملاحيها الشيوعيين، وساقتهم مع الباخرة الى مدينة (باري) حيث نسفت الباخرة هناك وأغرقت حمولتها.

وقد أوفدت وزارة الدفاع السورية المقدم فؤاد مردم الى ايطاليا للعمل على انتشال الاسلحة من البحر وتأمين شحنها ومطالبة شركة التأمين (سلافيا) بقيمة الضرر اللاحق بها، وفوضته بشراء أسلحة اخرى وسلمته ثمانين الف دولار للقيام بهذه المهمة... وقد تم انتشال الاسلحة من قاع البحر، وقدر الخبراء والمحكمون الخسائر التي أصابتها بنسبة 15% للبنادق و80% للذخائر... وقد أمرته وزارة الدفاع بالعمل على اعادة شحنها الى سورية بسرعة على متن باخرة كبيرة وأمينة وموثوقة، **والحضور معها** بعد التأمين عليها.. ولكن فؤاد مردم تأخر في شحن الاسلحة بداعي الصعوبات التي تعترض سبيله، وراح يفتش عن شركات اخرى بعد ان رفض التعاقد مع شركة (فامركه دي سيموني) وهي شركة موثوقة ارشده اليها تطوعا ممدوح الحفار، وقد قبلت هذه الشركة شحن الاسلحة من جنوة الى بيروت لقاء مليون لير. (قيمة الصفقة 200 مليون لير)... في الوقت ذاته كانت الايادي الصهيونية تضغط على الحكومة الايطالية لعدم السماح باعادة ارسال الاسلحة الى سوريا فباءت مساعيها بالفشل. ولما علمت بأمر فؤاد مردم، الذي لم يكن يكتم اسراره، وجهت اليه امرأة يهودية على غاية من الجمال تدعى (بلماس)، يوغسلافية الاصل تعمل لحساب الصهيونية، بارعة الذكاء، تحترف الصحافة، فتعرفت على الظنين... ورغم علم الظنين مردم بتجسس

اليهود هناك على كل من يعمل لمصلحة بلاده، واطلاقهم خلفه عيونا ترصد حركاته وتصرفاته وأعماله فقد افتتن مردم ببلماس وكانت تجمعه في بيتها بنساء على شاكلتها. وكان يقيم لهن الحفلات وينفق عليهن الاموال، ولم يتورع عن الظهور معهن في الاندية والمحلات العامة حيث كان يبذخ ويصرف بسخاء مما استدعى انظار البوليس الايطالي... وبالرغم من تحذيره من قبل السوريين الذين التقوا به في روما والى جانبه تلك المرأة، كالسادة بشير رمضان وسعدي الفرا ونظير العابد، ورغم نصحهم له بالاقلاع عن معاشرتها وضرورة الابتعاد عنها لعظم المهمة والمسؤولية المنوطة به، فانه تمادى في غيه... ولما عاد ممدوح الحفار الى دمشق كلفته الحكومة رسميا بالعودة الى ايطاليا لتذليل العقبات وشحن الاسلحة، وزودته بكتاب تأمر فيه الظنين مردم بأن يتفق مع الحفار بهذا الشأن... وقد قام الحفار بايصال مردم إلى شركة (دي سيموني) حيث اتفق معها على الشحن من باري الى جنوا برا، ومن جنوا تنقل الاسلحة الى بيروت على متن الباخرة المصرية (الخديوي اسماعيل)... ولكن الحفار تلقى بعد ذلك برقية من الشركة جاء فيها ان الظنين مردم اتفق مع المدعو (منارة) وهو صاحب مركب شراعي صغير يدعى (أرجيرو) على شحن الاسلحة خلافا للتعليمات التي تلقاها. كما أنه لم يقم بالتأمين على البضاعة برغم وجود ثمانين الف دولار في حوزته لهذه الغاية... وذكر النائب العام كيف ان الظنين مردم ترك الاسلحة في ذلك المركب الصغير في البحر وراح يتنقل بين المدن الايطالية، ثم أتى بعد ذلك الى الاسكندرية لينتظر وصول المركب اليها. ولما لم يصل المركب عاد الى روما ليكون الى جانب صديقته (بلماس) التي اصطحبها الى ميلانو.. ثم استدعي الى دمشق. وتجرأ بعد رجوعه الى دمشق على الكذب والادعاء بأنه امن على البضاعة. وقد ظهر خداعه وتلاعبه بعد مقابلته مع ممدوح الحفار.... وقد برهن النائب العام على ان الظنين عد البضاعة مستهلكة وأنه باعها ولم يؤمن عليها ولم يدفع اجرة شحنها.

وقد اتضح بعدئذ ان المركب (أرجيرو) وصل مع شحنته سالما الى تل ابيب، بدليل ان وزارة الخارجية الايطالية تلقت من قنصلها في القدس اشعارا بان بحارة المركب موجودون في فلسطين ويشتغلون لدى اليهود.

لقد جرت محاكمة فؤاد مردم قبيل انقلاب حسني الزعيم الذي أوقف المحاكمة وطوى القضية، ولكن بعد أربعين عاما وعلى عادة المخابرات الاسرائيلية بالكشف عن اتصالاتها وعملياتها السرية بعد مرور وقت من الزمن كاف لعدم حدوث اي مضاعفات، كشفت المخابرات الاسرائيلية عام 1986 عن دورها في قضية باخرة السلاح، وبصورة خاصة عن القسم الاول منها الذي انتهى بغرق الباخرة في ميناء باري العسكري، قبل انتشالها واعادة شحنها من جديد، وفيما يلي نص الرواية الاسرائيلية - على ضوء الوثائق التي كشف عنها - كما نشرتها جريدة الاحرار المصرية في عددها بتاريخ 1986/1/6، وهي رواية تركز على الدور الاسرائيلي في نسف الباخرة التي تحمل صفقة السلاح السورية، بينما تمر مرورا عابرا - يمكن فهمه بالنسبة لمقال اسرائيلي - على دور فؤاد مردم مع التغطية على وقائع ثبتت عليه بشهادة اشخاص سوريين لا موجب للطعن بشهادتهم.

والذي يهمنا من هذه الرواية هو الاشارة الى الأهمية الكبيرة التي كانت اسرائيل تعلقها على عدم وصول تلك الاسلحة الى الجيش السوري، مما تبدى بملاحقة بن غوريون شخصيا لمراحل الاستيلاء عليها والتي يصفها المقال بأنها:

"كانت كافية بمقاييس سنة 1948 للتغلب على المستوطنات اليهودية في الشمال بما يمكن الجيش السوري من فتح الطريق امام هجوم واسع النطاق عبر سهول الجليل"(2)

مع الاشارة الى ان تفاصيل سفر الضابط السوري الذي عقد الصفقة عبر تل أبيب تستحق - من طرفنا - كثيرا من التمحيص واشارات التعجب والاستفهام، وقد يكون ايرادها في المقال على

(2) كان الاسرائيليون كما يبدو من المقال يتوقعون ان يكون دخول الجيش السوري الى فلسطين عن طريق الجليل لما لهذه المنطقة من اهمية استراتيجية وبشرية، فهي تطل من الشرق على الحولة وطبريا، ومن الغرب على الساحل الفلسطيني ومدنه، ومن الجنوب على مدن هامة كصفد ثم الناصرة، كما انها بشريا لم تكن قد استوطنت بعد، وانما كانت عربية بمعظمها، بينما كانت المستعمرات الاسرائيلية تشكل فيها نقاطا متناثرة، مما تشير اليه حرية حركة المجاهدين الذين دخلوا منطقة الجليل من حماة والمدن السورية الاخرى، كما تشير اليه ايضا توصية الوسيط الدولي الكونت برنادوت الذي رأى الحاق الجليل والنقب بالمنطقة العربية، مما كان سببا في اغتياله من قبل الاسرائيليين.

تلك الصورة للتغطية على طريقة وصول خبر الصفقة الى الجانب الاسرائيلي.

الرواية الاسرائيلية:

هبطت الطائرة السويسرية من طراز "دي. سي. 4" في الرحلة رقم 442 الى مطار تل ابيب، كان ذلك في مطلع شهر فبراير سنة 1948 وبعد تزويد الطائرة بالوقود، بدأت تستعد للاقلاع من جديد متجهة الى محطتها التالية في رحلتها إلى باريس.

لم تكن اسرائيل قد أنجزت بعد قيامها الكامل كدولة في فلسطين، ومع ذلك فقد كان اليهود يعدون انفسهم بالفعل للحرب ضد العرب، وهي الحرب التي يعرفون انها وشيكة فعلا، ومن هنا فقد كانت خطوط الطيران الدولية ما تزال تطير بين العواصم العربية وفلسطين في طريقها الى اوروبا وامريكا او في طريق عودتها.

وفي مقصورة الدرجة الاولى بالطائرة السويسرية كان يجلس ضابط سوري شاب، وهو الكابتن عبد العزيز قرين [3] ، في طريقه الى براغ عن طريق باريس، باعتباره ممثلا لوزير الدفاع السوري، احمد شراباتي، لكي يتعاقد على شراء عشرة الاف بندقية من تشيكوسلوفاكيا للجيش السوري.. حيث تحتاجها سوريا بشدة في مواجهتها الوشيكة مع اليهود في فلسطين.

وخلال دقائق كان يجلس في نفس الطائرة مسافر آخر يتجه الى مهمة مماثلة، وبين جواز سفره الفلسطيني ان اسمه هو "جورج ايرال" ووظيفته المدونة في الجواز هي مدير مؤسسة يهودية ذات فروع في الخارج مع ذلك، فقد كان اسمه الحقيقي هو "ايهود افريل" وهو يمثل منظمة من أكثر المنظمات اليهودية سرية في فلسطين انها منظمة "راكيش" لشراء الاسلحة للهاجانا، التي هي بدورها الجيش اليهودي الذي يعمل لقيام الدولة اليهودية في فلسطين.

لم يكن الضابط السوري الشاب يعرف بالطبع بوجود هذا العميل اليهودي السري معه على نفس الطائرة ومتجها الى نفس البلد - تشيكوسلوفاكيا وكانت تلك الرحلة للعميل اليهودي هي في حد ذاتها جزءا

(3) هكذا ورد الاسم في المقال، وقد يكون كريم، ومن المحتمل ان يكون المقدم عزيز عبد الكريم هو الذي كلف بشراء هذه الصفقة.

من أول عملية مخابرات سرية كبرى تقوم بها اسرائيل فيما وراء البحار، وتنفذها منظمة "راكيش" السرية وكانت المنظمة قد عرفت بعد أيام، من عميلها اليهودي هذا... ايهود افريل.. انه لاحظ بينما هو يتجول في مصانع السلاح والذخيرة في تشيكوسلوفاكيا، انه يوجد شخص عربي اخر، لا يعرف جنسيته، يقوم بجولة مشابهة له، ويريد هو الاخر التعاقد على شراء اسلحة من تشيكوسلوفاكيا، وفي فلسطين بدأت منظمة "راكيش" اليهودية السرية تجري تحرياتها، حتى اكتشفت ان الشخص المقصود سوري الجنسية، وانه سافر الى براغ على نفس الطائرة وفي نفس اليوم، وانه يمثل الحكومة السورية، واسمه عبد العزيز قرين.

وبمقاييس الحرب الحديثة، فان المشتريات التي اكتشف "ايهود افريل" ان الضابط السوري قد تعاقد عليها من تشيكوسلوفاكيا، ليست ضخمة، لقد تعاقد عبد العزيز قرين على شراء ستة الاف بندقية [4] وثمانية ملايين طلقة ذخيرة من الحجم الصغير وشحنة من القنابل اليدوية، وهي كميات تكفي لتسليح ثلاث كتائب مشاة، وتكفي بمقاييس سنة 1948 للتغلب على المستوطنات اليهودية في الشمال، بما يمكن الجيش السوري من فتح الطريق امام هجوم واسع النطاق عبر سهول الجليل.

وحينما تلقى ديفيد بن جوريون، الذي سيصبح خلال وقت وجيز اول رئيس وزراء لاسرائيل، تلك المعلومات من "ايهود افريل" فانه لم يتردد لحظة في التصرف، لقد امر بوضع عملية مخابرات عاجلة لمنع الجيش السوري من الحصول على تلك الاسلحة بأي ثمن، وأصبح اسم العملية السرية هو "عملية السرقة" وهدفها التأكد تماما من عدم وصول شحنة الاسلحة التشيكوسلوفاكية هذه الى سوريا، خاصة بعد ان تبين ان الشحنة قد تم تحميلها في باخرة ايطالية قديمة اسمها "لينو" وان الباخرة تشق طريقها في البحر فعلا متجهة الى ميناء وصولها.

وفي البداية لم يكن هناك احد يعرف كيف يمكن تجاوز الباخرة الايطالية في اعالي البحار، لقد كانت منظمة الهاجانا قد اشترت لتوها اسطولا من طائرات النقل، ما زال موجودا في ايطاليا، وقد جرى التفكير في أن يتم شحن تلك الطائرات بالمتفجرات، لكي تطير متابعة الباخرة الايطالية

(4) ورد هذا الرقم في الوثيقة الاسرائيلية وهو مخالف لما ورد في مطالعة النائب العام الذي ذكر ان الصفقة المتفق عليها هي ثمانون الف بندقية.

في اعالي البحار حيث يمكن ضربها بالقنابل وتفجيرها بالكامل، وقد تم تزوير وثائق خاصة لاحدى تلك الطائرات وافرادها وطاقمها على أساس ان بناما هي موطنهم. ثم جرى التفكير في خطة بديلة، وهي استئجار قارب وتسليحه بعد اعداد اوراق مزورة اخرى له، لكي يحاول الاستيلاء على الباخرة في عرض البحر، او نسفها اذا فشل في نفس الوقت، لم تكن الدول العربية تعرف بعد ان منظمة الهاجانا قد اصبح لها سلاحها الجوي، وقد تم تكليف بعض طائراته بالخروج الى اعالي البحار للبحث عن الباخرة الايطالية وضربها ولكن... لمدة ثلاثة ايام متواصلة، ظلت تلك الطائرات "السرية" تستكشف البحر الادرياتيكي بحثا عن الباخرة... بغير جدوى. لقد اختفت الباخرة الايطالية في اعالي البحار في ظروف غامضة.. وهو الامر الذي اوشك ان يصيب ديفيد بن جوريون بالجنون.

ولكن، في 30 مارس تم حل اللغز، حينما ابرق شاؤول افيجور، اول رئيس لبعثات المخابرات اليهودية في اوروبا، بتقرير من يوغوسلافيا يقول فيه انه لسبب غامض تلقت الباخرة الايطالية تعلميات بالعودة الى ميناء قيامها. ولكن في اليوم التالي مباشرة تلقت الباخرة امرا بالابحار من جديد، وهكذا استعدت الطائرات "السرية" التي اشترتها الهاجانا وأعطتها جنسية بناما المزورة لضرب الباخرة الايطالية في عرض البحر.

ولكن الطقس تدخل في هذه المرة لكي يفسد عملية المخابرات اليهودية الاولى فيما وراء البحار.

ففي أول ابريل (1948) هبت عاصفة كانت من القوة بحيث عجز طيارو اليهود تماما عن المضي في رحلتهم الاستكشافية بحثا عن الباخرة الايطالية التي تحمل شحنة السلاح الى سوريا.

وهنا قامت منظمة "راكيش" اليهودية السرية بوضع خطة بديلة على الفور لقد تم استئجار يخت تجاري فاخر من ايطاليا، قادر على الابحار بسرعة تتراوح بين 14 و17 عقدة بحرية، ومن ثم فانه يمكن ان يكون اسرع كثيرا من الباخرة الايطالية القديمة التي تحمل شحنة السلاح السورية. وأرسلت الهاجانا على الفور بمجموعة منظمة من الضباط اليهود الذين يشكلون طاقم اليخت في المهمة السرية للاستيلاء على الباخرة الايطالية او نسفها في عرض البحر.

وبينما يتم اعداد اليخت للابحار وصلت معلومات جديدة: لقد تعطلت بعض الات الباخرة "لينو" وحينما رأى قبطانها سوء الاحوال الجوية امامه، قرر الاتجاه بباخرته الى ميناء "مولفيتا" وهو ميناء صغير في جنوب ايطاليا. وهنا اصبحت الظروف تساعد المخابرات اليهودية، فطالما الباخرة موجودة في الميناء الايطالي الصغير، يصبح في امكان مجموعة صغيرة من المحترفين في الهاجانا، الذهاب الى هناك ونسفها.

وهنا قامت الهاجانا بتجنيد احدى عميلاتها من اليهود الاوروبين، وهي امرأة يهودية جميلة اسمها "ادا سيريني" التي كان الالمان قد قتلوا زوجها خلال الحرب، وأصبحت الان عميلة لتنفيذ عمليات المخابرات اليهودية السرية في اوروبا، وفي تلك الفترة كانت ايطاليا تجتاز فترة الانتخابات العامة، حيث يتم تبادل الاتهامات الضارية بين الديموقراطيين المسيحيين والشيوعيين، وكل جانب منهما يتهم الاخر بالاستعداد للقيام بعصيان مسلح في ايطاليا.

واختارت "ادا سيريني" عشيقا لها في الحزب الديموقراطي لكي تتصل به وتقول له: "ان الشيوعيين يأتون بالاسلحة تمهيدا للقيام بانقلاب مسلح ضدكم في ايطاليا" لقد وصلت السفينة الى ميناء "مولفيتا" محملة بالبنادق والذخيرة استعدادا للانقلاب الشيوعي.

وخلال اثني عشرة ساعة، كانت تلك الاخبار منشورة في الصفحات الاولى لكل جريدة ايطالية وأصبحت الحكومة الايطالية في حالة رعب من الانقلاب الشيوعي المسلح المحتمل، بينما ردت الصحف الشيوعية الايطالية بان تلك الاخبار مزيفة وتمثل استفزازا من الحكومة، ثم ردوا من جانبهم باتهامات مضادة بان تلك الاسلحة لا بد ان تكون قد جاءت بها الاحزاب اليمينية الايطالية التي تخطط لقهر الشيوعيين بالقوة.

في نفس الوقت كانت المخابرات اليهودية تهنىء نفسها على عملية الوقيعة الكبرى هذه التي نجحت فيها داخل الاحزاب الايطالية، خاصة ولم يعد هناك مفر امام الحكومة الايطالية المرتعبة من أن تأمر بالقبض على قبطان السفينة وافراد طاقمها الذين لا يعرفون سبب القبض عليهم.

وتم اقتياد السفينة الى ميناء "باري" العسكري في ايطاليا، حيث اصبحت هدفا محددا وقائما امام فريق النسف السري الذي بعث به بن جوريون.

ولم يكن هناك مزيد من الوقت، فنحن الان في الرابع من ابريل، والحرب الاسرائيلية مع العرب وشيكة للغاية، ولو وصلت تلك الاسلحة الى الجيش السوري فانها ستؤخر، وربما تمنع، اعلان قيام الدولة اليهودية في فلسطين، ان قبطان الباخرة سرعان ما سيروى القصة الحقيقية للسلطات الايطالية، وساعتها ستكون الحكومة الايطالية مضطرة للافراج عن الباخرة، ولذلك، اصر ديفيد بن جوريون على انجاز "عملية السرقة" باقصى سرعة قبل ان يتم كشف الحقيقة للسلطات الايطالية.

وبسرعة شديدة تجمع فريق التخريب الذي بعث به بن جوريون الى إيطاليا حيث قام قائد المجموعة باستئجار سيارة نقل ضخمة من حمولة الخمسة اطنان، وتم طلاؤها بشعار القوات الامريكية في ايطاليا، وتم ملؤها بكل معدات النسف والتفجير المطلوبة.

وكانت علامات الجيش الامريكي المزورة على سيارة النقل تؤدي الى تسهيل مرورها عبر الحواجز التي اقامها البوليس الايطالي عند مفارق الطرق الهامة، وفي مداخل ميناء "باري"، وفي نفس الوقت الذي كان فيه فريق استطلاع يهودي قد تسلل الى الميناء لتحديد موقع الباخرة، واكتشف هناك وجود مدمرة بريطانية ترسو بالصدفة بجوار الباخرة المستهدفة "لينو".

وبعد ان استأجر فريق التخريب اليهودي السري قاربا من أحد الايطاليين في الميناء بحجة انهم سياح يهوون التنزه بالبحر، وبعد او وضعوا اللغم المشحون بمادة "تي. ان. تي" في الزورق.. فشلوا في محاولتهم الاولى لوضع اللغم اسفل الباخرة المستهدفة.. بسبب الانوار الكاشفة التي كانت تنطلق من المدمرة البريطانية الموجودة في الميناء الايطالي بالصدفة.

وفي منتصف الليلة التالية، 19 ابريل، عاود فريق التخريب اليهودي السري المحاولة، وفي هذه المرة ايضا اقتربوا تماما من الباخرة "لينو" لكي تمنعهم الانوار الكاشفة للمدمرة البريطانية من الاقتراب اكثر واكثر لتثبيت اللغم. وزاد على ذلك في هذه المرة وجود المدمرة البريطانية في حالة استعداد، وكل افراد طاقمها في حالة تنبه، وأوامر تنطلق هنا وهناك.

وفي الواحدة والنصف ليلا كان فريق التخريب قد أصبح في حالة يائسة تماما من انجاز مهمته التي يتعجلها بن جوريون ويتلهف على اتمامها طوال الايام الاخيرة. ولكن... سرعان ما تدخل الحظ فجأة لصالحها.. فقد تبين ان حالة الاستعداد على المدمرة البريطانية سببها استعداد المدمرة لمغادرة الميناء، حيث غادرته فعلا قبيل الساعة الرابعة فجرا.. وهو الامر الذي ترك الباخرة "لينو" هدفا سهلا مجردا من اية حماية داخل الميناء.

وهكذا تسلل فريق التخريب اليهودي من جديد لكي يعملوا بأقصى سرعة على تثبيت اللغم في جسم الباخرة التي تحمل شحنة السلاح السوري.

وبعد الساعة الرابعة فجرا بقليل، كانت المهمة قد تمت.. وخلال فترة وجيزة انفجر اللغم في جسم السفينة، محدثا انفجارا هائلا ومدويا، في نفس اللحظة كان اعضاء فريق التخريب يفرون هاربين خارج الميناء متجهين الى روما في عربة النقل التي تحمل شعار الجيش الامريكي المزيف، بينما شحنة السلاح السوري غرقت كلها في الميناء خلال عشر دقائق.

ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد، ففي دمشق ذهب الكولونيل فؤاد مردم الى رئيس الوزراء جميل مردم غاضبا وهو يقول له: ان تلك الاسلحة حيوية جدا للجيش السوري وكان يجب على الحكومة السورية ان تخطر الحكومة الايطالية رسميا بوجهة الباخرة وحمولتها، وعلينا ان نفعل ذلك الان فورا.

وبالطبع وافق رئيس الوزراء، وبعث بفؤاد مردم نفسه الى ايطاليا لهذه المهمة. وهناك تبين ان شحنات السلاح الغارقة ما زالت صالحة للاستخدام بسبب جودة تعبئتها، ولا يبقى سوى انتشال الباخرة الغارقة ولكن هذا استغرق اسابيع عدة، كانت اسرائيل قد قامت خلالها رسميا كدولة.

ومرة اخرى استعانت اسرائيل بعميلتها السرية "ادا سيريني" التي تابعت المعلومات حول انتشال صناديق السلاح والذخيرة السورية من الميناء، وتنظيفها واعادة تعبئتها بواسطة خبراء ايطاليين تحت الحراسة المشددة في هذه المرة، وحتى تلك المرحلة لم يكن السوريون، ولا الايطاليون يشكون لحظة واحدة في ان تكون لاسرائيل علاقة بهذه العملية كلها، مع ذلك فما زالت اسرائيل مصممة على عدم وصول الاسلحة الى الجيش السوري بأي ثمن.

ولان سوريا لم تكن لديها بواخر ملكها، فلم يعد هناك مفر امام فؤاد مردم من البحث عن باخرة تجارية لشحن الاسلحة، وظل الكونيل مردم يبحث.. حتى اقترح عليه صاحب الفندق الذي يقيم به الاتصال بوكالة "مينارا" للشحن البحري في روما لكي تدبر له الحصول على باخرة، وبالفعل، اتصل مردم بالوكالة التي كانت اكثر من مستعدة لمعاونته، ودفع لها اكثر من مليون ليرة مقدما نظير الشحن. أما الذي لم يكن الضابط السوري يعرفه، فهو ان صاحب الفندق قد اقترح عليه تلك الوكالة بالذات بناء على اقتراح من عشيقته "ادا سيريني" التي هي بدورها عميلة للمخابرات الاسرائيلية، والوكالة ذاتها كانت قد اقيمت بواسطة المخابرات اليهودية من قبل. وحينما قام الكولونيل فؤاد مردم بالتفتيش على الباخرة الجديدة "اريجورو" التي تم وضع شحنة السلاح السورية عليها، فانه لم يكن ليشك لحظة في انه خلال ايام ستكون تلك الاسلحة في ايدي الجيش السوري، ولكن بينما الباخرة في عرض البحر، اكتشف القبطان ان اثنين من طاقمها مسلحان، وتحت تهديد السلاح ارغمها على الاتجاه بالباخرة الى تل ابيب.

اما كل الذي عرفته الحكومة السورية هو ان الباخرة قد اختفت بطريقة غامضة في اعالي البحار، ولم تصل شحنة السلاح مطلقا، الامر الذي ادى الى الحكم على الكولونيل فؤاد مردم بالاعدام.

44

1949: مصر توقع اتفاق الهدنة الدائمة مع اسـرائيل في رودس وبعدها لبنـان ثـم الاردن - حكومـة خالـد العظـم تطلـب موافقـة مجلـس النـواب علـى البـدء بمفاوضـات الهدنـة الدائمـة - الصـراع الـدولي علـى سـورية مـن خـلال القـوى السياسـية السـورية مـع بـوادر انقـلاب حسـني الـزعيم - انطـلاق الشـرارة الاولـى التـي عجلـت بـانقلاب الـزعيم مـن مجلـس النواب

ذكـرت فيمـا سـبق تطـور الاوضـاع الداخليـة فـي سـورية وانعكاس الهزيمة في فلسطين عليها، كما تعرضت لصراع الدول الكبرى الثلاث انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا على المصالح والنفوذ فيها واستغلال الظروف القاسية التي كانت تعصف بها لتوجيهها بما يحقق مصالح هذه الدول عن طريق المحاور العربية، ومن خلال نفوذها داخل القوى السياسية السورية المتصارعة، وكان عقد الهدنة مع سورية بما يتلاءم مع مصلحة اسرائيل أحد أهم الأسباب التي أوصلت الوضع في سورية خلال الربع الأول من عام 1949 الى الانفجار الذي انتهى بانقلاب حسني الزعيم.

مفاوضات رودوس واتفاقيات الهدنة الدائمة:

انتهت هزيمة العرب باحتلال اليهود ما يطمعون به من أراضي فلسطين في تلك المرحلة من توسعهم الاستعماري، وهو أكبر بكثير مما حدده قرار التقسيم، حيث استولوا بعد الهدنة الثانية على النقب بكامله وعلى أم الرشراش (ايلات) وعلى اللد والرملة.

كانت مصر أول من فتح باب المفاوضات مع اليهود في جزيرة رودس لعقد الهدنة الدائمة، وذلك بتاريخ 1949/1/15، وبتاريخ 1949/2/20 اعلنت نصوص اتفاقية الهدنة بين الطرفين.

وبتاريخ 1949/3/25 وقع لبنان اتفاقية الهدنة في الناقورة، كما كان الأردن خلال شهر آذار يجري مفاوضات الهدنة في رودس وقد وقعت في 1949/4/4، ولم يبق في الساحة الا سورية، فأصبح الضغط شديدا عليها، والخطر ماثلا، لذلك طلبت حكومة العظم من رئيس المجلس فارس الخوري عقد جلسة سرية كي يتحمل مجلس النواب مسؤولياته في هذا الأمر الخطير، وفي هذه الجلسة قال خالد العظم انه لم يبق في الساحة الا سورية بين البلاد العربية المحيطة باسرائيل، وان سورية وحدها لا تستطيع خوض المعركة، بل انها أصبحت مهددة فعليا من قبل الاسرائيلين، وبسط رأي الحكومة بضرورة عقد الهدنة على غرار ما فعلته الدول العربية الاخرى وارسال وفد الى رودس، ولم ير أحد من النواب بدا - بعد ان وصلت الحالة العربية الى هذا الدرك - من فسح المجال أمام الحكومة **لعقد الهدنة على أساس احتفاظ الجيش السوري بجميع مواقعه دون التخلي عن شبر واحد من الأرض التي رويت بدمائه.**

أرسلت حكومة خالد العظم فريد زين الدين الى رودس حيث اجتمع بالمستر بانش الوسيط الدولي الذي حل محل برنادوت بعد اغتياله من قبل الاسرائيليين، ويقول خالد العظم في مذكراته انه اصر على ضرورة التمسك بجعل خطوط الهدنة حيثما هي الجيوش المتقابلة في مواقعها في ذلك الوقت، وانه أصر على مبدأ جعل خطوط الهدنة في منتصف سطوح الماء، أي منتصف نهر الشريعة (الأردن) ومنتصف بحيرة طبريا وان المستر بانش وعد بدعم طلب سورية، **وكان موعد فتح المباحثات في الايام الأخيرة من شهر آذار عندما قام حسني الزعيم بأول انقلاب في سورية.**

معالجة القوتلي للوضع المتفجر

لقد ظن القوتلي أن تأليف حكومة خالد العظم الجديدة على أساس ابرام اتفاقية التابلاين والاتفاقية المالية، وان الاعتماد على حسني الزعيم قائدا للجيش وحاكما عسكريا للبلاد يقوم بعقد

الهدنة مع اسرائيل هو السبيل لارضاء الولايات المتحدة وفرنسا معا الى جانب الدخول بمفاوضات مع بريطانيا لتأمين مصالحها مما يجعله في مأمن من المكائد الدولية ومن غضب الحكومات العربية، بالوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة وفرنسا غير مقتنعتين اطلاقا بقدرة القوتلي على اقناع مجلس النواب بالموافقة على ابرام الاتفاقيتين، **كما لم تكن الولايات المتحدة مقتنعة بقدرة نظام القوتلي على عقد اتفاقية الهدنة بما يتفق مع مطامع اسرائيل في ظل النظام الديموقراطي البرلماني، كما لم يكن في نية بريطانيا اطلاقا الاعتماد على شكري القوتلي لتنفيذ سياستها ونفوذها في سورية، وهكذا فان القوتلي لم يحسب ان محاولته ارضاء هذه الدول الثلاث المتصارعة على النفوذ كان ضربا من العبث.**

الصراع الدولي من خلال القوى السياسية في سورية

لم يظهر الجيش كقوة سياسية منظمة يمكن أن تعتمد عليها فرنسا والولايات المتحدة لتأمين مصالحها الا بعد انقلاب حسني الزعيم، أما القوى السياسية التي كانت بريطانيا تعتمدها فقد كانت معروفة، فالحزب الوطني كان يدعو رسميا لسياسة التعاقد مع بريطانيا، كما كان حزب الشعب يدعو للاتحاد مع العراق متحالفا مع فيصل العسلي الذي انقلب على القوتلي بعد أن تبناه واعتمده وفسح أمامه استغلال مصلحة الميرة وأجهزة الدولة، لينشيء حزبه، ثم أخرجه نائبا عن الزبداني، وفيما يلي بعض التفاصيل التي لا بد منها لمعرفة بعض بواطن الأمور:

علمت ان عصام مريود [1] الضابط في الجيش السوري انتسب الى الحزب التعاوني الاشتراكي، فسألته هل لفيصل العسلي تنظيم في الجيش، فقال بلى، ثم سألته عن العلاقة بين فيصل

(1) تخرج الضابط عصام مريود من الكلية العسكرية العراقية، وكان ضابطا في الجيش العراقي قبل انتسابه للجيش السوري وكانت أسرة مريود لاجئة للعراق منذ العهد الفيصلي.

العسلي وحسني الزعيم فقال انها على أسوأ حال، قلت له: لقد كانا صديقين، فأجابني كان هذا فيما مضى.

لقد أصبح شكري القوتلي يخشى فيصل العسلي بعد أن أسفر عن وجهه ووثق صلاته بالعراق وصار يعمل للوصول الى رئاسة الجمهورية وقد أخبرني فيما بعد أحد الضباط الذين اعتقلوا القوتلي أنه قال عند اعتقاله:

عملها فيصل العسلي؟ (يقصد بذلك قيامه بالانقلاب ضده)

كان رشدي الكيخيا ينظر الى فيصل العسلي قبل تحالفهما نظرة الاستهزاء، ولذلك استغربت كثيرا عندما سمعت أنه زاره في بيته في حي المهاجرين على جبل قاسيون، فسألت الكيخيا عن سر هذه الزيارة فأجابني:

وما به فيصل العسلي؟ ثم تابع كلامه مازحا، كانت زيارتي له في وكر النسر، وهو الاسم الذي كان فيصل العسلي يطلقه على منزله في مرتفعات حي المهاجرين، تشبها بمقر هتلر في بافاريا [2] .

وفي الوقت نفسه، وقبيل انقلاب حسني الزعيم، عرض علي أحمد الشيباني الموجه العقائدي والفكري لحزب فيصل العسلي أن أتناول مساعدة مالية من السعودية أسوة بما تقدمه من مساعدات لحزب فيصل العسلي فرفضت.

وعندما أصبحت لاجئا في لبنان أواخر الستينات، بعد انقلاب الثامن من آذار 1963 أخبرني صديق عراقي كان متزوجا من شقيقة رفيقنا أدهم عكاش وكان موظفا في السفارة العراقية في لبنان أن أقل المبالغ التي كان يتقاضاها الساسة السوريون هو المبلغ الذي كان يدفع الى فيصل العسلي.

(2) كان فيصل العسلي يحذو بأفكاره وأساليبه وتنظيماته حذو الحزب النازي لدرجة ان الناس أطلقوا على أفراد حزبه اسم "المحاليق"، وهي الظاهرة التي عادت مع الثمانينات الى المانيا والغرب مع ظهور الاحزاب اليمينية المتطرفة التي يطلق عليها احيانا اسم النازية الجديدة ويتبعها شباب يلبسون الأسود ويحلقون شعورهم قصيرة جدا وقد اطلق عليهم ايضا في اوروبا اسم "سكين هيد" اي "المحاليق". وكان فيصل العسلي يفرض باسم حزبه على التجار والرأسماليين دفع مبالغ من المال بواسطة التهديد.

وفي عام 1955، قبيل زيارة صلاح سالم لسورية زارني السفير المصري، ولا أتذكر اسمه، وعرض علي مساعدة مالية للحزب لقاء تهيئة استقبال جماهيري لصلاح سالم، وعندما رفضت قال:

لم ترفض؟ ان فيصل العسلي تلقى مساعدات منا وسيخرج حزبه لاستقبال صلاح سالم، قلت له:

عندما نقرر استقبال ضيف عربي فلا داعي لتقاضي الأجور عن ذلك.

الشرارة الأولى لانقلاب حسني الزعيم تنطلق من المجلس النيابي

لا شك ان البريطانيين كانوا عالمين بما يبيته الفرنسيون والامركيون على يد محسن البرازي وحسني الزعيم فحاولوا أن يجهضوا انقلاب الزعيم قبل فوات الأوان بفضحه في مجلس النواب السوري.

ففي جلستي المجلس بتاريخ 17 و18 كانون ثاني 1949 **تقدم حزب الشعب وفيصل العسلي للمجلس باستجواب مشترك جرت مناقشته في هاتين الجلستين ومن محاضرهما تتبين الصورة كاملة، وفيما يلي نص الاستجواب:**

"في أوائل شهر كانون الأول المنصرم قامت مظاهرات في دمشق وفي عدة مدن سورية اخرى احتجاجا على الحالة التي وصلت اليها قضية فلسطين وعلى الحكم القائم في البلاد. وقد قمعت هذه المظاهرات بقسوة متناهية. فاستعمل الدرك الرصاص ضد المتظاهرين العزل من السلاح، وأدى هذا التدبير المخالف لاحكام الدستور والقانون الى وقوع عدة اصابات مميتة، وفرضت الاحكام العرفية كما فرض نظام منع التجول،

واضطهدت الحريات ولجأت السلطة العرفية الى التعذيب الجسدي" ... والاستجواب يسأل عن الاجراءات التي تنوي الحكومة القيام بها للتحقيق عن المسببين وملاحقتهم صيانة لأحكام الدستور والقوانين المرعية.

فأجاب وزير الداخلية عادل العظمة بأن التحقيق الذي قام به أثبت أنه في الايام الثلاثة الأولى التي تلت يوم 1948/11/29 (بمناسبة مرور عام على قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين) اشتدت المظاهرات في دمشق مرتدية طابع العنف. **وكانت موضع استغلال بعض ذوي النيات السيئة الذين حاولوا الاستيلاء على دائرة الشرطة وسراي الحكومة والقلعة**، وقد هاجم المتظاهرون رجال قوى الأمن الذين كانوا يرابطون في مختلف انحاء المدينة للمحافظة على النظام وعلى المؤسسات العامة والخاصة، ونهب البعض منهم بعض المتاجر في الاسواق، وحاولوا احراق بعض المحلات الخاصة والعامة، واستعمل بعضهم الاسلحة النارية والقذائف والقنابل اليدوية. أما في بقية المدن السورية فلم تحدث مثل هذه الحالات [3] كما نفى عادل العظمة وقوع التعذيب الجسدي والمخالفات الدستورية والقانونية.

فأجابه نائب حلب الشعبي أحمد قنبر "بان المظاهرات كانت بريئة وانها لم تكن للاحتجاج على مجلس الأمن فقط بل كان الشعب يعلن فيها سخطه واستنكاره ونقمته على الذين تهاونوا وفرطوا بحقوق هذا الشعب العربي سواء كانوا داخل الحدود السورية أم خارجها، وان ما قيل في الشارع قيل مثله أو أكثر منه تحت قبة البرلمان في ذلك اليوم... وأظن أن الذي أملى على معالي الوزير هذا التصوير وهذا النوع من الكلام هو نفس المصدر الذي أملى على صحيفة بيروتية أن تصور مظاهرات دمشق **بأن هنالك فئة من الناس تريد احتلال دار الحكومة ودائرة الشرطة**

(3) كنا ذكرنا ان مظاهرات حماة التي سقط فيها الشهداء كسار انطاكي ورفاقنا الاخرون كانت مظاهرات سلمية لا تستدعي ارتكاب تلك المؤامرة من قبل الدولة ضد المتظاهرين واشعال الفتنة.

والقلعة والقيام بعمل انقلابي [4] ... وقد كنا جميعا في دمشق وكنا نجوب شوارعها ونغشى مجتمعاتها ولكننا لم نسمع ابدا قبل أن تنشر تلك الصحيفة ما نشرته أن هناك مؤامرة لقلب نظام الحكم أو خلع الحكومة بالقوة المسلحة".

ثم قال: "اذا كانت الحكومة تعتقد بأن هناك مؤامرة ولا تفعل شيئا فتكون اما عاجزة عن القاء القبض على المتآمرين واما أن يكون تصورها كاذبا وملفقا."

كما قال: "ان قائد الجيش السوري أعلن في اليوم الثالث والرابع من قيام المظاهرات بقوله: أمرت بكذا وكذا... وهي لا تخرج عن مضامين اعلان الاحكام العرفية. فمن الذي اصدر الأمر الى قائد الجيش بإعلان الأحكام العرفية؟؟ هذه ناحية ما تزال غامضة ... وبعد أن هدأت المظاهرات هدوءا تاما ذهب قائد الجيش الى حلب وأنزل الجيش هناك الى المدينة وفرض منع التجول دون أي مبرر او سبب لهذه التصرفات" (**وبذلك يشير الى استخدام القوتلي للجيش أداة ضد الأحزاب المعارضة، لأن حلب مدينة شعبية).**

ثم أعقبه في الحديث فيصل العسلي فلفت الأنظار الى أن قائد الجيش حسني الزعيم اتخذ لنفسه صفة التشريع وصفة القضاء وصفة التنفيذ.. ثم قال: ان الحكومة لمست ولا شك، عندما أمرت باخلاء سبيل الموقوفين بدون مذكرات توقيف أن حسني الزعيم زجهم في السجون التي كان يسجن فيها زعماء هذه الأمة وأفرادها، أي سجون المزة في عهد الانتداب ... وقال: "انني ألفت نظركم الى أن هذه المرحلة اذا مرت بدون مسؤولية فستكونون أيضا أنتم موضع الاضطهاد والتعذيب الجسدي، وأؤكد أن هذا الرجل سينقض عليكم في فترة ثانية... وهو رجل لا يعرف من قيادة الجيش سوى سلطانه... وهناك اضبارة تحقيق بحق حسني الزعيم عندما كان قائدا للواء السادس في دير الزور. هذه

(4) جرت محاولة الهجوم على دار الحكومة ودائرة الشرطة والقلعة (سجن دمشق) من قبل جماعة فيصل العسلي.

الأضبارة تدينه وتثبت أنه كان يتآمر مع الملك عبد الله، وقد سمعت هذا التصريح من الأمين العام لوزارة الدفاع أحمد اللحام الذي أبقاه قائد الجيش بدون صلاحيات" وقال العسلي: "ان الجيش يضم خيرة الضباط وأحسن الجنود وأنا احترم ضباطه وجنوده من اكبر قائد فيهم الى أصغر جندي، ما عدا القائد العام".

وقد عقب معظم نواب المعارضة على هذه الأمور دون أن يتعرضوا للجيش وفي الجلسة الثانية قال فيصل العسلي انه سمع انفجارا هائلا في ساحة داره، فخرج على أثر هذا الانفجار من البيت فرأى شخصين ملثمين. وقد تمكنا من الفرار بعد أن تركا دراجتهما النارية، وحين ضبط الدراجة وجد ان لوحتها مغطاة بشكل اخفى رقمها، وأنه أخبر وزير الداخلية بأن الدراجة تعود للجيش، وقدم الشكر "لفخامة رئيس الجمهورية الذي أولى هذا الأمر عظيم اهتمامه وعنايته"... وذكر أن الشرطة العسكرية أخذت الدراجة من افراد الشرطة المدنية بالقوة وأنه أبلغ رئيس الجمهورية بما حدث فاستنكره شخصيا... ثم قال العسلي عن قائد الجيش بأنه ما لم يوضع حد لأعماله فسوف يعتدي على كل نائب في المجلس.

وكان جواب الحكومة أنها ستحقق في الأمر وتحيل الموضوع الى القضاء.

وأيد رشدي الكيخيا فيصل العسلي، وطلب انزال العقوبة الصارمة بالفاعلين والدافعين، بعد أن مهد لكلمته بقوله:

"منذ أمد طويل مرت بعض الحوادث على القطر الشقيق العراق وزج الجيش هناك بالأمور السياسية - يقصد انقلاب بكر صدقي في عام 1936- وكان من نتيجة ذلك ان دبت الفوضى في الجيش وقام يتخطى صلاحياته ويعمل اعمالا ليست من اختصاصاته، مما جعل العراق مسرحا للفوضى والاضطراب أمدا غير قصير. وكان من نتيجة هذه الفوضى ان قتل فريق كبير من رجال العراق الذين خدموا القضية العربية في الماضي، اما الأسباب

الرئيسية التي أدت الى تدخل الجيش في السياسة فانما تعود الى بعض رجال السياسة الذين أرادوا أن ينتصروا بالجيش توصلا لأغراضهم وأطماعهم الخاصة، فكانت النتيجة وبالا عليهم وعلى أبناء العراق جميعا. وما جر من الويلات على القواد العسكريين بصورة خاصة وعلى رجالات السياسة هناك. ولذلك أرى أن من أكبر الخطيئات التي يمكن أن ترتكبها حكومة أن تدع الجيش يتدخل بالشؤون السياسة".

ولما وصلت كلمات النواب الى رئيس الجمهورية والتلميح باستخدامه الجيش لتنفيذ أغراضه حاول رئيس المجلس فارس الخوري أن يغلق باب الكلام فقلت له:

- ان البحث هام جدا يا سيدي.

فأجاب:

- نعم، والأخوان يشاركونكم في هذا القول.

فقلت:

- اذن أرجو مقام الرئاسة ان يفسح لي وللنواب مجال الكلام.

فتابع المجلس مناقشته، وتكلم زكي الخطيب [5] وحبيب كحالة، ولما وصل كحالة في كلمته الى قوله: "اننا نريد أن يترفع الجيش عن القضايا السياسية" تدخل وزير المعارف محسن البرازي مقاطعا بحدة وعنف صارخا "من قال لك ان الجيش قد تدخل في الامور السياسية، فالقضية - ويعني قضية القنبلة - في يد القضاء".

ولما جاء دوري في الكلام قلت:

"أعتقد يا سادتي أن هذه القضايا - وأعني قضية القنبلة - تبحث من بعض وجوهها ويترك أساسها وأصلها. ان حادث هذا اليوم ليس حادثا منقطعا عن سلسلة من حوادث الاجرام - واسمحوا

(5) زكي الخطيب من رجالات دمشق، كان وطنيا شريفا، ومن أعضاء الكتلة الوطنية ولكنه انفصل عنها منذ عام 1936، وبعدها صار يرشح نفسه عن دمشق بصفته مستقلا عنها.

لي أن اتكلم بصراحة - اشترك في تشجيعها بصورة مباشرة او غير مباشرة بعض المسؤولين حتى وصلت الأمور الى درجة خشي معها وقوع اصطدامات دامية في هذا المجلس. ويشهد الله اننا لا نقول هذا على سبيل التهويل.. إذ أن شرفنا يمنعنا من أن نهول او نبالغ، فاذا كانت حوادث الاجرام لم تتعد حتى الان حدود الاشخاص الذين ذهبوا ضحيتها وقصد من ورائها الانتقام من النواب (وكنت أعني مقتل الشهيد محمد عبده علوش والاعتداء في حماة على حزب الشباب) فان الأمر سيعم وسيتناول موقدي النار أنفسهم، واكرر أن الحوادث الاجرامية لن تقف عند هذا الحد، بل أنها ستحرق الاشخاص الذين **يشعلون النار. لقد كان قول رئيس الوزراء صحيحا فيما يختص بأن القضاء له القول الفصل في هذه القضية، ولا يجوز لنا أن نتهم الجيش او نتهم الآخرين** ولكني اريد ان أسألكم بربكم: هل القضاء مصون في هذه البلاد من التأثير والضغط عليه؟

أجيبكم عن قناعة راسخة ان القضاء غير مصون من التدخل في هذه البلاد، وأن التبعات ضائعة، نعم أيها الاخوان ان بعض أولئك الذين تعاقبوا على الحكم هم المسؤولين في الدرجة الأولى، وهم الذين أوصلوا البلاد الى هذا الدرك الذي ترونها فيه. بودي أن أشرح لكم حوادث اجرامية عديدة وقعت. وبودي ان أؤيد ذلك بشهادة أشخاص بأسمائهم. ولكني آسف لأن المصلحة الان تقضي بأن لا ابوح بمثل هذه المعلومات، لأنها تتناول أشخاصا تسلموا مقادير الأمور وأشخاصا لا يزالون يديرون ويسيرون سياسة هذه البلاد. فيا دولة الرئيس أرجو أن تضع حدا حاسما لهذه الحوادث. ولكن لا بالأقوال وصف الكلام... **أيها السادة، انني أريد من الذين تعاقبوا على الحكم ان يرجعوا الى ضمائرهم اذ انهم سيتحملون تبعات تهديم استقلال هذه البلاد اذا حلت الكارثة لا سمح الله، وهم الذين سيسألون عن مصير أبنائهم** وأحفادهم من بعدهم، فاذا لم يتقوا الله في الأمة فليتقوه في أولادهم وأحفادهم، ان القضية يجب أن لا تنتهي برصف الكلام في هذا المجلس، انها قضية اخلاقية وقضية وجدان وضمير، فاذا

لم يرجع اولئك المسؤولون عن الأساليب الماضية التي ساروا عليها حتى الان فانني أقول بأن ما يبيتون من اجرام سيتناولهم، لأن المجرم والدافع للاجرام سيقع بشر ما فعل".

□

ما هي الآثار التي تركتها تلك الجلسة على أصعدة التناقضات الداخلية والعربية والدولية التي بلغت ذروتها؟

قابل الناس حادثة القاء قنبلة على بيت فيصل العسلي بالشك والارتياب فاذا كان حسني الزعيم غير موثوق، فان فيصل العسلي مدان بنظر الناس باغتيال محمد علوش، وقد خدم العسلي حسني الزعيم من حيث لا يريد خدمة كبرى، اذ ان تهجمه عليه واتهامه بالقاء القنبلة على منزله سبب عطفا على الزعيم في أوساط الجيش والشعب وحتى ضمن الذين يكرهون الزعيم لشدة كره الناس للعسلي ولحزبه الفاشيستي.

وقد ولدت تلك الجلسة، وما جاء فيها من اتهام قائد الجيش بالخيانة العظمى، حقدا شديدا في نفس حسني الزعيم على فيصل العسلي وعلى حزب الشعب، وشكري القوتلي، وعلي أحمد الشراباتي بشكل خاص لأن اضبارة التحقيق التي ادعى العسلي وجودها في وزارة الدفاع، والمعلومات التي طرحها، انما استقاها من أحمد الشراباتي وأثارها بالتفاهم معه.. وقد طالب صراحة بموجبها بتنحية قائد الجيش واحالته الى المحاكمة ... وفي الجلسة التالية، عند متابعة البحث بقانون الجيش، اقترح اضافة مادة للقانون تقضي بأن يكون رئيس الأركان حائزا على شهادة الأركان كوسيلة لتنحية حسني الزعيم عن منصبه [6]

وقد امتدح العسلي أحمد اللحام الأمين العام لوزارة الدفاع والشخص المقرب من الرئيس القوتلي، وقال ان حسني الزعيم سلبه صلاحياته "لنظافته واستقامته" وقد اعتبر الزعيم ذلك

(6) أجاب خالد العظم بأنه اذا نفذ هذا الاقتراح فسيبقى الجيش السوري بدون رئيس أركان، وقبل طرح هذا الاقتراح يجب أن نفكر فيما اذا كان تنفيذه ممكنا.

ترشـيحا [7] للحـام لأن يحـل محلـه فـي قيـادة الجـيش، فأصـبح حسـني الزعيم بعد هذه الجلسـة فـي موقـف الـدفاع عـن نفسـه وعن مركزه وبقائـه تجـاه المعارضـة النيابيـة التـي تطالـب بتنحيتـه وتجاه الرئيس القوتلي الذي لا يثق بدعمه وتأييده له.

وكانـت خطيئـة كبـرى مـن القـوتلي ان يلعـب هـذه اللعبـة ويحاول ان يمسك بكلا الطرفين المتصارعين. فقد وقـف علـى بعـد متساو بين محسـن البرازي وحسـني الزعيم من جهة وبين فيصـل العسـلي من جهة اخرى. وكان يعتبر ان موقفه بين اصطراع هـاتين القوتين وتوجيههما عند اللزوم هو الطريقة المثلى.. علما بأنه كـان بامكان القوتلي، بمرسوم واحد منه، ان ينحي حسـني الزعيم عن القيادة.

ان تنبيه الكيخيا الى خطورة الانقلابات العسكرية، وما جرتـه من ويلات على العراق في الماضـي لـم يأخـذه النـاس والمجلـس على محمـل الجـد والاهتمـام وان كـان حسـني الـزعيم قـد عـرف بمغامراته في عهد حكومة فيشي.

كما كان هناك اعتقاد عام بأن أي انقلاب في سورية، وهـي المحاطة بالطامعين من كل الجهات، أمر يعرض استقلالها للخطـر، بعـدما عـانى السـوريون مـا عـانوه خـلال ربـع قـرن مـن الاحـتلال الفرنسـي.

بالاضـافة الـى أن تقيـيم الانقلابـات التـي جـرت فـي العراق كان أمرا يختلف عليه السوريون، فـاذا كـان رشـدي الكيخيا يعتبر ان الانقلابات جرت الويلات على العراق، فانها

(7) من ضباط الجيش العثماني الذين أحيلوا على التقاعـد بعـد الاحـتلال الفرنسـي، كـان قريبـا مـن الكتلة الوطنية وموضع ثقتها، لـذلك اصـطحبه الوفـد السـوري الـى مفاوضـات بـاريس عـام 1936 بصفته عضوا في الوفد وخبيرا عسكريا، وبعد مضي سنوات طويلة وهـو بعيـد عـن الجـيش عينـه القوتلي أمينـا عامـا لـوزارة الـدفاع، ولـم يكـن لـذلك مـن تفسـير سـوى أن القـوتلي كـان يهـدف للسيطرة على الجـيش بواسـطة أنصـاره. أمـا تأييـد فيصـل العسـلي الـذي كـان يهـيء لانقـلاب عسكري يفرض على سورية حكما ديكتاتوريا نازيا لأحمد اللحـام فسـببه ان العسـلي كـان يـرى في حسـني الزعيم عقبة دون تحقيق غايته لأن حسـني الزعيم كان طامعا مثله بالقيام بـانقلاب عسـكري بالاتفـاق مـع محسـن البـرازي، ولهـذا السـبب اقتـرح العسـلي أحمـد اللحـام الضـابط المتقاعد الضعيف رئيسا لأركان الجيش بدلا من حسـني الزعيم.

كانت بنظر الكثيرين انقلابات تحريرية، فانقلاب بكر صدقي كان بأمر الملك غازي، وقد وضعت الدعاية آنذاك الملك غازي مع القائد بكر صدقي في صف الابطال لقضائهما على ثورة الاشوريين.

أما الانقلاب الثاني الذي قام به رشيد عالي الكيلاني والحاج أمين الحسيني بمساعدة نخبة من ضباط الجيش العراقي، فقد اعتبر ثورة ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية وقد بلغت حماسة الشعب العربي لهذه الثورة حد التطوع للقتال في صفوفها.

وهكذا كانت نتيجة كلمة الكيخيا في المجلس تخالف ما أراده وما ابتغاه، ففي الوقت الذي بلغت فيه النقمة الشعبية أقصاها على حكم القوتلي كان خطاب الكيخيا بشيرا بالانقلاب العسكري بدلا من أن يكون نذيرا، والدليل على ذلك ان الشعب في سورية قابل انقلاب حسني الزعيم فيما بعد بالتأييد، كما ساهم فيه أقرب المقربين من شكري القوتلي نفسه.

آخر كلمة ألقيتها في المجلس النيابي قبل انقلاب حسني الزعيم وقد ورد فيها ما يلي:

"لو أن جزءا يسيرا من هذا الاهتمام الذي نراه في المشاريع التي تتقدم بها الحكومة كان لتقوية الجيش وتجهيزه وتسليحه فانني على يقين بأن كارثة فلسطين ما كانت لتقع بالشكل الذي شاهدناه، ولا أعني من قولي هذا ان معركة فلسطين قد انتهت ولكنني أقول بأن علينا أن نجعل من كل بيت في هذه البلاد قلعة، وان نجعل شبابنا وفتياتنا وجميع القادرين على حمل السلاح جنودا يدافعون عن البلاد..

لقد أصبح الخطر مداهما، وفي سبيل الدفاع يجب أن نسترخص كل غال لذلك فانني أوافق على صرف هذه

المبالغ وعلى انفاق أضعافها، أوافق بدون حدود ما دام الانفاق في سبيل الدفاع وتقوية الجيش، ولكنني أخشى ان يكون هذا الانفاق عبارة عن فورة، وبعد شهور، بعد ان تحل السياسة بعض المشاكل يغلب علينا الاسترخاء وضياع الفرص مرة أخرى، وأخشى اكثر من ذلك أن يكون تصرفنا فوضويا بدون خطة، لأن سياسة الدفاع عن البلاد وتقوية الجيش جديا تتطلب أمورا أخرى وموازنة غير هذه الموازنة، تتطلب موازنة تتجه اتجاها مخططا نحو تقوية انتاج البلاد، لأن الذي ينوي أن يدافع عن البلاد يجب عليه بالدرجة الأولى ان ينمي مواردها وانتاجها، ذلك لأن الانتاج الضئيل والشعب الفقير لا يمكن ان يقفا أمام نظام حديث. يجب علينا اذا كنا جديا قد شعرنا بعظم كارثة فلسطين ان نعيد النظر في كل أمورنا، وان نجعل اقتصادنا ينسجم مع سياستنا الدفاعية التي يتطلبها الحاضر والمستقبل. اننا لم نشعر حتى الان بأي اهتمام نحو تغيير نظامنا الماضي، النظام الاقطاعي المتخلف العقيم الذي يجب ان يزول، وان نتجه شيئا فشيئا نحو نظام اشتراكي عادل يحل محله في هذه البلاد ويجعل من شعبنا شعبا، ومن بلادنا بلادا، ومن مواطنينا مواطنين، لا أن يعيش معظمهم على هامش الحياة وبمستوى لا يليق بانسانيتهم.

ان الامة التي تريد ان تدافع عن كيانها ووجودها ضد الغزاة الطامعين، يجب ان تسير في الطريق الذي يؤدي الى هذا الهدف".

□

لقد أصبحت كارثة فلسطين المنطلق النفسي والفكري المقنع لدعوتنا الاشتراكية والتبشير بها في الأوساط الشعبية، وفي الوقت الذي كنا نبشر فيه بالدعوة لتغيير اوضاعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية كأعظم العبر التي استخلصتها الأمة من الكارثة الفلسطينية، أصبحت الأحزاب الأخرى تدعو لذلك أيضا.

□

45

1949: الصراع على النفوذ الاستعماري في سورية - الشركات الاميركية تضغط على سورية لعقد اتفاقية مرور البترول السعودي من سورية (التابلاين) - مشروع اتفاقية النقد السوري مع فرنسا.

لو رجعنا الى صحف الاشهر الثلاثة الاولى من عام 1949 لقرأنا عناوين الأخبار التالية:

جولة فاضل الجمالي على العواصم العربية - هل هناك معاهدة تحالف بين لبنان وبريطانيا؟ - جواب سوريا على رسالة نوري السعيد - جميل المدفعي في دمشق -سياسة نوري السعيد وموقف البلاد العربية منها - هل يعقد تحالف بين سوريا وبريطانيا؟ - السعيد يقترح ميثاقا - مشروع الهلال الخصيب - زيارة فاضل الجمالي للرئيس القوتلي - مؤامرة عراقية انكليزية لضم العراق الى سوريا - هل نفذ نوري السعيد ميثاق سعد آباد؟

لكن الاستعمار القديم لم يكن وحده في الميدان، بل كان هنالك الاستعمار الجديد الذي أصبح بعد الحرب العالمية الثانية اشد خطرا على الأمة العربية من الاستعمار القديم، وأصبح كالوباء بالنسبة للجسم العربي الهزيل، فقد كان منذ ذلك الوقت يطرح شباك الاحلاف والمعاهدات، ولو عدنا الى صحف الفترة ذاتها لقرأنا العناوين ذات الدلالة التالية:

"مشروع مارشال يطرح على البلاد العربية" - طبخة حلف دول المتوسط - مشروع ترومان لانعاش الشرق الاوسط، هل تجمع امريكا العرب واسرائيل في حلف شمالي الأطلسي؟"

في تلك الفترة نشر في الصحف المحلية خبر بسيط لم ينتبه اليه أحد ولكنه ذو دلالة هامة سوف تتكشف فيما بعد، ففي يوم 10 آذار 1949 أي في ذروة الصراع البريطاني الأميركي على النفوذ في سورية - **ذكرت الصحف ان دار السفارة الاميركية بدمشق هوجمت ليلا من قبل جماعة من اللصوص وقد جرى تبادل اطلاق النار بينهم وبين الموظفين الاميركيين وان "كوبلاند" كان من موظفي السفارة الذين تولوا الدفاع عنها، ولم تبرز الصحف اسم شخص غيره.**

لقد قرأ الناس هذا الخبر باستغراب لأنه لم تجر أي سابقة لمهاجمة السفارات من قبل اللصوص، وقد جرى مثل هذا الاعتداء بعد عام على الكولونيل الانكليزي سيترلينغ، وفيما بعد اصبح تفسير حادث الاعتداء على السفارة الاميركية واضحا، فلقد بلغ الصراع قبيل انقلاب حسني الزعيم بين الاجهزة البريطانية الخفية وبين الاجهزة الأميركية حدا من العنف أصبحت معه هذه الاجهزة عصابات ارهابية تتصارع فيما بينها.

□

بعد اثنين وعشرين عاما من هذه الاحداث أصدر كوبلاند كتابه المعروف "لعبة الامم" [1] وفيه مزيد من الايضاح لدوره في سورية في تلك الفترة، فهو يبين انه كان المخطط لانقلاب حسني الزعيم، وانه من مؤسسي المخابرات المركزية وانه لعب دورا كبيرا ابان الحكم الناصري.

لقد اخبرني العقيد محمود الهندي، أحد كبار موظفي وزارة الدفاع - عندما اصبحت وزيرا لها عام 1950 - انه تعرف على كوبلاند في عام 1949، وكان ينظر اليه كواحد من موظفي السفارة الاميركية، ولكنه فوجىء به ذات يوم وهو يفاتحه بالانتساب للمخابرات المركزية فاعتذر وقال له:

---

(1) ترجم هذا الكتاب الى العربية ونشر لأول مرة عام 1970 باذن رسمي من المؤلف لدار النهار في بيروت تحت عنوان "لعبة الأمم" ولكن العنوان الكامل هو لعبة الامم ولا أخلاقية سياسة القوة.
the game of nations: the amorality of power politics

- ما هي غايتك من ذلك:

فأجابه كوبلاند

- ان غـايتي هـي معرفـة التشـكيلات والخلايـا اليسـارية المتطرفة في سوريا.

فأجابه الموظف الكبير:

- يمكننـي ان أخـدمك ولكـن عليـك بالمقابـل أن تخـدمني فتخبرني عن شبكات المخابرات الاسرائيلية في سوريا.

فضحك كوبلاند كثيرا.. فسأله الموظف السوري.

- مالك تضحك؟

فأجابه كوبلاند:

- لو فعلت هذا لنحيت فورا.

فسأله:

- ولماذا؟

أجاب:

- لان الصهيونية متغلغلة في أجهزة الدولة عندنا، ولا سيما جهاز المخابرات.

قال له:

- أ إلى هذا الحد؟

قال

- بل أكثر مما تتصور.

وقـد قـال لـي محمـود الهنـدي انـه أخبـر الـرئيس القـوتلي بالحادثة

اتفاقية التابلاين، والاتفاقية المالية مع فرنسا

بتاريخ 1949/1/18 نشرت جريدة "النصر" الدمشقية مقالا بقلم احمد الشراباتي نائب دمشق ووزير الدفاع السابق يدعو فيه بشكل مبطن لعقد اتفاقية التابلاين ويتزلف فيه للملك عبد العزيز آل سعود وقد جاء في المقال:

"كلنا يذكر تلك الحملة المغرضة التي شنتها شركة التابلاين على سوريا بقصد ارغامها على قبول شروط معينة (ولم يذكر هذه الشروط).. وأنا أذكر بمزيد من الحزن ما قيل عني شخصيا لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود في برهة المفاوضات مع التابلاين من أن اصراري على شروط معينة (ولم يذكرها) يسبب ضررا ماديا للمملكة العربية السعودية".

ويخلص الى القول: "ان موقف المملكة العربية السعودية من هذه القضية نفسها، اي قضية التابلاين، موقف مشرف ومتميز ومتى كشف النقاب عن بعض الاسرار عرف العرب اي سند كان لهم في اسد الجزيرة ومليكها العظيم".

كما نشرت الصحف ان مغتربا من أصحاب الملايين يدعى [2] "منهل" دفعته الوطنية والشهامة لأن يغامر بأمواله بالعمل لاكتشاف النفط السوري الدفين الذي تحجبه "شركة البترول السورية المحدودة" الملحقة بشركة نفط العراق، والتي نالت رخصة للتنقيب عن البترول [3] في جميع أنحاء سوريا ما عدا جنوبي خط العرض المار بدمشق على اعتبار ان تلك المنطقة الجنوبية بركانية لا تحتوي على حقول بترولية.

والذي ظهر فيما بعد ان الشركات البترولية الأمريكية والبريطانية كانت متفقة فيما بينها حول استثمار البترول السوري من قبل الشركات الاميركية فقد تنازلت شركة نفط العراق بعد

---

(2) ادعى هذا الرجل انه من أصل عربي من مدينة زحلة، وفي سورية تزوج من فتاة دمشقية صغيرة السن وهو في سن الشيخوخة وأشهر اسلامه قبل زواجه منها، وهو اميركي مستعرب من شكله ورطانه لسانه وضعف لغته، ارسلته المخابرات الاميركية والشركات البترولية، وسيرد فيما بعد قصة منهل والنفط السوري وشركة كونكوريا الخ..

(3) كان الدستور السوري يحصر بالمجلس النيابي حق منح أي امتياز. ويمكن للسلطة التنفيذية ان تمنح رخصة بالتنقيب عن النفط والمعادن. وهذه الرخصة لا تفيد المنقب مهما تحمل من نفقات الا في ترجيحه على غيره عند تساوي الشروط بين عروض شركات الاستثمار .

عامين، عن امتيازها وسلمت معداتها الى وزارة الاشغال العامة.. وبعد سنتين منح منهل رخصة التنقيب عن البترول كما سيرد فيما بعد.

ولذلك تركزت الحملة السياسية والاعلامية - بعد كارثة فلسطين - على الدعاية الواسعة للشركات البترولية البريطانية والاميركية بشكل منسق ومنسجم في سورية ولبنان، وكان كبار السياسين وكلاء لهذه الشركات: كان نعيم الانطاكي وكيلا لها في سورية، وحبيب أبو شهلا في لبنان، كما تم استخدام عدد من رجال السياسة والصحافة في البلدين لمصلحة منح الامتيازات لهذه الشركات.

واذا استعرضنا بعض عناوين الصحف خلال شهر كانون الثاني من عام 1949 نجد فيها:

550 مليون دولار تخصص لمشاريع البترول في الشرق الاوسط، شركتان للنفط تطلبان مطارين في سورية، اتفاق سورية ولبنان حول التابلاين، اجتماع في شتورا لبحث قضية التابلاين، وصول ممثل الخارجية السعودية الى دمشق بشأن التابلاين، هل تكون سورية بمنجاة من الغزاة اذا رفضت اتفاقية التابلاين؟ النفط يغطي العملة السورية... افتتاحيات لأصحاب الصحف تشجع وتحض على البت بالمشاريع والاتفاقات البترولية، اعلان من التابلاين تعتذر فيه عن توظيف العدد الكبير من السوريين لأن الحكومة لم توقع بعد الاتفاقية، هذا بوقت كانت البطالة فيه تعم سورية.

خلال شهر آذار 1949 بلغت الحملة اوجها وأصبحت أجهزة الاعلام تضغط على المجلس النيابي للبت العاجل باتفاقيتي النقد والتابلاين باعتبارهما مكملتين لبعضهما في بناء الاقتصاد السوري.

□

أين نقف في خضم هذا الصراع؟

وعلى أي ساحل نرسو؟

ما هي خطتنا السياسية والاعلامية، بعد هذا الشرح الطويل لأوضاعنا الدولية والعربية والداخلية؟

من هم خصومنا ومن هم حلفاؤنا في هذه المرحلة؟ وما هي أهدافنا فيها؟ ما هي اساليب تحقيقها؟ ومن أين نبدأ والى أين ننتهي؟

كان الهدف الواضح أمامنا هو تعديل اتفاقية البترول مع شركة التابلاين الاميركية، وعدم المصادقة على الاتفاقية المالية مع الحكومة الفرنسية...

أما الاسلوب الذي لم يكن لدينا غيره آنذاك فهو عرقلة عرض نصوص الاتفاقيتين على المجلس النيابي، وكانت حجتنا في تعديل اتفاقية التابلاين ان عائداتها التي لا تتجاوز بضعة ملايين من الدولارات لا تبرر المغامرة بجعل موطىء قدم في البلاد لاميركا حليفة الصهيونية، اذ من يجلب الدب الى كرمه؟ خصوصا اذا كان العدو الصهيوني متخفيا تحت جلد ذلك الدب؟

انها مغامرة لها نتائجها البعيدة المدى سياسيا على القضية العربية لا سيما وان الهيكل السوري لا يحتمل غلاظة وثقل ووطأة أنابيب التابلاين.

قد يكون مرور الانابيب مصدر قوة لسورية لتهديد الولايات المتحدة والضغط عليها.. ولكن هل بلغت سورية هذا المبلغ بحيث تستعمل هذا السيف أم أن هذا السيف سيعمل في رقاب شعبها؟ ولا سيما ان البوادر أخذت تظهر منذ الان على الحكومات والصحافة ورجال السياسة؟

هذه هي التساؤلات التي طرحتها على نفسي آنذاك بشأن اتفاقية التابلاين.

أما بشأن الاتفاقية المالية مع فرنسا فكنت أقول في نفسي هل هذه اتفاقية بلد حر مستقل مع بلد أجنبي؟ لو عقدت هذه الاتفاقية مع فرنسا قبل الاستقلال لكان لها ما يبررها، أما أن تعقد

بعد الاستقلال فهذا أمر مرفوض، فهي اتفاقية مجحفة بحقوق سورية وهي تكريس لامتيازات الانتداب الاقتصادية والمالية..

كنت أقول في نفسي، أبان تلك المعركة القاسية: ان كارثة فلسطين مرتبطة ارتباطا صحيحا بفساد الاوضاع الداخلية، وأن الطريق الصحيح هو في النضال لكشف الحقائق وتحديد المسؤوليات، وها قد أتاحت الظروف الفرصة لتشكيل لجنة التحقيق البرلمانية، اذن فلنبذل أقصى الجهود لنصل الى الحقائق النهائية في هذه القضايا الكبرى لنعرضها جميعا على الشعب عارية من لبوس الزيف والخداع.

ولكن على من سنعتمد للوصول الى هذه الاهداف؟

كان اعتمادنا الأول على جماهير الشعب، الطاهرة النظيفة، التي لم تصل اليها محاولات الرشوة والافساد، والتي كانت فلسطين قضيتها الأولى.. أما في المجلس فكان حزب الشعب، أقوى الأحزاب المعارضة، حليفنا المرحلي.

اذن فلتتمكن معه الأواصر ولتنسق الجهود..

ان مشروع الاتحاد مع العراق غير عاجل وغير ملح الان، واذا ما طرح في المستقبل فلن يكون الا بالطرق الديموقراطية، وعندها تتحدد المواقف.

□

اتفقت مع حزب الشعب على أن ألقي في مقره الحزبي في دمشق الذي يقع في شارع متفرع من شارع بغداد محاضرة حول اتفاقية التابلاين، بعد ان أحالت حكومة العظم نصوص الاتفاقية الى المجلس النيابي بتاريخ 1949/2/18 وكنت قد وجدت صعوبة كبيرة في دراستها وفهمها وبذلت لأجل ذلك جهدا كبيرا، لأن الشؤون البترولية كانت جديدة علينا، كما أني لم أعثر على أي مرجع أو مرشد فقد كانت البلاد محرومة من المختصين بشؤون البترول.

شهد المحاضرة جمهور من طلاب وطالبات الجامعة ومن رجال الفكر والسياسة، وقد ركزت على ضآلة عائدات مرور أنابيب

التابلاين وان ما تنشره الحكومة والصحافة والتابلاين عن أنهار السمن والعسل التي ستدرها الاتفاقية على البلاد انما هو كذب وافتراء.

كما عقدت ندوات أخرى في دمشق وحماة وحلب وبقية المدن السورية، وكلها تدعو لرفض الاتفاقية اذا لم يجر تعديلها فعمت المظاهرات التي كان الطلاب عمودها الفقري انحاء سورية مما اضطر الحكومة لتأجيل افتتاح المدارس اسبوعا بعد اسبوع، بعد انتهاء العطلة الانتصافية وكانت الحكومة تمارس أقصى أساليب العنف في قمعها، مما اضطرني لتقديم الاستجواب التالي في جلسة 1949/3/9:

"دولة رئيس مجلس النواب الموقر:

أثناء تفريق مظاهرة الطلاب ضد التابلاين قامت الشرطة بأعمال قاسية وشتم واهانات لا تليق برجال الأمن، ولم تتردد من الانقضاض على فتاة طالبة، الامر الذي استنكره الناس واستفز شعور الرأي العام. لذلك نرجو من الحكومة التحقيق عن التجاسر ضد الفتاة الطالبة لمعاقبة المتجاسرين ووضع حد لمثل هذه الاعمال".

كان المجلس النيابي في تلك الفترة يعقد جلسات متواصلة يوميا تقريبا، لاقرار الموازنة وقد استطعنا تأجيل عرض الاتفاقيتين على المجلس باحالتهما الى اللجان النيابية، ولكن الموضوع كان يفرض نفسه على مناقشات البرلمان تحت ضغط الظروف العامة في البلاد، لذلك عندما اثار خالد العظم رئيس الوزراء موضوع مظاهرات الطلاب تصديت له قائلا:

"ان هذه الاتفاقيات يجب ان تدرس وتمحص تمحيصا دقيقا، ولا يجوز ان تقوم المظاهرات للتأثير والضغط على الحكومة او المجلس لسحب هذه المشاريع ورفضها. ان هذا القول صحيح لو كانت الأمور في بلادنا تجري في مجاريها الطبيعية، ولكنني أشعر بخلاف ذلك، ولذا فاني اعطي الطلاب الحق بتظاهرهم وبدعوتهم لرفض هذه المشاريع، ذلك لأن الجو غير الأخلاقي الذي سيطر ولا

يزال يسيطر، والذي يقوم بعض الدعاة بالترويج له - واعتقد انه شائع وغير خاف على الحكومة - من رشوة بعض الرجال بالاموال التي اتوا بها من مصادر معلومة للدعوة لهذه الاتفاقيات، ففي مثل هذا الجو يحق للطلاب ان يقفوا هذا الموقف الذي شاهدتموه.

وما على الحكومة الا أن تبحث جديا عن الاشخاص الذين تناولوا الرشاوى - لأنني اعتقد ان من يقبض مالا لابرام هذه الاتفاقيات هو خائن بحق وطنه، وأقول هذا بصراحة ووضوح.

ان دولة رئيس الوزراء قال ان هذه الاتفاقية تلزم البلاد أجيالا عديدة ولا تقتصر علينا نحن، فاذا اردتم جوا طبيعيا لمعالجة هذه الامور معالجة طبيعية، فيجب على الحكومة ان تلاحظ هذا الامر وان تحقق عنه وان تعاقب من يستحق العقاب، والا فان المظاهرات ربما استمرت، والجو غير الطبيعي ربما دام ايضا، لأن الأمور لا تعالج بشكل طبيعي... ان كل مواطن يتناول مالا من جهة أجنبية للترويج لأحد المشاريع قبل البت به من قبل المجلس النيابي يكون عمله هذا خيانة وطنية، وأقول بكل صراحة ومع الاسف الشديد ان الشعب قد تداول وتناقل اخبارا واتهامات بحق بعض الاشخاص، ربما كان بعضهم قد توصل الى مناصب عليا في الدولة كالنيابة والوزارة، وفي اعتقادي ان الحكومة مسؤولة، ويجب عليها ان تلاحق كل شخص سواء كان صحافيا أم موظفا أم غير ذلك عندما يقبض مالا من جهة أجنبية للترويج لأحد مشاريعها".

لقد كان موقفنا في تعديل هذه الاتفاقية لمصلحة سورية موقفا بعيد النظر، اذ ان هذه الشركة ظلت على تعنتها في رفض دفع عائدات المرور بموجب الأسس التي تعاقدت عليها سورية مع شركة نفط العراق عام 1956، وظلت ممتنعة عن دفع نصيب سورية العادل من العائدات حتى عام 1962، اي الى ما بعد الانفصال.

الاتفاقية المالية مع فرنسا

كان رفضنا للاتفاقية المالية مع فرنسا، لأن هذه الدولة كانت ما تزال بعد استقلالنا تريد أن تعاملنا في أخطر شؤوننا

المالية بالعقلية الاستعمارية الاستغلالية المتعالية التي تعامل بها مستعمراتها.

لقد وضع مشروع الاتفاقية نتيجة للمفاوضات التي اشتركت بها الحكومة السورية والحكومة اللبنانية في باريس منذ 1947/10/1 حتى غاية كانون الثاني 1948 وقد أبرم لبنان مشروع الاتفاقية، ورفضته سورية ويتلخص المشروع المرفوض بالنقاط التالية كما جاء في الاسباب الموجبة للاتفاقية السورية التي عرضت على المجلس والتي تقارن أوجه الخلاف بين الاتفاقيتين (اي الاتفاقية اللبنانية ومشروع الاتفاقية السوري)

أولا: أنه لم يكن مجرد اتفاقية تصفية مالية، بل انه قيد فعلي يجعل ارتباط النقد السوري بالفرنك ارتباطا وثيقا ويبقي الليرة السورية في منطقة الفرنك.

أ) ينص على وجوب اجراء جميع المعاملات المالية بين سوريا والعالم عن طريق كتلة الفرنك الفرنسي.

ب) ينص على وجوب بقاء حرية نقل الاموال من سوريا الى فرنسا دون تحديد فيما يحصر نقل الأموال من فرنسا الى سوريا بعمليات معينة وخاضعة لانظمة مراقبة القطع.

ثانيا: كانت شروط تصفية أموال التغطية بالفرنكات شروطا ثقيلة من حيث المدة والمقدار.

أ) فالمشروع يقضي بتجميد التغطية مدة خمس سنوات أي حتى عام 1954.

ب) لا يجيز، ابتداء من عام 1953، استعمال اكثر من عشر المبلغ الاصلي اي دون المبالغ التي اضيفت او ستضاف بسبب تخفيض الفرنك، وهكذا فقد كانت الفروق التي تؤديها فرنسا على القسم المضمون مجمدة طيلة مدة الاتفاق ولا يمكن استعمالها.

ج) لا يمكن تصفية الدين على فرنسا الا بعد انقضاء (12) سنة في أحسن الفرضيات.

ثالثا: التدخل في أمور السيادة.

أ) نص مشروع الاتفاق على أن تعديل انظمة مراقبة القطع النافذة في سوريا لا يمكن تعديلها الا بالاتفاق مع فرنسا.

ب) كما نص على أن انظمة نقل الاموال بين البلدين - النافذة حينئذ - لا يمكن تعديلها الا باتفاق مع فرنسا.

ج) كما نص على احتفاظ فرنسا بجميع الحقوق التي كانت تطالب بها بالاشتراك مع انكلترا وأمريكا فيما يتعلق بالأموال المجمدة.

رابعا: أما بصدد المبادلات التجارية فان احكام المشروع توجب على سورية ان تراعي علاقاتها التجارية مع فرنسا المبادلات التقليدية بين البلدين كما تنص على حرية نقل الاموال لتسديد قيمة البضائع، وبنتيجة ذلك لا يحق لسوريا ان تمنع تصدير البضائع التقليدية الى فرنسا او تطلب تسديد قيمتها بعملة غير الفرنك.

خامسا: يتعهد الجانب السوري، بموجب الكتاب الملحق بالاتفاقية، بعدم الاعتراض على صحة النصوص والصكوك التي صدرت عن السلطات السورية او السلطات الفرنسية والمتعلقة بالشركات ذوات الامتياز، ولكنه في الوقت ذاته يطبق على هذه الشركات التشريع السوري الماضي والحاضر والمقبل".

□

بعد تعداد هذه النقاط المجحفة والاستعمارية التي وردت في الاتفاقية اللبنانية - الفرنسية، والتي حاولت فرنسا ان تفرضها ايضا على سورية، ورد في الاسباب الموجبة للاتفاقية الجديدة التي توصلت اليها حكومة خالد العظم مع الحكومة الفرنسية ما يلي:

فاذا كانت الحكومة السورية على حق في رفض الاتفاق المذكور فمما لا شك فيه من جهة ثانية ان بقاء مطاليب سوريا من فرنسا البالغة (195) مليون ليرة سورية معلقة، وترك المشكلة النقدية غامضة من غير حل، قد يكون أمرا له أسوأ الاثار في حياتنا الاقتصادية والمالية، يضاف الى ذلك احتمال تخفيض قيمة الفرنك

مرات اخرى مما يعقد المشـكلة ويجعـل التصـفية فـي المسـتقبل اكثر صعوبة وعسـرا.

وكان امـام الحكومـة لمعالجـة المشـكلة احـد طـريقين: امـا الـذهاب الـى محكمـة العـدل الدوليـة لمقاضـاة فرنسـا بمعالجـة القضية النقدية، بصرف النظر بصورة مؤقتة عن الدين علـى فرنسـا الى ان تظهر نتيجة هذه المقاضاة واما استئناف البحث مع الجانب الفرنسـي للوصول الى حلول جديدة ذات شـروط مقبولة.

والطريق الأول شـائك وطويل الأمـد (حسـب ادعـاء الحكومـة نتيجة استشـارة خبير مالي كبير)، أما الطريـق الثـاني فقـد أوصـل الحكومة اذ ولجته الى نص الاتفـاق المعـروض، وهـو يختلـف كثيـرا عن نص الاتفاق الاصلي الذي وقعه لبنان ورفضته سوريا سابقا.

□

كانت الاسباب الموجبة التي جاء ذكرها كمبرر لعقد الاتفـاق المالي مع فرنسا واهيـة لا تنطلـي علـى أحـد، لأن سـورية قـادرة بحق السيادة على الغاء امتيازات الانتداب.

وقد كان موقف المفاوض السوري قويا لأنـه كـان باسـتطاعة سورية، عند تعنت الفرنسـيين ان تلجأ فورا لتأميم شـركات فرنسـا ذوات الامتياز وفي مقدمتها البنك السوري للاصـدار، كمـا كـان مـن المســتبعد ان تلجــأ فرنســا الــى محكمــة العــدل الدوليــة لأنهــا ستخسر القضية، بل كـان مـن المصـلحة أن تلجـأ لهـا، وعنـد ذلـك سيرى العالم أي نوع من السلب والنهب والاستغلال كان الانتداب الفرنسـي يرتكبه، ولا شـك ان محكمة العدل الدولية كانت ستحكم لســورية بكامــل حقوقهــا وســيكون قرارهــا فضــيحة للانتــداب الفرنسي.

لم تعرض الاتفاقية المالية المعقودة مع فرنسـا ولا الاتفاقيـة البترولية المعقـودة مـع شـركة التـابلاين الاميركيـة علـى مجلـس النواب للمناقشة العامـة نتيجـة للمعارضـة الشـعبية والمجلسـية، وعندما حدث انقلاب حسـني الـزعيم أبـرم هـاتين الاتفـاقيتين دون أي تعديل في نصوصهما.

46

1949: لمحات خاطفة عن بعض الأوضاع الداخلية والاجتماعية.

في هذا الفصل والفصول التي تليه لمحات خاطفة عن الأوضاع الداخلية في أوائل عام 1949. وهي أوضاع تشير إلى ما كانت تعانيه البلاد من تخلف في معظم شؤونها، والى العقلية التي كانت تعالج بها الأمور حتى بعد قيام اسرائيل بنظامها الحديث الذي يفترض أن يكون حافزا لكل عوامل النهضة واليقظة والشعور بالمسؤولية في سورية والبلاد العربية.

ففي الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1949 طفحت أعمدة الصحف السورية بأنباء الشكاوى والفضائح المتلاحقة التي تفضح صورة الأوضاع الداخلية الفاسدة قبيل انقلاب حسني الزعيم، فقد طرحت كارثة فلسطين، دفعة واحدة، جميع ما يعانيه الشعب من أزمات ومشكلات.. وهي كثيرة، منها: أزمة خبز الفقير، أزمة السكر، أزمة المحروقات، أزمة الغلاء، أزمة قانون الايجارات، أزمة خزينة الدولة، موجة الارهاب والسرقات وتسريح عدد من رجال الشرطة والحراس الليليين، فضائح الاختلاسات في وزارة المالية، فضيحة غش ملاجيء الدفاع السلبي، الفضائح بغش وسرقة تموين اللاجئين وابتلاع الأحذية المرسلة إليهم.. هذا بالاضافة إلى فضائح تموين الجيش، ومحاكمة فؤاد مردم بقضية باخرة السلاح السوري التي استولت عليها اسرائيل، **ومن سنن التاريخ أن تكشف الهزيمة جميع مخازي المجتمع ومفاسده الظاهرة والخفية،** وفيما يلي نماذج منها: تقدم نائب دمشق المليونير جورج صحناوي، في جلسة 1949/1/24 بالسؤال التالي :

"منذ سنة 1936 وقرية خبب تعاني وطأة إرهابية من قبل مدير ناحية اللجاة الجنوبي الشيخ طلال أبو سلمان، الذي لم يترك فرصة إلا احتل بها أراضي القرية وزرعها وتعدى على ماشيتها وحاصلاتها وفرض عليها الخوة، وسامها أنواع الخسف والذل. وقد سبق لهذا المجلس الكريم أن لفت أنظار الحكومة وطلب إليها ردع هذا الموظف في الدولة الذي يدوس القوانين التي

نصب حاميا لها. وقد وعدت الحكومة بإجراء المقتضى لوضع حد لهذه التصرفات الشاذة. أما الموظف المذكور فلم يزدد إلا طغيانا واعتداء. وها هو في المدة الأخيرة يضع يده على أكثر من عشرة آلاف دونم ويفرض ضريبة على أغنام القرية... لذلك فإنني أسأل الحكومة ماذا عملت لردع هذا الطاغية وحمله على احترام القانون وصيانة حقوق أهل خبب السوريين الذين يحق لهم في زمن الاستقلال أن يتمتعوا بحريتهم وصيانة أموالهم وأرواحهم، فإن نفوسهم زهقت وبلغت التراقي وأصبحوا يفضلون هجر قريتهم".

ثم قال هذا النائب أثناء المناقشة إن أهالي خبب هم من المسيحيين، لكنهم وإن كانوا فئة ضعيفة فهم أقوياء بالعدل والمساواة اللذين استنهما دستور البلاد، وهم أقوياء بمجلس نيابي حامي الدستور والحريات، وأن الشعب السوري يأبى أن تداس حقوق فئة من الرعية أو أن يضام أفرادها.

ثم تحدث الأمير عادل أرسلان فقال:

يؤلمني جدا، وأؤكد لكم بأنني شعرت بحرج عميق، أن رجلا كان يقاتلنا مدة ثلاث سنوات بسلاحه ورجاله (يقصد أن طلال أبا سلمان كان يقاتل مع الفرنسيين ضد ثورة 1925) أن يكون مثل هذا الرجل مديرا للناحية يسيطر على شعب آمن ويعتدي عليه، فهل يجوز لنا أن نبقي أمثال هؤلاء الخونة في وظائف الدولة؟""

وفي الجلسة ذاتها ذكر النائب كمال كنج[1] ما يلي :

لما كنت في العاشرة من عمري، عندما دخل الجيش الفرنسي قريتي مجدل شمس وانسحبت منها قوات المجاهدين إلى جبل الدروز، مررنا في طريقنا في درب مجاور لمضارب هذا الرجل (فهو بدوي من عرب اللجاة) فما كان منه إلا أن هاجمنا وقتل منا ثلاثين رجلا وأربع نساء وستة أطفال، وإن ما قاله الأمير أرسلان هو عين الحق والصواب.

فعقبت على ذلك قائلا:

"أذكر المجلس الكريم أننا أثرنا هذا البحث منذ أكثر من أربع سنوات، ويتذكر الأعضاء السابقون في هذا المجلس كيف أننا طلبنا من الحكومات وضع

(1) كان كمال الكبخ نائبا عن الجولان، وبعد الاحتلال الاسرائيلي تولى قيادة نضال بني معروف ضد الاحتلال الاسرائيلي.

حد لأعمال هذا الرجل. ولكن مع الأسف فإن اعتداءاته على هذه القرية الآمنة المطمئنة لم تنقطع. وقد قابلني في هذا اليوم وفد من أهالي خبب وقالوا لي بأنهم سيضطرون لمغادرة البلاد والهجرة منها إذا لم يوضع حد لأعمال هذا الرجل. فأنا أقول للحكومة الكريمة: هل يمكن أن ندفع الخطر الصهيوني عن البلاد العربية بهذه العقلية وهذا التفكير؟.. أنا لا أعتقد ذلك إطلاقا.. وكما قال الأمير عادل أرسلان وهو صادق في قوله: إن رجلا قد قاوم الثورة وقاوم المجاهدين يصبح في العهد الاستقلالي مديرا لناحية، ولا يكتفي بذلك بل يجرد رجاله ويغزو القرى الآمنة ويضع يده على أراضيها. فإنني أؤيد معالي الأمير وأقول بأنني أشعر بحقارة وضعه وبمنتهى الامتهان إذا استمرت أعمال هذا الرجل وإذا لم تضع الحكومة حدا لتصرفاته وتضربه بيد من حديد وتبسط حمايتها على هذه القرية المطمئنة وإنني أقول للزميل الصحناوي بأن هؤلاء ليسوا أقلية وليسوا فقراء ضعفاء **بل إنهم مواطنون، وليتأكدوا جيدا أن الشعب السوري لا يفرق إطلاقا ولا يشعر بأي تمييز طائفي وإنما يشعر برابطة وطنية وفكرة وطنية. وإذا لم تناصرهم الحكومة فالشعب السوري بكامله يناصرهم ويعطف عليهم ويؤيدهم".**

والواقع أن أهالي قرية خبب والفلاحين المسيحيين من أهالي قرى أخرى في حوران. كانوا يراجعوني باستمرار بشأن قضيتهم، ومنذ عام 1944 أثرت قضية طلال أبي سلمان في المجلس النيابي، واشتد خلافي بشأنها مع وزير الداخلية آنذاك لطفي الحفار، على أنه لم يؤازرني يومها أحد من النواب بينما ينهض لمؤازرتي في هذه الجلسة أرسلان والكنج وهما درزيان، ذلك أن الحكم الرجعي الفاسد إنما أراد من دعم طلال أبي سليمان في منطقة اللجاة المحاذية لجبل الدروز أن يجعل منه حربة في خاصرة الجبل، حسب توقعات العقلية العجيبة لذلك الحكم، كما كان هذا الأسلوب المنحرف يدفع إلى الفتنة دفعا ويثير النعرات الطائفية التي يجب استئصالها.

وقد ضج الشعب على اختلاف مذاهبه السياسية من قضية طلال أبي سليمان واستمرارها عدة سنوات إلى حد أن الصحافة الموالية لم تكن لتطيق السكوت حيالها.. وقد صور هذا الوضع

الأديب فريد الكيلاني في الزاوية التي كتبها بتاريخ 49/3/6 في جريدة النصر:

"لم أر في حياتي قضية واضحة غامضة، مهمة تافهة، معنى بها ومهملة، مثل قضية طلال أبي سليمان وحكايته في خبب.. فمنذ ما يقارب الأربع سنوات أثيرت هذه القضية وهوجمت مظالم هذا الذي سمي "طاغية" في مجلس النواب خلال جلسات عديدة متكررة.. ثم أغفل أمره أمدا.. ثم عاد المجلس أخيرا الى ذكر حكاية ابريق الزيت من جديد، أو حكاية العفريت الذي عجزت عنه العتاعيت. فمنذ افتتاح الدورة قبل الماضية حتى جلسة مساء أمس، والعفريت يعالج بأبلغ عنف يمكن أن يشن على طاغية والطاغية ما زال يرتع في الموقف المشبوه، بين بين، لأمدان فيؤخذ بأقسى ما تؤخذ الطواغيت، ولا بريء فتدافع عنه حكومته، حتى أصبحنا نعتقد بأن هذا الطلال أبو سليمان إنما هو حاكم بأمر الله، لا مدير ناحية منتوف يكفي أن يخرب بيته قرار وزاري بسيط.. إنه سر عويص عجيب، لا يقل غرابة عن سر السكوت الطويل جدا عن (الرب) سليمان المرشد في يوم من الأيام".

وعلى الرغم من ذلك بقي طلال أبو سليمان على رأس وظيفته حتى وضع المقدم مصطفى حمدون، عندما عين مديرا للعشائر في حوران، حدا لعدوانه مما اضطر السلطة لتسريحه والاستغناء عنه وعن "خدماته".

قصة أخرى تعطي الجيل العربي الجديد لمحة عن صورة التفسخ الاقطاعي وفساده في مجتمع تلك الفترة.. قرأت في صحف دمشق، صباح يوم 19 شباط 1949 النبأ التالي الذي لفت نظري لأنه وارد من مدينة حماه:

"استيقظت حماه اليوم على دوي القنابل ولعلعة الرصاص، وخف الناس يستطلعون جلية الحادث.. حسن بن سعيد العبدالله الكيلاني كان قد حكم عليه غيابيا لقتله أباه عن سابق تصور وتصميم. وقد بقي متواريا عن الأنظار مدة طويلة.. ومنذ ثلاثة ايام اختلف حسن المذكور مع خادمه علوان بن خضور المالح من أهالي قرية عقرب فأطلق عليه الرصاص وأصابه بجراح نقل على أثرها إلى المستشفى بحالة خطرة.. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم ذهبت قوة كبيرة من رجال الشرطة إلى الدار التي ينزل فيها حسن المذكور،

والكائنة في محلة (بين الحيرين)، وهي دار المومس التي يعاشرها، فطوقتها، وشعرت خليلة المجرم بالأمر فايقظته وحذرته، فاستعد لمواجهة الشرطة وحمل بيده ثلاث قنابل يدوية وتقلد بندقية، وبينما كانت الشرطة تنذره بالتسليم فتح باب الغرفة ثم ألقى قنبلة على رجال الشرطة فانفجرت وقتلت واحدا منهم وأصابت الآخرين بجراح خطيرة، فانهالوا عليه بالرصاص إلى أن أردوه قتيلا".

عندما قرأت هذا الخبر تذكرت قصة رواها لي عمي عندما كنت تلميذا صغيرا في المدرسة.

كان عمي في معرض روايته بعض حوادث التجبر والتكبر والكفر عند "الذوات" على حد تعبير ذلك الوقت.. فقال:

كان سعيد العبدالله الكيلاني وابن عمه قادمين من قريتهم الى حماه، ممتطين جوادين أصيلين، ومسلحين ببندقيتين جديدتين، فرأيا من بعيد على الطريق "متعيشا"* ورفيقا له، فألقم سعيد العبدالله بندقيته قائلا:

انظر كيف أجيد التصويب ، وأطلق الرصاص على المتعيش فأرداه قتيلا، فقال له ابن عمه، كيف تقتل الرجل؟ فألقم سعيد البندقية ثانية وصوبها على الآخر فأرداه قتيلا وقال:

لقد اردت أن أجرب البندقية.

كان عمي يقول لي أن الله يقتص من الآباء بالأبناء، وهكذا قتل سعيد العبدالله برصاص ابنه، وقتل ابنه برصاص الشرطة.

* المتعيش : هو رجل فقير يحمل من المدينة إلى الريف بعض البضائع ليبيعها متجولا بين القرى، حاملا بضائعه على ظهره، أو على دابته.

47

أوائل عام 1949: منذ بداية حياتي السياسية لم أفصل أبدا بين نضالي السياسي والوطني عن النضال الاجتماعي والاقتصادي والتخطيط التنموي، فجميع هذه القضايا شكلت عندي مشروعا شاملا متكاملا، لذلك استعرضت جميع هذه القضايا حسب تسلسلها الزمني في هذه المذكرات لأنها كانت بالنسبة لدي على درجة واحدة من الأهمية والاهتمام.

عودة إلى موضوع تحضير العشائر.

في مطلع شهر شباط أثير في مجلس النواب موضوع قانون العشائر، ودارت مناقشات طويلة بين النواب لفت انتباهي منها كلمة للنائب هايل سرور (وهو شيخ عشيرة) يدعى فيها بأن المجندين من أبناء البدو يهربون من الخدمة العسكرية. فرد عليه الدكتور عبد السلام العجيلي نائب الرقة قائلا:

"لقد رأيت بأم عيني عندما دعي أبناء العشائر نصف الحضر إلى خدمة العلم جاء جميع المكلفين منهم إلى مركز الرقة بعد أن ساروا مائة كيلومتر مشيا على الأقدام. ولكن عندما وصلوا رفض طلبهم فاضطروا العودة كما جاءوا على أقدامهم. ونحن مع الأسف نعلمهم الفوضى ونترك الحبل على الغارب، ومن علم الناس على ذمه ذموه سواء بالحق أو بالباطل".

والواقع أن طرح موضوع قانون العشائر، واتجاه النقاش حوله كان لتدعيم زعامة نواب العشائر، ولتبرير شرعية الرواتب التي تدفعها الدولة لشيوخ القبائل، كطريقة موروثة عن أيام الانتداب الفرنسي، ولم يكن الهدف تحضير هؤلاء المواطنين. لذلك قلت :

"إن مصلحة العشائر إما أن تكون مصلحة لتوطيد الأمن في البادية، وإما أن تكون علاوة على ذلك سعى لتحضير العشائر. ولكنها بوضعها الراهن لا تقوم إلا بمهمة تأمين الأمن. وإذا كان الأمر كذلك فما الضرورة لإنفاق مئات الآلاف من الليرات عليها؟ وهل نحن على جانب من الثراء والرخاء حتى

نستطيع معه أن نبدد الأموال تبديدا؟.. في عهد الفرنسيين كانت هذه المصلحة مصلحة عسكرية بحتة لتأمين الأمن.. ولو كان الأمر لي ولأعضاء هذا المجلس فلا شك أنهم يريدون من مصلحة العشائر أن تصبح مصلحة تسهل تحضير القبائل الرحل وبذلك تقوم بأخطر وأعظم مشروع".

والواقع أن مطالبتنا بتحضير العشائر كانت من جملة "القضايا المزمنة". التي دأبت على معالجتها منذ عام 1943، وقد طالبت بإلغاء القوانين الفرنسية الخاصة بالعشائر التي تكرس حالة البداوة، ودعوت إلى تحضير البدو وإخضاعهم للقوانين المدنية وتوزيع الأراضي عليهم، وقد تعرضت في سبيل ذلك من قبل شيوخ وروؤساء العشائر الاقطاعيين داخل البرلمان للاغتيال.

كانت قضية تحضير البدو إحدى بنود "حزب الشباب" كما كانت إحدى أهم الوسائل التي استغلتها الحكومات المتعاقبة والخصوم لمحاربتي باستمرار، ولكن اتساع ثورة الفلاحين فل هذا السلاح بيد الخصوم وجعله ينقلب نحوهم، لأن ثورة الفلاحين كانت أيضا ثورة أفراد العشائر على الشيوخ والاقطاع، وسترد خلال هذه المذكرات تفاصيل أخرى عن مواقفي تجاه هذا الموضوع، والمهم أن اسجل هنا خلال هذه التجربة الطويلة والمعاناة القاسية أن النظرة لهذه القضية قد زادتها الأيام يقينا ورسوخا.

إن للقبائل البدوية فضائل قد لا نجد بعضها في الحضر، فالبدوي يمتاز بالذكاء والاحساس المرهف والجمال والفصاحة والشجاعة، وليس إعجاب الانكليز بالبدو من قبيل الرومانتيكية كما يقول حسنين هيكل في إحدى مقالاته في الأهرام.

إن جيش الأردن بشهادة كارل فون هورن وجميع الخبراء العسكريين الذين عرفوا أوضاع المنطقة عن قرب، هو على صغره من أحسن الجيوش انضباطا وشجاعة وقدرة على صيانة الأسلحة واستيعابها، وهو الجيش العربي الوحيد الذي اعتمده الانكليز في المنطقة خلال الحرب العالمية الثانية، ولا أريد أن أطيل في هذا الموضوع، ولكنني ألفت النظر إلى أن الجيش الأردني يجب أن

يفتح أعين العرب على الاسلوب الصحيح للاستفادة من أبنائهم بدوا وحضرا بدلا من أن تكون هذه المناقب في خدمة أعدائهم.

إن القبائل البدوية التي خرجت من الجزيرة منذ ألف وأربعمائة عام حاملة رايات العدل والحرية والمساواة والتسامح والشورى مترفعة عن التمييز العنصري، كان انخراطها في جيش الفتح أول مراحل تحضيرها واستقرارها.

إزالة شيوع الأراضي وضرورة تحديدها.

في اليوم التالي ناقش المجلس النيابي موازنة مديرية المصالح العقارية وأملاك الدولة. وكان ثمة اتجاه قوى لتخفيض اعتمادات هذه المؤسسة الهامة فقلت:

"إنني من المصرين على إجراء التحسين العقاري وإنهاء عمليات التحديد والتحرير بشكل واسع. تعلمون أيها السادة أن الغرس في هذه البلاد هو قضية هامة وجوهرية في حياتنا الزراعية ولا يمكن أن يعمم الغرس وينتشر إلا بعد أن يجري الفرز والتجميل: ولطالما رأيت كثيرا من القرى المشاع، ولطالما سمعنا بمشاكل عديدة وجرائم كثيرة تقع بين الفلاحين، ورأينا القرويين ينتظرون بفارغ الصبر إجراء التحسين العقاري لإزالة الشيوع. ليمكنهم الاعتناء بأراضيهم وليمكنهم أن يعملوا الغرس فيها. فأنا أعتقد أننا إذا صرفنا بسخاء على قضية الإفراز والتجميل والتحديد العقاري فإن ذلك وسيلة لتسهيل التحسينات الزراعية الكبرى في المستقبل وإقامة مشاريع الري والمشاريع المنتجة الأخرى.. وإنني أعجب من الحكومة إذ تنقص اعتمادات هذه المصلحة دون مبرر بينما تنفق بسخاء على النواحي الأخرى غير المنتجة".

إن الفلاح الذي لا تحدد أرضه يهملها ولا يعتني بها لا فلاحة ولا تسميدا، لأنها لا تبقى في يده إلا موسما واحدا ثم تتناوبها أيدي الفلاحين الآخرين عاما بعد عام. ولذلك لا يتمكن من تشجيرها وحفر الآبار الارتوازية أو إجراء أي تحسين فيها.. ومن المؤسف أن يكون هناك إهمال ملاحظ لبقاء شيوع ملكية الفلاحين للأرض في بلادنا حتى الآن.. رغم ما بذلنا من ملاحقة وجهود مستمرة في هذا السبيل.

لقد كنت أثناء تجوالي في القرى السورية ألاحظ فارقا كبيرا في مستوى الاستثمار الزراعي بين القرى المجملة- أي التي أزيل فيها الشيوع- والقرى التي لا تزال على الشيوع، ولا شك أن كل من يهتم بمشاكل الزراعة والريف السوري قد لاحظ الزيادة الكبيرة في انتاج القرى التي طالها التجميل حيث يصبح الحافز الشخصي عند الفلاح عاملا مهما في هذه الزيادة.

حول مسألة الغرس والتشجير.

يقول المثل: "على الانسان أن يعيش قبل أن يتفلسف" والحقيقة أن البناء المادي للمجتمع هو نقطة الانطلاق لبلوغ المطامح الكبرى القومية والانسانية، ومن التجارب الصغرى تتكون التجربة الكبرى.

إن التأملات الذهنية المجردة، غير المرتبطة بممارسة عملية واقعية مباشرة، تنهار عند أول تجربة، تصطدم بالواقع فيعم الضياع واليأس والانهزام. إن الطموح الذي لا توجهه المعرفة ولا يتسم بالواقعية يؤدي إلى كارثة انهيار الشعارات والنظريات فتظهر وكأنها ذلك السراب في الصحراء.

وهكذا يجب علينا أن نبدأ، كنت في تلك الفترة، ولا زلت حتى اليوم، أعير برامج التنمية الاهتمام الأول وخصوصا التنمية الزراعية لأن الري والغرس والتشجير هو ألف باء التحضر والتمدن.

لقد لفت نظري ذات مرة تصريح قرأته في الصحف لأحد محافظي منطقة حوران من أنه شرع في غرس الزيتون على نطاق واسع في محافظته، فقلت لمحسن البرازي وكان وزيرا للداخلية ومعروفا بصداقته لهذا المحافظ، انني صرت اتفق معك في مودتك لهذا المحافظة، فسألني: ما الخبر؟

أجبته: انه بدأ يشجع عمليات الغرس في محافظة حوران.

فقال: إنه كذاب.

قلت : فليكن، أليس في كذبه لفت نظر إلى حقيقة كبرى وهي أن الغرس والتشجير هو البداية في بناء بلدنا؟

إنني أدون هذه الصفحات من المذكرات أواخر عام 1971، أي أن هذا الحوار جرى مع الدكتور محسن البرازي قبل حوالي 23 عاما، وقبل أن تبني اسرائيل اقتصادها الزراعي على أسس الري والغرس والتشجير حتى أصبحت مناطق من صحراء النقب خضراء ولم يبق من آثار عروبتها سوى قبائل بدوية أرجو ألا تكون في طريقها إلى الانقراض.

لقد كان شغفي بقضايا الغرس والتشجير وحماية الأحراج أحد الأسباب التي جعلتني أقبل بوزارة الزراعة بعد انقلاب سامي الحناوي، فقد كنت لا أترك مناسبة خاصة أو عامة إلا وأبشر بهذا الموضوع وأدعو إليه لما له من تأثير على معدل الأمطار في بلادنا التي تعتمد اعتمادا كبيرا على الزراعة البعلية، لقد أصبح أمامنا مثل يدعو إلى التحدي والعمل هو اهتمام الاسرائيليين بمحاولة التشجير حتى في منطقة النقب رغم الظروف الصعبة وكان أول عمل قاموا به بعد حرب 1948 للتعبير عن مدى امتنانهم لمساعدة الرئيس الاميركي ترومان أن غرسوا باسمه غابة في فلسطين، وبعد الحرب العالمية الثانية كان أول مشروع انمائي ضخم قام به المستشار ادیناور هو إعادة تحريج ألمانيا بالغابات التي دمرتها الحرب..

كان مشروع موازنة وزارة الزراعة الذي قدمته الحكومة في هذا الشهر يتضمن تحريج جبل قاسيون، وهو اقتراح غير عملي لأن هذا الجبل يتألف من صخور صماء ويجب غمره بطبقة ترابية كثيفة ليصبح صالحا للتشجير، وهي عملية مكلفة، وفي الوقت نفسه كانت عملية البناء في دمشق تتوسع على حساب أشجار الغوطة وبساتينها، كما تهمل المناطق التي تساعد تربتها ومعدلات الامطار فيها على الغرس والتحريج.. وكان في جملة المساعدات الرمزية التي قدمتها الولايات المتحدة كمخدر لآلام الكارثة بعض الأموال التي خصصت لتشغيل اللاجئين الفلسطينين بأعمال التحريج، ولكن هذا المشروع الذي سمي مشروع "كلاب"

كان مشروعا غير جدي، كما كان موضوعا لتندر المواطنين بسبب اسم الخبير الزراعي الأميركي، لذلك اقترحت في تلك الجلسة أن تصبح مراكز مشاريع الري بين حمص وحماه وفي غيرها من المناطق السورية مشاتل زراعية، بدلا من أن تنحصر مهامها بقضايا توزيع الماء فقط.

إقطاعية جديدة لاستثمار أملاك الدولة.

كما قلت خلال مناقشة المواضيع ذاتها:

"أما موضوع أملاك الدولة فإن مشكلة الأرض مشكلة أساسية في حياتنا الاقتصادية والزراعية . وقد كنت أتوهم فيما مضى أن عهد الاقطاع سيزول بالتدريج من هذه البلاد، ولكن مع الأسف تحقق لدي أن الاقطاعية تأخذ شكلا جديدا وتتسع بشكل غير معقول، فإذا كانت البلاد في العهد العثماني وفي عهد الانتداب يستثمر بعض أشخاص منها سلطة الدولة لامتلاك الأراضي الواسعة بينما هناك ألوف الفلاحين بلا أرض وبلا عمل، فإننا نجد الأمر الآن قد اتخذ شكلا جديدا إذ نسمع بتأليف شركات رأسمالية تقتطع أراض واسعة جدا بينما عشرات الألوف بل مئات الألوف يحرمون من الأراضي ومن مساعدة الحكومة إياهم لاستثمارها.. إن استثمار السلطة واستثمار الدولة قد اتخذ شكلا مخيفا أكثر مما كان في عهد الانتداب أو عهد العثمانيين..

يتساءلون عن الوضع الاشتراكي ويقولون: ماذا يريد من ينادي بالاشتراكية في هذه البلاد؟ إننا لا نعني لا اشتراكية ستالين ولا اشتراكية هتلر، وإنما نعني بعض الذوق وبعض العدالة في هذه البلاد. نعني أن لا يحرم الفلاح من الأرض، وما دام هناك أراض واسعة متروكة بورا لا يستثمرها أحد فاننا نعني أن يتحقق للعنصر العامل في هذه البلاد حياة انسانية لائقة، وأن تتدخل الدولة مباشرة في هذا الموضوع وتضع حدا لاستثمار مفجع سيء للمتنفذين إن معضلة أملاك الدولة أساسية، والتشريع القائم تشريع غير عادل، فيجب على الدولة انشاء تشريع جديد لأملاك الدولة، فالتشريع الحالي سيء ويجب وضع حد له، ولا يجوز. أن تبقى قضايا الفلاحين الذين أعطوا أراض من أملاك الدولة معلقة.. لأن تعليق هذه القضايا

يجعل من الفلاح عنصرا مترددا ويجب أن نعالج هذا الموضوع من وجهة نظر غير وجهة النظر الحالية.. نحن نريد أن نشجع الفلاح وأن ندفعه لتحسين أرضه واستثمارها وما دام الفلاح غير مطمئن لامتلاك الأرض فكيف نطلب منه سعيا لزيادة الانتاج؟

لذلك أرى أن تحل هذه المشكلة حلا عادلا وأن تسجل هذه الأراضي على أسماء الفلاحين بسعر مناسب، لأنه لا يجوز أن تترك هذه القضية دون حل حتى الآن".

□

من الجدير بالذكر أن دعوتنا لتحرير الفلاحين حتى هذه الفترة قد مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى: الدعوة لأن يمتلك الفلاح حقوقه المدنية والسياسية ويعامل بالتساوي مع بقية المواطنين، ولذلك وجب إلغاء الأتاوات والسخرة والطرد من القرية وعدم تعدي الحصة المعروفة من الانتاج، وأن يتقيد المالكون بحصص الانتاج المعروفة في أراضي السقي وأن يسمحوا بفتح مدارس القرى لأن الاقطاعيين كانوا يمنعون ذلك.

المرحلة الثانية: الدعوة لتوزيع أراضي أملاك الدولة على الفلاحين، وقد شرعت فعلا عندما اصبحت وزيرا للزراعة والدعاية والأنباء عام 1949 بتوزيع أراضي أملاك الدولة في قرية دير شميل (قضاء مصياف) على الفلاحين واعطائهم حق بناء مساكن لهم في تلك الأراضي.

أما المرحلة الثالثة فقد تحققت عام 1957 بإصدار المجلس النيابي السوري بناء على اقتراحنا قانونا بمادة واحدة يمنع تهجير الفلاحين من بيوتهم وقراهم، ثم بإصدار قانون الاصلاح الزراعي وحماية الفلاح أوخر عام 1958 وهو القانون الذي وضعه وأقره المجلس التنفيذي السوري برئاستي وتم تصديقه من قبل جمال عبد الناصر.

□

منع اساتذة الجامعة من العمل السياسي.

في تلك الفترة، ومشاغل الشعب ومشاكله هي على ما صورناه، يلقي نائب حلب المعارض الدكتور ناظم القدسي خطابا في المجلس النيابي، يوم 13 شباط 1949 يقول فيه ما يلي:

"ايها السادة، إذا قلت لكم إن مجلس النواب البريطاني لا يفتتح جلساته إلا بصلاة يتلوها أحد القسس البروتستانت وتسجل في ضبط الجلسة، وأن مجلس النواب الأميركي لا يفتتح جلساته إلا بدعاء يسجل في ضبط الجلسة، تبين لكم أهمية الدين لدى الدول الراقية. فنحن لا نقول بتعليم الناس دينا واحدا وإنما نقول بأنه يجب أن يكون لدى الطلاب معنويات وروح كي يتمكنوا من شق طريقهم بصورة مستقيمة في هذه الحياة المادية، لا أن يسيروا في طريق مادي بحت.

وفي تلك الجلسة التي طرح فيها موضوع التعليم الديني ناقش بعض النواب قرار وزارة المعارف بمنع أساتذة الجامعة من ممارسة العمل السياسي!

□

أثناء تدويني هذه المذكرات وخلال استعراضي لوقائع ما بعد هزيمة عام 1948 وجدت نفسي أردد هذا القول:

ما أشبه الليلة بالبارحة.. لقد انطلق بعد هزيمة 1948 وبعد هزيمة حزيران إعلامان قد يبدوان في الظاهر بمظهرين متناقضين ولكنهما ملتقيان في القصد والهدف الذي فعل فعله في تضليل الرأي العام وصرف نظره عن الأسباب الحقيقية للهزائم العربية وعن المسؤولين عنها، فاتجه أحد هذين الاعلامين اتجاها دينيا فادعى بأن الرد على الهزيمة لا يكون إلا بالرجوع إلى الدين، وكأن شعبنا المتدين قد تخلى عن دينه فتسبب ذلك بجميع الهزائم العربية، وكأن الدين الاسلامي دين عبادة فحسب، وليس دين جهاد وتضحية وفداء بالمال والأنفس (جهاد يوم خير من عبادة ألف عام).

أما الاتجاه الاعلامي الثاني الذي شاع بعد هزيمة الخامس من حزيران بصورة خاصة فقد حمل لواء الماركسية واليسار الجديد فاتهم الاسلام واللغة العربية والتراث بأنه المسؤول عن هزائم العرب لا قيام النظم الديكتاتورية العسكرية والطائفية والقبلية وغياب الديمقراطية في العالم العربي سواء بالنسبة للنظم التي ترفع الشعارات التقدمية أو النظم التي ترفع الشعارات الاسلامية.

والغريب في الأمر والذي يبقى بدون تفسير أن يرى هؤلاء الماركسيون كل يوم كيف أن اسرائيل بنت دولتها وظفرت في حروبها مع العرب انطلاقا من بعث حماسها الروحي ولغتها وتقاليدها المنقرضة لتقيم دولة من اكثر الدول حداثة بينما لا دأب لهؤلاء إلا أن يبرهنوا أن علة تخلف العرب هي في دينهم ولغتهم وأخلاقهم وقوميتهم.

ويحضرني بهذه المناسبة أن صحافيا سأل بن غوريون رئيس وزراء اسرائيل إن كان مؤمنا فأجابه بالنفي، فقال له الصحافي إذن ما هو سر تحالفك مع اليمين الديني؟ فأجابه بن غوريون :

إذا افتقدنا الدين فماذا يبقى من اسرائيل؟

كتب مجانية للطلاب الفلسطينيين .

في جلسة 5 آذار قلت :

"هناك برقية أرسلها الطلاب الفلسطينيون الى رئاسة المجلس يطلبون فيها إعفاءهم من دفع أثمان الكتب المدرسية، فأنا ألفت نظر الحكومة وأقول لها بصراحة: لو أن هؤلاء الطلاب كانوا من غير العرب وهاجروا إلينا لكان علينا أن نعينهم وأن نقدم لهم الكتب المدرسية مجانا على تقدير أقل".

سوريا وطن كل عربي.

وفي جلسة 15 آذار قلت :

"بلغني اليوم أن فريقا من الطلاب العراقيين قد أنذروا بمغادرة البلاد في غضون 24 ساعة، وقد عجبت جدا لهذا الخبر، وكدت أن لا أصدقه، إذ لا يجوز أن يجبر الطلاب الجامعيون على مغادرة البلاد، وأقول سلفا ومهما كانت الأسباب إنني لا أجيز مثل هذا التصرف. وقد سألت معالي وزير الداخلية

والمعارف[1] عن أسباب هذا التدبير الجائر والمتعسف فقال إنه لم يطلع عليه. ولذلك كان استغرابي أشد ودهشتي أعظم لأنه لا يجوز أن يلجأ الى مثل هذا التدبير دون أخذ رأي الوزير المختص، وإني ألفت نظر معاليه إلى هذا الأمر للرجوع عن انذار الطلاب بمغادرة البلاد مهما كانت الظروف ومهما كانت الأسباب والدواعي".

كما طلبت في هذه الجلسة تخصيص جلسة خاصة لبحث موضوع بناء مرفأ اللاذقية بعد ورود برقيات عديدة يحتج فيها مرسلوها على تأخير تنفيذ هذا المشروع:

"إن هذا الموضوع هام جدا، وقد وضعت مخصصات له في الموازنات منذ عام 1943، إذ كان يوضع في كل عام مبلغ لتنفيذ هذا المشروع. ولكن الحكومة عندما تسأل عما تم بالأمر كانت تجيب أن قضية المرفأ قيد البحث والدرس، وعلى ما يظهر أنه لم يكن هناك لا بحث ولا درس، لذلك أرجو تخصيص جلسة لبحث هذا الموضوع لنخرج بنتيجة عملية مثمرة".

(1) كان الدكتور محسن البرازي وزير المعارف قد كلف بمهام وزارة الداخلية أيضا منذ يوم 1949/3/13.

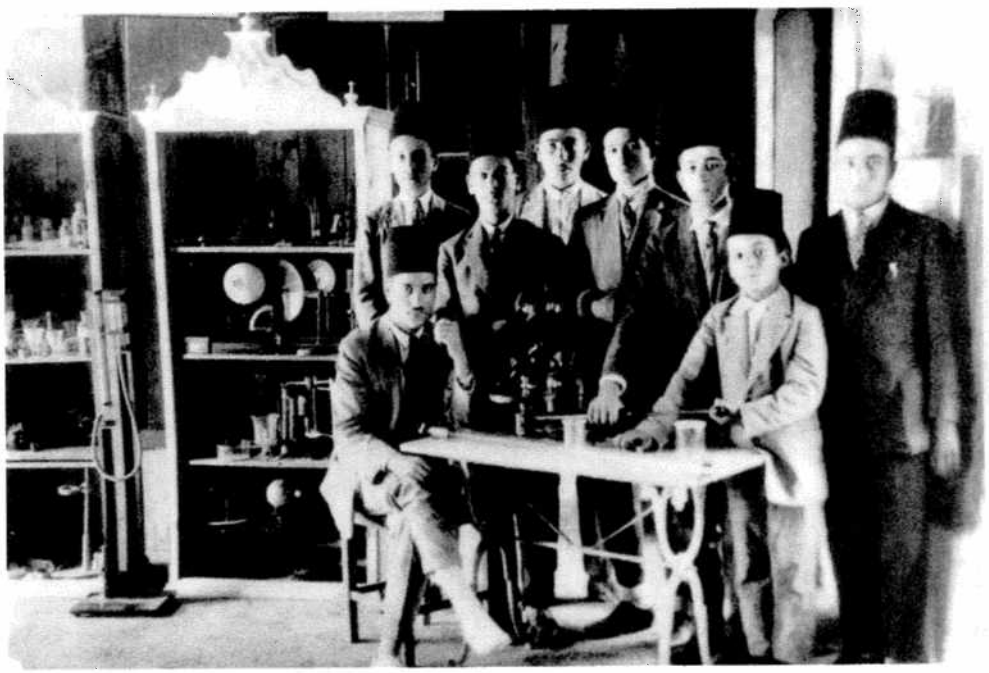

أكرم الحوراني في مختبر مدرسة دار العلم والتربية
(الثالث من اليمين ، واضعًا يده على الطاولة)

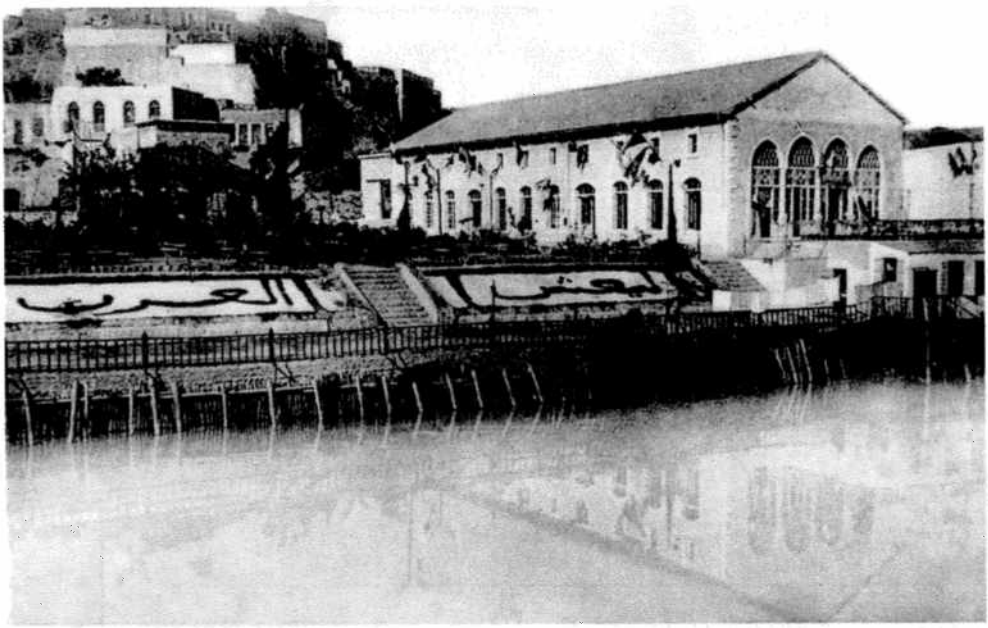

مقهى الصالون الذي حوله الفرنسيون إلي قاعة محكمة لمحاكمة قادة ثوار ١٩٢٥ .

الشيخ حسن رزق

من أوائل المصلحين الدينيين في حماه ، أصدر عام ١٩٠٨ جريدة « الإنسانية » وتعتبر جريدة تقدمية بمقاييس العصر ، في المذكرات فصل كتبه الشيخ حسن رزق

صورة لبعض رجالات حماه المثقفين يتوسطهم شهيد الثورة السورية عام ١٩٢٥ الدكتور صالح قنباز

الصف الأول من اليسار : الطبيب محمود الحاج خضر - الطبيب توفيق الشيشكلي - الطبيب محمد البارودي ثم الطبيب الشهيد صالح قنباز ، ..... ، .....،

الصف الثاني من اليمين إلى اليسار : عمر الترماندي - شقيق الدكتور صالح ، ..... ، ..... ، أحمد الأوبري مدير دار العلم والتربية - الصيدلي عبد الحميد قنباز ، أحمد الوتار

المرحوم علي الأرمنازي من مدينة حماه
أحد الشهداء ، الذين أعدمهم جمال السفاح في ٦ أيار ١٩١٤ كان صديقًا لوالد أكرم الحوراني

والد أكرم الحوراني

طلاب مدرسة دار العلم والتربية التي تحدث عنها باسهاب أكرم الموراني في المذكرات التي أسسها الملك فيصل الأول

من اليسار الأساتذة : كاظم الجزار ، الشيخ محمود العثمان ، الدكتور صالح قنباز ، الأستاذ عثمان الموراني ، الأستاذ عادل العلواني - والبناء هو قصر العظم الأثري

مظاهرة احتجاجًا على تزييف الانتخابات ١٩٣١ وتشييع أحد القتلى

إحدى مظاهرات حماه عام ١٩٣١ احتجاجًا علي تزوير الانتخابات من قبل الفرنسيين وعملائهم وقد كسرت صناديق الانتخاب من قبل الشعب مما اضطر المسئولين إلي إعادتها

الشيخ عبد الرحمن خلَيِّل : أحد أصدقاء أكرم الحوراني من المشجعين على إنشاء حزب الشباب ، والمساهمين بالحركة الشعبية في مدينة حماه ، مثقف كبير احترق في حقوله خلال قصف حماه عام ١٩٦٢ (وهو ضرير مناضل)

القمصان الحديديةبمدينة حماه في زيارتها لكنيسة حماه تعبيرًا عن التضامن الإسلامي المسيحي
في الوسط من اليمين ، المطران أغناطيوس حريكة ، نجيب أغا البرازي ، عبد الحسيب الشيخ
سعيد ، سعيد الترمانيني في الصف الثاني من اليمين الصيدلي عبد الحميد قنباز -
الأستاذ أحمد الوتار

الدكتور توفيق الشيشكلي
أحد أهم مؤسسي النهضة الحديثة في حماه

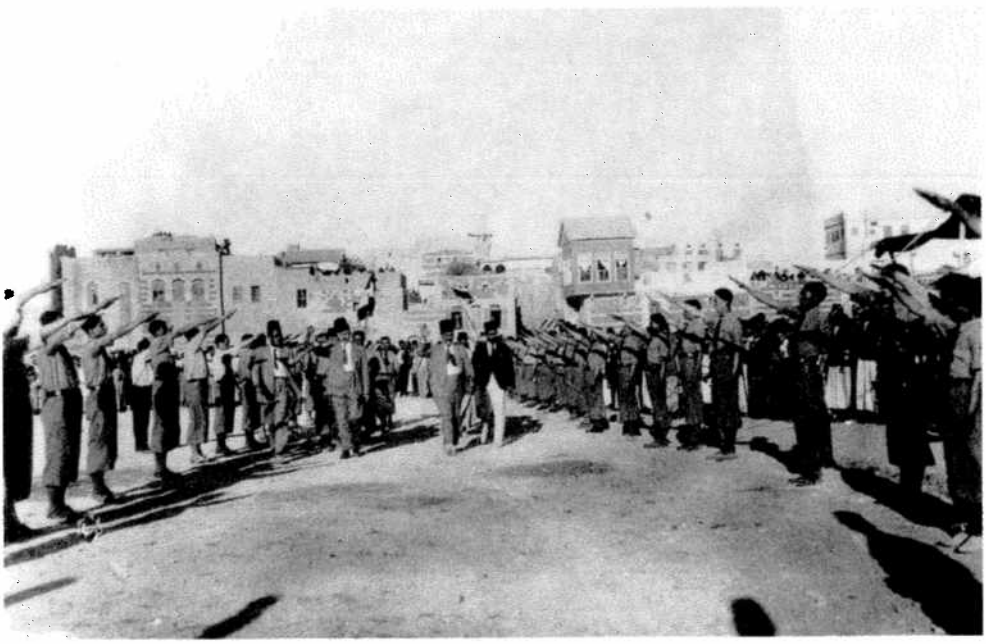

القصمان الحديدية يبدو في الوسط الدكتور توفيق الشيشكلي ونجيب آغا البرازي

الثائر عبد القادر مليشو

بعض قادة ثورة ١٩٢٥وقد استشهدوا جميعًا

ولأحدهم (رزوق نصر) حادثة موجودة في المذكرات عن اغتيال أحد القائمين على تعذيب الثوار

الدكتور توفيق الشيشكلى من زعماء الكتلة (الجناح الشعبى) لأن الكتلة كان لها جناحه فى حماه وكان لها طرفها الآخرالذي يتزعمه الإقطاعيون ..

نائب في المجلس النيابي السوري ١٩٣٢ بيته كان يدعوه الشعبيون فى حماه (بيت الأمة)

تشكيلات الشباب التي ألفتها الكتلة الوطنية ما بين أعوام ١٩٣٦ -١٩٣٩
يلاحظ فيها التأثير النازي والفاشي
الاسم : القمصان الحديدية
التحية : نازية أو فاشية

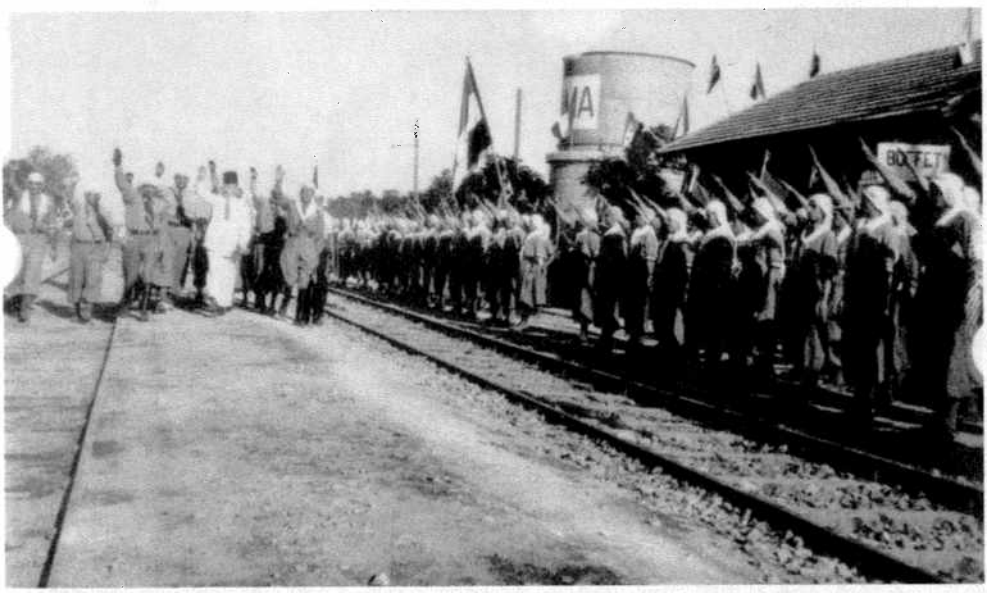

القمصان الحديدية في محطة القطار في مدينة حماه تستقبل عام ١٩٣٦ الوفد العائد من باريس بعد الاتفاق علي المعاهدة- وقد بدا في الوسط سعيد الترمانيني رئيس القمصان الحديدية ١٩٣٦

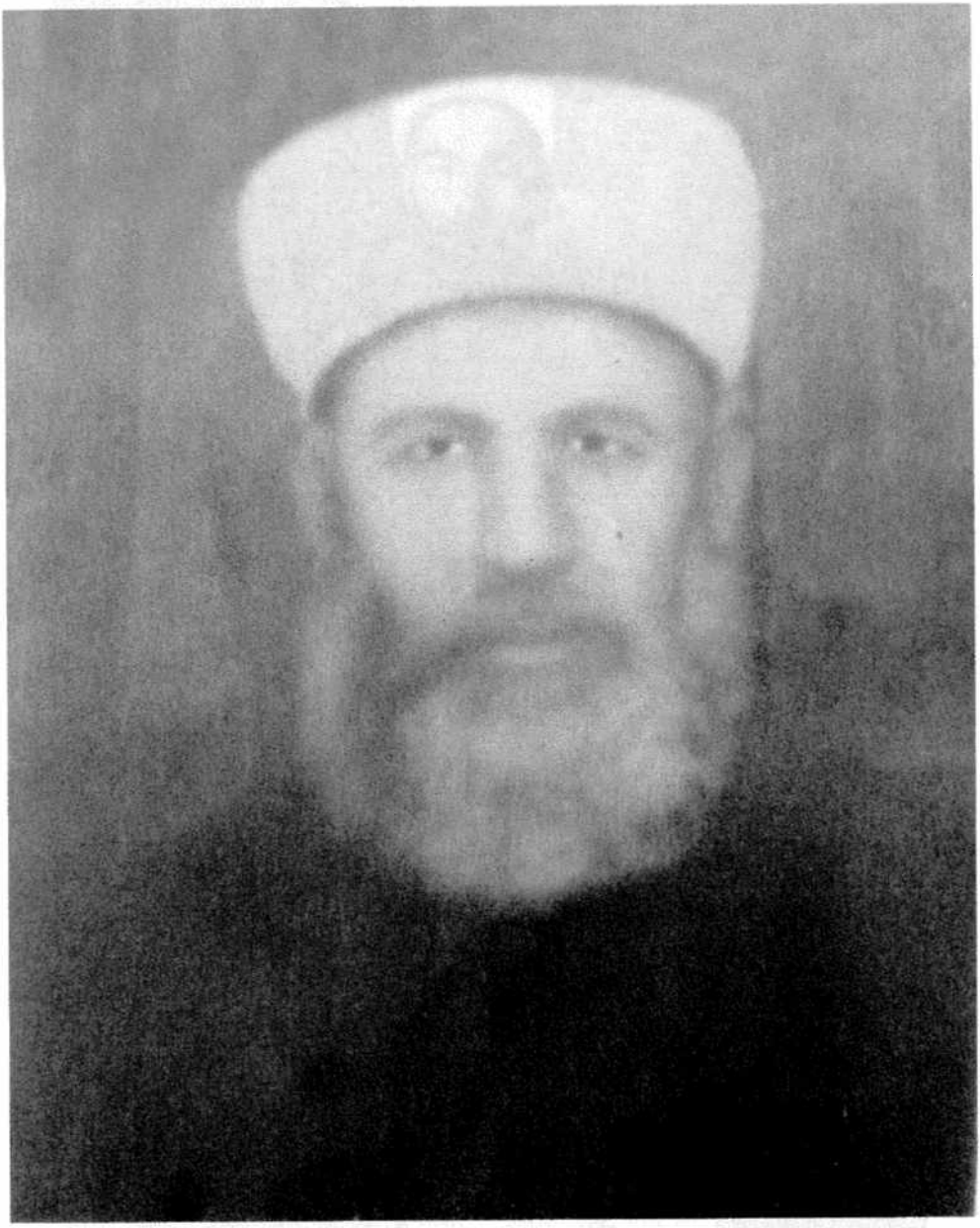

الشيخ عبد القادر عدي

من شيوخ النهضة الدينية فى حماه التي حاربت البدع الدينية والتطرف ، والد أحد أعضاء حزب الشباب والعربي الاشتراكي فيما بعد ، الأستاذ / علي عدي

الشيخ الصابونى من رواد النهضة الدينية في حماه روائي الفن
وله كتاب تاريخ حماه

تشكيل حزب الشباب ١٩٣٩ أول انشقاق عن الكتلة الوطنية في مدينة حماه ويبدو في الوسط الدكتور محمد السراج وحوله المنشقون عن زعامة الكتلة بطرفها الشعبي ٠توفيق الشيشكلي) وطرفها الآخر الممثل بنجيب البرازي الاقطاعي

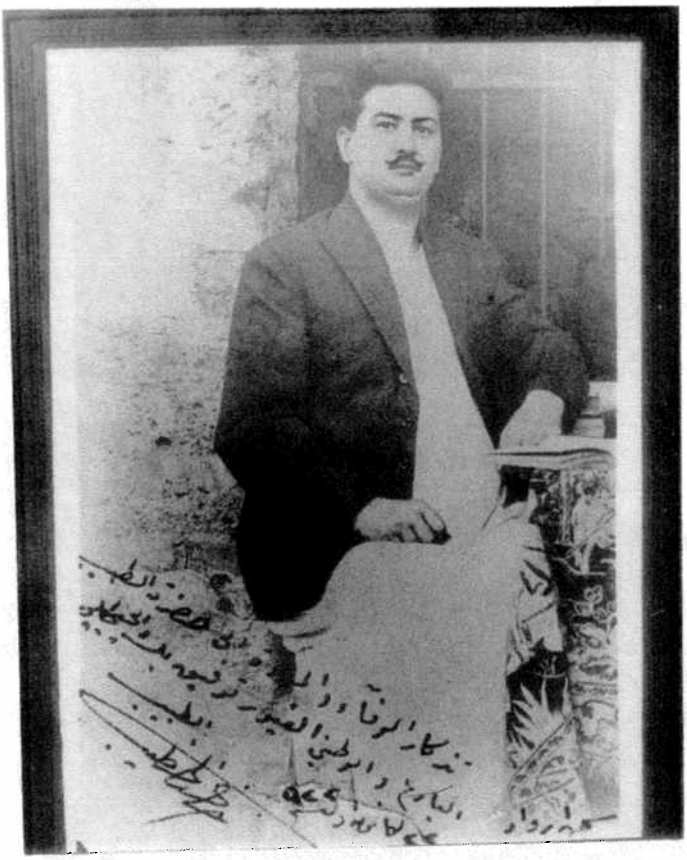

الدكتورالطبيب خالد بن محمد الخطيب

ولد عام ١٨٩٨ في حماه وتعلم فيها ثم التحق في كلية الطب بدمشق وتخرج منها عام ١٩٢١ . ذكي لامع وشاعر وأديب وله ديان شعر مطبوع ، خطيب مفوه يؤثر في الجماهير وقاد أول مظاهرات وقعت في دمشق بعد الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٢ وسجنه الفرنسيون بسبب ذلك في جزيرة أرواد مع عدد كبير من زعماء الوطنيين ، وقد كان من العاملين فى ثورة حماه عام ١٩٢٥ثم التحق بثورة جبل الدروز والغوطة وبقى يعمل طبيبًا وثائرًا كل مدة الثورة وسكن بعدها في عمان « الأردن » وتوفي فيها عام ١٩٣٣ ودفن في دمشق .

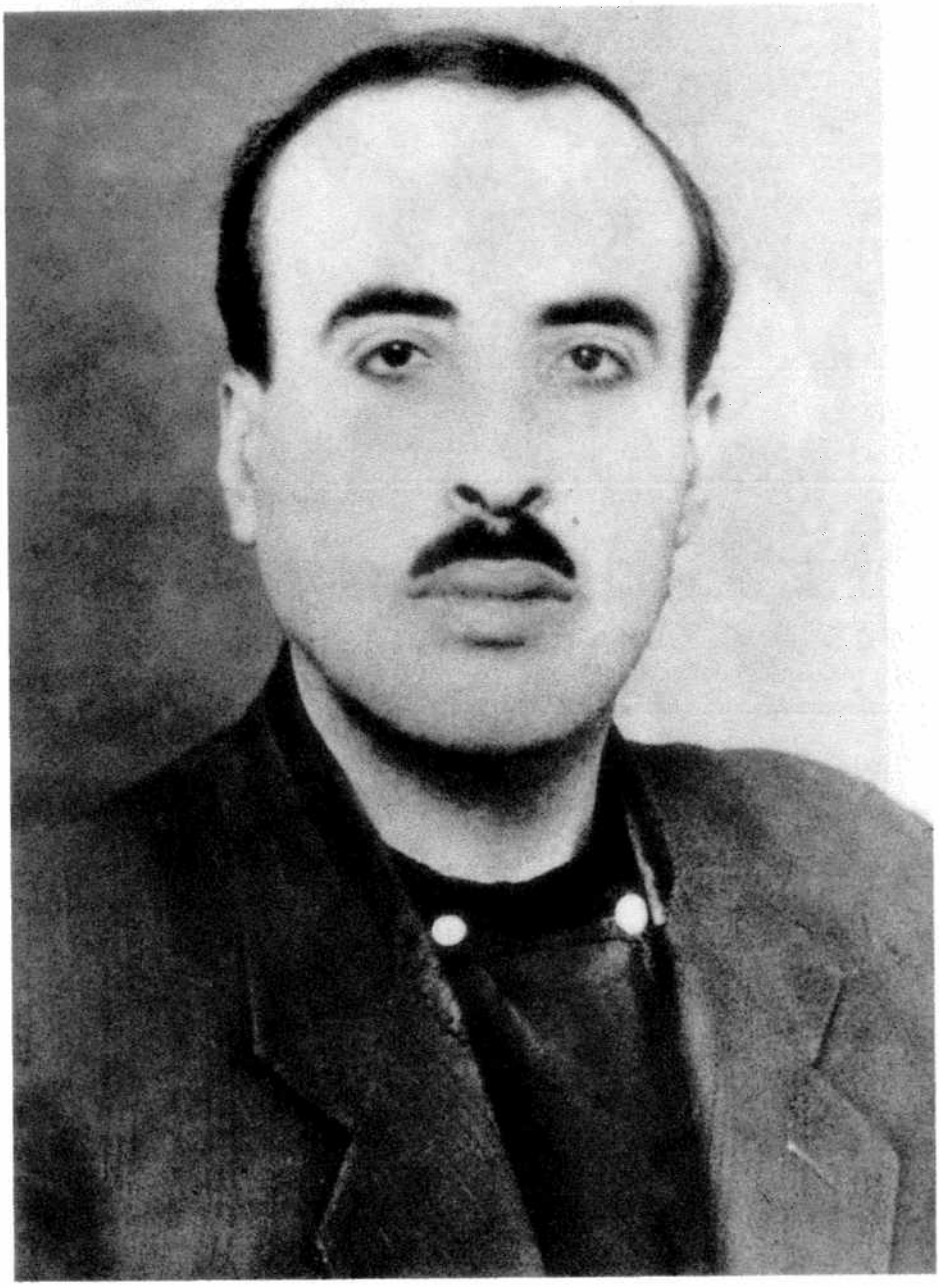

عبد الرحمن الشارع أبو رميح

أحد القيادات الشعبية التى ساهمت في حزب الشباب

في الجليـل

ويبدو في الرسم عبد اللطيف سالمه من أكثر المناضلين الشعبيين صلابة

اشترك في ثورة ١٩٤٥ ضد الفرنسيين ، والرفيق أنور بوشي

بعض الذين شاركوا في ثورة حماه ١٩٤٥بينهم عبد اللطيف سالمة الذي حارب في فلسطين عام ١٩٣٦
ثم عاد إليها عام ١٩٤٧ فدائيًا

في معسكرات قطنا ١٩٤٧

بعض أفراد القافلة الأولى المعروفة بفرقة بدر وقد غادروا حماه
يوم الخميس ١٤ / ١٢ / ١٩٤٧

١٩٤٧ في معسكرات قطنا مع مجموعة من المتطوعين الحمويين

مجموعة من مناضلي حماة في الجليل عام ١٩٤٧

أكرم في المقدمة والمجاهدون يتوجهون من معسكر قطنا

الحوراني في معسكرات قطنا مع رفاقه الثوار

بعض المقاتلين من حماه الذين ذهبوا مع أكرم الحوراني إلى فلسطين من أسمائهم :
محمد النداف ، جواد العيّان ، حمود الصمصام ، سعيد عمرين ، عبد الرحمن العوير ،
محمد العلواني صالح أحمد ، الحاج صالح ، حسين أبو عمشة ،
ضاهر الحسين (حمص) وخالد سراقبي

طالب الحقوق محمد علوش ، رئيس تحرير جريدة اليقظة خلال غياب أكرم الحوراني في فلسطين وقد اغتاله أحد المنتسبين إلى الحزب التعاوني الاشتراكي (حزب فيصل العسلي) وهذا الحزب كان مشجعًا من قبل رئيس الجمهورية شكري القوتلي والصورة مع المؤلف في فلسطين

محمد علوش رئيس تحرير جريدة اليقظة الذي اغتالته يد الغدر

من اليمين : فهد عواد – شفيق محمد علوش – محمد علوش – نعمت الشيخ خالد

مجموعة من المجاهدين في القديرية وقد ظهر بينهم الأديب الدكتور عبد السلام العجيلي

في الجليل ويبدو في الرسم

محمد علوش رئيس تحرير اليقظة خلال غياب الحوراني ، وقد اغتيل تهديداً لأكرم الحوراني ، اغتاله فايز . عربي قاتبي من جماعة فيصل العسلي (اغتيل في دمشق)

الواقفون من اليمين : الدكتور وهيب الغانم زائرًا ، أكر الحوراني ، صلاح الشيشكلي ، فهد عواد مقاتل شعبي من حماه

بعض المقاتلين في الجليل من فرقة بدر

في الجليـل

من اليمين : أكرم الحراني ، صلاح الشيشكلي ، عبد الكريم الفرا ، كمال الحباك

/ مجاهدون بينهم الضابط مصطفى حمدون
والحافظ مراد آنى أحد القيادات الشعبية الهامة في حماه

أكرم حوراني في معسكرات قطنا

أثناء الاتجاه إلى فلسطين ١٩٤٧ أكرم في المقدمة مع فرقة بدر

المصفحة الإسرائيلية التي غنمها المجاهدون

الحاج حفني وعبد الكريم الرمضون وصلاح الشيشكلي
والجالس : وهيب الغانم

في الجليل

من اليمين أكرم الحوراني ، ثم صلاح الشيشكلي ، ثم عبد الكريم الفرا ، ثم كمال الحبال

مناضلون في الجليل وقد ظهر بينهم رفيق وصديق أكرم الحوراني وحارسه الشخصي فيما بعد محيي الدين البرازي

بعض المقاتلين في الجليل من فرقة بدر

١٩٤٨ في الجليل

الجالسون من اليمين الدكتور شوقي الأتاسي ، الدكتور عبد السلام العجيلي ، الدكتور فيصل الركبي ، وهو من القيادات الهامة في سورية والذي مضى حتى الآن ملتزمًا باتجاهه القومي والديموقراطي والاشتراكي

من اليمين الدكتور فيصل الركبي ، صلاح الشيشكلي ، أكرم الحوراني ، الملازم حسين عبداللطيف ، الملازم جادو عز الدين - (بعد معركة كعب النبي يوشع) ١٩٤٨
أكرم الحوراني في الوسط

على مدخل كمب النبي يوشع
في الوسط صلاح الشيشكلي - أكرم حوراني

الروائي عبد السلام العجيلي في الوسط